الدكتور فاضل صالح السامرائي

على طريق التفسير البياني



الجزء الأول

دار ابن كثير

على طريق

التفسير البياني

الجزء الأول

- الموضوع: تفسير
- العنوان: على طريق التفسير البياني ١\٤١
- تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

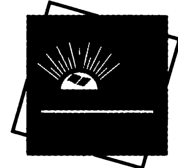
الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6



- الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
- الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
- القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

عَلَى طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

تأليف

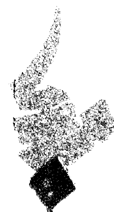
الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجُزْءُ الأَوَّلُ

دار ابن كثير



بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان البيان ، والصَّلاة والسَّلام على إمام الفصحاء وسيد البلغاء سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن سلك سبيله إلى يوم الدِّين .

وبعد .

فهذا كتاب في سلسلة كتب التعبير القرآني التي كتبتها ، آثرت أن أسميه (على طريق التفسير البياني) ولم أشأ أن أسميه (التفسير البياني) لأنه في الحقيقة ليس تفسيرًا بيانيًّا للقرآن الكريم ، وإنما هو قد يكون خطوة أو خطى على طريق التفسير البياني ، أو نقطة فيه قد تكون نافعة لمن يريد أن يسلك هذه السبيل .

ومن المهم أن أذكر ههنا أنني في أحكامي واستنباطاتي اعتمدت على القواعد المقررة والأصول الثابتة في اللغة ولم أخرج عنها .

وقد حاولت أن أنأى عن التعليل الذي لا يقوم على أساس من مسلّمات اللغة وأحكامها ، وعملت على أن يكون الكتاب ميسور الفهم لمن يقع في يده ، غير أنه لا شك أنه سيكون أوضح في الحجة وأبين في الاستدلال لمن كان له بصر باللغة ومعرفة بأحكامها .

وعلى كل فإني أطلب من القارئ غير المختص أن يصبّر نفسه قليلاً على ما يقرأ ، وأن لا يضيق به ذرعًا ، فإن صبره على ذلك ليس مضيعة

للوقت ولا قليل الجدوىٰ. وأقل ما يقال فيه إنه صبر على فهم كتاب الله ، وفي ذلك من الأجر ما فيه.

وقد يقع فيما يقع على شيء من أسرار التعبير القرآني هي عنده أثمن بكثير مما احتمله من عناء الصبر ومن الوقت الذي بذله فيه.

ولا يذهبنّ بك الظن أنني أدّعي أن استنباطاتي وتوجيهاتي كلها صحيحة سديدة ، بل ذلك ما هداني النظر إليه والتأمل فيه.

أسأله تعالى أن يجعلنا ممن نالهم أجر المجتهدين ، وأن يرفع عملنا على زهادته إلى درجة العلم النافع ، إنَّه سميع مجيب.

فاضل صالح السامرائي



التفسير البياني

يعرّف التفسير بأنه «علمٌ يعرف به فهم كتاب الله المنزّل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه» [1].

وأما التفسير البياني فهو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني ، فهو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية ، كالتقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، واختيار لفظة على أخرى ، وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير.

ما يحتاج إليه المتصدي للتفسير البياني:

إن الذي يتصدّىٰ للتفسير البياني يحتاج ما يحتاج إليه المتصدي للتفسير العام ، إلا أن به حاجة أكثر إلى الأمور الآتية:

١ ـ التبحر في علم اللغة.

٢ ـ التبحر في علم التصريف.

٣ ـ التبحر في علم النحو.

٤ ـ التبحر في علوم البلاغة.

وبعبارة موجزة (التبحر في علوم اللغة العربية) ، فلا تغني المعرفة اليسيرة ، بل ينبغي للمفسر البياني أن يكون على اطلاع واسع في علوم

---

(١) البرهان ١/ ١٣.

اللغة. جاء في (البرهان): «وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها. فقد يكون اللفظ مشتركًا وهو يعلم أحد المعنيين»[١].

وجاء في (الإتقان) أن المفسر يحتاج إلى التبحّر في لسان العرب[٢].

وجاء فيه أيضًا أن المفسر يحتاج إلى اللغة والنحو والتصريف، لأنه به تعريف الأبنية والصيغ والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع[٣].

وجاء في (البرهان): «النظر في التفسير هو بحسب إفراد الألفاظ وتراكيبها.

أما بحسب الإفراد فمن وجوه ثلاثة:

من جهة المعاني التي وضعت الألفاظ المفردة بإزائها، وهو يتعلق بعلم اللغة.

ومن جهة الهيئات والصيغ الواردة على المفردات الدالة على المعاني المختلفة، وهو من علم التصريف.

ومن جهة رَدِّ الفروع المأخوذة من الأصول إليها، وهو من علم الاشتقاق.

وأما بحسب التركيب فمن وجوه أربعة:

الأول: باعتبار كيفية التركيب بحسب الإعراب ومقابله من حيث إنها مؤدية أصل المعنى، وهو ما دل عليه المركب بحسب الوضع وذلك متعلق بعلم النحو.

الثاني: باعتبار كيفية التراكيب من جهة إفادته معنى المعنى، أعني

---

(١) البرهان ٢/ ١٦٥.
(٢) الإتقان ٢/ ١٨٢.
(٣) الإتقان ٢/ ١٨٠ ـ ١٨١.

لازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضىٰ الحال في تراكيب البلغاء ، وهو الذي يتكفل بإبراز محاسنه علم المعاني .

الثالث : باعتبار طرق تأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة وحقائقها ومراتبها ، وباعتبار الحقيقة والمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه ، وهو ما يتعلق بعلم البيان .

والرابع : باعتبار الفصاحة اللفظية والمعنوية والاستحسان ومقابله ، وهو ما يتعلق بعلم البديع» (١) .

فالمعرفة الواسعة والتبحر في علوم اللغة من ألزم الأمور للمفسر ، وهي للمفسر البياني ألزم . فينبغي له أن يعرف المجرد والمزيد وأغراض الزيادة واختلاف الصيغ ومدلولاتها ، وأن يكون له باع طويل في معرفة الاشتقاق وأحوال المشتقات .

وأما النحو فهو أوضح من أن تبين أهميته في هذا الشأن ، فإن تغيير الحركة قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله ، فلو غُيِّرت الحركات في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] من فتحة إلى ضمة ومن ضمة إلى فتحة فقرأها (إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ) لفسد المعنى وأصبح كفرًا . ولو غُيِّرت العبارة (خلق اللهُ الناسَ) إلى (خلق اللهَ الناسُ) لكانت كفرًا وكان ذلك أكبر من الشرك الأكبر .

وإذا كان لا يعلم الفرق في المعنى بين الحروف والأدوات ، فقد يؤدي ذلك في أحيان كثيرة إلى الإحالة في المعنى وربما إلى الكفر . وأظن أنه لا يخفىٰ عليك قول ابن عباس وغيره في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ

---

(١) البرهان ٢/ ١٧٣ ـ ١٧٤ .

﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أنهم لو قالوا: (نعم) لكفروا[١].

وأنه لو قال بدل قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥] فقال: (في صلاتهم ساهون) لم ينج أحد من الويل حتى رسول الله؛ لأنه ﷺ سها في صلاته. قال أنس رضي الله عنه: (الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم)[٢].

ولا تكفي المعرفة اليسيرة في هذا الأمر كما قرره علماء التفسير، بل على المتصدي لهذا الأمر أن يكون عالمًا بدقائق اللغة وما تؤديه التقديرات المختلفة إلى اختلاف في المعاني.

وكذلك بالنسبة إلى علوم البلاغة، فإن ذلك من ألزم الأمور لمعرفة الفصاحة والأغراض التي يخرج إليها الكلام، والفصل والوصل، وأغراض التقديم والتأخير، والحقيقة من المجاز، وما إلى ذلك من أمور تتعلق بعلم البلاغة.

فلا يجوز لمن ليس له علم واسع بكل ذلك أن يمسك قلمه ليفسر كلام الله.

٥ ـ القراءات: فبالقراءات يترجح بعض الوجوه على بعض[٣]. وقد تكون القراءتان أو القراءات مما يدل على كمال البلاغة وتمامها.

فمن ذلك على سبيل المثال قراءة ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وقراءة ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، فقد جمع له بالقراءتين الحكم والتملك، ذلك أن (مالك) من التملك، و(الملِك) هو الحاكم الأعلى، فجمع لنفسه تعالى كمال الأمرين، ولا يمكن أن يكون ذلك بقراءة واحدة، فنزلت

---

(١) مغني اللبيب ١/ ١١٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٣٦١.

(٣) الإتقان ٢/ ١٨١، البحر المحيط ١/ ٧.

مرتين مرة ﴿مَلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ومرة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فجمعت المعنيين. وهو نظير قوله تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ فالمالك من التملك، وصاحب (المُلك) بضم الميم هو الملِك فجمع له الأمرين. ولو قال: (مالك الملك) بكسر الميم لم يزد على معنى التملك، ولو قال (مَلِك المُلك) بضم ميم الملك لم يزد على معنى الحكم، ولكنه قال: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ فجمع له الأمرين سبحانه.

ومن ذلك قراءة ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ و(يصدّقْني) بضم القاف وسكونها، فإن القراءتين جمعتا معاني الشرط والوصفية والاستئناف. فإنه برفع الفعل يكون المعنى (فأرسله معي ردءًا مصدّقًا لي) فتكون جملة (يصدّقني) نعتًا، أو يكون المعنى (فأرسله معي ردءًا إنه يصدّقني) فتكون الجملة استئنافية.

وبالجزم يكون المعنى: إن ترسلْه يصدّقْني، فجمعت القراءتان هذه المعاني كلها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢] فقرئت (للعالِمين) بكسر اللام جمع (عالِم) من العلم، وقرئت أيضًا بفتحها جمع (عالَم) بفتح اللام فجمعت المعنيين. ونحو ذلك ليس بالقليل.

والقراءات المتعددة قد تكون أدلّ شيء على الإعجاز، ذلك أنه تحدّاهم بالقرآن فعجزوا، ثم جاء بقراءة أخرى فعجزوا، ثم جاء بقراءة أخرى فعجزوا، مما يدلّ على كمال القدرة لله وعجز البشر أمامها على كل حال. ونظير ذلك من مخلوقاته تعالى أن الله سبحانه تحدّاهم بخلق الذبابة فعجزوا، وهم عن آياته الأخرى مثلها في العجز أو أعجز، فهم لا يقدرون على خلق البعوضة ولا ما فوقها ولا ما دونها، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: ١١] فذلك أدلّ

على كمال قدرة الله وعجز البشر.

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أنه لو رسم فنان لوحة بالغة الجمال والدقّه وتحدّىٰ بها أهل الصنعة، فجعل أهل الصنعة يتأمّلونها ويعجبون ويقولون: إن هذه اللوحة لو غيّر أي شيء فيها لفسدت ولأمكننا أن نصنع مثلها، فيغير فيها شيئًا فينظرون إليها فيزدادون عجبًا، ويقولون: إن هذا التغيير لم ينل منها بل زادها حسنًا، فما أعجب هذا الأمر! ثم يقولون: إنها لا تحتمل تغييرًا آخر فيها ألبتّة ولو غيرّت لفسدت قطعًا، فيغير فيها شيئًا آخر فينظرون إليها فيقولون: ما أعجب هذا! فإنها لم تزد إلاّ حسنًا وجمالاً، وهكذا، كان ذلك أدلّ على عظيم قدرة الفنّان، وإن ذلك لم يأت منه موافقة بل إنه يقدر أن يفعل ما يعجز عنه الآخرون متى أراد. وقد أشار الأقدمون إلى هذين الأمرين.

جاء في (النشر): «وأما فائدة اختلاف القراءات وتنوعها فإن في ذلك فوائد غير ما قدّمنا من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة.

ومنها ما في ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز وغاية الاختصار وجمال الإيجاز، إذ كلّ قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوّع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف ما كان في ذلك من التطويل.

ومنها ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة، إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد ولا تناقض ولا تخالف، بل كلّه يصدّق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض على نمط واحد وأسلوب واحد. وما ذاك إلاّ آية بالغة وبرهان قاطع على صدق ما جاء به ﷺ»[1].

٦ ـ أسباب النزول: وهو من الدلائل المهمة على فهم المعنى، فبه

---

(١) النشر ١/ ٥٢.

تعرف كثير من الأمور التي قد يصعب فهمها لولاه. جاء في (البرهان) في معرفة النزول: «وهو من أعظم المعين على فهم المعنى... وكان الصحابة والسلف يعتمدونه. وكان عروة بن الزبير قد فهم من قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨] أن السعي ليس بركن، فردَّت عليه عائشة ذلك وقالت: لو كان كما قلت لقال: (فلا جناح عليه ألاّ يطّوّف بهما). وثبت أنه إنما أتى بهذه الصيغة لأنه كان وقع فزع في قلوب طائفة من الناس كانوا يطوفون قبل ذلك بين الصفا والمروة للأصنام، فلما جاء الإسلام كرهوا الفعل الذي كانوا يشركون به، فرفع الله ذلك الجناح من قلوبهم وأمرهم بالطواف. رواه البخاري في صحيحه. فثبت أنها نزلت ردًّا على من كان يمتنع من السعي» [1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٣٣]. وقد يظن ظانّ أن النهي عن البغاء مشروط بإرادة التحصّن، فإن لم يردن التحصّن جاز، وهذا لا يكون، وبالاطّلاع على سبب النزول يتّضح المعنى، فإن «هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه، فإنهم كانوا يكرهونهن وهنّ يردن التعفّف» [2].

وقيل: إن سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن أبيّ كان يقول لجارية له اذهبي فابغينا شيئًا، فأنزل الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾.

وقيل أيضًا: إن جارية لعبد الله بن أبيّ يقال لها مسيكة وأخرى يقال لها أميمة، فكان يكرههما على الزنى فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ... الآية﴾ [3].

---

(١) البرهان ٢/ ٢٠٢.
(٢) فتح القدير ٤/ ٢٨.
(٣) لباب النقول في أسباب النزول ١٦٢.

٧ ـ النظر في السياق: فإن ذلك من ألزم الأمور للمفسر عمومًا وللمفسر البياني على الخصوص. فبالسياق تتضح كثير من الأمور ويتضح سبب اختيار لفظة على أخرى وتعبير على آخر، ويتضح سبب التقديم والتأخير، والذكر والحذف، ومعاني الألفاظ المشتركة.

والسياق من أهم القرائن التي تدلّ على المعنى، جاء في (البرهان) أن دلالة السياق: «ترشد إلى تبيين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم. فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالىٰ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] كيف تجد سياقه يدلّ على أنه الذليل الحقير»[(١)].

وعدم النظر في السياق قد يوقع في الغلط أو عدم الدِّقة في الحكم، وذلك نحو قول الأخفش في زيادة (مِن) الجارّة، فإنه لم يشترط لزيادتها تنكير المجرور ولا سبقه بنفي أو شبهه، واستدلّ على رأيه بقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] فقد ذهب إلى أنها زائدة، بدليل قوله تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٢]، وهذا الاستدلال باطل، فإنه ينبغي أن ينظر في السياق، فإن قسمًا من الأعمال يدعو إلى مغفرة بعض الذنوب، وبعضها يدعو إلى مغفرة الذنوب كلّها. هذا علاوة على أنه لم يرد ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ من دون (من) إلاّ للأمة المحمّدية دون غيرها من الأمم إكرامًا لها، فلا تكون (من) زائدة.

٨ ـ مراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير الذي يراد تبيينه ليستخلص المعنىٰ المقصود.

---

(١) البرهان ٢/ ٢٠٠ ـ ٢٠١.

٩ ـ مراجعة المواطن القرآنية التي وردت فيها المفردة التي يراد تفسيرها واستعمالاتها ومعانيها ودلالاتها.

١٠ ـ أن يعلم أن هناك خصوصيات في الاستعمال القرآني، كاستعمال الريح للشر والرياح للخير، والغيث للخير والمطر للشر، والعيون لعيون الماء، والصوم للصمت والصيام للعبادة المعروفة، وغير ذلك.

١١ ـ أن ينظر في الوقف والابتداء وأثر ذلك في الدلالة والتوسع في المعنى أو التقييد فيه، وما إلىٰ ذلك.

١٢ ـ أن يسترعي نظره أي تغيير في المفردة والعبارة، ولو كان فيما يبدو له غير ذي بال فإنه ذو بال، فإن وجد له تعليلاً فذاك، وإلاّ فسيأتي من ييسّر الله له تعليله وتفسيره، كالإبدال في المفردة نحو (يطّهّر) و(يتطهّر)، و(يذّكّر) و(يتذكّر)، والذكر والحذف نحو (تذكّرون) و(تتذكّرون)، و(يستطع) و(يسطع)، و(لا تتفرّقوا) و(لا تفرّقوا)، وتغيير الصيغة نحو مغفرة وغفران، وعداوة وعدوان، ونخل ونخيل، والإدغام والفكّ نحو (من يرتدّ) و(من يرتدد)، و(يشاقّ) و(يشاقق) وما إلى ذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى العبارة.

١٣ ـ إدامة التأمل والتدبّر، وهما من أهم ما يفتح على الإنسان من أسرار ويهديه إلى معان جديدة. جاء في (البرهان): «أصل الوقوف على معاني القرآن التدبّر والتفكّر» (١). ولذلك أمر الله سبحانه بالتدبّر في كتابه، قال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩].

وكلّما أمعنت في التدبّر فتح الله عليك من كنوز المعرفة وعجائب

---

(١) البرهان ٢/ ١٨٠.

الأسرار ما لم يكن منك علىٰ بال.

والتدبّر والتفكّر في كتاب الله وأسرار تعبيره من ألزم الأمور للقارئ والمفسر، وهما للمفسر ألزم.

فأدم التدبّر والتفكّر فيما استعصىٰ أمره ولا تملّ من ذلك، وافعل ذلك مرة ومرتين وثلاثًا وأربعًا وعشرًا وعاود ذلك، فإنه سيفتح الله عليك ويبصرك ما لم تكن تبصره.

وقد مرت بي مسائل لم أهتد إلىٰ حلها على كثرة التدبّر والتأمّل حتى كدت أيأس من وصولي إلى حلّ لها، فإذا بي وقد انقدح في ذهني ما يزيل الإشكال ويثلج الفؤاد.

١٤ ـ أن يكون قد اطّلع على جملة صالحة مما كتبه من تقدّمه من مشاهير المفسرين، ونظر في كتب علوم القرآن وكتب الإعجاز وكتب المتشابه وتناسب الآيات والسور وما إلىٰ ذلك مما كتب في أسرار التعبير القرآني، فإن فيها أسرارًا بيانية وفنية بالغة الرفعة.

١٥ ـ وأساس ذلك كله الموهبة، فإن الموهبة أساس كل علم وفن وصنعة، فبقدر ما أوتي الفرد من موهبة يكون شأنه في العلم والفن، على ألاّ يعتمد على الموهبة وحدها، بل عليه أن ينمّيها ويصقلها بكثرة الاطّلاع والنظر والتدقيق والتأمل.

ولا نريد أن نطيل الكلام في هذا الأمر فإن له مظانّه.

* * *

التشابه والاختلاف في التعبير القرآني



أُثيرَ سؤال في أكثر من مناسبة وأنا ألقي دروسًا في التعبير القرآني على طلبة الدراسات العليا ، وفي مناسبات أخرى ، وهو أننا نجد أحيانًا في القصة الواحدة أو المسألة الواحدة التي يذكرها القرآن في أكثر من موضع اختلافًا في ذكر المواقف والعبارات ، أفلا يعد ذلك تناقضًا؟ فإن كان أحد الموطنين صحيحًا فلا شك أن الآخر غير صحيح ، فكيف نعلّل هذا؟

وما كنت أظن أن هذا الأمر سيكون شبهة تحتاج إلى إيضاح ، ولكنه ظهر لي أنه شبهة تنبغي معالجتها ، ولا يحسن أن تبقى في النفس من غير أن يجد لها صاحبها جوابًا شافيًا يطمئن له قلبه .

فأقول : ليس في القرآن قصة ذكرت في أكثر من موطن تناقض إحداها الأخرى ، ولا مسألة تردَّدَ ذكرها اختلفت في فحواها وحقيقتها عنها في موطن آخر مهما اختلفا في التعبير أو في ذكر ما وقع فيهما .

فإن قصة موسى مثلاً على كثرة تردُّدِها واختلافها في التعبير وفي ذكر جزئياتها لا يختلف بعضها عن بعض ولا يناقض بعضها بعضًا ، وكذلك قصة إبراهيم أو قصة صالح أو قصة آدم أو غيرها .

وكذلك كل مسألة تكرر ذكرها .

ولكن قد يذكر جانب من القصة في موطن بحسب السياق الذي ترد

فيه والغرض الذي يراد منها ، ويذكر جانب آخر في موطن آخر بحسب ما يراد من الغرض وموطن العبرة ، وقد أشرت إلى شيء من ذلك في كتاب (التعبير القرآني) ، والآن أريد أن أوضح هذا الأمر بأمثلة أوردها لذلك.

فقد ورد في قصة موسى في سورة البقرة مثلاً قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [البقرة: ٦٠].

وورد في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فإنَّه قال في سورة البقرة: (فانفجرت) ، وقال في سورة الأعراف: (فانبجست) والانفجار غير الانبجاس ، فإن الانفجار هو الانفجار بالماء الكثير ، والانبجاس هو الماء القليل ، فأي الأمرين صحيح؟ أكان ثمة انفجار أم انبجاس؟

والجواب: كلاهما صحيح ، فإنه على ما يذكر أنه أول ما انفجر الماء انفجر بالماء الغزير ، ثم قلّ بعد ذلك بسبب عصيانهم فأخذ ينبجس ، فذكر حالة في سياق التكريم وحالة أخرى في سياق الذم ، وكلاهما واقع وكلاهما صحيح ، إلاّ أنه اختار كل تعبير بحسب السياق الذي ورد فيه ، وهو ما تقتضيه البلاغة.

ثم إنه من المشاهد كثيرًا أن العيون والآبار لا تبقى على حالة واحدة ، فقد يظهر الماء باديَ ذي بدء كثيرًا ثم يقلّ بمرور الزمن ، وقد يكون العكس ، فلا غرابة أن يذكر كل حالة في مكانها اللائق بها ، فإن كلا الأمرين واقع وكلاهما صحيح.

ومثل ذلك ما ورد في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام حين جاءته

الملائكة ، فقد قال في سورة الذاريات : ﴿ هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . . . ﴾ [الذاريات : ٢٤ وما بعدها] .

وقال في سورة الحجر : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ [الحجر : ٥١ ـ ٥٢] .

فذكر في سورة الذاريات أنهم حيّوه فردَّ عليهم التَّحيَّة : ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ .

وذكر في سورة الحجر أنهم حيّوه ولكنه لم يذكر أنه رد التحية : ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾ .

وذكر في سورة الذاريات أنه جاءهم بعجل سمين ولم يذكر ذلك في سورة الحجر ، فما حقيقة الأمر؟ أهو رد التحية أم لم يردها؟ وهل جاءهم بعجل؟ ولمَ لمْ يذكر ذلك إذن في الحجر؟

والجواب أن كل تفصيل ذكره القرآن إنما هو قد حصل ، وربما حصل غيره مما لم يذكره القرآن لأنه لا داعي لذكره ، ولكنه ذكر في كل موطن ما يقتضيه السياق والغرض من ذكر القصة .

وقد تقول : ولكنه قال في الذاريات أنه ردَّ عليهم السلام ، وفي الحجر لم يرد السلام . فنقول : ليس الأمر كما توهمت ، فإنه لم يقل في الحجر إنهم حيّوه فلم يرد عليهم السلام ، ولو قال ذلك لكان تناقضًا .

وإنما قال : ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ فذكر تحيتهم ولم يذكر تحيته ، كما لم يذكر أنه جاء لهم بالعجل ، ولم يقل إنه لم يقدم لهم شيئًا ، فطوى ذكر قسم من الأحداث بحسب المقام ، وذلك أنه لما وصف الضيف في الذاريات بأنهم مكرمون ناسب ذكر ما أكرمهم به إبراهيم من رد التحية بخير منها ومن تقديم العجل المشوي .

ولما لم يصفهم في الحجر بذلك طوى ذكر مظاهر التكريم والاحتفاء ، وهذا نظير ما نرويه نحن من أحداث ، فقد تقع لنا أحداث متعددة في رحلة نذكر في كل مناسبة طرفًا منها ، بل ربما نرويها بألفاظ مختلفة ، لكنها غير متناقضة ، بحسب الموقف والمقام.

فقد تقول في مقام: ذهبنا إلى آل فلان وسلمنا عليهم ومكثنا عندهم ليلة ثم عدنا إلى مكاننا.

ولم ترو ما حدث في تلك الليلة ، ولم تذكر أنهم ردّوا عليكم السلام.

وقد تقول في مقام آخر تريد أن تذكر كرمهم وتثني عليهم فتقول: ذهبنا إليهم فرحبوا بنا وأكرمونا وأقسموا أن نبقى عندهم ليلة ، فمكثنا بأطيب ليلة وبقينا نسمر حتى الصباح ثم أفطرنا عندهم وعدنا.

ولا يناقض ما ذكرته في الرواية الثانية ما ذكرته في الأولى ، فأنت ذكرت أنك سلمت عليهم في الأولى ولم تذكر أنهم ردوا السلام ، وذكرت في الرواية الأخرى أنهم رحبوا بكم ولم تذكر أنك سلمت عليهم.

وهذا شأن ما يرد في القرآن الكريم ، ففي كل موطن يذكر جانبًا يتناسب هو والغرض الذي سيق لأجله والمقام الذي ترد فيه.

وأنت قد تذكر ألفاظاً قاسية تصف بها أناسًا ، ولكنك قد تخففها في مناسبة أخرىٰ ؛ لأن المقام يقتضي ذاك ، كأن يكون هناك بعض أقربائهم أو نحو ذاك ، غير أنك لا تناقض أقوالك السابقة فتختار ألفاظاً لا تجرح السامع ، فبدل أن تقول مثلاً: هو فاجر ، تقول: هو مسرف ، وبدل أن تقول: هو متهور ، تقول: هو مندفع. أو تقول: هو أحيانًا لا يملك نفسه إذا غضب. . ونحو ذلك.

وأنت لا تكون كاذبًا في أحد الوصفين.

وهكذا يختار القرآن الألفاظ والعبارات بحسب السياق الذي ترد فيه القصة أو المسألة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤].

فقولهم: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ يعني أن الأيام التي تمسهم فيها النار أكثر من قولهم: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، فمن المقرر في اللغة أن الجمع الموصوف بالمفرد من غير العاقل يعني أنه أكثر من الموصوف بالجمع السالم، فقولك: (دراهم معدودة) يعني أن الدراهم أكثر من قولك: (دراهم معدودات)، وقولك: (غرف مبنية) يعني أن الغرف أكثر من قولك: (غرف مبنيات).

والقولان المذكوران في الآيتين هما لبني إسرائيل.

وقد تقول: وما حقيقة ما قالوا؟ أهم قالوا: (أيامًا معدودة) أم (أيامًا معدودات)؟ ولم الاختلاف في التعبير؟

أما سبب الاختلاف في التعبير فإن ذلك ذكرته في كتابي (التعبير القرآني) فإن الآثام التي ذُكرت أنهم ارتكبوها في سورة البقرة أكثر مما ذكر في آل عمران، فناسب زيادة أيام العذاب فيها.

أما حقيقة ما قالوا فإنهم قالوا القولين جميعًا، فإنهم عندما ذُكّروا بما فعلوه في سورة البقرة قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وعندما ذكّروا بما فعلوه في سورة آل عمران قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ لأن الآثام أقل، وذلك غير ممتنع، وهو مما يحصل في

حياتنا كثيرًا ، بل إنه في المسألة الواحدة والموقف الواحد قد يذكر الشخص أكثر من أمر ، فقد تقول لشخص : لم احتلت على فلان وشتمته وضربته ، ألا تعلم أنه شكاك إلى القاضي وسيعاقبك عليه القانون؟

فيقول : وكم يعاقبني؟ إنه سيعاقبني بالسجن شهرًا .

فتقول له : وكيف ذاك؟ إنها ثلاث قضايا : احتيال واعتداء بالشتم واعتداء بالضرب ، وكل واحدة تقتضي حكمًا خاصًّا بها .

فيقول : ولنقل إنه سيعاقبني بالسجن ثلاثة أشهر .

ففي المسألة الواحدة ذكر أكثر من قول ، وأنت إن نقلت أي قوليه كنت صادقًا في نقلك عنه .

فإذا هوّنت عليه الأمر قلل العقوبة ، وإذا شددته عليه زاد فيها .

فلا مانع أن يذكر عنهم أكثر من قول ، أو قد يقول بعضهم قولاً ويقول بعض آخر قولاً آخر .

فهذا ليس فيه مغايرة للحقيقة ولكن وضعهما وضعًا بلاغيًّا فنيًّا ، فذكر العقوبة الشديدة مع الجرم الكبير ، وذكر العقوبة الخفيفة مع ما هو أخف جرمًا .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل : ٧] .

وقوله في القصص : ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : ٢٩] .

فإنه قال في النمل : ﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ .

وقال في القصص : ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾

وما في القصص ترجٍّ ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾، وما في النمل قطع وإخبار ووعد ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ فما حقيقة ما قال؟ أهو ترجّى فقال: (لعلي) أم أخبر على وجه القطع فقال: (سآتيكم)؟

والجواب: كلاهما، فهو ترجّى ثم قطع، أو قطع ثم ترجّى، وهذا يحصل في كلامنا كثيرًا، تقول: لعلي أرجع مساء اليوم، بل سأرجع.

أو تقول وأنت مسافر سفرًا تتوقع العودة قبل الغروب: سأرجع قبل الغروب، ثم تقول: لعلي أستطيع ذاك.

فأنت قلت كلا القولين، وأي القولين نقلته عنك هو حقيقة، ولكن اختيار كل قول بحسب السياق الوارد فيه والمقام الذي يقتضيه هو الفن في التعبير، وذلك ما حصل في اختيار كل تعبير، وقد أوضحت ذلك بالتفصيل في كتابي (لمسات بيانية في نصوص من التنزيل) وبينت سبب الاختيار.

وكذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام في سورة القصص: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

وقوله في النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

فما حقيقة ما أعطاه وما حقيقة ما قاله له: أهما برهانان أم تسع آيات؟

والجواب: أن الأمر كما ذكر، وهو أنه أعطاه برهانين إلى فرعون وملئه، وتسع آيات إلى فرعون وقومه.

فملأ فرعون هم خاصة مجلسه، وهم الذين يرجع إلى قولهم

ويستشيرهم ، أما الآيات فهي إلى فرعون وقومه ، وقوم فرعون هم شعب مصر .

فالبرهانان لفرعون وملئه ، وهما ما أظهره موسى في مجلس فرعون ، وهما معجزتا العصا وإخراج اليد بيضاء من الجيب .

أما الآيات فهي تسع إلى فرعون وقومه ، منها الآيتان المذكورتان ، ومنها إرسال الدم والضفادع والجراد والقمل والطوفان وغيرها ، وهو ما كان يظهر من الآيات مدى بقاء موسى في مصر . غير أنه ذكر في كل سياق ما يقتضيه ، وقد ذكرنا ذلك في كتابنا (لمسات بيانية) .

ونحوه قوله تعالى في البقرة : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ [البقرة : ٥٨] .

وقوله في الأعراف : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٦١] .

فقد ذكر في البقرة أنه قال لهم : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ ، وذكر في الأعراف أنه قال : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ .

والخطايا جمع كثرة ، والخطيئات جمع قلة ، فما حقيقة ما قال لهم؟

والجواب : أنه لا يناقض أحد القولين الآخر ، فإنه إذا غفر خطاياهم فقد غفر خطيئاتهم ، فالقلة داخلة في الكثرة ، إلا أنه ذكر كل تعبير بحسب المقام ، كما أوضحناه في التعبير القرآني .

ولكنه لو قال : لا نغفر إلا بضع خطايا أو بعض الخطايا أو قسمًا قليلاً منها لناقض ذلك الكثرة ، هذا علمًا بأن جموع القلة والكثرة تتعاور في اللغة ، فإن يصح في اللغة استعمال القلة للكثرة ، والكثرة للقلة . جاء في (شرح الأشموني) «فمدلول جمع القلة بطريق الحقيقة ثلاثة إلى عشرة ،



ومدلول جمع الكثرة بطريق الحقيقة ما فوق العشرة إلى ما لا نهاية له ، ويستعمل كل منهم في موضوع الآخر مجازًا» [١] .

قال تعالى : ﴿ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ وقال : ﴿ وَسَبْعَ سُنْبُلَـٰتٍ﴾ والسنابل جمع كثرة ، والسنبلات جمع قلة والعدد واحد وهو سبع ، إلا أنه وضع كل جمع بحسب المقام الذي يقتضيه ، وذلك نحو هذا .

وثمة مسألة أخرى ما كان يجدر بي أن أذكرها لأنها من الوضوح بمكان لولا أني سئلت عنها أكثر من مرة ، فقد سئلت : هذه الأقوال التي يحكيها الله عن الرسل أو الأشخاص الماضين أهي عين أقوالهم؟

والجواب : أنها ترجمة لأقوالهم ، وهي ترجمة دقيقة صيغت صياغة فنية بحسب ما يقتضيه المقام الذي أوردت فيه ، ومن المعلوم في فن الترجمة أنه يمكن للنص الواحد أن يترجم عدة ترجمات مختلفة كلها صحيحة ، غير أن بعضها أمثل من بعض ، بل هي تتفاوت فيما بينها تفاوتًا كبيرًا في الجودة والحسن مع أن فحواها واحد .

وهذا من الوضوح بمكان فيما أحسب .



---

(١) الأشموني ٤/ ١٢٠ .



تفسير المعوذتين

إن سورتي الفلق والناس جمعتا الاستعاذة من جميع الشرور الظاهرة والخفية ، فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من شرور القوى المنظورة والخفية مما لا يملك الإنسان دفعه ولا حيلة له فيه ، فهي استعاذة من الشر الواقع عليه من غيره.

وأما سورة الناس فهي استعاذة من ظلم الإنسان لنفسه ولغيره ، وهو الشر الذي توسوس به نفسه ، فهو الشر الصادر من الداخل.

فالشر في سورة الفلق مما لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه ؛ لأنه ليس من كسبه وهو غير محاسب عليه.

وأما الشر في سورة الناس فهو مما يدخل تحت التكليف ومتعلق به النهي ، وهو ممّا يحاسب عليه المرء.

جاء في (التفسير القيم): «الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها ، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها ، وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف ، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان ، أو ليس نظيره وهو الجني. وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمة وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه ، وأدلّه على المراد ، وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما» [١] .

وجاء فيه أيضًا أن سورة الناس «مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها ، وهو الشر الداخل في الإنسان ، الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة .

فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد ، وهو شر من خارج .

وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه ، وهو شر من الداخل .

فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف ، ولا يطلب منه الكف عنه ؛ لأنه ليس من كسبه .

والشر الثاني في سورة الناس يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي ، فهذا شر المعايب ، والأول شر المصائب . والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما» [٢] .

فسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من شرور إذا وقعت على المسلم المحتسب دخلت في صحيفة حسناته ؛ لأنها من المصائب الواقعة عليه ، وهو يؤجر عليها حتى الشوكة يشاكها .

وسورة الناس تضمنت الاستعاذة مما يدخل في صحيفة سيئاته ، فجمعت هاتان السورتان كمال الاستعاذة .

* * *

---

(١) التفسير القيم ٥٤٣ ـ ٥٤٤ .

(٢) التفسير القيم ٥٩٩ ـ ٦٠٠ .

سورة الفلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

* * *

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾

أعوذ: ألوذ وألتجئ وأعتصم.

أمر ربنا سيدنا محمدًا أن يقول ذلك فقال له: قل أعوذ.

وقد تقول: ولماذا أمره بقول ذلك ولم يقل: (أعوذ) من دون (قل)؟

إن الله يريد من الإنسان أن يعلن صراحة عن ضعفه وحاجته إلى ربه ليعينه ويخلصه مما يحذر، وألاّ يكتفي بشعوره بالحاجة إلى ذلك، مطلوب منه أن يعلن التجاءه إلى ربه واعتصامه به، وأنه يلوذ به لأنه أضعف من أن يردّ ما يحذره ويخشاه؛ لأن ما يحذره ويخشاه كثير وقوي، ظاهر وخفي، وقد ينال منه متى يشاء إن لم يلتجئ إلى ربه الذي يعينه ويأخذ بيده ويدفع عنه الشر.

وهذا الإعلان عن حاجته إلى ربه ضروري من نواح عدة، منها:

أن فيه قتلاً للكبر والعجب والغرور الكاذب والشعور بالاستغناء، وهذا سبب الطغيان، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] فإن قسمًا من الناس يمنعهم الكبر والغرور من طلب الإعانة وهم أحوج شيء إليها.

ثم إن هذا الإعلان من أسباب الطاعة وعدم المعصية ، فإن الذي يلتجئ إلى شخص ما يطيعه في العادة ولا يعصيه ، فإن الإنسان مطيع لمن يستنجد به ويستنصر به ولا يخرج عليه.

ثم إن هذه الاستعاذة مما يليّن القلوب ويجعلها خاشعة لله رب العالمين ، خصوصًا إذا صحب هذه الاستعاذة شعور بشدة الحاجة إلى غياث المستغيثين يأوي إلى ركنه الشديد.

وقد علّمنا ربنا أن نستعيذ به من عموم الشرور خفيها وظاهرها فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨] ، وقال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [الأعراف ٢٠٠ ـ فصلت ٣٦].

وعلّمنا نبينا أن نستعيذ بربنا من عموم ما نخاف ونحذر ، ومن شر ما نعلم وما لا نعلم ، فقد كان يقول: (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) ، ويعلمنا أن نقول إذا خشينا أمرًا: (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) وكان يستعيذ بالله منه ، وبرضاه من غضبه ، وبمعافاته من عقوبته ، وكان يعوّذ الأطفال بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة وكل عين لامّة.

فالاستعاذة بالله مسنونة تفصح عن الالتجاء إلى الله والاعتصام به.

والإفصاح عن الاستعاذة بالقول في اللسان نظير الإفصاح بالذكر والتسبيح والتحميد ، كلاهما مطلوب مأمور به لا نكتفي من ذلك بما نشعر به في القلوب ونحس به في الوجدان ، بل لا بد من مواطأة اللسان للقلب ، وذلك أعلى الذكر ، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢] ، وقال: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال ﷺ مخبرًا عن ربه أنه قال: (أنا مع عبدي حيثما ذكرني وتحركت بي شفتاه) فذِكْر ربنا والالتجاء إليه والاعتصام به مطلوب على كل حال.

وقد تقول: ولم قال ههنا: (أعوذ) ولم يقل: (إني أعوذ) كما قال في مواطن أخرى؟

فقد قال في سورة (غافر) على لسان سيدنا موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]، وقال في سورة الدخان على لسان سيدنا موسى أيضًا: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠]، وقال على لسان سيدنا نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]، وقال على لسان مريم: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]، وقال على لسان امرأة عمران: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

كل ذلك على التأكيد بـ (إنّ).

في حين قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨]. وكذلك ما ورد في المعوذتين فإنه لم يؤكد ذلك بـ (إنّ).

وعلّة ذلك ـ والله أعلم ـ أن الاستعاذة تكون على قدر ما يحذره المستعيذ ويخافه، فإذا كان المحذور شديدًا والمخوف متمكنًا متسلطًا، وكان يتهدده هو على الخصوص، أكد الاستعاذة فقال: (إني أعوذ) وإلا قال: (أعوذ).

ففي آية غافر مثلاً أكد الاستعاذة بـ (إنّ)؛ لأن فرعون هدد سيدنا موسى بالقتل، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وكذلك في سورة الدخان ، فإنه ألمح إلى أنهم هددوه بالرجم فاستعاذ من ذلك قائلاً: ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾ [الدخان: ٢٠ ـ ٢١] ، أي إن لم تصدقوا بي فاتركوني ، فكان الأمر يتهدده هو على الخصوص ، وكان المخوف متمكنًا متسلطًا عاتيًا ، فلجأ إلى ربه لجوء المستضعفين فقال: ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ مؤكدًا ذلك بـ (إنّ).

وكذلك ما ورد على لسان مريم عليها السلام ، فقد احتجبت عن قومها لتغتسل وإذا ببشر سويّ أمامها ، وقد ظنت ما يظن النساء في مثل هذا الموقف ، وخشيت على نفسها من أن يعتدي عليها ، فلاذت بربها ، وعاذت أشد ما تكون الاستعاذة فقالت: ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ فأكدت ذلك بـ (إنّ).

ثم انظر كيف أنها استعاذت بالرحمن دون غيره من أسماء الله الحسنى ، ذلك أنها طلبت من الرحمن أن يرحمها ويحميها من مثل هذا الاعتداء عليها الذي يحمل الفضيحة. وفيها أيضًا استثارة لعاطفة الرحمة في قلب هذا الشخص الواقف أمامها ليرحمها ويتركها وشأنها ، فكان أنسب شيء أن تستعيذ بالرحمن. هذا إضافة إلى أن جو السورة تشيع فيه الرحمة من أولها إلى آخرها[1] ، فقد بدأت بقوله: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم: ٢] ، وكان في أواخرها قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

وأما قوله على لسان سيدنا نوح: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فإنه قاله تعقيبًا على قوله تعالى له: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] فلما وعظه بـ ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ ﴾ استعاذ به بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ ﴾ فهي استعاذة مؤكدة بمقابل الوعظ المؤكد.

---

(١) انظر التعبير القرآني ٢٩٤ ـ ٢٩٦.

هذا علاوة على أن الأمر كان يعني سيدنا نوحًا على وجه الخصوص ، فإن الابن الذي غرق ابنه وهو أبوه .

وأما ما ورد على لسان امرأة عمران وهو قوله : ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ فالأمر يحتاج إلى توكيد الاستعاذة ، فإنها نذرت أن يكون ما في بطنها خالصًا لله خادمًا للكنيسة[1] ، راجية أن يكون ما في بطنها ذكرًا فوضعتها أنثى ، وليس الذكر كالأنثى ، فإنه من الصعوبة ومن غير المألوف أن تقوم أنثى بما يقوم به الرجال من الخدمة في دور العبادة والقيام بأمرها ، فقد تكون فيها وحيدة والرجال يغشونها ، فخشيت عليها أمها ما تخشاه الأمهات على بناتهن من وساوس الشيطان ، وبقائها وحدها في مكان يغشاه الرجال ، وقد يكون خاليًا أحيانًا ، فاستعاذت لها استعاذة مؤكدة فقالت : ﴿ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ثم انظر إلى إلحاقها الذرية بالاستعاذة في هذا المقام ، فإنها إلماح إلى ما يخشى عليها منه ، وهذا من أخطر مواطن الخشية على النساء ، وقد قال ﷺ : (ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنّ التوكيد بـ (إنّ) يشيع في هذا السياق ، قال تعالى على لسانها : ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا . . . إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ . . . وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

أما ما لم يكن على هذا النحو من مواطن الخوف والحذر وليس بهذه الدرجة من التهديد فلا يؤكد بإنّ ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ

---

(١) انظر فتح القدير ١/ ٣٠٣ .

مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] ، فليس ذلك موطن تهديد ولا تخويف فلم يؤكد بإن. وأنت تحس الفرق بين هذا الموطن وقوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أو المواطن الأخرى.

ومثل ذلك قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾.

وكذلك ما ورد في المعوذتين فلا يحتاج ذلك إلى توكيد. ثم إن ذلك لا يتهدده هو على وجه الخصوص.

ونظير هذا في التوكيد وعدمه قوله تعالى: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بالتوكيد بـ (إنّ) ، وقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ من دون توكيد.

فقد ورد على لسان آدم قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] من دون توكيد بـ (إنّ) ، وورد على لسان موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦] ، وورد مثل ذلك على لسان ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] بالتأكيد بـ (إنّ) وذلك على مقدار ظلم النفس.

فإن موسى قال ذلك بعد قتل القبطي حين وكزه فقضى عليه ، والقتل معصية كبيرة ، وهي أكبر من معصية آدم ، وهي متعلقة بحق العباد فأكّد الظلم بإنّ فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾.

وأما ظلم ملكة سبأ لنفسها فهو أكبر من ذلك كله، فإنها كانت تعبد الشمس، قال تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] فأكدت الظلم بإنّ وتابت عن ذلك بالدخول في الإسلام قائلة: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ؛ ولم تقل (فاغفر لي) كما قال موسى ؛ لأنه ليس مع الشرك مغفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، ولا سبيل لها إلا الدخول في الإسلام ، والإسلام يجبّ ما قبله.

أما موسى فإنه طلب المغفرة ؛ لأن هذه معصية تمحىٰ بالتوبة والاستغفار ، لأنه ليس من القتل العمد ، فإنه لم يكن قاصدًا لقتله ، وهذا ما يتدارك بالتوبة والاستغفار .

فاتضح أن التأكيد بإنَّ على قدر المعصية ، كما كان التأكيد بها على قدر ما تقتضيه الاستعاذة .

(الفَلَق):

هو الفجر ، وقيل: هو الصبح ، وقيل: هو الخلق كله .

وحقيقة الفَلْق: الشق. وهو أصل معاني هذه اللفظة ، وكل معانيها الأخرى تعود إليه. جاء في (لسان العرب): «الفَلْق: الشق. . .

والفَلْق: الخلق. وفي التنزيل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ ، وقال بعضهم: وفالق في معنى (خالق). وكذلك فَلَقَ الأرضَ بالنبات والسحابَ بالمطر ، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انفلاق ، فالفَلَق جميع المخلوقات ، وفَلَق الصبح من ذلك. وانفلق المكان به: انشق. . . وفلق الله الفجر: أبداه وأوضحه ، وقوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ قال الزجاج: جائز أن يكون معناه: خالق الإصباح، وجائز أن يكون معناه: شاقّ الإصباح ، وهو راجع إلى معنى خالق. والفَلَق ، بالتحريك: ما انفلق من عمود الصبح ، وقيل: هو الصبح بعينه ، وقيل: هو الفجر ، وكلٌّ راجع إلى معنى الشقّ. . .

ويقال: الفَلَق: الخلق كله ، والفَلَق: بيان الحق بعد إشكال. . .

وفي الحديث: أنه كان يرى الرؤيا فتأتي مثل فَلَق الصبح ، هو بالتحريك: ضوؤه وإنارته» (١).

---

(١) لسان العرب (فلق) ١٢/ ١٨٤ .

وجاء في (الكشاف): «الفَلَق والفرق: الصبح ؛ لأن الليل يفلق عنه ويفرق ، فَعَل بمعنى مفعول ، يقال في المثل: (هو أبين من فلق الصبح). . . وقيل هو كل ما يفلقه الله ، كالأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأولاد ، والحبِّ والنَّوى وغير ذلك» (١).

وجاء في (التفسير القيّم): «واعلم أن الخلق كلّه فلق. . . والله عز وجل فالق الإصباح ، وفالق الحب والنوى ، وفالق الأرض عن النبات. . . ويسمى الصبح المنصدع عن الظلمة: فلقًا وفرقًا. . . ومنه فَلْقُه البحر لموسى ، وسمّاه فلقًا» (٢).

ومن ذلك يتبين أن أشهر معاني الفلق:

١ ـ الصبح ، وهو أشهر معنى له ، وخص به عرفًا(٣).

٢ ـ جميع المخلوقات ، وفَلَقَ الصبح من ذلك.

٣ ـ بيان الحق بعد إشكال.

٤ ـ الفلق: هو كل ما فُلِق ، أي شُقّ ، فهو اسم مفعول كالقَصَص والهَمَل ، ومنه قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥] ، و﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦] ، وهو أصل المعاني الأخرى.

وتخصيص الفلق بالذكر له أسباب ودواع منها:

إن الفلق ـ وهو الصبح ـ مشعر بتبدد ظلمة الليل وزوال همومه ومخاوفه، ومشعر بمجيء الفرج. ولذا نسمع الشكوى من الليل وترقب

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٨.
(٢) التفسير القيم ٥٦٢.
(٣) انظر روح المعاني ٣٠/ ٢٧٩.

المهموم للصبح ، فإن المريض والمهموم والخائف يستطيل الليل ويتمنىٰ ذهابه ومجيء الصبح ، قال الشاعر :

وصـدر أراح الليـل عـازب همـه تداعىٰ عليه الهم من كل جانب

وقال الآخر :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علـيّ بـأنـواع الهمـوم ليبتلـي
فقلـت لـه لمـا تمطـى بصلبـه وأردَفَ أعجـازًا ونـاء بكلكـل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وقال الآخر :

أزِيـــدَ فـــي الليـــل ليـــل أم ســـال بـــالصبـــح سيـــل

فذكر الفلق ههنا أنسب شيء ، خصوصًا وأنه ذكر الغاسق إذا وقب بعده .

وقيل : إنه خصّ الصبح بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة ؛ لأن الخلق كالأموات ، والدور كالقبور ، والنوم أخو الموت ، والصبح كالبعث والنشور ، وقيل غير ذلك .

جاء في (تفسير البيضاوي) : «وتخصيصه (يعني الفلق) لما فيه من تغير الحال ، وتبدل وحشة الليل بسرور النور ، ومحاكاة فاتحة يوم القيامة ، والإشعار بأن من قدر أن يزيل ظلمة الليل عن هذا العالم قدر أن يزيل عن العائذ به ما يخافه» [١] .

وجاء في (التفسير القيم) : «الفلق : هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور ، وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل ، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب أو كِنّ أو

---

(١) تفسير البيضاوي ٨١٤ .

غار ، وتأوي الهوام إلى أجحرتها ، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها» (١) .

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي أن تخصيص الفلق في التعوذ لوجوه منها: «الأول أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضًا أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه.

الثاني : أن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج. فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظرًا لطلوع الصبح ، كذلك الخائف يكون مترقبًا لطلوع صباح النجاة.

الثالث: أن الصبح كالبشرىٰ ، فإن الإنسان في الظلام يكون كلحم على وضم ، فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالأمان وبشر بالفرج ، فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة في وقت السحر . . .

السادس: يحتمل أنه تعالى خصَّ الصبح بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة ؛ لأن الخلق كالأموات ، والدور كالقبور» (٢) .

واختار لفظ (الفلق) على الصبح لأكثر من سبب ، ذلك أن لفظ الفلق مشعر بالتغير والحركة ؛ لأن معناه انشقاق ضوء الصبح عن ظلمة الليل ، وأن الانفلاق والفَلْق يدل على التغير والحركة ، ومنه ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ ، بخلاف كلمة (الصبح) فإنها لا تفيد ذاك ، وإنما تفيد تعيين الوقت ، فتشعر كلمة الفلق بتغير الأحوال ، وتبدل نور الصبح بظلمة الليل ، وزوال الهموم ، والسعة بعد الضيق ، ولا تفيد كلمة الصبح هذا التغير والتبدل.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن لفظة (الفلق) أعم من لفظ الصبح ، وأن لها أكثر من معنى ، ويمكن أن تكون معانيه مرادة كلها ،

---

(١) التفسير القيم ٥٦١ .

(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١٩١ ـ ١٩٢ ، وانظر روح المعاني ٣٠/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

فلفظ (الفلق) يفيد توسعًا في المعنى ، بخلاف كلمة الصبح ، فاختيار لفظ (الفلق) أولى.

واختيار لفظ (رب) وإضافته إلى الفلق أنسب شيء ههنا ، فالرب معناه المالك والمربي والسيد والقيم والمعلم والمرشد ، فالاستعاذة برب المخلوقات ومالكها والقائم على أمرها من شرور ما يصدر عنها أنسب شيء في إعاذة المستعيذ به ، فهو وحده القادر على كفها وكف شرورها ، فإنه يأمرها فتطيع أمره.

ثم إن المربي يحفظ من هو في رعايته ويرعاه ويدفع عنه السوء ويحميه من الشرور ، والمربي من معاني (الرب).

فاختيار لفظ (الرب) مناسب من جهتين :

من جهة المستعاذ منه ، فإنه مالكه وخالقه وربه المسيطر عليه ،

ومن جهة المستعيذ به ، فإنه مربيه والقائم على حفظه ورعايته ، ولذا كثر لفظ (الرب) مع الاستعاذة لما فيه من معنى التربية والحفظ والقيام بالأمر. قال تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون : ٩٧ ـ ٩٨] ، وقال : ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان : ٢٠] وقال : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر : ٢٧].

جاء في (تفسير البيضاوي) «ولفظ (الرب) ههنا أوقع من سائر أسمائه ؛ لأن الإعاذة من المضار تربية» [١].

وذكرُ غير لفظ (الرب) مع الاستعاذة له أسبابه ودواعيه ، فإن ذلك بحسب ما يقتضيه المقام والسياق ، كما ذكرنا في استعاذة مريم عليها

---

(١) أنوار التنزيل ٨١٤.

السلام ، فالاستعاذة برب المخلوقات من شرورها أنسب من اختيار أي لفظ أو اسم آخر.

* * *

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾

أي من شر مخلوقاته جميعًا ، فيدخل فيه كل شر أيًّا كان مصدره ، فاستغرق ذلك جميع الشرور ، جاء في (روح المعاني): «أي من شر الذي خلقه من الثقلين وغيرهم كائنًا ما كان من ذوات الطباع والاختيار ، والظاهر عموم الشر للمضار البدنية وغيرها. . .

وقال بعض الأفاضل: هو عام لكل شر في الدنيا والآخرة وشر الإنس والجن والشياطين ، وشر السباع والهوام ، وشر النار ، وشر الذنوب والهوى ، وشر النفس ، وشر العمل ، وظاهره تعميم ما خلق بحيث يشمل نفس المستعيذ ، ولا يأبى ذلك نزول السورة ليستعيذ بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم» (١).

وقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ولم يقل: (من شر من خلق) وذلك ليتناول كل شر ، سواء صدر عن ذوي العلم أم عن غيرهم ، فإنه لو قال: (من شر من خلق) لكان ذلك خاصًّا بالشر الصادر من ذوي العلم ، فقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ليشمل ذوي العلم وغيرهم ، فإن العقلاء يدخلون في قوله: ﴿ مَا خَلَقَ ﴾ من جهتين:

الأولى: أن (ما) تستعمل لذات ما لا يعقل ولصفات العقلاء ، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣] ، وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [الليل: ٣] فأطلق (ما) على ذاته العلية ، فيدخل في (ما) العاقل وغيره.

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٠ ـ ٢٨١.

والجهة الأخرى: أن العقلاء يدخلون في ذلك من باب التغليب ، فإنه قد يغلب غير العاقل على العاقل، أو العاقل على غير العاقل بحسب القصد والمقام، وهنا يحسن تغليب غير العاقل؛ وذلك لأن الأصل والأولى أن لا يصدر شر من عاقل ، فحسن تغليب غير العاقل، جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «وإنما جاز إدخال الجن والإنس تحت لفظة (ما) لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة (ما) فيه ؛ لأن العبرة بالأغلب»[1].

وقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ولم يقل: (من شر الذي خلق) ؛ لأن (ما) أعم من (الذي) ، فإن (الذي) للمفرد المذكر فلا يشمل غيره ، وأما (ما) فتكون للمفرد والمثنى والجمع ، المذكر والمؤنث ، فإنه لو قال: (من شر الذي خلق) لكان يعني شر شيء واحد من الذكور.

ولم يقل: (من شر التي خلق) لأن (التي) للمفردة المؤنثة ، وقد تستعمل لجمع غير العاقل كقولك: (هذه هي الكتب التي اشتريتها) ، ولا تستعمل لجمع العاقل ، فتنحصر الاستعاذة إما بشر واحدة مما خلق ، أو شر مجموعة من غير العقلاء ، ولا يشمل ذلك الشر الصَّادر من العقلاء ، فكانت (ما) أولى.

وقوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أولى من القول: (من شر اللاتي خلق) فإن (اللاتي) مختصة بجماعة الإناث ، وتكون أيضًا لجماعة ما لا يعقل من الذكور ، فلا يشمل الذكور من ذوي العلم.

وهو أولى أيضًا من القول: (من شر الذين خلق) ، فإن (الذين) خاصة بجماعة الذكور العقلاء ولا يدخل فيه الإناث ولا غير العاقل ، فكانت

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٩٣.

(ما) أولى من غيرها على كل وجه.

* * *

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ ﴾

الغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه[١]، والغسق: الظلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] جاء في (لسان العرب): «غسقت السماء تغسق... انصبَّت... وغسق الليل يغسق غَسْقاً وغَسَقاً... انصبَّ وأظلم... وغَسَقُ الليل: ظلمته... وفي حديث الربيع بن خيثم أنه قال لمؤذنه يوم الغيم: أَغْسِقْ أَغْسِقْ، أي أَخّر المغرب حتى يَغْسِق الليل، وهو إظلامه» [٢].

(وقب): دخل في كل شيء، والوقوب: الدخول في كل شيء، أو الدخول في الوقْب، والوقْب: الكوّة أو نقرة يجتمع فيها الماء، جاء في (لسان العرب): «الأوقاب: الكُوَى، واحدها وَقْب. والوَقْب في الجبل: نقرة يجتمع فيها الماء... وقب الشيء يقب وقبًا: دخل، وقيل: دخل في الوقب...

الفراء: الغاسق: الليل، إذا وقب: إذا دخل في كل شيء وأظلم... والوقوب: الدخول في كل شيء، وقيل: كل ما غاب فقد وقب وقبًا» [٣].

وفي (البحر المحيط): «وقب الليل: أظلم، والشمس: غابت، والعذاب: حَلَّ... والغاسق: الليل، ووقب: أظلم ودخل على الناس... والغاسق: البارد أستعيذ من شره، لأن فيه تنبث الشياطين والهوام والحشرات وأهل الفتك...

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦١.

(٢) لسان العرب (غسق).

(٣) لسان العرب (وقب) ٢/ ٣٠١.

وفي الحديث نظر ﷺ إلى القمر فقال: يا عائشة نعوذ بالله من هذا فإنه الغاسق إذا وقب... وقيل: الحية إذا لدغت، والغاسق: سُمُّ نابها لأنه يسيل منه» (١).

وجاء في (الكشاف): «الغاسق: الليل إذا اعتكر ظلامه، من قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾... ووقوبه: دخول ظلامه في كل شيء. ويقال: وقبت الشمس إذا غابت. وفي الحديث (لما رأى الشمس قد وقبت قال هذا حِيْنُ حِلِّها) يعني صلاة المغرب. وقيل: هو القمر إذا امتلأ... والتعوذ من شر الليل، لأن انبثاثه فيه أكثر، والتحرز منه أصعب» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «من شر غاسق: وإضافة الشر إلى الليل لملابسته له لحدوثه فيه على حد: نهاره صائم، وتنكيره لعموم شمول الشر لجميع أفراده ولكل أجزائه.

(إذا وقب): أي إذا دخل ظلامه في كل شيء... والتقييد بهذا الوقت لأن حدوث الشر فيه أكثر والتحرز منه أصعب وأعسر. ومن أمثالهم: الليل أخفىٰ للويل...

عن عائشة قالت: نظر رسول الله ﷺ يومًا إلى القمر لما طلع فقال: يا عائشة استعيذي بالله تعالىٰ من شر هذا، فإن هذا الغاسق إذا وقب» (٣).

وقد تقول: ولم لم يقل: من شر الليل إذا دخل؟

فنقول: إن ما جاء في السورة أولى من أوجه منها:

أن (الغاسق) فيه عموم، فهو يشمل الليل وغيره ولا يخص الليل

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٢٩ ـ ٥٣١.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٦٨.
(٣) روح المعاني ٣٠/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

وحده ، فقد ذكر أن من معانيه القمر ، وقيل : إنه الحية إذا لدغت ، وقيل غير ذلك. فكان ذكره أولى من ذكر الليل ، فتكون الاستعاذة من شرور ما هو أعم ويدخل فيه الليل.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن اختيار لفظ الوقوب مع الغسق أولى من لفظ الدخول ، فهو أحسن استعارة وأجمل تعبير ، ذلك أن الليل كأنه ينصب ظلامه ويجتمع في نقرة كما يجتمع فيها الماء. فالعالم كالنقرة يصب فيها الليل ظلامه فلا يترك منها شيئًا. والانصباب يكون عادة من فوق ، بخلاف الدخول فإنه لا يشترط فيه ذلك ، والليل إنما ينصب على الناس من فوق كما ينصب الماء في النقرة.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن «أصل الغسق الامتلاء ، يقال: غسقت العين إذا امتلأت دمعًا»[1]. والامتلاء يقال لما كان ذا جوف كالنقرة ونحوها ، ومنه الوقب وهو النقرة ، أو الكوة ، أو عين الماء ، فاختيار الغسق مع الوقب أنسب شيء ، فكأن الليل يملؤها بانصباب ظلامه فيها ، فكان التعبير بذلك أولى وأنسب.

ثم لنر من ناحية أخرى كيف أن التعبير بالغاسق إذا وقب يتناسب مع الفلق بمعنى الصبح ، فإنه يستعيذ برب النور من الظلمة ، وبرب الصبح من شرور الليل. وهو يتناسب معه بالمعنى العام أيضًا ، فإن الغاسق إذا وقب له عدة معان أشهرها الليل إذا أظلم ، وكذلك الفلق له عدة معان أشهرها الصبح ، فناسبت الاستعاذة برب الفلق قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ على كل حال.

والاستعاذة برب الفلق من شر غاسق إذا وقب تتضمن عقيدة

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٨١.

التوحيد ، وتفيد أن إله النور والظلمة واحد ، فهو يزيل الظلمة ويمحوها إذا شاء ، فقد استعاذ برب الفلق ـ وهو النور ـ من شر الغاسق إذا وقب ، وهو الظلمة ، فهو رب النور ورب الظلمة يزيلها ويزيل شرورها فهو إله واحد على كل شيء قدير .

* * *

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۝٤ ﴾

النفاثات : قيل : هي النفوس الخبيثة والأرواح الشريرة ، وقيل : هن الجماعات أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقدًا في خيوط يرقين عليها وينفثن فيها للتأثير على نفوس الآخرين .

جاء في (البحر المحيط) «والنفاثات : النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن عليها ويرقين . . . والاستعاذة من شرهن هو ما يصيب الله تعالى به من الشر عند فعلهن ذلك» (١) .

وجاء في (روح المعاني) «﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ [الفلق : ٤] «أي ومن شر النفوس السواحر اللاتي يعقدن عقدًا في خيوط وينفثن عليها ، فالنفاثات صفة للنفوس ، واعتبر ذلك لمكان التأنيث ، مع أن تأثير السحر إنما هو من جهة النفوس الخبيثة والأرواح الشريرة وسلطانه منها . . . وتعريفها إما للعهد أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه» (٢) .

وهو قد جاء بالصفة ولم يأت بالموصوف ، فلم يقل : (النساء النفاثات) أو النفوس أو غير ذلك ؛ لإرادة العموم وعدم تقييد ذلك بقيد ،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٣١ .

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٢ .

سواء صدر عن النساء أم عن غيرهن.

وجاء بجمع الإناث ولم يأت بجمع الذكور، فلم يقل: (النفاثين) وذلك لإرادة العموم أيضًا، فإن (النفاثات) تشمل الإناث، وتشمل الأرواح والنفوس والجماعات اللاتي تفعل هذا الفعل.

وهي تعم نفوس الذكور والإناث وغيرهم ممن يفعل هذا الفعل، ولو قال: (النفاثين) لم يشمل إلاّ الذكور ولم يعم شرور غيرهم.

* * *

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

قيد الحاسد بقوله: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ ولم يقل: (من شر حاسد) فقط؛ ذلك أن شر الحاسد إنما يكون عند حسده، أما إذا لم يحسد فلا ضرر منه. فإنه قد يكون إنسان متصفًا بالحسد ولكنه لا يحسد في كل وقت، كما تقول: (هذا كاتب) وليس هو في حالة كتابة، و(هذا سائق) وليس هو في حالة سَوق. وقد تقول: (هذا قائد) وهو ليس في حال قيادة. وكذلك قد يكون الحاسد في غير حالة حسد، وفي هذا الوقت ليس منه ضرر ولا شر صادر عنه، وإنما يصدر الشر عنه إذا حسد، ولذا قيده بقوله: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾.

جاء في (التفسير القيم): «وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده» [(١)].

وجاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾: «أي إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر

---

(١) التفسير القيم ٥٨٣.

ومبادئ الأضرار بالمحسود قولاً وفعلاً»[١].

وقال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ ولم يقل: (من شر حسود)؛ لأن كلمة (حاسد) أعم؛ لأنه يشمل الحسود والحاسد، أي غير المبالغ والمبالغ، فإن الحسود إذا حسد كان حاسدًا في حينه، وذلك كالكذاب، فإنه إذا كذب كان كاذبًا في وقت كذبه وليس دائمًا؛ لأن الكذاب قد يكون صادقًا أحيانًا، وقد قيل: (قد يصدق الكذوب). فلو قال: (ومن شر حسود إذا حسد) كان ذلك لا يشمل الحاسد غير المبالغ، بخلاف قوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فإن ذلك يعمهما جميعًا.

وقد تقول: ولمَ لم يقل إذن: (ومن شر النافثات في العقد) فيأتي باسم الفاعل ليشمل المبالغ وغيره كما فعل في الحاسد؟

فنقول: إنه لما جمع (العقدة) جمع كثرة فقال: (العُقَد) جاء بصيغة المبالغة لتناسب الكثرة في صيغة المبالغة كثرة العقد.

ونظير هذا قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ و﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، فإنه إذا أفرد الغيب جاء باسم الفاعل فقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾، وإذا جمع الغيب جاء بصيغة المبالغة فقال: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ وذلك حيث وقع في القرآن الكريم، وذلك لتناسب المبالغة في العلم كثرة الغيوب، فإنه ورد قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ في ثلاثة عشر موضعًا من القرآن الكريم، وورد قوله: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ في أربعة مواطن.

فاتضح أن قوله: ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أنسب، وذلك أنه لما كثرت العقد كثر النفث.

وهناك أمور أخرى في السورة منها:

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٤، وانظر البحر المحيط ٨/ ٥٨١.

أنه كرر (من شر) في كل معطوف فقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ ﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ ﴾ ولم يقل مثلاً: (من شر ما خلق وشر النفاثات وشر حاسد) ولا (من شر ما خلق وغاسق إذا وقب والنفاثات وحاسد) وذلك للدلالة على أن كلاً من المذكورين تنبغي الاستعاذة منه على وجه الاستقلال لعظم شره.

بخلاف ما لو قال: (من شر ما خلق وغاسق والنفاثات) فإن هذا التعبير يحتمل الاستعاذة من شرها إذا اجتمعت لا إذا انفرد كل واحد منها، فقد يكون الشر من اجتماع شيئين ولا شر منه إذا كان وحده، كما تقول: (لا تحمل البنزين والنار).

وقد يحتمل المعنى إذا قال: (من شر ما خلق وغاسق إذا وقب والنفاثات...) أنه استعاذ من شر ما خلق، واستعاذ من الغاسق إذا وقب والنفاثات والحاسد، فتكون الاستعاذة من الغاسق إذا وقب ومن النفاثات والحاسد لا من شرورها، فتكون الاستعاذة من الليل نفسه لا من شره، ومن النفاثات أنفسهن لا من شرورهن، وذلك إذا قدرنا العطف على كلمة (شر) في قوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ مع أن المراد هو الاستعاذة من شرور هؤلاء لا منهم أنفسهم.

وقد يحتمل المعنى أيضًا أن يكون لهؤلاء شر واحد، كما تقول: (أخو محمدٍ وخالدٍ حضر) و(رأيت أخا محمدٍ وخالدٍ) ففي الجملة الأولى يتعين أن أخا محمد وخالد شخص واحد، بدليل قولنا: (حضر)، وفي الجملة الثانية يحتمل أنهما شخص واحد وأنهما شخصان. وعلى التقدير الأول يكون المعنى: رأيت أخاهما، وعلى التقدير الثاني يكون المعنى: رأيت أخا محمد وأخا خالد، فكان تكرار الشر مع كل واحد أولى.

ولم يقل: (من شر ما خلق وشر غاسق وشر النفاثات) لأن ذكر (من)

في كل واحد أدل على استقلال كل صنف بالاستعاذة وآكد ، فإن التكرار يفيد التوكيد.

وقد تقول: ولِمَ لم يكرر لفظ الاستعاذة من كل مستعاذ منه فيقول: (قل أعوذ برب الفلق وأعوذ من شر غاسق إذا وقب وأعوذ من شر النفاثات. . .) كما كررها في موطن آخر من القرآن الكريم فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون]

فنقول: إن تكرار الاستعاذة آكد من ذكر متعلقها وأقوى ، وهي في سورة (المؤمنون) أقوى منها في سورة (الفلق) ، فانبغى تكرارها فيها ، بخلاف سورة (الفلق) ، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨] فأمره سبحانه أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن ، وهذا أمر يشق على النفس الإنسانية ، إذ الأصل أن يدفع السيئة بمثلها ، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ، وقال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] فإذا عفا عن ذلك كان أجمل وأشق على النفس.

أما مقابلة السيئة بالإحسان فهذا شاق جدًّا على النفس ، وقد أمره ربنا أن يدفع السيئة بما هو أشق على النفس من ذلك جميعًا ، فإنه لم يطلب منه أن يقابل السيئة بالحسنة ، بل طلب منها أن يدفعها بالتي هي أحسن ، بصيغة التفضيل ، وهذا أشق شيء على النفس وأشد على الشيطان ، فإن الشياطين لا تدع الإنسان لمثل هذا ، بل ستهمزه وتدفعه إلى العدوان إن استطاعت ، أو إلى الرد بالمثل طلبًا للكرامة والثأر للنفس ، وكل ما بعد ذلك كان أشق على النفس ، وههنا طلب ربنا أن نستعيذ من همزات

الشياطين ومن حضورهم ، وليس في سورة الفلق مثل هذا .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه أمره أن يستعيذ من همزات الشياطين، وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم ، والهمز : النخس، وأصله أن راكب الدابة ورائضها يهمزها بحديدة ، أي ينخسها ليحثها على المشي ، فإن الشيطان كأنه يهمز الإنسان ، أي ينخسه ويدفعه ويحثه على المعصية ، كما يفعل الرائض مع الدابة .

جاء في (البحر المحيط) في هذه الآية : «أمره تعالى أن يستعيذ من نخسات الشياطين ، والهمز من الشيطان عبارة عن حثه على العصيان والإغراء به ، كما يهمز الرائض الدابة لتسرع ، ثم أمره أن يستعيذ [من حضورهم عنده . . . وفسر همز الشيطان] (١) بسَورة الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه . . . والظاهر أنه أمر بالاستعاذة من حضور الشياطين في كل وقت» (٢) .

وجاء في (الكشاف) : «الهمز : النخس ، والهمزات جمع المرة منه ، ومنه : مهماز الرائض . والمعنى : أن الشياطين يحثون الناس على المعاصي ويغرونهم عليها ، كما تهمز الراضة الدواب حثًّا لها على المشي . . . أمر بالتعوذ من نخساتهم بلفظ المبتهل إلى ربه المكرر لندائه ، وبالتعوذ من أن يحضروه أصلاً ويحوموا حوله» (٣) .

فاستعاذ من همزات الشياطين ، واستعاذ من حضورهم في كل حال من الأحوال ، فإن الشيطان كله شر ، همزه وحضوره ، فإن حضوره لا يكون إلا لشر .

---

(١) زيادة من (النهر المادّ من البحر) لأبي حيان ٦/ ٤١٩ وهو ما يقتضيه السياق ، والراجح أنها ساقطة .
(٢) البحر المحيط ٦/ ٤٢٠ .
(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٩.

فالاستعاذة هنا أشد مما في سورة الفلق. ثم إن الشيطان شر من كل ما ذكر في سورة (الفلق)، فقد استعاذ في سورة الفلق من شر ما خلق، وهذا أمر مطلق جمع شرورًا متعددة، فمخلوقاته تعالى بعضها شر من بعض، فقد يكون بعضها قليل الشر، وبعضها كثير الشر، وشر ما نعلم من مخلوقاته الشيطان، فهو عدونا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] وقد حذرنا منه ربنا كثيرًا، وهو أكثر مخلوق يضمر العداوة لنا، فهو أكبر شر يتهددنا، ولذا طلب ربنا الاستعاذة منه في مواضع عديدة من القرآن. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠، فصلت ٣٦]، وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

ثم استعاذ من شر الغاسق إذا وقب، وفيه تقع شرور كثيرة أشدها وأخطرها ما يصدر من العقلاء، وهذه كلها من وساوس الشيطان، أو من الشيطان نفسه.

واستعاذ من شر النفاثات في العقد، وهذا إنما يكون من وسوسة الشيطان وإعانته وعمله.

ونحوه شر الحاسد إذا حسد، فإن حسده إنما يكون بهمز من الشيطان ونزغه وتزيينه له، وذلك كله إنما يكون بحضور الشيطان، وما حضوره إلاّ للوسوسة والنزغ والشر.

ولذا كرر الاستعاذة في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ دون سورة الفلق، فكان كل تعبير في مكانه أنسب.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ...﴾: «﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي من حضورهم حولي في

حال [من] [١] الأحوال. . . وفي الأمر بالتعوذ من الحضور بعد الأمر بالتعوذ من همزاتهم مبالغة في التحذير من ملابستهم، وإعادة الفعل مع تكرير النداء لإظهار كمال الاعتناء بالمأمور به ، وعرض نهاية الابتهال في الاستدعاء، ويسنّ التعوذ من همزات الشياطين وحضورهم عند إرادة النوم» [٢].

ومن الأمور الأخرى في السورة أنه رتب المستعاذ منه في السورة بحسب الكثرة والقلة ، وبحسب العموم والخصوص.

فإنه بدأ بأعم شيء وأكثره فقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ، وهو يشمل كل مخلوقاته. ثم أتبعه بما هو أخص منه وأقل وهو شر الغاسق إذا وقب ، وهو الليل إذا دخل ، وهو دون الأول في الكثرة وأخص منه. ثم أتبعه بما هو أخص منه وأقل وهو شر النفاثات في العقد ، وهنّ أقل من الليل إذا وقب ، فالليل يدخل كل يوم وشروره متعددة. ثم أتبعه بما هو أخصّ وأقل وهو شر الحاسد إذا حسد.

فالنفاثات في العقد أكثر، وعملهن أعم، ذلك أنه جمعهن وأفرد الحاسد، والنفاثات هن الأرواح الشريرة والنساء السواحر ، ولا شك أنهن كثير.

ثم عرّفهن بأل الاستغراقية وجاء بهن على صيغة المبالغة الدالة على الكثرة، ولم يقيدهن بوقت، في أنه أفرد الحاسد ونكّره وقيده بوقت الحسد.

ثم إن عمل النفاثات في العقد لا يختص بأمر واحد من الشرور ، فشرورهن متعددة ، وأما الحاسد فشره مخصوص بالحسد ، فيكون عمل النفاثات أشمل وأكثر.

ثم إن النفاثات صفة مطلقة غير مقيدة بموصوف ، فقد تشمل

---

(١) زيادة يقتضيها السياق ، والراجح أنها ساقطة.

(٢) روح المعاني ١٨/ ٩٢.

الشياطين وعموم الأرواح الشريرة والنساء السواحر ، أما الحاسد فهو إنسان ، فالنفاثات أكثر وشرهن أعم وأكثر تعددًا .

ثم إنه ليس كل حاسد يصدر عنه الشر ، بخلاف النفاثات في العقد ، وبهذا اتضح أنه تدرج من الكثرة إلى القلة ، ومن العام إلى الخاص . وقد «عمم أولاً فقال: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ، ثم خص هذه لخفاء شرها ، إذ يجيء من حيث لا يعلم. وقالوا: شر العداة المداجي بكيدك من حيث لا تشعر» [١] .

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: قوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ تعميم في كل ما يستعاذ منه، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد؟

قلت: قد خصّ شر هؤلاء من كل شر لخفاء أمره ، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم كأنما يغتال به ، وقالوا: شر العداة المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر» [٢] .

ومن الملاحظ أيضًا أنه نكّر (غاسق) و(حاسد) وعرّف (النفاثات) ؛ ذلك لأن كل نفاثة شريرة ، وليس كل غاسق يكون فيه الشر ، ولا كل حاسد يكون منه الضرر ، وإنما يكون في بعض دون بعض[٣] . «ورب حسد محمود ، وهو الحسد في الخيرات ، ومنه (لا حسد إلاّ في اثنتين) ، ومنه قول أبي تمام:

وما حاسِدٌ في المكرُماتِ بحاسدِ» [٤]

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٣١ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٦٨ .

(٣) انظر الكشاف ٣/ ٣٦٨ ، أنوار التنزيل ٨١٥ .

(٤) البحر المحيط ٨/ ٥٣١ .

ثم إنه قيّد الغاسق والحاسد بالظرف (إذا) فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ، ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ولم يقيد النفاثات ؛ وذلك أن شر الغاسق يكون إذا دخل ، أما إذا لم يدخل فلا ينسب إليه الشر. وكذلك الحاسد لا يؤثر إلا إذا حسد كما أسلفنا ، بخلاف شر النفاثات ، فإنه لم يقيد بزمن أو بشيء ، لأن شرهن مطلق ، وهو واقع غير مقيد بقيد.

جاء في (البحر المحيط): «وقيد الغاسق والحاسد بالظرف ؛ لأنه إذا لم يدخل الليل لا يكون منسوبًا إليه. وكذلك كل ما فسر به الغاسق. وكذلك الحاسد لا يؤثر حسده إلاّ إذا أظهره بأن يحتال للمحسود فيما يؤذيه ، أما إذا لم يظهر الحسد فإنما يتأذى به هو لا المحسود لاغتمامه بنعمة غيره» [١].

* * *

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٣١.

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

* * *

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾

استعاذ بثلاث صفات من صفات الله تعالىٰ وهي الرب والملك والإله من شرٍّ واحد وهو شر الوسواس الخناس ، في حين استعاذ بصفة واحدة وهي الرب في السورة السابقة من شرور متعددة مجملة ومفصلة ، ذلك أن هذا الشر أخطر على الفرد والمجتمع من تلك الشرور ، فإن شر الوسواس يعود على الفرد الذي تلقى إليه الوسوسة وعلى الآخرين فيقع تحت طائلة الحساب والعقاب في الدنيا والآخرة .

جاء في (البحر المحيط) : «ولما كانت مضرَّة الدِّين وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا ـ وإن عظمت ـ جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث : الرب والملك والإله وإن اتحد المطلوب ، وفي الاستعاذة من ثلاث : الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الرب ، وإن تكثر الذي يستعاذ منه» [١] .

لقد ذكر ثلاث صفات من صفات الله تعالى يستعيذ بها المستعيذ وهي

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٣٢ .

الرب والملك والإله ، وقد قدم الرب أولاً ثم الملك وبعده الإله ، وكل ذلك لسبب.

فإن هذا هو التدرج الطبيعي لدفع المحذور ، فإنك إذا خشيت محذورًا أو وقع عليك ظلم أو عدوان مما لا تملك دفعه فإنك تلجأ أولاً إلى دفعه بالمعرفة والعلم والرأي ، وتستعين بأولي المعرفة والخبرة ليوجهوك إلى ما تفعل في نحو هذا. وهذا هو شأن الرب ، فإن الرب هو المربي والمرشد والموجه والمعلم. فإذا لم يندفع بذلك التجأت إلى السلطان والحاكم ، ويعبر عنه أيضًا بالملك ، فإن لم يندفع بذلك أو لم يأخذ لك حقك التجأت إلى الله وفوّضت أمرك إليه ليخلصك منه ويأخذ لك حقك.

وقد جمع الله لنفسه هذه الجهات ، فهو الرب والملك والإله ، فإذا قصدت أهل الخبرة والعلم والتوجيه فالتجئ إلى الله ، وإذا قصدت السلطان فالتجئ إلى الله ، وإذا قصدت الإله الذي عنا له كل شيء فالتجئ إلى الله.

جاء في (روح المعاني): «ويندرج في وجوه الاستعاذة المعتادة تنزيلاً لاختلاف الصفات بمنزلة اختلاف الذات ، فإن عادة من ألمّ به هم أن يرفع أمره لسيده ومربيه كوالديه ، فإن لم يقدر على رفعه رفعه لملكه وسلطانه ، فإن لم يزل ظلامته شكاه إلى ملك الملوك ومن إليه المشتكى والمفزع ، وفي ذلك إشارة على عظم الآفة المستعاذ منها» [١].

ثم إن الناس يمرون بأطوارٍ ومراحل:

فالمرحلة الأولى: هي مرحلة الأجنّة والأطفال إلى ما دون سن

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٦.

التكليف ، وهؤلاء محتاجون إلى من يربّهم ويقوم على أمرهم ويتولى شؤونهم وذلك هو الرب .

فإذا كانوا في مجتمع احتاجوا إلى من ينظم أمورهم ويحفظ لكل ذي حق حقه ويحمي بعضهم من عدوان بعض ، وذلك شأن الملك .

فإذا بلغوا سن التكليف والنظر في أمر هذا الكون ومدبر أمره وما يطلبه منهم خالقهم كان ذلك متعلقًا بأمر الإله .

إن أول ما يواجهه الناس فيما يتعلق بحياتهم هو المربي والقيّم الذي يقوم على أمرهم ، ثم الملك . أما أمر الألوهية فيخفى على كثير من الناس فيضلون ويعبدون الأحجار والأبقار . وقد يبقى أمر الألوهية خافيًا على قسم من الناس غير ظاهر لهم فيحتاجون إلى الأدلة والبراهين للتدليل عليه ، بخلاف أمر المربي والملك فإنهما يعرفان ضرورة ، فالإله آخر ما يعرف ويعلم ولذلك أخره والله أعلم .

جاء في (روح المعاني): «وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة ، وقيل: لا تكرار ، فإنه يجوز أن يراد بالعام بعض أفراده ، فالناس الأول: بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية .

والثاني: الكهول والشباب لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم .

والثالث: الشيوخ المتعبدون المتوجهون لله تعالى» [١] .

وجاء في (فتح القدير): «وأيضًا بدأ باسم الرب ، وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك ، فذكر أنه ملك الناس . ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وأنه عبد مخلوق ، وأن خالقه إله معبود بيَّن سبحانه

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٦ .

أنه إله الناس»[(١)].

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه بدأ بالمرحلة الأولى التي يشترك فيها الإنسان والحيوان وهي مرحلة المربي ، فإن الحيوانات تربي صغارها وتقوم على أمرها ، وهذا هو شأن الرب ، وهي لا تحتاج إلى ملك ينظم أمرها.

ثم يترقى المجتمع فتنشأ علاقات بين أفراده وتظهر حقوق وواجبات فيحتاجون إلى الملك أو السلطة ، وهذا شأن كل المجتمعات سواء ما كان منها ذا دين أم لم يكن ، وهو شأن الملك. وربما كانت عند قسم من الحيوانات والحشرات مظاهر أولية من مظاهر التجمع والانقياد إلى ملك ونحوه.

ثم يتخصص عقلاء خلق الله بالنظر في أمر هذا الكون وخالقه ومدبره والانقياد له ، وهذا هو أمر الألوهية والإله ، فرتبه على هذا النهج.

ثم إن الناس إما أن يكونوا طلاب علم ومعرفة وإصلاح وارتزاق فيقصدوا الرب المعلم والمرشد والقيم والمربي الذي يربّ الناس ، وإما أن يكونوا طلاب جاه وسلطان فيقصدوا الملك ، وإما أن يكونوا طلاب دين وآخرة فيقصدوا الإله. وقد جمع الله لنفسه كل هذه الصفات ، فهو الصمد الذي يقصد إليه كل طالب ، فهو الرب والملك والإله.

ثم نلاحظ أنه تدرج في الصفات من الكثرة إلى القلة ، وفي المضاف إليه ـ وهم الناس ـ من القلة إلى الكثرة ، فالأرباب قد تتعدد فيكون للدار رب وللعبد رب ولكل مجموعة رب يربّهم ويرشدهم ، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ [يوسف: ٢٣] ، وقال: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ

---

(١) فتح القدير ٥/ ٥٠٩ ، وانظر التفسير الكبير ٣٢/ ١٩٧.

ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ ﴾ [يوسف: ٥٠]، وقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

فقد يكون في المجتمع الواحد مرشدون وموجهون ومربون، فكل واحد ربٌّ لجماعته، أي مربّ ومعلم ومرشد.

والملوك أقل؛ لأنه يكون للدولة الواحدة ملك واحد مع تعدد الموجهين والمرشدين، وهم في ممالك الدنيا متعددون، فلكل مملكة ملك.

والإله واحد لا شريك له.

فهو قد تدرج من الكثرة إلى القلة.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ «بين بملك الناس، ثم زيد بيانًا بإله الناس؛ لأنه قد يقال لغيره: (رب الناس)، كقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] وقد يقال لغيره: ملك الناس. وأما (إله الناس) فخاص لا شركة فيه، فجعل غاية للبيان» [(١)].

وجاء في (تفسير البيضاوي) أن قوله: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾: «عطف بيان له، فإن الرب قد لا يكون ملكًا، والملك قد لا يكون إلهًا» [(٢)].

وجاء في (فتح القدير) في قوله: ﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾: «لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالإيجاد والإعدام.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٩.

(٢) أنوار التنزيل ٨١٥.

وأيضًا الرب قد يكون ملكًا وقد لا يكون ملكًا ، كما يقال: (رب الدار ، ورب المتاع). . . فيبيّن أنه ملك الناس. ثم الملك قد يكون إلهًا وقد لا يكون ، فبيّن أنه إله ؛ لأن اسم الإله خاص به لا يشاركه فيه أحد.

وأيضًا بدأ باسم الرب ، وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك ، فذكر أنه ملك الناس. ثم لما علم أن العبادة لازمة له وواجبة عليه ، وأنه عبد مخلوق ، وأن خالقه إله معبود ، بيّن سبحانه أنه إله الناس» (١).

وقد تقول: ولمَ لم يعطف بالواو فيقول: (وملك الناس وإله الناس)؟

والجواب: أنه لم يعطف لئلا يظن أنه ذوات متعددة ، فهو الرب والملك والإله. جاء في (التفسير القيم) أنه «لم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة» (٢).

وقد تقول: ولم كرر الناس ولم يأت بالضمير فقال: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: (رب الناس ملكهم إلههم)؟

والجواب: أن ذكر الناس مع كل اسم أولى وأحسن ، ذلك أن كلمة الناس قد تطلق على الكثير منهم والقليل ، وقد تطلق على الجميع ، فقد تخاطب مجموعة من الناس بقولك: (أيها الناس) ، ومنه الحديث (أشيروا عليّ أيها الناس) وهو يعني الأنصار ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ومعلوم قطعًا أن القائل ليس جميع الناس ولا الذين جمعوا لهم بل هم بعض منهم.

وقد تطلق على الجميع ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن

---

(١) فتح القدير ٥/ ٥٠٩ ، وانظر التفسير الكبير ٣٢/ ١٩٧.

(٢) التفسير القيم ٥٩٨.

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ١٣]. فرب الناس قد يطلق على صاحب مجموعة قليلة من الناس أو كثيرة، وملك الناس جماعته أكثر، فإن شعب الملك وناسه أكثر من ناس المربي، وإله الناس عباده أكثر، فهو يشمل جميع الناس.

فلو قال: رب الناس وملكهم وإلههم، لظُنّ أنه ملك وإله جماعة الناس المذكورين مع الرب دون غيرهم، وقد تكون مجموعته قليلة أو كثيرة، فذكر الناس مع كل صفة لئلا يظن أنه ملك وإله مجموعة دون أخرى.

وقد تدرج في مجموعة الناس من القلة إلى الكثرة، ذلك أن ناس الملك أكثر من ناس المربي، فإنه قد يكون لجماعة من المربين ملك واحد، وناس الإله أكثر من ناس الملك، فإن ناس الإله هم كل الناس، بخلاف ناس الملك.

فهو تدرج في ذكر الصفات من الكثرة إلى القلة، وتدّرج في ذكر ناسهم من القلة إلى الكثرة.

* * *

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ﴾

الوسواس كلمة على وزن فَعلال، وفَعلال المفتوح الفاء يكون اسمًا، والمكسور الفاء مصدرًا وذلك كالزَّلزال والزِّلزال، فالزِّلزال بالكسر مصدر الفعل (زلزل)، وبالفتح الاسم، أي هو اسم لحركة الأرض المعروفة[١].

وقد يكون فَعلال وصفًا بمعنى اسم الفاعل، وذلك كالثَّرثار وهو

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٣٥٢، روح المعاني ٣٠/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

بمعنى المثرثر، والفأفاء والتَّمتام، غير أنه يفيد المبالغة والكثرة كفعّال في الثلاثي[١].

وقد اختلف في الوسواس على هذا، فمنهم من ذهب إلى أن الوسواس اسم بمعنى الوسوسة، وهو ما يوسوس به الشيطان من هوى النفس وشهواتها، فما توسوس به النفس من خطرات وأهواء هو الوَسواس، وعلى هذا تكون الاستعاذة من شرور هذه الوساوس التي تنقمع بذكر الله تعالى.

وقيل: المراد به الشيطان على تقدير حذف المضاف، أي من شر ذي الوسواس، وذو الوسواس هو الشيطان. جاء في (الكشاف): «الوسواس اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة. وأما المصدر فوِسواس بالكسر كزِلزال، والمراد به الشيطان، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه؛ لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه، أو أريد به ذو الوسواس. والوسوسة: الصوت الخفي» [٢].

وقسم ذهب إلى أن الوسواس وصف بمعنى اسم الفاعل، أي الموسوس، كالثرثار والقضقاض والتمتام بمعنى المثرثر والمقضقض، وهو من أسماء الشيطان أيضًا. جاء في (روح المعاني): «وقال الزمخشري: المكسور مصدر، والمفتوح اسم للحركة المعروفة [يعني الزلزال]...» [٣]. وقال أيضًا: ليس في الأبنية فعلال بالفتح إلا في المضاعف، وذكروا أنه يجوز في ذلك الفتح والكسر، إلا أن الأغلب فيه إذا فتح أن يكون بمعنى اسم الفاعل كصلصال بمعنى مصلصل،

---

(١) انظر روح المعاني ٣٠/ ٢٨٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٧٠.
(٣) روح المعاني ٣٠/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

وقضقاض بمعنى مقضقض ، ووسواس بمعنى موسوس ، وليس مصدرًا عند ابن مالك. وأما في غير المضاعف فلم يسمع إلاّ نادرًا ، سواء كان صفة أو اسمًا جامدًا. . . ومن النادر خزعال بمعجمتين ، وهو الناقة التي بها ظلع».

وجاء فيه أيضًا: «والوسواس عند الزمخشري اسم مصدر بمعنى الوسوسة ، والمصدر بالكسر. . . وقال بعض أئمة العربية: إن فعلل ضربان: صحيح كدحرج ، وثنائي مكرر كصلصل ، ولهما مصدران مطّردان: فَعْللة وفِعلال بالكسر ، وهو أقيس ، والفتح شاذ ، لكنه كثر في المكرر كتمتام وفأفاء. ويكون للمبالغة كفعّال في الثلاثي ، كما قالوا: وطواط للضعيف وثرثار للمكثر. والحق أنه صفة ، فليحمل عليه ما في الآية الكريمة من غير حاجة إلى التجوز أو حذف المضاف» (١).

والذي يترجح أنه وصف بمعنى اسم الفاعل يفيد الكثرة والمبالغة ، ويدل على ذلك قوله: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ فجعل الوسواس قسمين: قسمًا من الجنة وقسمًا من الناس ، وهذا لا يحمل على المصدر أو ما كان بمعنى المصدر إلاّ على ضرب من التأويل والتقدير. فحمله على الوصف سالم من التقدير ومن التجوز ، وله نظائر في اللغة.

وقد يحمل على المعنيين معًا على التوسع في المعنى ، فتكون الاستعاذة من شر الوسوسة والموسوس جميعًا.

واختيار الوسواس على الموسوس له أكثر من سبب ، فإن الوسواس يحتمل أكثر من معنى كما ذكرنا ، فهو يحتمل معنى الوسوسة ومعنى

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٦.

الموسوس فيستعاذ من شروره على اختلاف معانيه.

ثم إن الموسوس قد يكون لمعنى آخر غير الوسواس، ذلك أن لفظ الموسوس قد يطلق على من تغلب عليه الوسوسة، فيقال: «رجل موسوس إذا غلبت عليه الوسوسة... وفلان الموسوِس ـ بالكسر ـ الذي تعتريه الوساوس» (١).

ثم إن الوَسواس هو المبالغ في الوسوسة، فهي من صفات المبالغة، مثل (فعّال) في الثلاثي كالكذّاب والصبّار، وليس في الموسوس مبالغة، فكان اختيار الوسواس أولى.

ثم إنه استعاذ من شر الوسواس، ولم يستعذ منه على العموم، فلم يقل: (من الوسواس الخناس)، في حين عندما ذكر الشيطان استعاذ منه على العموم فقال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، وقال: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ذلك أن المذكورين في سورة الناس هم الجنة والناس وليسوا الشياطين، والجن منهم المؤمنون الصالحون ومنهم الفسقة ومنهم الكافرون، شأن بني آدم، كما قال تعالى على لسان الجن: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ [الجن: ١٤] وقال: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن: ١١] فالكفرة منهم هم الشياطين.

وذكر مع الجنة الناس، وهم أصناف كما لا يخفى، فاستعاذ من شرور هؤلاء لا منهم على العموم، فإنه لا ينبغي الاستعاذة من الجن على العموم، فإن فيهم خيرًا وصلاحًا، ولكن يستعاذ من شرهم.

وكذلك الناس فإننا لا نستعيذ من الناس على العموم، بل من

---

(١) لسان العرب (وسوس) ٨/ ١٤٢.

شرورهم ، فإننا مأمورون بمخالطة الناس ودعوتهم وإصلاحهم ونصحهم فكيف نستعيذ منهم. فلا نقول: أعوذ بالله من الناس ، وإنما نستعيذ من الظالمين المتسلطين ومن شرورهم ونحو ذلك ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

أما الشيطان فهو شر كله ، حضوره وهمزه ونخسه ، فالاستعاذة تكون منه على العموم ومن شروره ، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨]. فحسن ذكر الشر مع الوسواس.

ثم انظر كيف استعاذ من شر الوسواس ، وهي الذات الموسوسة ، ولم يقل: من شر وسوسته ، وذلك لتعم الاستعاذة من شروره كلها لا من شر الوسوسة فقط ، فإن الموسوس قد يكون شيطانًا وغيره ، فاستعاذ من شرور كل ما يصدر عنه سواء كان ذلك وسوسة أم غيرها. جاء في (التفسير القيم): «وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه (الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس) ، ولم يقل: (من شر وسوسته) ، لتعم الاستعاذة شره جميعه ، فإن قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ يعم كل شره» [1].

وجاء في (روح المعاني): «والظاهر أن المراد الاستعاذة من شر الوسواس من حيث هو وسواس ، ومآله إلى الاستعاذة من شر وسوسته. وقيل: المراد الاستعاذة من جميع شروره ، ولذا قيل: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ ولم يقل: من شر وسوسة الوسواس ، قيل: وعليه يكون

---

(١) التفسير القيم ٦٠٨ ـ ٦٠٩.

القول بأن شره يلحق البدن كما يلحق النفس أظهر منه على الظاهر»[(١)].

﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾

صيغة مبالغة من الخنوس، وهو التأخر والاستتار أحيانًا. واختيار وصف الخناس مع الوسواس مناسب له في المبالغة، فإن الوسواس من الرباعي كفعّال في الثلاثي، كلاهما يدل على الاستمرار في الوصف والمبالغة فيه. ذلك أن وزن (فعّال) في المبالغة منقول عن الحرفة والصنعة، فالكذاب كأن حرفته الكذب كالنجار والحداد.

والوسواس يدل على أنه همه الوسوسة، وهي شغله الشاغل له. وتكرار المقطع يدل على تكرار الفعل مثل: الكبكبة والهزهزة والزلزلة.

ونحن البشر بنا حاجة إلى ما يخنس الوسواس ويقمعه كلما وسوس، فاختار لفظ الخناس الذي يدل على مداومة الخنوس وملازمته كلما استعاذ المستعيذ بالله. فهو مزاول للوسوسة والخنوس كلما سنحت فرصة لأي منهما.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه إذا كان لك خصم أو عدو يتربص بك السوء فينبغي أن تعلم صفة خصمك وقوته ومكامن ضعفه، وما المقدار الذي بإمكانك أن توقع عليه الضرر، وكيف تنجو منه.

وقد أعلمنا ربنا أننا لا نستطيع أن نقضي على هذا العدو قضاءً تامًّا، وإنما قصارى ما نستطيع هو أن ندفع عنا شر وسوسته، فإنه يخنس بذكر الله تعالى وطاعته، وهو لا يلبث أن يعاود وسوسته وكيده في أقرب فرصة سانحة، وفي كل لحظة غفلة عن ذكر الله والاستعاذة به.

لقد عرّفنا ربنا صفة هذا العدو وكيده وشغله الشاغل له والسلاح الذي

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٦.

ينبغي أن نتسلح به لنصد خطره ، لا أن نقضي عليه ونستريح منه ، فإن هذا ليس بإمكاننا ولا نستطيعه .

فقال : ﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ أي المختفي ليعيد الكرة ويتربص لحظة الغفلة ، ولم يقل : (الوسواس المنهزم الذي لا يعود) أو (الوسواس المقتول بذكر الله وطاعته) ، فاحذر واستعن بالله .

* * *

﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ ﴾

ذكر موضع الوسوسة وهو الصدر فقال : ﴿ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يقل : (في قلوب الناس)، ذلك أن الصدور هي ساحة القلب ، ومنها تدخل الواردات إليه ، فهي كالدهليز له، فهو يملأ الساحة والممر إلى القلب بوساوسه ، حتى لا يدخل إلى القلب إلا ما كان من وساوسه وخطراته .

فلم يقل : (يوسوس في قلوب الناس) فتكون الوسوسة في القلب فقط ويكون الصدر نظيفًا خاليًا منها ، فيطرد ما في الصدر من نور وواردات رحمانية ظلمته ووسوسته ، فهو يفعل ما يفعل الأعداء في ساحة الحرب من زرع الألغام وتعطيل السبل للوصول إلى المبتغى ، هذا علاوة على إشاعة الأراجيف ودس الأعوان وتوهين الهمم والعزائم ما أمكنه ذلك . جاء في (التفسير القيم) : «وتأمل السر في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يقل : (في قلوبهم) .

والصدر هو ساحة القلب وبيته ، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب . فهو بمنزلة الدهليز له . ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود ، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ .

فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب ، فهو موسوس في الصدر ، ووسوسته واصلة إلى القلب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ولم يقل : (فيه) ؛ لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله إليه فدخل في قلبه» [(١)] .

وجاء في (روح المعاني) في قوله : ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ : «قيل أريد قلوبهم مجازًا ، وقال بعضهم : إن الشيطان يدخل الصدر الذي هو بمنزلة الدهليز فيلقي فيه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه» [(٢)] .

وأما اختيار حرف الجر (في) ههنا على (إلى) أو اللام فقال : ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يقل : (إلى) ، فذلك أنه ذكر موضع الوسوسة ، وهو المكان الذي تلقى فيه الوسوسة . وأما (إلى) واللام فتكونان للشخص ، فيقال : (وسوس إلى فلان ووسوس له) . قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه : ١٢٠] ، وقال : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

ثم بين أن الوسواس قد يكون من الجِنَّة وقد يكون من الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، فهو يستعيذ من شر الوسواس كله سواء كان جنيًّا أم إنسيًّا .

وقد تقول : إذا كان قد استعاذ من شر الوسواس من الجنة والناس فَلِمَ

---

(١) التفسير القيم ٦١٤ ـ ٦١٥ .

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٨٧ .

قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] ولم يقل: (قل أعوذ برب الجنة والناس)؟

والجواب: أنه ذكر الوسوسة في صدور الناس لا في صدور الجِنَّة والناس، فالمعدو عليهم هم الناس وليسوا الجنة، فاستعاذ الناس بربهم وملكهم وإلههم ليحميهم من هذا العدوان. جاء في الكشاف «فإن قلت: لم قيل: (برب الناس) مضافًا إليهم خاصة؟ قلت: لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم»

* * *

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

ورد في القرآن استعمال ألفاظ الجن والجنة والجان، وورد في مقابل ذلك الإنس والناس والإنسان.

فالجن استعمل في مقابل الإنس، وهما الأصلان لهذين الجنسين من المخلوقات، وورد استعمال (الجنة) في مقابل (الناس)، والناس هم مجموعة قليلة أو كثيرة من الإنس أو أفراد منهم، وقد يطلق الناس على الجميع.

والجنة هم مجموعة من الجن أو أفراد منهم، و(الجان) ما يقابل (الإنسان)، وهو يطلق على الواحد الفرد منهم أو الجنس، وقد يقال للجمع أيضًا، فتقول للواحد من البشر: (هذا إنسان)، ويقال للجنس

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٩.

أيضًا نحو قولك: (خلق الإنسان من طين).

ويقال للواحد من الجن (جانّ)، ويقال للجنس أيضًا، كقولك: (خلق الجان من نار)، وربما أطلق على الجمع أيضًا فيقال (هؤلاء جانّ).

وعلى هذا يكون الفرق بين الإنسان والجان أن الإنسان يطلق على الواحد وعلى الجنس ولا يطلق على الجمع، أما (الجانّ) فيطلق على الواحد والجنس والجمع أيضًا.

ويدل على ذلك استعمال القرآن لهذه الألفاظ، فيستعمل الجن والإنس للثقلين، وكثيرًا ما يستعمل الإنس لما يقابل الجن، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

ويستعمل (الجِنَّة) لما يقابل الناس، قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩، السجدة: ١٣]، وقال في سورة الناس: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥-٦]، فاستعمل (الجِنَّة) لما يقابل (الناس).

والإنس غير الناس، فالناس مجموعة من الإنس كما ذكرت، ولذا لا يصلح أحيانًا وضع أحدهما مكان الآخر، فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣] لا يصلح أن يقال مكانه: (آمنوا كما آمن الإنس). ونحوه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ

﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، فلا يقال في نحو ذلك: (الذين قال لهم الإنس إن الإنس قد جمعوا لكم فاخشوهم).

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم﴾ [الأنفال: ٢٦] فلا يقال فيه: (تخافون أن يتخطفكم الإنس) وإنما يصلح أن يقال ذلك للجن.

وأنت تقول: (هذا شخص من الإنس، وهذا رجل من الإنس) ولا تقول: (هذا شخص من الناس) ولا (هذا رجل من الناس) للمعنى نفسه، فأنت في العبارة الأولى تبين جنسه، بخلاف الثانية. وإنما يكون المعنى في الثانية (هذا واحد من الناس) وليس قصدك بيان جنسه.

أما الإنسان فهو ما يقابل الجانّ، ويستعمل للفرد الواحد وللجنس، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] ، فلا يقال مكان ذلك: (كل إنس) ولا (كل ناس)، فالمقصود هنا كل فرد من الناس. وقال: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات: ٣٥] والمقصود: كل إنسان.

وقد يستعمل للجنس أيضًا، قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ [السجدة: ٧] ، وقال: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١] ، وقال: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وكذلك (الجان) قد يستعمل للواحد والجنس، وهو ما يقابل الإنسان، وربما يستعمل للجمع أيضًا، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥] ، وقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦ ـ ٢٧] فأنت ترى أنه أعاد الضمير على الجان مفردًا.

وقال: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل: ١٠] قيل: إن معنى الجان ههنا الحية السريعة، وقد تكون بمعنى الجني أيضًا. فالجان هو الواحد أو الجنس ويقابله الإنسان، وقد تستعمل (الجان) أيضًا للجمع فتقول: (هذا جان) للواحد، و(هؤلاء جان) للجمع.

ولذا قد يستعمل القرآن (الجان) لما يقابل (الإنس) أحيانًا وذلك في أحد معنييه وهو الجنس أو للجمع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩].

أما الجني فهو الواحد من الجن، وقد يستعمل للمنسوب إلى الجن أيضًا، ويقابله الإنسي، فالفرق بين الجني والجان أن الجني يكون للواحد من الجن ولكل ما هو منسوب إلى الجن، فتقول: (هذا جنّي) للواحد من الجن، وتقول: (هذا عمل جني، وصنعة جنيّة) أي منسوبة إلى الجن، كما تقول: (هذا رومي) وتعني به شخصًا من الروم، وتقول: (هذا روميّ) للمنسوب إلى الروم، نحو: هذا لسان رومي ونسج روميّ.

ونحوه الإنسيّ والإنسان، فالإنسيّ قد يكون للواحد من الإنس، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٦]، وقد يكون لما هو منسوب إلى الإنس فتقول: هذه صنعة إنسيّة لا جنيّة، وعمل إنسيّ لا جنّيّ، والله أعلم.

وقد تقول: ولم قدّم الجِنَّة على الناس؟

والجواب أن لهذا التقديم عدة أسباب:

منها أنه الجِنَّة هم المعتدون على الناس، وأنهم الأصل في الوسوسة، حتى أن الوسواس من أسماء الشيطان، وقد تكون وسوسة الإنسي للإنسي بسبب وسوسة الشيطان ودفعه.

وقد تقول: ولم إذن قدم في آية أخرى شياطين الإنس على شياطين الجن فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢]؟

والجواب: أن المقام في الأنعام يقتضي تقديم شياطين الإنس على شياطين الجن، ذلك أن سياق الآيات في كفرة الإنس ومشركيهم، لا في الجن والشياطين (انظر الآيات ١٠٦ ـ ١١٦).

وقد جاء في الآية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ والعداوة للأنبياء ومحاربتهم ظاهرة في الإنس، فعداوة الأنبياء أظهر في الإنس منها في الجن.

ثم قال: ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ والافتراء على الله ظاهر لنا في الإنس، فناسب تقديم شياطين الإنس على الجن والله أعلم.

* * *

سورة الإخلاص



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

* * *

تبدأ السورة بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو أمر للرسول بأن يعلن هذا الأمر، فقال له: (قل) ولم يقل: (هو الله أحد) على طريقة الإخبار المجرد، وعلى سبيل الاعتقاد الشخصي الذي إن شاء أسرّه وإن شاء ذكره، بل طلب منه إعلان هذه العقيدة وتبليغها، وذلك لأهمية هذا الأمر، وذلك أن أكثر الناس ضلّوا عن الحقائق الكبرى التي جمعتها هذه السورة القصيرة في مفرداتها، الجليلة في معانيها.

وطلبُ الإعلان عما في هذه السورة يدل على أهمية ما جاء فيها وما تضمنته من أصول اعتقادية.

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

المشهور أن (هو) ضمير الشأن خبره الجملة بعده[1] وهي ﴿ٱللَّهُ

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٣٦٧.

أَحَدٌ ﴾ ، ومعلوم أن ضمير الشأن يؤتى به في مواطن التفخيم والتعظيم ، فدل ذلك على جلالة ما بعده وفخامته. جاء في (روح المعاني): «المشهور أن (هو) ضمير الشأن ، ومحله الرفع على الابتداء ، خبره الجملة بعده. . . والسر في تصديرها به التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها ، مع ما فيها من زيادة التحقيق والتقرير ، فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقبًا لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن» (١) .

﴿ أَحَدٌ ﴾

كلمة تأتي على ضربين:

الأول: أن يراد بها عموم العقلاء ومن يصح خطابه ، فتلزم الإفراد والتذكير ، وتقع بعد النفي والاستفهام والشرط وفي غير الموجب عمومًا. وهي تقع على المفرد والمثنى والجمع ، المذكر والمؤنث نحو (ما في الدار أحد) أي ما فيها شخص عاقل ، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة: ٦] ، وقال: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٧] فاستعملها للجمع. وقال: ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فأوقعها على المؤنث. وهمزة (أحد) هذه أصلية عند أكثر أهل اللغة.

والضرب الآخر: من ضربي كلمة (أحد) أنها تكون بمعنى (واحد) وأجمعوا على أن همزتها منقلبة عن واو وأصلها (وَحَد) ، غير أن هناك فرقًا بين (وَحَد) و(أحد) في المعنى والاستعمال.

فـ (وَحَد) تستعمل للعاقل وغيره ، فتقول: (رجل وَحَد) أي لا يعرف

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٦٩ .

أصله ، وتقول: درهم وَحَد ، ووحش وَحَد.

أما (أحد) فلا تستعمل إلا للعقلاء ، فإذا استعملتها في الإثبات من غير إضافة ولا تبيين بمن فهي خاصة بالله تعالى ، فلا يقال: رجل أحد.

جاء في (روح المعاني): «(أحد) المستعمل في الإثبات على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يضم إلى العشرات نحو أحد عشر وأحد وعشرون.

والثاني: أن يستعمل مضافًا أو مضافًا إليه بمعنى الأول ، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١] وقولهم: يوم الأحد ، أي يوم الأول.

والثالث أن يستعمل مطلقًا وصفًا ، وليس ذلك إلا في وصف الله تعالى. وهو وإن كان أصله (وحَدًا) إلا أن (وحَدًا) يستعمل في غيره سبحانه» [(١)].

وجاء في (لسان العرب): «أحد: في أسماء الله تعالى (الأحد) وهو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر. . .

وقولهم: (ما في الدار أحد) فهو اسم لمن يصلح أن يخاطب ، يستوي فيه الواحد والجمع ، والمؤنث والمذكر» [(٢)].

وجاء فيه أيضًا: «وأما اسم الله عز وجل (أحد) فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره ، لا يقال: رجل أحد ولا درهم أحد ، كما يقال: رجل وحَد أي فرد: لأن (أحدًا) صفة من صفات الله عز وجل التي استخلصها لنفسه ولا يشركه فيها شيء» [(٣)].

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٧٢.
(٢) لسان العرب ٤/ ٣٦.
(٣) لسان العرب ٤/ ٤٦٤.

وقد تقول: ولم لم يستعمل (واحدًا) ههنا؟

والجواب أن ذلك لعدة أمور منها:

١ ـ أن كلمة (أحد) خاصة بمن يعقل ومن يصح خطابه على العموم ولا تستعمل لغير العاقل، أما كلمة (واحد) فتستعمل للعاقل وغيره، فتقول: (كتاب واحد وقلم واحد)، فإذا سألك سائل (هل رأيت أحدًا في الدار؟) فإن لم يكن فيها إنسان قلت: لا. وإن كان فيها إنسان قلت: نعم، ولا يصح أن تقول: (نعم) إن لم يكن فيها إلا دابة كالثور والبعير وعموم ما لا يعقل. جاء في (ملاك التأويل): «وأما الفرق من جهة المعنى فإن واحدًا يقع على كل مفرد بما هو مفرد كان مما يتصف بالعقل والعلم أو لا يتصف، تقول: رجل واحد وحجر واحد وجمل واحد. وهذا خلاف حكم (أحد) فإنه لا يقع إلا لأولي العلم والعقل من الملائكة والإنس والجن»[1].

فاستعمل هنا (أحدًا) ولم يستعمل (واحدًا) للدلالة على أنه (حيّ عالِم واحد) فجمعت كلمة (أحد) هذه المعاني كلها. واستعمالها هنا أنسب من كلمة (واحد) ذلك أن بعدها ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ أي المقصود في الحوائج. ولا بد أن يكون المقصود في الحوائج عالمًا بمن يقصده. ثم قال بعده: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وهذه من خواص الأحياء، فكلمة (أحد) أنسب ههنا من كل وجه.

وقد تقول: ولكن القرآن استعمل كلمة (واحد) لله تعالى.

فنقول: نعم إنه استعملها لما يقابل الاثنين والثلاثة وعموم التعدد فقال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]، فكان استعمال كل لفظة في مكانها أنسب.

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٩٦١.

٢ ـ إن الواحد يدخل في الأحد ، والأحد لا يدخل في الواحد ، ذلك أن كلمة (أحد) يدخل فيها معنى الواحد ، فعندما تقول: (الله أحد) دل على أنه واحد ، ودل على أمور أخرى مع الوحدانية كالحياة والعلم ، أما الأحد فلا يدخل في الواحد ؛ لأن كلمة (أحد) تدل على كلمة واحد وعلى صفات أخرى معها ، فكان استعمال (أحد) أنسب ههنا.

٣ ـ «إنك إذا قلت: (فلان لا يقاومه واحد) جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان. بخلاف الأحد ، فإنك لو قلت: (فلان لا يقاومه أحد) لا يجوز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان»[1].

٤ ـ إن (أحد) صفة مشبهة على وزن (فَعَل) مثل بَطَل وحَسَن ، أما (واحد) فعلى زنة اسم الفاعل من (وَحَد).

والصفة المشبهة أثبت من اسم الفاعل ، فأَحَد أثبت من (واحد) وأدوم ، فالواحد قد تزول وحدانيته إذا كان له نظير ، فتقول: كنت واحدًا فصرنا اثنين ، وكان واحدًا فصاروا جمعًا ، وقد يبقى على وحدانيته إذا لم يكن له نظير.

أما (أحد) فهي تدل على الثبات والدوام ، ووحدانيته لا تتغير ولا تزول ، فجاء بالصيغة الدالة على دوام الأحدية وعدم تغيرها ، وهذا مناسب لقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

وقد جمع ربنا سبحانه لنفسه الوحدانية المطلقة على كل حال ، فسمى نفسه واحدًا وأحدًا ، كما سماها عالمًا وعليمًا ، وغافرًا وغفورًا. فحالته على كل حال هي الوحدانية ، وهي لا تزول على أي حال من الأحوال.

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٧٨ ، وانظر تفسير فتح القدير ٥/ ٥٠٢.

قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وقال: ﴿ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، غير أنه يختار الواحد في مقام والأحد في مقام آخر، وكل هو مناسب لموضعه.

٥ ـ إن كلمة (أحد) الواقعة في الإثبات خاصة بالله تعالى، وهي تفيد الوحدانية في الذات والصفات، فهو متفرد في ذاته ومتفرد في صفاته لا يشركه فيها غيره، أما الواحد فهي خاصة بالذات، جاء في (البحر المحيط): «وأحد بمعنى واحد، أي فرد من جميع جهات الوحدانية، أي في ذاته وصفاته لا يتجزأ، وهمزة أحد بدل من واو» (١).

وجاء في (تفسير البيضاوي): «أحد: يدل على مجامع صفات الجلال، كما دل (الله) على جميع صفات الكمال» (٢).

فهي تدل على الوحدانية في الذات والتنزيه في الصفات، فصفاته صفات كمال لا يشركه فيها أحد، فأثبتت له كلمة (أحد) الوحدانية في الذات والصفات، ونفت عنه الشرك في الذات والصفات، وهي هنا أنسب من كلمة (واحد) لأن المقام مقام توحيد وتنزيه لله.

فاتضح أن كلمة (أحد) لها دلالتان: أنه واحد وهي تفيد التوحيد، وأنه لا نظير له في صفاته، وهي تفيد التنزيه.

٦ ـ أن كلمة (أحد) أقدم من كلمة (واحد) في الاستعمال وأسبق وجودًا منها في اللغات السامية كما تدل الأبحاث الحديثة، وقد كانت تستعمل بمعنى الواحد، وقد استعملت بمعنى الأول أيضًا في بعض

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٢٨.

(٢) أنوار التنزيل ٨١٤.

اللغات. جاء في (التطور النحوي) «فأحد سامية الأصل وواحد مشتقة منها»[١]. ويقال للواحد المذكر في العربيات الجنوبية (أحد)، وللمؤنث (أحدت)[٢]، وفي اللحيانية (أحد) للواحد والمذكر، و(إحدى) للواحدة[٣]. وفي لغة النبط (حد) بمعنى «أحد، وبمعنى الأول والواحد»[٤].

فلفظة (أحد) أقدم من لفظة (واحد)، فاستعملها للدلالة على أن الله قديم لم يلد ولم يولد وليس قبله شيء، فناسب بين قدم اللفظة والمقام.

وقد فسر الضمير (هو) باسمه العلم مخبرًا عنه بالأحدية فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولم يستعمل اسمًا آخر مما يحتمل المشاركة في الصفة فأراد أن يفصح عن ذاته العلية باسمه الذي لا يشركه فيه أحد غيره. فلم يقل: (هو الرحمن أحد) أو هو الرزاق أو الحي أو العالم أو ما إلى ذلك، ولو قال ذلك لم ينص ذلك تصريحًا على أن المقصود به الله، فجاء بما يزيل كل وهم ولبس وخاطرة شرك.

* * *



﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾

الصَّمَد: فَعَل بمعنى مفعول، من صمد إليه إذا قصده، مثل سَلَب بمعنى مسلوب، وجَلَب بمعنى مجلوب، وهَمَل بمعنى مهمل، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج، أي المقصود[٥].

---

(١) التطور النحوي ٧٩.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ١١٥.
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ١٦٩.
(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ٣٦٥.
(٥) انظر الكشاف ٣/ ٣٦٧، والبحر المحيط ٨/ ٥٢٧.

جاء في (تفسير الرازي): «الصمد: السيد المصمود إليه في الحوائج... والقول الثاني: أن الصمد هو الذي لا جوف له... الصمد: الغني، الصمد الذي ليس فوقه أحد... لا يأكل ولا يشرب، الباقي بعد فناء خلقه... هو الذي لا عيب فيه... لا تعتريه الآفات... هو الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا وسيموت»[1].

وجاء في (البحر المحيط): «الصمد: فَعَل بمعنى مفعول، من صمد إليه إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج ويستقل بها»[2].

وجاء في (لسان العرب): «صمده يصمده صمدًا، وصمد إليه، كلاهما قصده... والصَّمَد بالتحريك: السيد المطاع الذي لا يقضىٰ دونه أمر، وقيل: الذي يصمد إليه في الحوائج، أي يقصد...

وقيل هو المصمت الذي لا جوف له، وهذا لا يجوز على الله عز وجل... وقيل: الصمد: السيد الذي ينتهي إليه السؤدد، وقيل: الصمد: السيد الذي انتهى سؤدده...

وقيل: الصمد: الدائم الباقي بعد فناء خلقه، وقيل: هو الذي يصمد إليه الأمر فلا يقضى دونه، وهو من الرجال الذي ليس فوقه أحد»[3].

وهو (الصمد) بكل هذه المعاني، فهو المصمود إليه المقصود في الحوائج، وذلك يدل على أنه الغني وأنه ليس فوقه أحد.

وهو المصمت الذي لا جوف له، وهذا يدل على أنه لا يأكل ولا

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢٨.

(٣) لسان العرب ٤/ ٢٤٦.

يشرب وعلى أنه لم يلد ولم يولد ، ويدل على أنه ليس فيه جهة ضعف ، فإنه ذو القوة المتين.

والأجوف ضعيف «وفي حديث خَلْق آدم عليه السلام: فلما رآه أجوف عرف أنه خَلْقٌ لا يتمالك.

الأجوف الذي له جوف ولا يتمالك أي لا يتماسك. . . ورجل مَجُوف ومجوَّف: جبان لا قلب له كأنه خالي الجوف من الفؤاد»[(١)]. ويدل على أنه لا عيب فيه ولا تعتريه الآفات ، وهو الدائم الباقي بعد فناء خلقه.

فهو بالمعنى الأول ـ أي المقصود في الحوائج ـ مرتبط بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ فإنه لو كان له نظير لم يكن هو المقصود دون غيره.

ومرتبط بالمعوذتين بعد هذه السورة ، فإن الذي يخاف شيئًا ويحذره مما لا يملك دفعه فليلتجئ إلى الله ويصمد إليه فإنه هو الذي يكفيه.

وهو بالمعنى الثاني مرتبط بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ بمعانيه المختلفة يفيد إثبات صفات الكمال والتنزيه لله تعالى ونفي صفات النقص والتعطيل. فإن هذا الوصف يدل على أنه حي عالم قادر غني ، لأنه لا يقصد إلا الحي العالم بما يطلب منه ، والغني القادر على إعطاء ما يطلبه خلقه منه وأنه رحمن رحيم يجيب الدعاء ، ولذلك كان مقصودًا في الحوائج ، وأنه لو لم يكن رحمن رحيمًا لم يستجب لأحد.

---

(١) لسان العرب (جوف) ١٠/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

فهذه الآية تلخيص للسورة في صفات الإثبات والنفي.

وقد تقول: ولِمَ لم يقل: الله المقصود أو المتجه إليه ونحو ذلك؟

والجواب: أن (الصمد) له أكثر من معنى من معاني الكمال، وهو الصمد بكل هذه المعاني، فلو قال: (المقصود) أو الملتجأ إليه ونحو ذلك لم يؤد هذه المعاني، فالمقصود أو الملجأ هو معنى من معاني الصمد.

ثم نلاحظ أنه لم يقيد الصمدية بشيء، فهو لم يقل المصمود إليه بكذا أو بكذا، ولا من جهة دون أخرى بل هو الصمد المقصود على الإطلاق من جميع العباد، وفي كل شيء يطلبه العبد غير مقيد بشيء دون شيء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه لو قيد صمديته لتقيدت بمعنى دون آخر، فأطلقها لإطلاق المعنى والله أعلم.

وقد تقول: ولِمَ لم يقل: (المصمود إليه)؟

فنقول إن كلمة (الصَّمَد) على صيغة (فَعَل) وهي أثبت وأدوم من مفعول. ثم إن المصمود إليه قد يكون لما صُمد إليه مرة واحدة، بينما (الصمد) صفة مطلقة.

ثم إن كلمة (الصمد) تكون صفة واسمًا، وهو الصمد بكل معاني هذه الكلمة، فلو قال: (المصمود إليه) لتحدد المعنى بشيء واحد.

وقد تقول: ولم جاء بكلمة (أحد) نكرة و(الصمد) معرفة؟

والجواب: أن أحديته مجهولة لأكثر الناس، وبخاصة العرب، فإنهم لا يقرون بالوحدانية بل يجعلون لله شركاء، بخلاف صمديته فإنها معلومة لهم ويقرون بها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ

وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] ، وقال: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩].

فجاء بما لا يعلمونه ، بل وينكرونه ، وهو الأحدية بالنكرة ، بخلاف ما عرفوه وعلموه.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه جاء بالصمد معرفة على سبيل الحصر ، فإنه لا مقصود غيره على الحقيقة ، فلو قال (الله صمد) لكان المعنى أن الله مقصود ، ولم يقصر القصد عليه بل ربما كان هناك مقصودون آخرون ، فلما قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ تعين أنه لا مقصود على الحقيقة سواه.

جاء في (تفسير الرازي) عن تنكير (أحد) وتعريف (الصمد): «وأما الصمد فهو الذي يكون مصمودًا إليه في الحوائج ، وهذا كان معلومًا للعرب ، بل لأكثر الخلق على ما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وإذا كانت الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق ، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق ، لا جرم جاء لفظ (أحد) على سبيل التنكير ، ولفظ (الصمد) على سبيل التعريف» (١).

وجاء في تفسير (الكشاف): «الصمد: فَعَل بمعنى مفعول ، من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج.

والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السماوات والأرض وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها ، وهو الذي يصمد

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣ ، وانظر أنوار التنزيل ٨١٤.

إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه ، وهو الغني عنهم»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «إن التعريف لإفادة الحصر ، كقولك: (زيد الرجل) ، ولا حاجة إليه في الجملة السابقة»[(٢)].

وقد بدأ بإثبات الأحدية أولاً ثم الصمدية بعدها ؛ لأن التوحيد رأس المسائل الاعتقادية في الإسلام وعليه مدار هذا الدين ، والذي يريد أن يدخل فيه عليه أن يشهد أن لا إله إلاّ الله أولاً.

وقد أخبرنا ربنا أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، والتوحيد مقدمة لما بعده ، فمن آمن بالله وحده وكفر بما عداه آمن بأنه الصمد وأنه هو الملجأ وأنه المستعان ، ولا شك أن المقصود من الجميع لا يكون إلا واحدًا ، فبدأ بما هو أولى وما تقتضيه طبيعة الاعتقاد والترتيب المنطقي.

ولم يجمع بين الوصفين في آية واحدة ، فلم يقل: (قل هو الله أحد الصمد) وذلك لأهمية كل منهما في الاعتقاد ، فجعل كلاً منهما مسألة مستقلة ، وليفرق بين ما هو معلوم ومجهول كما سبق تقريره.

* * *

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ ﴾

قال: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ولم يقل: (الذي لم يلد ولم يولد) ذلك أنه أراد أن يخبرهم بذلك ويعلمهم بما جهلوه ، ولو قال: (الذي لم يلد ولم يولد) لكان المعنى أنهم يعلمون ذاك والحقيقة أنهم لا يعلمون ذاك ، بل كانوا يقولون: إن الله قد ولد ، وأن الملائكة بناته سبحانه ،

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٧.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٧٤.

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٢]. وكذلك يقول اليهود والنصارى، فإن اليهود يقولون: إن عزيرًا ابن الله، والنصارى يقولون: إن المسيح ابن الله، وما إلى ذلك من الملل الأخرى.

فكان ما قاله أنسب.

وقدم (لم يلد) على (لم يولد)، مع أن الذي يتبادر إلى الذهن أن الأولى تقديم (لم يولد) على (لم يلد).

والحق أن تقديم ما قدم إنما كان لسبب، ذلك أنه رَدَّ على ما كان يعتقده مشركو العرب وأصحاب الملل الأخرى من أهل الكتاب وغيرهم من أن الله ولد أبناء أو بنات، ولم يكونوا يقولون: إن لله أبًا، فقدم ما كان أهم.

وقد تقول: ولم قال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ بالماضي؟

والجواب: أن هذا رَدٌّ على من قال: ولد الله، وهو ماض. ومن المعلوم أن أصحاب الملل والديانات الضالة قالوا: إن الله ولد ولدًا، وسموا له هؤلاء الأولاد، ولم يقولوا: سيلد، فرد عليهم ذلك.

وإذا كان لم يلد في الماضي فهو لا يلد في المستقبل؛ وذلك لأنه صمد لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء لأنه مصمت، ولأنه ليس له كفء فلا تكون له صاحبة؛ لأنها ليست كفؤًا له، قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وكما تنفي الصمدية الولد تنفي اتخاذ الولد أيضًا، أي أن يتخذ من مخلوقاته ولدًا؛ لأنه ليست به حاجة إلى ذلك، وإنما كل الخلق محتاجون إليه، فاسمه (الصمد) ينفي الولد وينفي اتخاذ الولد.

﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ أي لم يخرج من شيء ، ولأنه لو كان ذلك لكان معدومًا قبل أن يولد ، والإله لا يكون معدومًا . ولأنه لو كان مولودًا لكان محتاجًا إلى والده فلم يكن صمدًا ، فقوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ينفي أن يكون والدًا وأن يكون مولودًا .

ولو كان مولودًا لم يكن متفردًا بالوحدانية ، ولكان معه شريك وهو أبوه . فقوله تعالى : ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ينفي أن يكون والدًا وأن يكون مولودًا ، فإنه لو كان والدًا لم يكن متفردًا بالوحدانية ، وكذلك لو كان مولودًا .

فقوله : ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ينفي أن يكون والدًا وأن يكون مولودًا، وقوله : ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ينفي ذلك أيضًا .

جاء في (الكشاف) : وقوله : ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ وصف بالقدم والأولية .

وقوله : ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ : نفي للشبه والمجانسة» [١] .

وجاء في (تفسير البيضاوي) : «لم يلد : لأنه لم يجانس ولم يفتقر إلى ما يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه .

ولعل الاقتصار على لفظ الماضي لوروده ردًّا على من قال : الملائكة بنات الله ، أو المسيح ابن الله ، أو ليطابق قوله : ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء ولا يسبقه عدم» [٢] .

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي في قوله : ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ : «فيه سؤالات :

السؤال الأول : لم قدم قوله : ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾ على قوله : ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٧ .

(٢) أنوار التنزيل ٨١٤ .

مع أن في الشاهد يكون مولودًا ثم يكون والدًا؟

الجواب: إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد؛ لأنهم ادّعوا أن له ولدًا، وذلك لأن مشركي العرب قالوا: (الملائكة بنات الله)، وقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، ولم يدّع أحد أن له والدًا.

فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كأنه قيل: الدليل على امتناع الولدية اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره.

السؤال الثاني: لماذا اقتصر على ذكر الماضي فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ولم يقل: (لن يلد)؟

الجواب: إنما اقتصر على ذلك لأنه ورد جوابًا عن قولهم: ولد الله.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك في الماضي لا جرم وردت الآية على وفق قولهم.

السؤال الثالث: لم قال ههنا: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾؟

الجواب: إن الولد يكون على وجهين:

أحدهما: أن يتولد منه مثله وهذا هو الولد الحقيقي.

والثاني: أن لا يكون متولدًا منه، ولكنه يتخذه ولدًا ويسميه هذا الاسم وإن لم يكن ولدًا له في الحقيقة.

والنصارى فريقان: منهم من قال: عيسى ولد الله حقيقة، ومنهم من قال: إن الله اتخذه ولدًا تشريفًا له، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفًا له.

فقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فيه إشارة إلى نفي الوالد في الحقيقة، وقوله:

﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إشارة إلى نفي القسم الثاني ، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ لأن الإنسان قد يتخذ ولدًا ليكون ناصرًا ومعينًا له على الأمر المطلوب ، ولذلك قال في سورة أخرى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ [يونس: ٦٨] وإشارة إلى ما ذكرنا أن اتخاذ الولد إنما يكون عند الحاجة. . .

وإذا كان كذلك فالأحدية والصمدية يوجبان نفي الولدية والمولودية»[(١)].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

الكفو: النظير والمثل ، فنفى أن يكون له نظير ولا مثل.

وكان الأصل أن يقول: ولم يكن أحد كفوًا له ، ولكنه قدم الجار والمجرور لأهميته ؛ لأن المطلوب نفي النظير عنه بالذات ؛ لأن الكلام إنما هو عليه ، فقدم ما عليه مدار الكلام وهو الله ، والضمير إنما يعود عليه. ثم قدم الكفو لأن المراد نفيه وأخر (أحد) فكان ترتيب الكلام على ما يقتضيه المعنى. ولو قال: (لم يكن أحد كفوًا له) لكانت الأهمية تنصب على (أحد).

ولمّا كان الكلام على (الله) ونفي النظير عنه قدم ضميره ، وكما قدم الضمير في بداية السورة على العلم فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ قدم الضمير على الكفو.

ثم إن هذا من باب تقديم المعمول على عامله ، فإن الجار والمجرور (له) متعلق بـ (كفوًا). وتقديم المعمول على عامله يفيد القصر في الغالب ويفيد الاهتمام.

وههنا يفيدهما معًا ، ذلك أنه نفى الكفاءة له حصرًا ، وأما غيره

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٨٣ ـ ١٨٤.

فيتكافؤون ، وهذا المعنى لا يفيده التأخير. هذا علاوة على الاهتمام ، فإن الكلام على الله سبحانه وصفاته ، فكان أولى بالتقديم من كل ناحية.

وقد تقول: ولكنه لو قال (لم يكن أحد له كفوًا) لكان أيضًا من باب تقديم الجار والمجرور على متعلقه ، ولأفاد القصر.

أقول: لو فعل ذلك لم يكن نصًّا في معنى القصر ، ذلك أن المعنى يحتمل أن (له) متعلق بمحذوف صفة لأحد ، فيكون المعنى (لم يكن أحد له) (كفوًا) ، كما تقول: ليس في الدار أحد من أهلها ، فقد نفيت أن يكون فيها أحد من أهلها ، وقد يكون فيها من غير أهلها ، فنفيت أن يكون أحد له ، أي تابع له ، كفوًا ، أما من لم يكن له فقد يكون كفوًا.

وذلك كما تقول: (ليس أحد في المدينة أفضل منه) فقد نفيت الأفضلية عمن هو من أهل المدينة دون غيرها ، ويحتمل الكلام أيضًا معنى التعلق بـ(كفوًا) فيفيد الحصر ، لكن من جهة أخرى لا يفيد أنه المهم وأنه مدار الكلام ، فكان ما قاله هو الأولى.

جاء في (تفسير الكشاف): «فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم... فما باله مقدمًا في أفصح الكلام وأعربه؟

قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف ، فكان لذلك أهم شيء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه» (١).

إن الاحتمالات التعبيرية في نحو هذا الكلام على النحو الآتي:

لم يكن أحد كفوًا له.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٧.

لم يكن أحد له كفوًا.

لم يكن كفوًا أحد له.

لم يكن كفوًا له أحد.

لم يكن له أحد كفوًا.

لم يكن له كفوًا أحد.

فقولنا: (لم يكن أحد كفوًا له) نفى الكفاءة له، ولم يذكر الكفاءة بالنسبة إلى غيره، فقد يتكافؤون أو لا يتكافؤون، كما تقول: (لم يكن أحد راغبًا عنك).

أما الأهمية فقد ذكرناها آنفًا.

وقولنا: (لم يكن أحد له كفوًا) يحتمل أن الجار والمجرور (له) صفة لأحد، ويحتمل تعلقه بـ(كفوًا)، فإن علقته بمحذوف صفة لأحد كان المعنى أن من كان له فليس كفوًا، بخلاف من كان لغيره. ويحتمل التعلق بـ(كفوًا) فيفيد القصر. ولا يفيد هذا التعبير أن الأهمية الأولى هي لنفي الكفاءة عن الله كما سبق أن ذكرنا.

أما التقدير الأول فهو لا يصح أن يراد، أي أن يكون (له) صفة لأحد.

وقولنا: (لم يكن كفوًا أحد له) يحتمل أن الجار والمجرور متعلقان بـ(كفوًا) وهو تعبير ضعيف، بل مردود عند أكثر النحاة؛ لأنه فصل بين العامل والمعمول بأجنبي، والعامل (كفوًا)، والمعمول (له)، والأجنبي (أحد) لأنه اسم كان.

ويحتمل أن الجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لأحد، فيكون المعنى نفي الكفاءة عمن كان له دون غيره كما سبق أن ذكرنا، وهو مردود.

وهذا التعبير في كل أحواله ضعيف لا يؤدي المعنى المراد.

وقولنا: (لم يكن كفوًا له أحد) يفيد نفي الكفاءة له من غير قصر، ويؤكد أن كلهم غير أكفاء له، كما تقول: (لم يكن راغبًا عنك أحد) فهذا يفيد نفي الرغبة عنه على وجه الاهتمام لتقدم الخبر، ولا يتضمن معنى بالنسبة إلى الآخرين، فقد يكونون أكفاء فيما بينهم أو غير أكفاء.

ويحتمل معنى آخر وهو أن الجار والمجرور كانا صفة لأحد، أي أن أصل الكلام (لم يكن كفوًا أحد له) فقدم الجار والمجرور على موصوفه فأصبح حالاً، فيكون قريبًا من معنى الوصف الذي ذكرناه، وهذا المعنى لا يصح ولا يجوز.

وقولنا: (لم يكن له أحد كفوًا) يحتمل معنيين:

أولهما أن يكون الجار والمجرور كان صفة لأحد في الأصل، ثم قدم فأصبح حالاً على ما بينا في العبارة السابقة. وهذا المعنى لا يصح.

ويحتمل أنه متعلق بكفوًا وقد فصل بينهما بـ(أحد) وقد وقعت الكفاءة في آخر الكلام، فهي على هذا ليست مهمة، في حين أن السياق في نفي الكفاءة له، فهي المقصودة بالنفي، ولذا يكون الأولى العدول عن هذا التعبير.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ يفيد نفي الكفاءة له على سبيل القصر وإثبات الكفاءة لغيره فيما بينهم، فيكون المعنى: ليس لله كفء على جهة القصر ولكن من عداه أكفاء. وهو كما تقول: (لم يكن عنك راغبًا أحد) فقد نفيت الرغبة عنه على سبيل القصر وأثبتّ الرغبة عن غيره، وكما تقول: (ما نام زيد في الدار) فقد نفيت النوم في الدار ولم تثبت النوم في غيره، فقد يكون نام في غيره أوْ لا، وإذا قلت: (ما في الدار نام زيد) فقد نفيت النوم في الدار وأثبت النوم في غيره.

وفي الآية يكون المعنى أن الكفاءة لله منفية وهي مثبتة لغيره، فتكون

كسبت معنيين: نفي الكفاءة له وإثباتها لغيره ، فيكون هو الإله حصرًا ، أما غيره فلا يكون إلهًا .

وهذا التعبير سالم مما يؤخذ على غيره من احتمالات الوصفية والحالية ، فهو أولى تعبير وأحسنه في هذا المقام ، والله أعلم .

وقد تقول: ولِمَ نفى ذلك بصيغة الماضي فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾؟

والجواب: أنه إذا لم يكن له كفوٌ في الماضي فليس له كفوٌ في المستقبل قطعًا ، لأن هذا الكفء إما أن يكون كان موجودًا في الماضي أوْ لا . فإن كان موجودًا في الماضي وليس كفوًا فلا يكون في المستقبل كفؤًا ؛ لأن ذلك لا يكون إلا لسبب ، وهذا السبب لا يكون إلا إذا كان أقوى من الإله بحيث يضعفه ويقوي ذاك ، والسبب لا يوجد إلا إذا أوجده الإله ، وهذا لا يكون .

وإما أن لا يكون موجودًا وإنما سيوجد في المستقبل ، وهذا لا يكون كفؤًا أصلاً ؛ لأنه كان معدومًا فأوجده سبب ، والأسباب وضعها الإله .

إن هذه الآية تلخيص للسورة وتثبيت لمعانيها ، ذلك أن قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يفيد تفرده بالوحدانية في ذاته وصفاته لا يشاركه فيها أحد ، وهذا يعني أنه لا نظير له وأنه ليس له كفؤًا أحد .

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أفاد أنه المقصود من جميع الخلق دون غيره لا يشاركه في هذه الصمدية أحد ، وهذا يدل على أنه لا نظير له ، وأنه لو كان له نظير لكان مصمودًا إليه معه ، فدل ذلك على أنه ليس له كفوًا أحد بمعنى الصمدية كلها .

وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ باين جميع المخلوقات ، إذ دل على أنه القديم لا أول له ولا آخر ، فدل على أنه ليس له كفوًا أحد .

ثم انظر إلى ما في السورة من لطائف:

١ ـ أنه قال في القراءة المتواترة (كفوًا) وهو إبدال عن (كفء)، وذلك أن هذه الصورة التعبيرية لا نظير لها في العربية كما هو معلوم، إذ لا يكون في الأسماء المعربة في العربية اسم في آخره واو لازمة قبلها ضمة.

وإذا حصل ذلك قلبت الواو ياء قبلها كسرة كالتسامي والتداعي، ولكن جاز هذا في الأمور العارضة لإبدال كما في هذا، فجاءت على خلاف الأسماء المعربة في العربية ومما لا نظير له في الأسماء المعربة، فجاء بكلمة لا نظير لها في العربية لمن ليس له نظير فكان تناسب بين المفردة والمعنى، ولو جاء بأي كلمة أخرى لم تؤد هذا الأمر.

٢ ـ جاء بكلمة (أحد) في الإثبات وهو قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لما ليس له نظير في صفات الإثبات، وهو وصف خاص بالله تعالى كما أسلفنا.

وجاء بها أيضًا في صفات النفي فقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ وهي من الألفاظ الدالة على العموم، فنفى عنه النظير على وجه العموم، فجاء في صفات الإثبات بـ (أحد) الخاصة بالله، وجاء بنفي الكفاءة والمماثلة بـ (أحد) الدالة على العموم، فجاء بها نفيًا وإثباتًا.

٣ ـ جمع بين الاسم وضميره فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو مما يدل على التعظيم والتفخيم في كل أحوالها الإعرابية والتفسيرية.

٤ ـ ارتباط الآيات ببعضها:

قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني أنه لم يلد ولم يولد؛ لأنه لو كان يلد أو يولد لم يكن متفردًا بالوحدانية. وكذلك يعني أنه لم يكن له كفوًا أحد؛ لأنه لو كان له كفو لم يكن متفردًا بالوحدانية.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ يفيد أنه لم يلد ولم يولد من ناحيتين:

أ ـ من ناحية أنه مصمت صلد لا جوف له ، لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء .

ب ـ من ناحية أنه المقصود فليست به حاجة إلى ولد ولا اتخاذ ولد ، ولو كان مولودًا لم يكن الصمد ؛ لأنه كان هناك مقصود قبله .

وقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ يفيد أنه متفرد بالوحدانية ليس معه أحد ، فلو كان والدًا مولودًا لم يكن واحدًا ، بل كان له شريك ، وهذا معنى ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

ويفيد أنه الصمد بمعنى الصمدية كلها .

ويعني أنه (لم يكن له كفوًا أحد) أي ليس له نظير بخلاف العباد . ولأنه ليس له نظير أو مكافئ لم تكن له صاحبة ؛ لأنه لو كانت له صاحبة لكانت مكافئة له .

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ معناه ﴿ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، وأنه الصمد ، فليس له نظير أو مكافئ ؛ لأنه هو المقصود وكل الخلق محتاجون إليه .

ومعناه أنه ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وهذا يعني نفي النظير .

إن هذه السورة فيها إثبات صفات الكمال ونفي صفات النقص ، فصفات الكمال هي الوحدانية ، وأنه القائم بحاجات خلقه ، فهو إِلٰهُهم وربهم .

ونفي صفات النقص من كونه والدًا أو مولودًا ، ونفي أن له نظيرًا ، والله أعلم .

* * *



سُورَةُ الكَوْثَرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

* * *

ذكر أن سبب نزول هذه السورة أنه لما مات القاسم بن رسول الله ، ثم مات عبد الله ، قال أعداؤه: قد انقطع نسله فهو أبتر ، ذلك أن أهل الجاهلية كانوا إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا: قد بُتِرَ فلان ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [1] .

ولا يعنينا القائل من هو ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم. ومن لطائف هذه السورة أنها كالمقابلة للسورة المتقدمة ، أعني سورة (الماعون) «وذلك لأن في السورة المتقدمة وَصَفَ الله تعالى المنافق بأربعة أمور:

(أولها) البخل ، وهو المراد من قوله: ﴿يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ .

---

(١) انظر فتح القدير ٥/ ٤٨٩ ـ ٤٩١ ، روح المعاني ٣٠/ ٢٤٨ .

(الثاني) ترك الصلاة ، وهو المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ .

(الثالث) المراءاة في الصلاة ، وهو المراد من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ .

(والرابع) المنع من الزكاة ، وهو المراد من قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾

فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعًا:

فذكر في مقابلة البخل قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي إنا أعطيناك الكثير ، فأعط أنت الكثير ولا تبخل.

وذكر في مقابلة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قوله: (فصلّ) أي دم على الصلاة.

وذكر في مقابلة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ قوله: (لربك) ، أي ائت بالصلاة لرضا ربك لا لمراءاة الناس.

وذكر في مقابلة ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ قوله: (وانحر) وأراد به التصدق بلحم الأضاحي ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة»[(١)] .

وفي مقابل التكذيب بالدين الوارد في السورة المتقدمة وهو قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ذكر قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ذلك أن من أشهر معاني الكوثر أو أشهر معنى له أنه نهر في الجنة كما ورد في الحديث الصحيح ، وهذا يقتضي الإيمان بيوم الدين. جاء في (روح المعاني): «ولم يذكروا مقابل التكذيب بالدين ، وقال الشهاب الخفاجي: إن الكوثر بمعنى الخير الكثير الشامل للأخروي ، يقابل ذلك

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١١٧ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٥١٩ ، الإتقان ٢/ ١١٢ .

لما فيه من إثباته ضمنًا ، وكذا إذا كان بمعنى النهر والحوض ، والأمر على تفسيره بالإسلام وتفسير الدين به أيضًا في غاية الظهور» [١] .

* * *

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ ﴾

إن هذه الآية كأنها إنجاز ما وعد الله به رسوله في سورة الضحى ، وهو قوله : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ ، فقد وعده في سورة الضحى أن يعطيه ربه في المستقبل ، فكأنه أنجز في هذه السورة ما وعده به ، قال هناك : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥] ، وقال هنا : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ والتوكيد بـ (إنّ) في مقابل التوكيد باللام في قوله : ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ ﴾ .

لقد أسند الفعل إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه فقال : (أعطيناك) وجعله مسندًا إلى الضمير المتقدم المؤكد بإنّ (إنّا) . وبناء الفعل على الاسم المتقدم كثيرًا ما يفيد الاختصاص . وقد يفيد الاهتمام دون الاختصاص وذلك كقوله تعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ [آل عمران : ١٩٣] فهو لم يقصر السماع عليهم ، وكقولك : (إن محمدًا نجح) فهو لا يفيد اختصاص النجاح به .

والاختصاص نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ﴾ [النجم : ٤٥] وهذا يفيد الأمرين معًا ، فهو يفيد الاختصاص والاهتمام معًا ، وقد أكد ذلك بإنّ فقال : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾ ولم يقل : نحن أعطيناك .

إن إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم المفيد للتعظيم وتوكيده يفيد أنه لا

---

(١) روح المعاني ٣٠/٢٤٦ .

يستطيع أحد أن ينزع هذا العطاء منه ويسلبه إياه ، وكيف يمكن أحدًا أن ينزعه منه والله هو الذي اختصه بهذا العطاء الكثير؟!

ثم إن العطاء الكثير جدًّا يقتضي التوكيد دون العطاء القليل ، جاء في (روح المعاني): «وبنى الفعل على المبتدأ للتأكيد والتقوي ، وجوز أن يكون للتخصيص. . . وفي تأكيد الجملة بـ (إن) ما لا يخفى من الاعتناء بشأن الخبر» [١].

﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾

قال: (أعطيناك) ، ولم يقل: (آتيناك) ، وهناك فرق بين الإعطاء والإيتاء. إن الكلمتين (أعطى) و(آتى) متقاربتان لفظًا ومعنى ، فإن أصل (آتى): (أَأْتى) بهمزتين ، ثم أبدلت الهمزة الساكنة ألفًا لسبب صرفي معلوم.

فالهمزة الساكنة تقابل العين ، والتاء تقابل الطاء ، فالفرق بين (أَأْتى) و(أعطى) من الناحية الصوتية ليس كبيرًا ، فإن الهمزة تقابل العين ، وكلاهما من حروف الحلق ، غير أن الهمزة أقوى من العين[٢] كما يقول النحاة.

والتاء والطاء وأختهما الدال من مخرج واحد وهو طرف اللسان وأصول الثنايا[٣]. غير أن التاء حرف مهموس والطاء حرف مجهور ، والطاء أعلى الثلاثة صوتًا[٤].

إن من صفات الحرف المهموس أنه يتهيأ لك أن تنطق به ويسمع منك

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٤٦.

(٢) الخصائص ٢/ ١٤٦.

(٣) شرح الرضي على الشافية ٣/ ٢٥٠.

(٤) انظر الخصائص ٢/ ١٥٨.

خفيًّا وظاهرًا ، أما الحرف المجهور فإنه لا بد أن تجهر به ، ولا يتهيأ النطق به إلا كذلك[١] .

إن استعمال الفعلين في العربية موافق لبنائهما الصوتي . فإنه لما كانت الهمزة أقوى من العين استعمل الفعل (آتى) لما هو أقوى وأوسع ، كإيتاء المال والملك والحكمة والآيات الدالة على صدق الأنبياء وغير ذلك ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٥٤] ، وقوله : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء : ١٠١] .

ولما كانت التاء حرفًا مهموسًا وهو يسمع مجهورًا وخفيًّا استعمل لما هو ظاهر ولما هو خفي ، فمن الظاهر إيتاء المال كقوله تعالى : ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة : ١٧٧] ، ومن الخفي إيتاء الحكمة والرشد والرحمة ، قال تعالى : ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف : ٦٥] .

في حين أنه لما كانت الطاء حرفًا مجهورًا أعلى وأظهر من التاء استعمل الفعل لما هو ظاهر ، ويكاد أن يكون مختصًّا بالأموال .

ويمكن أن نقول أيضًا : إن الفعل (أعطى) أظهر في النطق من (آتى) ، فكان استعماله في الأمور الظاهرة أكثر وأظهر ، فكان بناء الكلمة الصوتي موافقًا للمعنى الذي استعملت له إلى حد كبير .

والآن بعد أن بينا الفرق بينهما من الناحية الصوتية وأثر ذلك في المعنى بصورة موجزة نبين الفرق بينهما في الاستعمال .

إن (الإيتاء) ـ كما بينا ـ أوسع استعمالاً من (الإعطاء) ، فهو يستعمل في الأشياء المادية والمعنوية ، ويستعمل غالبًا في الأمور العظيمة ولما لا يحسن فيه استعمال الإعطاء .

---

(١) شرح الرضي على الشافية ٣/ ٢٥٨ .

أما الإعطاء فهو يستعمل غالبًا لما يفيد التمليك، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١]، وقال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، وقال: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وقال: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] وأنت ترى أنه لا يقال في نحو ذلك: (أعطى) وما تصرّف منه.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، وقوله: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦] فإنه لا يحسن أن يقال: (أعطوني زبر الحديد) فإن الإعطاء هنا يفيد التمليك دون (آتوني).

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، فإنه لا يحسن أن يقال: (أعطينا ثمود الناقة).

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] فإنه ليس بمعنى (ما أعطاكم).

والإيتاء قد يكون للأمور المادية أيضًا كما ذكرنا، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء: ٢]، وقوله: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣].

ويكون الإيتاء غالبًا للأمور العظيمة، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقوله: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وربما استعمل للقليل أيضًا كقوله تعالى: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣].

أما الإعطاء فيكون للأمور المادية غالبًا، وهو ما غلب في الاستعمال القرآني، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٦]، وقال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا

رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] ، وقال: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤] فاتضح أن الإيتاء يكون بمعنى الإعطاء ، وقد يكون لما لا يحسن فيه الإعطاء.

والفرق الآخر بين الإيتاء والإعطاء: أن الإعطاء يوجب التمليك دون الإيتاء[١] ، فإنك إذا أعطيت أحدًا شيئًا فقد ملكته إياه دون الإيتاء ، فإنه قد لا يكون تمليكًا وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] ، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد يشمل الإيتاء النزع دون العطاء ، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولما كان العطاء تمليكًا فهو يوجب الاختصاص ، أي أن لصاحبه أن يتصرف فيه كما يشاء ، فله أن يعطي منه ما يشاء أو يمسكه ، ولذا لما دعا سليمان قائلاً: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] قال له تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] ، ولم يقل: (هذا إيتاؤنا) فأطلق له التصرف فيه ، في حين لا يصح فيما آتاه الله من الكتاب والعلم أن يمسكه وإنما عليه أن يعلمه ويبينه ، وقد سمى الله ذلك إيتاء لا إعطاء ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] ، وقال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩] وقد حذّر الله من كتم شيئًا من ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

جاء في (تفسير الرازي): «الإعطاء يستعمل في القليل والكثير ، قال

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/١٢٣ ، روح المعاني ٣٠/٢٤٦.

الله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤]، أما الإيتاء فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١] ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠]»[١].

وجاء فيه أيضًا: «فإن قيل: أليس قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾؟ قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: أن الإعطاء يوجب التمليك، والملك سبب الاختصاص، والدليل عليه أنه لما قال سليمان: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ فقال: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ . . . أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك، فلهذا قال في القرآن: ﴿ءَاتَيْنَـٰكَ﴾ فإنه لا يجوز للنبي أن يكتم شيئًا منه.

الثاني: إن الشركة في القرآن شركة في العلوم ولا عيب فيها، أما الشركة في النهر فهي شركة في الأعيان وهي عيب»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «وفي إسناد الإعطاء إليه دون الإيتاء إشارة إلى أن ذلك إيتاء على جهة التمليك، فإن الإعطاء دونه كثيرًا ما يستعمل في ذلك، ومنه قوله تعالى لسليمان عليه السلام: ﴿هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ بعد قوله: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا﴾ . . .

الإيتاء لا يستعمل إلا في الشيء العظيم كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، والإعطاء يستعمل في القليل والكثير كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾»[٣].

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٢٣.
(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١٢٣.
(٣) روح المعاني ٣٠/ ٢٤٦.

يتبين مما مر :

١ ـ أن الإيتاء أوسع استعمالاً من الإعطاء ، وهو يستعمل في الشيء العظيم ، أما الإعطاء فإنه يستعمل في القليل والكثير .

٢ ـ إنه قد يستعمل فيما لا يحسن فيه الإعطاء .

٣ ـ إن الإعطاء يوجب التمليك دون الإيتاء .

٤ ـ إن الإيتاء قد يشمله النزع بخلاف الإعطاء فإنه تمليك .

٥ ـ لما كان الإعطاء تمليكًا كان سببًا للاختصاص ، أي أن لصاحبه أن يتصرف فيه كما يشاء من إعطاء أو إمساك .

لقد قال : ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ دون (آتيناك) ، ذلك أن ربنا أراد أن يملّك نبيه الكوثر فقال : ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ . ولو قال : (آتيناك) لاحتمل أن يفهم أن ذلك إيتاء آية لا إيتاء تمليك ، كما قال تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء : ٥٩] ، وقال : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر : ٨٧] ، وقال : ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم : ٣٠] .

والتمليك ـ كما هو معلوم ـ يفيد التخصيص ، أي أنه ملك مختص بصاحبه يتصرف فيه كما يشاء ، بخلاف الإيتاء فإنه في الغالب لا يفيد الاختصاص .

ويفيد أنه لا يشمله النزع ، بخلاف الإيتاء فإنه قد يشمله النزع كما قال تعالى : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف : ١٧٥] ، وكما قال في قارون ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِي ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص : ٧٦] ثم نزعها منه وخسف به وبداره الأرض ، فالإعطاء ههنا أدل على التكريم من الإيتاء .

وقال : ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل : (سنعطيك) ، إشارة إلى تحقق

الوقوع وأن ذلك كائن لا محالة. وقيل: إنه يدل على أن هذا الإعطاء كان حاصلاً في الماضي ، وقيل: هو إشارة إلى تعظيم الإعطاء[١].

ويجوز أن ذلك إشارة إلى ما بدأ به من الإعطاء ، وأنه مستمر لا ينقطع إلى الآخرة.

وقال: «﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ ولم يقل: أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع ؛ لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف ، فلما قال: ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ علم أن تلك العطية غير معللة بعلة أصلاً ، بل هي محض الاختيار والمشيئة ، كما قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا﴾ ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾»[٢].

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾

فَوْعَل: من الكثرة ، وهو وصف يفيد المبالغة والإفراط فيها ، «والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثرًا»[٣].

وقد فسر الكوثر تفسيرات كثيرة أهمها:

١ ـ أنه نهر في الجنة ، وقد صح ذلك عن رسول الله ﷺ.

٢ ـ أنه حوض في الجنة.

٣ ـ أولاده.

٤ ـ علماء أمته.

٥ ـ النبوة.

٦ ـ القرآن وفضائله لا تحصى.

---

(١) انظر روح المعاني ٣٠/ ٢٤٦ ، التفسير الكبير ٣٢/ ١٢٢.

(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١٢٢.

(٣) فتح القدير ٥/ ٤٨٩.

٧ ـ الإسلام.

٨ ـ كثرة الأتباع والأشياع.

٩ ـ الفضائل الكثيرة التي فيه.

١٠ ـ رفعة الذكر.

١١ ـ العلم.

١٢ ـ الخلق الحسن.

١٣ ـ المقام المحمود الذي هو الشفاعة.

١٤ ـ هذه السورة.

١٥ ـ «إن المراد بالكوثر جميع نعم الله على محمد عليه السلام، وهو المنقول عن ابن عباس؛ لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة، فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من حملها على الباقي، فوجب حملها على الكل. وروي أن سعيد بن جبير لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم: إن أناسًا يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه»[(١)].

جاء في (لسان العرب): «رجل كوثر: كثير العطاء والخير، والكوثر: السيد الكثير الخير... وفي حديث مجاهد: أعطيت الكوثر وهو نهر في الجنة. وهو فَوْعَل من الكثرة، والواو زائدة، ومعناه: الخير الكثير»[(٢)].

يتضح مما مرّ:

أن الكوثر يكون صفة للمبالغة نحو قولهم: (رجل كوثر) أي كثير العطاء والخير، ويكون ذاتًا موصوفة بكثرة الخير، كما ورد في اللسان

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٢٤ ـ ١٢٨.

(٢) لسان العرب (كثر) ٦/١٤٨.

(الكوثر: السيد الكثير الخير)، وعلى هذا يكون الكوثر صفة وموصوفًا.

إن الذي يترجح عندنا أن الكوثر يعني جميع نعم الله على رسوله في الدنيا والآخرة، وأن كل ما ذكر في تفسيره هو من الكوثر الذي أعطاه ربه إياه كما قال ابن عباس، ونهر الجنة الموعود به ﷺ هو الكوثر، وهو من الكوثر الذي وعده به.

وقال: (الكوثر) ولم يقل: (الكثير) ذلك أن (الكوثر) يكون صفة تدل على الخير الكثير، ويكون ذاتًا موصوفة بالخير الكثير، بخلاف (الكثير) فإنها تفيد الكثرة فقط غير محددة بشيء.

فكلمة (الكوثر) تعني شيئين:

١ ـ الكثرة.

٢ ـ الخير.

فهي تعني الخير الكثير وليس الكثير فقط، ولذلك يقال: (هو رجل كوثر) وتسكت، ولا يقال: (رجل كثير) وتسكت حتى تتم ذلك بقولك: هو كثير الخير أو كثير العطاء ونحو ذلك، وتقول: (أقبل الكوثر) أي السيد الكثير الخير، ولا تقول: (أقبل الكثير).

ومن معانيه: النهر الموعود به، فيقال: (هو الكوثر) ولا يقال: (هو الكثير)، فالكوثر على هذا وصف واسم، وكلاهما يدل على الخير والكثرة، فالوصف معناه كثير العطاء والخير، والموصوف معناه: السيد الكثير الخير، وعلى هذا فالكوثر أولى من الكثير.

ويقال: (الكَيْثَر) لهذا المعنى أيضًا على وزن (فَيْعَل) كصَيرف وصَيقل، غير أنه قال: (الكوثر) ولم يقل: (الكَيْثَر) لأن الواو أقوى من الياء، فأعطى الأقوى لقوة الوصف والله أعلم.

وقد حذف موصوفه ليفيد إطلاق الخير وعمومه فلا يقيد بشيء ، فلم يقل : (مالاً كوثرًا) ، ولا (ماء كوثرًا) ، ولا (ذرية كوثرًا) ، ولا غير ذلك . وفيه من المبالغة ما لا يخفى. جاء في (روح المعاني) «وفي حذف موصوفه ما لا يخفى من المبالغة» (١)

ومن هذا يتضح أن الكوثر هو الخير المطلق والكثير الممتد من الدنيا إلى الآخرة ، وهذا العطاء الواسع به حاجة إلى التوكيد فأكده بـ (إن) .

وبه حاجة أيضًا إلى تعظيم معطيه ، فجاء بضمير التعظيم وهو (نا) فقال : (إنّا) ، فأنت ترى أن المناسب هو ما ذكره من التوكيد ومن ضمير التعظيم ، جاء في (الكشاف) : «الكوثر : فَوْعَل من الكثرة وهو المفرط الكثرة. قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك؟ قالت : آب بكوثر . . .

وقيل : (الكوثر) نهر في الجنة . . .

وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير . . .

والمعنى : أُعطيتَ ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك ، ومعطي ذلك كله أنا إله العالمين ، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان : إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم ، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من منن الخلق ، مراغمًا لقومك الذين يعبدون غير الله ، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفًا لهم في النحر للأوثان» (٢) .

فانظر إلى ما في هذا التعبير من وجوه فنية :

١ ـ توكيده بإنّ .

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٤٦ .

(٢) الكشاف ٣/ ٣٦٢ .

٢ ـ إسناد الفعل إلى ضمير العظمة (أعطينا).

٣ ـ جعله خبرًا للضمير المتقدم لغرض التوكيد والاختصاص.

٤ ـ استعمال (أعطينا) دون (آتينا).

٥ ـ تعدية الإعطاء إلى ضمير الخطاب دون وصف آخر كالرسول والمطيع ونحوه.

٦ ـ استعمال الكوثر دون الكثير. وقد جمع في هذه اللفظة وصف الخير وكل شيء موصوف بالخير.

٧ ـ حذف الموصوف للإطلاق.

٨ ـ اجتماع أعظم مكرمتين: المعطي العظيم وهو رب العالمين والعطاء العظيم وهو الكوثر، وكل منهما تكريم ما بعده تكريم، فكيف إذا اجتمعا؟

* * *

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾

جعل شكر نعمة الإعطاء قسمين:

قسمًا خاصًّا بالله تعالى وهو الصلاة، وقسمًا للعباد وهو النحر، ومن هذا يتضح أن الإحسان إلى عباد الله من شكر النعم.

﴿ فَصَلِّ ﴾

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها[1]. «أي فدم على الصلاة لربك الذي أفاض عليك ما أفاض من الخير خالصًا لوجهه عز وجل، خلاف الساهين عنها المرائين فيها أداء لحق شكره تعالى على ذلك. فإن الصلاة

---

(١) فتح القدير ٥/ ٤٨٩.

جامعة لجميع أقسام الشكر ، ولذا قيل : (فصل) دون (فاشكر)» [١] .

وقد اختلف في المراد بالصلاة ، فقال قوم : إن المراد بالصلاة صلاة العيد ، وإن المراد بالنحر نحر الأضحية فيه ، وقد كانوا يقدمون الأضحية على الصلاة ، فنزلت هذه الآية آمرة بالصلاة والنحر [٢] .

وقيل : إن المراد بالصلاة الصلاة المكتوبة [٣] .

وقيل : إن المراد هو جنس الصلاة المكتوبة والنافلة [٤] .

وهو الراجح فيما يبدو ، إذ المطلوب أن تكون الصلاة عمومًا لله وحده لا لغيره .

﴿ لِرَبِّكَ ﴾

أي اجعل صلاتك خالصة لربك ، فإن المشركين كانوا يصلون لغير الله ، فأمره أن يصلّي لله وحده ، جاء في (تفسير الرازي) : «أراد بالصلاة جنس الصلاة ؛ لأنهم كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله ، فأمره أن لا يصلي ولا ينحر إلا لله تعالى» [٥] .

وجاء في (تفسير ابن كثير) : «أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته ، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٤٦ ، وانظر أنوار التنزيل ٨١٢ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥٢ ، التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٠ .
(٣) فتح القدير ٥/ ٤٨٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٨ ، الكشاف ٣/ ٣٦٢ ، التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٠ ، فتح القدير ٥/ ٤٨٩ .
(٥) تفسير الرازي ٣٢/ ١٣٠ .

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]. . .

وهذا بخلاف ما كان عليه المشركون من السجود لغير الله والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]» (١).

فاتضح من هذا أن قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ يعني الإخلاص ودفع الرياء، وهو في مقابل ما ذكره في سورة الماعون من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [الماعون: ٦] جاء في (تفسير الرازي): «كأنه تعالى يقول: ذكر في السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمراءاة فصل أنت لا للرياء لكن على سبيل الإخلاص» (٢).

وكان الأصل أن يقول بعد قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾: (فصل لنا) ولكن التفت فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ وفي هذا الالتفات عدة فوائد منها:

أنه أفاد أن الصلاة تكون للرب وحده لا للمعطي على سبيل الإطلاق، فإن المتصف بالعطاء يستحق الشكر، ولا يستحق الصلاة إلا الله. ولو قال (فصل لنا) لربما أوهم أنه استحق الصلاة لكونه معطيًا، فأزال الالتفات هذا الوهم.

ومنها: أن ضمير العظمة (نا) يشترك مع ضمير المتكلمين، وليس في السورة ما يدفع هذا الاشتراك، فعدل عن هذا التعبير إلى قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ لينص على أن هذا ضمير العظمة وليس ضمير الاشتراك.

والملاحظ في القرآن الكريم أنه لم يأت بضمير العظمة في موطن إلا

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٨.

(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١٣١.

ذكر قبله أو بعده ما يدفع وهم الاشتراك ، فيذكر اسم الله أو الرحمن أو غيرهما مما يدل على أنه الله ولا يدع ذلك للعقل وحده.

وهذا على سبيل الاستغراق ولم يشذ عن ذلك أي موطن ، ومن ذلك على سبيل المثال:

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٠٦ ـ ١٠٧].

وقوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦].

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ . . . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ١ ـ ٨].

وقوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . . . أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: ٤ ـ ٨].

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ . . . تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر ١ ـ ٤].

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾

وغير ذلك وغيره.

واختيار لفظ (الرب) وإضافته إلى ضمير الخطاب فيه من التكريم ما لا يخفى ، فإن اختيار كلمة (الرب) مناسب للعطاء الذي أعطاه إياه ، وإضافته إلى ضمير الخطاب فيه من التخصيص ما هو ظاهر ، إن هذه

السورة مختصة بالرسول ﷺ ولذا كانت كلها مبنية على خطابه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ... فَصَلِّ لِرَبِّكَ... إِنَّ شَانِئَكَ﴾.

جاء في (تفسير الرازي): «كان الأليق في الظاهر أن يقول: (إنا أعطيناك الكوثر، فصل لنا وانحر) لكنه ترك ذلك إلى قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ لفوائد:

(إحداها) أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة.

(وثانيها) أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم: يأمرك أمير المؤمنين، وينهاك أمير المؤمنين.

(وثالثها) أن قوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره. وأيضًا كلمة (إنّا) تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه، فلو قال: صلّ لنا [لبقي] ذلك الاحتمال، وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك، فلهذا ترك اللفظ وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحًا بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى.

(المسألة السابعة) قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أبلغ من قوله (فصل لله) لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه»[1].

﴿وَٱنۡحَرۡ﴾

النحر: هو نحر الهدي والنسك والضحايا من الإبل. وقال: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ ولم يقل: (اذبح) لأن النحر خاص بالإبل، أما الذبح فهو عام

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٣١.

يشمل كل ما يذبح من الإبل والبقر والغنم وعموم ما يذبح ، فطلب منه أن ينحر البُدْن[١] . وهي خيار أموال العرب ، ويتصدق بها على المحتاجين .

جاء في (روح المعاني) : «وانحر البُدْن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج ، خلافًا لمن يدعّهم ويمنع منهم الماعون»[٢] .

والنحر هو المناسب للعطاء الكثير ، فلما أعطاه الكوثر ناسب أن يتصدق بالكثير شكرًا لله تعالى .

وقيل : النحر : هو وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر في الصلاة[٣] .

والأول أرجح لأسباب منها :

١ ـ أن استعمال كلمة النحر في نحر الإبل أشهر من استعمالها في وضع اليمنى على النحر أو غير ذلك مما فسرت به .

٢ ـ أن تفسير النحر بوضع اليد اليمنى على اليسرى يروى عن علي ، وهو لا يصح عنه[٤] .

٣ ـ أن تفسير (انحر) بوضع اليمنى على اليسرى هو من هيئات الصلاة ، وهي داخلة في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ فلم يعط العطف معنى جديدًا ، فوجب أن يكون المراد من النحر غير هذا المعنى .

٤ ـ أن القوم كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله ، فأمر الله نبيه أن تكون صلاته ونحره له .

---

(١) البُدْن : جمع بَدَنة ، وهو ما يضحى به وينسك من الإبل .
(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٤٦ ، وانظر أنوار التنزيل ٨١٢ ، فتح القدير ٥/ ٤٨٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٨ ، الكشاف ٣/ ٣٦٢ ، التفسير الكبير ٣٢/ ١٢٩ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٨ .

٥ ـ أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة ذكر الزكاة بعدها ، فيكون النحر بمعنى نحر البدن أولى .

٦ ـ أن قوله : (فصل) إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله : (انحر) إشارة إلى الشفقة على خلق الله ، وجملة العبودية لا تخرج عن هذين الأصلين[١] .

وقد تقول : ولم اختار النحر هنا فقال : ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ دون أن يقول : (فصل لربك وتصدق) أو (آت الزكاة) أو نحو ذلك؟

والجواب أن اختيار النحر ههنا أولى من وجوه :

منها : أن الصدقة تشمل القليل والكثير ، في حين أن المناسب للعطاء الكثير أن يتصدق بأعز الأموال وأكرمها عندهم شكرًا لله .

أما إيتاء الزكاة فإنه ﷺ لم يملك نصاب الزكاة فلم تجب عليه ـ كما قيل ـ»[٢] .

ثم إنه لو قال : (وآت الزكاة) لما كان هذا مختلفًا عن أمر عامة المسلمين بها ، قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] فلا يكون ذلك شكرًا خاصًّا على ما أعطاه ربه من الكوثر .

ومن ناحية أخرى أن الزكاة تجب مرة في العام ، في حين أنه هنا أطلق النحر ولم يخصصه بوقت دون وقت .

ثم إن قوله : ﴿ وَٱنْحَرْ ﴾ معناه التصدق بلحم ما يذبح منها ، وهو مقابل قوله تعالى في السورة المتقدمة : ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون : ٧] ؛ فإن من معاني ﴿ ٱلْمَاعُونَ ﴾ الإناء الذي يوضع فيه الطعام . إن المذكور في السورة السابقة يمنع الماعون ، والرسول يتصدق بما يوضع في

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٢ .

الماعون ، فكان ما ذكره أولى .

وقد تقول : ولِمَ لم يقل : (فصل لربك وضحّ) من الضحية؟

والجواب : أن ما ذكره أنسب من وجوه ، منها :

إن قوله : (ضحّ) يعم كل ما يصح أن يضحى به من الإبل والبقر والغنم ، فلو ضحى بشاة كان مطيعًا وكانت مجزئة في هذا الأمر . في حين أنه طلب منه أن يتصدق بأكرم الأموال وأعزها عندهم وهي الإبل ، وهو المناسب لما أعطاه ، فكان هذا أولى .

ثم إن الضحية مختصة بوقت دون وقت ، فإن الضحايا تكون في أيام عيد الأضحى ، وهي أربعة أيام في العام . في حين أن قوله : (انحر) مطلق غير مقيد بوقت دون وقت ، فهو أوسع في الصدقة وأنفع لعباد الله .

ثم إن قوله : (انحر) يشمل عموم ما ينحر لله تعالى من هدي أو ضحية أو صدقة أو غيرها من النسك ، فكان أولى .

جاء في (تفسير الرازي) : «في الآية سؤالان :

أحدهما : أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة ، فلم كان المذكور ههنا هو النحر؟ والثاني : لِمَ لمْ يقل : ضحّ حتى يشمل جميع أنواع الضحايا؟

والجواب عن الأول : أما على قول من قال : المراد بالصلاة صلاة العيد فالأمر فيه ظاهر . وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة فلوجوه :

أحدها : أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان ، فقيل له : اجعلهما لله .

وثانيها : أن من الناس من قال : إنه عليه السلام ما كان يدخل في ملكه

شيء من الدنيا بل كان يملك بقدر الحاجة ، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه ، أما النحر فقد كان واجبًا عليه . . .

وثالثها: أن أعز الأموال عند العرب هو الإبل ، فأمر بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى . . .

والجواب عن الثاني: أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا» (١).

وقد تقول: ولم قدم الصلاة على النحر؟

والجواب أن ذلك لأوجه:

منها: أن الصلاة أهم من النحر وأكبر عند الله ، فهي ركن من أركان الإسلام ، وهي أكبر العبادات عند الله تعالى .

ومنها: أن الصلاة أعم من النحر ، والقيام بها أكثر من النحر ، فإن المفروض منها فقط خمس مرات في اليوم والليلة عدا النوافل ، فأين النحر من ذلك؟

ثم إن الصلاة حق الله ، وإن النحر حق العباد . وحق الله مقدم على حقوق العباد .

ثم إن هذه الآية نظيرة ما اجتمعت فيه الصلاة والصدقة من آيات القرآن الكريم فإنه يقدم الصلاة عليها ، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المائدة: ٥٥] ، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

ثم إنه قيل: إن المقصود بالصلاة صلاة العيد ، والنحر: هو نحر الهدي والنسك والضحايا ، وقدمت الصلاة على النحر لأنه كان ينحر قبل

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٣١ ـ ١٣٢ .

الصلاة فأمره أن يصلي وينحر[١].

جاء في (تفسير ابن كثير): «إن المراد بالنحر ذبح المناسك، ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: (من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له)»[٢]. وقيل: إن هذا قول ضعيف؛ لأن العطف بالواو لا يوجب الترتيب[٣].

وقيل: بل «دلت الأدلة على وجوب تقديم الصلاة على النحر لا لأن الواو توجب الترتيب، بل لقوله عليه السلام: ابدؤوا بما بدأ الله به»[٤].

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد مطلق الصلاة ومطلق النحر، سواء كان في العيد أم في غيره، وهو أدل على الشكر؛ لأن ذلك غير مقيد بأيام مخصوصة في السنة، وإذا وافق ذلك في العيد كانت الصلاة قبل النحر والله أعلم.

وقد تقول: ولم قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ ولم يقل: (فصل لربك وانحر له) فاكتفى بمتعلق واحد؟

والجواب من وجوه منها:

١ ـ أن المتعلق الأول يغني عن الثاني، فإنه مفهوم من المعنى.

٢ ـ أن الصلاة أهم من النحر لأنها لا تسقط، بخلاف النحر فإنه يكون مع الوجد، فجعل المتعلق بما هو أهم.

٣ ـ أن الصلاة لا تكون إلا عبادة، ولا تكون إلا لله، ولا تكون لغير

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥٢٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥٩.
(٣) التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٠.
(٤) التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٠.

ذلك بحال من الأحوال.

أما النحر فإنه قسمان:

قسم للعبادة، ولا يكون لغير الله البتة، فإنه حرام وأكله حرام بنص القرآن، وهو مما أهل لغير الله به الذي حرم بنص القرآن، وقد جاء في الحديث الصحيح عن الإمام علي بن أبي طالب أنه سمع النبي ﷺ يقول: (لعن الله من ذبح لغير الله)، قالوا: «المراد به أن يذبح لغير الله تعالى، كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى عليهما السلام أو للكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو كافرًا»[(١)].

وقسم يذبح للأكل لا للعبادة، كما هو شأن الجزارين ومن يذبح لغرض الأكل فهذا تكفي فيه التسمية، بل أبيح الأكل مما لا نعلم أنه ذكر اسم الله عليه، ويكفي أن نسمي نحن عليه، كما في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها «إن قومًا قالوا: يا رسول الله إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوا».

وبهذا استدل بعضهم على أن التسمية على الذبيحة ليست شرطاً. ومما يدل على عدم الاشتراط قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ فأباح الأكل من ذبائحهم مع وجود الشك في أنهم سموا أم لا[(٢)].

وقد ذهب قسم غير قليل من الفقهاء منهم ابن عباس وأبو هريرة وطاووس والشافعي ومالك وأحمد إلى أن التسمية سنة، فمن تركها عندهم عمدًا أو سهوًا لم يقدح في حل الأكل[(٣)]

---

(١) نيل الأوطار ٨/ ١٤٥.

(٢) نيل الأوطار ٨/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

(٣) نيل الأوطار ٨/ ١٤٠.

ولذا اختلف النحر عن الصلاة ولم يجعلهما بمرتبة واحدة ، فإنه قد لا يكون عبادة بخلافها ، فذكر (لربك) مع الصلاة دون النحر ، فألزمه أن تكون الصلاة لربه ، ولم يلزمه بألا ينحر إلاّ للشعيرة ، فقد ينحر لغير الشعيرة والله أعلم.

فانظر إلى طرف من أسرار التعبير في الآية:

١ ـ أنه بدأ بالفاء فقال: ﴿ فَصَلِّ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ؛ لأن ما قبلها جدير بالشكر.

٢ ـ اختار الصلاة دون غيرها من الطاعات لأنها أهمها.

٣ ـ قال: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ طلبًا للإخلاص له لا لغيره سبحانه ولا رياء.

٤ ـ قال: ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ولم يقل: (لنا) للدلالة على أن الله هو الذي يصلى له لا للمعطي على العموم.

٥ ـ اختار كلمة (الرب) دون غيرها من أسماء الله الحسنى لما فيها من معنى التربية والتعهد والعناية.

٦ ـ أضاف الرب إلى ضمير الخطاب للدلالة على التكريم ولما في ذلك من العناية بشأنه.

٧ ـ جاء بكلمة (الرب) بعد ضمير التعظيم لرفع توهم الاشتراك.

٨ ـ ذكر النحر دون الذبح للدلالة على عظيم الشكر ، فإن النحر مختص بالإبل.

٩ ـ ذكر النحر دون الزكاة أو الضحية للدلالة على العموم والاتساع في الأوقات ، ولعدم تخصيصه بالنصاب أو بوقت من أوقات السنة.

١٠ ـ جمع بين الصلاة والنحر للدلالة على أن الشكر قسمان: قسم لله وقسم لعباده.

١١ ـ قدم الصلاة على النحر لأهمية الصلاة، ولأنها تكون في سائر الأوقات، وهي عبادة يومية تكون في اليوم والليلة على الدوام ولا تسقط بحال.

١٢ ـ اكتفى بالمتعلق ﴿لِرَبِّكَ﴾ مع الصلاة دون النحر ؛ لأن ذلك مفهوم ، ولأن الصلاة عبادة على وجه الدوام. أما النحر فقد يكون للعبادة والنسك ، وقد يكون لغيره.

إلى غير ذلك من الأسرار التعبيرية.

* * *

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

الشنآن: هو البغض ، والشانئ هو المبغض ، وأما البتر فهو «استئصال الشيء قطعًا. . . البتر: قطع الذنب ونحوه إذا استأصله. . . وقيل: كل قطع بتر. . . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر. . . والأبتر الذي لا عقب له. . . والأبتر الخاسر» (١).

فقد ذكر ربنا أن مبغضه ﷺ هو الأبتر. وتعريف (الأبتر) والمجيء بضمير الفصل وتوكيده بإنَّ يدل على أن شانئه هو الأبتر حصرًا ، فلم يقل: (إن شانئك أبتر) أو (إن شانئك هو أبتر) فيجعله من جملة البُتْر ، بل قال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

إنه أبتر بكل معنى البتر ، فهو مستأصل الذرية مقطوعها ، بخلاف ذريتك التي تتسع وتمتد إلى يوم القيامة ، فإن ذرية هذا الشانئ إن بقيت وعاشت فستصبح من أتباعك معينة لك ، تسل سيفها معك على أعدائك ، تعزرك وتوقرك وتمجدك وينقطع ما بينها وبين أعدائك من نسب فلا تفتخر به ولا تدعو له ولا تذكره بخير ، بل إن ذرياتهم ستدعو

---

(١) لسان العرب (بتر) ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠.

لك وتذكر اسمك بالتجلة والتعظيم.

ثم ستنقطع ذرية هذا الشانئ وتبقى ذريتك تملأ الدنيا، فمن الأبتر منكما؟

ثم إن شانئك هو المقطوع من كل خير، فلك الخير الكثير وهو المقطوع من كل خير.

جاء في (الكشاف): «إن من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم هو الأبتر لا أنت؛ لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك، وذكرك مرفوع على المنابر والمنار، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله ويثني بذكرك.

ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف، فمثلك لا يقال له: أبتر، وإنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة وإن ذكر ذكر اللعن» [١].

وجاء في (تفسير البيضاوي): «إن من أبغضك لبغضه الله هو الأبتر الذي لا عقب له، إذ لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف» [٢].

وجاء في (تفسير الرازي): «الشنآن هو البغض، والشانئ هو المبغض، وأما الأبتر فهو في اللغة استئصال القطع...

ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بيّن تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر...

ثم ذلك إما أن يحمل على خير معين أو على جميع الخيرات.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٢) أنوار التنزيل ٨١٢.

أما الأول فيحتمل وجوهًا:

(أحدها) قال السدي: كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده: بتر، فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا: بتر فليس له من يقوم مقامه. ثم إنه تعالى بين أن عدوه هو الموصوف بهذه الصفة، فإنا نرى أن نسل أولئك الكفرة قد انقطع، ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو، وهكذا يكون إلى يوم القيامة.

(وثانيها) قال الحسن: عنوا بكونه أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه، والله تعالى بين أن خصمه هو الذي يكون كذلك، فإنهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين، وصارت رايات الإسلام عالية، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة.

(وثالثها) زعموا أنه أبتر لأنه ليس له ناصر ومعين، وقد كذبوا لأن الله تعالى هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، وأما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب» [١].

وجاء في (روح المعاني): «والظاهر أنه انقطع نسل كل من كان مبغضًا له عليه الصلاة والسلام حقيقة، وقيل: انقطع حقيقة أو حكمًا؛ لأن من أسلم من نسل المبغضين انقطع انتفاع أبيه منه بالدعاء ونحوه؛ لأنه لا عصمة بين مسلم وكافر...

وحمل شانئك على الجنس هو الظاهر، وخصه بعضهم بمن جاء في سبب النزول واحدًا أو متعددًا» [٢].

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٣.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٤٨.

وقرأ بعضهم (إن شنئك هو الأبتر) وشنئ كحذر. وقراءة الجمهور أولى ؛ لأن (شنئ) من صيغ المبالغة ، ومعنى ذلك أن المبالغ في بغضك هو الأبتر دون من لم يبالغ. في حين أن قراءة الجمهور تدل على أن شانئه هو الأبتر مهما قل بغضه أو كثر.

واختار الأبتر على المبتور ؛ لأن الأبتر صفة دالة على الثبوت كالأسمر والأصلع والأعمى والأعور ، بخلاف المبتور الدالة على الحدوث ، فإنه قد يزول عنه هذا البتر. جاء في (روح المعاني): «وفي التعبير بالأبتر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة»[1].

وقد جعل الله مجرد بغضه ﷺ بوارًا وخسرًا ، وهذه خصوصية لرسول الله ، فإن المسلمين قد يتشانؤون فيما بينهم ولا يخرجهم ذلك عن الإسلام ، وقد يتعادون فيما بينهم وهم لا يزالون في دائرة الإسلام ، قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: ٩٢] ، وقد يتقاتلون فيما بينهم ولا يخرجهم ذلك عن الإسلام ، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

أما رسول الله ﷺ فإنه مجرد شنآنه كفر وبوار وخسارة الدارين وإن لم يسل عليه الشانئ سيفًا أو يعلن عليه حربًا. وفي هذا تكريم وتعظيم لا يخفى. وفي الحديث أنه لا يؤمن أحدكم حتى يكون ﷺ أحب إليه من نفسه وأهله وولده والناس أجميعن ، فإن شانئه هو الأبتر.

أما هو ﷺ فليس بأبتر ، وإنما هو صاحب الخير الكثير الممتد من الدنيا إلى الآخرة ، والذرية الممتدة المتسعة.

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٤٨.

وقد ارتبط آخر السورة بأولها أجمل ارتباط وأحسنه ، فإنه ﷺ أعطي الكوثر ، وشانئه أعطي البتر فكان أبتر بكل معاني السوء في الكلمة .

فإنه إذا كان البتر استئصال الشيء قطعًا فإنه ﷺ لم يستأصل منه شيء ولم يقطع منه شيء ، وإنما أعطي الكثير .

وإذا كان معنى الأبتر كل أمر انقطع من الخير أثره ، فإنه ﷺ أعطي الكوثر ، وهو الخير الكثير ، فليس هو بأبتر .

وإذا كان الأبتر هو الذي لا عقب له فهو ﷺ ليس بأبتر ، وإنما ذريته تملأ الدنيا ، ولا تقل إن أبناء البنت ليسوا بذرية للرجل ، بل هم من ذريته . وقد عَدَّ الله عيسى من ذرية إبراهيم عن طريق الأم وليس عن طريق الأب كما هو معلوم . قال تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤ ـ ٨٥] .

وإن كان الغرض من الذرية هو حمل اسم الشخص وإبقاء ذكره ، فإن ذكره ﷺ أبقى من كل ذكر وأخلد من كل اسم وأرفع من كل عليّ ، فهو ليس بأبتر ، بل إن شانئه هو الأبتر .

وعلاوة على رفعة ذكره وخلود اسمه فإن ذريته باقية منتشرة . ففي كل مكان تجد من يقول إنه من ذرية محمد ، ولا تجد أحدًا يقول إنه من ذرية أبي جهل أو العاص بن وائل أو غيرهما ممن قال هذا القول ، وعلى هذا فقد أعطي الكوثر أيضًا .

وإذا كان الأبتر يعني الخاسر فإنه ﷺ قد أعطي الكوثر وهو الخير الكثير ، فكيف يكون خاسرًا وقد أعطي الخير الكثير الكثير !

ثم إن الخاسر على ضربين ، فهو قد يكون خاسرًا في الدنيا ، وهي

أهون الخسارتين ، وقد يكون خاسرًا في الآخرة وهي أعظمها ، قال تعالى : ﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الزمر: ١٥].

أما خسارة الدنيا فإنه ﷺ لم يخسر في تجارة دين ولا دنيا ، وقد آتاه الله ما نحر منه مائة بدنة في ضحى يوم واحد.

وأما في الآخرة فإنه صاحب الذكر المرفوع والمقام المحمود ، وصاحب نهر الكوثر في الجنة ، فأنت ترى أنه قد أعطي الكوثر في الدنيا والآخرة.

وبهذا يتضح قوة ارتباط أول السورة بآخرها ، فإنه بدأها بما أعطاه نبيه ، وختمها بما جعله لمبغضيه ، فقد أعطى نبيه الكوثر من كل خير ، وبتر مبغضيه فلم يجعل لهم خيرًا ولا عقبًا متصلاً.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أسند الله الإعطاء إلى ذاته العلية فقال: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ولم يسند البتر إلى ذاته ، فلم يقل: (وجعلنا شانئك هو الأبتر) بل أسنده إلى الشانئ نفسه ، فإنه أبتر من غير جعل جاعل ، وإنما ذلك وصفه هو ، وذلك أذمّ له وأقبح.

ثم علاوة على سمو هذا التعبير وجلالته فإن في كل آية من آيات هذه السورة إعجازًا من وجه آخر.

قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ وقد تحقق الكوثر فيما يتعلق بالحياة الدنيا ، فإنه نصره على أعدائه وجاءته الوفود معلنة إسلامها بعد أن كان مستضعفًا في الأرض محاصرًا.

وقد امتد النصر الذي تحقق على يد أتباعه إلى مشارق الأرض ومغاربها. ولم يكن النصر عسكريًا فحسب بل كان انتصارًا فكريًا هائلاً أيضًا. فقد انتشرت دعوته في بقاع الأرض ودخل الدين الذي كان يدعو

إليه ما دخل عليه الليل. وحكمت دول عظيمة باسمه ﷺ، ولا يزال مئات الملايين من الناس يتبركون باسمه ويذكرونه بالتبجيل والتعظيم والصلوات عليه. ولا يزال وسيبقى اسمه يرفع في جميع المعمورة بأعلى صوت كل يوم خمس مرات، فلا تخلو لحظة من اللحظات في الليل والنهار من رفع اسمه بالأذان، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وهذا لم يتحقق لأحد غير رسول الله ﷺ، ولم يعط أحد منذ أن خلق الله الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ما أعطي رسول الله، فهل هناك أكثر وأعظم من هذا الكوثر؟

ألم يحدث ما أخبره ربه من أنه أعطاه الكوثر؟ أفليس هذا إعجازًا؟ وهل هناك أوضح من هذا الإعجاز؟

وكذلك قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فإن فيه إشارة إلى أنه سيملك الإبل وينحرها متصدقًا بها لوجه الله، وقد تحقق هذا، فإنه نحر في ضحى يوم واحد مائة بدنة.

جاء في (تفسير الرازي): أن «السورة مكية في أصح الأقوال، وكان الأمر بالنحر جاريًا مجرى البشارة بحصول الدولة وزوال الفقر والخوف»[(١)].

وجاء فيه أيضًا أن في هذه الآية «إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل»[(٢)]. فتحقق هذا إعجاز، وذلك أنه أشار إلى ما حصل له قبل وقوعه وحدوثه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ فقد قطع مبغضيه

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٢.

(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٢.

من كل خير كما قطع عقبهم ونسلهم فلم يبق لهم عقب ولا نسل ولا حسن ذكر[١] .

فكان كما أخبر ربنا سبحانه ، وهكذا يكون في كل آية إعجاز ، والله أعلم .

* * *

---

(١) انظر أنوار التنزيل ٨١٢ ، التفسير الكبير ٣٢/ ١٣٢ ، روح المعاني ٣٠/ ٢٤٨ .

سُورَةُ قُرَيْشٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾

* * *

إن مناسبة هذه السورة لما قبلها ـ أعني سورة الفيل ـ ظاهرة ، فإن أصحاب الفيل إنما جاؤوا بسبب هذا البيت. وقد حفظ الله بيته وحماه ، وحفظ قريشًا وحماهم ، وأهلك أصحاب الفيل إكرامًا وتعظيمًا لهذا البيت ، فكان حفظ البيت حفظاً لهم وحماية لأمنهم ومعاشهم «إذ لو سلط عليهم أصحاب الفيل لتشتتوا في البلاد والأقاليم ولم ترتفع لهم كلمة»[1].

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «اعلم أن الإنعام على قسمين: أحدهما: دفع الضرر، والثاني: جلب النفع. والأول أهم وأقدم، ولذلك قالوا: دفع الضرر عن النفس واجب ، أما جلب النفع فإنه غير واجب ، فلهذا السبب بين تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل ونعمة جلب النفع في هذه السورة. ولما تقرر أن الإنعام لابد وأن يقابل بالشكر والعبودية لا

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥١٣.

جرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾»[١].

* * *

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ①﴾

الإيلاف من الألف والألفة، وهو مصدر (آلف)، وأصل (آلف): (أَأْلف) بهمزتين، وأصل (الإيلاف): (الإئْلاف) بهمزتين، أبدلت الهمزة الثانية مدًّا في الفعل والمصدر لسكونها وتحرك الهمزة قبلها. «والإيلاف ـ كما قال الراغب ـ اجتماع مع التئام»[٢].

وقد كانت قريش قد ألفت رحلتين: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام «فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم»[٣].

إن الجار والمجرور (لإيلاف) متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ أي (ليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف) والمقصود أن هذه النعمة وحدها كفيلة بعبادة رب البيت الذي به أصبحوا آمنين مطعمين، فكيف بنعم الله الأخرى عليهم؟ فإن لم يكونوا يعبدونه لتلك النعم فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة.

وقيل: الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف تقديره (اعجبوا)، أي اعجبوا لإيلاف قريش هاتين الرحلتين وتركهم عبادة رب هذا البيت الذي يسّر لهم هذا الأمر والناسَ يتخطفون من حولهم.

---

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ١٠٧.
(٢) روح المعاني ٣٠/ ٢٣٨.
(٣) الكشاف ٣/ ٣٦٠.

جاء في (الكشاف): «﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ أمره أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

فإن قلت: فلم دخلت الفاء؟

قلت: لما في الكلام من معنى الشرط؛ لأن المعنى: إمّا لا فليعبدوه لإيلافهم، على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة.

وقيل: المعنى: اعجبوا لإيلاف قريش» (١).

وجاء في (البحر المحيط) أن الجار والمجرور يتعلق «باعجبوا مضمرة، أي اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت» (٢).

«وقال الخليل بن أحمد: تتعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ والمعنى: لأن فعل الله بقريش هذا ومكنهم من إلفهم هذه النعمة فليعبدوا، أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلة» (٣).

واختيار لفظ (الإيلاف) يدل على أن هذا الأمر مألوف عندهم وليس طارئًا عليهم، وهذا ما يستحق أن يشكروا ربهم عليه.

وقدم الجار والمجرور ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ على متعلقه وهو الفعل ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ لأكثر من سبب وليعطي أكثر من فائدة، منها:

١ ـ أنه لو قال: (ليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش) لاقتضى ذلك حذف الفاء، ولانمحى المعنى الذي تدل عليه، وهو ما سنذكره فيما

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٥١٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٥١٤.

بعد ، فإنه لا تصح زيادة الفاء أولاً .

٢ ـ إن هذا التقديم وسع المعنى ، فهو يحتمل أنه متعلق بالفعل (ليعبدوا) ويحتمل أنه متعلق بفعل مضمر تقديره (اعجبوا) ولو تأخر لتعين تعلقه بالفعل المذكور (ليعبدوا) .

٣ ـ أن تقديمه قوّى الربط بين هذه السورة والسورة المتقدمة فجعلهما كالسورة الواحدة ، فكأنه قال : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش . وقد ذهب بعضهم إلى أنه متعلق به[١] .

٤ ـ إن تقديم ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ يفيد أهمية هذا الإيلاف في حياتهم وعظيم مكانته عندهم ، وأن التذكير بهذه النعمة مدعاة إلى الاعتراف بمُوليها عليهم وعبادته لا عبادة الأصنام ، ولا يفيد التأخير هذا الاهتمام أو العناية .

٥ ـ أنه لو لم يقدم لقال : (لتعبد قريش رب هذا البيت الذي أطعمها من جوع وآمنها من خوف لإيلافها رحلة الشتاء والصيف) فيتمزق الكلام ويذهب رونقه وفخامته ولم يؤدّ المعنى المقصود ، إذ من المحتمل أن يكون الجار والمجرور عند ذاك متعلقًا بأطعمها وآمنها ، فيكون المعنى أنه أطعمها وآمنها للإيلاف ، ولم يكن الإيلاف مدعاة إلى العبادة .

٦ ـ إن هذا التقديم إنما هو من باب تقديم العلة على الفعل ، فذكر العلة التي تستدعي العبادة أولاً وتلاها بطلب ذلك ، فيكون ذلك من باب التقديم بالسبق ، فإن العلة هي الدافع إلى الفعل ، وهي أسبق منه ، فقدمها لذلك .

وهو نظير ما جاء في سورة الفاتحة وهو قوله : ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٠ .

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنه قدم سبب اقتضاء إفراد الله بالعبادة ، وهنا فعل ذلك أيضًا .

* * *

﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾

أطلق الإيلاف أولاً فقال : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ ثم أبدل منه ما يبينه ويقيده فقال : ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ وذلك لتفخيم أمر الإيلاف والدلالة على عظيم النعمة فيه عليهم ومكانته في نفوسهم .

جاء في (الكشاف) : «أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيمًا لأمر الإيلاف وتذكيرًا بعظيم النعمة فيه» [١] .

وجاء في (التفسير الكبير) أنه «خصّ إيلاف الرحلتين بالذكر لأنه قوام معاشهم» [٢] .

وأفرد الرحلة ، والمراد (رحلتي الشتاء والصيف) لأنهما رحلتان لا رحلة لأمن اللبس[٣] ، ولأنه لو قال : (رحلتي الشتاء والصيف) لأوهم أن في الشتاء رحلتين وكذا في الصيف ، فيكون التقدير : رحلتي الشتاء ورحلتي الصيف ، فكان ما ذكره أولى .

* * *

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾

هذا البيت ، أي الكعبة ، وأضاف الرب إلى البيت تعظيمًا له ، ولأن هاتين الرحلتين إنما نجحتا واستمرتا بسبب هذا البيت الذي يعظمه

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٠ ، وانظر روح المعاني ٣٠/ ٢٣٩ .
(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١٠٦ .
(٣) انظر الكشاف ٣/ ٣٦٠ ، التفسير الكبير ٣٢/ ١٠٧ .

العرب ، ولولاه لم يكن لهاتين الرحلتين وجود واستمرار ، فطلب منهم عبادة رب هذا البيت الذي أنعم عليهم بهاتين النعمتين الجليلتين ، وألاّ يعبدوا غيره ، اعترافًا بفضله عليهم وشكرًا له سبحانه .

فالإضافة إلى البيت أنسب شيء في هذا المقام ، فإن الذي هيأ لهم هاتين الرحلتين وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف رب هذا البيت وليست أصنامهم التي يعبدونها .

وإضافة الرب إلى البيت فيها معنى آخر ، وهو أن رب البيت هو الذي يتكفل بحمايته وحفظه ، فالإضافة إلى البيت تعني حمايته من أي معتد عليه ، كما قال عبد المطلب لأبرهة : (إن للبيت ربًّا يحميه) ، وقد حماه ربه وفعل ما فعل بأصحاب الفيل .

واختيار لفظ (رب) أنسب شيء ههنا ، فإن الرب هو الذي يربي مربوبه ويحفظه ويرعاه ، ويطعمه إذا جاع ويؤمنه إذ خاف ، فاختيار لفظ الرب أنسب شيء لقوله : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ .

والمجيء باسم الإشارة عيّن البيت تعيينًا لا لبس فيه ، فلم يقل : (فليعبدوا رب البيت الذي أطعمهم . . .) لأنه لا يتعين عند ذاك على وجه التحديد ، فالمجيء باسم الإشارة عيّن البيت المقصود .

والفاء في (فليعبدوا) ونحوه من التعبيرات ذكر لها عدة معان ، فقد قيل : إنها دخلت لمعنى الشرط ، أي إن لم يعبدوه لسائر النعم فليعبدوا لهذه النعمة[(١)] ، وقيل : هي زائدة[(٢)] تفيد التوكيد .

وقد تفيد السبب مع ذلك ، وذلك من ناحيتين :

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٣٦٠ و٣/ ٢٨٥ في قوله : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ .

(٢) انظر المغني ١/ ١٦٥ .

الأولى: كونها على تقدير جواب الشرط ، والفاء في جواب الشرط تفيد السبب غالبًا.

والأخرى: كون الفاء على اختلاف معانيها فيها معنى السبب في الغالب.

وهي ههنا تفيد كل هذه المعاني ، فهي تفيد معنى السبب وتقويته ، وتفيد توكيد الكلام ، وأقصد بتقوية السبب أنها قوّت السبب الذي دلت عليه اللام في ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ فالفاء واللام تعاضدتا على الدلالة عليه.

وتقديم الجار والمجرور هو الذي جوز مجيء الفاء ههنا ، ولو لم يتقدم لم يصح إدخالها ، فلا يصح أن يقال ابتداء: فأعنه لأنه أعانك ، ولا: فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش.

ونظير هذا التعبير قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] ، وقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (فليصلوا لربهم) كما قال في سورة الكوثر بعد أن ذكر النعمة التي أنعم بها على رسوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ ، فلم يذكر الصلاة في سورة قريش وإنما ذكر العبادة على وجه العموم؟

والسبب واضح ، فإن كفار قريش لم يكونوا يعبدون الله أصلاً ، بل كانوا يعبدون الأصنام ، أما الصلاة فهي جزء من العبادة ، فهو لم يطلب منهم أن تكون الصلاة وحدها لله ، بل طلب أن تكون عموم العبادة من صلاة وغيرها له وحده ، وهو المناسب ههنا.

ولم يقل: (فليعبدوا ربهم الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) لأكثر من سبب ، فإنه لو قال ذلك لم يدل أن الأمر خاص بقريش ، فإن الله أطعم خلقًا كثيرًا من جوع وآمنهم من خوف ، ولو قال ذلك لخرج عن

هذه النعمة خلق كثير أيضًا ، فإن قسمًا من عباد الله لم يطعمهم الله من جوع ولم يؤمنهم من خوف ، فلو قال هذا لكان معنى ذلك أنه من لم تشمله هاتان النعمتان فلا يعبد الله .

وهو هنا أراد أن يخصّ قريشًا بالكلام ويدعوهم إلى عبادته ، فربط ذلك بالبيت الذي هم حوله وكان أمنهم وإطعامهم بسببه ، وإشارة إلى أنه لو لم يحم البيت لتفرقوا في البلاد ولتخطفهم الناس .

وذكر البيت يذكّرهم ببانيه وهو أبوهم إبراهيم الذي ينعمون ببركة دعائه بالتوسعة بالعيش والأمن ، وإبراهيم إنما بنى البيت بأمر ربه ، وكان عابدًا له لا للأصنام التي حطمها عليه السلام .

* * *

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

جمع لهم هاتين النعمتين وذكّرهم بهما لعظيم المنة بهما ، ذلك أن مكة بوادٍ غير ذي زرع ، وأهلها عرضة للجوع فأطعمهم وآمنهم من خوف ، والناس يتخطفون من حولهم ، وذلك ببركة دعاء إبراهيم عليه السلام ، فقد دعا لهم بالرزق فقال : ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة : ١٢٦] ودعا لهم بالأمن فقال : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [البقرة : ١٢٦] .

جاء في (البحر المحيط) : «كانوا قطانًا ببلد غير ذي زرع عرضة للجوع والخوف لولا لطف الله تعالى بهم ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [القصص : ٥٧] .

وآمنهم من خوف فضلهم على العرب بكونهم يأمنون حيثما حلوا ، فيقال : هؤلاء قطان بيت الله فلا يتعرض إليهم أحد وغيرهم خائفون» [١] .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٥١٥ .

وجاء في (روح المعاني) عن ابن عباس «أنه قال: أطعمهم من جوع بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وآمنهم من خوف حيث قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾»[١].

وقال: (أطعمهم) ولم يقل: (أشبعهم) لأن الشبع قد يورث ما لا يحمد عقباه من بطنة وتخمة ونحوها، أما الإطعام فيزيل الجوع، وخير الطعام ما يسد الجوعة.

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «ما الفائدة في قوله: ﴿مِّن جُوعٍ﴾؟ الجواب فيه فوائد:

أحدها: التنبيه على أن أمر الجوع شديد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى: ٢٨]. . .

وثانيها: تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة وهي الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة.

وثالثها: التنبيه على أن خير الطعام ما سد الجوعة؛ لأنه لم يقل (وأشبعهم) لأن الطعام يزيل الجوع، أما الإشباع فإنه يورث البطنة»[٢].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يكتف بقوله: (وأطعمهم) إذا كان الإطعام أفضل من الشبع؟

والجواب: أن من الإطعام ما لا يسد الجوعة ولا تسد به الحاجة فلا تتم به النعمة، ولذا قال: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي أبعد الله عنهم الجوع بالإطعام، فكانت النعمة بذلك أتم وأكمل.

ونكّر الجوع والخوف لإطلاقهما، فيشمل كل جوع وخوف. ولو

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٤١.
(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١٠٩.

عرّفهما لاحتمل أن يكون ذلك للعهد فيشمل إطعامًا من جوع معين وإيمانًا من خوف معين ، كأن يكون الخوف من أصحاب الفيل مثلاً ، فنكّر ذلك لإطلاق الجوع والخوف ويعممهما. وقيل: إن التنكير فيهما للشدة والتعظيم ، أي أطعمهم من جوع أيّ جوع ، وخوف أيّ خوف.

جاء في (الكشاف): «التنكير في جوع وخوف لشدتهما ، يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم»(١).

وجاء في (التفسير الكبير): «لم قال: (من جوع) (من خوف) على سبيل التنكير؟

الجواب: المراد من التنكير التعظيم»(٢).

قد تقول: ولم قدم الجوع على الخوف؟

والجواب أن ذلك لوجوه منها:

١ ـ أن الجوع أشد من الخوف وأمره أعظم ، فإن الجوع إذا استمر أهلك الإنسان والأحياء ، بخلاف الخوف فإنه قد يستمر ولا يؤدي إلى الهلكة ، فإن من الناس من يبقى خائفًا متخفيًّا أعوامًا ، فقدم ما هو أهم وأولى.

٢ ـ إن الرحلتين كانتا لغرض الميرة والاتجار ، وكان الأمن سببًا في نجاحهما واستمرارهما. فالإطعام من الجوع كان هو الغرض من الرحلتين ، أما الأمن فكان من أسباب نجاحهما ، فقدم الغرض الأساسي من رحلتي الشتاء والصيف.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٦٠.

(٢) التفسير الكبير ٣٢/ ١١٠.

٣ ـ إن حاجة قريش إلى الطعام شديدة ؛ وذلك لأنهم في بلد ليس بذي زرع ، فقدم ما هم محتاجون إليه على جهة الضرورة ، أما مسألة الخوف فإنها عامة في الجزيرة ، فقد كان يغير بعضهم على بعض.

٤ ـ إن تقديم الجوع على الخوف مناسب لتقديم الشتاء على الصيف في قوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ ذلك أن الإنسان أحوج إلى الطعام في الشتاء منه في الصيف ، ولذا نرى كثيرًا من الناس يدخرون قوتهم للشتاء لشحة الطعام فيه. فقدم الإطعام من الجوع مناسبة لتقديم الشتاء.

وجعل الأمن من الخوف بإزاء الصيف ، ذلك أن الصيف تسهل فيه الإغارة والكمون في أي مكان ، بخلاف الشتاء الذي يصعب فيه المبيت والتخفي في الخلاء. هذا علاوة على أن الوحوش والهوام تكنّ في الشتاء ، بخلاف الصيف ، فدواعي الإخافة في الصيف أكثر منها في الشتاء ، ولذا جعل الأمن من الخوف بإزاء الصيف ، فناسب كل تعبير موضعه.

٥ ـ وقد تقول: ولكنه قدم الخوف على الجوع في موطن آخر من القرآن الكريم فقال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥] فلم فعل ذلك إذا كان الجوع أشد وأهم؟

فنقول: إن التقديم إنما يكون بحسب ما يقتضيه السياق والمقام ، وقد اقتضى كل مقام التعبير الذي هو فيه. وإيضاح ذلك أنه ورد اجتماع الجوع والخوف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم هذا أحدها.

والموطن الآخر قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والموطن الثالث قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ

﴿مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فقدم الخوف على الجوع في آية البقرة ، وقدم الجوع على الخوف في آية النحل ، بحسب ما يقتضيه السياق والمقام في كل موطن.

أما آية البقرة فقد تقدم فيها الخوف على الجوع ؛ وذلك لأنها وقعت في سياق القتل ووقوع المصائب ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤ ـ ١٥٦] ، فناسب ذلك تقديم الخوف على الجوع.

وأما آية النحل ففي سياق الأطعمة ، فقد جاء بعدها: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ . . .﴾ [النحل: ١١٤ ـ ١١٥] فناسب تقديم الجوع على الخوف.

ثم إن تقديم الجوع أنسب ههنا من ناحية أخرى ، وذلك مراعاة للإذاقة في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ ، فإن الجوع إنما يكون بسبب قلة الطعام أو فقده ، والطعام مما يذاق على الحقيقة ، فحسن تقديم الجوع من هذه الناحية أيضًا.

جاء في (روح المعاني): «وتقديم الجوع الناشئ من فقدن الرزق على الخوف المترتب على زوال الأمن المقدم فيما تقدم على إتيان الرزق لكونه أنسب بالإذاقة أو لمراعاة المقارنة بين ذلك وبين إتيان الرزق» [١].

(١) روح المعاني ١٤/ ٢٤٣.

وقد تقول: ولكنه قدم الأمن على الرزق في صدر الآية فقال: ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ، فنقول: إن هذا التقديم هو المناسب هنا ، فإنه قال: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وهذا يقتضي تأمين السبل والطرق الموصلة إليها ، فإنه لو لم يكن الأمن موجودًا لم يأتها الرزق من كل مكان ، فإنه يجب تأمين السبل الموصلة إليها ، وأن تكون هي آمنة مطمئنة ليتم مجيء الرزق إليها. فكان تقديم الأمن هنا أنسب لأنه سبب الإتيان بالرزق إليها.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن آية البقرة إنما هي في ابتلاء المؤمنين واختبارهم ، وليست هي من باب العقوبات. بخلاف آية النحل فإنها في عقوبات الكافرين ، ومعلوم أن الجوع أشد من الخوف في العقوبات ، فقدم ما هو أشدّ والله أعلم، فكان كل تعبير في مكانه المناسب.

* * *

سورة الضحى



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴾

* * *

أبطأ الوحي عن الرسول ﷺ أيامًا وهو بمكة حتى شق ذلك عليه وجزع جزعًا شديدًا ، حتى قيل له: إن ربك قد قلاك وودّعك ، فنزلت هذه السورة تخبره أن ربه ما ودّعه وما قلاه[(١)]

وهنا يستوقفنا أمر قبل النظر في السورة وهو لماذا حزن عليه الصلاة والسلام وجزع؟ أذلك للمال وأمور الدنيا؟ أم هو للراحة والدعة والاستمتاع؟

إن الوحي قول ثقيل كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] وهو يعني التكليف والمشقة ، ويعني العنت والأذى والصبر

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٥ ، التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٩ ، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٢ ، روح المعاني ٣٠/ ١٥٨ .

على الأذى ، ومع ذلك كله فقد حزن لانقطاع الوحي مع علمه بما يلقاه من عنت وأذى من أجل تبليغه.

إن في هذا الإبطاء اختبارًا للرسول ﷺ أهو حريص على هذا الأمر الجديد الذي يترك من أجله راحته ويلقى من أجله ما يلقى أم هو سيتنفس الصعداء حين يعفيه ربه من هذه المهمة وهذا التكليف ، وفي هذا أيضًا درس للدعاة إلى الله ليعنيهم أمر الدعوة ، وإن كانوا يلقون في سبيلها ما يلقون من البطش والعنت والأذى.

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾

(الضحى) وقت ارتفاع الشمس بعد شروقها. و(سجا) معناه (سكن) في أشهر الأقوال ، ومعلوم أن الليل لا يسكن وإنما يسكن أهله وما فيه مما يصح أن يتصف بالسكون ، وعلى هذا فالإسناد مجازي.

وقيل: معنى (سجا): اشتد ظلامه ، وقيل: معناه: (غطى) [(١)] مثلما يسجى الرجل بالثوب ، ومنه تسجية الميت أي تغطيته.

جاء في (الكشاف): «سجى: سكن وركد ظلامه... وقيل: معناه سكون الناس والأصوات فيه ، وسجا البحر: سكنت أمواجه» [(٢)].

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي أنه ذكر «أهل اللغة في (سجى) ثلاثة أوجه متقاربة: سكن وأظلم وغطى... سجى الليل: تغطيته النهار مثل ما يسجى الرجل بالثوب... [قال] ابن عباس: غطى الدنيا بالظلمة ، [وقيل]: سكن بالناس» [(٣)].

---

(١) انظر روح المعاني ٣٠/ ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٣٤٤ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٤٥٨.
(٣) التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٧.

لقد أقسم ربنا بالضحى وبالليل إذا سجى أنه لم يودّع نبيه ولم يقلِه كما زعم أهل الكفر. إن القسم بهذين الشيئين لهما ههنا دلالة خاصة ـ كما قيل ـ فإن الضحى يمثل نور الوحي وإشراقه، وإن الليل إذا سجى يمثل انقطاعه وسكونه، فإن الدنيا من غير نور النبوة وإشراقة الوحي ليل مظلم وظلام مطبق.

ولذا قدّم الضحى، وهو ما سبق من نور الوحي على الليل إذا سجى، وهو مدة انقطاع الوحي وسكونه.

وقيل: إن هذا القسم يشير إلى أن هذا الانقطاع ليس إلا استجمامًا وسكونًا ترتاح فيه النفس كما يستريح المتعب في النهار إلى سكون الليل وهدأته، وكلا ذينك نعمة من نعم الله، فالضحى وما فيه من نور وحركة نعمة، والليل وما فيه من سكون وراحة نعمة تقابل نعمة النهار.

إن الإشارة إلى أن الضحى قد يرمز إلى رسالته ﷺ، والليل إلى انقطاع الوحي إشارة قديمة، فقد قال الإمام الرازي في تفسيره: يحتمل أن يقال: الضحى رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم، والليل زمان احتباس الوحي فيه[1].

وجاء في (التبيان في أقسام القرآن): «فتأمل مطابقة هذا القسم، وهو نور الضحى الذي يوافى بعد ظلام الليل للمقسم عليه، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه.

وأيضًا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل

(١) التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٩.

والشرك بنور الوحي والنبوة ، فهذان للحس ، وهذان للعقل»[(١)] .

وقال: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ ولم يقل: (إذا يغشى) أو (إذا يسر) كما قال في مواطن أخرى ، ذلك أن معنى (سجى): سكن وركد ، وهو إشارة إلى سكون الوحي وركوده وانقطاعه. في حين أن (يغشى) أو (يسري) ونحوهما تدل على الحركة ، فكان ما ذكره ههنا أنسب.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾

ودّع من التوديع كما يودع المفارق صاحبه ، وهو يكون عادة بين المتحابين والأصحاب ، ولذا كثر استعمال التوديع والوداع بين المحبين في الشعر العربي ، قال الشاعر:

ودّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعًا أيها الرجل

جاء في (روح المعاني): «ودّع من التوديع ، وهو في الأصل من الدعة ، وهو أن تدعو للمسافر بأن يدفع الله عنه كآبة السفر ، وأن يبلغه الدعة وخفض العيش ، كما أن التسليم دعاء له بالسلامة ، ثم صار متعارفًا في تشييع المسافر وتركه ، ثم استعمل في الترك مطلقًا... على أن التوديع مستعار استعارة تبعية للترك ، وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى ، فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته»[(٢)] .

وأما القلى فهو البغض.

فقد أقسم ربنا أنه لم يودع سيدنا محمدًا ولم يبغضه ، وقد ذكر مفعول التوديع وحذف مفعول البغض ، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ولم يقل: (وما قلاك) لأكثر من سبب. فقد قيل: إن حذف الكاف الثانية اكتفاء

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٤٧ .

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٥٤ .

بالكاف الأولى في (ودّعك) فقد علم أنه ضمير المخاطب وهو الرسول ﷺ ، ولأن رؤوس الآيات تقتضي ذاك ، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف[١] .

وقيل: إن الحذف يفيد الإطلاق ، بمعنى أنه ما قلاك ولا قلى أحدًا من أصحابك ومن أحبك إلى يوم القيامة[٢] .

ثم إن هذا الحذف من باب التكريم له ﷺ فإنه لم يرد أن يواجهه بنسبة البغض إليه ، فقد جاء في (روح المعاني): «وحذف المفعول لئلا يواجهه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وإن كانت في كلام منفي لطفًا به ﷺ وشفقة عليه الصلاة والسلام» [٣] .

وجاء في (معاني النحو): «ويذكر النحاة أن المفعول قد يحذف لتناسب الفواصل كقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي وما قلاك ، غير أنني أرى لهذا الحذف غرضًا بديعًا وسرًّا لطيفًا علاوة على ما ذكروه ، وهو أن الحذف ههنا للإكرام والتعظيم ، وذلك أنه تعالى لم يرد أن يواجهه بالقلى فيقول: (وما قلاك) وإنما اكتفى بالمفعول السابق إكرامًا لرسوله من أن يناله الفعل.

ونحو هذا يجري في كلامنا ، فإنا قد نكرم شخصًا فلا نواجهه بما يشين وإن كان هو المقصود بالكلام ، وذلك كأن يقول أحد لآخر: بلغني عنك أنك شتمت وقلت وقلت ، فيقول: لا والله ما شتمت ولا قلت ، فحذف المفعول في الفعلين تعظيمًا له من أن يناله الفعل» [٤] .

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٣٤٥ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٥ ، التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٩ .
(٢) انظر التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٩ ، روح المعاني ٣٠/ ١٥٦ .
(٣) روح المعاني ٣٠/ ١٥٦ .
(٤) معاني النحو ٢/ ٥١٥ .

فأنت ترى أن ذكر المفعول مع التوديع إكرام له ﷺ وحذفه من القلى إكرام له ، فهو إكرام في الذكر وإكرام في الحذف ، وهذا من ألطف مواطن الذكر والحذف.

وفي ذلك أيضًا توجيه وإرشاد إلى أدب الكلام والخطاب ، فإنه لا يحسن مواجهة الشخص الذي نجلّه ونكرمه بفعل مرغوب عنه ولو نفيًا ، فلا تقول: أنا لم أشتمك ولم أسبّك ، وأنا لا أهينك ولا أضربك بل تخرجه مخرج الإطلاق والعموم وعدم المواجهة ، فتقول: أنا لم أشتم ولم أسب ، بخلاف المرغوب فيه من الأفعال ، فإن المواجهة لا عيب فيها بل قد تحسن ، فتقول: أنا لم أكرمك كما تستحق ، وسبحان ربي ما عبدتك حق عبادتك.

واختيار كلمة (الرب) وإضافتها إلى المخاطب أنسب شيء ههنا وأدل على الرعاية والعناية ، فإن الرب هو المربي والمرشد والمالك والسيد فكيف يودعك ويقليك وأنت عبده ورسوله وهو سيدك ومولاك أخرجك من الظلمة إلى نور الوحي والرسالة؟

* * *

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ ﴾

قيل: إن المقصود بالآخرة ما يقابل الدنيا وهي التي بعد الموت ، ولا شك أن تلك الحياة خير له من الأولى لما أعد له من الكرامة.

وقيل: إن الآخرة كلمة عامة ، وهي تشمل ما يستقبل من حياته في الدنيا والآخرة ، وهو الأولى.

إن (الآخرة) قد تستعمل في القرآن الكريم للحياة الآخرة ، وتستعمل لما وصف بالتأخر على وجه العموم. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٧]

ولا شك أن هذا في الدنيا. وقال: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [ص: ٧].

فالأولى أن يراد بها العموم والإطلاق.

جاء في (التبيان في أقسام القرآن): «وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها» (١).

وجاء في (أنوار التنزيل) أن معنى الآية قد يفيد أن المقصود أنه «لنهاية أمرك خير من بدايته، فإنه لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «وقال ابن عطية وجماعة: يحتمل أن يراد بهما نهاية أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وبدايته، فاللام فيهما للعهد، أو عوض عن المضاف إليه، أي لنهاية أمرك خير من بدايته، لا تزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة» (٣).

ثم من الملاحظ أنه لم يقل: (وللآخرة خير لك من الدنيا) فيكون نصًّا على أن المقصود بالآخرة ما يقابل الحياة الدنيا، وإنما قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ليعم الآخرة جميعًا، سواء ما كان في الدنيا وما كان في الحياة الأخرى، فكان ما ذكره أعم وأدل على الإكرام والبشرى.

* * *

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾

وعد شامل مؤكد أن يعطيه ربه في المستقبل فيرضى. ومن الملاحظ أنه لم يذكر المفعول الثاني لأعطى، فلم يقل ماذا يعطيه، بل أطلق العطاء ليشمل كل خير في الدنيا والآخرة. كما أنه لم يحدد ظرفًا معينًا

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٤٨.

(٢) أنوار التنزيل ٨٠٤.

(٣) روح المعاني ٣٠/١٥٨.

لزمن هذا العطاء ، وإنما أطلقه ليشمل كل وقت بعد نزول هذه الآية في الدنيا والآخرة. كما أنه أطلق الرضا فلم يقيده بشيء ، فلم يقل: ترضى بكذا ولا عن كذا ، فأنت ترى أنه أطلق العطاء وأطلق الرضا ، وقد ذكر المعطي وهو ربه سبحانه. وفي هذا تكريم أي تكريم ، فإن العطاء يكون على قدر المعطي ، فلا عطاء أجل وأعظم وأكرم من عطاء الرب ، وإضافة الرب إلى ضمير الخطاب فيه من التكريم ما لا يخفى.

ثم إنه لما ذكر الآخرة قبل هذه الآية فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فجعل مستقبله خيرًا من ماضيه وحاضره ناسب أن يقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ فيأتي بحرف الاستقبال (سوف) فيكون توكيدًا لما ذكر من أن الآخرة خير له من الأولى. ولما كانت كلمة (الآخرة) تشمل كل ما يستقبله من عمره في الحياة الدنيا والآخرة ناسب أن يأتي بحرف الاستقبال (سوف) ولم يأت بالسين ، فإن السين جزء من (سوف) ، وهو لم يذكر جزءًا من المستقبل ، وإنما ذكره كله ، فناسب أن يذكر (سوف) وهو الحرف كله بإزاء الآخرة وهي ههنا المستقبل كله ، وهو تناظر طريف.

ولما قال: (وللآخرة) فأكد ذلك باللام أكد إعطاءه باللام فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ فناظر بين التوكيدين.

إن هذه الآية مرتبطة بالآية قبلها ، إذ هي تأكيد بأن الآخرة خير له من الأولى لأنه سوف يعطيه فيرضى.

وهي مرتبطة بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ فإن ذلك أمارة على أن ربه ما ودعه وما قلاه.

جاء في (أنوار التنزيل) في هذه الآية أنها «وعد شامل لما أعطاه من

كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين ، ولما ادخره له مما لا يعرف كنهه سواه» (١) .

وجاء في (تفسير الرازي): «ما الفائدة في قوله: (ولسوف)؟ ولِمَ لَمْ يقل: (وسيعطيك ربك)؟.

الجواب فيه فوائد:

إحداها: يدل على أنه ما قرب أجله ، بل يعيش بعد ذلك زمانًا» (٢) .

إن ما وعد الله في هذه الآية من أنه سوف يعطيه فيرضى هو من أجلّ النعم ، ذلك أن الرضا في الحياة هو أساس الاستقرار والطمأنينة والهناء والسعادة وراحة البال ، فإن فقد الرضا حلت الهموم وحل القلق والشقاء وعموم دواعي النكد.

ولا يكون الإنسان مرتاحًا ولا هانئًا إلا إذا عم الرضا جميع جوانب حياته ، فإن فقد من جانب منها فقد الإنسان من راحته واستقراره بقدر ذلك الجانب ، ولذلك أطلق سبحانه الرضا لنبيه فقال: (فترضى) ولم يقيده بشيء ، لا بمال ولا جاه ولا غيرهما.

ولعظم هذه النعمة وجلالها جعلها الله صفة أهل الجنة وصفة عيشها فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨] فوصفها بأنها راضية مرضية ، وقال: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١ ـ ٢٢] ، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ ـ ٧].

إن عدم الرضا قد يؤدي إلى الضغط النفسي ثم اليأس والقنوط ثم

---

(١) أنوار التنزيل ٨٠٢ ، وانظر الكشاف ٣/ ٣٤٥ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٦.

(٢) التفسير الكبير ٣١/ ٢١٣.

الانتحار ، فأي نعمة أجلّ من الرضا؟

إن التعب معه راحة ، والراحة من دونه تعب ونكد ، وإن الفقر معه غنى ، والغنى من دونه فقر. وإن الحرمان معه عطاء ، والعطاء من دونه حرمان.

أعرفت الآن عظم ما وعده ربه به؟ وهل أدركت الإشارة إلى نعمة الرضا في الحياة؟

* * *

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ ﴾

وهذا يدل على رعاية ربه له ، فإنه آواه بعد يتمه ولم يتركه ، وهذا مرتبط بقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ فإنه لم يتركه بل رعاه وآواه.

وهو مرتبط بقوله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أيضًا ، فإن الإيواء خير من اليتم فكانت الآخرة خيرًا له من الأولى.

* * *

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾

أي لم تهتد إلى الحق بنفسك ، بل هداك الله إليه.

جاء في (الكشاف): «معناه: الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع ، كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ﴾ [الشورى: ٥٢]. . . فهداك فعرّفك القرآن والشرائع» [١].

وهذه الآية مرتبطة أيضًا بجواب القسم ، وهو قوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ، وبقوله: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٤٥ ، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٣.

فإن هدايته من الضلال تعني أن ربه لم يتركه ولم يَقْلِه فكيف يكون قد ودعه وقلاه وقد هداه من الضلال؟

وهي مرتبطة أيضًا بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فإنه وجده ضالاً فهداه، فكان أول أمره الضلال وآخرته الهداية، فالآخرة خير له من الأولى.

* * *

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

العائل: الفقير فأغناه من عيلته.

وهذه الآية مرتبطة أيضًا بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ فإنه لم يتركه لفقره بل أغناه من فضله.

ومرتبطة بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فإن الفقر أول أمره وآخرته الغنى، فالآخرة خير له من الأولى.

فأنت ترى أن هذه الآيات الثلاث مرتبطة بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ فإنه لم يتركه في يتمه بل آواه، ولم يتركه في ضلاله بل هداه، ولم يتركه لعيلته وإنما هو أغناه.

فيكون ذلك دليلاً على أن ربه ما ودّعه وما قلاه، فإذا كان لم يفعل ذلك قبل النبوة فكيف يفعل ذلك بعدها؟

ومرتبطة بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فإن كل أمر ذكره كان آخرته خيرًا من أولاه.

ومرتبطة بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ فقد أعطاه قبل النبوة ما رأيت، فهو سيؤتيه بعدها ما هو خير وأعظم.

واختيار كلمة (رب) أنسب شيء في كل ما مر، فإن الرب يطلق في

اللغة على: المالك والسيد والمدبر والمربي والقيم والمنعم[(١)] ، والرب بمعنى المصلح ، وربَّ الشيءَ إذا أصلحه[(٢)] .

فهو مرتبط بقوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ فاليتيم به حاجة إلى من يقوم عليه ويؤويه ويدبّر أمره ويربيه ويصلحه ، وهذا من معاني الرب.

ومرتبط بقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ والضال به حاجة إلى من يهديه ويرشده ، ولذلك كثيرًا ما تقترن الهداية باسم الرب في القرآن الكريم ؛ لأن أولى مهمات المربي هي الهداية والإرشاد ، قال تعالى: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩] ، وقال تعالى: ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال: ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

ومرتبط بقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ فإن العائل به حاجة إلى من يدبر أمره ويقوم عليه وينعم عليه بالرزق وغيره ويصلح شأنه ، وهذا من معاني الرب.

وهذه الآيات مرتبطة بالقسم في أول السورة وهو قوله: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ، فإن قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ مرتبط به أوضح ارتباط ، فإن اليتم ليل وظلمة والإيواء نور ونعمة.

وكذلك قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ فالضلال ظلمات والهدى نور ، وقد سمى الله الضلال ظلمات والهدى نورًا ، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

---

(١) لسان العرب (ربب) ١/ ٣٨٤.
(٢) انظر لسان العرب (ربب) ١/ ٣٨٦.

والعيلة والفقر ليل وظلمة ومسكنة ، والغنى نور وبهجة ، فأنت ترى أن هذه الآيات مرتبطة بالقسم وبالجواب أجمل ارتباط .

وقد حذف المفعول من الأفعال الثلاثة فقال: (فآوى وهدى وأغنى) وكان الأصل أن يقال: (فآواك وهداك وأغناك) ، قيل: حذف المفعول لظهور المراد وهو المخاطب ، ولرعاية رؤوس الآي[1] ، فإنه لو ذكر الكاف لم ينسجم ذلك مع رؤوس الآي المنتهية بالألف .

وقيل: إنما حذف المفعول «ليدل على سعة الكرم ، والمراد آواك وآوى لك وبك. وهداك ولك وبك ، وأغناك ولك وبك» [2] .

والذي نراه أنه حذف لكل ذلك ، لظهور المراد ورعاية الفاصلة وسعة الكرم ، ذلك أنه لو قال: (ألم يجدك يتيمًا فآواك) لكان الإيواء منحصرًا به ﷺ فحذف المفعول للإطلاق ليدل على أنه آواه وآوى به خلقًا كثيرًا ، فإن كثيرًا من اليتامى والمحتاجين إنما أُكرموا وأُوووا بتعاليم رسول الله وإرشاده وتوجيهه فكان سببًا لإيوائهم وإكرامهم. وآوى له ، أي: لأجله من آوى ، فإن كثيرًا من الموسرين يفعلون ذلك حبًّا لرسول الله وإكرامًا له طمعًا أن يكونوا بقربه ﷺ في الجنة ، فقد قال ﷺ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين ، وأشار إلى إصبعيه السبابة والوسطى) ، وذكر أن المسح على رأس اليتيم مما (يزيل قساوة القلب) ، فهو آواه وبه وله .

وكذلك قوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ فإنه هداه وهدى به خلقًا كثيرًا ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] وهدى له ، أي: لأجله ﷺ من هدى .

---

(١) انظر روح المعاني ٣٠/ ١٦٣ .
(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٦٣ .

كذلك القول في ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ فإنه أغناه وأغنى به خلقًا كثيرًا ، وأغنى له أي لأجله ما شاء الله أن يغني .

ثم لنلاحظ ترتيب هذه الآيات الثلاث في الذكر ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ فإن هذا الترتيب هو الترتيب الطبيعي في الحياة ، فاليتيم يقال لمن هو دون البلوغ ، فإذا بلغ انتفت صفة اليتم واحتاج إلى الهدى ليسير على وفقه في الحياة ، فإن البلوغ مناط التكليف ، وأما جمع المال فينبغي أن يكون عن طريق السلوك الصحيح المبني على الهداية الربانية ، وكل مال يأتي عن غير هذا الطريق فإنه سحت ، وليس لزامًا أن يكون المرء غنيًا بعد البلوغ ، فقد يكون غنيًا وقد يكون فقيرًا ، وعلى كل من الغني والفقير أن يهتدي بشرع الله ، فإن ما عداه ضلال ، فكان ما ذكره هو أعدل شيء وأولاه .

«ولما عدّد عليه هذه النعم الثلاث وصّاه بثلاث فإنها مقابلة لها» [١] .

* * *

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾

القهر : هو التسلط بما يؤذي ، والمعنى لا تظلمه بتضييع ماله[٢] ، أو لا تغلبه على ماله وحقه لضعفه[٣] ، وقيل : معناه : لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيمًا[٤] .

* * *

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٦ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٦ .

(٣) الكشاف ٣/ ٣٤٦ .

(٤) فتح القدير ٥/ ٤٤٦ .

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾

ذهب أكثر المفسرين إلى أنه سائل المعروف والصدقة ، وقيل: هو السائل عن العلم والدين لا سائل المال(١) ، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين(٢) ، فهي تشمل سائل المعروف والسائل عن العلم والدين.

ومعنى لا تنهره: لا تزجره ولا تغلظ عليه ، ولكن أعطه وردّه ردًّا جميلاً(٣) ، وقل له قولاً حسنًا.

وقيل: «أي لا تكن جبارًا ولا متكبرًا ولا فحاشًا ولا فظًّا على الضعفاء من عباد الله» (٤).

فهو منهيّ عن زجر السائل أيًّا كان «فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين» (٥).

* * *

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

قيل: إن المراد بالنعمة: النبوة ، والتحديث بها: تبليغها(٦) ، وقيل: هي القرآن ، والتحدث به: بثه وقراءته وتعليمه(٧).

وقيل: هي عموم ما أصبت من خير فحدث إخوانك ليقتدوا بك ، ذلك إذا لم يتضمن رياء وأمن على نفسه الفتنة(٨).

---

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٦ ، التبيان في أقسام القرآن ٤٨ ، فتح القدير ٥/ ٤٤٦.
(٢) التبيان في أقسام القرآن ٤٨.
(٣) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٦.
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٣.
(٥) التبيان في أقسام القرآن ٤٨.
(٦) أنوار التنزيل ٨٠٢ ، فتح القدير ٥/ ٤٤٦ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٧.
(٧) انظر فتح القدير ٥/ ٤٤٦ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٧.
(٨) روح المعاني ٣٠/ ١٦٤ ، التفسير الكبير ٣١/ ٢٢٠ ، الكشاف ٣/ ٣٤٦.

والتحقيق أن النعمة هنا عامة ، سواء كانت من نعم الدنيا أم من نعم الدين ، ولا شك أن النبوة والقرآن أعظم النعم ، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة: ٣] والتحديث بهما: تبليغهما. ولا تقتصر النعمة على ذلك ، وإنما هي مطلقة ، والتحديث بها شكرها وإشاعتها[١] . فإنك إذا تحدثت بها شكرت موليها عليك. جاء في (فتح القدير): «أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس وإشهارها بينهم. والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها ، أو نوع من أنواعها» [٢] .

وجاء في (التبيان في أقسام القرآن): «والتحقيق أن النعم تعمُّ هذا كله ، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم ، وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا» [٣] .

وجاء في (الكشاف): «وحَدِّث بنعمة الله كلها ، ويدخل تحته هدايته الضلال وتعليمه الشرائع والقرآن مقتديًا بالله في أن هداه من الضلال» [٤] .

وقال: ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ ولم يقل: (فخبّر) ليكرر ذلك ويشيعه ، فإن التحديث يقتضي التكرار والإشاعة ، بخلاف التخبير فإنه لا يقتضي ذاك.

جاء في (تفسير الرازي): «واختار قوله: ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ على قوله: (فخبّر) ليكون ذلك حديثًا عنده لا ينساه ويعيده مرة بعد أخرى» [٥] .

وقد تُكُلم في ترتيب هذه الآيات ، فقد قيل: إنه لم يراع فيها

(١) فتح القدير ٥/ ٤٤٦ .
(٢) فتح القدير ٥/ ٤٤٦ .
(٣) التبيان في أقسام القرآن ٤٩ .
(٤) الكشاف ٣/ ٣٤٦.
(٥) التفسير الكبير ٣١/ ٢٢٠ .

الترتيب ، أي لم تكن الآيات مرتبة على وفق النسق قبلها ، فليست هي مقابلة للنعم التي امتنّ الله بها عليه ، فإنه قابل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ، لكنه قابل ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ بقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وكان المظنون أن يقول في مقابله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

كما أن القياس يقتضي أن يقول في مقابل ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ . فأنت ترى أنه لم يراع الترتيب الملحوظ.

وقيل: إن عدم الترتيب إنما جاء لمراعاة علة مقصودة.

جاء في (روح المعاني): «وأما بنعمة... إلخ في مقابلة قوله سبحانه: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ لعمومه وشموله لهدايته عليه الصلاة والسلام من الضلال بتعليم الشرائع وغير ذلك من النعم.

ولم يراع الترتيب لتقديم حقوق العباد على حقه عز وجل ، فإنه سبحانه وتعالى غني عن العالمين. وقيل: لتقديم التخلية على التحلية ، أو للترقي أو لمراعاة الفواصل» (١) .

وجاء في (البحر المحيط): «ويظهر لي أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة أمره بثلاثة ، فذكر اليتيم أولاً وهي البداية ، ثم ذكر السائل ثانيًا وهو العائل ، وكان أشرف ما امتن به عليه هي الهداية ، فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة ، وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة لأنه بعد اليتم هو زمان التكليف» (٢) .

والحق أن هذا هو الترتيب الأمثل ، وهو الذي يقتضيه المقام والسياق ، فإنه ذكر أولاً اليتيم ونهى عن قهره واستذلاله ، وهو بإزاء

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٦٤ ـ ١٦٥ .
(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٧ .

قوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ وهو الترتيب الطبيعي كما أسلفنا.

ثم ذكر بعده ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وهذا ـ كما ذكرنا ـ يشمل عموم السائلين، السائل عن العلم والدين، وسائل المال، فهي بإزاء قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ من ناحية؛ لأن السائل عن الدين والعلم طالب للهداية فلا ينبغي أن ينهره، وهي بإزاء قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ من ناحية أخرى إذا كان السائل ممن يسأل المال؛ لأن العائل قد يسأل الناس فلا ينبغي أن ينهره.

فهي من ناحية تقابل ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ ومن ناحية أخرى تقابل ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾.

جاء في (البحر المحيط) في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾: «وأما السائل، ظاهره المستعطي، فلا تنهر، أي تزجره، ولكن أعطه أو ردّه ردًّا جميلاً...

وقال قتادة: لا تغلظ عليه، وهذه في مقابلة ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾، فالسائل ـ كما قلنا ـ المستعطي، وقاله الفراء وجماعة.

[وقيل]: السائل هنا السائل عن العلم والدين لا سائل المال، فيكون بإزاء ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾»[1].

وذكر بعدها قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وهو أنسب ترتيب له، ذلك أن النعمة ـ كما ذكرنا ـ عامة تشمل كل ما أنعم الله عليه من نعم الدنيا والآخرة.

فإن كان المقصود بالنعم ما ذكره من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾... الخ، فالتحديث بها يكون بعد وقوعها فيكون متأخرًا

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧.

عنها ، وإن كانت نعمة الدين والتبليغ فهو أمثل وضع لها أيضًا ، ذلك أن الداعية قبل أن يتصدى للدعوة عليه أن يتحلى بالخلق الحسن والصفات الكريمة ، وألا يكون فظًا ولا متكبرًا ، بل عليه أن يكون هينًا لينًا فلا يقهر يتيمًا ولا ينهر سائلاً ، وإلا كان كلامه مردودًا عليه وحيل بينه وبين استجابة الناس له.

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ـ ٣] ، وقال : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

فالدعوة إلى الله تكون بعد التحلي بالخلق القويم لا قبله ، وهو توجيه للدعاة عمومًا ، فيكون التحديث بعدها أيضًا.

ثم إن وضع قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ قبل التحدث بالنعمة يحسن من جهة أخرى ، ذلك أن الداعية إلى الله المبلغ لدينه ـ وكل داعية ـ كثيرًا ما يتعرض للسؤال والاستيضاح ، ويكون هدفًا للسائلين على اختلاف أحوالهم ونواياهم ، فعليه ألا ينهر سائلاً أو يغلظ عليه وإلاّ فشل في مهمته. فترتيب هذه الآيات على نحو ما ورد هو أمثل ترتيب وأنسبه.

ولا بأس أن نستخلص درسًا في آخر السورة ، وهو أنه لا بأس أو يحسن تذكر الماضي أو التذكير به وما يتقلب المرء الآن فيه من نعم ليشكر الله عليها وليحافظ عليها ويزداد من الخير. كما فعل ربنا سبحانه ، فقد ذكّر نبينا بما كان عليه وما أولى عليه من النعم ، فإن تذكر أيام العسر والضيق والضلال ونحوها مما يضيق به المرء مدعاة إلى معاونة المبتلى بها فيكون بذلك من الشاكرين.

* * *

سورة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا
مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ
بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا
لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى (١٥) ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦)
وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى (١٧) ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ (١٩) إِلَّا
ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٠) وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ (٢١)﴾.

* * *

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١)﴾

أقسم بالليل وقت غشيانه ، ومفعول (يغشى) محذوف ، فاحتمل أن يكون المغشيّ الشمس ، كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس : ٤] واحتمل أن يكون النهار ، كقوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف : ٥٤] واحتمل أن يكون المغشي كل شيء: الأرض وما فيها ، وكل ما يواريها ظلامه (١) .

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٣٤٢ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣ .

والذي يترجح أن المراد به الإطلاق «أي يغطي بظلمته ما كان مضيئًا. قال الزجاج: يغشى الليل الأفق وجميع ما بين السماء والأرض فيذهب ضوء الشمس»[(١)].

* * *

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾

أي انكشف وظهر بزوال ظلمة الليل وطلوع الشمس[(٢)]. وجاء بصيغة المضارع مع الليل فقال: ﴿ يَغْشَىٰ ﴾ وبالفعل الماضي مع النهار؛ لأن الليل يغشى شيئًا بعد شيء، «وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة، ولهذا قال في سورة (والشمس وضحاها): ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٣ ـ ٤]»[(٣)].

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ ﴾

تحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولاً، أي والذي خلق الذكر والأنثى، وعبر عنه بـ (ما)؛ لأن (ما) تكون لذات ما لا يعقل ولصفات من يعقل نحو قوله تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٥] فيكون التعبير بـ (ما) ههنا لقصد التفخيم والتعظيم، ووصفه بأنه الخالق لجنسي الذكر والأنثى، جاء في (تفسير فتح القدير): «(ما) هنا هي الموصولة، أي والذي خلق الذكر والأنثى، وعبر عن (من) بـ(ما) للدلالة على الوصفية، ولقصد التفخيم، أي والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى»[(٤)].

---

(١) فتح القدير ٥/ ٤٣٩.
(٢) انظر الكشاف ٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣، البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.
(٣) التبيان في أقسام القرآن ٣٧.
(٤) فتح القدير ٥/ ٤٣٩.

وتحتمل أن تكون (ما) مصدرية أيضًا[١] ، فيكون المعنى أنه أقسم بخلق الذكر والأنثى.

وقيل: إن المراد بالذكر والأنثى عموم الذكر والأنثى من الإنسان وغيره ، وقيل: هما الذكر والأنثى من بني آدم[٢].

* * *

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

أي إن عملكم مختلف مفترق ، فمنه عمل للجنة ومنه عمل للنار[٣].

وقد أقسم بهذه الأشياء المتضادة المتقابلة: الليل والنهار ، والذكر والأنثى ، على اختلاف السعي وتضاده.

جاء في (تفسير ابن كثير): «لما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضًا متضادًّا ، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضًا ومتخالفة ، فمن فاعل خيرًا ومن فاعل شرًّا» [٤].

وجاء في (التبيان في أقسام القرآن): «ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الأقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه ، ذكره وأنثاه ، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار ، وكل ذلك من آيات ربوبيته» [٥].

ومن الملاحظ أنه بدأ بالليل ثم بالنهار ثم خلق الذكر والأنثى ، ذلك

---

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.
(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.
(٣) انظر فتح القدير ٥/ ٤٤٠ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٥١٨.
(٥) التبيان في أقسام القرآن ٣٧.



أن الليل أسبق من النهار كما يقولون ، فإن وجوده قبل ظهور الأجرام السماوية ، فبدأ بالأقدم وهو الليل ، ثم النهار وهو بعده ، ثم خلق الذكر والأنثى ، وخلق الذكر والأنثى متأخر عن وجود الليل والنهار بمدة طويلة. وبدأ بالذكر لأنه أسبق وأقدم ، فإن آدم أسبق من حواء ، ومنه خلقت كما قال تعالى : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء : ١] .

وقال في بعض الآيات إنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، فيذكر كلمة ﴿ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ وذلك نحو ما ورد في سورة القيامة ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ ، وما وردفي سورة النجم ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ .

ولم يذكر كلمة ﴿ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ في سورة (الليل) وكل مناسب لما ورد فيه ، فإنه فَصَّل في سورة القيامة في تطور الجنين ، فاقتضى ذلك التفصيل في الكلام فذكر كلمة ﴿ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ .

وكذلك في سورة (النجم) فإنه ذكر قدرته تعالى وفصل فيها ، بخلاف ما في سورة (الليل) فإنه أقسم وأوجز ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ في سورة الليل يقتضي عدم ذكر الزوجين لأن من معاني الزوج : النظير والمثيل. جاء في (لسان العرب) : «قال الزجاج في قوله تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات : ٢٢] معناه : ونظراءهم وضرباءهم ، تقول : عندي من هذا أزواج ، أي أمثال ، وكذلك زوجان من الخفاف ، أي كل واحد نظير صاحبه» (١) .

وهو في سورة الليل لا يريد المماثلة والمشابهة ، بل يريد الافتراق

---

(١) لسان العرب (زوج) ٣/ ١١٧ .

والتباعد في السعي ، فناسب عدم ذكر الزوجين. ثم إن الزوج قريب من زوجته مؤتلف معها ، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] وهو هنا ذكر الشتى ، وهو المتباعد المفترق ، فناسب عدم ذكر الزوجين من كل ناحية.

مما سبق يتبين أنه ذكر زمان السعي وهو الليل والنهار ، وذكر الساعي وهو الذكر والأنثى ، وذكر السعي ، وذكر أيضًا اختلاف زمان السعي واختلاف الساعين واختلاف السعي واختلاف مصير الساعين.

جاء في (التبيان في أقسام القرآن): «وأقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار ، وبالساعي وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعي ، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والأنثى.

وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء ، كما لم يسوّ بين الليل والنهار ، والذكر والأنثى» [١].

وقد تقول: إن جواب القسم لا يستوجب القسم ، فإنه أمر ظاهر معلوم، فإن كل أحد يعلم أن السعي مختلف ، فلم هذا القسم والتوكيد بإن واللام؟

والحق أن الذي أقسم عليه ليس معلومًا ولا مشاهدًا ولا يقره كل أحد ، بل يجهله وينازع فيه أكثر الناس ، فإن الذي أقسم عليه ليس هو السعي المشاهد من الأعمال اليومية التي يمارسها الناس من التجارة والزراعة والصناعة وغيرها ، فإنه لم يقسم على هذا ، وإنما أقسم على

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٣٧.

أمر يبينه التفصيل بعده ، وهو قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ ، ومقابله ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ وهذا ليس معلومًا لكل أحد ، بل ينكره أكثر الناس ، ومن يجهله أكثر بكثير ممن يعلمه ، فاستحق هذا الأمر القسم والتوكيد .

ثم إنه أضاف السعي إلى المخاطبين وهم المكلفون فقال : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ ولم يقل : (إن السعي لشتى) فيدخل فيه سعي غير المكلفين من الحيوانات والبهائم والحشرات كالنحل والنمل وما لا يدخل في التكليف ، ولذا أتبع الجواب بتفصيل يخص المكلفين دون غيرهم .

ومن الملاحظ أن القسم في سورة الليل عام ، والجواب عام مطلق أيضًا . في حين أن القسم والجواب في السورة التي قبلها ـ أي سورة الشمس ـ مقيدان .

فقد قال في سورة الليل : ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ على سبيل العموم ، فلم يذكر ماذا يغشى . في حين قال في سورة الشمس : ﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ فذكر المفعول به ، وهو يعود على الشمس أو الأرض .

وقال في سورة الليل : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ ، وقال في سورة الشمس : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ فأطلق التجلي في سورة الليل ، وقيد التجلية في سورة الشمس . والضمير يعود على الشمس أو على الظلمة أو على الأرض أو على الدنيا[1] .

وقال في سورة الليل : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰٓ ﴾ على سبيل العموم ، فإن ذلك يشمل كل ذكر وأنثى . في حين قيد القسم في سورة الشمس فقال : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ فقيده بنفوس المكلفين ، وهي

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣١/ ١٩٠ .

النفوس العاقلة، ولا تشمل غيرها، بدليل قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

وكان الجواب في سورة الليل مطلقًا أيضًا كالقسم، بخلاف ما ورد في سورة الشمس. فإن الجواب في سورة الليل يشمل كل من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى، ومقابله وهو من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى، في حين قيده في سورة الشمس بقوم ثمود.

فلما كان القسم في سورة الليل مطلقًا كان الجواب وتفصيله مطلقًا، ولما كان القسم في سورة الشمس مقيدًا كان الجواب ومثاله مقيدًا محدودًا بأمر واحد، فناسب بين القسم والجواب.

* * *

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾

هذا وما بعده تفصيل للسعي المختلف بذكر ساعيه وعامله. وقد ذكر ثلاث صفات بمقابل المقسم به. فقد أقسم بثلاثة أشياء وذكر من خلال الخير ثلاثًا، وقابل هذه الثلاث بثلاث من الصفات السيئة وهو قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾.

* * *

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾﴾

لم يذكر مفعولي (أعطى) لا المعطَى ولا العطية. قيل: لأن «المقصود الثناء على المعطي دون تعرض للمعطَى والعطية» [١]. وعلى هذا يكون المقصود الثناء على من أعطى، بغض النظر عمن أعطاه ولا ماذا أعطاه.

وقيل: بل إن ذلك لإطلاق العطاء، سواء كان متعلقًا بالمال أم غيره، فقد يشمل ذلك حقوق المال وحقوق النفس في طاعة الله وعموم أوجه النفع للآخرين.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٣٨.

جاء في (تفسير الرازي): «وفي قوله: ﴿أَعْطَىٰ﴾ وجهان:

أحدهما: أن يكون المراد إنفاق المال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب وفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوهم. . . سواء كان ذلك واجبًا أو نفلاً. . .

وثانيهما: أن قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ﴾ يتناول إعطاء حقوق المال وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى، يقال: فلان أعطى الطاعة وأعطى السعة» (١).

وجاء في (التبيان في أقسام القرآن): «وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي أعطى ما أُمِر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة والإخلاص والتوبة والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده» (٢).

وجاء في (البحر المحيط): «وحذف مفعولي (أعطى)، إذ المقصود الثناء على المعطي دون تعرض للمعطَى والعطية. وظاهره بذل المال في واجب ومندوب ومكرمة، وقال قتادة: أعطى حق الله، وقال ابن زيد: أنفق ماله في سبيل الله» (٣).

والذي يترجح عندي أن المراد بـ (أعطى) إعطاء المال؛ لأنه أظهر في هذا المعنى، ولأنه قابله بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ وذكر بعده ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾، فالراجح أن المقصود به إعطاء المال. جاء في (روح المعاني): «إن المعروف في الإعطاء تعلقه

---

(١) التفسير الكبير ٣١/ ١٩٨ ـ ١٩٩.
(٢) التبيان في أقسام القرآن ٣٧ ـ ٣٨.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.

بالمال خصوصًا ، وقد وقع في مقابله ذكر البخل والمال»[(١)] ، غير أنه أطلق الفعل ولم يقيده بمعطًى ولا بنوع من أنواع المال ولا مقداره.

﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾

اتقى: احترز وحذر ، وأطلق الاتقاء ولم يقيده بشيء ، كما أطلق الإعطاء ، ليشمل كل ما ينبغي اتقاؤه ، لذا قال بعضهم: (اتقى الله) ، وقال آخر: اتقى البخل ، وقال غيره: اتقى ما نهي عنه[(٢)].

والحق أنه يشمل كل ذلك وغيره مما ينبغي أن يتقى ، جاء في (تفسير الرازي) أن قوله: ﴿ وَٱتَّقَىٰ ﴾ «إشارة إلى الاحتراز عن كل ما لا ينبغي»[(٣)].

* * *

﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ ﴾

الحسنى صفة ، وهي تأنيث (الأحسن) كالعليا تأنيث الأعلى. وهي وصف مطلق لم يذكر له موصوف معين ، ولذا هي تشمل كل ما هو الأحسن مما ينبغي التصديق به ولا تختص بشيء معين.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في المقصود بهذا الوصف ، فقال ابن عباس وجماعة: إنه الخلَف في الدنيا الوارد به وعد الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩] وقال مجاهد والحسن وجماعة: الجنة ، وقال جماعة: الثواب. وقال السلمي وغيره: لا إله إلا الله[(٤)].

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٤٨.
(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.
(٣) التفسير الكبير ٣١/ ١٩٩.
(٤) البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.

وجاء في (فتح القدير) أن التصديق بالحسنى هو التصديق «بموعود الله الذي وعده أن يثيبه» [١]. وقال القفال: «وبالجملة إن الحسنى تسع كل خصلة حسنة» [٢].

والإطلاق ظاهر في الآية، فلا ينبغي تخصيصها بأمر واحد مما ذكروه، بل هي تشمله وتشمل كل ما هو أحسن مما ينبغي التصديق به كما ذكرت.

جاء في (روح المعاني): «ويترجح عندي أن الإعطاء إشارة إلى العبادة المالية، والاتقاء إشارة إلى ما يشمل سائر العبادات من فعل الحسنات وترك السيئات مطلقًا.

والتصديق بالحسنى إشارة إلى الإيمان بالتوحيد أو بما يعمه وغيره مما يجب الإيمان به» [٣].

وقد قدم العطاء على الاتقاء، وقدم الاتقاء على التصديق بالحسنى وذلك لأكثر من سبب؛ فأما تقديم العطاء فقال فيه المفسرون إنه لكونه سبب النزول، ذلك أن سبب النزول كان في شخص أعطى ماله في سبيل الله، وأجمعوا على أنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وذهب الشيعة إلى أنه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه [٤]. ونحن لا يعنينا هنا تعيين الشخص من هو، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإن اللفظ يشمل كل من اتصف بالصفات التي ذكرها ربنا سبحانه، وأبو بكر وأبو الحسن كلاهما مشمولان بهذا الوعد الحسن. وعلى أية حال فإن

(١) فتح القدير ٥/ ٤٤٠.
(٢) التفسير الكبير ٣١/ ١٩٩.
(٣) روح المعاني ٣٠/ ١٤٨.
(٤) انظر التفسير الكبير ٣١/ ٢٠٤.

سبب النزول كان في شخص أعطى ماله في سبيل الله ، فكان تقديم العطاء أنسب لكونه سبب النزول .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن جو السورة شائع فيه المال وإعطاؤه أو البخل به ، فقد جاء فيها قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ وهو أظهر في المال . ومقابله ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ فالمال وإنفاقه أو البخل فيه هو الشائع في السورة ، فناسب تقديم العطاء .

والعطاء هو المفضول فيما ذكر من الصفات ، ثم ذكر بعده ما هو أفضل منه وهو قوله : ﴿ وَٱتَّقَىٰ﴾ وهو أفضل من العطاء ، والعطاء في سبيل الله إنما هو من الاتقاء . قال ﷺ : «اتقوا النار ولو بشق تمرة» . ثم ذكر بعده ما هو أفضل منه ، وهو التصديق بالحسنى ، وهو أفضل من كل ما ذكر ؛ لأنه رأس الإسلام ، ومن كذب بالحسنى فلا ينفعه شيء مهما عمل ، والإعطاء والاتقاء إنما هما من التصديق بالحسنى، فترقى من المفضول إلى الأفضل .

وهو أيضًا متدرج من الأخص إلى الأعم ، فإن العطاء أخص من الاتقاء ، والاتقاء أخص من التصديق بالحسنى ، فكل معطٍ في سبيل الله متقٍ ، وكل متقٍ مصدّق بالحسنى ، فالمصدّق بالحسنى يشمل المتقي وغيره ، والمتقي يشمل المعطي وغيره ، فهو تدرج من الخصوص إلى العموم .

وهناك أمر آخر حسّن هذا الترتيب ، وهو أنه تقدم قبله قوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ والعطاء من السعي ، وهو أظهر الخصال المذكورة فيه . ويليه الاتقاء ، فإن فيه جانب سعي وجانب ترك وقعود .

وأما التصديق بالحسنى فإنه ليس بسعي ، وإنما هو اعتقاد قلبي

وتصديق ، والمصدّق بالحسنى قد يكون قاعدًا ، فقدم ما هو ألصق بالسعي ، ورتب المذكورات بحسب قربها وبعدها منه ، فكان هذا الترتيب أنسب شيء .

وهناك أمر آخر في أولوية هذا الترتيب ، ذلك أنه قال قبله : ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ ومن الذكر والأنثى يكون المجتمع ، فقدم ما هو أهم بالنسبة إلى المجتمع وهو العطاء ، فإنه أولى ما يقدمه الفرد ، إذ على الفرد أن يكون معطيًا لا آخذًا على الدوام ، فأول دعامة في بناء المجتمع وتطوره وتقدمه وازدهاره هو العطاء له ، وهو يعني التكافل والتآزر والتعاون وما إلى ذلك من خلال الخير .

والدعامة الأخرى وهي الاتقاء ، وهو أن يحذر الإساءة إلى الآخرين ، وأن يحذر ما يدعو إلى الإساءة إليه فيكون لبنة صالحة تحفظ المجتمع الذي يعيش فيه . والاتقاء له جانبان : أن يقي نفسه ويحفظها من الغوائل التي قد تقع عليه ، وأن يقي المجتمع مما قد يقع عليه منه أو من غيره ، ولذا أطلق الاتقاء والله أعلم .

والدعامة الأخرى وهي التصديق بالحسنى ، وذلك من صفات المجتمع المؤمن ، وهي من ألزم الأمور لتماسك المجتمع وقوته . فالمصدّق بالحسنى يكون مؤثرًا لغيره على نفسه ، غير مفرّط في حقوق الآخرين ، ويكون معطيًا متقيًا .

إن الصفة الأولى ـ وهي العطاء ـ صفة اجتماعية محضة ، ثم تليها الثانية وهي الاتّقاء ، ثم الثالثة وهي الإيمان ، وهذه أقرب إلى الفردية ، لأنها اعتقاد شخصي وإن كانت آثارها تعود على المجتمع ، فكان هذا التقديم أنسب شيء ههنا .

* * *

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾

اليسرى صفة ، وهي اسم تفضيل مؤنث الأيسر ، كالحسنى مؤنث الأحسن ، والكبرى مؤنث الأكبر. وقد ذكر الصفة ولم يذكر لها موصوفًا لقصد الإطلاق ، نظير (الحسنى) فيما مر.

وقالوا في (اليسرى) أقوالاً: فقد قيل إنها الجنة ، وقيل: إنها عمل الخير ، وقيل: المراد أن يسهل عليه كل ما كلف به من الأفعال والتروك.

قال القفال: «ولكل هذه الوجوه مجاز من اللغة ؛ وذلك لأن الأعمال بالعواقب ، فكل ما أدت عاقبته إلى يسر وراحة وأمور محمودة فإن ذلك من اليسرى ، وذلك وصف كل الطاعات» (١).

وجاء في (البحر المحيط) أن معنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي «نهيئه للحالة التي هي أيسر عليه وأهون ، وذلك في الدنيا والآخرة» (٢).

وجاء في (فتح القدير) أن معنى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي «فسنهيئه للخصلة الحسنى وهي عمل الخير ، والمعنى: فسنيسر له الإنفاق في سبيل الخير والعمل بطاعة الله» (٣)

والحق ـ والله أعلم ـ أن ذلك يفيد الإطلاق ، وأن التيسير لليسرى عام في كل خير في الدنيا والآخرة ، ما ذكر وما لم يذكر.

أما دخول السين على الفعل فلأنه وعد مؤكد سيحصل لمن فعل ذلك ، لأن السين تفيد الاستقبال والتوكيد. جاء في (تفسير الرازي): «أن الثواب لما كان أكثره واقعًا في الآخرة ، وكان ذلك مما لم يأت وقته

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣١/ ١٩٩.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.

(٣) فتح القدير ٥/ ٤٤٠.

ولا يقف أحد على وقته إلا الله لا جرم دخله تراخ ، فأدخلت السين ، لأنها حرف التراخي ، ليدل بذلك على أن الوعد آجل غير حاضر والله أعلم» (١) .

وجاء في (روح المعاني): «والسين في (سنيسره) قيل: للتأكيد ، وقيل: للدلالة على أن الجزاء الموعود معظمه يكون في الآخرة التي هي أمر منتظر متراخ» (٢) .

ولا شك أن السين تفيد الاستقبال ، والراجح أنها تفيد معه التأكيد.

وقد حذف السين من الفعل مع الرسول الكريم ؛ لأن أمره ﷺ ميسر على كل حال وعلى سبيل الدوام لا يختص ذلك بوقت دون وقت. قال تعالى:

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨] ولو قال: (سنيسرك) لكان وعدًا بالتيسير في الاستقبال دون الحال وهو غير مراد.

وارتباط المتعاطفات بالتيسير أجمل ارتباط وأحسنه ، ذلك أن التيسير لليسرى على اختلاف ما قيل فيه يدور على ثلاثة محاور:

الأول: أن يهيّء الله العبد لييسر على الآخرين أمورهم ، ويمشي في حاجاتهم ، ويعين المحتاج ، ويغيث أصحاب اللهفة.

والآخر: أن تكون أموره ميسرة وأفعاله ميسرة فتسهل عليه الأمور وتقضى له الحاجات ويجعل الله له من كل ضيق مخرجًا.

والثالث: التيسير عليه في الآخرة حتى يدخله الجنة بيسر. وهذه كلها داخلة في قوله: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ .

---

(١) التفسير الكبير ٣١/ ٢٠١ .

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٤٩ .

وارتباط المتعاطفات بهذا الوعد أجمل ارتباط وأحسنه في كل معانيه ، فقوله: (أعطى) مرتبط بالمعنى الأول ، ذلك أن من يعطي ييسر على الآخرين ويرفع عنهم عسرهم ويقضي حاجاتهم ، فيكون قد يسره الله لليسرى بهذا المعنى.

وقوله: (اتقى) مرتبط بالمعنى الثاني ، ذلك أنه من يتق الله يجعل له من أمره يسرًا ، ويجعل له من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] ، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ، ٣].

وقوله: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ مرتبط بالمعنى الآخر ، فمن صدّق بالحسنى جعل الله له العاقبة الحسنى ، وأدخله الدار الحسنى ، ويسر له دخول الجنة. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الرعد: ١٨].

جاء في (التبيان في أقسام القرآن): «ذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي اعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته وطاوعته نفسه ، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة والإخلاص والتوبة والشكر وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ولسانه وبدنه ونيته وقصده. . .

السبب الثاني: التقوى ، وهي اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أعظم أسباب التيسير. وضده من أسباب التعسير. فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك التقوىٰ وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى. . .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل

لَهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] وهذا أيضًا ييسر عليه بتقواه. . .

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إله إلا الله، وفسرت بالجنة، وفسرت بالخَلَف، وهي أقوال السلف. واليسرى صفة لموصوف محذوف، أي الحالة والخلة اليسرى. . .

وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير وييسر على قلبه ويديه ولسانه وجوارحه، فتصير خصال الخير وأسبابه ميسرة عليه، مذللة له، منقادة لا تستعصي عليه ولا تستصعب؛ لأنه مهيأ له ميسر لفعلها»[1].

* * *

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾

قابل الصفات الثلاث المذكورة آنفًا بهذه الصفات الثلاث:

فقوله: ﴿مَنْ بَخِلَ﴾ يقابل ﴿مَنْ أَعْطَىٰ﴾.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ يقابل ﴿وَاتَّقَىٰ﴾ فإن المستغني لا يحذر شيئًا. والاستغناء مدعاة إلى الطغيان. قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ يقابل ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾.

وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ يقابل ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

وهذه الصفات متقابلة تقابل الليل والنهار اللذين أقسم بهما في أول السورة.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٣٧ ـ ٤١.

ومعنى ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أننا سنسهل له العمل بالشر ، وأن نجريه على يديه حتى تتعسر عليه أسباب الخير ويضعف عن فعلها ، حتى يصير إلى النار وهي العاقبة العسرى ، كما أن الجنة هي اليسرى[١] .

جاء في (التبيان في أقسام القرآن) «التيسير للعسرى يكون بأمرين: (أحدهما): أن يحول بينه وبين أسباب الخير ، فيجري الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه.

(والثاني): أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر»[٢] .

و(العسرى) اسم تفضيل ، وهو مؤنث الأعسر ، كما مَرَّ في اليسرى أنه مؤنث الأيسر. وحذف الموصوف لقصد الإطلاق والعموم ، فيشمل تهيئته لكل ما هو عسير ، وأن يتعسر عليه فعل الخير فيلقى العاقبة العسرى ، وأشدها جهنم ، وهي أعسر شيء وأشدّه ، وهي مصيره المحتوم.

* * *

﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾

يجوز أن تكون (ما) استفهامية ، أي أيّ شيء يغني عنه ماله إذا تردى ، أي إذا هلك ، ويجوز أن تكون (ما) نافية أي لا يغني عنه ماله شيئًا[٣] ، والمعنيان مرادان ، وهذا من التوسع في المعنى.

معنى (تردّى): هلك ، من الردى ، أو تردّى في حفرة القبر ، أي سقط

---

(١) انظر فتح القدير ٥/ ٤٤٠ .
(٢) التبيان في أقسام القرآن ٤١ .
(٣) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٣ .

فيها ، وهو من مستلزمات المعنى الأول، أو تردّى في قعر جهنم ، أي سقط فيها[١] .

وكل هذه المعاني مرادة ، فإن هذا الشخص لا يغني عنه ماله شيئًا إذا هلك وقبر وكانت عاقبته أن يهوي في النار ، وماذا يغني عنه ماله يا ترى؟!

* * *

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) ﴾

ذكر لهذه الآية أكثر من معنى؛ فقد قيل إن المعنى أن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال وبيان الحلال والحرام والطاعة والمعصية ، ونحن نتكفل ببيان ذلك والتعريف به[٢] .

وقيل: المعنى إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله وإلى ثوابه وجنته ، فالسالك في طريق الهدى يصل إلى الله سبحانه ، أي إلى مرضاته ، وهو نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] ، وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٩] .

جاء في (التبيان في أقسام القرآن): «قال الواحدي: (علينا للهدى) أي إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله وإلى ثوابه وجنته ، وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: ههنا ، وفي (النحل) في قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩] ، وفي (الحجر) قوله: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ . وهو معنى شريف جليل يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولابد. والهدى هو الصراط المستقيم ، فمن سلكه أوصله إلى الله ،

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٤٤٣ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٣ ـ ٤٨٤ .

(٢) انظر فتح القدير ٥/ ٤٤٠ ، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٠ ، البحر المحيط ٨/ ٤٨٤ .

فذكر الطريق والغاية، فالطريق: الهدى، والغاية: الوصول إلى الله»[(١)].

وجاء في (فتح القدير): «أي إن علينا البيان. قال الزجاج: علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان، بيان حرامه وطاعته ومعصيته.

قال الفراء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد»[(٢)].

وجاء في (تفسير ابن كثير): «﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ تبيين الحلال والحرام، وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله. وجعله كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾»[(٣)].

وهذا المعنيان مرادان، فإن بيان الهدى وبيان سبيل طاعته إنما يكون على الله سبحانه تبيينه وتوضيحه.

وإن طريق الهدى يوصل إلى الله سبحانه، أي إلى مرضاته وثوابه وجنته، وأما طريق الضلال فلا يوصل إليه وإنما يوصل إلى النار، وقد جمعت الآية هذين المعنيين الجليلين معًا.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] فإنه يجمع هذين المعنيين، فإنه يعني أن على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين.

ومعنى (القصد): الاستقامة والعدل، ومعنى (القصد) أيضًا: استقامة الطريق. جاء في (لسان العرب) «القصد: استقامة الطريق، قَصَد

---

(١) التبيان ٤٥.

(٢) فتح القدير ٥/ ٤٤٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢.

يقصِد قصدًا فهو قاصد، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة.

ومنها جائر، أي ومنها طريق غير قاصد.

وطريق قاصد: سهل مستقيم، وسفر قاصد: سهل قريب، وفي التنزيل ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢] قال ابن عرفة: سفرًا قاصدًا، أي غير شاق، والقصد: العدل»(١).

ويعني أيضًا أن الطريق القاصد يصل إلى الله، والطريق القاصد هو الطريق المستقيم، وأما ما عداه فهو طريق جائر حائد عن الحق، كما قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾.

ويحتمل معنى آخر، وهو أن مقصدك واعتزامك ينبغي أن يكون على ربك، وأن يكون توجهك إليه. قال الفراء: «من سلك الهدى فعلى الله سبيله لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد»(٢).

أي من أراد الله فهو على السبيل المستقيم، أي فليسلك السبيل المستقيم، أي فليسلك السبيل المستقيم فإن ربنا عليه.

ونحو هذا ما قيل في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]، فقد قيل: إن المعنى «عليّ أن أدلّ على الصراط المستقيم بالبيان والحجة، وقيل: بالتوفيق والهداية»(٣).

وقيل: هو «على معنى أنه طريق يؤدي إلى الوصول إليّ من غير اعوجاج وضلال، وهو على نحو (طريقك عليّ) إذا انتهى المرور عليه.

---

(١) لسان العرب (قصد) ٤/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥.
(٢) فتح القدير ٥/ ٤٤٠.
(٣) فتح القدير ٣/ ١٣٦.

وإيثار حرف الاستعلاء على حرف الانتهاء لتأكيد الاستقامة والشهادة باستعلاء من ثبت عليه ، فهو أدل على التمكن من الوصول ، وهو تمثيل فلا استعلاء لشيء عليه سبحانه ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. . .

والعرب تقول: طريقك في هذا الأمر على فلان ، على معنى: إليه يصير النظر في أمرك ، وعن مجاهد وقتادة أن هذا تهديد للّعين ، كما تقول لغيرك: افعل ما شئت فطريقك عليّ ، أي لا تفوتني» [١] .

وذهب بعضهم إلى أن (عليّ) بمعنى (إليّ) [٢] ، وهذا المعنيان مرادان معًا في هذه الآيات الثلاث ، والله أعلم.

ثم لنلاحظ من جهة أخرى تأليف هذه الآية:

لقد قدم الخبر (وهو الجار والمجرور) على الاسم ، وأكد الآية بإن واللام. أما التقديم في مثل هذا التعبير فإنه يفيد القصر غالبًا ، ومعنى ذلك أن الهداية مختصة به سبحانه ، إذ هو وحده الذي يهدي الناس إلى ما يصلحهم في الدنيا والآخرة ، ولا يقبل هدى غيره. وكل هدى سوى هداه باطل وضلال ، وهو مردود مرفوض ، وصاحبه شقي في الدنيا والآخرة ، ولا يمكن لأحد أن يهدي خلقه غيره ولا يستطيع ذلك ، وإن الناس لو اتبعوا هدى غيره لضلوا وشقوا.

وقد أكد التعبير بإن واللام ليثبت هذا المعنى في نفوسنا ، وليبين لنا أهمية هذا الأمر.

إن أكثر الناس ينازعون في هذا الأمر ويبتغون الهدى في غير ما أنزل الله ، ولا يقرّون بهذه الحقيقة ، ولذا أكّده بمؤكدين.

---

(١) روح المعاني ١٤/ ٥١.
(٢) انظر روح المعاني ١٤/ ٥١.

وإذا كانت الآية بالمعنى الآخر ، وهو أن طريق الهدى يوصل إلى الله ولا يذهب إلى غيره ، وما سواه طريق منقطع عنه يوصل سالكه إلى النار فهذا المعنى به حاجة إلى القصر والتوكيد أيضًا ، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢] ، ونظيره في القصر ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ، وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٣٠] فهو على كل معنى مؤكد مقصور.

إن هذه الآية مرتبطة بما قبلها وما بعدها أحسن ارتباط وأجله ، فهي مرتبطة بقوله: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ فإن هذا السعي المختلف المتناقض أصحابه محتاجون إلى الهدى ليسلكوا الطريق الصحيح ، وإن الخلق إذا أوكل أمر السعي إليهم ذهبوا في متاهات وابتعد بعضهم عن بعض وسلكوا طرقًا متنائية متباعدة ، ألا ترى أن سعي الناس شتى لأنهم لم يتبعوا هدى ربهم وإنما اتبعوا أهواءهم وعقولهم فضلوا ، ولذلك ينبغي أن يكون الهدى لله حصرًا لئلا يكون سعي الناس شتى.

وهي مرتبطة بقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ فهذا من الهدى الذي بينه ربنا وقد عرّفنا كل طريق وإلى ماذا يوصل ، وهي مرتبطة بما بعدها من الآيات كما سنوضح ذلك.

* * *

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣ ﴾

معنى الآية أن «لنا كل ما في الآخرة وكل ما في الدنيا نتصرف به كيف نشاء ، فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك منا» (١).

إن هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، وهي قوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ ذلك أن

---

(١) فتح القدير ٥/ ٤٤٠.

هدى الله يكون في اتباعه سعادة الدارين ، وفي الإعراض عنه شقاء الدارين ، ولذا أوصى ربنا آدم بعد خروجه من الجنة أنه سيأتيه منه الهدى فمن اتبعه كان له خير الدنيا والآخرة وسعادتهما ، ومن أعرض عنه كان له الشقاء فيهما. قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤].

وقال: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ ـ ٣٩].

إن سلوك سبيل الهدى في الدنيا يوصل في الآخرة إلى مرضاته سبحانه وإلى ثوابه وجناته ، فهو مرتبط أحسن ارتباط بما قبله.

وهي مرتبطة بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ، وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ ذلك أن المعطي المتقي يريد الآخرة فيقول الله له: إن لنا الآخرة ، والبخيل المستغني يريد الدنيا فيقول الله له: إن لنا الدنيا ، فمن أرادهما فليطلبها منه تعالى وليسلك سبيل طاعته.

وهي مرتبطة أيضًا بقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ لأن التيسير والتعسير إنما يكونان في الآخرة والأولى ، وهما له.

ومرتبطة بقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ لأن ذلك إنما يكون في الآخرة ، والآخرة له سبحانه ، لذا يجب اتباع أوامره واجتناب نواهيه على كل حال.

وقدّم الآخرة لتقدم طالبها وهو قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ. . .﴾ ، وأخّر الأولى لتأخر طالبها وهو قوله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ. . .﴾

ثم نلاحظ من ناحية أخرى أن بناء الآية مثل بناء ما قبلها ، كلتاهما

مؤكدة بإن واللام ، وقد قدّم الخبر على الاسم ، وكلتاهما تفيد القصر ، فقوله : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ يفيد أن الهدى عليه قصرًا ، وقوله : ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يفيد أنهما له قصرًا لا يشاركه فيهما أحد .

وقد تقول : لقد وردت هذه الآية في هذه السورة مؤكدة ، ووردت في سورة النجم غير مؤكدة ، قال تعالى : ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم : ٢٤ ـ ٢٥] فما السبب؟ .

والجواب : أن ثمة أكثر من سبب لهذا ؛ فقد وردت الآية في سورة الليل في سياق امتلاك الأموال والتصرف فيها ، فذكر سعة ملكه مؤكدًا بإن واللام ، فقد قال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ والمعطي مالك ، وقال : ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ والبخيل مالك ؛ لأنه إن لم يكن مالكًا فلا يوصف بالبخل ، إذ ليس عنده ما يبخل به . وذكر الاستغناء والاستغناء من الغنى . وذكر المال بعد ذلك بقوله : ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ ، وقوله : ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ وكل ذلك في من يملك الأموال ، فذكر ربنا سعة ملكه وعظمته ، فناسب ذلك توكيد الملك في سورة الليل .

بخلاف آية النجم التي ليس فيها شيء من ذلك . فقد قال : ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ فناسب التوكيد في سورة الليل دون النجم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن جو سورة الليل يشيع فيه ذكر الآخرة ، فقد ذكر عاقبة من أعطى ومن بخل ، وقال بعدها : ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ وذلك في الآخرة ، وقال : ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ . . .﴾ وهذه في الآخرة ، فناسب التوكيد في سورة الليل . بخلاف سورة النجم التي لم يشع فيها جو الآخرة على هذا النحو .

وهناك أمر آخر في هذه الآية ، وهو أنه قدّم الآخرة على الأولى فيها ،

وكذلك في آية النجم. غير أنه قدّم الأولى على الآخرة في سورة القصص فقال: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠] فما سبب ذلك؟

فنقول: إن آية القصص وردت في سياق ذكر نعم الله على الإنسان في الدنيا، وهو ما ينبغي أن يحمده العبد عليها، قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٧٠ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [القصص: ٦٩ - ٧٣].

فناسب تقديم الأولى على الآخرة لما وقعت في سياق الكلام على الأولى، وأنت ترى أنه لم يقل كما قال في آيتي الليل والنجم: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾ أو ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ﴾، وإنما ذكر الحمد فقال: ﴿ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ لما ذكر النعم على خلقه، فناسب كل تعبير موضعه.

ثم إنه من الملاحظ في القرآن الكريم أنه لم يقل مرة: (إن لنا الدنيا والآخرة) أو (الآخرة والدنيا) بل كل ما ورد في نحو هذا ذكر الأولى مع الآخرة، وذلك لأكثر من سبب.

منها أن (الأولى) أعم من (الدنيا)، ذلك أنه استعمل (الدنيا) لما يحيا فيه المرء ويعيش نحو قوله: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً ﴾، وقوله: ﴿ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾، وقوله: ﴿ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٌ ﴾ وغير ذلك، أما (الأولى) فتستعمل للكون وما فيه على العموم، ما يدركه الإنسان وما لا يدركه. فالسماوات وما فيها وساكنوها وما لا

نعلم من خلق الله والأرض وما فيها كله من الأولى ، فلما أراد أن يذكر ملكه وسعته ناسب أن يذكر (الأولى) بدل (الدنيا).

ثم إن (الدنيا) مؤنث (الأدنى) ، ومن معاني (الأدنى) الأقرب ، ومن معانيه السَّفِل والأخسّ[1] وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]. فلما كان من معانيها السفالة والخساسة لم يناسب حين ذكر ملكه وعظمته ذكر الدنيا ، وإنما يناسب ذلك ذكر الأولى ، فكان ذلك أنسب ، والله أعلم.

* * *

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا. . .﴾ مرتبط بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ ذلك لأن هذا من الهداية الإرشاد.

جاء في (روح المعاني): «﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ قيل: متفرع على كون الهدى عليه سبحانه ، أي فهديتكم بالإنذار وبالغت في هدايتكم»[2] ، ومرتبط بقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ كما ذكرنا.

وظاهر أنه أنذرهم ولم يبشرهم ، ولذا كان الكلام عليها وعلى من يصلاها ومن ينجو منها. ولم يذكر الجنة ؛ لأن ذلك ليس من الإنذار ، وإنما هو من التبشير. فلما قصر تبليغه على الإنذار قصر الكلام على النار وعلى صفات صاليها والناجي منها.

لقد نكر النار ووصفها بقوله: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ وهذا يحتمل أنه أنذرهم النار على وجه العموم ، ويحتمل أنه أنذرهم نارًا مخصوصة أعدت للأشقى دون غيره.

---

(١) انظر لسان العرب (دنو) ١٨/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٢) روح المعاني ٣٠/ ١٥٠.

فإن النار دركات ، وبعض العذاب أشد من بعض، فالأشقى على هذا يصلى نارًا قد لا يصلها غيره ممن هو دونه في الشقاء ، كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ ـ ١٢].

فإن كانت نارًا خاصة بالأشقى لا يصلاها غيره فالقصر واضح ، فإنه لا يصلاها غيره ، وإن كان يراد بها عموم النار فقد أثير في ذلك سؤال وهو: إن عموم النار يصلاها الأشقى وغيره ممن دونه في الشقاء ، ويصلاها العصاة من المسلمين ، فكيف قصر ذلك على الأشقى فقال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾؟

والجواب عن ذلك من أوجه:

منها: أن المقصود أن يصلاها صليًا تامًّا لازمًا على جهة الخلود ، وهذا خاص بالكافر الكامل في الشقاء(١).

ومنها: أن اسم النار يطلق بهذا التنكير على عموم النار بكل أقسامها وأحوالها، وجميع ما أعد فيها من أهون أحوال العذاب إلى أشده ، فكل ذلك داخل في قوله: ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ ، يصلاها الشقي والأشقى ، وتشمل الدرك الأسفل والأعلى ، أعاذنا الله منها جميعها ، فيصح أن يقال بهذا العموم ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ باعتبار قسم منها، وأن يقال: (يصلاها عموم الأشقياء) باعتبار العموم.

ومنها: أن النار بكل أصنافها وعلى اختلاف دركاتها وأحوالها وأهوالها لا يصلاها إلا الأشقى ، فإن الذي يصلى النار هو أشقى الخلق ، إذ ليس بعدها شقاء ، فالذي يعذب أهون العذاب هو الأشقى ، فكيف بمن يصلى أشد العذاب؟

إن أهون النار وليس فيها هين أعدّ للأشقى فكيف أشدها؟ إن من

---

(١) انظر فتح القدير ٥/ ٤٤٠ ـ ٤٤١.

يعذب أهون العذاب يرى أن ليس أحد من أهل النار أشد عذابًا منه.

فقد جاء في (صحيح مسلم) أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا» فعلى هذا المعنى لا يصلى النار إلا الأشقى، إذ إن أقلهم شقاء هو الأشقى فكيف بأشقاهم؟ أعاذنا الله منها.

والراجح فيما يبدو لي أنه يشير إلى نار خاصة أعدت للأشقى الذي كذّب وتولى، والله أعلم.

وقد تقول: ولم نكّر النار وجعلها عامة ولم يعرّفها ليدل على أنها نار خاصة بالأشقى؟

والجواب عن ذلك من أوجه:

منها: أنه نكّر النار وجعلها عامة ووصفها بأنها تلظّى ـ وكل جهنم كذلك، نارٌ تلظّى ـ ليعلمنا أن النار بكل أقسامها وأحوالها وصفاتها تستحق الإنذار وأن على الناس أن يحذروها، ولو عرّفها لظن ظانّ أن التحذير واقع على تلك النار دون غيرها، في حين أنه أنذرنا النار على العموم، فكان التنكير أنسب.

ووصفها بأنها ﴿تَلَظَّىٰ﴾ وكل جهنم نار تلظّى ولكنها دركات، فوصفها بوصف عام لتشمل نار الأشقى وغيره، فيتحقق الإنذار على العموم وعلى الأشقى خاصة.

ومثلها أن تقول: (نار حامية) فإن كل جهنم نار حامية، ولكن بعضها أشدّ من بعض، فالشقي يصلى نارًا حامية، والأشقى يصلى نارًا حامية، والعصاة يصلون نارًا حامية.

ونحوه أن تقول: (نار ذات لهب) فلا ينفي أن يكون ذلك للشقي والأشقى وعصاة المسلمين ، فهناك نار تلظّى لا يصلاها إلاّ الأشقى ، ونار تلظّى يصلاها غير الأشقى.

ومن جهة أخرى أنه لو عرفها وخصصها لكان قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ خاصًا بتلك النار دون غيرها ، فقد يذوق غيرها ، ولكنه جعلها عامة ، فدل تنكيرها على أن الأتقى يتجنب النار على العموم بكل أحوالها ، فكان التنكير أنسب من كل ناحية.

لقد ذكر للأشقى صفتين وهما التكذيب والتولي فقال: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

ومعنى ﴿كَذَّبَ﴾ كذّب بكل مفردات الإيمان ومقتضياته ، ومعنى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أدبر عن الطاعات وابتعد عنها وانشغل بالمعاصي ، فقوله: ﴿كَذَّبَ﴾ مقابل ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ، وقوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ مقابل ﴿أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ، وقوله: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ توكيد لقوله: ﴿بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ، فالبخل والاستغناء من التولّي ، والتولّي أعمّ لأنه يشملهما ويشمل غيرهما.

والتكذيب أعم من التكذيب بالحسنى ، لأن التكذيب يشمل التكذيب بالحسنى وغيره من التكذيب بغير الحسنى ، وهو عاقبة الكفار.

ولما كان الوصف أعم وأشمل كانت العاقبة أسوأ ، فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ ، وذكر في هذه الآية أنه الأشقى وأنه يصلى نارًا تلظى لا يصلاها غيره فقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ، وهذه العقوبة أسوأ وأعظم.

ولما كان التكذيب عامًّا غير مخصوص بشيء ، والتولي عامًّا غير مخصوص بشيء ، استحق أن يكون ذلك هو الأشقى.

وهذا وجه آخر لتنكير النار وعمومها وعدم تخصيصها ، فإنه أطلق صفة الأشقى في التكذيب والتولي فناسب الإطلاق ههنا .

وقال : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ ولم يقل : (فأنذركم) بالمضارع ، كما قال : ﴿ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ [الأنبياء : ٤٥] ذلك لأنه أنذرهم بأمر واحد أخبرهم به وهي النار . أما قوله : ﴿ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ فلأن الوحي مستمر والإنذار لم ينته ما دام الوحي يتنزل ، فجاء به مضارعًا .

ونحوه من التعبير بالماضي قوله : ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت : ١٣] ، وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ [النبأ : ٤٠] فإن الإنذار فيهما تَمَّ واكتمل ، وهما نظير قوله : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ .

ومن الملاحظ أنه لم يؤكد الإنذار في هذه السورة ، في حين أكده في سورة النبأ فقال : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ بتوكيد الإنذار بإنّ ، ذلك أن الإنذار في سورة الليل لم يرد إلا في هذه الآيات ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ .

أما في سورة النبأ فقد اتسع الإنذار وتكرر ، ذلك أنه بدأ بقوله : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ وهو إنذار مؤكد بالتكرار ، ثم أعاد الإنذار بقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٢١ ـ ٣٠] .

ثم كرّر الإنذار في آخر السورة بقوله : ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ ، فكان الإنذار في أول السورة ووسطها وآخرها ، فناسب ذلك التوكيد في سورة النبأ دون سورة الليل .

* * *

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

لم يقل: (ولا يجنبها إلا الأتقى) كما قال: ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ ، وإنما ذكر أن الأتقى سيجنّبها ، أما غير الأتقى فقد يجنّبها أيضًا أو يردُها ورودًا خفيفًا على حسب عمله ، أما الأتقى فإنه يجنبها تجنيبًا كاملاً.

ثم ذكر مقابل الأشقى الذي كذّب وتولّى: ﴿ ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ وذكر له ثلاث خصال: التقوى بل الصفة العليا في التقوى وهي ﴿ ٱلْأَتْقَى ﴾ ، وأنه يؤتي ماله يتزكى ، وهو مقابل ﴿ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ وهو الوصف الأعلى في هذا الأمر ، ذلك أنه ﴿ يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ فهو يعطي ماله كله ، وبذا يكون قد وصفه بالوصف الأعلى في التقوى والوصف الأعلى في الإنفاق ، فإنه لا عطاء أكثر من ذلك.

ثم انظر كيف قال: ﴿ يُؤْتِى مَالَهُۥ ﴾ بإضافة المال إليه ، ولم يقل: (يؤتي المال) بمعنى أنه يؤتي ثمرة كدّه وعمله هو. ثم ذكر الغرض من ذلك وحاله عند العطاء وهو أنه يتزكى بذلك ، أي يتطهر.

وذكر أنه لم يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، وذلك أعلى درجات التصديق بالحسنى.

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الأشقى بصفات أعم وأسوأ مما قاله فيمن قبله فقال: ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ وهو أعم وأسوأ ممن قال فيهم: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ذكر أيضًا بمقابل: ﴿ مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ من هو أعلى منه فقال: ﴿ ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ ، فقد ذكر بمقابل ﴿ أَعْطَىٰ ﴾ وهو يحتمل العطاء الكثير والقليل أنه ﴿ يُؤْتِى مَالَهُۥ ﴾ وهو أكثر وأعم ؛ ذلك لأن هذا يؤتي ماله كله.

وبمقابل (اتّقى) الأتقى وهي الصفة العليا ، وبمقابل ﴿ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾

أنه يفعل ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى ولا يفعله إلا لذلك ، فهو أعلى درجات التصديق.

ولذا كان الجزاء أعلى ، فإنه قال في الأولى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وقال ههنا أنه يجنب النار وأنه سوف يرضى ، فذكر أمرين.

ومعنى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ أنه سوف يرضى بثوابه في الآخرة لعظيم ما أعدّ له. وهناك معنى آخر لها ، وهو أنه لم يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ورضوانه ولسوف يرضى الله عنه ، وكلا المعنيين جليل شريف ، فإن رضا الله أكبر من الجنات ، كما قال الله تعالى ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] والمعنيان مرادان معًا ، ذلك أن الله سوف يرضى عنه ، وأنه سيرضى بما جزاه الله سبحانه ، فانظر عظم هذا الجزاء.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ بالبناء للمجهول ، ولم يقل: (سيتجنبها الأتقى) بالبناء للمعلوم ، ذلك أن تجنب النار أمر عسير ليس ذلك إليه بل ذلك إلى ربه ، وسبيل ذلك التقوى والتطهر وإنفاق المال وإخلاص العمل لله.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] بالبناء للمجهول ، ولم يقل: (فمن تزحزح عن النار) لأن الزحزحة عن النار ليست إلى الناس بل إلى خالقهم ومالكهم خالق النار ، وهذا إنذار عظيم للناس لو كانوا يعلمون ، فإنه ليس باستطاعة أحد أن يتجنب النار بنفسه ولو كان الأتقى ، وكيف يمكن أن يتجنبها وقد أقسم ربنا على أننا كلنا سنردها ولا ينجو إلا من ينجيه الله منها ، فقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢] ، وقال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى

﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦٠ ـ ٦١].

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾، وقوله: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ بإسناد التنجية إلى الرب نفسه لا إلى المتقين، وهو نظير قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ ببناء التجنيب للمجهول، والمتقون ـ كما يظهر من الآيات ـ هم الناجون.

وقد تقول: ولم أسند ضمير التنجية في سورة مريم إلى ضمير المتكلمين فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ وأسنده في سورة الزمر إلى الله فقال: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ وبنى الفعل للمجهول في سورة الليل فقال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾؟

والجواب: أن ذلك بحسب السياق الذي ورد فيه التعبير، فإن الجو الشائع في سورة مريم إسناد الفعل إلى ضمير المتكلمين، وذلك نحو قوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ... ۝٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ... ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ... ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ... ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ... يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ...﴾ إلخ، فناسب ذلك إسناد الفعل (ننجي) إلى ضمير الجماعة للتعظيم.

وإن الجو الشائع في سورة الزمر إسناد الفعل إلى الله سبحانه، وقد شاع فيها ذكر الله نحو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا... ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ... وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً... أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ... ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ... فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ وغير ذلك وغيره، فناسب ذلك أن يسند التنجية إلى الله.

في حين شاع في سورة الليل العموم والإطلاق ، فناسب حذف الفاعل وإسناد التجنيب إلى غير مذكور ليناسب جو الإطلاق في السورة ، ولا شك أن ذكر الفاعل يفيد التخصيص لا الإطلاق.

ومن الملاحظ أنه ذكر في الذين اتقوا أنه ينجيهم ، وفي الأتقى أنه يجنَّبها ، ذلك أن النجاة قد تكون بعد الوقوع في الشيء ومعاناته ، وذلك نحو قوله تعالى في بني إسرائيل : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]. أما التجنيب فمعناه التنحية والمباعدة ، فقولي: (جنّبتك العذاب) يفيد أني أبعدتك عنه فلم تذقه ، وأما (أنجيتك من العذاب) فقد يحتمل أنه كان واقعًا فيه ثم أنجاه منه ، ولذا قال تعالى بعد قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي بعد الورود.

ولا شك أن الأتقى هو في الدرجة العليا من التقوى فقال فيه: (وسيجنّبها) ، وأما الذين اتقوا ففيهم المتقي والأتقى ، فذكر أن لهم النجاة ، وكلاهما ذو حظ عظيم غير أنهم درجات عند ربهم.

* * *

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

أي ليس لأحد عليه فضل فيجازيه عليه ، وإنما يفعل ذلك ابتغاء وجه ربه ، فعمله خالص لله غير مشوب بشائبة ، ولذا استحق أن يرضيه الله وأن يرضى الله عنه.

جاء في (فتح القدير) في تفسير هذه الآية «الجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافي الخلوص ، أي ليس ممن يتصدق بماله ليجازي بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها ، وإنما يبتغي بصدقته وجه الله تعالى ، ومعنى

الآية أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازي عليها حتى يقصد ما يؤتي من ماله مجازاتها»[١].

إن السورة فيها أكثر من خط تعبيري، منها خط العموم، ومنها خط المقابلة، ومنها خط التفضيل، وغير ذلك من الخطوط التعبيرية.

يتضح خط العموم في السورة من مواطن، منها: أنه أقسم بالليل إذا يغشى على العموم، ولم يقل يغشى ماذا. وأقسم بالنهار إذا تجلى، ولم يقل مثلاً كما قال في سورة الشمس: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾.

وقال: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ فإن قوله: (وما خلق) عام يحتمل القسم بالخالق، أي والذي خلق الذكر والأنثى، ويحتمل القسم بالمصدر أيضًا، أي وخلق الذكر والأنثى.

و(الذكر والأنثى) عام أيضًا يحتمل كل ذكر وأنثى، ويحتمل أن يراد به بنو آدم، وذكر السعي المختلف على العموم ولم يقيده بعمل صالح أو غيره. ثم قال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾ فأطلق العطاء ولم يقيده بشيء، فإنه يحتمل العطاء العام من مال وغيره، ويحتمل العطاء القليل والكثير. كما أطلق جهة العطاء فلم يقيدها بمسكين أو أسير ونحو ذاك، و(من) اسم يفيد العموم أيضًا. وقال: (واتقى) ولم يقيد الاتقاء بشيء، فلم يقل مثلاً: (اتقى ربه) أو (اتقى النار) أو (اتقى يومًا يرجع فيه إلى الله) كما قال في آيات أخرى، وإنما أطلقه في كل ما ينبغي اتقاؤه.

وقال: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ والحسنى صفة تحتمل أمورًا عدة، وهي صفة مطلقة لم يقيدها بشيء ولم يذكر لها موصوفًا.

وقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ وهو عام مطلق يحتمل أمورًا عديدة ولم يذكر أمرًا بعينه.

---

(١) فتح القدير ٥/ ٤٤١.

وكذلك قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ عام مطلق، نظير قوله: ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يُغْنِى﴾ يحتمل الاستفهام والنفي، وقوله: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يحتمل عدة معان: منها السقوط، ومنها الهلاك، ومنها إذا تردى في أكفانه.

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ يحتمل أكثر من معنى، فقد يحتمل أن علينا بيان الهدى، ويحتمل أن علينا طريق الهدى، أي يوصل إلينا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ عام مطلق، فلم يقل مثلاً: (لله ما في السماوات وما في الأرض) أو (مالك يوم الدين) بل أطلق ذلك ليشمل الآخرة والأولى على العموم.

وقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ ذكرها منكرة لم تخصص إلاّ بالتلظي، والتلظي وصف عام لنار جهنم، فكانت النار عامة والوصف عامًّا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عام مطلق، فإنه أطلق التكذيب ولم يقيده، فلم يقل مثلاً: (الذي يكذب بالدين) أو (يكذب بآياتنا) أو (بما أرسلنا به رسلنا) بل أطلقه، وكذلك قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ فإن التولي عام لا يختص بشيء.

وكذلك قوله: (يتزكّى) فإنه يحتمل أكثر من معنى، فقد يكون معناه: (يتطهر) أو يدفع زكاة ماله وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ يحتمل أكثر من معنى، فإنه يحتمل أن الأتقى هو الذي يرضى، ويحتمل أن ربه سيرضى عنه.

ومن التقابل في السورة أنه أقسم بالليل إذا يغشى وبالنهار إذا تجلى وهما متقابلان، فالليل يقابل النهار، و(يغشى) يقابل (تجلى)، فإن

معنى (يغشى): يغطي ، ومعنى (تجلّى): ظهر وتكشف ، و(يغشى) فعل مضارع ، و(تجلى) فعل ماض.

وذكر الذكر والأنثى ، وهما متقابلان ، وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يقابل قوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، فـ (أعطى) مقابل (بخل)، و(اتقى) مقابل (استغنى)، و(صدّق بالحسنى) مقابل (كذّب بالحسنى).

وقوله: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ مقابل قوله: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ ، و(الآخرة) تقابل (الأولى).

و(يصلاها) مقابل (يجنّبها) ، و(يصلاها) مبني للمعلوم ، و(يجنّبها) مبني للمجهول ، وقوله: ﴿ ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ يقابل ﴿ ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾

فهو خط واضح في السورة كما ترى.

ويتضح في السورة خط تعبيري آخر ، وهو ذكر الدرجة العليا في الوصف ، وذلك قوله: (الحسنى) وهو مؤنث الأحسن ، و(اليسرى) مؤنث الأيسر ، و(العسرى) مؤنث الأعسر ، و(الأولى) مؤنث الأول ، و(الأشقى) و(الأتقى) و(الأعلى) ، وكلها مما عرّف بأل ، وهو أعلى درجات التفضيل.

* * *

سُورَةُ الإِنسَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن
نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ
مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ
بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾
مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا
تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا
تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ
عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾
عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾
إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ
ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ
يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ

هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾

* * *

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾

تذكر السورة الإنسان قبل وجوده، وتذكره وهو نطفة أمشاج، وتذكره وهو إنسان مكلف، وبعد خروجه من الدنيا إلى النعيم والملك الكبير أو إلى الأغلال والسعير.

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾

اتفق المفسرون على أن (هل) بمعنى (قد)[1] على أن الاستفهام للتقرير، أي (أقد أتى على الإنسان حين من الدهر؟)، فإن معنى ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾: (أقد أتى) بقد المسبوقة بهمزة الاستفهام، وليس معناها (قد أتىٰ) من دون استفهام. والمراد بها التقرير، أي أن تستجوب المخاطب وتقرره بأمر قد علمه فتقول له: (هل أتى على الإنسان ذلك؟) فلا بد أن يقول مقرًّا معترفًا بذلك: نعم قد أتى عليه. كما تقول لشخص قد أعطيته وأرضيته: هل أعطيتك وأرضيتك؟ فيقول لك: نعم.

وهو أبلغ من مجرد الإخبار بأن تقول له: قد أعطيتك وقد كفيتك؛ لأن هذا إخبار من المتكلم دون أن يُقرّ به المخاطب ويعترف به، بخلاف ما إذا سبقه الاستفهام التقريري.

فإذا أقرّ ـ ولا بد ـ بأنه أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، قيل له: ومن الذي خلقه وأوجده؟

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣٥.

جاء في (الكشاف): «هل بمعنى (قد) في الاستفهام خاصة، والأصل: أهل، بدليل قوله:

أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

فالمعنى (أقد أتى) على التقرير والتقريب جميعًا، أي أتى على الإنسان قبل زمن قريب حين من الدهر لم يكن فيه شيئًا مذكورًا، أي كان شيئًا منسيًّا غير مذكور نطفة في الأصلاب» [١].

وجاء في (التفسير الكبير): «اتفقوا على أن (هل) ههنا وفي قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ بمعنى قد، كما تقول: هل رأيت صنيع فلان؟ وقد علمت أنه قد رآه، وتقول: هل وعظتك وهل أعطيتك، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته» [٢].

وجاء في (روح المعاني): ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ «أصله على ما قيل (أهل) على أن الاستفهام للتقرير، أي الحمل على الإقرار بما دخلت عليه، والمقرر به من ينكر البعث، وقد علم أنهم يقولون: نعم قد مضى على الإنسان حين لم يكن كذلك. فيقال: فالذي أوجده بعد أن لم يكن كيف يمتنع عليه إحياؤه بعد موته، و(هل) بمعنى (قد) وهي للتقريب... فلما سدت (هل) مسدّ الهمزة دلت على معناها ومعنى الهمزة معًا، ثم صارت حقيقة في ذلك، فهي للتقرير والتقريب» [٣].

وجاء في (فتح القدير): «قيل: هي وإن كانت بمعنى (قد) ففيها معنى الاستفهام، والأصل: أهل أتى، فالمعنى؛ أقد أتى، والاستفهام

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٥، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٩٣.
(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣٥، وانظر معاني القرآن ٣/ ٢١٣.
(٣) روح المعاني ٢٩/ ١٥٠.

للتقرير والتقريب» (١).

﴿ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾

اختلف في المقصود بالإنسان في هذه الآية أهو آدم عليه السلام فيكون المقصود بقوله: ﴿ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ منذ خلقه الله من طين إلى أن نفخ فيه الروح، فإنه كان شيئًا ولم يكن مذكورًا، أم هو جنس الإنسان، أي بنو آدم، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾، فإن كل واحد من بني آدم لم يكن شيئًا أصلاً، ثم كان شيئًا غير مذكور وهو نطفة في الرحم، ثم كان إنسانًا مذكورًا فيما بعد، والآية تحتملهما، والراجح عندي أن الإنسان في هذه الآية آدم وفي الآية بعدها جنس الإنسان، فذكر الإنسان الأول ومن تلاه.

جاء في (البحر المحيط): «والإنسان هنا جنس بني آدم، والحين الذي مَرَّ عليه إما حين عدمه وإما حين كونه نطفة وانتقاله من رتبة إلى رتبة حتى حين إمكان خطابه، فإنه في تلك المدة لا ذكر له، وسمي إنسانًا باعتبار ما صار إليه.

وقيل: آدم عليه الصلاة والسلام، والحين الذي مَرَّ عليه هي المدة التي بقي فيها إلى أن نفخ فيه الروح» (٢).

وجاء في (التفسير الكبير): «اختلفوا في الإنسان المذكور ههنا:

فقال جماعة من المفسرين: يريد آدم عليه السلام، ومن ذهب إلى هذا قال: إن الله تعالى ذكر خلق آدم في هذه الآية، ثم عقب بذكر ولده في قوله: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾.

---

(١) فتح القدير ٥/ ٣٣٤.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩٣.

والقول الثاني: أن المراد بالإنسان بنو آدم، بدليل قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فالإنسان في الموضعين واحد...

واعلم أن الغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان محدث، ومتى كان كذلك فلا بد من محدث قادر» (١).

﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾

تحتمل الآية أكثر من معنى، فإنها تحتمل أنه أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا أصلاً لا مذكورًا ولا غير مذكور، مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧]، وقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

وتحتمل أن النفي موجه للقيد، أي كان شيئًا ولم يكن مذكورًا، فإن مثل هذه التعبيرات تحتمل نفي الأصل، كما تحتمل نفي القيد. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣] والمعنى: لا يسألونهم أصلاً لا ملحفين ولا غير ملحفين. وتحتمل نفي القيد وحده ولا يتوجه إلى الأصل، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، فإنه نفى اللعب ولم ينف خلق السماوات والأرض.

والآية هنا تحتمل المعنيين، فإنه أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا أصلاً، ثم أتى عليه حين قد كان فيه شيئًا ولم يكن مذكورًا.

وقد تقول: إذا كان المقصود هو المعنى الأول، فلم ذكر القيد، ولِمَ لمْ يقل كما قال في موطن آخر: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾؟

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

والجواب: أن ذكر كلمة (مذكور) له أكثر من سبب ويؤدي أكثر من فائدة، منها: أنَّ ذكرها يدل على تطور الإنسان ووجوده في جميع المراحل:

فإنه لم يكن شيئًا، ثم كان شيئًا غير مذكور، ثم كان شيئًا مذكورًا، بخلاف ما إذا حذف كلمة (مذكور) فإنه يقفز المرحلة الوسطى.

ثم إن ذكرها مناسب للآية بعدها، وهو قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فإن الإنسان في الرحم حين كان نطفة أمشاجًا كان شيئًا ولم يكن مذكورًا، ومناسب لقوله في السورة: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ فإن هذا يفيد أنه صار فيما بعد شيئًا مذكورًا.

وأما عدم ذكرها في آيتي مريم فهو المناسب أيضًا، يوضح ذلك السياق الذي وردت فيه الآيتان؛ أما الآية الأولى فهي إيضاح لنبي الله زكريا حين بشره الله بيحيى واستبعد ذلك زكريا بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] فتعجب كيف يكون له غلام وهذا حاله وحال امرأته؟ فقال رب العزة: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩].

فإذا كان رب العزة خلقه ولم يك شيئًا أصلاً كان أهون عليه أن يخلق ولدًا من أبوين، ولا شك أن الخلق من العدم أصعب في ميزان العقل من الخلق من شيء وإن لم يكن مذكورًا، فإنه في حالة كونه شيئًا غير مذكور هو موجود على هيئة ما أو في حالة ما أو في طور ما لكنه غير مذكور، فالحالة الأولى ـ وهي خلقه من العدم ـ أبعد، وهو مع ذلك أوجده، ثم إنه لو قال: (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا مذكورًا) لقال: رب لقد كنت شيئًا وإن لم أكن مذكورًا فخلقتني، وأما الغلام الذي وعدتني به

فليس له وجود أصلاً ، فالأمر مختلف .

وكذلك الآية الأخرى في السورة نفسها ، وهو قوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٦ ـ ٦٧] فإن الإنسان يستبعد إخراجه حيًّا بعد الموت ، فيقول له رب العزة : لقد خلقتك من قبل ولم تك شيئًا أصلاً ، والإعادة أيسر من الابتداء ، ثم إن المادة بعد موت الإنسان موجودة في حين ابتدأ الله خلقه ولم يك شيئًا أصلاً ، فالخلق الأول أدل على القدرة ، ولا يناسب في هذا المقام أن يقول : (ولم يك شيئًا مذكورًا) لأن ذلك يعني أنه كان شيئًا غير أنه لم يكن مذكورًا ، والحالة الأولى أدلّ على القدرة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه بعد الموت هو شيء لكنه غير مذكور ، فلو قال : (ولم يك شيئًا مذكورًا) لأشبهت هذه الحالة حالته بعد الموت في أنه شيء غير مذكور .

في حين أراد أن يدلل على عظيم قدرته في الإنشاء والابتداء ليدل على سهولة الإعادة والإخراج ، فكان كل تعبير في مكانه هو الأنسب .

ثم لننظر من ناحية أخرى نظم الآية ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ . . . ﴾ فإنه استعمل (أتى) بدل (جاء) ذلك أن بعض أهل اللغة فرق بين الإتيان والمجيء ، فذكر أن (الإتيان) يفيد المجيء بسهولة[1] . وقد استبان لي من النظر في التعبير القرآني أنه يستعمل المجيء لما فيه صعوبة ومشقة أو لما هو أصعب وأشق مما تستعمل له (أتى) ، وقد بينت ذلك بصورة وافية في كتابي (لمسات بيانية في نصوص من التنزيل) في شرح قصة موسى في سورتي النمل والقصص .

---

(١) مفردات الراغب ٦ ، ١٠٢ .

فاستعمل (أتى) ههنا ؛ لأن إتيان الدهر على الإنسان في هذه الحال ليس فيه مشقة ولا صعوبة عليه ، فهو إما لم يكن شيئًا ، أو كان شيئًا ولم يكن مذكورًا ، وفي كلتا الحالتين ليس في إتيان الدهر عليه مشقة أو صعوبة ، فاستعمل (أتى) دون (جاء).

ثم إنه قدم الجار والمجرور على الفاعل فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ ذلك لأن الجار والمجرور أهم ، فإن الإنسان هو مدار الحديث وليس الدهر ، فإن الدهر يمر ولا يقف في حال ، فالقول: إن الدهر يأتي ليس فيه فائدة كبيرة ، بخلاف ذكر المأتي عليه وهو الإنسان.

* * *

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾

لما ذكر أن الإنسان أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا ، واستدعى ذلك النظر فيمن أوجده وخلقه قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فنسب الخلق إلى نفسه سبحانه بضمير التعظيم وأكده بإنّ ؛ لأن ذلك يستدعي التعظيم ويستدعي التوكيد.

وقد ذكر ضمير الخالق مرتين: مرة مع (إنّ) فقال: (إنّا) ، ومرة مع الفعل خلق فقال: (خلقنا) ، للدلالة على أنه هو الخالق وحده وأنه ليس معه شريك. وقال: (نبتليه) بإسناد الابتلاء إليه ليعلم أن المبتلي هو الخالق. ثم أسند كل الأفعال إليه ليعلم أنه هو صاحبها لا غيره. ولم يبن فعلاً للمجهول ، فإنه لو فعل ذلك لم يفد هذه الفائدة. ولأنه هو الخالق وهو الذي امتن عليه بالنعم فجعله سميعًا بصيرًا مميزًا استحق أن يعبد ويشكر.

و(الإنسان) هنا بنو آدم وليس آدم ، بدليل قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن

﴿نُّطْفَةٍ﴾ فإن آدم لم يخلق من نطفة[١].

والذي يترجح عندي ـ والله أعلم ـ قول من ذهب إلى أن المقصود بالإنسان المذكور في الآية الأولى هو آدم عليه السلام، وفي الآية هذه بنوه[٢]، فيكون قد ذكر خلق آدم وبنيه، وهو أدلّ على القدرة وأظهر؛ لأن فيه نوعي الخلق: الإيجاد والاستمرار.

ولذا ـ والله أعلم ـ كرر كلمة (الإنسان) ولم يذكر الضمير فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ... إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ولم يقل: (إنا خلقناه). ولو قال: (إنا خلقناه) لتعين أن يكون المقصود بالإنسان في الموضعين هم ذرية آدم ولم يشمل آدم. فكرر كلمة (الإنسان) ليحتمل أن يراد بالأول آدم وبالتالي ذريته فيشملهما جميعًا.

ومعنى (الأمشاج): الأخلاط، يقال: مشج يمشج مشجًا إذا خلط، ومشجه ومزجه بمعنى، والمشيج: الخليط، والممشوج: المخلوط[٣].

وكلمة (أمشاج) تستعمل مفردًا وجمعًا، شأن كلمة هجان ودلاص وبشر وفُلك وغيرها، فيقال في المفرد: مَشَج بفتحتين، كبطل وأبطال، ويقال: مشيج، كشريف وأشراف، وجمعهما أمشاج، ويقال في المفرد أمشاج أيضًا، كقولهم: برمة أعشار، وبرد أكباش، وثوب أسمال، وعلى هذا يقال: نطفة مَشَج، ونطفة مشيج، ونطفة أمشاج[٤].

واختار كلمة (أمشاج) على المشَج والمشيج لكثرة ما فيها من أخلاط وامتزاجات، وربما وصف الشيء بالجمع لإرادة التكثير، فيقال مثلاً:

---

(١) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٥، البحر المحيط ٨/ ٣٩٣.

(٢) انظر التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣٥.

(٣) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٥، البحر المحيط ٨/ ٣٩١، التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣٦.

(٤) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٥.

«بلَد سبسب وبلد سباسب ، كأنهم جعلوا كل جزء منه سبسبًا ثم جمعوه على هذا» (١) .

«وتقول: أرض قفر ودار قفر ، وأرض قفار ودار قفار ، تجمع على سعتها لتوهم المواضع كل موضع على حياله قفر» (٢) .

فهذا إشارة إلى كثرة ما في النطفة من أخلاط على صغرها ، ولا تفيد كلمة (مشج) أو (مشيج) هذا المعنى ، والله أعلم.

﴿ نَّبْتَلِيهِ﴾

نختبره ونمتحنه ، واختار (نبتلي) على (نبلوه) لبيان شدة الاختبار وقوته ، فإن في (ابتلى) من الشدة والمبالغة ما ليس في (بلا) ، ومعلوم أن (افتعل) فيه من المبالغة وقوة الحدث ما ليس في (فعل) وذلك كاكتسب وكسب واصطبر وصبر. ولو عدت إلى الاستعمال القرآني في (ابتلى) لوجدت ذلك واضحًا ، قال تعالى بعد وقعة أحد وما أصابهم فيها: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقال في وقعة الأحزاب: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١١].

والله سبحانه يبلو ويبتلي. وقد تقول: ولم قال ههنا: (نبتليه) ، وقال في سورة (الملك): ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]؟

والجواب: أن كل تعبير مناسب لموطنه، فقد ذكرنا أن (الابتلاء) أشد من

---

(١) لسان العرب (سبسب) ١/ ٢٤٣.
(٢) لسان العرب (قفر) ٦/ ٤٢٢.

البلاء، ولذا ذكر معه مما يصح معه الابتلاء ما لم يذكره في سورة الملك؛

١ ـ فقد قال في سورة الملك: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ والمغفرة تقتضي التخفيف، بخلاف ما في سورة الإنسان.

٢ ـ ذكر في سورة الإنسان ما يصح معه الابتلاء من سمع وبصر وأنه هداه السبيل، فلما أطال في ذكر ما زوده بما يصح معه الابتلاء أطال وبالغ في البلاء، ولما خفف ولم يذكر ذلك في سورة الملك خفف في الفعل.

٣ ـ لم يذكر شيئًا من ابتلاء الأعمال في سورة الملك عدا ذكر الكافرين وذكر الذين يخشون ربهم فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقال في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ولم يذكر شيئًا من أعمال هؤلاء وأولئك، في حين ذكر في سورة الإنسان من أعمال هؤلاء وهؤلاء ما لم يذكره في سورة الملك، فذكر أن المؤمنين يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا، وأنهم يطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا.

وطلب من نبيه أن يصبر لحكم ربه وأن لا يطيع آثمًا أو كفورًا، كما طلب منه أن يذكر ربه بكرة وأصيلاً، وأن يسجد له ويسبحه ليلاً طويلاً، وأفاض في ذكر نعيم المؤمنين ما لم يفض في سورة الملك.

وكذلك بالنسبة إلى الكافرين، فقد ذكر أنهم ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾. وقال في ختام السورة: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فاقتضى ذلك أن يذكر الابتلاء ويطيل في صيغة الفعل ويبالغ فيه، بخلاف سورة الملك.

وقوله: (نبتليه) يحتمل معنيين:

المعنى الأول: التعليل، أي خلقناه لنبتليه، وهو مثل قولك: جئت أتعلم منك، أي لأتعلم، وجئت أشتري دارًا، أي لأشتري، وهذه

الجملة استئنافية تفيد التعليل.

والمعنى الثاني: أن يكون حالاً مقدرة من الفاعل، بمعنى: خلقناه مبتلين له، أي مريدين ابتلاءه، ومعنى الحال المقدرة أن تكون الحال واقعة في المستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ فهو لم يكن نبيًّا حين التبشير. وقد يكون حالاً من المفعول، أي خلقناه مبتلى.

ولم يذكر لام التعليل كما في سورة (الملك) التي قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وذلك ليجمع معنيي التعليل والحالية.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يفعل ذلك في سورة الملك ليجمع بينهما؟

والجواب: أن التعبير لا يحتمل ذلك، فقد قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فإنه ذكر علة خلق الموت والحياة لا علة خلق الإنسان، فلا يحسن أن يقول: (الذي خلق الموت والحياة يبلوكم) فناسب كل تعبير موضعه.

وقد تأتي الحال مفيدة للتعليل، كقولك: (جئت طالبًا للعلم) أي لطلب العلم، و(عبدت الله طامعًا في جنته) أي طمعًا، و(فعلت ذلك مبتغيًا رضوان الله) أي ابتغاء رضوان الله.

وعلى هذا يمكن أن تكون جملة (نبتليه) استئنافية تفيد التعليل، أو حالية مفيدة للتعليل، أو حالاً مقدرة من الفاعل وهو الله، أي مستقبلة بمعنى مبتلين له، أو حالاً من المفعول وهو الإنسان[1] أي مبتلى.

جاء في (التفسير الكبير): «أما قوله (نبتليه) ففيه مسائل:

(المسألة الأولى) نبتليه معناه لنبتليه، وهو كقول الرجل: (جئتك

---

(١) انظر فتح القدير ٥/ ٣٣٥.

أقضي حقك) أي لأقضي حقك ، و(أتيتك أستمنحك) أي لأستمنحك ، كذا قوله: (نبتليه) أي لنبتليه. ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

(المسألة الثانية) نبتليه في موضع الحال ، أي خلقناه مبتلين له ، يعني مريدين ابتلاءه»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ نختبره بالتكليف في الدنيا. . . وعلى أن المعنى: نختبره بالتكليف ، فهي في حال مقدرة ، لأنه تعالى حين خلقه من نطفة لم يكن مبتليًا له بالتكليف في ذلك الوقت»[٢].

وجاء في (الكشاف): «﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ في موضع الحال، أي خلقناه مبتلين له ، بمعنى: مريدين ابتلاءه ، كقولك: مررت برجل معه صقر صائدًا به غداً ، تريد: قاصدًا به الصيد غدًا»[٣].

وقد ذكر الله ههنا ما يصح معه الابتلاء ومستلزماته ومتعلقاته ، فقد ذكر السمع والبصر والعقل، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ومعنى ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أرشدناه وعلمناه ، وهذا يقتضي العقل. وذكر الاختيار ، ويشير إلى ذلك قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. وذكر مادة الاختبار وهو المنهج الرباني الذي أشار إليه بقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ ، وهذه الأمور لا يصح الابتلاء من دونها.

ثم ذكر موقف المكلفين من هذا الاختبار أو الابتلاء ، فذكر أنهم قسمان: شاكر وكفور ، وذكر عاقبة هذا الاختبار أو الابتلاء وهي الجنة أو السعير ، فذكر كل ما يتعلق بالاختبار من أركان وأحوال ، فذكر المبتلي

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩٤.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٥.

أو المختبر وهو الله وذلك قوله: (نبتليه)، وذكر المبتلى وهو (الإنسان)، وذكر موضوع الاختبار وهو قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ وموقف المبتلى منه وعاقبته.

جاء في (التفسير الكبير): «ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ والسمع والبصر كنايتان عن الفهم والتمييز، كما قال تعالى حاكيًا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: ٤٢]» (١).

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾

قَدَّم السمع على البصر، وهو الشأن في آيات القرآن التي اجتمع فيها السمع والبصر غالبًا، ذلك أن السمع أهم في باب الابتلاء والتكليف من البصر، فإن فاقد البصر يمكن أن يعي ويفهم ويبلِّغ، بخلاف فاقد السمع فإن من العسير تبليغه وإفهامه.

وقدمهما على الهداية فقال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ لأن السمع والبصر طريقان يوصلان المعلومات إلى العقل، ومن دونهما يعسر على العقل فهم المعلومات واستيعابها.

جاء في (التفسير الكبير): «الآية دالة على أن إعطاء الحواس كالمقدم على إعطاء العقل، والأمر كذلك» (٢).

وجاء في (البحر المحيط): «وامتن تعالى عليه بجعله بهاتين الصفتين وهما كناية عن التمييز والفهم، إذ آلتهما سبب لذلك... ولمَّا جعله بهذه المثابة أخبره تعالى أنه هداه إلى السبيل، أي أرشده إلى الطريق، وعرفنا

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣٧.
(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٣٧.

مآل طريق النجاة ومآل طريق الهلاك ، إذ أرشدناه طريق الهدى» [١] .

ولم يفصل بين هاتين الصفتين بالواو ، فلم يقل : (وجعلناه سميعًا وبصيرًا) لئلا يظن أنه جعل الإنسان قسمين قسمًا يسمع وقسمًا يبصر .

* * *

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾

قال : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ كما قال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ فأكد الهداية بإنَّ كما أكد الخلق ، لأن الهداية أمر مهم ، وهي الغاية من خلق الإنسان ، فهي لا تقل عن الخلق أهمية ، بل ربما فاقته لأنها العلة الأولى للخلق ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ولذلك كما قال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ﴾ فنسب الخلق إلى نفسه بصيغة التعظيم وأكده بإنّ قال : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ﴾ فنسبه إلى نفسه بصيغة التعظيم وأكده بإنّ .

ثم إن الهداية وهي تبيان المنهج الصحيح والصراط المستقيم أمر صعب لا يستطيعهما أحد غير الله ، وقد ضل الناس فيها ضلالاً بعيدًا وتفرقوا شيعًا وأحزابًا وجماعات ، فأسند ذلك إليه ، فهو الخالق وهو الهادي ، فهو مولي جميع النعم .

فمعنى ﴿ هَدَيْنَٰهُ ﴾ : «بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله جل وعلا : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧]» [٢] .

وقال : ﴿ هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ فعدَّى الفعل بنفسه إلى السبيل ولم يعدّه بإلى ؛ وذلك لأن التعدية بإلى تقال لمن لم يكن في السبيل ، والتعدية المباشرة تقال لمن كان فيه ولمن لم يكن فيه [٣] . فجمع في ذلك نوعي

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٣ .

(٣) انظر روح المعاني ١/ ٩١ ، وانظر في كتابنا (لمسات بيانية) سورة الفاتحة .

الهداية؛ الإيصال إلى السبيل وتعريفه به ، فاستحق ربنا الشكر من كل ناحية .

﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

جاء بـ (شاكر) على صيغة اسم الفاعل ، و(كفور) على المبالغة ؛ ذلك أن الإنسان يبالغ في الكفر دون الشكر .

ولم يقل : (وإما شكورًا وإما كفورًا) ذلك أن الشكور من العباد قليل ، قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ولو قال ذلك لأخرج الشاكرين. جاء في (البحر المحيط): «ولما كان الشكر قَلَّ من يتصف به قال: (شاكرًا) ، ولما كان الكفر كثر من يتصف به ويكثر وقوعه من الإنسان ، بخلاف الشكر ، جاء (كفورًا) بصيغة المبالغة ، ولما ذكر الفريقين أتبعهما الوعيد والوعد» [(١)] .

وجاء في (تفسير البيضاوي): «ولعله لم يقل: (كافرًا) ليطابق قسيمه محافظة على الفواصل وإشعارًا بأن الإنسان لا يخلو من كفران غالبًا ، وإنما المؤاخذ به التوغل فيه» [(٢)] .

ثم إنه لم يقل : (كافرًا) لأمر آخر ، ذلك أن القرآن لم يستعمل كلمة (كافر) بمقابل (شاكر) ، وإنما يستعملها بمقابل (مؤمن) ، قال تعالى : ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

بخلاف كلمة (كفور) فإنه يستعملها لما يقابل المؤمن ولما يقابل الشكور، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥] ، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٤.

(٢) تفسير البيضاوي ٧٧٤ ، وانظر روح المعاني ٢٩/ ١٥٣ .

وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

فههنا استعملها بما يقابل المؤمن، ذلك أن الذي يجعل الله من عباده جزءًا هو كافر غير مؤمن. وكذلك آية فاطر، فإنه واضح أن المقصود بالمذكورين فيها هم كفار وليسوا مؤمنين.

وفي سورة الإنسان استعملها لما يقابل الشاكر فقال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

وقال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

فالكفور هنا مبالغة من كفران النعم وهو ما يقابل الشكور، يدلك على ذلك اللام في (لربه) أي لنعم ربه، ولو كان يقصد بالكفور ما يقابل المؤمن لقال: (وكان الشيطان بربه كفورًا) فإن الكفر الذي هو نقيض الإيمان يعدّى بالباء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: ١٥٠]، وقال: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقال: ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: ١٣]، وقال: ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠].

وقد تقول: ولكننا لا نقول: (هو يكفر الله).

فأقول: إذا كان الكفر بمعنى كفران النعم فإنا نقول: (هو يكفر الله) بتعدية الفعل بنفسه، قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فإن جاء منه اسم الفاعل أو المبالغة صح أن يقوى باللام كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، ونحو قوله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧].

جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: «أي مبالغاً في كفران نعمه تعالى... وفي تخصيص هذا الوصف بالذكر من بين صفاته القبيحة،

إيذان بأن التبذير الذي هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر. . .

ويُشْعِر كلام بعضهم بجواز حمل الكفر هنا على ما يقابل الإيمان، وليس بذاك» (١).

فاستعمل في آية الإنسان الكفور لما يقابل الشاكر ولم يستعمل الكافر. واختار الشكر ههنا على الإيمان فلم يقل: (إما مؤمنًا وإما كفورًا)، ذلك لأنه نعمة الخلق والهداية تستدعي الشكر لا مجرد الإيمان، وهو نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

كما ناسب ذلك قوله تعالى في السورة: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

وهناك أمر آخر حسّن اختيار الشكر، وهو أنه قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ فاستعمل كلمة (السبيل)، وذلك أن السبيل هو الطريق المسلوك الواضح السهل. جاء في (لسان العرب): «السبيل: الطريق وما وضح منه. . . وسبيل سابلة: مسلوكة. . . وأسبلت الطريق: كثرت سابلتها» (٢).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٠] ولم يقل كما قال في سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] والنجد: هو الأرض المرتفعة التي يشق سلوكها. ولا شك أن الهداية إلى السبيل الواضحة الميسرة أدعى إلى الشكر، ولذا قال في سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ

---

(١) روح المعاني ١٥/ ٦٣.
(٢) لسان العرب (سبل) ١٣/ ٣٤٠ ـ ٣٤١.

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ ، وقال هنا : ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ .

وقد تقول : ولم قدّم الشاكر على الكفور ، في حين قدّم عذاب الكافرين على ثواب المطيعين؟

والجواب : أنه أفاض في جزاء الشاكرين ، في حين اختصر عقاب الكافرين وأوجز فيه فناسب التقديم .

جاء في (تفسير البيضاوي) : «وتقديم وعيدهم وقد تأخر ذكرهم ؛ لأن الإنذار أهم وأنفع ، وتصدير الكلام به وختمه بذكر المؤمنين أحسن»(١) .

كما أن هذا التقديم في أول السورة نظير التقديم في آخرها في قوله : ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ فقد قدم من أدخلهم في رحمته ومنهم الشاكرون ، وذكر بعدهم الظالمين ومنهم الكفور .

* * *

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾

أكد الإعتاد بإنّ ؛ ذلك لأنه عاقبة ما تقدمه من الهداية ، والهداية مؤكدة ، فالعاقبة مؤكدة أيضًا .

وقد تقول : ولم قال : (أعتدنا) ولم يقل : (أعددنا)؟ وما الفرق بين الإعتاد والإعداد؟

والجواب : أن (أعتد) قريب من (أعدّ) في المعنى ، غير أن في (أعتد) قربًا وحضورًا ، ولا يشترط في (أعدّ) الحضور . قال تعالى : ﴿هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] أي حاضر عندي قريب ، وقال : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال : ٦٠] أي هيئوا ، وليس معناه أحضروا ، وقال : ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة : ٤٦] أي

---

(١) أنوار التنزيل ٧٤٤ ، وانظر روح المعاني ٢٩/١٥٣ .

هيأوا، ولم يقل (أعتدوا) لأنه لا يريد الإحضار. جاء في (لسان العرب): «وشيء عتيد: مُعَدّ حاضر، وعتد الشيءُ عتادة فهو عتيد حاضر»[(١)].

وجاء في (التفسير الكبير): «الإعتاد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيدًا حاضرًا متى احتيج إليه كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾»[(٢)].

ويدلك على ذلك الاستعمال القرآني، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨] فقال: (أعتدنا) لما كان هؤلاء من الموتى وهم كفار أو حضر أحدهم الموت وقد قرب العذاب منهم وأحضر فاستعمل (أعتدنا).

في حين قال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

فقال: (أعدّ) وذلك لأن هؤلاء لا يزالون يتقلبون في حياتهم الدنيا.

وقال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧].

فإنه لما ذكر أنه أغرقهم وجعلهم آية قال: (أعتدنا) لأن عذابهم حاضر وهم ذائقوه.

أما الجواب عن الاستعمال في هذه الآية فإنه لما ذكر جزاء أهل الجنة بصيغة الوقوع لا بصيغة أنه سيقع، وأن ما عندهم مُعَدّ حاضر، ناسب أن يقول في أهل النار كذلك. فقد ذكر أن الأبرار يشربون من كأس، وذكر أنه وقاهم شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا، وجزاهم بما صبروا جنة

---

(١) لسان العرب (عتد) ٤/ ٢٦٩.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٤٠.

وحريرًا ، فقد ذكر شأنهم وأحوالهم بالأفعال الماضية ، فناسب أن يقول في أهل النار : (أعتدنا) للحضور والقرب .

بخلاف ما ورد في آخر السورة ، فإنه لما ذكر أنه تعالى يدخل من يشاء في رحمته على الاستقبال ناسب أن يقول : ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ﴾ لا (أعتد) .

وهناك ملاحظة أخرى ، وهي أنه لم يرد في القرآن استعمال (أعدّ) مسندًا إلى الضمير (نا) ، فإنه لم يقل : (أعددنا) ، كما لم يرد (أعتد) مسندًا إلى الله تعالى إلا بضمير التعظيم ، أي (أعتدنا) .

فإنه ورد (أعتدنا) والضمير يعود على الله ، ولم يرد (أعددنا) ، فكان هذا هو المناسب لما ورد في الاستعمال القرآني على العموم .

ثم إنه قال : ﴿أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ جمع الكافر ، ولم يقل : (أعتدنا للكُفُر) جمع الكفور ، وكان المظنون أنه لما قال : ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أن يجمعه فيقول : (إنا أعتدنا للكُفُر) فما سبب ذلك؟

والجواب : أنه ذكر (الكافرين) ليشمل من بالغ في الكفر ومن لم يبالغ فيه . ولو قال : (للكُفُر) لظن ظان أن ذلك يتناول المبالغ في الكفر دون من لم يبالغ ، ولظن أن هذا خاص بالكفور دون الكافر ، فلما ذكر عاقبة الكافر شمل ذلك الكفور من باب أولى ، وأنه سيلقىٰ من العذاب أكبر مما ذكر ، فإنه كما بالغ في الكفر يبالغ له في العذاب ، فإذا كان هذا عذاب الكافر فما بالك بعذاب الكفور ، وماذا أعتد له يا ترى؟

وقد ذكر العذاب بقوله : ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ فذكر السلاسل والأغلال والسعير ، وذلك أنه لما أطلق له الحرية والاختيار في الدنيا فقال : ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وهداه السبيل ليسلك فيها فلم يسلكها قيده في الآخرة ولم يتركه لمشيئته واختياره كما كان في الدنيا .

لقد قيده بالسلاسل وهي تقيد حركة الأرجل ، وبالأغلال وهي تقيد حركة الأيدي والأعناق ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ [يس: ٨] ، وقال: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [المائدة: ٦٤] فالأغلال توضع في الأيدي وفي الأعناق ، وبذلك قيد حركته على كل حال ، فلم يترك له فرصة أو حالاً للحركة والاختيار بمقابل حريته واختياره في الدنيا.

إن هذا ما اختاره هو والسبيل التي آثرها ، والله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

* * *

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ ﴾

يستعمل القرآن (الأبرار) لبني آدم ، ويستعمل البررة للملائكة. ولم يستعمل الأبرار للملائكة ولا البررة للأناسي ، قال تعالى: ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٥ ـ ١٦] يعني الملائكة. إن (الأبرار) من جموع القلة فاستعملها للقلة النسبية ، ذلك أن الأبرار قلة من بني آدم ، وأما الملائكة فكلهم بررة فاستعمل لهم جمع الكثرة.

جاء في (معاني الأبنية): «وقد يؤتى بجمع القلة للدلالة على قلة نسبية لا حقيقية، بمعنى أنه إذا قيس المعدود بمقابله كان قليلاً، فيستعمل للأكثر جمع الكثرة ، ولما هو دونه في الكثرة جمع القلة وإن كان كثيرًا في ذاته، فمن ذلك استعمال الأبرار والبررة.

فقد وردت (الأبرار) في ستة مواطن من كتاب الله وهي كلها في المؤمنين، وهم ولا شك يزيدون على العشرة ، قال تعالى: ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] ، وقال: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ ﴾ [الإنسان: ٥] ،

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٣]، وقال ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

ولم يرد لفظ (البررة) إلا في موطن واحد وهو في صفة الملائكة وهو قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥ ـ ١٦] ولعل ذلك يعود إلى أن الأبرار إذا قيسوا بالفجار كانوا قلة، فجيء بالفجار على جمع الكثرة، والأبرار على جمع القلة، وهذا المعنى يذكره القرآن في أكثر من موطن، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فجيء بالجمع للدلالة على القلة النسبية. وجاء في صفة الملائكة بلفظة البررة لا الأبرار للدلالة على الكثرة؛ لأنهم كلهم كذلك، بخلاف البشر»(١).

﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾

الكأس: هي الزجاجة إذا كان فيها شراب، فإن كانت فارغة فلا تسمى كأسًا، وإنما هي زجاجة(٢).

ذكر في الآية صنفين من المؤمنين:

الأبرار، وذكر أنهم يشربون من كأس ممتزجة بالكافور، وذكر صنفًا آخر أسماه (عباد الله) قيل: وهم المقربون، وذكر أنهم يشربون من العين خالصة غير ممتزجة. جاء في (تفسير ابن كثير): «أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا

---

(١) معاني الأبنية في العربية ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) انظر فقه اللغة للثعالبي ٥٠.

بلا مزج ويروون بها ، ولهذا ضمن (يشرب) معنى (يروى) حتى عَدَّاه بالباء ، ونصب عيناً على التمييز»[(١)].

ومن الملاحظ أنه قال في الأبرار: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ ، وقال في المقربين: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ فعدَّى الفعل (يشرب) مع الأبرار بمن وعدَّاه مع المقربين بالباء، وذلك ليفرق بين جزاء الأبرار وجزاء المقربين، وليخبرنا أن جزاء المقربين أعلى ، وذلك من عدة نواح منها :

١ ـ أنه ذكر أن الأبرار يشربون من الكأس ، وأما المقربون فإنهم يشربون من العين ، فهم ينزلون بالعين ويشربون منها ، فهم يتلذذون بالشرب وبالمكان. جاء في (معاني النحو) :

«وفيها معنى آخر ، وهو أن الباء تفيد الإلصاق ، فقولك: (يشربون بالعين) معناه أنهم يكونون بها ، كما تقول: (أقمنا بالعين وأكلنا وشربنا بها) أي هم قريبون من العين يشربون منها. بخلاف قولك: (يشربون منها) فإنه ليس فيه نص على معنى القرب من العين ، فقولك: (أكلت من تفاح بستانك) لا يدل دلالة قاطعة على أنك كنت بالبستان ، بل ربما حُمل إليك.

فقوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها ، فهو يدل على القرب والشرب ، فالتمتع حاصل بلذتي النظر والشراب ، بخلاف الأول.

جاء في (البرهان) أن «العين ههنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء نفسه نحو (نزلت بعين) فصار كقوله: مكانًا يشرب به»[(٢)].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٤.

(٢) معاني النحو ٣/ ٢٥ ، وانظر البرهان ٣/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

٢ ـ إن الأبرار يشربون من كأس ممزوجة على قدر أعمالهم ، أما المقربون فيشربون من العين خالصة صرفًا .

٣ ـ إن الفعل المتعدي بالباء ضمن معنى (يروى) ، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ : يروى بها .

جاء في (معاني القرآن) للفراء : «وكأن ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ : يروى بها وينقع» [١] .

٤ ـ وذكر أن المقربين يفجرونها تفجيرًا ، أي إنهم يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم ، وذلك أن يثقبوها بقضبان معهم من ذهب فيتفجر بها الماء إلى حيث أرادوا ، فهي تجري عند كل واحد منهم حيث أراد من منزله .

وذكر المصدر (تفجيرًا) ليدل على أن تفجيرها لا يمتنع عليهم[٢] ، وأنها تتفجر بالماء الغزير .



﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾

بدأ بالوفاء بالنذر لأنه واجب ، وذكروا للنذر ههنا معنيين :

الأول : هو النذر المعهود مما أوجبه العبد على نفسه ، وهو الأظهر .

والثاني : أن المراد بالنذر «ههنا عام لما أوجبه الله تعالى وما أوجبه العبد ، فيدخل فيه الإيمان وجميع الطاعات» [٣] .

جاء في (الكشاف) : «والوفاء بالنذر مبالغة في وصفهم بالتوفر على أداء الواجبات ؛ لأن من وفى بما أوجبه هو على نفسه لوجه الله كان بما

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٢١٥ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٩٥ .
(٢) انظر الكشاف ٣/ ٢٩٦ ، البحر المحيط ٨/ ٣٩٥ ، روح المعاني ٢٩/ ١٥٥ .
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٥ .

أوجبه الله عليه أوفى» (١).

وذكر بعده خوف اليوم الآخر ، فكأنه ذكر النية المقارنة للعمل ، والعمل لا يقبل إلا إذا كان مقرونًا بالنية.

جاء في (التفسير الكبير) : «واعلم أن تمام الطاعة لا يحصل إلا إذا كانت النية مقرونة بالعمل. فلما حكى عنهم العمل وهو قوله : ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ حكى عنهم النية وهو قوله : ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾ وتحقيقه قوله عليه السلام : (إنما الأعمال بالنيات) وبمجموع هذين الأمرين سماهم الله تعالى بالأبرار» (٢).

ومعنى (مستطيرًا) : «فاشيًا منتشرًا بالغًا أقصى المبالغ ، من استطار الحريق ، واستطار الفجر ، وهو من طار ، بمنزلة استنفر من نفر» (٣).

قال قتادة «استطار والله شر ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض» (٤).

* * *

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ الأظهر أن الضمير في (حبّه) يعود على الطعام ، أي أنهم يطعمون الطعام مع اشتهائه والحاجة إليه ، نظير قوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] (٥).

وقيل : المعنى على حب الإطعام ، بأن يكون ذلك بطيب نفس وعدم تكلف(٦) ، فالضمير يعود على مصدر (يطعمون) وهو الإطعام.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٧.
(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٤٢.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٧.
(٤) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٤.
(٥) الكشاف ٣/ ٢٩٦.
(٦) روح المعاني ٢٩/ ١٥٥.

وقيل: إن الضمير يعود على الله ، والمعنى: أنهم يطعمون الطعام على حب الله ، أي لوجهه وابتغاء مرضاته[1] . وهذا المعنى مذكور فيما بعد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ .

وقيل: إن المعنى الأول ، أي (على حب الطعام) أمدح «لأن فيه الإيثار على النفس ، وأما الثاني فقد يفعله الأغنياء أكثر» [2] .

وأعلاها أن يكون لكل ذلك ، فهم يطعمون الطعام مع حاجتهم إليه واشتهائه فيكون ذلك من باب الإيثار ، ويفعلونه بطيب نفس من غير تكدير ولا منة فيكون من باب الإحسان ، مبتغين بذلك وجه الله تعالى ورضاه خالصًا عملهم له ، فيكون من باب الإخلاص ، فيجتمع بذلك الإيثار والإحسان والإخلاص.

ثم إنه قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ فذكر الطعام، ولم يقل: (ويطعمون على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا)؛ وذلك لأنه أراد أن يعود الضمير عليه، ولو لم يذكر الطعام لم يعد الضمير على مذكور، هذا من ناحية ،

ومن ناحية أخرى أنه لو لم يذكر الطعام لانتفى المعنى الأول ، وهو أولى المعاني وأظهرها وأهمها ، والذي به ينال البر ولا ينال البر إلا به ، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ .

فَذِكْرُ الطعام أفاد ثلاثة معان وهي المعاني التي ذكرناها ، ولو حذفه لأفاد معنيين:

الأول: أن يكون المعنى (على حب الله) وهو الأظهر ، وهو ما أفادته الآية بعدها.

---

(1) البحر المحيط ٨/ ٣٩٥ ، الكشاف ٣/ ٢٩٦ ، أنوار التنزيل ٧٧٤.

(2) البحر المحيط ٨/ ٣٩٥.

والآخر: أن يكون المعنى (على حب الطعام) وهو ما يقدر من الفعل (يطعمون) فكان ذكره أولى على كل حال.

جاء في (روح المعاني): «وذكر الطعام مع أن الإطعام يغني عنه لتعيين مرجع الضمير على الأول، ولأن الطعام كالعلم فيما فيه قوام البدن واستقامة البنية وبقاء النفس، ففي التصريح به تأكيد لفخامة فعلهم على الأخيرين» (١).

ثم إنه قدم المسكين على اليتيم، واليتيم على الأسير.

قدم المسكين على اليتيم؛ لأن المسكين محتاج على الدوام، وإطعامه قد يكون على الوجوب وقد يكون على التطوع، فهو من الأصناف المذكورين في مصارف الزكاة.

أما اليتيم فقد لا يكون محتاجًا، وقد يكون غنيًّا، بخلاف المسكين، ولذا لم يدخل فيمن تصرف إليهم الزكاة.

أما الأسير فإنه قد يكون كافرًا.

فكان التقديم بحسب الرتبة، فقدم المسكين على اليتيم، واليتيم على الأسير.

والمسكين واليتيم قد يكون إعطاؤهما من باب الواجب، بخلاف الأسير فإنه في باب التطوع، «وعند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام، ولا تصرف إليهم الواجبات» (٢).

وبهذا يكون قد بدأ بالواجب وهو الوفاء بالنذر، ثم بدأ بما هو أولى وهو المسكين وهو صاحب الحاجة الدائمة، وقد أدخله الله فيمن تجب لهم الزكاة، ثم اليتيم وهو قد يكون غير محتاج ويكون مكفولاً حتى يزول

---

(١) روح المعاني ٢٩/ ١٥٥.
(٢) روح المعاني ٢٩/ ١٥٥.

يتمه ، ثم الأسير الذي لا تصرف إليه الواجبات من قبل الأفراد.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن التقديم جرى بحسب الكثرة.

فإن المساكين أكثر من اليتامى ، لأن اليتم يزول حتمًا بالبلوغ فلا يسمى بعد ذلك يتيمًا ، بخلاف المسكين فإنه يكون صغيرًا أو كبيرًا ، واليتامى أكثر من الأسرى ؛ لأن الأسرى إنما يكونون من أوزار الحرب ، وأما اليتامى فهم موجودون في كل وقت وعلى أية حال ، فكان التقديم بحسب الكثرة.

ثم إن التقديم أيضًا مرتب بحسب القدرة على التصرف. فالمسكين له الأهلية الكاملة على التصرف ، وأما اليتيم فأهليته ناقصة حتى يزول يتمه ، وأما الأسير فهو أقل تصرفًا لأنه كالمحجور عليه ، فليس له أن يتصرف في ذهابه وإيابه وعمله حتى يتخير فيه الإمام؛ فالآية مرتبة بحسب القدرة على التصرف.

وذكر الأسرى هنا مناسب لذكر السلاسل والأغلال مع الكافرين ؛ لأن الأسير مقيد مغلول.

ومن الملاحظ أنه قال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ ولم يقل: (يتصدقون) لئلا يخص ذلك الصدقات أو يخص من تجب عليهم الصدقة أو لهم ، وإنما أراد فعل الخير عمومًا سواء كان صدقة أم إكرامًا ، وسواء كان الفاعل غنيًّا أم فقيرًا ، ممن تجب عليهم الصدقة أو لا.

* * *

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

ذكر أمرين في إطعامهم الطعام: أنهم يطعمون الطعام وهم محتاجون إليه وذلك قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ، وأنهم مخلصون لله في إطعامهم وذلك

قوله: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ وهذا أعلى أنواع الإطعام.

وقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (نحن نطعمكم لوجه الله) وذلك لإرادة تخصيص الإطعام بذلك، وأنهم لا يطعمون إلا لوجهه تعالى غير مبتغين شيئًا آخر. وهذا أعلى أنواع الإخلاص، فإنه ليس فيه شائبة شرك أو رياء.

ولو قال (نحن نطعمكم لوجه الله) من دون (إنما) لأفاد أنهم يطعمون لوجه الله ولا ينفون الإطعام لغيره. أما في الآية فإنه أفاد الحصر، أي أنهم لا يفعلون ذلك إلا له سبحانه. وهذا يفيد أن الأعمال كلها ينبغي أن يبتغى بها وجه الله حصرًا لا لشيء آخر.

وقد تقول: وإن قولك: (نحن نطعمكم لوجه الله) يفيد الحصر أيضًا؟

فنقول: نعم إنه يفيد الحصر ولكنه حصر بالفاعل، أي نحن لا غيرنا نطعمكم لوجه الله، فكأنه تعريض بآخرين، وهذا المعنى غير مطلوب ولا يصح أيضًا، فإن هناك غيرهم من يطعم لوجه الله. في حين قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ إنما هو تخصيص الفعل بأنه لوجه الله لا تخصيص أنهم المطعمون دون غيرهم، فكان ما ذكره أولى.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾

أي لا نريد منكم مكافأة على إطعامنا بالعمل، ولا شكرًا باللسان، فإن الجزاء هو المكافأة بالعمل، والشكر هو الثناء باللسان، فهم لا يريدون منهم أن يكافئوهم ولا يشكروهم.

وهذا تقرير لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ فالذي يبتغي وجه الله وحده لا يريد شيئًا آخر.

جاء في (فتح القدير): أن قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ تقرير

وتأكيد لما قبله «لأن من أطعم لوجه الله لا يريد المكافأة ولا يطلب الشكر له ممن أطعمه» (١).

ولم يقل: (يقولون أو قالوا إنما نطعمكم لوجه الله) وإنما حذف فعل القول، وذلك ليشمل القول بلسان الحال وبلسان المقال، فسواء قالوا بذلك بلسانهم أو حكى الله عما في نفوسهم فكل ذلك خير وأجره عظيم.

جاء في (الكشاف): «﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ على إرادة القول. ويجوز أن يكون قولاً باللسان منعًا لهم عن المجازاة بمثله أو بالشكر؛ لأن إحسانهم مفعول لوجه الله، فلا معنى لمكافأة الخلق، وأن يكون قولهم لهم لطفًا وتفقيهًا وتنبيهًا على ما ينبغي أن يكون عليه من أخلص لله... ويجوز أن يكون ذلك بيانًا وكشفًا عن اعتقادهم وصحة نيتهم وإن لم يقولوا شيئًا.

وعن مجاهد: أما إنهم ما تكلموا به ولكن علم الله منهم فأثنى عليهم» (٢).

وجاء في (البحر المحيط): «لا نريد منكم جزاءً، أي بالأفعال، ولا شكورًا، أي ثناء بالأقوال» (٣).

وقال: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ ولم يقل: (لا نريد جزاء ولا شكورًا) وذلك لأنهم يريدون الجزاء والشكور من رب العالمين، فهم لم ينفوا إرادة الجزاء والشكور، وإنما أرادوه ممن يطعمون لوجهه لا منهم، ولو لم يذكر (منكم) لنفى الإرادة على وجه الإطلاق، وهو ليس بمراد ولا ينبغي أن يراد.

وقدم الجزاء على الشكور؛ لأن الجزاء بالفعل أهم من الشكر

---

(١) فتح القدير ٥/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨، وانظر روح المعاني ٢٩/ ١٥٦.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٧.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٩٥، وانظر روح المعاني ٢٩/ ١٥٦.

باللسان. والناس يعملون في هذه الحياة لأجل الجزاء، سواء تبعه شكر أم لا، والشكور ثناء اللسان ولا يعد جزاء على العمل.

وجاء بـ (لا) مع الشكور فقال: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ ولم يقل: (جزاء وشكورًا) ليفهم أنهم لا يريدون أي واحد من هذين، سواء كانا على وجه الاجتماع أم الافتراق، ولو قال: (لا نريد منكم جزاءً وشكورًا) لربما أفهم أنهم لا يريدونهما مجتمعين، ولو اكتفوا بواحد منهما لدخل في الإرادة.

وقال: ﴿لَا نُرِيدُ﴾ ولم يقل: (لا نطلب) لأن الإنسان قد يريد ولا يطلب، فنفي الإرادة أبلغ من نفي الطلب، لأنه ينفي الطلب وزيادة.

وقال: (شكورًا) ولم يقل: (شكرًا) ذلك أن (الشكور) يحتمل الجمع والإفراد، والجمع يدل على الكثرة والتعدد فقال: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي لا نريد الشكر وإن كان كثيرًا متطاولاً، فقد يكون الشكر عن الفعل مرة واحدة، وقد يكثر ويعاد، ولا شك أن كثرة الشكر أدل على الاعتراف بالفضل والإحسان. ثم إن الإطعام قد يتكرر فيتكرر الشكر عن كل مرة فقال: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي وإن كثر إطعامنا لكم وتكرر، فهذا أدل على الإخلاص. وإن كان الشكور مصدرًا فهو بزنة الجمع، وربما كانت زيادة المبنى دالة على زيادة المعنى ههنا وإن لم يكن ذلك مطردًا.

وقد يكون أتى بذلك ليتسع المعنى فيجمع بين الجمع والجنس، فالمصدر يدل على الجنس كله والجمع يدل على مجموع الأفراد، فنفوا إرادة الشكر على كل حال سواء كان على حال الجمع أم الجنس أم الأفراد، وذلك أعم وأشمل.

هذا علاوة على موافقة هذا التعبير لخواتيم الآي.

جاء في (لسان العرب): «وقوله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ يحتمل أن يكون مصدرًا مثل (قعد قعودًا)، ويحتمل أن يكون جمعًا مثل: برد وبُرود، وكفر وكُفور»[1].

والظاهر - والله أعلم - أن القرآن يستعمل (الشّكور) لما هو أكثر من (الشكر)، فقد ورد لفظ (الشكور) مرتين في القرآن الكريم: إحداهما: هذه الآية التي وردت في سورة الإنسان، والأخرى: في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وأما لفظ (الشكر) فقد ورد مرة واحدة، وذلك في سورة سبأ وهو قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وبالنظر في هذه الآيات يتبين لنا ما يأتي:

١ - إن كلمة (الشكر) استعملها مخاطبًا آل داود، فقال: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ﴾ وآل داود قلة بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

٢ - وأما ما في سورة الفرقان فهو يشمل عموم المؤمنين إلى قيام الساعة، وشكرهم في الليل والنهار فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

٣ - وكذلك ما في سورة الإنسان فإنه ذكر من يُطعِم الطعام على حبه ومن يُطعَم، وهم كثرة متكاثرون إلى قيام الساعة.

فاستعمل (الشكور) لما هو أكثر، ذلك أنه كلما كثر المؤمنون كثر الشكر فزاد في البناء لزيادة القائمين به، واستعمل البناء الأقل لمن هم

---

(١) لسان العرب (شكر) ٦/ ٩٣، وانظر تاج العروس (شكر) ٣/ ٣١٢.

أقل، فناسب بين البناء وصاحبه، ومثل هذه المناسبة كثير في القرآن الكريم[١].

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه قال في سورة الفرقان: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فجاء بالفعل (يذّكّر)، وهذا البناء في الاستعمال القرآني يدل على المبالغة في الفعل والإكثار منه لما فيه من تضعيفين[٢]. فجاء بـ(الشكور) مع الفعل الذي يدل على المبالغة والكثرة في الفعل مما يدل على أنه يفيد المبالغة في الشكر، إذ لا شك أن المبالغ في التذكُّر مبالغ في الشكر أيضًا، والله أعلم.

* * *

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾

جملة مستأنفة تفيد التعليل، وهي تعلل الأمرين المذكورين في الآية قبلها، وهما قوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾. فبالنسبة إلى القول الأول فالمعنى: إنما نطعمكم لوجه الله لأننا نخاف ذلك اليوم، فإن لم نطعمكم خفنا أن يعذبنا الله وألاّ يقينا شر ذلك اليوم، فهي تعليل للإطعام لوجه الله.

وبالنسبة إلى قوله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ فالمعنى: أننا لا نريد منكم الجزاء ولا الشكور خوفًا من ربنا أن يعذبنا لطلب المكافأة والشكر على ما قدمنا.

فهذه الآية تعليل للآية قبلها بكل جزئياتها.

وكسر همزة (إن) ليكون الخوف من هذا اليوم عامًّا لا مخصصًا بالأمر

---

(١) انظر كتاب (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) صفحة ٥٢ وما بعدها.

(٢) م. ن. ص٥٣ وما بعدها.

المذكور. ولو فتح لكان الخوف تعليلاً لما قبلها فقط ، أي إنا لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا لأننا نخاف من ربنا.

وفتح الهمزة أيضًا يعني تعلق المصدر المؤول بأحد الفعلين (نطعمكم) أو (نريد) ، والأقرب أن يكون متعلقًا بقوله: (نريد) لئلا يفصل بين العامل والمعمول بأجنبي ، فيكون الخوف من إرادة الجزاء لا من الإطعام ، أي لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا لأننا نخاف ، فيقتصر المعنى على أمر واحد ، فالكسر أولى على كل حال.

جاء في (الكشاف): «﴿ إِنَّا نَخَافُ ﴾ يحتمل أن إحساننا إليكم للخوف من شدة ذلك اليوم لا لإرادة مكافأتكم ، وإنا لا نريد منكم المكافأة لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة» (١).

ووصف اليوم بالعبوس على المجاز ، فكأنه هو عابس حقيقة فأضفى عليه الحياة والشعور ، كما يقال: نهارك صائم وليلك قائم ، وقوله: (وما ليل المطيّ بنائم) ، أو هو على قصد إسناد العبوس لأهل ذلك اليوم ، أي عابس أهله ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

أو لإرادة الشمول والعموم والمبالغة ، أي عابس هو وأهله ، فيكون العبوس وصفًا عامًّا لليوم ومن فيه ، وجاء بالصفة على زنة المبالغة للدلالة على شدة العبوس والاتصاف به اتصافًا بليغًا.

والقمطرير: الشديد العبوس ، جاء في (الكشاف): «ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين: أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء، كقولهم: نهارك صائم... وأن يشبه في شدته وضرره بالأسد العبوس أو بالشجاع الباسل. و(القمطرير): الشديد العبوس الذي يجمع ما بين عينيه» (٢).

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٧.

ومن الملاحظ أنه قال في هذه الآية: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ فذكر الرب، وقال في الآية السابقة: ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ فذكر (الله)، وذلك ليدل على أن الله هو الرب لا غيره، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن قسمًا يشركون بربهم، وقسمًا يرون أن الرب غير الله، كما قال تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤] فإن قسمًا من الناس يجعلون مع الله أربابًا فيشركون به كما دلت الآية السابقة، وقسمًا يتخذون من دون الله أربابًا كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١] فأراد هنا أن يعلمنا أن الله هو الرب لا رب غيره وليس معه شريك فقال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ. . . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ فذكر (الله) وذكر أنه ربهم فجمع بين المعنيين.

لقد ذكر في هذه الآيات عبادتين ظاهرتين وهما الوفاء بالنذر والإطعام، وعبادتين قلبيتين وهما الخوف من اليوم الآخر والإخلاص لله، ونفى عنهم إرادة شيئين وهما الجزاء والشكور، وذكر صنفين ممن يطعمون: صنفًا مسالمًا وصنفًا محاربًا وهو الأسير، وصنفين من المسالم وهما المسكين واليتيم وأحدهما بالغ والآخر قاصر.

* * *

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾

لما ذكر أنهم يخافون شر ذلك اليوم العبوس ذكر أنه تعالى وقاهم شره، ولقاهم بدل العبوس النضرة، والعبوس إنما يكون في الوجه، وكذلك النضرة، قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤] وبدل الخوف السرور.

والخوف محله القلب، وكذلك السرور، فقابل بين العبوس في الوجوه والنضرة فيها، وبين الخوف في القلب والسرور فيه.

وقد تقول: إن مقابل الخوف هو الأمن وليس السرور، فنقول: إن السرور هو الأمن وزيادة، فقد يكون الإنسان آمنًا غير مسرور.

وكذلك النضرة لا تقابل العبوس، وإنما هي زيادة في النعيم بادية على الوجه، فقد يكون الوجه غير عابس ولكنه غير نضر، ونضارة الوجه أدل على التنعم، وكذلك السرور.

جاء في (التفسير الكبير): «اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم أتوا بالطاعات لغرضين: طلب رضا الله والخوف من القيامة، بيّن في هذه الآية أنه أعطاهم هذين الغرضين. أما الحفظ من هول القيامة فهو المراد بقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾... وأما طلب رضاء الله تعالى فأعطاهم بسببه نضرة في الوجه وسرورًا في القلب... والتنكير في (سرورًا) للتعظيم والتفخيم»[١].

وجاء في (الكشاف): «أي أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه وسرورًا في القلب، وهذا يدل على أن اليوم موصوف بعبوس أهله»[٢].

وقد تقول: ولم قال في آية سابقة: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ ولم يقل: (يخافون شر يوم كان مستطيرًا)؟ وبعبارة أخرى: لم قال: إنهم يخافون اليوم ولم يقل: يخافون الشر.

في حين قال في هذه الآية: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ فذكر هناك أنهم خافوا اليوم، وذكر هنا أنه وقاهم شر ذلك اليوم؟

والجواب: أنهم يخافون ذلك اليوم وما فيه من أهوال هائلة ومصاعب

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٤٥.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٧، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٩٦.

شديدة ، فإن ذلك اليوم ـ كما قال تعالى ـ يوم عسير تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فهم يخافون ذلك اليوم بما فيه من مصاعب وشرور وأهوال ، وهو يوم لا مناص لهم من شهوده ، فقال: إنه وقاهم شر ذلك اليوم ، ولم يقهم مشهد ذلك اليوم الذي يجعل الولدان شيبًا وأحواله وأحداثه ، وكل منها مهول ، فحسبهم أن وقاهم شره . وفي هذا إنذار وتخويف عظيمان .

* * *

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾

قال هنا: (وجزاهم) ، وقال في الآية السابقة: (ولقّاهم) ؛ لأن ذلك ليس جزاء وإنما هو قبل الجزاء ، فاللقاء أولاً ، والجزاء بعد ، فلُقّوا أولاً نضرة وسرورًا ، وجزاهم بعد اللقاء جنة وحريرًا .

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ يحتمل أن يكون معناه (بصبرهم) فتكون (ما) مصدرية ، ويحتمل أن يكون (بالذي صبروا عليه) من الطاعات والإيثار والحاجة .

وحذف العائد ليشمل الاثنين ، أي بصبرهم وما صبروا عليه ، فيكون من التوسع في المعنى والله أعلم .

ولا أذهب إلى وجوب تماثل حرفي الجر الداخلين على الموصول والعائد ليجوز حذف العائد المجرور بالحرف ، وإنما يكفي تعين الحرف وعدم اللبس ، لورود ذلك في الفصيح . قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ [الشورى: ٢٣] أي به ، فقد حذف العائد مع حرف الجر ولم يدخل على الموصول مثله ، وقال: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الفرقان: ٦٠]. أي به[1] . وقد اختلف الحرفان .

---

(١) انظر شرح الرضي على الكافية ٢/ ٤٢ .

وقوله: ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ جمع أمرين: الجنة والحرير.

والجنة في اللغة هي البستان، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]، وقال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: ٣٣]. ثم أطلقت الجنة على دار السعادة في الآخرة.

والحرير معلوم.

فالجنة للأكل، والحرير للبس، ذلك أنهم أطعموا لوجه الله، فجزاهم بذلك جنة يأكلون منها، وزاد عليه الحرير يلبسون منه تفضلاً منه، ذلك أن الله يجزي الحسنة بخير منها، قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]. جاء في (الكشاف): «﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرهم على الإيثار...

فإن قلت: ما معنى ذكر الحرير مع الجنة؟

قلت: المعنى: وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يؤدي إليه من الجوع والعري بستانًا فيه مأكل هني، وحريرًا فيه ملبس بهي»[١].

* * *

﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣)﴾

كرر (فيها) مرتين فقال: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا... لَا يَرَوْنَ فِيهَا﴾ وذلك لأن حذف الثانية يوقع في اللبس، فإنه لو قال: (لا يرون شمسًا ولا زمهريرًا) لأوهم أن عدم الرؤية هذه هي عند الاتكاء على الأرائك، فإذا غادروا مكان الجلوس رأوا فيها الشمس والزمهرير، فذكر (فيها) لإفادة أنه ليس في الجنة شمس ولا زمهرير، وليس نفي الرؤية عند الاتكاء فقط.

وقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٧، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٩٦.

قيل: المراد منه أنهم لا يذوقون فيها الحر ولا البرد ؛ لأنها ليس فيها شمس فتلفحهم بحرها ، وليس فيها برد شديد ، والزمهرير: هو أشدّ البرد[١] .

وقيل: إن المعنى ليس فيها شمس ولا قمر ؛ لأن الزمهرير هو القمر بلغة بعض العرب[٢] .

وعلى هذا يكون المعنى أنها نور يتلألأ فلا تحتاج إلى شمس أو قمر ، فهي أضوأ من الشمس وأنور من القمر ، وأنها ليس فيها ليل وإنما هي نور مستديم.

والحق أن المراد كل هذه المعاني ، فالجنة جوها معتدل لا فيها حر شديد ولا برد مؤذ ، وأنها لا شمس فيها ولا قمر وإنما هي مشرقة بنور ربها.

وقال: (زمهريرًا) ولم يقل: (قمرًا) ليجمع المعنيين: الاعتدال في الجو والنور المتلألئ ، جاء في (الكشاف): «يعنى أن هواءها معتدل ، لا حر شمس يحمى ولا شدة برد تؤذي... وقيل الزمهرير: القمر... والمعنى: أن الجنة ضياء فلا يحتاج فيها إلى شمس وقمر» [٣] .

* * *

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

جمع لهم بين دنوّ الظلال وتذليل القطوف ، وهما صورتان متقاربتان ، فتذليل القطوف يعني أن يكون ذلك في متناولهم كيف

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩٢.

(٣) الكشاف ٣/ ٢٩٧.

شاؤوا ، وفيه دلالة على دنوها منهم ، كما قال تعالى : ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة : ٢٣] .

فتذليل القطوف يعني دنوها منهم ، وأنه «لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك» (١) . فالظلال دانية عليهم ، والقطوف مذللة لهم دانية منهم .

وقد عطف الفعل (ذللت) على اسم الفاعل (دانية) ذلك أن الظلال ثابتة ودنوها متصل ، فجيء به باسم الفاعل الدال على الثبوت ، أما القطوف فهي متجددة ، فتذليلها يتجدد بحسب الحاجة ، فجيء بالفعل الدال على التجدد ، جاء في (روح المعاني) أن نكتة التخالف بين الفعلية والاسمية هي : «أن استدامة الظل مطلوبة هنالك ، والتجدد في تذليل القطوف على حسب الحاجة» (٢) .

وجوز الزمخشري أيضًا أن يكون إعراب (دانية) صفة لجنة محذوفة ، فيكون التقدير : وجزاهم جنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، فيكون المعنى على النحو الآتي : وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا ، وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، فيدل على أنه وعدهم جنتين .

جاء في (الكشاف) : «ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم ، كأنــه قيل : وجزاهم جنة جامعين فيها بين البعد عن الحر والقرّ ودنوّ الظل عليهم . . . ويجوز أن يكون (دانية) معطوفة على جنة ، أي وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، على أنهم وعدوا جنتين ، كقوله : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن : ٤٦] لأنهم وصفوا بالخوف ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ . . .

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٦ .

(٢) روح المعاني ٢٩/ ١٥٩ .

وتذليل القطوف أن تجعل ذللاً لا تمتنع على قطافها كيف شاؤوا»[(١)].

* * *

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر أمر الفاكهة وأنها مذللة لهم يتناولونها كيفما شاؤوا ذكر بعدها التنعم بالشراب، فذكر أنه يطاف عليهم به، وأنه مذلل لهم أيضًا لا يبذلون جهدًا للوصول إليه بل يطاف عليهم به، فقدم ذكر المطعوم وتلاه بذكر المشروب، وهذا شأن القرآن الكريم، فإنه يقدم الأكل على الشرب حيث اجتمعا، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠]، وقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩].

ومعنى ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾: «أنها مخلوقة من فضة، وهي مع بياض الفضة وحسنها في صفاء القوارير وشفيفها.

فإن قلت: ما معنى (كان)؟

قلت: هو من (يكون) في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي تكونت قوارير بتكوين الله تفخيمًا لتلك الخلقة العجيبة الشأن، الجامعة بين صفتي الجوهرين المتباينين. ومنه (كان) في قوله: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾»[(٢)].

ومعنى ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أنها جاءت على مقدار حاجتهم فلا يزيد عليها ولا ينقص عنها، فلا تقول: ليته لم يفضل أو ليته كان أكثر.

جاء في (البحر المحيط): «ومعنى تقديرهم لها أنهم قدروها في

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٨.
(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٨، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٩٧.

أنفسهم على مقادير وأشكال على حسب شهواتهم، فجاءت كما قدروها. وقيل: الضمير للطائفين بها، يدل عليه قوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ على أنهم قدروا شرابها على قدر الريّ، وهو ألذ الشراب، لكونه على مقدار حاجته لا يفضل عنها ولا يعجز»[1].

وقد تقول: ولم ذكر هنا أن الآنية من فضة وأن أكوابها قوارير من فضة، في حين ذكر في مكان آخر أنه يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب؟

فنقول: إن كل موضع يقتضي ما ذكر فيه، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى في سورة الإنسان: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

وقال في سورة الزخرف: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٦٧ ـ ٧٣].

ومن النظر في آيات النصين يتبين ما يأتي:

١ ـ أنه ذكر في آيات الزخرف أن هؤلاء متقون.

٢ ـ وأضافهم إلى نفسه فقال: (يا عباد).

٣ ـ أنه طمأنهم من الخوف والحزن فقال مخاطبًا لهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. في حين قال في سورة الإنسان: ﴿فَوَقَىٰهُمُ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩٧.

ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ بصيغة الغائب، والخطاب بالطمأنة أعلى من الإخبار بصيغة الغيبة.

٤ ـ ذكر أنهم جمعوا بين الإيمان والإسلام ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، وهذا يعني التصديق بالقلب والطاعة والانقياد لله بالعمل، ويدخل في هذا ما ورد في سورة الإنسان: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا. . .﴾.

فإن هذا جزء من صفات المتقين الذين آمنوا بآيات الله وكانوا مسلمين. فما ذكره في الزخرف أعم وأشمل مما ذكره في سورة الإنسان.

٥ ـ ذكر في سورة الزخرف أنه سبحانه ناداهم مخاطبًا لهم بقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾. في حين ذكر ذلك بصورة الغائب في سورة الإنسان فقال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ والتكريم بالخطاب أعلى من الإخبار بالغيبة.

٦ ـ ذكر في آيات الزخرف أنه أدخلهم الجنة هم وأزواجهم زيادة في الإكرام والنعيم فقال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾.

٧ ـ ثم قال في سورة الزخرف: (تحبرون)، وقال في سورة الإنسان: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾، ومعنى الحبور: السرور والحسن والبهاء والجمال والنضارة والنعمة وأثرها والإكرام المبالغ فيه وسعة العيش.

جاء في (لسان العرب): «الحَبْر والسَّبْر والحِبْر والسِّبْر كل ذلك الحسن والبهاء... وقيل: هو الجمال والبهاء وأثر النعمة... حبرني هذا الأمر حبرًا، أي سرّني... وأحبرني الأمر: سرّني... وفي التنزيل العزيز ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي يُسَرّون، وقال الليث: يحبرون: ينعّمون ويكرمون... وقال الأزهري: الحبرة في اللغة: النعمة التامة... الحَبرة بالفتح: النعمة وسعة العيش... وقال الزجاج في قوله

تعالى: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ معناه تكرمون إكرامًا يبالغ فيه»[١].

وجاء في (الكشاف): «﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سرورًا يظهر حباره، أي أثره على وجوهكم، كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾... والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل»[٢]. فشمل ذلك ما في سورة الإنسان وزيادة.

٨ ـ قال في سورة الزخرف إن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

٩ ـ وإنهم فيها خالدون.

١٠ ـ وذكر أن لهم فيها فاكهة كثيرة.

فكان ما ذكره في سورة الزخرف أعلى، فناسب ذلك ذكر الصحاف من الذهب والأكواب، وناسب في سورة الإنسان ذكر الآنية من الفضة وأن الأكواب قوارير من فضة، وإن كانت فضة الجنة لا تشبهها فضة الدنيا، إذ ليس في الدنيا قوارير من فضة.

وهناك أمر آخر حسّن ذكر الذهب في آيات الزخرف وهو أن جو السورة شاع فيه ذكر الذهب والزينة والتنعم به.

فقد قال في سورة الزخرف: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

فإذا كان ذلك في الدنيا وهو أن يجعل لبيوت الكفرة سُقُفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون، ويجعل لهم زخرفًا، والزخرف هو الزينة

---

(١) لسان العرب (حبر) ٥/ ٢٢٩.

(٢) الكشاف ٣/ ١٠٢، وانظر البحر المحيط ٨/ ٢٦.

والذهب[١] ، فلا يناسب أن يكون النعيم في الآخرة أقل من ذلك. ومن الظاهر أن سُقُف الفضة والمعارج أدل على النعيم من صحاف الفضة. ثم إنه لما قال في ختام هذه الآيات: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم ذكر جزاءهم في الآخرة فقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ناسب أن يكون جزاء المتقين في الآخرة أعلى بكثير مما كان سيعطيه للكافرين في الدنيا.

وجاء في السورة أيضًا أن فرعون استكبر في نفسه وقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ واستخف بموسى قائلاً: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ فلا يناسب أن يذكر أن صحاف الجنة من فضة، فناسب ذكر الصحاف من الذهب في الزخرف من كل وجه.

والأظهر ـ والله أعلم ـ أنه يطاف عليهم أحيانًا بآنية من ذهب وأحيانًا بآنية من الفضة العجيبة، وقد يجمع بينهما زيادة في الإكرام والنعيم، غير أنه ذكر كل نوع فيما يناسبه من المقام.

* * *

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾

لما ذكر أنه يطاف عليه بالآنية والأكواب ناسب أن يقول: (ويسقَون) دون (يشربون)، ولما لم يذكر الآنية والطائفين بها في الآية قبلها وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ ناسب أن يذكر الشرب دون السقي، فإن الطائفين يسقونهم. جاء في (روح المعاني): عن قتادة: «يشرب منها المقربون صرفًا وتمزج لسائر أهل الجنة. والظاهر أنهم تارة يشربون من كأس مزاجها كافور، وتارة يسقون من كأس مزاجها

(١) انظر لسان العرب (زخرف) ١١/ ٣٢، البحر المحيط ٨/ ١٥، الكشاف ٣/ ٩٦.

زنجبيل ، ولعل ذكر (يُسقَون) هنا دون (يشربون) لأنه الأنسب بما تقدمه من قوله تعالى : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم ﴾ . . . الخ ، ويمكن أن يكون فيه رمز إلى أن هذه الكأس أعلى شأنًا من الكأس الأولى»[١] .

ولفظ السلسبيل يوحي بالسلاسة وسهولة المساغ ، وهو ما يقابل طعام الكفار الذي قال فيه سبحانه : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل : ١٢ ـ ١٣] وهو الطعام الذي ينشب في الحلق.

جاء في (الكشاف) : «﴿ تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها . . . قال الزجاج : السلسبيل في اللغة : صفة لما كان في غاية السلاسة»[٢] .

والذي يظهر ـ كما أشار إليه صاحب روح المعاني ـ أن هذا الشراب أعلى من الذي قبله ، يدل على ذلك أمور منها :

١ ـ أن هذا الشراب يُسقَونه فيحمله الولدان المخلدون إلى أماكنهم .

٢ ـ وصف آنية الشراب التي يطاف بها عليهم .

٣ ـ ذكر الطائفين به ووصفهم بأنهم كاللؤلؤ المنثور .

ولم يذكر مثل ذلك في الشراب الأول ، مما يدل على أن هذا الشراب أعلى .

ومن الملاحظ أنه استوفى عناصر الطواف كلها ، فقد ذكر الطائفين وهم الولدان المخلدون ، والمطوف عليهم وهم الأبرار ، والمطوف به وهي آنية الفضة وأكواب القوارير وما يسقون فيها من شراب .

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٩/ ١٦٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٨ .

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

بعد أن وصف الآنية والشراب وصف السقاة الذي يسقونهم ، فذكر أن من رآهم حسبهم لؤلؤًا منثورًا ، ووصفهم باللؤلؤ المنثور لأنهم منتشرون في كل مكان وليسوا في مكان واحد. جاء في (فتح القدير): «لما فرغ سبحانه من وصف شرابهم ووصف آنيتهم وصفَ السُّقاةَ الذين يسقونهم ذلك الشراب . . . ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ . . . قال أهل المعاني : إنما شبهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة ، ولو كانوا صفًّا لشبهوا بالمنظوم. قيل: إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة ، بخلاف الحور العين ، فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون لأنهن لا يمتهنّ بالخدمة» [(١)].

ووصف الولدان بأنهم مخلدون لئلا يسبق إلى الوهم أنهم يشيبون أو يكبرون أو يتغير حسنهم وصفاؤهم أو يعجزون عن الخدمة.

وجاء بـ (إذا) الدالة على التحقق واليقين إخبارًا بأنه سيراهم حتمًا.

* * *

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

والمعنى : أنه حيث وقعت رؤيتك رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا. وليس لرأيت الأول مفعول ، وذلك لقصد العموم والشمول ، فلم تحدد الرؤية بشيء أو مكان معين ، بل أينما وقعت الرؤية منك رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا.

جاء في (الكشاف): «﴿رَأَيْتَ﴾ ليس له مفعول ظاهر ولا مقدر ليشيع ويعم ، كأنه قيل: وإذا أوجدت الرؤية ، ثم ومعناه: أن بصر الرائي أينما

---

(١) فتح القدير ٥/ ٣٤١.

وقع لم يتعلق إدراكه إلا بنعيم كثير وملك كبير. و(ثم) في موضع النصب على الظرف» [١].

* * *

﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾

قيل: إن معنى (عاليهم): (فوقهم) [٢]. والحق أنه ليس بمعنى (فوقهم) لأن الفوقية لا تقتضي الملامسة والملابسة ، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾ [ق: ٦] فإن السماء ليست ملامسة لنا وهي فوقنا ، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك: ١٩] والطير فوقنا وليست ملامسة لنا. في حين أن معنى (عاليهم) أنهم يلبسونها وهي ملامسة لهم. فقوله: (عاليهم) يقتضي الملامسة والملابسة ، بخلاف (فوقهم).

ذكر أنهم يُحلّون أساور من فضة ، وهي مقابل ما ذكر من الأغلال والسلاسل في أيدي أهل النار وأرجلهم.

وقد ذكر هنا أساور الفضة ، وذكر في مكان آخر من القرآن أساور الذهب ، قيل: ذلك للدلالة على أنهم يلبسون مرة أساور الذهب ومرة أساور الفضة ، أو على أنهم يجمعون بينهما. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ذكر ههنا أن أساورهم من فضة ، وفي موضع آخر أنها من ذهب.

قلت: هَبْ أنه قيل: وحلوا أساور من ذهب ومن فضة ، وهذا صحيح لا إشكال فيه ، على أنهم يسوّرون بالجنسين: إما على المعاقبة ، وإما على الجمع ، كما تُزَاوج نساء الدنيا بين أنواع الحلي وتجمع بينهما. وما

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٩ ، وانظر البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩٩.

أحسن بالمعصم أن يكون فيه سواران: سوار من ذهب وسوار من فضة»[١].

وقيل: بل إنه ذكر ذلك في سورة الإنسان لأنها حلية الأبرار، وأساور الذهب هي حلية المقربين، جاء في (تفسير ابن كثير): «وهذه صفة الأبرار، وأما المقربون فكما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣]»[٢].

ويبدو لي أن ذكر أساور الفضة ههنا وأساور الذهب في مكان آخر لسبب يقتضيه المقام، وإليك إيضاح ذلك مما ورد فيه ذلك من سورة فاطر مثلاً.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٥].

يتضح من هذا النص ما يأتي:

١ ـ أنه ذكر أنهم يتلون كتاب الله.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٩، وانظر البحر المحيط ٨/ ٤٠٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٧.

٢ ـ أقاموا الصلاة.

٣ ـ أنفقوا مما رزقهم الله سرًّا وعلانية.

في حين ذكر في سورة الإنسان أنهم يوفون بالنذر، وأنهم يطعمون الطعام مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا. ولا شك أن الأعمال في سورة فاطر أعلى، فإن الإنفاق في السر والعلن أعم وأشمل مما جاء في سورة الإنسان، وإقامة الصلاة وتلاوة كتاب الله أكبر من الإيفاء بالنذر، والنذر مكروه شرعًا، وهو لا يأتي بخير، فهو صدقة البخيل، غير أن الإيفاء به واجب.

٤ ـ وذكر أنهم يرجون تجارة لن تبور، والتجارة إنما ترجى للربح. وهؤلاء يرجون تجارة غير خاسرة. ولا شك أن الله سيحقق لهم رجاءهم ويربحهم في تجارتهم، فكان من ذلك ما ذكره من أساور الذهب وغيرها.

٥ ـ ذكر في فاطر أن الله سبحانه يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله. في حين قال في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾، فذكر في فاطر الجزاء والزيادة من فضل الله، فناسب ذلك أن يذكر الأساور من الذهب والتحلية باللؤلؤ.

٦ ـ قال في سورة الإنسان: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، وقال في سورة فاطر: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فزاد المغفرة على الشكر.

٧ ـ قال في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فقال: (أورثنا) و(اصطفينا) بإسناد الفعلين إلى ضمير المتكلم للتعظيم، وهذا يستعمله القرآن في موطن التكريم.

٨ ـ ذكر أنه اصطفاهم من عباده، وهذا تكريم آخر؛ فإن الاصطفاء يعني التفضيل.

٩ ـ ثم قسم هؤلاء المصطفَين إلى ظالم لنفسه ومقتصد وسابق

بالخيرات بإذن الله. فعدّ منهم السابقين، وهم أعلى الخلق من المكلفين، فاستحق في هذا الموطن أن يذكر الزيادة في التكريم. فإنه لو قال: (يحلون فيها من أساور من فضة) لم يفهم أن ذلك لغير السابقين، فكان ذكر أساور الذهب هو المناسب.

١٠ ـ ذكر فضله الكبير في سورة فاطر فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ فناسب ذلك ذكر أساور الذهب وزيادة وهي اللؤلؤ فقال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

١١ ـ وذكر أنهم حمدوا الله الذي أذهب عنهم الحزن، وذكروا جملة من النعم التي أنعم الله عليهم بها في الآخرة.

وقد ورد ذكر فضل الله عليهم عدة مرات فقال: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾، وقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾، وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وذكر المغفرة والشكر مرتين فقال: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فناسب كل ذلك أساور الذهب واللؤلؤ.

١٢ ـ ثم انظر كيف أنه لما ذكر الطائعين وهم الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة قال: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، ولما ذكر الظالم لنفسه والمقتصد وذكر أنه يدخلهم جنات عدن ويكرمهم قالوا: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ بزيادة اللام في (لغفور)؛ لأن هؤلاء لا يدخلونها لولا المغفرة، وأنهم يحتاجون إليها أكثر من الأولين.

وقد تقول: ولم قال في سورة الإنسان: (وحُلّوا) بالفعل الماضي، وقال في سورة فاطر: (يُحَلَّون) بالمضارع؟

والجواب: أنه لما أخبر في سورة الإنسان عنهم بالفعل الماضي فقال إنه وقاهم شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورًا وجزاهم بما صبروا،

ناسب أن يقول: (وحُلّوا) بالفعل الماضي.

ولما ذكر في سورة فاطر أنهم يدخلون جنات عدن بالفعل المضارع، ناسب أن يقول: (يُحَلّون) بالفعل المضارع.

وقد تقول: ولم قال إذن في سورة الإنسان: (يطاف عليهم) و(يسقون) و(يطوف عليهم) بالفعل المضارع؟

قلنا: إن ذلك دلالة على تجدد الطواف والسقي واستمرارهما، ولو أخبر بالفعل الماضي لم يفد ذلك.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾

(طهور) صيغة مبالغة بمعنى الطاهر، وتأتي أيضًا بمعنى المطهِّر، واختار هذه الصيغة للدلالة على أن هذا الشراب طاهر مطهّر، بل هو الغاية في الطهارة والتطهير. جاء في (البحر المحيط): «طهور صفة مبالغة في الطهارة، وهي من فعل لازم» [١].

وجاء في (الكشاف): «﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ ليس برجس كخمر الدنيا... أو لأنه لم يعصر فتمسه الأيدي الوضرة وتدوسه الأقدام الدنسة، ولم يجعل في الدنان والأباريق التي لم يعن بتنظيفها، أو لأنه لا يؤول إلى النجاسة لأنه يرشح عرقًا من أبدانهم له ريح كريح المسك» [٢].

وجاء في (التفسير الكبير): «الطهور فيه قولان: الأول: المبالغة في كونه طاهرًا... القول الثاني في الطهور: أنه المطهر، وعلى هذا التفسير أيضاً في الآية احتمالان:

أحدهما: ... هو عين ماء على باب الجنة تنبع من ساق شجرة، من

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠١.

(٢) الكشاف ٣/ ٢٩٩.

شرب منها نزع الله ما كان في قلبه من غل وغش وحسد ، وما كان في جوفه من قذر وأذى .

وثانيهما : . . . يؤتون الطعام والشراب فإذا كان في آخر ذلك أُتوا بالشراب الطهور فيشربون فتطهر بذلك بطونهم ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المسك. وعلى هذين الوجهين يكون الطهور مطهرًا ؛ لأنه يطهر باطنهم عن الأخلاق الذميمة والأشياء المؤذية» (١) .

والظاهر أن هذه الصفة تجمع كل هذه المعاني ، فهو شراب طاهر مطهر بكل ما ذكر وما لم يذكر من المبالغة فيهما مما يقتضيه الحال.

وإسناد سقيه إلى الرب سبحانه يدل على فضل هذا الشراب ، وأنه أعلى مما ذكره من النوعين السابقين ، فقد قال في الأول: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ ولم يذكر ساقيًا لهم ، وقال في الشراب الثاني: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ ببناء الفعل للمجهول ولم يذكر الساقي. وفي هذا الشراب قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ بإسناده إلى الرب سبحانه ، فدل ذلك على فضل هذا الشراب.

جاء في (التفسير الكبير): «فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هو عين ما ذكره تعالى قبل ذلك من أنهم يشربون من عين الكافور والزنجبيل والسلسبيل أو هو نوع آخر؟

قلنا: بل هذا نوع آخر ويدل عليه وجوه: (أحدها) دفع التكرار. و(ثانيها) أنه تعالى أضاف هذا الشراب إلى نفسه ، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذلك يدل على فضل في هذا دون غيره» (٢) .

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٥٤.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٥٤ ، وانظر أنوار التنزيل ٧٧٦.

وجاء في (روح المعاني): «هو نوع آخر يفوق النوعين السابقين. . . كما يرشد إليه إسناد سقيه إلى رب العالمين ووصفه بالطهورية»[(١)].

* * *

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

لما ذكر أن هؤلاء لا يريدون ممن أحسنوا إليهم جزاء ولا شكورًا جزاهم ربهم أحسن الجزاء وشكر لهم سعيهم، فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ فكان جزاء بالفعل وشكرًا بالقول.

* * *

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾

أسند التنزيل إلى نفسه وأكد ضمير المنزل بإن وبالضمير نحن، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ﴾ ثم أكد التنزيل بالمصدر المؤكد فقال: (تنزيلاً) فأكد المنزّل والتنزيل. وقد ذكر في هذه الآية المنزِّل وهو الله، والمنزَّل عليه وهو ضمير المخاطب بقوله: (عليك)، والمنزَّل وهو القرآن.

وقد تقول: لقد أكد الخلق في أول السورة بإن وحدها فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ فلم كان التأكيد هنا بإن وبالضمير وبالمصدر المؤكد؟

والجواب أن ذلك لأكثر من سبب:

منها: أن أمر الخلق لم يختلف فيه أحد إلا القلة، فإن الكفرة والمؤمنين يقرّون بأن الخالق هو الله، حتى أن مشركي قريش كانوا يقرون ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ

---

(١) روح المعاني ٢٩/ ١٦٤.

﴿وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] بخلاف تنزيل القرآن من الله فإنهم لا يقرون بذلك، والمنكرون له أكثر من المنكرين للخالق، فاحتاج التنزيل إلى تأكيد أكثر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التنزيل أهم من الخلق؛ لأن الغرض من الخلق هو العبادة والتكليف، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فعلّة الخلق هي العبادة، والعبادة إنما تكون بما يريده الله وما يأمر به عباده، وذلك يكون عن طريق ما ينزل من كتب، فكان التنزيل أهم؛ لأنه به تعرف العبادة التي يريدها ربنا، وتعرف الأوامر والنواهي التي يأمر بها وينهى عنها، فكان ذلك أدعى إلى التأكيد.

جاء في (الكشاف): «تكرر الضمير بعد إيقاعه اسماً لإن تأكيد على تأكيد لمعنى اختصاص الله بالتنزيل، ليتقرر في نفس رسول الله ﷺ أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أي وجه نزل إلا حكمة وصوابًا»[(١)].

وقد تقول: لقد قال الله سبحانه في موطن آخر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال هنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ فقال في سورة الإنسان: (عليك) ولم يقل ذلك في آية الحجر، فما السبب؟

والجواب: أنه ذكر (عليك) في سورة الإنسان لأن بعدها الكلام على الرسول وتوجيه الخطاب إليه بالأوامر والنواهي فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ فكان المناسب أن يذكر (عليك).

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٠.

في حين لم يكن الأمر كذلك في سورة الحجر ، بل الكلام على الذكر وحفظه ، ولم يوجه للرسول أمر أو نهي ، فقد قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ويمضي الكلام على القرآن ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ فلم يقتض ذلك ذكر (عليك) ، فكل تعبير مناسب في مكانه.

وقد تقول: ولم سماه في سورة الإنسان (القرآن) ، وسماه في سورة الحجر (الذكر)؟

والجواب: أن اسم الكتاب المنزل على الرسول ﷺ هو القرآن ، ولم يجر له ذكر أو وصف في سورة الإنسان فسماه باسمه.

في حين ورد اسم القرآن في سورة الحجر في أول السورة: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وقال في آخرها: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾.

ثم إن هذا هو المناسب للآية قبلها وهو قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦] فرد عليهم رب العزة بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فأسماه كفار قريش ذكرًا ، وردَّ عليهم الله بالتسمية نفسها ، فكان كل تعبير مناسبًا لموطنه.

* * *

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قال بعد ذكر تنزيله القرآن: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ فأمره بالصبر ، مما يدل على أن التنزيل العزيز يستدعي الصبر لما فيه من قول ثقيل وتكاليف وتبليغ ، فحامل التنزيل ينبغي أن يصبر عليه.

والحكم قد يكون بمعنى الحكمة ، فهو إذن يطلب منه الصبر لما

تقتضيه حكمة الله سبحانه من الصبر حتى يأذن الله بالنصر.

وقد يكون الحكم بمعنى القضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١]، وقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] فيكون المعنى: اصبر لما حكمه الله وقضاه.

والمعنى يحتملهما معًا، وهما مطلوبان، فإن الله أمر بالصبر على حكم الله وقضائه لحكمة وضعها وأرادها. فيكون المعنى: اصبر لحكمة ربك وحكمه وأمره.

جاء في (الكشاف): «فاصبر لحكم ربك الصادر عن الحكمة وتعليقه الأمور بالمصالح وتأخيره نصرتك على أعدائك من أهل مكة، ولا تطع منهم أحدًا قلة صبر منك على أذاهم، وضجرًا من تأخر الظفر» (١).

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ظانًّا أن ذلك يوصلك إلى مقصودك أو يقربك منه. والآثم: هو الذي يرتكب الإثم ويفعله المقدم على المعاصي.

والكفور: هو المبالغ في الكفر، وهو نقيض الإيمان، أو هو الجاحد للنعمة من الكفران مقابل الشكر كما مَرَّ إيضاح ذلك.

فالآثم هو الذي يفعل الإثم، والإثم قد يكون من أفعال الجارحة أو من أعمال القلب، فأفعال المعاصي كلها تفضي إلى الإثم وفاعلها آثم، وقد يكون الإثم من أعمال القلب ككتم العلم وكتم الشهادة والحسد والاعتقاد الباطل ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

والكُفور قد يكون اعتقادًا باطلاً في القلب، أو جحداً للنعمة

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٠.

باللسان، وكلاهما إثم، ولذا كان كل كفور آثمًا وليس كل آثم كفورًا، فرب مرتكب للإثم غير كافر ولا جاحد للنعمة.

جاء في (الكشاف): «معناه: ولا تطع منهم راكبًا لما هو إثم داعيًا لك إليه أو فاعلاً لما هو كفر داعيًا لك إليه...

فإن قلت: معنى (أو) ولا تطع أحدهما، فهلا جيء بالواو ليكون نهيًا عن طاعتهما جميعًا؟ قلت: لو قيل: (ولا تطعهما) جاز أن يطيع أحدهما. وإذا قيل: لا تطع أحدهما علم أن الناهي عن طاعة أحدهما، عن طاعتهما جميعًا أنهى»[1].

وجاء في (التفسير الكبير): «ما الفرق بين الآثم والكفور؟

الجواب: الآثم: هو المقدم على المعاصي، أي معصية كانت. والكفور: هو الجاحد للنعمة. فكل كفور آثم، أما ليس كل آثم كفورًا. وإنما قلنا: إن الآثم عام في المعاصي كلها لأنه تعالى قال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ فسمى الشرك إثمًا، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾، وقال: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾، وقال: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدلت هذه الآيات على أن هذا الإثم شامل لكل المعاصي... إن الآثم عام والكفور خاص»[2].

وقال: (آثمًا) ولم يقل: (أثيمًا) لأنه أراد أن ينهى عن إطاعة مرتكب الإثم في كل أحواله، سواء بالغ في ارتكاب الآثام أم لم يبالغ. ولو قال: (ولا تطع منهم أثيمًا) لربما أفهم أنه نهى عن إطاعة المبالغ في المعاصي دون من لم يبالغ، وهذا غير مراد.

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٠.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٥٨.

وقد تقول: ولم قال إذن في سورة القلم: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١٢] ولم يقل (آثم)؟

والجواب: أن كل تعبير وقع في مكانه المناسب من أكثر من وجه:

منها: أنه في سورة القلم جاء بأوصاف المبالغة فقال: حلاّف، همّاز، مشّاء، منّاع، فناسب ذلك المبالغة في الإثم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الذي يفعل كل ذلك هو أثيم وليس آثمًا فقط.

ومن ناحية ثالثة أن المبالغة في كل وصف منها يكون صاحبها أثيمًا فكيف إذا بالغ فيها كلها؟ فالهماز أثيم، والمشاء بالنميم أثيم، والمناع للخير أثيم، والمعتدي أثيم، والعتلّ أثيم، والزنيم وهو المعروف بالشر الظلوم أثيم، فكيف إذا جمعها كلها؟ فناسب كل تعبير مكانه.

وقد تقول: ولم قال: ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ فبالغ، ولم يقل: (أو كافرًا)؟

وجواب ذلك ذكرناه في قوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ فإنه قال: ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ ليشمل الكافر في قلبه وجاحد النعمة، وهو المقابل للشاكر. ولو قال: (أو كافرًا) لشمل واحدًا منهما. وهو المناسب أيضًا لما ورد في أول السورة ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

* * *

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝٢٦﴾

أمره بالذكر والتسبيح والصلاة بعد أمره بالصبر ونهيه عن إطاعة الآثم والكفور، وربنا يأمر بالإكثار من ذلك عند الوقوع في الأزمات ومضايق الأمور والمواطن التي تحتاج إلى الصبر، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨] ، وقوله عند اللقاء في الحرب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] ، وقول يونس في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ونحو ذلك من المواطن ، فإن مداومة التسبيح تفرج الكروب وتنجي من المضايق ، وهي أزكى الأعمال وأرفعها عند المليك ، ولذا طلب منه مداومة التسبيح في الليل والنهار.

جاء في (روح المعاني): «أراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم عقب ذلك بالأمر باستغراق أوقاته بالعبادة ليلاً ونهارًا بالصلوات كلها من غير اختصاص وبالتسبيح بما يطيق على منوال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾»(١).

وقدم الجار والمجرور (من الليل) على قوله: (فاسجد) لما في التهجد من أجر عظيم ، ولما في ذلك من المشقة والكلفة ، فإن صلاة الليل ثقيلة. وهذا التقديم نظير قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨] ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

جاء في (تفسير البيضاوي): «وتقديم الظرف لما في صلاة الليل من مزيد الكلفة والخلوص»(٢).

كما أن هذا التقديم يدل على علو منزلة السجود وفضله على غيره ، ذلك أن تقديم الجار والمجرور سوّغ إدخال الفاء على الفعل (اسجد) وهذه الفاء على كل ما قيل فيها تفيد التأكيد ، سواء قلنا: إنها جواب شرط

---

(١) روح المعاني ٢٩/١٦٦.

(٢) أنوار التنزيل ٧٧٤.

مقدر ، أي مهما كان فلا تدع السجود ، أو قلنا : هي زائدة للتوكيد . ولو لم يتقدم الظرف لم تصح زيادة الفاء ، فلا يصح القول : (وفاسجد له من الليل) ، وبهذا يتضح أن هذا التقديم أفاد أكثر من فائدة .

* * *

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا ۝٢٧ ﴾

قال : ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ ﴾ مع أن يوم القيامة أمامهم ، قيل : لأنهم نبذوه وراء ظهورهم وتركوه خلفهم استخفافًا به ، ولو أنهم أهمهم الأمر وعناهم شأنه لجعلوه نصب أعينهم لا يغفلون عنه . «فهم كمن ينبذ الشيء وراء ظهره تهاوناً به واستخفافاً بشأنه ، وإن كانوا في الحقيقة مستقبلين له وهو أمامهم» [١] .

وجاء في (التفسير الكبير) : «لم قال : (وراءهم) ولم يقل : (قُدَّامهم)؟ **الجواب** من وجوه :

أحدها : لما لم يلتفتوا إليه وأعرضوا عنه فكأنهم جعلوه وراء ظهورهم .

وثانيها : المراد : ويذرون وراءهم مصالح يوم ثقيل ، فأسقط المضاف .

وثالثها : أن (وراء) يستعمل بمعنى (قُدَّام) كقوله : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ ﴾ ، ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ ﴾» [٢] .

وجاء في (الكشاف) : ﴿ وَرَآءَهُمۡ ﴾ قدامهم ، أو خلف ظهورهم لا يعبؤون به . ﴿ يَوۡمًا ثَقِيلًا ﴾ استعير الثقل لشدته وهوله من الشيء الثقيل

---

(١) فتح القدير ٥/ ٣٤٣ .

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٦٠ .

الباهظ لحامله. ونحوه «﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾» (١).

وقد تقول: ولم قال في سورة القيامة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾، وقال ههنا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ فذكر أن اليوم ثقيل؟

فنقول: أما قوله في سورة الإنسان: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ ولم يقل مثل ذلك في سورة القيامة، فالسبب أنه تكرر ذكر اليوم المشعر بالثقل في هذه السورة، فقد قال: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾، وقال: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ ولم يذكر مثل ذلك في سورة القيامة.

وقد يقول قائل: ولم كان الكلام موجهًا بأسلوب الخطاب في سورة القيامة فقال: ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾، وبأسلوب الغيبة في سورة الإنسان فقال: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾؟

والجواب: أن المقام لا يناسب الخطاب في سورة الإنسان؛ لأنه ذكر أن قسمًا منهم لم يذر الآخرة، بل أخبر عنهم أنهم يخافون يومًا كان شره مستطيرًا. وقال على لسان بعضهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ وذكر أنه وقاهم شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا، فهم إذن لم يذروا الآخرة فلا يناسب الخطاب بذلك.

* * *

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ۝٢٨﴾.

قال: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ ليعلمنا أن الذي خلقهم وشد أسرهم هو الذي أنزل القرآن، فينبغي لهم أن يسمعوا لكلام خالقهم ويطيعوا تنزيل ربهم، وليعلمهم أن خالقهم أعلم

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٠.

بمصالحهم وما هو خير لهم. وقدم (نحن) على الفعل ليُعلم أنه وحده الخالق لا خالق غيره، فالتقديم هنا يفيد الحصر، فينبغي أن يعبدوه وحده وألا يشركوا به غيره ولا يتخذوا معه إلهًا.

ومعنى ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أحكمنا خلقهم ووصّلنا عظامهم بعضها ببعض ووثقنا مفاصلهم. جاء في (الكشاف): «الأسر: الربط والتوثيق... والمعنى شددنا توصيل عظامهم بعضها ببعض وتوثيق مفاصلهم بالأعصاب، ومثله قولهم: جارية معصوبة الخلق ومجدولته» [١].

وأكد الضمير بإن في أول السورة فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ ولم يؤكد ههنا، وذلك أنه ذكر في أول السورة خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، وهذا أصعب من خلق الإنسان فيما بعد، فإن الإيجاد الأول أصعب من الخلق فيما بعد، فإنه ذكر في هذه الآية خلقهم هم، وذكر في أول السورة خلق الإنسان بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن إخبارهم بأن الله خلقهم غير منازع فيه عندهم، فإنهم يعتقدون أن الله خلقهم، ولكنهم لا يعلمون أو ينازعون في أن الخلق لم يكن ثم كان، فإن قسمًا من الناس يرون أن سلسلة الوجود ليس لها بداية، بل هي متسلسلة منذ الأزل، فالمسألة هذه متنازع فيها.

وهناك أمر آخر حسّن التوكيد في أول السورة، وهو أنه ذكر أن الخلق إنما هو للابتلاء، إذ ليس كل أحد يعلم أن الإنسان خلق ليبتليه ربه ويختبره، بل هذا الأمر منازع فيه، وهو مجهول عند أكثر الناس. ولذا

---

(١) الكشاف ٣/ ٣٠٠.

حسن التوكيد في أول السورة دون هذا الموطن.

﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾

جاء بـ (إذا) ولم يقل: (وإن شئنا)، ذلك أن (إذا) تستعمل للدلالة على المتيقن والمقطوع بحدوثه، أو الكثير الحدوث. وهذا إشعار بأن الله سيبدل أمثال هؤلاء الكفرة في الخلقة ويأتي بمؤمنين يؤمنون بما نزَّل خالقهم مطيعون له.

فالمشيئة حاصلة بذاك وستتم وقد تمت.

جاء في (التفسير الكبير): «لما كان الله تعالى عالمًا بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة لا جرم حسن استعمال حرف (إذا)» [١].

والمجيء بـ (إذا) ههنا نظير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢١ ـ ٢٢]، وقوله: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٩] فالمشيئة حاصلة ولا بد، فإن الموتى سيبعثهم الله، فجاء بـ (إذا) للدلالة على تيقن الحصول.

* * *

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾

هذه الآية نظير قوله تعالى في أول السورة: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ والتخيير ههنا كالتخيير ثم، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا فيكون شاكرًا وإلا فهو كفور. وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ فهذه التذكرة هي الهداية.

* * *

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٦١، وانظر أنوار التنزيل ٧٧٦.

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾

والمعنى : ـ والله أعلم ـ أنكم لا تشاؤون إلا أن يشاء الله أنكم تشاؤون ، أي أن مشيئتكم واختياركم كانا بمشيئة الله وإرادته ، فإنه شاء لكم أن تختاروا ولو شاء لم يمنحكم هذه المشيئة ، وذلك أن الله عليم بما يخلق وكيف يخلق ، وكل ذلك لحكمة أرادها سبحانه.

* * *

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾ ﴾

قد تقول: كيف يدخل من يشاء في رحمته وربما كان فيهم من لا يستحق الرحمة؟

والجواب: أنه لما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ علم أنه يفعل ذلك لعلم وحكمة ، وأنه لا يدخل في رحمته إلا من علم الله أنه يستحق ذلك واقتضت ذلك حكمته. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه لما قال: ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ علم أن من يدخلهم في رحمته هم من غير الظالمين.

وقد يقول قائل: ولم قال في أول السورة: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ وقال هنا: ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾ فإن العذاب الأول أشد ؛ لأن العذاب الأليم قد لا يكون بالسعير والنار والسلاسل والأغلال؟

والجواب: أنه ذكر العذاب الأول للكافرين، وهذا العذاب للظالمين، والظالم قد لا يكون كافرًا ، فإن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافراً ، قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فاقتضى أن يكون العذاب الأول أشد ؛ لأن صاحبه كافر ظالم والثاني ظالم.

إن هذا الآية هي خاتمة السورة ، وقد ارتبطت ببداية السورة ارتباطًا لطيفًا ، فقد بدأت السورة بالإنسان وهو لم يكن شيئًا مذكورًا ، وانتهت

بخاتمة هذا الإنسان ومصيره ، فبدأت ببدئه وختمت بخاتمته .

وكما ذكر صنفين من الناس في أول السورة وهما الشاكر والكفور ، ذكر صنفين في خاتمتها وهما المرحوم والمعذب .

إن لهذه السورة خطوطًا تعبيرية ظاهرة فيها ؛ فمن الخطوط التعبيرية فيها أنها بنيت على التثنية ، فإنها ترد الأشياء فيها صنفين صنفين ، ومن ذلك على سبيل المثال :

١ ـ أنه ذكر صنفين من الناس : الشاكر والكفور ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

٢ ـ ذكر صنفين من العذاب : القيود والسعير ، والقيود نوعان : وهما السلاسل والأغلال .

٣ ـ ذكر صنفين من أصحاب الجنة : الأبرار وعباد الله وهم السابقون ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ .

٤ ـ ذكر نوعين من الشراب الممزوج : شرابًا ممزوجًا بالكافور ، وآخر ممزوجًا بالزنجبيل .

٥ ـ ذكر نوعين من العبادات الظاهرة : وهما الوفاء بالنذر والإطعام .

٦ ـ ذكر نوعين من العبادات القلبية : الخوف والإخلاص ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا ﴾ ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ .

٧ ـ نفى المطعمون عن أنفسهم إرادة شيئين : الجزاء والشكور ، والجزاء : هو المكافأة بالفعل ، والشكور : هو الثناء باللسان .

٨ ـ ذكر تعالى أنه لقاهم شيئين : النضرة والسرور ، والنضرة تكون في الوجوه ، والسرور في القلب .

٩ ـ ذكر أنه جزاهم بصبرهم شيئين: جنة وحريرًا، والجنة للأكل، والحرير للبس.

١٠ ـ ونفى عنهم رؤية شيئين: الشمس والزمهرير.

١١ ـ وذكر دنو شيئين منهم: الظلال والقطوف ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

١٢ ـ وذكر الطواف بشيئين: الآنية والأكواب ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾.

١٣ ـ وذكر الشرب بصورتين: من الكأس ومن العين ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾

١٤ ـ وذكر نوعين من الشرب من الكأس: الشرب دون ساق، والسقي ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾.

١٥ ـ ذكر نوعين من الثياب: السندس والإستبرق

١٦ ـ وذكر نوعين من الزينة: اللباس والأساور.

١٧ ـ ذكر أنه قال لهم شيئين: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾، ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾، وهذا بمقابل قولهم: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾.

١٨ ـ نهى رسوله عن إطاعة صنفين من الناس: الآثم والكفور ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

١٩ ـ طلب منه التسبيح والصلاة في النهار والليل، فالبكرة والأصيل في النهار، وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ في الليل.

٢٠ ـ ذكر وقتين من أوقات النهار: وهما البكرة والأصيل ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

٢١ ـ ذكر عبادتين في الليل: السجود والتسبيح.

٢٢ ـ ذكر الحياتين: الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴾.

٢٣ ـ ذكر الحب والترك: ﴿ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ. . . ﴾.

٢٤ ـ وذكر أمرين من أمر الإنسان: الخَلْق وشدّ الأسر ﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ ﴾.

٢٥ ـ ذكر مشيئتين: مشيئة الله ومشيئة الإنسان ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا (٢٩) وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾.

٢٦ ـ ختم السورة بذكر صنفين من الناس: المرحوم والمعذب ﴿ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴾.

وهناك خط آخر في ذكر الأحداث، وهو ذكر الأحداث المستقبلة بالفعل الماضي، ومن ذلك قوله تعالى:

١ ـ ﴿ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾

٢ ـ ﴿ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾

٣ ـ ﴿ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾

٤ ـ ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ ﴾

٥ ـ ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾

٦ ـ ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ ﴾

٧ ـ ﴿ وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا ﴾

٨ ـ ﴿ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴾

٩ ـ ﴿ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴾

١٠ ـ ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾

١١ ـ ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾

١٢ ـ ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

١٣ ـ ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ﴾

١٤ ـ ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾

١٥ ـ ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

إلى غير ذلك من الخطوط ، والله أعلم .

* * *

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا
تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ
مَّرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ
ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ
عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٍ
يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ
عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ
عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ
نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ
فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ (١٤) ﴾

* * *

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١﴾

التسبيح: هو التنزيه، فمعنى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أن هؤلاء نزهوه عما لا يليق من الصفات، وأنهم ذكروا ذلك بما يليق من حالهم مما نفقه من التسبيح ومما لا نفقه.

لقد ورد فعل التسبيح في القرآن الكريم معدّى بنفسه ومعدّى باللام، فمما ورد معدى بنفسه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

ومما ورد معدّى باللام هذه الآية التي افتتح بها السورة. ونظيرها في مفتتح سورة الحديد وسورة الحشر، وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [الإسراء: ٤٤] وغيرها.

إن معنى (سبّحه): نزّهه ـ كما ذكرنا ـ ومعنى (سبّح له): أي فعل ذلك لأجله، فاللام تفيد التعليل، فالتسبيح هو الفعل، والتسبيح له هو الفعل لأجله، كما تقول: صلّى وصلّى له، ونسك ونسك له. ولا ينفع الفعل حتى يكون له سبحانه، فكل فعل أو عبادة لا تنفع حتى تكون له وحده وإلا كان ذلك ضلالاً. فكل فعل لا يكون له باطل، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. فمن سبّح رياء فليس بمسبّح لله، ومن صلى رياء فليس بمصل له، فالتسبيح ينبغي أن يكون له تعالى خالصًا كسائر العبادات. فالتسبيح هو الفعل، والتسبيح له هو إخلاص النية والعمل لله.

جاء في (البحر المحيط): «واللام في (لله) إما أن تكون بمنزلة اللام في (نصحت لزيد) يقال: (سبح الله) كما يقال: (نصحت زيدًا) فجيء باللام لتقوية وصول الفعل إلى المفعول، وإما أن تكون لام التعليل، أي

أحدث التسبيح لأجل الله ، أي لوجهه خالصًا»[(١)] .

ومن الملاحظ في هذين الاستعمالين في القرآن الكريم ، أي في نحو (سبح لله) و(سبحه) أنه يستعمل اللام مع العاقل وغير العاقل ، وأما المتعدي بنفسه فلا يستعمله إلا للعقلاء .

قال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد : ١] ، وقال : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء : ٤٤] فهذا لغير العاقل والعاقل .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ﴾ [النور : ٤١] فهنا اختلط العقلاء بغيرهم .

وقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ ﴾ [النور : ٣٦ ـ ٣٧] ، وقال : ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت : ٣٨] وهذا خاص بالعقلاء .

أما المتعدي بنفسه فلم يرد إلا للعاقل ، قال تعالى : ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح : ٩] ، وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١ ـ ٤٢] ؛ فتسبيح غير العقلاء لم يرد إلا باللام ، أما تسبيح العقلاء فقد ورد باللام وبدونها .

وثمة ملاحظة أخرى في استعمال هذين التعبيرين ، وهي أنه يستعمل اللام مع ما هو أعم وأشمل ، سواء كان ذلك من حيث المسبحون أم من حيث أوقات التسبيح ، فقد قال الله : إنه يسبح له ما في السماوات وما في الأرض ، وإنه تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وهذا أعم تسبيح وأشمله .

---

(١) البحر المحيط ١٠/ ١٠٠ .

في حين أنه قد يستعمل المتعدي بنفسه للواحد أو للجماعة التي لا تبلغ ذلك المبلغ في الشمول والسعة ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] ، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦] ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢]. ولم يرد في المتعدي بنفسه نحو ذلك الشمول في المسبحين.

ويكفي ذلك بيانًا أن الفعل مع اللام يستعمل للعقلاء وغيرهم ، أما المتعدي بنفسه فلم يستعمله إلا للعقلاء.

ومثل ذلك الاتساعُ في الأوقات ، فما ورد من الأوقات مع اللام أكثر اتساعًا وأعم وأشمل.

قال تعالى مع المتعدي بنفسه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩] ، وقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢].

في حين قال مع اللام: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ﴾ [النور: ٣٦] فذكر ذلك بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد ، فالغدوّ جمع غدوة ، والآصال جمع أصيل.

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠] ، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] ، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦] ففي كل ذلك قال: (من الليل) بـ(من) التبعيضية ، ثم ذكر وقتًا آخر ليس طويلاً وهو (أدبار السجود) أو (إدبار النجوم) حتى أنه في آية الإنسان لم يذكر غير الليل.

في حين قال: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت: ٣٨] فقال: ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بإطلاق الليل والنهار من دون تقييد ، ولم يذكر (من) الدالة على البعضية ، بل ذكر الباء التي تفيد

الظرفية. ثم قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ۩﴾ للدلالة على مداومة التسبيح وطوله.

لقد ورد التسبيح في القرآن الكريم بصور شتى، فقد ورد بالفعل الماضي نحو ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وورد بالمضارع نحو ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ وورد بالأمر نحو ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. كما ورد باسم المصدر وهو (سبحان) وذلك ليشمل الأزمنة كلها ويستغرقها. فالفعل الماضي يستغرق الزمن الماضي، والمضارع يستغرق الحال والاستقبال، والأمر يفيد طلب التسبيح في المستقبل، والمصدر غير مقيد بزمن أو فاعل، فهو يفيد الحدث المطلق، فهو يدل على حدوث التسبيح سواء كان هناك من يسبحه أم لا، فاستغرق ذلك الأوقات كلها، وأفاد أنه مستحق التسبيح على الدوام سواء كان هناك من يسبح أم لم يكن.

جاء في (التفسير الكبير): «ثم إنه تعالى قال في البعض من السور: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: وفي البعض (يسبّح)، وفي البعض (سبّح) بصيغة الأمر، ليعلم أن تسبيح الله تعالى دائم غير منقطع لما أن الماضي يدل عليه في الماضي من الزمان، والمستقبل يدل عليه في المستقبل من الزمان، والأمر يدل عليه في الحال»[1].

لقد افتتحت السورة بالتسبيح بالفعل الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ شأن سور أخرى، وقد افتُتح قسم آخر من السور بالفعل المضارع، أي ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾.

ومن الملاحظ أن كل سورة تبدأ بالفعل الماضي، أي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/٣١١.

يجري فيها ذكر للقتال ، بخلاف ما يبدأ بالفعل المضارع ، أي ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ، فقد قال في سورة الحديد: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ [الحديد: ١٠]. وذكر في سورة الحشر إخراج الكافرين من حصونهم وتكرر في السورة ذكر القتال (انظر على سبيل المثال الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٣).

وقال في سورة الصف: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ ، وذكر الجهاد بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ، وكل تلك السور تبدأ بالفعل الماضي (سبّح) ، ولم يرد مثل ذلك فيما بدأ بالفعل المضارع.

ومن الملاحظ أيضًا أنه في قسم من الآيات يكرر (ما) فيقول: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ولا يكرر في قسم آخر فيقول: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، وقد كرر (ما) في هذه الآية فقال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فكرر (ما) فقال: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. وحيث كرر (ما) في آيات التسبيح أعقب ذلك بالكلام على أهل الأرض ، وإذا لم يكرر (ما) فإنه لا يذكر شيئًا يتعلق بأهل الأرض بعدها. وقد ذكر بعد هذه الآية أمرًا يتعلق بأهل الأرض فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فكان تكرار (ما) هو المناسب[١].

وقد قدم الجار والمجرور (لله) على الفاعل وهو ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وذلك لأن المجرور أهم ، فإن السياق ليس على الفاعل ، وإنما هو على مستحق التسبيح وهو الله ، ولذا ذكر بعد ذلك قسمًا من صفاته فقال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، ثم قال بعدها: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن

---

(١) انظر معاني النحو ١/ ١٥٦ وما بعدها.

تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ فذكر ما يحبه الله وما لا يحبه ، فقدم ما هو أهم وأولى.

وقدم ﴿مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ؛ وذلك لأن أهل السماوات أسبق في التسبيح من أهل الأرض ، فإنه لما أراد خلق آدم قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فقدم ما هو أسبق.

وهناك أمر آخر ، وهو أنه قدم ما هو أدوم تسبيحًا ، فما في السماوات أدوم تسبيحًا ، قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ولا تقل: إن (ما) لغير العاقل فلا تشمل الملائكة ، فإن (ما) ـ كما هو معلوم ـ تكون لذوات غير العقلاء ولصفات العقلاء ، كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨] فاتضح ما قلناه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

العزيز: هو الغالب الممتنع من أن يغلبه أحد ، والحكيم قد يكون فعيلاً من الحكم ، وقد يكون من الحكمة.

والعزيز إذا حكم كان ذلك منتهى العزة ، فقد يكون العزيز حاكمًا وقد يكون غير حاكم ، وقد ذكر هنا أنه جمع العزة والحكم فكان ذلك غاية الكمال فيهما. وإذا كان (الحكيم) من الحكمة فذلك منتهى الكمال أيضًا ، ذلك أنه يكمل عزته بالحكمة ، فقد يكون العزيز متهورًا فيكون ذلك نقصًا فيه.

والراجح أن كلا المعنيين مراد ، فهو حكيم من الحكم ، وحكيم من الحكمة ، فهو العزيز الحاكم ذو الحكمة.

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بتعريف الوصفين ليدل على أنه لا عزيز

في الحقيقة سواه ، ولا حاكم ولا حكيم في الحقيقة سواه ، فإن كل عز يناله غيره فمن عزته سبحانه ، وكل حكم أو حكمة لغيره فذلك منه سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦] ، وقال: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

إن قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ يعني أن ما في السماوات وما في الأرض نزهوه عن صفات النقص وأثبتوا له صفات الكمال.

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يدل على الوحدانية وإبطال الشرك ، إذ لا عزيز سواه ولا حاكم غيره ، فهذه الآية تدل على توحيد الله سبحانه واتصافه بصفات الكمال وتنزيهه عن النقص ، وتفيد إقرار ما في السماوات وما في الأرض له بذلك وخضوعهم له دون غيره خضوع قهر وعبادة.

فإن الخضوع قد يكون خضوع قهر وغلبة لا خضوع عبادة وتقديس ، أما خضوع ما في السماوات وما في الأرض فهو خضوع قهر وعبادة ، فخضوع القهر يدل عليه قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ويدل عليه وصفه نفسه بـ (القهار) ، وخضوع العبادة والاستحقاق يدل عليه قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ فدل ذلك على الكمال المطلق له سبحانه.

جاء في (التفسير الكبير): «﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي شهد له بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات الحميدة جميع ما في السماوات والأرض ، و(العزيز) من عَزَّ إذا غلب ، وهو الذي يغلب على غيره أي شيء كان ذلك الغير ولا يمكن أن يغلب عليه غيره.

و(الحكيم) من حكم على الشيء إذا قضى عليه ، وهو الذي يحكم على غيره أي شيء كان ذلك الغير ولا يمكن أن يحكم عليه غيره ، فقوله:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يدل على الربوبية والوحدانية إذن»[١].

لقد ارتبط هذان الاسمان الكريمان بما ورد في السورة على العموم، فقد شاع فيها جو العزة والحكم والحكمة.

فقد ارتبط باسمه العزيز واسمه الحكيم من معنى الحكم قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولا يفعل ذلك إلا العزيز الحكيم.

وارتبط بهما أيضًا قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، وقوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾، فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا العزيز الحكيم.

وارتبط باسمه (الحكيم) من الحكمة قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ فإن نور الله إنما هو للهداية، والهداية من الحكمة، والذي يهدي إنما هو الحكيم.

وارتبط به أيضًا قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ والهدى من الحكمة، والحق إنما يدل عليه الحكيم.

وارتبط به أيضًا قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ والذي يدل على ذلك حكيم، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والذي يعلم إنما هو حكيم لأن من مقتضيات الحكمة العلم، والذي لا يعلم لا يكون حكيمًا، وذلك من لطيف الارتباط.

* * *

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١١.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

أخرج الكلام مخرجًا عامًّا وإن كان السبب في هذا التقريع خاصًّا ، فإنه لم يقل : (لم تقولون كذا وكذا ولا تفعلونه) بل جعله عامًّا فيما يقال ولا يفعل ؛ وذلك لأنه لو ذكر الأمر الذي نزلت الحادثة بسببه لكان يظن أن الإنكار بسبب هذا الأمر دون غيره ، فلو قالوا أمرًا آخر ولم يفعلوه كانوا بمنجاة من اللوم.

ونحن لا يعنينا ذكر المسألة التي كانت سببًا في نزول الآية ، فإنه لا يتغير الحكم على هذا الوصف الممقوت أيًّا كان السبب.

والذي يدل عليه السياق وما يذكر في أسباب النزول أن الأمر يتعلق بالقتال وإن اختلف في تحديد هذا الأمر ، فقد ذكر أن جماعة من المؤمنين قالوا : لو كنا نعلم أحب الأعمال إلى الله لبادرنا إليه ، فلما كتب عليهم القتال كرهوا ذلك أو نكلوا عنه. وقيل : إن بعضهم كان يقول : قتلت ، ولم يقتل. وطعنت ، ولم يطعن ، وفعلت كذا ، ولم يفعل ، فأنزل الله ذاك. وسواء كان الأمر فيما ذكر أم في غيره فإن ذلك وصف ممقوت ، وكله يندرج فيمن يقول ما لا يفعل.

* * *

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

﴿ كَبُرَ ﴾ بضم الباء ، وفي التعبير احتمالات :

منها : أن العرب يفرقون بين الكبر المعنوي والكبر في السن ، فالكبر المادي تقوله بكسر الباء فيقال : (كبِر الرجل) ، والكبر المعنوي تقوله بالضم فيقال : (كبُر الأمر) ، والكبر ههنا غير مادي فقاله بالضم ، فيكون التعبير خبريًّا.

وفيه احتمال آخر: وهو أن الفعل محوّل إلى (فعُل) بضم العين لقصد التعجب، أي ما أكبره مقتًا، فإن الفعل قد يحوّل إلى (فعُل) لقصد التعجب.

وفيه احتمال ثالث: وهو أن الفعل محوّل إلى (فعُل) بقصد الذم، فإنه إذا أريد تحويل الفعل إلى المدح أو الذم، أي تحويله إلى باب نعم وبئس جيء به على (فعُل) بضم العين، بشروط معلومة في التعجب والمدح والذم.

وهنا احتمل التعبير الذم والتعجب، إضافة إلى الأسلوب الخبري الأول.

و(مقتًا) يحتمل أن يكون تمييزًا مفسرًا لفاعل مستتر، أي كبر المقت مقتًا، والمصدر المؤول يكون بدلاً وذلك لقصد الإيضاح بعد الإبهام، ثم فسر الأمر الممقوت بقوله: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، وإضمار الفاعل وتفسيره بالتمييز يحول الكلام إلى إنشاء إضافة إلى التفخيم والتعظيم.

ويحتمل أن يكون الفاعل هو المصدر المؤول، أي ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ و(مقتًا) تمييز محول عن فاعل، والأصل (كبر مقت قولكم ما لا تفعلون) وقد حول الفاعل لقصد المبالغة[1].

وبهذا يكون قد اجتمع في التعبير ما يجعله ممقوتًا أشد المقت، وذلك من نواح:

١ ـ منها أنه يحتمل الخبر على أصل التعبير من دون تحويل إلى (فعُل) فيكون قد أخبر عن بغضه بفعل من أفعال السجايا الدالة على الثبوت.

---

(١) انظر معاني النحو ٢/ ٧٥١ وما بعدها.

٢ ـ ومنها أنه يحتمل التحويل إلى (فعُل) لقصد التعجب ، فيكون القصد هو التعجب من بغض هذا الفعل إلى الله .

٣ ـ ومنها أنه يحتمل التحويل إلى (فعُل) لقصد الذم ، فيكون القصد إنشاء الذم لهذا الوصف .

٤ ـ ومنها أنه استعمل كلمة (المقت) دون البغض ، والمقت أشد البغض وأبلغه .

٥ ـ ومنها أنه يحتمل تحويل الفاعل إلى تمييز لقصد المبالغة .

٦ ـ ومنها أنه يحتمل إضمار الفاعل وتفسيره بالتمييز لقصد الإيضاح بعد الإبهام وتحويل الخبر إلى إنشاء .

٧ ـ ومنها وصفه بالكبر .

٨ ـ وزاد هذا الوصف بغضًا قوله : ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإن المبغوض عند الله هو أسوأ ما يبغض .

فجعل هذا التعبير ممقوتًا من كل وجه وعلى أبلغ صورة خبرًا وإنشاءً وتعجبًا وذمًّا ومبالغة وإيضاحًا بعد الإبهام . ولو قال بدل ذلك مثلاً : (كبر المقت عند الله أن تقولوا) أو قال : (ما أكبر المقت عند الله) أو قال : (كبر عند الله مقت أن تقولوا . . .) أو غير ذلك لفقد أكثر هذه المعاني .

جاء في (الكشاف) : «قصد في (كبُر) التعجب من غير لفظه كقوله :

غلتْ نابٌ كليبٌ بَواؤُها

ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله، وأسند إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ ، ونصب (مقتًا) على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت

لأنه أشد البغض وأبلغه. . . ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرًا حتى جعل أشده وأفحشه، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أبلغ من ذلك، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته وانزاحت عنه الشكوك»[١].

وقال: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ بالمصدر المؤول، ولم يقل: (قولكم) بالمصدر الصريح، ذلك أن (قولكم) يحتمل أن ذلك وقع مرة واحدة فيكون المقت الكبير لما حصل ولو مرة واحدة، وليس ذلك بمراد، فأراد أن يبين أن هذا المقت الكبير عند الله يكون إذا تكرر حصول ذلك، فجاء بالفعل الدال على التجدد والاستمرار.

كما أنه لم يقل: (كبر مقتًا عند الله أن قلتم ما لم تفعلوا) للسبب نفسه، فإنه لم يرد أن يجعل هذا المقت الكبير عند الله لما وقع مرة واحدة، والله أعلم.

وقد فظّع الله هذا الوصف وبالغ في ذمه، لأن هذا الأمر يدخل في دائرة الكذب، والمسلم لا يكذب.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (إن الله يمقت الذين يقولون ما لا يفعلون) فيجعل المقت للفاعل، كما قال في الآية بعدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ فلماذا جعل المقت للفعل والحب للفاعل؟

والجواب: أن الله خاطب أصحاب الوصف الممقوت بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فلو قال بعد ذلك: (إن الله يمقت الذين يقولون ما لا يفعلون) لأفضى ذلك إلى مقت الذين آمنوا الذين خوطبوا بذلك، والله لا يمقت الذين آمنوا بل يحبهم، ولكنه يمقت هذا الوصف، فنزههم عن أن يمقتهم ربهم، وكفى بذلك إكرامًا للمؤمن.

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٧.

في حين قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ فجعل الحب للفاعلين بسبب فعلهم، فأحب الفعل والفاعلين، فأي كرامة للمؤمن دلت عليها الآيتان في المقت والحب؟!

قد تقول: لقد قال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فلِمَ لمْ يقل بمقابل ذلك: (إن الله يحب الذين يفعلون ما يقولون)؟

والجواب: إن الله يحب الأفعال التي أرادها ربنا وارتضاها لنا، ولا يحب كل فعل أيًا كان ذلك الفعل، فإنه ليس الأمر على إطلاقه، فإنه لا يحب الذي يقول إنه سيفعل سوءًا ثم يفعله، بل عليه أن ينتهي عنه حتى لو أقسم على فعله، فالذي يقول إنه سيقطع رحمه أو يفعل منكرًا عليه ألا يفعل ذاك، بل يفعل نقيضه من فعل المعروف، ولذا لا يصح هذا القول على إطلاقه.

* * *

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

ذكر أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا ولم يذكر غيرهم ممن يحبهم الله، وذلك لأكثر من سبب:

منها: أن نزول الآية التي قَرَّع الله فيها الذين يقولون ما لا يفعلون كان بسبب النكول عن القتال، أو بسبب أمر يتعلق بالقتال، فإنهم قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لبادرنا إليه، فأعلمهم الله أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا. ثم إن جو السورة شاع فيه استنهاض المؤمنين للجهاد وطلب نصرة الله، فناسب ذكر هذا الصنف، والله أعلم.

ومعنى الآية: أن الله تعالى يحب الذين يثبتون في الجهاد ويلزمون مكانهم كثبوت البنيان المرصوص.

وقيل: المراد أن يكونوا في اجتماع كلمتهم واستواء نياتهم وموالاة بعضهم بعضًا كالبنيان المرصوص.

والحق أن المعنيين مرادان، فيراد ثباتهم في الحرب ولزوم مكانهم، كما يراد اجتماع كلمتهم وموالاة بعضهم بعضًا.

فالمراد أن يكونوا صفًّا ثابتًا في نياتهم وأجسامهم، فإن تفرقت نياتهم وتشتت قلوبهم لم يكونوا صفًّا وإن وقفوا في صف واحد.

جاء في (الكشاف): «﴿كَأَنَّهُم﴾ في تراصهم من غير فرجة ولا خلل (بنيان) رُصَّ بعضه إلى بعض ورصف. وقيل: يجوز أن يريد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص»[1].

وجاء في (التفسير الكبير): «قال أبو إسحاق: أعلم الله تعالى أنه يحب من يثبت في الجهاد ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص، وقال: ويجوز على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضًا كالبنيان المرصوص.

وقيل: ضرب هذا المثل للثبات، يعنى إذا اصطفوا ثبتوا كالبنيان المرصوص الثابت المستقر»[2].

وقَدَّم الجار والمجرور (في سبيله) على (صفًّا) وذلك لتقديم النية وأهميتها قبل أن يدخلوا في الصف. ثم إن توحيد النية سبب لتوحيد الصف، فإن لم يكن القتال في سبيل الله فلا خير فيه.

وقال: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ﴾، ولم يقل: (كأنهم بناء) ذلك أن القرآن فرق في الاستعمال بين البناء والبنيان، فاستعمل البناء للسماء، والبنيان لما

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٧ ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
(٢) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٣.

بناه البشر ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [البقرة : ٢٢] ، وقال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ [غافر : ٦٤] .

في حين قال : ﴿ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ ﴾ [الكهف : ٢١] ، وقال ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٩٧] ، وقال ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ [التوبة : ١٠٩] .

ووصف البنيان بأنه مرصوص فقال : ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ للدلالة على شدة تماسكه وقوته .

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

ذكر قصة موسى ليتأسى رسول الله ﷺ ، وذلك أن قوم موسى آذوه مع علمهم أنه رسول الله إليهم .

وفيها تحذير لمن يزيغ عن طريق الحق والهدى ولا يتبع رسول الله ﷺ أن يزيغ الله قلبه ، كما فعل مع أصحاب موسى .

قيل : ومناسبة ذكر هذه القصة لما قبلها أن أصحاب موسى انتدبوا لقتال الجبابرة فعصوا رسولهم ونكلوا ، فشبه حالهم حال من تمنى القتال ثم لما كتب عليهم القتال تراجع .

جاء في (تفسير أبي السعود) : «﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال . . . أي واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟

عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فلم يمتثلوا بأمره وعصوه أشد عصيان»[١].

وقيل: إنه لما كان في صف الجماعة المؤمنة من قال ما لا يفعل، وذلك يدخل في باب الكذب، كان ذلك نوع أذى لرسولهم في أن يرى من جماعته من يقول ما لا يفعل، فذكر الذين آذوا موسى ممن آمن به تأسية لرسوله وتقريعًا وتحذيرًا لأولئك.

جاء في (البحر المحيط): «ولما كان في المؤمنين من يقول ما لا يفعل، وهو راجع إلى الكذب، فإن ذلك في معنى الأذاية للرسول عليه الصلاة والسلام، إذ كان في أتباعه من عانى الكذب، فناسب ذكر قصة موسى وقوله لقومه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾»[٢]. وقد أطلق الأذى ليشمل كل نوع من أنواعه.

وقد ذكر موسى عليه السلام أمرين كل منهما يدعو إلى الدفاع عنه ونصرته وعدم إيذائه:

الأمر الأول: كونهم قومه، فقد قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ﴾، وقوم الرجل في العادة يدفعون عنه وينصرونه ولا يؤذونه، وكان العرب في الجاهلية ينصرون أخاهم ومن كان من قومهم وإن كان ظالمًا، وعلى ذلك جرى مثلهم المشهور (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) والذي أعطى له رسول الله ﷺ مفهومًا جديدًا.

والأمر الآخر: أنهم يعلمون أنه رسول الله، وهذا يستدعي طاعته والدفاع عنه ونصرته لا إيذاءه، لكن بني إسرائيل آذوه مع هذين المانعين من الأذى المستلزمين للنصرة.

وقد قال لهم: (يا قوم) تألفًا لهم واستصراخًا لداعي القربى واستثارة

---

(١) تفسير أبي السعود لأبي السعود محمد العمادي ج٧/ ٢٤٣.
(٢) البحر المحيط لأبي حيان ج١٠/ ١٦٥.

للمودة ليلين قلوبهم فيطيعوه ويكفوا عن أذاه ، كما يقول الرجل لأخيه : يا أخي ، ولابنه : يا بنيّ ، ولابن عمه : يا ابن عم ، تذكيرًا بالقربى واستثارة لداعي المودة .

ومن الملاحظ في القرآن الكريم أن موسى في قسم من المواقف يناديهم بـ (يا قوم) ثم يذكر لهم الأمر الذي يريد أن يبلغهم إياه ، وأحيانًا لا يناديهم بـ (يا قوم) بل يذكر لهم الأمر مباشرة بحسب ما يقتضيه الموقف .

فإذا كان الموقف يتطلب إثارة حميتهم وتليين قلوبهم ، أو كان في مقام تذكيرهم بالنعم التي أنعم الله عليهم بها ناداهم بـ (يا قوم) ، وإذا كان في موقف تقريع وذم وتذكيرهم بما يسوؤهم لم يقل لهم : (يا قوم) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠ ـ ٢١] .

فذكّرهم بنعمة النبوة والملك فيهم ، وكلٌ واحد يعتز بالانتساب إلى القوم الذين جعل فيهم أنبياء وجعلهم ملوكًا. ثم هو يستثير حميتهم ونخوتهم لدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، فقال : (يا قوم) في الموقفين .

في حين قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٦]. فذكّرهم بأيام ذلتهم حين كانوا يسامون سوء العذاب ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم فلم ينادهم بـ (يا قوم) ، فإن

الشخص لا يفخر ولا يعتز بالانتساب إلى القوم الأذلاء.

وقد تقول: ولكن الله قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

فنقول: ولكنه أيضًا قال في الآية السابقة: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.

ففرق كبير بين النعمتين، فتلك نعمة العزة والملك، وهذه نعمة النجاة من الذلة، فوضع النداء حيث كان أحق به.

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

فلم يقل لهم: (يا قوم)، ذلك أن هذا من مواقف الذم لهم والتشنيع عليهم وذكر سيئاتهم، فقد قتلوا نفسًا فادّارؤوا فيها، فأراد الله أن يستخرج القاتل، فذكر ما هو معروف من أمر البقرة مما لا يشرف قومًا ذكره، فلم يقل لهم: (يا قوم) بل أمرهم بذبحها ليستخرج القاتل.

وقال بعد عودته من مناجاة ربه وقد عبدوا العجل من بعده واتخذوه إلهًا: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠ ـ ١٥٢].

فلم يقل لهم: (يا قوم بئسما خلفتموني من بعدي)؛ وذلك لأن الموقف موقف غضب شديد وتأنيب وتوعد لهم بأنهم سينالهم غضب من

ربهم وذلة في الحياة الدنيا ، وتخصيص طلب المغفرة له ولأخيه ، فلا يناسب أن يقول لهم : (يا قوم) وأن ينسبهم إليه .

وقد تقول: ولكنه قال في هذا الموقف نفسه في موطن آخر: (يا قوم) ، فقد قال في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤] فما الفرق؟

والحق أن السياق والمقام في كل منهما مختلف عن الآخر ، فإن ما في الأعراف كان في وقت الحدث وفي شدة الغضب. أما آية البقرة فإنها تذكر ما وقع بعد الحدث بمدة وبعد هدوء الغضب ودعوتهم إلى التوبة ، بل إنها وقعت بعدما عفا الله عنهم ، فقد قال الله في سياق البقرة نفسه: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥١ ـ ٥٢] فذكر سبحانه أنه عفا عنهم. فالمقامان مختلفان ، فالمقام الأول في أثناء المعصية ، والثاني بعد العفو ، فناسب كل تعبير موطنه.

هذا إضافة إلى أن السياق في البقرة على العموم في تعداد النعم على بني اسرائيل ، بخلاف ما في الأعراف ، فإنه افتتح الكلام في البقرة على بني إسرائيل بقوله : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال بعد ذلك قبل أن يذكر حادثة العجل : ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧] فموسى إذن يدعو بني إسرائيل الذين أنعم الله عليهم وعفا عنهم ، فناسب أن يقول: (يا قوم) ، بخلاف ما في الأعراف.

وقد قال لهم في سورة الصف: ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ فناداهم بيا قوم ، استعطافًا لهم وتليينًا لقلوبهم.

ثم قال: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ ولم يقل: (لم آذيتموني) للدلالة على استمرار الأذى له عليه السلام.

وقال: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ فقال: (إليكم) ليدل على أن رسالته ليست عامة للبشر وإنما هي لبني إسرائيل خاصة، وهو شأن الرسل قبل سيدنا محمد.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

أي فلما مالوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه، فكان ذلك جزاء وفاقًا بسبب زيغهم، فإن الله لا يظلم أحدًا.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

اختار وصفهم بالفسق لأنه هو المناسب، ذلك أن معنى (فسق): خرج عن الطريق الحق، وأصل المعنى من (فسقت الرطبة) إذا خرجت من قشرها، فهم خرجوا عن الطريق الحق ومالوا عنه، فكان وصفهم بالفسق أنسب؛ لأن الفسق خروج عن الطريق أيضًا.

* * *

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾

نسب عيسى إلى أمه ليدل على أنه ليس ابن الله كما يقول النصارى. وقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يقل لهم: (يا قوم) كما قال موسى؛ لأنه ليس له نسب فيهم، فإن قوم الرجل من كان أبوه منهم، وليس لعيسى أب. ولم يرد مرة في القرآن الكريم أن ناداهم (يا قوم)، كما أن موسى لم يرد مرة أن ناداهم (يا بني إسرائيل) فإن بني إسرائيل قومه، ونسبة عيسى إلى أمه تمهيد لعدم مناداتهم بـ (يا قوم) فإنه لا يحسن أن ينسبه إلى أمه ثم

يقول لهم (يا قوم). جاء في (الكشاف): «وقيل إنما قال: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ولم يقل: (يا قوم) كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه»[1].

وقال: ﴿ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ فخص رسالته بهم، كما قال موسى قبله، ليدل على أن رسالته لبني إسرائيل خاصة.

وقوله: ﴿ مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾ تصديق بنبوة موسى. وقوله: ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ تبشير بالنبي الخاتم سيدنا محمد، ومن أسمائه(أحمد) أيضًا عليه السلام.

وجاء بقوله: (مصدقًا) و(مبشرًا) منصوبين على الحال ولم يجئ بهما مرفوعين على تعدد الأخبار، وذلك ليدل على أن ذلك مما أرسل به، فإن (مصدقًا) و(مبشرًا) حالان، والعامل فيهما (رسول الله)، فدل ذلك على أن هذين من أمور الرسالة التي أرسل بها. ولو قالهما بالرفع لم يفد ذلك تنصيصًا، بل لأفاد أنه أخبر عن نفسه بذلك.

وقال: ﴿ مِنۢ بَعۡدِي﴾ ولم يقل: (بعدي) ليدل على أنه ليس بينهما نبي؛ وذلك لأن (من) تفيد ابتداء الغاية في البعدية، وأما (بعد) من دون (من) فتحتمل البعدية القريبة والبعيدة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾

هذا يحتمل أن يكون المقصود به عيسى عليه السلام، أي لما جاءهم بالبينات الدالة على صدق رسالته وصدق بشارته وهي المعجزات المؤيد بها من نحو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغيرها من الآيات قالوا هذا سحر مبين.

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٨.

كما يحتمل أن يكون المقصود به محمدًا ﷺ ، أي لما جاءهم بالبينات الدالة على صدقه ﷺ وأنه هو المقصود بالبشارة قالوا : هذا سحر مبين .

فإن من أرسل إليهم عيسى قالوا لما جاءهم بالبينات : هذا سحر مبين ، وكذلك قوم محمد ﷺ قالوا القول نفسه .

قال تعالى في عيسى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وقال في محمد : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ : ٤٣] ، وقال فيه أيضًا : ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات : ١٢ ـ ١٥] .

جاء في (التفسير الكبير) في قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ «قيل : هو عيسى ، وقيل هو محمد» (١) .

وجاء في (البحر المحيط) : «الظاهر أن الضمير المرفوع في (جاءهم) يعود على عيسى لأنه المحدَّث عنه ، وقيل : يعود على أحمد» (٢) .

لقد ذكر في الآيات التي مرت ثلاثة أقوام :

الأول : هم من آمن من قوم محمد وهو قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ، والثاني : هم قوم موسى ، والآخرون : وهم المكذبون سواء كانوا ممن أرسل إليهم عيسى أم ممن أرسل إليهم محمد .

ورتبهم بحسب الإيمان والطاعة ، فالأولون هم أفضلهم وأطوعهم لله ، ثم قوم موسى ، ثم من كفر .

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٣١٥ .
(٢) البحر المحيط ١٠/ ١٦٦ .

هذا إضافة إلى أن هذا الترتيب يتناسب مع مفتتح السورة وهو قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ، فإنه بعد أن ذكر المسبحين في السماوات والأرض بدأ بمن يسبحونه في الأرض طوعًا واختيارًا وهم المؤمنون بمحمد ، وهم أكثر المذكورين تسبيحًا له ، فهم يسبحون الله في صلواتهم وأدبار السجود وفي غير ذلك من الأوقات.

ثم انتقل إلى قوم آخرين أقل تسبيحًا وأنأى عن الطاعة وهم قوم موسى ، ثم الذين عصوا وافتروا على الله الكذب وقالوا: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ فبدأ بأطوع الجماعات والعباد ، ثم الذين يلونهم في الطاعة ، ثم من هم أبعد عن الطاعة ، والله أعلم.



 ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾

أي ليس ثمة أظلم ممن يفتري على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام دين الله الحق فيقول: إن محمدًا ليس هو المقصود بالبشارة ، أو هو ساحر كذاب ، مع علمه بأنه صادق وأن الذي جاء به هو الدين الحق فيظلمون بذلك أنفسهم وغيرهم ، فهم يظلمون أنفسهم لأنهم يحرمونها الهدى ويوردونها موارد التهلكة ويدخلونها دار البوار ، ويظلمون غيرهم لأنهم يكونون سببًا لمنعهم من الدخول في دين الله فيحملون أوزارهم ومن أوزار أتباعهم ، ويظلمون الرسول بنسبته إلى الكذب. جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ : «وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم ظلموا الرسول ﷺ بنسبته إلى ما ليس فيه ، إذ قالوا: هو ساحر ، وظلموا أنفسهم إذ لم يتوخوا لها النجاة... وظلموا الناس

بحملهم على التكذيب وظلموهم بإخفاء الأخبار التي جاءت في التوراة والإنجيل»[١] .

وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ . . .﴾ فأخرجه مخرج الاستفهام ولم يقل (ولا أظلم ممن افترى. . .) أو نحو ذلك، وذلك ليشارك السامع بالإجابة وليقرر بنفسه أن لا أظلم ممن افترى على الله الكذب فيقول: لا أحد أظلم منه، فإنه بدل أن يخبر الله بذلك فيقول: (ولا أظلم ممن افترى على الله الكذب) يقرر السامع ذلك بنفسه.

وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فجعل نفي الهداية ختامًا للآية؛ لأنه قال: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي يدعى إلى الهدى، فناسب نفي الهدى عنه، كما قال في أصحاب موسى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لأنهم زاغوا عن طريق الحق، أي مالوا عنه فضلّوا، فنفى الهدى عنهم ووصفهم بالفسق.

وقد تقول: ههنا سؤالان:

الأول: لِمَ لَمْ يؤكد نفي الهداية كما أكده في موطن آخر، فقد قال في سورة الأنعام: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، فأكد نفي الهداية بإن فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والسؤال الآخر: هو أنه قال في خاتمة هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. في حين ختمها في آيات متشابهة بغير هذه الخاتمة، فقد قال في سورة الأنعام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] فختمها بنفي الفلاح عنهم.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ١٧٩.

وقال في مكان آخر: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧] فسماهم مجرمين لا ظالمين.

وفي موطن آخر سماهم كافرين فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وأحيانًا لا يعقب بشيء بل يكتفي بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ كما ورد في الكهف ـ الآية ١٥، فما السبب في ذلك كله؟

والجواب: أن كل تعبير إنما يكون بحسب ما يقتضيه السياق والمقام، فإذا احتاج الكلام إلى مؤكد أكد، وإن لم يقتض التوكيد لم يؤكد؟

وإذا اقتضى أن يصفهم بصفة ما وصفهم بها على حسب ما يقتضيه السياق، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، فأكد نفي الهداية بـ(إن)؛ وذلك لأنه زاد على آية الصف قوله: ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ فاقتضى ذلك تأكيد نفي الهداية لهؤلاء الذين يضلون الناس بغير علم.

هذا إضافة إلى أنه عرّف (الكذب) في آية الصف ونكّره في آية الأنعام، فقال في الصف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، وقال في الأنعام: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، ومن المعلوم أن (الكذب) معرفة، و(كذبًا) نكرة، فإذا كان الافتراء في أمر معين عرّفه، وإن كان الافتراء عامًّا لم ينحصر في شيء معين نكّره(١).

---

(١) انظر معاني النحو ١/ ١٢٠ وما بعدها.

فلما كان الافتراء في آية الصف متعلقًا بصفة النبي محمد والتبشير به عرّفه فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ، ونكّر الكذب في آية الأنعام ، لأنهم يفترون على الله كذبًا في أمور متعددة ونواح مختلفة ولا ينحصر افتراؤهم في أمر معين ، فاقتضى ذلك تأكيد نفي الهداية أيضًا من جهة أخرى .

وهو يصفهم أحيانًا بعدم الفلاح بحسب ما يقتضيه السياق ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠ ـ ٢١] .

فلما قال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ناسب أن يقول: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فنفى الفلاح عنهم لأنهم خسروا أثمن شيء وهو أنفسهم ، فمن أين يأتيهم الفلاح؟ فإن الذي يخسر مالاً قد يأتيه الفلاح من جهة أخرى ، أما الذي خسر نفسه فكيف يأتيه الفلاح وإلى أين يأتي الفلاح ولم تعد له نفس؟ فإنه خسرها ، ولذلك أكد الكلام بإن وجاء بضمير الشأن للدلالة على عظم الخسارة وعدم الفلاح فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

وقد يزيد في خسرانهم وعقوبتهم وعدم فلاحهم فيجعل عليهم لعنة الله ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨ ـ ١٩]، فإن هؤلاء زادوا على غيرهم في أوصاف السوء، فقد ذكر أنهم:

١ ـ افتروا على الله كذبًا .

٢ ـ وأنهم يصدون عن سبيل الله .

٣ ـ ويبغونها عوجًا .

٤ ـ وهم بالآخرة هم كافرون .

فاستحقوا بذلك اللعنة ومضاعفة العذاب وكانوا هم الأخسرين ، كما قال تعالى في الآية التي بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ٢٠ ـ ٢٢].

وأما وصفهم بأنهم مجرمون أو كافرون أو غير ذلك ، فذلك بحسب ما يقتضيه سياق الكلام.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧] فوصفهم بأنهم مجرمون ، وذلك لأنه ذكر في الآية قبلها: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣] ، فإنه لما ذكر أنه أهلكهم بظلمهم ووصفهم بالإجرام فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ناسب وصف هؤلاء الذين هم أظلم من أولئك بالإجرام فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يعني لا أحد أظلم من هؤلاء المفترين ، فاستحقوا الوصف بالإجرام كالأولين الذين أهلكهم رب العزة.

وقال في آية أخرى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨] فوصفهم بالكفر ؛ وذلك لأنه تقدم قبل هذه الآية قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ، فإنه لما تقدم أنهم آمنوا بالباطل وكفروا بنعمة الله ، وهو الدين الحق ، ناسب أن يصفهم بالكفر فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

وأما عدم التعقيب بشيء فذلك أيضًا ما يقتضيه المقام والسياق ، قال تعالى : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ [الكهف : ١٥].

والقائل هنا هم الفتية أصحاب الكهف ، وهؤلاء ليس بوسعهم أن يقرروا إن كان الله سيهدي قومهم أم لا ، فإن علم ذلك إلى الله ، ولذا لم يتعدوا الوصف بقولهم : ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ . فناسب كل تعبير موطنه .

* * *

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨ ﴾

هذا تهكم بهم ، فمثّل تكذيبهم ، وإخفاءهم صفة محمد ﷺ وإنكارهم الحق الذي جاء به ، وقولهم إنه سحر مبين ، بمن ينفخ نور الشمس بفمه ليطفئها ، وقال : ﴿ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ ليدل على أن ما جاء به محمد إنما هو نوره سبحانه ليهدي به الخلق ، وأن نور الله أنأى عن أن يطفأ ، فهو أكثر تمكنًا وأشد إنارة من نور الشمس ؛ لأن الشمس تغيب ويحتجب نورها ، أما نور الله فلا يحجبه شيء ولا يطفئه أحد .

واللام في (ليطفئوا) يحتمل أن تكون زائدة في المفعول للتوكيد ، وأصله (يريدون أن يطفئوا نور الله) .

وتحتمل أن تكون للتعليل ، أي إرادتهم لهذا الغرض ، بمعنى أن كل همهم مصروف لهذا الغرض .

جاء في (الكشاف) : «﴿ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ أصله : يريدون أن يطفئوا ، كما جاء في سورة براءة . وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدًا لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لإكرامك . . . وإطفاء

نور الله بأفواههم تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: (هذا سحر)، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه»[١].

وقد تقول: لقد قال في سورة التوبة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢] ولم يقل: (يريدون ليطفئوا نور الله) فما الفرق؟

والجواب: أن اللام يؤتى بها مع مفعول فعل الإرادة للتوكيد، وقد اقتضى السياق في آية الصف التوكيد، ذلك أن السياق فيها إنما هو «في تكذيب النصارى للبشارات بمجيء محمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٦ ـ ٨].

ونور الله هو الإسلام، فتكذيب النصارى للبشارة الواردة في كتبهم القصدُ منه إطفاء نور الله، فجاء باللام الدالة على التوكيد.

وأما في آية التوبة فالسياق مختلف، وقد ذُكرت الآية في سياق آخر لا يحتاج إلى مثل هذا التوكيد، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣١].

---

(١) الكشاف ٤/ ٩٩.

فالسياق في آيات الصف متجه إلى النبوة ومحاولة تكذيبها فجاء باللام ، والسياق في آيات التوبة في النعي على معتقدات اليهود والنصارى في عزير والمسيح والأحبار والرهبان ، فجاء باللام الزائدة في الآية الأولى لأن الكلام على نبوة محمد والإسلام ، ولم يأت بها في الآية الثانية لأن السياق مختلف»[(١)].

ثم ألا ترى من ناحية ثانية أنه في موطن الرد على اليهود والنصارى في شركهم بالله جاء باللام لأن الأمر يقتضي التوكيد فقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾.

فانظر كيف جاء باللام الزائدة للاختصاص في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ لأن السياق يقتضي ذلك ، وحذفها في الموطن الذي لا يقتضيه؟.

ويدلك على ذلك أيضًا أنه قال: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ فجاء باسم الفاعل الدال على الثبوت (متمّ) ، بمعنى أن الأمر ثبت واستقر. في حين قال في سورة التوبة: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ فجاء بالفعل المضارع مسبوقًا بأن الناصبة ﴿أَن يُتِمَّ﴾ وهذا تنصيص على الاستقبال ، فإن (أن) الناصبة للمضارع من حروف الاستقبال ، فكان ما في الصف آكد ، والله أعلم.

وقال: (بأفواههم) ليدل على الصورة المضحكة لفعلهم ، فإن الذي ينفخ بفمه في نور الشمس ليطفئها مثار للسخرية منه ، فهم لم ينفخوا بآلة ذات دفع قوي مثلاً لعلهم يطفئون نور الله بل بأفواههم.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ذكر تكذيبهم وافتراءهم على الله وقولهم عندما جاءهم بالبينات: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ، وهذا كله من المحاربة

---

(١) معاني النحو ٣/ ٦٩ ـ ٧٠.

بالأفواه ، فقال: (بأفواههم) لذلك ، والله أعلم. وقد أنجز الله ما وعد وأتم نوره وأرغم أنف الكافرين.

* * *

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

أضاف الرسول إلى ضميره تعالى فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ ولم يقل: (هو الذي أرسل محمدًا) أو (هو الذي أرسل الرسول) وذلك لتكريمه وللدلالة على أنه حافظه ومعزه وناصره فإنه رسوله ، والناس في العادة يحمون من يضافون إليهم وينصرونهم ، فكيف بالله وقد أضافه إلى نفسه سبحانه؟

لقد ذكر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، والمقصود بالهدى هي الدلائل التي تدل على صدقه ﷺ من البراهين والمعجزات والبشارات.

فالهدى هو ما يدل على أنه رسول من مثل ما أخبر به عن الأمم السابقة وعما سيكون في المستقبل فكان كما أخبر ، والبشارات التي بشر بها الأنبياء السابقون من ذكر اسمه وصفاته ، وأن الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وغيرها من الدلائل مما يدل على أنه رسول الله حقًّا ، وهو من الهدى الذي يهدي الناس إلى الحق.

ودين الحق هو ما جاء به من الأحكام والشرائع.

جاء في (فتح القدير): «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي بما يهدي به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التي شرعها الله لعباده ، و(دين الحق) وهو الإسلام» [١].

---

(١) فتح القدير ٢/ ٥١٥.

وجاء في (التفسير الكبير): «واعلم أن كمال حال الأنبياء صلوات الله عليهم لا تحصل إلا بمجموع أمور:

أولها: كثرة الدلائل والمعجزات، وهو المراد من قوله: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾.

وثانيها: كون دينه مشتملاً على أمور يظهر لكل أحد كونها موصوفة بالصواب والصلاح ومطابقة الحكمة وموافقة المنفعة في الدنيا والآخرة، وهو المراد من قوله: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾»[1].

وقد قَدَّم الهدى على دين الحق لأنه مدعاة إلى قبول دين الحق. وقد أضاف (الدين) إلى (الحق) فقال: ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾، وهذه الإضافة جرت في القرآن الكريم على سبيل الاطراد، فقد أضاف الدين إلى الحق حيث اجتمعا في القرآن الكريم، ولم يصف الدين بالحق إلا إذا أضافه إلى كلمة أخرى كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

و(الدِّين) في آية النور هذه بمعنى الجزاء والحساب، وهو غير ما نحن فيه من معان. وإضافة الدين إلى الحق لها أكثر من دلالة:

منها: أن الحق من أسماء الله تعالى. وقد سمى الله نفسه الحق، ووصف نفسه بالحق فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]، وقال: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٤٤] فلما أضاف الدين إلى الحق كان كأنه قال: (دين الله)، ولما كان الله هو الحق كان دينه حقًّا، بل هو الدين الحق.

ومنها: أن الحق نقيض الباطل، فإضافة الدين إلى الحق تعني أنه دين

---

(١) التفسير الكبير ١٦/ ٤١.

الحق والعدل وشريعته وليس دين الباطل ، كما تقول: هذا طريق الحق ، وذلك طريق الباطل.

ومنها: أن ذلك يحتمل أن يكون من باب إضافة الموصوف إلى صفته ، كقولهم: مسجد الجامع ، وحب الحصيد ، ودار الآخرة ، وجانب الغربي ، على تقدير مضاف ، أو على غير تقدير ، فيفيد أنه موصوف بصفة الحق على أية حال.

فهو دين الله ، وهو دين الحق ، وهو الدين الحق ، فيكون قد جمع بالإضافة أكثر من معنى. ولو وصف الدين بالحق فقال: (الدين الحق) لفات أكثر هذه المعاني.

وقد تقول: ولم ختمت الآية السابقة بقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ، وختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؟

والجواب: أن خاتمة كل آية مناسبة لما ورد فيها ، ذلك أن أصل معنى الكافر في اللغة من كفر إذا ستر وغطى ، ومنه سمي الزارع كافرًا ؛ لأنه يستر الحب ويغطيه ، وسمي الليل كافرًا لأنه يستر ما فيه.

والكفر: الظلمة ، فلما قال ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾: كان معنى ذلك أنهم يريدون أن يبدلوا النور ظلامًا ، فكان ذلك كفرًا بالمعنى اللغوي ، فكان قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ههنا أنسب.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن الكفر أعم من الشرك ، فكل مشرك كافر وليس كل كافر مشركًا ، وأن النور أعم من الرسول والدين ، فجعل العام بمقابل العام ، والخاص بمقابل الخاص ، فلما ذكر النور ذكر في مقابله الكفر ، ولما ذكر الرسول والدين ذكر في مقابله الشرك.

جاء في (التفسير الكبير): «قال في الآية المتقدمة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ، وقال في المتأخرة: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ فما الحكمة فيه؟

فنقول: إنهم أنكروا الرسول وما أنزل إليه وهو الكتاب، وذلك من نعم الله، والكافرون كلهم في كفران النعم، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولأن لفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، والمراد من الكافرين ههنا اليهود والنصارى والمشركون، وهنا ذكر النور وإطفاءه، واللائق به الكفر؛ لأنه الستر والتغطية...

وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق، وذلك منزلة عظيمة للرسول عليه السلام، وهي اعتراض على الله تعالى...

والاعتراض قريب من الشرك... ولما كان النور أعم من الدين والرسول لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام، والإرسال والرسول والدين أخص من النور قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين» (١).

وهناك لطيفة نذكرها في تناسب التعبير بين الآيتين وهي:

١ ـ أنه قال في الآية السابقة: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، وقال في هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾. فجعل النور بإزاء الهدى ذلك أن النور إنما هو للهدى، والخلْق إنما يهتدون بالنور، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

٢ ـ أضاف النور إلى الله في الآية السابقة فقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/٣١٦ ـ ٣١٧.

﴿ٱللَّهِ﴾ ، وأضاف الرسول إلى نفسه سبحانه في هذه الآية فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾.

٣ ـ قال في الآية السابقة: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ، وإتمام نوره يعني نصره وإظهاره على الدين كله ، والله أعلم.

قد تقول: لقد قال الله في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] ولم يقل: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ كما قال في سورتي الصف والتوبة ، فلم ذاك؟

والجواب: أنه لم يذكر في سياق آية الفتح محادّة المشركين ولا محاربتهم كما ذكر في سياق آيتي التوبة والصف ، ولم يقل قبل هذه الآية: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أو نحو ذلك كما قال في سورتي التوبة والصف ، وإنما قال قبلها: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] فلم يقتض ذلك أن يقول: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ كما قال في السورتين.

لقد ذكر قبل آية الفتح الوعد بدخول المسجد الحرام آمنين ـ كما ذكرنا ـ ، وهذا تم بالاتفاق بينهم وبين المشركين في صلح الحديبية ، فلم يقتض قول: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ من كل وجه ، والله أعلم.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

خاطب الذين آمنوا بأسلوب التشويق قائلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ ﴾ ووصف التجارة بأنها (تنجي من عذاب أليم)، وبدأ بالإنجاء من العذاب الأليم قبل ذكر إدخال الجنات، ذلك أن النجاة من العذاب الأليم أهم، فإن الإنسان إذا كان معذبًا فلن يهنأ بعيش وإن كان في النعيم، وقد يتمنى المرء الموت للاستراحة من العذاب، فبدأ بما هو أهم. وقد سمى الله النجاة من العذاب فوزًا، كما سمى دخول الجنة فوزًا، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٥ ـ ١٦]، وهذا هو الفوز الأول لأصحاب هذه التجارة.

وقد أسند الفعل (أدلّ) إلى نفسه سبحانه وذكر المفعول به فقال (أدلكّم)، وإسناد الفعل إلى نفسه وذكر المفعول به يدلاّن على الاهتمام بأمر المؤمنين ومحبة الله لهم، فإن الذي يدل شخصًا على ما ينفعه إنما هو محبّ له ويطلب له الخير، فهو لم يقل: (هل أدلّ) بالإطلاق، وإنما قال: (هل أدلكم) بتخصيص الدلالة لهم. ولم يقل: (هل تُدلّون) ببناء الفعل للمجهول فيكون الدالّ مجهولاً، ولكن أسند الدلالة إلى نفسه.

ثم إنه لم يقل: (قل يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم) فيكون القائل والدالّ هو الرسول، وإنما قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ فكان القائل والدالّ للمؤمن هو الله سبحانه.

ثم إن ذكر المفعول به لفعل الإنجاء (تنجيكم) له دلالته في إمحاض

النصح وحب الله للمؤمنين ، فإنه يريد أن ينجيهم من العذاب ، فهو لم يقل: (هل أدلكم على تجارة تنجي من عذاب أليم) بل أراد نجاتهم هم. وقال: (تُنْجيكم) بتخفيف الجيم ، ولم يقل (تُنَجّيكم) بالتشديد ، للدلالة على سرعة الإنجاء وعدم التلبث والمكث في العذاب[1].

وقال: ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾ بتنكير العذاب ، ولم يقل: (من العذاب) ليشمل كل عذاب ولئلا يخص عذابًا معينًا ، ووصفه بأنه (أليم) والعذاب الأليم قد يكون نفسيًّا وبدنيًّا وظاهرًا وباطنًا ، فشمل بذلك كل أنواع العذاب. ثم إنه أطلق العذاب ولم يقيده في الدنيا أو في الآخرة ، وذلك للدلالة على أن هذه التجارة تنجي من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة. أما من لم ينتفع بها ولم يعمل بها فإنه سيطاله العذاب في الدنيا والآخرة ، فإن من يترك الجهاد ستدوسه القوى الغاشمة وتسحقه ، وقد تستبيحه حتى تخرجه من داره وماله.

فعبر بالآية عن كل ما يدل على تكريم المؤمنين وحب الله لهم:

١ ـ فقد قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ ولم يقل: (قل هل أدلكم) للدلالة على أن القائل هو الله ، وأن الذي عرض ذلك هو الله وليس رسوله.

٢ ـ وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ بالاستفهام الدال على التشويق.

٣ ـ وقال: ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ بإسناد الدلالة إلى نفسه.

٤ ـ وقال: ﴿تُنجِيكُم﴾ فقيد الفعل بضمير المخاطبين ليفيد أن الدلالة مختصة بهم.

٥ ـ وقال: ﴿تُنجِيكُم﴾ بالتخفيف ، ولم يقل: (تُنجّيكم) بالتشديد.

٦ ـ وقال: ﴿تُنجِيكُم﴾ فقيد الإنجاء بضمير المخاطبين للدلالة على

---

(١) انظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص ٧٥ وما بعدها.

حب الخير للمؤمنين وإمحاض النصح لهم.

٧ ـ وقال: ﴿مِّنْ عَذَابٍ﴾ فنكر العذاب ليشمل كل أنواعه.

٨ ـ وقال: ﴿أَلِيمٍ﴾ ليشمل كل مؤلم منه.

٩ ـ وأطلق العذاب ليشمل عذاب الدنيا والآخرة.

* * *

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

فسر التجارة بما ذكر من الإيمان والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ولم يقل: (أن تؤمنوا بالله ورسوله) وذلك لأكثر من فائدة:

منها: أن (أن) تفيد الاستقبال، فلو كان ذكرها لكان يعني أن طلب الإيمان إنما يكون في المستقبل، مع أن الإيمان ينبغي أن يكون في الحال.

ومنها: أنه لو قال: (أن تؤمنوا بالله) لكان المصدر المؤول إما أن يكون بدلاً من التجارة، أو خبرًا عن مبتدأ محذوف، على تقدير (هي أن تؤمنوا)، وعلى التقديرين يكون عدم ذكر (أن) أولى، ذلك أنه إذا كان بدلاً يكون التقدير (هل أدلكم على أن تؤمنوا بالله ورسوله) على تقدير تكرار العامل أو إحلاله محل الأول، وإذا كان ذلك كذلك فلا يصح أن يقول: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . . .﴾ إلخ؛ لأن الدلالة على الشيء لا تعني القيام به، فإنك إذا دللت امرءًا على خير لم يفد أن صاحبك فعل ما دللته عليه، وأن الدلالة على هذه التجارة لا يعني غفران الذنوب وإدخال الجنة والنصر، وإنما العمل بهذه التجارة هو الذي يؤدي إلى ذلك، فقال: (تؤمنون) و(تجاهدون) أي تفعلون ذلك.

وكذلك إذا كان التقدير خبرًا عن مبتدأ محذوف ، أي : هي أن تؤمنوا ، فذلك أيضًا لا يؤدي إلى مغفرة الذنوب وإدخال الجنة والنصر ، وإنما ذلك هو تفسير لما دلّهم عليه فقط ، فقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ . . . ﴾ أي تفعلون ذلك .

ثم إن قوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ . . . ﴾ من دون (أن) يفيد الطلب بمعنى آمنوا ، وعدل عن الأمر الصريح إلى الخبر للدلالة على أنهم كأنهم امتثلوا لما أمرهم به فهم يفعلونه ، ويدلك على أن هذا الفعل بمعنى الطلب قوله : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . . . ﴾ بجزم (يغفر) ، فإنه لو لم يكن (تؤمنون) بمعنى الطلب لم ينجزم (يغفر) .

وقد تقول : ولكن قد تقدم الطلب وهو الاستفهام ، أعني قوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ﴾ فجاز إجابته بالجزم .

فنقول : إن المعنى يأبى ذلك ، فإن الدلالة على التجارة لا تستلزم المغفرة وإدخال الجنة ، وإلا دخل كل الناس الجنة لأنهم دُلّوا على ذلك بوسيلة من الوسائل ، وإنما الذي يفضي إلى الجنة والنصر هو الطاعة .

جاء في (الكشاف) : «فإن قلت : لم جيء به على لفظ الخبر؟ قلت : للإيذان بوجوب الامتثال ، وكأنه امتثل ، فهو يخبر عن إيمان وجهاد موجودين»[1] .

لقد فسر التجارة بأمرين وهما : الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ، وهذا الأمران ينجيان من العذاب الأليم بأنواعه في الدنيا والآخرة .

أما الأول : وهو الإيمان ، فإنه يبعث على الطمأنينة والاستقرار والأمن النفسي والرضا بقضاء الله ، وظاهرٌ أن لفظ (الإيمان) له علاقة

---

(١) الكشاف ٤/ ١٠٠ .

بالأمن، فالنفس المؤمنة إنما هي في أمن وسكينة. وهذا ينجي من العذاب النفسي وعذاب الباطن عمومًا.

وأما الآخر: وهو الجهاد، فهو ينجي من العذاب الظاهر كما ذكرنا، فإن الشعوب التي لا تجاهد شعوب خانعة مستضعفة، فدل على أن هذه التجارة تنجي من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾

ذكر (في سبيل الله) لأنه الغرض من الجهاد، وكل جهاد في غير سبيله فهو باطل لا يفضي إلى جنة ولا ينجي من العذاب الأليم.

وقدم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأموال والأنفس، لأنه أهم منهما ههنا.

وقد تقول: ولكنه قدم الأموال والأنفس على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في مواطن أخرى، فقد قال في (الأنفال) مثلاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وقال في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فلم ذاك؟

والجواب: أن ذلك بحسب ما يقتضيه السياق، فقد يقتضي السياق تقديم كلمة في موضع، ويقتضي تأخيرها في موضع آخر.

فإذا كان السياق في حب المال وجمعه مثلاً قَدَّم المال، وإذا كان السياق في القتال والجهاد قَدَّم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، أو لغير ذلك من مقتضيات التقديم والتأخير. ففي سورة الأنفال مثلاً قدم المال لأنه «تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة من مثل قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧]، وهو المال الذي فدى الأسرى به أنفسهم، وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] أي من

الفداء ، وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] ، وغير ذلك فقدم المال ههنا، لأن المال كان مطلوبًا لهم حتى عاتبهم الله في ذلك فطلب أن يبدؤوا بالتضحية به»[١].

وكذلك التقديم والتأخير في سورتي الصف والحجرات ، فإن السياق في كل منهما يقتضي تقديم ما قدم ، ذلك أن الكلام في الحجرات على المؤمنين وصفتهم ، فقدَّم ما يتعلق بهم وهو أموالهم وأنفسهم ، وأن الكلام في آية الصف على التجارة التي تنجي من عذاب أليم فقدم ما يتعلق بها وهو ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ . هذا إضافة إلى أنه تقدم ذكر القتال في سبيله في أول السورة وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ وأن جو السورة يشيع فيه ذكر القتال ، فاقتضى ذلك تقديم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأموال ، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أي إن الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس خير من إيثار الراحة والقعود. صحيح أن القتال مكرّه إلى النفوس مبغّض إليها كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] ولكن في هذا المكروه خيرًا كثيرًا ، فإن الأمة المجاهدة القوية تحمي نفسها وحقها ، بخلاف الأمة القاعدة الخانعة فإنها تستعبد لكل غاز.

وقال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ولم يقل: (ذلك) ؛ لأنه أراد أن الخير للأمة جميعها وليس لفرد أو فئة ، وعلى سبيل الدوام وليس لوقت محدود.

وقد تقول: ولكن الله خاطب المؤمنين في موضع آخر وأشار بـ (ذلك)

---

(١) التعبير القرآني ٨٢ ـ ٨٣ ، وانظر البرهان للكرماني ٢٠٣ ، درة التنزيل ١٨٩ ـ ١٩٠.

لا بـ (ذلكم) ، فقد قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المجادلة : ١٢] فما الفرق؟

والجواب : أن الفرق ظاهر ، فإن المخاطبين بآية الجهاد هم عموم المؤمنين إلى يوم القيامة ، بخلاف آية تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول .

هذا إضافة إلى أن آية الجهاد أعم حتى في زمن الرسول ، فإن الجهاد يشمل الغني والفقير ، فقد يجاهد الشخص بماله ونفسه ، وقد يجاهد بماله فقط ، وقد يجاهد بنفسه ، على حسب استطاعته ، كما قال تعالى : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا ﴾ [التوبة : ٤١] ، بخلاف آية الصدقة فإنها تخص الأغنياء الذين يناجون الرسول خاصة .

هذا إضافة إلى أن آية تقديم الصدقة هذه نسخت بعد ذلك بمدة وجيزة وانتهى حكمها ، فقد قال تعالى بعد هذه الآية : ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المجادلة : ١٣] أما آية الجهاد فهي آية محكمة سارٍ حكمها إلى يوم الدين ، فكان ما جاء فيها أهم وأعم وأشمل ، والله أعلم .

إن ذكر آية الجهاد هذه بعد قوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ يدل على أن إظهار الله لدينه إنما يكون بالجهاد لا بكونه هدى ودين الحق فحسب ، فإن ذلك وحده لا يظهر عقيدة أو فكرة بل لا بد لها من حَمَلة يجاهدون في سبيلها ، وقد وعد الله بأنه سيظهر دينه على الدين كله ، ومعنى ذلك أنه علم أن هذه الأمة ستجاهد في سبيله حتى يظهر الله دينه .

وقد تقول : ولكن الله قال في سورة التوبة ذلك ولم يعقب الآية

بالجهاد فكيف يصح استدلالك هذا؟

فنقول: كيف يصح هذا القول وسورة التوبة مشحونة بذكر الجهاد والقتال من أولها إلى آخرها؟ فقد تقدم الآية ذكر غزوة حنين، وقال بعدها: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال بعدها: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة: ٣٨] ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [التوبة: ٣٩] ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: ٤١]... إلى الآية ٥٢.

وذكر بعد ذلك ما يتعلق بالجهاد والقتال أيضًا إلى أواخر السورة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: ١٢٣]. فالسورة من أولها إلى آخرها تكاد تكون في الجهاد، فاتضح ما قلناه، والله أعلم.

* * *

﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾.

قال: ﴿يَغۡفِرۡ﴾ بالجزم، وذلك يدل على أن قوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ طلب وليس إخبارًا. وقال: (ذنوبكم) ولم يقل: (من ذنوبكم) ليدل على أنه بذلك يغفر الذنوب كلها لا بعضها. ثم قال: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وتلك عاقبة من يغفر ذنبه.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ فوصف المساكن بأنها طيبة «وإنما خصت المساكن

بالذكر هنا ؛ لأن في الجهاد مفارقة مساكنهم ، فوعدوا على تلك المفارقة الموقتة بمساكن أبدية»[١] .

واختيار ذكر ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ ﴾ ههنا له دلالته أيضًا ، فإن معنى (عدن): الإقامة والبقاء ، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به ، والإنسان يحب الحياة ويؤثر البقاء ويكره القتال ؛ لأنه مظنة مفارقة الحياة وما فيها ، فذكر له أن المجاهد إنما هو ذاهب إلى مساكن أطيب من مسكنه في دار البقاء ، فهو إذن يجاهد للبقاء والإقامة الطيبة ، فاختيار ذكر المساكن وجنات عدن ههنا اختيار له دلالته .

والقرآن يختار بدقة ما يقتضيه المقام والسياق ، ونحو هذا الاختيار ما ورد في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ۝٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [التوبة: ٢٠ ـ ٢٢] ، فذكر أن لهم جنات فيها نعيم مقيم ، واختيار النعيم المقيم له دلالته ههنا ، وذلك أن هؤلاء لما هاجروا وتركوا مساكنهم جزاهم الإقامة في النعيم ، فإن المهاجر لا بد أن يقيم ويستريح فجعل ذلك في النعيم المقيم .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

وهذا هو الفوز الثاني ، والفوز الأول هو النجاة من النار ، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ﴾ ولم يقل: (ذلك فوز) للدلالة على قصر الفوز عليه وأن كل ما عداه ليس بفوز ، ووصفه بـ (العظيم) للدلالة على عظمة الفوز .

قد تقول: لقد قال ههنا : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ﴾ ، وقال في سورة التوبة في آية

---

(١) التحرير والتنوير ج ٢٨/ ١٩٥ .

شبيهة بها : ﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فأكد القصر بضمير الفصل وذلك في قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] فما الفرق؟

والجواب : أن النظر في النصين يوضح الفرق وسبب التعبير بكل منهما :

١ ـ لقد قال في آية الصف : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، وقال في آية التوبة : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فوصفهم بأنهم مؤمنون ولم يطلب منهم الإيمان ويندبهم إليه ، وذكر ذلك بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت .

٢ ـ وقال في آية الصف : ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ﴾ ، وقال في التوبة : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ فلم يبق لهم مال ولا نفس فقد اشتراها الله منهم ، أما المذكورون في آية الصف فهم يجاهدون بها ، فلا تزال أموالهم وأنفسهم لهم ، فلم يذكر أنهم باعوها له .

٣ ـ ذكر في آية الصف أنهم يجاهدون في سبيل الله ، وقال في آية التوبة : ﴿ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ والمقاتلة مظنة القتل ، أما الجهاد فهو عام ومنه القتال ، وقوله : (يقاتلون) مناسب لاشتراء الأنفس .

٤ ـ وذكر في التوبة أنهم يَقتلون ويُقتلون ، ولم يذكر مثل ذلك في آية الصف .

فكانت التضحية في التوبة أعلى مما في الصف ، والفوز إنما يكون على قدر التضحية ، فلما زادوا في التضحية زاد لهم في الفوز وأكده ، والله أعلم .

ثم إنه قدم في صفقة الشراء الأنفس على الأموال ؛ وذلك لأن الأنفس أغلى وأهم من المال ، فباعوا أنفسهم أولاً ، وهي أثمن شيء ، ثم أتبعوها المال ، وما قيمة المال إذا فقد المرء نفسه؟ وماذا يعمل به؟ فاقتضى كل تعبير ما هو في موضعه.

* * *

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي ونعمة أخرى محبوبة عندكم وهي النصر من الله والفتح القريب ، ومعنى ذلك أن النصر لا يأتي من دون جهاد.

وقوله: (تحبونها) له دلالته الخاصة في السورة ، ذلك أنه قال في أول السورة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ ﴾ فكأنه قال: افعلوا ما يحبه الله يعطكم ما تحبون ، وهو النصر والفتح القريب.

ولقوله: (تحبونها) دلالة أخرى ، ذلك أنه لم يقل: (هل أدلكم على تجارة تحبونها) فإن في بعض تلك التجارة كرهًا وهو القتال ، فكأنه قال: أطيعوا الله بما يحب وتكرهون يعطكم ما تحبون.

ثم إنه قال: ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ ليدل على أن النصر إنما هو من الله وليس بجهادكم وعدتكم ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران: ١٢٦] ووعدهم إن فعلوا ذلك بأمرين محبوبين: النصر والفتح القريب ، ثم قال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ للدلالة على أن ذلك كائن وحاصل.

لقد أمر الله رسوله أن يبشر المؤمنين بالنصر والفتح القريب. ولم يجعل البشارة داخلة في جواب الشرط أو الطلب ، وإنما هي أمر بالتبليغ لما هو حاصل قطعًا ، ومعلوم أن البشارة لا تكون إلا لما هو حاصل قطعًا ، وقد حصل ما بشر به ، فدل على صدقه ﷺ.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

قيل: معنى ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾: من يضيف نصرته إلى نصرة الله إياي؟ وقيل معناه: من يكون معي في نصرة الله؟

وعلى هذا يكون معنى التفسير الأول: إن الله ينصرني، فمن يكون مع الله لينصرني؟

وعلى التفسير الثاني يكون المعنى: أنا أنصر الله، أي: أنصر دينه فمن يكون معي لننصر الله؟

وهذان المعنيان يتضمنهما قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ فالمؤمن ينصر الله والله ينصره، فقوله: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ يحتمل أن المسيح طلب من ينصره إضافة إلى نصرة الله، كما يحتمل أنه طلب من ينصر الله إضافة إلى نصرته له.

وقولهم: ﴿ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ يصح أن يكون الجواب عن المعنيين.

جاء في (الكشاف): «معنى (من أنصاري) من الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله، ولا يصح أن يكون معناه: من ينصرني مع الله؛ لأنه لا يطابق الجواب»[١].

وجاء في (مجمع البيان): «﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾: من أنصاري مع الله ينصرني مع نصرة الله إياي؟

وقيل: ﴿ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ أي فيما يقرب إلى الله، كما يقال: اللهم منك

---

(١) الكشاف ٤/ ١٠١.

وإليك»[١] ، فكل من الزمخشري والطبرسي ذكر جانبًا من جوانب النصرة ، والله أعلم.

إن من الملاحظ في هذه الآية :

١ ـ أنه بعد أن شوّقهم لذكر التجارة عن طريق الاستفهام لم يكتف بذاك ، وإنما أمرهم أن يكونوا أنصار الله فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ ليعلموا أن ذلك من باب الأمر والتكليف ، وليس من باب الاختيار والمندوب.

٢ ـ إن الذي قال للحواريين : (من أنصاري) هو عيسى ، أما القائل للمؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ فهو الله ، وذلك يدل على عظم التبليغ للمؤمنين وأهميته.

٣ ـ لم يقل : (يا أيها الذين آمنوا قولوا نحن أنصار الله كما قال الحواريون) ولكنه قال : ﴿ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ فإنه طلب الفعل ولم يطلب القول ، وهذا مناسب لتأنيبه لمن قال ولم يفعل في أول السورة.

٤ ـ إن الحواريين لم يقولوا : (سنكون أنصار الله) وإنما قالوا : ﴿ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ أي نحن أنصاره الآن ، ولذا قال : (فأيدنا) وذلك أنهم قاموا بالنصرة فعلاً فاستحقوا التأييد ، وجاء بالفاء الدالة على التعقيب ، ولم يقل : (ثم أيدنا) الدالة على التراخي.

٥ ـ قال : (فأيدنا) بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه ليدل على أن التأييد منه سبحانه ، كما قال : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ [محمد: ٧] بإسناد النصر إليه ، ولم يقل : (إن تنصروا الله تنتصروا) فإن النصر لا يكون إلا منه سبحانه.

---

(١) مجمع البيان ٩/ ٤١٨.

وهذا التأييد يحتمل أمرين: التأييد بالحجة، فأصبحوا ظاهرين في حجتهم، والتأييد بالسيف والغلبة وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام.

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي قويناهم بالحجة أو بالسيف، وذلك بعد أن رفع عيسى عليه السلام، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين» (١).

إن هذا التعبير مرتبط بقوله في أول السورة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كما سبق أن ذكرنا.

فإن قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ إذا كان بمعنى غلبة السيف والظفر مرتبط باسمه (العزيز)، ومرتبط باسمه (الحكيم) من الحكم.

وإذا كان بمعنى غلبة الحجة فهو مرتبط باسمه (الحكيم) من الحكمة، فهو مرتبط باسميه العزيز الحكيم أيًّا كان نوع التأييد، فارتبط آخر السورة بأولها.

٦ ـ لقد طلب من المؤمنين عامة أن يكونوا كحواريي عيسى في نصرة الله، والحواريون هم الخلّص من أتباع السيد المسيح.

فهو طلب من المؤمنين عامة على مَرِّ الأزمان أن يكونوا كالحواريين، فقد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولم يقل: (يا أصحاب محمد) ومعنى هذا أنه يطلب من عموم المؤمنين أن يكونوا على درجة عظيمة من الرفعة والإخلاص والجهاد.

٧ ـ قال عيسى: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ بإضافة الأنصار إلى نفسه فارتبطت النصرة به، وقال الله: ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (كونوا أنصار محمد إلى الله) وذلك ليشمل الطلب عموم المؤمنين، ولئلا ترتبط النصرة

---

(١) تفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٦.

بشخص الرسول (محمد).

ثم إنه لما كان قول عيسى موجهًا إلى الحواريين ـ وهم خاصة أتباعه ـ قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ﴾ بالتخصيص ، ولما كان الكلام موجهًا إلى المؤمنين عامة قال: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ على العموم.

٨ ـ إن قول عيسى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ إلماح إلى أن رسالته منقطعة، فإنه أضاف الأنصار إليه ، وهذا يدل على أنه بعد توفيه ستنقطع نصرته.

وأما قول الله للمؤمنين: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ فيدل على أن الرسالة دائمة غير منقطعة ؛ لأن الإضافة إلى الله لا إلى شخص معين.

٩ ـ قال عيسى: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ فقال الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ ولم يقولوا: (نحن أنصارك إلى الله) وذلك للإعلام بأنهم يكونون أنصار الله بعده ولا تنقطع النصرة بعد ذهابه ، فعزموا على نصرة الله سواء كان موجودًا أم لم يكن.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (من أنصار الله) حتى يكون الجواب ملائمًا؟ والجواب: أنه لو قال: من أنصار الله؟ لادّعى كل أحدٍ أنه من أنصار الله ، ولقال اليهود: نحن أنصار الله ، ولكنه قال: (من أنصاري) لتكون نصرة الله عن طريق نصر النبي الجديد ، فكان سؤاله أنسب وجوابهم أنسب.

١٠ ـ إن قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدل على أنه سيؤيد المؤمنين من أتباع الرسول محمد ، فقد ناداهم بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾فدخلوا في التأييد.

١١ ـ ثم إن بشارة المسلمين أعظم ، فإنه قال في أتباع عيسى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فخص ذلك بالتأييد على العدو ، وقال في المسلمين: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨] وإظهار دينه إنما يكون بظهور معتنقيه ، وزاد لهم النصر والفتح القريب ، فزاد على النصر الفتح القريب.

١٢ ـ من الملاحظ أن عيسى لم يعد أتباعه بشيء ، وقد وعد الله المؤمنين بالنصر والفتح القريب.

١٣ ـ ورد في الآية نسبة عيسى إلى أمه كما ورد في مكان آخر من السورة ، كما ورد فيها طلب النصرة ، وكلا هذين الأمرين يدل على أن عيسى بشر وليس ابناً لله ، تعالى عن أن يكون له ولد.

وفي الختام نود أن نقول: إن السورة ابتدأت بالجهاد والقتال ، واختتمت بالتأييد والظفر ، فقد ابتدأت بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ واختتمت بقوله: ﴿ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ ﴾ مما يدل على أن عاقبة الجهاد تأييد الله ونصره ، فارتبط أول السورة بآخرها أحسن ارتباط وأوثقه.



سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (١) لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ
شَيۡءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ
مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٤) لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٥) يُولِجُ ٱلَّيۡلَ
فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٦) ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ
مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ (٧) وَمَا لَكُمۡ لَا
تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٨) هُوَ
ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ
رَّحِيمٞ (٩) وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ
أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ
ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ (١٠) مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ
وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ (١١) يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ
ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (١٢) يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ
وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ
بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ
قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ

وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ
مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا
نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ
رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى
ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ
ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ
أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ
ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ
بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا
مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ
شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ
مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً
ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

* * *

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

وجه ارتباط مفتتح السورة هذه بخاتمة السورة قبلها ظاهر ، ذلك أنه قال في خاتمة السورة التي قبلها وهي سورة الواقعة: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقال ههنا: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فكأنه تعليل لأمره بالتسبيح ، فكأنه قال: لقد سبحه ما في السماوات والأرض فسبحه أنت أيضًا كما سبحه أولئك ، فتشترك معهم في التسبيح وتوافقهم في تنزيهه سبحانه.

جاء في (روح المعاني): «ووجه اتصالها بالواقعة أنها بدئت بذكر التسبيح وتلك ختمت بالأمر به، وكان أولها واقعًا موقع العلة للأمر به ، فكأنه قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ لأنه سبح له ما في السماوات والأرض» [1].

والتسبيح معناه التنزيه ، وقد مر في سورة الصف تفسير نحو هذه الآية فلا نعيد القول فيها ، غير أنه في هذه الآية لم يكرر (ما). فلم يقل: (وما في الأرض) ، وقد ذكرنا في أكثر من موضع أنه حيث كرر (ما) في آيات التسبيح أعقب ذلك بالكلام على أهل الأرض ، وإذا لم يكرر (ما) فإنه لا يذكر شيئًا يتعلق بأهل الأرض بعدها ، وحيث إنه لم يذكر بعدها شيئًا يتعلق بأهل الأرض لم يكرر (ما).

كما ذكرنا أن كل سورة تبدأ بالفعل الماضي ، أي (سبّح لله) يجري

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ١٦٤.

فيها ذكر للقتال ، بخلاف ما يبدأ بالفعل المضارع ، أي (يسبّح لله) ، وقد بدأت هذه السورة بالفعل الماضي ، وقد جرى فيها ذكر للقتال وهو قوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ ﴾ [الآية : ١٠] .

وقد ورد فعل التسبيح معدى بنفسه كما في قوله: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٢] ومعدى باللام كما في هذه الآية ، وقد ذكر أن اللام إما أن تكون لتقوية وصول الفعل إلى المفعول ، وإما أن تكون لام التعليل(١) ، وأن تعديته باللام تفيد الدلالة على الإخلاص(٢) ، ذلك أن التسبيح إنما هو لله .

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

عرف الاسمين الجليلين للدلالة على القصر فلا عزيز إلا هو ، ولا حاكم ولا حكيم إلا هو ، «فهذا يقتضي أنه لا إله إلا الواحد ، لأن غيره ليس بعزيز ولا حكيم ، وما لا يكون كذلك لا يكون إلهًا» (٣) .

وقد مَرَّ تفسير نحو هذا بما فيه الكفاية في سورة الصف .

﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ ﴾

ذكر أولاً أنه سبَّح له ما في السماوات والأرض ، ثم ذكر أنه له ملك السماوات والأرض ، وهذا يقتضي أنه مِلِكُ ما فيهما أيضًا ، إذ لا يكون الملك إلا على رعية ، فلما ذكر أن له ملك السماوات والأرض علم أنه ملك من فيهما .

---

(١) انظر الكشاف (دار الفكر) ٤/ ٦٠ ، البحر المحيط (دار الفكر) ١٠/ ١٠٠ ، تفسير الرازي ٢٩/ ٢٠٧ .
(٢) نظم الدرر ٧/ ٤٣٢ .
(٣) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٠٨ .

وقد أفاد تقديم الجار والمجرور (له) وتعريف المبتدأ (ملك السماوات) القصر ، فلا ملك لأحد سواه على الحقيقة .

ومجيء هذه الآية بعد آية التسبيح أنسب شيء ، فإن الشخص قد يحمد في ذاته إن لم يكن مالكًا أو ملكًا ، فإن ملك شيئًا أو ملك عليه فقد يظهر عليه ما لم يكن ظاهرًا ، أو يتغير بتغير الحال فيذم ويعاب ، أو قد يقصّر في ملكه أو يسيء ، ولذا كان مجيء هذه الآية أنسب شيء ؛ لأنه ذكر أنه منزّه في جميع الأحوال ، فهو منزه في ذاته ، ومنزه في عزته ، ومنزه في حكمه وحكمته ، ومنزه في ملكه ، ومنزه في إحيائه وإماتته ، ومنزه في قدرته ، فدل ذلك على أنه لا يفعل ذلك إلا عن كمال حكمة وتمام تدبير ، وأنه له الكمال المطلق في كل شيء ، فاستحق التنزيه في ذاته وفي أفعاله وصفاته .

جاء في (تفسير التحرير والتنوير) في قوله : ﴿ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ : «ومضمون هذه الجملة يؤذن بتعليل تسبيح الله تعالى ؛ لأن من له ملك العوالم العليا والعالم الدنيوي حقيق بأن يعرف الناس صفات كماله .

وأفاد تعريف المسند إليه قصر المسند على المسند إليه ، وهو قصر ادعائي لعدم الاعتداد بملك غيره في الأرض ، إذ هو ملك ناقص ، فإن الملوك مفتقرون إلى من يدفع عنهم العوادي بالأحلاف والجند ، وإلى من يدبر نظام المملكة من وزراء وقواد ، وإلى أخذ الجباية والجزية ونحو ذلك .

أو هو قصر حقيقي إذا اعتبرت إضافة (ملك) إلى مجموع السماوات والأرض ، فإنه لا ملك لمالك على الأرض كلها بل السماوات معها» [1] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٥٨ (دار سحنون) .

وقد تقول: لقد ذكر في مواطن أخرى من القرآن الكريم أن له ملك السماوات والأرض وما بينهما، كما في سورة المائدة ١٧، ١٨ والزخرف ٨٥ ولم يذكر ذلك ههنا، فما السبب؟

فنقول: إن كل موطن ذكر فيه أن له ملك السماوات والأرض وما بينهما إنما جاء تعقيبًا على القول في الله ما لا يليق به سبحانه، كقول النصارى: إن المسيح ابن الله أو هو الله، أو قول اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فجعلوا أنفسهم أبناء الله.

فيعقب على ذلك بقوله: إن له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فلمَ يتخذ ولدًا؟

إن الذي يتخذ ولدًا إنما به حاجة إلى ذلك، أو يشعر أن به حاجة، فيتخذ الولد لسد الحاجة، أما الله فإن له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فهو ملكهما ومالكهما فلم الولد؟

فيذكر سعة ملكه في نحو هذا الموطن لبيان أن قولهم باطل وأنه غير محتاج إلى الولد، أما ما لم يرد في سياق ذلك فلا يذكر (وما بينهما).

ومن الطريف أن نذكر أيضًا أن كل موطن ذكر فيه (وما بينهما) إنما هو في سياق الكلام على ثلاث ملل، وهن: اليهود والنصارى والمسلمون، بخلاف ما لم يذكر ذلك، فاليهود والنصارى والمسلمون ثلاثة، والسماوات والأرض وما بينهما ثلاثة، فناسب بين الملل الثلاث ما ذكره من السماوات والأرض وما بينهما.

ففي سورة المائدة مثلاً ذكر الكلام على بني إسرائيل، فقد قال: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ١٢]، وقال بعدها: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة: ١٤]، ثم قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٥].

ومثل ذلك آية الزخرف ، فقد ذكر موسى وفرعون (من ٤٦ إلى ٥٦) ثم ذكر عيسى وتكلم فيه (من ٥٧ إلى ٦٤) ، ثم ذكر عقيدة المسلمين: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ . . .﴾ [الزخرف: ٨١ وما بعدها]؛ **فكان كل تعبير مناسبًا في مكانه.**

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

إن المالك أو الملك قد لا يكون قادرًا على كل شيء فذكر أن الله على كل شيء قدير. والملاحظ أنه إذا عمم القدرة فقال: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أو أطلقها لم يأت إلا بصيغة تفيد المبالغة ، ولم يأت باسم الفاعل (قادر) ، فإن المقدرة على كل شيء أو القدرة المطلقة غير المقيدة تقتضي المبالغة ولا يفيدها اسم الفاعل.

أما إذا جاء باسم الفاعل (قادر) فإنه لا يطلقه ولا يعممه ، بل يقيده بأمر فيقول مثلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ [الأنعام: ٣٧] ، أو يقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥].

* * *

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ أي ليس لوجوده بداية وهو قبل كل شيء.

(والآخر) أي ليس لوجوده نهاية وليس بعده شيء ، وهذا مقتضى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

(والظاهر) أي الذي تجلى للعقول ونصب الدلائل الظاهرة على وجوده ، وهو الغالب العالي على كل شيء وفوق كل شيء ، فليس معه شيء وليس فوقه شيء ، من الظهور وهو الغلبة ، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤] ، **فللظاهر معنيان كلاهما مراد: الظاهر**

بدلائله ، الغالب على كل شيء .

(والباطن) أي غير المدرك بالحواس المحتجب عن الأبصار ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ، وهو الذي يعلم بواطن كل شيء وخفاياه .

فللباطن معنيان : المحتجب عن الأبصار ، والذي يعلم باطن كل شيء ، وكلاهما حق ، وإن كان أحد المعنيين أظهر من الآخر .

وتعريف الصفات بـ(أل) يفيد القصر ، فلا يشاركه شيء في هذه الصفات ، فليس معه أول ولا آخر ، وليس معه ظاهر ولا باطن، فهو أول كل شيء وآخر كل شيء، يزول كل شيء ولا يزول، وليس معه أحد في كونه ظاهرًا أو باطنًا .

ولم يقيد هذه الصفات بشيء ، لا بإضافة ولا بوصف أو أي تقييد آخر ، وذلك للدلالة على أنه الأول المطلق والآخر المطلق ، والظاهر المطلق والباطن المطلق ، لا بحسب شيء من الأشياء .

لقد دلت هذه الآيات على إبطال الشرك ، فليس معه شريك ، كما دلت على أنه الغني المطلق فلا يحتاج إلى شيء لأنه كان قبل كل شيء ، وأنه الخالق وأنه القادر ، ودلّ قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ على علمه المطلق فهو الإله الحق .

جاء في (التفسير الكبير) «أنه الأول ليس قبله شيء ، والآخر ليس بعده شيء . . . وأنه ظاهر بحسب الدلائل ، وأنه باطن عن الحواس محتجب عن الأبصار . . . وذكروا في الظاهر والباطن أن الظاهر : هو الغالب العالي على كل شيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ أي غالبين عالين . . . وهذا معنى ما روي في الحديث (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء) .

وأما الباطن فقال الزجاج: إنه العالم بما بطن، كما يقول القائل: فلان يبطن أمر فلان، أي يعلم أحواله الباطنة»[١].

وجاء في (الكشاف): «﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بالأدلة الدالة عليه ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ لكونه غير مدرك بالحواس... وقيل (الظاهر) العالي على كل شيء الغالب له، من: ظهر عليه إذا علاه وغلبه، والباطن الذي بطن كل شيء، أي علم باطنه، وليس بذاك»[٢].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي ليس لوجوده بداية مفتتحة... وقيل: الأول الذي كان قبل كل شيء...

(الظاهر) العالي على كل شيء الغالب له، من: ظهر عليه، إذا علاه وغلبه، و(الباطن) الذي بطن كل شيء، أي علم باطنه»[٣].

وجاء في (التحرير والتنوير): في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ أنه «لم يذكر لهذا الوصف هنا متعلِّق (بكسر اللام) ولا ما يدل على متعلِّق لأن المقصود أنه الأول بدون تقييد. ويرادف هذا الوصف في اصطلاح المتكلمين صفة (القدم).

واعلم أن هذا الوصف يستلزم صفة الغنى المطلق، وهي عدم الاحتياج إلى المخصص، أي مخصص يخصصه بالوجود بدلاً من العدم، لأن (الأول) هنا معناه: الموجود لذاته دون سبق عدم، وعدم الاحتياج إلى محل يقوم به قيام العرَض بالجوهر، ويستلزم ذلك انفراده تعالى بصفة الوجود؛ لأنه لو كان غير الله واجباً وجوده لما كان الله

---

(١) التفسير الكبير ٢٩/ ٢١٠ ـ ٢١٥.

(٢) الكشاف ٤/ ٦١ (دار الفكر).

(٣) البحر المحيط ١٠/ ١٠٠، (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع).

موصوفًا بالأولية. . . فلذلك تثبت له الوحدانية. . .

فلما تقرر أن كونه (الأول) متعلق بوجود الموجودات اقتضى أن يكون وصفه بـ (الآخر) متعلقًا بانتقاض ذلك الوجود، أي هو الآخر بعد جميع موجودات السماء والأرض»[١].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

أي المحيط علمه بكل شيء وأنه وسع كل شيء علمًا. وقال: (عليم) ولم يقل: (عالم) للدلالة على بالغ علمه وسعته. ومن دقيق الاستعمال القرآني وطريفه أنه خصص اسم الفاعل (عالم) بعلم الغيب مفردًا والشهادة مفردة فيقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ ولم يذكر مرة لفظ (عالم) مع الجمع، فإذا جمع الغيب أتى بـ (علاّم) الدال على المبالغة والكثرة فيقول: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، فخصص اسم الفاعل (عالم) بالمفرد، وقرن صيغة المبالغة (علاّم) بالجمع، فهو يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ وذلك في ثلاثة عشر موضعًا[٢]، وقال: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ في أربعة مواضع من القرآن الكريم[٣]. فناسب بين الصيغة ومتعلقها.

بل إنه خصص لفظ (عالم) بعلم الغيب أو علم الغيب والشهادة، وخصص (علاّم) بجمع الغيب فلم يستعمله مع غيره.

أما (عليم) فقد أطلق استعماله فلم يقيده بمعلوم معين، بل يذكره مع جميع المعلومات، فهو يقول مثلاً: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩، ٢٣١]، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٥، ٢٤٦]،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٦٠ ـ ٣٦١ (دار سحنون).

(٢) انظر على سبيل المثال: الأنعام ٧٣، التوبة ٩٤، ١٠٥، سبأ ٣، الجن ٢٦.

(٣) انظر المائدة ١٠٩، ١١٦، التوبة ٧٨، سبأ ٤٨.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٥]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. أو يطلق الاسم الكريم فلا يخصصه بشيء وذلك نحو ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧]، ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة ٢٤٧، ٢٦٨، آل عمران ٧٣].

ومن الملاحظ أيضًا أنه حيث ذكر اسمه (العيلم) فإما أن يطلقه كما ذكرنا فلم يقيده بشيء نحو ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أو ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، أو أن يجعله محيطاً بكل شيء نحو ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أو ﴿ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾.

أو أن يستعمله مع الجمع أو فعل الجمع وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥، ٢٤٦]، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١١٥]، ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٣] فاستعمله مع الجمع.

ونحو ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فقد جمع الصدر. وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠] فأضاف الكيد إلى ضمير الجمع. أو أن يقول: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ونحو ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

فقد جمع الفاعل فقال (تفعلوا) ولم يقل: (تفعل)، ونحوه (تنفقوا) و(تعملون). ولم يرد استعمال اسم الله (العليم) مع متعلق مفرد أو فعل فاعل مفرد، وهو تناسب لطيف بين المبالغة في الاسم الكريم وكثرة متعلقات الفاعلين.

وبهذا يتبين أنه خصص اسمه:

(العالم): بعلم الغيب المفرد، أو الغيب والشهادة المفردين.

واسمه (العلاّم): بعلم الغيب مجموعًا فيقول: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

أما اسمه (العليم): فإنه أطلق فيه العلم بالمعلومات عمومًا ولم يخصصه بنوع من المعلومات معين. أو أن يطلق الاسم فلا يقيده بشيء، أو يستعمله مع الجمع أو فعل الجماعة.

وأما إذا ذكر اسمه بصيغة الجمع (عالمين) فإنه للتعظيم كما هو معلوم، وهذا من دقيق الاستعمال القرآني وخواصه، وهو من أوضح الأمور على القصد في التعبير القرآني.

إن هذه الآية ـ أعني قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ـ مرتبطة بما بعدها ارتباطًا وثيقًا.

فقوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ مرتبط بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فالذي خلق السماوات والأرض هو الأول.

وقوله: (الآخر) مرتبط بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

وقوله: (الظاهر) مرتبط بقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ فالذي له الملك هو الظاهر الغالب في أحد معنييه، وفي المعنى الآخر مرتبط بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فهي آيات دالة على وجوده سبحانه.

وقوله: (الباطن) بمعنى المحتجب الذي لا يدرك، مرتبط بقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾، وبمعنى الذي بطن كل شيء، أي علمه مرتبط بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

* * *

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

لقد دل قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ على أنه هو المالك لهما، إضافة إلى دلالته على أنه الأول.

ودل قوله: ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ أنه الملك الحاكم المسيطر، فهو مالك الملك، أي أن المُلك هو مِلْك له، فهو المالك والملِك.

جاء في (المصباح المنير): «(ملكته) مَلْكًا من باب ضرب، والمِلك بكسر الميم: اسم منه، والفاعل: مالك، والجمع: مُلاّك، مثل كافر وكفّار... ومَلَك على الناس أمرهم: إذا تولى السلطنة، فهو ملِك، بكسر اللام، وتخفف بالسكون، والجمع ملوك، مثل: فلس وفلوس، والاسم: المُلْك، بضم الميم» (١).

ولما كان كل من الملك والمالك ينبغي أن لا يندّ عنه شيء في ملكه ذكر أنه ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فكان ذلك الكمال الأعلى في الملك والتملك، فهو لا يندّ عنه شيء في ملكوته، وإنما يعلم كل شيء عن المسكن والساكن في السماء والأرض. وليس ذلك فقط، وإنما هو يبصر أيضًا ما فيهما، وهذه مرتبة فوق العلم، فإن الفرد قد يعلم عن طريق الإخبار، أما الله سبحانه فهو يعلمه ويشاهده، بل له مرتبة فوق ذلك وهي المعية والمصاحبة، فهو مع عباده أينما كانوا، وهذه مرتبة فوق المشاهدة، وهي مرتبة القرب.

---

(١) المصباح المنير (ملك) ٢٢١.

بل له مرتبة فوق ذلك أيضًا ، وهي أنه بصير بما نعمل ظاهرًا وباطنًا ، فهو يعلم عمل كل عامل ، ويعلم لم عمله؟ وهذه مرتبة فوق المعية ؛ لأنك قد تصاحب إنسانًا وتراه يعمل عملاً ما ولكنك لا تعلم لمَ فعل ذلك ، فذكر أنه تعالى بصير بما يعمل العاملون ، وأنه عليم بذات الصدور .

فذكر كل مراتب العلم وهي :

١ ـ أنه يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، فهو يعلم الداخل والخارج ، والنازل والصاعد .

٢ ـ وأنه مصاحب لنا أينما كنا .

٣ ـ وأنه مبصر لأعمالنا .

٤ ـ وأنه يعلم لم فعلنا ذلك .

فاستوفى كل مراتب العلم ، فناسب ذلك ختام الآية السابقة وهو قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

* * *

﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ ﴾

قال : ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ ﴾ ولم يقل : (ما يولج) ، وقال : ﴿ وَمَا يَخۡرُجُ ﴾ ولم يقل : (ما يُخرج) ، وقال : ﴿ وَمَا يَنزِلُ ﴾ ولم يقل : (ما يُنزِل) ، وقال : ﴿ وَمَا يَعۡرُجُ ﴾ ولم يقل : (ما يُعرج) ، وهذا أدل على العلم ؛ لأن الفرد في العادة يعلم ما يفعله هو ولكنه يجهل ما لم يفعله هو ، أما ربنا فقد أخبر عن نفسه أنه يعلم ما يَلج وما يَخرج وما يَنزل وما يَعرج ، وهذا أدل على العلم .

وقدم ما يَلج في الأرض على ما يخرج منها ، وقدم ما ينزل من السماء

على ما يعرج فيها ، فقدم ما ينزل وما يلج وأخر ما يخرج وما يعرج ، ذلك أن كثيرًا مما ينزل من السماء قد يلج في الأرض ثم يخرج بعد ذلك من الأرض ما يخرج بسببه أو بغيره من الأسباب كالنباتات والينابيع وغيرها ، فالولوج قد يكون سببًا للخروج .

والذي يخرج من الأرض ومحيطها قد يعرج إلى السماء ، فالذي ينزل من السماء قد يلج في الأرض ، والذي يخرج من الأرض ومحيطها قد يعرج إلى السماء ، وذلك أن قوله : ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ يحتمل معنيين :

الأول : أنه يخرج من داخلها كالنباتات والحشرات وغير ذلك ، والآخر : أنه يخرج من دائرتها ومحيطها .

وبدأ بالأرض وأخر السماء ؛ لأن السياق في الكلام على أهل الأرض وهو قوله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهي مسكنهم .

وقد تقول : لقد قال في سبأ نحو هذا ، غير أنه لم يذكر ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ، كما أن خاتمة كل من الآيتين اختلفت عن الأخرى ، فقد قال في سبأ : ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ : ٢] فما السبب؟

والجواب : أن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك .

١ ـ فقد قال في سورة الحديد قبل هذه الآية : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] فجاء في الآية التي قبلها بما يدل على علمه تعالى وإحاطته بكل شيء فقال : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وجاء بعد ذلك بقوله : ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ مما يؤكد هذا المعنى .

ولم يرد في سياق آية سبأ نحو ذلك ، فناسب المجيء بذكر العلم في آية الحديد دون آية سبأ .

٢ ـ قال في آية الحديد: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وهذا مما يدل على المراقبة، ولذا جاء بعدها بما يدل على معرفته بعملنا فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقال في خاتمة الآية في سورة سبأ: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ فختمها بالرحمة والمغفرة، فكأنه أراد أن يرحمهم ويغفر لهم فرفع ذكر المراقبة، ولا شك أن عدم ذكر المراقبة أنسب مع ذكر الرحمة والمغفرة، وأن ذكره أنه بصير بعملنا أنسب مع ذكر المراقبة.

٣ ـ أنه ذكر الآخرة قبل هذه الآية فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ وليست الآخرة وقت عمل أو مراقبة. كما أن الآية بعدها إنما هي في الساعة وهي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فلم يذكر المراقبة ولا أنه بصير بما نعمل في هذا السياق.

وأما آية الحديد فهي في سياق بداية الخلق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو زمان بداية الأعمال واستمرارها ومراقبتها، بخلاف سياق آية سبأ فإنه في طي صفحة الأعمال والمراقبة، فناسب كل تعبير موطنه.

٤ ـ إن جو سورة الحديد تردد فيه ذكر العلم والمراقبة بصور شتى، فقد قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الآية: ٣]، وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الآية: ٤]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الآية: ٤]، ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الآية: ٦]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الآية: ١٠] ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية: ٢٢]، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية: ٢٥].

وشاع في سورة سبأ ذكر الآخرة من مثل قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [الآية: ١]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [الآية: ٣]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الآية: ٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [الآية: ٥]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الآية: ٧]، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ [الآية: ٨]، ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ﴾ [الآية: ٢١]، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾ [الآية: ٢٣]، ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الآية: ٢٦]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الآية: ٢٩]، ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الآية: ٣٠]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ...﴾ [الآيات: ٣١ ـ ٣٣]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الآيتان: ٣٧ ـ ٣٨]، ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا...﴾ [الآيات: ٤٠ ـ ٤٢]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ...﴾ [الآيات: ٥١ ـ ٥٤]؛ فناسب كل تعبير موطنه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

قدّم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على (بصير)؛ ذلك لأنه وردت بعد قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ فقدم ما يتعلق بهم وهو عملهم.

* * *

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥﴾

ذكر في الآية السابقة أنه خلق السماوات والأرض، والصانع قد لا يكون ملكًا، فذكر أنه الصانع وأنه الملك حصرًا فلا ملك سواه، وأن

الأمور ترجع إليه وحده ، وأن ملكه ممتد بعد انقضاء الدنيا ، وأن الأمور ترجع إليه في الآخرة كما هي في الدنيا ، فإن في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ إشارة إلى البعث.

جاء في (نظم الدرر): «ولما كان صانع الشيء قد لا يكون ملكًا وكان الملك لا يكتمل ملكه إلا بعلم جميع ما يكون في مملكته والقدرة عليه ، وكان إنكارهم للبعث إنكارًا لأن يكون ملكًا أكد ذلك بتكرير الإخبار به فقال: (له). أي: وحده ملك السماوات»[(١)].

وجاء في (تفسير الرازي): «﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي إلى حيث لا مالك سواه. ودل بهذا القول على إثبات المعاد»[(٢)].

فقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يفيد معنيين:

المعنى الأول: أن الأمور كلها هو الذي يقطع فيها ولا يعمل شيء إلا بأمره.

والمعنى الآخر: إثبات المعاد.

* * *

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ دالّ على قدرته ، فارتبط ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دال على علمه ، فارتبط بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٤٣٨.

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢١٦.

و(ذات الصدور) معناه: مكنوناتها وخفاياها.

فدل بهذه الآية وما قبلها على أنه يعلم الظاهر والباطن، المشاهد والغائب. جاء في (روح المعاني): «﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بمكنوناتها اللازمة لها، بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يظهرونها»[١].

* * *

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

* * *

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

أمرهم بشيئين: الإيمان بالله والرسول، والإنفاق. وهذان الأمران يطبعان السورة بطابعهما إلى حد كبير. فالإيمان بالله والرسول يشيع ذكره في السورة. وهو لم يذكر جميع أركان الإيمان، وإنما خصص ركنين من أركانه بالذكر وهما الإيمان بالله والرسل، وذلك في السورة كلها، فلم يذكر غير هذين الركنين من أركان الإيمان.

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ١٦٨ ـ ١٦٩.



فقد قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية: ٧]، وقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الآية: ٨]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الآية: ١٩]، وقال: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الآية: ٢١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ [الآية: ٢٨].

وكذلك الأمر بالإنفاق فإنه يطبع السورة أيضًا، فقد قال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [الآية: ٧]، وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الآية: ٧]، وقال: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٠]، وقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الآية: ١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الآية: ١٨]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [الآية: ٢٤].

فالسورة تكاد تكون مخصصة للإيمان والإنفاق، فهي لم تذكر جميع أركان الإيمان، كما لم تذكر عموم العمل الصالح، وإنما ذكرت الإنفاق وذكرت القتال ولم تأمر به كما أمرت بالإنفاق، فقد جاء فيها: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الآية: ١٠]، وجاء فيها ذكر للشهداء فقال: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ [الآية: ١٩]، وقال أيضًا: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ [الآية: ٢٥] وهو من مظان الجهاد.

فالسورة ـ كما ترى ـ يشيع فيها التخصيص بركنين من أركان الإيمان وبالإنفاق. والآية التي نحن بصدد تفسيرها ذكر فيها هذين الركنين.

﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾

طلب الإنفاق مما استخلفنا فيه ورغبنا فيه أكبر ترغيب فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا﴾ فجاء بـ (من) التبعيضية، ولم يقل: (وأنفقوا ما جعلكم

مستخلفين فيه) ، فقد طلب أن ننفق بعضًا مما استخلفنا فيه ليهون الإنفاق علينا.

ثم قال: ﴿جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي هو الذي جعلكم مستخلفين في المال ، وهو طالب الإنفاق.

ومعنى ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ أن الأموال التي بين أيديكم إنما هي أمواله ، هو الذي خلقها وخولكم الاستمتاع بها ولستم إلا وكلاء عليها. ثم إنه نقلها إليكم وقد كانت لغيركم ، ثم إنه سينقلها إلى غيركم ، فلستم إلا خلفاء من قبلكم فيها.

وكل معنى من هذين المعنيين مدعاة للخروج من الشح إلى الإنفاق. فالمال ماله ، ثم إنه سينقله منكم إلى غيركم بعد موتكمٍ أو في حياتكم. ومع ذلك فإنه جعل للذين آمنوا وأنفقوا أجرًا كبيرًا مضاعفًا.

جاء في (الكشاف): «﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني أن الأموال التي في أيديكم إنما هي أموال الله بخلقه وإنشائه لها ، وإنما موّلكم إياها وخوّلكم الاستمتاع بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها ، فليست هي بأموالكم في الحقيقة ، وما أنتم إلا بمنزلة الوكلاء والنواب ، فأنفقوا منها في حقوق الله ، وليهن عليكم الإنفاق منها كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه. أو جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم في أيديكم بتوريثه إياكم ، فاعتبروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم ، وسينقل منكم إلى من بعدكم ، فلا تبخلوا به وانفعوا بالإنفاق منها أنفسكم» [١].

وجاء في (روح المعاني): «وفيه أيضًا ترغيب في الإنفاق وتسهيل له ؛ لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله وانتقل إليه علم أنه لا يدوم له وينتقل لغيره فيسهل عليه إخراجه ويرغب في كسب الأجر بإنفاقه. . . والمعنى

---

(١) الكشاف ٤/ ٦١ ، وانظر تفسير الرازي ٢٩/ ٢١٧.

الأول هو المناسب لقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾»(١).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

ذكر أن لمن آمن وأنفق أجرًا كبيرًا. وقد تقول: لقد أكد الأجر في موطن آخر بإنّ، فقد قال في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الآية: ٩] ولم يؤكده في آية الحديد هذه مع أنه وصف الأجر بأنه كبير في الآيتين فهل ذلك لفواصل الآي؟

والجواب: أن فاصلة كل من الآيتين تتناسب مع فواصل الآي في سياقها، غير أن ذلك ليس هو السبب الأول، بل إن كل آية تقتضي ما ورد فيها من التعبير وإن لم تكن فواصل الآي كذلك، وإليك إيضاح ذلك:

١ ـ قال في آية الحديد: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾.

وقال في آية الإسراء: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فذكر في آية الحديد (الذين آمنوا) بصيغة الفعل، وذكر في آية الإسراء (المؤمنين) بالصيغة الاسمية، والاسم أثبت وأقوى من الفعل كما هو معلوم.

٢ ـ خصص الإيمان في آية الحديد بالإيمان بالله والرسول ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وأطلق الإيمان في آية الإسراء فجعله عامًّا لكل أركان الإيمان.

٣ ـ ذكر في آية الحديد الإنفاق ولم يذكر معه شيئًا آخر. وذكر في آية الإسراء ﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهو أعم، والإنفاق إنما هو من العمل الصالح، فكان التوكيد أولى في آية الإسراء. فناسب كل تعبير موطنه،

---

(١) روح المعاني ٢٧/١٦٩.

هذا إضافة إلى ما اقتضته فواصل الآي.

وقد تقول: لقد أضاف في آيات أخرى المغفرة إلى الأجر الكبير، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] فما السبب في هذه الزيادة؟

فنقول: إن كل ما ذكرت فيه المغفرة مع الأجر الكبير إنما هو في سياق ذكر الذنوب والكافرين وذلك يقتضي ذكر المغفرة. أما ما لم يرد فيه المغفرة فإنه ليس في هذا السياق، فقد قال في سورة فاطر: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الآية: ٧]، وقال في سورة الملك: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ . . . إلى قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الآيات: ٧ ـ ١١] ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وهكذا كل ما وردت فيه المغفرة بخلاف ما لم يرد. فناسب كل تعبير موطنه.

* * *

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

لما تقدم طلب الإيمان في الآية السابقة قال في هذه الآية: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي كيف لا تؤمنون ولم لا تؤمنون ودواعي الإيمان متكاثرة ملزمة؟

فالرسول يدعوكم للإيمان وقد جاء بالآيات البينات والدلائل الواضحة على صحة ما يدعو إليه وصدقه.

ثم إن الله سبحانه قد أخذ الميثاق منكم على الإيمان به بما أودعه في

عقولكم من الاستدلال على وجوده بآياته الكونية وبما أودعه في فطركم على الإيمان به. فإن الإنسان مفطور على الإيمان بأن له ربًّا وإلهًا يلجأ إليه إذا اضطرته الحاجة إلى ذلك، فحتى الملحد إذا وقع في شدة لا مخلص منها وانقطعت به الأسباب لجأ إلى الله كما أخبر ربنا: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، فقد تضافرت الدواعي العقلية والنفسية علاوة على السماع المؤيد بالحجج القاطعة على الإيمان بالله فلم لا تؤمنون؟

وجاء في (الكشاف): في قوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾: «وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان، حيث رَكَّب فيكم العقول ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر وأزاح عللكم»[١].

وجاء في (تفسير الرازي): «وحاصل الأمر أنه تطابقت دلائل النقل والعقل، أما النقل فبقوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾، وأما العقل فبقوله: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ ومتى اجتمع هذان النوعان فقد بلغ الأمر إلى حيث تمتنع الزيادة عليه»[٢].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ﴾ أي كيف لا تثبتون على الإيمان ودواعي ذلك موجودة، وذلك رُكزة فيكم من دلائل العقل، وموجب ذلك من السمع في قوله: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ لهذا الوصف الجليل، وقد تقدم أخذ الميثاق عليكم بالإيمان، فدواعي الإيمان موجودة وأسبابه حاصلة فلا مانع منه ولا عذر في تركه»[٣].

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٢.

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ١٨، وانظر روح المعاني ٢٧/ ١٧٠.

(٣) البحر المحيط ١٠/ ١٠٢.

وجاء في (التحرير والتنوير): «وعلى هذا الوجه فالميثاق المأخوذ عليهم هو ميثاق من الله ، أي ما يماثل الميثاق من إيداع الإيمان بوجود الله وبوحدانيته في الفطرة البشرية ، فكأنه ميثاق قد أخذ على كل واحد من الناس في الأزل وشرط التكوين فهو ناموس فطري»(١) .

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم تنوون الإيمان وتعتزمونه فلم لا تؤمنون؟ وهو نظير قولنا: (نحن خارجون إن كنت خارجًا) و(هم راحلون إن كنت راحلاً) أي إن نويت ذلك وعزمت عليه فافعل.

جاء في (التحرير والتنوير): «واسم الفاعل في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مستعمل في المستقبل بقرينة وقوعه في سياق الشرط ، أي فقد حصل ما يقتضي أن تؤمنوا من السبب الظاهر والسبب الخفي المرتكز في الجبلة»(٢)

وقال: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ ولم يقل: (لتؤمنوا به) مع أنه قد مر ذكره وهو قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ؛ وذلك لأنه أراد أن يحبب إليهم الإيمان ، فإنه إيمان بربهم الذي يربُّهم ويرعاهم.

ثم إن لفظ (الرب) مناسب لما ذكر بعد وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فإن مهمة الرب الأولى هي التوجيه والإرشاد والهداية ، فناسب ذلك ما جاء بعده.

وقال: (يدعوكم) للدلالة على استمراره في الدعوة لم يتوقف عنها.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٧٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٧٠.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٩﴾

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي هو الذي ينزل الآيات لا غيره. ووصف رسوله بصفة العبدية فقال: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ ليعلم أن رسوله إنما هو عبد لله. وأضافه إلى ضميره تكريمًا له. وصفة (العبد) إنما يذكرها الله تكريمًا لمن تطلق عليه، فقد كرمه الله سبحانه بهذا الوصف، وكرمه أيضًا بإضافته إلى ضميره، وكرمه مرة ثالثة بأن ذكر أنه هو الذي ينزل عليه الآيات البينات. وذكر (ينزّل) بصيغة المضارع للدلالة على استمرار التنزيل.

إن هذه الآية والتي قبلها مرتبطتان بصدر الآية الأولى وهي قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. فقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مرتبط بقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ مرتبط بقوله: (ورسوله). وقد وصف الآيات بأنها بينات أي ظاهرات الحجة واضحات الدلالة على أنه رسول الله وعلى أن فيها الهدى التام. وإنما أنزل هذه الآيات البينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور. والفاعل في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يحتمل أن يكون هو الله كما يحتمل أن يكون هو الرسول.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

الرأفة أخص من الرحمة وأرق. وقد جمع الله بين الرأفة والرحمة للدلالة على عظم رحمته بنا.

ولم يفرد الله اسمه (الرؤوف) عن اسمه (الرحيم) إلا في موطنين هما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ

﴿بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] ، وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] ؛ وذلك لأن المقام يقتضي ذاك ، فقد قال في البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

فلا يناسب المقام ذكر الرحمة مع هؤلاء الذين ذكر فيهم: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ثم ذكر بعد ذلك ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ .

وقال في آل عمران: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾ والتحذير لا يناسب ذكر الرحمة.



﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بذكر (أن) مع (لا) ، وقال في الآية السابقة: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ﴾ من دون (أن) ، ذلك أن (أن) تفيد الاستقبال ، فلما كان الإيمان لا يحتمل التأخير وإنما هو مطلوب منهم في الحال لم يذكر (أن). ولما كان الإنفاق في سبيل الله يحتمل الاستقبال وقد يكون هذا الإنفاق مطلوبًا للجهاد ، والجهاد ليس قائمًا في وقت الطلب جاء بأداة الاستقبال.

والمعنى: لم لا تنفقون في سبيل الله والله سبحانه وارث أموالكم ، أي مهلكهم وستؤول إليه أموال الخلق كلها ، بل له ميراث السماوات

والأرض ، فأنفقوا منها بأنفسكم لتنالوا جزاء المنفقين قبل أن تؤول إليه رغمًا عنكم فينالكم عقاب الممسكين الباخلين .

جاء في (الكشاف): «﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ ﴾ في ألاّ تنفقوا ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يرث كل شيء فيهما لا يبقى منه باق لأحد من مال وغيره ، يعني: وأي غرض لكم في ترك الإنفاق في سبيل الله والجهاد مع رسوله والله مهلككم فوارث أموالكم ، وهو من أبلغ البعث على الإنفاق في سبيل الله» [١] .

وجاء في (تفسير الرازي): «والمعنى أنكم ستموتون فتورثون فهلا قدمتموه في الإنفاق في طاعة الله ، وتحقيقه أن المال لا بد وأن يخرج عن اليد إما بالموت وإما بالإنفاق في سبيل الله ، فإن وقع على الوجه الأول كان أثره اللعن والمقت والعقاب ، وإن وقع على الوجه الثاني كان أثره المدح والثواب ، وإذا كان لا بد من خروجه من اليد فكل عاقل يعلم أن خروجه عن اليد بحيث يستعقب المدح والثواب أولى منه بحيث يستعقبه اللعن والعقاب» [٢] .

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مناسب لاسمه الآخر الذي ورد في أول السورة .

وتقديم الجار والمجرور يفيد الحصر ، أي إليه وحده يؤول ميراث السماوات والأرض لا إلى غيره ولا إلى شريك معه .

* * *

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٢ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢١٩ .

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾

أي «لا يستوي منكم من أنفق قبل فتح مكة ، قبل عز الإسلام وقوة أهله ودخول الناس في دين الله أفواجًا وقلة الحاجة إلى القتال والنفقة فيه ، ومن أنفق من بعد الفتح ، فحذف لوضوح الدلالة ، (أولئك) الذين أنفقوا قبل الفتح وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار. . . أعظم درجة» (١) .

وجاء في (روح المعاني): «وإنما كان أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا بعد لأنهم إنما فعلوا ما فعلوا عند كمال الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال لقلة المسلمين وكثرة أعدائهم وعدم ما ترغب فيه النفوس طبعًا من كثرة الغنائم ، فكان ذلك أنفع وأشد على النفس ، وفاعله أقوى يقينًا بما عند الله تعالى وأعظم رغبة فيه ، ولا كذلك الذين أنفقوا بعد» (٢) .

واستعمل لمن أنفق من قبل الفتح الاسم الموصول (من) والفعل (أنفق وقاتل) بالإفراد ، واستعمل لمن أنفق بعد ذلك الاسم الموصول (الذين) والفعل (أنفقوا وقاتلوا) بضمير الجمع ، ولعل ذلك لقلة المنفقين والمقاتلين قبل الفتح فاستعمل لهم ضمير المفرد ، بخلاف المنفقين والمقاتلين بعده ، فهم كثرة ، فاستعمل لهم ضمير الجمع .

والقرآن يراعي ذلك في الاستعمال نظير قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٤٣] بالإفراد ، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] بالجمع (٣)

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٢ .

(٢) روح المعاني ٢٧/ ١٧٢ .

(٣) انظر معاني النحو ١/ ١٤٦ (باب الاسم الموصول).

وقدم الإنفاق على القتال وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١] بتقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس.

* * *

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

القرض الحسن هو الإنفاق بإخلاص النية لله وكونه عن طيب نفس وبشاشة وجه من دون منٍّ أو تكدير، وتحري المال الطيب الكريم وأفضل الجهات التي ينفق فيها[١].

فالقرض الحسن هو ما اجتمعت فيه عدة أمور:

منها: في المقرض، وهو الإخلاص وكونه عن طيب نفس وبشاشة وجه كما ذكرنا.

ومنها: في المال وهو أن يكون حلالاً طيبًا وأن يكون من كريم المال.

ومنها: الجهة التي ينفق فيها وهي ما كان أشدها حاجة وأكثرها نفعًا للمسلمين.

وسمى الصدقة قرضًا؛ لأنه وعد بإعادتها مضاعفة، وذلك لأن المقترض يعيد ما اقترض وذلك لتهوينها على النفس وللترغيب فيها، فإن النفس يسهل عليها الإقراض أكثر مما يسهل عليها الخروج عن المال من غير إعادة.

قد تقول: لقد قال في آية أخرى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

---

(١) انظر روح المعاني ٢٧/ ١٧٣ ـ ١٧٤، التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٧٧.

فذكر في هذه الآية أنه يضاعف القرض أضعافًا كثيرة ، ولم يقل في آية الحديد ذلك ، وإنما قال: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ فلم ذاك؟

والجواب: أنه قال في آية الحديد: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ فزاد الأجر الكريم على المضاعفة فأغنى ذلك عن قوله: ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ ولم يقل مثل ذلك في البقرة.

جاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ هو زيادة على التضعيف المترتب على القرض ، أي وله مع التضعيف أجر كريم»[١].

والأجر الكريم: هو الحسن البالغ الجودة والجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل[٢] ،

وقد تقول: ولكنه ذكر في البقرة الأضعاف الكثيرة وهو الكم ولم يذكر الكيف ، ثم إن خاتمة كل من الآيتين تختلف عن الأخرى ، فلم ذلك؟

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يقضي بذاك ، فإن آية الحديد وردت في سياق الإنفاق ، فقد تكرر طلب الإنفاق في السورة ، فقد قال قبل الآية: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ ، وقال بعد ذلك: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ . . .﴾ ثم جاءت الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ .

في حين لم يكن الإقراض في البقرة في سياق الإنفاق ، وإنما هو في سياق القتال ، فناسب ذلك ذكر الجزاء في آية الحديد بالكم والكيف .

كما ناسب أن يكون ختام كل آية السياق الذي وردت فيه ، فلما كان

---

(١) البحر المحيط ١٠/ ١٠٤ .
(٢) لسان العرب (كرم) .

السياق في البقرة في ذكر الموت والقتال ناسب أن يكون ختام الآية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإن الموت رجوع إلى الله ، والقتال مظنة الرجوع إليه . فقد قال في سياق آية البقرة : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ . . . وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . . . أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ . . . ﴾ [البقرة: ٢٤٣ ـ ٢٤٦] ويستمر الكلام على القتال .

فناسب ختام كل آية السياق الذي وردت فيه .

وقد تقول : لقد قال في آية سابقة من السورة : ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وقال في هذه الآية : ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فوصف الأجر في الآية الأولى بأنه كبير ، ووصفه هنا بأنه كريم ، فما السبب؟

والجواب : ـ والله أعلم ـ أنه ذكر في الآية الأولى الذين آمنوا وأنفقوا ، فزاد الإيمان على الإنفاق ، فكبرت الدائرة واتسعت ، فوصف الأجر بأنه كبير .

وفي الآية الأخرى ذكر مضاعفة الأجور وهذا من الكرم ، فالذي يعطي الكثير على القليل إنما هو كريم . ومن معاني (الكريم) في اللغة الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه[١] .

فناسب ختام كل آية الموطن الذي ورد فيه ، والله أعلم .

* * *

---

(١) انظر لسان العرب (كرم) ، تاج العروس (كرم) .

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

* * *

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَوْمَ تَرَى﴾: يجوز أن يكون ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظرفًا لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي له أجر كريم في ذلك اليوم، أو على تقدير (اذكر يوم ترى المؤمنين) تعظيمًا لذلك اليوم[١].

وذكر المؤمنين والمؤمنات كما ذكر بعد ذلك المنافقين والمنافقات والمصَّدِّقين والمصّدّقات لتنال البشرى جميع من آمن وينال التبكيت جميع من نافق.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾

قال: (يسعى) ولم يقل: (يمشي) للدلالة على إسراعهم أو الإسراع بهم للدخول إلى الجنة، وإلا لو كان النور يسعى وهم يمشون لسبقهم النور وتركهم في الظلمة.

وأسند السعي إلى النور ولم يقل (يسعون) لأن السعي قد يفضي بهم إلى الجهد والتعب، فأسند السعي إلى النور للدلالة على أنه يسعى بهم في مراكب أو محافّ أو مطايا أو بغير ذلك، «وذلك على الصراط يوم

---

(١) انظر الكشاف ٤/ ٦٣، تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢٣.

القيامة وهو دليلهم إلى الجنة»[(١)] .

وأضاف النور إليهم فقال: (نورهم) ولم يقل: (يسعى النور) ، للدلالة على أنه نور أعمالهم ، فيعطى لكل مؤمن نور على قدر عمله .

﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾

ذكر هاتين الجهتين لأن ما بين أيديهم هو الأمام وهي جهة السير والسعي ، والأيمان هي جهة إيتاء كتب السعداء ، ولم يذكر الشمائل لأنها جهة كتب الأشقياء ، جاء في (الكشاف): «وإنما قال: ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾ لأن السعداء يؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين ، كما أن الأشقياء يؤتونها من شمائلهم ومن وراء ظهورهم»[(٢)] .

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١١] .

وقال (بأيمانهم): ولم يقل: (عن أيمانهم) للدلالة على أن النور ملاصق للأيمان وليس مبتعدًا أو منحرفًا عنها .

وقال: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ولم يقل: (المسلمين والمسلمات) لإخراج المنافقين والمنافقات الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم وقد أسلموا ظاهرًا ، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨] ، وقال: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات: ١٤] .

* * *

(١) فتح القدير ٥/ ٢٤٠ .
(٢) الكشاف ٤/ ٦٣ .

﴿ بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

حذف القول ، أي مقولاً لهم أو يقال لهم ، لإرادة أن الأمر مشاهد مرئي مسموع وليس إخبارًا عن غائب ، فأنت ترى المؤمنين وتسمع القول من دون أن تخبر بذاك ، والدليل على ذلك قوله : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فذكر الرؤية مما يدل على أن الأمر مشاهد لا منقول سماعًا. والمراد بالبشرى ما يبشّر به ، أي ما تبشّرون به جنات[1] .

وذكر (اليوم) لأن ذلك كائن في ذلك اليوم وليس بعده ، فهو قريب واقع ، وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ واقع على جميع ما مَرَّ ذكره في الآية وآخره الجنة ، فالنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فوز عظيم ، والبشرى فوز عظيم ، والجنات فوز عظيم ، والخلود فيها فوز عظيم. والذي يدل على أن البشرى فوز عظيم قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٣ ـ ٦٤]. وعرف الفوز وجاء بضمير الفصل للدلالة على القصر وعلى أن ذلك وحده هو الفوز العظيم وليس ثمة فوز غيره ، وأن ما عداه هو الخسران المبين.

* * *

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ يَوْمَ يَقُولُ . . . ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ [2] ويجوز أيضًا أن

---

(١) انظر روح المعاني ٢٧/ ١٧٤ .

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢٤ .

يكون منصوبًا على تقدير (اذكر) [(١)] وذكر المنافقين والمنافقات ليدل على أن كل فرد من الجنسين ينال جزاءه ولا يشفع لأحدهما قرابة، فلا تغني المؤمنة عن قريبها المنافق أو قريبتها المنافقة، ولا المؤمن عن قريبه أو زوجته المنافقة. ولا تقول المنافقة إني كنت تبعًا لزوجي أو أخي أو أبي، فإن كل واحد مسؤول عن نفسه وعما قدّم أو أخّر.

﴿ ٱنظُرُونَا﴾

أي انتظرونا، غير أنهم لم يقولوا: (انتظرونا) لأن الانتظار فيه تمهل وإبطاء، والمؤمنون يسرعون أو يُسرع بهم إلى الجنة، فطلبوا انتظارًا قليلاً أو تمهلاً قليلاً، وقد أدركوا أنهم لو طلبوا انتظارًا لم يجابوا. ولو كان في الوقت فسحة لساغ طلب الانتظار، كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢] فقال ﴿ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، وقال: ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لأن في الوقت متسعًا.

جاء في (نظم الدرر): «وكأن الفعل جرد في قراءة الجماعة لاقتضاء الحال الإيجاز بغاية ما توصل المقدرة إليه خوف الفوت؛ لأن المسؤولين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف» [(٢)].

قيل: ويجوز أن يكون المعنى (انظروا إلينا) «لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم والنور بين أيديهم فيستضيئون به» [(٣)].

﴿ نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

أي «نصب منه وذلك أن يلحقوا بهم فيستنيروا به» [(٤)]، وقالوا:

---

(١) انظر روح المعاني ٢٧/ ١٧٦.
(٢) نظم الدرر ٧/ ٤٤٤.
(٣) الكشاف ٤/ ٦٣، وانظر تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢٥، روح المعاني ٢٧/ ١٧٦.
(٤) الكشاف ٤/ ٦٣.

(نقتبس) ولم يقولوا: (نأخذ) لأن الاقتباس لا ينقص من المقتبس منه، بخلاف الأخذ فإنك إذا اقتبست من النار فإن ذلك لا ينقصها بخلاف ما إذا أخذت منها، والمعنى نستفد منه فلا ينقص فانظرونا.

وقالوا: (نقتبس) ولم يقولوا: (نقبس)؛ لأن الاقتباس أبلغ من القَبْس، وذلك دليل على عظم نور المؤمنين وهو لا ينقص بالاقتباس.

وقالوا: ﴿مِن نُّورِكُمْ﴾ ولم يقولوا: (من النور الذي معكم) للدلالة على أنه نورهم هم، قيل: «يعطى يوم القيامة كل أحد نورًا على قدر عمله... ثم على ذلك تغشاهم ظلمة فتطفىء نور المنافقين، فهنالك يقول المنافقون: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ كقبس النار»[١].

﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا﴾

لم يقل: (قالوا) بل (قيل): «ويظهر من إسناد (قيل) بصيغة المبني للمجهول أن قائله غير المؤمنين المخاطبين، وإنما هو من كلام الملائكة السائقين للمنافقين. وتكون مقالة الملائكة للمنافقين تهكمًا، إذ لا نور وراءهم»[٢].

و(وراءكم) إما أن يكون ظرفًا مؤكدًا، فإن الرجوع إنما يكون إلى الوراء، وإما أن يكون اسم فعل بمعنى (ارجعوا) فيكون أيضًا مؤكدًا لفعل الأمر[٣].

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾

قيل: الباء في (بسور) زائدة للتوكيد، والتقدير: ضُرب بينهم

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢٦.
(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٨٢.
(٣) انظر روح المعاني ٢٧/ ١٧٧.

سور[١] ، وقيل: ضمن (ضرب) معنى (حجز) أي حجز بينهم بسور ولذلك عدي بالباء «أي ضرب بينهم سور للحجز به بين المنافقين والمؤمنين»[٢] ، والسور: هو ما أحاط بالشيء من بناء وغيره.

وقال: ﴿لَّهُۥ بَابُۢ﴾ لئلا يظن أن المؤمنين محتجزون فيه ، وإنما ينفذون منه إلى مرادهم وهو الطريق إلى الجنة والله أعلم. فالمنافقون لا يتمكنون من الدخول فيه ليلتقوا بالمؤمنين ، والمؤمنون يتمكنون من الخروج منه.

ووصف السور بأن باطنه فيه الرحمة وهي الجهة التي فيها المؤمنون ، وأن ظاهره يأتي العذاب من جهته للمنافقين ولمن حقت عليه كلمة العذاب. وهذا السور ـ كما ترى ـ يخالف باطنه ظاهره ، كما أن المنافقين يخالف باطنهم ظاهرهم ، فهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، وذلك السور باطنه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وهو تناظر لطيف بين السور والمنافقين في اختلاف الباطن عن الظاهر.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾

استعمل الفعل (ينادونهم) وقد استعمل قبل قليل الفعل (يقول) ؛ ذلك لأنه صار بينهم حاجز فاحتاجوا إلى رفع الصوت للنداء.

﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ ولم يقولوا: (ألم نكن منكم) لأنهم كانوا معهم ولم يكونوا منهم ، ولذلك أجابوهم بـ (بلى) ، ولو قالوا: (ألم نكن منكم) لأجابوهم بكلاّ.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ولم يقل: (فنادوهم بلى) ذلك أنه حيث استعمل القرآن الفعل (نادى) أو متصرفاته يكون الجواب بفعل القول ، وذلك نحو قوله

---

(١) ينظر تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢٧ ، روح المعاني ٢٧/ ١٧٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٨٣.

تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي أوقعتموها في الفتنة. واختيار هذا الفعل اختيار رفيع، فإن (فتن) له معان كثيرة، أكثرها مراد هنا.

فمن معانيه: إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته. وأنتم وضعتم أنفسكم في هذا الموضع ففتنتم أنفسكم وبانت رداءتكم وخسة معدنكم.

ومن معانيه: الامتحان والاختبار، وقد وضعتم أنفسكم في هذا الموضع أيضًا فأوقعتم أنفسكم في الفتنة والاختبار والامتحان؛ لأنكم أظهرتم الإيمان وأبطنتم الكفر، فتقولون للمؤمنين: نحن معكم، وتقولون للكافرين: إنا معكم، ولا شك أن كل فريق يختبركم ويمتحنكم ليتبين أأنتم معه أم عليه.

ثم إن هذا الأمر يحتاج إلى موازنة الموقف وإظهار تعامل خاص لكل فريق، وهذا امتحان أيضًا لبيان القدرة على السلوك المتناقض الذي يرضي الطرفين المتباينين، فأنتم وضعتم أنفسكم تحت الاختبار والمراقبة من كل فريق ومن أنفسكم أيضًا.

ومن معانيه: الشدة والتعذيب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] أي يعذبهم.

وأنتم فتنتم أنفسكم فأوقعتموها في الشدة والتعذيب في الدنيا والآخرة بالتربص والخوف ومحاولة إخفاء الحقيقة بصورة مستمرة ولجوئكم إلى الكذب والمراوغة واختلاق المعاذير، وفي الآخرة أنتم كما ترون.

ومن معانيه: إدخال الإنسان النار[١]، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣ ـ ١٤] وأنتم فتنتم أنفسكم في الدنيا والآخرة وأوقعتموها في المحنة والعذاب وأدخلتموها النار، فأنتم الذين فتنتم أنفسكم. جاء في (الكشاف): «﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: محنتموها بالنفاق وأهلكتموها»[٢].

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾

وتربصهم مطلق، فهم كانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر ليتمكنوا من إعلان كفرهم صراحة، وكانوا أيضًا يتربصون ظهور أحد الفريقين وانتصاره ليعلنوا أنهم كانوا معه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

فالفتنة هذه تقتضي التربص للانتفاع من كل فريق، وهذا التربص يفضي إلى الريبة فيمن سيفوز ويربح ليعلنوا أنهم معه، فقال: (وارتبتم) أي شككتم في أمر محمد وهل هو على حق، وارتبتم فلا تعلمون أي فريق سيغلب.

ولما لم يتبين لكم الأمر على حقيقته (غرتكم الأماني) وخدعتكم وقلتم: لعله سيُغلب محمد، وبقيتم في هذه التمنيات الخادعة حتى جاءكم أمر الله وهو الموت. هذا علاوة على ما خدعكم به الشيطان وغركم بالله وقال لكم: إن الله سيغفر لكم ولا يعذبكم[٣]، فغرتكم أماني أنفسكم والشيطان.

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن (فتن).

(٢) الكشاف ٤/ ٦٣.

(٣) انظر الكشاف ٤/ ٦٣، تفسير الرازي ٢٩/ ٢٢٧، البحر المحيط ١٠/ ١٠٦.

إن هـذه المذكورات مرتبة ترتيبًا منطقيًّا يفضي أحدها إلى الآخر. فهم فتنوا أنفسهم بأن أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر فكان عليهم التربص والانتظار، وبذا كان التربص من أثر الفتنة والاختبار. ثم لما طال التربص ولـم تظهـر له نتيجة حاسمة داخلتهم الريبة والشكوك فيمن سيظهر ويغلب. وبعدها جاء دور الأماني الخادعة تغرّهم وتمنيهم. ثم إن الشيطان ولـج لئلا تصحو ضمائرهم ويخافوا بطش الله فغرهم بالله وهوّن عليهم الأمر. واستمروا على ذلك حتى جاء أمر الله ورحلوا عن الدنيا منافقين مغرورين من أنفسهم ومن الشيطان فسوف يلقون غيًّا.

* * *

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

ذكر الفدية لأنه تكرر في السورة ذكر الإنفاق والدعوة إليه وذكر القرض الحسن والبخل والذين يأمرون به، فقال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ وقد كان بإمكانكم أن تفدوا أنفسكم في الدنيا بالإنفاق في سبيل الله فلم تفعلوا. والظاهر أن الفدية ههنا تعني المال وإن كانت الفدية عامة في كل ما يفتدى به، فقد قال تعالى: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

غير أن الذي يرجح معنى المال قوله: (لا يؤخذ) ولم يقل: (لا تقبل) والذي يؤخذ هو المال وهو المناسب لجو السورة وما شاع فيها من ذكر للإنفاق والقرض الحسن، والله أعلم.

وقال: ﴿ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ ﴾ مع أن المنافقين من الذين كفروا، ذلك أن المقصود بـ (الذين كفروا) هم الكافرون من غير

المنافقين وهم الذين أظهروا كفرهم ولم يستروه[١]. فلا تؤخذ الفدية لا من المنافقين ولا من سائر الكافرين الآخرين.

﴿ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ أي هي دار إقامتكم والمأوى الذي تأوون إليه، والمأوى يعني الملجأ والمكان الذي يحتمى به، فالنار ملجؤهم الذي يأوون إليه.

﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾

أي هي التي تتولى أمركم فذكر المأوى والمولى، ذلك أن الشر إنما يأتيهم من جهتين: المأوى والمولى. فقد يكون المأوى سيئًا غير أن المولى حسن، وقد يكون العكس، أما هؤلاء فالنار مأواهم ومولاهم.

وقيل: إن معنى ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾: «هي أولى بكم... وحقيقة مولاكم: محراكم ومقمنكم، أي مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم... ويجوز أن يراد هي ناصركم، أي لا ناصر لكم غيرها، والمراد نفي الناصر على البتات. ونحوه قولهم: (أصيب فلان بكذا فاستنصر الجزع)، ومنه قوله تعالى: ﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ وقيل: تتولاكم كما توليتم في الدنيا أعمال أهل النار»[٢].

ويجوز أن يكون اشتقاق (المولى) من الولْي وهو القرب، فيكون معنى مولاكم، أي مكانكم عن قرب[٣].

والمعنيان مرادان، فهي تتولى أمرهم وهي مكانهم عن قرب.

ولم يرد في جهنم (هي مولاكم) إلا في هذا الموطن، وذلك لسببين والله أعلم:

---

(١) انظر نظم الدرر ٧/ ٤٤٦.

(٢) الكشاف ٤/ ٦٤.

(٣) انظر فتح القدير ٥/ ٢٤٢.

السبب الأول: أنه ذكر في آية الحديد هذه أن المنافقين تربصوا وغرتهم الأماني حتى الموت ، فبعد طول الأمل والتربص الطويل كانت النار أقرب إليهم ، فهم كانوا يستبعدونها وهي أقرب إليهم وأدنى من آمالهم.

والسبب الآخر: أن كل الآيات الأخرى التي ورد فيها (مأواه جهنم وبئس المصير) ونحوها إنما قيلت وهم في الدنيا ، والدنيا لا تزال غير منقضية ، وأما هذا القول فإنه قيل وهم في الآخرة وقد ضُربَ السور بينهم وبين المؤمنين وأتاهم العذاب من قبله فالنار قريبة منهم فقال: ﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ .

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وهذه أنسب خاتمة لهم ، فقد كانوا في ترقبهم وأمانيهم ينتظرون المصير الحسن والمستقبل المشرق ، فكانت لهم الظلمة والمصير الأسوأ.

إن هذه الآيات يتجلى فيها إكرام المؤمنين وإبعاد النصب عنهم ، بخلاف المنافقين فإنها يتجلى فيها إرهاقهم وإهانتهم والتهكم بهم.

فقد قال في المؤمنين:

١ ـ ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ : ولم يقل: (يمشي نورهم) للدلالة على الإسراع بهم إلى الجنة وهذا إكرام ، فإن الإبطاء إلى السعادة ليس كالإسراع إليها ، وفي الإسراع ما فيه من الإكرام.

٢ ـ أنه أسند السعي إلى النور ولم يسنده إليهم ، فلم يقل: (يسعون) لأن السعي قد يجهدهم ، فأسنده إلى النور ، فدل على أنه يسعى بهم. فهو لم يقل: إنهم يمشون ؛ لأن المشي قد يكون فيه إبطاء ، ولم يقل: (يسعون) لأن سعيهم قد يكون فيه إجهاد ، ولكنه أفاد السعي من ذكر سعي النور.

٣ ـ قال: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ فذكر الفاعل ولم يقل (يُسعَى بهم) بالبناء للمجهول وحذف الفاعل فلا يُدرى أيسعون في ظلمة أم في نور، فذكر أن لهم نورًا يسعى.

٤ ـ أضاف النور إليهم، وهذا فيه أمران:

الأول: الدلالة على أن هذا النور إنما هو نور المؤمن وهو يعطى على قدر عمله، فهو إهابة بالمؤمن ليعظم نوره ويكثّره.

ومن ناحية أخرى لم يقل: (يسعى النور) فيجعله عامًّا فيستضيء به المنافقون، فجعل لكل مؤمن نوره الذي يستضيء به فلا يشاركه فيه غيره. فهذا إكرام للمؤمنين وإرهاق وحسرة على المنافقين.

٥ ـ قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، ومعنى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمامهم، غير أنه لم يقل: (أمامهم) لأن الأمام قد يكون بعيدًا عن الشخص، فقد تسأل عن قرية فيقال: هي أمامك. وقد يكون النور أمامك ولا تتمكن من الاستضاءة به لبعده فقال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

٦ ـ وقال: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ ولم يقل: (عن إيمانهم) لأن معنى بأيمانهم أنه ملتصق بالأيمان وليس مبتعدًا عنها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]، ولو قال: (عن أيمانهم) لدل أنه متراخٍ عن أيمانهم أو منحرف عنها؛ لأن (عن) تفيد المجاوزة، والباء تفيد الإلصاق.

٧ ـ قال: ﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾ ولم يقل: (يقال لهم بشراكم) لأنه أراد أن يجعل المشهد حاضرًا ليس غائبًا يسمع فيه التبشير ولا ينقل.

٨ ـ وأضاف البشرى إلى ضمير المخاطبين لتنال البشرى كل واحد، ولم يقل: (البشرى جنات) وهو إكرام آخر.

٩ ـ وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ للدلالة على قرب البشرى وأنها ليست من الوعد

البعيد الوقوع. والبشرى كلما كانت أقرب كانت أحب وأدعى إلى المسرة.

١٠ ـ وقال: ﴿جَنَّٰتٌ﴾ ولم يقل: (جنة) للدلالة على أن لكل منهم جنة أو أكثر، كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

١١ ـ قال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ولم يقل: (فيها أنهار) وذلك للدلالة على أنها جارية وليست راكدة، والركود مظنة الأسون، هذا إضافة إلى التمتع بمشهد الجري، ولذلك عندما لم يذكر الجري في قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ [محمد: ١٥] قال: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ لينفي عنها صفة الأسون، ولما ذكر الجري لم يذكر ذلك لأنه لا حاجة إليه.

١٢ ـ وقال: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ولم يقل: (نهر) للدلالة على كثرة الأنهار.

١٣ ـ قال: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ وهي بشرى أخرى. وقال: ﴿فِيهَآ﴾ للدلالة على أن الخلود في الجنات وليست الجنة مرحلة أو مكانًا ينتقلون منه إلى ما هو أقل سعادة.

١٤ ـ وقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ولم يقل: (ذلك فوز عظيم) وإنما عرف الفوز بأل للدلالة على القصر وعلى أنه لا فوز أعظم منه. ثم جاء بضمير الفصل للزيادة في التوكيد.

ثم إن الأمر يعظم ويكبر بعظم قائله، فإن الفوز الذي يذكره طفل أو رجل من ضَعَفة الناس يختلف عن الفوز الذي يذكره قائد أو ملك. فكيف وقد ذكره ملك الملوك ووصفه بالعظمة وقصره وأكده؟!

١٥ ـ ذكر أن المنافقين يقولون: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ ولم يقولوا: (انتظرونا) فإنهم يدركون أنه لا يسعهم الانتظار، وإنما طلبوا منهم مهلة قصيرة لينظروهم، أي ينتظروهم. وفي هذا دلالة على الإسراع بهم إلى الخير والسعادة، فإن الذي يُسرع به إلى الخير والسعادة أكرم من الذي يُبطأ به.

١٦ ـ ثم قال: ﴿نَقْتَبِسْ﴾ ولم يقل: (نقبس) والاقتباس أكثر من القبس، وذلك يدل على عظم النور الذي عندهم.

١٧ ـ قال: ﴿مِن نُّورِكُمْ﴾ ولم يقل: (من النور) وهذا تكريم آخر، فإن النور نورهم.

١٨ ـ قال: ﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟﴾ ولم يقل: (قالوا) لأنه أراد ألا ينشغلوا بما لا فائدة فيه من الكلام، فتكلم الملائكة أو غيرهم بالنيابة عنهم، ولم يشغلوهم بالكلام عما هو أهم ولا يرهقوهم بكثرة القيل.

١٩ ـ قال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ فحجزوهم عن أولئك السائلين المنافقين.

٢٠ ـ ثم قال: ﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ للدلالة على أنهم غير محتجزين فيه، وإنما ينفذون منه إلى مرادهم.

٢١ ـ ثم قال: ﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ وهو تكريم آخر، وكيف لا وهم في رحمة الله؟

أما دلالتها على إهانة المنافقين وإرهاقهم فهو أوضح ما يكون:

١ ـ فقد ذكر أن المنافقين والمنافقات يطلبون من المؤمنين أن ينظروهم للاقتباس من نورهم، وهذا يدل على أنهم في ظلمة. وقد قيل إنهم أعطي لهم نور ثم انطفأ[(١)]، من باب إهانتهم وخديعتهم والاستهزاء بهم كما كانوا يخادعون ويستهزئون في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. جاء في (تفسير ابن كثير): «ويقول المنافقون للذين آمنوا ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب»[١].

٢ ـ وقال: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ﴾ ولم يذكر أن المؤمنين ردوا عليهم فبنى الفعل للمجهول، وقيل: إن القائل هم الملائكة، فهم الذين تولوا الرد عليهم، أما المؤمنون فلا يعنيهم هذا الطلب وإنما هم مشغولون بما هو أهم. وهذا إهانة للمنافقين أن يطلبوا من المؤمنين فلا يجيبوهم وإنما يجيبهم آخرون.

٣ ـ قال: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ وهو إهانة أخرى.

٤ ـ وقال: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ وهو إما أن يكون ظرفًا مؤكدًا أو يكون اسم فعل بمعنى ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾، فيكون كأنه قيل لهم: ارجعوا ارجعوا، وهو إهانة ظاهرة.

٥ ـ قال: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ وهم يعلمون أنه ليس ثمة نور وهو من باب الاستهزاء بهم.

٦ ـ وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ فحجزوهم عن اللحاق بالمؤمنين، وهو إهانة ظاهرة.

٧ ـ وقال: ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ وهي جهتهم.

٨ ـ قال: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ فذكر أنه يرفعون أصواتهم من وراء السور ينادون المؤمنين ليلتحقوا بهم ولكن حيل بينهم وبين ما يريدون.

٩ ـ وفي رَدِّ المؤمنين عليهم إهانات متعددة، فقولهم لهم: إنكم فتنتم أنفسكم، وتربصتم، وارتبتم، وغرتكم الأماني، وغركم بالله الغرور،

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٥.

كل خصلة منهن إهانة وتبكيت.

١٠ ـ وقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ كله إهانات وإخبار لهم بما سيلاقونه من سوء العاقبة والمنقلب، نعوذ بالله.

* * *

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

* * *

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾

(يأني) مضارع (أنى)، ومعنى (أنى) حان ونضج، و﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ معناه ألم يحن لهم ذلك؟

﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

أسند الخشوع إلى القلوب، والخشوع أمر مشترك بين القلب والجوارح، فهو يسند إلى الأبصار وإلى الوجوه وإلى الأصوات فيقال: بصر خاشع ووجه خاشع وصوت خاشع، كما يسند إلى الشخص كله فيقال: رجل خاشع أي خاضع، كما قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشورى: ٤٥].

والخشوع هو الخضوع والخشية والذل، فخشوع القلب خضوعه وخشيته ووجله وتذلّلـه، فطلب من المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، وذكر الله عام، وما نزل من الحق هو القرآن، وكل

منهما مدعاة إلى الخشوع والخشية.

فذكر الله مدعاة إلى الخشوع والخشية كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٥].

والقرآن مدعاة إلى الخشية والوجل كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ ـ ١٠٩]، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

والقرآن ذِكر وقد سماه الله ذكرًا، فقد حكى عن الكفار قولهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ [ص: ٨]، وقال: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، وقال: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ١٠]، وقال: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

فإذا كان علماء أهل الكتاب يزيدهم القرآن خشوعًا، وإذا كان الجبل يتصدع منه خاشعًا لله فكيف لا يخشع قلب المؤمن له؟

لقد ذكر ثلاثة أمور كل منها يستدعي الخشية:

١ ـ كون المخاطبين مؤمنين، وهذا يستدعي الخشية.

٢ ـ ذكر الله، وهو مدعاة إلى الخشية.

٣ ـ ما نزل من الحق أي القرآن، وهو مدعاة إلى الخشية.

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

﴿قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] (١) فقد ذكر فيها ذكر الله وذكر آياته.

وقد تقول: إذا كان المراد خشوع القلب فلم لم يقل مثلاً: (ألم يأن لقلوب المؤمنين أن تخشع لذكر الله) أو (ألم يأن أن تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله) ونحو ذلك، وقال: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؟

والجواب: أن ذلك لجملة أسباب.

منها: أنه حذرهم من أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب وليس كقلوب الذين أوتوا الكتاب فقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فناسب أن يكون الكلام على المؤمنين بمقابل الذين أوتوا الكتاب.

ومنها: أنه قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهذا وصف للأشخاص لا للقلوب، فأراد أن يحذرهم من أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب في قسوة القلوب وفسق كثير منهم. فناسب قوله: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أن يكون بمقابل (الذين أوتوا الكتاب).

ومنها: أنه ذكر المؤمنين وقلوبهم، وذكر أهل الكتاب وقلوبهم، فناسب ذلك ألطف مناسبة.

وقال: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولم يقل: (آتيناهم الكتاب) لأنه في مقام الذم لهم. ومن سمة التعبير القرآني أنه إذا ذم أهل الكتاب بنى الفعل للمجهول فقال: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وإذا مدحهم أسند الفعل إلى نفسه تعالى فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ (٢).

---

(١) انظر الكشاف ٤/ ٦٤.

(٢) انظر معاني النحو ٢/ ٤٩٦ وما بعدها.

﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

بين أن طول الأمد يقسي القلوب فحذرنا من أن نكون كذلك ، فإنه ينبغي أن نتعهد قلوبنا وألا ندع للقسوة سبيلاً إليها . وفي ذكر الله وما نزل من الحق غناء وكفاية لحياة القلوب وخشوعها .

وأسند القسوة إلى القلوب وذلك بمقابل إسناد الخشوع إلى القلوب أيضًا . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه لم يسند القسوة في القرآن الكريم إلا للقلوب ولم يسندها إلى غيرها ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] ، وقال : ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنعام: ٤٣] ، وقال : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣] ، وقال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢] وغيرها .

وذلك أنه إذا قسا القلب قسا صاحبه وإذا خشع القلب خشعت الجوارح .

وقد تقول : ولم قال : ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ ﴾ فذكر ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ ، ولم يقل : (كالذين أوتوا الكتاب فطال عليهم الأمد) من دون أن يذكر (من قبل)؟

والجواب : أنه لو قال ذلك لم يدل على أن الأولين قست قلوبهم ، بل لربما دل على أن المعنيين هم المعاصرون لزمن الرسول ، فلما قال : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ دل على أن آباءهم الأولين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم فما بالك بهؤلاء وقد تطاول عليهم الزمن؟

فذمهم وذم أسلافهم ، بخلاف ما لو حذف ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ .

ثم إنه حذرهم من أن يكونوا كأولئك الأولين فما بالك بالآخرين؟

فيكون التحذير عن التشبه بهؤلاء أشد وأشد.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

ذكر أن كثيرًا منهم فاسقون خارجون عن طاعة الله. ومجيء هذا القول بعد قوله: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يدل على أن قسوة القلب من أسباب الفسوق ودواعيه، وبالمقابل يكون خشوع القلب من أسباب الطاعة ودواعيها.

وقد تقول: لقد قال في أكثر من موطن: إن أكثرهم فاسقون بصيغة اسم التفضيل، وقال ههنا: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فما حقيقة الأمر؟ أإن كثيرًا منهم فاسقون أم إن أكثرهم فاسقون؟ وما السبب في هذا الاختلاف في التعبير؟

والجواب: أنه لا تناقض بين قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. فقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ يعني أن كثيرًا منهم فاسقون، وإنما التناقض يكون لو قال: (إن قليلاً منهم فاسقون) أو (إن أقلهم فاسقون). فقولك: (محمد أفضل الناس) لا يناقض قولك: (إنه فاضل)، وقولك: (هو أعلم الناس) لا يناقض قولك: (هو عالم)، ولكنه يناقض قولك: (هو أجهل الناس) أو (هو جاهل).

أما لماذا عبر عن ذلك مرة بقوله: (كثير) ومرة بـ (أكثر) فهذا ما يقتضيه سياق كل تعبير. فإنه يعبر بـ (أكثر) إذا كان السياق في تعداد أسوأ صفاتهم والإطالة في ذكرها، بخلاف الوصف بـ (كثير) فإنه لا يبلغ ذلك المبلغ، وإليك إيضاح ذلك:

لقد جاء الوصف بـ (أكثر) في موضعين وهما قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] وبالنظر في سياق كل من الآيتين يتضح ما ذكرته.

فقد جاء في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا

﴿وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

ويستمر في تعداد مساوئهم إلى الآية الخامسة والستين [٥٧ ـ ٦٥] فناسب قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

وكذلك الأمر في آل عمران، فقد ذكر أهل الكتاب ومساوئهم وأعاد ذكرهم وذكرها أكثر من مرة. من ذلك ما ذكره من الآية الخامسة والستين إلى الآية الثامنة والسبعين، ومن الآية الثامنة والتسعين إلى الآية الواحدة بعد المائة، ومن الآية العاشرة بعد المائة إلى الآية الخامسة عشرة بعد المائة عدا المواطن الأخرى المنتشرة في السورة، فناسب أن يذكر ذلك بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ والله أعلم.

* * *

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

أمرنا بأن نعلم هذا الأمر، أي أن الله هو الذي يحيي الأرض بعد موتها وأنه ما كانت لتحيا لولا أن الله يحييها، فهي لا تحيا من الماء بنفسها ولا أن ذاتًا أخرى دونه أو معه قادرة على ذلك، فالله هو الذي يحيي الأرض بعد موتها.

ووجه ارتباط الآية بما قبلها ظاهر من جهتين؛ ذلك أنها تمثيل لأثر

الذكر والقرآن في القلوب ، فإنه يحييها كما يحيي الغيث الأرض[١] .

جاء في (روح المعاني) أن قوله : ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ «تمثيل ذكر استطرادًا لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث ، للترغيب في الخشوع والتحذير من القساوة» [٢] .

ومن جهة أخرى أن هذه الآية تدل على بعث الأموات وأن الله سيحييهم ويبعثهم كما يحيي الأرض. وقد مَرَّ قبل هذه الآية ذكر الآخرة وجملة من مشاهدها. وهي كما ترتبط بما قبلها من جهتين ترتبط بما بعدها من جهتين أيضًا.

فإنه ذكر بعد هذه الآية أن المصّدّقين والمصّدّقات يضاعف لهم ، وذلك شأن الأرض التي تحيا بالغيث فإنها تضاعف ما يزرع فيها. وقد ذكر الله ذلك في مكان آخر فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

كما أنه ذكر الآخرة بعدها وطرفًا من أحوالها ، فارتبطت الآية بما قبلها وما بعدها والله أعلم ، ، جاء في (تفسير الرازي): أن قوله هذا «تمثيل والمعنى أن القلوب التي ماتت بسبب القساوة فالمواظبة على الذكر سبب لعود حياة الخشوع إليها كما يحيي الله الأرض بالغيث ، والثاني أن المراد من قوله: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ بعث الأموات ، فذكر ذلك ترغيبًا في الخشوع والخضوع وزجرًا عن القساوة» [٣] .

* * *

---

(١) انظر الكشاف ٤/ ٦٤ .

(٢) روح المعاني ٢٧/ ١٨١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣١ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

* * *

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

لقد قال: ﴿ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ ﴾ بالإبدال ، ولم يقل: (المتصدقين والمتصدقات) للدلالة على المبالغة في الصدقات. وقد بينا ذلك في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) وذكرنا الفرق بين الإبدال وعدمه في نحو قوله: ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ (١) فلا نعيد القول فيه.

وقد عطف المصّدّقات على المصّدّقين ولم يكتف بجماعة الذكور ، ليدل على استقلال النساء في أموالهن فيتصرفن فيها ويتصدقن منها من دون أن يقسرهن أحد في أموالهن ويرغمهن على شيء لا يردنه ، وأنه ليس لأحد أن يمنعهن من التصدق لا أزواجهن ولا آباؤهن ولا غيرهم ، وليبين أنه إذا كان لهن مال فلا تغني صدقة أزواجهن عنهن أو أحد من أقربائهن ، وأنه يضاعف لهن الأجر كما يضاعف للرجال.

ثم إنه ذكر المصّدّقين والمصّدّقات كما ذكر المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في السورة كما سبق أن ذكرنا.

وقد ذكر الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا بعد ذكر المصّدّقين والمصّدّقات، وعطفهم عليهم ، إشارة إلى أن الصدقة غير القرض الحسن.

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٤٥ وما بعدها.

وقد ذُكر في القرض الحسن أقوال منها: أنه أحسن أنواع الصدقة، أو أن المراد بالتصدق التصدق الواجب «وبالإقراض التطوع، لأن تسميته بالقرض كالدلالة على ذلك» (١).

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ صحة القول الأخير لأوجه منها:

١ ـ أن القرآن قد يذكر القرض الحسن بعد الزكاة وقد يأمر به بعد الأمر بالزكاة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [المائدة: ١٢]، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠]، والزكاة فرض، مما يشير إلى أن القرض الحسن إنما هو من باب التطوع بعد الفريضة.

٢ ـ تسميته قرضًا، والمقرض ليس ملزمًا بالإقراض وإنما هو مخير، بخلاف المزكي فإنه ملزم بإخراجها، وبخلاف المتصدق فإن من الصدقة ما يلزم.

٣ ـ قال في أكثر من موطن: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١] وهو كأنه من باب الترغيب في الإقراض والتخيير فيه وليس من قبيل الإلزام.

أو أن القرض الحسن أعم من الصدقة، فهو في الصدقات وغيرها من وجوه الإنفاق في أبواب الخير، ولذا عطف المقرضين على المتصدقين.

وقد عطف بالفعل على الاسم فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ليدل على أن الصدقة لازمة ثابتة، وأن التصدق وصفهم العام الثابت، فهي متكررة على جهة الثبوت، بخلاف الإقراض فإنه ليس

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٢.

ثابتًا ثبوت الصدقة ، ولذا لم ترد صفة الإقراض بالصيغة الاسمية في القرآن الكريم ، فلم يقل : (المقرضين) كما قال : (المتصدقين) .

وقد وصف القرض بأنه حسن ، وقد مَرَّ ذكر المقصود بالحسن في آية سابقة .

ومن الطريف أن نذكر أن الله لم يذكر القرض إلا وصفه بالحسن ، فلم يرد مرة ذكر القرض دون وصفه بذاك ، بخلاف الصدقة .

وأنه حيث ذكر القرض فإنه ذكر أنه إقراض لله ، ولم يطلقه مرة من دون تقييد ، ولعله للتفريق بين الإقراض المالي في المعاملات وما يعطيه الفرد لوجه الله ، بخلاف الصدقات فإنها لا تكون إلا في العبادات .

ثم ذكر المضاعفة والأجر الكريم كما ذكرنا في آية سابقة ، أعني قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ .

* * *

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

أي ليس ثم صدّيق إلا هؤلاء ، فمن لم يؤمن بالله ورسله فليس بصدّيق ، غير أن الصديقين درجات وأجورهم متفاوتة ، فالصدّيقية قد تكون وصفًا للنبي وغيره ، فقد وصف الله قسمًا من رسله بالصدّيقية ، فقد وصف بها سيدنا إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : ٤١] ، ووصف بها إدريس عليه السلام فقال : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦] ووصف بها غيرهم من المؤمنين ، فقد وصف بها مريم فقال : ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ ﴾ [المائدة : ٧٥] وقد يعدهم صنفًا آخر بعد الأنبياء فيقول : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ ﴾ [النساء : ٦٩] ، وذكر الرسول ﷺ

من لا يزال يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقًا ، فهي صفة مبالغة من الصدق أو التصديق ، فالصدّيقون درجات كما أن الشهداء درجات وأن غيرهم من الصالحين درجات ، فالذين آمنوا بالله ورسله هم الصديقون وليس ثمة صديق غيرهم وأجورهم بقدر أعمالهم.

ثم إن رسول الله ﷺ سئل عن المؤمن يسرق ويزني؟ فأجاب: نعم ، أي في حال من الأحوال ولا يخرجه ذلك عن دائرة الإيمان ، وسئل عن المؤمن يكذب؟ فقال: لا . إذن فالمؤمن يصدق دائمًا فإن كذب خرج عن دائرة الإيمان ، وعلى هذا فالمؤمن صدّيق ولا يكون إلا كذلك.

﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ ﴾

وهذا على أحد معنيين:

إما أن يكون للشهداء أجر الصديقين ونورهم باعتبار أن الشهداء من الصديقين ، لأنه ليس ثمة شهيد إلا ممن آمن بالله ورسله.

وإما أن يكون للشهداء أجرهم ونورهم الخاص بهم ، كما نقول: لكم أجركم ولهم أجرهم على اعتبار أن الشهداء صنف آخر ، فللصديقية اعتباران:

اعتبار عام وهو من آمن بالله ورسله ، واعتبار خاص وذلك أنهم من صفوة المؤمنين بالله ورسله فلا يناقض أحدهما الآخر.

وقوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ ﴾ يمكن حمله على الاعتبارين:

على اعتبار أنهم من الصديقين لأنهم آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين.

وعلى اعتبار أنهم صنف خاص لهم وصفهم الخاص من بين عموم المؤمنين. جاء في (الكشاف): «﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ يريد أن المؤمنين بالله ورسله هم عند الله بمنزلة الصديقين والشهداء وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا في سبيل الله.

﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ أي مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم.

فإن قلت: كيف يسوي بينهم في الأجر ولا بد من التفاوت؟

قلت: المعنى أن الله يعطي المؤمنين أجرهم ويضاعفه لهم بفضله حتى يساوي أجرهم مع أضعافه أجر أولئك. ويجوز أن يكون ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ و﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ خبره»[1].

وقد ذكر في الآية الشهداء بعد الصديقين، كما في موطن آخر من القرآن الكريم وهو قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، فقد جعل الصدّيقين صنفاً بعد الأنبياء وذكر بعدهم الشهداء وذكر بعدهم عموم الصالحين.

وقال: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ فذكر أمرين الأجر والنور، وقد تردد هذان الأمران في السورة في أكثر من موطن، فقد ذكر بعد قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ قوله: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾.

وذكر بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ قوله: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾.

* * *

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٥.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

ذكر هؤلاء بمقابل ما مَرَّ في صدر الآية ، فذكر الذين كفروا بمقابل الذين آمنوا بالله ، وذكر الذين كذبوا بآياته سبحانه بمقابل الذين آمنوا برسله ، فإن الإيمان بالآيات يكون عن طريق الإيمان بالرسل ، فذكر أن هؤلاء أصحاب الجحيم ، أي ملازموه لا يفارقونه.

* * *

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

أجمل حقيقة ما يعيشه الناس في هذه الحياة بما ذكر في الآية. وقد رتب هذه الأشياء بحسب ترتيبها في حياة الناس مبتدئًا باللعب واللهو منتهيًا بالجد.

فبدأ باللعب وهو ما يقع في دور الطفولة والصبا. هذا هو الأصل وإن كان يطلق اللعب أحيانًا على نقيض الجد كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ ﴾ [التوبة: ٦٥] ، وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٣] ، وقوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان: ٩] ، وقوله : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

ثم ذكر اللهو وهو ما يكون في دور الفتوة والشباب. ثم إن اللهو أعم من اللعب ، فاللهو يقع للصغير والكبير.

ثم ذكر الزينة وهو مقصد من مقاصد الشباب والنساء في دور بداية اكتمال أنوثتهن.

وذكر بعدها التفاخر وهو أكثر ما يكون من شأن الرجال فيفتخرون بمآثر أفعالهم وأحسابهم وأنسابهم ومآثر آبائهم وأجدادهم.

ثم يأتي بعد ذلك دور التكاثر في الأموال والأولاد وهو التباري في جمعها، وهو المقصد الأهم في الحياة، إذ بالمال والأولاد تدوم الحياة وبهما ينشغل الناس وفيهما يجدّون. أما ما قبلها من الأمور فهي ليست بتلك المنزلة والمكانة.

وقدم الأموال على الأولاد لأن التكاثر في الأموال أكثر، وختم بالأولاد لأنهم أجلّ ما ذكر ولهم يترك المال.

جاء في (نظم الدرر): «لعب: أي تعب لا ثمرة له فهو باطل كلعب الصبيان، ولهو أي شيء يفرح الإنسان به فيلهيه ويشغله عما يعنيه ثم ينقضي كلهو الفتيان، ثم أتبع ذلك عظم ما يلهي في الدنيا فقال: (وزينة) أي شيء يبهج العين ويسر النفس كزينة النسوان، وأتبعها ثمرتها فقال: (وتفاخر) أي كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعض» (١).

وجاء في (تفسير الرازي): «المقصود الأصلي من الآية تحقير حال الدنيا وتعظيم حال الآخرة... ثم إنه تعالى وصفها بأمور:

(أولها) أنها لعب وهو فعل الصبيان الذي يتعبون أنفسهم جدًّا، ثم إن تلك المتاعب تنقضي من غير فائدة. و(ثانيها) أنها لهو، وهو فعل الشبان... و(رابعها) تفاخر بينكم بالصفات الفانية الزائلة» (٢).

وجاء في (التحرير والتنوير): «وهي أيضًا أصول أطوار آحاد الناس في تطور كل واحد منهم.

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٤٥٢.

(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

فإن اللعب طور سنّ الطفولة والصبا ، واللهو طور الشباب ، والزينة طور الفتوة ، والتفاخر طور الكهولة ، والتكاثر طور الشيخوخة. . .

واللعب هو الغالب على أعمال الأطفال والصبيان ، فطور الطفولة طور اللعب ، ويتفاوت غيرهم في الإتيان منه فيقل ويكثر بحسب تفاوت الناس في الأطوار الأولى من الإنسان وفي رجاحة العقول وضعفها. والإفراط فيه من غير أصحاب طوره يؤذن بخسة العقل ، ولذلك قال قوم إبراهيم له: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ . . . .

واللهو اسم لفعل أو قول يقصد منه التذاذ النفس به وصرفها عن ألم حاصل من تعب الجسد أو الحزن أو الكمد ، يقال: لها عن الشيء ، أي تشاغل عنه. . .

ويغلب اللهو على أحوال الشباب فطور الشباب طوره ، ويكثر اللهو في أحوال الدنيا من تطلب اللذات والطرب.

والزينة: تحسين الذات أو المكان بما يجعل وقعه عند ناظره مسرًّا له، وفي طباع الناس الرغبة في أن تكون مناظرهم حسنة في عين ناظريهم ، وذلك في طباع النساء أشد. . . ويغلب التزيين على أحوال الحياة ، فإن معظم المساكن والملابس يراد منه الزينة. . .

والتفاخر: الكلام الذي يفخر به ، والفخر: حديث المرء عن محامده والصفات المحمودة منها فيه بالحق أو الباطل ، وصيغ منه زنة التفاعل لأن شأن الفخر أن يقع بين جانبين كما أنبأ به تقييده بظرف (بينكم). . .

والتكاثر: تفاعل من الكثرة ، وصيغة التفاعل هنا للمبالغة في الفعل بحيث ينزل منزلة من يغالب غيره في كثرة شيء. . . ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر فصارت تستعمل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة

مغالبة الغير ممن حصل عليه»[(١)].

وقد اقتصر في مواضع أخرى من القرآن الكريم على اللعب واللهو ولم يذكر الزينة وما بعدها ، قال تعالى : ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦].

وقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فاقتصر كما ترى على اللعب واللهو ؛ ذلك لأن ما ذكره في آية الحديد من زينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد قد يندرج تحت اللهو.

فالزينة قد تلهي ، والتفاخر قد يلهي ، والتكاثر في الأموال والأولاد قد يلهي ، فقد سمى الله المال والبنين زينة فقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] ، وقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ ـ ٢].

وتندرج كثير من أمور الحياة في معنى اللعب بمعناه الواسع ، وهو ما كان نقيض الجد وما لا يقصد به من الأعمال قصدًا صحيحًا كما ورد في القرآن مما سماه لعبًا.

ولما فصل في آية الحديد في حقيقة الحياة الدنيا فصل في وصفها وعاقبتها ، ولما أجمل في الآيات الأخرى لم يذكر شيئًا آخر يتعلق بها وإنما ذكر الآخرة أو أمورًا أخرى لا تتعلق بوصف الحياة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٠١ ـ ٤٠٣.

وقدَّم اللعب على اللهو فيما مَرَّ من الآيات إلا في آية واحدة قدَّم فيها اللهو على اللعب وهو قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وذلك لأن السياق يقتضي هذا التقديم، ذلك أنه تقدم الآية قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ والرزق مدعاة إلى الالتهاء به والمشغلة لجمعه لا إلى اللعب، ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فالذي بسط له رزقه ملتهٍ بجمعه والذي قدر عليه رزقه ملتهٍ بالحصول عليه.

ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] ومع معرفتهم وإقرارهم بذاك التهوا بالدنيا عن الله وعبادته وعن الآخرة، فناسب تقديم اللهو.

ولم يتقدم آية الأنعام ولا آية محمد ما يدعو إلى اللهو فكان تقديمه في آية العنكبوت أنسب.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾

شبه الحياة الدنيا بغيث أعجب الكفار نباته. والكفار هم الكافرون بالله الجاحدون لنعمه. وقال بعضهم: إن الكفار هم الزراع؛ لأن الزارع قد يسمى كافراً؛ لأنه يكفر البذر الذي يبذره بتراب الأرض، أي يغطيه[١].

ويترجح عندي المعنى الأول، فإن الكافرين هم الذين يغترون بالدنيا وهم أشد إعجابًا بها وبزينتها. ولا مانع من أن يكون المعنيان مقصودين، فإنه من التوسع في المعنى الذي يراعيه القرآن كثيرًا.

---

(١) انظر تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٥، الكشاف ٤/ ٦٥.

وقد ذكر القرآن الزراع باسمهم في سورة الفتح حين وصف أصحاب محمد فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

واختيار الزرّاع هنا أنسب، كما أن اختيار الكفّار هناك أنسب، ذلك أن التشبيه في سورة الفتح وقع لصورة محمودة فناسب ذكر الزراع لا الكفار، بخلاف ما في سورة الحديد.

ثم إنه قال في آية الفتح: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ فلا يناسب أن يقول: يعجب الكفار ليغيظ بهم الكفار.

ثم إنه قال: (الزراع) في آية الفتح للدلالة على أنه زرع مقصود؛ لأن الزارع يزرع ما ينتفع به وينتفع به الآخرون، بخلاف ما ذكر في آية الحديد فإنه قال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ وهو ما يخرج بسبب المطر من أنواع مختلفة، منها ما لا فائدة فيه للإنسان ومنها الأدغال والحشائش، فكان كل تعبير في مكانه أنسب.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾

ذكر مآل الزرع وناسب ذلك ذكر الزينة والأموال فذكر زوالهما وذهابهما وذلك شأن الدنيا.

لقد قال: ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ ولم يقل: (ثم يكون مصفرًّا). كما قال: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ و ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ بإسناد الفعل إلى النبات. أي يراه الناظر مصفرًّا وذلك للدلالة على زوال الزينة وذهابها، فإن الزينة تتعلق بالناظر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]، ومن ناحية أخرى ليدل على موطن العبرة والاتعاظ فإن ذلك يحصل بالرؤية.



وقال: ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ ﴾ أي هذا مآله ، ولم يقل: (ثم تراه حطامًا) فلم يعلق ذلك بالرؤية ، وإنما أراد أن يبين أنه يكون كذلك ، إذ ربما يكون الشيء غير ذي زينة للناظر ولكنه ثمين نافع وهو من كرائم الأموال ، فقال: ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ ﴾ فيذهب المال ويزول فلا يبقى مال ولا تكاثر ولا تفاخر ولا زينة لأن الحطام ليس مالاً ولا يُتفاخر أو يتكاثر به.

بل سيذهب اللعب واللهو معه ، فإن الذي لم يبق له إلا الحطام لا يلعب ولا يلهو ، وكيف يلهو ويلعب وقد أصبح ما لديه حطامًا؟

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (ثم يجعله حطامًا) كما قال في سورة الزمر؟

والجواب: إن السياق مختلف في الآيتين.

ففي آية الزمر الأفعال مسندة إلى الله ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١] ، فالله هو الذي أنزل من السماء ماء ، وهو الذي سلكه ينابيع في الأرض ، وهو الذي أخرج به الزرع ، فناسب أن يقول: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ لأن الذي أخرجه هو الذي يجعله حطامًا.

وليس كذلك التعبير في آية الحديد ، فإنه قال: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ ﴾ فلم يسند حدثًا إلى نفسه سبحانه ، فناسب كل تعبير موضعه.

﴿ وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ ﴾

قدم العذاب على المغفرة لأنه ذكر قبله اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر مما ليس محمودًا على العموم.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن العذاب يسبق المغفرة والرضوان ، فعذاب الموقف قبل الحساب وقبل القضاء وقبل الدخول في الجنة أو النار. وورود النار لجميع الخلق قبل الدخول في الجنة كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] ومن الناس من يعذب أولاً ثم يدخل الجنة. ووصف العذاب بأنه شديد.

وذكر أن المغفرة والرضوان من الله ، ولم يذكر مثل ذلك في العذاب للدلالة على سعة رحمته ، وقدم المغفرة على الرضوان لأنها أسبق منه وهي قبله ، جاء في (روح المعاني): «﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا ، و(مغفرة) عظيمة (من الله ورضوان) عظيم لا يقادر قدره.

وفي مقابلة العذاب الشديد بشيئين إشارة إلى غلبة الرحمة وأنه من باب (لن يغلب عسر يسرين). وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله تعالى مع وصف ما بعده بذلك إشارة إلى غلبتها أيضًا» [١].

وقال: (مغفرة) ولم يقل: (غفران) ؛ ذلك أن كلمة (غفران) لم ترد في القرآن الكريم إلا في موطن واحد لمعنى واحد وهو طلب المغفرة من الله وهو قوله: ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وأما المغفرة من الله فتأتي في غير الطلب كالإخبار بها والدعوة إليها وغير ذلك. قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٢١] ، وقال: ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ، وقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦].

وقد تكون المغفرة من غير الله ، قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ١٨٥.

﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣].

وقال: (رضوان) ولم يقل: (مرضاة) لأن الرضوان معناه «الرضا الكثير، ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى خص لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى»(١).

قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]، وقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١] وقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وأما المرضاة فإنها تستعمل له ولغيره، قال تعالى: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحريم: ١]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ثم إن (المرضاة) لم تستعمل إلا في ابتغاء الرضا، وأما الرضوان فهو عام يستعمل في ابتغاء الرضا وغيره، قال تعالى في المرضاة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال في الرضوان: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١] وهذا في غير ابتغاء الرضا.

وقال في ابتغاء الرضا: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]

ومن هذا يتبين أن المغفرة:

١ ـ تستعمل في المغفرة من الله وغيره، فهي عامة من حيث الغافر.

---

(١) مفردات الراغب، مادة (رضي).

٢ ـ انها عامة في غير الطلب ، فهي عامة من حيث الدلالة بخلاف (الغفران) فإنه خاص بمعنى واحد وهو طلب المغفرة ، وخاص في الغافر وهو الله .

وأن المرضاة:

١ ـ خاصة في ابتغاء الرضا ، فهي لم تستعمل في غيره .

٢ ـ وأنها عامة في المبتغى منه الرضا ، فهو الله أو غيره .

وأن الرضوان:

١ ـ خاص في أنه من الله .

٢ ـ عام في ابتغاء الرضا وغيره ، فهو عام من حيث الدلالة .

فخصص المغفرة وقال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لتقابل الرضوان ؛ لأن الرضوان مخصص في كونه من الله .

وكلاهما مطلق من حيث الدلالة ، فتناظرا من حيث كونهما خاصين بالله ، عامين من حيث الدلالة . والله أعلم .

* * *

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

بعد أن ذكر الدنيا وعاقبتها دعا إلى ما هو خير وأبقى فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ ، وقدم المغفرة على الجنة لأنها تسبقها وهي سبب دخولها .

وقال: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فذكر أن المغفرة من ربنا ، وقال في

الآية التي قبلها: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فذكر أن المغفرة من الله. وسبب هذا الاختلاف ـ والله أعلم ـ أنه في هذه الآية أمر عباده بالمسابقة فقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فناسب أن يقول لهم إن المغفرة من ربكم فيضيف الربوبية إليهم. فهو ربهم ومتولي أمرهم وهو يرشدهم إلى ما هو خير لهم.

أما الآية التي قبلها فهي وصف للحياة الدنيا وليست خطابًا لأحد، فذكر أنها كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًّا إلى آخر ما ذكر، فناسب أن يقول: ﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

وقد تقول: لقد قال في سورة آل عمران: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤]

وثمة اختلاف ظاهر بين الآيتين على ما بينهما من تشابه كبير نجمله بما يأتي:

آية الحديد	آية آل عمران
سابقوا	وسارعوا
كعرض السماء والأرض	عرضها السماوات والأرض
(بذكر أداة التشبيه وإفراد السماء)	(بحذف أداة التشبيه وبجمع السماء)
أعدت للذين آمنوا بالله ورسله	أعدت للمتقين الذين ينفقون...
ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء	--
والله ذو الفضل العظيم	--

فما سر هذا الاختلاف؟

ونقول: لقد بينا ذلك في كتابنا (التعبير القرآني)[١]. فذكرنا أن كلمة (السماء) تستعمل في القرآن الكريم على أحد معنيين:

إما أن تكون لواحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، وإما أن تكون لما عدا الأرض مما علا، كالجو والسحاب والمطر والسقف والسماوات عمومًا، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٢٤] والسماء هنا بمعنى السحاب، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الروم: ٤٨] أي يبسطه في الجو، وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أي يأخذ في العلو والارتفاع، وقوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١] وهي هنا بمعنى المطر، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وهي هنا عامة تشمل السماوات السبع وغيرها.

فالسماء بالمعنى العام متسعة اتساعًا كبيرًا، وهي تشمل السماوات السبع وغيرهن مما علا وارتفع عن الأرض.

فلما جاء بالسماوات قال: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فحذف كاف التشبيه، ولما جاء بالسماء التي هي متسعة اتساعًا كبيرًا والسماوات جزء منها قال: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فجاء بكاف التشبيه.

«ثم ألا ترى كيف قال الله تعالى في كل من الآيتين؟ ففي آية السماوات قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وفي آية السماء قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ

---

(١) التعبير القرآني ـ طبعة دار ابن كثير ص٥٣ وما بعدها.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ وذلك لأن المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسله ، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمنًا أما المؤمن بالله ورسله فقد لا يكون متقيًا ، فالمؤمنون بالله ورسله أكثر من المتقين ، فجاء للطبقة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسله بذكر صفتها الواسعة ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ﴾ ، وجاء مع الطبقة الخاصة الذين هم أقل ممن قبلهم وهم المتقون بلفظ (السماوات) التي هي أقل سعة من السماء ، فناسب بين السعة والعدد.

ثم انظر كيف زاد في آية الحديد قوله : ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ، وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسّع دائرة الداخلين في الجنة ، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقصرها على المتقين منهم ، ذكر هذا الفضل العظيم في آية الحديد.

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال : (سابقوا) ، وفي الآية الأخرى قال : (سارعوا) ، وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكانٍ ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المسارعة.

فانظر كيف ذكر في آية الحديد (المسابقة) وهي تشمل المسارعة وزيادة ، وذكر (السماء) وهي تشمل السماوات وزيادة ، وذكر المؤمنين بالله ورسله وهم يشملون المتقين وزيادة ، وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة ، فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فجلّت حكمة الله» (١).

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن كل آية مناسبة للسياق الذي وردت فيه ، فإنه تقدم آية الحديد المسابقة في أمور الدنيا من لعب وزينة

---

(١) التعبير القرآني ـ طبعة دار ابن كثير ص٥٣ ـ ٥٤.

وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد ، فإن اللعب قد تكون فيه مسابقة ، والزينة قد تكون فيها مسابقة ، والتفاخر إنما هو مسابقة بين المتفاخرين ، والتكاثر في الأموال إنما هو تبارٍ وتسابق في جمعها ، فناسب أن يقول: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ فنبههم على ما تجدر فيه المسابقة.

ولم يتقدم آية آل عمران ما يدل على المسابقة ، وإنما تقدمها النهي عن أكل الربا والأمر باتقاء النار والأمر بطاعة الله والرسول ، فناسب الأمر بالمسارعة وعدم التواني في ذلك. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣٣].

ولما تقدم ذكر متعاطفات في آيات آل عمران من نحو قوله: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ . . . وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ . . . وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ . . . وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ. . .﴾ ناسب أن يعطف عليها فقال: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. ولما لم يتقدم آية الحديد ما يعطفها عليه قال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ من دون ذكر لواو العطف.

ولما تقدم آية آل عمران الأمر بالتقوى فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. . . وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ناسب أن يقول في الجنة إنها ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

ولما تقدم آية الحديد ذكر المؤمنين بالله ورسله فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ ناسب أن يقول إنها: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

وقال في آيات آل عمران: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ

وَٱلضَّرَّآءِ. . .﴾ وذلك أنه تقدم الآية النهي عن أكل الربا أضعافًا مضاعفة فدعا إلى الإنفاق في السراء والضراء ، فناسب أن يذكر أن الجنة للمنفقين وهم الذين يخرجون من أموالهم ابتغاء مرضاة الله في الرخاء والشدة لا لمن يأكل أموال الناس بغير وجه حق. فالمؤمنون ينفقون في الشدة ، وأولئك يأكلون مال من وقع في الشدة فاضطر إلى الاستدانة.

وكذلك كل ما ذكر من صفات أخرى من نحو قوله: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ كل ذلك تقدمه ما يناسب ذكره. ولم يتقدم آية الحديد شيء من ذلك ، ولولا خشية الإطالة والابتعاد عما نحن بصدده لبينت ذلك بالتفصيل.

وختم آية الحديد بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ لما ذكر تفضله على عباده فذكر أن الجنة أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ولم يذكر شيئًا آخر مع الإيمان حتى أنه لم يذكر العمل وذلك أعظم الفضل. جاء في (تفسير الرازي): «قوله: ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ فيه أعظم رجاء وأقوى أمل إذ ذكر أن الجنة أعدت لمن آمن بالله ورسله ولم يذكر مع الإيمان شيئًا آخر. . . ومما يتأكد به ما ذكرناه قوله بعد هذه الآية: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ »(١).

هذا علاوة على ما ورد في السورة من أفضال أخرى من مضاعفة الأجور وأنه يؤتي المؤمنين كفلين من رحمته ويجعل لهم نورًا يمشون به ويغفر لهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾ [الآية: ٢٨].

وختم السورة بفضله العظيم فقال: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٣٦.

يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فناسب كل تعبير موضعه من كل وجه.

* * *

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾

ذكر أنه ما حلّت من مصيبة في الأرض أو في نفس إلا وهي مكتوبة مقدرة قبل وقوعها.

ومن الملاحظ أن القرآن لا يستعمل مع المصيبة إلا الفعل (أصاب) أو ما تصرّف منه ولم يستعمل فعلاً آخر فلم يقل مثلاً: ما حلّت من مصيبة أو ما وقعت أو نحو ذلك، وذلك ـ والله أعلم ـ أن أصل (أصاب) من الإصابة ضد الخطأ، فأنت تقول: أصاب فلان الهدف، أي لم يخطئه، وأصاب فلان في كلامه، أي لم يخطئ، فكأنه سبحانه يريد أن يبين لنا أن المصائب هي مقدّرة وقد أصابت مكانها المقدر لها ولم تخطئه.

والمصيبة في الأرض نحو الآفات والجدب والكوارث وغيرها، وفي الأنفس نحو الأدواء والأمراض والموت ونحوها.

وذكر المصيبة في الأرض والأنفس، وقدم الأرض على الأنفس لأنها موجودة قبل وجود الإنسان، وقد وقعت فيها المصائب قبل أن يخلق الإنسان.

وقال: ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾ بـ (من) الاستغراقية للدلالة على أنه قدرها كلها على وجه الاستغراق فلا تندّ عن ذلك مصيبة مهما عظمت أو هانت.

وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ فأطلق الفعل ولم يقيده بمفعول معين، فلم يقل مثلاً: (ما أصابكم من مصيبة) لأن الكلام مطلق وليس خاصًّا

بالمخاطبين. بخلاف ما جاء مثلاً في سورة الشورى في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم﴾ فعدى الفعل إلى ضمير المخاطبين؛ وذلك لأن الكلام يتعلق بهم ولذلك قال: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

ومثل ما جاء في سورة الحديد من الإطلاق قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [التغابن: ١١] فإنه أطلق الفعل لأنه أراد الإطلاق والعموم ولم يقيده بمصاب معين.

وقال: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ ولم يقل: (من قبل أن تقع) ليدل بذلك على علمه وقدرته وعلى أنه هو الذي أوجدها. ولو قال (من قبل أن تقع) لدل على علمه بها ولم يدل على أنه هو الذي أوجدها.

وقد دل قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ على التوحيد أيضاً ونفي الشرك؛ لأن كل ما يحدث من مصيبة في الأرض أو في الأنفس إنما برأها هو وليس غيره، فدل ذلك على عدم الشريك، ولو قال: (من قبل أن تقع) لم يدل على ذلك صراحة.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ يدل على القضاء والقدر، وأن كل شيء مدون قبل وقوعه، وأن الأمور لا تجري اعتباطاً دون علم مسبق، مما يدل على بالغ حكمته سبحانه.

وضمير النصب في (نبرأها) يحتمل أنه يعود على المصيبة أو على الأنفس أو على الأرض أو على جميع ذلك[1]. وهو الأولى، أي إن ما يقع من مصيبة في الأرض أو في الأنفس إنما هو مدون في كتاب قبل خلق الأرض، وقبل خلق الأنفس، وقبل وقوع المصيبة.

---

(١) انظر فتح القدير ٥/ ٢٤٩.

وجمع ضمير الفاعل في الفعل (نبرأها) للتعظيم ، ثم عقب على ذلك بالإفراد فقال: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ليدل على أنه واحد لا شريك له ، وهو مما جرى عليه التعبير في القرآن كما أشرت أكثر من مرة ، فإنه لم يأت بضمير التعظيم مرة إلا وسبقه أو أتبعه بالإفراد.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

قدم الجار والمجرور ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ على خبر إن ﴿ يَسِيرٌ ﴾ للدلالة على الحصر ، أي أن ذلك على الله وحده يسير لا على غيره. أما غيره فلن يستطيع ذلك. ولو قال: (إن ذلك يسير على الله) لدل على أنه يسير على الله وليس فيه حصر اليسر عليه. فقولك: (هو هين عليّ) يعني أنه هين عليك ولا يعني أنه ليس هينًا على غيرك. بخلاف ما لو قلت: (هو عليّ هين) فإنه حصر الهون عليك لا على غيرك.

* * *

﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

يعني إذا كان كل ما فاتكم مقدرًا مدونًا قبل فوته فلمَ الأسى عليه؟ وإذا كان كل ما أصابكم من خير مقدرًا مدونًا قبل وصوله إليكم فلم الاختيال والفرح المبطر ، ولم الفخر بما قدره الله لك وآتاك إياه؟

وإذا كانت الدنيا كلها بما فيها من متاع وزينة وأموال زائلة وأن ذلك كله سيكون حطامًا وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، فَلِمَ الأسى على ما فات والفرح بما أوتيت وهو خارج من يدك لا محالة؟

وفي الإعلام بذلك توطين للنفس على قبول ما يحصل لها من ضر وعدم الاختيال والفخر على عباد الله بما آتاه الله من النعم ، وإراحة لها من

القلق والتسليم والرضا بقضاء الله وقدره. وفي ذلك الخير كل الخير للمؤمن.

جاء في (الكشاف): «﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ يعني أنكم إذا علمتم أن كل شيء مقدر مكتوب عند الله قلّ أساكم على الفائت وفرحكم على الآتي؛ لأن من علم أن ما عنده مفقود لا محالة، لم يتفاقم جزعه عند فقده؛ لأنه وطن نفسه على ذلك، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه، وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ لأن من فرح بحظ من الدنيا وعظم في نفسه، اختال وافتخر به وتكبر على الناس...

فإن قلت: فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ولا عند منفعة ينالها أن لا يحزن ولا يفرح.

قلت: المراد الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء ثواب الصابرين، والفرح المطغي الملهي عن الشكر، فأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام، والسرور بنعمة الله والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما»(١).

وقدم الأسى على الفرح لما تقدم من ذكر للمصيبة.

وقد تقول: لقد قال تعالى في آل عمران: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وقال ههنا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ﴾.

فقال في آل عمران: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا﴾، وقال ههنا: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ فما الفرق؟

---

(١) الكشاف ٤/٦٦.

فنقول: إن كلا الفعلين يفيد الحزن، إلا أن في كلمة (حزن) شدة ومشقة أكبر ، فالحزن في النفس قريب من معنى الحَزْن في الأرض، كلاهما فيه شدة ومشقة. فـ(الحَزْن) بفتح الحاء وسكون الزاي هو الخشونة والغلظ في الأرض ، و(الحُزْن) بضم الحاء وسكون الزاي هو ما يشق على النفس ويغلظ عليها، ولما كان الحزن في النفس أشد على الشخص وأشق من الغلظ في الأرض ، جعلت العرب الضمة وهي أثقل من الفتحة للثقيل، والفتحة لما هو أخف ، فناسبت بين الحركة والوصف.

والحزن في آية آل عمران أشق وأشد مما في آية الحديد ، ذلك أن السياق في آل عمران هو فيما حصل للمسلمين في معركة أحد من غم وحزن وهزيمة فقال: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ .

فالحزن في أُحُد على أمرين: على ما فاتهم من الغنائم ، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والقتل والجراح فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾

أما في آية الحديد فالحزن على ما فات من الخير فقط ؛ لأنه قال بعدها: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي بما آتاكم من الخير والنعم. فكان الحزن في آل عمران أشق وأشد ، فاستعمل الحزن الشديد الثقيل لما هو أثقل ، والذي هو أخف منه لما هو أخف ، والله أعلم.

جاء في (المفردات) للراغب: «الحُزْن والحَزْن خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم ، ويضادّه الفرح ، ولاعتبار الخشونة بالغم قيل: خشنت بصدره إذا حزنته» (١) .

---

(١) مفردات الراغب (حزن) ١٢٣ .

﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

أي ما آتاكم الله من الخير ، فأسند إيتاء الخير إليه سبحانه ، ولم يقل : (بما أتاكم) كما قال : ﴿ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ فأسند الفوت إلى الشيء الفائت ولم يسنده إلى الله ، فلم يقل مثلاً : (لكيلا تأسوا على ما فوّته عليكم) أو (على ما أفاته عليكم) بل قال : ﴿ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ فأسند الخير إلى نفسه وفَوْته إلى غيره ، وهو الخط التعبيري الواضح في القرآن الكريم ، فإنه يسند الخير والنعم إلى نفسه سبحانه ، بخلاف السوء[1] . وهو نظير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ [الإسراء: ٨٣] فإنه أسند النعمة إلى نفسه فقال : (أنعمنا) ، بخلاف السوء فإنه أسنده إلى الشر فقال : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾ ولم يقل : (مسسناه بالشر) .

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

أي متباهٍ بما عنده متكبر على الخلق كثير الفخر عليهم. وكلا الوصفين مختال وفخور يفيد المبالغة ، أحدهما في السلوك وهو الاختيال ، والآخر في القول وهو الفخر ، فذم السيّء من الصفات في القول والسلوك. وقد ذكرنا في تفسيرنا لسورة لقمان سبب توكيد ما جاء في لقمان بإن ، أعني قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ وعدم توكيده ههنا ، وذكرنا أمورًا أخرى فلا نعيد القول فيه .

وذكر هذين الوصفين بعد قوله : ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ لأن النعم قد تؤدي إلى الاختيال والفخر ، فالإنسان قد تبطره النعمة ويدعوه الفرح الزائد بها إلى الاختيال والفخر . وذكّره ربه بأن الله هو الذي آتاه ذاك فلا ينبغي أن يختال ويفخر عليهم ، فإن الله الذي آتاه الخير لا يحب ذاك .

---

(١) انظر معاني النحو ٢/ ٤٩٤ وما بعدها .

وفي هذا تهديد للمختالين الفُخُر ، جاء في (تفسير الرازي) : «﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ فدل بهذا على أنه ذم الفرح الذي يختال فيه صاحبه ويبطر ، وأما الفرح بنعمة الله والشكر عليها فغير مذموم» [١] .

* * *

﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾

هذا وصف آخر للذين لا يحبهم الله ، وهم الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، لا يكتفون بذاك بل يأمرون الناس بالبخل ، ولعل من دواعي ذلك أنهم لا يريدون أن يذكر غيرهم بخير فيتساوون في الوصف فلا يكون أحد أفضل من أحد ، كما أخبر ربنا عن المنافقين بقوله : ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء : ٨٩] .

و﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بدل على رأي الأكثرين لاختلاف التابع والمتبوع تعريفًا وتنكيرًا ، ونعت عند من يجيز أن تنعت النكرة المخصصة بالمعرفة ، نظير قولهم في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ [الهمزة : ١ ـ ٢] .

ومن يتولّ عما أمر الله به فإن الله غني عنه . وقال : ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ﴾ ولم يقل : (غني) لأنه لا غنيّ على الحقيقة سواه ، فعرّف الوصف بأل وجاء بضمير الفصل للدلالة على الحصر .

وقد تقول : لقد قال الله في مكان آخر : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢] فلم يعرّف الغني فما السبب؟

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٠ .

فنقول: إن السياق في كل من الآيتين مختلف ، فإنه لم يذكر في سياق آية لقمان ملكًا له ولم يذكر أنه آتى الناس شيئًا فلم يعرف الغني.

أما في سياق هذه الآية فإنه ذكر أنه هو الذي آتانا فقال: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ فإذا كان الإنسان يرى أنه استغنى أو يرى أنه غني فذاك مما آتاه الله ، فالله إذن هو الغني وحده.

وهذه الآية في التوكيد والقصر نظير قوله في سورة لقمان: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الآية: ٢٦] فإنه لما ذكر ملكه وأن له ما في السماوات والأرض أكد غناه وقصره عليه فعرف الغني وجاء بضمير الفصل.

ولم يكتف بوصف ذاته العلية بالغني بل قال: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فهو المحمود في غناه والمحمود في صفاته كلها على جهة الثبوت. وهو تعريض بالأغنياء المذمومين الذين لا يحمدهم أحد ولم يأتوا في غناهم بما يحمدون عليه.

جاء في (الكشاف): «﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بدل من قوله: ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ كأنه قال: (لا يحب الذين يبخلون) يريد الذين يفرحون الفرح المطغي إذا رزقوا مالاً وحظًّا من الدنيا ، فلحبهم له وعزته عندهم وعظمه في عيونهم يزوونه عن حقوق الله ويبخلون به ولا يكفيهم أنهم بخلوا حتى يحملوا الناس على البخل ويرغبونهم في الإمساك ويزينونه لهم ، وذلك كله نتيجة فرحهم وبطرهم عند إصابته ، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن أوامر الله ونواهيه ولم ينته عما نهى عنه من الأسى على الفائت والفرح بالآتي فإن الله غني عنه»[1].

* * *

(١) الكشاف ٤/ ٦٦.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

* * *

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾

البينات: هي المعجزات الظاهرة والدلائل والحجج التي تدل على النبوة[١] ، وذلك كعصا موسى وإبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياء الموتى ونحو ذلك من الآيات البينات التي تدل على صحة النبوة وصدق المرسلين.

و(الميزان) هو كل ما يتميز به الحق من الباطل ، والعدل من الظلم ، والزائد من الناقص. ومنه الآلة المعروفة بين الناس.

جاء في (تفسير الرازي): «﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ . . . إنها هي المعجزات الظاهرة والدلائل القاهرة. . . والميزان هو الذي يتميز به العدل عن الظلم والزائد عن الناقص»[٢].

وجاء في (تفسير ابن كثير): «﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ وهو العدل. . . [وقيل] وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة»[٣].

وجاء في (روح المعاني): «﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي الحجج والمعجزات. . . و﴿ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ الآلة المعروفة بين الناس. . . وإنزاله إنزال أسبابه»[٤].

---

(١) انظر تفسير الرازي ٢٩/ ٢٤١ ، روح المعاني ٢٧/ ١٨٨ .
(٢) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٤١ ـ ٢٤٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٢ .
(٤) روح المعاني ٢٧/ ١٨٨ .

وجاء في (التحرير والتنوير): «الميزان: مستعار للعدل بين الناس في إعطاء حقوقهم لأن مما يقتضيه الميزان وجود طرفين يراد معرفة تكافئهما. . . وهذا الميزان تبينه كتب الرسل، فذكره بخصوصه للاهتمام بأمره لأنه وسيلة انتظام أمور البشر» (١).

وقدم البينات على الكتاب لأنها هي التي تشهد بصحته وتدعو إلى قبوله والإيمان به والأخذ بتعاليمه.

وقدم الكتاب على الميزان لأن فيه بيان الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف على العموم، ومنها إقامة الوزن بالقسط. ويشمل أحكام المعاملات وغيرها كالعقائد وبيان ما يصلح حياة الإنسان في الدنيا والآخرة فهو أهم وأثره أعم وأشمل.

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾

علة لإنزال الميزان، كما يصح أن يكون علة لما تقدم من إنزال الكتاب والميزان، وهو ما يترجح في ظني، فإن القسط يكون في الوزن وغيره من الأحكام، قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧]، وقال: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] وهذا في غير الوزن.

جاء في (البحر المحيط): «﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ الظاهر أنه علة لإنزال الميزان فقط، ويجوز أن يكون علة لإنزال الكتاب والميزان معًا؛ لأن القسط هو العدل في جميع الأشياء من سائر التكاليف، فإنه لا جَور في شيء منها، ولذلك جاء ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤١٦.

﴿ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]» (١).

وقال: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ ولم يقل: (ليقوم الناس بالعدل) مع أن من معاني القسط العدل، ذلك أن استعمال (القسط) أنسب ههنا من (العدل)، فإن (القسط) يأتي لمعنى «الحصة والنصيب، يقال: أخذ كل واحد من الشركاء قسطه، أي حصته. وكل مقدار فهو قسط في الماء وغيره... والقِسط بالكسر: العدل... والإقساط: العدل في القسمة والحكم» (٢).

والعدل «ما قام في النفوس أنه مستقيم... والعدل من الناس: المرضيّ قوله وحكمه... [عن سعيد بن المسيب]: إن العدل على أربعة أنحاء: العدل في الحكم، قال الله تعالى: ﴿وإنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالعَدْلِ﴾ (٣) والعدل في القول، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ والعدل: الفدية... والعدل في الإشراك» (٤).

وفي الآية استعمال (القسط) أنسب وذلك لذكر الميزان، فإن الغرض من الوزن أن يأخذ الشخص حصته ونصيبه وهو من معاني القسط، ولذا لم يرد في القرآن الكريم مع الوزن إلا لفظ (القسط) ولم يستعمل معه العدل، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

---

(١) البحر المحيط ١٠/ ١١٣.

(٢) لسان العرب (قسط) ـ دار صادر ـ ٧/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٣) كذا في اللسان، والصواب ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾.

(٤) لسان العرب (عدل) ١١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١.

ومن أسماء الميزان (القسطاس)، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر الفعل (يقوم) فقال: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. وقد ورد فعل القيام في القرآن مع لفظ (القسط) ولم يرد مع (العدل)، قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٢٧]، وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩] فناسب ذكر القسط من أكثر من جهة.

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾

ورود هذا التعبير بعد قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ إشارة إلى أن الحق به حاجة إلى القوة لتحميه وتحفظه، وأن الميزان وقيام الناس بالقسط إنما يكون بالبأس الشديد والقوة، قال عثمان رضي الله عنه: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن).

جاء في (روح المعاني): «﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قال الحسن: أي خلقناه... ﴿فِيهِ بَأْسٌ﴾... وهذه إشارة إلى احتياج الكتاب والميزان إلى القائم بالسيف ليحصل القيام بالقسط، فإن الظلم من شيم النفوس»[١].

وقال: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ولم يقل: فيه قوة، وذلك للدلالة على الردع بالقوة وبالحرب إذا اقتضى الأمر، ذلك أن معنى البأساء: الحرب والمشقة والضرب. و(البأس) معناه الشدة في الحرب، والبأس: العذاب[٢].

---

(١) روح المعاني ٢٧/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩.
(٢) انظر لسان العرب (بأس) ٦/ ٢٠.

قال تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥] أي أشداء في الحرب. وقال: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]، وقال: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [النساء: ٨٤]، وقال: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي حين القتال، وقال: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨] أي الحرب، وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥] فأنت ترى أن البأس إنما يكون في الحرب أو نحوها.

أما القوة فهي عامة في الحرب وغيرها، قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، وقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، وفي قصة سليمان: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُوْلُوا۟ قُوَّةٍ وَأُوْلُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٣٣] أي أن معهم القوة، وهم مع ذلك أشداء في الحرب، لأن الإنسان قد يملك القوة ولكن ليس ذا بأس في الحرب والقتال، كمن يملك سيفًا ورمحًا وليست عنده الشجاعة والثبات في الحرب.

فقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ بعد قوله: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ للدلالة على أن الحق إنما يحمى بالقوة.

جاء في (تفسير الرازي) «والحاصل أن الكتاب إشارة إلى القوة النظرية، والميزان إلى القوة العملية، والحديد إلى دفع ما لا ينبغي، ولما كان أشرف الأقسام رعاية المصالح الروحانية ثم رعاية المصالح الجسمانية ثم الزجر عما لا ينبغي روعي هذا الترتيب في هذه الآية.

وثانيها: المعاملة إما مع الخالق وطريقها الكتاب ، أو مع الخلق وهم إما الأحباب والمعاملة معهم بالسوية وهي الميزان ، أو مع الأعداء والمعاملة معهم بالسيف والحديد.

وثالثها: الأقوام ثلاثة:

إما السابقون ، وهم يعاملون الخلق بمقتضى الكتاب فينصفون ولا ينتصفون ، ويحترزون عن مواقع الشبهات.

وإما مقتصدون ، وهم الذين ينصفون وينتصفون ، فلا بد لهم من الميزان ، وإما ظالمون ، وهم الذين ينتصفون ولا ينصفون ، ولا بد لهم من الحديد والزجر . . .

وسابعها: الكتاب إشارة إلى ما ذكر الله في كتابه من الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف ، والميزان إشارة إلى حمل الناس على تلك الأحكام المبنية على العدل والإنصاف ، وهو شأن الملوك ، والحديد إشارة إلى أنهم لو تمردوا لوجب أن يحملوا عليهما بالسيف» (١).

وذكروا في إنزال الحديد قولين:

الأول: إنزاله من السماء.

والقول الآخر: أن معنى الإنزال هو الإنشاء والتهيئة والخلق ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] (٢).

ويذهب المحدثون إلى القول الأول ، فهم يقولون: إن الحديد إنما أنزل من السماء.

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٢.

(٢) انظر تفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٣ ، روح المعاني ٢٧/ ١٨٨ ، الكشاف ٤/ ٦٦.

ولا مانع من أن يكون القولان صحيحين ، فالله خلقه وأنزله ، والله أعلم.

﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ «في مصالحهم ومعايشهم وصنائعهم»[١]. ونكّر المنافع للإطلاق. وذكر أن المنافع للناس ولم يذكر أن إنزال الحديد للناس ، فهو لم يقل: (وأنزلنا الحديد للناس فيه بأس شديد ومنافع لهم) لأن المعنى سيكون أنه أنزل الحديد للناس ليقتتلوا وليذيق بعضهم بأس بعض. وليس هذا هو المقصود ، فذكر أن المنافع للناس دون البأس الشديد ، وإنما البأس الشديد ليقوم الناس بالقسط ولنصرة الحق والعدل وإشاعته.

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾

هذا تعليل لكل ما تقدم من إنزال الكتب والميزان وإنزال الحديد ليعلم الذين ينصرونه في كل ذلك من دعوة إلى الله وتبيين لأحكامه وطاعة له وجهاد في سبيله ، فإن ذلك كله نصر لله ورسله.

وقوله: ﴿ بِٱلْغَيْبِ﴾ للدلالة على إخلاصهم في نصرتهم لله ورسله ، فهم ينصرونه سواء علم بهم عباد الله وأبصروهم أم لم يعلم بهم أحد غير خالقهم ، فهم ينصرونه على كل حال.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ﴾ علة لإنزال الكتاب والميزان والحديد ، ﴿ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ بالحجج والبراهين المنتزعة من الكتاب المنزل ، وبإقامة العدل ، وبما يعمل من آلة الحرب للجهاد في سبيل الله»[٢].

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٦.

(٢) البحر المحيط ١٠/ ١١٤.

وجاء في (الكشاف): «﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ ﴾ باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين (بالغيب) غائبًا عنهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ينصرونه ولا يبصرونه»[(١)].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ليبين أنه غير محتاج إلى من ينصره، فإن الله قوي عزيز ولكن ليتعلق بذلك الجزاء في الآخرة.

وقد تقول: لقد قال هنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ فأكد قوته وعزته بإنَّ، وقال في مكان آخر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠] فأكدهما بإن واللام فما الفرق؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه، وإليك إيضاح ذلك:

«قال تعالى في سورة الحج: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

فأنت ترى أن الكلام هو في سياق الإذن للمؤمنين بالجهاد وقتال الأعداء بعدما أخرجوا من ديارهم وقوتلوا ظلمًا، وقد ذكر أن الله قادر على نصرهم وقد وعدهم بالنصر فقال مؤكدًا ذاك: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ ولا شك أن النصر محتاج إلى قوة فأكّد قوته وعزته بإن واللام، وقد ناسب تأكيد النصر تأكيد القوة.

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٦ ـ ٦٧، وانظر تفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٤.

وليس السياق كذلك في الحديد ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

فأنت ترى أنها ليست في سياق الجهاد والقتال ولا في سياق نصر الله للمؤمنين ، بل في سياق نصر المؤمنين لدعوة الله ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ فالأولى في نصره هو لجنوده المستضعفين فأكد قوته ، والثانية في نصر المؤمنين لدعوته ، فزاد في المقام الذي يقتضي زيادة التأكيد»[١] .

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

* * *

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ﴾

قدم النبوة على الكتاب كما قدم البينات على إنزال الكتاب في الآية السابقة فقال : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ ، والبينات هي الدلائل على النبوة والتي تقيم الحجج على

---

(١) التعبير القرآني ٢٠٤ .

الناس فقدمها على إنزال الكتاب ، وفي هذه الآية قدم النبوة على الكتاب وهو نظير التقديم في الآية السابقة.

﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

كان الأظهر أن يقال: (فمنهم مهتد وكثير منهم ضالون) لأن الهدى يقابله الضلال كما هو مذكور في مواطن كثيرة من القرآن الكريم كقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [المدثر: ٣١] ، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٦] غير أنه ذكر الفسق وهو الخروج عن الطريق المستقيم ؛ وذلك لأن الضلال قد يكون عن غير قصد وبغير علم ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] ، وقال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١١٩]. أما الفسق فهو الخروج عن الطريق وذلك بعد العلم به ، وهذا أبعد في الضلال. ثم وصف الفاسقين بالكثرة ولم يصف المهتدين بالكثرة فقال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ، وهذا ذم آخر ، جاء في (روح المعاني): «﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم ، ولم يقل: (ومنهم ضال) مع أنه أظهر في المقابلة ؛ لأن ما عليه النظم الكريم أبلغ في الذم ؛ لأن الخروج عن الطريق المستقيم بعد الوصول بالتمكن منه ومعرفته أبلغ من الضلال عنه ، ولإيذانه بغلبة أهل الضلال على غيرهم»[1].

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا ﴾

أي على آثار نوح وإبراهيم ومن بعدهما من الذرية الذين جعل فيهم النبوة والكتاب.

(١) روح المعاني ٢٧/ ٢٩٠.

﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾

أي وأتبع الرسل بعيسى بن مريم ، وذكر عيسى لأنه آخر الرسل قبل الرسول الخاتم ، ولأنه ذكر الكتاب الذي أنزل إليه وذكر أتباعه وحالهم ، واقتضى ذكره أيضًا لأنه تفرد عن بقية الرسل بأنه ليس من ذرية إبراهيم من جهة الأب وإنما من جهة الأم ، والمعروف في ذرية الشخص من ينتسب إليه من جهة الأب ، إلا أنه عده الله من ذريتهما في آية أخرى وهي قوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥].

والله سبحانه ينسبه إلى أمه ردًّا على النصارى الذين يزعمون أنه ابن الله ، جاء في (التحرير والتنوير): «وضمير الجمع في قوله: ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم ﴾ عائد إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب ، فأما الذين كانت فيهم النبوة فكثيرون ، وأما الذين كان فيهم الكتاب فمثل بني إسرائيل.

و(على) للاستعلاء ، وأصل (قفى على أثره) يدل على قرب ما بين الماشيين ، أي حضر الماشي الثاني قبل أن يزول أثر الماشي الأول ، وشاع ذلك حتى صار قولهم: (على أثره) بمعنى بعده بقليل أو متصلاً شأنه بشأن سابقه. . . وفي إعادة فعل (قفينا) وعدم إعادة (على آثارهم) إشارة إلى بعد المدة بين آخر رسل بني إسرائيل وبين عيسى ، فإن آخر رسل بني إسرائيل كان يونس بن متى أرسل إلى أهل نينوى أول القرن الثامن قبل المسيح»[1].

وقد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ ، وقال في

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٢٠ ـ ٤٢١.

المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٤٦] فقال في المائدة: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ ولم يقل مثل ذلك في الحديد، فما السبب؟

والجواب: أن الأمر مختلف، فإن آية الحديد في تقفية الرسل، وآية المائدة في تقفية الربانيين والأحبار، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ثم قال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٤٦] فالربانيون والأحبار لم ينقطعوا فقفى على آثارهم بعيسى بن مريم، أي ليس بينهم وبينه مدة فاصلة، بخلاف ما بينه وبين الرسل فإن بينه وبينهم مدة ليست بالقليلة.

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾

الرأفة أخص من الرحمة وأرق(١). جاء في (تاج العروس): «الرأفة: أشد الرحمة أو أرقها... والذي في المجمل: أنها مطلق الرحمة وأخص ولا تكاد تقع في الكراهية، والرحمة قد تقع في الكراهية للمصلحة، وقال الفخر الرازي: الرأفة مبالغة في رحمة مخصوصة من دفع المكروه وإزالة الضر، وإنما ذكر الرحمة بعدها ليكون أعم وأشمل»(٢).

فالرأفة تتعلق بدفع الأذى والضر فهي رحمة خاصة، والرحمة عامة في ذلك وغيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ [الروم: ٣٦]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

---

(١) لسان العرب (رأف).

(٢) تاج العروس (رأف)، وانظر التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٢١.

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٥٧] ، وقال: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الأعراف: ٤٩] ، وقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨] ، وقال: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] فذلك ونحوه لا تصح فيه الرأفة ، فالرحمة أعم.

وحيث اجتمعت الرأفة والرحمة قدمت الرأفة على الرحمة.

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾

أي وابتدعوا رهبانية لم نكتبها عليهم ، إلا أنهم ابتغوا بابتداعها رضوان الله ، غير أنهم لم يرعوها حق الرعاية فهم لم يقوموا بها حق القيام.

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ : «وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره (وابتدعوا رهبانية) (ابتدعوها) يعني وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ لم نفرضها نحن عليهم.

﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ استثناء منقطع ، أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه.

﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يريد أهل الرحمة والرأفة الذين اتبعوا عيسى ، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ الذين لم يحافظوا على نذرهم.

ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها ، و﴿ ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ صفة لها في محل النصب ، أي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم، بمعنى: وفقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانية واستحداثها، ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان لله ويستحقوا بها الثواب ، على أنه



كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه، فما رعوها جميعًا حق رعايتها ولكن بعضهم، فآتينا المؤمنين المراعين منهم الرهبانية أجرهم، وكثير منهم فاسقون وهم الذين لم يرعوها»[(١)].

والظاهر أن التفسير الأول أرجح من وجهين:

الوجه الأول: أنه قال: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، ومعنى ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أنه لم يكتبها عليهم.

الوجه الثاني: أنه قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، والرهبانية أمر بدني سلوكي وليس قلبيًّا فلا يصح عطفها على ما قبلها[(٢)] والله أعلم.

وفي الإخبار عنهم بقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ ذم من وجهين:

الوجه الأول: أنهم ابتدعوا الرهبانية، والدين لا يؤخذ بالابتداع حتى لو كان ذلك لغرض رضوان الله، فإن رضوان الله يتوصل إليه بما شرع هو لا بابتداع البشر كائنًا من كان.

والوجه الثاني: أنهم لم يقوموا بما عاهدوا عليه أنفسهم حق القيام ولم يلتزموا بما شرعوه تقربًا لله ـ كما زعموا ـ فهم كالناذر الذي لم يوف بنذره. جاء في (تفسير ابن كثير): «﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنهم قصدوا بذلك رضوان الله...

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) انظر التحرير والتنوير ١٣/ ٤٢٣.

والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

وقوله: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقرّبهم إلى الله عز وجل»[١].

﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾

دل قول ربنا هذا على أن مناط الأمر هو الإيمان وليس غير ذلك من رهبانية مبتدعة، فهو لم يقل: (فآتينا الذين رعوها حق رعايتها أجرهم) لئلا يظن أنه يرضى عن الابتداع لأي غرض كان حتى لو قصد بذلك رضوان الله، وإنما مناط الأمر ورأس النجاة هو الإيمان.

كما لم يقل كما قال في الآية السابقة: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ لئلا يظن أن الذين ابتدعوا الرهبانية أو قسمًا منهم يوصف بالهداية، ولئلا يحتج محتج بأن قسمًا من الابتداع فيه هداية، وإنما قسمهم على قسمين: من آمن منهم فلهم الرحمة، وقسم آخر فاسق، وذلك أن الفاسقين كثير.

قد تقول: لقد قال في موطن آخر: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وواضح أن بين الآيتين تشابهًا واختلافًا، فمن ذلك:

١ ـ أنه قال في آية الحديد: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٧٣.

وقال في المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ .

وقد ذكرنا سبب الاختلاف بين التعبيرين.

٢ ـ قال في المائدة: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ .

ولم يقل مثل ذلك في آية الحديد.

٣ ـ قال في المائدة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ .

وقال في الحديد: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ ولم يزد على ذلك.

٤ ـ ذكر في آية الحديد أتباع عيسى عليه السلام وحالهم.

وذكر في آية المائدة صفة الإنجيل فقال: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ .

فما سبب الاختلاف؟

فنقول: لقد اقتضى كل تعبير السياق الذي ورد فيه:

١ ـ فإنه قال في المائدة: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لما تقدم ذكر التوراة قبل هذه الآية فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ . . . إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ . . . وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ. . .﴾ [المائدة: ٤٣ ـ ٤٥] .

ولم يجر في سياق آية الحديد ذكر لموسى ولا للتوراة، فناسب ذكر ذلك في المائدة دون الحديد.

٢ ـ وقال في المائدة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لما ذكر قبله التوراة، وقال: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ فقد قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ فناسب ذكر ذلك في الإنجيل أيضًا، ولم يجر ذكر للتوراة في الحديد كما أسلفنا.

٣ ـ ذكر الكتب السماوية في المائدة وضرورة الحكم بها ، فقد ذكر التوراة والإنجيل ثم ذكر القرآن بعد ذلك فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ . . . ﴾ [الآية : ٤٨] وطلب من أهل كل كتاب أن يحكموا بما أنزل إليهم ، فناسب أن يختم الآية بصفة الإنجيل فقال : ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وجرى في الحديد ذكر حال الذرية والأتباع وهو السياق الذي وردت فيه آية الحديد ، فقد قال قبل هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ، ثم ذكر أتباع عيسى وحالهم ، ثم انتهى إلى خطاب المؤمنين بسيدنا محمد وما أعدّ لهم .

فناسب ختام كل آية السياق الذي وردت فيه ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ ﴾

خطاب للمؤمنين عامة من أهل الكتاب وللمؤمنين بمحمد ﷺ . فالمؤمنون بموسى وعيسى من أهل الكتاب يطلب منهم أن يتقوا الله ويؤمنوا بمحمد ، فإن أمارات صدقه ظاهرة وإن نعته موجود في كتبهم

وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلا يمنعهم الكبر وحظ الدنيا أو الحسد أو غير ذلك من الإيمان به .

والمؤمنون به من المسلمين عليهم أن يتقوا الله ويثبتوا على الإيمان برسوله ، وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء : ١٣٦] أي اثبتوا على ذلك .

﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾

أي نصيبين ، وذلك عام يشمل مؤمني أهل الكتاب والمسلمين . أما مؤمنو أهل الكتاب فقد ذكر ذلك لهم في قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القصص : ٥٢ ـ ٥٤] .

وأما المسلمون فقد ذكر ذلك ربنا فيهم في الآية التالية وهي قوله : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ فدل بذلك على أن ذلك من فضل الله عليهم .

بل ذهب قسم من المفسرين إلى أن هذه الآية إنما هي في المسلمين ، يبين ذلك الحديث الذي أورده البخاري في صحيحه «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر أجراء يعملون له . فعملت اليهود إلى نصف النهار ، وعملت النصارى من الظهر إلى العصر على قيراط ، ثم عمل المسلمون من العصر إلى الغروب على قيراطين . قال فيه : واستكملوا أجر الفريقين كليهما» أي استكملوا مثل أجر الفريقين ، أي أخذوا ضعف كل فريق» [(١)] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ، وينظر البحر المحيط ١٠/ ١١٦ ، روح المعاني ٢٧/ ١٩٣ .

وجوز صاحب الكشاف أن يكون الخطاب لهما جميعًا وهو الذي نرجحه ، جاء في (الكشاف): «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ يجوز أن يكون خطابًا للذين آمنوا من أهل الكتاب والذين آمنوا من غيرهم .

فإن كان خطابًا لمؤمني أهل الكتاب فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمد ﴿ يُؤْتِكُمْ ﴾ الله ﴿ كِفْلَيْنِ ﴾ أي نصيبين ﴿ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ لإيمانكم بمحمد وإيمانكم بمن قبله ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ وهو النور المذكور في قوله: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم ﴾ ، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ، ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ ليعلم ﴿ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الذين لم يسلموا ، و(لا) مزيدة.

﴿ أَلَّا يَقْدِرُونَ ﴾ (أن) مخففة من الثقيلة ، أصله: أنه لا يقدرون. . . ﴿ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله من الكفلين والنور والمغفرة ؛ لأنهم لم يؤمنوا برسول الله فلم ينفعهم إيمانهم بمن قبله ولم يكسبهم فضلاً قط .

وإن كان خطابًا لغيرهم فالمعنى: اتقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله يؤتكم ما وعد من آمن من أهل الكتاب من الكفلين في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ ولا ينقصكم من مثل أجرهم لأنكم مثلهم في الإيمانين لا تفرقون بين أحد من رسله» [١] .

وقال ههنا: ﴿ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ولم يقل: (كفلين من الأجر) أو (يؤتكم أجركم مرتين) كما قال في آية القصص التي ذكرناها ، وكما قال في نساء النبي: ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ [الأحزاب: ٣١] فذكر في آية الحديد الرحمة وذكر هناك الأجر ،

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٨ .

ذلك لأن الأصل في معنى الأجر أن يكون الجزاء على العمل[١]. وفي هذه الآية ـ أعني آية الحديد ـ لم يذكر عملاً، وإنما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ فكان ذكر الكفلين من الرحمة أنسب، بخلاف آية القصص فإنه ذكر عملاً، فقد قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقال بعدها: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥].

وكذلك في آية الأحزاب فإنه ذكر الأجر بمقابل العمل: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

فناسب ذكر الرحمة في آية الحديد كما ناسب ذكر الأجر في آيتي القصص والأحزاب والله أعلم.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾

ذكر صاحب الكشاف أن ذلك يوم القيامة، والذي يظهر أن ذلك عام في الدنيا ويوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وكما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ [الحديد: ٩].

وقد تقول: ولمَ لمْ يقل ههنا: (ويجعل لكم نورًا تمشون به في الناس) كما قال في آية الأنعام؟

والجواب: أن السياق مختلف فيهما، فإن آية الحديد كما ذكرنا عامة في الدنيا ويوم القيامة، بل استظهر بعض المفسرين أن ذلك في يوم القيامة، ويوم القيامة لا يكون المشي بالنور في الناس بل هو نور خاص

---

(١) انظر لسان العرب (أجر)، القاموس المحيط (أجر).

بكل مؤمن لا يتعدى غيره.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه اكتنف آية الأنعام ذكر الناس ومعاملاتهم وافتراءاتهم وضلالهم وإضلالهم وما إلى ذلك. فهي في سياق الناس وأحوالهم فناسب ذكرهم في الآية.

بخلاف آية الحديد فإنها ليست في مثل هذا السياق وإنما تقدمها ذكر الرهبانية والرأفة والرحمة فأطلق المشي سواء كان في معاملات الناس وأحوالهم أم في الاعتقاد.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

سبق ذكر المغفرة والرحمة في الآية وذلك في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فناسب قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قد تقول: ولم قدّم المغفرة على الرحمة فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع أنه سبق ذكر الرحمة ذكر المغفرة في الآية فقال: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ ثم قال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؟

فنقول: حيث اجتمع الاسمان الكريمان الغفور الرحيم في القرآن الكريم قدم اسمه الغفور إلا في موطن واحد وهو قوله في سورة سبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

ومما قيل في سبب ذلك أن آية سبأ لا تختص بالإنسان وإنما هي عامة، فقدم الرحمة لأنها عامة لا تختص بالإنسان، فإن الرحمة قد تكون بالحيوان أيضًا. أما المغفرة فهي خاصة بالإنسان فقدم الرحيم على الغفور.

ومن الملاحظ أيضًا أنه في جميع المواطن التي ورد فيها هذا الاسمان الكريمان تقدم قبلهما ذكر للإنسان في صورة من الصور، إلا آية سبأ فإنه

لم يتقدمها ذكر للإنسان ، قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ١ ـ ٢] .

فلم يذكر أمرًا يتعلق بالإنسان .

وقد ذكر بعد الآية أصناف الناس فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ . . . ﴾ . فلما أخر ذكر الناس أخر ما يتعلق بهم وهو المغفرة ، فقدم ما يتعلق بالمتقدم وأخر ما يتعلق بالمتأخر ، والله أعلم .

* * *

﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

أي إن إيتاء الكفلين من الرحمة والمغفرة وجعل النور إنما يكون بالإيمان بالرسول الخاتم محمد ولا يكون بغير ذلك ، وإن من لم يؤمن بمحمد فهو محروم ليس له شيء من ذلك ولا ينفعه إيمانه بمن قبله من الرسل حتى يؤمن بمحمد .

وقد أخبرهم بذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يستطيعون على شيء من فضل الله فيمنعونه من غيرهم أو يظنون أن فضل الله منحصر فيهم ، وإنما الفضل بيد الله سبحانه يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقال: ﴿ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ ﴾ ولم يقل: (على فضل الله) ليدل على أنهم لا يقدرون على أي شيء مهما قلّ .

و(لا) في قوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ ﴾ مزيدة تفيد التوكيد ، أي ليعلم أهل الكتاب ذلك علمًا مؤكدًا ولا تستبد بهم ظنونهم وأهواؤهم .

و(لا) تزاد بعد (أن) للتوكيد إذا كان اللبس مأمونًا والمعنى متضحًا ،

جاء في (تفسير الرازي): «إن أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل كانوا يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين.

إذا عرفت هذا فنقول: إنه تعالى لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام وعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان أتبعه بهذه الآية، والغرض منها أن يزيل عن قلوبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم وغير حاصلة إلا في قومهم، فقال: إنما بالغنا في هذا البيان وأطنبنا في الوعد والوعيد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعتراض عليه في ذلك أصلاً» (١).

وجاء في (روح المعاني): «أي ليعلم أهل الكتاب القائلون: [من آمن] بكتابكم منا فله أجران، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم أنهم لا ينالون شيئًا من فضل الله من الأجرين وغيرهما ولا يتمكنون من نيله ما لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وحاصله الإعلام بأن إيمانهم بنبيهم لا ينفعهم شيئًا ما لم يؤمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، فقولهم: (من لم يؤمن بكتابكم فله أجر) باطل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: لما نزلت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٤] فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ فقالوا: لنا أجران ولكم أجر، فاشتد ذلك على أصحابه عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلخ، فجعل لهم سبحانه أجرين مثل ما لمؤمني أهل الكتاب. وقال الثعلبي: ... فجعل لهم أجرين وزادهم النور، ثم قال سبحانه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ...﴾ إلخ.

---

(١) تفسير الرازي ٢٩/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

وحاصله على هذا ليعلموا أنهم ليسوا مُلاّك فضله عز وجل فيزووه عن المؤمنين ويستبدوا به دونهم»[(١)].

قد تقول: لقد قال في مكان آخر: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤] بالتنكير، وقال ههنا ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ بالتعريف، فما السبب؟

فنقول: إن السياق مختلف في كل منهما، فقد قال في آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤] فهي في نجاة المؤمنين في معركة أحد وأنهم لم يمسسهم سوء بعدها.

أما سياق آية الحديد فهي في المغفرة والرحمة والنور فكان الفضل أعظم. فناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٧/٢٩٦ ـ ٢٩٧.



مراجع الكتاب

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ط٣/ ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م) - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

- أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي - المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ

- البحر المحيط لأبي حيان (ط١/ ١٣٢٨هـ) - مطبعة السعادة - مصر.

- البرهان في علوم القرآن للزركشي - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - (ط١/ ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م) - دار إحياء الكتب العربية.

- بلاغة الكلمة في التعبير القراني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي - منشورات مكتبة الحياة - بيروت. [تصوير على الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦هـ].

- تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي (ج ٧/ القسم اللغوي) - مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.

- التبيان في أقسام القرآن لابن القيم - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ.

- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس.

ـ التطور النحوي للغة العربية للأستاذ برجستراسر ـ مطبعة السماح [طبعها حمد حمدي البكري سنة ١٩٢٩م].

ـ التعبير القرآني للدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

ـ التفسير القيم لابن القيم ـ جمع محمد أويس الندوي ـ مطبعة السنة المحمدية ١٩٧٣م.

ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ـ المطبعة البهية ـ مصر.

ـ تفسير ابن كثير ـ طبع دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ـ الخصائص لابن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ مطبعة دار الكتب المصرية.

ـ درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت (ط١/ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م).

ـ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ دار إحياء التراث العربي.

ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ـ دار إحياء الكتب العربية.

ـ شرح الشافية لرضي الدين الإستراباذي ـ تحقيق محمد محيي الدين وجماعة ـ مطبعة حجازي بالقاهرة.

ـ شرح الكافية لرضي الدين الإستراباذي ـ مطبعة الشركة الصحافية العثمانية سنة ١٣١٠هـ.

ـ فتح القدير للشوكاني (ط١) ـ مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ.

ـ فقه اللغة لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

ـ القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي (ط٥) ـ شركة فن الطباعة ـ مصر.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م.

ـ لباب النقول في أسباب النزول للواحدي.

ـ لسان العرب لابن منظور ـ مصور على طبعة بولاق.

ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ـ تحقيق عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم (ط١ ـ الدوحة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م).

ـ المصباح المنير للفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.

ـ معاني الأبنية في العربية ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

ـ معاني القرآن لأبي زكريا الفراء ـ مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م.

ـ معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي ـ مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل (ط١/ ١٩٩١م).

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ـ طهران .

ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير ـ تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ـ مطبعة مصطفى محمد ـ مصر .

ـ نيل الأوطار للشوكاني .

* * *

فهرست الكتاب



سورة الإخلاص

سورة الكوثر

سورة قريش

سورة الضحى

سُورَةُ الصَّفِّ

٧	﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾	٢٩٦
٨	﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾	٣٠١
٩	﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾	٣٠٤
١٠-١٣	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٣٠٩

سورة الحديد

١	﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾	٣٢٧
٢	﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾	٣٢٨
٣	﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾	٣٣١
٤	﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾	٣٣٧
٥	﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾	٣٤١
٦	﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾	٣٤٢
٧	﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾	٣٤٣

* * *

الدكتور فاضل صالح السامرائي

على طريق التفسير البياني



الجزء الثاني

سورة يس

سورة لقمان

دار ابن كثير

عَلَى طَرِيقِ
التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ
الجُزْءُ الثَّانِي

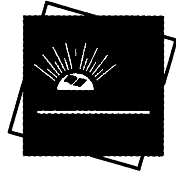
• الموضوع: تفسير
• العنوان: على طريق التفسير البياني ٤\١
• تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
ISBN 978-614-415-267-6

ISBN 978-614-415-267-6

9 786144 152676

• الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

على طريق

التفسير البياني

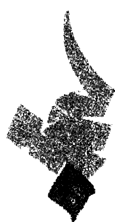
تأليف

الدكتور فاضل صالح السامرائي

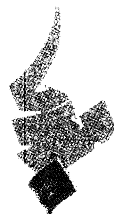
الجزء الثاني

سورة يس سورة لقمان

دار ابن كثير



بسم الله الرحمن الرحيم



سورة يس

﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ
مُقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ
الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١ ـ ١١]

* * *

﴿يس ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾

﴿يس ۝١﴾

قيل في الأحرف المقطعة كلام كثير ، وأنا لا أستطيع أن أذكر أكثر مما ذكروا ، غير أني أودّ أن أقول هنا: إن هذه الأحرف مهما قيل فيها فإنها تلفت انتباه السامع وتجعله يصغي إلى ما يقال بعدها ، فكأنها وسيلة تعبيرية تشدّ الذهن ، ولذا قال قوم: إنها فواتح للتنبيه واستئناف الكلام.
وقال آخرون: إنها إشارة الى حروف المعجم ، كأنه قال للعرب: إنما تحديتكم بنظم هذه الحروف التي تعرفونها فأنا أجعل منها كلامًا معجزًا

يعجز عن مثله الإنس والجن ولو تظاهروا عليه. وقال قوم: إن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيستمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة[(١)].

وأريد أن أشير إلى أمر آخر بخصوص (يس)؛ فقد ذهب بعضهم إلى أنه اسم من أسماء محمد ﷺ بدليل قوله بعدها: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[(٢)].

ولا أرى هذا الاستدلال سديدًا، فقد ورد خطاب الرسول ﷺ بعد غيرها من الأحرف المقطعة مما يعلم يقينًا أنه ليس من أسماء الرسول. فقد قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١ ـ ٣]، وقال: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ١ ـ ٢]، وقال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٣]

ولم يقل أحد إنَّ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ أو ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أو ﴿نٓ﴾ من أسماء الرسول.

جاء في (التبيان في أقسام القرآن): «والصحيح أن يس بمنزلة حم والم ليست من أسماء النبي ﷺ»[(٣)].

* * *

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

أقسم ربنا سبحانه بالقرآن الكريم، والقرآن علم على الكتاب الذي أنزله على سيدنا محمد ﷺ، وهو مأخوذ من لفظ القراءة، فإن القرآن في

---

(١) انظر البحر المحيط ١/ ٣٤.

(٢) انظر البحر المحيط ٧/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣، فتح القدير ٤/ ٣٤٨.

(٣) التبيان في أقسام القرآن ٢٦٧.

الأصل مصدر للفعل (قرأ) والمصدر الآخر (قراءة).

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]؛ أي اتبع قراءته[١].

ويسمىٰ أيضًا (الكتاب) وأقسم به ربنا أيضًا فقال: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ والكتاب من (الكتابة).

والتسمية بالقرآن والكتاب إشارة إلى أنه يُقرأ ويكتب، فهو كتاب لكونه مكتوبًا وقرآن لكونه مقروءًا. فأقسم به ربنا مكتوبًا ومقروءًا.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾

يحتمل عدة معان كلها يمكن أن تكون مرادة.

فهو يمكن أن يكون (فعيل) بمعنى اسم المفعول أي (مُحكَم)، والمحكَم هو الذي لا يتناقض ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٢]، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، تقول: أحكمت الشيء فهو محكم وحكيم.

والحكيم أيضًا صاحب الحكمة، فيكون القرآن حكيمًا بمعنى أنه ذو حكمة، أي متضمن إياها ومتصف بها، فيكون الإسناد مجازيًّا، وحقيقة الإسناد إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] فنسب عدم الرشد إلى أمره والحقيقة نسبة ذلك إلى فرعون، وهو كما تقول: رأي حكيم وقول حكيم. أو إنه حكيم لأنه ينطق بالحكمة، فجعله كالحي المتكلم، وهو من باب الاستعارة[٣].

---

(١) لسان العرب (قرأ) ١/ ١٢٣.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٣، فتح القدير ٤/ ٣٤٩، البحر المحيط ٧/ ٣٢٣.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ٥٨١، التفسير الكبير ٢٦/ ٤٠ روح المعاني ٢٢/ ٢١١.

والحكيم أيضًا صيغة مبالغة من الحكم[١] فهو بمعنى الحاكم ، والمعنى أنه قرآن حاكم ، وهو كذلك ، فهو الحكَم العدل والقول الفصل ، وحكمه يعلو على جميع الأحكام ، فهو يحكم ويهيمن على غيره من الأحكام والكتب كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]

وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة ، فهو كتاب محكم وحكيم متصف بالحكمة ناطق بها ، وحاكم مهيمن على الكتب والشرائع والأحكام.

فجمع بقوله: (الحكيم) عدة معان كلها مرادة مطلوبة ، وجمع بين الحقيقة والمجاز ، وجمع بين المجاز العقلي والاستعارة ، ولا تؤدي كلمة أخرىٰ هذا المؤدىٰ.

* * *

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾

جواب القسم ، فهو قد أقسم بالقرآن الكريم إنه لمن المرسلين.

وقد تقول: كيف يقسم بالقرآن والمفروض أن يقسم بشيء أجمع المقسِم والمقسَم له على تعظيمه وقبوله مقسَمًا به ، والقوم لا يرون أن القرآن كلام الله فلا يتعدّون بالقسم به ، فما قيمة هذا القسم؟

والجواب: أن القرآن جعله الله معجزة الرسول والدليل الأكبر على رسالته والبرهان الأعظم عليها. قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

---

(١) انظ البحر المحيط ٧/ ٣٢٣.

وقد سماه الله برهانًا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقد تحداهم به أكثر من مرة ووصفه بأنه قرآن حكيم. فهو قد أقسم بما تقوم به الحجة عليهم. فكأنه قال لهم: تدبروا هذا القرآن وتأملوه، فإنه أُحْكِم إحكامًا لا إحكام بعده، وأنه حكيم ينطق بالحكمة وهو حاكم يعلو ولا يعلى عليه، فلو تدبرتموه لعلمتم علم اليقين أنه أنزل من عند الله. فهذا من أحسن القسم.

جاء في (التفسير الكبير): «إن هذا ليس مجرد الحلف، وإنما هو دليل خرج في صورة اليمين لأن القرآن معجزة، ودليل كونه مرسلاً هو المعجزة والقرآن كذلك»[١].

ومثل هذا القسم يستعمل في حياتنا العامة لإقامة الدليل، وذلك كأن ينكر شخص إحسان شخص عليه وأنت تعلم أن قميصه الذي يلبسه هو مما أحسن به عليه فتقول له: (ورب لابس هذا القميص إنه لمحسن) أو (ورب هذا القميص إنه لجواد) بل قد يقولون: (وحق هذا القميص إنه لكريم). فتقسم بما تقوم عليه الحجة والدليل الذي لا يتمكن من إنكاره.

ثم إن هذا القرآن هو البرهان وهو موضوع الرسالة في آن واحد. فإنه أحيانًا تختلف المعجزة عن موضوع الرسالة فتكون المعجزة لتأييد الرسالة، وذلك كمعجزة موسى في قلب العصا حية أو جعل اليد بيضاء للناظرين أو نحوهما، فإن هذه المعجزات ليست موضوع الرسالة وإنما الرسالة هي التوحيد والتعاليم التي أمر بها ربنا سبحانه. وهذه المعجزات لتأييد الرسول وتصديقه بما يقول. ونحو ناقة صالح فإنها معجزة وآية على

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤١

صدق سيدنا صالح ، ولكنها ليست هي موضوع الرسالة ، فإنه أرسل بعبادة الله وحده والأوامر والنواهي التي أرادها ربنا وبلغها نبي الله. أما القرآن الكريم فهو المعجزة والآية الدالة على صدقه ﷺ وإنه هو موضوع الرسالة ، وبذلك جمع الفضلين وحاز الشرفين فاستحق بذلك أن يقسم به.

وقد أكد الجواب بـ (إن) واللام ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وذلك لشدة إنكار قومه لرسالته كما بينت ذلك الآيات التي بعدها ، فقد ذكر أنهم غافلون وأنه حَقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون. وأنه جعل من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشاهم فهم لا يبصرون ، وأنه سواء عليهم الإنذار وعدمه فهم لا يؤمنون على أية حال. فاستدعى ذلك الزيادة في التوكيد.

وقال: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل: (إنك رسول) ذلك أن قوله: (من المرسلين) يدل على أنه واحد من جماعة يشتركون معه في الوصف. وأما قوله: (إنك رسول) فإنه إخبار بصفته بغض النظر عما إذا كان يشاركه أحد في الوصف أم لا. فأنت تقول: (هو ناجح) فتخبر عن نجاحه سواء كان ثمة ناجح غيره أم لا. وتقول: (هو من الناجحين) وذلك إذا كان معه آخرون. وكذلك تقول: (هو ناجٍ) وقد لا يكون معه ناجٍ آخر ، وتقول: (هو من الناجين) إذا كان معه ناجون. وتقول: (هو مُغرَق) و(هو من المغرقين). فقوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ يشير إلى إنه ليس بدعًا من الرسل ، وإنما هو واحد من جماعة لهم مثل صفته.

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾

يحتمل أن يكون هذا الجار والمجرور خبرًا بعد خبر ؛ أي: إنك على صراط مستقيم ، كما تقول: (إنه من أهل بغداد من أصحاب الثراء) فأخبرت أنه من أهل بغداد ، وأنه من أصحاب الثراء.

كما يحتمل أن يكون متعلقًا بالمرسلين ؛ أي: إنك من الذين أرسلوا على صراط مستقيم.

وقد تقول: وما الفرق بين التقديرين؟

والجواب: إنك إذا جعلته خبرًا بعد خبر فإنه يصح أن تستغني بأحد الخبرين ويتم الكلام، فإنه يصح أن تقول: (إنك لمن المرسلين) وتكتفي، كما قال تعالى في موطن آخر ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وتقول: (إنك على صراط مستقيم) وتكتفي كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣]. أما إذا جعلته متعلقًا بالمرسلين فإنك تجعل الكلام لا يتم إلا بمتعلقه، فقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يكون مرتبطًا بما قبله متعلقًا به كما تقول: (أنت من المرسلين بهذا الأمر) أو (أنت من المرسلين إلى هؤلاء القوم) و(أنت من المرسلين على نفقة الدولة).

وقد تقول: ولم لم يكتف بأحد الخبرين كما فعل في موطن آخر؟

والجواب: أنه لو قال: (إنك لمن المرسلين) لدلّ على أنه على صراط مستقيم تضمنًا لا تصريحًا، فإن كونه من المرسلين يدل على أمور كثيرة، منها: أنه صادق. ومنها: أنه على حق. ومنها: أنه على صراط مستقيم. ومنها: أنه يأمر بالخير. ومنها: مجرد الإخبار أنه من المرسلين لا إلى إرادة معنى متضمن، فقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ حدد أمرًا معينًا مما تضمنه كونه من المرسلين ولم يدعْ ذلك للذهن الذي قد ينصرف إلى أمور غير معينة. وقد يقتضي المقام أن يصرح بأمور مما تقتضيه الرسالة.

أما إذا قال: (إنك على صراط مستقيم) فقط فإنه لا يدل على أنه من المرسلين، فكون الشخص على الصراط المستقيم لا يعني أنه رسول من

عند الله . فجمع بين الأمرين لإفادة المعنيين تصريحًا .

وقد تقول: إذا كان الأمر كذلك فَلِمَ اكتفى إذن بأحد الخبرين في موطن آخر من القرآن ، فقال في موطن: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال في موطن آخر: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؟

والجواب: أن كل موطن يقتضي ما ذكر فيه ، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢] .

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣] .

وإذا نظرنا في سياق آية البقرة لم نر فيه ذكرًا للدعوة إلى دين الله وهو الصراط المستقيم ، وإنما وردت في سياق القصص القرآني ، فقد وردت في سياق قصة طالوت وجالوت ثم ذكر بعدها بعضًا من الرسل .

لقد وردت في سياق إثبات نبوة الرسول بإخباره عما لم يعلم من أخبار الماضين ، فإنه لما ذكر قصة طالوت قال بعدها: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي أن إجراء هذه الأخبار على لسانك وأنت لا تعلمها دليل على أنك من المرسلين .

وأما آية الزخرف فإنها وردت في سياق الدعوة إلى الله وهداية الخلق إلى صراطه المستقيم ، قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٠ ـ ٤٥] .

فقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني هداية الخلق إلى صراطه المستقيم ودينه القويم. وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني ما أوحاه فاقتضى ذلك ذكر الصراط المستقيم.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن قوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يعني أنه نبي مرسل، وكذلك قوله: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾، فجمع بين كونه مرسلاً وأنه على صراط مستقيم كما فعل في آية (يس) فاقتضى كل موطن ما ذكر فيه.

ووصفُ الصراط بأنه مستقيم يدل على أنه أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب وأنه طريق قويم وشرع مستقيم.

جاء في (الكشاف): ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر، أو صلة للمرسلين. فإن قلت: أي حاجة إليه خبرًا كان أو صلة وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟.

قلت: ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم من غيره ممن ليس على صفته، وإنما الغرض وصفه ووصف ما جاء به من الشريعة، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت.

وأيضًا فإن التنكير فيه دال على أنه أرسل من بين الصرط المستقيمة على صراط لا يكتنه وصفه» [1].

وجاء في (التفسير الكبير): ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ خبر بعد خبر، أي إنك على صراط مستقيم. والمستقيم أقرب الطرق الموصلة إلى

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨١.

المقصد ، والدين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتولّي[١] عن غيره ، والمقصد هو الله ، والمتوجه إلى القصد أقرب إليه من المولّي عنه والمنحرف منه.

ولا يذهب فهم أحد إلى أن قوله: إنك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال: إن محمدًا من الناس مجتبى ؛ لأن جميع المرسلين على صراط مستقيم. وإنما المقصود بيان كون النبي ﷺ على الصراط المستقيم الذي يكون عليه المرسلون»[٢] .

وقد تقول: ولم قَدَّم ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾على قوله: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ولم يقل: (إنك لعلى صراط مستقيم من المرسلين)؟

والجواب أنه فعل ذلك لعدة أمور:

منها: أن قوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أفضل من كونه على صراط مستقيم ؛ لأن كونه مرسلاً يعني أنه على صراط مستقيم وأنه نبي.

ومنها: أن قوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يتضمن أنه على صراط مستقيم.

ومنها: أن هذا من باب تقديم السبب على المسبَّب ، فإن كونه على صراط مستقيم إنما هو بسبب أنه مرسل أوحي إليه بهذا الصراط فهو أسبق في الرتبة.

ومنها: أن تقديم المرسلين يمكن أن يعلق به ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فيكون من تمام معناه كما بينا ، أي إنك أرسلت على طريق مستقيم.

ولو أنا قلنا: (إنك على صراط مستقيم من المرسلين) لم يصح تعليق (من المرسلين) بما قبله فينقطع الكلام ولا يتصل.

---

(١) كذا ورد ، والصواب: وتولٍّ.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٤١.

فإن هذا التقديم أولى من كل ناحية.

* * *

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾

بعد أن عظم القرآن بأن أقسم به ووصفه بالحكمة عظمه بإضافته إلى ذاته العلية، فإن الكتاب يعظم ناحيتين:

١ ـ من حيث ما أودع فيه، وهو تعظيم لذاته.

٢ ـ ومن حيث مرسله.

فقد يكون الكتاب ليس بذي قيمة في ذاته وإنما يعظم بسبب مرسله وصاحبه.

ثم إن صاحبه يكون معظمًا بسببين: أن يكون مرهوبًا مخوفًا أو أن يرجى خيره ويطمع في نعمته. وقد جمع الله ذلك بقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فجمع بين الترغيب والترهيب وهما مصدر التعظم للذات وما يتصل بها. فقوله: (العزيز) يفيد أنه نافذ أمره، و(الرحيم) يفيد أنه ذو رحمة وليس متجبرًا عاتيًا.

ففخم الكتاب وعظمه من الناحيتين: من حيث ذاته، ومن حيث مرسله.

جاء في (روح المعاني): ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ نصب على المدح أو على المصدرية لفعل محذوف، أي نزل تنزيل... وأيًا ما كان ففيه إظهار لفخامة القرآن الإضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفة بالحكمة.

وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة الكاملة والرحمة الفاضلة حثّ على الإيمان به ترهيبًا وترغيبًا وإشعارًا بأن تنزيله

ناشئ عن غاية الرحمة حسبما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾» [١].

وهناك تعظيم آخر للقرآن وهو مكانه المحفوظ فيه ، فإن الشيء إذا كان ثميناً حفظ في مكان أمين لا تمسّه الأيدي ولا يعبث به العابثون. وقد أشار إلى مكانه المحفوظ فيه فذكر أنه في مكان عالٍ وقد نزّل إلى الرسول تنزيلاً. فالتنزيل إنما يكون من المكان العالي المرتفع ، وهذا يدل على رفعة القرآن ورفعة مكانه.

وعلى هذا يكون أشار إلى تعظيم القرآن من عدة نواح :

١ ـ الإقسام به.

٢ ـ وصفه بأنه حكيم

٣ ـ وأنه في مكان عالٍ وقد نزله العزيز الرحيم بأمره.

٤ ـ وأن الله أضافه إلى نفسه بوصفي الترهيب والترغيب. فلم يترك جهة من جهة التعظيم إلا أشار إليها وذكرها.

واختيار العزيز الرحيم له أكثر من دلالة في السورة.

فإن العزيز هو الغالب وفي ذكره ترهيب للعباد ، والرحيم هو المتصف بالرحمة على وجه الثبات ، وفي ذكره ترغيب لهم ، فجمع بين الترغيب والترهيب.

وقد طبعت السورة بطابع هذين الاسمين الكريمين ، فإن جو السورة يشيع فيه العزة والرحمة.

فقد تظهر العزة بنصر أوليائه ومحق أعدائه، فقد أهلك أصحاب القرية

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

بصيحة واحدة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

وذكر أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لا تغني شفاعتهم شيئًا، ولا يتمكنون من إنقاذ من أراده الرحمن بضر، فهي ليست لها وجاهة، وليس لها قوة، وهذا من أظهر الأمور على عزته سبحانه ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

وقد ذكر أنه إن شاء أغرقهم فلا معين لهم ولا يتمكن أحد من إنقاذهم إلا إذا أراد هو ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤٣ ـ ٤٤].

وذكر أنهم ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم جميعًا فلا يبقى منهم أحد وأنه يحييهم ويجمعهم بصيحة واحدة ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

وذكر أنه لو شاء أن يطمس على أعينهم أو يمسخهم على مكانتهم لفعل ولا رادّ لمشيئته: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٦٦ ـ ٦٧].

وذكر أن أمره ينفذ بكلمة واحدة، يفعل ما يشاء ويكون ما يريد، وأنه بيده ملكوت كل شيء وليس لأحد سواه شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ ـ ٨٣].

فهل هناك أكبر من هذه العزة؟!.

وكذلك جو الرحمة فإنه يشيع في السورة أيضًا.

فقد تردد ذكر الرحمة والرحمن في السورة أكثر من مرة وذلك نحو قوله:

١ ـ تنزيل العزيز الرحيم.

٢ ـ وخشي الرحمن بالغيب.

٣ ـ وما أنزل الرحمن من شيء.

٤ ـ إن يردن الرحمن بضر.

٥ ـ ولاهم ينقذون إلا رحمة منا.

٦ ـ لعلكم تُرحمون.

٧ ـ هذا ما وعد الرحمن.

٨ ـ سلام قولاً من رب رحيم.

ثم ذكر عددًا من مظاهر رحمته سبحانه منها:

١ ـ ما جعل في الأرض لعباده من جنات وأنهار، وما أخرج لهم من حب يأكلون منه.

٢ ـ وأنه حمل ذريتهم في الفلك المشحون، وخلق من مثله ما يركبون.

٣ ـ وأنه خلق لهم أنعامًا فهم مالكون لها، وأنه ذللها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. وجعل لهم فيها منافع ومشارب تستوجب شكره سبحانه.

٤ ـ وأنه جعل لهم من الشجر الأخضر نارًا يوقدون منه.

٥ ـ وأنه أرسل إليهم رسلاً حذرهم من عبادة الشيطان وهداهم الصراط المستقيم.

وغير ذلك من مظاهر رحمته التي ذكرها في السورة.

وكما لاحظنا أن لهذين الاسمين الكريمين ارتباطاً بجو السورة فإن لهذين الاسمين الكريمين ارتباطاً بما بعد هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

إذ من الملاحظ في مواطن عديدة من القرآن الكريم ذكر هذين الاسمين بعد ذكر عدم إيمان الأكثرين من الخلق. فقد عقب في سورة الشعراء بعد قصة كل نبي مع قومه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

كما ذكرت تعقيبًا على موقف أهل مكة من الرسول ﷺ وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦ ـ ٩].

فقد تكرر ذكر هاتين الآيتين في هذه السورة ثماني مرات.

ومن أسرار هذه الذكر في هذه السورة وفي سورة الشعراء أنه من مقتضيات اسمه العزيز أن يعز المؤمنين وينصرهم ويذل الكافرين ويهلكهم، فتكون العزة في حق المؤمنين نصرًا وتأييدًا وفي حق الكافرين محقًا وإهلاكًا.

ومن مقتضيات اسمه (الرحيم) أن يرحم المؤمنين ويكرمهم وينجيهم ويدخلهم الجنة، ويرحم الكافرين بإلزامهم الحجة وإقامة البينة عليهم وإنذارهم المخوف ليتقوا ناره ويأمنوا عذابه، وأنه أبلغهم رسالته كما أبلغ المؤمنين وأنه لا يعاقبهم إلا بعد إقامة الحجة عليهم وهذا من رحمته بهم. هذا علاوة على أنه يرزقهم وأنهم يتقلبون في نعمه تعالى على محاربتهم له. وأنت إذا نظرت في هذا التعقيب وجدته يذكر بعد ذكر

عقوبة الكافرين وإهلاكهم ورحمته بالمؤمنين وتنجيتهم ، وذلك بعد ذكر قصة كل نبي في سورة الشعراء، فكان ذكرهما أنسب شيء هنا والله أعلم.

لقد ذكر ثلاثة أسماء لربنا سبحانه ، واحدًا بالتضمن واثنين تصريحًا.

أما المذكور بالتضمن فهو قوله: (الحكيم) فإنه وصف به القرآن وهو كلامه ، وإذا كان الكلام حكيمًا فصاحبه حكيم أيضًا بكل معاني الوصف.

وأما الاسمان المصرح بهما فهما العزيز الرحيم. وكمال الاتصاف بهما أن تكون الحكمة معهما ، فإن العزيز إذا لم يكن حكيمًا كان متهورًا في عزه فتكون عزته من صفات نقصه. وإذا لم يكن رحيمًا كانت عزته شدة وكانت وبالاً على عباده.

والرحمة من دون عزة ضعف ، وهي من دون حكمة نقص ؛ لأنه لا يعلم كيف يضعها ، ولا أين يضعها.

فهذه الصفات يكمل بعضها بعضًا ويزين بعضها بعضًا. فلا خير في رحمة من دون عزة ولا حكمة. ولا خير في عزة من دون حكمة ولا رحمة. ولا خير في حكم بلا عزة ولا رحمة.

جاء في (التفسير الكبير): «﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى أن الملك إذا أرسل رسولاً فالمرسل إليهم إما أن يمانعوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم إلا إذا كان عزيزًا ، أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك ، أو نقول: المرسل يكون معه في رسالته منع عن أشياء وإطلاق لأشياء ، فالمنع يؤكد العزة والإطلاق يدل على الرحمة» (١).

* * *

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٢٤.

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ ﴾

يحتمل أن يكون (لتنذر) متعلقًا بقوله: (تنزيل) أو بالفعل المضمر (نزل) فيكون التقدير: تنزيل العزيز الرحيم لتنذر، أو: نزله العزيز الرحيم لتنذر.

كما يحتمل أن يكون متعلقًا بـ (المرسلين) أي: إنك لمن المرسلين لتنذر قومًا بمعنى: أنك أرسلت لتنذر قومًا[1].

والظاهر أن (ما) نافية، والمعنى: لتنذر قومًا لم ينذر آباؤهم ولذلك هم غافلون، فإن عدم الإنذار هو سبب غفلتهم المستحكمة. فإن هؤلاء القوم لم يأتهم من نذير، كما قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [القصص: ٤٦]، [السجدة: ٣].

كما أن آباءهم لم ينذروا فاستحكمت الغفلة فيهم إلى درجة أن الإنذار وعدمه سواء عليهم وأنهم كما وصفهم ربنا بقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا... إلخ ﴾.

وقد جوز بعض المفسرين أن تكون (ما) موصولة أو مصدرية فيكون المعنى (لتنذر قومًا الشيء الذي أُنذره آبائهم) أو (لتنذر قومًا مثل إنذار آبائهم). وبذا يكون إثبات الإنذار لآبائهم، والمقصود بالآباء آباؤهم الأقدمون.

وقد تقول: إن قوله تعالى: ﴿ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يردّ هذا المعنى.

والجواب: كلا، إنه لا يرد على هذا المعنى، ذلك أن المعنى أن آباءهم الأقدمين أُنذروا ولكنهم غفلوا عن ذلك الإنذار لتقادم العهد كما

---

(١) انظر روح المعاني ٢٢/٢١٣.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وهذا نحو قولنا: (انصح فلانًا كما نصحت أباه فإنه غافل عن ذلك) أو (قل لفلان أن يعمل بنصيحتنا لأبيه فإنه غافل عنها) فإنك أثبت النصيحة وأثبتّ الغفلة عنها.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ «قومًا غير منذر آباؤهم، على الوصف، ونحوه قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ [سبأ: ٤٤].

وقد فسر ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ على إثبات الإنذار، ووجه ذلك أن تجعل (ما) مصدرية، لتنذر قومًا إنذار آبائهم، أو موصولة منصوبة على المفعول الثاني: لتنذر قومًا ما أنذره آباؤهم من العذاب كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ [النبأ: ٤٠].

فإن قلت: أي فرق بين تعلقي قوله: ﴿فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ على التفسيرين؟.

قلت: هو على الأول متعلق بالنفي، أي لم ينذر آباؤهم فهم غافلون، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم. وعلى الثاني بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لتنذر، كما تقول: أرسلتك إلى فلان لتنذره فإنه غافل، أو فهو غافل.

فإن قلت: كيف يكونون منذرين غير منذرين لمناقضة هذا ما في الرأي الآخر؟

قلت: لا مناقضة؛ لأن الآي في نفي إنذارهم لا في نفي إنذار آبائهم. وآباؤهم القدماء من ولد إسماعيل وكانت النذارة فيهم.

فإن قلت: ففي أحد التفسيرين أن آباءهم لم ينذروا وهو الظاهر، فما تصنع به؟

قلت: أريد آباؤهم الأدنون دون الأباعد»[١].

وجاء في(التفسير الكبير): «فعلى قولنا: (ما) نافية تفسيره ظاهر، فإن من لم ينذر آباؤه وبعد الإنذار عنه فهو يكون غافلاً. وعلى قولنا: هي للإثبات كذلك؛ لأن معناه: لتنذرهم إنذار آبائهم فإنهم غافلون. وفيه مسائل:

(المسألة الأولى): كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضي أن لا يكون آباؤهم منذرين، والآخر يقتضي أن يكونوا منذرين وبينهما تضادّ؟.

نقول على قولنا: (ما) نافية معناه، ما أنذر آباؤهم، وإنذار آبائهم الأولين لا ينافي أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين، والمتأخرون منهم غير منذرين»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ هو على الوجه الأول متفرع على نفي الإنذار ومتسبب عنه والضمير للفريقين، أي لم ينذر آباؤهم فهم جميعًا لأجل ذلك غافلون.

وعلى الأوجه الباقية: متعلق بقوله تعالى: (لتنذر) أو بما يفيده ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وارد لتعليل إنذاره عليه الصلاة والسلام أو إرساله بغفلتهم المحوجة إليه، نحو: اسقه فإنه عطشان، على أن الضمير للقوم خاصة، فالمعنى فهم غافلون عنه، أي: عما أنذر آباؤهم.

وقال الخفاجي: يجوز تعلقه بهذا على الأول أيضًا، وتعلقه بقوله

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨١ ـ ٥٨٢ وانظر البحر المحيط ٢٦ / ٤٢.

(٢) [illegible]

تعالى: (لتنذر) على الوجوه، وجعل الفاء تعليلية والضمير لهم أو لآبائهم. اهـ، ولا يخفى عليك أن المنساق إلى الذهن ما قرر أولاً» (١).

والذي يترجح عندي المعنى الأول وهو الذي يسبق إلى الذهن. أما إذا أريد بالآباء الآباء الأقدمون فإن إسماعيل عليه السلام أبوهم وكان رسولاً نبيًا ولا شك أنه أنذر قومه، بل إن إبراهيم عليه السلام أبوهم كما قال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فلا يتناقض الأمران على ذلك. ولا أرى أنه يعني بذلك إبراهيم أو إسماعيل عليهما السلام أو من هو ممن دونهما ممن كان بعيدًا جدًّا عن قوم الرسول ﷺ.

إن أقرب رسول إلى نبينا محمد ﷺ عيسى عليه السلام وبينهما أكثر من خمسمائة عام فما بالك بمن قبله، ولا شك على هذا أن آباءهم لم ينذروا، والله أعلم.

* * *

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾

معنى (حق القول) في القرآن الكريم ثبت لهم العذاب ووجب، والقول هو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

جاء في (الكشاف): «(القول) قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يعني تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب؛ لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر» (٢).

وجاء في (فتح القدير): «ومعنى (حق) ثبت ووجب القول، أي العذاب

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٢.

على أكثرهم. . . وقيل المراد بالقول المذكور هنا هو قوله سبحانه: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ [ص: ٨٤ ـ ٨٥]» [١].

وجاء في (التفسير الكبير): «في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وجوه: (الأول): وهو المشهور، أن المراد من القول هو قوله تعالى: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾.

(الثاني): هو أن معناه: لقد سبق في علمه أن هذا يؤمن وأن هذا لا يؤمن فقال في حق البعض: إنه لا يؤمن، وقال في حق غيره: إنه يؤمن (فحق القول) أي وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره.

(الثالث) هو أن يقال: المراد منه لقد حق القول الذي قاله الله على لسان الرسل من التوحيد وغيره وبان برهانه، فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك. . . (على أكثرهم) فإن أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا» [٢].

ولاشك أن سَبْقَ قولِه لسبق علمه فلا اختلاف بين القولين الأول والثاني مما ذكره الرازي.

وكذلك أن المعنى الذي ذكره في القول الثالث صحيح، لكن الذي يظهر أن المراد من معنى (حق القول) في القرآن هو ثبوت العذاب ووجوبه كما ذكرت. والذي يرجح ذلك أنه لم يرد في القرآن الكريم (حق القول) إلا لهذا المعنى، وكذلك (حقت كلمة ربك) فإسناد الفعل (حق) إلى القول أو إلى الكلمة لا يعني إلا ثبوت العذاب ووجوبه، وذلك في

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٩٤.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٣، وانظر البحر المحيط ٧/٣٢٣ ـ ٣٢٤، روح المعاني ٢٢/ ٢١٣



ثلاثة عشر موضعاً. قال تعالى:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ﴾ [القصص: ٦٣].

وقال: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨].

وقال: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

وقال: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

وقال: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١].

وقال: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩].

وقال: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

وبذا يترجح ما ذكرناه.

وذكر في آية (يس) أنه حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، وهذا ما حصل فإن أكثر الكفار لم يؤمنوا وماتوا علىٰ الكفر[1] وبذا تحقق ما أخبر به القرآن. وهو من الإعجاز لأنه أخبر بالشيء قبل حصوله فحصل.

وقد تقول: وما أدرانا أن هذا الأمر قد تحقق وأن أكثرهم ماتوا على الكفر؟

والجواب: يكفي وروده في القرآن الكريم ، فإن القرآن أصدق وثيقة تاريخية عما أخبر في وقته. ولو لم يتم هذا الأمر لكان ذلك دليلاً على كذب ما أخبر به ولاعترض عليه الكفار بأن ما أخبر به لم يحصل. فإن القرآن يتلى عليهم ليل نهار وهذه الآية يسمعونها دومًا ، فلو لم يحصل ذلك لكذبوه ولارتدوا عنه.

ثم لنلاحظ أن الآية مصدرة بـ (لقد) وهذه اللام واقعة في جواب قسم عند النحاة سواء كان القسم مذكورًا أم مقدرًا. و(قد) حرف تحقيق وقد دخلت على الفعل الماضي ، ومعنى ذلك أن ما أخبر به قد حصل وتحقق فعلاً.

وقال: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يقل: (فهم لم يؤمنوا) ليدل على أنهم سيموتون على الكفر وأنهم لا يؤمنون في مستقبل حياتهم ، ولو قال: (فهم لم يؤمنوا) لكان إخبارًا عن أمر قد مضى.

وكذلك لو قال: (فهم غير مؤمنين) لاحتمل أنه يخبر عن حالتهم التي هم عليها وقت نزول الآية ، وقد يتغير ذلك في المستقبل ، فقد يكون

---

(١) [illegible]

أشخاص غير مؤمنين وقت نزول هذه الآية وسيؤمنون بعد ذلك، فلا يكون عند ذاك إخبارًا عن أمر غيب. فكان قوله الذي قاله أمثل شيء وأنسبه.

وقد تقول: ولم قدم (القول) على الجار والمجرور فقال: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ مع أنه في مواطن أخرى يقدم الجار والمجرور على القول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦].

والجواب: أن التقديم والتأخير إنما هو لغرض معنوي كما هو مقرر في علم البلاغة، فما كانت العناية به أكثر قدم في الكلام.

فإذا كان الاهتمام بالقول أكثر قُدّم، وإذا كان الاهتمام بمن حق عليهم القول أكثر قُدموا، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾. فقدم (عليهم) على (القول)، ذلك أن السياق فيمن حق عليهم القول، أي على الأقوام الذين حق عليهم العذاب، ذلك أن الكلام على أعداء الله ابتداء من الآية التاسعة عشرة إلى الآية التاسعة والعشرين. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢٩].

فناسب تقديم ضمير هؤلاء على (القول) لأن الكلام يدور عليهم.

في حين قال: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، فقدم الكلمة على (الذين فسقوا) لأن الاهتمام ليس منصرفاً إلى هؤلاء، وإنما الكلام على الله ونعمه واستحقاقه للعبادة، فناسب تقديم كلمته سبحانه.

قال تعالى: ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٢٩ ـ ٣٥].

فأنت ترى أنّ الكلام على الله واستحقاقه للعبادة.

والأمر كذلك في آية (يس) فإن العناية بقول الله عليهم أكثر من الكلام على القوم وأفعالهم، فإنه لم يذكر عن القوم إلا أنهم غافلون لأن آباءهم

لم ينذروا. ولم يذكر شيئًا عن أفعالهم وإنما ذكر تفسير استحقاق القول عليهم، فذكر أنه سبحانه جعل من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا... إلخ، فذكر ما فعله ربنا ولم يذكر ما فعلوه هم فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨]، فجاعل الأغلال هو الله.

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، وجاعل السد هو الله، ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ والذي أغشاهم هو الله.

فناسب تقديم قوله عليهم وهو المناسب للسياق.

فالجعل جعله، والإغشاء إغشاؤه، والقول قوله.

هذا من حيث السياق والمقام.

وهناك أمر آخر لفظي في هذه الآيات وهو: أنه إذا كان حرف الجر داخلاً على الضمير نحو (عليهم) و(علينا) تقدم الجار والمجرور على القول وإلا تأخر. وهذا لم يتخلف في جميع هذه الآيات.

قال تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، في ثلاث آيات: [القصص: ٦٣]، [فصلت: ٢٥]، [الأحقاف: ١٨].

وقال: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦].

وقال: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ [الصافات: ٣١].

وقال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦].

بتقديم الجار والمجرور على الفاعل في كل ذلك.

في حين قال: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس: ٧].

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ [يونس: ٣٣]، وقال: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

وقال: ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠].

بتقديم الفاعل على الجار والمجرور.

فناسب تقديم القول في سورة يس من ناحية اللفظ إضافة إلى المعنى.

وأود أن أشير إلى أمر آخر وهو: أن كل تعبير قدم فيه ما قدم إنما كان لغرض تقتضيه البلاغة ويقتضيه السياق والمقام إضافة إلى اللفظ، فليس اللفظ وحده الداعي إلى التقديم. فازداد ذلك حسنًا على حسن.

* * *

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾

الأغلال: جمع غُلّ، وهو حلقة من حديد تحيط بالعنق أو باليد أو تجمع بينهما وتسمى الجامعة[١]، وذلك بقصد التعنيف والتضييق والتعذيب والأسر[٢].

والمقمح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره[٣].

والمعنى: أنه سبحانه جعل في أعناقهم أغلالاً ثقالاً غلاظاً عراض المساحة لا واسعة الفتحة تحيط بالعنق كله بحيث تبلغ إلى الذقن فلا تدع أحدهم يطأطئ رأسه أو يبصر ما تحته، بل يبقى رافعًا رأسه غاضًّا بصره، فلا يتمكن من رؤية ما قدامه ولا ما تحته ولا ما خلفه، بل لا يتمكن من الالتفات يمينًا أو يسارًا لعرض الغل الذي يحيط بعنقه وضيقه فكيف يبصر أو يهتدي؟.

وهذا تمثيل لحال هؤلاء الكفرة وبقائهم على ضلالهم فلا يتمكنون

---

(١) انظر لسان العرب ١٤/ ١٣ ـ ١٧، تاج العروس ٨/ ٤٩.

(٢) انظر البحر المحيط ٧/ ٣٢٤.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٨٢.

من الهدى ولا يعرفونه ، وربما كان هذا حالهم أيضًا في الآخرة.

جاء في (الكشاف): «ثم مثل تصميمهم على الكفر وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولايطأطئون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم في أن لا تأمل لهم ولا تبصر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾؟.

قلت: معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ، وذلك أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود نادرًا من الحلقة إلى الذقن فلا تخليه يطأطئ رأسه ويوطئ قذاله فلا يزال مقحمًا.

والمقمح: الذي يرفع رأسه ويغض بصره. يقال: قمح البعير فهو قامح إذا روي فرفع رأسه» [1].

وجاء في(التفسير الكبير): «معناه: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ثقالاً غلاظاً بحيث تبلغ إلى الأذقان فلم يتمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه.

(المسألة الثالثة): كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الإيمان حتى يجعل كناية؟

فنقول: المغلول الذي بلغ الغل إلى ذقنه وبقي مقمحًا رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه. وذكر بعده أن بين يديه سدًّا ومن خلفه سدًّا فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته. وقد ذكر من قبل أن المرسل

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٢.

على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي إلى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعًا كالمغلول الذي يجعل ممنوعًا من إبصار الطريق الحسي.

ويحتمل وجهًا آخر وهو أن يقال: الأغلال في الأعناق عبارة عن عدم الانقياد، فإن المنقاد يقال فيه: إنه وضع رأسه على الخط وخضع عنقه، والذي في رقبته الغل الثخين إلى الذقن لا يطأطئ رأسه ولا يحركه تحريك المصدّق»[1].

وإسناد هذا الأمر إلى نفسه سبحانه وتأكيده بـ (إنّ) دال على استحكام هذا الأمر وأنه لا يتمكن أحد من فك هذا الغل فلا يتحررون منه، وهو تأكيد لقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه هو الذي جعل الأغلال في أعناقهم فحق قوله عليهم لما علم من عدم اهتدائهم. ولو قال: (لقد جُعلت في أعناقهم أغلال) لكان ثمة أمل في فك الأغلال، ولكن لا يستطيع أحد أن يغير ما قدره الله وحكمه فلا يفك أحد ما أغلقه ربنا ولا يغلق ما فتحه.

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ فقدم (أعناقهم) على الأغلال ولم يقل: (إنا جعلنا أغلالاً في أعناقهم) لأن الكلام عليهم وهم مدار الحديث فكان تقديم ما تعلق بهم أولى.

* * *

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

بعدما ذكر أنه جعل في أعناقهم أغلالاً، ذكر أنه جعل من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٤ ـ ٤٥.

وقال: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ ولم يقل: (وجعلنا بين أيديهم سدًّا وخلفهم سدًّا) ذلك أن (من) تفيد ابتداء الغاية، ومعنى ذلك أنه جعل السد ابتداء من بين أيديهم ولم يترك بينه وبينهم فراغًا، وكذلك من خلفهم، فإن السد ملتصق بهم من الأمام وكذلك من الخلف فلا يستطيعون أن يخطوا خطوة واحدة أو حركة. بخلاف ما إذا لم يذكر (من) فإنه يحتمل أن يكون بينهم وبين السد مسافة بعيدة أو قريبة وذلك نحو قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ [ق: ٦]، فإن بينهم وبين السماء مسافة بعيدة، وكذلك قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ [الملك: ١٩]، فإن بينهم وبين الطير مسافة غير قليلة. في حين قال عن الأرض: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ [فصلت: ١٠] فجاء بـ (من) ليدل على أن الرواسي ملتصقة بالأرض ليس بينها وبينها فراغ.

ثم قدم الجار والمجرور على السد فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا﴾ ولم يقل: (وجعلنا سدًّا من بين أيديهم وسدًّا من خلفهم) وذلك لأن الكلام عليهم لا على السد فكان تقديم ما تعلق بهم أولى. ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ كما ذكرنا.

وقد تقول: هذا أمر السد من أمامهم فلماذا جعل من خلفهم سدًّا؟ وما الغرض منه؟

فنقول: كما أنه منعهم من السير إلى أمام منعهم من العودة والرجوع إلى أماكنهم الأولى. فإن الشخص إذا قطع عليه الطريق عاد إلى مكانه الأول ومقامه الذي كان فيه. وهنا قد منعه من ذلك فبقي في مكانه من الطريق في غير مأمن وفي غير مقام فهلك.

ثم أغشى أبصارهم وغطاهم فمنعهم من الرؤية فهم لا يبصرون ولا يتحركون فكيف يهتدون؟.

وقوله: ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ يحتمل أنه أغشاهم بالسدين، أي غطاهم فلا يستطيعون الإبصار ولا الحركة، أو أغشى أبصارهم علاوة على السدين. وفي كلتا الحالتين لا يستطيعون الحركة ولا الإبصار.

وقد تقول: ولم ترك الجانبين وهما جهتا اليمين واليسار، فلم يذكر أنه جعل فيهما سدين؟

فنقول:

١ ـ إن قوله: ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ منعهم من الحركة البتة إلى أية جهة كانت؛ ذلك لأن السدين ملتصقان بهم.

٢ ـ قوله: ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أي غطيناهم، والتغطية تشمل جميع الجسم وليس جانبًا منه أو جانبين فلا يستطيعون الحركة لإغشائهم.

٣ ـ قوله: ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يمنعهم من معرفة ما هم عليه من السبيل.

٤ ـ إذا اتجهوا إلى جهة اليمين كان السد من بين أيديهم أيضًا ومن خلفهم، لأن هذه الجهة ستكون هي الأمام فتكون مسدودة عليهم، وإن أية جهة سيتجهون إليها ستكون هي ما بين أيديهم فيجعل سدًّا من بين أيديهم ومن خلفهم. فقوله: (من بين أيديهم ومن خلفهم) يشمل جميع الجهات؛ لأن أية جهة يتجهون إليها ستكون ما بين أيديهم فلا حاجة إلى ذكر جهتي اليمين واليسار، فما ذكره يغني عن ذكرهما.

وإسناده الجعل والإغشاء إلى الله تعالى بيان أنه لا يمكن لأحد أن يزيل السدين أو يرفع الغشاوة.

جاء في (التفسير الكبير): «وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يكون متممًا لمعنى

جعل الله إياهم مغلولين ، لأن قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ إشارة إلى أنهم لا ينتهجون سبيل الرشاد ، فكأنه قال: لا يبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولا ينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل . . .

وفيه وجه آخر وهو أن يقال: المانع إما أن يكون في النفس وإما أن يكون خارجًا عنها. ولهم المانعان جميعًا من الإيمان. أما في النفس فالغل وأما من الخارج فالسد. ولا يقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التي في أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] ، وذلك لأن المقمح لا يرى نفسه ولا يقع بصره على يديه ، ولا يقع نظره على الآفاق ؛ لأن من بين السدين لا يبصرون الآفاق فلا تبين لهم الآيات التي في الآفاق. وعلى هذا فقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله في الأنفس والآفاق.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ مسائل:

(المسألة الأولى) السَّدُّ من بين الأيدي ذكره ظاهر الفائدة ، فإنهم في الدنيا سالكون وينبغي أن يسلكوا الطريقة المستقيمة (ومن بين أيديهم سدًّا) فلا يقدرون على السلوك. وأما السَّدُّ من خلفهم فما الفائدة فيه؟

فنقول: الجواب عنه من وجوه:

(الأول): هو أن الإنسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها ، وهداية نظرية والكافر ما أدركها ، فكأنه تعالى يقول: (جعلنا من بين أيديهم سدًّا) فلا يسلكون طريقة الاهتداء التي هي نظرية (وجعلنا من خلفهم سدًّا) فلا يرجعون إلى الهداية الجبلّية التي هي الفطرية . . .

(الثالث): هو أن السالك إذا لم يكن له بد من سلوك طريق فإن انسدّ الطريق الذي قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع ، وإذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذي هو فيه لا يكون موضع إقامة لأنه مهلك،

فقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إشارة إلى إهلاكهم.

(المسألة الثانية): قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بحرف الفاء يقتضي أن يكون للإغشاء بالسد تعلق، ويكون الإغشاء مرتبًا على جعل السد فكيف ذلك؟.

فنقول: ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك بيانًا لأمور مترتبة يكون بعضها سببًا للبعض، فكأنه تعالى قال: (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا) فلا يبصرون أنفسهم لإقماحهم (وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا) فلا يبصرون ما في الآفاق، وحينئذ يمكن أن يروا السماء وما على يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله: (وجعلنا على أبصارهم غشاوة) فلا يبصرون شيئًا أصلاً.

وثانيهما: هو أن ذلك بيان لكون السد قريبًا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم، فإن من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقًا بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئًا. أما غير السد فللحجاب، وأما عين السد فلكون شرط المرئي أن لا يكون قريبًا من العين جدًّا.

(المسألة الثالثة): ذكر السدين من بين الأيدي ومن خلف، ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه؟... لأنهم إن قصدوا السلوك إلى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين إلى شيء وموِلّين عن شيء، فصار ما إليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك. فكيفما يتوجه الكافر يجعل الله بين يديه سدًّا.

ووجه آخر أحسن مما ذكرنا، وهو أنا لما بينا أن جعل السد صار سببًا للإغشاء كان السد ملتزقًا به، وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على

الحركة يمنة ولا يسرة ، فلا حاجة إلى السد عن اليمين وعن الشمال. وقوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ يحتمل ما ذكرنا أنهم لا يبصرون شيئًا ، ويحتمل أن يكون المراد هو أن الكافر مصدود ، وسبيل الحق عليه مسدود ، وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد ، فيظن أنه على الطريقة المستقيمة وغير ضال» [١].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل كما قال في سورة البقرة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]؟

فنقول: إن كل موطن اقتضى ما ذكر فيه ، علاوة على أن ما ذكر في سورة (يس) يفيد ما أفاده في سورة البقرة. ذلك أن قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ هو بمعنى قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ ، وأن قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ يفيد أنهم لا يسمعون ، فإن من كان بين سدين مغطى بهما لا يسمع. وإذا كان كذلك فهو لا يفقه ؛ لأن منافذ العلم مسدودة ، فأفاد أنهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون.

ثم إن ما ذكره في كل موطن هو المناسب من جهة أخرى ، ذلك أنه قال في سورة يس: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والصراط إنما يكون للسير فيه وسلوكه ، فذكر ما يمنع الكفرة من سلوك الصراط المستقيم والسير فيه ، وهو الأغلال في أعناقهم ، والسد من بين أيديهم ومن خلفهم. والسد إنما هو لمنعهم من السير. أما المؤمنون فإنهم على الصراط المستقيم يسلكونه ويتخذونه سبيلاً. ولم يذكر مثل ذلك في البقرة ، فكان ذكر السد مناسبًا في سورة (يس).

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٥ ـ ٤٦.

وأما في سورة البقرة فقد قال: إن هذا الكتاب لاريب فيه وهو هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ، الذين يؤمنون بما أنزل إلى محمد وما أنزل من قبله ويوقنون بالآخرة.

فالمسألة متعلقة بالإيمان والتقوى ، فذكر أن الكفرة مختوم على قلوبهم وعلى سمعهم وأن على أبصارهم غشاوة فانسدت منافذ الإيمان والتقوى. ومنافذ الإيمان والتقوى والعلم لدفع الريب هي السمع والبصر والقلب ، فذكر أن هذه كلها مغلقة.

فأغلق منافذ السير على الصراط المستقيم في سورة (يس) وأغلق منافذ الإيمان والهدى في سورة البقرة ، فناسب كل تعبير مكانه الذي هو أليق به.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يكرر (جعلنا) من الخلف فيقول: (وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَجَعَلْنَا مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا) كما قال في سورة النبأ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١٠ ـ ١١]؟

والجواب: أن التكرار يفيد التأكيد. والسدان ليسا بمنزلة واحدة ، فإن السد الذي من بين أيديهم يمنعهم من السير إلى أمام ، وهو أهم ؛ لأنه هو الموصل إلى الهدى وإلى الفلاح ، وأما السد من خلف فهو مانع من الرجوع ، والعود ليس أحمد.

ولما لم يكن السدان بمنزلة واحدة من حيث الأهمية لم يجعلها في التعبير بمنزلة واحدة ، فذكر الفعل في المهم وحذفه مما هو أقل أهمية.

وأما تكراره في سورة النبأ فإن الليل والنهار كلاهما مهم للإنسان وحياته ، فلا تصلح الحياة بليل لانهار فيها ، ولا تصلح بنهار لا ليل فيها. قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ

عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢].

فلما كانت الحياة إنما تستقيم بالليل والنهار معًا جعلهما بمنزلة واحدة في التعبير فكرر الجعل مع كل واحد منهما، والله أعلم.

* * *

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

بعد أن ذكر الموانع التي تمنعهم من الإيمان بيّن أن الإنذار وعدمه في حقهم سواء فهو لا ينفع معهم شيئًا.

وقد تقول: إذا كان الأمر كذلك فما الغرض من إنذارهم؟ ولمَ ينذرهم؟

والجواب: أن ذلك للإعذار ولتقوم عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إذا كان الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إليهم فليس ذلك سواء بالنسبة إليه. فإنه وإن كان الإنذار لا يجدي معهم شيئًا لا يكون ذلك مسوغًا لترك الإنذار. فإنه مأمور بالإنذار لمن علم أنه لا يستجيب ولمن لم يعلم. ثم إن الدعوة إلى الله مطلوبة في كل الأحوال، حتى إن أخبره ربنا أن المدعوين لا يستجيبون، وذلك يدل على عظم مكانة الدعوة إلى الله، وأنها لا تسقط بحال من الأحوال. ثم إن كان هؤلاء لا يستجيبون فربما يؤمن من غيرهم من يسمع، ولو كان هذا السمع جاء على طريق الإخبار أو الاستهزاء أو الاستبعاد فيكون ذلك وسيلة لنقل الدعوة من حيث لم يريدوا. ثم إن هذا الإنذار يكتب في صحيفة أعمال الداعي الصالحة مثقلاً لميزانه، ولذا قال تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ

عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ، ولم يقل: (سواء عليك أأنذرتهم أم لم تنذرهم).

جاء في (التفسير الكبير): «بيّن تعالى أن الإنذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والإغشاء والإعماء بقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي الإنذار وعدمه سواء بالنسبة إلى الإيمان منهم، إذ لا وجود له منهم على التقديرين. فإن قيل: إذا كان الإنذار وعدمه سواء فلماذا الإنذار؟

نقول: قد أجبنا في غير هذا الموضع أنه تعالى قال: (سواء عليهم) وما قال: (سواء عليك)، فالإنذار بالنسبة إلى النبي ﷺ ليس كعدم الإنذار؛ لأن أحدهما مخرج له عن العهدة وسببٌ في زيادة سيادته عاجلاً وسعادته آجلاً. وأما بالنسبة إليهم على السواء فإنذار النبي ﷺ ليخرج عما عليه وينال ثواب الإنذار وإن لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار في دار القرار»[1].

* * *

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

والمعنى: إذا كان إنذارك لا ينفع من حق عليه القول فإن الإنذار ينفع من يتبع الذكر ويخشى الرحمن بالغيب، أي ينفع من كان حيًّا يؤثر فيه الإنذار، وينفع أيضًا من اتبع الذكر وهو القرآن والوعظ وخشي الرحمن بالغيب وهم المؤمنون.

فالإنذار ينفع طائفتين:

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٤٦ ـ ٤٧.

طائفة المؤمنين المتبعين للذكر الخاشين للرحمن ، فإن الإنذار يزيدهم إيمانًا وتمسّكًا وحذرًا وخوفًا مما تنذرهم إياه .

وطائفة أخرى وهي التي لها قلب وسمع وبصر فتدخل في زمرة أهل الإيمان ، وهذا شأن كثير ممن أنذروا ، فإنهم فارقوا دينهم وآمنوا بدين الله .

وعلى هذا يكون المعنى : إنما تنذر إنذارًا نافعًا من اتبع الذكر ، فمع هؤلاء يحصل المطلوب من الإنذار ومقصوده .

والذكر هو القرآن والمواعظ وكل ما يذكر به المرء .

وقد تقول : إنه عبر بالفعل الماضي فقال : ﴿ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ فهذا يخص طائفة المؤمنين ولا يشمل من لم يدخل الإيمان قلبه بعد .

فنقول : إن الفعل الماضي قد يعبر به عن المستقبل كقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٥٠] أي تخرج ، وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٥٩ ـ ١٦٠] .

أي إلا الذين يتوبون ويصلحون ويبينون بعد الكتمان ، فعبر عن الكتمان بالفعل المضارع فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ ﴾ ، وعبر عن التوبة والإصلاح والتبيين بعد الكتمان بالفعل الماضي فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ ﴾ ، فإذا كان الكتمان مضارعًا فلا شك أن التوبة منه والتبيين يكونان بعده ، ولكنه عبر عن ذلك بالفعل الماضي .

جاء في (الكشاف) أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ﴾ :

«على معنى: إنما تحصل البغية بإنذارك من غير هؤلاء المنذرين وهم المتبعون للذكر ، وهو القرآن أو الوعظ ، الخاشون ربهم» [١] .

وجاء في (البحر المحيط): «إنما تنذر ، أي إنذارًا ينفع من اتبع الذكر وهو القرآن. قال قتادة: أو الوعظ» [٢] .

وجاء في (التفسير الكبير): «قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ .

والترتيب ظاهر ، وفي التفسير مسائل:

(المسألة الأولى): قال من قبل (لتنذر) وذلك يقتضي الإنذار العام على ما بينا.

وقال: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ وهو يقضي التخصيص فكيف الجمع بينهما؟

نقول من وجوه:

(الأول): هو أن قوله (لتنذر) أي كيفما كان ، سواء كان مفيدًا أو لم يكن. وقوله: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ ﴾ أي الإنذار المفيد لا يكون إلا بالنسبة إلى من يتبع الذكر ويخشى.

(الثاني): هو أن الله تعالى لما قال إن الإرسال والإنزال ، وذكر أن الإنذار وعدمه سيان بالنسبة إلى أهل العناد ، قال لنبيه: ليس إنذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم ، وإنما تنذر بذلك الإنذار العام من يتبع الذكر ، كأنه يقول: يا محمد إنك بإنذارك تهدي ولا تدري من تهدي فأنذر الأسود والأحمر ومقصودك من يتبع إنذارك وينتفع بذكراك» [٣] .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٣ .

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٧ .



وجاء في (روح المعاني) أن «﴿ٱتَّبَعَ﴾ بمعنى (يتبع)، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، أو المعنى: إنما ينفع إنذارك المؤمنين الذين اتبعوا. ويكون المراد بمن اتبع المؤمنين، وبالإنذار: الإنذار عما يفرط منهم بعد الاتباع فلا يلزم تحصيل الحاصل.

وقيل: المراد من اتبع في علم الله وهم الأقلون الذين لم يحق القول عليهم»[1].

وقال: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ ولم يقل: (تبع) للدلالة على المبالغة في الاتباع والاجتهاد فيه، ولذا أتبعه بقوله: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ فإن الذي يخشى الرحمن بالغيب هو متبع اتباعًا جادًّا وليس اتباعًا على ضعف. والذي يبشر بمغفرة وأجر كريم هو المتّبع لا مجرد التابع.

فهؤلاء هم الذين يحصل معهم المقصود من الإنذار.

* * *

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾

هذا فيه معان وأوجه:

منها: أنه يدل على أنه خشي الرحمن وإن لم يشاهده، فكما آمن به بالغيب خشيه بالغيب. وهذا من تمام الإيمان، ذلك أن الناس عادة يخشون من يشاهدهم ويشاهدونه ويعلمونه أنه مراقب أفعالهم، فإن غاب عن أعينهم ذهبت الخشية منه. أما هذا فإنه يخشى الرحمن بالغيب لأنه يعلم أنه حاضر معه شاهد عليه يراقب أفعاله وإن غاب عن بصره.

ومن معاني هذا التعبير أيضًا أنه خشي عقاب الرحمن الذي حذر عباده

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٧.

يوم القيامة وهو غيب. ومعنى خشية الرحمن: خشية عقابه، وهذا من معاني خشية الرحمن بالغيب أيضًا.

ومن معانيه أيضًا أنه يخشى الرحمن إذا غاب عن أعين الناس والمشاهدين له. فكثير من الناس يفعلون أفعالاً إذا خلوا إلى أنفسهم لا يفعلونها إذا شاهدهم الناس. والمعنى أنه إذا أمن مراقبة الناس واطلاعهم عليه خشي الرحمن فلا يفعل إلا ما يرضيه.

فهذا كله من معاني خشية الرحمن بالغيب، وباستكمالها تكون خشيته بالغيب.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: (بالغيب) يعني بالدليل وإن لم ينته إلى درجة المرئي المشاهد، فإن عند الانتهاء إلى تلك الدرجة لا يبقى للخشية فائدة.

والمشهور أن المراد به بالغيب ما غاب عنا وهو أهوال القيامة، وقيل: إن الوحدانية تدخل فيه»[(١)].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي الخلوة عند مغيب الإنسان عن عيون البشر»[(٢)].

وجاء في (روح المعاني): «﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ حال من المضاف المقدر في نظم الكلام... أي خشي عقاب الرحمن حال كون العقاب ملتبسًا بالغيب، أي غائبًا عنه، وحاصله خشي العقاب قبل حلوله ومعاينة أهواله.

ويجوز أن يكون حالاً من فاعل (خشي) أي خشي عقاب الرحمن غائبًا

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٧.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

عن العقاب غير مشاهد له ، أو خشي غائبًا عن أعين الناس غير مظهر الخشية لهم لأنها علانية قلما تسلم عن الرياء»[(١)] .

قالوا: وذكر اسمه (الرحمن) مع الخشية دون غيره من أسمائه الحسنى لأكثر من سبب ، منها :

١ ـ أنه قد يسبق إلى الذهن أن الرحمن لا يعاقب لأن رحمته واسعة وأنها سبقت غضبه ، فيسبق إلى نفسه الرجاء وينسى الخشية ، فذكر ذلك لئلا يغتر مغترّ برحمته .

٢ ـ أن الرحمة تورث الاتّكال ، فقرنه بالخشية لئلا يتكل على رحمته وينسى عقابه .

٣ ـ أن من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر ينبغي أن يكون الخوف منه أتم وذلك لئلا يقطع عنه نعمته .

٤ ـ وهناك أمر آخر ، وهو أن جو السورة تشيع فيه الرحمة وذكرها ، وقد بنيت السورة على العزة والرحمة كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والعزيز ينبغي أن يخشى ، فقوله: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ جمع بين العزة والرحمة .

٥ ـ وفيه توجيه إلى أن الرحمة ينبغي أن تكون مقرونة بخشية الراحم ، فلا يصح الاتصال بالرحمة وحدها . فالرحمة وحدها قد تكون ضعفًا وقد يكون الاتصاف بها ذمًّا ونقصًا ، فهو توجيه إلى المربين ليجمعوا بين الرحمة والخشية من الراحم ، وبين الربوبية والخشية من الرب ، وبين الرحمة والعقوبة . ولذا قال تعالى : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥] ، وقال: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢١٧ .

﴿ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ فيه لطيفة وهي أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن ورحيم فالعاقل لا ينبغي أن يترك الخشية، فإن كل من كانت نعمته بسبب رحمته أكثر فالخوف منه أتم، مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة.

و(تكملة اللطيفة): هي أن من أسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، حتى قال بعض الأئمة: هما علمان إذا عرفت هذا فالله ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبئ عن العاطفية، فقال في موضع: (يرجو الله) وقال ههنا: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ يعني: مع كونه ذا هيبة لا تقطعوا عنه رجاءكم، ومع كونه ذا رحمة لا تأمنوه» (١).

وجاء في (البحر المحيط): «و﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي المتصف بالرحمة مع أن الرحمة قد تعود إلى الرجاء ولكنه مع علمه برحمته هو يخشاه خوفًا من أن يسلبه ما أنعم به عليه» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «و﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي عقابه ولم يغتر برحمته عز وجل، فإنه سبحانه مع عظيم رحمته أليم العذاب كما نطق به قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

ومما قرر يعلم سر ذكر الرحمن مع الخشية دون القهار ونحوه» (٣).

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٧ ـ ٤٨.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.
(٣) روح المعاني ٢٢/ ٢١٧.

وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ مع أنه قال في أكثر من موطن: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ من دون ذكر للغيب؟.

والجواب أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ مطلق أي يخشونه خشية مطلقة على كل حال سواء كانت بالغيب أم لا. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ مقيد، أي أن الخشية تكون بالغيب، أي عند غيبتهم عن عيون الناس. وإيضاح ذلك أنه إذا كان المقصود بالغيب أنه يخشى ربه وإن لم يشاهده أو أنه يخشى عذابه يوم القيامة فإن الخشية كلها فيه سواء قال: (بالغيب) أم لم يقل. وإذا كان المقصود بالغيب بمعنى الغيبة عن عيون الناس فإن هذه الخشية تكون مقيدة، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ من دون ذكر للغيب يكون مطلقًا عامًّا، أي سواء كان الخشي أمام الناس أم لا.

وعلى هذا يكون قوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ هي حالة من حالات الخشية العامة، وهي جزء منها، فتلك خشية عامة مطلقة سواء كانت أمام الناس أم لا، وهذه مقيدة.

فالخشية العامة هي الخشية بالغيب وزيادة.

فإذا كان المقام يقتضي ذكر الخشية العامة من دون تقييد ذكرها مطلقة ولم يقيدها. وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨ - ٤٩].

وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢].

وقال: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٢ـ٣٣].

وقال: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

فهذه كلها ذكر فيها الخشية بالغيب.

في حين قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

فلم يذكر الخشية بالغيب وإنما أطلقها في الموطنين.

أما آية الزمر فإن الأمر فيها واضح، إذ لا داعي فيها للتقييد، فإنه قال: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ واقشعرار الجلود ولينها ولين القلوب أمر غائب عن الآخرين ولا يشعر به إلا صاحبه أما الآخرون فلا يعلمونه، ولا يختلف الأمر سواء كان ذلك وحده أم مع الآخرين فلا داعي لتقييد الخشية بالغيب.

وأما آية الرعد فإننا نذكر السياق الذي وردت فيه.

قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟

ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ ـ ٢٤].

ومن النص يظهر ما يأتي:

١ ـ أنه وصفهم بأنهم أولو الألباب وقصر عليهم التذكر فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، والمعنى أنه لا يتذكر إلا أولو الألباب.

٢ ـ ذكر أنهم يوفون بعهد الله، وهو وصف عام يشمل الالتزام بجميع الفروض وتجنب جميع المعاصي(١).

٣ ـ وأنهم لا ينقضون الميثاق.

٤ ـ يصلون ما أمر الله به أن يوصل.

٥ ـ يخشون ربهم.

٦ ـ يخافون سوء الحساب.

٧ ـ أنهم صبروا ابتغاء وجه ربهم.

٨ ـ أقاموا الصلاة.

٩ ـ أنفقوا مما رزقهم الله سرًّا وعلانية، وهذا يدل على الخشية بالغيب وزيادة.

١٠ ـ يدرؤون بالحسنة السيئة.

وذكر جزاءهم على النحو الآتي:

١ ـ أن لهم عقبى الدار وهي جنات عدن يدخلونها هم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٢.

٢ ـ ويدخلها معهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

٣ ـ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب.

٤ ـ يحيونهم بقولهم: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

وإذا نظرنا في جميع الآيات التي ورد فيها قوله: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وجدنا أنها تشمل جزءًا مما ذكر في آيات الرعد. فكما أن الخشية بالغيب جزء من الخشية العامة المطلقة أدرج في مواطن الخشية بالغيب جزءاً مما ذكر في الخشية العامة، فناظر بينهما في الإطلاق والتقييد، والجزئية والكلية، وإليك إيضاح ذلك:

١ ـ ذكر في سورة الأنبياء أنه مما آتى موسى وهارون:

● ذكرًا للمتقين.

● الذين يخشون ربهم بالغيب.

● من الساعة مشفقون.

فما في آية الأنبياء جزء مما ذكر في آيات الرعد، والخشية في الرعد تشمل الخشية بالغيب وزيادة.

٢ ـ ذكر في آية فاطر أمرين:

● يخشون ربهم بالغيب.

● أقاموا الصلاة.

٣ ـ ذكر في آية الملك:

يخشون ربهم بالغيب.

٤ ـ ذكر في سورة ق:

● أزلفت الجنة للمتقين.

● وهم كل أواب.

- حفيظ.
- من خشي الرحمن بالغيب.
- جاء بقلب منيب.

ومن الملاحظ في آيات (ق) هذه أنه لم يذكر أعمالاً بدنية ظاهرة كالصلاة والإنفاق ودرء السيئة بالحسنة وغيرها.

وأن الجزاء أقل مما في الرعد.

٥ ـ ذكر في سورة يس:

- اتبع الذكر.
- خشي الرحمن بالغيب.

وقوله ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أمر عام يشمل عموم الاتباع. ونظيره في آيات الرعد ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ فإنه يشمل جميع ما عهد الله في كتبه. فما ذكر في الرعد أكثر تفصيلاً، وقد شمل ما في آية (يس) تفصيلاً على جهة الإحسان في الاتباع وليس مجرد الاتباع.

يوضح ذلك أن الله تعالى قال في صفات المتقين: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وهذا اتباع.

وقال ههنا: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [الرعد: ٢٢]، وهذا من الإحسان في الاتباع وليس مجرد الاتباع.

وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] وهذا اتباع، وقال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وهذا أمثل في الاتباع وأحسن. وقال ههنا: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢] وهذا أعلى وأكمل وأمثل في الاتباع وأحسن مما قبله، ذلك أنه لم يعف فقط وإنما درأ السيئة بالحسنة.

ثم إن الجزاء في آيات الرعد أعلى مما ذكر في سورة (يس) ، فقد قال في سورة (يس) : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ وذكر في سورة الرعد: أنَّ لهم عقبى الدار جنات عدن . . . إلخ .

وهذا أعلى مما ذكر في سورة (يس) فإنه ذكر في سورة (يس) الأجر ولم يذكر الجنة ، والأجر لا يعني الجنة نصًّا ، وإنما هو الجزاء على العمل ويكون الأجر على حسب العمل. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨] ، فالأجر العظيم هنا لا يعني الجنة ، وإنما هو الثواب على العمل ، ولذلك قال بعدها: ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ .

وقال: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] ، إذ لا يصح أن يقال هنا إن الأجر هو الجنة ، ألا ترى أنه لا يقال (هو خيرًا وأعظم جنة)؟

فما ذكر في آيات الرعد من الصفات والجزاء أعلى وأكمل .

من هذا يتضح أن قوله: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الرعد: ٢١] أعم وأشمل من قوله: ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ .

قد تقول: إنك تعني أن الذين قيل فيهم: ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ أعلى وأمثل ممن قيل فيهم: ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ ونحن لا يبدو لنا هذا الأمر .

فنقول: هذا أشمل لأنه يشمل الخشية بالغيب وغيرها. وقد تكون الخشية بالحضور أعلى من الخشية بالغيب عن الناس ، ذلك أن قسمًا من الناس ضعاف النفوس لا يحبون أن يُتَّهموا بالتدين والرجعية والجمود أو بالتعقيد، فيتهاون ويعمل أمام الملأ أعمالاً لا ترتضيها نفسه ، ولو خلي بينه وبين نفسه لم يفعلها. فمثلاً: إن هناك من يقول: أنا لست صائمًا

تدينًا وإنما لأمر يتعلق بالصحة لأنه يخجل أن يقول: أنا صائم تدينًا. وآخر يقول: أنا لا أمتنع عن الخمر تدينًا ولكن لأنها مذهبة للعقل والصحة.

وهناك آخرون يفعلون أفعالاً محرمة بدافع المجاملة ونفوسهم تشعر بالإثم والحرج، ولو تركوا وأنفسهم لم يفعلوها كشرب الخمر أو غيره من المعاصي، كما قال تعالى عن قسم من أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، وعن آخر يقول لصاحبه: ﴿يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، ونحو ذلك.

فإظهار الخشية من الله أمام هؤلاء أكمل وأمثل وأعلى من الخشية بالغياب عن عيون الناس؛ لأن فيها إظهارًا وتعظيمًا لشعائر الله وتقوية لضعفاء الدين، وقمعًا للذين يجاهرون بمحاربة الله ورسوله.

وعلى هذا تكون الخشية المطلقة أشمل وأكمل. ومعنى الخشية المطلقة: الخشية بالغيب والخشية بالمشاهدة.

ثم لنلاحظ من ناحية أخرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ أنه ذكر نوعين من العبادة: عبادة ظاهرة وهي قوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾، وعبادة قلبية وهي قوله: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، وذكر نوعين من الجزاء: المغفرة والأجر الكريم.

والمغفرة هي ما يتعلق بالذنوب.

والأجر الكريم ما يتعلق بالعمل الصالح.

فشمل ذلك كل أنواع العمل سواء كان سيئًا أم صالحًا.

فالعمل السيِّء مغفور لهؤلاء، والعمل الصالح مكافأ عليه بالأجر الكريم وهو أحسن تقسيم وأنسبه.

جاء في (البحر المحيط: «ولما أحدث فيه النذارة بشره بمغفرة لما سلف وأجر كريم على ما أسلف من العمل الصالح وهو الجنة»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة لما سلف، وقيل: لما يفرط منه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حسن لا يقادر قدره لما أسلف»[(٢)].

* * *

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

* * *

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾

قالوا: إن أصول الإيمان ثلاثة:

التوحيد والرسالة والحشر[(٣)]، وقد ذكرها كلها في هذه الآيات. فإن الرسالة تقتضي مرسلاً وهذا يدل على التوحيد وقد نص على ذلك قوله: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

وقد ذكر الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ...﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ يدل على الحشر.

وارتباط هذه الآية بما قبلها واضح، ذلك أن عاقبة الإنذار والتبشير اللذين ذكرهما قبل هذه الآية بقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ...﴾

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢١٧.

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٤٨، البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ إنما تكون في الحياة بعد الموت ، فكان ذكرها ترغيبًا وترهيبًا وهو أنسب شيء.

جاء في (التفسير الكبير): «في الترتيب وجوه:

أحدها: أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التي يصير بها المكلف مؤمنًا مسلمًا ذكر أصلاً آخر وهو الحشر.

وثانيها: وهو أن الله تعالى لما ذكر الإنذار والبشارة بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ ولم يظهر ذلك بكماله في الدنيا فقال: إن لم يرَ في الدنيا فالله يحيي الموتى ويجزي المنذرين ويجزي المبشرين.

وثالثها: أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو إحياء الموتى»[١].

وجاء في (روح المعاني): «﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ إلخ تذليل عام للفريقين المصممين على الكفر والمشفقين بالإنذار ترهيبًا وترغيبًا ووعيدًا ووعدًا»[٢].

وقد أكد الضمير المتقدم بـ (إن) مع ذكر ضمير الفصل (نحن) لإفادة القصر وللتقوية ، ذلك أن الله وحده هو الذي يحيي الموتى لا غيره ولا يشاركه في هذا أحد فقدم الضمير لذلك ، وأعني الضمير المؤكد بـ (إن). وكان الأصل أن يقال من غير توكيد: نحن نحيي الموتى. ولكنه أكد الضمير بـ (إن) وجاء بضمير الفصل توكيدًا وتقوية ، ذلك أن الكفار لا يقرون بالحشر ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت وكانوا يقولون: ﴿مَا هِيَ

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٤٨.

(٢) روح المعاني ٢٢/٢١٨.

إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. فأكد هذا الحكم بـ (إن) وبضمير الفصل، فأفاد هذا التعبير حصرًا وتوكيدًا.

جاء في (روح المعاني): «وتكرير الضمير لإفادة الحصر أو للتقوية... وضمير العظمة للإشارة إلى جلالة الفعل. والتأكيد للاعتناء بأمر الخبر أو لرد الإنكار، فإن الكفرة كانوا يقولون: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]؛ أي إنا نحن نحيي الأموات جميعًا ببعثهم يوم القيامة»[١].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يؤكد باللام أيضًا كما فعل في موطن آخر، فقد قال في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣]؟

والجواب: أن كل موطن يقتضي ما ذكر.

فإنه ذكر في سورة الحجر من مظاهر قدرته وفصل فيها ما لم يذكره في سورة (يس). فقد قال في سورة الحجر:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ٢٣].

في حين لم يذكر شيئًا من ذلك في سورة (يس)، فاقتضى ذلك أن يذكر اللام توكيدًا ومناسبة لمقام التفصيل. فناسب الإيجاز الإيجاز، والتفصيل التفصيل.

---

(١) روح المعاني ٢٢/٢١٨.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه فصل في ذكر الحشر في سورة الحجر ما لم يفصله في سورة (يس). فقد قال في الحجر: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

في حين لم يزد في سورة (يس) على قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ ، ثم ينتقل إلى موضوع آخر.

فناسب مقام الحشر وذكره بصورة أوسع مما في (يس) أن يزيد في توكيده.

ومن ناحية ثالثة: أن الخطاب في سورة يس قبل وبعد الآية للرسول. ويبدأ ذلك بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ . . . لِتُنذِرَ قَوْمًا . . . وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ . . . إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ . . . فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ ثم تأتي الآية بعدها: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا . . . ﴾ .

في حين أن الخطاب في الحجر لعموم الخلق كما هو ظاهر ، ولا شك أن عموم الخلق بهم حاجة إلى تأكيد الحشر أكثر من الرسول ﷺ ، فناسب ذلك الزيادة في التأكيد في آية الحجر من كل وجه ، والله أعلم.

* * *

﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ .

أي نكتب ما قدموا من الأعمال الصالحة وغيرها.

(وآثارهم) أي ما أبقوه بعدهم من أعمال البر أو غيرها من أعمال السوء. فإن الإنسان قد يعمل عملاً فيه فائدة للمسلمين يبقى بعده كتأليف

كتاب ، أو بناء مسجد ، أو تأسيس مدرسةٍ تُعلِّم الناس أمور دينهم ، أو تأسيس جماعة تدعو إلى الله ، أو سنّ سنة حسنة فتكتب له حسنات بقدر ما ينتفع بها حيث انتفع بها.

أو بالعكس فإنه قد يعمل عملاً فيه إضرار بالمسلمين من سنّ مظلمة ، أو ابتداع بدعة سيئة، أو نشر أفكار ضارة بالمسلمين، أو معادية للإسلام، أو إظهار معصية ، وما إلى ذلك من أعمال السوء ، فإنه تكتب عليه أوزار ذلك بقدر ما أحدثت من أضرار حيث أضرت. فإنه ليست الأعمال وحدها هي التي تكتب بل تكتب آثار تلك الأعمال من خير أو شر. قال ﷺ: (من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا).

جاء في (الكشاف): «﴿وَنَكۡتُبُ مَا﴾ أسلفوا من الأعمال الصالحة وغيرها ، وما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علموه أو كتاب صنفوه أو حبيس حبسوه أو بناء بنوه من مسجد أو رباط أو قنطرة أو نحو ذلك ، أو سيء كوظيفة وظفها بعض الظلام على المسلمين ، وسكة أحدث فيها تخسيرهم ، وشيء أحدث فيه صدّ عن ذكر الله من ألحان وملاهٍ ، وكذلك كل سنة حسنة أو سيئة يستن بها. ونحوه قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] ، أي قدم من أعماله وأخر من آثاره. وقيل: هي آثار المشائين إلى المساجد. . . وعن عمر بن عبد العزيز: لو كان الله مغفلاً شيئًا لأغفل هذه الآثار التي تعفيها الرياح» [١].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ ما أسلفوه من الأعمال الصالحة والطالحة ، (وآثارهم) التي أبقوها بعدهم من الحسنات

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٣ ، وانظر البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.

كعلم علموه. . . وغير ذلك من وجوه البر ، ومن السيئات كتأسيس قوانين الظلم والعدوان. . . وغير ذلك من الشرور التي أحدثوها وسنوها بعدهم للمفسدين.

أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا. ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا، ثم تلا ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ﴾» (١).

وقد تقول: لقد قدم الله (إحياء الموتى) على كتابة ما قدموا وآثارهم فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ﴾ مع أن كتابة ما قدموا وآثارهم قبل إحياء الموتى فلم ذاك؟.

فنقول إن التقديم والتأخير لا يكون دائمًا مبنيًّا على السبق في الزمان أو على الأشرف وإنما هو مبني على العناية والاهتمام، وهذه تختلف بحسب السياق والمقام، فقد يقدم المتأخر أحيانًا أو بالعكس؛ ولذا نجد في القرآن تقديم الركوع على السجود مرة وتقديم السجود على الركوع مرة أخرى، وتقديم الحياة على الموت مرة وتقديم الموت على الحياة مرة أخرى، ونجد تقديم المتقدم في الزمن مرة وتقديم المتأخر مرة أخرى، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

فقدم عيسى على أيوب ويونس وغيرهما ممن ذكر، وهو بعدهم جميعًا. وذكر سليمان قبل أبيه داود. فليس التقديم والتأخير قائمًا على

---

(١) روح المعاني ٢٢/٢١٨.

السبق في الزمان إذن ؛ وإنما مداره على العناية والاهتمام كما ذكرت. وأوجه العناية والاهتمام تختلف بحسب السياق.

وهنا قدم الإحياء على الكتابة لأنه أهم من عدة أوجه:

منها: أنه المناسب لما قبله من الإنذار والتبشير ، فإن ذلك يكون في الحياة بعد الموت.

ومنها: أن كتابة ما قدموا من الأعمال إنما هي لما بعد الموت ، وإلا فلا قيمة للكتابة ، فقدم الأهم لذلك.

ثم إنه رتب المذكورات بحسب الأهمية ، فإن أهم شيء فيما ذكر هو الإحياء بعد الموت ، ثم كتابة الأعمال التي تعرض على صاحبها في الحياة الثانية ، ثم كتابة الآثار وهي مستندة إلى ما قدم من الأعمال. فما قدم من العمل هو أساس كتابة الآثار.

ثم إنه قدم الأهم من ناحية أخرى وهو ما لا يستطيع فعله إلا الله وهو إحياء الموتى ، ولذا جاء به بأسلوب القصر المؤكد ليدل على أنه لا يفعله إلا الله. وأما الكتابة فإنه يمكن أن يفعلها المخلوقون وإن لم تكن بنفس الدرجة من الدقة والإحاطة ، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ ولم يقل: (وإنا نحن نكتب ما قدموا).

ثم من ناحية أخرى قدم فعل الله على ما يفعله غيره ، والإحياء فعل الله. وأما الكتابة فهي فعل الملائكة الموكلين بها بأمره كما أخبر ربنا ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] ، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ثم إنه قدم إحياء الموتى لأن السورة مبنية على ذلك ، وأن جوها يشيع فيه ذكر الحياة بعد الموت. قال تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢] ، وهذا في الحياة الأخرى.

وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

وهذا إحياء بعد الموت.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، أي: الحشر.

وقال: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١ ـ ٥٣].

ثم ذكر مشهدًا من مشاهد الحياة الآخرة في الجنة ومشهدًا آخر في النار.

وتختم السورة بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

فالسورة يشيع فيها ذكر الحياة بعد الموت، فناسب تقديمه على الكتابة من كل وجه.

جاء في (التفسير الكبير): «الكتابة قبل الإحياء فكيف أخر في الذكر حيث قال: (نحيي ونكتب)، ولم يقل: (نكتب ما قدموا ونحييهم)؟ نقول: الكتابة معظمة لأمر الإحياء، لأن الإحياء إن لم يكن للحساب لا يعظم، والكتابة في نفسها إن لم تكن إحياء وإعادة لا يبقى لها أثر أصلاً. فالإحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لأمره. فلهذا قدم الإحياء، ولأنه تعالى لما قال: (إنا نحن) وذلك يفيد العظمة والجبروت والإحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه، فقرن بالتعريف الأمر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم» (١).

---

(١) التفسير الكبير ٤٩/٢٦.

وقال: (نكتب) ولم يقل: (نعلم) لغرض الاهتمام بها وتوثيقها وإطلاع صاحبها عليها بصغيرها وكبيرها. فإن الإنسان قد يعلم أشياء ولا يكتبها، فإن كانت مهمة دوّنها.

وقال: (أحصيناه) ولم يكتف بالكتابة؛ لأن الكتابة وحدها قد لا تكون كافية، فإن كتبت أشياء ولم تحصها فربما ضاعت أو تلفت، فإن الإحصاء يحدد عدد المكتوب فلا يضيع منه شيء. ولم يكتف بإحصائها بل جعلها في موضع واحد وهو الإمام المبين وهو اللوح المحفوظ ـ كما قيل ـ وسمي إمامًا لأن الملائكة تتبعه وتنفذ ما فيه فهو الإمام لها.

وقال: (نكتب) بالمضارع و(أحصيناه) بالماضي، لأن الإحصاء في الإمام المبين سابق على الكتابة، فإن الكتابة تكون لما يفعله المكلفون وهي متأخرة عما كتبه الله في اللوح، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم الدين.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون ذلك بيانًا لكون ما قدموا وآثارهم أمرًا مكتوبًا عليهم لا يبدل فإن القلم جف. . .

وثانيها: أن يكون ذلك مؤكدًا لمعنى قوله: (ونكتب) لأن من يكتب شيئًا في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين. وهذا كقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾. . . وقوله: (أحصيناه) أبلغ من (كتبناه) لأن من كتب شيئًا مفرقًا يحتاج إلى جمع عدده، فقال: هو محصى فيه. وسمى الكتاب إمامًا لأن الملائكة يتبعونه، فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة

اتبعوه. وقيل: هو اللوح المحفوظ» (١).

وقال: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ بنصب (كل) ولم يقل: (وكلُّ شيء) بالرفع، ذلك أن المعنى بنصب (كل) أننا أحصينا كل شيء في كتاب مبين.

وأما بالرفع فيحتمل معنيين:

المعنى الأول: وهو ما ذكرناه بالنصب فيكون (كل) مبتدأ، وجملة (أحصيناه) خبرًا له.

والمعنى الآخر: أن تكون جملة (أحصيناه) نعتًا لشيء، والخبر (في إمام مبين) فيكون المعنى (أننا كل شيء أحصيناه) (في إمام مبين) أي أن الشيء الذي أحصيناه إنما هو في إمام مبين. ومعنى ذلك أن الأشياء على قسمين: قسم محصى وهو في إمام مبين. وقسم غير محصى وهو ليس كذلك. وهذا المعنى باطل لا يمكن أن يراد.

فجاء بالعبارة ذات الدلالة القطعية التي لا تحتمل دلالة أخرى.

إن هذه الآيات من سورة (يس) بينت المقصد من هذه السورة وعليها بنيت، فكأنها تلخيص للسورة وبقية السورة تبيين لها. وقد ارتبطت آيات السورة بهذه الآيات ارتباطاً متيناً واضحًا.

فقد أجاب القسم بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي إنك واحد منهم. وقد طبعت السورة بهذا الطابع وقد بنيت على هذا الأمر. فقد ضرب له مثلاً بأصحاب القرية إذ جاءها المرسلون وذكر قصتهم معهم.

وقال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، فهذا يدل على كثرة الرسل وأنه واحد منهم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٤٩ ـ ٥٠.

وذكر تصديق المكذبين لرسلهم في الآخرة ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وقد ذكر في موطن آخر من السورة أن ما عهده الله إلى بني آدم على لسان رسله هو صراط مستقيم: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾، فانظر كيف وصف الرسول في أول السورة أنه على صراط مستقيم، ويأتي في بحر السورة أن هذا هو عهده إلى بني آدم.

ثم قال: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وكما بنيت السورة على ما ذكرت من أمر المرسلين وشاع فيها ذلك، بنيت أيضًا على العزة والرحمة وشاع ذلك فيها كما سبق أن ذكرنا في تفسير قوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثم ذكر الغرض من هذا التنزيل وهو الإنذار فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وقد شاع أيضًا جو الإنذار فيها، وهو التحذير من مغبة التكذيب لرسل الله سبحانه وذلك بما يذكره من العقوبات في الدنيا والآخرة وذلك من نحو قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

وهذا كله إنذار وتخويف.

ونحو قوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ [يس: ٤٣].

وقوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩ - ٥٠].

وقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].



وذكر مشهدًا من مشاهد جهنم وفيه تحذير أي تحذير.

ومن ذلك قوله: ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠].

وقوله: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

وهذا كله تحذير وإنذار لمن كان له قلب.

ثم ذكر القوم الذين سينذرهم وموقفهم من هذا الإنذار وأنهم سواء عليهم الإنذار وعدمه فهم لا يؤمنون على أية حال.

وبين لنا في السورة فيما ضرب من مثل وذكره أن هذا حال أكثر الأقوام الماضية وأن موقفهم من إنذار الرسل واحد ليتأسى رسول الله ﷺ وليعلم أن هذا ليس موقف قومه وحدهم، فقد ضرب له مثلاً بأصحاب القرية وموقفهم من رسلهم وذكر عاقبتهم ومآلهم، ثم بين أن هذا شأن عباد الله على العموم ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠]، ثم ذكر فيما بعد مؤكدًا هذا المعنى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [يس: ٤٦]، ثم ذكر أن الشيطان أضل خلقًا كثيرًا من بني آدم: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٢]، ثم ذكر في خواتم السورة أن الله خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين.

وهذه الآية تؤكد ما بينه وقرره من حال الإنسان وموقفه من الله ورسالاته.

ثم ذكر أن جزاء من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب مغفرة وأجر كريم. وشاع هذا الأمر في السورة وقرره في أكثر من موطن، فذكر عاقبة الذين آمن بالرسل من أصحاب القرية وأنه قيل له: ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ

قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فذكر المغفرة والإكرام وهما ما ذكره في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾. ثم ذكر أصحاب الجنة ونعيمهم ٥٦ ـ ٥٨.

ثم ختم هذه الآيات بقوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ وشاع في السورة أمر إحياء الموتى حتى صار طابعًا لها كما سبق أن ذكرنا.

فاتضح من هذا أن هذه الآيات هي المعاني التي بنيت عليها السورة وشاع فيها ذكرها، والله أعلم.

* * *

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ
أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا
عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩ وَجَآءَ
مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا
يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ
مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا
يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ
ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس: ١٣ ـ ٢٧].

* * *

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾

يحتمل هذا التعبير معنيين :

المعنى الأول : أن المقصود اضربْ لأجلهم مثلاً ، أي بيّنْه لهم واذكره لهم ، وقصّ عليهم قصة أصحاب القرية ليتعظوا وليعلموا أنك لست بدعًا من الرسل ، وإنما أُرسل قبلك رسل وأنذروا قومهم وأن موقفهم من رسلهم كان التكذيب وإنكار الرسالات وأنهم آذوا رسلهم وعذبوهم فأهلكهم الله لعل قومك يتعظون .

والمعنى الآخر : أن المقصود مثّل لنفسك حال قومك بأصحاب القرية واجعلهم مثلاً لهم ، أي شبّه حالهم بحال أصحاب القرية ، فإن حال قومك شبيه بحال أصحاب القرية ، وإن مثَلَهم كمثلهم ، كما تقول مخاطبًا شخصًا : أنا أشبّه حالك بحال فلان إذ فعل كذا وكذا . أو تقول لشخص : أنا أضرب لزيد مثلاً خالدًا فإن كليهما قد خسر في تجارته ، أي اجعله شبيهًا به .

وعلى كلا هذين المعنيين يرتبط المثل بما قبله أحسن ارتباط .

فإنه على المعنى الأول : أي أن تضرب لهم المثل وتبينه لهم ، فإنه يقول له : بيّن لهم شأن أصحاب القرية وموقفهم من رسلهم فإنهم مثلهم في الاعتقاد والتكذيب ، وستكون عاقبتهم مثلهم إن أصرّوا على كفرهم وعنادهم لعلهم يتعظون ويرعوون .

وعلى المعنى الثاني : يكون المقصود أن قومك ليسوا بدعًا من الأقوام ، فهناك أقوام مثلهم في التعنت والكفر ، وأنه سواء عليهم الإنذار وعدمه ، وأنه حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، وأنت لست وحدك تلاقي من العنت والإيذاء والتكذيب ما تلاقي ، فهؤلاء أصحاب القرية مثل قومك في موقفهم وعنادهم وإيذائهم رسلهم ، فقد أرسل إليهم ثلاثة رسل فكذبوهم وآذوهم فتصبّر وتأسّ بهم . وفي ذلك تصبير له وتأسية

فيكون ضرب المثل له ﷺ.

والمعنيان مرادان مرتبطان بما قبلهما أجل ارتباط وأحسنه.

جاء في (التفسير الكبير) في قوله: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾: «وفيه وجهان. والترتيب ظاهر على الوجهين.

الوجه الأول: هو أن يكون المعنى: واضرب لأجلهم مثلاً.

والثاني: أن يكون المعنى: واضرب لأجل نفسك أصحاب القرية لهم مثلاً.

أي مثَلهم عند نفسك بأصحاب القرية.

وعلى الأول نقول: لما قال الله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وقال: (لتنذر)، قال: قل لهم (ما كنت بدعًا من الرسل) بل قبلي بقليل جاء أصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما أنذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الإقامة.

وعلى الثاني نقول: لما قال الله تعالى إن الإنذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه أنه لا يؤمن قال للنبي عليه الصلاة والسلام: فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلاً، أي مثّل لهم عند نفسك مثلاً حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا، وصبر الرسل على القتل والإيذاء، وأنت جئتهم واحدًا وقومك أكثر من قوم الثلاثة، فإنهم جاؤا قرية وأنت بعثت إلى العالم» (١).

وجاء في (روح المعاني): «فالمعنى على الأول: اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو في الكفر والإصرار على التكذيب، أي طبق حالهم بحالهم على أن (مثلاً) مفعول ثان لـ (اضرب)، و(أصحاب القرية) مفعوله الأول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٠.

وعلى الثاني: اذكر وبين لهم قصة هي في الغرابة كالمثل. وقوله سبحانه: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ بتقدير مضاف، أي مثل أصحاب القرية»[(١)].

وقال: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولم يقل: (إذ جاءهم) لأنه أراد أنهم أتوهم في مكانهم لينذروهم. ولو قال: (إذ جاءهم) لم يفد أنهم أتوهم إلى مكانهم، بل يحتمل أنهم كانوا في مكان ما فأتاهم الرسل إليه. فقد يجتمع أهل قرية في مدينة ما ويأتيهم شخص إلى مكان اجتماعهم فيقال: (جاء أهل القرية فلان وكلمهم) ولم يفد ذلك أنه ذهب إلى قريتهم. بخلاف قوله: (جاءها) فإنه يفيد أنهم ذهبوا إليهم في دارهم ليبلغوهم دعوة ربهم وينذروهم، وفي هذا من الاهتمام بأمر التبليغ ما فيه.

جاء في (روح المعاني): «وقيل: ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ دون (إذ جاءهم) إشارة إلى أن المرسلين أتوهم في مقرهم»[(٢)].

وقال: (جاءها) دون (أتاها) ذلك أن المجيء يكون لما فيه مشقة ولما هو أصعب من الإتيان[(٣)]. ويبدو أنه كان في المجيء إلى أهل القرية وتبليغهم مشقة وإيذاء وتهديد فاختار المجيء على الإتيان. ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، لأنه كان إتياناً سهلاً وذلك أنهم مروا بها وهم في طريقهم. وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧]، لأن إتيانها ودخولها كان ميسراً ولم يجدوا من أهلها مساءة أو مشقة فاستعمل (أتيا) دون (جاءا).

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٠.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٠.

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن ٦ و١٠٢ وانظر كتاب «لمسات بيانية» (قصة موسى في سورتي النمل والقصص).

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا . . . ﴿١٤﴾ ﴾

قال: ﴿ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ﴾ ولم يقل: (أرسلنا إليها) ، كما قال: (جاءها) ؛ لأن الإرسال في الحقيقة إلى أهل القرية لا إلى القرية ، أما المجيء فكان إلى القرية ، فإن القرية تطلق على المساكن والأبنية والضياع وإن كانت خالية ، قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] ، ولذلك قال بعد: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ فنسب التكذيب إلى أهلها ولم ينسبه إلى القرية. لأنهم هم المرسل إليهم وهم المكذبون.

وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ يدل على أنهما أنذرا أصحاب القرية وبلغاهم دعوة ربهم إلا أنهم كذبوهما ، وهذه الفاء تسمى فاء الفصيحة ، وهي التي أفصحت عن المحذوف وهو التبليغ ؛ لأن التكذيب لا يكون إلا مع التبليغ فحذف ما هو مفهوم من الكلام وما لا داعي له ؛ لأن العناية ههنا بموقف أهلها منهما.

وهو الموقف المشابه لموقف أهل مكة. جاء في (روح المعاني): «وقيل: ﴿ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ﴾ دون (أرسلنا إليها) ليطابق ﴿ إِذْ جَآءَهَا ﴾ ، لأن الإرسال حقيقة إنما يكون إليهم لا إليها، بخلاف المجيء. وأيضًا التعقيب بقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ عليه أظهر. وهو هنا نظير التعقيب في قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ ﴾ [البقرة: ٦٠]» (١)

﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾

عزّزنا: قوينا ، والمعنى: فقويناهما ، غير أنه لم يذكر المفعول به ، فلم يقل: (فعززناهما) ؛ ذلك أن المقصود تقوية الحق الذي أرسلا به

---

(١) روح المعاني: ٢٢/ ٢٢١

علاوة على تقويتهما ، وليس المقصود تقوية الشخصين فقط ، فأخرج الفعل مخرج العموم ، ولو ذكر مفعولاً به لتقيد التعزيز بذلك المفعول. فنحن نرى فيما نرى أنك قد تنصر شخصًا وتقويه ولا تنصر فكره ، ونرى شخصين أو فريقين متخاصمين يحارب أحدهما الآخر أو يقتله وهما يحملان فكرًا واحدًا. فقال ههنا: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ ليدل على أن التقوية عامة لهما ولدعوتهما. وقد ذهب الزمخشري وآخرون إلى أن الغرض من الحذف إنما هو لبيان أن المقصود ذكر المعزز به وهو الحق الذي أرسلا به. والذي يبدو لي ما ذكرت والله أعلم.

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾:

«﴿فَعَزَّزْنَا﴾: فقوينا...

فإن قلت: لم ترك ذكر المفعول به؟

قلت: لأن الغرض ذكر المعزز به... وإذا كان الكلام منصبًّا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه ، كأن ما سواه مرفوض مطرح ، ونظيره قولك: (حكم السلطان اليوم بالحق) الغرض المسوق إليه قولك: (بالحق) فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه» (١).

وجاء في (التفسير الكبير): «وترك المفعول حيث لم يقل: (فعززناهما) لمعنى لطيف ، وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين» (٢).

وأسند التعزيز إلى نفسه سبحانه فقال: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ كما قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٤.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٥١.

للدلالة على أن المرسل والمعزّز واحد كل ذلك بأمره سبحانه.

* * *

﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ ﴾

أسند القول إليهم جميعًا لأنهم يدعون بدعوة واحدة، وقد انضم الثالث إلى الاثنين في دعوتهما إلى الله سبحانه.

﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ قالوها مؤكدة بـ (إنَّ) لأن الموقف يحتاج إلى توكيد، ذلك أن أصحاب القرية كذّبوا الرسولين كما أخبر تعالى: ﴿ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ ولذا قوّاهما بثالث فاحتاج الكلام بعد التكذيب والتقوية بالثالث إلى توكيد فقال: ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾. وهذا القول إنما هو بعد التكذيب والتعزيز، يدل على ذلك (فقالوا) بالجمع، وقوله: ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ بالجمع.

* * *

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ ﴾

﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ أي فكيف اختصكم الله بالوحي دوننا، ونحن بشر وأنتم بشر؟

وفي هذا القول تكذيب لهم وإنكار للنبوات على العموم. وقد فصل ما تضمنته هذه العبارة من تكذيب للمرسلين وإنكار للنبوات بقوله بعد: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ فإن هذا القول يعني إنكار النبوات، وبقوله: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴾ وهو تكذيب لهم خاصة.

فذكر الأمر العام الذي يتضمن الأمرين، ثم ذكر كل أمر مما تضمنته العبارة.

وهذا الإنكار شأن كثير من الأمم السالفة ، فإنهم أنكروا أن ينزل الله على بشر من شيء.

جاء في (تفسير ابن كثير) في قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ : «أي فكيف أوحي إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحي إلينا مثلكم؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة.

وهذه شُبَه كثير من الأمم المكذبة كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، أي استعجبوا من ذلك وأنكروه ، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله تعالى حكاية عنهم في قوله جل وعلا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤] ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]» (١).

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يكتف بقوله: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقد ذكرت أنه يتضمن معنى ما بعده؟.

والجواب: أنه ليس المقصود من قولهم هذا إثبات الرسل ، فإن هذا لم ينازعهم فيه أحد ، وإنما المقصود إنكار النبوات وتكذيبهم ، فأوضحوا المقصود وأبانوا عن معتقدهم.

ودفعًا لحجة الرسل الذين سيحتجون عليهم بقولهم: نعم نحن بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده فيختصه بالرسالة ، وإن كوننا بشرًا لا يمنع من أن يوحي إلينا ربنا ، وما إلى ذلك من الحجج التي تبين أنه لا مانع من أن يكون البشر رسولاً ، وأنه لو أرسل ربنا ملكًا لجعله رجلاً ولالتبس عليهم الأمر أيضًا ، فأبانوا عن معتقدهم بقولهم: ﴿وَمَآ

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٧.

﴿أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾. ثم بينوا رأيهم في هؤلاء الرسل فقالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

وهذه العبارة الأخيرة تعني تكذيب الرسل وعدم الإيمان لهم حتى لو كان الرحمن أنزل شيئًا؛ لأنهم كاذبون فيما يرون.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾

هذا القول يعني أنهم يؤمنون بالله وينكرون النبوات. وهذا شأن كثير من المجتمعات البشرية التي حكي عنها في القرآن نحو قوله: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، وقوله: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ومثلهم قوم سيدنا محمد ﷺ فإنهم يؤمنون بالله وينكرون النبوات. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقال: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

وقال: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

جاء في (روح المعاني): «وظاهر هذا القول يقتضي إقرارهم بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام» (١).

قال الفخر الرازي: «وقوله: (الرحمن) إشارة إلى الرد عليهم؛ لأن الله لما كان رحمن الدنيا والإرسال رحمة فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن؟ فقال: إنهم قالوا: ما أنزل الرحمن شيئًا، وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيئًا، هو الرحمة الكاملة؟» (٢).

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢١.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٢.

وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ فأسند الفعل إلى الرحمن، وقال في سورة الملك: ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ [الملك: ٩].

وفي سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: ٩١] بإسناد الفعل إلى الله؟.

فنقول: إن كل تعبير هو الأنسب في مكانه.

فأما سورة الملك فإنه يشيع فيها ذكر العذاب ومعاقبة الكفار، فقد ذكر فيها مشهدًا من مشاهد الذين كفروا في النار وسؤالهم عن النُّذُر التي جاءتهم وذلك قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥ ـ ١١].

ثم حذر عباده من عقوبته وبطشه في الدنيا وألاّ يأمنوا عذابه من فوقهم أو من تحت أرجلهم، وأن يعتبروا بما فعله ربنا في الأقوام الهالكة ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٨].

ثم حذرهم مرة أخرى وهددهم بقوله: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠ ـ ٢١].

وعاد مرة أخرى فذكر إنكار الكفار ليوم النشور واستبعادهم له وحذرهم من عقوبات رب العالمين في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٢٦ فَلَمَّا رَأَوۡهُ

زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٢٥ - ٣٠].

وإزاء كل هذا التحذير والتخويف وذكر مشاهد العذاب لم يذكر بخصوص المؤمنين وجزائهم إلا آية واحدة وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

فلا يناسب إزاء كل هذا التهديد والتحذير للكافرين وما أعده الله لعذابهم في جهنم أن يقرنه باسم الرحمن.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن القائلين لهذا القول إنما هم في أطباق النيران، وأنهم ألقوا فيها فوجًا بعد فوج وقد اشتد غضب الله عليهم ولم تدركهم رحمته فلا يناسب ذكر الرحمن هنا أيضًا.

ثم إن الله جعل العذاب بمقابل الرحمة فقال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، ولما كان المشهد مشهد العذاب كان ذلك في مقابل الرحمة، فلا يناسب هذا العذاب ذكر الرحمة، وبخاصة أن هؤلاء كفروا بربهم فلا ترجى لهم رحمة ولا ينالهم من اسم الرحمن نصيب.

ومن ناحية أخرى أن القائلين في سورة (يس) إنما هم في الدنيا وهم يتقلبون في نعم الله ورحمته، أما القائلون في سورة الملك فإنما هم في جهنم وقد يئسوا من رحمته سبحانه، فناسب كل تعبير موطنه.

وأما سورة الأنعام فإنها يشيع فيها التحذير والتهديد والتوعد وليس فيها مشهد من مشاهد الجنة، وإنما فيها صور غير قليلة من مشاهد النار.

كما أن السورة لم يرد فيها اسم (الرحمن) على طولها، في حين ورد

فيها اسم (الله) تعالى (٨٧) سبعًا وثمانين مرة.

فناسب كل تعبير مكانه.

﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾

لقد واجهوهم بالتكذيب صراحة بعد أن ذكروا ذلك ضمنًا بقولهم: ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ ، وقولهم: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾

وكان النفي والإثبات بما وإلا في قوله: ﴿ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ وههنا بإنْ وإلا: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

ذلك أن (إنْ)أقوى في النفي من (ما) فوضع كل حرف في الموضع الذي يقتضيه، ذلك أن قولهم: ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ غير منكور وهو معلوم للجميع. أما قولهم: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ فهو موضوع النزاع، فإنه الوصف الذي يلصقه أهل القرية بهم ويدفعه المرسلون عن أنفسهم. فإن كونهم بشرًا لا يحتاج إلى إثبات أو دليل، بخلاف إثبات الكذب. وأهل القرية لم يذكروا بشريتهم إلا ليصلوا إلى تكذيبهم، فإن الغرض من قولهم: ﴿ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ ليس إثبات البشرية لهم وإنما هو إثبات الكذب عليهم، فناسب ذكر أقوى الحرفين فيما فيه قوة إنكار ويحتاج إلى إثبات.

* * *

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾

بعد أن بالغ أصحاب القرية في تكذيبهم وردهم ردًّا غير جميل لم يتركهم رسل الله ولم يرحلوا عنهم، وإنما أقسموا على صدقهم واستمروا على إبلاغهم دعوة ربهم قائلين: ﴿ رَبُّنَا يَعۡلَمُ . . .﴾ وفي هذا توجيه للدعاة أن لا يسأموا إذا جوبهوا بما يكرهون أو رُدّوا ردًّا غير جميل أو اتهموا

باتهامات باطلة، بل عليهم أن يعيدوا النصح والتبليغ.

وقولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ يجري عند العرب مجرى اليمين ويجاب بما يجاب به القسم، فقولك: (علم الله) و(ربنا يعلم) وما إلى ذلك هو نوع من القسم في كلام العرب، ولذا أجيب بما يجاب به القسم وهو الجملة الاسمية المؤكدة بإن واللام.

واختيار هذا التعبير أنسب شيء هنا، فإنه إضافة إلى القسم الذي فيه فإنهم نسبوا العلم إلى الله فقالوا: (ربنا يعلم ذلك) فإنهم أرسلوا بأمره وبعلمه. وهو ههنا أبلغ من مجرد القسم بأن نقول (والله) أو (وربنا) فإن أصحاب القرية قالوا: إن الرحمن لم ينزل شيئًا وإنكم تكذبون فيما ادعيتم به. فرد عليهم الرسل بأن ربنا يعلم صدقنا وأننا مرسلون إليكم.

وقيل: إن من قال: (يعلم الله ذلك) وهو غير صادق فيما يقول فقد كفر؛ لأنه نسب إلى الله الجهل، بخلاف اليمين الكاذبة.

واختيار (الرب) مع الرسالة أنسب شيء، فإن الرب هو المربي والهادي. والهداية هي المقصودة من الرسالة، ولذلك كثيرًا ما يقترن الإرسال بالرب وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤]، وقوله: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٤٧]، وقوله: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦].

وإضافته إلى ضمير المتكلمين (ربنا) يعني أن ربهم الذي خلقهم وله كمال الصفات هو الذي أرسلهم وأيدهم بالمعجزات. ولو قالوا: (ربكم يعلم...) لاحتمل أن يقولوا لهم: إن ربنا لا يرسل الرسل. ثم إنهم اتخذوا أربابًا لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه فكيف ترسل الرسل؟.

ثم إن ذلك يعنى أن ربهم هو الذي أرسلهم إلى أهل القرية لأنه ربهم

أيضًا ، ولو لم يكن ربهم لم يعنِه أمرهم. فإضافة الرب إلى ضمير المتكلمين له أكثر من مناسبة ودلالة.

وتقديم الرب على الفعل يفيد التوكيد والتقوية.

وتقديم الجار والمجرور (إليكم) يفيد التخصيص ، أي إنا أرسلنا إليكم على وجه الخصوص لنبلغكم رسالة ربنا.

وقال ههنا: (لمرسلون) باللام ، وقال قبلها: (مرسلون) بلا لام ، وذلك زيادة في التوكيد لزيادة الإنكار. فقد أكد العبارة الأولى بإنّ بعد التكذيب ، فلما زاد التكذيب والإنكار بثلاث جمل كل منها غاية في التكذيب والإنكار زاد في التأكيد. فقد قال في المرة الأولى: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وفي المرة الأخرى: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾. فأكد بالقسم وهو قوله: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ وبالجملة الاسمية وهو تقديم (ربنا) على الفعل (يعلم) وبإن واللام. فكان كل تعبير هو المناسب للمقام.

جاء في (التفسير الكبير): في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ...﴾ إنه «إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ، بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين و﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وأكدوه باللام لأن (يعلم الله) يجري مجرى القسم. لأن من يقول: (يعلم الله) فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب ، كما أن الحنث سببه»[1].

وجاء في (روح المعاني): «استشهدوا بعلم الله تعالى وهو جارٍ مجرى القسم في التأكيد والجواب بما يجاب به. وذكر أن من استشهد به كاذبًا يكفر ولا كذلك القسم على كذب. وفيه تحذيرهم معارضة علم الله تعالى.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٢.

وفي اختيار عنوان الربوبية رمز إلى حكمة الإرسال ، كما رمز الكفرة إلى ما ينافيه بزعمهم. وإضافة (رب) إلى ضمير الرسل لا يأبى ذلك ، ويجوز أن يكون اختياره لأنه أوفق بالحال التي هم فيها من إظهار المعجز على أيديهم ، فكأنهم قالوا: ناصرنا بالمعجزات يعلم إنا إليكم لمرسلون.

وتقديم المسند إليه لتقوية الحكم أو للحصر ، أي ربنا يعلم لا أنتم لانتفاء النظر في الآيات عنكم. . .

وجاء كلام الرسل ثانيًا في غاية التأكيد لمبالغة الكفرة في الإنكار جدًّا حيث إنه أتوا بثلاث جمل وكل منها دال على شدة الإنكار كما لا يخفى على من له أدنى تأمل» [١].

* * *

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

ذكروا أن مهمتهم هي البلاغ المبين حتى إن كذبوهم وأساؤا إليهم فإن هذا لا يثنيهم عن البلاغ لأن هذا أمر أنيط بهم وعليهم تنفيذه.

ومعنى (علينا) أي نحن مكلفون بذلك وهو واجبنا ، فواجب الرسل هو التبليغ. بل يلزمنا البلاغ المبين ، أي المبين للحق المظهر له ، والذي يصل إلى عموم المكلفين بحيث لا يبقى أحد لا يسمع به ولا يعلم ما هو فلا يصح أن نسرّ ذلك إلى شخص أو نبلغه إلى جماعة مخصوصة فإن ذلك لا يكون بلاغًا مبينًا. فالبلاغ المبين يتضمن أمرين:

الأمر الأول: إيضاح الرسالة وتبليغها كلها بحيث لا يبقى منها شيء غير مبلغ ولا غير معلوم.

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٢ وانظر الكشاف ٢/ ٥٨٤.

والأمر الآخر: أن يكون التبليغ شاملاً لكل من أرسل إليهم واصلاً إلى كل فرد.

فلا يترك سبيلاً لإيصال الدعوة إلى كل من تعنيه.

وإلا لم يكن بلاغًا مبينًا.

وعلى هذا فإن عليهم أن يبلغوا كل ما أرسلوا به وألاّ يكتموا منه شيئًا وأن يوصلوه إلى جميع أصحاب القرية. وهذان الأمران لا يصدّهم عنهما صادّ ولا يدفعهم عنهما دافع لأن ذلك مما ألزموا به إلزامًا.

جاء في (التفسير الكبير): «و(المبين) يحتمل أمورًا:

أحدها: البلاغ المبين للحق عن الباطل، أي الفارق بالمعجزة والبرهان.

وثانيها: البلاغ المظهر لما أرسلنا للكل. أي لا يكفي أن نبلغ الرسالة إلى شخص أو شخصين.

وثالثها: البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن»[1].

* * *

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾

تطيرنا بكم: أي تشاءمنا بكم[2]، فلم نر على وجوهكم خيرًا في عيشنا[3].

وقد تقول: لقد قال في سورة النمل في قوم صالح: ﴿ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٧.

مَّعَكَۚ﴾ [النمل: ٤٧] فأبدل وأدغم، فلِمَ لَمْ يقل ههنا كما قال ثَمّ؟

والجواب أنا ذكرنا في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) أن (اطّيّر) ونحوه كادّبّر واطهّر أبلغ من (تطير) ونحوه، وذلك لمكان التضعيف في الفاء زيادة على تضعيف العين، فدل على أن التطير في سورة النمل أشد منه مما في هذه الآية، يدل على ذلك أنهم في هذه الآية هددوهم بالرجم والتعذيب إن لم ينتهوا. وأما في سورة النمل فقد تعاهدوا وتقاسموا بالله على قتله مع أهله: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩] [١] فدل على أن تطيرهم في سورة النمل أقوى وأشد.

وقد تقول: إذا كان الأمر كذلك فلم إذن أكد التطير بـ (إنّ) في سورة (يس) فقال: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ ولم يؤكده في سورة النمل، فإنه قال: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا﴾؟

والجواب: أنه لا يلزم في الكلام توكيد كل فعل فيه مبالغة وشدة دومًا، فإنه إذا ذكر المتكلم فعلاً أقوى وأبلغ من فعل، أو وصفًا أقوى من وصف لا يلزمه أن يؤكد الفعل أو الوصف الأقوى منهما، وإنما يكون ذلك بحسب الغرض. فله أن يؤكد أي واحد منهما بحسب ما يقتضيه الكلام. فله أن يقول مثلاً: (اصطبرت عليك وإني صبرت على فلان) فيذكر الاصطبار من دون توكيد ويؤكد الصبر مع أن الاصطبار أبلغ وأقوى من الصبر، لأن الغرض من العبارة أن يخبر باصطباره عليه ويؤكد صبره على الآخر.

ولك أن تقول: (إنه كاذب) فتؤكد اسم الفاعل، وتقول: (هو كذّاب) فلا تؤكد صيغة المبالغة مع أن المبالغة أقوى من اسم الفاعل. ولا يلزم من مبالغة الوصف التوكيد وإنما يكون ذلك بحسب الغرض. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] في أكثر من موطن، فأكد كذبهم بإن واللام.

---

(١) انظر: (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) الابدال ٥٦.

وقــال: ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤] ، و﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٥] ، ولم يؤكد مع أن (كذاب) صيغة مبالغة ، فأكد اسم الفاعل ولم يؤكد المبالغة.

والذي أريد أن أخلص إليه أن المبالغة في الفعل والوصف لا تقتضي التوكيد دائمًا ، وإنما ذلك بحسب الغرض والمقام. فلك أن تؤكد أي فعل أو وصف أو لا تؤكده ، ولك أن تؤكد ما هو أقل مبالغة ولا تؤكد الأقوى وبالعكس ، فكل ذلك إنما يكون بحسب ما يقتضيه الكلام.

وإيضاح ذلك أنك قد تذكر شخصًا هو موضع ثقة كبيرة عند من تخاطبه فتقول له (هو كاذب) فينكر ذلك عليك ، فتؤكد ذلك بقولك: (إنه كاذب) ثم ينكر عليك قولك إنكارًا أشد من الأول فتقول له: إنه لكاذب.

وتقول عن شخص آخر معروف بكثرة الكذب: (هو كذاب) فلا تحتاج إلى توكيد لأن مخاطبك لا ينكر ذلك عليك.

فأنت احتجت إلى أن تؤكد اسم الفاعل دون المبالغة.

ونعود إلى الآيتين ، فنقول: إن قوم صالح أخبروه بتطيرهم الشديد ، وأما أصحاب القرية فإنهم أكدوا تطيرهم ، وهو نظير قولنا: (اصطبرت عليك وإني صبرت على فلان) أو (هو مكتسب وإن زيدًا كاسب) فيؤكد الأقل دون الأقوى.

إنه في آية (يس) وهي قوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أكد التطير بإن ، وفي آية النمل وهي قوله: ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ ﴾ [النمل: ٤٧] لم يؤكده ، ذلك أن كل موطن يقتضي ما ذكر فيه.

فإن أصحاب القربة أطالوا في كلامهم ولم يكتفوا بذكر التطير ، وإنما

هددوهم بالرجم والتعذيب فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

في حين كان الكلام موجزًا في سورة النمل ، فقد ذكروا التطير ولم يهددوهم بشيء ، فناسب الإيجاز الإيجاز ، وناسب التفصيل التفصيل. ولا شك أن القول: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أطول من ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن أصحاب القرية هددوهم بالرجم والتعذيب مؤكدين بالقسم ونون التوكيد ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ ، فناسب ذلك توكيد التطير ، في حين أن قوم صالح لم يهددوهم بشيء. فناسب التوكيد في آية (يس) دون آية النمل.

وهناك أمر آخر ، وهو أن رهطاً من قوم صالح كانوا يدبرون له ولأهله أمرًا خفيًا لا يريدون إشاعته ولا أن يعلم به غيرهم ، وهو أن يبيتوه وأهله بليل ، أي أن يغيروا عليهم ليلاً ويقتلوهم من دون أن يعلم أحد ، ثم إنهم إن سئلوا عن ذلك أجابوا أنهم لا يعلمون ذاك وقد تعاهدوا على ذلك وأقسموا عليه: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ [النمل: ٤٩] ، وهذا يقتضي عدم التهديد والتوعد المعلن ؛ لأنه سيفتضح أمرهم ، بل يقتضي عدم التوكيد في الكلام ، ولذا ذكروا أنهم متطيرون بهم ليس غير.

فاقتضى كل موطن التعبير الذي ورد فيه. هذا علاوة على تردد التوكيد بإن في قصة أصحاب القرية أكثر من مرة ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ .

فى حين لم يرد مثل ذلك فى قصة صالح إلا قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

فناسب كل تعبير موطنه. وأما قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ [النمل: ٥٢]، فهذا من التعقيب على القصة وليس فيما دار فيها من كلام.

جاء في (التفسير الكبير): «لما ظهر من الرسل المبالغة في البلاغ ظهر منهم الغلو في التكذيب. فلما قال المرسلون: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ أكدوا قولهم بالتطير بهم» [(١)].

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾

بعد أن ذكروا تطيرهم بهم هددوهم بالرجم إن لم يكفوا عن دعوتهم وقد أكدوا ذلك بالقسم وبنون التوكيد. ويدل على القسم اللام الداخلة على (إنْ) وهي اللام الموطئة للقسم أي الدالة عليه، وأكدوا تهديدهم بنون التوكيد الثقيلة الداخلة على الفعل (لنرجمنكم). فكما أكدوا تطيرهم بـ (إنّ) أكدوا تهديدهم بالقسم ونون التوكيد.

وقد تقول: لقد قال في مكان آخر: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وقال في سورة مريم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، فلم لم يجعل التعبيرات على نمط واحد؟

والجواب: أنه لا يصح جعلها على نمط واحد؛ لأن المعنى مختلف والمقام مختلف. ذلك أن قولك: (لأرجمنك) يعني لأوقعن عليك الرجم ولا يعني أن هناك آخرين مرجومين معه أو نالهم الرجم.

وقولك: (هو من المرجومين) يعني أنه واحد ممن نالهم الرجم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٥٣.

فلا يصح في سورة (يس) أن يقال: (لئن لم تنتهوا لتكونُنّ من المرجومين) لأنه ليس هناك أشخاص آخرون غير هؤلاء نالهم الرجم فيكونون منهم.

وكذلك في آية مريم فإنه قال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، ولم يقل: (لتكونن من المرجومين) لأنه ليس هناك آخرون معه نالهم الرجم أو سينالهم، فإن هذا الكلام موجه من أبي إبراهيم لولده إبراهيم عليه السلام وحده.

أما ما في سورة الشعراء فإنه تهديد لنوح ولمن معه: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، أي لئن لم تنته لتكونن من الذين ينالهم الرجم. ولو قال: (لنرجمنك) لكان الرجم مختصًّا بنوح دون من آمن معه.

فإن قيل: ولِمَ لَمْ يقل: (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم) كما قال في سورة (يس)؟

والجواب: أن الرسل في سورة يس ثلاثة كلهم بمنزلة واحدة داعون إلى الله مبلغون لرسالته، ولذلك جاء الكلام على أنفسهم بصيغة الجمع ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ . . . قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾، وكان التطير بهم جميعًا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ فكان الخطاب لهم جميعًا.

وأما نوح فهو رسول واحد يبلغ عن ربه، أما البقية فهم أتباع، وهو صاحب الدعوة والمبلغ، فخوطب وطلب منه الكف فقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾، أي: لنرجمنك ومن معك. فهذا تهديد له ولأتباعه.

وهذا القول نظير ما قاله قوم لوط للوط: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]، أي لنخرجنك ومن معك، بدليل قوله

تعالى على لسان قومه: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢] ، وقوله: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦] ، فلما واجهوا لوطًا قالوا له: لتكونن من المخرجين ، أي لتكونن واحدًا منهم. وهو تهديد له ولأتباعه أيضًا.

فكان كل تعبير هو المناسب في مكانه.

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

هددوهم بالعذاب الأليم إضافة إلى الرجم ، فإنهم لم يقولوا: (أو ليمسنكم منا عذاب أليم) فيهددوهم بأحد الشيئين ، بل جاؤوا بالواو التي تفيد الجمع ، ثم أعادوا اللام الواقعة في جواب القسم (ليمسنكم) للدلالة على أن التهديد بالعذاب مؤكد كالمعطوف عليه ، لأنه أحيانًا يكتفى باللام الداخلة على الفعل الأول ، أما الفعل الثاني فيكتفى فيه بنون التوكيد فيكون الثاني أقل توكيدًا ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ [الحشر: ١١] ، فإنه أدخل اللام الموطئة في قوله: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾ ولم يدخلها على المعطوف ، وإنما اكتفى بتوكيد الفعل فقال: ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ فكان الثاني أقل توكيدًا من الأول ، ذلك أنهم أكدوا الفعل الأول لأنه أيسر عليهم ، ولم يؤكدوا الثاني لأنه أصعب عليهم وأشق.

وكان هناك خيار آخر وهو أن يخفف النون في الفعل المعطوف نظير قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢] فيكون ما دخلت عليه النون الثقيلة آكد مما دخلت عليه النون الخفيفة ، ولكنه لم يفعل هذا ولا ذاك ، بل أعاد اللام وأتى بالنون الثقيلة للدلالة على أنهما بمنزلة واحدة في التوكيد وأنهم سيفعلونهما جميعًا.

ثم قالوا: (منا) للدلالة على الجهة التي ستقوم بالعذاب. فالجهة التي

ستقوم بالرجم والعذاب واحدة ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا﴾ فإنه لم يقل: (وليمسنكم عذاب أليم) فيبهم الجهة، إذ لعله لو قالوا ذاك لفهم منه أنهم يقصدون أن آلهتم هي التي ستمسهم بالعذاب.

وقدم الجار والمجرور (منا) على العذاب لأكثر من سبب، ذلك أن الكلام عليهم وهم مدار الإسناد (قالوا إنّا تطيرنا، لنرجمنكم، وليمسنكم منّا) فناسب تقديم ضميرهم، فإنهم هم المتطيرون وهم الراجمون وهم المعذبون.

ثم إن تقديم الجار والمجرور يفيد تعلقه بالفعل (ليمسنكم) أي (ليمسنكم منا) أي نحن الذين نعذبكم ونتولى أمر ذلك بأنفسنا ولا ندع ذلك لغيرنا ممن قد يرقّ لحالكم أو يخفف عنكم. ولو قال: (ليمسنكم عذاب أليم منا) لاحتمل أن يكون (منا) صفة لـ (عذاب) وعلى هذا الاحتمال يكون العذاب صادرًا منهم أمره، أما الذي يقوم بالتعذيب فهو غيرهم. وهذا يكون نظير قولنا:

(استعرت لمحمد كتابًا) و(استعرت كتابًا لمحمد) فإن الجملة الأولى يكون تعلق الجار والمجرور فيها بـ (استعرت) فتكون الاستعارة لمحمد، أي (استعرت لمحمد) (كتابًا).

أما الجملة الثانية فتحتمل هذا المعنى وتحتمل معنى آخر وهو: استعرت كتابًا عائدًا لمحمد، أي أن الكتاب هو كتاب محمد وأنت استعرته، فيكون المعنى على النحو الآتي (استعرت) (كتابًا لمحمد).

فكان تقديم الجار والمجرور هو الأنسب.

* * *

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

(طائركم) أي ما طار لكم من الخير والشر أو حظكم ونصيبكم منهما

معكم وهو إنما يكون من أفعالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر (١).

وفسر الطائر بالشؤم: «أي شؤمكم معكم وهو الإقامة على الكفر، وأما نحن فلا شؤم معنا لأنا ندعو إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وفيه غاية اليمن والخير والبركة» (٢).

﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي أإن ذكرتم بما هو خير لكم في الدنيا والآخرة تطيرتم أو تتوعدونا بالرجم والتعذيب؟ وحذف جواب الشرط لإطلاقه وعدم تقييده بشيء معين.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي مجاوزون للحد في المعاصي أو في التطير أو في العدوان. وأطلق الإسراف ولم يقيده بشيء ليشمل كل إسراف في سوء.

* * *

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾

في هذا الوقت المتأزم والظرف العصيب الذي كثر فيه التهديد والتوعد واشتد فيه الإرهاب جاء من أقصى المدينة رجل يسعى ليعلن اتّباعه للرسل وإيمانه بهم ويبين ضلال قومه غير مبال بما سيحدث له.

وفي التعبير دلالات مهمة في هذا الخصوص.

١ ـ فقد ذكر أنه جاء من أقصى المدينة، أي من أبعد مكان فيها لا يثنيه شيء، حاملاً همّ الدعوة.

٢ ـ قال: ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ ولم يقل (من أقصى القرية) وقد سماها قرية بادئ ذي بدء فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ذلك للدلالة على

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٤، فتح القدير ٤/ ٣٥٣.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

أنها واسعة ، فالقرية إذا كانت متسعة تسمى مدينة أيضًا. فأفاد أن هذه القرية كبيرة متسعة ولذا أطلق عليها مدينة ، وذلك يفيد أنه جاء من مكان بعيد وذلك يدل على اهتمامه الكبير بمعتقده الجديد.

٣ ـ قال: (يسعى) أي يعدو ويسرع في مشيه وليس متباطئاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وهو توجيه للدعاة بعدم التواني في أمر الله.

٤ ـ لم يسكت عن الحق ولم يجامل أو يهادن بل دعا قومه إلى الإيمان بما جاءت به الرسل وأتباعهم وأعلن عن إيمانه هو.

٥ ـ إن مجيئه من أقصى المدينة يدل على وصول البلاغ إلى أبعد مكان فيها ، مما يدل على جديتهم في التبليغ وتوسعهم فيه ، وهو تصديق لقولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

وقال هنا: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ فقدم ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ على (رجل) ، وقال في سورة القصص ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] ، بتقديم (رجل) على ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

ذلك أن القصد في آية (يس) أن يبين أن مجيء الرجل كان من أبعد مواضعها. وأما في القصص فإنه يفيد أن الرجل من أقصى المدينة ، أي هو من أهل المواضع البعيدة غير أنه لا يلزم أن يكون مجيئه من أقصى المدينة. وهو كما تقول: (جاءني من القرية رجال) أي جاؤوك من القرية ، وتقول: (جاءني رجال من القرية) فالرجال هم من أهل القرية لكن لا يقتضي أن مجيئهم إليك كان من القرية بل قد يكونون في المدينة ثم جاؤوك. وقد يكون المجيء من القرية. فقولك: (جاءني رجال من القرية) يحتمل معنيين ، بخلاف قولك: (جاءني من القرية رجال).

وعلى أية حال فإن قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يفيد أنه

جاء من أبعد مكان من المدينة.

وقوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ يحتمل ذلك ويحتمل أنه من أهل الأماكن البعيدة وإن لم يكن مجيئه من هناك.

وفي تقديم (من أقصى المدينة) في سورة (يس) فائدة أخرى حتى لو كان مجيئهما كليهما من أقصى المدينة. فإن قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ يدل على أن الاهتمام أكبر لأكثر من سبب:

١ ـ ذلك أن مجيء الرجل من أقصى المدينة إنما كان لغرض تبليغ الدعوة. في حين أن مجيء الرجل إلى موسى كان لغرض تحذيره. والأمر الأول أهم.

٢ ـ ثم إن مجيء الرجل من أقصى القرية إنما كان لإشهار إيمانه أمام الملأ ونصح قومه. في حين أنه كان مجيء الرجل إلى موسى ليسرّ إليه كلمة في أذنه، فمجيء رجل (يس) إنما كان للإعلان والإشهار، ومجيء رجل موسى إنما كان للإسرار. وفرق بين الأمرين.

٣ ـ إن مجيء رجل (يس) فيه مجازفة ومخاطرة بحياته، وليس في مجيء رجل موسى شيء من ذلك، وإنما هو إسرار لشخص بأمرٍ ما ليحذر.

٤ ـ إن المجتمع في القرية كله ضد على الرسل وعقيدتهم مكذب لهم متطير بهم، فإعلان الرجل أنه مؤمن بما جاء به الرسل مصدق لهم فيه ما فيه من التحدي لهم. بخلاف مجتمع سيدنا موسى عليه السلام فإنه ليس فيه فكر معارض أو مؤيد وليست هناك دعوة أصلاً.

٥ ـ إن نصر رسل الله وأوليائه ودعاته أولى من كل شيء، فإن تعزيزهم تعزيز لدعوة الله. وأما موسى عليه السلام فإنه كان رجلاً من المجتمع ليس صاحب دعوة آنذاك ولم يكلفه الله بعد حمل الرسالة.

فتقديم (من أقصى المدينة) دل على أن الموقف أهم وأخطر. ومع

ذلك أفادنا أن تحذير شخص من ظالم أمر مهم ينبغي أن يسعى إليه ولو من مكان بعيد.

فإن كلاًّ من الموقفين مهم، غير أن أحدهما أهم من الآخر، فقدم ما قدم ليدل على الاهتمام.

جاء في (التفسير الكبير): في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ «وفي فائدته وتعلقه بما قبله وجهان:

أحدهما: أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعي.

وعلى هذا فقوله: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ فيه بلاغة باهرة؛ وذلك لأنه لما جاء من (أقصى المدينة رجل) وهو قد آمن دل على أن إنذارهم وإظهارهم بلغ إلى أقصى المدينة...

وفي التفسير مسائل:

(المسألة الأولى): قوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾ في تنكير الرجل مع أنه كان معروفًا معلومًا عند الله فائدتان:

(الأولى): أن يكون تعظيمًا لشأنه، أي رجل كامل في الرجولية.

(الثانية): أن يكون مفيدًا لظهور الحق من جانب المرسلين، حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال إنهم تواطؤا.

(المسألة الثانية): قوله: (يسعى) تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا في النصح باذلين جهدهم. وقد ذكرنا فائدة قوله: (من أقصى المدينة) وهي تبليغهم الرسالة بحيث انتهى إلى من في أقصى المدينة»[1].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٤.

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أي من أبعد مواضعها (رجل) أي رجل عند الله تعالى فتنوينه للتعظيم. وجوز أن يكون للتنكير لإفادة أن المرسلين لا يعرفونه ليتواطؤا معه. . .

(يسعى) أي يعدو ويسرع في مشيه حرصًا على نصح قومه. وقيل: إنه سمع أن قومه عزموا على قتل الرسل فقصد وجه الله تعالى بالذب عنهم. . .

وجاء ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هنا مقدمًا على (رجل) عكس ما جاء في القصص.

وجعله أبو حيان من التفنن في البلاغة.

وقال الخفاجي: قدم الجار والمجرور على الفاعل الذي حقه التقديم بيانًا لفضله، إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم، وأن بعده لم يمنعه عن ذلك. ولذا عبر بالمدينة هنا بعد التعبير بالقرية إشارة إلى السعة وأن الله تعالى يهدي من يشاء سواء قرب أو بعد.

وقيل: قدم للاهتمام حيث تضمن الإشارة إلى أن إنذارهم قد بلغ أقصى المدينة فيشعر بأنهم أتوا بالبلاغ المبين.

وقيل: إنه لو تأخر توهم تعلقه بيسعى فلم يفد أنه من أهل المدينة، مسكنه في طرفها وهو المقصود»[1].

* * *

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

قال لهم: (يا قوم) ليعطف قلوبهم. وذكر لهم ثلاثة أمور تدعوهم إلى اتباع هؤلاء الدعاة:

---

(١) روح المعانى ٢٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

١ ـ كونهم مرسلين من الله ، وهذا أهم ما يستوجب اتباعهم ، فكونهم مرسلين من ربهم يدعو إلى اتباعهم لأنهم لا يدعون إلى أنفسهم ولا إلى معتقدات شخصية ولا إلى آراء خاصة ولا إلى أفكار بشرية وإنما يدعونهم إلى ما أراده ربهم وخالقهم.

٢ ـ وأنهم لا يسألون أجرًا على هذا التبليغ ولا يبتغون مصلحة خاصة كما هو شأن كثير من أصحاب الدعوات الأرضية ، مما يدل على أنهم مخلصون في دعوتهم لهم.

٣ ـ أنهم مهتدون ، وهذا يقتضي الاتباع ، وهو بغية كل متبع مخلص.

جاء في (الكشاف): «﴿مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ كلمة جامعة في الترغيب فيهم ، أي لا تخسرون معهم شيئًا من دنياكم وتربحون صحة دينكم فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة» [1].

وقد كرر الاتباع بقوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لأكثر من غرض. فالتكرار يفيد التوكيد ويفيد أمرًا آخر وهو: أن المرسلين ينبغي أن يتبعوا أصلاً ، فإذا ثبت أن شخصًا ما مرسل من ربه كان ذلك داعيًا إلى أن يتبع قطعًا ، وهذه دلالة قوله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أما اتباع غير المرسلين فيكون لمن فيه صفتان:

١ ـ أن يكون مهتديًا.

٢ ـ أن لا يسأل أجرًا ولا يطلب منفعة ذاتية.

وهذ توجيه لعموم المكلفين ، ولو قال: (اتبعوا المرسلين. من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون) لكان ذلك خاصًا باتباع الرسل ولا يشير

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٢.

إلى اتباع غيرهم من المصلحين والداعين إلى دعوتهم. فتكرار (اتبعوا) أفاد الاتباع للرسل في حالة وجودهم. والاتباع الثاني لمن يحمل هاتين الصفتين.

جاء في (روح المعاني): «تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يتضمن نفي المانع عن اتباعهم بعد الإشارة إلى تحقق المقتضي» (١).

واختار (من) على (الذين) لكونها أعم، فإنها تشمل كل داع إلى الله، واحدًا كان أو أكثر.

* * *

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾

بعد أن نصح لهم باتباع المرسلين لأنهم على الهدى، ذكر أنه بدأ بنفسه فآمن بدعوتهم واتبعهم فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

لقد اختار من الدواعي الموجبة لعبادة ربه أنه هو المبدئ والمعيد، فهو الذي فطرهم وأوجدهم، وأنهم إليه يرجعون، فلا يتركهم بعد موتهم بل سيحشرهم إليه ويحاسبهم على ما قدموا، فإما أن يعاقبهم أو يكرمهم، وفي هذا تخويف وإطماع.

لقد اختار هذين الأمرين من موجبات العبادة وهما البدء والإعادة لعلمهم جميعًا أن آلهتهم لا تفعلهما ولا تستطيعهما، وبهذا سقط كل موجب لعبادة غيره وثبت كل موجب لعبادته.

وقد قدم الجار والمجرور (إليه) على (ترجعون) لقصد الاختصاص، والمعنى أن الرجوع إليه حصرًا لا إلى غيره، وهو نظير قوله تعالى:

---

(١) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٦.

﴿ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ و﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ و﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

لقد ذكر الموجب لأن يعبده هو وأن يعبدوه هم ، فإنه قال: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ وهذا داعٍ لأن يعبده هو فكيف لا يعبد الذي فطره؟

وفيه دعوة لهم أيضًا ليعبدوه لأن الذي فطره فطرهم أيضًا.

وقال: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا داعٍ لأن يعبدوه هم فإنهم راجعون إليه فيحاسبهم.

وهو مثلهم راجع إليه أيضًا لأنه فطره.

فقوله: ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يقتضي أنه فطرهم أيضًا.

وقوله: ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقتضي أنه يرجع إليه أيضًا.

وبذلك أشار بأوجز تعبير إلى أنه فطره وفطرهم وأنه إليه يرجع وأنهم إليه يرجعون. فما له لا يعبده وما لهم لا يعبدونه؟ وهذا تعبير موجز عن القول: (ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه أرجع ، وما لكم لا تعبدون الذي فطركم وإليه ترجعون).

جاء في (الكشاف): «أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه.

ولقد وضع قوله: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ مكان قوله: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم) ، ألا ترى إلى قومه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ، ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع. وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ يريد فاسمعوا قولي وأطيعوني فقد نبهتكم على الصحيح الذي لا معدل عنه أن العبادة لا تصح إلا

لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم»[١].

وجاء في (التفسير الكبير): «اختار من الآيات فطرة نفسه لأنه لما قال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ بإسناد العبادة إلى نفسه اختار ما هو أقرب إلى إيجاب العبادة على نفسه. . .

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إشارة إلى الخوف والرجاء كما قال: (ادعوه خوفًا وطعمًا) وذلك لأن من يكون إليه المرجع يخاف منه ويرجى»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «تلطف في إرشاد قومه بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، كما ينبئ عنه قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مبالغة في تهديدهم بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب مواجهة وصريحًا. ولو قال: (وإليه أرجع) كان فيه تهديد بطريق التعريض»[٣].

* * *

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾

بعد أن ذكر من يستحق العبادة وسبب استحقاقه لها أفاد أنه ينبغي أن يوحّده وأنه لا ينبغي له أن يتخذ إلهًا من دونه ولا معه أو يتخذ ذاتًا وسيلة لتقربه إليه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥ وانظر البحر المحيط ٧/ ٣٢٨.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٦.

(٣) روح المعانى ٢٢/ ٢٢٦.

أما إنه لا ينبغي له أن يتخذ إلهًا من دونه فذلك قوله: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ ولا أن يتخذ إلهًا معه لأن ما يتخذونهم معه لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا. فإذا أراده الرحمن بضر لا يملكون له شيئًا فهم إذن دونه فلا يصح أن يتخذوا معه آلهة.

ولا أن يتخذوا ذاتًا لتقربه إليه؛ لأنه ذكر أنه لا تغني شفاعتهم شيئًا فلا يصح على ذلك أن يتخذوا ذاتًا لتقربه إليه.

وبهذا يكون دعاهم إلى التوحيد الخالص من دون شركاء أو شفعاء أو وسطاء.

وهو وإن أنكر على نفسه أن يتخذ آلهة من دون الله يقصد بذلك عموم من يصل إليه الخطاب من الناس، فلا ينبغي أن يتخذ أحد إلهًا من دونه. وما ذكره بحق نفسه لا يخصه وحده وإنما يعم جميع المكلفين، فإنه قال: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ وهو لم يفطره وحده بل فطر المخلوقات جميعًا.

وقال: ﴿ إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ ﴾ وهذا الأمر لا يخصه وحده بل إن أراد الله غيره بذلك فالأمر كذلك.

لقد أخرج هذا الكلام مخرج الاستفهام الإنكاري وليس مخرج الخبر. فإنه بعد أن ذكر ما ذكر قال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ أي أيصح ذلك عقلاً؟ أيجوز اتخاذ غيره إلهًا؟.

ولا شك أن كل عاقل سيجيب قائلاً: لا، إنه لا يصح أن تتخذ إلهًا من دونه.

وهذا لا شك أقوى من الكلام التقريري الخبري الذي يقول: أنا لا أتخذ من دونه آلهة، وذلك لأنه كأنه قرار انفرادي رآه هو. في حين أن

قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ يستدعي إشراك الآخرين في الجواب واتخاذ القرار.

جاء في (التفسير الكبير): «ثم قال تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ليتم التوحيد... فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾ إشارة إلى وجود الإله، وقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ﴾ إشارة إلى نفي غيره فيتحقق معنى لا إله إلا الله. وفي الآية أيضًا لطائف:

(الأولى): ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر. وذلك أن من أخبر عن شيء فقال مثلاً: (لا أتخذ) يصح من السامع أن يقول له: لم لا تتخذ؟ فيسأله عن السبب.

فإذا قال: (أأتخذ) يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الإخبار، كأنه يقول: استشرتك فدلني والمستشار يتفكر. فكأنه يقول: تفكر في الأمر تفهم من غير إخبار مني.

(الثانية): قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ وهي لطيفة عجيبة، وبيانها هو أنه لما بين أنه يعبد الله بقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ بين أن من دونه لا تجوز عبادته...

(الثالثة): قوله (أأتخذ) إشارة إلى أن غيره ليس بإله لأن المتخذ لا يكون إله[1] (كذا)، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١]؛ لأنه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز... ولا يقال: قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] في حق الله تعالى حيث قال: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾، نقول ذلك أمر متجدد»[2].

---

(١) كذا في المبطوع، والصواب: إلهاً.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٧.

ونريد أن نذكر أمرًا بخصوص قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾. فإن الذي يبدو من الاستعمال في اللغة أنه إذ كان الشيء موجودًا أصلاً من غير انفكاك ولا اختيار فلا يقال: (اتخذته)، فلا يقال مثلاً: (اتخذت فلانًا أبًا) إذا كان أباه حقيقة. ولا يقال: (اتخذته أخًا) إذا كان أخاه حقيقة. وإنما يقال ذلك لما يصح فيه التخلي والترك والاختيار، كأن تقول: (اتخذت فلانًا صديقًا لي) لأنك مختار في اختيار الأصدقاء. وتقول: (اتخذته أخًا وصاحبًا) فيما أنت مختار فيه. ولا يصح أن تقول: (اتخذت فلانًا خالقًا)، أو اتخذت الكوكب خالقًا، ولا اتخذت الله خالقًا؛ لأنه هو الخالق وليس متخذًا، لكنك قد تقول: (اتخذته معبودًا) لأنك مختار في اتخاذ ما تعبد.

ونحوه قوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ فإن لك أن تختار الوكلاء وأن تتخذ من تشاء فاتخذ الله وكيلاً تفلح.

وقد تقول: إن الله وكيل على كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، و[الزمر: ٦٢].

فنقول: هذه وكالة قسرية وليست وكالة الاختيار والطاعة. ونظير ذلك العبودية، فإن العبودية لله قد تكون قسرية، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: ١٧]، وهذه العبودية ليست من الطاعة ولا يتعلق بها ثواب.

وقد تكون عبودية اختيارية وذلك بأن يختار المرء أن يكون عبدًا لله مطيعًا له، وهذه هي التي يتعلق بها الثواب، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]،

وقال: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ [الإنسان: ٦].

ونحوه الألوهية والربوبية، فالله سبحانه هو إله الخلق كلهم وربهم شاؤوا أم أبوا؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وقال ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

وهذه الربوبية والألوهية قسرية شاء الخلق أم أبوا ولا يترتب عليها ثواب. وإنما يترتب الثواب والعقاب علي من اتخذه إلهًا وربًّا أو اتخذ غيره كما قال تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤]، ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

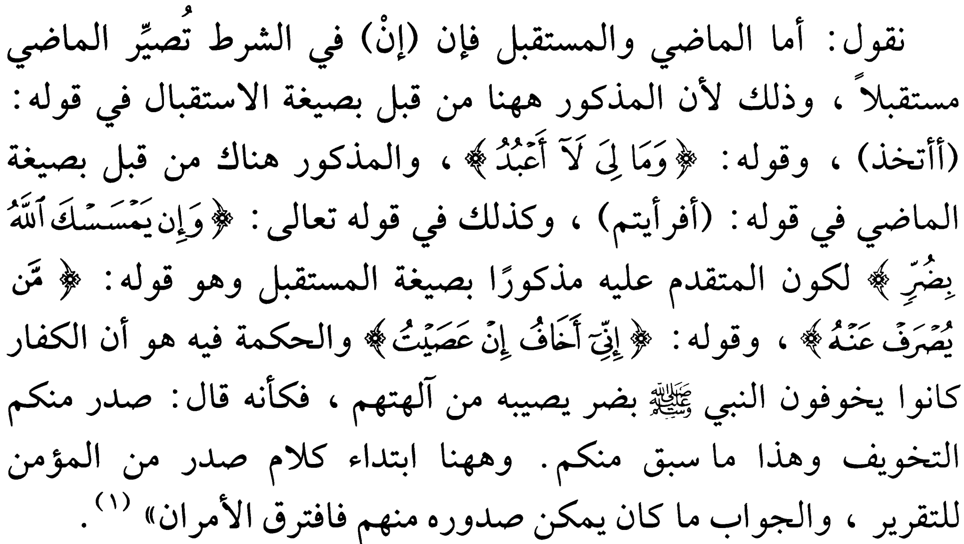
فالاتخاذ أمر اختياري يفعله المتخذ وهو غير الأمر الكائن أصلاً من غير اتخاذ وذلك نحو (هذا ولدي)، و(هذا اتخذته ولدًا لي)، والله أعلم.

* * *

﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾

استعمل الفعل المضارع فعلاً للشرط فقال: ﴿إِن يُرِدۡنِ﴾، واستعمل الماضي في مكان آخر فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨].

وعند النحاة أن الماضي في الشرط يفيد الاستقبال، جاء في (التفسير الكبير): «قال ههنا: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾، وقال في الزمر: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ﴾ فما الحكمة في اختيار صيغة الماضي هنالك واختيار صيغة المضارع هنا، وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك؟.



نقول: أما الماضي والمستقبل فإن (إنْ) في الشرط تُصيِّر الماضي مستقبلاً، وذلك لأن المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال في قوله: (أأتخذ)، وقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ﴾، والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضي في قوله: (أفرأيتم)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ لكون المتقدم عليه مذكورًا بصيغة المستقبل وهو قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ﴾ والحكمة فيه هو أن الكفار كانوا يخوفون النبي ﷺ بضر يصيبه من آلهتهم، فكأنه قال: صدر منكم التخويف وهذا ما سبق منكم. وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير، والجواب ما كان يمكن صدوره منهم فافترق الأمران»[(١)].

والذي يترجح عندنا أن الفعل المضارع مع الشرط كثيرًا ما يفيد افتراض تكرر الحدث، بخلاف الفعل الماضي فإنه كثيرًا ما يفيد افتراض وقوع الحدث مرة[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]، وقال: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء: ٩٢]، فجاء مع القتل العمد بالفعل المضارع لأنه يفترض فيه تكرر الحدث، إذ كلما سنحت للقاتل فرصة قتل مؤمناً، بخلاف قتل الخطأ فإنه لا يفترض تكرره.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ [المائدة: ١٧]، فجاء بفعل الإرادة ماضيًا ﴿إِنۡ أَرَادَ﴾ لأن هذه الإرادة تكون مرة واحدة ولا تتكرر، فإنه إذا أهلكه فقد انتهى الأمر.

ونحوه قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٩.

(٢) [illegible]

﴿عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] ، فإن هذا لا يتكرر ، فإذا انفصلا فقد انتهى الأمر.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] ، وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠] ، وهذه الإرادة لا تتكرر وإنما تكون مرة واحدة.

في حين قال: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥] ، فجاء بفعل الإرادة مضارعًا لأن إرادة الثواب تتكرر.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢] فإن إرادة الخديعة تتكرر.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١] فإن إرادة الكفار خيانة الرسول قد تتكرر فجاء بالفعل مضارعًا.

فنقول: إن استعمال الفعل المضارع في سورة (يس) في قوله تعالى: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ إشارة إلى أنه كان يتوقع تكرر وقوع الضرر عليه من قومه ، وأنهم لا يكفون عن إلحاقه به ما دام بينهم.

وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ فأسند الإرادة إلى الرحمن ، وقال في الزمر: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الزمر: ٣٨] فأسند الإرادة إلى الله؟.

فنقول: إن القائل في سورة (يس) يتوقع وقوع الضرر عليه وتطاوله كما ذكرنا ، فذكر اسم الرحمن كأنه يلوذ به ويعتصم ، وهو بمثابة سؤاله الرحمة ، بخلاف ما في الزمر فإنه ليس الأمر كذلك ولا يتوقع نحو هذا.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه حسن ذكر اسم (الرحمن) مع

الشفاعة في سورة (يس) فقال: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ لأن الشفيع إنما يستدر رحمة من يشفع عنده، والمتصف بالرحمة قد يقبل شفاعة من ليس له جاه كبير عنده، أما هؤلاء الآلهة فلا تنفع شفاعتهم حتى مع الرحمن، إذ ليس لهم جاه البتة. وهذا أبلغ في إسقاط وجاهة هؤلاء.

ثم من ناحية ثالثة أنه ورد اسم (الرحمن) في سورة (يس) أربع مرات، ولم يرد في سورة الزمر ولا مرة واحدة. وورد اسم (الله) في سورة الزمر تسعًا وخمسين مرة، وورد في سورة (يس) ثلاث مرات فقط، فناسب ذلك ذكر اسم (الله) في الزمر، و(الرحمن) في (يس).

وقد علل الفخر الرازي ذكر اسم (الرحمن) في (يس) واسم (الله) في الزمر بقوله: «وأما قوله هناك: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ﴾ فنقول: قد ذكرنا أن الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، والله للهيبة والعظمة، والرحمن للرأفة والرحمة. وهناك وصف الله بالعزة والانتقام في قوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ [الزمر: ٣٧]، وذكر ما يدل على العظمة بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [العنكبوت: ٦١] فذكر الاسم الدال على العظمة. وقال ههنا ما يدل على الرحمة بقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإنه نعمة هي شرط سائر النعم فقال: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ﴾»[1].

وقد تقول: لقد قال في سورة (يس): ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

وقال في الزمر: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٩.

بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

فذكر الضُّرَّ في (يس) ولم يذكر الرحمة، إذ لم يقل: (وإن يردني برحمة لا يمسكوا رحمته) في حين ذكر في الزمر الضر والرحمة، فقال: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ... أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ فما سبب ذاك؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن ذلك لأكثر من سبب:

منها: أن صاحب (يس) كان يتوقع الضر من أهل قريته ولم يكن يتوقع منهم شيئًا من لين أو رحمة، بل ربما كان يتوقع القتل لأن الجو كان متأزمًا، كله تهديد ووعيد.

وقد انتهى الأمر بقتله، فلا يناسب ذكر الرحمة.

ومن ذلك أن ذكر اسم (الرحمن) أغنى ههنا عن ذكر (وإن يردني برحمة) فإن الرحمن يريد الرحمة، وهو لا يريدها فقط وإنما يحققها؛ وإلا فليس برحمن، فاكتفى بذكر صفته عن أن يقول: (وإن يردني برحمة) بخلاف ما في الزمر، فإنه ذكر اسم (الله) ولم يذكر له وصفًا، فناسب ذلك أن يذكر الضر والرحمة تصريحًا.

وعلى هذا فقد ذكر الأمران في (يس) على نحو آخر يناسب المقام، والله أعلم.

وقد تقول: لقد قال في (يس): ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ فاستعمل ضمير الذكور العقلاء في (شفاعتهم) وفي (ينقذون).

وقال في سورة الزمر: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ بضمير الإناث، فما الفرق؟.

والجواب: أن ضمير الإناث يستعمل للإناث ويستعمل لجمع غير العاقل مذكرًا كان أو مؤنثًا، فنقول: (الجبال هن شاهقات) والجبال جمع

جبل وهو مذكر غير عاقل ، غير أننا نستعمل له ضمير الإناث. قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فقال في الأشهر: (فيهن) والأشهر جمع شهر ، والشهر مذكر غير عاقل ، فاستعمل لها ضمير الإناث.

فضمير الإناث يستعمل للإناث ولجمع غير العاقل مطلقًا.

وكذلك جمع المؤنث السالم ، فإنه يستعمل جمعًا للمؤنث بشروطه ، ويستعمل أيضًا لجمع المذكر غير العاقل اسمًا أو وصفًا نحو (جبال شاهقات) ، و(شاهقات) وصف لمذكر غير عاقل ، و(أنهار جاريات) ، و(جاريات) وصف لأنهار مفردها (نهر) وهو مذكر غير عاقل.

والاسم المذكر غير العاقل قد يجمع جمع مؤنث سالمًا إذا لم يسمع له جمع تكسير نحو حمّامات جمع حمام ، واصطبلات جمع اصطبل.

وأما ضمير جماعة الذكور نحو (هم) و(الواو) في نحو (يمشون) فهو خاص بجماعة الذكور العقلاء أو ما نزل منزلتهم.

وبعد بيان هذا الأمر نعود إلى الآيتين:

قال تعالى في الزمر: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

ومن النظر في هذه الآية يتضح ما يأتي:

١ ـ قال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فجعل آلهتهم لا تعقل وذلك أنه استعمل لها (ما) فقال: (ما تدعون) ، و(ما) تستعمل في العربية لذات ما لا يعقل.

٢ ـ جاء بضمير الإناث (هن) فقال: ﴿هَلْ هُنَّ﴾ وهذا الضمير إما

أن يكون للإناث أو يستعمل لجمع غير العاقل مذكرًا أو مؤنثًا كما ذكرت فجعلهم غير عقلاء ، وهو متناسب مع (ما) التي هي لغير العاقل.

٣ ـ جاء بجمع المؤنث السالم وهو كما ذكرنا إما أن يكون للإناث أو لصفات الذكور غير العقلاء فجعلهم غير عقلاء.

٤ ـ هذه الآية نزلت في المجتمع الجاهلي والخطاب للرسول ﷺ وقد قال تعالى فيهم: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

فذكر أن ما يدعون من دون الله إنما هي إناث.

وقد روي عن الحسن: «أنه كان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان. . . وقيل: كان في كل صنم شيطانة» [(١)].

«وقيل: كانوا يقولون في أصنامهم هي بنات الله» [(٢)].

وكانوا يسمون كثيرًا منها بأسماء مؤنثة كاللات والعزى ومناة[(٣)]. فناسب التأنيث من كل جهة، من جهة أنها غير عاقلة، ومن جهة أن لها أسماء مؤنثة، أو يرون أنها إناث.

وقال في (يس): ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

فاستعمل ضمير العقلاء ذلك لأنه قال: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾، والشفيع لا بد أن يكون عاقلاً وإلا فكيف يشفع؟ ولذلك قال في الزمر: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا

---

(١) روح المعاني ٥/١٤٨، الكشاف ١/ ٤٢٤.

(٢) الكشاف ١/ ٤٢٤.

(٣) فتح القدير ١/ ٤٧٨.

يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣]، فجاء بضمير جماعة الذكور للدلالة على أنه لا يكون الشفيع إلا عاقلاً.

ثم نفى الشفاعة مع عدم العقل فقال: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

فاستعمل ضمير العقلاء مع الشفاعة.

ثم قال: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾، والمنقذ لا بد أن يكون عاقلاً أيضًا، وإلا فكيف ينقذ؟ ولذلك قال في سورة (يس): ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ـ٧٥]، فاستعمل ضمير جماعة العقلاء وهو قوله: (لا يستطيعون) و(هم) لأن الناصر لا بد أن يكون عاقلاً، وهو كالمنقذ. وهذه الآية نظيرة الآية السابقة.

فناسب كل ضمير مكانه اللائق به.

وهناك أمر آخر في الآية وهو أنه قال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ فأدخل الباء على الضر ولم يقل: (إن يرد الرحمن بي ضرًّا) وكلاهما تعبير فصيح، تقول: (أراد به رحمة) و(أراده برحمة). قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، فأدخل الباء على ضمير المخاطبين، فما الفرق؟.

جاء في (التفسير الكبير): «قال ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ ولم يقل: (إن يرد الرحمن بي ضرًّا)، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، ولم يقل: (إن أراد الله بي ضرًّا)، نقول:

الفعل إذا كان متعديًا إلى مفعول واحد تعدى إلى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف في قولهم: ذهب به، وخرج به. ثم إن المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ما هو أولى بوقوع الفعل عليه، ويجعل

الآخر مفعولاً بحرف. فإذا قال القائل مثلا: كيف حال فلان؟ يقول: اختصه الملك بالكرامة والنعمة.

فإذا قال كيف كرامة الملك؟ يقول: اختصها بزيد، فيجعل المسؤول عنه مفعولاً بغير حرف لأنه هو المقصود.

إذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء في البؤس والرخاء، وليس الضر بمقصود بيانه، كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على إيمانه بحكم وعد الله. ويؤيد هذا قوله من قبل: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الإرادة، وذكر الضر وقع تبعاً.

وكذا القول في قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله، وليس الضر بخصوصه مقصودًا بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، يعني هو تحت إرادته، ويتأيد ما ذكرناه بالنظر في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ [الأحزاب: ١٧]، حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرفٍ السوءَ وهو كالضُّر، والمفعول بحرف هو المكلف، وذلك لأن المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلاًّ له، وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم؟ فجعل الضر مقصودًا بالذكر لزجرهم.

فإن قيل: فقد ذكر الله الرحمة أيضًا حيث قال: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

نقول: المقصود ذلك، ويدل عليه قوله تعالى من بعده: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣]، وإنما ذكر الرحمة تتمة للأمر بالتقسيم الحاصر.

وكذلك إذا تأملت في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح : ١١] ، فإن الكلام أيضًا على الكفار ، وذكر النفع وقع تبعًا لحصر الأمر بالتقسيم» (١) .

والذي يبدو لي غير ذلك ، فإن الذي يظهر من التعبير القرآني أن ما تتصل به الباء هو الذي عليه السياق وهو مدار الكلام وهو الأهم فيه .

قال تعالى : ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ .

فقد اتصلت الباء بضمير المخاطبين (بكم) لا بالسوء ، والكلام يدور على المخاطبين والسياق عليهم ، وذلك من الآية الثانية عشرة حتى الآية العشرين .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ

(١) التفسير الكبير ٢٦/٥٨ .

يَذْهَبُوا۟ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٢ ـ ٢٠].

فقد اتصلت الباء بضمير المخاطبين لأن الكلام يدور عليهم.

وقال: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١].

وقد اتصلت الباء بضمير المخاطبين أيضًا، وذلك أن الكلام والسياق يدوران عليهم.

قال تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَاۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ١١ ـ ١٦].

وقال: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، واتصلت الباء بضمير الغيبة (به) ولم تتصل بالكيد، والكلام على سيدنا إبراهيم عليه السلام وذلك في أكثر من عشرين آية (من الآية ٥١ ـ ٧٢).

في حين قال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ

هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

فقد اتصلت الباء ههنا بالضر وبالرحمة ولم تتصل بالضمير فقد قال: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ . . . أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ ولم يقل: (إن أراد بي ضرًّا أو أراد بي رحمة)، وذلك أن الاهتمام والعناية بالضر والرحمة، ويدلك على ذلك أنه عقب على ذلك بكشف الضر وإمساك الرحمة فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

والسياق إنما هو في ذلك والاهتمام به، فقد قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٣٦]، فالكلام على المعتقدات لا على الأشخاص.

وقال: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، فقد اتصلت الباء بالخير لا بضمير الخطاب فقال: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ﴾، ولم يقل: (وإن يرد بك خيرًا) وذلك أن الكلام إنما هو في هذا الأمر والسياق عليه قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

فالكلام على الضر والخير وما يتعلق بكشفهما أو ردّهما لا على الأشخاص ولذلك قال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾.

فليس أحد يكشف الضر إلا هو، ولا أحد يملك أن يردّ خيره تعالى، ولذلك عقب بقوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾.

وقد قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ فالكلام في النفع والضر كما ترى وإيصالهما أو دفعهما.

وفي هذه السورة ، أعني سورة (يس) ، وصل الباء بالضر فقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ ولم يقل: (إن يرد الرحمن بي ضرًا) وذلك أن الكلام على الضر وهو مدار الاهتمام ، ولذلك عقب بكشف الضرّ وإزالته فقال: ﴿ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ أي لا يدفعون الضر عني ولا ينقذونني منه.

فاتضح بذلك أن الباء تتصل بما هو أهم في السياق وعليه الكلام ، والله أعلم.

* * *

﴿ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾

بيّن أن آلهتهم ليس لها جاه ولا قدرة.

فكونها لا تنفع شفاعتها شيئًا معناه أنه ليس لها جاه.

وكونها لا تنقذ من يعبدها ويلتجئ إليها معناه أنها ليس لها قدرة.

فكيف يعبدون آلهة هذه صفتها؟!.

ثم إنه بيّن أنها بمجموعها ليس لها مكانة ولا جاه ، وأنها بمجموعها ليس لها قدرة ، فلو أن آلهتهم جميعًا شفعت عند الله لم تغن شفاعتهم شيئًا.

ولو أنها جميعها أرادت أن تنقذه لم تستطع.

فما أتفه وما أضعف هذه الآلهة!

لقد قدم الشفاعة على القدرة لأن هذا هو الترتيب الطبيعي في الحياة ، فإن من استعان بشخص على آخر يشفع أولاً عنده ، فإن لم يُجد ذلك نفعًا لجأ إلى القوة ، وليس العكس.

جاء في (التفسير الكبير): «ثم قال: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ على ترتيب ما يقع من العقلاء؛ وذلك لأن من يريد دفع الضر عن شخص أضرّ به شخص يدفع بالوجه الأحسن فيشفع أولاً، فإن قبله وإلا يدفع، فقال: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ﴾ ولا يقدرون على إنقاذي بوجه من الوجوه»[1].

وجاء في (روح المعاني): «وهو ترقٍّ من الأدنى إلى الأعلى، بدأ أولاً بنفي الجاه، وذكر ثانيًا انتفاء القدرة وعبر عنه بانتفاء الإنقاذ لأنه نتيجته»[2].

فاستبان من هذه الآيات أن الله مستحق للعبادة من كل وجه:

١ ـ أنه فطر الخلق.

٢ ـ وأنه يرسل الرسل إليهم ليرشدوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم.

٣ ـ إليه المرجع والمصير فيعاقب المسيء ويكافئ المحسن.

٤ ـ أنه رحيم بعباده: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٥ ـ أنه قوي مقتدر ليس لقدرته حدود.

٦ ـ وأن ما يدعون من دونه ليس لهم جاه وليس لهم قدرة وإن اجتمعوا.

جاء في (التفسير الكبير): «وفي هذه الآيات حصل بيان أن الله تعالى معبود من كل وجه:

إن كان نظرًا إلى جانبه فهو فاطر ورب مالك، يستحق العبادة سواء أحسن بعد ذلك أو لم يحسن.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٩.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٧.

وإن كان نظرًا إلى إحسانه فهو رحمن .

وإن كان نظرًا إلى الخوف فهو يدفع ضره .

وحصل بيان أن غيره لا يصلح أن يعبد بوجه من الوجوه ، فإن أدنى مراتبه أن يعد ذلك ليوم كريهة ، وغير الله لا يدفع شيئًا إلا إذا أراد الله ، وإن يرد فلا حاجة إلى دافع»[(١)].

* * *

﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾

أي إن اتخذت من دونه آلهة فإني إذًا في ضلال ظاهر لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل ، وهو لا يعني بهذا القول نفسه فقط ، وإنما يريد بذلك المخاطبين أيضًا .

والمعنى : إن اتخذتم آلهة هذا شأنها وتركتم فاطركم وخالقكم فأنتم في ضلال ظاهر . وقد أجرى القول على نفسه ولم يواجههم بذاك لئلا يثير استفزازهم وعصبيتهم وليستعملوا عقولهم وتفكيرهم لعلهم يرجعون إلى الحق .

وقد أكد العبارة بإن واللام، ووصف الضلال بأنه مبين غير خفي؛ لأنه إن فعل ذلك كان كذلك حقًّا ، ولأن المقام يستدعي هذه التأكيدات مع ظهورها ؛ لأن المخاطبين ينكرون ذلك أشد الإنكار على ظهوره ووضوحه .

* * *

﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

أعلن إيمانه في هذا الجو المكفهر بكل صراحة وصدع بالحق من دون مواربة .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٥٩ .

وأعلن أنه بدأ بنفسه ، وسبقهم إلى ما يدعوه إليه ، ولم ينتظر من أحد أن يسبقه فيشجعه ويقوي قلبه ويشد عضده ، وفي ذلك محض الإيمان ومحض الإخلاص.

ثم انظر إلى قوة إيمان هذا الرجل الذي تحدى قومه في ذلك الوقت الذي لا يطيقون فيه أن يسمعوا الرسل فهددوهم بالرجم إن لم يكفوا عن الدعوة.

فقال: ها أنا آمنت بربكم فاسمعون.

وقوله: (فاسمعون) يدل على أنه أعلن إيمانه بصوت ظاهر مسموع غير خفي ولا متلجلج ، يسمعه كل أحد. وهذا يدل على أنه غير مبال بما سيحصل له من الرجم والتعذيب وما هو أكثر من ذلك.

واختيار (إني آمنت) على (أنا آمنت) لما في ذلك من التوكيد والقوة. وقوله: (بربكم) دون (بربي) مع أنه قال قبلها ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ليبين أن ربهم هو ربه وهو الذي فطره وإليه يرجعون ، فهو ربه وربهم.

وقيل: إن الخطاب بقوله: (بربكم) للرسل ، أي آمنت بربكم الذي تدعون إليه. والحق أن الخطاب للجميع ، فرب الرسل هو ربه ورب قومه ، وهو قد أعلن ذلك على الملأ ، وطلب من قومه اتباع الرسل والإيمان بما يدعون إليه.

وعلى أية حال فهو صدع بالحق وجهر به ولم يبال بما سيحصل له من جراء إعلانه إيمانه هذا.

قيل: وقوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أولى من قوله: (آمنت بربي) ؛ لأن كل شخص إنما هو مؤمن بربه فيقول له المقابل: وأنا آمنت بربي أيضًا.

فقوله: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يدل على أنه الرب الذي يدعو إليه الرسل .

ولو كان المقصود ربهم الذي يعبده قومه لما كان في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ. . .﴾ داع.

وذكر الإيمان بالرب دون بقية الأسماء الحسنى له أكثر من مناسبة، فقد مَرَّ قول الرسل: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والرب هو الذي يهدي من الضلال؛ لأن الرب هو المربي والمرشد والمعلم.

والهداية من أبرز صفات الرب، ولذلك كثيرًا ما تقترن الهداية باسم الرب وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٠]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فناسب ذلك ذكر الرب.

وهناك أمر آخر حسّن ذكر الرب وهو قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أي لا أتخذ من دونه إلهًا، أي معبودًا. وقال ههنا: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فجعله هو الإله وهو الرب، فهو إلهه وربه، وبذلك جمع له بين الألوهية والربوبية.

جاء في (التفسير الكبير): «في المخاطب بقوله: (بربكم) وجوه:

(أحدها): هم المرسلون. قال المفسرون: أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين، وقال: إني آمنت بربكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي.

و(ثانيها): هم الكفار، كأنه لما نصحهم وما نفعهم، قال: فأنا آمنت فاسمعون.

(وثالثها): بربكم أيها السامعون فاسمعون على العموم ، كما قلنا في قول الواعظ حيث يقول: يا مسكين ما أكثر أملك وما أنزر عملك ، يريد به كل سامع يسمعه.

وفي قوله (فاسمعون) فوائد:

(أحدها): أنه كلام متروّ متفكر حيث قال: (فاسمعون) فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامه جماعة سامعين يتفكر.

(وثانيها): أنه ينبه القوم ويقول: إني أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا: لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك.

و(ثالثها): أن يكون المراد السماع الذي بمعنى القبول. يقول القائل: نصحته فسمع قولي: أي قبله.

فإن قلت: لم قال من قبل: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وقال ههنا: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ ولم يقل: آمنت بربي؟.

نقول: قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر. لأنه لما قال: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ ظهر عند الرسل أنه قبل قولهم وآمن بالرب الذي دعوه إليه. ولو قال (بربي) لعلهم كانوا يقولون: كل كافر يقول: لي رب وأنا مؤمن بربي.

وأما على قولنا: الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد ، وذلك لأنه لما قال: ﴿أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ ثم قال ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فهم أنه يقول: ربي وربكم واحد وهو الذي فطرني وهو بعينه ربكم ، بخلاف ما لو قال: آمنت بربي. فيقول الكافر: وأنا أيضًا آمنت بربي. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ [الشورى: ١٥]»(١)

وجاء في (البحر المحيط): «ثم صرح بإيمانه وصدع بالحق فقال

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٥٩ ـ ٦٠.

مخاطبًا لقومه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ أي الذي كفرتم به، فاسمعون أي: اسمعوا قولي وأطيعون فقد نبهتكم على الحق، وإن العبادة لا تكون إلا لمن منه نشأتكم وإليه مرجعكم. والظاهر أن الخطاب بالكاف والميم وبالواو وهو لقومه، والأمر على جهة المبالغة والتنبيه... وقيل: الخطاب في (بربكم) وفي (فاسمعون) للرسل»(١).

وجاء في (روح المعاني): «الظاهر أن الخطاب لقومه شافههم بذلك وصدع بالحق إظهارًا للتصلب في الدين وعدم المبالاة بما يصدر منهم...

وإضافة الرب إلى ضميرهم لتحقيق الحق والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أربابًا، أي: آمنت بربكم الذي خلقكم.

(فاسمعون) أي فاسمعوا قولي فإني لا أبالي بما يكون منكم على ذلك.

وقيل: مراده دعوتهم إلى الخير الذي اختاره لنفسه»(٢).

* * *

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

* * *

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾.

لقد طوى القرآن ذكر ما حصل له بعد قولته التي قالها وما فعل به قومه وكيف واجهوه.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٢٩.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

إلا أنه بين أنه لم يكد يتم قوله حتى قيل له: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾ ولم يذكر أمرًا أو مشهدًا بين الدنيا والآخرة. ومعنى ذلك: أنهم لم يمهلوه بعدها البتة. فإنه ما إن قال ذلك حتى وجد نفسه على باب الجنة يقال له: ادخل الجنة.

فاختصر كل ما لا حاجة له به وإنما دل عليه المقام.

ومن مظاهر الاختصار أنه بنى الفعل للمجهول فقال: (قيل) ولم يذكر القائل؛ لأنه لا يتعلق غرض من ذكر القائل، ولعل القائل هم الملائكة. كما أنه لم يقل: (قيل له) لأن ذلك معلوم من السياق.

جاء في (الكشاف): «قيل ادخل الجنة، ولم يقل: (قيل له) لانصباب الغرض إلى المقول وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلومًا» (١).

وهكذا يطوي ما حصل له بعد قولته، ويطوي الفاعل فيبني الفعل للمجهول، ويطوي المقول له ولا يذكر إلا قوله: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾.

فيسير التعبير في نسق واحد وفي جو تعبيري واحد.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾: «استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك. والظاهر أن الأمر إذن له بدخول الجنة حقيقة، وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل قد فارق الدنيا، فعن ابن مسعود بعد أن قال ما قال: قتلوه بوطء الأرجل حتى خرج قصبه من دبره وألقي في بئر وهي الرس [وقيل: قتل بغير ذلك من أنواع القتل ـ راجع ص٢٢٨]. . . والجمهور على أنه قتل، وادعى ابن عطية أنه تواترت الأخبار والروايات بذلك» (٢).

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٨، وانظر الكشاف ٢/ ٥٨٥.

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾

ما إن أدخل الجنة حتى تمنى أن قومه يعلمون بإكرامه وحسن عاقبته، فإنهم لو علموا ذلك لاهتدوا وآمنوا بمثل ما آمن به ونالهم من الكرامة مثل ما ناله، وهو لم يتمنّ ذلك في نفسه فقط، بل قال ذلك بلسانه، فواطأ القلب اللسان. وفي ذلك إشارة إلى تمني الهداية لقومه وحب الخير لهم. ولم يمنع من ذلك سوء ما فعلوه به. فإن المؤمن يحب الهداية للخلق ولو كانوا ألد أعدائه، بل ولو أساؤا إليه وعذبوه، بل ولو قتلوه.

جاء في (الكشاف): «وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سببًا لاكتساب مثلها بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلهما إلى الجنة.

وفي حديث مرفوع (نصح قومه حيًّا وميتًا). وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل. والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه. ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل وهم كفرة عبدة أصنام» [١].

وجاء في (روح المعاني): «وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول في الإيمان والطاعة جريًا على سنن الأولياء في كظم الغيظ والترحم على الأعداء. وفي الحديث: نصح قومه حيًّا وميتًا» [٢].

وفي هذا القول إشارة للدعاة وللمسلمين ليحبوا الهداية لعموم الخلق

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥.
(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٩.

وأن يترفعوا عن الحقد والضغينة.

لقد تمنى أن يعلم قومه أمرين:

١ ـ مغفرة ربه له وذلك ليتوبوا ولا ييأسوا من رحمة الله.

٢ ـ وإكرامه ليحفزهم ذلك إلى العمل لينالوا حسن العاقبة.

* * *

﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

(ما) تحتمل أنها مصدرية، أي يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي وجعلي من المكرمين.

ويحتمل أن تكون اسمًا موصولاً، أي: يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي به ربي وجعلني من المكرمين، أي ليتهم يعلمون بالسبب الذي غفر لي به ربي وهو اتباع الرسل.

وقال: (بما) ولم يقل (بالذي) ليشمل المصدرية والموصولة، أي بالمغفرة والإكرام وبسبب ذلك فيجمع المعنيين، ولو قال: (بالذي) لم يدل إلا على معنى واحد.

ولم يأت بالمصدر الصريح فيقل: (يا ليت قومي يعلمون بمغفرة ربي لي وجعلي من المكرمين) لأنه لو قال ذاك لدل على معنى واحد وهو المصدرية دون المعنى الآخر.

جاء في (الكشاف): «(ما) في قوله: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي الماءات هي؟

قلت: المصدرية أو الموصولة، أي بالذي غفره لي من الذنوب»[١].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٥.

وجاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن (ما) في قوله: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ مصدرية، جوزوا أن يكون بمعنى (الذي) والعائد محذوف تقديره: (بالذي غفره لي ربي من الذنوب) وليس هذا بجيد، إذ يؤول إلى تمني علمهم بالذنوب المغفورة، والذي يحسن تمني علمهم بمغفرة ذنوبه وجعله من المكرمين» [١].

وجاء في (روح المعاني): «والظاهر أن (ما) مصدرية، ويجوز أن تكون موصولة والعائد مقدر، أي يا ليت قومي يعلمون بالذي غفر لي به، أي بسببه، ربي، أو بالذي غفره، أي بالغفران الذي غفره لي ربي، والمراد تعظيم مغفرته تعالى له فتؤول إلى المصدرية.

وقال الزمخشري: أي بالذي غفره لي ربي من الذنوب. وتعقب بأنه ليس بجيد، إذ يؤول إلى تمني علمهم بذنوبه المغفورة ولا يحسن ذلك. وكذا عَطْفُ ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ عليه لا ينتظم» [٢].

وما ذهب إليه صاحب الكشاف من أن (ما) تحتمل أن تكون اسمًا موصولاً على معنى: بالذي غفره لي من الذنوب يضعفه ثلاثة أمور، منها:

١ ـ أن ذلك يؤول إلى تمني علمهم بالذنوب المغفورة ولا يحسن علمهم بما عمل من معاص تستوجب المغفرة، كما أشار إلى ذلك صاحب البحر.

٢ ـ أن المغفرة معناها الستر، وغفران الذنوب سترها، وتمنيه علمهم بها يعني تمنيه نشرها وفضحها، وهو مغاير لمعنى الستر

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٣٠.

(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢٢٩، وانظر: أنوار التنزيل ٥٨٤.

وما أكرمه الله من سترها ، فإن ستر الذنوب من جلائل النعم .

٣ ـ أنها لا تنتظم مع قوله : ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ فإن ذلك يؤول إلى المعنى الآتي :

يا ليت قومي يعلمون بالذي غفره لي من الذنوب وجعلني من المكرمين. وهو لا يصح لأن (جعلني) ستكون معطوفة على (غفره لي) أي صلة للذي ، فيكون المعنى : يا ليت قومي يعلمون بالذنب المغفور وجعلني من المكرمين. فإن قوله : (ما غفره لي) يعني : الذي غفره لي ربي من الذنوب.

أو بعبارة أخرى : الذنب المغفور.

فلا يصح جعل ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ صلة له.

فاتضح أن (ما) إما أن تكون مصدرية أو اسمًا موصولاً ، والباء تفيد السبب فيكون المعنى : يا ليت قومي يعلمون بالسبب الذي غفر لي به ربي وجعلني من المكرمين. فيستقيم المعنى على الوجهين. والله أعلم.

ولم يذكر العائد فيقل : (بما غفر لي به ربي) ولو قال ذلك لاقتصر على معنى الموصولية الاسمية دون المصدرية ، فحذْفُ العائد جمع المعنيين.

وقدَّم الجار والمجرور على الفاعل فقال : ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ لأنه هو المهم وهو مدار الكلام ، لأنه معلوم أن الله يغفر الذنوب ، فالفاعل معلوم ولكن المهم أن نعلم المغفور له.

واختيار لفظ الرب ههنا ﴿غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ مناسب لقوله : ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وإضافته إلى نفسه فيها من الرعاية واللطف ما لا يخفى.

وقدم المغفرة على جعله من المكرمين ؛ لأن المغفرة هي سبب الإكرام ولأنها تسبقه ، فالمغفرة أولاً ثم يليها الإكرام .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ دون القول : (وجعلني مكرمًا) إشارة إلى أن هذا طريق سار عليه قبله المؤمنون والشهداء والصالحون ، فهو واحد منهم وليس فذًّا لم يسبقه إليه أحد . وكون أن معه جماعة مثله أكرمهم ربه فيه زيادة إيناس ونعيم . فإن الوحدة عذاب وإن كانت في جنان الخلد فأكرمه بالجنة والرفقة الطيبة .

إن أصحاب القرية ومعتقدهم وموقفهم من رسلهم شبيه بحال قوم الرسول ﷺ وموقفهم منه من عدة نواح . ولذلك صح أن يضربوا مثلاً :

١ ـ فقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ شبيه بموقف كفار قريش الذين قال الله فيهم : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [ق : ٥] ، وقوله : ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القمر : ٣] .

٢ ـ وقول أصحاب القرية لرسلهم : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ شبيه بقول كفار قريش : ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣] ، وقولهم : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق : ٢] .

٣ ـ وقولهم : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾ [يس : ١٥] شبيه بقول كفار قريش : ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [ص : ٤] ، وقوله تعالى فيهم : ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القمر : ٣] .

٤ ـ وقولهم : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس : ١٨] شبيه بموقف كفار قريش من رسول الله والمؤمنين معه ، فقد آذوهم وعذبوهم حتى أن بعضهم مات من التعذيب . وقد رجم رسول الله بالحجارة في الطائف . وأخبر عنهم ربنا قائلاً : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

٥ ـ وقولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ [يس: ١٥] شبيه بقولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍۗ﴾ [الأنعام: ٩١].

٦ ـ وقول المؤمن لهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرًا﴾ [يس: ٢١] شبيه بقوله ﷺ: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧].

٧ ـ وقوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣] يعني أنهم اتخذوا آلهة من دون الله يعبدونهم.

وهذا شبيه بمعتقدات العرب في الجاهلية الذين اتخذوا من دون الله آلهة والذين قال الله فيهم: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

٨ ـ لقد بين أن أصحاب القرية لم يؤمنوا إلا واحدًا منهم، وأنهم استوى عليهم الإنذار وعدمه مثل كفار قريش الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: ٧]، وقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يس: ١٠].

وإن الرسل الذين أرسلوا إلى أهل القرية يصح أن يكونوا مثلاً لرسول الله ﷺ.

١ ـ فإنهم كُذّبوا كما أن الرسول كذبه قومه.

٢ ـ وأنهم بلغوا الرسالة مع تكذيب أصحاب القرية لهم.

٣ ـ وأنهم بلغوا الرسالة مع أنهم غرباء عن أهل القرية، فقد جاؤها داعين إلى ربهم.

٤ ـ أنهم واجهوهم بالتطير منهم وبالتهديد.

٥ ـ وأنهم بلغوا رسالة ربهم بلاغًا مبينًا بحيث علم به كل واحد من أهل القرية.

٦ ـ وأنه ثبت من آمن بهم حتى استشهد.

فكان أصحاب القرية مثلاً في حالهم وفي حال رسلهم الذين بلغوا دعوة ربهم.

وحال أهل القرية وموقفهم من رسلهم وسوء عاقبتهم التي لاقوها نتيجة التكذيب تكون مثلاً لقوم الرسول ﷺ ليرتدعوا وليراجعوا أنفسهم.

إن قصة أصحاب القرية مرتبطة بالآيات الأول التي ذكرناها من هذه السورة والتي ذكرنا أنها بنيت عليها السورة ومقاصدها.

١ ـ فقد ارتبط قوله: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ﴾ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فذكر أنه واحد من المرسلين. وضرب مثلاً بمرسلين قبله.

٢ ـ وارتبط بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ بقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٣ ـ وارتبط قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

٤ ـ وارتبط قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ بقوله: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٥ ـ وارتبط قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

فقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ بشارة له، فهو مقابل (فبشره).

وقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ يقابل: ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ يقابل ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ ، والله أعلم.

* * *

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾

أي لم يحتجْ إنزال جند من السماء ليهلكهم[١] ، فهم أتفه من ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ يعني أنه ما كان يصح في حكمتنا وتقديرنا أن ننزل عليهم جندًا من السماء ولا ينبغي ذلك[٢] ؛ لأنهم أقل شأنًا من هذا.

وقيل أيضًا إن المعنى أننا: «ما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم بل نبعث عليهم عذابًا يدمرهم»[٣].

وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أنه لا ينبغي أن ننزل على هؤلاء جندًا من السماء لإهلاكهم، وإننا لم نكن نفعل ذلك فيما مضى.

فيكون المعنى نفي الإنزال على وجه العموم بدءًا من الماضي إلى هؤلاء القوم.

وأما إنزال الجنود لنصرة رسولنا محمد ﷺ في بدر والأحزاب فذلك إنما كان تعظيمًا لشأن سيدنا محمد ﷺ ، وهو لا يشمله قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ فإن ذلك متعلق بالأمم الماضية.

جاء في (التفسير الكبير): «﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ أَيَّةُ فائدةٍ فيه مع أن قوله: (وما أنزلنا) يستلزم أنه لا يكون من المنزلين؟.

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٦١ ، فتح القدير ٤/ ٣٥٦.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥٨٦ ، التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢ ، روح المعاني ٢٣/ ١٢ ، فتح القدير ٤/ ٣٥٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٩.

نقول: قوله: (وما كنا) أي ما كان ينبغي لنا أن ننزل ؛ لأن الأمر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين إلى إنزال. أو نقول: (وما أنزلنا ، وما كنا منزلين) في مثل تلك الواقعة جندًا في غير تلك الواقعة. فإن قيل: فكيف أنزل الله جنودًا في يوم بدر وفي غير ذلك حيث قال: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]؟ نقول: ذلك تعظيمًا لمحمد ﷺ» (١).

وذهب قوم إلى أن (ما) قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ليست نافية وإنما هي اسم موصول معطوف على (جند) أي ما أنزلنا على قومه من جند من السماء والذي كنا ننزله على الأمم من أنواع العذاب. ورده أبو حيان بأن ذلك يعني عطف المعرفة على النكرة المجرورة بمن الزائدة وهو لا يصح. جاء في (البحر المحيط): «وقالت فرقة: (ما) اسم معطوف على جند. قال ابن عطية: أي من جند ومن الذي كنا منزلين على الأمم مثلهم. انتهى.

وهو تقدير لا يصح لأن (من) في (من جند) زائدة ، ومذهب البصريين غير الأخفش أن لزيادتها شرطين:

أحدهما: أن يكون قبلها نفي أو نَهي أو استفهام.

والثاني: أن يكون بعدها نكرة.

وإن كان كذلك فلا يجوز أن يكون المعطوف على النكرة معرفة ، لا يجوز (ما ضربت من رجل ولا زيد) وإنه لا يجوز (ولا من زيد) ، وهو قدر المعطوف بـ (الذي) ، وهو معرفة ، فلا يعطف على النكرة المجرورة بمن الزائدة» (٢).

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣١ ـ ٣٣٢ وانظر روح المعاني ٢٣/ ٢.

ورد أبي حيان فيه نظر ، فإن العطف في نحو هذا جائز ، غير أنه لا يعطف على اللفظ وإنما يعطف على الموضع . فإنه لا يصح أن نقول : (ما جاءني من امرأةٍ ولا محمود) بجرِّ محمود ، وإنما نقول ذلك برفع محمود . ولا يصح أن نقول : (ما رأيت من امرأةٍ ولا خالدٍ) بجر خالد ، وإنما نقول : (ما رأيت من امرأة ولا خالدًا) بالنصب ؛ لأنه لا يمكن توجه العامل إلى المعرفة .

جاء في (المغني) في باب (العطف على اللفظ) : «وشرطه إمكان توجه العامل إلى المعطوف، فلا يجوز في نحو (ما جاء من امرأة ولا زيد) إلا الرفع عطفًا على الموضع لأن (من) الزائدة لا تعمل في المعارف» [١] .

ونحو هذا يكون في العطف على اسم (لا) النافية للجنس ، فإن اسم (لا) هذه لا بد أن يكون نكرة ، فإن عطفت عليه معرفة تعين رفعه لأن (لا) لا تعمل في المعارف نحو (لا امرأةَ فيها ولا زيدٌ) بالرفع فإنه لا يصح في (زيد) النصب أو بناؤه على الفتح[٢] .

وعلى هذا فما المانع في الآية من أن تكون (ما) معطوفة على الموضع فتكون (جند) مجرورة و(ما) منصوبة مثل (ما رأيت من امرأة ولا زيدًا)؟

والمعنيان صحيحان يحتملهما التعبير ويتسع لهما معًا ، فيكون ذلك من التوسع في المعنى .

وقد أسند الإنزال إلى نفسه فقال : ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا ﴾ ليدل على أنه هو الذي أنزل العقوبة ، فهو الذي أرسل الرسل وهو الذي عزهم بثالث ، وقد أسند ذلك إلى نفسه فقال : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾

---

(١) مغني اللبيب ٢/ ٤٧٣ .

(٢) انظر شرح الأشموني ٢/ ١٢ .

فناسب أن يسند الإنزال إلى نفسه أيضًا ليدل على أن الجهة المرسلة والمعاقبة واحدة ، إذ لا يليق أن يكون هو المرسل والمعاقب غيره.

جاء في (التفسير الكبير) في قوله: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا ﴾: «قال ههنا: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ بإسناد الفعل إلى نفسه.

وقال في بيان حال المؤمن: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ بإسناد القول إلى غير مذكور ، وذلك لأن العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم. وأما في ﴿ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ﴾ فقال: (قيل) ليكون هو كالمهنأ بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه: ادخل الجنة خالدًا فيها» [١].

وقال: (على قومه) بإضافة القوم إلى ضمير الرجل القتيل ، ذلك أن هذا الرجل أضافهم إلى نفسه فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، فهم قومه وقد دعاهم بـ(يا قوم) ليتعطفهم ويدعوهم إلى ما يحييهم فقتلوه فقتلهم ربه سبحانه.

وقال: (من بعده) ولم يقل (بعده) للدلالة على أنه أنزل العذاب عليهم بعده مباشرة ولم يمهلهم. فإن (من) تفيد ابتداء الغاية. ولو قال: (وما أنزلنا على قومه بعده) لاحتمل الزمن القصير والطويل ، فجاء بـ(من) ليدل على أنه عاجلهم بالعقوبة من دون إمهال.

جاء في (البحر المحيط): «وقوله: (من بعده) يدل على ابتداء الغاية، أي لم يرسل إليهم رسولاً ولا عاتبهم بعد قتله بل عاجلهم بالهلاك» [٢].

وقال: (من جند) فجاء بـ(من) الدالة على الاستغراق ليدل على أنه لم ينزل جندًا قلّوا أو كثروا.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦١.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣١.

فقد استغرق نفي الإنزال كل الجند ، ولو لم يذكر (من) لاحتمل نفي إنزال الجنس ونفي الوحدة ، فقد يحتمل أنه أنزل جنديًا أو جنودًا كما يحتمل أنه لم ينزل أصلاً .

واختار كلمة (جند) على (مَلَك) لأنه في مقام العقوبة والمحاربة فكان اختيار لفظ الجند أنسب ؛ فإن قومه حاربوا الله ورسله فحاربهم الله سبحانه من غير جند .

واختار الجند على الجنود فقال : (من جند) ولم يقل : (من جنود) ذلك أن الجنود جمع جند ، فإن (الجند) يجمع على أجناد وجنود[1] ، ونفي الجند يعني نفي الجنود ، أما نفي الجنود فلا يعني نفي الجند ؛ ذلك أن نفي الواحد مع (من) الاستغراقية يعني نفي الجنس كله ، بخلاف نفي الجمع ، فإنه إذا قال : (ما أنزلنا من جنود) لم ينف ذلك إنزال الجنود . أما إذا قال : (ما أنزلنا من جند) فإن هذا ينفي إنزال الجند والجنود .

ونحوه إذا قلت : (ما حضر من رجال) فإنك نفيت الجمع ولكن لم تنف الواحد أو الاثنين ، فقد يكون حضر رجل أو رجلان . أما إذا قلت : (ما حضر من رجل) فقد نفيت الجنس على سبيل الاستغراق سواء كان واحدًا أم مثنى أم جمعًا فلم يحضر أحد .

فقوله : (من جند) نفى إنزال الجند والجنود ، ولو قال : (من جنود) لم ينف إنزال الجند ، فكان ما ذكره أعم وأشمل .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن (الجند) اسم جنس جمعي مفرده جندي ، فالياء للواحد وحذفها يفيد الجنس مثل رومي وروم[2] ، وزنجي وزنج .

---

(١) المصباح المنير (جند) ١/ ١١١ .
(٢) انظر المصباح المنير (جند) ١/ ١١١ .

أما الجنود فهو جمع تكسير. ومن المعلوم أن اسم الجنس يقع على القليل والكثير، فهو يقع على الواحد والاثنين والجمع. فإنك إذا عاملت روميًّا واحدًا أو روميين جاز لك أن تقول: (عاملت الروم) أما الجمع فلا يصح فيه ذلك، وإنما يقع على الجمع فقط[1].

فقوله: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٍ﴾ نفى الواحد والاثنين والجمع لأنه نفى اسم الجنس الجمعي، ولو جاء بالجنود لم ينف الواحد والاثنين، فكان ما ذكره أولى من كل وجه.

واختار (ما) في النفي على (لم) فلم يقل: (ولم ننزل) وذلك لأن (ما) أقوى في النفي من (لم) [2].

وقد أكد النفي أيضًا بذكر (من) الاستغراقية المؤكدة، فأكد النفي باستعمال الحرف (ما) واستعمال (من) الاستغراقية.

وهناك أمر آخر حسّن ذكر (ما) دون (لم) وهو ذكر (من) الاستغراقية، فإن القرآن لم يأت البتة بـ(من) الاستغراقية مع (لم) بخلاف (ما).

وقال: (من السماء) ولم يقل: (من السماوات)؛ لأن السماء أعم وأشمل من السماوات، فهي تشمل السماوات وتشمل أيضًا الجو والسحاب وما علاك على وجه العموم، فهي تشمل السماوات وزيادة[3]، فكان ذلك أشمل وأعم، كما ناسب ذكر (من) الاستغراقية ذكر السماء فإن كليهما للاستغراق والعموم.

وقد تقول: وما الحاجة إلى ذكر (السماء) وهو لم ينزل عليهم جندًا أصلاً لا من الأرض ولا من السماء؟

---

(١) انظر شرح الرضي على الشافية ٢/ ١٧٨.
(٢) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٠.
(٣) انظر التعبير القرآني ٥٢.

فنقول: إنه ذكر أنه لم ينزل عليهم جندًا من السماء وإنما أهلكهم بصيحة منها.

فالسماء هي مبدأ إنزال العذاب لكن ليس بالجند وإنما بالصيحة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه لو لم يذكر السماء لكانت الآية على النحو الآتي: (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند وما كنا منزلين).

وهذا المعنى لا يصح؛ لأن قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ينفي إنزال الجنود على أية حال سواء كان من السماء أم من غيرها. في حين أن الله سبحانه أنزل جنودًا وأقوامًا على آخرين فحاربوهم ودفع بعضهم ببعض وعاقب بعضهم ببعض.

وكل إتيان من مكان عال فهو نزول أو إنزال. وكل حرب حصلت بين قومين أو أقوام وانحدر أحدهما من مكان عال فهو نزول. وقد يعذب الله بعض الناس ببعض، ويدفع بعضهم ببعض، ويبعث بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥].

ولا يخلو ذلك من إنزال جند. وكان يأجوج ومأجوج ينزلون من الجبل فيفسدون في الأرض. فلو حذف (من السماء) لم يستقم المعنى ولم يصح.

هذا وإنه لو حذف أي قيد لم يصح المعنى، فإن الآية هي: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾:

١ ـ فإنه لو حذف (على قومه) لم يصح المعنى؛ لأن الله سبحانه أنزل جنودًا من السماء بعده وذلك لنصرة سيدنا محمد ﷺ.

٢ ـ ولو حذف (من بعده) لم يصح المعنى ؛ لأن القصد هو معاقبة قومه بعد قتله ، فإذا حذف الظرف لم يفهم أن العقوبة بسبب قتله. والمراد بيان ذلك.

٣ ـ ولو حذف (من جند) لم يصح المعنى ؛ لأنه لا يعلم المنفي على وجه التحديد ، ولكان النفي عامًّا ، وهو لا يصح ، إذ سيكون التعبير: (وما أنزلنا على قومه من بعده من السماء وما كنا منزلين) وهو نفي لإنزال الجنود ولكل أنواع العذاب من السماء ، بل هو نفي لكل إنزال من السماء سواء كان خيرًا أم شرًّا ، وهو لا يصح ولا يستقيم. وإذا قيدنا المنزل بالعذاب لم يصح أيضًا ، إذ سيكون المعنى: (وما أنزلنا على قومه من بعده عذابًا من السماء وما كنا منزلين) وهو لا يصح ؛ لأن الله سبحانه أنزل عليهم وعلىٰ من قبلهم عذابًا من السماء ولكن ليس جندًا كما أخبر ربنا سبحانه ، فقد قال في قوم موسى: ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩] ، وقال في قوم لوط: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وأرسل على قومه وعلى من قبلهم الصيحة من السماء. والسماء كلمة عامة تشمل كل ما علا سواء كان سحابًا أم غيره ، وقد فسر ربنا الرجز النازل على قوم لوط من السماء بأنه الصيحة وإرسال الحجارة ، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣ ـ ٧٤] ، فلا يصح الحذف.

٤ ـ ولو حذف (من السماء) لم يصح لما ذكرناه.

فكان أعدل الكلام كلام ربنا سبحانه.

جاء في (التفسير الكبير): «قال: (من السماء) وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل إليهم جندًا من الأرض فما فائدة التقييد؟

نقول: الجواب عنه من وجهين:

(أحدهما): أن يكون المراد: وما أنزلنا عليهم جندًا بأمر من السماء فيكون للعموم.

(وثانيهما): أن العذاب نزل عليهم من السماء، فبين أن النازل لم يكن جندًا لهم عظمة، وإنما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم»[١].

* * *

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أي ما كانت العقوبة أو الأخذة إلا صيحة واحدة[٢]، واسم كان ضمير مستتر. ونفى بإنْ ولم ينف بما، ذلك لأن (إنْ) أقوى من (ما)[٣] ولذلك كثيرًا ما تقترن بإلا لإفادة القصر. ويتبين ذلك من مواطن اجتماعهما. قال تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، فإثبات الملكية ليوسف يحتاج إلى قوة ولذلك نفى بما أولاً ثم نفى وأثبت بإنْ وإلا لما هو أقوى.

ونحو ذلك ما ذكرناه في قوله: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ فنفى أولاً بما، ثم نفى وأثبت بإنْ وإلا.

ونحوه ما مَرَّ قريبًا وهو قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٢٨ ـ ٢٩]، فنفى أولاً بما، ثم نفى وأثبت بإنْ وإلا.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦١.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٦.

(٣) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٦.

وقوله: (واحدة) نعت مؤكد، وقد أفاد أمرين:

بيان بالغ قدرة الله، وبيان هوانهم وضعفهم، فإنهم لم يحتاجوا إلى أكثر من صيحة واحدة.

وأضمر اسم (كان) لظهوره ووضوحه، فإنه دل عليه المقام وإن لم يجر له ذكر.

وجاء بالفاء وإذا الفجائية للدلالة على سرعة هلاكهم، فإن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، وإذا تفيد المفاجأة، وجاء بهما معًا للدلالة على سرعة المفاجأة بحيث لم تكن بين الصيحة وخمودهم مهلة.

ولا يؤدي أي حرف هذا المؤدى، فلو جاء بثم فقال: (ثم إذا هم خامدون) لدل على أن خمودهم إنما حصل بعد مدة من الصيحة، نظير قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

ولو جاء بالواو لم يدل ذلك على التعقيب أيضًا ولم يدل أن ذلك إنما كان بسبب الصيحة، فإن الواو لا تفيد السبب بل تفيد الإتباع، فجاء بالفاء للدلالة على معنيي السبب والسرعة، ولا يؤدي أي حرف مؤداها.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: (واحدة) تأكيد لكون الأمر هينًا عند الله.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك، فإن خمودهم كان مع الصيحة وفي وقتها لم يتأخر»(١).

وجاء في (البحر المحيط) في قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾: «أي فاجأهم

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢.

الخمود إثر الصيحة لم يتأخر»[١].

وجاء في (روح المعاني): «و(إنْ) نافية، و(كان) ناقصة، واسمها مضمر، و(صيحة) خبرها، أي ما كانت هي، أي الأخذة أو العقوبة، إلا صيحة واحدة...

و(إذا) فجائية وفيها إشارة إلى سرعة هلاكهم بحيث كان مع الصيحة. وقد شبهوا بالنار على سبيل الاستعارة المكنية»[٢].

وقال (خامدون) إشارة إلى سرعة هلاكهم وانطفاء حياتهم كانطفاء السراج.

واختيار هذا الوصف أحسن اختيار، فإنه مأخوذ من خمود النار وهو سكون لهبها وذهاب حسيسها، يقال: «خمدت النار تخمد خمودًا: سكن لهبها ولم يطفأ جمرها، وهمدت همودًا: إذا أطفئ جمرها البتة، وأخمد فلان ناره، وقوم خامدون: لا تسمع لهم حسًّا. جاء في التنزيل العزيز ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ قال الزجاج: فإذا هم ساكتون قد ماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد الهامد»[٣].

وفي (القاموس المحيط): «خمدت النار: كنصر وسمع خمدًا وخمودًا سكن لهبها، ولم يطفأ جمرها»[٤].

وفي (المصباح المنير): «خمدت النار خموداً من باب قعد: ماتت فلم يبق منها شيء، قيل: سكن لهبها وبقي جمرها»[٥].

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٣٢.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢.

(٣) لسان العرب (خمد) ٤/ ١٤٤.

(٤) القاموس المحيط (خمد) ١/ ٢٩٢.

(٥) المصباح المنير (خمد) ١/ ١٨١.

وفي (أساس البلاغة): «نار خامدة وقد خمدت خمودًا: سكن لهبها وذهب حسيسها» [(١)].

يتضح مما مر أن الفعل (خمد) يحمل المعاني الآتية:

١ ـ يقال: خمدت النار، أي سكن لهبها ولم يطفأ جمرها.

٢ ـ وقيل أيضًا: خمدت النار، إذا ماتت ولم يبقَ منها شيء.

٣ ـ ويقال: خمد القوم، إذا سكتوا فلا تسمع لهم حسًّا.

٤ ـ وخمد القوم: سكتوا وماتوا وصاروا بمنزلة الرماد الخامد الهامد.

أما همود النار فهو انطفاؤها وعدم بقاء أثر منها.

جاء في (لسان العرب): «وهمدت النار تهمد همودًا: طفئت طُفوءًا وذهبت البتة فلم يبن لها أثر...

الأصمعي: خمدت النار: إذا سكن لهبها، وهمدت همودًا إذا طفئت البتة» [(٢)].

وجاء في (القاموس المحيط): «الهمود: الموت وطفوء النار أو ذهاب حرارتها» [(٣)].

وجاء في (المصباح المنير): «همدت النار همودًا من باب قعد: ذهب حرها ولم يبق منها شيء» [(٤)].

واختيار الخمود على الهمود أنسب من عدة نواح منها:

١ ـ أن في ذلك إشارة إلى سرعة سكونهم وانقطاع حركتهم، فإن

---

(١) أساس البلاغة (خمد) ٢٥٠.

(٢) لسان العرب ٤/٤٤٨ (همد).

(٣) القاموس المحيط (همد) ١/٣٤٨.

(٤) المصباح المنير (همد) ٢/ ٦٤.

الخمود أسرع من الهمود ؛ ذلك أن إطفاء السراج والشعلة إنما يكون في أسرع وقت.

جاء في (التفسير الكبير): «والخمود في أسرع زمان فقال: (خامدين) بسببها ، فخمود النار في السرعة كإطفاء سراج أو شعلة» (١).

٢ ـ بيان أن حركتهم وأصواتهم قد خمدت فلا تسمع لهم حسًّا وذلك بعد التوعد والتهديد والضجيج والصخب الذي ملأ القرية ، وبعد البطش والتنكيل بالرجل الناصح. بعد كل ذلك إذا هم ساكتون خامدون لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا.

٣ ـ ثم إن اختيار الخمود مناسب لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ وذلك أنه إذا كان في موضع ما ضجيج وصياح وصخب فإنه لا يسكته إلا صوت أو صيحة أعلى منه. فصاح بهم صيحة أسكتتهم وأخمدتهم.

٤ ـ إن في اختيار الخمود على الهمود إشارة إلى البعث بعد الموت ، فإن الخمود لا يعني الفناء وإنما يعني ذهاب اللهب والحرارة وبقاء الجمر ، فكأن ذلك إشارة إلى مفارقة الأرواح للأبدان وليس فناءها.

جاء في (روح المعاني): «ولعل في العدول عن (هامدون) إلى (خامدون) رمزًا خفيًّا إلى البعث بعد الموت» (٢).

٥ ـ اختيار الخمود على الهمود فيه صورة فنية أخرى ، وهي صورة الجمر الذي يغطيه الرماد ، وهي شبيهة بحالة الجثة التي يعلوها تراب القبر ، وفيها إشارة إلى أنهم يحترقون بالنار في داخلها وإن كان لا يظهر ذلك للناظرين.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢ ـ ٣.

٦ ـ ومن معاني الخمود: الموت أيضًا كالهمود ، فأعطى الخمود معنى الهمود مع معان أخرى لا يؤديها الهمود كسرعة الهلاك والسكوت بعد الصيحة ، والرمز الخفي إلى البعث بعد الموت وأن ظاهرهم ساكن بارد وحقيقتهم نار تحرق .

فكان اختيار الخمود أولى والله أعلم .

* * *

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

* * *

﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ ﴾

الحسرة: أشد الندم ، والغم يركب الإنسان حتى يكون حسيرًا منقطعًا لا يستطيع فعل شيء لتدارك ما فاته .

جاء في (لسان العرب): «الحسرة: أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه» [١] .

وقال الزجاج: «الحسرة أمر يركب الإنسان من كثرة الندم على ما لا نهاية له حتى يبقى حسيرًا» [٢] .

و«الحسرة على ما قال الراغب: الغم على ما فات والندم عليه ، كأن المتحسر انحسر عنه قواه من فرط ذلك أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه» [٣] .

ومعنى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ ﴾ على أشهر الأقوال أنه نداء للحسرة

---

(١) لسان العرب (حسر) ٥/ ٢٦٢ .

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣٢ .

(٣) روح المعاني ٢٣/ ٣ .

مجازًا ، أي أقبلي يا حسرة فهذا وقت حضورك .

جاء في (الكشاف) في قوله : ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ : «نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالي يا حسرة فهذه من أحوالك التي حقك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل ، والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم المتلهفون ، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين»[١] .

ويقوي الدلالة على النداء قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُوا۟ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدۡعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان : ١٣ ـ ١٤] ، وقوله : ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُوا۟ ثُبُورًا﴾ [الانشقاق : ١٠ ـ ١١] .

ومعنى دعاء الثبور مناداته للحضور بأن يقولوا : واثبوراه ، أو : يا ثبوراه ، أي احضر يا ثبور فهذا وقتك وحينك .

والثبور : الهلاك[٢] .

ولا يقصد حقيقة النداء ولكن المقصود بيان أن العباد أوقعوا أنفسهم في أمر عظيم لا يستطيعون منه مخرجًا تركبهم منه الحسرة مركبًا عظيمًا لا تفارقهم ، وينالهم من الغم والندم ما يملأ نفوسهم ، فليس في نفوسهم مكان لغير الكرب والندم ، وليس فيها موضع استرواح رائحة أمل ولا تنسم نسمة فرج ، فهم متحسرون نادمون منقطعون لا تفارقهم الحسرة والندم والغم أبد الأبدين .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٦ ، وانظر التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢ ، البحر المحيط ٧/ ٣٣٢ ، روح المعاني ٢٣/ ٣ .

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٤٠١ ، ٣/ ٣٢٥ ، البحر المحيط ٦/ ٤٨٥ ، ٨/ ٤٤٧ ، روح المعاني ١٨/ ٢٤٤ ، ٣/ ٨١ .

وعبر بذلك تفظيعًا لما يصيبهم ، وهو نظير قولنا عن شخص وقد عمل عملاً نعلم أنه سيلحقه منه خسران كبير: يا خسارته ، يا ويله مما سيحصل ، نقول ذلك استفظاعًا لما يصيبه واستعظامًا له.

والعباد هم المكذبون بالرسل المستهزئون بهم.

جاء في (التفسير الكبير): «من المتحسر؟

نقول فيه وجوه:

(الأول): لا متحسر أصلاً في الحقيقة ، إذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب.

وههنا بحث لغوي ، وهو أن المفعول قد يرفض رأسًا إذا كان الغرض غير متعلق به ، يقال: (إن فلانًا يعطي ويمنع) ولا يكون هناك شيء معطى، إذ المقصود أن له المنع والإعطاء، ورفض المفعول كثير، وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل، والوجه فيه ما ذكرنا، أن ذكر المتحسر غير مقصود ، وإنما المقصود أن الحسرة متحققة في ذلك الوقت.

(الثاني): أن قائل (يا حسرة) هو الله على الاستعارة تعظيمًا للأمر وتهويلاً له حيث يكون كالألفاظ التي وردت في حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمني.

أو نقول: ليس معنى قولنا: يا حسرة ويا ندامة ، أن القائل متحسر أو نادم ، بل المعنى أنه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج إلى تجوز في بيان كونه تعالى قال: (يا حسرة) بل يخبر به على حقيقته إلا في النداء فإن النداء مجاز والمراد الإخبار» [١].

وجاء في (تفسير ابن كثير): «﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ أي يا ويل العباد ،

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٢ ـ ٦٣.



وقال قتادة: ﴿يَـٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ أي يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت في جنب الله»[١].

وجاء في (روح المعاني): «ولعل الأوفق للمقام المتبادر إلى الأفهام نداء حسرة كل من يتأتى منه التحسر، ففيه من المبالغة ما فيه»[٢].

* * *

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

وهذا بيان سبب الحسرة والندم.

قوله: (من رسول) يفيد الاستغراق، والمعنى: أنه لم يسلم رسول من الاستهزاء.

وقد تقول: ولم قال ههنا: (من رسول) وقال في الزخرف: (من نبي)؟

فنقول: إن كل لفظة ناسبت الموطن الذي وردت فيه.

فقد قال في الزخرف ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الزخرف: ٦ ـ ٧].

فقوله: (كم أرسلنا) يفيد التكثير، فإن (كم) هذه خبرية وهي تفيد التكثير، والأنبياء أكثر من الرسل، فإن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، فناسب كلمة (نبي) كم الخبرية.

جاء في (ملاك التأويل): «لما تقدم في آية الزخرف لفظ (كم) الخبرية، وهي للتكثير، ناسب ذلك كله من يوحى إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل. فورد هنا ما يعم الصنفين عليهم السلام»[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٠.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤.
(٣) ملاك التأويل ٢/ ٥٨٤.

وتقديم (به) على الفعل للاهتمام ، إذ المفروض أن يستقبل العباد رسولهم بالطاعة والاستجابة والإكرام لأنه مرسل إليهم من ربهم ولكنهم استقبلوه بالاستهزاء والسخرية .

وذهب صاحب (روح المعاني) إلى أن هذا التقديم للحصر الادعائي أو لمراعاة الفاصلة . قال : «و(به) متعلق بيستهزئون ، وقدم عليه للحصر الادعائي ، وجوز أن يكون لمراعاة الفواصل»[(١)] .

ومعلوم أن تقديم المعمول على عامله لا يقتصر على معنى الحصر .

نعم إن إرادة الحصر فيه كثيرة ولكن قد يكون التقديم لغير ذلك من مواطن الاهتمام وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل : ١٦] ، فإن التقديم هنا لا يفيد الحصر ، إذ الاهتداء لا يقتصر على النجوم ، بل إن وسائل الاهتداء كثيرة قال تعالى : ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [النحل : ١٥] ، فذكر من وسائل الاهتداء الجبال والأنهار والسبل[(٢)] .

والأظهر فيما نرى أن التقديم ههنا إنما هو للعناية والاهتمام ، ويجوز أيضًا أن يكون لما ذكره صاحب (روح المعاني) والله أعلم .

* * *

﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

أي ألم يعلموا كثرة إهلاكنا للأمم الماضية فيتعظوا ، و(كم) خبرية تفيد التكثير ، والقرون جمع قرن وهو الأمة .

وفي الآية مسائل :

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤ .

(٢) انظر كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) .

١ ـ أنه قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وفي مكان آخر قال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [السجدة: ٢٦].

٢ ـ وقال ههنا: (قبلهم) وقال في مكان آخر: (من قبلهم).

٣ ـ وقال ههنا: (من القرون) وقال في مكان آخر: (من قرن) فأفرد.

٤ ـ وقال ههنا: (قبلهم من القرون) فقدم الظرف على القرون.

وفي مكان آخر قدم القرون على الظرف فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [يونس: ١٣].

فما سر هذا الاختلاف؟

فنقول:

١ ـ إن معنى (ألم يهد لهم): (ألم يتبين لهم)، ومعنى (ألم تر) و(ألم يهدِ لك) متقاربان إلى حد كبير، ولكن القرآن خص كل تعبير بموطن، فقد استعمل الرؤية في نحو هذا في موطنين وهما آية (يس) هذه، والموطن الآخر قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

واستعمل (ألم يهد) في موطنين أيضًا وهما قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقوله في سورة طه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

والملاحظ أنه يستعمل فعل الرؤية في سياق ذكر العقوبات الدنيوية

فيقول: (ألم يروا) ولعل ذلك لأن عقوبات الدنيا يمكن أن ترى آثارها.

أما في سياق الآخرة وأحوالها وعقابها فيستعمل: (ألم يهد لهم) ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ أنه من باب الهداية العقلية والتبصر الذهني وهو ألصق بالهداية والتبين من الرؤية.

وإليك إيضاح ذلك.

فإنه بعد أن ذكر عقوبة أهل القرية في سورة (يس) بقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١].

وقال في سورة الأنعام: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٥] فحذرهم، ثم ذكر الآية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا...﴾ [الأنعام: ٦] بعدها. وفيها قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، ثم يلفت نظرهم إلى ما أوقعه من عقوبات على الأمم المكذبة قبلهم وذلك نحو قوله:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠ ـ ١١].

فأنت ترى أن الآية ذكرت في سياق العقوبات الدنيوية فذكر (ألم يروا).

وأما قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦]، فقد جاء في سياق أحوال الآخرة. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ١٨ ـ ٢٠].

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ﴾ [السجدة: ٢٥ ـ ٢٦].

فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ في سياق ذكر أحوال الآخرة.

وكذلك الحال في آية طه، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ . . . ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٨].

فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ في سياق أحوال الآخرة أيضًا ولم يذكر شيئًا من العقوبات الدنيوية.

٢ ـ وأما قوله: (قبلهم) و(من قبلهم) فإن (من) تفيد ابتداء الغاية، فتفيد الزمن الذي قبل المعنيّين بالضمير مباشرة فما قبله. وأما (قبلهم) فيفيد الزمن القريب والبعيد كما هو معلوم. فقوله: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم ﴾ فيه تهديد وتوعد أكبر من قوله: (قبلهم) من دون (من)؛ وذلك لأن إهلاك القريب أدعى إلى الموعظة والعبرة من إهلاك البعيد، وهو أشد تأثيرًا في النفوس، فكلما كان الهالك أقرب زمنًا إلى الشخص كان أدعى إلى الموعظة من ذوي الأزمان السحيقة، ولذلك هو يستعمل (من قبلهم) في مواطن التهديد والتوعد الشديد. وإليك بيان ذلك:

قال تعالى في سورة (يس): ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

وقال في السجدة: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ



إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٦ ـ ٢٧].

ولو نظرنا في سياق الآيتين لاتضح لنا أن التهديد في السجدة أكبر وأشد مما في (يس) وذلك من جملة نواح، منها:

١ ـ أنه قال في السجدة: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ﴾ أي يمرون عليها ويمشون فيها ويبصرونها، وذلك أدل على التوعد وأدعى للموعظة والعبرة، فإن دخول مساكن المهلكين والمشي فيها يبعث آثارًا عميقة في النفس، والتهديد بأن مصيرهم كمصير أولئك أوضح.

٢ ـ قال في السجدة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾، ولم يقل مثل ذلك في (يس).

٣ ـ أنه عقب بعد ذلك بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ تقريعًا لهم، أي ألا يسمعون حديثهم وأخبارهم؟.

٤ ـ ثم قال بعدها: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ زيادة في التقريع.

٥ ـ وقد تهددهم وتوعدهم قبل هذه الآية بأن يذيقهم العذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة بقوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولم يقل مثل ذلك في (يس).

٦ ـ ذكر من آثار رحمة الله ونعمه عليهم في سورة (يس) من إخراج الحبوب وإنشاء الجنات وتفجير العيون ما لم يذكره في سورة السجدة، فإنه لم يذكر في السجدة إلا إخراج الزرع الذي يأكل منه الأنعام والناس.

فكان المقام والسياق في السجدة يدل على التهديد والتوعد أشد مما هو في سورة (يس)، فجاء بـ(قبلهم) في (يس)، و(من قبلهم) في السجدة.

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة (ص): ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقوله في سورة (ق): ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

فقال في (ص): ﴿مِن قَبْلِهِم﴾، وقال في (ق): ﴿قَبْلَهُم﴾.

ومن النظر في السياق الذي وردت فيه كل من الآيتين يتضح أن التوعد والتهديد في (ص) أشد مما في (ق)، فإنه في (ق) لم يزد على أن قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، ثم انتقل إلى أمر آخر، ثم إلى الحشر في الآخرة.

وأما في (ص) فإن السياق يختلف، فقد ذكر من موجبات توعدهم ما لم يذكره في (ق)، فقد قال بعد هذه الآية: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٤ ـ ٨].

١ ـ فقد ذكر أنهم قالوا: هذا ساحر كذاب.

٢ ـ وتعاهد الملأ على نصرة الآلهة وتواصوا بذلك.

٣ ـ وقالوا إن ما أتى به الرسول إنما هو اختلاق وكذب.

٤ ـ وعجبوا كيف ينزل عليه الذكر من بينهم.

في حين لم يزد في (ق) على أن قال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]، واستبعدوا البعث بقولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، وليس فيها مثل تلك الخصومة والمواجهة.

وعلاوة على ذلك فقد توعدهم بالعذاب بقوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨]، أي لم يذوقوه بعد وسيذوقونه.

ثم تهددهم مرة أخرى بقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥].

فالفرق بين المقامين واضح، فإن موقف الكفار من الرسول في (ص) أشد وكان تهديده وتوعده لهم أشد، فقال في (ص): (من قبلهم)، وقال في (ق): (قبلهم).

فاتضح الفرق بين قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ و﴿مِن قَبْلِهِم﴾.

وهناك أمر آخر حسّن قوله: (قبلهم) في سورة (يس) إضافة إلى ما ذكرناه، وهو أنه قال في ختام الآية: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وذلك ليدل على أن الأمم لا ترجع إلى الدنيا وإن تطاول عهدها بالفناء وابتعد زمانها، وأن الأمم الهالكة جميعها لا تعود إلى الدنيا، وليس ذلك مختصًّا بما زمنه قريب منهم، فإنه لم ترجع أمة أبيدت وأهلكت منذ أول الدنيا إلى الآن، ولن ترجع إليها في المستقبل، وإنما سيجمعها ربها ويرجعها إليه. وهذا أدعى إلى حذف (من) ليشمل جميع الأمم ابتداء من أول الدنيا.

٣ ـ وأما تقديم الظرف (قبلهم) على (القرون) أو تأخيره عنها فذلك بحسب القصد، فإنه إذا أراد تهديد المشركين قدم (قبلهم) فيقول مثلاً: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ أو ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾. وإن لم يرد ذلك قدم القرون على الظرف فيقول مثلاً ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، أو ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

فتقديم ما يتعلق بهم وهو الزمن المضاف إليهم يعني تهديدهم،

بخلاف تأخيره فإنه لا يفيد ذاك. وكل ما ورد بقصد التهديد تقدم فيه الظرف على القرون نحو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [السجدة: ٢٦]، وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤]، وذلك في ثمانية مواطن من القرآن الكريم.

وقدم القرون على الظرف (قبلهم) في موطنين وهما:

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [يونس: ١٣].

أما قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ فليس الموطن موطن تهديد لقوم الرسول، وإنما الكلام على مَن بعد نوح من القرون، قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٥ ـ ٢٠].

فليس المقام مقام تهديد لقوم الرسول خاصة.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ فهو ليس تهديدًا لهم أيضًا، كما أنه ليس السياق أو المقام في ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

ويدل على أن المقام ليس مقام تهديد بالإهلاك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ



جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فالمقام في جعلهم خلائف من بعدهم لا في إهلاكهم.

فاتضح الفرق.

٤ ـ وأما إفراد القرون وجمعها بعد (كم) فإن ذلك إنما يكون لغرض فإنه يفرد إذا كان يريد ذكر صفة القرن المهلك أو حالة من حالاته أو لأي سبب آخر يقتضيه السياق.

ويجمع إذا لم يرد ذلك وإنما يريد ذكر المجموع على العموم، أو يريد أن يبين أن هذه القرون المهلكة سيحييها ربها ويجمعها أو لأي سبب آخر يقتضيه السياق.

وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

فهو ذكر صفة القرن الذي أهلكه بقوله:

١ ـ مكنّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم.

٢ ـ أرسلنا السماء عليهم مدرارًا.

٣ ـ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم.

ثم ذكر بعد ذلك أنه أنشأ بعده قرنًا آخرين، فأهلك قرنًا وأنشأ بعده قرنًا آخر.

فناسب ذلك الإفراد.

وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم: ٧٤].

فوصف القرن المهلك بأنه أحسن أثاثًا وأحسن منظرًا.

وقال في (ق): ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

فذكر صفة القرن بأنهم أشد بطشاً من الكفرة في زمن الرسول وأنهم نقبوا في البلاد.

وقال في (ص): ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، أي فجأروا وصاحوا وصرخوا واستغاثوا.

فذكر حالتهم هذه عند الإهلاك.

وقد تقول: ربما كان هذا شأن المهلكين جميعاً.

فنقول: ليسوا كلهم كذلك بدليل قوله تعالى في سورة (يس) في أصحاب القرية: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

وقال في آخر سورة مريم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

والسياق يقتضي الإفراد، ذلك أنه قال قبل هذه الآية: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

فأنت ترى أن السياق في الإفراد، فقد ذكر أنه سبحانه أحصى كل من في السماوات والأرض واحدًا واحدًا وعدّهم عدًّا، وإن كل واحد منهم سيأتيه يوم القيامة فردًا.

فناسب ذلك الإفراد، فأفرد القرن لذلك، والله أعلم.

في حين قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

وقال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧].

فذكر القرون على العموم من دون تخصيص قرن منها أو مجموعة منها بأمر معين.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه قد يذكر القرون مجموعة في مقام ذكر الآخرة؛ لأنه سيحييها كلها ويجمعها فقال في سورة (يس): ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾.

فذكر أنه سيجمعها كلها ويحضرها لديه سبحانه.

وقال في سورة السجدة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾.

فذكر سبحانه أنه يفصل بينهم يوم القيامة.

وقال في سورة طه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧ أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾.

فأنت ترى أنه ذكر القرون مجموعة في هذه الآيات في سياق ذكر الآخرة.

أو يكون السياق يقتضي الجمع لأمر آخر وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

فأنت ترى أنه ذكر القرون من دون وصف لها، وقد أراد بيان كثرة القرون المهلكة المتطاولة من بعد نوح. ثم إن السياق لم يخل من إشارة إلى الآخرة، فقد جاء بعد هذه الآية:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

وقد تقول: إن صيغتي الجمع والإفراد كافيتان في التفريق بينهما ولا حاجة إلى هذه الإطالة.

فنقول: لولا ورودهما بعد (كم) الخبرية لم نكلف أنفسنا بتسويد سطر واحد، ولكن المفرد بعد (كم) الخبرية لا يدل على الواحد، وإنما يدل على الكثرة، فقولك: (كم رجلٍ أكرمت) لا يدل على أنك أكرمت رجلاً واحدًا وإنما يدل على إكرام الكثير، فكان المفرد ههنا دالاً على الجمع فاقتضى التفريق بينهما، والله أعلم.

* * *

﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

والمعنى: ألم يروا أنهم لا يرجعون إليهم؟

وقدم الجار والمجرور (إليهم) لإرادة الاختصاص، أي لا يرجعون إليهم بل إلينا، وفيه إلماح إلى الحشر والحياة بعد الموت. وأكد ذلك بالآية بعدها: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فقد أثبت الحشر ضمنًا بتقديم الجار والمجرور، وصرح بذلك في الآية بعدها.

ونفى بـ (لا) دون (لم) للدلالة على أن الرجوع إلى الدنيا مرة ثانية لا يكون أصلاً لا في زمن المخاطبين ولا في المستقبل، ولو نفاه بـ (لم) لكان نفى الرجوع في الماضي دون المستقبل.

* * *

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لما بيّن أن المهلكين لا رجعة لهم إلى الدنيا ذكر أنهم كلهم راجعون إليه محضرون لديه. وفي الآية تنبيه على أن من أهلكه الله في الدنيا وعاقبه لا يتركه سدى بل سيرجعه إليه ويحاسبه ويعاقبه.

جاء في (التفسير الكبير): «لما بين الإهلاك بين أنه ليس من أهلكه الله تركه، بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب»[1].

و(إنْ) نافية، و(لما) بمعنى (إلا).

و(كل) مبتدأ، وخبره (جميع)، وليست (جميع) ههنا بمعنى (كل) وإنما معنى (جميع) ههنا (مجموعون) فهي فعيل بمعنى اسم المفعول. والمعنى أن كلهم مجموعون محضرون. و(جميع) قد تكون بمعنى مجموعين، وبمعنى مجتمعين، تقول: قوم جميع أي مجتمعون[2]. وتقول: (الطلاب جميع) أي الطلاب مجتمعون، و(نحن جميع) أي

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٤.

(٢) انظر لسان العرب (جمع) ٩/ ٤٠٤.

مجتمعون ، فهذا كلام تام .

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: كيف أخبر عن (كل) بجميع ، ومعناهما واحد؟

قلت: ليس بواحد ؛ لأن كلاًّ يفيد معنى الإحاطة وأن لا ينفلت منهم أحد .

والجميع معناه الاجتماع ، وأن المحشر يجمعهم ، والجميع: فعيل بمعنى مفعول ، يقال: حي جميع ، وجاؤا جميعًا» (١) .

والمقصود بـ (محضرون) أنهم محضرون للحساب ، و(لدينا) ظرف قدم على متعلقه (محضرون) لإفادة الحصر ، بمعنى أن الإحضار لديه وليس لدى غيره . وهو نظير تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ .

و﴿مُحْضَرُونَ﴾ إما خبر ثان أو نعت لـ (جميع) على المعنى ، ويصح إفراده حملاً على اللفظ فيقال: (وإنْ كل لما جميع لدينا محضر) كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] .

وقد تقول: ولم حمل على المعنى في (يس) وحمل على اللفظ في القمر؟

فنقول: لما ذكر القرون المهلكة الكثيرة في (يس) ناسب أن يجمع فيقول: (محضرون) .

أما في سورة القمر فإنهم فريق واحد أو جمع واحد وليس جموعًا كما قال تعالى بعدها: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ، فناسب ذلك الإفراد .

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٧ وانظر روح المعاني ٢٣/ ٦ .

ثم إن الانتصار إنما هو وصف للفريق كله أو للجمع كله وليس لكل فرد. فيقول الفريق المنتصر أو الجيش المنتصر: (نحن انتصرنا) أو (جيشنا انتصر). ولا يقول الجندي: أنا انتصرت. فالنصر وصف للمجموع لا لكل فرد على حدة، فوحد الوصف لأنه وصف للفريق أو للجمع لا لأفراده واحدًا واحدًا. بخلاف الإحضار للحساب أمام الله فإن كل فرد سيحضر أمام ربه ويمثل للحساب كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، فناسب الجمع في (يس) من جهة أخرى.

وقد تقول: ولم قال إذن في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٦]، فجمع ولم يفرد؟

والجواب: أن ذلك لأكثر من سبب ويدلك عليه السياق، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣ ـ ٥٦].

فإن فرعون أرسل في المدائن المتعددة أناسًا يحشرون الناس ويجمعونهم يبلغونهم قرار فرعون المذكور، فهم جموع متعددة لا جمع واحد، فناسب الجمع من جهة.

ومن جهة أخرى لم يقل: (وإنا لجميع حاذر) لأنه لم يرد أن يجعل الحذر وصف الفريق على العموم، بل أراد أن يجعله وصفًا لكل فرد، فكل فرد بعينه ينبغي أن يكون حاذرًا، فهو ليس مثل (نحن جميع منتصر) الذي هو وصف الجمع لا وصف الأفراد، فإن هذا وصف كل فرد في المجموع.

فناسب الجمع ههنا.

فاتضح أن كل تعبير هو أنسب في مكانه، والله أعلم.

* * *

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

لما ذكر الحشر في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ذكر الدليل على إمكان وقوعه وعلى أن ذلك بمقدوره سبحانه ، فاستدل بإحياء الأرض الميتة وإخراج الحب والجنات فيها فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ ومعنى الآية العلامة والدليل ، فجعل إحياء الأرض الميتة دليلاً على إحياء الموتى في الآخرة .

ولا يقتصر الاستدلال بهذه الآية على إحياء الموتى ، وإنما فيها دلائل على أمور أخرى ، منها توحيد الله وقدرته البالغة ورحمته ، فذكر جملة من نعمه عليهم .

جاء في (التفسير الكبير): «﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾: وفيه مسائل:

(المسألة الأولى): ما وجه تعلق هذا بما قبله؟ .

نقول: مناسب لما قبله من وجهين:

(أحدهما): أنه لما قال (وإن كل لما جميع) كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعًا لإنكارهم واستبعادهم وإصرارهم وعنادهم ، فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ كذلك نحيي الموتى .

(وثانيهما): أنه لما ذكر حال المرسلين وإهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ، ذكر ما يدل عليه ، وبدأ بالأرض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم عند الحركة والسكون . . .

وأما بالنسبة إلى التوحيد فلأن فيه تعدد النعم ، كأنه يقول: آية لهم

الأرض ، فإنها مكانهم ومهدهم الذي فيه تحريكهم وإسكانهم والأمر الضروري الذي عنده وجودهم وإمكانهم ، وسواء كانت ميتة أو لم تكن فهي مكان لهم لابد لهم منها فهي نعمة .

ثم إحياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فإنها تصير أحسن وأنزه .

ثم إخراج الحب منها نعمة ثالثة فإن قوتهم يصير في مكانهم . . .

ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لأن الأرض تنبت الحب في كل سنة ، وأما الأشجار بحيث تؤخذ منها الثمار فتكون بعد الحب وجودًا .

ثم فجرنا فيها من العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ، ولو كان ماؤها من السماء لحصل ، ولكن لم يعلم أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر .

وبالنسبة إلى إحياء الموتى كل ذلك مفيد ؛ وذلك لأن قوله: ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ كالإشارة إلى الأمر الضروري الذي لا بد منه ، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ ﴾ كالأمر المحتاج إليه الذي إن لم يكن لا يغنِ الإنسان عنه لكنه يبقى مختل الحال.

وقوله: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ إشارة إلى الزينة التي إن لم تكن لا تغن الإنسان ولا يبقى في ورطة الحاجة لكنه لا يكون على أحسن ما ينبغي» (١) .

لقد قال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ﴾ فجعل الآية لهم مع أنها لا تخصهم وحدهم بل هي آية لعموم العقلاء من خلق الله ؛ وذلك لأنهم ينكرون الحياة بعد الموت ، ولأنهم مشركون لا يقرون بالتوحيد ، فحاجّهم بما يدل على إحياء الموتى وبما يدل على التوحيد.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٥ ـ ٦٦ .

جاء في (التفسير الكبير): «الأرض آية مطلقًا فلم خصصها بهم حيث قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾؟

نقول: الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشيء بأبلغ الوجوه، وأما من عرف الشيء بطريق الرؤية لا يذكر له دليل» (١).

والضمير في (لهم) يعود على أهل مكة ومن يجري مجراهم في إنكار الحشر (٢).

وقدم (آية) وهي الخبر على المبتدأ وهي الأرض ولم يقل (والأرض الميتة آية لهم) وذلك لأن الكلام على العلامات الدالة على قدرته وليس الكلام على الأرض. وقد ساق الليل والنهار والشمس والقمر دلائل على قدرته وليس لذاتها ولذا قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ . . . وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ . . . وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

ثم إنه قدم الآية على الجار والمجرور فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ للدلالة على أنها آية لهم ولكنها لا تخصهم وحدهم، ولو قدم الجار والمجرور فقال: (ولهم الأرض الميتة آية) لكان ذلك يعني تخصيص الآية بأنها لهم دون غيرهم، في حين أنها آية للجميع وليست آية خاصة بهم. فالتقديم في نحو هذا أكثر ما يفيد التخصيص وذلك نحو قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، فقدم (لكم) على (آية) لأنها آية خاصة بهم دون غيرهم.

ونحوه قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [آل عمران: ٤١]، فقدم الجار والمجرور لأنه طلب آية خاصة به دون غيره.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٣٤، روح المعاني ٢٣/ ٦.

وبدأ بذكر الأرض لأنها مسكنهم ومستقرهم[١].

* * *

﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾

بدأ بالحب لأنه طعام الإنسان وقوته وهو أهم ما يأكله البشر، وهم من دونه جياع، وإذا فقد الحب هلك الناس.

وقدم الجار والمجرور (منه) على الفعل (يأكلون) لأهميته، ولبيان أن البشر إنما يأكلون منه، ولا يكون قوت من دون حب، وهو من أجلّ النعم، وكأن الأكل لا يكون إلا منه.

جاء في (الكشاف): «﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ بتقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس، وإذا قلّ جاء القحط ووضع الضر، وإذا فقد جاء الهلاك ونزل البلاء»[٢].

وجاء في (روح المعاني): «(فمنه) أي من الحب بعد إخراجنا إياه، والفاء داخلة على المسبب، و(من) ابتدائية، أو تبعيضية، والجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: (يأكلون) والتقديم للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به لما في ذلك من إبهام الحصر للاهتمام به حتى كأنه لا مأكول غيره»[٣].

* * *

---

(١) انظر البحر المحيط ٧/ ٣٣٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٧.

(٣) روح المعاني ٢٣/ ٧.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

بعد أن ذكر الحب ـ وهو الأهم ـ ذكر الجنات من النخيل والأعناب ، وهما دون الحب بالنسبة إلى طعام الناس.

والمقصود بالنخيل والأعناب هما الشجر وليس الثمر ، ولذلك قال فيما بعد: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ ولم يقل: (ليأكلوا منه). ثم إن قوله: (جنات) يدل على ذلك أيضًا.

وقدم شجرة النخيل على العنب لأنها أفضل منها ، فإن فوائد النخلة كثيرة ولا يخلو أي جزء منها من فائدة. ولا تقاس شجرة العنب بالنخلة من حيث الفائدة ، فشجرة العنب ضئيلة الفائدة بخلاف ثمرها.

جاء في (التفسير الكبير): «في المواضع التي ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر [بل ذكره] (١) بلفظ شجرته وهي النخلة ، ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والأعناب ، ولم يذكر الكرم ؛ وذلك لأن العنب شجرته بالنسبة إلى ثمرته حقيرة قليلة الفائدة ، والنخل بالنسبة إلى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى. فإن كثيرًا من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ما هو الأعجب منها» (٢).

وقد تقول: ولكنه قدم العنب على النخل في موطن آخر من القرآن الكريم وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣١].

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٧.

فنقول: لم يتقدم العنب على النخل في القرآن إلا في موطنين:

أحدهما: في آيات عبس هذه.

والموطن الآخر: في سورة الرعد وهو قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

أما آيات عبس فإنه ذكر فيها الأطعمة، فقد قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، ثم ذكر عددًا منها فذكر الحب والعنب والزيتون. أما النخل فإنه ليس بطعام وإنما هو اسم للشجرة التي تحمل التمر، في حين أن المذكور قبلها هو الثمر. فكل من العنب والزيتون ثمر، والحب طعام، أما النخل فهو شجر، فلما قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ قدم الأطعمة وأخر الشجر، ولذا جعل النخل بجنب الحدائق فقال: ﴿وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه رتب المذكورات بحسب الكثرة، فالحب أكثر المذكورات وجودًا وإنتاجًا في العالم، ثم العنب وهو أقل من الحب وأكثر من الزيتون. إن العنب ينبت في أجواء متباينة تباينًا كبيرًا وإنتاجه في العالم أضعاف إنتاج الزيتون.

ثم ذكر الزيتون وهو أقل من العنب.

ثم النخل وهو أقل، وإنتاجه في العالم أقل بكثير من الزيتون، وهو لا يثمر إلا في أجواء خاصة وليس منتشرًا في الأرض انتشار الزيتون.

فرتب الأطعمة بحسب كثرتها في العالم.

أما آية الرعد فإنه ذكر فيها المتجاور من النبات واختلافه في الأُكُل، فبدأ بجنات الأعناب ثم انتهى إلى أقرب المتجاور وهو النخل الصنوان

الذي أصله واحد وهو أقرب من كل متجاورين.

فبدأ بجنات الأعناب وهي قطع متجاورة من البساتين، ثم ذكر ما هو أقرب تجاورًا وهو الزرع في الحقل الواحد أو الحقول المتقاربة.

والزرع أقرب إلى بعضه من أشجار العنب، فإنه إذا كان في حقل واحد فهو أقرب إلى بعضه من الجنات المتعددة وإن كانت متجاورة. ثم إن نبتة الزرع أقرب إلى أختها من أشجار الكرم، إذ إن أشجار الفاكهة ينبغي أن تتباعد عن بعضها ليكثر ثمرها ويحسن، والزرع لا يحتاج إلى مثل ما يحتاج إليه الشجر من المسافات.

ثم انتهى إلى النخل الصنوان وغيره، وهو أقرب من كل شيء، إذ الصنوان: هو النخل الذي يخرج من أصل واحد، وهي الفسائل المتعددة التي تخرج من أصل النخلة، وهذه أقرب من كل شيء إلى بعضها، فهي أقرب المذكورات تجاورًا.

فرتبها بحسب التجاور، فبدأ بالجنات وانتهى إلى الأشجار التي تخرج من أصل واحد وهي الفسائل التي تخرج من نخلة واحدة.

فكان التقديم بحسب ما يقتضيه السياق.

وقال في الحَبِّ: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وقال في الثمر: ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ بذكر لام التعليل؛ ذلك أن الناس يأكلون من الحب على الدوام وهم مستمرون على ذلك. أما الفاكهة فليست كذلك فهم لا يأكلون منها على الدوام وإنما يأكلونها في أوانها. ثم إن كثيرًا من الناس ليس بوسعهم أن يأكلوا الفاكهة إلا في أوقات متباعدة. ففرق بين ما هم مستمرون على أكله وما ليس كذلك.

وهناك سؤال وهو أنه لماذا ذكر الأكل بعد ذكر الحب مباشرة فقال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، وأخر الأكل عن الثمار إلى ما بعد

ذكر تفجير العيون ولم يجعلها بعد ذكر الجنات مباشرة فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾؟

قيل: إن سبب ذلك أن الحَبَّ لا يحتاج إلى العيون والأنهار الجارية، وإنما قد يكفيه ماء السحاب، بخلاف الجنات فإنها تحتاج إلى ماء مستديم لسقيها، وذلك يكون من العيون والآبار والأنهار، فحاجة الجنات إلى العيون والماء المستديم أكثر من حاجة الحب، فالعيون أو ما قام مقامها هو الشرط الأول لقيام الجنات، وهو مبدأ قيامها.

جاء في (التفسير الكبير): «لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله: (ليأكلوا) عن ذكر الثمار حتى قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ وقال في الحب: ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ عقب ذكر الحب، ولم يقل عقب ذكر النخيل والأعناب ليأكلوا؟.

نقول: الحب قوت وهو يتم وجوده بمياه الأمطار، ولهذا يُرى أكثر البلاد لا يكون بها شيء من الأشجار والزرع والحراثة لا تبطل هناك اعتمادًا على ماء السماء، وهذا لطف من الله حيث جعل ما يحتاج إليه الإنسان أعم وجودًا.

وأما الثمار فلا تتم إلا بالأنهار ولا تصير الأشجار حاملة للثمار إلا بعد وجود الأنهار فلهذا أخر» (١).

وقد تقول: ولم أخر ذكر تفجير العيون عن ذكر الحب والفاكهة مع أن الماء سابق لهما وهو شرط لوجودهما؟

والجواب أن ذلك لأكثر من سبب:

١ ـ منها أنه قدم المطعوم على المشروب، وذلك لأن الطعام أهم

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٧ وانظر روح المعاني ٢٣/ ٧ ـ ٨.

والحصول عليه أعسر ، والناس يجهدون للحصول عليه ، بخلاف الشرب فإن الحصول عليه أيسر ، فقدم الطعام على المشروب.

وتقديم الطعام على المشروب هو الشائع في القرآن الكريم ، فهو يقدم الطعام على الشراب إذا اجتمعا ، قال تعالى : ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦٠] ، وقال: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٩] ، وقال: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤] ، ثم قال بعدها: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨] ، وكذلك ههنا.

٢ ـ ومنها أن السياق في إحياء الموتى ، فذكر الأرض الميتة وإحياءها وإخراج الحب والجنات منها دليلاً على ذلك ، فقدم ما فيه آية عليه. فإحياء الأرض وإخراج الحب والجنات أدل على ذلك من تفجير العيون.

٣ ـ أنه ذكر الأكل ولم يذكر الشرب ، فقد قال في الحب: ﴿ فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ، وقال في الجنات: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ ، ولم يقل في العيون: (ليشربوا منها) فلذلك قدم ما يؤكل وأخر ما لم يجر له ذكر ، هذا إضافة إلى أنه ذكر تفجير العيون لغرض الأكل وهو إحياء الأرض وإنشاء الجنات وليس للشرب ، فقدم ما عليه مدار الكلام والسياق.

٤ ـ أنه قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾ ، والضمير في (فيها) يعود إما على الجنات أو يعود على الأرض.

فإن عاد على الجنات أي: (وفجرنا في الجنات من العيون) كانت العيون متأخرة عن الجنات في الوجود لأن التفجير كان في الجنات فتكون الجنات سابقة لها ، وعلى هذا تكون العيون متأخرة عنها في الوجود ، فناسب تأخيرها وتقديم ما قدم لسبقه.

وإن كان الضمير يعود على الأرض لا على الجنات أي: (وفجرنا في

الأرض من العيون) فالتفجير لا علاقة له بجنات النخيل والأعناب ؛ لأن التفجير سيكون في الجنات وغيرها ، وقد يكون سابقًا للجنات أو متأخرًا عنها.

٥ ـ إن الماء هو السبب الأول لإخراج الحب والجنات وليست العيون، فإن المهم هو توفر الماء لإنبات الزرع وإخراج الحب والجنات، سواء كان ذلك عن طريق العيون أم عن غيرها. وإن أكثر الجنات في الأرض ليس فيها عيون ماء وإنما تسقى بالماء. أما تفجير العيون فيها فللزيادة في النعمة ، ولذا فالعيون لا ترتبط بالجنات. فقد تكون في الجنات عيون ماء وقد لا تكون. وقد تتفجر عين في جنة من الجنات بعد مدة غير قليلة من وجودها فيكون ذلك زيادة في الخير ، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٣٤]. فذكر الجنتين وأن كلاً منهما آتت أكلها ولم تظلم منه شيئًا ، ثم قال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ، مما يدل على أن التفجير كان في زمن متأخر زيادة في الاختبار والابتلاء ، إذ التفجير كان خلال الجنتين.

فلا ارتباط مكانيًا أو زمانيًا لازم بين الجنات والعيون ،إذ قد تكون جنات وليس فيها عيون ماء ، وقد تكون عيون وليس ثمة جنات.

ثم إن الجنات أهم وأفضل من عيون الماء ؛ لأنه بها غذاء الناس وطعامهم ، أما الماء فمقدور عليه في الغالب.

إن الشائع في التعبير القرآني أنه إذا اجتمعت الجنات والعيون قدم الجنات على العيون ، قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٧].

وقال: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ٥٧].

وقال: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان: ٢٥].

وقال: ﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء: ١٣٣ ـ ١٣٤].

وقال: ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: ١٢].

غير أنه يقدم الماء إذا أراد أن يبين أنه سبب الإنبات كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨ ـ ١٩].

وقال: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩].

وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ: ١٤ ـ ١٦].

وغير ذلك.

فحسن تقديم ما قدم من الحَبِّ والجنات من كل وجه، والله أعلم.

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا فِيهَا ﴾ بتضعيف العين للدلالة على الكثرة، فإن (فعّل) المضعف العين يفيد التكثير والمبالغة، أما الفعل الثلاثي فلا يفيد التكثير، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩١].

فقال: (تَفْجر) بالتخفيف؛ لأنه ينبوع واحد. في حين قال: (فتفجّر

الأنهار) بالتضعيف لأنه ذكر أنهارًا لا ينبوعًا.

وقال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] وذلك أنه جعل الأرض عيونًا كلها.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣] بالتشديد.

فنقول: إن ذلك يدل على كثرة الماء في هذا النهر وغزارته مما يدل على كثرة التفجير.

* * *

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾

تحتمل أن تكون (ما) نافية، أي أن الثمر لم تعمله أيديهم وإنما هو من فعل الله كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١]، فالثمر لم تعمله أيدي الناس وإنما عملته يد القدرة الإلهية.

وتحتمل أن تكون اسمًا موصولاً أيضًا، والمعنى: (ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته أيديهم).

والموصولة تكون على أكثر من معنى.

من ذلك أن المعنى: ليأكلوا من ثمره ومما يعملون من الثمار من الشراب والدبس وغيرهما مما يعمله الناس من الثمار.

وقيل: إن المعنى على الموصولة: ليأكلوا مما عملته أيديهم من الغرس والسقي والكد والقيام على أمرها حتى تنضج.

وقيل: إن المعنى يحتمل أيضًا أن يذكرنا أن الثمر على نوعين:

قسم لا يدخل فيه عمل الإنسان وإنما يخرجه الله من دون أن تعمل فيه يد الإنسان.

وقسم يتعب فيه الإنسان ويكد من غرس وتعهد وتأبير وما إلى ذلك فتعمل فيه يد الإنسان.

فذكر هنا نوعي الثمر: ما لم تعمل أيديهم وما عملته أيديهم.

والوجه الأول أقوى في معنى الموصولة.

ويترجح عندي معنى النفي، وكلاهما محتمل.

جاء في (الكشاف): «﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ والضمير لله تعالى، والمعنى: ليأكلوا مما خلقه الله من الثمر، ومما (عملته أيديهم) من الغرس والسقي والآبار وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبان أكله. يعني أَن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كد بني آدم. وأصله (من ثمرنا) كما قال: وجعلنا، وفجرنا، فنقل الكلام من التكلم إلى الغيبة على طريقة الالتفات. ويجوز أن يرجع إلى النخيل وتترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنه علم أنها في حكم النخيل فيما علق به من أكل ثمره.

ويجوز أن يراد من ثمر المذكورات وهو الجنات. . .

ولك أن تجعل (ما) نافية على أن الثمر خلق الله ولم تعمله أيدي الناس ولا يقدرون عليه»[1].

وجاء في (التفسير الكبير): «(ما) في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ من أي الماءات هي؟

نقول: فيها وجوه:

(أحدها) نافية، كأنه قال: وما عملت التفجير أيديهم بل الله فجر.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٧.

و(ثانيها) موصولة بمعنى (الذي) كأنه قال: والذي عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضًا ويأكلون من ثمر الله الذي أخرجه من غير سعي من الناس. . .

(المسألة الرابعة): على قولنا (ما) موصولة، يحتمل أن تكون بمعنى: وما عملته ـ أي بالتجارة ـ كأنه ذكر نوعي ما يأكل الإنسان بهما، وهما الزراعة والتجارة. ومن النبات ما يؤكل من غير عمل الأيدي كالعنب والتمر وغيرهما، ومنه ما يعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالأشياء التي لا تؤكل إلا مطبوخة، وكالزيتون الذي لا يؤكل إلا بعد إصلاح» (١).

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾: (ما) موصولة في محل جر عطف على (ثمره). . . أي وليأكلوا من الذي عملوه أو صنعوه، والمراد به ما يتخذ من الثمر كالعصير والدبس وغيرهما. . .

وقيل: (ما) نافية وضمير (عملته) راجع إلى الثمر» (٢).

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

أي ألا يستدعي ذلك شكر المنعم الذي أمدهم بهذه النعم الجليلة؟

قال ذلك بصيغة الاستفهام، ولم يقل: (فليشكروا لي) بصيغة الأمر وذلك لأنه أراد أن يقول لهم: ألا يستوجب ذلك شكر ربهم؟

وهو عرض لطلب الشكر مع إنكار لعدم الشكر، وفيه بيان أن عدم شكر المنعم قبيح، وجاء بالفاء الدالة على السبب؛ لأن ما ذكره من النعم السابقة من الدواعي الموجبة للشكر، فالنعم سبب للشكر ومدعاة إليه.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٦٨.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٨.

جاء في (روح المعاني): «﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ إنكار واستقباح لعدم شكرهم للمنعم بالنعم المعدودة بالتوحيد والعبادة. والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها» [١].

وقد تقول: لقد قال في موطن آخر: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]، فجاء بـ (لولا) الدالة على التحضيض وهو الطلب بحث وشدة، وهنا جاء بما يفيد العرض مع استثارة النفوس لشكر المنعم فما الفرق؟.

فنقول: إن السياق في سورة (يس) هو في تعداد النعم وذكر الآيات والدلائل ومظاهر الرحمة بهم.

أما في الواقعة فهو في مقام التحذير والتوعد والتهديد بالعقوبة وزوال النعمة، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٧٠].

فناسب هذا التهديد والتحذير الحض على الشكر والحث عليه.

فاتضح الفرق.

ثم من الملاحظ أنه أطلق الشكر ولم يقيده، فإن الشكر قد يكون للنعمة وقد يكون للمنعم، قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ

---

(١) روح المعاني ٢٣/٩.

﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩].

فهذا من شكر النعم.

وقد يكون الشكر للمنعم، قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥].

وهنا أطلق الشكر ليتناول شكر النعمة ومولیها.

* * *

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

الأزواج هي الأصناف والأنواع، فذكر الأزواج مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، فبدأ بالأرض ثم بأنفسهم ثم بما لا يعلمون. ورتب هذه المذكورات بحسب ما يقتضيه السياق، فإنه لما كان الكلام على الأرض فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ بدأ بالأزواج مما تنبت الأرض، ولما كان الناس هم المستفيدين من الأرض، فهم يأكلون من حبها ومن ثمرها وهم سكانها، ذكرهم بعد ذلك فقال: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ثم ذكر بعد ذلك (ما لا يعلمون) مما لا علاقة لهم به ظاهرة ولا معرفة لهم به.

* * *

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

بعد أن ذكر الأرض واستدل بأحوالها على التوحيد والحشر استدل بالليل والنهار على ذلك فكان استدلاله بالمكان والزمان، فالمكان هو الأرض التي يعيشون عليها، والزمان هو الليل والنهار اللذان يتعاقبان عليهم.

جاء في (التفسير الكبير): «لما استدل الله بأحوال الأرض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي ، فإن دلالة المكان والزمان مناسبة ، لأن المكان لا تستغني عنه الجواهر ، والزمان لا تستغني عنه الأعراض ؛ لأن كل عرض فهو في زمان» (١).

وقد تقول: لقد قدم الاستدلال بالأرض على الاستدلال بالليل والنهار ، وفي موطن آخر قدم الليل والنهار على الأرض ، فقد قال في سورة (فصلت) ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٧ ـ ٣٩].

فما السبب؟

والجواب: أن السياق في سورة (يس) هو في الاستدلال على الحشر ، وقد وقعت الآية بعد قوله: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾. والاستدلال بإحياء الأرض الميتة أدل على ذلك من الاستدلال بالليل والنهار وإن كان فيهما استدلال من طريق آخر.

أما الكلام في سورة (فصلت) فهو في توحيد الله وإفراده بالعبادة والنهي عن عبادة غيره ، وقد كان قسم من المشركين يعبدون الشمس والقمر ويسجدون لهما فقال: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ ، فكان تقديم الليل والنهار وآيتيهما اللتين يسجد لهما طائفة من الناس أولى. بل إن السياق إنما هو في عبادة الله وتوحيده ، فإنه

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٦٩.

بعد أن نهى عن السجود للشمس والقمر وعبادتهما ذكر أن الذين عند ربك يعبدون الله ويسبحونه بالليل والنهار. بل إن الأرض التي يعيشون عليها إنما هي خاضعة خاشعة لرب العالمين. واستعمال الخشوع أنسب شيء في هذا المقام فإنه المناسب لمقام العبادة[١].

فكان كل تعبير مناسبًا لمكانه الذي ورد فيه.

جاء في (التفسير الكبير): أن المقصود في سورة (فصلت): «إثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ ثم الحشر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩]، وههنا المقصود أولاً إثبات الحشر؛ لأن السورة فيها ذكر الحشر أكثر، يدل عليه النظر في السورة. وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى غيره، وآخر السورتين يبين الأمر»[٢].

والليل والنهار آية دالة على الموت والنشور، فإن الليل كالموت، والنهار كالحياة، والناس في الليل أموات ينشرهم ربهم في النهار كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

فكان ذلك مناسبًا للسياق من جهة ثانية.

جاء في (التفسير الكبير): «لو قال قائل: إذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان، فلم اختار الليل حيث قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ﴾؟

نقول: لما استدل بالمكان الذي هو المظلم وهو الأرض وقال:

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٥/ ٣١٢٥.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٧٠.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ استدل بالزمان الذي فيه الظلمة وهو الليل.

ووجه آخر: وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدوء الأصوات، وفيه النوم ـ وهو كالموت ـ ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ في الصور فيتحرك الناس، فذكر الموت كما قال في الأرض: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ فذكر من الزمانين أشبههما بالموت، كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت»[1].

ومعنى ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نزيله منه، من (سلخ جلد الشاة) إذا كشطه عنها وأزاله[2].

ومعنى (مظلمون) داخلون في الظلام[3]، كما يقال: أصبحنا: أي دخلنا في الصباح، وأعتمنا: أي دخلنا في العتمة، والمعنى أن الليل نزيل عنه النهار فيكون الناس في ظلام.

ويفيد هذا التعبير أن الليل مغطى بالنهار، ذلك أنه جعل الليل كالشاة ونحوها، والنهار كالجلد الذي يغطيها ويعلوها، فيسلخ منه النهار كما يسلخ الجلد فيكون تحته الليل، فجعل الليل أصلاً والنهار غلافًا له أو جلدًا.

وقد فهم المفسرون ذلك فقالوا: إنه جعل الليل أصلاً.

جاء في (البحر المحيط): «واستدل قوم بهذا على أن الليل أصل، والنهار فرع طارئ عليه»[4].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٧٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٧.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٨٧.


(٤) البحر المحيط ٧/ ٣٣٦

وجاء في (روح المعاني): «وفي الآية على ما قال غير واحد دلالة على أن الأصل الظلمة ، والنور طارئ عليها يسترها بضوئه» [١] .

والأمر كذلك فإن النهار إنما يأتي بسبب الشمس ، فإن ضوء الشمس يعلو الأرض ويغطيها فيكون النهار ، فهو يأتي من فوق ، فإذا زالت الشمس وذهب ضوؤها ظهر الأصل وهي الظلمة ، فالظلمة هي الأصل والنهار طارئ .

ولم يقل : (وآية لهم النهار نسلخ منه الليل فإذا هم مبصرون) ، أو فإذا هم (منهرون) أي داخلون في النهار ؛ لأن ذلك لا يصح ؛ لأن معنى ذلك أن الليل يأتي من فوق ويغطي النور ، فإذا زال الليل ظهر النور الذي تحته وهو ضوء الأرض ، وهذا لا يصح لأن الأرض مظلمة وليست مضيئة .

ثم من المعلوم أن الضوء هو الذي يزيل الظلمة ، وليست الظلمة هي التي تزيل النور وتمحوه ، ولو قال : (وآية لهم النهار نسلخ منه الليل فإذا هم مبصرون) لكان يعني أن الظلمة تزيل النور ، ولا يصح ذلك .

وقال : (نسلخ) بإسناد الفعل إلى نفسه ، ولم يقل (ينسلخ) ليدل على أن ذلك يجري بفعل الله وقدرته ولم يحصل من نفسه من دون تدبير مدبر ولا فعل فاعل ، فيكون ذلك آية على توحيد الله وقدرته .

وقال : ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ ولم يقل : (فإذا الأرض مظلمة) ليبين أثر ذلك فيهم وفي حياتهم ، فإنهم هم الذين يدخلون في الظلام بعد النهار فيكون ذلك آية لهم ، وليبين أثر النعمة عليهم في الضياء والإظلام ، فذكر نعمتي الضياء والإظلام عليهم ، والنعمة إنما تكون بتعاقبهما لا أن يكون واحد منهما سرمدًا إلى يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ١١ ، وانظر فتح القدير ٤/ ٣٥٨ .

جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٢].

وجاء بـ (إذا) التي تفيد المفاجأة للدلالة على سرعة التغير.

جاء في (التفسير الكبير): «فإن قيل: فالليل في نفسه آية، فأية حاجة إلى قوله: ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾؟

نقول: الشيء تتبين بضده منافعه ومحاسنه، ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية في موضع من المواضع إلا وذكر آية النهار معها.

وقوله: ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ أي داخلون في الظلام، و(إذا) للمفاجأة، أي ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولابد لهم من الدخول فيه»[(١)].

* * *

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾

من المحتمل أن تكون الواو عاطفة على (الليل) فتكون المتعاطفات كلها آية[(٢)].

ولم يكرر كلمة (آية) فلم يقل لهم: (وآية لهم الشمس)؛ لأنه أراد أن يكون كل ما ذكر آية، فالليل والنهار والشمس والقمر كلها آية.

ويحتمل أن تكون (الشمس) مبتدأ وما بعدها خبر، والجملة معطوفة على ما قبلها.

ومعنى (لمستقر لها) أن لها حدًّا تنتهي إليه سواء كان ذلك الحد زمانًا

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٧٠.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٧١، روح المعاني ٢٣/ ١١.

أم مكانًا ، فقد يقصد بالمستقر اسم مكان أو اسم زمان ، وكل ذلك مراد ، فهي لها مستقر زمانًا ومكانًا ، فهي تجري في فلك لا تتعداه ، «أو لمنتهى لها من المشارق والمغارب ؛ لأنها تتقصاها مشرقًا مشرقًا ومغربًا مغربًا حتى تبلغ أقصاها ثم ترجع ، فذلك حدها ومستقرها لأنها لا تعدوه»[(١)].

وهي لها مستقر ، أي وقت تستقر عنده وهو أجلها «الذي أقر الله عليه أمرها في جريها فاستقرت عليه وهو آخر السنة. وقيل: الوقت الذي تستقر فيه وينقطع جريها وهو يوم القيامة»[(٢)].

وقد ذكرت في ذلك أمكنة وأزمنة على التفصيل[(٣)] كلها يمكن أن تكون مرادة ما لم يكن ذلك مخالفًا لحقيقة علمية.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ بعد أن أسند الجري إليها فقال: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي﴾ لئلا يظن أنها تجري بنفسها من دون تقدير أو تدبير. فإنها تجري بتقدير العزيز العليم على وفق سنة وضعها لها خالقها ، وبذلك أبطل أن تكون حرة مختارة ، وإنما هي خاضعة لمن جعل لها مستقرًّا لا تعدوه ولا تتخطاه ، فأبطل بذلك صحة أن تكون معبودة أو أن تتخذ إلهًا.

* * *

﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾

بعد أن ذكر الشمس وأنها تجري لمستقر لها بتقدير العزيز العليم ذكر القمر ، وأنه قدر له منازل يسير فيها حتى يكون كالعرجون القديم ،

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٧ ـ ٥٨٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٨.

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٧١.

ونسب التقدير إلى نفسه فقال: (قدرناه) كما نسب جري الشمس إلى تقديره.

واستغنى بقوله: (قدرناه) عن إعادة وصف العزيز العليم.

و(العرجون): «هو عود العذق ما بين شماريخه إلى منبته من النخلة»[(١)].

«وإذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه به من ثلاثة أوجه»[(٢)]

واختار (عاد) على (صار) لأنه يعود إلى هذه الحالة في كل شهر، وليس في (صار) إشعار بهذا المعنى.

* * *

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

أي لا يتيسر للشمس أن تدرك القمر وليس لها القدرة على ذلك؛ لأن لها فلكًا خاصًّا لا تتعداه، كما أن للقمر فلكًا خاصًّا به لا يتعداه.

وقد ذهب بعضهم أن النص قد يوقع في لبس فيظن ظان أنه متناقض، ذلك أن قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ معناه أن القمر سابق، وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ معناه أن النهار سابق فتكون الشمس سابقة فيكون ذلك تناقضًا.

وقد حاول المفسرون تخريج النص وتفسيره بما يدفع التناقض المظنون[(٣)].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٨.

(٣) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٧٣، روح المعاني ٢٣/ ٢٢.

وقد أوضح ذلك ربنا بما يدفع هذا الظن بقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فكل من الشمس والقمر له فلكه، فهما ليسا في سباق، فليس القمر أمام الشمس ولا الشمس وراءه. وهذان الجرمان نظيرا شخصين أحدهما في أمريكا والآخر في العراق، وكل منهما يدور في دائرة لا يتعداها، وكل دائرة تختلف عن الأخرى سعة ووضعًا فليس أحدهما يدرك الآخر، ولا أحدهما سابقًا لصاحبه، وأن ما بين الشمس والقمر أبعد من هذا بكثير.

هذا علاوة على أن هذا التعبير يعبر عن حقيقة علمية ثابتة، ذلك أنه في كل لحظة تشرق الشمس على مكان وتغرب من مكان، فالذي تشرق الشمس عليه يكون نهارًا والذي تغرب منه يكون ليلاً، فالليل أمامه نهار يأتي عليه في كل لحظة وخلفه نهار يأتي عليه، وكذلك النهار، فالليل ليس سابقًا للنهار لأن أمامه نهارًا.

فقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قد يفهم منه أن الليل سابق النهار فصحح ربنا هذا الفهم قائلاً: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أي ليس معنى هذا أن الليل سابق النهار.

فتبارك الله العزيز العليم قائل هذا الكلام.

وبهذا يسقط السؤال عن سر التعبير بالفعل في قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فقال: (تدرك)، وبالاسم في قوله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فقال: (سابق) ولم يجعلهما على نسق واحد، ذلك أن قوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قد يفهم منه أن الليل سابق فقال: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فردّ هذا التصور، وهو أعدل التعبيرات وأبلغها.

وفي تقديم الشمس على الفعل وتقديم حرف النفي عليها بحث، فإن

الأصل في نحو هذا أن يقال: (لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر) ولكنه عدل عن ذلك إلى ما قاله لأكثر من سبب:

١ ـ منها أن (لا) إذا دخلت على اسم معرفة فإنه يراد بها نفي أكثر من أمر فتكرر وجوبًا، بخلاف ما إذا دخلت على فعل مضارع فإنها ليست كذلك. وههنا أراد أن ينفي أمرين فقدم الاسم المعرفة ليؤذن بأنه يريد نفي أكثر من مسألة فقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ فأراد أن ينفي إدراك الشمس للقمر وسبق الليل النهار. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

فجاء بجملتين متعاطفتين كلتاهما اسمية فعطف جملة اسمية على اسمية وهما قوله: (الشمس ينبغي لها)، وقوله: (الليل سابق النهار) وتوافق الجملتين في نحو هذا أولى. وهو نظير قولنا: (لا محمد رجع ولا خالد مسافر) وهو أولى من قولك: (لا رجع محمد ولا خالد مسافر).

٢ ـ قد يفيد تقديم الاسم على الفعل في حيز النفي نفي الفعل عن المذكور وإثباته لغيره نحو: (ما أنا قلت هذا)، و(ما محمد فعل ذلك) أي لم أقل أنا هذا وإنما قاله غيري، ولم يفعله محمد وإنما فعله غيره. فعلى هذا المعنى يفيد التعبير نفي القدرة عن الشمس لإدراك القمر وإثباتها لغيرها، أي يستطيع ذلك غيرها، وهو الله العزيز الحكيم فينفي بذلك عنها القدرة والاختيار.

جاء في (تفسير البيضاوي): «وإيلاء حرف النفي الشمس للدلالة على أنها مسخرة لا يتيسر لها إلا ما أريد لها» [(١)].

---

(١) أنوار التنزيل ٥٨٥.

وجاء في (روح المعاني): «وجوز أن يكون ذلك (يعني تقديم حرف النفي على الشمس) لإفادة كونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها من حيث تقديم المسند إليه على الفعل وجعله بعد حرف النفي نحو: (ما أنا قلت هذا، وما زيد سعى في حاجتك) يفيد التخصيص؛ أي: ما أنا قلت هذا بل غيري، وما زيد سعى في حاجتك بل غيره، على ما حققه علماء البلاغة. والمقصود من نفي تسهل إدراك القمر في سلطانه عن الشمس نفي أن يتسهل لها أن تطمس نوره وتذهب سلطانه، ويرجع ذلك إلى نفي قدرتها على الطمس وإذهاب السلطان، فيكون المعنى بناء على قاعدة التقديم أن الشمس لا تقدر على ذلك بل غيرها يقدر عليه وهو الله عز وجل، وهذا بعد إثبات الجريان لها بتقدير العزيز العليم مشعر بكونها مسخرة لا يتسهل لها إلا ما أريد بها»[1].

٣ ـ ويصح أن يكون هذا التعبير أيضًا لمجرد نفي الفعل عن الاسم من غير إرادة إثباته إلى جهة أخرى مغايرة ولا تخصيصه به، وذلك نظير قولنا لمن قال:

ماذا يفعل محمد وخالد؟ (محمد يقرأ وخالد نائم)، فيقول آخر: (لا محمد يقرأ ولا خالد نائم). فهذا يفيد نفي القراءة عن محمد لكنه لم يثبت لزومًا أن شخصًا آخر يقرأ.

ونظير هذا أن تقول: (لا أبي ساعدني ولا أخي أعانني) فهذا يفيد نفي الفعل عن جهتين ولكن لا يفيد إثبات ذلك لغيرهما لزومًا.

وهذا قد يكون من هذا الباب.

٤ ـ إن هذا التقديم قد يكون لغرض العناية والاهتمام، ذلك أنه جرى

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢١.

ذكر للشمس والقمر قبل هذه الآية ، فقد قال : ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ﴾ وقال : ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ فناسب تقديم الشمس للإسناد إليها ؛ لأن السياق في الكلام على الليل والنهار والشمس والقمر .

٥ ـ إن هذا التعبير ربط الكلام بما قبله ، ولو قال : (لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر . . .) لم يرتبط الكلام ، فإنه لو قال : (والشمس تجري لمستقر لها . . . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . . لا ينبغي للشمس أن تدرك القمر) لوجدت الكلام مقطعًا غير متصل ، بخلاف قوله : ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ . . . ﴾ .

* * *

﴿ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾

التنوين في (كل) يفيد العموم ، أي كل الأجرام تسبح ، فدخل فيها الشمس والقمر . ولو أضاف أو بيّن بمن فقال : (وكل منهما) لتخصص الكلام بهما . فقطعُ (كل) عن الإضافة وسع المعنى ودخل في الحكم ما لم يجر له ذكر من الأجرام . ثم إن إسناد السباحة إلى الجمع أفاد أن المقصود عموم الأجرام السماوية ، وأنها كلها لها أفلاك لا تتعداها تسبح فيها ، وأن ذلك تقدير العزيز العليم . فنفى عنها كلها الإرادة والاختيار ، وبذلك نفى أن يكون منها ما يستحق أن يعبد كما يفعل قسم من الناس ، فنفى بهذا القطع عن الإضافة وإسناد السباحة إلى الجمع القدرة والاختيار عنها جميعها ، وأثبت أنها كلها مسخرة سخرها ربها وخالقها .

جاء في (تفسير البيضاوي) : «(وكل) : وكلهم ، والتنوين عوض عن المضاف إليه ، والضمير للشموس والأقمار ، فإن اختلاف الأحوال يوجب تعددًا ما في الذات أو للكواكب ، فإن ذكرهما مشعر بها» [١] .

---

(١) أنوار التنزيل ٥٨٥ .

وجاء في (التفسير الكبير): «فإن قيل: فهل يختلف الأمر عند الإضافة لفظًا وتركها؟.

فنقول: نعم، وذلك لأن قول القائل كل واحد من الناس كذا لا يذهب الفهم إلى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه، فإذا قال: (كلٌّ كذا) يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الإضافة...

إذا كان (كل) بمعنى كل واحد منهم، والمذكور الشمس والقمر، فكيف قال: (يسبحون)؟.

نقول: الجواب عنه من وجوه:

(أحدها): ما بينا أن قوله: (كل) للعموم، فكأنه أخبر عن كل كوكب سيار...

(وثانيها): لما قال: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ والمراد ما في الليل من الكواكب قال: (يسبحون)» [١].

وإسناد السباحة إلى ضمير العقلاء، وهو الواو، لتنزيل الأجرام منزلة العاقل من جهة أن ذكر أنها تسبح، والسباحة من فعل ذوي العقول، كما في قوله تعالى في حق الأصنام: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [٢]

ومن جهة أنها تسبح في فلك خاص لا تتعداه، كأنها شخص عاقل ملتزم بما حُدّ له فهو لا يتعدى حدوده فلا يشذ ولا يخرج عن مداره ولا يبغي بعضه على بعض، بل إن كلاً منها يعرف مكانه وفلكه وحدوده، فهذا يشعر كأن الأجرام عاقلة ملتزمة وليست كالإبل الهائجة

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) روح المعانى ٢٣/ ٢٥.

المطلقة من عقالها تشرد وتهيم كما يحلو لها .

فإسناد السباحة إلى ضمير العقلاء كأن فيه إشعارًا بالأمان للناس مما فوقهم ، فلا ترجمهم ولا تنقضّ عليهم فتهلكهم .

وفي الآية إشارة إلى أن حركة الكواكب والأجرام دائرية ، أي هي تدور في مسار لها محدد وليست منطلقة في الفضاء على غير هدى .

جاء في (لسان العرب) : «الفلك مدار النجوم والجمع أفلاك . . .

الفراء : الفلك استدارة السماء . . . والفلك قطع من الأرض تستدير وترتفع عما حولها» (١) .

ثم إن اختيار لفظ السباحة أنسب شيء للتعبير عن حركة الأجرام ، وقد اختار علماء العصر الحديث هذا اللفظ للتعبير عن الحركة في الفضاء لأنهم وجدوه أنسب لفظ للتعبير عنها .



﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ ﴾

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، فإنه لما ذكر سباحة الأجرام في الفلك فقال : ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ذكر سباحة الفُلك في الماء وجريها فيه (٢) .

إن كلمة (الفُلك) تكون مفردًا وجمعًا ، فالمفرد (فلك) والجمع (فلك) أيضًا بلفظ واحد .

---

(١) لسان العرب (فلك) .

(٢) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٧٨ .



وقد اختلف في (الفلك) الوارد في الآية فقيل: هي السفن التي تجري في البحار إلى قيام الساعة، والذرية هم الأولاد، فامتنّ عليهم بحمل أولادهم في البحار، ذلك أن الامتنان بالنعمة على الأبناء امتنان بالنعمة على الآباء. ولذلك كثيرًا ما يدعو الناس أن يرزقهم الله ذرية طيبة، فقد قال زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، ويدعون لذرياتهم بالخير، فقد وصف تعالى عباد الرحمن بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

فهو إشارة إلى أن عقبهم باق وأن نسلهم لا ينقطع وأنهم ـ أي ذريتهم ـ سيركبون في الفلك المشحون بالبضائع، الممتلئ بالأموال.

وقيل: المقصود بالفلك هو سفينة نوح عليه السلام، والمقصود بالذرية: الأبناء.

قيل: والمعنى أنه لما حمل آباءهم الأقدمين يكون قد حمل ذريتهم في أصلابهم، ولولا ذلك الحمل لم يبق للآدمي نسل(١). وحمل الآباء يتضمن حمل الذرية.

جاء في (الكشاف): «(ذريتهم) أولادهم ومن يهمهم حمله... وقيل: (الفلك المشحون) سفينة نوح. ومعنى حمل الله ذرياتهم فيها: أنه حمل فيها آباءهم الأقدمين، وفي أصلابهم هم وذرياتهم، وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجيب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح»(٢).

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٦/ ٧٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٨٩، وانظر البحر المحيط ٧/ ٣٣٨.

وجاء في (روح المعاني): «واستشكل حمل ذريتهم في سفينة نوح عليه السلام ، وأجيب بأن ذلك بحمل آبائهم الأقدمين وفي أصلابهم هؤلاء وذريتهم ، وتخصيص الذرية مع أنهم محمولون بالتبع لأنه أبلغ في الامتنان ، حيث تضمن بقاء عقبهم ، وأدخل في التعجب ظاهرًا حيث تضمن حمل ما لا يكاد يحصى كثرة في سفينة واحدة مع الإيجاز ، لأنه كان الظاهر أن يقال: حملناهم ومن معهم ليبقى نسلهم. فذكرُ الذرية يدل على بقاء النسل ، وهو يستلزم سلامة أصولهم ، فدل بلفظ قليل على معنى كثير» (١) .

وليس في كون (الفلك) سفينة نوح استشكال ، فإنه سبحانه قال: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] ، فذكر أنه حملهم في سفينة نوح وهو لم يحملهم وإنما حمل آباءهم فصح أن يقول: ﴿ حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ فإن المخاطبين وذريتهم هم جميعًا ذرية المحمولين في السفينة.

وهذا الخطاب أعني قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴾ ، يصح أن يكون خطابًا للبشر على مدى الزمان ، وأن يكون ذلك آية من آيات نعمه تعالى على خلقه.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه لما قال فيما بعد: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩] ، والمقصود بهذه الصيحة صيحة القيامة ، وهي لا تأخذهم وإنما تأخذ ذريتهم صح أن يقول في سفينة نوح أنه حمل ذريتهم. فجعلهم هم المعنيين بالصيحة ، مع أن المعنيّ هم الذرية ، فجعل الآباء والذرية شيئًا واحدًا.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٧

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه منّ عليهم وعلى ذرياتهم بالحمل في الفلك ، غير أنه ذكر في حالة طغيان الماء حملهم هم فقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ ، ولما لم يذكر طغيان الماء ذكر حمل ذريتهم ، ذلك أنه في حالة طغيان الماء يخشى الغرق فذكر أنه حملهم هم ليدل على إنعامه عليهم بالنجاة ، وفي نجاتهم نجاة لذريتهم ، وليس في نجاة الذرية نجاة للآباء.

ولما لم يذكر طغيان الماء ذكر أنه حمل ذريتهم فكانت النعمة عليهم بالنجاة وعلى ذريتهم بالانتفاع ، أو بتعبير آخر: كانت النعمة عليهم بدرء المفسدة وعلى ذريتهم بجلب المنفعة ؛ ذلك لأنه وصف الفلك بأنه مشحون ، أي مملوء بالبضائع وعروض التجارة. ودرء المفاسد ـ كما يقال ـ مقدم على جلب المنافع ، فذكر مع المخاطبين درء المفسدة ودفع الضرر عنهم ، ومع الأبناء جلب المنفعة لهم ، فكانت النعمة عليهم وعلى ذريتهم.

ولما ذكر طغيان الماء وصف الفلك بأنها جارية ، أي تجري بهم لينجوا إلى مكان آمن. ولما لم يذكر طغيان الماء وصف الفلك بأنه مشحون ، أي ممتلئ ، ولا يحسن ذكر المشحون مع طغيان الماء ، لأن امتلاءه يبطئه في الجري فلا ينجون به بسرعة.

فذكر مع النجاة الجري ومع المنفعة الشحن ، فكان كل تعبير أنسب في مكانه.

جاء في (التفسير الكبير): «قال ههنا: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ منّ عليهم بحمل ذريتهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ منّ هناك عليهم بحمل أنفسهم.

نقول: لأن من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير، ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير، بل يكون قد نفعه. مثاله: من أحسن إلى ولد إنسان وفرحه فرح بفرحه أبوه، وإذا دفع واحد الألم عن ولد إنسان يكون قد فرح أباه، ولا يكون في الحقيقة قد أزال الألم عن أبيه. فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال: دفعت عنكم الضرر، ولو قال: دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل بيان دفع الضرر عنه.

وههنا أراد بيان المنافع فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لأن النفع حاصل بنفع الذرية، ويدلك على هذا أن ههنا قال: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فإن امتلاء الفلك من الأموال يحصل بذكره بيان المنفعة، وأما دفع المضرة فلا؛ لأن الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به أبطأ وهنالك السلامة، فاختار هنالك ما يدل على الخلاص من الضرر وهو الجري، وههنا ما يدل على كمال المنفعة وهو الشحن»(١).

وقد تقول: ولم ذكر حمل الذرية ههنا، أي في آية (يس) هذه، ولم يذكر حملهم هم؟

فنقول: إن ذلك لأمور منها:

١ ـ أنه لما قال قبل هذه الآية: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ناسب ذكر الذرية؛ لأن الذرية إنما تكون من الأزواج.

٢ ـ ولما ذكر صيحة القيامة، وهي لا تأخذهم وإنما تأخذ ذريتهم ناسب ذلك ذكر الذرية أيضًا.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٠.

٣ - ثم إن ذلك من قبيل المنّ عليهم، فهو أخبرهم ضمنًا أنه لا يستأصلهم وإنما يبقيهم ويبقي ذريتهم.

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه قال: «﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ ولم يقل: (وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم) وذلك لأن حملهم في الفلك هو العجب، أما نفس الفلك فليس بعجب لأنه كبيت مبني من خشب. وأما نفس الأرض فعجب ونفس الليل عجب لا قدرة عليهما لأحد إلا الله»(١).

ثم إن الامتنان عليهم إنما هو بالحمل في الفلك وليس في الفلك نفسه، ذلك أن الحمل فيه هو النعمة، فالفلك ليس مقصودًا لذاته، وإنما المقصود هو الحمل فيه، فذكر ما به مناط النعمة والمِنة.

وبعد أن منّ عليهم بحمل ذريتهم في الفلك المشحون ذكر منته عليهم بالحمل فقال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

وقوله: (من مثله) يعني من مثل الفلك.

و(ما يركبون) فيه وجهان:

الأول: أنه الفلك وما يركبونه من السفن والزوارق(٢).

والآخر: أنه عموم ما يركب في البر من الإبل وغيرها.

والظاهر أنه يشمل عموم ما يركب في البر والبحر، فمنّ عليهم بما يركبونه عمومًا مما سخره لهم ربنا سبحانه.

فذكرهم بنعمة السكن وهي الأرض، ونعمة الطعام، ونعمة النهار والليل، وحملهم وحمل بضائعهم في البر والبحر.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨١.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٥٨٩، التفسير الكبير ٢٦/ ٨١.

وقوله: (لهم) يدل على تمام نعمته عليهم، ذلك أنه خلق ذلك من أجلهم. ولو قال: (وخلقنا من مثله ما يركبون) لم يدل على أن الخلق كان من أجلهم.

كما أن إضافة الذرية إليهم فيه تفضل آخر عليهم، بخلاف ما لو قال: إنا حملنا ذرية المخلوقات، أو ذرية الناس مع نوح، فإن ذلك يعم وهذا يخصهم هم.

* * *

﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

الصريخ: المغيث.

هددهم بالإغراق فلا ينقذهم أحد كما فعل مع المغرقين من قوم نوح. وفي هذا تهديد لهم من جهة أخرى، ذلك أن قوم نوح كذبوا رسولهم فأغرقهم، وهؤلاء كذبوا رسولهم فإن شاء ربهم أغرقهم.

وقد تقول: كيف يصح التهديد بالإغراق وهو لم يذكر حملهم في الفلك، وإنما ذكر حمل ذريتهم فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؟

فالتهديد بالإغراق يصح أن يكون لذريتهم لا لهم.

والجواب: أنه لما قال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فذكر ما يركبونه من مثل الفلك صح أن يكون التهديد لهم.

وقد تقول: ولم قال: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾، ولم يقل: (فلا مغيث لهم)؟.

فنقول: إن ذلك لأكثر من وجه:

منها أن الصريخ يجمع عدة معان: منها المغيث ومنها المستغيث.

والصريخ أيضًا صوت المستصرخ[١].

فقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ جمع عدة معان، وقد يحتمل ههنا هذه المعاني كلها.

وقد تقول: كيف يحتمل في الآية نفي المغيث والمستغيث ولا شك أنهم مستغيثون؟.

فنقول: ليس المعنى على ما ظننت، فإنه لم يقل: (فلا صريخ منهم) وإنما قال: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي لا مستغيث لهم، بمعنى لم يستغث لهم أحد، وعلى هذا يكون المعنى أنه إن شاء أغرقهم فلا يستغيث لهم أحد ولا مغيث لهم، فلا يكون ثمة من يطلب العون لهم ولا من يعين، فنفى المغيث والمستغيث لهم. وهكذا يأخذهم البحر فلا تنجو جثثهم أيضًا بل تذهب في البحر.

والصريخ أيضًا صوت المستصرخ، وعلى هذا يكون المعنى أنهم لا يمكنهم الصراخ وطلب العون لأن الماء يلجم أفواههم فلا يتمكنون من طلب الاستغاثة.

وبهذا نفى المغيث والمستغيث لهم، ونفى إمكان رفع الصوت لطلب الاستغاثة فيغرقون في صمت رهيب ووحدة مرعبة.

واختار لفظ الصريخ على المغيث أيضًا لأن الصريخ من الصراخ، والصرخة: هي الصيحة الشديدة عند الفزع أو المصيبة[٢].

والصريخ والمُصرخ بمعنى واحد، فإن المُصرخ هو الذي يزيل الصراخ بإغاثة صاحبه. والذي يشرف على الغرق يصرخ بأعلى صوته

---

(١) لسان العرب (صرخ) ٤/٢.

(٢) لسان العرب (صرخ) ٤/٢.

طالبًا النجدة ليسمعه من يغيثه وينجيه ، فلا يكون صريخ إلا إذا كان صراخ. أما المغيث فيكون لمن يطلب الغوث سواء كان عن طريق الصرخة أم كان عن طريق ذكر الحاجة الشديدة ، فقد يذهب شخص إلى آخر فيقول له: أغثني يا فلان فإني في ورطة ، وليس من الضروري أن يرفع صوته عاليًا بالصراخ. أما الصريخ فيكون مع الصراخ.

فكان ذكر الصريخ أنسب.

وقال: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ ولم يقل: (فلا مصرخ لهم) للسبب نفسه ، فإن الصريخ يجمع عدة معان ، بخلاف المصرخ فإنه المعين والمغيث فقط.

ثم قال: ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي لا ينقذهم شيء سواء كان عن طريق الصريخ أم عن غيره. فقد لا يكون مغيث ينقذ من يشرف على الغرق ولكن قد ينقذ بطريق آخر مما يتهيأ من سبل النجاة ولو أن ينجو على خشبة ، فهذا إنقاذ عن طريق الصريخ ، فنفى ذلك أيضًا ، فانتفت نجاتهم بكل سبيل.

ولم يكتف بقوله: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ لئلا يظن أنهم قد ينقذون من غير صريخ.

جاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن قوله: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أي لا مغيث لهؤلاء الذين شاء الله إغراقهم ، ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ أي ينجون من الموت بالغرق ، نفى أولاً الصريخ وهو خاص ، ثم نفى ثانيًا إنقاذهم بصريخ أو غيره» (١).

وقال: ﴿ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾ ولم يقل: (فلا صريخ لهم ولا منقذ) ذلك أنه نفىٰ إنقاذهم عن أي طريق سواء كان عن طريق المنقذين أم

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٣٩

عن غير هذا الطريق ، فقد يتعلق الشخص بحبل أو يتمسك بخشبة أو يلقيه الموج بالساحل أو أي وسيلة أخرى مما يهيئه الله سبحانه ، فهذه نجاة عن غير طريق المنقذين ، فنفى ذلك أيضًا عنهم.

فقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي بأية وسيلة أو سبيل ، وهو أعم من قولنا: (ولا منقذ).

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ إذا أدركهم الغرق ؛ وذلك لأن الخلاص من العذاب إما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال: لا صريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾. فقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ فيه فائدة أخرى غير الحصر وهي أنه تعالى قال: (لا صريخ لهم) ولم يقل: ولا منقذ لهم ؛ وذلك لأن من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع في النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه. وإنما ينصر ويغيث من يكون من شأنه أن يغيث ، فقال: لا صريخ لهم. وأما من لا يكون من شأنه أن ينقذ إذا رأى من يعز عليه في ضرّ يشرع في الإنقاذ ، وإن لم يثق بنفسه في الإنقاذ ولا يغلب على ظنه وإنما يبذل المجهود فقال: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ولم يقل: ولا منقذ لهم» (١).

* * *

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

أي إلا إذا أراد ربهم أن يرحمهم فينقذهم ويمتعهم في الحياة إلى أجل ، فنفى الإنقاذ إلا من طريق رحمة الله لهم.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٢.

والتعبير يحتمل معنيين :

الأول : أن ينقذهم رحمة بهم ويمتعهم إلى حين .

والمعنى الآخر : أن إنقاذهم على نوعين : إنقاذ رحمة وإنقاذ تمتيع .

وذلك أن قسمًا من هؤلاء الناجين يؤمنون بعد الكفر ويهتدون بعد الضلال ، فكان إنقاذهم رحمة منه تعالى .

والقسم الآخر يبقون على ضلالهم فيكون إنقاذهم متاعًا إلى حين .

والقسمان نالتهم رحمة الله والمتاع على حين .

فالذين آمنوا نالتهم رحمة الله بإنقاذهم من الغرق وبإيمانهم .

والذين لم يؤمنوا نالتهم رحمة الله بالنجاة من الغرق .

وعلى هذا فكلهم مرحومون ممتعون ، ولكن منهم من نالته رحمة أوسع بنجاته وإيمانه .

وقال : ﴿رَحۡمَةً مِّنَّا﴾ ليدل على أن الرحمة بهم كانت منه سبحانه ، وإلا فليس ثمة من يرحمهم ويغيثهم . وحتى لو أغاثهم أحد فذلك برحمته سبحانه لهم وتهيئته من ينجيهم ، فهم لا ينقذون إلا برحمته سبحانه .

جاء في (التفسير الكبير) في قوله : ﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ : «وهو يفيد أمرين :

أحدهما : انقسام الإنقاذ إلى قسمين : الرحمة والمتاع ، أي فمن علم الله منه أنه يؤمن فينقذه الله رحمة ، وفيمن علم أنه لا يؤمن فليتمتع زمانًا ويزداد إثمًا .

وثانيهما : أنه بيان لكون الإنقاذ غير مفيد للدوام ، بل الزوال في الدنيا

لا بدَّ منه فينقذه الله رحمة ويمتعه إلى حين ، ثم يميته ، فالزوال لازم أن يقع» [١] .

وقد تقول: لقد قدم الرحمة ههنا على الجار والمجرور فقال: ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ ، فهل يصح أن يقدم الجار والمجرور على الرحمة فيقول: (ولا هم ينقذون منا إلا رحمة ومتاعًا إلى حين) أو (ولا هم ينقذون إلا منا رحمة ومتاعًا إلى حين) كما قدم ذلك في مواطن من القرآن الكريم ، وذلك نحو قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

وقوله: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

وما الغرض من هذا التقديم والتأخير؟

فنقول: ههنا سؤالان:

السؤال الأول: هل يصح تقديم الجار والمجرور على الرحمة في آية (يس)؟ .

والآخر: ما الغرض من هذا التقديم والتأخير فيما ورد من نحو ذلك في القرآن؟ .

أما الجواب عن السؤال الأول فنقول: إنه لا يصح تقديم الجار والمجرور على الرحمة في آية (يس) ، لأن المعنى سيختل ، ذلك أنه لو قال: (ولا هم ينقذون منا إلا رحمة ومتاعًا على حين) أو (ولا هم ينقذون إلا منا) كان المعنى أنه سينقذهم من الله تعالى منقذ وينجيهم منه مغيث رحمة ومتاعًا إلى حين ، وبذلك يكون الله عاجزًا عن إغراقهم ، تعالى عن

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٢.

ذلك ؛ لأنه سيكون من ينقذهم من الله ، ولذا لا يصح التقديم في الآية .

أما تقديم الجار والمجرور فيما ذكرناه من آيتي هود والشورى فذلك ما يقتضيه المقام .

فإنه سبحانه وتعالى قال في هود : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود : ٩ ـ ١٠] .

وقال في الشورى : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] .

في حين قدم الرحمة على الجار والمجرور في سورة فصلت فقال : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : ٤٩ ـ ٥١] .

ومن النظر في المواطن الثلاثة يتضح أن الكلام في (فصلت) على الرحمة أكثر وأثرها على الإنسان أوسع مما في هود والشورى ، فإنه في هود لم يذكر إلا إذاقته إياها ونزعها منه ، فذكر حالة نزع الرحمة فقط ولم يذكر أثر الرحمة عليه .

وأما في الشورى فإنه لم يزد على أن قال : (فرح بها) .

وأما في (فصلت) فقد فصل وأطال في وصف أثرها فيه واحتفائه بها فناسب تقديمها في (فصلت) .

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة هود : ﴿ وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾



[هود: ٢٨] بتقديم الرحمة على الجار والمجرور.

وقوله في السورة نفسها: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنۡهُ رَحۡمَةً﴾ [هود: ٦٣] بتقديم الجار والمجرور على الرحمة.

ومن النظر في سياق الآيتين يتضح سبب التقديم والتأخير فيهما.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأۡىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٨].

وقال: ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوًّا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنۡهُ رَحۡمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيۡرَ تَخۡسِيرٍ﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٣].

فأنت ترى من النصين السابقين أن الكلام على الرحمة في قصة نوح أطول ووصفها أكثر، فقد قال: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾

وليس الأمر كذلك في قصة صالح، فقد قال: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنۡهُ رَحۡمَةً﴾ ولم يزد على ذلك. ثم قال بعدها: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾.

فلما كان الكلام على الرحمة أكثر في قصة نوح قدم الرحمة، ولما لم يكن الكلام كذلك في قصة صالح أخرها.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أن الكلام في قصة صالح على الله أكثر: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾.

وقال في قصة نوح: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾.

فقال في قصة صالح:

١ ـ اعبدوا الله.

٢ ـ ما لكم من إله غيره.

٣ ـ هو أنشأكم من الأرض.

٤ ـ واستعمركم فيها.

٥ ـ فاستغفروه.

٦ ـ ثم توبوا إليه.

٧ ـ إن ربي قريب مجيب.

ولم يزد في قصة نوح على أن قال: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾.

فناسب تقديم الضمير العائد على الله في قصة صالح فقال: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ دون قصة نوح.

فناسب التقديم والتأخير من جهتين:

١ ـ من جهة التوسع في ذكر الرحمة في قصة نوح فناسب ذلك تقديمها.

٢ ـ ومن جهة التفصيل في الكلام على الله في قصة صالح دون قصة

نوح ، فناسب تقديم ضميره وتأخير الرحمة .

وقد تقول : لقد قال في آية (يس) : ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ ، وفي مواطن من القرآن الكريم قال : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فهل من فرق بين التعبيرين؟

فنقول : الظاهر من التعبير القرآني أن قوله : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف : ٦٥] أخص من قوله : ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ ، ذلك أن قوله : ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فيه الرحمة عامة تشمل جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ، فقد قال تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ، وقال : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت : ٥٠] .

أما قوله : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فهي رحمة خاصة بالمؤمن ، ولم ترد في القرآن الكريم في غير المؤمنين .

قال تعالى على لسان سيدنا نوح : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود : ٢٨] .

وقال في الخضر وهو الرجل الصالح الذي اتبعه موسى ليتعلم منه : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥] .

وقال في سيدنا أيوب عليه السلام : ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٤] .

ونظير هذا قوله : ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ و﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ، فإن قوله : ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾ فيه النعمة عامة تشمل المؤمن والكافر . قال تعالى : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٤٩] .

وقال : ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

فهذه النعمة عامة شملت عموم الناس وقد أصابت الكافر كما هو واضح في الآية الثانية.

أما قوله: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فهي خاصة بالمؤمن، قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤ ـ ٣٥].

وهذا نظير قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ و﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

وقد تقول: ولكنه قد يرد في الموقف الواحد مرة (رحمة منا) ومرة (رحمة من عندنا) وذلك نحو قوله تعالى في سيدنا أيوب في سورة الأنبياء: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقوله فيه في سورة (ص): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

فما الفرق؟

فنقول: إن السياق الذي وردت فيه كل من الآيتين هو الذي يوضح سبب الاختلاف بين التعبيرين.

قال تعالى في سورة (ص): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤].

وقال في سورة الأنبياء: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ

﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

ومن النظر في النصين يتضح الفرق:

١ ـ فقد قال في سورة (ص) ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فذكر مسّ الشيطان له. وقد اختلف المفسرون في تفسير هذا المس، وفسره بعضهم بأنه وسوسة من الشيطان أطاعه فيها.

جاء في (الكشاف): «لما كانت وسوسته إليه وطاعته له فيما وسوس سببًا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه»(١).

أما في سورة الأنبياء فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، فذكر في (ص)، ما هو خلاف الأولى فناسب ذكر ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ في (ص) و﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ في الأنبياء.

٢ ـ ذكر في سورة الأنبياء الله بصفة الرحمة فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، ولم يذكر مثل ذلك في (ص).

٣ ـ ذكر في الأنبياء أن الله استجاب له وكشف ما به من ضر تصريحًا، ولم يذكر مثل ذلك في (ص) بل فهم ذلك ضمنًا، فكان ما في الأنبياء أتم وأكمل مما ذكر في (ص).

فناسب كل تعبير موطنه.

ثم إن السياق في كل من السورتين يوضح ذلك أيضًا:

فقد ذكرت قصة أيوب عليه السلام بعد قصة داود وسليمان عليهما السلام في السورتين، وكان السياق في سورة (ص) فيما وقع لهما خلافًا للأولى، فقد ذكر فيها سيدنا داود وتسور المحراب عليه وفزعه من المتسورين، وذكر الحكم في مسألة النعاج التي ترمز إلى أمر ما الله أعلم

---

(١) الكشاف ٣/ ١٦.

به. وعلى أية حال فقد ظن داود أن الله قد فتنه فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب وغفر الله له ذلك.

وذكر سليمان وأنه أحب حب الخير عن ذكر ربه ، وذكر أن الله قد فتنه وألقى على كرسيه جسدًا ثم أناب.

وذكر أيوب وأن الشيطان قد مسه بنصب وعذاب.

فالمقام والسياق في الابتلاءات والفتن التي تعرض لها الأنبياء المذكورون.

وليس في سورة الأنبياء مثل ذلك ، وإنما ذكر التفضل والإنعام عليهم ورحمته بهم ، فقد ذكر داود وسليمان وحكمهما في الحرث فقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ، ولم يذكر أنه فتنهما ، وإنما ذكر تفضله وإنعامه عليهما.

وذكر أيوب ولم يذكر أنه مسه الشيطان ، وإنما قال: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فناسب المقام والسياق ذكر الخصوصية بقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ في سورة الأنبياء دون سورة (ص) ، والله أعلم.

ثم لننظر إلى الآيتين من ناحية أخرى.

فقد قال في (الأنبياء): ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وقال في (ص): ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

وإليك الفرق بينهما:

في الأنبياء	في (ص)
فاستجبنا له	--
فكشفنا ما به من ضر	--
آتيناه أهله	وهبنا له أهله
رحمة من عندنا	رحمة منا
وذكرى للعابدين	وذكرى لأولي الألباب

ونود أن نذكر ما يأتي تعقيبًا على النصين:

١ ـ إن قوله: (آتيناه) يشمل (وهبنا له) وزيادة، فإن الإيتاء يشمل الهبة وغيرها، فقد يستعمل الإيتاء في المال وغيره نحو قوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، وقوله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ مما لا تصح الهبة في نحوه.

٢ ـ إن قوله ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يشمل ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وزيادة، إذ الرحمة في قوله: (منا) عامة يشترك فيها عموم الخلق مؤمنهم وكافرهم. أما قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فهي رحمة خاصة تزيد على الرحمة العامة، فهي إذن تشمل قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ مع زيادة في الرحمة.

٣ ـ وقوله (للعابدين) يشمل (أولي الألباب) وزيادة في الوصف، فإن العابدين كلهم من أولي الألباب وليس أولو الألباب كلهم من العابدين، ذلك أنه لا تصح عبادة من غير عقل، وعلى هذا فإن العابدين يزيدون في الوصف على أولي الألباب، فإن العابدين هم:

أولو الألباب + عبادة.

فكان قوله: (للعابدين) يشمل أولي الألباب وزيادة.

٤ ـ وزاد على ذلك قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وبهذا يتضح أن آية الأنبياء تشمل آية (ص) وزيادة، فناسب كل تعبير مكانه.

هذا علاوة على أنه في سورة (ص) تكرر ذكر مشتقات الهبة، وفي (الأنبياء) تكرر ذكر الإيتاء.

فقد قال في (ص): ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [الآية: ٩]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [الآية: ٣٠]، وقال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [الآية: ٣٥]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ [الآية: ٤٣].

وقال في (الأنبياء): ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية: ٤٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الآية: ٥١]، وقال: ﴿وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الآية: ٧٣]، وقال: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الآية: ٧٤]، وقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الآية: ٧٩]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الآية: ٨٤].

فناسب لفظ (وهبنا) ما في (ص)، و(آتينا) ما في الأنبياء، من حيث السمة التعبيرية لكل من السورتين.

ثم من ناحية أخرى أن لفظ العبادة والعابدين ورد في سورة الأنبياء أكثر مما ورد في (ص)، بل لم يرد لفظ (العابدين) في (ص).

فقد ورد ذلك في الأنبياء عشر مرات، في حين ورد في (ص) خمس مرات.

قال تعالى في الأنبياء: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ١٩]، وقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]، وقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦]، وقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، وقال: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وقال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وقال: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

وقال في (ص): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، وقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [ص: ٤٥].

فناسب قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ ما في الأنبياء، وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ما في (ص).

ومما زاده حسناً أنه قال في (ص): ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فناسب ذلك قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣].

وأنه قال في (الأنبياء): ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقال: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

فناسب ذلك قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾.

هذا علاوة على أن سورة الأنبياء تكررت فيها مواقف العبادة وسياقاتها مما لم يُرَ مثله في (ص)، وشرح ذلك يطول مما لا يناسب هذا المقام.

فناسب كل تعبير مكانه من كل وجه، والله أعلم.

* * *

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

* * *

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: إذا قيل لهم احذروا ما تقدم من موجبات العذاب وما يأتي فيما بعد أعرضوا.

وقيل في معنى قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ وجوه منها:

أن قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ يعني ما مضى من الذنوب، ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ ما بقي منها[1].

أو ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر.

وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ الوقائع التي خلت من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذبة بأنبيائها.

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٦١.

﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: من أمر الساعة[١]، وعذاب الآخرة[٢].

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ أي ما بين أيديكم من الآفات والنوازل فإنها محيطة بكم وما خلفكم منها.

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ ما ظهر لكم، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: ما خفي عنكم[٣].

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾. ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ من الموت الطالب لكم، إن نجوتم من هذه الأشياء فلا نجاة لكم معه، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾[٤].

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾: الآخرة فإنهم مستقبلون لها، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾: الدنيا فإنهم تاركون لها[٥].

هذه أشهر الأقوال التي قيلت فيها. ويمكن تلخيصها بما يأتي:

﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾:

١ ـ ما مضى من الذنوب وما تقدم منها.

٢ ـ الوقائع التي أوقعها الله بالأمم السالفة المكذبة.

٣ ـ الآفات والنوازل المحيطة بكم وأنواع العذاب مثل الغرق والحرق.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٨٩، روح المعاني ٢٣/ ٢٨ ـ ٢٩.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٦١.
(٤) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٣.
(٥) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٣، البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

٤ ـ ما ظهر لكم .

٥ ـ الآخرة

﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ :

١ ـ ما تأخر من الذنوب أو ما بقي منها .

٢ ـ أمر الساعة وعذاب الآخرة .

٣ ـ النوازل والآفات التي تنزل فيما بعد .

٤ ـ الموت الطالب لكم .

٥ ـ ما خفي عنكم .

٦ ـ الدنيا .

وأكثر الأقوال على أن ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني ما تقدم من هذه الأمور ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يعني ما يأتي منها فيما بعد ، غير أنه نسب إلى مجاهد القول بعكس ذلك ، وهو أن ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني الآخرة وعذابها ، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يعني الدنيا وما فيها .

وعلى أية حال فإن قوله : ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يشمل ما ينبغي أن يُتّقى من أمور الدنيا والآخرة على قول مجاهد أو غيره ، غير أن الاستعمال القرآني يؤيد ما ذهب إليه القائلون أن ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني ما تقدم من الأمور المذكورة ، أو ما هو واقع فعلاً في حين الإخبار ، ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴾ يعني ما لم يأت بعد وهو المستقبل .

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤٨] ، أي مصدقًا لما تقدمه من الكتاب .

وقال : ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ [المائدة : ٤٦] .

وقال: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤].

أي ما تقدمه من الكتب.

فجعل (ما بين يديه) لما تقدم.

وقال: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٦].

قيل: «أي لمعاصريهم ومن خلفهم. . . [وقيل] أيضًا: لما بحضرتها من القرى ـ أي أهلها ـ وما تباعد عنها»[(١)].

وقال: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

فاستعمل ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ للذين يأتون بعدهم.

وقال: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وقال: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٧].

فاستعمل ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ لمن يكون بعدهم، أي لمن يأتي في المستقبل.

ونحو هذا استعمال (من وراء) فقد يستعمل لما يكون بعد، أي في المستقبل.

---

(١) روح المعاني ١/ ٢٨٤.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ [مريم: ٥]، أي: بعد وفاتي.

وقال تعالى في زوج إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

أي من بعد إسحاق يعقوب.

ومن هذا يترجح أنه يعني بقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي ما تقدم مما ينبغي أن يتقى، أو ما هم يفعلونه في الحال، ويعني بقوله: (ما خلفكم) ما ينبغي أن يتقى في المستقبل، وأعظم ما ينبغي أن يتقى في المستقبل هو الساعة وعذاب الآخرة. ويبدو أن هذا هو أظهر ما فهموه من النص ولذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي متى يقع ما تعدوننا به من أمر الساعة والآخرة؟.

ويتضح مما ذكرت أنه لا يعني بقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أمرًا معينًا، وإنما هو عام في كل ما ينبغي أن يتقى، ما ذكر وما لم يذكر.

جاء في (روح المعاني): «وحاصل الأمر على ما قيل: اتقوا العذاب أو اتقوا ما يترتب العذاب عليه» [١].

وإن كان أظهر ما يدل عليه قوله: (وما خلفكم) الساعة وعذاب الآخرة كما ذكرت.

لقد قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ فجاء بـ (إذا) ولم يأت بـ (إن) وذلك ليدل على أن هذا القول ليس أمرًا افتراضيًّا بل هو أمر حاصل، فإنه قيل لهم هذا الأمر كثيرًا، فإن (إذا) تستعمل في اللغة لما هو مقطوع بحصوله ولما يكثر حصوله، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟

---

(١) روح المعاني: ٢٣/ ٢٩.



ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] فإن الأشهر الحرم لا بد أن تنسلخ.

وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، فإن الصلاة لا بد أن تنقضي.

فهذا من المقطوع بحصوله.

ومن الكثير حصوله قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٨٦].

ولا تستعمل (إذا) لما هو أمر افتراضي محض لا يتحقق في الواقع.

أما (إن) فقد تستعمل لعموم الافتراضات لما يقع ولما لا يقع، ولما لا يمكن أن يقع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧٢]، وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١].

فجاء بـ (إذا) في الآية ليدل على أن هذا القول قيل لهم كثيرًا.

ومعنى هذا أنه لم ينفع معهم النصح والتبليغ على كثرتهما وتطاولهما، إذ المفروض أن كثرة النصح والتبليغ تؤثر في النفوس، وهؤلاء لا يؤثر فيهم النصح وإن كثر.

ولا تفيد (إن) هذا المعنى.

ومن الملاحظ أنه لم يذكر جواب الشرط في الآية؛ ذلك لأنه معلوم مما بعده وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فكأنه قال: وإذا قيل لهم اتقوا أعرضوا[1]، فحذفه لدلالة ما بعده عليه.

وقد يكون الحذف إشارة إلى أمر آخر علاوة على ما ذكر، وهو أنهم

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٨٩، التفسير الكبير ٢٦/ ٨٢، البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

إذا قيل لهم ذلك لم يجيبوا لأن الكلام لا يعجبهم ولا يروق لهم فيسكتون عن الجواب ، كما يفعل أحدنا إذا سمع كلامًا لا يعجبه ولا يروق له فيسكت عنه ولا يجيب.

ومن الملاحظ أيضًا أن الآية بنيت على الإيجاز ، يدل على ذلك أنه بنى القول للمجهول فلم يذكر القائل ، وبنى فعل الرحمة للمجهول لأن الراحم معلوم ، وحذف جواب الشرط لأنه مدلول عليه بما بعده كما ذكرنا.

واختار فعل الرحمة فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لأنه لا ينجيهم من ذلك إلا رحمة الله ، كما قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣] ، ولمناسبة ما قبله وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ فذكر أنهم لا ينجيهم من المكروه والمحذور إلا رحمة الله.

وقوله: (اتقوا) يعني: احذروا واحفظوا أنفسكم منه ، ذلك أن الذي يُتّقَى هو مخوف ومحذور ، فلا تقول لأحد ما: (اتق هذا) إلا إذا كان الشيء مخوفًا ومحذورًا ، عليه أن يحذره ويحفظ نفسه منه ، ولا يقيه من هذا المحذور إلا الاتقاء ورحمة الله.

ومعنى الاتقاء هو اتخاذ الأسباب لدفع المحذور.

لقد ذكر أمرين للنجاة من المحذور:

أحدهما: يتعلق بالإنسان ، وهو ما يتخذه من الأسباب لدفع ذلك المحذور وحفظ نفسه منه وهو الاتقاء.

والآخر: متعلق بمشيئة الله تعالى ورحمته.

والتقوى مدعاة لرحمة الله تعالى.

فاتخاذ الأسباب مرجو أن يدفع الله بها المحذور ولا تدفع المحذور وحدها ، إذ من المحتمل أن يقع المحذور مع اتخاذ الأسباب. فالسبيل لدفع المحذور هو اتخاذ الأسباب ورجاء رحمة الله. ولذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فجاء بـ (لعل) الدالة على الرجاء ، ولم يقل: (لترحموا) لأن الاتقاء مرجو معه رحمة الله ولا يدفع المحذور وحده.

ولو قال: (اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لترحموا) لجعل الدفع حاصلاً بالأسباب وحدها ، فلذا جيء بـ (لعل) التي تفيد الترجي لكيلا يتكل الإنسان على الأسباب وينسى ربه فتكون معبودة له.

وقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ولم يقل: (عسى أن ترحموا) ، ذلك أن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يفيد الحال والاستقبال ، فإن الفعل المضارع المجرد من حرف الاستقبال يحتمل الحال والاستقبال.

أما القول: (عسى أن ترحموا) فإنه يفيد الاستقبال ولا يفيد الحال ؛ لأن (أنْ) تصرف الفعل إلى المستقبل ، فتكون الرحمة في المستقبل ولا تكون في الحال. في حين أن الرحمة تراد في الحال والاستقبال وفي كل الأزمان ، فكان ما قاله أولى.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ذكر فيه ضمير الخطاب مرتين وهما: الضمير (كُم) في (لعلكم) ، والواو في (ترحمون). في حين أن قولنا: (عسى أن ترحموا) ذكر فيه ضمير الخطاب مرة واحدة فكان الإسناد في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أقوى وآكد لأن الإسناد تكرر ، فقد أسند إليهم وقوع الرحمة بهم مرتين.

ومن ناحية ثالثة أن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جملة اسمية ، وقولنا (عسى أن ترحموا) جملة فعلية، والجملة الاسمية أقوى من الفعلية كما هو معلوم ، فكان الرجاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أقوى.

ثم إنه المناسب لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ فقد أمرهم باتقاء ما تقدم وما هو حاضر وما هو آت، فكان الأمر عامًّا شاملاً للأزمنة كلها، فكان المناسب أن تكون الرحمة عامة تشمل الأزمنة كلها، حاضرها ومستقبلها، فجاء بالفعل المضارع مجردًا من (أنْ) ليشمل ذلك كله. ولو قال: (عسى أن ترحموا) لكان خاصًّا بالمستقبل، فناسب العام العام، فارتبطت الآية بما قبلها وما بعدها وهو قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وقد تقول: ولكن ورد ترجي الرحمة بعسىٰ وذلك في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨]، فما الفرق؟

فنقول: إن كل تعبير أنسب في مكانه، ذلك أن قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ خاص بأمر مستقبل، ذلك أن الخطاب فيه موجه إلى بني إسرائيل وقد قال ذلك بعد ما ذكر أنهم يفسدون في الأرض مرتين وأنهم يعلون علوًّا كبيرًا. ثم ذكر أنهم سيلحقهم الدمار بعد المرة الثانية. وقال بعد ذلك: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فهذا الرجاء بعد المرة الثانية[1] وهو مستقبل، فناسب ذلك (عسى).

فاختلف الأمران.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الاتقاء في آية (يس) أعم وأشمل، وذلك أنهم أمروا باتقاء ما بين أيديهم وما خلفهم، وذلك اتقاء شامل لما تقدم وما تأخر، وليس الأمر كذلك فيما ذكر عن بني إسرائيل فإنه خاص بما بعد المرة الثانية، فكان الترجي في آية (يس) أعم

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٢٢٥، روح المعاني ١٥/ ٢١.

وأشمل ، فناسب كل تعبير مكانه ، والله أعلم.

إن هذه الآية مرتبطة بكثير من آيات وأحداث في السورة.

فهي مرتبطة بقصة أصحاب القرية الذين لم يتقوا ما بين أيديهم وما خلفهم ، فأهلكهم الله بما قدمت أيديهم. وقصة الرجل الذي اتقى ما بين يديه وما خلفه فأدخله الله الجنة.

ومرتبطة بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ فقد ذكر ما قدمت أيديهم وهو قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ، وذكر (ما خلفهم) وهو قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾.

ومرتبطة بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾

فكيف يتقي ما بين يديه من كان من بين يديه سد؟ وكيف يتقي ما خلفه من كان من خلفه سد؟ كيف يتقون ما بين أيديهم وما خلفهم وقد جُعل سد من بين أيديهم وسد من خلفهم ، وهم علاوة على ذلك لا يبصرون؟

وهي مرتبطة بقوله: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فهذا ما خلفهم.

ومرتبطة بقوله: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وما بعدها.

ومرتبطة بقوله: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . . .﴾ وهذا كله ما لم يتقوه مما خلفهم.

ومرتبطة بقوله في آخر السورة: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

* * *

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)﴾

والمعنى: أنه ما تأتيهم آية من آيات ربهم سواء كانت آية ينزل بها الوحى أم آية من آيات الله فى الكون إلا كان شأنهم الإعراض عنها وعدم

النظر فيها وتدبرها. فالإعراض عام يشمل الآيات التي ينزل بها الوحي والآيات الكونية في الأرض والسماء.

وهي في دلالتها على الآيات التي ينزل بها الوحي أظهر، فإن إعراضهم عنها أشد، وقوله: (تأتيهم) يقوي هذا المعنى، فإن هذا الفعل يستعمل بكثرة مع آيات الله المنزلة ومع الآيات التي تدل على صدق ما جاء به رسل الله والبراهين التي تؤيدهم، وهي المعجزات التي يؤتيها الله رسله لتكون آية على صدقهم.

وعلى كل فالتعبير يعم الآيات كلها ويدل على إعراضهم عنها جميعًا.

إن هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فهم يشبهون من قبلهم في الإعراض عما جاءت به الرسل. ومرتبطة بما ذكر من الآيات الكونية وهو قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ... وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ... وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ...﴾.

فهم معرضون عن الآيات كلها.

جاء في (روح المعاني): «والمراد بها إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه تعالى الموجبة للإقبال عليها والإيمان.

وإيتاؤها نزول الوحي بها، أي ما نزل الوحي بآية من الآيات الناطقة بذلك إلا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب والاستهزاء.

وإما ما يعمها والآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وتعاجيب المصنوعات التي من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفًا.

وإيتاؤها: ظهورها لهم، أي ما ظهرت لهم آية من الآيات التي من جملتها ما ذكر من شؤونه تعالى الشاهدة بوحدانيته سبحانه وتفرده تعالى

بالألوهية ، إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي إلى الإيمان به عز وجل» [١] .

وجاء في (التفسير الكبير): «وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴾ يعني إذا جاءتهم الرسل كذبوهم ، فإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وما التفتوا إليها» [٢] .

وجاء في (فتح القدير): «والمعنى: ما تأتيهم من آية دالة على نبوة محمد ﷺ وعلى صحة ما دعا إليه من التوحيد في حال من الأحوال إلا كانوا عنها معرضين.

وظاهره يشمل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية. . .

والمراد بالإعراض عدم الالتفات إليها وترك النظر الصحيح فيها. وهذه الآية متعلقة بقوله: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ أي إذا جاءتهم الرسل كذبوا ، وإذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها» [٣] .

ومن الملاحظ في بناء هذه الآية:

١ ـ أنه نفى بـ (ما) ولم ينف بـ (لا) ، ذلك لأنه يريد أن يبين حالتهم التي هم عليها ، وذلك يكون بـ (ما) ، لأنَّ (ما) تفيد الحال إذا دخلت على المضارع. أما (لا) فعند الجمهور أنها تخلص الفعل للاستقبال. والحق كما حققناه في كتابنا (معاني النحو) أنها تفيد الإطلاق ، وكثيرًا ما يؤتى بها للاستقبال.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٩.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٣.

(٣) فتح القدير ٤/ ٣٦١ ـ ٣٦٢.

وهو لا يريد أن يبين حالتهم في المستقبل بل يريد ما هم عليه ، فنفى لذلك بـ (ما) .

٢ ـ جاء بالفعل المضارع فقال: (ما تأتيهم) لأنه يريد أن يبين أن هذا شأنهم وديدنهم وليدل على الاستمرار. ولم يقل: (ما أتتهم) بصيغة الماضي ؛ لأنه لا يريد أن يبين حالة ماضية ، فإن الماضي يفيد الانقطاع لا الاستمرار.

جاء في (روح المعاني): «و(ما) نافية ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي» (١) .

٣ ـ قال: (من آية) فجاء بـ(من) الدالة على الاستغراق ، وذلك ليشمل الإعراض عن جميع الآيات. ولو قال: (ما تأتيهم آية) لاحتمل نفي العموم ولاحتمل نفي الوحدة ، أي ما تأتيهم آية واحدة إلا كانوا عنها معرضين.

٤ ـ أضاف الآيات إلى الرب المضاف إليهم ليبين أن إعراضهم هذا أسوأ إعراض ، فإن الآيات آيات ربهم المتفضل عليهم بالنعم فكيف يعرضون عنها؟ .

إذ المفروض أن يشكروا ربهم ويطيعوه لا أن يعرضوا عن آياته ، فزادت هذه الإضافة إعراضهم سوءًا.

جاء في (روح المعاني): «وإضافة الآيات إلى اسم الرب المضاف إلى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترأوا عليه في حقها» (٢) .

٥ ـ قال: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ ولم يقل: (إلا أعرضوا عنها) فجاء

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٩ .
(٢) روح المعانى ٢٣/ ٢٩ .

باسم الفاعل (معرضين) ليدل على أن هذا وصفهم الثابت ، وأن هذا شأنهم ودأبهم. ولم يقل: (إلا أعرضوا) بالفعل الماضي فيكون الإعراض حادثًا.

وجاء بـ (كان) ليدل على أن الإعراض حاصل أصلاً وهو ثابت فيهم ولم يحدث بعد مجيء الآية ، فإن الآية إذا جاءت وجدتهم معرضين عنها.

جاء في (روح المعاني): «وفي الكلام إشارة إلى استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات» [1].

٦ ـ قدم الجار والمجرور (عنها) على اسم الفاعل فقال: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولم يقل: (إلا كانوا معرضين عنها) ، ليدل على أن الإعراض خاص بآيات ربهم ، فهم لا يطيقون سماع آيات ربهم ولا مواجهة آية من آياته ، وهم يسمعون ما عداها من الكلام والحديث ولا يعرضون عنه ، فكان التقديم للقصر ، إضافة إلى أن الفاصلة تقتضي هذا التقديم ، فكان التقديم لأمرين: القصر وفاصلة الآي.

جاء في (روح المعاني): «و(عن) متعلقة بـ(معرضين) قدمت عليه للحصر الادعائي مبالغة في تقبيح حالهم ، وقيل: للحصر الإضافي ، أي معرضين عنها لا عمّا هم عليه من الكفر ، وقيل: لرعاية الفواصل» [2].

٧ ـ قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فبنى التعبير على الاستثناء المفرغ ، ولم يقل: (إن تأتهم آية من آيات ربهم كانوا عنها معرضين) ، ذلك لأن التعبير القرآني هذا يفيد الدوام ، وأن

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٩.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٢٩.

ذلك يحصل كلما جاءتهم آية من آيات ربهم. ولا يفيد تعبير الشرط ذلك نصًّا ، فإنك إذا قلت: (إن يأتني محمد أكرمته) أفاد ذلك أنه إن جاءك أكرمته ولا يفيد أنك تكرمه كلما جاءك ، فإنك إن أكرمته مرة واحدة كان كلامك صادقًا. أما قولك: (ما يأتيني إلا أكرمته) فإنه يفيد أنه كلما جاءك أكرمته.

هذا علاوة على أن التعبير بالاستثناء المفرغ يصح معه زيادة (من) الاستغراقية إذا وقعت قبل (إلا) ، وذلك لوجود النفي أو شبهه ولا يصح ذلك في التعبير الشرطي ، فلا تقول: (إن تأتهم من آية من آيات ربهم كانوا عنها معرضين).

* * *

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

أي إذا طلب منهم الإنفاق مما رزقهم الله امتنعوا واحتجوا بأن الله هو الذي أفقرهم ، ولو شاء أن يغنيهم لأغناهم ، فكيف يجيعهم ربهم ونحن نطعمهم؟ إن طلبكم هذا مخالف لمشيئة الله ، وهو ضلال ظاهر.

والظاهر أن المقصود بقوله: ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إطعام المحتاجين ، بدليل قولهم: ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ ، إلا أنه أخرجه مخرج العموم في الطلب والخصوص في الجواب ، ذلك أن قوله: ﴿ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يدخل فيه الإطعام وغيره من أفعال الخير فكان الطلب عامًّا.

غير أنهم امتنعوا عن أي شيء من الإنفاق حتى إطعام المحتاج ، وهو ما تدعو إليه المروءة ، فدل امتناعهم عن هذا امتناعهم عما هو أكبر وأعظم ، وفي هذا مبالغة في الامتناع عن الإنفاق.

جاء في (التفسير الكبير): «ما الفائدة في تغيير اللفظ في جوابهم حيث

لم يقولوا: أننفق على من لو يشاء الله رزقه ، وذلك لأنهم أمروا بالإنفاق في قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ فكان جوابهم أن يقولوا: أننفق ، فلم قالوا: أنطعم؟

نقول: فيه بيان غاية مخالفتهم ؛ وذلك لأنهم إذا أمروا بالإنفاق ـ والإنفاق يدخل فيه الإطعام وغيره ـ لم يأتوا بالإنفاق ، ولا بأقل منه ـ وهو الإطعام ـ وقالوا: لا نطعم. وهذا كما يقول القائل لغيره: أعط زيدًا دينارًا ، يقول: (لا أعطيه درهمًا) مع أن المطابق هو أن يقول: لا أعطيه دينارًا ، ولكن المبالغة في هذا الوجه أتم ، فكذلك ههنا» (١) .

وجاء في (البحر المحيط): «أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله ، وهو عام في الإطعام وغيره ، فأجابوا بغاية المخالفة ؛ لأن نفي إطعامهم يقتضي نفي الإنفاق العام ، فكأنهم قالوا: لا ننفق ولا أقل الأشياء التي كانوا يسمحون بها ويؤثرون بها على أنفسهم وهو الإطعام الذي به يفتخرون. وهذا على سبيل المبالغة ، كمن يقول لشخص: أعط لزيد دينارًا ، فيقول: لا أعطيه درهمًا. فهذا أبلغ من: لا أعطيه دينارًا» (٢) .

والملاحظ من الآيتين أنهم أمروا بالاتقاء وذلك قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ وهو أمر عام يتعلق بالعبادة الفردية والحياة الشخصية ويتعلق بالآخرين ، فإن وجوه الاتقاء متسعة.

وأمروا بالإنفاق في وجوه الخير وذلك قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ . . . ﴾ وهو أمر يتعلق بالآخرين. ومنه إطعام المحتاجين الذي هو ضرورة من ضرورات الحياة. وهذا يدلنا على أن أوامر الله قسمان:

قسم يتعلق بالقيام بحقوق الله ، وهو يدخل في التقوى.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠ ، وانظر روح المعاني ٢٣/ ٣٠.

وقسم يتعلق بحقوق العباد ومنه الإنفاق ، وقد امتنعوا عنهما جميعًا .

جاء في (روح المعاني): «والكلام على ما قيل لذمهم على ترك الشفقة على خلق الله تعالى إثر ذمهم على ترك تعظيمه عز وجل بترك التقوى ، وفي ذلك إشارة إلى أنهم أخلوا بجميع التكاليف ؛ لأنها كلها ترجع إلى أمرين: التعظيم لله تعالى ، والشفقة على خلقه سبحانه» [١] .

والملاحظ من الآية:

١ ـ أنها بدأت بأداة الشرط (إذا) فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ إشارة إلى أن هذا القول قد قيل لهم فعلاً ، بل إنه لقد قيل لهم كثيرًا لما سبق أن ذكرنا في دلالة (إذا) في قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ . . . ﴾ .

٢ ـ وقد بنى الفعل (قيل) للمجهول في الآيتين فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ﴾ لأكثر من سبب:

من ذلك أن القائل معلوم وهم المؤمنون.

ومن ناحية أخرى أنه لا يتعلق غرض بذكر القائل ، فإنه لا يتغير الحكم بتغير القائل ، فإن المقصود هو المقول وليس القائل.

ومن ذلك الإشارة إلى ضرورة النظر في المقول لا في القائل ، فالقول الحق ينبغي الأخذ به أيًا كان قائله. فهو توجيه إلى الأخذ بالقول الحق دون النظر إلى قائله ، وهو بمعنى: (خذ الحكمة ولا تضرك من أي وعاء خرجت).

ثم إنه لو ذكر القائل لظن أن هذا الموقف من الكفرة بسبب القائل ، ولو كان القائل شخصًا آخر لتغير الموقف ، فإن الناس كثيرًا ما يرفضون القول من قائل ويقبلونه من قائل آخر. فلو ذكر القائل لظن أن رفضهم

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٢٩

بسبب القائل. فبين أن موقفهم هذا إنما هو من المقول لا من القائل.

٣ ـ وقد جاء بـ (من) التبعيضية للدلالة على أنه طلب منهم إنفاق شيء مما أنعم الله به عليهم ليسهل ذلك عليهم.

٤ ـ أسند الرزق إلى الله ، أي إن الله هو الذي رزقكم وتفضل عليكم ، فأنفقوا شيئًا مما أعطاكم وتفضل عليكم ؛ «أي أعطاكم سبحانه بطريق التفضل والإنعام من أنواع الأموال ، وعبر بذلك تحقيقًا للحق وترغيبًا في الإنفاق ، على منهاج قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ، وتنبيهًا على عظم جنايتهم في ترك الامتثال بالأمر ، وكذلك الإتيان بمن التبعيضية»[1].

٥ ـ بين القائل والمقول له في الآية بعد البناء للمجهول فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾.

فبين قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أن القائل (أنفقوا) هم المؤمنون ، وأن الذين قيل لهم هم الكفار ، ولذا ذكر أن الذين كفروا ردوا على المؤمنين قولهم.

ومن هذا يتضح أن الآية بنيت على الإيضاح بعد الإبهام.

فقد قال: (قيل) فبنى الفعل للمجهول ، ثم بين القائل بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

وقال: (لهم) فذكر الضمير ثم أوضح الضمير بأنه يعود على الذين كفروا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

ثم قال: ﴿أَنفِقُواْ﴾ وهو عام ، ثم بيّن المقصود بالإنفاق ههنا وهو

---

(١) روح المعاني ٢٣/٢٩.

إطعام المحتاجين.

٦ ـ لم يبين القائل في الآية الأولى وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقد بينه في هذه الآية؛ ذلك لأن القائل في الآية الأولى معلوم وهو لا يحتاج إلى إيضاح، فإنه معلوم أنه لا يقول هذا القول إلا مؤمن ولا يصدر عن كافر، وذلك لأن الكفار لا يؤمنون بالآخرة، ولذا ذكر بعد ذلك قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أما الآية الثانية وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فيحتاج القائل إلى تبيين ذلك؛ لأن هذا القول قد يصدر عن شخص غير مسلم يقوله مروءة، ذلك أن الله حكى عن كفار قريش أنهم يؤمنون بأن الله هو الذي يرزق الخلق، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

فبين أن الذي قال هذا القول ودعا إلى الإنفاق هم المؤمنون.

فكان كل تعبير أنسب في مكانه. هذا علاوة على أنه ذكرنا أن الآية الأولى بنيت على الإيجاز، وهذه بنيت على البيان بعد الإبهام.

واستبان من ذلك أن الذي يدعو إلى الخير والمكرمة إنما هو المؤمن، وأن المشفق على خلق الله الطالب لإعانتهم وإغاثتهم إنما هو المؤمن، فالمؤمن منبع كل خير ويمن وبركة.

٧ ـ لم يبين وجوه الإنفاق في الآية بل أطلقها فقال: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ ذلك ليشمل وجوه الخير كلها، وليشمل عموم خلق الله مؤمنهم وكافرهم، فهو لم يقل: (أنفقوا على المؤمنين) بل أطلق ذلك ليشمل الجميع فتتسع دائرة الخير.



٨ ـ لما أسند الرزق إلى الله بقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أسندوا الإطعام إليه فقالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾. فإنه لما قال لهم المؤمنون ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أجابوا ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾. فكأنهم قالوا: الله الذي رزقنا هو الذي حرمهم.

٩ ـ لم يذكر اللام في جواب (لو) فلم يقل: (لو يشاء الله لأطعمه) ذلك أن الإطعام سهل ميسور فلا يحتاج إلى توكيد. والملاحظ في القرآن الكريم أن المنزوع اللام من جواب (لو) أقل توكيدًا مما ذكرت فيه اللام.

فيؤتى باللام فيما هو آكد، فما كان أصعب في ميزان البشر يؤتى معه باللام، وما كان أيسر تنزع منه اللام، مع أنه من المعلوم أن ليس شيء أصعب على الله من شيء.

قال تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فجاء باللام لأن الهداية صعبة. وقال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. فلم يذكر اللام لأن الإهلاك مقدور عليه وليس كالهداية. وقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ وهذا صعب عسير فجاء باللام. غير أنه قال: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ﴾ فلم يذكر اللام لأنه مقدور عليه من كثير من الناس وليبينوا أن ذلك من الأمور اليسيرة على الله، فلو شاء ذلك فعل، ولكن الله لم يشأ ذلك فكيف نطعمهم نحن؟

* * *

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

أي ما أنتم إلا في ضلال ظاهر غير خاف على أحد، و(مبين) معناه مظهر لنفسه لا يحتاج أن يظهره أحد.

فإن الضلال على قسمين:

ضلال خفي لا يعلمه إلا ذوو البصيرة والعلم ، وهذا يحتاج إلى إيضاح وتبيين .

وضلال مبين ، أي مبين عن نفسه لا يحتاج إلى أن يظهره أحد أو يبينه شخص فإنه يبين نفسه بنفسه ، وهو أظهر من كل إظهار وأبين من كل تبيين ، فجعلوا أمرهم بالإنفاق من الضلال المبين الظاهر الذي يظهر نفسه .

وقد أخرج الكلام على جهة القصر ، أي لستم إلا في الضلال ، ولستم في شيء آخر . وهذا يختلف عن القول (أنتم في ضلال مبين) فإن ذلك ـ أي القصر ـ آكد ، فإنه يفيد أنهم ليسوا في غير الضلال .

جاء في (التفسير الكبير): «قد ذكرنا أن قوله: (إن أنتم إلا) يفيد ما لا يفيد قوله: (أنتم في ضلال) ؛ لأنه قد يوجب الحصر ، وأنه ليسوا في غير الضلال .

(البحث الثالث): وصف الضلال بالمبين ، قد ذكرنا معناه أنه لظهوره يبين نفسه أنه ضلال ، أي في ضلال لا يخفى على أحد أنه ضلال» (١) .

ثم نفى بـ (إن) ولم ينف بـ (ما) لأن (إن) آكد في النفي من (ما) (٢) .

وقال: (في ضلال) فاستعمل (في) وهو حرف يفيد الظرفية ، أي: ما أنتم إلا مغمورون في الضلال ساقطون فيه كمن يسقط في اللجة .

وقد لاحظ المفسرون أن القرآن يستعمل (على) في الهداية ، ويستعمل (في) في الضلال ونحوه ، فيقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٥ .
(٢) ينظر معاني النحو ٤/ ٥٧٦ وما بعدها .

ويقول: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨] ، فاستعمل (على) في هذا المعنى للدلالة على تمكنهم من الهداية واستعلائهم على الطريق.

في حين قال: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤] ، ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] ، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥] ، أي كأنهم ساقطون في ذلك لا يتبينون ما حولهم ولا هم متمكنون من أنفسهم ، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] ، فاستعمل (على) مع الهدى و(في) مع الضلال.

جاء في (التفسير الكبير): «إنَّ قوله: (في ضلال) يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين. وقوله في مواضع: (على بينة) ، و(على هدى) إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه»[1].

* * *

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أي متى يوم القيامة الذي توعدوننا به وتحذروننا منه إن كنتم صادقين في قولكم؟

والوعد المذكور هنا هو ما أشارت إليه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

جاء في (التفسير الكبير): «ليس في هذا الموضع وعد، فالإشارة بقوله: (هذا الوعد) إلى أي وعد؟.

نقول: هو ما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من قيام الساعة ، أو نقول: هو معلوم وإن لم يكن مذكورًا لكون

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٥.

الأنبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «أي متى يوم القيامة الذي أنتم توعدوننا به؟ أو متى هذا العذاب الذي تهددوننا به؟ وهو على سبيل الاستهزاء، فهم لما أمروا بالتقوى ولا يتقى إلا مما يخاف منه، وهم غير مؤمنين، سألوا: متى يقع هذا الذي تخوفونا به استهزاء»[٢].

وقال: (ويقولون) بالمضارع ولم يقل: (وقالوا) للدلالة على استمرارهم على هذا القول ولم يقولوا ذلك مرة واحدة.

ولم يقل (ويقول الذين كفروا للذين آمنوا متى هذا الوعد...) كما قال في الآية السابقة: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ ذلك لأنه معلوم أنه لا يقول هذا القول إلا كافر وهو موجه إلى الذين آمنوا؛ لأن المؤمنين يؤمنون باليوم الآخر ولا يؤمن به الذين كفروا.

* * *

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

معنى النظر ههنا وقوع الشيء من غير ترقب له، فلا يرونه إلا واقعًا، وقد فسره المفسرون بالانتظار، ولما كان الكفار غير منتظرين للصيحة بل ينكرونها فسّروها بالانتظار الفعلي.

جاء في (التفسير الكبير): «﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي لا ينتظرون إلا الصيحة المعلومة... فإن قيل: هم ما كانوا ينتظرون الصيحة بل كانوا يجزمون بعدمها، فنقول: الانتظار فعلي لأنهم كانوا

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة لولا حكم الله وقدرته وعلمه» [١].

وجاء في (البحر المحيط): «ما ينظرون أي ما ينتظرون، ولما كانت هذه الصيحة لابد من وقوعها جعلوا كأنهم منتظروها» [٢].

والحق أن ثمة فرقاً بين (ينظرون) و(ينتظرون).

فمعنى (ينظرون) يرون الأمر واقعًا بغتة من غير ترقب له أو توقع. أما الانتظار فهو ترقب وقوع الأمر.

وأكثر الاستعمال القرآني على هذا، فهو يستعمل (النظر) لما يفاجئ من الأحداث، والانتظار لما فيه ترقب وتوقع.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

فذكر أنها تأتيهم بغتة أي من غير ترقب.

وقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨].

وهي مثل ما قبلها.

وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

والكلام واضح أنه في اليوم الآخر، وهو يأتيهم من غير ترقب له أو انتظار؛ لأنهم كافرون به كما يدل على ذلك الكلام.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

في حين قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أي منهم من ينتظر ذلك ويترقبه.

وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠].

فأمره بالانتظار وهو الترقب.

وقال هود لقومه: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

فهو قد توعدهم وتهددهم وأمرهم بانتظار ذلك وترقبه.

ثم إن بناء كل من الفعلين يقوّي ما ذكرناه، فإن بناء (انتظر) أطول من (نظر)، وذلك يدل على زيادة الانتظار وطوله، إذ كثيرًا ما يناسب اللفظ المعنى.

ومعنى الآية ـ أي آية يس ـ أنهم لا ينظرون إلا صيحة واحدة تبغتهم وهم يختصمون في حياتهم ومعاشهم، والمقصود بالصيحة هذه صيحة القيامة.

واختار (ينظرون) على (ينتظرون) لأن في ذلك فزعًا أكبر؛ فإن الذي تفجؤه الصيحة يرجف فؤاده ويفزع أكثر ممن ينتظرها؛ «لأن الصيحة المعتادة إذا وردت على غافل يرجف، فإن المقبل على مهم إذا صاح به صائح يرجف فؤاده، بخلاف المنتظر للصيحة. فإذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذي هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والإيجاف أعظم»[١].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٨٦.

وذكر الصيحة ههنا كما ذكرها في أصحاب القرية ، فإن كلاً من الصنفين لم يتق ما بين يديه وما خلفه ، فلم يرحمه ربه وأخذته الصيحة .

غير أن هناك فرقًا بين البناء في الآيتين :

فقد قال في أصحاب القرية : ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ بالفعل الماضي لأن الصيحة قد وقعت .

وقال ههنا : ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ بالفعل المضارع لأنها لم تقع .

وقال في أصحاب القرية : ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ .

وقال ههنا : ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وذلك أنه لما قال : إن الصيحة تأخذهم ، أي كأنها تأخذهم من أهلهم قال : ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأن الصيحة أخذتهم بعيدًا عن أهلهم . ولم يقل مثل ذلك مع قوله : ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ لأنها أخمدتهم جميعًا هم وأهلهم .

وناسب ذلك أيضًا قوله : ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يختصمون في أمور الدنيا ، ومعنى ذلك أنهم ليسوا بين أهلهم ولا في مساكنهم ، فناسب أن يقول : ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

ومعنى (يخصّمون) : (يختصمون) غير أنه أبدل من التاء صادًا وضعّفها وكسر الخاء لالتقاء الساكنين فصار يخصّمون . وسبب هذا الإبدال والتضعيف ـ والله أعلم ـ أن التضعيف يدل على المبالغة ، فأبدل وضعّف للدلالة على المبالغة في الاختصام .

أي أن الساعة تأخذهم وهم منهمكون في الاختصام مبالغون في أمور الدنيا لا يشغلهم عن ذلك شاغل ، فتأخذهم الصيحة فلا يستطيعون توصية ولا ينطقون بشيء .

جاء في (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني): «وأصل (يخصّمون) يختصمون، فأبدلت التاء صادًا، وأدغمت في الصاد فصار (يخصّمون)، والتضعيف يفيد القوة والتكثير والمبالغة. فأفاد ههنا المبالغة في الاختصام.

والمعنى أن الساعة تأخذهم وهم منهمكون في معاملاتهم منشغلون في خصومات الدنيا على أكثر ما يكون وأشد ما يكون غير منشغلين بشيء آخر عن الدنيا، فالساعة لا تقوم على رجل يقول: لا إله إلا الله.

وفي الحديث: (شرار الخلق الذين تدركهم الساعة وهم أحياء)، فتصيح الساعة صيحة تقطع الاختصام، فلا يكون نبس ولا حركة ولا خصومة ولا كلام، بل صمت مطبق وسكون مطلق، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ فعبر عن ذلك بقوله: (يخصّمون).

ولا يدل الأصل (يختصمون) على هذه المبالغة والقوة...

في حين قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١] من غير إبدال، ذلك أن الاختصام أمام رب العالمين لا يكون مثل الاختصام في الدنيا. فالاختصام في الدنيا عام يشمل المخاصمات التي تستدعي القضاء والفصل بين المتخاصمين، كما يشمل غيرها مما لا يستدعي قضاء ولا فصلاً.

أما الاختصام عند الرب فهو مما يستدعي القضاء والفصل، فبالغ في البناء فيما استعمله في الدنيا، بخلاف ما استعمله في الآخرة، والله أعلم» [١].

واختيار الصيحة هو المناسب في هذا المقام، إذ هي التي تقطع الاختصام والقيل والقال، فبينما هم يختصمون في معاملاتهم وهم في

---

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ـ باب الإبدال ٥٦ ـ ٥٧.

صخب الدنيا ، إذ تأتيهم الصيحة فتقطع ذلك كله ، كما يكون في مكان ما ضجيج وصخب فتقطع ذلك بصيحة واحدة فإذا هو صمت مطبق وسكون رهيب.

وذكر أن الصيحة واحدة ؛ ذلك لأنهم لا يحتاجون إلى أخرى ، فإن الصيحة الواحدة تأخذهم جميعًا فلا حاجة إلى ثانية. ثم إنه إذا تتابعت الصيحات أَلفها السامع فلا تكون لها تلك الرهبة ، أما هذه فصيحة واحدة ليس لها نظير تخلع قلوبهم فيموتون جميعًا.

أما الصيحة الثانية فلجمعهم عند رب العالمين.

* * *

﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قال: إنهم لا يستطيعون التوصية ، ولم يقل: (فلا يوصون) لأن نفي الاستطاعة أبلغ.

فأنت تقول: (هو لا يوصي) أي لا يفعل ذلك مع استطاعته عليها ، فنفي التوصية لا ينفي الاستطاعة ، ونفي الاستطاعة ينفي التوصية. فقولك: (هو لا يستطيع التوصية) أي لا يقدر عليها مع إرادته ذلك.

ونكّر التوصية لأنه أراد العموم ، فهم لا يستطيعون أن يوصوا أية توصية مهما كانت. ولو قال: (لا يستطيعون التوصية) لاحتمل أنهم لا يستطيعون التوصية المطلوبة أو الكاملة أو المعهودة ، فتنكيرها أفاد العموم.

﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إن الإنسان يتمنى أن يموت بين أهله ، وهؤلاء لا يستطيعون أن يبلّغوا أهلهم بشيء ، ولا أن يعودوا إليهم ، فحرموا من الأمنيتين العزيزتين كلتيهما.

ثم إنه قدم الفعل (يستطيعون) على المفعول به (التوصية) وأخر الفعل (يرجعون) عن الجار والمجرور ولم يجعلهما على نسق واحد ، فلم يقل: (فلا يستطيعون توصية ولا يرجعون إلى أهلهم).

ولم يقل: (فلا توصية يستطيعون ولا إلى أهلهم يرجعون) ذلك أن ما قاله ربنا أعدل الكلام في هذا المقام.

فإنه لو قال: (فلا توصية يستطيعون) فقدم المفعول على الفعل لكان نفي الاستطاعة خاصًّا بالتوصية وقد يستطيعون غيرها ، كما تقول: (ما شعرًا قلت) أي قلت غيره ، فإنك نفيت الشعر وأثبت غيره. ونحوه أن تقول: (ما زيدًا أكرمت) أي أكرمت غيره.

أما هنا فنفى التوصية ولم يثبت غيرها فكان النفي أعم وأشمل.

وقوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ نفى الرجوع إلى الأهل وأثبت الرجوع إلى غيرهم وهو الله ، أي لا يرجعون إليهم بل إلينا. ولو قال: (ولا يرجعون إلى أهلهم) لنفى الرجوع إلى أهلهم ولم يثبت الرجوع إليه وهو غير مراد ، ولكنه أراد إثبات الرجوع إليه سبحانه.

وهذا التقديم نظير التقديم في قوله تعالى في السورة: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ، ونظير التقديم في آخر السورة: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

هذا إضافة إلى ما تقتضيه خواتم الآي من هذا التقديم والتأخير.

جاء في (التفسير الكبير) في هذه الآية: «فيه أمور مبينة للشدة ، (أحدها) عدم الاستطاعة ، فإن قول القائل: فلان في هذه الحال لا يوصي ، دون قوله: لا يستطيع التوصية ، لأن من يوصي قد يستطيعها.

(الثاني) التوصية وهي بالقول ، والقول يوجد أسرع مما يوجد الفعل ، فقال لا يستطيعون كلمة ، فكيف فعلاً يحتاج إلى زمان طويل من أداء الواجبات ورد المظالم؟ .

(الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لا قدرة له على أهم الكلمات ، فإن وقت الموت الحاجة إلى التوصية أمسّ .

(الرابع) التنكير في التوصية للتعميم ، أي لا يقدر على توصية ما ، ولو كانت بكلمة يسيرة ، ولأن التوصية قد تحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها .

(الخامس) قوله : ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ بيان لشدة الحاجة إلى التوصية ؛ لأن من يرجو الوصول إلى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة إليها .

وأما من يقطع بأنه لا وصول له إلى أهله فلابد له من التوصية ، فإذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة .

وفي قوله : ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : ما ذكرنا أنهم يقطعون بأنهم لا يمهلون إلى أن يجتمعوا بأهاليهم ، وذلك يوجب الحاجة إلى التوصية .

وثانيهما : أنهم إلى أهلهم لا يرجعون ، يعني أنهم يموتون ولا رجوع لهم إلى الدنيا .

ومن يسافر سفرًا ويعلم أنه لا رجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتي بالوصية» [١] .

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٧ .

وجاء في (روح المعاني): «﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ إذا كانوا في خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى الله عز وجل لا إلى غيره سبحانه»[1].

إن هذه الصيحة تأخذ الجميع ، من كان في بيته وبين أهله ومن كان خارج بيته وليس بين أهله ، فذكر الحالة الأشد وهي من كان بعيدًا عن أهله وبيته. وناسب ذلك قوله: ﴿ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يختصمون في معاملاتهم وأموالهم.

وهذا يشير إلى أنهم ليسوا مع أهلهم ولا في بيوتهم بل هم منشغلون بأمور الدنيا وصخبها ، فناسب ذلك ما ذكر.

ثم إنه بدأ بالأقرب وهو التوصية ، فهذا أقرب إلى الشخص ، وذلك أن يوصي من حوله ، ثم الأبعد وهو الرجوع إلى الأهل.

* * *

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

* * *

قوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ يعني النفخة الثانية التي تبعث الموتى من قبورهم ، أما النفخة الأولى فقد عبر عنها بالصيحة في قوله: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴾ والنفخة في الصور صيحة غير أنه عبر عنها بالنفخة مرة وبالصيحة مرة.

وقد عبر عن الأمرين في سورة الزمر بالنفخة فقال: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣١

فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقد ذكرنا أنه عبر عن ذلك في (يس) بالصيحة لأنهم في حال اختصام وصخب، فذكر الصيحة التي تقطع الصخب والضجيج. وليس نحو ذلك في الزمر.

فذكر أنه نفخ في الصور النفخة الثانية فإذا هم يخرجون من أجداثهم يسرعون إلى ربهم، ومعنى (ينسلون): يسرعون.

وقد تقول: ولكنه قال في الزمر: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾، أليس في ذلك اختلاف؟.

فنقول: ليس ثمة اختلاف وإنما هو تصوير مشهد يقتضيه السياق، وإيضاح ذلك:

١ ـ أن قوله: (قيام) لا يناقض المشي، فالماشي قد يكون قائمًا وقد يكون غير قائم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥].

٢ ـ وحتى لو كانت الحالتان تختلف إحداهما عن الأخرى فقد ذكر إحدى الحالتين في موطن والأخرى في موطن آخر، كما تقول: (درسته تلميذًا صغيرًا فإذا هو طالب في الكلية) و(درسته تلميذًا صغيرًا فإذا هو أستاذ في الجامعة) و(درسته تلميذًا صغيرًا فإذا هو وزير للتربية) ولا ينافي أحدها الآخر.

٣ ـ إن قوله: (من الأجداث) يشير إلى مكان بدء الانطلاق، فلا ينافي ذلك أن يكون قبل الانطلاق واقفًا أو جالسًا، كما تقول: (انطلق المتسابقون من المدرسة إلى المستشفى) فأنت ذكرت بدء الانطلاق ولم

تذكر ما قبله ، ولا يناقض ذلك أي وضع كانوا عليه .

جاء في (التفسير الكبير) في قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ : «أي نفخ فيه مرة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ وفيه مسائل :

(المسألة الأولى) قال تعالى في موضع آخر : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ والقيام غير النسلان ، وقوله في الموضعين (فإذا هم) يقتضي أن يكونا معًا ، نقول :

الجواب عنه من وجهين :

(أحدهما) : أن القيام لا ينافي المشي السريع لأن الماشي القائم ، ولا ينافي النظر .

(وثانيهما) : أن السرعة مجيء الأمور ، كأن الكل في زمان واحد كقول القائل :

مكـرٍّ مفـرٍّ مقبـلٍ مـدبـرٍ معًـا كجلمودِ صخرٍ حطَّه السَّيْل من عَلِ» [١]

وجاء في (روح المعاني) : «ولا منافاة بين هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ لجواز اجتماع القيام والنظر والمشي ، أو لتقارب زمان القيام ناظرين وزمان الإسراع في المشي» [٢] .

أما اختيار كل تعبير فذلك لمناسبة السياق الذي ورد فيه .

فقد قال في الزمر ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ذلك أنه ذكر الصعقة في النفخة الأولى فقال : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٨ .

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٣٢ .

والصعقة تعني الغشية ، وتعني الموت ، فذكر في النفخة الثانية ما ينافي الغشية والموت فقال: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾.

وقال في (يس): إنهم إلى ربهم ينسلون ؛ ذلك لأنهم كانوا في النفخة الأولى ينسلون إلى الدنيا ويختصمون فيها وهم مجتمعون لشؤونها ، فقد قال: ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ والاختصام لا يكون إلا مع الاجتماع ، فذكر في النفخة الثانية أنهم ينسلون إلى ربهم ويجتمعون للخصومة عنده ، فناسب كل تعبير مكانه.

لقد قال: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ فعبر عن الحدث المستقبل بالفعل الماضي للدلالة على أنه محقق الوقوع بمنزلة ما مضى من الأحداث.

ثم قال (فإذا) فجاء بالفاء مع (إذا) الفجائية ، ذلك أن الفاء تدل على الترتيب والتعقيب ، أي يخرجون فجأة من دون تراخ أو مهلة من الوقت ، ففي عقب النفخة مباشرة من دون تلبث يخرجون من الأجداث ينسلون إلى ربهم. ولم يأت بثم مع إذا الفجائية كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، ذلك لأن (ثم) تفيد التراخي في الزمن ، فبيّن أنه في عقب النفخة مباشرة يخرج الموتى من مراقدهم.

وقال: ﴿ مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ فقدم (من الأجداث) وهو مبدأ النسلان ، ثم ذكر بعده (إلى ربهم) وهو انتهاء الغاية ، فقدم بدء الغاية وذكر النهاية بعده ، وهو التعبير الطبيعي ، وهو كما تقول: (انطلق من المكان الفلاني إلى السوق).

وقدم الجارين والمجرورين على الفعل للاهتمام والقصر ، فإنه أعجب شيء أن يخرج الميت من قبره مسرعًا إلى غاية مرسومة له ،

فكيف تخرج هذه العظام النخرة والتراب المختلط مما هب ودب مسرعة تعدو إلى غايتها.

وقد ذكر أن إسراعهم إنما هو إلى ربهم الذي هو مالك أمرهم وسيدهم لا إلى جهة أخرى، فهم ينسلون إلى ربهم حصرًا.

واختيار لفظ (الرب) أنسب شيء ههنا، ذلك أن الخارجين من الأجداث قسمان:

قسم أطاع ربه وسيده فهو ذاهب إلى ربه الذي أطاعه وهو الأرحم به، ذلك أنه هو الذي أنعم عليه في الدنيا وغذاه بالنعم، فهو أرحم به الآن وأكرم، وهو يلتجئ إليه كما يلتجئ العبد إلى سيده والضعيف إلى متولي أمره.

وقسم عصى ربه الذي غذاه بالنعم وأساء إلى من أحسن إليه فهو يُعاد إلى ربه الذي أحسن إليه وقابله بالإساءة، وشر الإساءة أن تسيء إلى من أحسن إليك، فهي شر إعادة وأسوأ رجعة. فكان ذكر الرب أنسب شيء ههنا.

جاء في (التفسير الكبير): «الموضع موضع ذكر الهيبة، وتقديم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة، فلو قال بدل الرب المضاف إليهم لفظاً دالاً على الهيبة هل يكون أليق أم لا؟.

قلنا: هذا اللفظ أحسن ما يكون؛ لأن من أساء واضطر إلى التوجه إلى من أحسن إليه يكون ذلك أشد ألمًا وأكثر ندمًا من غيره»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «وذكر الرب للإشارة إلى إسراعهم بعد

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٨.

الإساءة إلى من أحسن إليهم حين اضطروا إليه» [١].

وهذا الإسراع إلى ربهم لا اختيار لهم فيه وإنما هم أحضروا إليه إحضارًا، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: (محضرون) دل على أن كونهم (ينسلون) إجباري لا اختياري» [٢].

ثم لننظر من ناحية أخرى أنه ذكر في هذه الآية جهة الرجوع التي لم يذكرها في الآية السابقة، فقد قال في الآية السابقة: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقد ذكرنا أن قوله: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني أنهم يرجعون إلى غير أهلهم. وهنا عين الجهة التي يرجعون إليها فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي يرجعون إلى ربهم حصرًا.

ومن هنا يتبين أن هذه الآية ارتبطت بالآية السابقة من جهتين:

الجهة الأولى: أن قوله في الآية السابقة: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لا يدل على أن تلك الصيحة أماتتهم تصريحًا، ذلك أنه قد يحال بين الحي والتوصية وبينه وبين الرجوع إلى أهله، فلا يستطيع توصية ولا يرجع إلى أهله، وذلك حال كثير من المساجين، فلما قال: (من الأجداث) علم من هذه الآية أنهم ماتوا.

والجهة الأخرى: أنه ذكر جهة الرجوع، فإنه لما قال: ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ذكر في هذه الآية أنهم إلى ربهم ينسلون. فكان في هذه الآية توضيح ما حدث لهم وتعيين جهة الرجوع.

فقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ مقابل قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً..﴾.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣٢.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٠.

وقوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ مقابل قوله: ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

وتقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ نظير التقديم في قوله: ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾.

إن هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ فإنها بينت الآية قبلها وهي قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. ففي كلتا الآيتين أعني قوله: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لم يصرح بما حصل، وإنما أشار إلى ذلك في الآية بعدها.

وهو تناظر بديع.

* * *

﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ . . . ﴿٥٢﴾ ﴾

قال: ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا ﴾ ولم يقل: (يقولون يا ويلنا) ذلك أنه لو قال: (يقولون) لكان الفعل حالاً للنسلان أي (ينسلون قائلين يا ويلنا)، كما نقول: (هو يقبل يبكي) و(يُدبر يسرع) فيكون القول عند النسلان، في حين أن القول قبل النسلان، فإنما قالوا ذلك في ابتداء بعثهم من القبور[1].

جاء في (التفسير الكبير): «لو قال قائل: لو قال الله تعالى: (فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يقولون يا ويلنا) كان أليق.

نقول: معاذ الله، وذلك لأن قوله: ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) ... ٢٣/ ٣٢

يَنسِلُونَ﴾ على ما ذكرنا إشارة إلى أنه تعالى في أسرع زمان يجمع أجزاء ويؤلفها ويحييها ويحركها. . . فلو قال: (يقولون) لكان ذلك مثل الحال لينسلون أي ينسلون قائلين يا ويلنا، وليس كذلك، فإن قولهم: (يا ويلنا) قبل أن ينسلوا»[(١)].

﴿يَٰوَيْلَنَا﴾

الويل هو الحزن والعذاب والهلاك، ومعنى (يا ويلنا) أنهم ينادون هلاكهم وعذابهم، أي احضر يا عذابنا ويا هلاكنا فهذا أوانك، كما يقول الناس: (يا مصيبتي) و(يا خراب بيتي) أي احضر فهذا وقتك وأوانك، قال تعالى في أصحاب النار: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٣ ـ ١٤]، أي قالوا: يا ويلاه، يا ثبوراه.

جاء في (لسان العرب): «الويل: الحزن والهلاك والمشقة من العذاب وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء فيه يا حزني ويا هلاكي ويا عذابي: احضر فهذا وقتك وأوانك، فكأنه نادى الويل أن يحضره لما عرض له من الأمر الفظيع»[(٢)].

وقد تقول: ولم قال: (يا ويلنا) ولم يقل: (يا ويلتنا) بالتاء؟

والجواب: أن الويل هو ما ذكرناه أي العذاب والحزن، أما الويلة فهي الفضيحة. ويؤتى بها في مواطن الفضيحة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٨٩.

(٢) لسان العرب (ويل) ١٤/ ٢٦٥.

فقالوا: (يا ويلتنا) أي يا للفضيحة وهي فضيحة نشر الأعمال ، فإن قسمًا من الأعمال كان يتستر منها فاعلها ، فهو يفعلها في السر فإذا بالكتاب قد فضحها كلها .

ولو تتبعنا مواطن استعمال الويلة بالتاء في القرآن الكريم لوجدناها كلها في مواطن الفضيحة ، بخلاف مواطن الويل .

قال تعالى : ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود: ٧٢] .

فقالت: (يا ويلتا) ذلك أن العجوز المسنة التي تلد وبعلها شيخ تشعر بأن ولادتها في مثل هذه السن فضيحة تخجل منها ، ولذا قال تعالى في موطن آخر: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٩] .

وقال في ابن آدم الذي قتل أخاه ولم يعلم ماذا يفعل به ولا كيف يتخلص من الجثة وقد أعيته الحيلة ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٣١] .

وهو موطن عجز فاضح ، إذ كان أقل تفكيرًا وحيلة من الغراب .

وقال: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩] .

وهذا موطن افتضاح في ضعف الشخصية وعجزها، فإن صاحبه استطاع أن يخدعه ويضله ويلغي تفكيره ويعبث بعقله وذلك دليل نقص وعجز .

ولم يرد الويل في مثل هذه المواطن .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ



﴿مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢ ـ ١٥].

وقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

وقال: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢].

وقال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ۝١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ١٩ ـ ٢٠].

وقال: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣٠ ـ ٣١].

جاء في (لسان العرب): «الويل: حلول الشر، والويلة: الفضيحة والبلية. وقيل هو تفجع، وإذا قال القائل: واويلتاه، فإنما يعني وافضيحتاه، وكذلك تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الكهف: ٤٩]»[1].

و(المرقد) يحتمل المكان ويحتمل المصدر أي الرقاد، وهو بهذا المعنى أي بمعنى الرقاد تكون ضجعة القبر كالنوم بالنسبة إلى اليقظة، فيكون البعث يقظة والرقاد في القبر كالنوم.

وقال: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ ولم يقل: (من بعثنا من أجداثنا) ليشمل المعنيين: المكان والمصدر. فهم قد بعثوا من الأجداث وبعثوا من رقدة الموت.

---

(١) لسان العرب (ويل) ١٤/ ٢٦٥.

جاء في (الكشاف): «عن مجاهد للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور قالوا: من بعثنا» [١].

وجاء في (البحر المحيط): «المرقد استعارة عن مضجع الميت ، واحتمل أن يكون مصدرًا ، أي: من رقادنا ، وهو أجود ، أو يكون مكانًا فيكون المفرد فيه يراد به الجمع ، أي من مراقدنا.

وما روي عن أبي بن كعب ومجاهد وقتادة من أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر فقالوا: هو غير صحيح الإسناد ، وقيل: قالوا: (من مرقدنا) لأن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم» [٢].

* * *

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝٥٢﴾

من المحتمل أن يكون هذا كلام الملائكة جوابًا عن سؤالهم ، ويحتمل أن يكون هذا كلام المؤمنين ، أو أن يكون كلام الكافرين[٣] ، فإنهم يعلمون أن المؤمنين كانوا يذكرون اليوم الآخر ويؤمنون به ، فذكر ما علموه عن ذلك ، وقد حذف القائل ليعم جميع الاحتمالات ويشمل كل من يصح منه القول.

فإن قيل: إن قول الكفار: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ سؤال عن الذي بعثهم ، وقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ليس جوابًا عنه فكيف يصح ذلك؟

والجواب: أن قول الكفار: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ ليس سؤالاً حقيقيًا عن الذي بعثهم ، وإنما هو سؤال تحسر وابتئاس وندم ، يدل على ذلك

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤١ ، روح المعاني ٢٣/ ٣٢.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ٥٦٠.

قولهم: (يا ويلنا) فهم يعلمون على وجه اليقين أن الله هو بعثهم للحساب ولذا قالوا: ﴿ يَنوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾.

فكان الجواب بما هو الأولى وهو تذكيرهم بالوعد الذي كان يوعَدونه في الدنيا وما ذكرته الرسل وتقريعهم على ما فرط منهم، ومع ذلك هو يتضمن الجواب عن الباعث وذلك قوله: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ أي أن الرحمن هو الذي بعثكم.

وهو نظير قولنا لرجل يقول متحسرًا مبتئسًا: كيف وصلت إلى هذه الحال؟

فنقول له: هذا بسوء عملك.

وهو ليس جوابًا عن سؤاله، فإن سؤاله عن الحال والكيفية، والجواب كان عن السبب، فهو في الحقيقة جواب عن سؤال (بأي شيء حصل؟) أو: لم حصل هذا؟

فعدل إلى ما هو الأولى بالجواب.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ سؤال عن الباعث فكيف طابقه ذلك جوابًا؟

قلت: معناه بعثكم الرحمن الذي وعدكم بالبعث وأنبأكم به الرسل، إلا أنه جيء به على طريقة سيئت بها قلوبهم ونعيت إليهم أحوالهم وذكروا كفرهم وتكذيبهم وأخبروا بوقوع ما أنذروا به، وكأنه قيل لهم: ليس بالبعث الذي عرفتموه وهو بعث النائم من مرقده حتى يهمكم السؤال عن الباعث، إن هذا هو البعث الأكبر ذو الأهوال والأفزاع، وهو الذي وعده الله في كتبه المنزلة على ألسنة رسله الصادقين»[1].

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩٠.

وجاء في (التفسير الكبير): «إن قلنا: (هذا) إشارة إلى المرقد أو إلى البعث فجواب الاستفهام بقولهم: (من بعثنا) أين يكون؟

نقول: لما كان غرضهم من قولهم: (من بعثنا) حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه، حصل الجواب بقوله: هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيهًا. كما أن الخائف إذا قال لغيره: ماذا تقول أيقتلني فلان؟

فله أن يقول: (لا تخف) ويسكت لعلمه أن غرضه إزالة الرعب عنه وبه يحصل الجواب»[1].

وجاء في (روح المعاني): «وكان الظاهر أن يجابوا بالفاعل لأنه الذي سألوا عنه بأن يقال الرحمن أو الله بعثكم، لكن عدل إلى ما ذكر تذكيرًا لكفرهم وتقريعًا لهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل. وذكر غير واحد أنه من الأسلوب الحكيم على أن المعنى: لا تسألوا عن الباعث فإن هذا البعث ليس كبعث النائم وإن ذلك ليس مما يهمكم الآن، وإنما الذي يهمكم أن تسألوا ما هذا البعث ذو الأهوال والأفزاع. وفيه من تقريعهم ما فيه»[2].

و(ما) في قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ تحتمل أن تكون اسمًا موصولاً أي هذا الذي وعده الرحمن. ويحتمل أن تكون مصدرية أي هذا وعدُ الرحمن.

أما الواو فتحتمل العطف على الجملة وتحتمل الحالية، أي وقد صدق المرسلون فيما أخبروا به. وجوزوا أيضًا أن تكون الواو عاطفة على الصلة، فإن كانت (ما) مصدرية كان التقدير: هذا وعدُ الرحمن وصدقُ المرسلين.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٠.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٣٣

وإن كانت اسمًا موصولاً كان المعنى: هذا الذي وعده الرحمن وصدق فيه المرسلون.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: إذا جعلت (ما) مصدرية كان المعنى: هذا وعد الرحمن وصِدْقُ المرسلين، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق، فما وجه قوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إذا جعلتها موصولة؟

قلت: تقديره: هذا الذي وعده الرحمن والذي صدّقه المرسلون، بمعنى: والذي صدق فيه المرسلون من قولهم: صدقوهم الحديث والقتال. ومنه: صدقني سن بكره»[1].

وهذه الآية نظير قوله في سورة الأحزاب: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

إن هذه الآية بمقابل قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

فهذا القول في الآخرة يقابل قولهم في الدنيا.

فقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢] بمقابل قولهم في الدنيا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

وقوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بمقابل قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

والسخرية والاستهزاء بقولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ...﴾ يقابله الندم والحسرة بقولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في الدنيا يقابل قوله: (قالوا) في الآخرة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩٠.

ثم إن اختيار لفظ (المرسلون) هو المناسب لما تردد في السورة من ذكر المرسلين.

ثم لننظر من ناحية أخرى أن ثمة سؤالين قد ذكرا وهما:

السؤال الأول: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟

والسؤال الآخر: من بعثنا من مرقدنا؟

وأن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جواب عن السؤالين معًا.

فقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ جواب من جهة عن السؤال الأول، فقد سألوا: متى هذا الوعد؟

فقال: هذا هو.

وجواب عن السؤال الآخر من جهة أخرى، فقد تضمن ذكر الباعث الذي بعثهم من المرقد وهو الرحمن.

ثم إن هذه الآية مرتبطة أيضًا بقول أصحاب القرية: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

فقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ رد على قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ فوعد الرحمن إنما يكون فيما أنزل.

وقوله: ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ رد على قولهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

وهي مرتبطة أيضًا بقوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١١ ـ ١٢].

فقد وعد الرحمن على لسان رسوله أن من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب له مغفرة وأجر كريم ، ثم قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾.

وقال ههنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

فإنه أحيا الموتى وبعثهم من مرقدهم وصدق رسوله فيما بلغ.

هذا إضافة إلى أنه تردد ذكر الرحمن في الآيتين.

ثم لننظر من ناحية تعبيرية وهي أن كلمة (الوعد) في قوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ، أي الموعود به.

جاء في (التفسير الكبير): «وقوله: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي متى يقع الموعود به» [١]. وقد فسر بيوم القيامة وبالعذاب[٢].

فالمصدر الصريح في الآية بمعنى الذات.

وقوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إجابة عن المصدر وعن الذات. فإن كانت (ما) اسمًا موصولاً فهي بمعنى الذات فتكون إجابة عن الوعد الذي هو بمعنى الذات.

وإن كانت (ما) مصدرية فقد أجاب بالمصدر المؤول وهو إجابة عن المصدر الذي هو الوعد. فجاء فـ(ما) ولم يأت بـ(الذي) ليشمل المعنيين معًا.

ثم إنه جمع قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بين الوعد والصدق ، كما في قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/٨٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٠.

وأما اختيار لفظ (الرحمن) فله أكثر من سبب :

منها : أنه إذا كان هذا قول المؤمنين فإنهم آثروا اسم الرحمن ؛ لأن هذا وقت رحمته التامة بهم فإنه يدخلهم في رحمته كما قال تعالى : ﴿ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٧] .

وإذا كان قول الكافرين فإنهم آثروا اسم الرحمن طمعًا في رحمته .

جاء في (روح المعاني) : «في إيثارهم اسم الرحمن قيل : إشارة إلى زيادة التقريع من حيث إن الوعد بالبعث من آثار الرحمة ، وهم لم يلقوا له بالاً ولم يلتفتوا إليه وكذبوا به ولم يستعدوا لما يقتضيه . وقيل : آثره المجيبون من المؤمنين لما أن الرحمة قد غمرتهم فهي نصب أعينهم . . .

وقال ابن زيد : هذا الجواب من قبل الكفار على أنهم أجابوا أنفسهم ، حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين عليهم السلام أو أجاب بعضهم بعضًا . وآثروا اسم الرحمن طمعًا في أن يرحمهم ، وهيهات ليس لكافر نصيب يومئذ من رحمته عز وجل» [(١)] .

هذا مع أنه من الملاحظ في القرآن الكريم أن اسم الرحمن كثيرًا ما يذكر في مشاهد الآخرة وهذا منها .

قال تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم : ٦١] .

وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه : ١٠٨] .

وقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه : ١٠٩] .

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣٢ .

وقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وقال: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧].

وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: ٦٩].

وقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وقال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

وقال: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

هذا إضافة إلى أنه تردد اسم الرحمن في السورة أربع مرات وأنَّ جو الرحمة شائع فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

وقال: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].

وقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

وقال: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥].

وقال: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقال: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤٤].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥].

وقد تقول: لقد أسند الفعل (وعد) إلى (الله) في مواطن من القرآن الكريم وذلك كقوله تعالى ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٩].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: ٦٨].

وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وهنا أسند الفعل (وعد) إلى الرحمن فما الفرق؟

فنقول: إن كل سورة أسند فيها الفعل الماضي (وعد) إلى (الله) لم يذكر فيها اسم (الرحمن) وإن كانت طويلة كسورة النساء والمائدة والتوبة وغيرها من السور، وذلك في عشر سور من القرآن الكريم.

وكل سورة أسند فيها الفعل (وعد) إلى (الرحمن) تكرر اسم الرحمن في السورة، وذلك في سورتي مريم و(يس). أما سورة مريم فقد تكرر فيها اسم الرحمن إحدى عشرة مرة، وأما سورة (يس) فقد تكرر فيها اسم الرحمن أربع مرات. فناسب هذا الاختيار من كل وجه.

وقد تقول: وهل ثمة فرق بين ما أسند الوعد فيه إلى الله، وما أسند إلى الرحمن؟

فنقول: إن ما أسند فيه الوعد إلى الله مخصص بالمؤمنين أو بالكافرين فيقول مثلاً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أو ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ فهو وعد خاص.

أما ما أسند فيه الوعد إلى الرحمن فهو وعد عام يشمل عموم العباد وذلك تحقيقًا للرحمة التي يحققها اسم الرحمن، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]. فقد ذكر أنه وعد عباده على الإطلاق مع أن المقصود بعباده هؤلاء من تاب وآمن وعمل صالحًا كما في الآية السابقة، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦٠ ـ ٦١].

وقال في سورة (يس): ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

فأطلق الوعد ولم يذكر الموعود من الخلق أهم المؤمنون أم الكافرون، فهو وعد عام على الإطلاق فلم يذكر مفعولاً لوعد، أما إسناده إلى الله فهو مخصص دائمًا وذلك في اثني عشر موضعًا من القرآن الكريم، فاتضح الفرق بينهما.

وسبحان قائل هذا الكلام.

* * *

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي ما كانت النفخة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ إلا صيحة واحدة[1] فإذا هم مجموعون محضرون لدى رب العزة.

---

(١) ينظر التفسير الكبير ٢٦/ ٩٠، فتح القدير ٤/ ٣٦٣.

وجاء بالفاء و(إذا) للدلالة على مفاجأة الجمع والإحضار بعد الموت والبلى وسرعته ، فإن (إذا) تفيد المفاجأة ، والفاء تدل على الحدوث بلا تراخ ، واجتماعهما يدل على المفاجأة والسرعة.

ومعنى (جميع) مجموعون ، أي فإذا هم مجموعون.

وقد تقول: ولم قال: (جميع) ولم يقل: (مجموعون) كما قال في مكان آخر من القرآن الكريم؟ فقد قال في سورة الواقعة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

والجواب: أن (جميع) تأتي بمعنيين ـ كما ذكرنا في آية سابقة ـ إما أن تكون بمعنى مفعول أي مجموعون، وإما أن تكون بمعنى مجتمعين وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤] ، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦] أي مجتمعون.

فجاء بـ (محضرون) ليدل على أنهم مجموعون لا مجتمعون ، أي لم يجتمعوا باختيارهم. وأما (مجموعون) فهو يدل تنصيصًا على اسم المفعول ، أي جُمعوا جمعًا ، ولذا لم يحتج إلى نحو (محضرون).

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن (جميع) على زنة (فعيل) وهي بمعنى (مفعول) كما اتضح ، وهذه الصيغة لا تقال إلا لما وقع فعلاً[1] ، ولا تقال لما سيقع ، أما صيغة (مفعول) فتقال لما وقع ولما لم يقع. فأنت لا تقول: (قتيل) إلا لمن قُتل ، ولا تقول: (طريد) إلا لمن طُرد. أما مقتول ومطرود فيقال لمن قتل ولمن سيقتل ، أي أن صيغة (مفعول) تحتمل الحال والاستقبال ، بخلاف فعيل.

---

(١) كتاب سيبويه ٢/ ٢١٣ ، أدب الكاتب ٢٢٨ ، المخصص ١٦/ ١٥٦.

وفي آية (يس) تحدث عن أحداث القيامة بصيغة ما وقع ، فجاء بالصيغة التي تدل على الوقوع .

أما آيتا الواقعة وهود فإنهما في سياق المستقبل فجاء بهما على مفعول . قال تعالى في الواقعة : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ٤٩] ، فقد أمر الرسول أن يبلغهم بقوله : (قل) وهذا يدل على أن الكلام في الدنيا ، وسياق الآيات واضح في ذلك .

وقال في هود : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

فقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ﴾ يدل على أنهم في الدنيا .

وكذلك قوله : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ ﴾ فكل ذلك يدل على أن الكلام على المستقبل .

فاتضح الفرق .

ويدل (لدينا) على الحضور والقرب ، وهو أخص من (عندنا) ، فإن (عند) قد تكون للحاضر والغائب . فأنت تقول : (عندي مال) وإن كان غائبًا ، ولا تقول (لديّ) إلا إذا كان حاضرًا قريبًا[١] .

وتقديم (لدينا) يدل على القصر ، أي محضرون لدينا لا لدى غيرنا كما مَرَّ بيان ذلك .

* * *

---

(١) ينظر الهمع ١/٢٠٢ ، شرح ابن يعيش ٤/١٠٠ ، شرح الرضي على الكافية ٢/١٢٨ .

﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

فاليوم ، أي يوم القيامة الذي يحضر فيه الجميع للحساب لا تظلم نفس شيئًا .

نكّر النفس ليشمل كل نفس بَرّة كانت أو فاجرة[١] ، فالتنكير أفاد العموم ، ونفى الظلم على الإطلاق ، فليس في ذلك اليوم مِن ظلم ، كما قال تعالى : ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر : ١٧] .

و(شيئًا) يحتمل معنيين :

يحتمل المصدرية ، أي لا تظلمون شيئًا من الظلم وإن قلّ .

ويحتمل المفعول به ، أي لا تظلمون شيئًا من الأشياء[٢] .

وهذان المعنيان مرادان معًا ، فلا تظلم نفس شيئًا من الظلم ، ولا شيئًا من الأشياء ، ولذا أطلق كلمة (شيء) ولم يقيدها .

* * *

﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

بعدما نفى الظلم عن الجميع التفت إلى المخاطبين فقال : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ خطاب للكافرين ، ذلك أن المؤمن يجزى أضعاف ما كان يعمل ، أما الكافر فلا يجزى إلا ما كان يعمل .

وقيل : بل إن الخطاب عام ؛ لأن المقصود به الجنس ، بمعنى أن

---

(١) ينظر روح المعاني ٢٣/ ٣٣ .
(٢) ينظر روح المعاني ٢٣/ ٣٣ ، ٣٤

الجزاء من جنس العمل إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، فلا يجزى العمل السيء بالجزاء الحسن، ولا العمل الحسن بالسيء.

جاء في (التفسير الكبير): «فقوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ ليأمن المؤمن. ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لييأس المجرم الكافر.

وفيه مسائل:

(المسألة الأولى): ما الفائدة في الخطاب عند الإشارة إلى يأس المجرم بقوله: (ولا تجزون)، وترك الخطاب في الإشارة إلى أمان المؤمن من العذاب بقوله: (لا تظلم) ولم يقل: (ولا تظلمون أيها المؤمنون)؟

نقول لأن قوله: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ يفيد العموم، وهو كذلك فإنها لا تظلم أبدًا.

(ولا تجزون) مختص بالكافر، فإن الله يجزي المؤمن وإن لم يفعل فإن لله فضلاً مختصًا بالمؤمن وعدلاً عامًّا، وفيه بشارة.

(المسألة الثانية): ما المقتضي لذكر فاء التعقيب؟

نقول لما قال: (محضرون) مجموعون، والجمع للفصل والحساب، فكأنه تعالى قال: إذا جمعوا لم يجمعوا إلا للفصل بالعدل، فلا ظلم عند الجميع للعدل، فصار عدم الظلم مترتبًا على الإحضار للعدل، ولهذا يقول القائل للوالي أو للقاضي: جلست للعدل فلا تظلم، أي ذلك يقتضي هذا ويستعقبه.

(المسألة الثالثة): لا يجزون عين ما كانوا يعملون، بل يجزون بما كانوا يعملون أو على ما كانوا، وقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يدل على أن الجزاء بعين العمل. لا يقال: (جزى) يتعدى بنفسه

وبالباء ، يقال: جزيته خيرًا وجزيته بخير ؛ لأن ذلك ليس من هذا ، لأنك إذا قلت: (جزيته بخير) لا يكون الخير مفعولك ، بل تكون الباء للمقابلة والسببية ، كأنك تقول: جزيته جزاء بسبب ما فعل.

فنقول: الجواب عنه من وجهين:

(أحدهما) أن يكون ذلك إشارة على وجه المبالغة إلى عدم الزيادة ، وذلك لأن الشيء لا يزيد على عينه ، فنقول قوله تعالى: (يجزون بما كانوا يعملون) في المساواة كأنه عين ما عملوا ، يقال: فلان يجاوبني حرفًا بحرف. أي لا يترك شيئًا ، وهذا يوجب اليأس العظيم.

(الثاني) هو أن (ما) غير راجع إلى الخصوص وإنما هي للجنس ، تقديره: ولا تجزون إلا جنس العمل ، أي: إن كان حسنة فحسنة ، وإن كانت سيئة فسيئة ، فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة ، وهذا كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]» [١]

وجاء في (روح المعاني): «واستظهر أبو حيان أن الخطاب يعم المؤمنين بأن يكون الكلام إخبارًا من الله تعالى عما لأهل المحشر على العموم كما يشير إليه تنكير (نفس) واختاره السكاكي.

وقيل: عليه يأباه الحصر ؛ لأنه تعالى يوفي المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافًا مضاعفة. ورد بأن المعنى أن الصالح لا ينقص ثوابه ، والطالح لا يزاد عقابه ؛ لأن الحكمة تأبى ما هو على صورة الظلم ، أما زيادة الثواب ونقص العقاب فليس كذلك.

أو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر» [٢].

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٠ ـ ٩١.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٣٤ وينظر البحر المحيط ٧/ ٣٤١.

والتحقيق في الأمر أنه يعبر عن نحو ذلك بتعبيرين: (ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) ، (ولا تجزون إلا بما كنتم تعملون) وكل له معنى.

فالتعبير الأول يحتمل معنيين:

المعنى الأول: هو أنكم تجزون بمقدار ما كنتم تعملون ، أي لا يزيد الجزاء عن العمل ولا ينقص.

والمعنى الآخر: هو أنكم تجزون من جنس عملكم إن كان عملكم خيرًا فالجزاء خير ، وإن كان شرًّا فالجزاء شر ، كقوله ﷺ: «الناس مجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر».

وأما التعبير الثاني وهو قولنا: (ولا تجزون إلا بما كنتم تعملون) فالباء فيه تفيد السبب ، ولا يقتضي أن يكون الجزاء بمقدار العمل ، بل ربما زاد عليه ، ففي قولك: (عاقبتك بفعلتك) قد تكون العقوبة شديدة وهي أكبر مما تقتضيه الفعلة.

وتقول (أكرمتك بحسن إجابتك أو بحسن تصرفك) فقد يكون الإكرام أكبر بكثير من عمله ، فلا يقتضي ذلك مساواة الجزاء للعمل ، بل قد يكون مساويًا له ، وقد يكون غير مساوٍ له.

ولم يرد في القرآن الكريم: (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ونحوه من التعبيرات في خطاب المؤمنين البتة ، وإنما ورد ذلك في خطاب الكافرين أو الخطاب لعموم الخلق.

فأما في خطاب الكافرين فتكون العبارة بمعنييها معًا ، وهو أنه لا يجزون إلا بمقدار ما كانوا يعملون ومن جنس ما كانوا يعملون.

وأما في خطاب عموم الخلق فالراجح أنه يعني الجنس ؛ أي: إنما تجزون من جنس عملكم ، بدليل استثناء المؤمنين من المعنى الأول ،

فإن جزاءهم أكبر من عملهم.

أما الجزاء بالباء فيكون للمؤمنين والكافرين، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

فكلاهما جعل جزاءه بالباء، لكنه قال في الكافرين إنه يجزيهم بما عملوا، وأما المؤمنون فذكر أنه يجزيهم بالحسنى وليس بما عملوا.

وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ الْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال: ﴿وَذَرُوا۟ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

وقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٨-٣٩].

وقال: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧].

فأنت ترى أن الخطاب كله للكافرين.

وقال نحو ذلك في عموم الخلق.

فقد قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: ٥١].

وقال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨].

أما في المؤمنين فقد ذكر أنه يوفيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ولم يقل إنه يجزيهم ما كانوا يعملون.

قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢١].

وقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

وهذه بشارة عظيمة، وقد أخبرنا ربنا أن الذي يعمل السيئة لا يجزى إلا مثلها، أما الحسنة فتجزى بعشر أمثالها، أو تجزى بخير منها. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]، وقال: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤].

وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وأما التعبير بالباء فيرد للمؤمنين والكافرين كما ذكرنا.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

فهذا في المؤمنين.

وقال في الكافرين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وقال: ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

فاتضح الفرق بين التعبيرين.

ونعود إلى آية (يس) وهي قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقد ذكرنا أنه التفت إلى المخاطبين بعدما ذكر العموم، ولم يقل: (فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزى إلا ما كانت تعمل) وذلك أن الظلم منفي عن أن يوقع بكل نفس على جهة العموم فلا تظلم نفس شيئًا. ولو قال: (ولا تجزى إلا ما كانت تعمل) لاحتمل أن يكون المعنى أنه لا تجزى أيّ نفس إلا بمقدار ما كانت تعمل، وهذا المعنى غير صحيح ولا مراد، إذ قد تجزى نفس بأضعاف ما كانت تعمل، وهي نفوس المؤمنين على العموم، فالتفت إلى المخاطبين ليخبرهم بما أخبر ويحذرهم من مغبة أعمالهم.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قد يكون مقصودًا به الكفار خصوصًا، ولهذا المعنى ما يرجحه، ذلك أن الآية وقعت في سياق الكلام على الكفار وذلك ابتداء من قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إلى هذه الآية.

ويرجح ذلك أيضًا قوله بعد البعث: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ فيكون هذا التعبير مقصودًا بمعنييه، أي أنكم لا تجزون إلا بمقدار ما كنتم تعملون ومن جنسه.

وقد يكون مرادًا به العموم، فيكون المقصود به أنكم لا تجزون إلا من جنس أعمالكم.

فكان الالتفات في نحو هذا أولى.

وقد تقول: لقد قدم نفي الظلم على الجزاء في هذه الآية.

وفي آية أخرى قدم الجزاء على نفي الظلم فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

فما السبب؟

فنقول: إن جو سورة (يس) وسياق الآيات فيها إنما هو في العلاقات بين أفراد المجتمع وظلمهم لبعضهم، فقد ذكر قبل هذه الآيات ظلم أصحاب القرية للمرسلين، وقتلهم الرجل الصالح ظلمًا، وذكر ظلم الموسرين للفقراء بأن منعوهم حقهم، ثم ذكر أن الصيحة تأخذهم وهم يختصمون فيما بينهم.

فقدم نفي الظلم الذي يقع بين العباد على العمل الذي هو عام، ويدخل فيه الظلم وغيره.

وأما في غافر فلم يرد ما يتعلق بعلاقة الفرد بالمجتمع وتظالمهم فيما بينهم، بل الكلام فيها على العقيدة. وليس في السورة موطن واحد ذكر فيه ظلم العبد للعبد، حتى أنه في الآية الخامسة وهي قوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ لم يذكر الأخذ وإنما ذكر الهمّ بالأخذ.

فناسب تقديم الجزاء على نفي الظلم، والله أعلم.

* * *

﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾

* * *

يصح أن يكون هذا الكلام من جملة ما يقال للكفار، وهو تتمة

للكلام السابق ، فقد قيل لهم : ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ثم ذكر لهم عن أصحاب الجنة فقال : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ وذلك زيادة لحسرتهم بأن يروا ما أعدّ لهم من أنواع العذاب ويخبروا بنعيم أهل الجنة .

كما يصح أن يكون هذا استئناف كلام جديد وإخبارًا عامًّا لنا عن أصحاب الجنة ونعيمهم لنقتدي بسيرتهم .

فهو على تقدير كونه خطابًا للكافرين يوم القيامة يكون تنديمًا لهم وزيادة في حسرتهم .

وعلى تقدير كونه إخبارًا لنا عن نعيمهم في ذلك اليوم يكون باعثًا لنا لنكون منهم .

وقد صيغ هذه الصيغة الاحتمالية لتحتمل الأمرين ، فهو من ناحية تنديم للكافرين يوم القيامة ، وهو من ناحية أخرى حث لأهل الدنيا ، فجمع بين الأمرين . ولو خاطب أصحاب الجنة قائلاً : (يا أصحاب الجنة إنكم اليوم في شغل فاكهون . . .) كما خاطب الكافرين بقوله : ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لم يجمع هاتين الفائدتين .

جاء في (روح المعاني) : «قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ على تقدير كون الخطاب السابق خاصًّا بالكفرة من جملة ما سيقال لهم يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم ، فإن الإخبار بحسن حال أعدائهم إثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة على مساءة ، وفي حكاية ذلك مزجرة لهؤلاء الكفرة عما هم عليه ومدعاة إلى الاقتداء بسيرة المؤمنين .

وعلى تقدير كونه عامًّا ابتداء كلام وإخبار لنا بما يكون في يوم القيامة

إذا صار كل إلى ما أعد لهم من الثواب والعقاب» (١).

لقد أخبر عن أصحاب الجنة بأنهم في شغل ، والشغل هو الأمر الذي يشغل المرء عما سواه فلا يلتفت إلى غيره إما لكونه موجبًا للمسرة أو للمساءة. ولما قال: (فاكهون) علم بأنهم مشغولون بالنعيم فلا يعنيهم أمر أهل النار ، ولا أهوال يوم القيامة ، ولا غير ذلك من الأمور.

ونكّر الشغل ليدل على أن هذا الشغل ليس مما نعهد من الشغل ولا مما نعرف وإنما هو شغل آخر ، يكفي أن يقال: إنهم فاكهون فيه. ولا يحسن التعريف ههنا ؛ لأن الشغل المذكور غير معلوم ولا معروف ، فأنت إذا سألت شخصًا: أين أبوك؟ فقال لك: هو في الشغل ، دل ذلك على أنه في الشغل المعهود الذي يشغله كل يوم أو مما يشغله في العادة.

فإن قال لك: هو في شغل ، علمت أنه ليس في شغله المعهود ، وإنما هو شغل آخر طرأ له ولا تعلم أهو شغل في خير أم في مساءة ، فقال تعالى: إنهم فاكهون في شغلهم.

جاء في (التفسير الكبير): «قوله: (في شغل) يحتمل وجوهًا:

(أحدها): في شغل عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب ، فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب ، وقوله: (فاكهون) يكون متممًا لبيان سلامتهم ، فالله لو قال: (في شغل) جاز أن يقال هم في شغل عظيم من التفكر في اليوم وأهواله ، فإن من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع في ماله يقول: أنا مشغول عن هذا بأهم منه. فقال: (فاكهون) أي شغلوا عنه باللذة والسرور ، لا بالويل والثبور.

و(ثانيها): أن يكون ذلك بيانًا لحالهم ولا يريد أنهم شغلوا عن

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣٤.

شيء ، بل يكون معناه : هم في عمل ، ثم بين عملهم بأنه ليس بشاق ، بل هو ملذ محبوب» [١] .

وجاء في (روح المعاني) : «والشغل هو الشأن الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤونه لكونه أهم عنده من الكل ، إما لإيجابه كمال المسرة أو كمال المساءة ، والمراد ههنا هو الأول ، وتنكيره للتعظيم ، كأنه شغل لا يدرك كنهه ، والمراد به ما هم فيه من النعيم الذي شغلهم عن كل ما يخطر بالبال . . . وأفرد الشغل باعتبار أنه نعيم ، وهو واحد بهذا الاعتبار» [٢] .

إن هذا التعبير يحتمل أن يكون قد أخبر عن أصحاب الجنة بخبرين وهما : أنهم في شغل وأنهم فاكهون ، فيكون (في شغل) خبرًا أول و(فاكهون) خبرًا ثانيًا على النحو الآتي :

إن أصحاب الجنة (في شغل) ، (فاكهون) .

كما يحتمل أن يكون الخبر هو (فاكهون) و(في شغل) متعلقًا به ، أي أنهم فاكهون في الشغل . أي :

أن أصحاب الجنة (فاكهون في الشغل) أي متمتعون بالشغل .

وبهذا جمع عدة معان وهي : أنهم في شغل ، وأنهم فاكهون على العموم ، سواء كان ذلك في الشغل أم في غيره ، وأنهم فاكهون في الشغل .

إنه يصح في العربية أن يقال : (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهين) فيكون الخبر (في شغل) ، و(فاكهين) حالاً من الجار

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ٩١ .

(٢) روح المعانى ٢٣/ ٣٤ .

والمجرور ، غير أن ما قاله أولى ؛ ذلك لأنه لو قالها بالنصب لكان المعنى أنهم فاكهون عند شغلهم فيكون التمتع في الشغل ، أما في غيره فهو مسكوت عنه ، فقد يكونون فاكهين أو غير فاكهين.

فجاء به مرفوعًا ليعم ذلك كل الأحوال والأوقات.

جاء في (روح المعاني): «والجار مع مجروره متعلق بمحذوف وقع خبرًا لإن ، و(فاكهون) خبر ثان لها ، وجوز أن يكون هو الخبر و(في شغل) متعلق به أو حال من ضميره. . .

والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها لتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ، وفيه على تقدير خصوص الخطاب زيادة لمساءة المخاطبين» [١].

ومعنى (فاكهون): متنعمون متمتعون متلذذون بما يحصل لهم[٢]. يقال: (تفكهت بالشيء) أي تمتعت به[٣].

وقد قدم (في شغل) على (فاكهون) للاهتمام وذلك لبيان أنهم في الشغل فاكهون ، إذ من المعتاد أن يتفكه الإنسان في الراحة من الشغل لا في الشغل ، فذكر أنهم في شغل فاكهون ، إذ إن هذا الشغل ليس كالأشغال الأخرى التي ترهق المرء وتضنيه.

هذا في الشغل فكيف في غيره مما يتفكه فيه الإنسان؟!

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٣٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩١.

(٣) لسان العرب (فكه) ١٧/ ٤٢٠.

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يحتمل أن يكون هذا الكلام مستأنفًا وهو إخبار جديد عنهم مع أزواجهم فيكون (هم) مبتدأ وما بعده خبرًا.

ويحتمل أن يكون (هم) تأكيدًا للضمير المستتر في (فاكهون)، و(أزواجهم) معطوفًا عليه، على معنى: (إن أصحاب الجنة في شغل فاكهون هم وأزواجهم).

كما تقول: مررت برجلٍ قائم هو وزيد.

فعلى هذا التقدير يكون المعنى: إن أصحاب الجنة مع أزواجهم في شغل فاكهون.

فالأزواج يشاركنهم في الشغل والتفكه.

ثم أخبر عنهم جميعًا أنهم في ظلال على الأرائك متكئون.

والفرق بين التقديرين أنه على التقدير الأول، أي على إعراب (هم) مبتدأ يكون المعنى على النحو الآتي:

(إن أصحاب الجنة في شغل فاكهون) فلم يذكر أن أزواجهم في شغل فاكهون، وإنما يدل عليه العموم باعتبار أنهن من أصحاب الجنة.

ثم أخبر عنهم وعن أزواجهم بقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ . . .﴾ فأخبر عنهم جميعًا بأنهم في ظلال وأنهم متكئون على الأرائك. فهذا إخبار عنهم بالنص، والأول إخبار من حيث العموم.

وعلى التقدير الثاني يكون المعنى:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾

ثم أخبر عنهم جميعًا بأنهم في ظلال على الأرائك متكئون.

فعلى التقدير الأول يكون الكلام جملتين :

الجملة الأولى : إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون .

والجملة الثانية تفسر هذا الشغل وتبينه وهي قوله : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ .

وعلى التقدير الثاني يكون الكلام جملة واحدة وأخبار (إن) متعددة ، وهي (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم) (في ظلال) (على الأرائك متكئون) .

وعلى التقديرين تكون الأزواج يشاركنهم في الشغل والتفكه ، غير أنه على أحد التقديرين تكون الدلالة بالمعنى العام ، والتقدير الآخر تكون الدلالة بالنص .

جاء في (الكشاف) : «(هم) يحتمل أن يكون مبتدأ ، أو أن يكون تأكيدًا للضمير في (شغل) وفي (فاكهون) على أن أزواجهم يشاركنهم في ذلك الشغل والتفكه والاتكاء على الأرائك تحت الظلال» [(١)] .

وجاء في (البحر المحيط) : «ويجوز في (هم) أن يكون مبتدأ ، وخبره (في ظلال) ، و(متكئون) خبر ثان ، أو خبره (متكئون) و(في ظلال) متعلق به ، أو يكون تأكيدًا للضمير المستكن في (فاكهون) ، و(في ظلال) حال ، و(متكئون) خبر ثان لإنّ ، أو يكون تأكيدًا للضمير المستكن في (شغل) المنتقل إليه من العامل فيه . وعلى هذا الوجه والذي قبله يكون الأزواج قد شاركوهم في التفكه والشغل والاتكاء على الأرائك وذلك من جهة المنطوق .

وعلى الأول شاركوهم في الظلال والاتكاء على الأرائك من حيث

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩١ .

المنطوق ، وهن قد شاركنهم في التفكه والشغل من حيث المعنى»[١].

وقد تقول: ولم قال في الجملة الأولى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بإن ، ولم يقل في الجملة الثانية: (إنهم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون) بإن؟ .

والجواب: أنه لو قال ذلك لم يحتمل معنى التوكيد ، وإنما سيحتمل معنى واحدًا وهو (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون).

(إنهم وأزواجهم في ظلال . . .).

فتكون الآية الثانية إخبارًا مستأنفًا وليس فيه نص على أن الأزواج يشاركنهم في الشغل والتفكه ، فكان التعبير القرآني أولى لأنه يحتمل جميع الوجوه بالنص والمعنى.

وقد تقول: ولم قدم (على الأرائك) على (متكئون)؟ .

فنقول: إنه لما قدم الشغل في الآية قبلها ثم قال بعده: (فاكهون) قدّم مكان الشغل في الآية التالية فقال: ﴿فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ ، وقال بعده: (متكئون) ، فقابل بين الشغل ومكانه وبين حالتهم في الموطنين. إذ إن هذه الآية مرتبطة بالآية قبلها وهي بيان لما تقدم فيها.

هذا علاوة على فواصل الآي التي تقتضي ذلك من جهة أخرى.

* * *

﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧﴾

معنى (يدّعون): يطلبون ، ومعناه أيضًا: يتمنّون ، يقال: ادّع عليّ ما شئت ، أي تمنّه[٢] ، فلهم ما يطلبون وما يتمنون.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٢.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١



لقد قدم (لهم) على (فيها) وأخر الفاكهة ، وذلك أن الكلام عليهم ، فقد قال: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ. . .﴾ فناسب أن يقدم ما تعلق بهم.

ثم قال: (فيها) أي في الجنة ، وهو نظير ما مر من قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ ، وقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ فقوله: (لهم) يقابل (أصحاب الجنة) ويقابل (هم وأزواجهم) فإن الضمير في (لهم) يعود عليهم ، وقوله: (فيها) يقابل (في شغل) ويقابل (في ظلال) لأن ذلك فيها ، أي في الجنة.

لقد وردت في القرآن الكريم تعبيرات مختلفة من نحو هذا التعبير اختلف فيها التقديم والتأخير وذلك نحو قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣١].

وقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

فقدم في الآيتين (فيها) على (ما يشاؤون).

غير أنه قال في مكان آخر: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ۖ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ، فقدم (ما يشاؤون) وأخر (فيها).

وذلك بحسب ما يقتضيه المقام.

أما قوله تعالى في سورتي النحل والفرقان: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ﴾ بتقديم (فيها) على (ما يشاؤون) فلأن الكلام كان على الجنة.

قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠ ـ ٣١].

وقال: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ

جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ [الفرقان: ١٥ ـ ١٦].

فالكلام كما ترى على الجنة في الموطنين، فقدم ضمير الجنة (فيها) على (ما يشاؤون).

أما آية (ق) التي فيها قدم (ما يشاؤون) على (فيها) فلأن الكلام على من سيدخل الجنة. قال تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٢ ـ ٣٥].

فقدم (ما يشاؤون) على ضمير الجنة.

والضمير في (يشاؤون) كما هو معلوم يعود على من سيدخل الجنة.

فناسب كل تعبير مكانه.

وقد تقول: لقد قال في آية (يس) هذه: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾.

وقال في سورة فصلت: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣١].

فكرر (فيها) ولم يكررها في (يس). فما الفرق؟

والجواب أن آية (يس) فيمن هم في الجنة يتنعمون فيها هم وأزواجهم.

أما آية فصلت فالكلام فيها قبل دخول الجنة وهو عند الموت، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

فالملائكة تتنزل عليهم تبشرهم بالجنة فقال: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ

أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ فكرر (فيها) ليعلمهم أن كلا الأمرين إنما هو في الجنة.

ولو قال: (ولكم ما تدّعون) لاحتمل أن يكون ذلك قبل دخول الجنة عند الخطاب، فأعلمهم أن ذلك إنما يكون في الجنة.

أما آية (يس) فالكلام فيها على من في الجنة فقال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ لأنهم فيها، فلا يحتاج إلى ما كرر في آية فصلت، والله أعلم.

وقد تقول: ولم قال في آية (يس): ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾.

وقال في فصلت: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾؟

والجواب: أن آية (يس) في أصحاب الجنة عمومًا، أما آية فصلت فهي في صنف معين من أهل الجنة وهم: الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا.

ولا شك أن هؤلاء أعلى منزلة من عدد غير قليل من أهل الجنة، فإن الاستقامة هي الالتزام بالشرع عملاً وانتهاء والاستمرار على ذلك، وليس كل أهل الجنة كذلك، فإن منهم من لم يستقم في حياته ولم يلتزم بحدود الشرع، غير أن الله أدخله الجنة تفضلاً منه سبحانه.

فقال في الذين استقاموا: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾، وقال في أصحاب الجنة عمومًا: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، فكان الجزاء للذين استقاموا أعلى، فإن ذلك أعم من مجرد الفاكهة، فالفاكهة ليست إلا جزءًا مما تشتهي النفس.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن هؤلاء الذين استقاموا على الشرع أبعدوا أنفسهم عن الشهوات وحرموها كثيرًا مما كانت تطلب، فأطلقها الله لهم في الآخرة بمقابل الحرمان في الدنيا فقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾.

وقد تقول: وما الفرق بين ما تشتهي وما تدّعي؟

والجواب: أن ما تدّعيه معناه: ما تريده وما تطلبه بالقول، وما تشتهيه: هو ما تريده النفس سواء طلبته أم لم تطلبه.

فقد تشتهي النفس شيئًا ولا تطلبه لأسباب عدة، فذكر تعالى أن لهؤلاء الأمرين كليهما، فإذا اشتهت أنفسهم شيئًا كان لهم ذلك وإن لم يطلبوه. فإنه يكفي أن يخطر في أنفسهم خاطر رغبة في شيء فيحققه الله لهم وإن لم تجر ألسنتهم بذكره. ولهم أيضًا ما يطلبون، فذكر ما يدور في النفس وما يطلبه اللسان، والله أعلم.

* * *

﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨ ﴾

أي يحييهّم رب العزة قائلاً: (سلام عليكم).

قيل: ويحتمل أن يكون معنى (سلام) ههنا: خالصًا لهم لا شوب فيه.

أي ولهم ما يدّعون خالصًا لهم على أن «(ما تدعون): مبتدأ، وخبره (سلام)، بمعنى ولهم ما يدّعون سلام خالص لا شوب فيه»[١]، قال ذلك رب العزة قولاً يعدهم به. وهذا معنى قوله: ﴿ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾[٢].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل (سلام عليكم)؟

والجواب: أنه لم يقل ذلك ليشمل المعنيين: التحية وأنه خالص لهم.

ولو قال: (سلام عليكم) لم يحتمل إلا معنى واحدًا وهو التحية.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩١، وينظر فتح القدير ٤/ ٣٦٥.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١.

وقد تقول: قال ههنا: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

وقال في فصلت: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢].

فما الفرق؟

والجواب: أننا ذكرنا أن آية (يس) فيمن هو في الجنة، وأن آية فصلت فيمن لم يدخلها بعد وإنما هو يبشر بها.

فقال في (فصلت): (نزلاً) لأن النزل ما هُيّئ للضيف إذا نزل عليه من طعام ومكان، ومعنى: «أقمت لهم نزلاً: أي أقمت لهم غذاءهم وما يصلح معهم أن ينزلوا عليه»[1].

ومعنى ذلك: أن هذا ما أعده لهم عند نزولهم في الجنة.

وقال: ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ فذكر المغفرة لأن الحساب لم يحصل بعد وهم يخافون من ذنوبهم ويرجون أن يغفرها الله لهم، فطمأنتهم الملائكة بقوله: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

أما آية (يس) فإنها في أهل الجنة وهم يتنعمون بها وقد انتهى الحساب وليس ثمة معاصٍ أو ذنوب يرجون مغفرتها فقال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فذكر كلمة (رب) لأنها الأنسب، فالرب هو المربي وهو متولي أمرهم وراعي أحوالهم يرعاهم ويكرمهم وينعمهم. ووصفه بالرحمة لأن رحمته مما يحتاجون إليها البتة، فالجنة هي مستقر رحمته، فلا تنقطع رحمته عنهم أبدًا.

لقد جمع الله في هذه الآيات القليلة كل أسباب السعادة والنعيم، وأبعد عنهم كل دواعي الضيق والبرم والملل.

---

(١) ينظر لسان العرب (نزل) ١٤/ ١٨١.

١ ـ فقد ذكر أن أصحاب الجنة في شغل. فأبعد عنهم الملل الحاصل من الفراغ والبرم الذي يصدر عنه، فقد يكون الفراغ مملاً يبرم الإنسان به.

٢ ـ وليعلم أن هذا الشغل ليس من الشغل المضني الممل المزعج الذي يرهق صاحبه قال: (فاكهون) أي متنعمون متمتعون.

فأبعد الملل من الفراغ، والضيق والبرم من الشغل.

٣ ـ وأبعد عنهم وحشة الوحدة التي تقتل الإنسان وتدخل الكآبة عليه مهما كان النعيم الذي يتقلب فيه فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾، فذكر أحب الصحبة إليهم وألصقها بهم وهي التي يفر الإنسان إليها في الأخير. ففي آخر المطاف يترك المرء كل صحبة ثم يعود إلى زوجه.

وإذا قصد بالأزواج أمثالهم وقرناءهم فذلك يعم الجميع.

٤ ـ وذكر حسن المكان وجماله فقال: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ مما يدل على الشجر، وهو يعم أيضًا أنواع الظلال ولا يقتصر على ظل من نوع واحد أو ما يكون من شيء واحد.

٥ ـ ثم ذكر بهجة المكان ونعيمه وأن فيه أسباب الراحة فقال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾.

٦ ـ وذكر أهنأ الجلسات والهيئات وأروحها مما يدل على تمام الراحة فقال: ﴿مُتَّكِئُونَ﴾.

٧ ـ وذكر فيها ألذ ما يؤكل من الطعام وأهنأه وأدل على سعة العيش وهي الفاكهة.

٨ ـ ثم لئلا يظن أن ليس لهم إلا الفاكهة ذكر أن لهم ما يتمنون وما يطلبون.

٩ ـ ثم ذكر الأمن والسلام العام، فإن الخوف من فقدان هذا النعيم أو تغيره أو حصول شيء مما يكره ينغص العيش فذكر السلام.

١٠ ـ وقد أطلق السلام ولم يقيده بشيء فشمل كل معاني السلام.

١١ ـ ثم أبعد عنهم المجرمين وفصلهم منهم فقال: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]؛ أي انفصلوا وكونوا على حدة فكان أمن وسلام مطلق.

١٢ ـ وقال: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ أي راع لهم متولٍّ أمرهم.

١٣ ـ ووصفه بالرحمة قائلاً: (رحيم) للحاجة إلى الرحمة على كل حال.

فكانت السعادة في المكان والخلان، وتحقق الأماني والأمان، ورعاية الرحيم الرحمن.

اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

* * *

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

* * *

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أي انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]،

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] [١].

وورود هذه الآية بعد قوله: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ من ألطف المناسبات، ذلك أن السلام إنما يكون عند خلو المكان من المجرمين، فإن كان فيه مجرمون فلا سلام، فمازهم من فريق المؤمنين ومكانهم فعمهم السلام.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ انفردوا بعضكم عن بعض، فيكون لكل كافر بيت من نار يكون فيه لا يرى ولا يُرى[٢].

جاء في (التفسير الكبير): «(امتازوا) بعضكم عن بعض، على خلاف ما للمؤمن من الاجتماع بالإخوان الذي أشار إليه بقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضًا، ولا عذاب فوق الفرقة» [٣].

قال في (روح المعاني): «ولعل هذا بعد زمان من أول دخولهم، فلا ينافي عتاب بعضهم بعضاً الوارد في آيات أُخر كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]» [٤].

ويبدو إن صح هذا القول أن التمايز أول ما يكون بينهم وبين المؤمنين، ثم يكون بينهم فيما بعد، والله أعلم.

* * *

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٦.
(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١، روح المعاني ٢٣/ ٣٩.
(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٥.
(٤) روح المعانى ٢٣/ ٣٩.

﴿ ۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

بعد أن خاطب المجرمين وأمرهم بالانفراد عن المؤمنين خاطب عموم بني آدم وذكّرهم بما عهد إليهم من ترك عبادة الشيطان وأمرهم بعبادة الله وحده ؛ لأن عاقبة المجرمين تلك إنما كانت بسبب عبادة الشيطان وعدم طاعة الله.

ومعنى (ألم أعهد) ـ كما يقول المفسرون ـ ألم أوص ، والعهد: الوصية ، وعهد إليه إذا وصاه[١].

والحقيقة أن ثمة اختلافًا بين العهد والوصية ، فإن العهد أقوى من الوصية ، ذلك أن العهد يكون بمعنى الموثق واليمين يحلف بها الرجل[٢].

والفرق بين الذي يعهد والذي يوصي أن العاهد هو صاحب الشأن ، أما الموصي فقد لا يكون صاحب الشأن ، فقد يقول لك صديقك: أوصيك بفلان خيرًا ، وأوصيك ألا تشارك فلانًا في تجارة ، وأوصيك باستشارة فلان وأخذ نصيحته. فهذه وصية من باب النصح وليس الموصي صاحب الشأن ، بخلاف ما لو قال: أعهد إليك أمر فلان ، أي أنزعه من عهدتي إلى عهدتك ، فتكون أنت مسؤولاً عنه.

ومعنى عهد إليه: كلفه وحمله الأمر وجعله مسؤولاً عنه. وليست (وصى) كذلك. فالعاهد هو صاحب الشأن الذي بيده الأمر.

ومن هذا يتضح أن العهد أقوى من الوصية.

ولم يسند فعل العهد في القرآن الكريم إلى غير الله تعالى ، بخلاف

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩ ، التفسير الكبير ٢٦/ ٩٦.

(٢) لسان العرب (عهد) ٤/ ٣٠٥.

فعل الوصية فإنه أسند إلى الله وإلى غيره ، قال تعالى : ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وقال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [يس: ٦٠].

وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

في حين قال : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال : ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١٢].

وقال : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ١٣١].

وقد أسند هذا العهد إلى نفسه ـ شأن غيره من أفعال العهد ـ لأهمية هذا الأمر وليحملوه محمل الجد والطاعة والعمل به على أتم حال. فلم يبن الفعل للمجهول ولم يسنده إلى الرسل ، فلم يقل : (ألم يُعهد إليكم) أو (ألم يعهد إليكم رسلي) ذلك أن هذا الأمر إنما هو غاية ما خلق له الثقلان ، فإنهم لم يخلقوا إلا لعبادته سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وعهده إليهم إنما جاء على ألسنة الرسل بما أنزله عليهم سبحانه[1]. ونداؤهم ببني آدم إشارة إلى عداوة الشيطان لأبيهم آدم وإخراجه من الجنة ، وذلك ليذكروا ويأخذوا حذرهم. ونظير ذلك أن تذكّر شخصًا أوقع شخص آخر بأبيه مصيبة فادحة عمدًا من شدة بغضه له ، ثم جاء يشارك ابنه في مال فينصحه ناصح محذرًا فيقول له : يا ابن فلان ، تذكيرًا له وتحذيرًا.

---

(١) ينظر التفسير الكبير ٢٦/ ٩٦ ، روح المعاني ٢٣/ ٤٠ ، الكشاف ٢/ ٥٩١

جاء في (روح المعاني): «والنداء بوصف البنوة لآدم كالتمهيد لهذا التعليل والتأكيد لعدم جريهم على مقتضى العلم، فهم والمنكرون سواء»[١].

* * *

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾

أي لا تطيعوه فيما يوسوس به إليكم ويزينه في قلوبكم[٢].

وعبر عن ذلك بالعبادة لا بالطاعة لأن العبادة ليست مجرد الطاعة، فأنت قد تطيع شخصًا ولا تعبده كطاعة أولي الأمر وطاعة الوالدين وغيرهم. ثم إن الطاعة قد تكون عن طريق الإكراه، فقد يكرهك من ينفذ أمره على الطاعة ويحملك عليها، وهذه لا تسمى عبادة، وإنما العبادة تعني الطاعة مع الخضوع والاستسلام والانقياد للأمر والتذلل[٣].

جاء في (روح المعاني): «والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به إليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها في مقابلة عبادته عز وجل»[٤].

وعبادة الشيطان لا تختص بالسجود له أو ذكره على سبيل التعظيم أو إقامة الشعائر له، وإنما تكون بتنفيذ مقاصده ومراده واتّباع خطواته، فكل ذلك عبادة له، وكل عبادة لغير الله إنما هي عبادة للشيطان، ولذلك سمى الله سبحانه عبادة الأصنام عبادة للشيطان، قال تعالى مخبرًا عن

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.
(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩١، التفسير الكبير ٢٦/ ٩٦.
(٣) ينظر لسان العرب (عبد) ٤/ ٢٦٠ ـ ٢٦٣.
(٤) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.

سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ . . . يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٤].

فقال له أبوه: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

فجعل عبادة الأصنام عبادة للشيطان، يدل على ذلك قوله: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾، وردُّ أبيه عليه ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ﴾.

* * *

﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

تعليل للنهي، فإن ذلك يوجب الابتعاد منه لا عبادته واتباعه.

ومعنى (مبين) ظاهر العداوة مظهر لها، فإن معنى (أبان) ظهر وأظهر. تقول: (أبان الرجل) أي بان أمره وظهر، و(أبان الرجل) أظهر أمره وبينه. فإن الشيطان ظاهر العداوة ومظهر لها، فكيف يعبده الناس؟!.

إن العدو قسمان:

ـ قسم مظهر لعداوته مبين لها.

ـ وقسم مخفٍ لها غير مبين.

وإن العداوة قسمان:

ـ عداوة ظاهرة بينة وإن أراد صاحبها إخفاءها.

ـ وعداوة خفية.

وإن الشيطان عدو ظاهر العداوة ليس في عداوته خفاء، وإنه مظهر لها غير مخفيها. وقد أظهر هذه العداوة وذكرها لربه صراحة: ﴿ قَالَ فَبِمَآ

أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

وقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩].

فكيف يعبد من دون الله مع كل ذلك؟

وقد قدم الجار والمجرور (لكم) فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ولم يقل: (إنه عدو مبين لكم) وذلك لغرض الاختصاص، فهو عدو لنا خاصة، وكل همه أن يضلنا ويبعدنا عن طاعة ربنا فيدخلنا النار.

ولو قال: (إنه عدو مبين لكم) لكان المعنى أن الإبانة لنا، أما العداوة فليست لنا نصًّا بل ربما كانت لنا أو لغيرنا.

* * *

﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

أي ما نهيتكم عنه من عبادة الشيطان وأمركم بعبادتي إنما هو صراط مستقيم لا صراط أقوم منه، وكل طريق آخر هو غير مستقيم. وتنكير الصراط لا يعني أن ثمة طرقًا أخرى مستقيمة. ولا يعني أنه أحد الطرق المستقيمة بل المقصود وصفه بالاستقامة. فقد ينكّر الشيء وهو واحد ولا شيء معه كقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، إذ المقصود وصف الرب بالرحمة ووصف المنزل بأنه حكيم حميد.

وكذلك ههنا فإن المقصود وصف الطريق بالاستقامة، فالاستقامة هي المطلوبة على كل حال.

جاء في (روح المعاني): «وفيه أن المطلوب الاستقامة والأمر دائر

معها وقليلها كثير»[١].

وقيل: إن التنكير للمبالغة والتعظيم[٢].

جاء في (الكشاف): «﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ يريد: صراط بليغ في بابه، بليغ في استقامته، جامع لكل شرط يجب أن يكون عليه.

ويجوز أن يراد: هذا بعض الصُّرُط المستقيمة توبيخًا لهم عن العدول عنه، والتفادي عن سلوكه، كما يتفادى الناس عن الطريق المعوج الذي يؤدي إلى الضلالة والتهلكة. كأنه قيل: أقل أحوال الطريق الذي هو أقوم الطرق أن يعتقد فيه كما يعتقد في الطريق الذي لا يضل السالك، كما يقول الرجل لولده وقد نصحه النصح البالغ الذي ليس بعده: هذا فيما أظن قول نافع غير ضار، توبيخًا له على الإعراض عن نصائحه»[٣].

وذكر الصراط إشارة إلى أن الإنسان سالك مجتاز، ولذا كانت به حاجة إلى الطريق المستقيم يسير عليه في الحياة الدنيا ويجتاز منه إلى الآخرة مفضيًا إلى دار السعادة.

فالإنسان لابد له من الصراط المستقيم يسير على وفقه في الحياة لئلا يضل ويشقى ويفضي به إلى جنان النعيم عند الرحمن الرحيم.

جاء في (التفسير الكبير): «وفي ضمن قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ إشارة إلى أن الإنسان مجتاز، لأنه لو كان في دار إقامة فقوله (هذا صراط مستقيم) لا يكون له معنى، لأن المقيم يقول: وماذا أفعل بالطريق وأنا من المقيمين؟»[٤].

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤١.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.

(٣) الكشاف ٢/ ٥٩٢.

(٤) التفسير الكبير ٢٦/ ٩٩.

وقدم النهي عن عبادة الشيطان على الأمر بعبادته سبحانه لأكثر من سبب :

منها : أن عبادة الشيطان تفسد عبادة الله ، فإن عبادة الله إذا داخلتها عبادة الشيطان فسدت وحبط العمل . فعبادة الله مع عبادة الشيطان شرك لا تنجي صاحبها من النار ولا تدخله الجنة .

إن عبادة الشيطان مع عبادة الله تضر ، وعبادة الله مع عبادة الشيطان لا تنفع . وعلى أية حال فعبادة الشيطان تقود إلى النار حتى لو اقترنت بعبادة الله ، فنهى عما يوقع الفرد في النار ولا ينفع معه عمل .

ومن عبادة الشيطان عبادة الأصنام سواء كانوا حجرًا أم بشرًا ، فإن عبادة الأصنام إذا اقترنت بعبادة الله أفسدتها وقادت صاحبها إلى النار .

ومنها : أن ترك عبادة الشيطان من باب دفع الضرر ، وأن عبادة الله من باب جلب المنفعة ودفع الضرر . غير أنها لا تنفع ولا تدفع إلا إذا تركت عبادة الشيطان ، فعبادة الله لا تؤتي ثمرتها إلا بترك عبادة الشيطان ، فالنهي عن عبادة الشيطان مقدم لتؤدي عبادة الله غايتها وتؤتي أكلها .

ومنها : أن تنفيذ النواهي أيسر من تنفيذ الأوامر ، فإن الإنسان يستطيع أن يكف نفسه عن أشياء كثيرة ، لكنه قد لا يستطيع القيام بأعمال كثيرة . فالكف عن المحارم أيسر من القيام بالطاعات ، ولذا قال ﷺ : «ما أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فانتهوا عنه» أو كما قال .

فالإنسان يستطيع أن يترك العبادات ولكنه يثقل عليه فعلها .

فبدأ بما هو أيسر عليه .

ومنها : أنك إذا وجدت إنسانًا ضالاً عن الطريق فإنك لابد أن توقفه عن المضي فيه أولاً ثم تعيده إلى الطريق المستقيم ، وعبادة الشيطان

ضلال فلا بد من تركها أولاً ليخلو القلب إلى الله.

ومنها: أنه وجد أكثر بني آدم يعبدون الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فنهاهم عما هم فيه لتستقيم عبادتهم لله وتصح، وذلك نحو أن تجد شخصًا ساقطًا في مستنقع أو راكسًا في الوحل فلابد أن تخرجه مما هو فيه أولاً ثم تقوم بتنظيفه بعد ذلك.

وقيل أيضًا: إن «تقديم النهي على الأمر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية.

قيل: وليتصل به قوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ بناء على أن الإشارة إلى عبادته تعالى لأنه المعروف في الصراط المستقيم» [1].

* * *

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(الجِبِلّ) الخلق الكثير [2]، والأمة العظيمة [3]. فقوله: ﴿أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ يعني أنه أضل خلقًا كثيرًا. ثم وصفه مع ذلك بالكثرة، فدل ذلك على تعاظم الجموع وكثرتها، فدل ذلك على المبالغة في الكثرة. ولذا لا يسدّ قولنا: (خلقًا كثيرًا) مسد (جبلاً كثيرًا)، فإن قولنا: (خلقًا كثيرًا) يعني (جِبِلاً)، ثم وصف الجبلّ بالكثرة للدلالة على الكثرة الكاثرة ممن أضلهم الشيطان.

إن مادة (جبل) التي أخذ منها لفظ (الجِبِلّ) تجمع ثلاثة معان:

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤٠.

(٢) لسان العرب (جبل) ١٣/ ١٠٤، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٦.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٣٤٤.

١ ـ الكثرة كما ذكرنا. يقال: حيّ جبْل، أي كثير.

٢ ـ الغلظة والشدة، ومنه الجبل لما عظم من أوتاد الأرض وطال. ويقال: (أجبل الشاعر) إذا صعب عليه القول كأنه انتهى إلى جبل منه.

والجَبْل: الضخم.

٣ ـ القبح، يقال: أنت جَبِل وجَبْل، أي قبيح[١].

ولعله اختار هذه اللفظة دون (الخلق) ليجمع هذه المعاني كلها.

فإن ذلك يدل على الكثرة كما ذكرنا، ويدل على أن هؤلاء الذين أضلهم الشيطان إنما هم عتاة ظلمة غلاظ الطباع قساة القلوب كحجارة الجبل أو أشد قسوة لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، متجبرون على خلق الله ولا سيما الضعفاء منهم.

وقد وصف الله سبحانه هؤلاء الضُّلاَّل بالقسوة فقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الحج: ٥٣]، وقال: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢].

ومما يدل على ما ذكرناه ما فعله أصحاب القرية بالرسل وبمن آمن بهم مما ذكره في السورة، فاختيار لفظ (الجِبِلّ) مناسب لما ورد في السورة أيضًا.

كما يدل ذلك على قبح بواطنهم وسوء معتقدهم وأفعالهم؛ فإن عبادة

---

(١) انظر لسان العرب (جبل) ١٣/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

الشيطان تدع القلوب سوداء ، والنفوس مظلمة قبيحة ، بخلاف عبادة الله؛ فإنها تنير القلوب وتزكي النفوس وتزين الباطن ، فجمع بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ هذه المعاني كلها ، ولا تؤدي كلمة (خلق) ما أدته كلمة (جبلّ).

هذا إضافة إلى أن جرس الكلمة وبناءها يوحي بالثقل ، فإن كلمة (جبلّ) ثقيلة ثقل الضلال وضغطه على النفوس ، وثقل الغلظة والشدة ، وثقل القبح على النفوس.

لقد بين الله في هذه الآية عداوة الشيطان الظاهرة والمستمرة ، فإنه لم يكتف بإغواء أبيهم آدم وإخراجه من الجنة ، بل أضل من أبنائه خلقًا كثيرًا ، أفلا يدعو هذا إلى الاتعاظ وأخذ الحذر منه؟.

وقال: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ دون (أفلم تكونوا تعلمون) ؛ لأن من عنده مسكة من العقل ابتعد عن طريق الشيطان وأخذ حذره منه ، حتى لو لم يكن عنده من العلم شيء ، فإن وجود العقل كاف للابتعاد عن الضرر ومصدره.

وجاء بالفاء في قوله: ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ لإرادة السبب ، أي أليس ذلك سببًا كافيًا للبعد عنه والحذر منه؟

واختيار لفظ (الإضلال) أنسب شيء مع قوله: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ ؛ لأن السالك يريد أن يسلك طريقًا مستقيمًا ، والإضلال إنما هو إبعاد عن الطريق المستقيم.

فالله يهدينا إلى الصراط المستقيم ، والشيطان يضلنا عنه ، فأيهما أجدر بالعبادة؟

جاء في (روح المعاني): «﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم إثر بيان نقضهم العهد ، فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم



كفار خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم.

وإسناد الإضلال إلى ضمير الشيطان لأنه المباشر للإغواء. . .

﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام، أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم، أو فلم تكونوا تعقلون شيئًا أصلاً حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العذاب الأليم» (١).

* * *

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾

* * *

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

بعد أن ذكر الذين أضلهم الشيطان ذكر مآلهم وحالهم، فقد وقفهم على شفير جهنم وقرّعهم قائلاً: انظروا هذه جهنم التي كنتم توعدون فكذبتم بها واتبعتم الشيطان فاصلوها وقاسوا حرها.

جاء في (روح المعاني): «قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنم، أي هذه التي ترونها جهنم التي لم تزالوا توعدون بدخولها على ألسنة الرسل عليهم السلام، والمبلغين

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤١.

عنهم بمقابلة عبادة الشيطان»(١).

لقد قال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ ولم يقل: (تلك) للدلالة على أنها قريبة منهم مرئية، وفي هذا من التبكيت والتقريع والتخويف ما فيه.

وقال: (جهنم) باسمها العلم، ولم يقل: (هذه النار) كما قال في سورة الطور، فإنه قال فيها: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]، ذلك أنه قال في الطور قبل هذه الآية: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، فذكر النار، فناسب أن يقول: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ دون آية (يس).

وقال: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ولم يقل: (التي وُعدتم) للدلالة على استمرار الوعد وتطاوله، ولو قال: (وعدتم) لم يفد الاستمرار.

وبنى الفعل (توعدون) للمجهول ولم يذكر الواعد للدلالة على أن الواعدين كثر، وأنهم جهات متعددة وهم رسل الله والمبلغون عنهم.

وقال: (توعدون) في (يس)، و(تكذّبون) في الطور، لمناسبة كل تعبير سياقه الذي ورد فيه، فإنه تردد في سورة (يس) الوعد، فقد قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقال: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فناسب قوله: ﴿كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقال: (تكذّبون) في الطور لما سبق هذه الآية قوله: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]، فناسب قوله: (تكذبون) في الطور، و(توعدون) في (يس).

* * *

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤١، وانظر التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٠.

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ﴾

اصلوها: أمر من الفعل (صلي النار) أي قاسى حرها[١].

والمعنى: قاسوا حر جهنم اليوم بسبب استمراركم على الكفر في الدنيا.

وقال: (اليوم) لما ذكر الوعد قبلها فقال: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾.

وكانوا يكذبون بهذا الوعد ويسخرون منه قائلين: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فقال لهم: اليوم تنفيذ الوعد الذي كنتم توعدونه فلا تأخير ولا إرجاء.

ولذا تردد ذكر (اليوم) في هذه الآيات بإزاء ذكر الوعود فقال: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا ﴾، وقال: ﴿ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴾، وقال﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾، وقال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

وقال: ﴿ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ للدلالة على استمرارهم على الكفر، ولم يقل: (بما كفرتم) فإن ذلك لا يفيد الدوام والاستمرار. وهو بإزاء قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ الذي يدل على استمرار التذكير والوعد. فدوام الوعد من الرسل وأتباعهم قابله دوام الكفر منهم.

وقوله: (تكفرون) يفيد الإطلاق، فهو لم يقيد الكفر بأي قيد، فلم يقل مثلاً: (بما كنتم تكفرون بالله أو باليوم الآخر) أو غير ذلك.

إن الفعل (تكفرون) يحتمل معنيين:

---

(١) ينظر لسان العرب (صلو) ١٩/ ٢٠١.

الأول: معنى الكفر الذي هو نقيض الإيمان.

والآخر: الكفران الذي هو نقيض الشكر وهو الكفر بالنعم، قال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وكلاهما موجب للنار. ولو قيده لتعين بمعنى واحد دون آخر، فهم كانوا يكفرون بالله وبعموم ما يجب الإيمان به كما كانوا يكفرون بنعمه تعالى.

والسياق يقتضي هذا الإطلاق وإرادة المعنيين، ذلك لأنه تقدم ذكر الرسل وما دعوهم إليه فكفروا وكذبوا.

كما أنه عدد عليهم نعمه وآياته فكفروا بها وجحدوا. فقد ذكر أنه أحيا الأرض الميتة، وأخرج منها حبًّا منه يأكلون، وجعل فيها جنات من نخيل وأعناب، وفجر فيها من العيون ليأكلوا من ثمره. وذكر أنه خلق لهم أنعامًا هم مالكون لها، وأنه ذللها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

فهم كفروا بالله وكفروا بنعمه، فناسب أن يأتي بما يجمع هذين المعنيين فأطلق ولم يقيد.

جاء في (التفسير الكبير) في قوله: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: «وفي هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه:

(أحدها): قوله: (اصلوها)، فإنه أمر تنكيل وإهانة، كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

(والثاني): قوله: (اليوم) يعني العذاب حاضر، ولذاتك قد مضت، وأيامها قد انقضت، وبقي اليوم العذاب.

(الثالث): وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت يكفر بها، وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام، ولهذا كثيرًا ما يقول العبد المجرم: افعلوا بي ما يأمر به السيد ولا تحضروني بين يديه» (١).

وقد تقول: لقد أوجز ههنا فقال: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، وفَصَّل في سورة الطور وأطال فقال: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] فلم ذاك؟.

فنقول: إن كل موطن اقتضى ما ورد فيه، فإن المقام في (يس) مقام إيجاز، وفي الطور مقام تفصيل. فقد قال في (يس): ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ولم يزد على ذلك.

في حين قال في الطور: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ومن النظر في النصين يتضح ما يأتي:

١ ـ أنه فصل في ذكر صفات أصحاب جهنم وعقوباتهم في الطور، وذكر ما لم يذكره في (يس). فإنه لم يزد في (يس) على قوله في أهل النار: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾. في حين قال في الطور: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾.

٢ ـ لما فصل في ذكر صفاتهم وعقوباتهم ما لم يفصله في (يس) أكثر

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠١.

من تبكيتهم وتقريعهم فقال: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٣ ـ أنه قال في (يس): ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ فذكر الضلال على العموم. في حين ذكر في الطور أنهم يكذّبون بالنار فقال: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، فلما كان التكذيب واقعًا على النار ناسب أن يفصل القول فيها ويطيل الكلام عليها وأن يبصرهم بها ويبكتهم عليها فقال: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

٤ ـ إن المذكورين في الطور أكثر ضلالاً وكفرًا من المذكورين في (يس)، ذلك أنه قال في (يس): ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ والضال قد يكون كافرًا، وقد يكون لا يزال في دائرة الإسلام إلا أنه قد يعمل عمل أهل الضلال في أمر ما كالزنى وشرب الخمر وغيرها من الموبقات، فصاحب هذه المنكرات ضال غير أنه ليس كافرًا. قال تعالى في تقسيم المواريث: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦]، و(أن تضلوا) ليس معناه: أن تكفروا.

أما في الطور فقد قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ . . . هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾، فذكر:

١ ـ أنهم مكذبون على العموم ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

٢ ـ وأنهم في خوض يلعبون.

٣ ـ أنهم يكذبون بالنار ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

فناسب أن يزيد في عقوباتهم ويفصل في ذكرها.

فناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه .

* * *

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم والنسائي وغيرهما عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ قال :

«كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، قال : أتدرون مم ضحكت؟ قلنا : لا يا رسول الله . قال : من مخاطبة العبد ربه . يقول : يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول : بلى . فيقول : إني لا أجيز عليّ إلا شاهدًا مني . فيقول : كفى بنفسك عليك شهيدًا ، وبالكرام الكاتبين شهودًا ، فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي فتنطق بأعماله ، ثم يخلّى بينه وبين الكلام . فيقول : بعدًا لكنّ وسحقًا فعنكن كنت أناضل» (١) .

جاء في (التفسير الكبير) : «إن الله تعالى أسند فعل الختم إلى نفسه فقال : (نختم) وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل ؛ لأنه لو قال تعالى : (نختم على أفواههم وننطق أيديهم) يكون فيه احتمال أن ذلك كان منهم جبرًا وقهرًا ، والإقرار بالإجبار غير مقبول ، فقال تعالى : ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ أي باختيارها بعدما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم .

(الثانية) : منها هي أن الله تعالى قال : ﴿ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ جعل الشهادة للأرجل والكلام للأيدي ؛ لأن الأفعال تسند إلى الأيدي ، قال تعالى : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ما عملوه ، وقال : ﴿ وَلَا

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٧٧ ، روح المعاني ٢٣/ ٤٣ .

تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أي (ولا تلقوا بأنفسكم) فإذًا الأيدي كالعاملة.

والشاهد على العامل ينبغي أن يكون غيره، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود لبعد إضافة الأفعال إليها»[١].

وجاء في (روح المعاني): «ونسبة التكليم إلى الأيدي دون الشهادة لمزيد اختصاصها بمباشرة الأعمال، حتى أنها كثر نسبة العمل إليها بطريق الفاعلية، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ وقوله عز وجل: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقوله جل وعلا: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] إلى غير ذلك، ولا كذلك الأرجل، فكانت الشهادة أنسب بها لما أنها لم تضف إليها الأعمال فكانت كالأجنبية، وكان التكليم أنسب بالأيدي لكثرة مباشرتها الأعمال وإضافتها إليه، فكأنها هي العاملة»[٢].

وقد تقول: لقد قال الله تعالى في سورة (النور): ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

فجعل الألسنة تشهد عليهم، وهنا ختم على الأفواه، فلم ذاك؟

فنقول: إن السؤال ساقط من أساسه، ذلك أن الذين ذكرهم هنا صنف، والذين ذكرهم في سورة النور صنف آخر، ولا يقتضي أن كل أهل الحشر يختم على أفواههم وأنهم يحاسبون على نمط واحد، بل إن كل صنف يحاسب بما يقتضي الأمر وتكون الشهادة عليه بما ينبغي.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٢.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن المقام مختلف ، ذلك أنه في سورة النور ذكر قصة الإفك ورمي المحصنات وما لاكته الألسنة من بهتان فكان المناسب أن يستنطقها ؛ لأنها هي التي قامت بالجرم وجمع إليها الأيدي والأرجل. ثم إنه تكرر في السورة ذكر الشهادات والشهود ، وإن الشهادات إنما تكون بالألسنة ، فناسب ذلك أيضًا استنطاقها.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ ورمي المحصنات إنما يكون باللسان.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ورمي الأزواج إنما يكون باللسان.

وقال: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ وشهادتها إنما تكون بلسانها.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ والإفك هذا إنما افترته الألسنة.

وقال: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ ، والشهود إنما يشهدون بألسنتهم.

وقال: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ، وهو ظاهر.

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ، ورمي المحصنات إنما يكون باللسان، فناسب ذكر الألسنة ، بل هو المناسب لا غيره ، فلا بد أن يستنطقها ويسألها.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن ذكر الختم على الأفواه في (يس) مناسب لما ذكره بعد من تعطيل الأعضاء ، فقد قال بعدها: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ

﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ، وقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ، فناسب ذكر الختم على الأفواه في (يس) دون سورة النور.

وقد تقول: ولم جاء بها في سورة النور على هذا الترتيب فبدأ بذكر الألسنة ثم الأيدي ثم الأرجل؟.

فنقول: إنه بدأ بذكر الألسنة، لأنها هي التي افترت ورمت بالإفك، وقذفت المحصنات الغافلات المؤمنات، فهي آلة هذا الفعل القبيح.

وقدم الأيدي على الأرجل؛ لأن الأيدي ينسب إليها العمل والكسب. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقد تقول: ولم قال في آية (يس): ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وقال في آية النور: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟

فنقول: لقد شاع جو الكسب في (يس)، وشاع جو العمل في النور.

فقد قال في (يس): ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

وقال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: ٤٧]، وما رزقهم الله كسب.

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١]، وملكهم لها من الكسب.

وقال: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٧٢ ـ ٧٣].

فسورة (يس) شاع فيها الكسب.

أما سورة النور فقد شاع فيها العمل.

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢٨].

وقال: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ [النور: ٣٨].

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ﴾ [النور: ٣٩].

وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٥٣].

وقال: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥].

وقال: ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ [النور: ٦٤].

فناسب ذكر الكسب في (يس) والعمل في النور.

إن آية (يس) هذه مناسبة لما ورد في أول السورة وهو قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ [يس: ١٢].

فقوله: ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ﴾ مناسب لقوله: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ فالكتابة إنما تكون بالأيدي، وإنه كثيرًا ما ينسب التقديم إلى الأيدي كما ذكرنا، نحو قوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾.

وقوله: (وآثارهم) مناسب لذكر الأرجل، فإن الآثار كثيرًا ما تكون من أثر الأرجل، وقد قيل فيما قيل: إن (آثارهم) تعني آثار أقدامهم إلى

المساجد[١]، فناسبت هذه الآية جو السورة من كل ناحية، والله أعلم.

* * *

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

الطمس: إذهاب الشيء وأثره جملة حتى كأنه لم يوجد[٢].

وطمس العين: تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة[٣]، فلا يبين لها شق ولا جفن[٤].

جاء في (لسان العرب): «طمس الله عليه يطمس، وطمسه، وطُمس النجم والقمر والبصر: ذهب ضوؤه. وقال الزجاج: المطموس: الأعمى الذي لا يبين حرف جفن عينيه، فلا يرى شفر عينيه... ويكون الطموس بمنزلة المسخ للشيء، وكذلك قوله عز وجل: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧].

... ربنا اطمس على أموالهم، أي غيّرها»[٥].

ومعنى الآية أن الله لو يشاء لأذهب أعينهم وأزالها حتى لا يبقى لها شق ولا جفن.

وهذا عمى ومسخ، فإن الأعمى من لا يبصر وقد تبدو عينه كأنها سليمة حتى لا يظن الناظر إليه أنه أعمى، أما المطموس فإنه عمى البصر وذهاب العين فلا يبين لها أثر.

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٥/ ٤٩، البحر المحيط ٧/ ٣٢٥.
(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٤.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٩٢.
(٤) فتح القدير ٤/ ٣٦٧.
(٥) لسان العرب (طمس) ٧/ ٤٣٢.

ولم يقل: (ولو نشاء لأعميناهم) وذلك ليشمل العمى وزيادة وهو ذهاب العين وإزالتها ، وهذا هو المناسب لقوله بعد: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ فهذا مسخ عام ، وذاك مسخ جزئي.

إن الفعل (طمس) يتعدى بنفسه وبعلى فيقال: طمسه وطمس عليه ، وقد ورد التعبيران في القرآن الكريم ، فعداه ههنا بعلى فقال: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ، وعداه في سورة القمر بنفسه فقال في قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧] ، وهما عند أهل اللغة بمعنى واحد.

والذي يبدو لي أنهما ليسا بمعنى واحد ، فطمسه يختلف عن طمس عليه وإن كانا جميعًا يفيدان ذهاب العين ، فإن (على) تفيد الاستعلاء.

فمعنى (طمسه): أزاله ومحا أثره ، ومعنى (طمس عليه): غطاه بما يطمسه فلا يبقى له أثر ولا يبين منه شيء ، فيكون الطمس عليه أشد من الطمس ، فإنه يكون طمسًا ويكون فوقه ما يغطيه فلا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء. ونظيره في العربية (ختمه) و(ختم عليه).

جاء في (لسان العرب): «ختمه يختمه خَتْمًا وختامًا. . . طبعه فهو مختوم. . . والختم على القلب أن لا يفهم شيئًا ولا يخرج منه شيء كأنه طبع. . .

قال أبو إسحاق ختم وطبع في اللغة واحد. . . وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء»[1].

وجاء في (القاموس المحيط): «ختمه يختمه ختمًا وختامًا: طبعه.

---

(١) لسان العرب (ختم) ١٥/ ٥٣.

وعلى قلبه: جعله لا يفهم شيئًا ولا يخرج منه شيء»[(١)].

فالختم على الشيء أشد من ختمه وذلك لتغطيته بما يمنع الدخول إليه والخروج منه، وكذلك طمسه وطمس عليه.

وقال ههنا: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ للدلالة على شدة المسخ والطمس وهو المناسب للمسخ العام الذي ورد بعده.

وقد تقول: ولم قال في القمر: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ من دون (على)؟.

والجواب: أن ما ذكره في (يس) أشد، ذلك أنه قال: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾. في حين لم يزد على قوله: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ في سورة القمر ـ كما ذكرت ـ.

ثم إنه مناسب لورود (على) في الختم قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾

هذا علاوة على أن السياق في (يس) فيما يفعله ربنا من العقوبات الشديدة الخارجة عن المألوف، فقد قال قبلها: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

وقال ههنا: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾

وقال بعدها: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾.

فناسب ذكر (على) من كل وجه، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ يحتمل ثلاثة معان:

---

(١) القاموس المحيط (ختمه) ٤/ ١٠٢.

أحدها: استبقوا إلى الصراط، أي تسابقوا للوصول إليه.

والمعنى الثاني: بادروا إليه، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨]، أي بادروا إليها.

والمعنى الآخر: أي جاوزوه وتركوه فلم يهتدوا إليه.

جاء في (لسان العرب): «واستبقا الباب يعني تسابقا إليه... ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾: أي بادروا إليها. وقوله: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي جاوزوه وتركوه حتى ضلوا...

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ معناه ابتدرا الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه» (١).

وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة، فإنه لو طمس على أعينهم لتسابقوا وابتدروا للوصول إلى الصراط، ولكنهم لن يهتدوا إليه.

جاء في (الكشاف): «﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ لا يخلو أن يكون على حذف الجار وإيصال الفعل، والأصل: فاستبقوا إلى الصراط، أو يضمن معنى ابتدروا، أو يجعل الصراط مسبوقًا لا مسبوقًا إليه، أو ينتصب على الظرف، والمعنى: أنه لو شاء لمسح أعينهم، فلو راموا أن يستبقوا إلى الطريق المهيع الذي اعتادوا سلوكه إلى مساكنهم وإلى مقاصدهم المألوفة التي ترددوا إليها كثيرًا كما كانوا يستبقون إليه ساعين في تصرفاتهم موضعين في أمور دنياهم لم يقدروا، وتعايا عليهم أن يبصروا أو يعلموا جهة السلوك فضلاً عن غيره... أو لو شاء لأعماهم فلو طلبوا أن يخلفوا الصراط الذين اعتادوا المشي فيه لعجزوا ولم يعرفوا طريقًا» (٢).

---

(١) لسان العرب (سبق) ١٢/ ١٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٢.

فجاء بالفعل (استبق) ليشمل هذه المعاني كلها. ولو جاء بالفعل (تسابق) أو (بادر) أو (ضل) لتعين معنى واحد ولم يحتمل هذه المعاني.

ثم إن هذا هو المناسب لقوله: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ ، فإن شدة الطمس جعلتهم لا يهتدون إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه.

ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ قيل: ومعنى أنّى يبصرون: كيف يبصرون.

و(أنى) تحتمل معنى آخر وهو: من أين.

لقد قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ ولم يقل: (ولو شئنا) للدلالة على أن عدم الطمس لاستمرار عدم المشيئة، ذلك أن (نشاء) فعل مضارع يفيد الحال والاستقبال وقد يفيد الاستمرار، أما (شئنا) ففعل ماض وهو يفيد المضي.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ لأعميناهم، وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان على المضي لإفادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة، فإن المضارع المنفي الواقع موقع المضي ليس بنص في إفادة انتفاء استمرار الفعل، بل قد يفيد استمرار انتفائه»[1].

فانظر كيف قال: (طمسنا) بدل (أعمينا) وهو يشمل العمى وزيادة.

وقال: (على أعينهم) وهو يشمل الطمس وزيادة وهي التغطية والاستيثاق.

وقال: (فاستبقوا) وهو يشمل المسابقة وزيادة، والمبادرة وزيادة، والضلال وزيادة، إذ هو يجمع هذه المعاني كلها.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤٤.

وقال: (الصراط) ولم يقل: (إلى الصراط) ليشمل معنى (إلى) والتعدية المباشرة. ولو قال: (فاستبقوا إلى الصراط) لم يحتمل معنى الضلال.

وقال: (فأنى) وهو يشمل معنى (كيف) وزيادة.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

المسخ: تحويل صورة إلى صورة أقبح منها[١]، وقد يكون التحويل إلى حجر أو غيره من الجمادات أو إلى حيوان بهيم[٢].

والمكانة: هي المكان، كالمقامة والمقام[٣]، والمكانة: المنزلة.

ويقال: (عمل على مكانته) يعني على حاله وعلى ما هو عليه، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، أي على حالكم.

جاء في (لسان العرب): «المكانة: المنزلة، وفلان مكين عند فلان: بيّن المكانة، والمكانة: الموضع... والمكان: الموضع، والجمع أمكنة وأماكن»[٤].

وجاء فيه أيضًا: «﴿ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾؛ أي على حيالكم

(١) لسان العرب (مسخ) ٤/ ٢٣.
(٢) ينظر فتح القدير ٤/ ٣٦٧.
(٣) روح المعاني ٢٣/ ٤٤.
(٤) لسان العرب (كون) ١٧/ ٢٤٦.

وناحيتكم ، وقيل: معناه: أي على ما أنتم عليه مستمكنون. الفراء: لي في قلبه مكانة وموقعة ومحلّة. . . والمكانة: المنزلة عند الملك ، والجمع مكانات ، ولا يجمع جمع التكسير» [١] .

ومعنى (لمسخناهم على مكانتهم): أي لمسخناهم على أمكنتهم فلا يستطيعون مغادرتها ، أو لمسخناهم على حالتهم التي هي عليها فيجمدون في أمكنتهم.

جاء في (الكشاف): «المكانة والمكان واحد ، كالمقامة والمقام. أي لمسخناهم مسخًا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه بإقبال ولا إدبار ولا مضي ولا رجوع» [٢] .

وقال: ﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ ولم يقل: (على مكانكم) ليشمل المكان والحال التي هم عليها.

وقدم المضي على الرجوع لأكثر من سبب:

منها: أن المضي أهم من الرجوع ، ذلك أن الناس يريدون المضي إلى أعمالهم وحاجاتهم والرجوع فيما بعد ، فبدأ بما هو أهم.

ومنها: أن المضي أصعب من الرجوع ، فإن الرجوع ينبئ عن معرفة الطريق ، ذلك لأنه سيعود في الطريق التي جاء فيها. أما المضي فقد يكون في طريق غير مألوفة ولا معروفة فيكون المضي أصعب من الرجوع.

هذا إضافة إلى أن المضي هو ابتعاد عن محل الإقامة والمنطلق ، أما الرجوع فإنه عودة إليه ، فيكون الرجوع أسهل ، فبدأ بالأصعب ، وذلك كما يقول الناس: هو لا يستطيع المشي بل لا يستطيع الحركة فيبدأ بما هو

---

(١) لسان العرب (مكن) ١٧/ ٣٠٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٢.

أصعب ثم يعود إلى ما هو أيسر.

وكما تقول متحديًا: إن استطعت فاقفز ثلاثة أمتار، بل اقفز مترين، بل اقفز مترًا ونصفًا. ونحوه ما ورد في القرآن من التحدي فقد قال أولاً: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، فلما عجزوا قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فبدأ بالأصعب ثم تلاه بما هو أيسر ليكون ذلك ملزمًا لهم وحجة عليهم.

جاء في (التفسير الكبير): «قدم المضي على الرجوع، لأن الرجوع أهون من المضي؛ لأن المضي لا ينبئ عن سلوك الطريق من قبل، وأما الرجوع فيُنبئ عنه، ولا شك أن سلوك طريق قد رئي مرة أهون من سلوك طريق لم يُر، فقال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذي هو أهون من المضي»[1].

إن هذه الآية والتي قبلها ـ أعني قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ـ مرتبطتان بما ورد في أول السورة وهو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، ذلك أن قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ نظير قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾، فهؤلاء الذين جعلت في أعناقهم أغلال وجُعل من بين أيديهم سدّ ومن خلفهم سد كالممسوخين لا يستطيعون مضيًّا ولا يرجعون.

وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٣.

﴿يُبْصِرُونَ﴾ نظير قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

والطريف في هذا الارتباط أنه جمع في هذين الموطنين بين الأمر الخارجي والذاتي الخِلْقي، وبين الأمر المعنوي والمادي، وبين الحقيقة والمجاز.

فقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ إنما كان عدم الحركة وعدم الإبصار لأمر خارج عن الجسم، وذلك أنه كان من بين أيديهم سد ومن خلفهم سد، فأغشاهم فكانوا لا يستطيعون الحركة والإبصار لذلك، لا بسبب عاهة بدنية.

وأما قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فإن عدم الإبصار إنما كان بسبب تعطيل آلة الرؤية في الجسم وليس بسبب مانع خارجي.

وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ فإن عدم الحركة بسبب المسخ، وذلك بتحول الجسم إلى شيء لا يستطيع الحركة، فإن عدم الإبصار وعدم الحركة إنما كان بسبب ما حصل للجسم ذاته وليس بسبب خارجي.

فجمع في الموضعين بين المانع الخارجي والمانع الجسماني.

ثم إن قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ ليس ذلك على الحقيقة، وإنما يراد منه الموانع من الإيمان وهي موانع نفسية وليست مادية حقيقية.

وأما قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ...﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ...﴾، فيراد به الحقيقة، وأن المقصود تعطيل آلة البصر وتعطيل حركة الجسم على الحقيقة؛ فأريد بأحدهما موانع الإيمان ـ وهي أمور نفسية مجازية ـ وبالأخرى موانع

حقيقية ، فجمع بين الحقيقة والمجاز ، والمادة والروح ، وهو تناظر جميل .

وقد تقول : لقد قال عندما ذكر الصيحة : ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ ، فذكر الجهة التي يرجعون إليها . وقال هنا : ﴿وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ ، فلم يذكر جهة الرجوع ، فلم ذاك؟

والجواب : أنهم هنا لا يرجعون إلى جهة أصلاً ، وذلك أنهم ممسوخون لا يبصرون شيئًا ولا يعلمون شيئًا ، فلا يعلمون جهة الأمام ولا جهة الخلف ، ولا يعرفون أهلهم من غيرهم ، ولا يعرفون مكانًا يرجعون إليه ، بل ليس لهم الآن أهل يعرفونهم أو يأنسون بهم ، كما أن أهلهم لا يعرفونهم وهم ممسوخون ، فلم يذكر أنهم يرجعون إلى جهة ، بخلاف أهل الصيحة .

وقد تقول : إنه نفى الاستطاعة عن المضي ، ولم ينف الاستطاعة عن الرجوع ، فقد قال : ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ ولا يجوز عطف (لا يرجعون) على (المضي) ؛ لأن مفعول (استطاع) لا يكون جملة ، فلم لم يقل : (فما استطاعوا مضيًا ولا رجوعًا) فيكون نفى الاستطاعة عن المضي والرجوع؟ .

فنقول : إنه لو قال ذلك لم يدل على الاستمرار والدوام في عدم القدرة على المضي والرجوع ، بل قد يكون ذلك منقطعًا فيستطيع بعد مدة على ذلك ، كما تقول : (لقد ضربته فما استطاع مشيًا ولا قيامًا) فقد يحتمل أنه استطاع بعد ذلك ، فهذا لا يعني الاستمرار والدوام ، فقوله : (ولا يرجعون) أفاد دوام عدم الرجوع ، فكان ذلك أولى من القول : (ولا رجوعًا) .

وقد تقول: لقد علمنا أن قوله: (ولا يرجعون) أفاد عدم الرجوع على الدوام، ولكن لم ينف الاستطاعة على المضي على الدوام، فقد يستطيع بعد ذلك، كما في قولك: (فما استطاع مشيًا ولا قيامًا).

والجواب: كلا، بل إنه أفاد عدم الاستطاعة على المضي على جهة الدوام من أكثر من وجه، ذلك أنه لما نفى الرجوع على الدوام نفى المضي أيضًا على الدوام، فإن الذي يمضي لا بد أن يرجع إلى مكانه، فإن نفى الرجوع نفى المضي أيضًا، ذلك أن الرجوع أيسر من المضي، فإن كان عاجزًا عن الرجوع فهو عن المضي أعجز.

ثم إن قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يفيد أنهم لا يمضون ولا يرجعون وأنهم لا يستطيعون ذلك، فدل على أنهم لا يمضون ولا يرجعون.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (فما استطاعوا مضيًّا ولا أن يرجعوا) فيعطف الرجوع على المضي؛ لأنه عند ذاك سيكون مصدرًا مؤولاً وهو يصح عطفه على المصدر الصريح، وعند ذاك يدخل الرجوع في عدم الاستطاعة كالمضي؟.

فنقول: لو قال ذلك لأفاد نفي الرجوع في المستقبل؛ لأن (أن) تصرف الفعل المضارع إلى الاستقبال ولا ينفي عدم الرجوع في الحال، أما قوله: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ فهو نفي مطلق. هذا علاوة على فوات التناسب في فواصل الآي.

وقد تقول: لقد نفى الرجوع في كل الأحوال سواء كان عن طريق عدم الاستطاعة أم غيرها، فلمَ لمْ ينف المضي نفيًا مطلقًا كذلك فيقول: (فلا يمضون ولا يرجعون)؟

فنقول: لو قال ذلك لم يدل على عدم القدرة، بل قد يكون ذلك بمحض اختيارهم، ونفي الاستطاعة أولى.

وقد تقول: إذا كانوا لا يستطيعون المضي بأنفسهم فقد يمضيهم أحد فيعينهم على المضي.

فنقول: إنه لم يقل: (فما استطاعوا مضيًّا بأنفسهم) بل نفى الاستطاعة على العموم. ثم إنه من ناحية أخرى لا بد لمن يمضيهم أن يعيدهم ويرجعهم، فلما نفى الرجوع بكل سبيل نفى المضي أيضًا بكل سبيل. هذا إضافة إلى أن قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ يدل على أنهم لا يبرحون مكانتهم، فدل ذلك على أنهم لا يمضون ولا يرجعون على كل حال. وهو أولى من كل تعبير، والله أعلم.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ قيل: هو عطف على (مضيًّا) المفعول به لاستطاعوا، وهو من باب (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)[1] فيكون التقدير: فما استطاعوا مضيًّا ولا رجوعًا، وإلا فمفعول (استطاعوا) لا يكون جملة، والتعبير بذلك دون الاسم الصريح قيل للفواصل مع الإيماء إلى مغايرة الرجوع للمضي بناء على ما قال الإمام من أنه أهون من المضي؛ لأنه ينبئ عن سلوك الطريق من قبل، والمضي لا ينبئ عنه، وقيل لذلك مع الإيماء إلى استمرار النفي نظرًا إلى ظاهر اللفظ، ويكون هناك ترقٍّ من جهتين إذا لوحظ ما أومأ إليه الإمام، وقيل له مع الإيماء إلى أن الرجوع المنفي ما كان عن إرادة واختيار، فإن اعتبارهما في الفعل المسند إلى الفاعل أقرب إلى التبادر من اعتبارهما في المصدر...

وقيل: هو عطف على جملة (ما استطاعوا)، والمراد: ولا يرجعون عن تكذيبهم لما أنه قد طبع على قلوبهم، وقيل: هو عطف على ما ذكر إلا أن المعنى: ولا يرجعون إلى ما كانوا عليه قبل المسخ، وليس بالبعيد.

---

(١) يعني على تقدير (أن) المصدرية في (ولا يرجعون).

وعلى القولين المراد بالمضي الذهاب عن المكان ونفي استطاعته مغن عن نفي استطاعة الرجوع ، وأيًّا ما كان فالظاهر أن هذا وكذا ما قبله لو كان لكان في الدنيا .

وقال ابن سلام : هذا التوعد كله يوم القيامة ، وهو خلاف الظاهر»(١) .

* * *

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

والمعنى أن الذي يعمّر لا بد أن ينتكس في خلقه إلى أسفل ، فبعد أن كان يرتقي في قواه العقلية والبدنية سيأخذ بالانتكاس إلى أسفل ، فيبدأ بالضعف والوهن في الجسم والعقل ، حتى يُردّ إلى أرذل العمر فلا يعلم من بعد علم شيئًا .

إن ارتباط هذه الآية بما قبلها واضح ، فإن فيها دليلاً على قدرته تعالى أن يفعل ما ذكره من الطمس على الأعين ، والمسخ على المكانة فلا يستطيعون حراكًا .

جاء في (الكشاف) : «﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ نقلبه فيه فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال ، ويرتقي من درجة إلى درجة ، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ، ويعقل ويعلم ما له وما عليه ، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله، قال عز وجل : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] ، ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٤٦ .

أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] ، وهذه دلالة على أن من ينقلهم من الشباب إلى الهرم ، ومن القوة إلى الضعف ، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ، ومن العلم إلى الجهل بعدما نقلهم خلاف هذا النقل وعكسه ، قادر على أن يطمس على أعينهم ، ويمسخهم على مكانتهم ، ويفعل بهم ما شاء وأراد. . . أفلا يعقلون» [(١)].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾: «أي أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ما ذكر من الطمس والمسخ ، وأن عدم إيقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما» [(٢)].

وقد قال: (نعمره وننكسه) بالفعل المضارع، ولم يقل: (ومن عمرناه نكسناه) للدلالة على الاستمرار ، وأن هذا قانون الحياة. ولو قال: (ومن عمرناه نكسناه) لم يدل على الاستمرار ، بل دل ذلك على حالة ماضية.

وقد أسند التعمير والتنكيس إلى ذاته سبحانه للدلالة على أن هذا من فعله وقدرته في البدء والختام ، وأنه قادر أن يطمس على الأعين ، وأن يمسخ على المكانة. ولو قال (ومن يُعمَّر ينكَّس) بالبناء للمجهول لم يدل على أن ذلك من فعله سبحانه ، ولم يرتبط ذلك الارتباط بما قبله ، ولا يكون فيه دليل على ما تقدم ؛ لأنه لم يسند ذلك إلى نفسه.

وقال: ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ فجاء بالفاء الدالة على السبب ، أي: أفلا يكون ذلك سببًا لأن يعقلوا ويتفكروا. وفيه تقريع لمن لا يعقل ويتفكر. وقال: (يعقلون) ولم يقل: (يعلمون) لأن العقل كاف لمعرفة ذلك والاستدلال به وإن لم يكن صاحبه ذا علم. فهو من الأمور الظاهرة التي لا تحتاج إلى غير العقل.

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩٢ ـ ٥٩٣ ، وانظر البحر المحيط ٧/ ٣٤٥.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٦.

وقد تقول: لقد قال في موطن سابق من السورة: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال ههنا: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ فما الفرق؟

والجواب: أن الآية السابقة تتكلم على أمور ماضية، فإنه خطاب من رب العزة يوم القيامة عما فعله بنو آدم في الدينا، فقد قال: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ. . .﴾ فناسب أن يقول: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ ولا يناسب أن يقول: (أفلا تعقلون).

أما هنا فالكلام على أمر مشاهد حاضر يرونه في حياتهم يعيشونه أو يعيشون معه فناسب قوله: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يناسب غيره، فلا يصح أن يوضع أحدهما مكان الآخر.

* * *

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

* * *

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾

إن ارتباط هذه الآية بما قبلها ارتباط لطيف، فإنه لما ذكر جهنم والختم على الأفواه وتكليم الأيدي وشهادة الأرجل وغير ذلك مما ذكره بعد مما هو مستغرب وغير مألوف، فقد يظن ظان أن هذا من خيال الشعراء وتصويراتهم وليس من الحقائق فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

إن قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ردّ لقولهم: (هو شاعر)، فقد كانوا يصفون رسول الله بهذا الوصف، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٦]، فرد قولهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾.

ونفى الفعل بـ (ما) ولم ينفه بـ (لم) فلم يقل: (ولم نعلّمه الشعر) وذلك لقوة (ما) في النفي ، ذلك أن (ما فعل) نفي لـ (لقد فعل) ، وأن (لم يفعل) نفي لـ (فعلَ) ، و(ما) إذا نفت الفعل الماضي كانت بمنزلة جواب القسم[١] .

ومعنى (ما ينبغي له) ما يصح له ولا يليق ولا يتأتى له لو أراده ، فهو لا يمكنه نظم الشعر ولا يستطيعه.

جاء في (الكشاف): «﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ وما يصح له ولا يتطلب لو طلبه، أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ولم يتسهل»[٢] .

فنفى بهذا كون الرسول شاعرًا ، ونفى كون القرآن شعرًا.

لقد نفى أولاً تعليمه الرسول للشعر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ ، وقد يظن ظان أنه ربما كان في تعليمه الشعر خير حُرم منه ، وأنه لو علّمه إياه لكان أكمل له فقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ أي أنه لا يصح أن يكون شاعرًا ، وأن الكمال في حقه ﷺ عدم تعليمه إياه ، فإن مهمة النبي غير مهمة الشاعر ، فلا يليق بالنبي أن يكون شاعرًا.

وأقل ما يقال في الشعر والشعراء:

١ ـ أن الشاعر قد يزيد في الحقائق أو ينقص منها أو يكذب ، وقد يستبد به الخيال في تصويراته الشعرية ومبالغاته ، بينما الرسول لا يقول إلا الحق فلا يزيد فيه أو ينقص منه.

٢ ـ وأن الشاعر قد يعنى بتزويق الكلام وتحسينه على حساب المعنى.

٣ ـ وأن الشاعر قد يقع في ضرورات لا يقتضيها المعنى ، وقد يضع

---

(١) ينظر كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠ .

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٣ .

الكلمة في غير موضعها المناسب، وقد يخل بمقتضيات البلاغة من تقديم وتأخير وذكر وحذف وما إلى ذلك.

أما القرآن فإنه يضع التعبير في أعلى مراتب البلاغة.

٤ ـ ثم إن القرآن حدد سلوك الشعراء وطبيعتهم بما يختلف عن طبيعة النبي وسلوكه، فقد قال: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦]، وهذا لا يمكن أن يكون سلوك الأنبياء الذين يتصدون لإصلاح الخلْق، ولم يستثن منهم إلا أتباع الرسل والأنبياء فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

٥ ـ ثم إن الشعر إنما هو قول الشاعر، أي هو كلام بشر. فلو كان القرآن شعرًا لكان من كلام البشر. وقد ادّعى الكفار أن محمدًا شاعر، وأن القرآن شعر ليصلوا بذلك إلى أن القرآن ليس كلام الله، وأن محمدًا ليس رسولاً، فنفى ذلك ليبطل زعمهم.

٦ ـ ثم إن الشعر له نظير، والشعراء لهم نظراء وأضراب، فنفى أن يكون القرآن شعرًا ومحمد شاعرًا ليدل على أنه ليس له ولا لما جاء به نظير.

جاء في (البحر المحيط): «﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي ولا يمكن له ولا يصح ولا يناسب، لأنه عليه السلام في طريق جد محض، والشعر أكثره في طريق هزل، وتحسين لما ليس حسنًا، وتقبيح لما ليس قبيحًا، ومغالاة مفرطة. جعله تعالى لا يقرض الشعر كما جعله أميًّا لا يخط، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض...

وإنما منع الله نبيه من الشعر ترفيعًا له عما في قول الشعراء من التخييل

والتزويق للقول ، وأما القرآن فهو ذكر بحقائق وبراهين ، فما هو بقول شاعر» (١) .

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ . . . أي لا يليق ولا يصلح له ﷺ الشعر لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ، ولأن أحسنه المبالغة والمجازفة والإغراق في الوصف ، وأكثره تحسين ما ليس بحسن، وتقبيح ما ليس بقبيح، وكل ذلك يستدعي الكذب أو يحاكيه الكذب ، وجل جناب الشارع عن ذلك ، كذا قيل» (٢) .

لقد قال قبل هذه الآية: إنه لو شاء لطمس على أعينهم ، ولو شاء لمسخهم على مكانتهم ، ولو شاء لكان ، وفي هذه الآية أعني: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ ذكر ربنا ما شاء أن يكون ، وهو أن يكون محمد نبيًّا وليس شاعرًا ، وأن ما أنزله عليه ذكر وقرآن وليس شعرًا.

والطمس والمسخ من الآيات الدالة على قدرته تعالى ، والقرآن الكريم أكبر الآيات الدالة على صحة رسالته ﷺ فكلتاهما آية وحجة.

الطمس والمسخ كل منهما آية على أن الله قادر على أن يعجز خلقه فلا يستطيعون أن يفعلوا إزاءها شيئًا ، والقرآن آية على إعجازهم كذلك فلا يستطيعون أن يأتوا بمثله ، فكلتاهما آية على قدرته وحجة على خلقه.

لقد نفى الفعل (ينبغي) بـ (ما) فقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ ، ولم ينفه بلا ، ذلك أن (لا) الداخلة على الفعل المضارع أكثر ما تكون للاستقبال ، بل ذهب النحاة إلى أنها خاصة بالاستقبال ، قال تعالى على لسان سيدنا سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ [ص: ٣٥] ، فنفى الفعل (ينبغي) بـ (لا) ذلك أنه دال على الاستقبال ، فقد

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦ ، وانظر أنوار التنزيل ٥٨٧ .

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٤٧ .

قال: (من بعدي) ، وهذا هو الموطن الوحيد الذي دخلت فيه (لا) على الفعل (ينبغي) في القرآن الكريم ، فلا يناسب ههنا النفي بـ (لا) لئلا يفهم أن هذا النفي خاص بالاستقبال لا ما هو عليه الآن.

* * *

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩].

أي ما هذا الذي تسمعونه منه وتسمونه شعرًا إلا ذكر وموعظة من الله عز وجل وقرآن مبين ، أي مظهر لكل أحد أنه ليس شعرًا ، وإنما هو قرآن يتلى أنزله الله ، فيه مواعظ وإرشاد للثقلين.

وقد تقول: لقد قال تعالى ههنا: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ فنفى وأثبت بإنْ وإلا ، وقال في موطن آخر: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢]. فنفى وأثبت بـ (ما) و(إلا) فلم ذاك؟ وما الفرق؟

والجواب أَنَّ النفي بـ (إن) أقوى من (ما) [١] فنفى بما هو أقوى.

وقد تقول: ولم نفى بـ (ما) في سورة القلم؟

والجواب: أن ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام ، وأن كل موطن اقتضى التعبير الذي ورد فيه.

وإيضاح ذلك أنه حيث كان الكلام على القرآن أكثر تفصيلاً أو كان يقتضي توكيدًا نفى بـ (إن) وإلا نفى بـ (ما).

وإيضاح ذلك أنه في سورة القلم لم يكن السياق في الكلام على القرآن ولم يذكر عليه إلا آية واحدة وإليك ذلك:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ

---

(١) ينظر كتابنا (معاني النحو) ٤/ ٥٧٦.

لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥١ ـ ٥٢] ، والكلام كما ترى على الرسول ، فقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ﴾ إلى آخر الآية إنما هو في الكلام على الرسول لا على القرآن ، وقال بعدها: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ وهي الآية الوحيدة التي تكلمت على القرآن ههنا فنفى بـ (ما).

وهذا هو الموطن الوحيد الذي نفى بـ (ما) في مثل هذا التعبير في القرآن الكريم.

في حين قال في سورة (يس): ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فالكلام على القرآن كما ترى ، حتى إن قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ يحتمل أن يكون المقصود به القرآن. فالكلام على القرآن أطول مما في القلم فنفى بـ (إن).

ونحوه قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٢ ـ ١٠٤].

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ، فإنه هو ما يوحى إليه ، و(أنباء الغيب) المذكورة يعني بها قصة يوسف التي ذكرها القرآن.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ قيل: هو القرآن.

فناسب أن يقول: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

ونحوه ما جاء في سورة ص: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾.

فالكلام إنما هو على القرآن كما هو واضح ، فقوله : ﴿ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ، قيل : هو القرآن . وقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ يعني القرآن فناسب النفي بإن .

وقال تعالى في سورة التكوير : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . . . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ . . . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . . . إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ١٩ ـ ٢٧] ، وهو واضح في أن الكلام على القرآن ، وأنه فصّل في ذلك ، فنفى وأثبت بإن وإلا ، فاتضح الفرق .

* * *

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

قد يكون المقصود بقوله : (لينذر) القرآن أو الرسول ، فكلاهما منذر ، قال تعالى : ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ والمقصود به الرسول .

وقال : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٢] .

والمنذر ههنا الكتاب .

فالرسول منذر والقرآن منذر .

وقوله : ﴿ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ ذكرت فيه أقوال :

منها : أن المقصود به من كان حي القلب حي البصيرة فينتفع بالإنذار .

وقيل : إن المقصود به من كان عاقلاً متأملاً ، لأن الغافل كالميت .

وقيل : إن المقصود به من كان مؤمنًا ؛ لأن الإيمان حياة ، فمن كان مؤمنًا كان حيًّا ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقيل: إن المقصود من كان قلبه صحيحًا يقبل الحق ويأبى الباطل.

وقيل: إن المقصود به كل حي على وجه الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقيل: إن المقصود به من كان حيًّا في علم الله؛ أي علم الله أنه سيؤمن بهذا الإنذار(١).

وكل هذه الأقوال محتملة، وإن كل هؤلاء معنيون بالإنذار.

قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤] وهذا إنذار للكافرين.

وقال: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

وقال: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨] وهذا إنذار للمؤمنين.

فالإنذار عام لكل الخلق مؤمنهم وكافرهم، محسنهم ومسيئهم، إلا أن الذي يترجح في ظني هنا ـ والله أعلم ـ أن المقصود بقوله: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ ما قصده في أول السورة بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]، وذلك لأنه قال بعد ذلك: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فجعل من كان حيًّا بإزاء الكافرين. وإن كان كل من ذكرته الأقوال محتملاً مطلوبًا له الإنذار.

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٥٩٣، التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦، أنوار التنزيل ٥٨٧، تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨٠، روح المعاني ٢٣/ ٤٩، فتح القدير ٤/ ٣٦٨.

ومعنى ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي تجب عليهم كلمة العذاب[١].

ومعنى ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ في القرآن: وجب العذاب كما ذكرناه في أول السورة، وذلك أن الله سبحانه قال في الأزل وقال في كتبه المنزلة على رسله: إنه من كفر به أدخله النار وعذبه بعد إلزامهم بالحجة. والحجة هي ما أنزل الله على لسان رسله وبلغوهم به فيحق القول بعد الإنذار وإلزامهم الحجة. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، وقال: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٦]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

جاء في (التفسير الكبير): «﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، إما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ [الزمر: ٧١]، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فإذًا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب»[٢].

وفي مقابلة الكافرين للحي في قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إشارة إلى أن الكفار أموات وهو ما ذكره ربنا في أكثر من موطن، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

جاء في (أنوار التنزيل): «وجعلهم في مقابلة من كان حيًّا إشعارًا

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٥٩٣، روح المعاني ٢٣/ ٥٠.

(٢) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦.



بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم أموات في الحقيقة» [١].

إن هاتين الآيتين ارتبطتا بأول السورة ارتباطاً لطيفاً من نواح عدة:

١ ـ فقد قال تعالى في أول السورة: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني أنه ليس بشاعر، وهو يناسب قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾.

وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقوي ذاك، فإن الشعراء كما قال رب العزة في كل واد يهيمون، فهذا مما يعضد هذا المعنى.

٢ ـ وقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يعني أن القرآن ليس بشعر، وهو يناسب قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾

٣ ـ أنَّ قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يناسب قوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

٤ ـ وأن قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يناسب قوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٥ ـ لقد وصف الله القرآن في أول السورة بأنه حكيم فقال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾، ووصفه هنا بأنه مبين فقال: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

ذلك أنه قال في أول السورة إنه على صراط مستقيم، ومعرفة الصراط المستقيم من غيره تحتاج إلى حكمة، والسير على الصراط المستقيم يحتاج إلى حكمة، فوصفه بأنه حكيم.

---

(١) أنوار التنزيل ٥٨٧، وانظر روح المعاني ٢٣/ ٥٠.

وههنا أراد أن يبين أن القرآن ليس بشعر ، وهذا أمر لا يحتاج إلى حكمة وإنما يحتاج إلى تبيين فقال: ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ، فكان كل وصف في مكانه أنسب.

٦ - سمى الله تعالى ما أنزله على رسوله قرآنًا وذكرًا ههنا فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ .

وقال في أول السورة: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، وقال بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ فسماه في الموطنين قرآنًا وذكرًا.

وقد يكون من المناسب أن نذكر أنه قدم القرآن في أول السورة وأخر الذكر فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، ثم قال في الآية الحادية عشرة: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ .

وههنا قدم الذكر وأخر القرآن فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ .

ولعل من دواعي ذلك أنه في أول السورة بدأ بالكلام على القرآن ثم أخر الكلام على ما يشبه الطمس والمسخ وهو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ فقدم القرآن لذلك.

وههنا بدأ بالطمس والمسخ وأَخَّرَ الكلام على القرآن فقال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ ، فأَخَّر ذكر القرآن لذلك والله أعلم. وهو من الموافقات اللطيفة.

وهذا من لطيف الارتباط والتناسب.

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

بعد أن ذكر أن آيات الله المنزلة ليست بشعر ، وأن الرسول ليس بشاعر ، وإنما هي ذكر وقرآن مبين ، لفت نظرهم إلى آيات الله في خلقه ، فذكر أقرب شيء إليهم وألصقه بحياتهم وهي الأنعام ، فقال: أولم يروا إلى هذه الأنعام وإلى قدرة خالقها فيذكروا نعمة ربهم عليهم بها فيشكروه عليها ويفردوه بالعبادة؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾

يرد في القرآن الكريم التعبير (أوَلم يروا) بالواو بعد همزة الاستفهام ، وقد يرد (ألم يروا) من دون واو كما مَرَّ في هذه السورة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ ، وهذه الواو عند النحاة هي واو العطف ، وهي تعطف على مذكور ، وقد تعطف على مقدر.

فالمعطوف على المذكور نحو قولنا: (ألم تر إلى خالد ماذا فعل ، أوَلم تر إلى أخيه كيف أنكر عليه؟) فهذا عطف على مذكور.

أما المعطوف على المقدر فهو قسمان:

قسم جرى له ذكر من غيرك فتبني عليه كلامك.

وقسم لم يجر له ذكر صريح ومع ذلك تأتي بالواو على التأويل وتقدير المعنى.

فالأول كأن يقول محدثك: رجع خالد من الموصل.

فتقول له: أوَ زرته بعد عودته؟

فتبني كلامك على ما ذكره المتكلم. جاء في (كتاب سيبويه):

«(هذا باب الواو التي تدخل عليها ألف الاستفهام) وذلك قولك:

هل وجدت فلاناً عند فلان؟

فيقول: أَوَهو ممن يكون عند فلان؟

فأدخلت ألف الاستفهام، وهذه الواو لا تدخل على ألف الاستفهام، وتدخل الألف عليها»[١].

وجاء في (النكت في تفسير كتاب سيبويه) للأعلم الشنتمري:

«فإذا قال القائل: هل وجدت فلانًا عند فلان؟

فقال المجيب: أَوَ هو[٢] ممن يكون عنده؟

فكلام المخاطب عطف على كلام المتكلم باستفهام وغير استفهام»[٣].

والقسم الآخر كما في الآية هذه، وكقوله تعالى في سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]، يبني ذلك على ما تقدم من الأمور المشاهدة المعلومة فيعطف عليها.

وقد ذكروا في الفرق بين (أولم تر) و(ألم تر) في القرآن الكريم أن (أوَلم تر) بالواو إنما تكون لما هو مشاهد، و(ألم تر) إنما تكون في الاستدلال بالنظر العقلي.

---

(١) الكتاب ١/ ٤٩١.

(٢) في المطبوع (أهو) من دون واو. والصواب بالواو كما في كتاب سيبويه وكما يدل عليه الكلام بعد.

(٣) النكت ٢/ ٨٠٩.

وقالوا أيضًا: إن (أولم تر) يستعمل فيما كثر أمثاله في الحياة مما هو مشاهد.

أما (ألم تر) من دون الواو فهو من باب ما لا يكثر مثله.

جاء في (البرهان): «واعلم أنه قد وقع في القرآن ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ في بعض المواضع بغير واو كما في الأنعام، وفي بعضها بالواو، وفي بعضها بالفاء (أفلم يروا).

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾

وهذه الكلمة تأتي على وجهين:

أحدهما: أن تتصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة، فيذكر بالألف والواو ولتدل الألف على الاستفهام، والواو على عطف جملة على جملة قبلها، وذلك الفاء لكنها أشد اتصالاً بما قبلها.

والثاني: أن يتصل بما الاعتبار فيه بالاستدلال، فاقتصر على الألف دون الواو والفاء ليجري مجرى الاستئناف.

ولا ينتقض هذا الأصل بقوله في النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ [النحل: ٧٩]، لاتصالها بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨]، وسبيلها الاعتبار بالاستدلال فبُني عليه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾»[١].

وجاء في (درة التنزيل): «وكل موضع فيه بعد ألف الإنكار واو ففيه تبكيت على ما يسهل الطريق إلى ما بعد الواو فالاعتبار لكثرة أمثاله كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]، كأن قائلاً قال: كذبوا الرسل وغفلوا عن الفكر والتدبر فقال: فعلوا ذلك ولم ينظروا إلى المشاهدات التي تنبه الفكر فيها من الغفلة.

---

(١) البرهان ٤/ ١٥٠.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [الملك: ١٨ ـ ١٩]، كأنه قال: كذبوا ولم ينظروا إلى ما يردع عن الغفلة من الفكر في المشاهدات... وكل ما فيه واو مثل (أولم يروا) فهو تنبيه على ما تقدمه في التقدير أمثال له منبهة لكثرتها فالتبكيت فيه أعظم، فهذا كله في المشاهد وما في حكمته.

وما ليس فيه واو مثل (ألم يروا) فهو ما لم يقدر قبله ما يعطف عليه ما بعده، لأنه من باب ما لا يكثر مثله، وذلك مما يؤدي إلى علمه بالاستدلالات كقوله في سورة الأنعام ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٦]، وهذا ما لم يشاهدوه ولكن علموه»[(١)].

وقد قال في آية (يس) هذه (أولم) بالواو؛ لأنه ذكر أمرًا يقع الاستدلال فيه بالمشاهدة كأنه قال: إن ما ذكرناه من الآيات والدلائل لم يهدهم إلى الحق ويردعهم عن الشرك أو لم يروا إلى ما يشاهدونه كثيرًا ويعيشون معه وينتفعون به وهو الأنعام كيف ذللها الله لهم وسخرها لمنفعتهم؟

وبذلك يوجه أنظارهم إلى ما هو كثير المشاهدة فيستدل به.

ونحو ذلك أن تحاجّ أحدًا وتأتي له بالبراهين والأدلة فلم يقتنع فتأتي له ببرهان ظاهر الدلالة سهل المسلك كثير الوقوع.

جاء في (روح المعاني): «(أولم يروا) الهمزة للإنكار والتعجيب، والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستتبعة للمعطوف، أي: ألم

---

(١) درة التنزيل ١٠٨ ـ ١٠٩، وانظر ملاك التأويل ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

يتفكروا ، أو ألم يلاحظوا أو ألم يعلموا علمًا يقينيًّا مشابهًا للمعاينة. زعم بعضهم أن هذا عطف على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلخ ، والأول للحث على التوحيد بالتحذير من النقم ، وهذا بالتذكير بالنعم المشار إليها بقوله تعالى: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي لأجلهم وانتفاعهم»[(١)].

* * *

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾

أسند الخلق إلى نفسه فقال: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾ ولم يبنه للمجهول فيقول (خُلق) كما قال في مواطن أخرى من نحو قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] ، وذلك أن هذا من باب التفضل والإنعام ، والقرآن الكريم يسند النعمة والتفضل والخير إلى نفسه سبحانه. ثم إنه لو بناه للمجهول لم يدل على أن الخالق هو الله سبحانه. ولا يتناسب ذلك مع السياق الذي وردت فيه الآية والذي أراد الله فيه أن يظهر آياته ونعمه على خلقه ليعبدوه ويوحدوه فتكون الجهة مجهولة.

ثم إنه قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ، وإذا كان الفاعل مجهولاً كانت الجهة التي يوجه إليها الشكر مجهولة فلا يعرفون الجهة التي ينبغي أن يقدموا لها الشكر.

وقد تقول: لقد أسند الخلق هنا إلى ضمير المتكلم ، وأسنده في سورة النحل إلى ضمير الغائب فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥] مع أن الموطنين متشابهان ، فما الفرق؟ ولم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لما ورد فيه من أكثر من وجه.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٠.

من ذلك أن السياق في سورة النحل مبني على الإسناد إلى ضمير الغيبة ، بل إن جو السورة مبني على ذلك ، قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ . . . خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ . . . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ . . . وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا . . . وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . . . هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً . . . يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ . . . وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . . . وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ . . . وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ ﴾ [النحل : ٢ ـ ١٥] .

وغير ذلك .

وأن السياق في سورة (يس) مبني على الإسناد إلى ضمير المتكلم ، وأن جو السورة كذلك . قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا . . . وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا . . . إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ . . . إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ . . . ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ . . . أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا . . . وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا . . . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ . . . وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ . . . ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ . . . وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ . . . أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم . . . وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ . . . أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾

إلى آخره .

وغير ذلك وغيره .

فناسب كل تعبير الموطن الذي ورد فيه .

ثم إن ما ورد في (يس) أكثر تكريمًا وتفضلاً مما ورد في النحل فأسنده إلى نفسه . وهذا هو الخط العام في إسناد النعمة والخير والتفضل .

وإن الآيات التي ورد فيها كل تعبير يوضح ذاك .

قال تعالى في (يس) : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ

لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

وقال في سورة النحل: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ ـ ٧].

فقد ورد ضمير المتكلم الذي يعود على الله سبحانه أربع مرات في (يس) وهي:

أنّا، خلقنا، أيدينا، ذللنا.

ولم يرد ضمير الغيبة الذي يعود على الله سبحانه إلا مرة واحدة في النحل وهو الضمير المستتر في (خلقها).

ثم لننظر إلى مواطن التكريم في الموضعين:

١ ـ قال في (يس): ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ فجعل الخلق لهم.

في حين قال في النحل: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ ولم يقل: (لكم) وإنما قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ (١).

٢ ـ قال في (يس): ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ للدلالة على الاهتمام والتكريم، كما تقول: هذا صنعته لك بيدي.

ولم يقل مثل ذلك في النحل.

٣ ـ قال في (يس): ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ فملكها لهم، ولم يذكر في النحل أنه ملكها لهم.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٤٧٤.

٤ ـ قال في (يس): إنه ذللها لهم فقال: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ﴾ ولم يقل مثل ذلك في النحل.

٥ ـ ذكر في (يس): أن منها ركوبهم، وذكر في النحل أنها تحمل أثقالهم في الأسفار.

٦ ـ ذكر في (يس) أن لهم فيها مشارب، ولم يذكر مثل ذلك في النحل.

٧ ـ ذكر في (يس) والنحل أنهم منها يأكلون.

٨ ـ ذكر في (يس) والنحل أن لهم فيها منافع.

٩ ـ ذكر في النحل أن لهم فيها دفئاً، ولم يذكر ذلك في (يس).

وهو يدخل في المنافع التي ذكرها في (يس).

١٠ ـ ذكر في النحل أن لهم فيها جمالاً حين يريحون وحين يسرحون.

ونلخص ما تفرد به كل موضع من الموضعين.

ما تفردت به (يس):

١ ـ أن الخلق لهم.

٢ ـ تمليكها إياهم.

٣ ـ تذليلها لهم.

٤ ـ الركوب.

٥ ـ المشارب.

ما تفردت به النحل:

١ ـ الدفء.

٢ ـ حمل الأثقال.

٣ ـ الجمال.



وأظن أن معرفة أي الموطنين أكثر تكريمًا وتفضلاً مما لا يحتاج إلى بيان.

هذا إضافة إلى أنه يحسن بنا أن نذكر أن ما تفردت به النحل يدخل في المنافع التي ذكرها في (يس) بقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾.

أما ما تفردت به (يس) فقد لا يدخل في المنافع كالتمليك والتذليل وأن الخلق لهم.

فناسب كل تعبير الموضع الذي ورد فيه من كل وجه، والله أعلم.

وقد تقول: لقد استعمل القرآن في (يس) الفعل (خلق) فقال: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾، واستعمل في سورة (غافر) الفعل (جعل) فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩]، فلم ذاك؟ وما الفرق؟

والجواب: أنه قال في (يس): ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وقال في غافر: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾، فجاء في (يس) بما هو أدعى للشكر.

فالقول: (خلقته لك) أدل على الاهتمام والعناية من (جعلته لك) ذلك أن الخالق له إنما جعله له ابتداء قبل إيجاده، أما الجعل فلا يشترط فيه ذاك.

ونحو ذلك أن تقول: (صنعت هذه السيارة لك) أو (جعلت هذه السيارة لك).

فقولك: (جعلتها لك) معناه: (ملكتها إياك) وجعلتها لتستفيد منها، ومعلوم أنها لم تصنع لك ابتداء.

أما قولك: (صنعتها لك) فمعناه أنها صنعت لك ابتداء لا لغيرك.

فقوله: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ أدل على الاهتمام والعناية وأدعى إلى الشكر.

ثم إن ما ورد في الآيتين يوضح ذلك :

قال تعالى في سورة غافر : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر : ٧٩ ـ ٨١] .

فالذي ذكره في (يس) أدعى إلى الشكر مما في (غافر) ، ذلك أنه قال في (يس) :

﴿ خَلَقْنَا لَهُم ﴾ ، ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ ، ﴿ فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾ ، ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ ﴾ ، ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ ﴾ ، ﴿ وَمَشَارِبُ ﴾ .

في حين قال في غافر :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ ﴾ ، ﴿ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا ﴾ ، ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ ﴾ ، ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ .

فزاد في (يس) على ما في غافر :

﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ ، و﴿ فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴾ ، و﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ ﴾ وزاد (المشارب) على المنافع ، فكان ما في (يس) أدعى إلى الشكر .

ومما حسن ذلك أيضًا أنه تكرر ذكر الجعل في (غافر) ، وتكرر ذكر الخلق في (يس) فقال في غافر : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ [غافر : ٦١] .

وقال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر : ٦٤] .

فناسب قوله : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ ﴾ [غافر : ٧٩] .

وقال في يس : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ .

وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ .

وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

فناسب ذكر الخلق في (يس) وذكر الجعل في (غافر) من كل وجه، والله أعلم.

* * *

﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾

معنى ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي مما تولينا نحن إحداثه وعمله من غير واسطة ولا شركة ولا يمكن لغيرنا أن يعمله[١]. وأسند العمل إلى اليد لأن الأشياء المصنوعة إنما تباشر باليد فيقال: هذا مما عملته يدي. فعبر عن ذلك بما يقرب من أفهامهم.

جاء في (البحر المحيط): «لما كانت الأشياء المصنوعة لا يباشرها البشر إلا باليد عبر لهم بما يقرب من أفهامهم بقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي مما تولينا عمله ولا يمكن لغيرنا أن يعمله، فبقدرتنا وإرادتنا برزت هذه الأشياء لم يشركنا فيها أحد»[٢].

وجاء في (فتح القدير): «﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ أي مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة، وإسناد العمل إلى الأيدي مبالغة في الاختصاص والتفرد بالخلق كما يقول الواحد منا: (عملته بيدي) للدلالة على تفرده بعمله»[٣].

و(ما) تحتمل أن تكون اسمًا موصولاً فيكون المعنى: (خلقنا لهم من

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٥٩٣، البحر المحيط ٧/ ٣٤٧، فتح القدير ٤/ ٣٧٠.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٧.

(٣) فتح القدير ٤/ ٣٧٠.

الذي عملته أيدينا) أي من الأشياء التي عملتها أيدينا.

وتحتمل أن تكون مصدرية فيكون المعنى: (خلقنا لهم من عمل أيدينا). وكلاهما مراد ولكل منهما دلالة.

ولو عبر عن ذلك بـ (الذي) فقال: (من الذي عملته أيدينا) لكان نَصًّا في الموصولية الاسمية ولم يحتمل المصدرية.

وكذلك لو قال: (مما عملته أيدينا) فذكر العائد.

ولم يقل أيًّا منهما للتوسع في المعنى والله أعلم.

ثم إنه قال: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ولم يقل: (ما عملت أيدينا) ليدل على أن هذا بعض ما عملته يد القدرة الإلهية. ولو قال: (ما عملت) لاقتصر العمل على الأنعام. فما قاله أدل على التنوع وأدل على القدرة والتكريم.

وقال: (أيدينا) بصيغة الجمع ؛ ذلك لأنه ذكر نفسه بصيغة الجمع ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾. والملاحظ في القرآن أنه إذا ذكر الله نفسه بصيغة الإفراد أفرد اليد أو ثناها فيقول ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، ويقول: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ويقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وإذا ذكر نفسه بصيغة الجمع جمع اليد كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ وهو المناسب.

﴿أَنْعَـٰمًا﴾ الأنعام جمع نَعَم وهي البقر والغنم والإبل[1]. وهو مفعول (خلقنا) وقدم الجارين على المفعول للاهتمام بشأنهما فقال: ﴿خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ فقدم ما يتعلق بتكريمهم وهو (لهم) أي لأجلهم للدلالة على الاهتمام بالإنعام عليهم وتكريمهم، ولأنهم العلة في خلق

---

(١) فتح القدير ٤/ ٣٧٠.

الأنعام ، فقدم العلة على المعلول. ووضع الأنعام بجنب ما عملته الأيدي لأنها بعض منه.

* * *

﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾

قدم الجار والمجرور (لها) على (مالكون) للاهتمام بشأن المملوك ، وذلك لأنها من أهم أموالهم وأكرمها عليهم فقدمها للاهتمام بها.

ولا يفيد هذا التقديم قصرًا. ونحو هذا التقديم مما لا يفيد القصر قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢] ، فقدم (به) على (زعيم) لأهمية حمل البعير آنذاك ، وليس معناه: أنا زعيم به دون غيره. ونحو هذا أن يقول شخص: (من يتكفل بدَيني وأهلي وأنا أكفيكم أمر هذا الفاتك قاطع الطريق؟) فيقول له قائل: (أنا بذلك كفيل). فليس معناه أنا كفيل بذاك دون غيره ، وإنما قدمه للاهتمام ، فإن هذا الأمر هو ما أهمه وهو الذي يحول بينه وبين تولي أمر قاطع الطريق فيقدمه للاهتمام. هذا علاوة على رعاية الفاصلة.

وقال: (مالكون) بالاسم ، ولم يقل: (يملكون) للدلالة على ثبات الأمر واستقراره. ولو قال: (يملكون) لاحتمل عدم الثبوت والحصول ، وأنهم غير مالكيها الآن ، وأنهم سيملكونها في المستقبل.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾: «وقدم لرعاية الفواصل مع الاهتمام ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها» (١).

وتمليكها للإنسان من تمام النعمة عليهم ، فلو خلقها لهم من دون

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥١.

تمليك لما كان بها تمام الانتفاع.

جاء في (التفسير الكبير): «قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾: إشارة إلى إتمام الإنعام في خلق الأنعام، فإنه تعالى لو خلقها ولم يملكها الإنسان ما كان ينتفع بها»[1].

وجاء في (الكشاف): «أي خلقناها لأجلهم فملكناها إياهم فهم متصرفون فيها تصرف الملاك مختصون بالانتفاع فيها لا يزاحمون، أو فهم لها ضابطون قاهرون»[2].

* * *

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾

أي صيرناها سهلة منقادة لا تستعصي عليهم يقودها الصبي وينيخها ولا تأبى عليه في شيء من الأشياء. ولو كانت نافرة وآبية لم ينتفع بها مالكها تمام الانتفاع.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ أي وصيرناها سهلة غير مستعصية عليهم في شيء مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى»[3].

وجاء في (التفسير الكبير): «وقوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ زيادة إنعام، فإن المملوك إذا كان آبيًا متمردًا لا ينفع، فلو كان الإنسان يملك الأنعام وهي نادّة صادّة لما تم الإنعام الذي في الركوب، وإن كان يحصل الأكل كما

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٠٦.
(٢) الكشاف ٢/٥٩٣.
(٣) روح المعاني ٢٣/٥١.

في الحيوانات الوحشية ، بل ما كان يكمل نعمة الأكل أيضًا إلا بالتعب الذي في الاصطياد ، ولعل ذلك لا يتهيأ إلا للبعض وفي البعض» [١].

وبهذا ذكر ما به تمام النعمة في الأنعام ، فإنه ذكر خلقها لهم وتمليكها إياهم وتذليلها لهم. وهذا تمام النعمة فيها ، ذلك أن من الأشياء ما تكون الفائدة منها في الخلق للانتفاع بها وإن لم تكن مملوكة كخلق الشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال وغيرها.

ومنها ما تكون الفائدة منها في الخلق والتمليك كالجنات وعيون الماء والأراضي وكثير مما يملك.

ومنها ما لا تتم النعمة فيها إلا في الخلق والتمليك والتذليل وذلك كالأنعام فإن تمام النعمة لا يحصل إلا بها جميعاً ، فلو كانت مخلوقة غير مملوكة لما انتفعنا بها ذلك الانتفاع ، ولو كانت مخلوقة مملوكة غير مذللة لم يتم الانتفاع بها أيضاً ، ولا يتم الانتفاع بها إلا بالتذليل فذكر ما به تمام النعمة فيها.

* * *

﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾

الرَّكوب فَعول بمعنى مفعول ، أي مركوب.

وفَعول بمعنى مفعول على قسمين: اسم وصفة.

فالاسم نحو رسول بمعنى مرسَل ، والنَّقوع لما ينقع ، والبخور لما يُتبخر به.

والوصف نحو قولهم: ناقة ذلول ، أي مذللة ، وناقة أمون: وهي

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٠٦.

الناقة التي يؤمن فتورها وعثورها[١] .

ورَكوب وردت في الآية اسمًا ، وهو ما يركب من الإبل أو من كل دابة .

جاء في (لسان العرب): «الرَّكوب والرَّكوبة من الإبل التي تركب ، وقيل: الرَّكوب: كل دابة تركب»[٢] .

وقوله: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ . . . ﴾ بيان لمنفعة التذليل والفاء للتفريع فهي فرعت أحكام التذليل إلى ما يركب وإلى ما يؤكل مع بيان المنافع الأخرى .

جاء في (التفسير الكبير): «قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ بيان لمنفعة التذليل ، إذ لولا التذليل لما وجدت إحدى المنفعتين وكانت الأخرى قليلة الوجود»[٣] .

وجاء في (روح المعاني): «﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ فإن الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها ، أي فبعض منها مركوبهم ، فركوب فعول بمعنى مفعول كحصور وحلوب»[٤] .

ومعنى قوله: ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ أي بعضها يركب ، و(من) للتبعيض ، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا ﴾ [غافر: ٧٩] .

فالأنعام لا تركب كلها ، فالبقر والغنم لا تركب وإنما تركب الإبل ، في حين قال: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل: ٨] ، فقال في

---

(١) مفردات الراغب (أمن) ٢٦ .

(٢) لسان العرب ١/ ٤١٥ (ركب) .

(٣) التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦ .

(٤) روح المعاني ٢٣/ ٥١ .

الأنعام: ﴿لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا﴾ ، وقال في الخيل والبغال والحمير: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ ؛ لأنها كلها تركب.

* * *

﴿وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ﴾

أي يأكلون منها ، كما تقول: (هو يأكل من الطعام) أو يأكل من الخبز ، على معنى الابتداء أو على معنى التبعيض.

والتبعيض ليس واقعًا على جنس من الأنعام بل على أجزاء منها ، أي: اللحوم والشحوم ، فإن أجزاء منها لا تؤكل كالجلود والصوف والشعر وغيرها مما لا يؤكل.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم ونحو ذلك ، فـ (من) تبعيضية. . . وجوز أن تكون (من) ابتدائية ، وأن تكون للتبعيض مجازًا أو سببية ، أي تأكلون ما يحصل بسببها ، فإن الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكتراء الإبل مثلاً ، وأثمان نتاجها وألبانها وجلودها ، والأول أظهر»[١].

وتقديم (من) للحصر الإضافي[٢] أي إن الأنعام بالنسبة إلى ما يؤكل من ذوات اللحوم هي المعتمدة ، ولا يقاس غيرها بها من الطيور والسمك. ولا يدخل في هذا الحصر ما يؤكل من غير اللحم كالحبوب والثمار وغيرها.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: تقدم الظرف في قوله: ﴿وَمِنۡهَا

---

(١) روح المعاني ١٤/٩٨ ـ ٩٩ ، وانظر ٢٣/٥١.

(٢) الحصر الإضافي أي الحصر النسبي ، وهو الحصر بالنسبة إلى أشياء معينة أو أمور معينة ، كأن تحصر شخصًا بالنسبة إلى أشخاص معينين ، أو صفة بالنسبة إلى صفات معينة وهو غير الحصر المطلق الذي هو الحصر الحقيقي.

تَأْكُلُونَ﴾ مؤذن بالاختصاص وقد يؤكل من غيرها.

قلت: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه» (١).

وجاء في (روح المعاني) «﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي وبعض منها يأكلون لحمه. والتعبيض باعتبار الأجزاء» (٢).

وقد غير الأسلوب في الأكل إلى الفعلية فقال: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ مع أنه قال قبلها: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ بالاسمية، ذلك لأن الفعل يدل على التجدد والاستمرار، أي: ومنها يأكلون عادة كما قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٧]، وقال: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [يونس: ٢٤]، فعبر عن ذلك بالفعل للدلالة على التجدد والاستمرار وأن هذا هو شأنهم.

وليس كذلك الركوب، فإن الركوب خاص بقسم من الإبل مما يصلح منها للركوب، أما الأكل فعام فهو يكون من جميع الأنعام ما يصلح منها للركوب وغيره.

ثم إن الأكل أعم من الركوب، فكل الناس يأكلون وليس كلهم يركبون، فالأكل حاجة يومية متكررة بخلاف الركوب.

فاقتضى ذلك المغايرة بين الركوب والأكل.

جاء في (روح المعاني): «وغير الأسلوب لأن الأكل عام في الأنعام جميعها وكثير مستمر بخلاف المركوب» (٣).

---

(١) الكشاف ٢/ ١٩٧ - ١٩٨.

(٢) روح المعاني ٢٣/ ٥١.

(٣) روح المعاني ٢٣/ ٥١.

وقدم الركوب على الأكل والمنافع الأخرى ههنا لأنه ذكر التذليل فقال: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ وأهم مظاهر التذليل الركوب.

ألا ترى أنه لما لم يذكر التذليل في النحل أَخَّرَ ذكر حمل الأثقال بعد ذكر المنافع والأكل.

وقد تقول: إنه لم يذكر التذليل أيضًا في غافر ومع ذلك قَدَّم الركوب على الأكل فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩ـ ٨٠].

فلم ذاك؟

فنقول: لما قال: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ قدم الركوب؛ وذلك لأن الكلام إنما هو على الحمل عليها وعلى الفلك.

ولذلك لم يذكر الأكل في سورة الزخرف لأن السياق في النقل والركوب حصرًا.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ـ ١٤].

وهو واضح.

وقد تقول: ولم ذكر الركوب في (يس) وذكر حمل الأثقال في النحل ولم يذكر الركوب، فقال في (يس): ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ وقال في النحل: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾؟

فنقول: إن كل تعبير أنسب في مكانه.

ذلك أنه في (يس) ذكر الركوب في غير هذا الموطن فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ فذكر حمل الذرية وركوبهم هم.

وذكر حمل الأثقال في النحل فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النحل: ١٤].

والابتغاء من فضله هو في حمل البضائع في الفلك للتجارة وغيرها.

وقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥] فهم في يوم القيامة كالأنعام يحملون أثقالهم وأثقال غيرهم.

فكان كل تعبير مناسبًا للسياق الذي وردت فيه الآية ومناسبًا لجو السورة، ألا ترى أنه قال في النحل: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] فذكر الجمال لما ذكر الزينة بعد ذلك بقوله: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ﴾ [النحل: ٨].

وذكر استخراج الحلية من البحر للبس فقال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] والحلية إنما تلبس للزينة.

ثم ألا ترى أنه ذكر الدفء فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ لما ذكر السرابيل وهي الملابس التي تقي الحر والبرد وذكر الأكنان وهي ما يحتمي به الإنسان فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَـٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ﴾ [النحل: ٨١].

فناسب كل تعبير الموضع الذي ورد فيه.

* * *



﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قدم الضمير العائد عليهم في الجار والمجرور (لهم) على ضمير الأنعام في قوله: (فيها) لأن الكلام إنما هو عليهم وهي مخلوقة لهم. فهم سبب وجودها والعلة المسببة لخلقها، ثم ذكر ضمير الأنعام بعد ذلك.

ثم ذكر أن لهم فيها منافع عدا الركوب والأكل كالجلود والأوبار والأصواف وغيرها، وكالحراثة وما إلى ذلك(١).

والمشارب تعم شيئين: اللبن وأدوات الشرب، فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدوات من القرب وغيرها(٢).

فجمع بقوله: (مشارب) معنيين، ولو قال: (لهم فيها شراب) لم يفد إلا معنى واحدًا وهو اللبن.

وذكر المشارب بعد المنافع من باب ذكر الخاص بعد العام، وذلك لأهميتها واعتناء العرب بها.

وقدم الأكل على الشرب كما هو في سائر القرآن الكريم من تقديم الأكل على الشرب كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ [الأعراف: ٣١] وذلك لأهمية الأكل وصعوبة الحصول عليه.

ولأن الأكل من الأنعام أعم من الشرب، فإن الأكل يكون من إناثها وذكورها صغارها وكبارها، أما الشرب فيكون من الإناث خاصة وفي حالات خاصة، فقدم ما هو أهم وأعم.

وقد أخر ذكر المشارب عن بقية المنافع؛ لأن ما تقدم من المنافع يمكن الانتفاع به متى شاء صاحبها إلا المشارب فإنها لا تكون إلا في

---

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٥٩٤، التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦، روح المعاني ٢٣/ ٥١.
(٢) ينظر التفسير الكبير ٢٦/ ١٠٦.

وقت معين وهو وقت الإرضاع ولا يكون في غيره ، فأخرها لمحدودية الانتفاع بها والله أعلم.

﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

أي ألا يكون ذلك سببًا لشكرهم لاستدامة النعم عليهم؟

وقال ذلك بصيغة الاستفهام لأن الاستفهام في نحو هذا أدعى إلى الحث واستثارة النفوس إلى مقابلة النعم بالشكر وأدل على بيان سوء صنيعهم إن لم يفعلوا.

وجاء بالفاء الدالة على السبب ؛ وذلك لأنه تقدم ما يستدعي الشكر وهو ما ذكره من النعم.

وأطلق الشكر ليتناول المنعم والنعمة كما مر بيان ذلك في آية سابقة في السورة.

* * *

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

* * *

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

بعد أن ذكر ما خلق لهم من الأنعام وأسبغ عليهم من النعم التي تستدعي عبادة الخالق وشكره ذكر أنهم اتخذوا من دون الله آلهة.

وفي ذلك من التوبيخ والتبكيت على مقابلة الإحسان بالإساءة ما فيه. فهم بدل أن يشكروا الخالق المنعم اتخذوا من دونه آلهة عاجزة لا تضر ولا تنفع على رجاء أن ينصروهم.

جاء في (التفسير الكبير): «﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ إشارة إلى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها، فإنه كان الواجب عليهم عبادة الله شكرًا لأنعمه فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم: ﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ ﴾، وفي الحقيقة لا هي ناصرة ولا منصورة»[1].

وأطلق النصر والجهة التي ينصرون عليها، فهم على أية حال يريدون النصر في كل موطن يستدعي النصر، وأن ينصروهم عند الله بأن يكونوا شفعاء لهم عنده يقربونهم إليه.

* * *

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾

لم يقل: (لا ينصرونهم) لأن ذلك قد يدل على أنهم قادرون على النصر ولكن لا يفعلون ذلك وإنما قال ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ ليدل على عجزهم وضعفهم.

* * *

﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾

قيل: المعنى أن الآلهة لا يستطيعون نصرهم وإنما هم؛ أي: عابدوهم جند لهم يدافعون عنهم وينصرونهم، فهم بدل أن ينتصروا بهم صاروا جنودًا لهم يدافعون عنهم؛ لأنهم عاجزون عن الدفاع عن أنفسهم، وهذا أسوأ ما يكون من خيبة الأمل وانقطاع الرجاء.

جاء في (روح المعاني): «(وهم) أي أولئك المتخذون المشركون

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٠٧.

(لهم) أي لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحۡضَرُونَ﴾ أي معدون لحفظهم والذب عنهم في الدنيا» [١].

وجاء في (فتح القدير): «أي والكفار جند للأصنام محضرون، أي يحضرونهم في الدنيا. قال الحسن: يمنعون منهم ويدفعون عنهم، وقال قتادة: أي يغضبون لهم في الدنيا. قال الزجاج: ينتصرون للأصنام وهي لا تستطيع نصرهم.

وقيل: المعنى: يعبدون الآلهة ويقومون بها فهم لها بمنزلة الجند.

هذه الأقوال على جعل ضمير (هم) للمشركين وضمير (لهم) للآلهة» [٢].

وقيل: بل المعنى أنهم جند لهم، أي جند للآلهة محضرون للعذاب في الآخرة، وذلك أن هذه الآلهة توقد بها النار يوم القيامة فتتقدمهم إلى النار وهم يتبعونهم إليها كما يتبع الجند قائدهم. أو أن الآلهة تكون جندًا لهم محضرة للعذاب.

جاء في (الكشاف): «اتخذوا الآلهة طمعًا في أن يتقووا بهم ويعتضدوا بمكانهم، والأمر على عكس ما قدّروا، حيث هم جند لآلهتهم معدّون (محضرون) يخدمونهم ويذبون عنهم ويغضبون لهم، والآلهة لا استطاعة بهم ولا قدرة على النصر، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا، حيث هم يوم القيامة جند معدون لهم محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقودًا للنار» [٣].

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥١.
(٢) فتح القدير ٤/ ٣٧١.
(٣) الكشاف ٢/ ٥٩٤.

وفيه معنى لطيف آخر وهو أن هذه الآلهة لا تستطيع نصرهم في حال أن لهم جندًا محضرين ، أي هي لا تستطيع النصر ولو كان لهم أي للآلهة جند محضرون معدون فكيف إذا لم يكن لهم ذلك؟ فلا شك أنهم سيكونون أعجز وأذل وأضعف ، وعلى هذا تكون الواو واو الحال.

وذكر الفخر الرازي معنى آخر: وهو أن الآلهة لا تستطيع نصرهم ، ولو كانت هي جندًا محضرين لنصرتهم أي: حتى لو اجتمعت الآلهة وكانت جندًا معدة لنصرهم لم تستطع أن تنصرهم فكيف إذا لم تكن كذلك؟

جاء في (التفسير الكبير): في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾

«وهو يحتمل معنيين:

(أحدهما): أن يكون العابدون جندًا لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا.

(الثاني): أن يكون الأصنام جندًا للعابدين، وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جندًا لهم ومحضرون[1] لنصرتهم ، فإن ذلك دال على عدم الاستطاعة ، فإن من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف ، بخلاف من لم يكن متأهبًا ولم يجمع أنصاره»[2] .

وهذه المعاني كلها محتملة صحيحة:

١ ـ فإن الآلهة عاجزة وإن عابديهم ينصرونهم ويدفعون عنهم وهم لهم جند محضرون.

---

(١) كذا ، والصواب: (ومحضرين).

(٢) التفسير الكبير ٢٦/١٠٧.

٢ ـ وأنهم وآلهتهم سيكونون محضرين للعذاب في النار.

٣ ـ وأن الآلهة لا تستطيع أن تنصرهم ولو كان لها جند محضرون معدون للنصر فكيف وهي ليست كذلك؟.

٤ ـ وهي لا تستطيع أن تنصرهم ولو اجتمعت وكانت جندًا معدين لنصرة عابديهم.

فجمع هذا التعبير كل هذه المعاني.

ولو غَيَّر أي لفظ عن مكانه بتقديم أو تأخير لم يؤد هذه المعاني مجتمعة، فلو قال: وهم جند محضرون لهم.

أو: وهم جند لهم محضرون.

أو: ولهم هم جند محضرون.

وكذلك لو قيل أي تعبير آخر لم يفد هذه المعاني مجتمعة، بل ربما اختل المعنى. فكان هذا التعبير أعدل التعبيرات وأحسنها وأجمعها للمعاني المطلوبة.

* * *

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

نهاه عن أن يحزن لما يقولونه فيه وفي دعوته. فهم يقولون فيه إنه كاذب، وإنه شاعر، وإنه ساحر، وإنه مجنون، ويقولون في دعوته إنها ضلال وإفك وكذب وافتراء، إلى غير ذلك مما يتناجون به من العداوة له وحربه، فنهاه عن أن يحزن لأقوالهم، وقد أطلق القول ليشمل ما يقولونه فيه وفيما يدعو إليه.

ثم استأنف معللاً ذلك بقوله: ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾، فلم

الحزن والله يعلم سرهم وجهرهم ، وهو قادر على إبطال ما يظهرون أو يضمرون؟

إن (ما) في قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تحتمل أن تكون اسمًا موصولاً ، أي: نعلم الذي يسرونه والذي يعلنونه ، وتحتمل أن تكون مصدرية ، أي نعلم إسرارهم وإعلانهم ، وهو يعلم ذلك كله إسرارهم وما يسرونه وإعلانهم وما يعلنونه. ولو قال: (ما يسرونه وما يعلنونه) لتعينت الموصولية الاسمية ولم تحتمل المصدرية ، فلم يذكر العائد ليشمل المعنيين جميعًا. وأطلق الإسرار والإعلان ليشمل كل ما يسرون وكل ما يعلنون في كل أمر من الأمور ، فعلمه يعم الجميع ولا يخص شيئًا دون شيء.

جاء في (روح المعاني): «و(ما) موصولة والعائد محذوف ، أي نعلم الذي يسرونه من العقائد الزائغة والعداوة لك ونحو ذلك ، والذي يعلنونه من كلمات الإشراك والتكذيب ونحوها.

وَجوَّز أن تكون مصدرية ، أي نعلم إسرارهم وإعلانهم ، والمفعول محذوف ، أو الفعلان منزلان منزلة اللازم.

والمتبادر الأول وهو الأولى» [1].

وقد قَدَّم السر على الإعلان ، قيل: لأن مرتبة السِّر مقدمة على مرتبة العلن لأن السِّر يسبق الإعلان ، فهو علة لما يفعله الإنسان ، والعلة مقدمة على المعلول. وقيل: إن العلم بالسِّر يدل على الإحاطة بالمعلومات كلها. فمن كان يعلم السر فهو يعلم العلن من باب أولى. وقيل غير ذلك.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٢.

جاء في (روح المعاني): «وتقديم السِّر على العلن لبيان إحاطة علمه سبحانه بحيث إن علم السِّر عنده كأنه أقدم من علم العلن. وقيل: لأن مرتبة السِّر متقدمة على مرتبة العلن، إذ ما من شيء معلن إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب قبل ذلك. فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة.

وقيل: للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن فإنه ملاك الأمر، ولأنه محل الاشتباه المحتاج للبيان»[(١)].

والملاحظ في القرآن الكريم أنه لا يقتصر على تقديم السِّر، فهو ـ كما يقدم السِّر على الإعلان ـ قد يقدم الجهر على الإخفاء، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، وقوله ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وهو أحيانًا يكتفي بذكر أحدهما دون الآخر، فقد يكتفي بذكر الإسرار مثلاً كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦]. وقد يكتفي بذكر الأمور الظاهرة كذكر العمل والصنع ونحوهما وذلك كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وكل ذلك بحسب ما يقتضيه المقام.

وقد قيل في تقديم الإخفاء على الإعلان، أو الإعلان على الإخفاء: إنه إذا تقدم الكلام على المنافقين أو الكفار قدم الإخفاء، وإذا تقدم ذكر المؤمنين قدم الإبداء، وهذا مطرد في جميع ما ورد من القرآن الكريم.

جاء في (ملاك التأويل) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٢.

﴿تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾: «أما آية البقرة فلم يجر فيها ذكر النفاق ولا صفة أهله وإنما الخطاب فيها وفي آية الدَّين قبلها وفيما أعقبت به بعد للمؤمنين فيما يخصهم من الأحكام فورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ فقدَّم فيها بادي أعمالهم بناء على سلامة بواطنهم وتنزههم عن صفة المنافقين.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، فتقدم ذكر ما يبدونه لأنه خطاب للمؤمنين...

وهذا جارٍ مطرد فيما يلحق بهذا الضرب كما اطرد بالبدء بالإخفاء على الإعلان حيث يتقدم ذكر أهل الكفر وينتظم الكلام بذكرهم كقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ [الأنعام: ٣] بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ﴾ [التغابن: ٤]، وكقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩] بعد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التغابن: ٢]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤] وقد تقدمها قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، فاطرد ما ذكرناه في الطرفين على رعي الإيمان والنفاق، وجاء كل على ما يجب ويناسب»(١).

وهذه ملاحظة صحيحة تتبعتها في مواطن قوله تعالى: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ وقد وردت في أربعة مواضع في القرآن الكريم وهي: (البقرة ٧٧، هود ٥، النحل ٢٣، يس ٧٦). وهذه المواطن خاصة بذكر الكافرين.

وقد ورد قوله تعالى: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ بالخطاب في موطنين وهما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]،

---

(١) ملاك التأويل ١/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]، وهما ليسا مختصين بالكافرين، وإنما هما من المواطن العامة التي تشمل عموم بني آدم وإن كان قد جرى فيها ذكر للكافرين.

أما آية النحل فقد وقعت في سياق تعداد النعم على الإنسان وهي قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ . . .﴾ وتستمر إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا . . . وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ إلى أن يقول: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٧ ـ ١٩].

فأنت ترى أنها ذكرت في سياق تعداد النعم.

إلا أن الملاحظ أن السياق بدأ في الكلام على المشركين والشرك، فقد بدأت السورة بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وبدأت الآيات بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ الآيات، فهي إذن ذكرت بعد ذكر الإنسان الخصيم لربه المشرك به.

ثم يأتي في عقب ذلك مباشرة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢٢]، ويستمر في الكلام على الكفار.

على هذا تكون الآية وقعت في سياق الكلام على المشركين والكافرين ولم يرد فيها ذكر للمؤمنين.

وأما آية التغابن فقد وقعت في السياق الآتي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٢ ـ ٤].

فالسياق لم يختص بالكلام على الكافرين إلا أنه جرى بعدها مباشرة ذكر الكافرين فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٥ ـ ٧].

فتكون قد وقعت في سياق الكافرين سواء تقدمها ذكر الكافرين أم وقع في عقبها.

وعلى أية حال تكون الملاحظة صحيحة، فكل ما تقدم فيه السِّر على العلن كان في سياق الكلام على الكافرين سواء تقدم الآية أم كان في عقبها.

غير أنه مع هذا الخط العام للتقديم والتأخير يكون التقديم والتأخير مناسبًا للسياق الذي ترد فيه الآية.

فقوله تعالى مثلاً: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، إنما قدم الإبداء فيه على الإخفاء لقوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فإن الحساب يكون على ما يبديه الإنسان ويفعله لا على ما يدور في نفسه من خواطر، فإن ذلك ليس بوسع الإنسان أن يمنعه، «ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٨.

وورد في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم وغيره أنه لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما أقرّ بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ إلى آخره[(١)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، فإنه قدم الجهر على الكتمان وذلك لما تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]، والإيذان هو الإعلام والإشهار، وذلك لا يكون إلا جهراً، وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ يعني «مستوين في الإعلام به لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم وقشر العصا عن لحائه»[(٢)] وذلك كله جهر فناسب تقديمه.

ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧]، فقد قدم الجهر وذلك لتقدم قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، والإقراء لا يكون إلا جهراً، بخلاف القراءة فقد تكون سرًّا وجهرًا.

فناسب تقديم الجهر.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٣٩.

والمقصود أنه إضافة إلى الخط العام الذي ذكرناه في تقديم السر على العلن ، فإن السياق الذي ترد فيه الآية يقتضي ذلك أيضًا .

أما الاكتفاء بأحدهما دون الآخر فذلك ما يقتضيه المقام أيضًا وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد : ٢٦] .

وذلك لأن السياق والمقام يقتضيان ذلك ، فقد قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦] ، ولم يقل: (وجهرهم) ذلك لأنه ذكر ما جهروا به وهو قولهم: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ غير أنهم لم يذكروا الأمر الذي يطيعونهم فيه ولم يبينوه ، وإنما أسروه فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي لا يخفى عليه ما أسروه ، فذكر ما يحتاج إليه المقام ، والله أعلم .

* * *

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس : ٧٧ ـ ٨٣] .

قيل : جاء أحد عتاة مكة ـ قيل : هو أبيّ بن خلف ، وقيل : العاص بن وائل ـ إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفتّه ويذروه في الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟

قال ﷺ : نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار .

ونزلت هذه الآيات من آخر (يس): ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخرهن.

وفي رواية أنه قال له بعدما فتّ العظم البالي: أيحيي الله هذا بعدما أرى؟ فأجابه رسول الله بما ذكرنا[١].

* * *

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾

المقصود هو التعجيب من حال الإنسان بعدما خلقه الله من نطفة فإذا هو مخاصم لربه معاند له، فكان جزاء نعمته عليه أن كان خصمًا لربه مظهرًا خصومته له.

وقيل: المقصود بيان قدرة الخالق وذلك أن ربه خلقه من نطفة فإذا هو ناطق مخاصم ذو حجة ولدَد مبين عما في نفسه.

جاء في (الكشاف): «قَبَّح الله عز وجل إنكارهم البعث تقبيحًا لا ترى أعجب منه وأبلغ، وأدلّ على تمادي كفر الإنسان وإفراطه في جحود المنعم وعقوق الأيادي، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة، حيث قرره بأن عنصره الذي خلقه منه هو أخس شيء وأمهنه، وهو النطفة المذرة... ثم عجب من حاله بأن يتصدى مثله على مهانة أصله ودناءة أوله لمخاصمة الجبار...

وقيل معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ فإذا هو بعدما كان ماء مهينًا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه فصيح» [٢].

وجاء في (روح المعاني): «قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨١.

(٢) الكشاف ٢/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥.

مبالغ في الخصومة والجدال الباطل ، (مبين) ظاهر متجاهر في ذلك. . .

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ : فإذا هو بعدما كان ماء مهيناً رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في ضميره فصيح» [١]

وجاء في (البحر المحيط): «﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ الوصف الذي آل إليه من التمييز والإدراك الذي يتأتى معه الخصام ، أي فإذا هو بعدما كان نطفة رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في نفسه» [٢].

والمعنيان مرادان مقصودان ، فالإنسان بعدما خلقه ربه من نطفة من ماء مهين وسواه رجلاً إذا هو مخاصم له يتخذ من دونه آلهة.

أولا ينظر الإنسان إلى قدرة خالقه بأن جعل من النطفة إنسانًا عاقلاً ناطقًا مخاصمًا مبينًا عن حجته؟

إن الآية تبدأ بالهمزة الدالة على الإنكار والتعجيب ، فهي تنكر عليه فعله وموقفه من ربه وتعجّب من حاله ، وذلك أن يقابل الإحسان بالإساءة ، والنعمة بالجحود ، فهو إنكار وتعجيب.

ثم جاء بالواو التي قيل فيها إنها عطف على كلام مقدر ، وقيل أيضًا: إن المقصود بها الاستدلال بالمشاهد وكثرة الوقوع كما سبق أن ذكرنا ، وقيل: هي عطف على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾.

ثم ذكر (الإنسان) فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ مع أنه جاء بضمير الغائبين قبلها فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ ، وذلك أن الاستدلال في

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٣ ـ ٥٤.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨.

هذه الآية يخص كل إنسان وهو حجة على كل فرد ، فكان الأولى أن ينظر في نفسه ويتأمل فيها وفي خلقها وينظر في أصله وماذا هو الآن.

أما قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ فهو كلام على مجموعة من الناس ، فهذه الآية أعم وأشمل. جاء في (التفسير الكبير): «قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة ، أولم يروا خلق الأنعام لهم. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ كلام أعم من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ، لأنه مع جنس الإنسان وهو مع جمع منهم ، فنقول: سبب ذلك أن دليل الأنفس أشمل وأكمل وأتم وألزم ، فإن الإنسان قد يغفل عن الأنعام وخلقها عند غيبتها ولكن لا يغفل هو مع نفسه متى ما يكون وأينما يكون ، فقال: إن غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه فما باله؟ أولم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة؟» (١).

وجاء في (روح المعاني): «الهمزة للإنكار والتعجب ، والواو للعطف على جملة مقدرة هي مستتبعة للمعطوف كما مَرَّ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ . . . إلخ ، أي: ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم أنا خلقناه من نطفة ، أو هي عين تلك الجملة أعيدت تأكيدًا للنكير السابق وتمهيدًا لإنكار ما هو أحق منه بالإنكار لما أن المنكر عين علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم . . .

ويشير كلام بعض الأجلّة إلى أن العطف على ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ السابق والجامع ابتناء كل منهما على التعكيس ، فإنه تعالى خلق للإنسان ما خلق ليشكر ، فكفر وجحد المنعم والنعم ، وخلقه سبحانه من نطفة قذرة ليكون منقادًا متذللاً فطغى وتكبّر وخاصم. وإيراد (الإنسان) مورد الضمير لأن

---

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٥٣.

مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان»[(١)].

وقال: (خلقناه) بإسناد الخلق إلى ضمير المعظم نفسه ليبين الفاعل وقدرته وإنعامه وتفضله.

وقال: (من نطفة) ليذكّر الإنسان بأصله، ويذكّره بقدرة الخَلاَّق العليم، وكيف تعهد هذه النطفة وجعل منها إنسانًا عاقلاً ناطقًا فيتطامن لخالقه.

ثم قال: (فإذا) فجاء بالفاء الدالة على التعقيب، أي: فإذا هو في عقب ذلك مباشرة خصم لربه. والفاء تفيد السبب أيضًا، فكأن إحسان خالقه إليه كان سببًا في كفره وخصومته له. وهذا أعجب شيء وأبعد شيء عن مألوف المعاملات والعادات، إذ المفروض أن يكون الإحسان سببًا إلى الشكر والاعتراف بالفضل والجميل.

أما الإنسان فكان الإحسان إليه سببًا لخصومة المنعم عليه وكفره به.

فجمع بالفاء بين معنيي التعقيب والسبب.

وجاء بـ (إذا) الدالة على المفاجأة للدلالة على أن موقفه هذا مفاجئ وهو غير متوقع أن يفعل هذا مع من أحسن إليه.

ومن جهة أخرى تدل الآية على بالغ قدرة الله، فإنه من المفاجآت العجيبة أن تصبح هذه النطفة إنسانًا عاقلاً مخاصمًا ناطقًا بالحجة مدافعًا عن نفسه مبينًا عما في ضميره، فهي مفاجأة من كل وجه.

و(الخصيم) هو المبالغ في الخصومة. واختار (الخصيم) لأن الخصيم من يخاصم غيره ويبالغ في ذلك، فدلّ بذلك على النطق والعقل والقيام بالحجة.

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٣.

و(المبين) هو المفصح عما في نفسه المظهر لخصومته وما يريد إظهاره، فذكر أضعف شيء في طور خلق الإنسان وهي النطفة، وأبلغ شيء فيه وهو الخصيم.

وجاء بالجملة اسمية للدلالة على الثبوت، أي ثبوت هذا الأمر في الإنسان.

جاء في (التفسير الكبير): «(خصيم) أي ناطق، وإنما ذكر الخصيم مكان الناطق لأنه أعلى أحوال الناطق فإن الناطق مع نفسه لا يبين كلامه مثلما يبينه وهو يتكلم مع غيره، والمتكلم مع غيره إذا لم يكن خصمًا لا يبين ولا يجتهد مثلما يجتهد إذا كان كلامه مع خصمه.

وقوله: (مبين) إشارة إلى قوة عقله، واختار الإبانة لأن العاقل عند الإفهام أعلى درجة منه عند عدمه... فقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارة إلى أدنى ما كان عليه، وقوله: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارة إلى أعلى ما حصل عليه» [(١)].

وجاء في (روح المعاني): «وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي مبالغ في الخصومة والجدال الباطل.

(مبين): ظاهر متجاهر في ذلك، عطف على الجملة المنفية داخل في حيز الإنكار والتعجيب، كأنه قيل: أولم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة، وإيراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره في الخصومة واستمراره عليها.

وفي الحواشي الخفاجية أن تعقيب الإنكار بالفاء وإذا الفجائية على

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/١٠٨.

ما يقتضي خلافه مقوّ للتعجيب ، والمراد بالإنسان الجنس ، والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقًا . . .

وقيل معنى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ : فإذا هو بعدما كان ماء مهينًا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما في ضميره فصيح ، فهو حينئذ معطوف على (خلقناه) والتعقيب والمفاجأة ناظران إلى خلقه» [١] .

إن هذه الآية مرتبطة بما قبلها وما بعدها من الآيات أحسن ارتباط وأبلغه .

فهي مرتبطة بقوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ ، وهذه خصومة ظاهرة لخالقهم .

ومرتبطة بقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وذلك أنه إذا كان الله خلق الإنسان من نطفة وأنشأه حتى سواه رجلاً ، فلا شك أنه يعلم كل ما يسر وما يعلن .

وهي مرتبطة بقوله : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ، فإن الذي خلقه من نطفة أقدر على إعادته في الآخرة ، لأن الإعادة أيسر من الابتداء .

* * *

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾

المثَل هو ما أوردناه في مطلع تفسير هذه الآيات .

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٣ ـ ٥٤ .

وقوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ من لطيف التذكير والاحتجاج؛ فإنه لو كان ذاكرًا لم يسأل ولم يعجب.

ولم يكتف بهذا التذكير بل أجاب بحجة ظاهرة ملزمة فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، وهي حجة غنية عن التعليق من حيث الإلزام.

و(عليم) مبالغ (عالم)، فلما قال: ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ اقتضى ذلك المبالغة في العلم.

«والعدول إلى الاسمية للتنبيه على أن علمه تعالى بما ذكر مستمر ليس كإنشائه للمنشآت» [(١)].

وقد تقول: ولكنه قال في موطن آخر: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]، فقال: (عالمين) مع (كل شيء) ولم يقل: (عليم) مع أن كلمة (شيء) أعم من كلمة (خلق)، فلم ذاك؟

فنقول: إن الله سبحانه وصف نفسه بكل صفات العلم وأحواله، فوصف نفسه بأنه (يعلم) أي بالفعل الدال على الحدوث والتجدد، ووصف نفسه بأنه (عالم) أي باسم الفاعل نحو (عالم الغيب) وهو أثبت من الفعل وأدوم، ووصف نفسه بأنه عليم وعلاّم بالمبالغة، فجمع لنفسه كل صفات العلم وأحواله، إلا أنه يضع كل وصف أو لفظ في مكانه.

ولو رجعنا إلى السياق الذي ورد فيه قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ لرأينا أن هذا التعبير هو الأمثل في سياقه، ذلك أن هذا التعبير وقع في سياق مسألة خاصة جدًّا وهي مسألة داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث، وتعليم داود صنعة الدروع وتسخير الريح لسليمان فقال:

---

(١) روح المعاني ٢٣/ ٥٥.



﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾.

وهذا من أخص الخاص ولا يقاس من حيث العموم والشمول بما ذكره في آيات (يس) من خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض وغيرها وإحياء الموتى وبعثهم من جديد ، وذلك يشمل العلم بكل الخلق وذرات ترابهم وما تفرق من أجزائهم.

فناسب (عليم) ما ورد فيه ، و(عالمين) ما ورد فيه.

* * *

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

إن ارتباط هذه الآية بما قبلها ألطف ارتباط ، ذلك أن الكافر استبعد الإحياء بعد الموت ، فلفت نظره إلى أمر أدعى إلى الاستبعاد والعجب وهو أن جعل لهم من الشجر الأخضر نارًا يوقدون منه ، وهو أمر مستبعد في المألوف ، لأن الماء تطفئ النار ، فذكر قدرته على ما هو مستبعد في تفكيرهم مما يعرفونه ويألفونه.

والمقصود بالشجر هنا عموم الشجر ، إلا أنه أظهر ما يكون ذلك في شجرتي المرخ والعَفار فيؤخذ قضيب كالسواك من كل شجرة من هاتين الشجرتين فيسحق المرخ على العفار وهو يقطر ماء فتنقدح النار وهو ما يعرفونه ويستعملونه في الوقود ، وهو أعجب شيء وأبعده في الذهن.

جاء في (الكشاف): «ثم ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار الماء وانطفائها به وهي الزناد التي توري بها الأعراب وأكثرها من المرخ والعفار. وفي أمثالهم (في كُلِّ شجرٍ نارٌ واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار) ، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار

وهي أنثى فتنقدح النار بإذن الله»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «ذكر ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء، وهو اقتداح النار من الشجر الأخضر، ألا ترى أن الماء يطفئ النار ومع ذلك خرجت مما هو مشتمل على الماء»[٢].

وقال: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ بالفعل ولم يقل: (موقدون) بالاسم؛ لأن هذا مما يفعلونه عند الحاجة، فجاء بما يدل على الحدوث.

* * *

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾

بدأ بالاستدلال بخلق الإنسان من نطفة، ثم استدل بما هو مستعجب مما حولهم وهو اتقاد النار من الشجر الأخضر، ثم ترقى إلى خلق السماوات والأرض وهو أعظم وأعجب؛ ذلك أنه ذكر للإنسان مبدأ خلقه منه وهو النطفة، وذكر للنار أصلاً تخرج منه وهو الشجر الأخضر، ولم يذكر للسماوات والأرض شيئًا خلقهما منه. وهذا أعظم وأعجب فإن الخلق من العدم المحض أعجب وأدل على القدرة، وعلى هذا فلا داعي لاستبعاد البعث بعد الموت فإن أجزاءهم موجودة، وإن جمعها وإعادتها أيسر من خلق شيء ليس له مادة ولا وجود ابتداء وهو خلق السماوات والأرض.

ثم قال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٩٥.

(٢) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨.

ولم يقل: (على أن يعيدهم) وذلك ليدل على أَنه قادر على ما هو أعجب وهو أن ينشئ خلقًا آخر أمثال هؤلاء من غير نطف ولا أجزاء متفرقة كما خلق السماوات والأرض ابتداء من غير شيء.

فذكر ما هو أبعد في الخلق وأعسر من الإعادة.

جاء في (البحر المحيط): «ثم ذكر ما هو أبدع وأغرب من خلق الإنسان من نطفة ومن إعادة الموتى وهو إنشاء هذه المخلوقات العظيمة الغريبة من صرف العدم إلى الوجود فقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾» (١).

وجاء في (روح المعاني): «الهمزة للإنكار والنفي، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أي: أليس الذي أنشأها أول مرة، وليس الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا، وليس الذي خلق السماوات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغر والحقارة بالنسبة إليهما» (٢).

لقد ذكر ههنا صفتين له سبحانه:

الأولى: صفة العلم بالمخلوقات كلها فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

والأخرى: صفة الخلق، فذكر أنه الخلاق العليم.

فإنه لما ذكر العظام البالية ذكر أنه بكل خلق عليم إشارة إلى أنه عليم بكل شيء، يعلم كل شيء عن كل مخلوق، وأين ذهبت ذراته، وأين استقرت في أماكن ملكه، وما ذرات العظام إلا جزء يسير من خلقه.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٣٤٨.
(٢) روح المعاني ٢٣/ ٥٦.

ثم قد لا يكون العلم وحده كافيًا ، فقد يعلم إنسان ما جزئيات آلة من الآلات وأماكنها ولكنه لا يستطيع تركيبها ، فذكر صفة الخلق على أبلغ حال فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ . فهو بكل خلق عليم ، وهو الخلاق العليم.

وقال: ﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ، ولم يقل: (خلاّق عليم) لئلا يشاركه في هذين الوصفين أحد ، فإن الإنسان قد يكون خالقًا على أحد معاني الخلق وهو (التقدير) وقد يوصف بأنه عليم كما قال تعالى علىٰ لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

ولكن لا يوصف بالخَلاّق العليم غير الله ، فجاء بالألف واللام الدالة على القصر والكمال في هاتين الصفتين.

فذكر ما به كمال الاتصاف في العلم والخلق.

وقد تقول: ولكنه وصف نفسه بأنه عليم في آية سابقة فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ولم يعرف الوصف؟

فنقول: لما قال: ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ علم أن ذلك لا يكون لغير الله ، فإنه لا يكون عليمًا بكل خلق غير الله.

ثم إنه لما ذكر خلق الإنسان من نطفة وخلق السماوات والأرض قال: (الخَلاّق) للدلالة على كثرة خلقه واستمراره في الخلق والإيجاد.

والجمع بين الخلق والعلم هنا أحسن جمع ، فإن الخلق والإيجاد إن لم يكونا عن علم فلا خير فيهما ؛ لأنهما قد يكونان عبثًا وقد يكون ضررهما أكبر من نفعهما.

وقال: (بقادر) فجاء بالباء الزائدة المؤكدة ؛ لأن الموطن موطن إنكار ، فجاء بما يؤكد قدرته على خلق مثلهم وإعادتهم.

وقد تقول: لقد ختم الآية ههنا بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ، وختمها في موطن شبيه به بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] ، وذلك قوله في (الأحقاف): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣] ، فلم ذاك؟ .

فنقول: إن ثمة اختلافًا بين الموطنين يقتضي مغايرة التعبير ، وذلك أنه قال في آية (يس): ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ فناسب قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

وقال في آية الأحقاف: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ﴾ فناسب قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

* * *

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾

لقد ذكر فيما سبق من الآيات ما خلق في الماضي وهو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ ، وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ ، وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

وهنا ذكر قدرته التي لا تحد في كل وقت ، في الماضي والحال والاستقبال ؛ لئلا يظن أن ذلك أمر قد انتهى فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ، فذكر أنه إذا أراد شيئًا قال له: (كن) ، فيكون كما أمر وكما أراد سبحانه.

وجاء بالفاء فقال: (فيكون) ولم يقل: (ثم يكون) للدلالة على

التعقيب، وأنه يكون ما أراده مباشرة كما أمر وليس في ذلك تراخ أو مهلة.

* * *

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

نَزَّه الله سبحانه من بيده الملك ـ وهو يعني ذاته العلية ـ عن كل نقص؛ ليعلم خلقه أن هذا الخالق المقتدر والذي بيده ملكوت كل شيء هو منزه عن كل نقص. فقد يكون المالك المقتدر ظالمًا غشومًا، وقد تكون فيه صفات نقص، فنزه الله نفسه عن كل ذلك بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

والملكوت مبالغة في الملك(١)، وهو يكون بمعنى الملك مع العز والسلطان وليس مجرد الملك، ففيه مبالغة ما ليس في الملك.

جاء في (لسان العرب): «وملك الله وملكوته: سلطانه وعظمته، ولفلان ملكوت العراق، أي: عزه وسلطانه وملكه... وهو الملك والعز»(٢).

وجاء في (فتح القدير): «والملكوت في كلام العرب لفظ مبالغة في الملك كالجبروت والرحموت، كأنه قال: فسبحان الذي بيده مالكية الأشياء الكلية»(٣).

وجاء بالفاء في قوله: (فسبحان) للدلالة على السبب، فإنه بعدما ذكر ما أولاه من النعم على خلقه وعظيم خلقه في السماوات والأرض وقدرته التي لا تحد، استدعى ذلك تنزيه الخالق الذي بيده ملكوت كل شيء.

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/ ١١٢، روح المعاني ٢٣/ ٥٧.
(٢) لسان العرب (ملك) ١٢/ ٣٨٢.
(٣) فتح القدير ٤/ ٣٧٣.

وقال: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ليدل على أنه المالك المتصرف في ملكه كما يشاء، ولئلا يظن ظان أنه خلق الخلق وتركهم كل يتصرف وحبله على غاربه ليس لله عليه قدرة ولا حكم ولا مشيئة فقال: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: «هو مالك كل شيء والمتصرف فيه بموجب مشيئته وقضايا حكمته» [(١)].

وقدم (بيده) وهو الخبر على المبتدأ ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ لإفادة القصر، فإن ملكوت كل شيء بيده هو حصرًا ليس لآخر فيه نصيب ولا بيده شيء، فإن كل يد غير يده صفر.

ثم قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ ليدل على أن ما ذكره من التصرف في الملكوت ليس مقصورًا في الدنيا، وإنما بيده الملكوت في الآخرة كما في الدنيا، وأنه إليه المرجع والمصير.

وقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فقدم الجار والمجرور على الفعل للدلالة على أن الرجوع إليه حصرًا لا إلى غيره.

جاء في (روح المعاني): «﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تنزيه له عز وجل مما وصفوه به تعالى، وتعجيب عما قالوا في شأنه عز شأنه. والفاء جزائية، أي إذا علم ذلك فسبحان، أو سببية، لأن ما قيل سبب لتنزيهه سبحانه.

والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت، فهو الملك التام، وفي تعليق (سبحان) بما في حيزه إيماء إلى أن كونه تعالى مالكًا لذلك كله قادرًا على كل شيء مقتض للتسبيح، وفسر الملكوت أيضًا بعالم الأمر والغيب...

---

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٩.

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ لا إلى غيره تعالى ، هذا وعد للمقربين ووعيد للمنكرين ، فالخطاب عام للمؤمنين والمشركين» [١] .

لقد قرر في هذه الآية التوحيد والحشر ، فقوله: ﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يدل على أنه واحد لا شريك له ، وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إثبات للحشر.

لقد ذكر في هذه السورة أركان الإيمان كلها.

فذكر الإيمان بالله وتوحيده وهو ما بدأت به السورة من قوله: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، وما انتهت به من قوله: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ .

وذكر الإيمان بالرسل وأنه لا يتم الإيمان بهم حتى يؤمن برسول الله ﷺ وذلك قوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقوله: ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ، وقوله: ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ .

وذكر الإيمان بسيد كتبه وهو القرآن فأقسم به وذكر أنه تنزيله فقال: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ. . . تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ .

وذكر الإيمان بالملائكة إشارة وتصريحًا ، فإنه لما قال: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ دل على أن ثمة من أبلغه الرسالة ، ولما قال: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ دل على أن هناك من تنزّل به.

والتصريح هو قوله: ﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ .

---

(١) روح المعاني: ٢٣/ ٥٧

وذكر الإيمان باليوم الآخر وجزاء الخلق في ذلك اليوم ، وهو ما تكرر ذكره في السورة.

وذكر القدر بقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

فاستوفت السورة أركان الإيمان التي وردت في الحديث: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره).

جاء في (التفسير الكبير): «ويمكن أن يقال بأن هذه السورة ليس فيها إلا تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين.

فابتداؤها بيان الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، ودليلها ما قدمه عليها بقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ، وما أخره عنها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ ، وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إشارة إلى التوحيد ، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارة إلى الحشر ، وليس في هذه السورة إلا هذه الأصول الثلاثة ودلائله وثوابه»[(١)].

لقد ارتبط آخر السورة بأولها بأجمل ارتباط:

١ ـ فقد ارتبط قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ . . . أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بما ورد في أول السورة في المعاندين وهو قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، وقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وكأن الكلام على الأشخاص أنفسهم والمجتمع نفسه.

٢ ـ وارتبط ذكر الحياة بعد الموت في قوله تعالى في أواخر السورة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ

---

(١) التفسير الكبير ٢٦/١١٣.

أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بقوله في أول السورة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾.

٣ ـ وارتبط ذكر النسيان والغفلة في قوله تعالى في أواخر السورة: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

فكلاهما غافل، فالأول غفل عن خلقه هو كما هم غافلون عن الإنذار. فجمع الغفلتين العظيمتين: الغفلة عن النفس، والغفلة عن الرسالة.

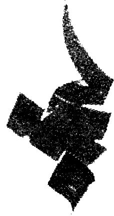
٤ ـ ابتدأ السورة بذكر الرسالة الخاتمة وذكر خاتم الرسل فقال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وختمها بختام الدنيا وانتهائها فقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لقد بدأت السورة بالإرسال وانتهت بالرجوع إلى المرسِل فقال في الأول: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقال في الختام: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فجلّ الله سبحانه قائل هذا الكلام، ونقول كما قال ربنا: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.





سُورَةُ لُقْمَانَ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

* * *

بدأت السورة بالأحرف المقطعة شأن عدد من السور ، وقد بينا ذلك في كتابنا (التعبير القرآني) فلا نعيد القول فيه .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ أشار إلى الآيات ولم يشر إلى الكتاب كما في سورة البقرة ، وذلك لما تردد في السورة من ذكر للآيات السمعية والكونية من مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴿٧﴾ ﴾ .

وهذه من الآيات السمعية .

ومن الآيات الكونية التي ذكرها خلق السماوات بغير عمد ، وإلقاء الرواسي في الأرض ، وإنزال الماء وإخراج النبات ، وتسخير الشمس والقمر ، وغير ذلك من الآيات من مثل قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾

وقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

ووصف الكتاب بأنه (حكيم)، والحكيم يحتمل أن يكون من الحكمة؛ أي: هو ذو حكمة[١]، ويحتمل أن يكون من الحكم[٢]، أي: كتاب حاكم على غيره من الكتب ومهيمن عليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ويحتمل أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول[٣]، أي (مُحكَم)، كما قال تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وهذه المعاني مرادة كلها، فهو ذو حكمة، وحاكم على غيره، ومُحكَم.

ومقتضى وصف الكتاب بأنه حكيم أن قائله حكيم، وقد وصف ربنا نفسه في السورة في أكثر من موضع بأنه حكيم فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

* * *

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾

وصف الكتاب ههنا بأنه حكيم وبأنه هدى ورحمة للمحسنين، ووصفه في سورة البقرة بأنه هدى للمتقين، فقد قال في البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾.

فقد وصفه هنا:

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٥.
(٢) ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١١/ ٤٨٢، روح المعاني ٢١/ ٦٦.
(٣) ينظر روح المعاني ٢١/ ٦٦.



١ ـ بالحكيم.

٢ ـ وأنه هدى ورحمة.

٣ ـ للمحسنين.

وقال في البقرة:

١ ـ لا ريب فيه.

٢ ـ هدى.

٣ ـ للمتقين.

ولم يصفه بأنه حكيم.

أما وصفه بالحكيم في (لقمان) فهو مناسب لما ورد في السورة من نحو قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾، وما ذكر في الوصية من الحكمة، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وأما قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في البقرة فهو مناسب لقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، فقد نفى عنه الريب أولاً، ثم قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] فأبطل دواعي الريب.

وقال في البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال ههنا: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فزاد الرحمة على ما ذكر في البقرة، وذلك أنه قال في البقرة: (للمتقين)، وقال في لقمان: (للمحسنين)، والمتقي هو الذي يحفظ نفسه، أما المحسن فهو الذي يحسن إلى نفسه وإلى غيره فلا يقتصر ذلك عليه هو. قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، وقال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فالإحسان لا يقتصر على النفس، بخلاف التقوى فإنها للنفس خاصة.

والإحسان إلى الآخرين من الرحمة، فلما رحموا الآخرين رحمهم الله، فكما زادوا في الوصف بأن أحسنوا إلى أنفسهم وإلى الآخرين زاد الله لهم الرحمة على الهدى.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الله زاد في الجزاء للمحسنين في الآخرة فقال: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ ﴾ [يونس: ٢٦]، فكما زاد لهم في الآخرة زاد لهم في الدنيا.

ثم إن كل تعبير مناسب لما ورد في السورة، فقوله: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ في البقرة مناسب لقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾. ومن الطريف أن هذا وارد تعقيبًا على إبطال دواعي الريب فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].

وورد في أول السورة أيضًا بعد نفي الريب فقال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ وهي مناسبة بديعة فقال في أول السورة: ﴿ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾، وقال ثم: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾.

أما قوله: ﴿ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ فهو المناسب لما ورد في سورة لقمان، فقد شاع في السورة جو الهدى والرحمة والإحسان.

فمن مظاهر الهدى إرشاد لقمان لابنه وهدايته السبيل المستقيم.

ومنه قوله تعالى في المحسنين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [لقمان: ٥].

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴿١٥﴾﴾ والذي يسلك السبيل إنما يريد الهداية.

ومن ذلك قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ وانظر إلى وصف الكتاب بالإنارة، والإنارة إنما تكون للهداية.

أما الذي يسير في الظلام فإنما هو ضال لا يدري أين يتجه.

ومن مظاهر الهدى النكير على الضالين والمضلين وذلك نحو قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴿٦﴾﴾، وقوله: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، وهؤلاء ضالون اتبعوا آباءهم الضالين، يدعوهم الشيطان فيستجيبون له حتى يوصلهم إلى عذاب السعير، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣ ـ ٤]، والضلالة نقيض الهدى.

ومن مظاهر الرحمة في السورة ما ذكره من آياته الكونية والمسموعة رحمة بالإنسان، قال تعالى ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]، فإنه ألقى الرواسي رحمة بنا لئلا تميد بنا الأرض.

ومن ذلك ما ذكره من وصية الإنسان بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف وذكر حمل الأم لولدها وإرضاعها له، وكل ذلك من مظاهر الرحمة.

وذكر تسخير ما في السماوات والأرض لنا وإسباغ النعم الظاهرة والباطنة علينا ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] ، وهذا من أعظم الرحمة بنا ، وذكر غير ذلك من النعم.

ومن مظاهر الإحسان ما ذكره من إيتاء الزكاة في قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ، ومنها الوصية بالوالدين والإحسان إليهما ، ومن ذلك إحسان الأب إلى ابنه وإرشاده وتعليمه.

ومن ذلك قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢] ، وذكر من مظاهر إحسان الله إلى خلقه ما عدد عليهم من النعم وتسخير ما في السماوات والأرض لهم وما خلقه من أجلهم. فناسبت الآية ما ورد في السورة أجمل مناسبة وارتبطت أحسن ارتباط.

جاء في (التفسير الكبير): «قال في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ولم يقل: (الحكيم) فلما زاد ذكر وصف الكتاب ، زاد ذكر أمر في أحواله فقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ ، وقال هناك: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

فقوله: (هدى) في مقابلة قوله: (الكتاب) ، وقوله: (رحمة) في مقابلة قوله: (الحكيم) ، ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكمة ، كقوله تعالى: ﴿فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي ذات رضا.

المسألة الثانية: قال هناك: (للمتقين) ، وقال ههنا: (للمحسنين) ؛ لأنه لما ذكر أنه هدى ولم يذكر شيئًا آخر قال: (للمتقين) أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب ، وينظر فيه من غير عناد.

ولما زاد ههنا (رحمة) قال: (للمحسنين) أي المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الإحسان.

فالمحسن هو الآتي بالإيمان ، والمتقي هو التارك للكفر ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ، ومَنْ

جَانَبَ الكفر كان متقيًا وله الجنة. ومن أتى بحقيقة الإيمان كان محسنًا وله الزيادة لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ولأنه لما ذكر أنه رحمة قال: (للمحسنين)؛ لأن رحمة الله قريب من المحسنين»[1].

* * *

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾

ذكر إقامة الصلاة وهي أداؤها على الوجه الأتم، وهي من الإحسان إلى النفس. وذكر إيتاء الزكاة وهي من الإحسان إلى الغير.

وذكر الإيقان بالآخرة وهو مدعاة إلى الإحسان إلى النفس وإلى الآخرين فذكر جماع الإحسان.

لقد قال هنا: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وقال في البقرة ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، فزاد (هم) في أول الجملة، وذلك ـ والله أعلم ـ لما تردد في السورة من ذكر الآخرة وأحوالها والتوعد بها، فقد ورد ذلك في زهاء نصف عدد آيات السورة، وذلك نحو قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]، ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨]، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [لقمان: ٩]، ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]، ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]، ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [لقمان: ٢٣]، ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا

---

[1] التفسير الكبير للرازي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ط٢/١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م ـ المجلد التاسع ١١٤ ـ ١١٥.

كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٢٨] ، ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣] ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

ثم إن السورة بدأت بذكر الآخرة وانتهت به ، فقد بدأت بقوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤] وانتهت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

فناسب زيادة (هم) في هذه السورة على ما في البقرة.

وقدم (بالآخرة) على الفعل (يوقنون) لأن الإيقان بالآخرة صعب ومقتضاه شاق ، فإن الإيقان بالمشاهد يسير ، بل إن قسمًا من الناس يؤمنون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر ، ومن هؤلاء كفار مكة كما أخبر عنهم ربنا في أكثر من موطن ، وذلك نحو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٣٢] ، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧] ، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧ ـ ٦٨].

ومع إنكارهم الآخرة كانوا يؤمنون بالله كما أخبر ربنا عنهم بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١] ، وكما أخبر عنهم في السورة نفسها فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقدم (هم) على الفعل (يوقنون) تعريضًا بغيرهم ممن يدعي الإيمان باليوم الآخر ولا يعمل بمقتضاه ، فكأنهم وحدهم الذين يوقنون إيقانًا حقيقيًّا باليوم الآخر ، وكأن من عداهم ليس بمؤمن ، فكان ههنا تقديمان: تقديم الضمير على الفعل ، وتقديم الجار والمجرور عليه ،

وكان الأصل أن يقول: (ويوقنون بالآخرة) ، ويحتمل أن تكون الواو للحال فيكون المعنى: الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة في حال إيقانهم بالآخرة ، أي: يفعلون ذلك موقنين بالآخرة ، فهم يقيمون الصلاة موقنين بالآخرة ، ويؤتون الزكاة موقنين بالآخرة. ولو قالها على الأصل ، أي (يوقنون بالآخرة) لم يفد هذا المعنى ، فكانت أفعالهم طمعًا في ثوابه سبحانه وخوفًا من عذابه.

وقد تقول: وهل يصلي من لم يكن مؤمنًا باليوم الآخر؟

فنقول: نعم قد يكون ذاك ، فقد أخبر ربنا عن مشركي قريش أنهم كانوا يصلون مع أنه ذكر أنهم لا يؤمنون بالآخرة فقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وبناء ذلك على الجملة الاسمية وتكرار (هم) يدل على عظم شأن الإيمان باليوم الآخر ، وأنه لا ينفع شيء مع عدم الإيمان به.

* * *

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

أولئك الموصوفون بتلك الصفات على هدى من ربهم ، فذكر أن الهدى إنما هو من ربهم لا من ذات أخرى.

واقتران لفظ الرب مع الهداية أحسن اقتران ، ذلك أن الرب هو المربي والمعلم والمرشد ، وأولى مهمات الرب التربية والهداية ، ولذا كثيرًا ما يقترن لفظ الرب مع الهداية ، وذلك كقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] ، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١] ، وقوله: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] ، وغير ذلك.

وإضافة (الرب) إلى ضميرهم إضافة لها دلالتها ، ذلك أن الذى

يهديهم هو ربهم وفيه إخلاص الهداية ومحض النصح والتوجيه.

* * *

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

وتعريف المفلحين والمجيء بضمير الفصل يدلان على أنهم وحدهم المفلحون وليس ثمة مفلح سواهم، والإنسان يبغي الفلاح في كل أموره، فإذا كان الأمر كذلك فعليه أن يكون على هدى من ربه ولا فلاح بغير ذلك. فهذا إهابة بالناس لأن يكونوا منهم بل أن لا يكونوا إلا منهم، فمن عداهم خاسر وهم وحدهم المفلحون.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن طريق الهدى قد يكون شاقًّا مكلفًا وقد تكون عاقبته شديدة الأذى في الدنيا وينال متبعه من الضر والعنت ما يؤدي إلى العزوف عنه، فذكر ربنا أن متبعه مفلح رابح وأنه لا فلاح في سواه، فكان ذلك مدعاة إلى اتباعه وإهابة بالتمسك به، فكان ذلك أحسن تعقيب.

* * *

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

«اللهو كل باطل ألهى عن الخير وعما يعني، و(لهو الحديث) نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدث بالخرافات»[(١)] والغناء وقول الخنا ونحوه[(٢)].

ومما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في النضر بن الحارث

---

(١) الكشاف ٥/٦.
(٢) ينظر المحرر الوجيز ١١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

وكان يخرج تاجرًا إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم. وفي بعض الروايات: كتب الأعاجم، فيرويها ويحدث بها قريشًا ويقول لهم: إن محمدًا عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن(١).

ومهما ذكر من أسباب لنزول الآية فإنها لا تخص واحدًا بعينه، بل تعم كل من ينطبق عليه الوصف.

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي: «يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها، حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق»(٢).

والمشتري يشتري عادة ما ينفعه وهو يعلم ماذا يشتري، أما هذا فيشتري بغير علم وهو يشتري ما يضره ولا ينفعه، وعلى هذا فقوله: (بغير علم) متعلق بالفعل (يشتري).

ويحتمل أن يكون متعلقًا بـ (يضل) فيكون الإضلال بغير علم، أي يضل الناس وهو لا يعلم كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ [الأنعام: ١١٩].

والذي يترجح عندي أنه متعلق بالفعلين (يشتري) و(يضل) فيكون من باب التنازع، فهو يشتري بغير علم ويضل بغير علم فتكون الخسارة مضاعفة، ذلك لأن من يشتري ولا يعلم ماذا يشتري خاسر، وكونه يضل بغير علم خاسر أيضًا، فإن المشتري بغير علم قد يقتصر ضرره على نفسه، أما هذا فهو يضل الآخرين فيتعدى ضرره إلى الآخرين. وكونه

---

(١) ينظر روح المعاني ٢١/ ٦٧، المحرر الوجيز ١١/ ٤٨٣، البحر المحيط ٧/ ١٧٩.
(٢) الكشاف ٥/ ٩.

يضل بغير علم لا يعفيه من المسؤولية ، لأن الأصل أن يتكلم بعلم ولا يتكلم بما ليس له به علم فيضل الناس بجهله. بل إن هذا أخسر الخاسرين ولا يعفيه جهله وإن حسب أنه مهتد ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤] ، وقال: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٠] ، وقال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٧].

لقد وردت تعبيرات في القرآن قريبة من هذا التعبير مع بعض اختلاف ، فقد يذكر السبيل مع الإضلال كما في هذه الآية ، وكما في قوله تعالى : ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: ٩] ، وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الزمر: ٨].

وأحيانًا يذكر الإضلال ولا يذكر السبيل كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] ، فلم يقل : (ليضل الناس عن سبيله).

وأحيانًا يقول: (بغير علم) وأحيانًا لا يقول ذلك كما في آيتي الحج والزمر.

وقد يذكر الناس فيقول: ﴿ لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] ، وقد لا يذكرهم كما في الآيات الأخرى.

ولكل ذلك سبب.

فأما ما ذكر فيه السبيل فهو يعني دين الله وصراطه المستقيم وهو الإسلام ، بخلاف ما لم يذكر فيه السبيل وذلك كما في آية لقمان ، وكما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ

مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٨ ـ ٩].

فهذا مجادل في الله ليضل عن سبيله. وكما في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

بخلاف ما لم يذكر فيه السبيل نحو قوله تعالى في تحريم الجاهليين قسمًا من الأنعام: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

فلم يقل: (ليضل الناس عن سبيل الله) وذلك لأن هذه مسألة جزئية متعلقة بالذبائح والأطعمة وليست متعلقة بالدين كلاًّ.

وأما ذكر (بغير علم) أو عدم ذكره فلذلك سبب يقتضيه أيضًا، وذلك نحو قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩] فإنه لم يقل: (بغير علم) وذلك لأنه تقدم الآية قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ فقد نفى عنه العلم قبل هذه الآية.

ونحو ذلك ما ورد في سورة الزمر، فقد قال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، ولم يقل: (بغير علم) وبقية الآية توضح سبب ذلك، فقد قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

فلم يقل: (بغير علم) لأنه دعا ربه منيبًا إليه واستجاب له ، فهو إذن يعلم ربه فدعاه وحده ومع ذلك جعل له أندادًا ليضل عن سبيله .

وأما ذكر (الناس) وعدم ذكرهم فله سببه أيضًا ، ذلك أن كل ما لم يذكر فيه الناس مع قوله: (ليضل) فلأنه تقدم ذكر الناس أو الإنسان ، وذلك نحو قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ [يونس: ١٢] .

فلا حاجة لذكر الناس .

وأما قوله: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] فلم يتقدم ذكر الناس بل تقدم ذكر الشيطان ، فقد تقدم الآيات قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧] .

والشركاء هم الشياطين .

وقيل قبل آية تحريم الأنعام: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٢] .

فهذا التحريم اتباع للشيطان ، والشيطان يريد أن يضل الناس ، فلما لم يتقدم ذكر الناس وإنما تقدم ذكر الشيطان ناسب ذكر الناس لأنه عدوهم المبين .

* * *

﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾

«الضمير فى (يتخذها) يحتمل أن تعود على (آيات الكتاب) المذكور

أولاً ، ويحتمل أن يعود على السبيل»[١].

ولم يأت باللام مع المعطوف (ويتخذها) فلم يقل: (وليتخذها هزوًا) ، ذلك أن المعطوف ليس بمنزلة المعطوف عليه من حيث الغرض والتعليل ، وإنما هو يأتي بالدرجة الثانية ، فإن الغرض الأول من اشتراء لهو الحديث والأساطير هو الإضلال وصرف المستمعين عن القرآن الكريم ، أما الهزء فيأتي بالدرجة الثانية ؛ لأن الهزء إنما يمكن أن يحصل بطرائق متعددة وليس عن طريق شراء الأساطير ، فإن الغرض من شراء الأساطير إنما هو الإضلال عن سبيل الله ، فلما لم يكونا بمنزلة واحدة حذف اللام ، فإن الذكر آكد من الحذف ، فقولك: (مررت بأحمد وبمحمود) آكد من قولك: (مررت بأحمد ومحمود) ، فلما لم يكن المتعاطفان بمنزلة واحدة في الغرض حذف اللام مما هو أقل شأنًا في التعليل.

ألا ترى إلى قوله تعالى مثلاً: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢] كيف ذكر اللام في المعطوف والمعطوف عليه فقال: (لتبتغوا) و(لتعلموا) لأن الابتغاء من فضل الله ، ومعرفة السنين والحساب كليهما مطلوبان ، وإن معرفة السنين والحساب من ألزم الأمور لهذه الحياة فذكر اللام في المتعاطفين معًا.

* * *

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

جمع بعد الإفراد ، إذ قال أولاً: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي... لِيُضِلَّ... وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ بالإفراد ، ثم قال بعدها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ بصيغة

---

(١) المحرر الوجيز ١١/ ٤٨٥.

الجمع ، وذلك أنه لما قال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كان التهديد له ولمن يضلهم ، يدلك على ذلك أنه جاء في سورة البقرة بالإفراد مع المتعاطفات فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

فجاء بالإفراد فقال: ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ لأنه لم يذكر أحدًا معه.

جاء في (التحرير والتنوير): «لما كان (من يشتري لهو الحديث) صادقًا على النضر بن الحارث والذين يستمعون إلى قصصه من المشركين جيء في وعيدهم بصيغة الجميع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾»(١).

ووصف العذاب بأنه مهين لأنه استهان بآيات الله واستهزأ بها واستكبر عنها ، والاستهزاء إهانة لمن يستهزأ به فجعل له عذابًا مهينًا.

جاء في (التفسير الكبير) في هذه الآية: «لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكيمة بيّن من حال الكفار أنهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ، ثم إن فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه:

الأول: أنَّ ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح.

الثاني: هو أنَّ الحديث إذا كان لهواً لا فائدة فيه كان أقبح. . .

ثم قال تعالى: (بغير علم) عائد إلى الشراء أي يشتري بغير علم ، ويتخذها هزوًا أي يتخذ السبيل هزوا»(٢).

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٤٤.

(٢) التفسير الكبير ٩/ ١١٥.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾

قال: (وإذا) ولم يقل: (وإن) لأن الأمر حصل أو هو يحدث لا محالة، لأن (إذا) تستعمل لما يقع كثيرًا أو سيقع لا محالة، بخلاف (إن) فإنها تستعمل لافتراض قد يقع وقد لا يقع.

ومعنى ذلك أن التلاوة حصلت وقد ولى عنها مستكبرًا.

وقال: (تتلى) بالمضارع، ولم يقل: (تليت)؛ للدلالة على تكرار التلاوة عليه. والمفروض أن تكرار التلاوة يدعو إلى التأمل فيها. أما هذا فهو يولي عنها مستكبرًا.

وقال: (آياتنا) بإضافة الآيات إلى ضمير الله المعظم لتعظيم آياته وتشنيع فعله.

وقال: (مستكبرًا) للدلالة على أنه لم يكتف بالتولية، فقد يكون المولّي غير مستكبر، أما هذا فهو يستكبر عن آيات ربه، فوصفه بالتولي عن آيات ربه، وهو وصف قبيح، ثم وصفه بالاستكبار عنها، وهو زيادة في القبح.

وقال: ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ ﴾ للدلالة على أنه يسمع وليس في أذنيه وقر، ولكن يتجاهل ما يتلى عليه.

وقد تقول: ولم قال ههنا: ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ ﴾ ولم يقل نحو ذلك في قوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ٨]؟

والجواب عن ذلك: «أن آية الجاثية لما تقدم فيها قوله: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه

ذكر الوقر في الأذن ، لأنه قد ذكر سماعه الآيات ، والوقر مانع من السماع فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه . . .

ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان وتقدم ذكر المشار إليه بقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ ﴾ وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الوقر ، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية ، فازداد ووضح التلاؤم» (١) .

* * *

﴿ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

قال : (فبشره) والبشرى إنما تكون في الخير ، ولكنه قال ذلك استهزاء ، فاستهزأ به كما استهزأ بآيات الله واستكبر .

وقال : (فبشره) بضمير الإفراد ، ولم يقل : (فبشرهم) كما قال في الآية السابقة ، إذ قال فيها : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ بصيغة الجمع ، وذلك أنه في هذه الآية ذكره وحده ولم يذكر معه أحدًا ، بخلاف الآية السابقة فقد ذكر معه من يضلهم .

ووصف العذاب ههنا بأنه أليم ، ووصفه في الآية السابقة بأنه مهين ، ذلك أن كل وصف وضع بمكانه اللائق به ، فإن الإهانة غالبًا ما تكون إذا وقعت أمام الآخرين . وكلما كانت أمام جمع أكبر كان وقعها أشد على النفس ، أما إذا لم يكن ثمة أحد يشاهدها فالإهانة ليست ظاهرة ، وتكون أشد إذا كانت أمام أشخاص يعرفهم ويعرفونه .

ولما ذكر في الآية الأولى جمعًا أضلهم كان وصف العذاب بأنه مهين

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٨٩ .

أشد على النفس ؛ وذلك لأنه واقع أمام مشهد من أضل ، فكان يشهد بعضهم إهانة بعض.

أما في الآية الثانية فإنه لم يصف العذاب بأنه (مهين) ؛ لأنه ذكره بمفرده ولم يذكر معه أحدًا يشاهد تعذيبه ، فناسب وصفه بالأليم.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن في الاستهزاء جانبين :

جانب إهانة الآخرين ، وجانب إيلامهم ، فجمع له بين العذابين : المهين والمؤلم.

فقد يكون العذاب مهينًا غير مؤلم للجسد ، وقد يكون مؤلمًا غير مهين ، فجمع له بين العذابين. فكما أهان الآخرين وآلمهم باستهزائه جمع له بين الإهانة والإيلام.

وفي هذه الآية ذم للمشتري من وجوه فهو «يشتري الحديث الباطل ، والحق الصراح يأتيه مجانًا يعرض عنه. وإذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث إن المشتري يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن ، ومن يأتيه الشيء لا يطلبه ولا يبذل شيئًا ، ثم إن الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شيء يجده ويشتريها ، وهم ما كانوا يطلبونها ، وإذا جاءهم مجانًا ما كانوا يسمعونها ، ثم إن فيه أيضًا مراتب :

الأولى : التولية عن الحكمة ، وهو قبيح.

والثاني : الاستكبار.

ومن يشتري حكاية رستم وبهرام ويحتاج إليها كيف يكون مستغنيًا عن الحكمة حتى يستكبر عنها . . .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ شغل المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة.

الرابع: قوله: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ أدخل في الإعراض»[(١)].

وجاء في (البحر المحيط): «وتضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه: التولية عن الحكمة، ثم الاستكبار، ثم عدم الالتفات إلى سماعها كأنه غافل عنها، ثم الإيغال في الإعراض بكون أذنيه كأن فيهما صممًا يصده عن السماع»[(٢)].

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٩﴾

لما ذكر الكافرين وذكر أن لهم عذابًا مهينًا وعذابًا أليمًا ذكر بمقابل ذلك من آمن وعمل صالحًا فذكر أن لهم جنات النعيم.

وإضافة الجنات إلى النعيم أنسب إضافة، إذ هي بمقابل ما يلقاه المضل المستهزئ من عذاب مهين وعذاب أليم. ومن كان في عذاب أليم ومهين لا ينعم وإن كان في الجنات، فناسب ذلك إضافة الجنات إلى النعيم.

وتقديم الجار والمجرور (لهم) على الجنات يفيد الاختصاص، فإن جنات النعيم لا تكون إلا لمن آمن وعمل صالحًا.

ثم ذكر أنهم خالدون فيها، وأن هذا وعد منه لا يتخلف، وكيف يتخلف وهو وعد من الله العزيز الحكيم؟

والعزيز هو الذي لا يغلبه شيء فليس ثمة ما يمنعه من إنجاز وعده وتحقيق وعيده، والحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة[(٣)].

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٦.

(٢) البحر المحيط ٧/ ١٨٠.

(٣) ينظر روح المعاني ٢١/ ٨١.

واختيار (العزيز الحكيم) لخاتمة الآية أنسب شيء.

فالعزيز هو الغالب الممتنع.

والحكيم يحتمل أن يكون من الحكمة أي هو ذو حكمة، ويحتمل أن يكون من الحكم أي هو حاكم.

والمعنيان مرادان معًا فهو الحاكم ذو الحكمة.

واجتماع هذين الاسمين أحسن شيء وأنسبه في هذا المكان، فإن تمام العزة أن يكون صاحبها حاكمًا وهو أعلى العزة، فإن العزة درجات والأعزة درجات، فبعضهم أعز من بعض، وأعلى العزة أن تجتمع مع الحكم، فإنه قد يكون العزيز غير حاكم، فإذا اجتمع معها الحكم كان تمام العزة.

والعزيز الحاكم إن لم يكن ذا حكمة كانت عزته وحكمه تهورًا وبطشًا وغرورًا، وكان ذلك في حقه منقصة وليس صفة كمال، فإن من ألزم صفات الكمال للعزيز الحاكم أن يكون ذا حكمة فتزداد صفاته كمالاً، فكان اجتماع هذين الوصفين أحسن اجتماع وأنسبه. وقد عرَّف الوصفين بأل فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ولم يقل: (إنه عزيز حكيم) للدلالة على أنه المتفرد فيهما ولا يماثله في ذلك أحد. ولو قال: (عزيز حكيم) لاحتمل أن يكون هناك من يماثله ممن هو عزيز حكيم.

وقد تقول: ولم قال إذن في السورة نفسها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلم يعرّف؟

والجواب: أن السياق مختلف، ذلك أنه في الآية الأولى قالها تعقيبًا على المستكبر الذي اتخذ آيات الله هزوًا، وبعد التهديد الذي ألحقه به وبمن يضلهم، وبعد ذكر الجزاء الذي يؤتيه أولياءه، فاقتضى تعريف العزيز الحكيم، إذ هو الذي سيفعل بكل صنف هذا الفعل لا يمنعه من

ذلك مانع ، وليس ثمة من يظن أن هناك عزيزًا حكيمًا يمنعه من ذلك .

وأما الآية الثانية فجاءت في سياق قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فليس في السياق ذكر محارب له أو معاند ، كما لم ترد في التعقيب على نصرة أوليائه وجزائهم ، فلم يقتض ذلك ما اقتضى في الأول من التعريف ، فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾

قال ههنا : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ﴾ ، وقال في مكان آخر : ﴿ رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ﴾ [الرعد : ٢] ، وكل تعبير مناسبٌ لمكانه ، فإن تعبير (رفع) في الرعد أنسب من جهات :

١ ـ منها أنه قال : ﴿ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ ، والإنزال إنما يكون من فوق أي من مكان مرتفع ، فناسب (رفع السماوات) .

٢ ـ وقال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴾ [الرعد : ٢] ، والعرش فوق السماوات .

٣ ـ ذكر تسخير الشمس والقمر وهما من الأجرام السماوية وهي مرتفعة في السماء ، فناسب ذكر رفع السماء .

وليس في (لقمان) شيء من ذلك ، فناسب (خلق) دون (رفع) .

ثم إن قوله : (خلق السماوات) في لقمان مناسب لما ورد في الآية بعدها وهو قوله : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ .

* * *

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان: ١٠].

أي كراهة أن تميد أو لئلا تميد بكم.

ومن الملاحظ أنه حين يذكر الرواسي يقول أحيانًا: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥]، أو ﴿ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وأحيانًا لا يقول ذاك كما في [الرعد: ٣]، و[الحجر: ١٩]. و[فصلت: ١٠]، و[ق: ٧]، و[المرسلات: ٢٧]، و[النمل: ٦١].

وسبب ذلك ـ والله أعلم ـ أنه إذا أراد بيان نعمة الله على الإنسان قال: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾، وإذا أراد بيان قدرة الله فيما صنع لا لبيان علاقة ذلك بالإنسان لم يقل ذاك.

وقال: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ ههنا لبيان نعمة الله على الإنسان ورحمته له، وهذا أمر مرتبط بقوله: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ في أول السورة فإن عدم ميدها بهم من رحمة الله لهم.

وهو مرتبط أيضًا بقوله تعالى في الآية السابقة لها: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾، فإنه بيّن حكمة إلقاء الرواسي في الأرض، فهي مرتبطة بما قبلها من ناحيتين: من ناحية الرحمة ومن ناحية الحكمة.

وقال: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ دون (جعل) كما في آيات أخرى[1]، وذلك لمناسبة وصفه نفسه بـ(العزيز) في الآية السابقة، فإن إلقاء الرواسي من العزة.

فقوله: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ مناسب لاسمه (العزيز)، وقوله: ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ مناسب لاسمه (الحكيم).

واختار لفظ (الرواسي) دون الجبال مثلاً لأن المقصود بالرواسي

---

(١) انظر مثلاً الرعد ٣، الأنبياء ٣١، فصلت ١٠، النمل ٦١.

الثوابت ، وليس في لفظ الجبال ما يدل على ذلك ، ولذا لا يستعمل لفظ الرواسي حين يذكر زوالها وذهابها يوم القيامة ، لأن الرواسي من الرسو والثبات ، بل يستعمل لفظ الجبال وذلك نحو قوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : ٣] ، ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ : ٢٠] ، ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [الحاقة : ١٤] ، ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ [المرسلات : ١٠] ، وغيرها .

* * *

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾

قال : (أنزلنا) بإسناد الإنزال إلى ضمير الله سبحانه على طريق الالتفات وذلك لأهمية الماء بالنسبة للإنسان .

جاء في (التفسير الكبير) : «إن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ، متكثرة في كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحًا ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته» (١) .

وجاء في (التحرير والتنوير) : «والالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله : (وأنزلنا) للاهتمام بهذه النعمة التي هي أكثر دورانًا عند الناس» (٢) .

وكذلك أسند الإنبات إلى نفسه فقال : ﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا ﴾ فهو المنزل وهو المنبت .

* * *

﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

أي من كل صنف بالغ الجودة كثير الخير والمنفعة ، و(الزوج) معناه

---

(١) التفسير الكبير ٩/١١٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢١/١٤٦ .

ههنا الصنف ، قال تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة : ٧] ، أي أصنافًا .
وقال : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص : ٥٨] ، أي أصناف .

وقد تقول : ولم قال ههنا : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ فوصفه بالكرم ، وقال في (ق) والحج : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ فوصفه بالبهجة؟ .

والجواب : أنه إضافة إلى موافقة فواصل الآي في كل موضع فهناك أمر آخر حسَّن كل تعبير في مكانه .

فقد قال في (لقمان) : ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ والكريم ـ كما قلنا ـ هو البالغ الجودة والنفاسة والكثير المنفعة وهو المناسب لما ذكره من حكمة لقمان التي آتاه الله إياه ، وهي بالغة الخير والنفاسة كثيرة المنفعة ، ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

أما في (ق) فالسياق سياق الزينة والجمال ، قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ . . . وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق : ٦ ـ ١٠] ، فانظر كيف ناسب ذكر البهجة ذكر الزينة في السماء ، والزينة إنما تكون للبهجة . وانظر كيف قال : ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ وكل ذلك مناسب للزينة والجمال .

ونحو ذلك ما جاء في سورة الحج ، فقد قال : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥]، فقابل الهمود بالبهجة وهو المناسب .

فناسب كل تعبير موطنه .

* * *

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾

* * *

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾

يمكن أن يراد بالمصدر ههنا اسم المفعول ، أي مخلوقاته ، والإشارة إلى ما ذكر من خلق السماوات وغيرها .

ويمكن أن يراد به الحدث ؛ أي : هذا خلْقه ، كما تقول : (هذا صنعه) و(هذا فعله) .

والإشارة تكون إلى بديع صنعه وحسن فعله ، ومن المحتمل أن يكونا مرادين معًا .

وقال : (ماذا) ولم يقل : (ما خلق الذين من دونه) للتنصيص على الاستفهام ، ولو قال : (ما) لاحتمل الموصولية والاستفهامية .

وفي الاستفهام من التعجيز والاستهزاء ما ليس في الموصول ، إذ قد يفهم من الموصولية أنهم خلقوا شيئًا فتطلب رؤيته ، فيكون المعنى : أروني الذي خلقوه ، كما تقول : انظر إلى ما صنع فلان ، وهذا ما فعل فلان ، وهذا ما رسمه ، وهذا ما كتبه ، وأرني ما كتب ، فإن كانت موصولة احتمل أنه كتب شيئًا فأراد أن يراه ، وقطعًا لهذا المعنى ولئلا يفهم أنهم خلقوا شيئًا جاء بما ينص على الاستفهام ولا يحتمل الموصول وهو (ماذا) .

ومن المعلوم أن الذين من دونه لم يخلقوا شيئًا وهم يعلمون ذاك ، فهم لا يستطيعون أن يُروه شيئًا خلقه غير الله ولذا انقطعوا وسكتوا فقال هو : ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ .

والمشركون من الظالمين ، فهم ظالمون لأنفسهم لأنهم عبدوا ما لا يستحق العبادة ، فأذلوا أنفسهم وحقروها لأنهم عبدوا ما هو دونهم ، وهم سيدخلون أنفسهم النار فكانوا ظالمين لها .

وهم ظالمون من جهة أخرى لأنهم أعطوا ما لا يستحق شيئًا أعظم الأشياء وهو العبادة ، فالعبادة حق الله وحده وهم جعلوها لغير الله ، وهذا ظلم ، لأنك إذا صرفت الحق عن صاحبه إلى غيره كنت ظالمًا ، فهؤلاء إذن ظالمون. وهم في ضلال ظاهر مظهر لنفسه ، أي هو من الوضوح بحيث لا يخفى على عاقل .

* * *

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الحكمة : هي وضع الشيء في محله في القول والعمل ، وقيل : هي «عبارة عن توفيق العمل بالعلم. فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة»[1] .

فالحكمة لها جانبان : جانب القول وجانب العمل ، ولا يكون الفرد حكيمًا حتى يحسن القول والعمل .

وقد أسند الله إيتاء الحكمة إلى نفسه (آتينا) ؛ وذلك لأن إيتاء الحكمة من الخير ، ومن الشائع في القرآن الكريم أن ربنا سبحانه يسند الإيتاء إلى نفسه في الخير ، بل يسند أفعال الخير إلى نفسه في العموم[2] . قال تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠]، فأسند الخير وهو الرشد إلى نفسه فقال : ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٨ .
(٢) انظر معاني النحو ٢/ ٦٩٦ وما بعدها

رَشَدًا﴾ وبنى مريد الشر للمجهول فقال: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

والواو في أول الآية «عاطفة قصة لقمان على قصة النضر بن الحارث في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ باعتبار كونها تضمنت عجيب حاله في الضلالة من عنايته بلهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذ سبيل الله هزوًا، وباعتبار كون قصة لقمان متضمنة عجيب حال لقمان في الاهتداء والحكمة، فهما حالان متضادان»[١].

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾

ذهب كثير من المفسرين إلى أنّ (أن) في الآية تفسيرية[٢] فيجعلون (آتينا) متضمنًا معنى القول دون حروفه.

جاء في (التفسير الكبير): «فإنّ (أن) في مثل هذا تسمى المفسرة، فَسَّر إيتاء الله الحكمة بقوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وهو كذلك»[٣].

وذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسير للحكمة لا للفعل.

جاء في (التحرير والتنوير): «و(أن) قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسيرية وليست تفسيرًا لفعل (آتينا)لأنه نصب مفعوله وهو الحكمة. فتكون (أن) مفسرة للحكمة باعتبار أنّ الحكمة هنا أقوال أوحيت إليه أو إليهما فيكون في الحكمة معنى القول دون حروفه فيصلح أن تفسر بـ(أن) التفسيرية...

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٨/٢١

(٢) انظر التفسير الكبير ١١٩/٩، البحر المحيط ١٨١/٧.

(٣) التفسير الكبير ١١٩/٩.

وأيضًا فإن شكر الله من الحكمة»[(١)].

والأقرب إلى المعنى فيما يبدو لي أن يقال: إن التقدير: آتينا لقمان الحكمة وأوصيناه أن اشكر لله، فيكون المعنى أنه آتاه الحكمة وأوصاه بالشكر وأمره به.

أو بتقدير: وآتيناه أن اشكر لله.

أي آتيناه الحكمة وآتيناه أن اشكر لله، أي أوحينا إليه ذلك وألهمناه إياه، ولا يشترط ذلك أن يكون وحي نبوة بل قد يكون وحي إلهام كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨]، فكما أوحى الرَّبُّ إلى أم موسى الأمر بالإرضاع، وأوحى إلى النحل الأمر بالاتخاذ، آتى لقمان وأوحى إليه الأمر بالشكر، وهذا أولى من جعل (أن) تفسيرية، وذلك لأن التفسير يجعل الحكمة هي الشكر فحسب، مع أن الشكر إنما هو من الحكمة وليس هو الحكمة كلها.

إن هذا التعبير يعني أيضًا أن من الحكمة التي أوتيها لقمان أن يشكر ربه.

فشكر الله إنما هو من الحكمة، ويعني أيضًا أن يشكر ربه على ما آتاه من الحكمة، فإن الحكمة نعمة ينبغي أن يشكر ربه عليها، كما تقول: إن من الحكمة أن تشكر ربك، وقد آتاك الله الحكمة فاشكره على ما آتاك.

فهذا التعبير يفيد عدة معان في آن واحد:

آتينا لقمان الحكمة، وآتيناه أن اشكر لله، أو: وأوصيناه به، ومن الحكمة أن تشكر ربك، واشكر ربك على ما آتاك من الحكمة.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/١٥١ ـ ١٥٢.

وقد تقول: لِمَ لَمْ يقل: ولقد آتينا لقمان الحكمة فاشكر لله؟

فنقول: لو قال ذاك لم يفد هذه المعاني وما أفاد إلا معنى واحدًا وهو أن تكون الحكمة سببًا للشكر.

ولكان فيه ضعف في الدلالة، ذلك أن المعنى سيكون أن الذي أوتي الحكمة لقمان، والمأمور بالشكر غيره. فيكون المعنى: لقد آتينا لقمان الحكمة فاشكر أنت أيها المخاطب لله، فيكون قد طلب منه الشكر للإنعام على غيره لا عليه.

وقال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ﴾ ولم يقل: (أن اشكر لنا) فالتفت ليدل على أن مؤتي الحكمة هو الله.

ومن المطرد في التعبير القرآني أنه ما عبر عن نفسه بضمير الجمع إلا ذكر بعده أو قبله ما يدل على الإفراد ليدل على أنه واحد لا شريك له، وذلك أمر مطرد في جميع القرآن لم يتخلف عنه موطن واحد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٢]، فذكر بعد ضمير الجمع في: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ الرب بصورة الإفراد فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾. وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾، ثم قال بعد ذلك: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ فذكر الرب بعد ضمير الجمع.

* * *

﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

جاء بفعل الشرط (يشكر) مضارعًا للدلالة على أن الشكر يتكرر، وذلك لأن كل نعمة تمر بك تشكر الله عليها وهو ينبغي أن يتكرر، وجاء بفعل الشرط في قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ماضيًا، لأن الكفر لا يتكرر تكرر الشكر، بل قد يحصل ابتداء ويبقى صاحبه عليه إلا إذا شاء الله.

ومن الظاهر في استعمال الشرط في القرآن الكريم أنه يؤتى بفعل الشرط مضارعًا فيما يتكرر حدوثه ، ويؤتى به ماضيًا فيما لا يتكرر حدوثه ، وهذا الأمر جاء كثيرًا في القرآن الكريم[1] .

جاء في (التفسير الكبير) في هذه الآية: «قال في الشكر: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بصيغة المستقبل، وفي الكفران: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد كقول القائل: من دخل داري فهو حر ، ومن يدخل داري فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أنَّ الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغي أن يكرر ، والكفر ينبغي أن ينقطع ، فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران»[2] .

ومن الملاحظ أنه قدم الشكر على الكفر في هذه الآية ، في حين قدم الكفر على العمل الصالح في آية أخرى ، قال تعالى في سورة الروم: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وبالنظر في الآيتين نجد أكثر من اختلاف في التعبير:

١ ـ فقد قدم في آية الروم الكفر وأخر العمل الصالح ، وقدم في آية لقمان الشكر وأخر الكفر كما أشرت.

٢ ـ ذكر في الروم عاقبة كل من الفريقين فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ، في حين قال في لقمان: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ، فذكر عاقبة الشكر ولم يذكر عاقبة الكفران.

---

(١) انظر معاني النحو ٤/ ٤٣٦ وما بعدها.
(٢) التفسير الكبير ٩/ ١١٩.

٣ ـ ذكر في الروم فعلي الشرط بالماضي فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

في حين ذكر في لقمان فعل الشكر بالمضارع وفعل الكفر بالماضي.

٤ ـ ذكر في لقمان مقابل (من كفر): (من يشكر)، وذكر في الروم مقابل (من كفر): (من عمل صالحًا).

ولكل ذلك سبب اقتضاه.

أما تقديم الكفر في الروم على العمل الصالح فذلك لأن السياق هو في ذكر الكافرين ومآلهم، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤١ ـ ٤٤].

فالسياق في ذكر الكافرين فقدمهم.

وأما آية لقمان فوقعت في سياق الأمر بالشكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ﴾، فناسب تقديم الشكر.

جاء في (التفسير الكبير): «قال تعالى هنا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ﴾، بتقديم الشكر على الكفران. وقال في سورة الروم: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾.

فنقول: هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾. وههنا الذكر للترغيب؛ لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد»[1].

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٩.

وأما ذكر عاقبة الكفر في الروم فلما تقدم من ذكر عاقبة من كفر في الدنيا وعاقبة ذلك في الآخرة ، فقد قال فيمن أظهر الفساد في البر والبحر : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ، وقال : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ ، فوجهنا للنظر في عاقبة الكافرين.

ثم هدد بما سينالهم في الآخرة ، ولذا ناسب ذكر عاقبة من كفر فقال : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ ولم يذكر شيئًا من ذلك في لقمان فاكتفى بقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

وبالنسبة إلى اختلاف فعلي الشرط في المضارع والمضي فإن آية لقمان فيمن هو في الدنيا، فذكر فعل الشرط بالمضارع لأن الشكر يتكرر، وذكر الكفر بالماضي لأنه لا يتكرر تكرر الشكر كما أسلفنا.

وأما آية الروم فهي في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا . . . ﴾ [الروم: ٤٣ ـ ٤٤] ، فذكر الكفر والعمل الصالح بالماضي ؛ لأنه ليس عمل ثَمّ ، وإنما هو جزاء على ما قدم من عمل.

وأما ذكر الكفر بمقابل الشكر في لقمان فلأنه ذكر الشاكرين أولاً فقال: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

وأما في سورة الروم فقد ذكر الكافرين والمشركين فناسب ذكر من آمن وعمل صالحاً فقال: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ٤٤ ـ ٤٥] ، فناسب كل تعبير موطنه.

وقال: ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ فجاء بـ (إنما) للدلالة على أن الشكر لا ينفع إلا صاحبه حصرًا ولا يفيد الله سبحانه ، فإن الشكر ينفع صاحبه



في الدنيا والآخرة. وقد قضى ربنا بأن يزيد الشاكر من نعمه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ لا ينفعه شكر ولا يضره كفر، فهو الغني المحمود في غناه.

والحميد هو الذي يستحق الحمد على الدوام.

والجمع بين الغني وكونه محمودًا أحسن جمع وألطفه، فقد يكون الشخص غنيًّا غير محمود، أو محمودًا غير غني، فربنا غني محمود على الدوام.

وقد تقول: لقد جاء في سورة إبراهيم. ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨]، فأكد الجملة بإن واللام، فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ ﴾، في حين أكدها في آية لقمان بـ (إن) وحدها فقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فما الفرق؟.

والجواب: أن كل تعبير مناسب لما ورد فيه، فقد قال في لقمان: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾، فقد قسم العباد إلى من يشكر ومن كفر.

أما في سورة إبراهيم فافترض كفر أهل الأرض جميعًا فقال: ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾، فالاختلاف في التعبير من ثلاث نواح:

١ ـ أنه في آية لقمان جرى على التبعيض، وجرى في سورة إبراهيم على الشمول.

٢ ـ أنه قال في لقمان: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فجعل فعل الشرط ماضيًا، وقال في سورة إبراهيم: ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ ﴾ بالمضارع للدلالة على تكرر الكفر

وتجدده، أي إن تستمروا على الكفر وتداوموا عليه.

٣ ـ وأكد ذلك بالحال المؤكدة فقال: (جميعًا).

فاقتضى ذلك زيادة التأكيد في آية إبراهيم.

وقد تقول: لقد قال في آية أخرى في سورة لقمان: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، فعرف الوصفين وجاء بضمير الفصل، في حين قال في هذه الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ من دون تعريف ولا فصل. فما الفرق؟

والجواب واضح في سياق كل منهما.

فقد قال في آية لقمان الأولى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، فلم يذكر سبحانه له ملكًا.

والمعنى: فإن الله غني عن شكره. وهو كما يقول الشخص ولله المثل الأعلى: أنا غني عنك وغني عن مدحك وثنائك، ولا يعني أنه ذو مال أو ثروة، ونحوه ما قال الخليل:

أبلغ سليمان أني عنه في جدة وفي غنى غير أني لست ذا مال

أما في الآية الثانية فقد قال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فقد ذكر ملكه وهو ما في السماوات والأرض.

ومن المعلوم أن الغني فيما تعارف عليه الناس من يملك الأموال. ثم إن الأغنياء يتفاوتون، فمن يملك ثروة أكبر كان أغنى. وقد ذكر ربنا أن له ما في السماوات والأرض فلا ملك أكبر ولا أوسع من ملكه، فعرّف وجاء بضمير الفصل للدلالة على أنه هو الغني دون سواه.

ومن المعلوم أن قولك: (فلان هو الغني) أدلّ على الغنى من قولك: (فلان غني)؛ لأن قولك: (فلان غني) يعني أنه أحد الأغنياء، وأن هناك

أغنياء آخرين. أما قولك: (فلان هو الغني) فيدل على أنه لا غني في الحقيقة سواه. ولا شك أن من له ما في السماوات والأرض هو الغني الذي لا غنيَّ سواه.

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

الواو عطفت هذه العبارة على قوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ ﴾ ، أي آتيناه الحكمة في شكره لله وفي وعظه لابنه ، فإن وعظ الأبناء من الحكمة.

وفي هذا توجيه للآباء أن يتعاهدوا أبناءهم بالموعظة والإرشاد ، وأن لا يتركوهم للشوارع والطرقات ومعلمي السوء والجهال يأخذون عنهم ما سقط من القول والفعل ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم.

جاء في (التفسير الكبير) أن قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ . . . ﴾ «عطف على معنى ما سبق ، وتقديره: آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرًا في نفسه ، وحين جعلناه واعظاً لغيره. وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملاً في نفسه ومكملاً لغيره ، فقوله: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ ﴾ إشارة إلى الكمال ، وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ إشارة إلى التكميل» (١).

وجاء في (التحرير والتنوير) أن قوله سبحانه هذا «عطف على جملة ﴿ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ لأن الواو نائبة مناب الفعل ، فمضمون هذه الجملة يفسر بعض الحكمة التي أوتيها لقمان. والتقدير: وآتيناه الحكمة إذ قال لابنه ، فهو في وقت قوله ذلك لابنه قد أوتي حكمة فكان ذلك القول من

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١١٩.

الحكمة لا محالة ، وكل حالة تصدر عنه فيها حكمة هو فيها قد أوتي حكمة.

و(إذ) ظرف متعلق بالفعل المقدر الذي دلت عليه واو العطف ، أي والتقدير: وأتيناه الحكمة إذ قال لابنه. . .

ويجوز أن يكون (إذ قال) ظرفًا متعلقًا بفعل (اذكر) محذوفًا»[١].

لقد جاءت موعظة لقمان بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وكان من الممكن أن يبدأ بالموعظة من دون هذا التصدير ، فيقول بعد قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ. . .﴾

ولكن هذا التصدير له أكثر من غرض:

من ذلك أنه يتبين منه أن الحكمة يتعلق جانب منها بإصلاح النفس وجانب بإصلاح الآخرين ، وأن أولى موجبات الحكمة أن يُعَلِّم الأب أبناءه ويوجههم ويرشدهم ، هذا إضافة إلى ما قاله لقمان من الحكمة.

ثم إن الحكمة ـ كما أسلفنا ـ إحسان القول والعمل ، أو وضع الشيء في محله في القول والعمل ، فلما قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ دَلَّ ذلك أن لقمان أوتي الحكمة في قوله وعمله ، وأنه كان يطبق ما يقول على نفسه ، إذ ليس من الحكمة أن تناقض أقوال الشخص أفعاله وإلا كان قوله ساقطاً ولو نطق بأعلى الحكمة. وفيه توجيه للدعاة والواعظين أن يبدؤوا بأنفسهم قبل وعظ الآخرين.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٣ ـ ١٥٤.

﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾

الواو في قوله: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ تحتمل أن تكون للحال، أي: قال لقمان لابنه واعظاً له، وتحتمل أن تكون للاستئناف، أي وهذا شأنه، أي من شأن لقمان أن يعظ ابنه.

فقوله: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ يفيد أنه قال ذلك واعظاً لابنه، وأن من شأن لقمان أن يعظ ابنه فلا يترك توجيهه. ولو قال: (وإذ قال لقمان لابنه واعظًا) لم يفد إلا معنى واحدًا.

* * *

﴿يَٰبُنَيَّ﴾

بدأ وعظه بمناداة ابنه مناداة تحبيب ورفق وتلطف ولين (يا بنيّ) بالتصغير والإضافة إلى النفس ليعطف قلبه، وليزيل كل حجاب مانع من قبول التوجيه بينه وبينه. واللين في القول يفتح القلوب المقفلة والأبواب الموصدة ويلين النفوس العصيّة وهو أدعى إلى الاستجابة والقبول.

وهو توجيه للآباء والواعظين أن يرفقوا في القول وأن يمزجوا كلماتهم بالرحمة والحنان، فتؤثر الرحمة ولين القول ما لا يؤثر القول نفسه. وقد أمر ربنا موسى وأخاه عليهما السلام أن يقولا لفرعون قولاً لينًا فقال: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٤].

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾: «والتصغير فيه لتنزيل المخاطب الكبير منزلة الصغير كناية عن الشفقة به والتحبب له، وهو في مقام الموعظة والنصيحة إيماء وكناية عن إمحاض النصح وحب الخير، ففيه حث على الامتثال للموعظة»(١).

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٥٥.

﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾

بدأ النصح بالنهي عن الشرك لأنه رأس الإيمان ورأس الدين ، ولأن أول ما ينبغي أن يغرس في النفوس هو التوحيد لأنه أساس صلاحها ونجاتها.

ومن الملاحظ أنه نهاه عن الشرك قبل أن يأمره بالعبادة وذلك لأكثر من سبب :

منها : أن عدم الشرك مقدم على العبادة ، فلا تنفع عبادة مع الشرك ، فبدأ بما هو أهم.

ولأن النهي عن الشرك يعم الصغير والكبير ، أما العبادة فيكون التكليف بها بعد البلوغ ، فبدأ بما هو أعم.

ثم إن الانتهاء عن الشرك أيسر من القيام بالعبادات والطاعات ، ولذا نجد كثيرًا من الناس موحدين ، غير أنهم لا يأتون بالعبادات من صلاة وصيام وغيرهما.

فبدأ بما هو أهم وأعم وأيسر ، حتى إذا قام بغرس العقيدة وتصحيحها أمره بعد ذلك بالعبادات.

* * *

﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

كون الشرك ظلمًا لأنه يسوي بين القادر والعاجز ، والعالم والجاهل ، والخالق والمخلوق ، والمنعم المتفضل والمحتاج إلى النعمة. وهذا ظلم عظيم ، فإنك في الحياة لو سويت بين هؤلاء كنت ظالمًا ظلمًا عظيمًا ، فإنه لو تقدم مثلاً جماعة إلى طلب عمل فأجري لهم

اختبار فكان منهم من يحسن كل جزئيات ذلك العمل بأدق تفاصيله على أكمل وجه وأحسنه ، يخبر عن ذلك بأبلغ الكلام وأحسنه ، ومنهم من لا يحسن شيئًا ، ولا يعلم شيئًا ، في عِيّ وقصور فهم وإدراك ولا يحسن النطق أيضًا ، وكنت سويت بينهم كنت ولا شك ظالمًا ظلمًا عظيمًا.

فإن الشرك بالله أعظم بكثير من هذا الظلم ، فإن التفاوت بين الخالق والمخلوق لا يصح فيه قياس.

جاء في (روح المعاني): «وكون الشرك ظلمًا لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه ، وكونه عظيمًا لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا نعمة له» (١).

ثم إن الشرك كما سبق أن ذكرنا ظلم للنفس من جهة أن المشرك يعبد من هو أقل منه شأنًا ، أو من لا يستحق العبادة البتة ، فيكون ظالمًا لنفسه حاطًّا من قدرها وقد كرّمه الله سبحانه.

ثم إنه ظلم للنفس من ناحية أخرى ، ذلك أنه يوردها موارد الهلكة ، فإن الشرك يورد صاحبه النار خالدًا مخلدًا فيها.

ولذا وصف هذا الظلم بأنه عظيم ، وأكد ذلك بإنّ واللام فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم إن اختيار وصف الشرك بالظلم اختيار له دلالته من ناحية أخرى ، ذلك أن فطرة الإنسان تكره الظلم والظالمين ، وحتى لو كان الشخص ظالمًا فإنه يسيغه لنفسه ولا يسيغه من غيره ، ولذا تجد عموم الناس يكرهون الظالم وينتصرون نفسيًّا للمظلوم حتى في التمثيل ، فوصف الشرك بما تكرهه النفوس ولا تنحاز إلى صاحبه لينأى عنه ويتركه.

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٨٥.

ولعل من المفيد أن نذكر أيضًا أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فيه تعليل للنهي عن الشرك، وهو إشارة إلى أن الناصح والموجه ينبغي أن يعلل كلامه ويذكر السبب الموجب، وألا يذكر الأمور من دون تعليل، وذلك ليقتنع السامع ويسلّم له عقله ونفسه، والله أعلم.

* * *

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

هذا الكلام كلام رب العالمين وضعه بين كلام لقمان؛ وذلك لأنه أراد أن يأمر هو بوصية الوالدين ومصاحبتهما بالمعروف، لا أن يقول الأب ذلك، وذلك لعظم منزلة الأبوين عند الله، فالذي وصى بالوالدين هو الله.

ولئلا يذهب ذهن الابن إلى أن الأب إنما يأمره بطاعته وحسن صحبته لأنه يريد أن يستفيد منه وأن يجعله تابعًا له، فالله هو الذي أوصى ولا مصلحة له في هذا.

وقد تقول: ولمَ لم يدعْ لقمان يتم كلامه ثم يذكر الله وصيته بالوالدين بعد ذلك؟

والجواب: أنه وضع الوصية بالوالدين بعد الشرك بالله وذلك لعظيم منزلتهما عند الله، فهو لا يريد أن يضعهما في آخر الوصايا بعد قوله: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ فإن منزلتهما تأتي بعد توحيد الله والأمر بعبادته. وهذا شأن القرآن في الوصية بالوالدين، فإنه يجعل ذلك بعد الشرك بالله والأمر بعبادته، قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟

بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦] ، وقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

* * *

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾

من الملاحظ في هذه الآية:

١ ـ أنه استعمل الفعل (وصّى) بتشديد الصاد لا (أوصى)، وذلك للتشديد على الوصية والمبالغة فيها. ومن الملاحظ أن القرآن يستعمل الفعل (وصّى) في أمور الدين والأمور المعنوية، وأما (أوصى) فيستعمله للأمور المادية، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟﴾ [النساء: ١٣١].

في حين قال: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾ [النساء: ١١]، وهي في المواريث.

وقال: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ﴾ [النساء: ١١]، وهي في الأمور المادية.

ولم يرد (أوصى) في القرآن الكريم للأمور المعنوية إلا في موطن واحد اقترن فيه بأمر مادي وهو قوله تعالى على لسان السيد المسيح: ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]، فإنه قال: (أوصاني) لما اقترنت الصلاة بالزكاة، والزكاة أمر مادي يتعلق بالأموال[١].

ولعل ذلك يعود أيضًا إلى أن المسيح عليه السلام كان لا يزال في

---

(١) انظر التعبير القرآني ١٩.

المهد غير مكلف عمليًّا بعبادة فاستعمل أخف الفعلين ، والله أعلم .

٢ ـ ثم إنه أسند التوصية إلى الله سبحانه فقال : (ووصينا) ، والله إنما يسند الأفعال إلى نفسه في أمور الخير وفي الأفعال المهمة ، فإسناد ذلك إلى الله يدل على عظم شأن هذه التوصية ، وقد أسند هذا الفعل إلى ضمير الجمع للتعظيم ثم أفرد بعد ذلك فقال : ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ ، ولم يقل : (أن اشكر لنا . . . وإلينا) وقد ذكرنا أن هذه طريقة التعبير في القرآن ، فإنه يفرد قبل أو بعد ضمير الجمع المعظم للدلالة على أنه واحد لا شريك له .

وقد يكون ههنا مع ذلك أمر آخر وهو أن هذه الوصية أمر الله بها سبحانه ، ونزل بها الملك ، وبلغها الرسل ، فجاء الفعل بضمير الجمع لذلك أيضًا ، والله أعلم .

٣ ـ وقال : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ ولم يقل بـ (أبويه) لأكثر من سبب ، فإن كلمة (الوالدين) تثنية الوالد والوالدة وغلبت فيها لفظ الوالد ولذا ثنيت بالتذكير . وإن كلمة (الأبوين) تثنية الأب والأم وغلب فيها لفظ الأب ولذا قيل الأبوين ، ومع أن الكلمتين فيهما تغليب للمذكر إلا أن لفظ (الوالدين) مأخوذ من الولادة ، والولادة في الحقيقة تقوم بها المرأة إلا أنه غلب فيها لفظ الوالد في التثنية .

وههنا أكثر من مناسبة تدعو إلى اختيار لفظ الوالدين على الأبوين ، منها : أنه ذكر الحمل والفصال وهو الفطام من الرضاع فقال : ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ، وقال : ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ وبين الحمل والإرضاع الولادة .

وفيه تذكير الإنسان بولادته ومجيئه إلى الدنيا عاجزًا ضعيفًا، وقد رباه والداه وحمياه وأحسنا إليه، مما يدعو إلى رد الجميل والإحسان إليهما .

وفيه إلماح إلى إحسان الصحبة إلى الأم أكثر من الأب لما ذكر من لفظ الوالدين وذكر حمل الأم والإرضاع.

ولذا كان في القرآن خط عام لا يتخلف وهو أنه حين يذكر الإحسان إلى الأب والأم والبرّ بهما يذكر ذلك بلفظ (الوالدين) ولا يذكره بلفظ الأبوين تذكيرًا للإنسان بأمر الولادة، فلم يقل مرة واحدة: (وبالأبوينِ إحسانًا) بل إن كل مواطن الأمر بالمصاحبة بالمعروف والإحسان إليهما والبر بهما والدعاء لهما يأتي بلفظ الوالدين. وفيه إلماح إلى أن الأم لها النصيب الأوفى في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤].

وقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: ٢٨].

وغير ذلك وغيره.

قد يأتي لفظ (الأبوين) في المواريث ونحوها مما لم يكن فيه ما ذكرنا من الأمر بالإحسان ونحوه، ولعل ذلك لأن نصيب الأب أكثر من نصيب الأم في الميراث.

وقد يأتي لفظ الأبوين لمثنى الجدّ كما قال تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: ٦].

وقد يأتي لفظ الأبوين لآدم وحواء، إذ هما أبوا البشر، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

قد تظن أن ذلك تخلّف في قصة يوسف وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف: ٩٩]، وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، فإنه استعمل لفظ الأبوين في موطن الإكرام والإحسان ولم يستعمل لفظ الوالدين.

والحق أنه لم يتخلف، بل إن استعمال لفظ (الأبوين) في قصة يوسف هو المناسب وهو أيضًا يتفق مع الخط القرآني.

ذلك أنه جاء بلفظ (الأبوين) لأنه في هذه القصة لم يرد ذكر لأم يوسف ولا وصف لحالتها، بل كلها تدور حول الأب وأبنائه ويوسف عليهما السلام، فالأب هو المحزون الكظيم، وهو الذي فقد بصره حزنًا وأسفًا كما قال تعالى: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، وهو الدائم الذكر له حتى خشي عليه الهلاك كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]، فكان من المناسب تغليب الأب ههنا لا تغليب الوالد.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن قوله : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ فيه إلماح إلى إكرام الأم ، ذلك أن السجود للشخص إعظام له فاختار لفظ الأب على الوالد ، فإن الابن هو الذي يعظم أبويه في العادة ، وهنا عظم الأبوان ولدهما بالسجود له وهو خلاف المألوف والمعتاد ، فغلب لفظ الأب الذي هو دون الأم في حق حسن الصحبة .

ولعله إلماح إلى شيء آخر وهو أن العرش إنما ينبغي للرجال لا للنساء فغلب ذكر الأب ، والله أعلم .

وربما يحسن الاستطراد هنا قليلاً ، فقد تقول : ألم يدرك الحزن أم يوسف فلم لم يرد لها ذكر؟

والجواب : ـ والله أعلم ـ أن يعقوب هو أبوهم كلهم ، أما أم يوسف فليست أمهم ، وإنما هي أم يوسف وأخيه ، فلا تستطيع أن تؤنبهم وتذكر ذلك لهم على الدوام لما في ذلك من الحساسية ، فربما أسمعوها ما لا ترضى من القول ولا يكون كلامها بتلك المنزلة عندهم . وهذا من حسن تقديرها لما هي فيه ، ولذا لم يرد لها ذكر في القصة ، والله أعلم .

٤ ـ ذكر الأم في هذه التوصية ولم يذكر الأب فقال : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ وهو إشارة إلى أنها أولى بحسن الصحبة .

٥ ـ قال : ﴿ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ فذكر الضعف المستمر المتزايد ، ولم يقل : (وهنًا) فقط ليدل على أن الوهن ليس على وتيرة واحدة ، بل هو يثقل عليها دائمًا ويوهنها باستمرار .

٦ ـ ذكر مدة الفصال فقال : ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ ولم يذكر مدة الحمل ، ذلك أن الفصال بيد المرأة وهو توجيه إلى تمام مدة الإرضاع . أما الحمل فليس بيد المرأة . ثم إن مدة الحمل قد تتفاوت كما هو معلوم ، فقد تكون ستة أشهر أو سبعة أشهر أو تزيد على ذلك .

٧ ـ وصاه بالشكر للمنعم الأول وهو الخالق الذي أوجده من العدم ، وهيأ له أسباب الوجود ، وهيأ له من يحمله ويرضعه ويتعاهده وهو ضعيف عاجز .

ثم وصاه بالشكر لوالديه لما علم من أمرهما .

ثم أشار إلى أن الحياة لا تنتهي في الدنيا وإنما المصير إلى الله سبحانه ، وهو إشارة إلى الحياة الآخرة .

وقد قدم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ فقال : ﴿ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ للدلالة على الحصر ، فإن المصير إليه حصرًا لا إلى غيره . وفي هذا إبطال لعقيدة الشرك فإن المصير إليه وحده لا إلى غيره .

* * *

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

أي وإن بذلا جهدهما لحملك على أن تشرك بالله فلا تطعهما .

وقال : (بي) بضمير الإفراد ، ولم يقل : (بنا) ؛ لأن الموطن موطن توحيد ونفي الشرك .

وفي مثل هذا الموطن لا يستعمل إلا ضمير الإفراد .

وقوله : ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أبطل الشرك من جميع نواحيه ، ذلك أن الأشياء على قسمين : إما أن يكون له بها علم أو لا يكون له بها علم ، فالذي يعلم أنه لا يصلح أن يكون شريكًا له هو قد علم به ، وعلم أنه لا يكون لله شريكًا .

وأما الذي ليس له به علم فقد نهى عن اتخاذه شريكًا لله ، وبذا يكون

قد نهى عما له به علم، وعما ليس له به علم.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

* * *

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾

المصاحبة بالمعروف إنما هي في الدنيا، أي في الحياة الدنيا، وقيل: إن المصاحبة بالمعروف إنما هي في أمور الدنيا لا في أمور الدين.

جاء في (روح المعاني): «﴿فِي الدُّنْيَا﴾... قيل: للإشارة إلى أن الرفق بهما في الأمور الدنيوية دون الدينية»(١).

وقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ولم يقل: بمعروف أو بالمعروف، كما قال في الأزواج مثلاً: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ذلك أنه أراد أن تكون المصاحبة هي المعروف بعينه وليست مصاحبة للمعروف أو بمعيته. وفي هذا من المبالغة في التوصية بهما ما فيه، فإن المرء قد يزجر زوجته أو ينهرها أو يضربها أو يعضلها مما لا يصح بحال من الأحوال أن يكون مع الوالدين، فقال فيهما: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي مصاحبة هي المعروف بعينه.

وقد تقول: لم يرد هذا الأمر فيما يبدو شبيهًا بهذا الموطن وهو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف: ١٥].

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٨٧.

فلم يرد في هاتين الآيتين قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فما السبب؟

فنقول: لقد ورد ذلك بتعبير آخر لم يرد في آية لقمان، فقد قال في آية العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، وقال في الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ولم يرد مثل ذلك في لقمان، فذكر في كل موطن ما لم يذكره في الآخر، فذكر المصاحبة بالمعروف في لقمان، وذكر التوصية بالحسن والإحسان في آيتي العنكبوت والأحقاف.

وكل تعبير هو المناسب فيما ورد فيه.

فقوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أنسب في آية لقمان؛ ذلك لأن السياق في قصة لقمان في المصاحبة والمعاشرة ومعاملات الناس، فقد بدأت الوصية بمصاحبة الأب لابنه وحسن معاشرته وتوجيهه، ثم في أصول معاشرة الناس ومصاحبتهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم التكبر عليهم والفخر عليهم والاختيال مما يبغضه الناس من الصفات والأفعال.

لقد شملت هذه الوصية حسن المصاحبة والمعاملة في عموم المجتمع: مصاحبة الأب لابنه، ومصاحبة الابن لوالديه، ومصاحبته للآخرين ممن يعيش معهم.

ولم يرد مثل ذلك في سياق آيتي العنكبوت والأحقاف، فكان الأمر بمصاحبة الوالدين بالمعروف هنا أنسب.

وذكرُ الحسن والإحسان في آيتي العنكبوت والأحقاف أنسب، بل إن ذكر كل لفظة في مكانها أنسب، فذكر الحُسْن في آية العنكبوت أنسب، وذكر الإحسان فى آية الأحقاف أنسب.

ذلك أنه ذكر في آية لقمان افتراض أن أبويه يجاهدانه على أن يشرك بالله فلم يذكر الإحسان أو الحسن.

وقد تقول: لقد قال في العنكبوت ذلك أيضًا، فإنه قال: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾ [العنكبوت: ٨]، فما الفرق؟

والجواب: أن المجاهدة في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ أشد منها في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾، فإن في قولنا: (جاهده على أن يفعل) معنى الحمل على الشيء وشدة المجاهدة، وهي أقوى من قولنا: (جاهده ليفعل).

ونحوه أن تقول: (أنفقت عليه لينجح) و(أنفقت عليه على أن ينجح) فإن الجملة الأولى تفيد أنه أنفق عليه لغرض النجاح، أما الثانية فإنها تفيد أنه أنفق عليه باشتراط النجاح، فإن النجاح شرط للإنفاق.

ونحوه أن تقول: (زوجتك ابنتي لتعينني) و(زوجتك ابنتي على أن تعينني)، فإن الجملة الأولى تفيد أنه زوجه ابنته لغرض إعانته وليس ذلك اشتراطاً عليه. أما الجملة الثانية فإنها تفيد أنه زوّج ابنته بشرط أن يعينه. ونحوه قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ﴾ [القصص: ٢٧].

جاء في (التحرير والتنوير): «قال هنا: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ وقال في سورة العنكبوت: ﴿لِتُشْرِكَ بِى﴾ فأما حرف (على) فهو أدلّ على تمكن المجاهدة، أي مجاهدة قوية للإشراك، والمجاهدة شدة السعي والإلحاح» (١).

فذكر الحسن في آية العنكبوت ولم يذكره في لقمان وإنما ذكر ما هو أنسب.

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٠.

وقد تقول: ولم قال في آية الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾؟ فما الفرق بين آيتي العنكبوت والأحقاف حتى ذكر الحسن في إحداهما، والإحسان في الأخرى؟

والجواب: أَن الأمر ظاهر في سبب الاختلاف بينهما، فإن (الإحسان) أمكن في الإكرام من (الحسن) ذلك أن الإحسان مصدر (أحسن).

تقول: أحسن إليه إحسانًا، والحُسْن مصدر (حسُنَ الشيء) أي حسن في نفسه. فالإحسان يتعدى خيره إلى الآخرين، تقول: (أحسنت إليه) يعني فعلت له خيرًا.

أما (الحُسن) فلا يتعدى خيره إلى الآخرين بل هو حسن في نفسه، فتقول: (عاملته حُسْنًا) أي معاملة حسنة من كلام جميل ولقاء حسن.

أما الإحسان فأن تفعل له خيرًا، فالإحسان أمكن من الحُسْن في فعل الخير ونفع الآخرين، فما في الأحقاف أكثر إكرامًا وأكبر نفعًا للوالدين، وذلك لأكثر من سبب:

١ ـ منها أنه قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ فذكر الحمل والوضع وكلاهما كره. فقد يحمل الإنسان شيئًا كرهًا ويضعه هينًا بيسر، أما ههنا فكان الحمل كرهًا والوضع كرهًا. ولا تخفى آلام الوضع عند الولادة.

أما في آية لقمان فإنه ذكر الحمل وقال: إنه وهن على وهن، ولم يذكر الوضع ومشقته، فما في الأحقاف أشد، فإنه ذكر كره الحمل وكره الوضع.

وأما في العنكبوت فلم يشر إلى ذلك.



٢ ـ الوالدان في الأحقاف مؤمنان، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥].

والآية وقعت في سياق الأبوين المؤمنين، فقد قال بعد هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الأحقاف: ١٧]، فالأبوان هنا مؤمنان يعدانه بالبعث ويدعوانه إلى الإيمان، بخلاف آيتي لقمان والعنكبوت من مجاهدتهما له على الشرك.

ولذا لم يذكر في آية الأحقاف: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾.

جاء في (ملاك التأويل): أنه لم يرد في سورة الأحقاف: (وإن جاهداك لتشرك بي) أو ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ «لأن آية الأحقاف فيمن كان مؤمنًا، ألا ترى قوله: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إلى ما بعد هذا، ولا مدخل هنا للشرك»[1].

فناسب ذكر الإحسان في آية الأحقاف وليس مجرد الحسن.

ثم إن ذكر الحسن والإحسان في آيتي العنكبوت والأحقاف أنسب من جهة أخرى، ذلك أنهما ذُكرا في سياق الحسن من الأعمال، فقد قال قبل آية العنكبوت: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٧ ـ ٨].

وقال بعد آية الأحقاف: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف: ١٦]، فناسب حسن معاملة الوالدين

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٦٤.

ما حسن من الأعمال ، ولم يرد مثل ذلك في سورة لقمان .

فناسب كل تعبير موطنه من كل وجه ، والله أعلم .

* * *

﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ﴾ لا سبيلهما .

* * *

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا ترجعون إلى غيري . وتقديم الخبر هنا كتقديمه في ﴿ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ للحصر ، وفيه إبطال للشرك . وقد جمع الضمير في (مرجعكم) لأنه ذكر الابن والوالدين ومن أناب إليه .

* * *

﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي أخبركم بأعمالكم .

وقال : (أنبئكم بما كنتم تعملون) ولم يقل : (فأجزيكم) ؛ لأنه قد ينبّئ الإنسان بما عمل ثم يغفر له . ثم إن المؤمن يجزيه ربه بخير مما عمل ، كما قال تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل : ٨٩] ، وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت : ٧] ، ألا ترى أنه عندما ذكر الذين كفروا في آية أخرى من السورة لم يكتف بأن يذكر أنه ينبئهم بما عملوا ، بل ذكر أنه يعذبهم بذلك فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٣ ـ ٢٤] .

وجاء بضمائر المتكلم في الآية بالإفراد ﴿ أَن تُشْرِكَ بِى . . . سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم﴾ ؛ لأن الموطن موطن نفي الشرك وإثبات التوحيد ، فلا يجمع الضمير في مثل هذه المواطن . ونحوه قوله تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وهو قد يأتي بضمير المتكلم مجموعًا للتعظيم في غير هذا الموطن وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣]، وقوله: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ [يونس: ٤٦]، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩ ـ ٧٠].

* * *

﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

عاد الآن إلى وصية لقمان لابنه بعد أن اعترض كلامه بوصيته سبحانه بالوالدين فقال: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ . . . ﴾ فكرر نداءه بقوله: (يا بنيّ) ليعطف قلبه ويصغي إلى ما يقول. ثم ضرب له مثلاً يبين فيه قدرة الله وإحاطته بالأشياء فلا يند شيء عنه وعن قدرته بمثقال حبة من خردل يأتي بها الله أينما كانت، في السماوات أو في الأرض. والخردل نبات معروف حبه أصغر من السمسم يضرب مثلاً في الصغر.

لقد قال: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ بحذف النون من (تكن)، ثم قال بعد ذلك (فتكن) بإثبات النون، ولعل من أسباب ذلك أنه قال: ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ فلم يعين مكانها ثم عين مكانها فيما بعد فقال: ﴿ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فإن الأولى أبعد في الوجود، أي هباءة تائهة لا مكان لها فحذف النون،

بخلاف الثانية فإنه عيّن مكانها فأثبت النون ، والله أعلم[١] .

جاء في (البرهان) للزركشي أن قوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤٠] ، حذفت النون من (تكن) : «تنبيهًا على أنها وإن كانت صغيرة المقدار حقيرة في الاعتبار فإن إليه ترتيبها وتضاعيفها ، ومثلها: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ »[٢] .

ثم إن ثمة قراءة هي (فتكنّ) بكسر الكاف وشدة النون وفتحها ، وثمة قراءة أخرى وهي (فتكِنْ) بفتح التاء وكسر الكاف وسكون النون من (وكن يكن)[٣] وكلتا القراءتين فيها معنى الاستتار ، ذلك أن معنى (كنّ يكنّ) استتر. ومعنى (وكن الطائر) دخل عشه ، والوكن: هو عش الطائر ، فيكون المعنى: أنها إن تك مثقال حبة من خردل فتستتر في صخرة .

وهذا مما يفسر ثبوت النون في (تكن) وذلك لتعطي معنى الاستتار أيضًا ، والله أعلم .

وقال: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ﴾ مع أن الصخرة لا بد أن تكون في السماوات أو في الأرض ، وذلك لأن استخلاص الشيء من باطن الصخرة عسير في العادة .

من المعلوم أنه إذا أراد شخص أن يحفظ شيئًا ويصونه من الضياع لا يكتفي أن يضعه في ساحة الدار ، بل يضعه في غرفة من غرف الدار ويضعه في صندوق أو محفظة ، وقد يضع المحفظة داخل صندوق أو خزانة ، وقد يضع المحفظة داخل محفظة .

---

(١) انظر معاني النحو ١/ ٢٥٢ .
(٢) البرهان ١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .
(٣) ينظر البحر المحيط ٧/ ١٨٢ .

فالصخرة مثلها مثل المحفظة الصغيرة التي يحفظ بها الشيء.

وإذا أردت المبالغة في حفظ الشيء تعمل للمحفظة قفلاً يصعب فتحه، وكلما كان الشيء ثمينًا أو مهمًّا بالغت في حفظه وعدم الوصول إليه. والناس يتفننون في حفظ الأشياء وعدم الوصول إليها. وأمكن شيء في الحفظ أن يودع في مكان أمين ليس له مفتاح ولا يمكن الوصول إليه. وعند ذلك يكون استخراجه عسيرًا أو مستحيلاً إلا بإتلاف المحفظة.

وقد ضرب الله مثلاً لذلك بمثقال حبة من خردل في صخرة، والصخرة ليس لها مفتاح، وربنا يستخرج هذه الحبة من الصخرة مع أنها ليس لها مفتاح من دون أن يحطم الصخرة.

وقال: ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ ولم يقل: (على صخرة) للدلالة على خفائها وأنها في داخلها.

وقال: (في الأرض) ولم يقل: (على الأرض) ليدل على أنها في باطن الأرض.

ثم قال: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ولم يقل: (يعلمها الله) لأن مجرد العلم لا يدل على القدرة، فقد تعلم أنّ شيئًا داخل صندوق أو خزانة ولكنك لا تقدر على فتحه، فقوله: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يدل على العلم وبالغ القدرة.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي يتوصل إلى الأشياء الخفية بأمر خفي فلا يحتاج إلى تحطيم الصخرة أو تكسيرها، بل يخرجها من داخلها بلطفه وخبرته. والإتيان بالشيء من مثل هذا الحفظ يحتاج إلى خبرة وإلى لطف بحيث يستخرجها من داخلها والصخرة كما هي.

جاء في (التفسير الكبير): «لو قيل: إن الصخرة لا بد من أن تكون في السماوات أو في الأرض فما الفائدة من ذكرها؟...

خفاء الشيء يكون بطرق ، منها أن يكون في غاية الصغر ، ومنها أن يكون بعيدًا ، ومنها أن يكون في ظلمة ، ومنها أن يكون من وراء حجاب .

فإن انتفت الأمور بأسرها بأن يكون كبيرًا قريبًا في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العادة . فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط .

فقوله : ﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ إشارة إلى الصغر .

وقوله : ﴿ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ إشارة إلى الحجاب .

وقوله : ﴿ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى البعد ، فإنها أبعد الأبعاد .

وقوله : ﴿ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى الظلمات ، فإن جوف الأرض أظلم الأماكن .

وقوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أبلغ من قول القائل : (يعلمها الله) ، لأن من يظهر له الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره ، فقوله : ﴿ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي يظهرها للإشهاد .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ أي نافذ القدرة .

﴿ خَبِيرٌ﴾ : أي عالم ببواطن الأمور»[١] .

إن ضرب هذا المثل بعد قوله : ﴿ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أنسب شيء ؛ لأنه إذا كان الله يأتي بمثقال حبة الخردل من السماوات أو الأرض ومن كل مكان فماذا يفعل الشريك؟ وأين ملكه؟ وما قوته؟ وما قدرته إذا كان لا يستطيع أن يمنع استخلاص هذا الجزء الحقير اليسير؟ ولم الشرك؟! .

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢١ .

وهذا من أظهر الحجج على إبطال الشرك وانتفاء الشريك.

لقد جاء لقمان بهذا المثل لابنه ليبين له أنه لا يصح أن يكون لله شريك، ولم يكتف بمجرد النهي وذلك ليقتنع ابنه بما يقول، وفي هذا توجيه للآباء والمرشدين أن لا يوغلوا في الأوامر والنواهي من دون ذكر حجة أو دليل أو تعليل، والله أعلم.

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

وقال في مكان آخر: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فكان بينهما بعض اختلاف في التعبير، من ذلك:

١ ـ إن فعل الشرط وجوابه في لقمان مضارعان، وفي الأنبياء ماضيان.

٢ ـ وإن فعل الكينونة وفي لقمان مسند إلى مؤنث ﴿إِن تَكُ﴾. وفي الأنبياء مسند إلى مذكر: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾.

٣ ـ ذكر أماكن وجود مثقال الحبة في لقمان ولم يذكرها في الأنبياء.

٤ ـ كما اختلفت خاتمة كل من الآيتين.

فما السبب؟

والجواب: أن سياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

أما سياقها في لقمان فهو واضح.

وأما في سورة الأنبياء فالآية في الكلام على اليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

فاتضح بذلك سبب الاختلاف:

١ ـ أما من حيث الاختلاف في فعل الشرط وجوابه فإن آية لقمان فيما يفعله الإنسان في الدنيا. والدنيا لا تزال باقية والأفعال فيها مستمرة، فكان فعل الشرط وجوابه مضارعين.

وأما آية الأنبياء فالكلام فيها على موقف من مواقف القيامة وهو موقف الحساب ووزن الأعمال، وقد انقطعت الأعمال وأحضرت للوزن فعبر عن ذلك بالماضي فقال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾.

٢ ـ وأما الاختلاف في إسناد فعلي الكينونة فإنه قال في آية لقمان: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ﴾ فكان اسم (إن) ضميرًا مؤنثًا، أي الفعلة أو «الخصلة من الإساءة والإحسان لفهمها من السياق»[1] أو ضمير القصة[2]. فكان الفعل مسندًا إلى مؤنث. في حين كان الكلام في الأنبياء على المذكر قال: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ﴾ أي الشيء، فأسند الفعل إلى المذكر.

٣ ـ وأما ذكر أماكن وجود مثقال الحبة في لقمان فذلك لبيان قدرة الله وشمولها ليعرّف لقمان ابنه بذلك ويبطل عقيدة الشرك.

وأما في الأنبياء فالسياق مختلف، وهو سياق الحساب ووزن الأعمال وليس ذكر أماكنها.

٤ ـ وأما اختلاف خاتمة كل من الآيتين فسببه واضح أيضًا، ذلك أن آية الأنبياء في الحساب فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٨٨.

(٢) انظر البحر المحيط ٧/ ١٨٢.

وفي لقمان في استخلاص مثقال الحبة من أماكن وجودها الخفية فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

فناسب كل تعبير موطنه.

وقد تقول: كيف جرى التقديم والتأخير في هذه الآية، فقد ذكر الصخرة أولاً ثم ذكر السماوات بعدها ثم ذكر الأرض، فما سبب ذلك؟.

والجواب: أنه ذكر الصخرة أولاً، والصخرة قد تكون في السماء، وقد تكون في الأرض، فقد تكون في الأجرام السماوية صخور كالقمر والمشتري وغيرهما، وقد تكون صخور سابحة في الفضاء. فذكر الصخرة التي يشترك وجودها في السماء والأرض.

ثم ذكر السماوات وقدمها على الأرض، وهو الخط الجاري في السورة، فحيث اقترنت السماوات بالأرض قدم السماوات وذلك في أكثر من موطن:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ١٦].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٦].

وحيث قَدَّم السماوات وأَخَّر الأرض في السورة ذكر بجنب الأرض أمورًا تتعلق بالأرض أو بسكان الأرض وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ...﴾ [لقمان: ١٠].

وقوله: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ . . . يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ . . .﴾ [لقمان: ١٦ ـ ١٧].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ . . .﴾ [لقمان: ٢٠].

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٦ ـ ٢٧].

فكان تقديم السماوات على الأرض في الآية جاريًا على نسق ما ورد في السورة.

* * *

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾

بعد أن نهى لقمان ابنه عن الشرك وبين له أسس العقيدة السليمة، أمره بالعبادات، وبدأ بأهم العبادات وأوجبها وهي الصلاة، وهي العبادة التي لا تسقط عن المكلف بحال من الأحوال، وهي أول ما يسأل عنه المرء يوم القيامة، وكرر نداءه المحبب (يا بنيّ) لأن ذلك مظنة الاستجابة.

وقال له: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولم يقل له: (صلّ) ذلك لأن إقامة الصلاة تعني الإتيان بها على أتم حال وأكمله من قيام وركوع وسجود وخشوع وقراءة قرآن وذكر.

ثم أمره بعد إقامة الصلاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فأمره بنوعين من العبادات: ما يتعلق بالنفس وما يتعلق بالمجتمع.

فالصلاة تكميل للنفس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكميل للمجتمع. ذلك أن من حق المجتمع على الفرد أن يحفظه ويرسي فيه قواعد الخير والقوة ، ويجتث منه عناصر الهدم والفساد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز ما يؤدي إلى ذلك.

ثم قال له: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ لأنه يعلم أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر تعرض للأذى والمكاره ، فأمره بالصبر على ما يلقى.

ومن حكمة لقمان أن أمر ابنه بذلك مع علمه أنه قد يصيبه من جراء ذلك أذى ليس بالقليل ، وهذا خلاف المعهود من عموم الآباء ، فإن الآباء عادة يخشون على أبنائهم ويطلبون منهم عدم التعرض للناس من أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، لأنه قد يلحقهم من جراء ذلك أذى يرهقهم. أما لقمان فأدرك بثاقب حكمته أن بقاء المجتمع وحفظه وصيانته من عوامل التخريب أولى من راحة ابنه وسلامته ، فحث ابنه ليقوم بهذه المهمة على حبه له ، وأوصاه بالصبر على ما يصيبه من المكاره. وفي هذا توجيه للآباء عظيم لأن يوجهوا أبناءهم للقيام بهذه المهمة الشاقة ويحثوهم عليها مهما لقوا في سبيل ذلك من عنت وأذى ، فإن الخير الذي يعود عليهم وعلى المجتمع من القيام بذلك أعظم بكثير من الأذى الذي قد يلحقهم منه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي من الأمور الواجبة المقطوعة التي لا ينبغي أن يتراخى المرء فيها أو يتهاون.

جاء في (التفسير الكبير): «يعني أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من الأمور الواجبة المعزومة، أي المقطوعة» (١).

وقد تقول: لقد قال هنا: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فأكده بإنَّ، وقال في موطن آخر: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] فأكده بإن واللام فما الفرق؟

والجواب: أن المقامين مختلفان، ذلك أنه قال في لقمان: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، فأمره بالصبر.

وقال في الشورى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ فأضاف المغفرة إلى الصبر، أي أن تصبر على ما أصابك وتغفر لمن أساء إليك. وهذا أشق على النفس من مجرد الصبر، فاحتاج إلى زيادة التوكيد فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (٢)



﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾

«انتقل لقمان بابنه إلى الآداب في معاملة الناس فنهاه عن احتقار الناس وعن التفخر عليهم، وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس وعدّ نفسه كواحد منهم» (٣).

فنهاه عن التكبر عليهم والإعراض عنهم.

ومعنى تصعير الخد إمالته عنهم تكبرًا وإعراضًا.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢١ ـ ١٢٢.
(٢) انظر التعبير القرآني ٢٠١.
(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ١٦٦.

والمرح هو النشاط مع الزهو والخيلاء «فالمرح مختال في مشيته» [(١)].

والاختيال: «من الخيلاء، وهو التبختر في المشي كبرًا» [(٢)].

و(مختال) مفتعل من (خالَ) يقال: خال الرجل واختال إذا تكبّر.

والمختال: الصلف المتباهي الجهول المعجب بنفسه[(٣)].

و(اختال) أبلغ من (خال) في التكبر والإعجاب بالنفس؛ لأنه على وزن (افتعل).

وإن من معاني (افتعل) المبالغة في معنى الفعل. فالمختال هو المبالغ في التكبر والتباهي والإعجاب بالنفس وفي سائر معاني الوصف. و(الفخور) من الفخر، وهو تعداد ما أعطي من مال أو نسب أو غير ذلك والمباهاة في ذلك.

جاء في (روح المعاني): «الفخور من الفخر، وهو المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويدخل في ذلك تعداد الشخص ما أعطاه لظهور أنه مباهاة بالمال» [(٤)].

وجاء في (المحرر الوجيز): «قال مجاهد: الفخور هو الذي يعدد ما أعطى ولا يشكر الله تبارك وتعالى، قال: وفي اللفظ الفخر بالنسب وغير ذلك» [(٥)].

والفخور على زنة فعول، وهو من صيغ المبالغة للدلالة على الإكثار

---

(١) المحرر الوجيز ١١/ ٥٠٣.
(٢) روح المعاني ٢١/ ٩٠.
(٣) ينظر لسان العرب (خول) ١١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨.
(٤) روح المعاني ٢١/ ٩٠.
(٥) المحرر الوجيز ١١/ ٥٠٣.

من إظهار ذلك والمبالغة فيه .

وقال : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ولم يقل : (على الأرض) كما قال في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، ذلك أن (في) تفيد الظرفية ، أي كأنه يريد أن يخرق الأرض برجليه من شدة مرحه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] .

وأما (على) فتفيد الاستعلاء فقال : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ وذلك لأنه قال : (هونًا) أي على مهل بسكينة ووقار ، فناسب كل حرف موضعه .

إن الأبنية التي وردت في الآية كلها تفيد المبالغة :

فقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ يدل على المبالغة في المرح ، ذلك أنه جاء بالحال مصدرًا وهو يدل على المبالغة .

وقوله : (مختال) يدل على المبالغة في الوصف ، لأن صيغة مفتعل تفيد المبالغة .

وقوله : (فخور) يدل على المبالغة في الفخر .

وقد تقول : ولم جاء بالوصفين على المبالغة ، أفترى أن الذي لا يبالغ في الوصف لا يشمله انتفاء الحب؟

والجواب : أنه ليس الأمر على ما توهمت ، فإخباره أن الله لا يحب المبالغة في الوصف السيّء لا يعني أنه يحب غير المبالغ ، وإنما هو إخبار عن الوصف في المقام الذي ورد فيه .

فقولك : (أنا لا أحب الكذوب) لا يعني أنك تحب الكاذب . وقولك : (إني أحب الصدوق) لا يعني أنك لا تحب الصادق .

فقد تقول في مقام : (أنا لا أحب الكذوب) ، وقد تقول في مقام

آخر: (أنا لا أحب الكاذب). وقد تقول في مقام: (أنا أحب الصدوق)، وقد تقول في مقام آخر: (أنا أحب الصادق) بحسب ما يقتضيه المقام.

والبلاغة ـ كما هو معلوم ـ إنما هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ولذا قال الله مرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، بصيغة المبالغة ﴿خَوَّانًا﴾، وقال مرة أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، بصيغة اسم الفاعل لا بصيغة المبالغة.

وأخبر الله عن نفسه مرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]. فقال: (شكور) بصيغة المبالغة، وقال مرة أخرى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، بصيغة اسم الفاعل بحسب المقام الذي اقتضى كلاً منهما.

فإنه قال في سورة النساء: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] فقال: (يختانون) بوزن (يفتعلون) الذي يفيد المبالغة في الخيانة فقال: (خوّانًا) بصيغة المبالغة.

ثم ذكر صفات هؤلاء الخوانين بقوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٠٨ ـ ١١٢].

فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ولم يقل: (خائنًا) لأن هؤلاء خوانون، أي مبالغون في الخيانة.

في حين قال تعالى في الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ

عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] ، فلم يذكر أنهم خانوا وإنما خيفت منهم الخيانة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ولم يقل: (إنه لا يحب الخوانين) فإنهم لم يخونوا أصلاً ، فإذا خان هؤلاء فسيكونون خائنين ، والله لا يحب الخائنين.

فصفات السوء بعضها أشد من بعض والله يبغضها جميعًا ، ولكن يبغض المبالغ فيها أشد.

وصفات الخير بعضها أشد من بعض والله يحبها جميعًا ، ولكنه يحب المكثر منها أشد.

فالذي يصعّر خده للناس ويمشي في الأرض مرحًا هو مبالغ في الصفات المذمومة ، فأخبر أن الله لا يحب المبالغين في الصفات المذمومة ، ولو قال: (إن الله لا يحب كل خائن فاخر) لم يفهم أن من تقدم مبالغ في الصفات المذمومة. ونحو ذلك أنه قد يبالغ إنسان في الكذب ، ويكذب مرة بعد مرة فنقول له: (أنا لا أحب الكذّاب) إشارة إلى أنه كثير الكذب.

وتقول: (أنا لا أحب الكاذب) لمن كذب مرة ولم يعتد الكذب.

لقد جمع الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ بين وصفين أحدهما في السلوك وهو المختال ، والآخر في القول وهو الفخور.

فأخبر بذلك أنه يبغض الذميم من الفعل والقول.

وهذا جاء بعد قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ ذلك لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر عليه قبل غيره أن يكون متواضعًا حسن القول والفعل لا يختال ولا يفخر ، وهذا من ألزم الأشياء للدعاة والمرشدين.

إن هذا لازم على كل فرد، وهو على الدعاة ألزم وأوجب.

قد تقول لقد قال هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فأكد الجملة بإنّ، وقال في سورة الحديد: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] من دون توكيد، فما الفرق؟

والجواب: أن المقام مختلف، فإن المقام في لقمان في بيان آداب المعاملات وحسن التصرف مع الناس فقال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨ـ ١٩].

فنهاه عن الكبر وعن المشي في الأرض مرحًا وطلب منه القصد في المشي وعدم رفع الصوت فناسب ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ بالتوكيد.

وأما في سورة الحديد فليس الكلام على ذلك، فهو ليس في بيان آداب المعاملة ولا في العلاقات بين الناس فلم يؤكد ذلك، قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

ألا ترى أنه لما كان الكلام في سورة النساء على العلاقات بين الناس وإحسان المعاملة لهم أكد التعبير بإنّ كما أكده في لقمان فقال: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

فأمرنا بإحسان المعاملة مع من ذكر من الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وإحسان المعاملة إلى الجار حتى انتهى إلى ملك اليمين

فناسب أن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ بالتوكيد.

فناسب كل تعبير مكانه. والله أعلم.

* * *

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي توسط في المشي بين الإسراع والإبطاء.

والمشي إنما يكون بقدر الحاجة، فإن احتجت إلى الإسراع أسرعت، وإلا فتوسّط في مشيك، ولا يكن سمتك التماوت في المشي فإنه مذموم.

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي اخفض منه، وقال: (اغضض من صوتك) ولم يقل: (اغضض صوتك) لأنه ليس المطلوب أن يخفض صوته كله فلا يسمع، وإنما المطلوب منه بقدر ما يحتاج إليه السامعون، فلا يكون أعلى من ذلك فيزعجهم، ولا يكون أقرب إلى الهمس فلا يسمعون.

وهذا كما ترى إشارة إلى التوسط والاعتدال فيما ذكر.

جاء في (التفسير الكبير): «لما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ وعدم ذلك قد يكون بضده، وهو الذي يخالف غاية الاختلاف، وهو مشي المتماوت الذي يري من نفسه الضعف تزهدًا فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي كن وسطاً بين الطرفين المذمومين...

﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال»[1].

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي أقبحها، فذكّر من يرفع صوته

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٢ ـ ١٢٣.

أكثر مما ينبغي بصوت الحمار ونُكْره في النفوس ليغض منه.

«فإن قلت: لم وحَدَّ صوت الحمير ولم يجمع؟.

قلت: ليس المـراد أن يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان غير الناطق له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده»(١).

فإن قلت: ولم قال هنا: (لصوت الحمير) ولم يقل: (لصوت الحُمُر) وكلاهما جمع الحمار، مع أنه قال في موطن آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٠]، فجمع على الحُمُر؟

فنقـول: إن القـرآن استعمـل (الحميـر) جمعًـا للحمـار الأهلـي، واستعمل (الحُمُر) جمعًا للحمار الوحشي فقال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨].

وما عرفه عموم الناس من الأصوات المنكرة صوت الحمر الأهلية وهي التي تعيش معهم فجمعه على الحمير. هذا علاوة على فواصل الآي، والله أعلم.

* * *

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾

انتهت وصية لقمان لابنه وبدأ الآن كلام آخر وهو كلام الله يخاطب عباده قائلاً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم...﴾ وهذا الكلام متصل بكلامه سبحانه قبل الوصية وهو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا... هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ...﴾.

---

(١) الكشاف ٥/١٨.

فذكر هناك خلق السماوات وإلقاء الرواسي في الأرض وبث الدواب وغير ذلك ، وذكر هنا النعم التي أنعمها الله علينا في السماوات والأرض بتسخير ما فيهما لنا وإسباغ النعم علينا فهو الخالق وهو المسخر وهو المفيض بالنعم.

وكان المظنون والمتوقع أن معرفة هذا الأمر تدعو الناس إلى عبادته وطاعته سبحانه ، لكن قسمًا من الناس مع ذلك كله يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

إن هذه الآية مرتبطة بأول السورة ، ذلك أنه قال في أول السورة: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فوصف الكتاب بأنه حكيم ، وذكر أنه هدى ورحمة للمحسنين ، وذكر أن هؤلاء يجادلون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

فقوله: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يقابل وصف الكتاب بأنه حكيم.

وقوله: ﴿ وَلَا هُدًى﴾ يقابل وصف الكتاب بأنه هدى.

وقوله: ﴿ وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ نفى وجود الكتاب المنير عندهم ، وقد أثبته في الابتداء وأشار إلى آياته فقال: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وقال: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ وهؤلاء لم يحسنوا في الجدال لأنهم جادلوا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

وأما الرحمة المذكورة في أول السورة فتقابلها رحمته سبحانه بخلقه في تسخيره لهم ما في السماوات وما في الأرض وإسباغ النعم الظاهرة والباطنة عليهم.

ثم لنلاحظ التعبير فى هذه الآية فإنه جاءَ بأحسن ترتيب.

فقد قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ والخطاب لعموم العقلاء من الخلق ، ولم يقل (ألم تر) بخطاب المفرد.

وقال: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ فذكر نعمته بالتسخير لعموم الخلق.

وقال: ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فشمل عموم ما فيهما ، وهذا أعم تسخير وأشمله ، فلم يقل كما قال في مواطن: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

وقال: (أسبغ) والإسباغ هو الإفاضة في العطاء وغيره ، والزيادة في ذلك ، وليس مجرد العطاء.

وقال: (نعمه) فجاء بجمع الكثرة ، ولم يقل: (أنْعُمه) وذلك للدلالة على كثرة النعم.

وقال: (ظاهرة وباطنة) للدلالة على شمول النعم بكافة أنواعها. وهو أوسع شمول وأعمه.

وقال: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فأفاض في ذكر مركب الجهل وعناصره.

فأوسع وأفاض في المسخَّر لهم وهم عموم الخلق بقوله: (لكم).

وأوسع وأفاض فيما سخره لهم وهو ما في السماوات وما في الأرض.

وأوسع وأفاض في الفعل بقوله: (أسبغ).

وأوسع وأفاض في النعم بقوله: (نِعَمه).

وأوسع في الشمول والعموم وهو قوله: (ظاهرة وباطنة).

وأوسع وأفاض في ذكر عناصر الجهل وهو قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

ثم إن عناصر الجهل هذه تشمل عناصر الجهل الباطن والظاهر.

فقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نفى عنهم العلم، والعلم إنما هو في النفوس، وهو لا يظهر للرائي وإنما تظهر آثاره أو بعض آثاره، فأنت لا تعلم ماذا يحمله الشخص من علم ولا مقدار من مجرد رؤيته، فهو من الأمور الباطنة.

وقوله: (ولا هدى) نفى عنهم الهدى، والهدى يكون ظاهرًا وباطنًا.

فمن الهدى الظاهر الكتب، ولذلك سمى القرآن كتاب الله هدى، فقد قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

ومن الهدى الظاهر أَدلاَّء الطريق وعلاماته، ومنه قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

وذكر القرآن النجوم والجبال والسبل للهداية فقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

ومن الهدى الباطن توفيق الله للإنسان لاتباع الحق بما يقذفه في قلبه من نور وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقوله: ﴿إِنَّكَ



﴿لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فهذا توفيق من الله ونور يقذفه في قلب من يشاء من عباده فيهتدي أو يزداد هدى.

وقوله: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ نفى وجود الكتاب المنير عندهم والكتاب ظاهر مقروء.

فنفى عنهم كل عناصر العلم والهداية ما ظهر منها وما بطن.

وقد تدرج في ذكر العناصر من الباطن إلى المشترك إلى الظاهر.

ثم وصف الكتاب بأنه منير؛ لأن هؤلاء قد يرجعون إلى كتب غير منيرة مثل ذلك الذي يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، أو يرجعون إلى الكتب المحرفة، فهذه الكتب لا تهدي الضال.

جاء في (التفسير الكبير): «قال في الكتاب: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ لأن المجادل منه من كان يجادل من كتاب ولكنه محرف مثل التوراة بعد التحريف، فلو قال: (ولا كتاب) لكان القائل أن يقول: لا يجادل من غير كتاب، فإن بعض ما يقولون فهو في كتابهم ولأن المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث من كتابهم، ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ فإن ذلك الكتاب مظلم»[1].

إن المجادلة في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير أنكر المجادلات، وهي منكرة في العقول كإنكار صوت الحمير في الآذان أو أشد نكرًا. ومن لطيف الموافقات أن تكون هذه الآية بعد قوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

* * *

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٤.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

أراد أن يبين ضلالهم وجهلهم وقلة فهمهم وإدراكهم فلم يقل: (وإذا قيل لهم اتبعوا سبيلنا) أو ما عندنا أو كتابنا لئلا تأخذهم العزة بالإثم، بل قال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ الله الذي خلقهم وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليهم نعمه.

وقال: (إذا قيل لهم) ولم يذكر فاعلاً معينًا لأنه لا يتعلق غرض بذكره، ولئلا يظن أن رفضهم بسبب هذا القائل، ولو كان القائل غيره لم يكن جوابهم كذلك، بل يكون هذا جوابهم أيًّا كان القائل.

قالوا: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ فجعلوا آباءهم بإزاء الله سبحانه.

إنهم لم يقولوا: (لو نعلم أن هذا أنزله الله لاتبعناه)، ولو قالوا ذلك لكان معهم حديث آخر ولعذرهم السامع حتى يقيم عليهم الحجة، ولكنهم آثروا اتباع آبائهم على ما أنزل الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ثم قال تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

وهذا السؤال تعجيب من حالهم، ذلك أن كل معتنق فكرة أو دعوة أو عقيدة يبتغي بذلك عاقبة حسنة ومآلاً سعيدًا. وقد ذكر أمرين كل واحد منهما ينبغي الفرار منه.

فقد ذكر أن الشيطان هو الذي يدعوهم إلى ذلك، وأن عاقبة من اتبعه عذاب السعير، فكيف يتبعونه ولا يتبعون ما أنزل الله؟.

وهذا إهابة بكل عاقل لأن ينجو بجلده مما هو عليه ويفر منه إلى الله ويسلم وجهه إليه سبحانه.

* * *



﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

أكثر ما وردت متصرفات الفعل (أسلم) في القرآن الكريم متعدية باللام نحو قوله: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٦]، وقوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤]، ولم يرد متعديًا بإلى إلا في آية لقمان هذه.

وقيل في الفرق بين قولنا: (أسلمت إليه) و(أسملت له)، أن (أسلم إليه) يأتي بمعنى الإعطاء وبمعنى التفويض، تقول: (أسلمت إليه الشيء) أي دفعته إليه، وتقول: (أسلمت وجهي إليه) أي فوضت أمري إليه.

وأما: (أسلم له) فمعناه انقاد له واستسلم له، ومعناه أيضًا جعل نفسه سالمًا له، أي خالصًا له.

جاء في (لسان العرب): «أسلم إليه الشيء: دفعه. . .

الإسلام والاستسلام: الانقياد. . . يقال: فلان مسلم، وفيه قولان: أحدهما: هو المستسلم لأمر الله، والثاني: هو المخلص لله العبادة» (١).

وجاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما له عدّى بإلى، وقد عدّى باللام في قوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ ﴾؟.

قلت: معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته ونفسه سالمًا لله، أي خالصًا له.

ومعناه مع (إلى) أنه سلم إليه نفسه كما يسلّم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه. والمراد التوكل عليه والتفويض إليه» (٢).

---

(١) لسان العرب (سلم).

(٢) الكشاف ٥/١٩.

وجاء في (روح المعاني): «﴿ ۞وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأن فوض إليه تعالى جميع أموره، وأقبل عليه سبحانه بقلبه وقالبه. فالإسلام كالتسليم التفويض. و(الوجه) الذات. والكلام كناية عما أشرنا إليه من تسليم الأمور جميعها إليه تعالى والإقبال التام عليه عز وجل، وقد يعدى (الإسلام) باللام قصدًا لمعنى الإخلاص»[1].

وعلى هذا يكون معنى:

أسلم إليه الشيء: دفعه إليه. وأسلم إليه الأمر، أي فوّضه إليه. ومعنى (أسلم له) انقاد له واستسلم له وأخلص له.

وورد الفعل (أسلم) مع (إلى) متعديًا إلى مفعول به. قال تعالى: ﴿ ۞وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ والظاهر أن الأصل في نحو هذا الاستعمال أن يتعدى إلى مفعول به.

وأما مع اللام فقد جاء متعديًا إلى مفعول به وغير متعدّ إلى مفعول به كقوله تعالى في المتعدي: ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقوله في غير المتعدي: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٦]، وقوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقد يرد الفعل وحده من دون حرف جر ولا مفعول به كقوله تعالى: ﴿ ۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، وقوله: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

وقد ورد الفعل (يسلم) في آية لقمان مُعدًّى بإلى دون اللام لأكثر من سبب:

من ذلك أن هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٩٥.

أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ والاتّباع معناه في الأصل السير خلف المُتَّبَع. فقولك: (اتبعت فلانًا) أي سرت خلفه مقتديًا به. فمن اتبع شخصًا فكأنه يسلم إليه قياده ويدفعه إليه.

فالكفرة أسلموا إلى الشيطان قيادهم واتبعوا آباءهم.

والمؤمنون أسلموا إلى الله وجوههم، أي أنفسهم كما يدفع القياد إلى من يقود.

والوجه معناه الذات والنفس. وذكر الوجه لأن الوجه أكرم شيء ظاهر في الجسم.

هذا وجه.

والوجه الآخر أن (أسلم إليه) بمعنى فوّض الأمر إليه وتوكل عليه، ذلك أن الإنسان أكثر ما يشعر بالحاجة إلى تفويض أمره إلى الله عند الشدائد والنوازل، فإنه يخشى أن تعصف به العواصف وتغرقه سيول النوازل فيشعر بالحاجة الملحة إلى عاصم يحفظه وإلى الاستمساك بما يثبته فقال: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

وأما مآل هذه الأمور التي يخشاها وما تنكشف عنه فإلى الله أمرها وحسبه أن يستمسك بالعروة الوثقى إلى أن يستبين قضاء الله فيها ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

فقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ اقتضى أن يقول: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى تسليم النفس إليه.

وقوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ اقتضى أن يقول: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى تفويض الأمر إليه.

فقد اقتضى هذا الفعل من وجهين والله أعلم.

وقد تقول: لقد قال في سورة البقرة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] ، فعدَّىٰ الفعل (أسلم) باللام، وعدَّاه في لقمان بإلى كما علمنا فما الفرق؟

فنقول: هناك أكثر من سؤال في هاتين الآيتين وليس هذا السؤال وحده، من ذلك:

١ ـ أنه قال في لقمان: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ﴾ بالمضارع.

وقال في البقرة: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ بالماضي.

٢ ـ وقال في لقمان: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالتعدية بإلى.

وقال في البقرة: ﴿لِلَّهِ﴾ بالتعدية باللام.

٣ ـ وقال في لقمان: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

ولم يقل مثل ذلك في آية البقرة.

٤ ـ وقال في لقمان: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

وقال في البقرة: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فلم ذلك؟

فنقول إن كلاً من هذه السؤالات يحتاج إلى جواب:

أما ذكر الفعل مضارعًا في لقمان وماضيًا في البقرة فذلك أن معنى الفعل في لقمان ـ كما ذكرنا ـ تسليم الوجه إلى الله وتسليم القياد إلى من أمر الله باتباعه ودفعه إليه.

ومعناه أيضًا تفويض أموره إليه.

والأمور التى تحتاج إلى الاتباع متعددة متجددة، والأمور التى تشعر

بالحاجة إلى تفويضها إلى الله متعددة متجددة، فجاء بالفعل مضارعًا كما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ وذلك أن فعل الشرط يأتي غالبًا في القرآن ماضيًا فيما يقل تكراره أو مظنة أنه مرة واحدة، ويؤتى به مضارعًا فيما يتكرر وقوعه.

أما في البقرة فقد جاءت ردًّا على قول اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢]، أي بلى يدخلها المسلم، فالدخول في الإسلام يحصل مرة ولا يتكرر كل يوم، وإنما تتكرر الأعمال التي يقوم بها المسلم، فإذا شهد المرء بالشهادتين دخل الإسلام وقد أسلم.

أما الأحداث التي يفوضها المرء إلى الله فهي متكررة متجددة مستمرة، فجاء بالفعل مضارعًا في لقمان وماضيًا في البقرة.

وأما التعدية بإلى واللام فقد ذكرنا معناهما وذكرنا الفرق بينهما، فمعنى ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: يفوض أمره إلى الله ويتوكل عليه، ولذا كان جواب الشرط ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

ومعنى (أسلم وجهه لله): دخل في الإسلام، ومعناه أيضًا: استسلم لأمر الله وانقاد له وجعل نفسه سالمًا لله، أي خالصًا له، ولذا كان جواب الشرط: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فـ (أسلمت لله) أعلى من (أسلمت إلى الله) لأنه جعل نفسه سالمًا، أي خالصًا له لم يترك من نفسه شيئًا لغير الله، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]، أي خالصًا له من الشراكة.

ولذا ـ والله أعلم ـ أخبر الله عن نبيه وخليله إبراهيم حين قال له ربه أسلمْ أنه قال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] باللام. وقال الله لخاتم الرسل والنبيين: ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]، وأمره أيضًا أن يقول: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وأمره مرة أخرى أن يقول: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقالت ملكة سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، كل ذلك باللام.

فما كان الفعل (أسلم له) أتم وأكمل كان الجواب أعلى وأتم، فقال: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

جاء في (التفسير الكبير) أن «(من أسلم لله) أعلى درجة ممن يسلم إلى الله. لأن (إلى) للغاية واللام للاختصاص، يقول القائل: أسلمت وجهي إليك، أي توجهت نحوك، وينبئ هذا عن عدم الوصول؛ لأن التوجه إلى الشيء قبل الوصول. وقوله: (أسلمت وجهي لك) يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول. إذا علم هذا فنقول: في البقرة قالت اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ قال الله ردًّا عليهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾، ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]»[1].

وقد تقول: لقد أَخَّر الجار والمجرور عن الفعل (أسلم) في مواطن وقدمهما على الفعل في بعض المواطن، فقد قال تعالى في سورة الزمر مثلاً: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، فأخر الجار والمجرور

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٥.

عن الفعل (أسلموا). في حين قال في سورة الحج: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ [الحج: ٣٤]، بتقديم الجار والمجرور على الفعل، فما السبب؟

والجواب: أن للتقديم والتأخير ولا شك سببًا يدعو إليه. ونحن هنا لا نريد أن نستقصي كل الآيات التي ورد فيها الفعل (أسلم) لبيان ذلك، ولكن أقول بإيجاز: إن قسمًا من الآيات لا يصح فيها التقديم وذلك كما في قوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، لما فيه من تقديم الصلة على الموصول، فلا يصح أن نقول: (وأمرت لرب العالمين أن أسلم) لما فيه من تقديم الجار والمجرور على (أن)، وما تعلق به متأخر عنها، فلا يصح أن يعمل ما بعد (أن) فيما قبلها.

وكذلك القول في ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ فإنه على تقدير (أن).

وأما فيما يجوز فيه التقديم والتأخير فنقول: إنه في مقام التوحيد يقدم الجار والمجرور على الفعل لقصد الحصر، أما في غير مقام التوحيد فيؤخره إلا إذا اقتضى غير ذلك سبب آخر. وأضرب لك مثلاً يوضح ذلك في آيتي الحج والزمر اللتين ذكرناهما:

قال تعالى في سورة الحج: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

وقال في الزمر: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٤].

فقدم الجار والمجرور (فله) على الفعل (أسلموا) في آية الحج لأنه في مقام التوحيد، فقد قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فقدم الجار والمجرور لحصر الإسلام له.

وليس كذلك الأمر في الزمر ، فإنه ليس في مقام ذكر التوحيد ، ولكن السياق في ذكر المسرفين في الذنوب ومغفرة الله لها ، فلم يقدم الجار والمجرور لأن المقام لا يقتضي ذاك ، والله أعلم.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾

أي من يسلم وجهه إلى الله في حالة اتصافه بالإحسان فقد استمسك بالعروة الوثقى.

فهذا الأمر ينطبق على من هو متصف بالإحسان دون من لم يتصف به كما قال رسول الله ﷺ: (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة).

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] ، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقد تقول: لقد قال الله في آية لقمان: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ ، وقال في البقرة: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، فزاد في البقرة ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ على ما في لقمان فما السبب؟

والجواب: أن سياق كل آية من الآيتين يوضح السبب ، فقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فذكر في آية البقرة الكفر بالطاغوت. والكفر بالطاغوت قد يلحق صاحبه الأذى والعنت ، فإن (الطاغوت) هو المبالغ في الطغيان والتعدي ، والطاغوت كل رأس في الضلال والإضلال من الشياطين والإنس والأصنام فقال: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ مبالغة في حفظ من يستمسك

بها ، وليس السياق في مثل ذلك في لقمان ، فلم يحتج إلى مثل ما ذكر في آية البقرة. فكل تعبير مناسب لما ورد فيه.

وقال: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ ولم يقل: (استمسك) من دون (فقد) ، أي لم يقل: (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن استمسك) ذلك أن (قد) للتحقيق ، والمعنى أنه تحقق استمساكه بالعروة الوثقى وحصل. ولو لم يأت بـ(قد) لاحتمل أن يكون ذلك في المستقبل ، ذلك أن الفعل الماضي إذا وقع فعلاً للشرط أو جوابًا له فالغالب أن يكون للاستقبال وذلك نحو قولك: (إن درست نجحت) فإن ذلك للاستقبال ، وكقولك: (من يكفر بالله أدخله النار) فالفعل (أدخله النار) يفيد الاستقبال مع أنه ماض ، فجاء بـ(قد) للدلالة على أن الاستمساك بالعروة الوثقى قد حصل لمن يسلم وجهه إلى الله.

وقال: (استمسك) ولم يقل: (أمسك) للدلالة على المبالغة في الإمساك.

ووصف العروة بأنها (الوثقى) ولم يقل: (الوثيقة) للدلالة على أنها أوثق العرى وليس ثمة عروة أوثق منها.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾

قدم الجار والمجرور للحصر لأن عاقبة الأمور إليه وحده.

جاء في (روح المعاني): «وتقديم (إلى الله) للحصر ردًّا على الكفرة في زعمهم مرجعية آلهتهم لبعض الأمور» (١).

* * *

---

(١) روح المعاني ٢١/ ٩٥.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾

نود أن نذكر طرفًا من الملاحظات التعبيرية في هذه الآية.

١ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ فجاء بفعل الشرط ماضيًا بعد قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ ﴾ وقد كان فعل الشرط مضارعًا.

وهذا التعبير نظير قوله تعالى في آية سابقة ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ فجاء بفعل الشرط الأول مضارعًا (يشكر)، وجاء بفعل الشرط الثاني وهو قوله: (كفر) ماضيًا، وقد ذكرنا سبب مجيء الفعل في قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ ﴾ مضارعًا. أما قوله: (من كفر) فهو نظير ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ فلا نعيد القول فيه.

٢ ـ قال: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ﴾ فجعل الكفر فاعلاً والمخاطب مفعولاً به، والمعنى: لا تحزن لكفره. وقد جاء بالتعبير على هذه الصورة لأكثر من سبب:

من ذلك أنه نهى الكفر أن يحزن رسول الله، فكأن الكفر يريد أن يحزن رسول الله فنهاه الله أن يفعل ذلك رأفة برسوله وإشفاقًا عليه، فكأنه قال: أيها الكفر لا تحزن رسولي، وذلك أن المنهي إنما هو الفاعل، تقول: (لا يضربْ أخوك خالدًا) فالمنهي عن الضرب أخوك.

هذا إضافة إلى ما فيه من التعبير المجازي، فكأن الكفر ذات عاقلة تريد أن تحزن رسول الله فنهاه الله عن ذلك.

ولو قال: (لا تحزن لكفره) لم يؤد هذا المعنى.

٣ ـ جاء بالفاء في قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ ، وهذه الفاء هي الرابطة لجواب الشرط ، وقد جاء بها تنصيصًا على أن (من) في قوله: (من كفر) اسم شرط ، ولو لم يأت بالفاء لاحتمل أن تكون (من) اسمًا موصولاً .

فأفاد مجيء الفاء العموم ، أي كل من كفر ؛ لأن أسماء الشرط تفيد العموم. أما الاسم الموصول فهو من المعارف ، وقد يراد به شخص معين أو أشخاص بأعيانهم فلا يشمل العموم ، تقول: (من زارني أكرمته) ، و(زارني من أحبه) ، وقد يراد به الجنس أحيانًا .

أما اسم الشرط فيراد به العموم ، فجاء بالفاء للدلالة على ذلك .

٤ ـ قال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بضمير الجمع الذي يفيد التعظيم في (إلينا) ، وقد قال في آية سابقة من السورة: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ بضمير الإفراد ، ذلك أن الآية السابقة في موطن النهي عن الشرك: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ. . . وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى. . .﴾ فأفرد للدلالة على الوحدانية، في حين لم يكن المقام ههنا كذلك فجاء بضمير التعظيم .

وقد قدم الجار والمجرور (إلينا) الذي هو الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر ، أي إلينا مرجعهم لا إلى غيرنا .

٥ ـ قال: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ولم يقل: (ثم إلينا مرجعهم) كما قال في آية سابقة من السورة وهو قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وذلك لإرادة تقريب المرجع إليه سبحانه ، وذلك أن (ثم) تفيد المهلة والتراخي فلم يذكرها هنا .

وقد قال في الآية السابقة: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فجاء بـ (ثم) لأكثر من سبب :

من ذلك أنه قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ والمجاهدة قد تستغرق وقتًا طويلاً.

وقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فأمر بمصاحبتهما بالمعروف وإن امتدت الحياة بهما.

وقال: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ فأمر بذلك مهما امتدت الحياة وطالت.

فناسب ذلك ذكر (ثم).

وليس السياق في مثل ذلك ههنا.

٦ ـ قال: (فننبئهم) بضمير الجمع للتعظيم، وقال في آية سابقة: (فأنبئكم) بضمير الإفراد لما ذكرناه من أن الموطن السابق موطن النهي عن الشرك.

وقال: (فننبئهم) بالفاء، ولم يقل: (ثم ننبئهم) لإرادة التعقيب بالتنبيء من دون مهلة وأنه يكون بعد الرجوع إلى الله، ولعله إشارة إلى حساب القبر.

وقد تقول: ولكنه قال في مواطن أخرى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقال: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وغيره. فلم ذاك؟

والجواب: أن ذلك بحسب السياق، فقد يقتضي المقام ذكر (ثم) وقد يقتضي ذكر الفاء.

أما قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ فذلك أن سياق الكلام في

الدنيا ، ولم يذكر رجوعهم إلى الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩] ، فأمهل التنبيء.

وأما قوله: ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤] ، فالكلام أيضاً على من هو في الدنيا ولا تزال مدة طويلة بينهم وبين التنبيء.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤].

فقد قال: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ وهذه مدة طويلة تستغرق عمر الدنيا كلها فجاء بـ (سوف).

وأما قوله: ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠] فالسياق مبني على الإمهال والتأخير وعدم الاستعجال ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال: ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ ﴾ [الأنعام: ٥٨].

وقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [الأنعام: ٦١ ـ ٦٢].

فإنه ذكر مدة وإمهالاً بين مجيء الموت وردّهم إلى الله. فبعد أن قال: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ قال: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل: (فرُدّوا إلى الله).

فالسياق مبني على الإمهال ، فناسب ذكر (ثم) دون الفاء.

٧ ـ قال: ﴿ بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾ بالماضي المنقطع ، وقال في آية سابقة من

السورة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالماضي المستمر ؛ وذلك لأن السياق في الآية السابقة في الاستمرار: استمرار المجاهدة وتطاولها ، واستمرار المصاحبة بالمعروف ، واستمرار الاتباع لسبيل المنيبين إلى الله .

هذا علاوة على أنه قال في الآية السابقة : ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ .

و(ثم) تفيد المهلة والتراخي ، وفي ذلك استمرار العمل. فناسب كل ذلك استمرار العمل في الماضي .

في حين قال في هذه الآية : ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ . . . ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فليس فيها استمرار ، فناسب الماضي المنقطع .

٨ ـ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ ولم يقل: (إننا نعلم) ونحوه كما قال في (إلينا) و(فننبئهم) فرجع إلى المفرد بعد الجمع. وهذا شأن التعبير في القرآن ، فإنه حيث ذكر ضميره تعالى بلفظ الجمع للتعظيم لا بد أن يذكر قبل ذلك أو بعده ما يدل على الإفراد حتى يُعلم أنه واحد .

٩ ـ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل: (ومن كفر فإن الله عليم به) وذلك لإفادة الشمول. ولو قال: (فإن الله عليم به) لقصر علمه على من كفر ، فلما قال: (عليم بذات الصدور) أطلق شمول علمه بالنفوس عامة ، فدخل في علمه هؤلاء وغيرهم .

هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أن (ذات الصدور) تعني خفايا النفوس فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليشمل الخفايا. ولو قال: (عليم به) لم يدل على أنه يعلم الخفايا .

وقال: (بذات الصدور) ولم يقل: (بذات صدورهم) ليشمل علمه ما في النفوس عمومًا وليس ما في نفوسهم خاصة .

١٠ ـ إن قوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ يشمل العلم بالأعمال الظاهرة، وقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يشمل خفايا النفوس.

فشمل علمه ماظهر وما خفي.

١١ ـ قال: (عليم) ولم يقل: (عالم) للدلالة على المبالغة في علمه بما في النفوس.

١٢ ـ وأكد ذلك بـ (إن) للدلالة على تأكيد هذا العلم الواسع، والله أعلم.

* * *

﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: (قليلاً) يحتمل أنه وصف للمصدر المحذوف، أي مفعول مطلق بمعنى نمتعهم تمتيعًا قليلاً، ويحتمل أنه وصف للزمان المحذوف، أي ظرف زمان بمعنى نمتعهم زمانًا قليلاً، وقد حذف الموصوف ليشمل المعنيين، أي نمتعهم تمتيعًا قليلاً زمانًا قليلاً، وهو من التوسع في المعنى، فلو قال: (نمتعهم تمتيعًا قليلاً) لانحصرت القلة في التمتيع، ولو قال: (نمتعهم زمانًا قليلاً) لانحصرت القلة في الزمان، فحذف الموصوف ليشمل المعنيين جميعًا، والله أعلم.

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾

وصف العذاب بأنه غليظ تنزيلاً للعذاب في منزلة الأشياء الملموسة، وهو مجاز.

وقد تقول: لقد قال في البقرة: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وبين التعبيرين أوجه اختلاف منها:

١ ـ أنه قال في لقمان: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ ﴾ بضمير الجمع للكفرة ، وهو المفعول به (هم) في الفعلين.

وقال في البقرة: ﴿ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ ﴾ بضمير الإفراد وهو الهاء في الفعلين ، مع أنه قال في الآيتين: (ومن كفر).

٢ ـ أسند الفعل في لقمان إلى ضمير الجمع المستتر وهو الفاعل ، وتقديره (نحن) في الفعلين.

وأسنده في البقرة إلى الفاعل المفرد فقال: ﴿ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ ﴾ وهو ضمير مستتر تقديره (أنا) في الفعلين.

فيكون كل من الفاعل والمفعول به جمعًا في لقمان، ومفردًا في البقرة.

٣ ـ قال في لقمان: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ ولم يقل مثل ذلك في البقرة.

٤ ـ جعل جواب الشرط في لقمان: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ... ﴾.

وجعل جواب الشرط في البقرة: ﴿ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ﴾.

٥ ـ قال في لقمان: ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

وقال في البقرة: ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

فما سبب هذا الاختلاف؟

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذلك.

أما آية لقمان فقد ذكرنا سياقها.

وأما آية البقرة فهي: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فنقول الآن: أما التعبير عن الكفرة بضمير الإفراد في البقرة وبضمير الجمع في لقمان، وأعني بذلك المفعول به في الفعلين، فذلك أن الكلام في البقرة على أهل بلد واحد وهو مكة، وذلك أن إبراهيم عليه السلام دعا لأهل مكة بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم. . .﴾ فالكلام على من كفر من أهل مكة خاصة.

وأما في لقمان فالكلام عام.

ومن كفر من أهل مكة بالقياس إلى الكفار في عموم أهل الأرض قلة جدًّا، فعبر عن القلة بضمير المفرد وعن الكثرة بضمير الجمع. وهناك سبب آخر نذكره في موضعه.

وأما إسناد الفعل في البقرة إلى ضمير الإفراد، وفي لقمان إلى ضمير الجمع، وأعني بذلك الضمير المستتر في الفعلين وهو الفاعل فذلك لما ذكرناه من أن ضمير التعظيم يسبقه أو يليه ضمير الإفراد، فكان ما في البقرة واقعًا بعد ضمير الجمع للتعظيم ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ. . . وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ فناسب الإفراد بعده.

أما في لقمان فقد وقع بعد الإفراد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ. . . ﴾ ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ. . . وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فجاء بضمير الجمع للتعظيم.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه أضاف البيت إلى نفسه فقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ. . .﴾ فناسب أن يتولى بنفسه أهل بيته وحرمه فعبر عن ذلك بضمير الإفراد.

وهناك سبب آخر نذكره في موطنه.

وأما أنه لم يقل فى البقرة كما قال فى لقمان: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا

عَمِلُوٓاْۚ﴾ ، وإنما قال مباشرة: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ فذلك لأن ذلك جواب عن دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ فالأمر يتعلق بالرزق وليس بالتبليغ ، ولذا جعل الجواب التمتيع .

أما في لقمان فإنه جعل الجواب: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ لأنه في التبليغ ، ومن ناحية أخرى أن الكفار حاضرون في زمن الرسول معاندون له فقال: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ .

وأما المذكورون لإبراهيم بقوله: (ومن كفر) فإنهم لم يخلقوا بعد فلا يناسب أن يقول: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ﴾ .

وأما قوله في لقمان: ﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ، وقوله في البقرة: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فذلك أنه ذكر العذاب في البقرة لمن كفر من أهل بلد الله الحرام ، والسيئة في الحرم تتضاعف كما أن الحسنة فيه تتضاعف ، فالذي يكفر وهو في بلد الله الحرام ليس كمن يكفر خارج البلد الحرام ، والذي يعصي ربه في البلد الحرام ليس كمن يعصيه في مكان آخر ، ولذلك قال فيمن كفر من أهل البلد الحرام: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ والتصريح بالتعذيب بالنار أشد من التهديد بالعذاب الغليظ . فإنك قد تقول: سأعذبك عذابًا غليظًا ولا تعني أنك ستحرقه بالنار حتمًا .

ومما يدل على ذلك أيضًا إسناد الفعل إليه بضمير الإفراد (أمتع . . . أضطره) فإن التهديد بذلك أشد من قوله: (نمتع ، نضطر) وذلك لأنه كأنه يتولاه بنفسه .

ومما يدل على ذلك أيضًا أنه ذكر الكافر بضمير الإفراد وهو الهاء ، والتعبير بالإفراد أشد تهديدًا ووعيدًا من تهديد الجمع ؛ لأنه يعني أنه يتولى من كفر واحدًا واحدًا فيعذبه ، والوحدة فى نفسها عذاب وقد

أضاف إليها عذاب النار.

فالتهديد والتعذيب لمن كفر في البلد الحرام أشد من عدة نواح، منها:

١ ـ أنه أسند ذلك إلى نفسه بضمير الإفراد فكأنه يتولى التعذيب بنفسه.

٢ ـ أنه صرح بعذابهم في النار وبئس المصير.

٣ ـ وأنه ذكر الكفار بضمير الإفراد، فكأنه يعذب كل واحد بمفرده فلا يرى معه أحدًا فيكون التعذيب بالنار والوحدة، نعوذ بالله من ذلك جميعًا، والله أعلم.

* * *

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ باللام الموطئة للقسم، ولم يقل: (وإن سألتهم)، ويؤتى بهذه اللام للدلالة على التوكيد وأن الكلام معها بمنزلة القسم، بل هو قسم عند النحاة.

وهذا يدل على أنهم يعلمون يقينًا أن الذي خلق السماوات والأرض إنما هو الله لا يشكّون في ذلك ولا يترددون في الإجابة، ولذا أجاب بما يجاب به القسم ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ باللام ونون التوكيد.

وقال: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ والتقدير (ليقولن خلقهن الله) غير أنه لم يذكر الفعل (خلقهن) إيجازًا.

إن كل الآيات التي سألهم فيها: من خلق السماوات والأرض أو من خلقهم قال الله فيها: (ليقولن الله) من دون أن يقول: (خلقهن الله) أو

(خلقنا الله) إلا آية واحدة ذكر فيها الفعل وهي قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

فقال: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

إن المعنى معلوم سواء ذكر الفعل أم لم يذكر لتقدم ما يدل عليه، غير أنه يحذف إذا أراد الإيجاز ويذكر إذا أراد أن يتوسع في الكلام ويؤكد.

وقد ذكر الفعل في آية الزخرف؛ لأنه أراد أن يتوسع في الكلام على الخلق فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٩ ـ ١٣].

فذكر الفعل (خلقهن) لأنه ذكر بعده ما يتعلق بالخلق.

أما الآيات التي لم يذكر فيها الفعل (خلق) في الجواب فإنه لم يتحدث عن الخلق بعدها، وقد لا يقول غير (الحمد لله)، وإليك بيان ذلك:

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ولم يذكر شيئًا عن الخلق، وقال بعدها: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، فذكر بعدها ما يتعلق بالرزق لا بالخلق.

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وانتقل بعدها إلى أمر آخر غير الخلق فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]، فذكر الملك ولم يذكر الخلق، وليس من اللازم أن يكون المالك خالقًا،

فقد يملك الشخص أشياء ليس هو خالقها أو صانعها.

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٧]، ولم يذكر بعدها شيئًا يتعلق بالخلق، وإنما انتقل إلى ما يعبدونه من دون الله فقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال في موطن آخر من سورة الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولم يذكر شيئًا يتعلق بالخلق، وإنما قال بعدها: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨].

فناسب ذكر (خلقهن) في آية الزخرف التاسعة دون بقية الآيات، والله أعلم.

* * *

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ﴾

لأن الحجة قامت عليهم ولزمتهم وأبرأت نفسك أمام الله، وقل الحمد لله الذي هدانا للحق ولم نكن مثلهم فنكون ممن يدعوهم الشيطان إلى عذاب السعير. وقل الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، فهو مستحق الحمد كله ومستحق العبادة وحده.

* * *

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

لا يعلمون أن الذي خلق السماوات والأرض هو وحده المستحق للعبادة وأنه لا شريك له.

إنهم يعلمون شيئًا مهمًّا وهو أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض

ولكن لا يعلمون ماذا ينبني على هذا العلم. إنهم كمن يعلم البديهيات ولا يعلم ما ينبني عليها.

مثلهم في ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ مثل من يعرف أباه، وأنه هو الذي رباه وأنفق عليه وأغدق عليه النعم وأنه لا يزال يتعهده وينفق عليه ولكنه مع ذلك لا يعلم أن عليه أن يطيعه ويشكره، فيطيع ويشكر من لا فضل له ولا منّة ولا نعمة، بل هو يطيع عدوه وعدو والده، وقد ذكّره أبوه بما يعلم وماذا عليه من الحقوق تجاهه فأبى عليه مع كل ذلك.

فأيّ جحود هذا وما قيمة العلم بفضل أبيه عليه؟!.

جاء في (روح المعاني): «﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان ما هم عليه من إشراك غيره تعالى به جل شأنه في العبادة التي لا يستحقها غير الخالق والمنعم الحقيقي...

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم، وفيه إيغال حسن، كأنه قال سبحانه: وإن جهلهم انتهى إلى أن لا يعلموا أن الحمد لله»[(١)].

قد تقول: لقد قال في لقمان: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فنفى عنهم العلم.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فنفى عنهم العقل، والذم بعدم العقل أشد من الذم بعدم العلم، ذلك أن نفي العقل يعني المساواة بالبهائم. فإن ذا العقل يتعلم، أما فاقد العقل فلن يتعلم، فما سبب هذا الاختلاف؟.

والجواب: أن السياق في كل من الموطنين يوضح ذلك:

---

(١) روح المعاني ٢١/٩٦.

قال في لقمان: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقال في العنكبوت: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١ ـ ٦٣].

ومن النظر في النصين نرى أنه سألهم في لقمان سؤالاً واحدًا وهو: من خلق السماوات والأرض؟

وسألهم في العنكبوت عدة سؤالات: من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر؟ ومن نَزَّل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟.

وأجابوا عن كل ذلك أنه الله.

فمعرفتهم بكل ذلك مع إيمانهم بوحدانيته تعالى دليل على عدم عقلهم. فإنهم يؤمنون بكل المسلمات الأساسية للتوحيد ومع ذلك لم يستطيعوا الإيمان به، أي بالتوحيد.

ومعنى هذا أنه ليس عندهم من العقل ما يترقون به من المسلمات إلى النتائج الظاهرة، ولو كان عندهم شيء من العقل لأدركوا أن من يفعل ذلك كله هو المستحق بأن يفرد بالعبادة منزهًا عن الشريك.

أما في لقمان فإن السؤال الذي سألهم إياه هو أحد السؤالات التي سألها في العنكبوت فكان الأمر أيسر، فرماهم بما هو أيسر وهو نفي العلم دون العقل، والله أعلم.

* * *

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

قدم الجار والمجرور (لله) الذي هو الخبر على المبتدأ وهو قوله: (ما في السماوات) للحصر: أي أن ما في السماوات والأرض لله حصرًا وليس لغيره.

لقد ذكر هنا أن له ما في السماوات والأرض، وقد ذكر قبل هذه الآية أنه خلق السماوات والأرض فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ... ﴾، وقال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ فدل ذلك على أن له السماوات والأرض وما فيهن، فإنه قد يملك الإنسان ما في الظرف ولا يملك الظرف، والعكس صحيح، فقد يملك الظرف ولا يملك ما فيه، فذكر في هذه الآية والتي قبلها أن له الظرف وما فيه، أي له السماوات والأرض وما فيهن.

لقد دلّ بهذه الآية وما قبلها أن الله مالك السماوات والأرض ومالك ما فيهما.

ودل قوله: ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وقوله: ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ ﴾ على أنه المتصرف فيهما، فدل على أنه المالك لهما ولما فيهما والمتصرف فيهما فهو الغني الحميد.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

ذكر هذا بعد قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ ﴾، وهذا نظير ما مَرَّ من قوله: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

فإن قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ نظير قوله:

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ، وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ نظير قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ .

و(الحميد) كما ذكرنا معناه المحمود على جهة الثبوت، فهو المحمود في غناه والمحمود في كل شيء. وهو مناسب لقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ، فمن له الحمد هو الحميد.

إن قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ ، وقوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مناسبان لاسمه (الغني).

وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مناسبان لاسمه (الحميد).

فارتبط ذلك بما سبق أجل ارتباط وأحسنه.

جاء في (التفسير الكبير): «إن السماوات وما فيها والأرض وما فيها إذا كانت لله ومخلوقة فالكل محتاجون، فلا غني إلا الله فهو الغني المطلق، وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه إلى من يدفع حاجته، فلا يكون الحميد المطلق إلا الغني المطلق فهو الحميد، وعلى هذا يكون الحميد بمعنى المحمود» (١).

وقد تقول: لقد قال ههنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

وقال في سورة الحج: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ، فزاد اللام وأدخلها على ضمير الفصل فقال: ﴿لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ فما سبب ذلك؟.

والجواب: أنه فصّل في الملك في سورة الحج ما لم يفصل في لقمان فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فذكر (ما) مع السماوات ومع الأرض، وليس التعبير كذلك في لقمان فإنه لم يكرر (ما)، والتكرار

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٧.

يفيد التوكيد والتوسع في الكلام فأكد التعبير ووسعه بزيادة اللام في الحج.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه قال في لقمان: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فجعل ملكه للسماوات والأرض دليلاً على غناه.

وأما في الحج فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فجاء بالواو فاصلة بين الغنى والملك، فذكر أن له ما في السماوات وما في الأرض وزاد عليه وصف الغني، فلو زالت السماء والأرض لكان غنيًّا حميدًا بغيرهما بل لكان هو الغني الحميد.

وهو كما تقول: (فلان يملك مائة دار وألف بستان إنه غني) فجعلت غناه في ذلك، أو جعلت ذلك دليلاً على غناه.

وتقول: (فلان يملك مائة دار وألف بستان وإنه غني) أي هو غني من دون ما ذكرت من الملك، فلو ذهبت مائة الدار وألف البستان لم يؤثر ذلك في غناه.

فذكر في الحج ما هو أوسع وأدل على الغنى فناسب زيادة اللام.

قد تقول: لقد يقول الله أحيانًا: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٩]، [المائدة: ١٧، ١٨] أو ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ [المائدة: ١٢٠].

ويقول أحيانًا أخرى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ فما الفرق؟

والجواب: أن قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد أنه الملك والحاكم والمسخر لهن، فإن (المُلك) بضم الميم من الحكم، قال الله على لسان فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۖ﴾ [الزخرف: ٥١].



وأما قوله: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيفيد التملك، فهي مملوكة له وهو المالك لهنّ، فدلّ ذلك، أي قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على أنه المالك والملك، كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ فهو مالكهما وملكهما لا مالك غيره ولا ملك سواء فهو الغني الحميد.

* * *

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

لما ذكر أن الله له ما في السماوات والأرض لربما ظن ظان أن هذا جميع ملكه، فجاء بعده بما يدل على أنه لا حدود لملكه وخزائنه وقدرته فقال: لو أن كل شجرة في الأرض بريت أقلامًا، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر يكتب بها، ما نفدت كلمات الله وعجائب قدرته.

جاء في (التفسير الكبير): «لما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وكان ذلك موهمًا لتناهي ملكه لانحصار ما في السماوات وما في الأرض فيهما، وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ ويكتب بها والأبحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله»[(١)].

وجاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قيل: (من شجرة) على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟

قلت: أريد تفصيل الشجر وتعقبها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بريت أقلامًا.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٧.

فإن قلت: الكلمات جمع قلة ، والموضع موضع التكثير لا التقليل ؛ فهلا قيل: كلم الله؟

قلتُ: معناه أن كلماته لا تفي بكتبتها البحار فكيف بكلمه؟» [١] .

وجاء في (البحر المحيط): «وفي هذا الكلام من المبالغة في تكثير الأقلام والمداد ما ينبغي أن يتأمل ، وذلك أن الأشجار مشتمل كل واحدة منها على الأغصان الكثيرة ، وتلك الأغصان كل غصن منها يقطع على قدر القلم فيبلغ عدد الأقلام في التناهي إلى ما لا يعلم به ولا يحيط إلا الله تعالى» [٢] .

* * *

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إنه عزيز بقدرته التي لا تُحَدّ ، وعلمه الذي لا ينتهي ، وخزائنه التي لا تنفد ، حكيم لا يصدر فعله إلا عن حكمة.

وقد تقول: لقد قال ههنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقال في آية سابقة من السورة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بتعريف الاسمين الكريمين فلم ذاك؟

والجواب: أن الآية السابقة إنما هي في الآخرة ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٨ ـ ٩] ، ومن المعلوم أنه لا يبقى آنذاك عزيز إلا هو ولا حاكم إلا هو.

لقد كان الناس في الدنيا يرون أشخاصًا أعزة ويرون ملوكًا وحكامًا يتداولون الملك والحكم ، أما في الآخرة فيرى الخلق جميعًا مؤمنهم

---

(١) الكشاف ٥/ ٢١ ـ ٢٢.

(٢) البحر المحيط ٧/ ١٨٧.

وكافرهم أن لا عزيز إلا هو ولا ملك إلا هو كما قال تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الحج: ٥٦]، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي لا عزيز غيره ولا حكيم فناسب التعريف.

وقد تقول: ولِمَ لم يؤكد ذلك بإن فيقول: (إنه هو العزيز الحكيم) كما أكده في الآية هذه؟

فنقول: ليس في ذلك الوقت أحد يشك أو ينكر عزة الله وحكمه وحكمته، بل كلهم يرى ذلك ويسلم به فلا حاجة إلى التوكيد، بخلاف ما في الدنيا، فناسب كل تعبير موضعه، والله أعلم.

* * *

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

ارتبطت هذه الآية بما قبلها وبما بعدها أحسن ارتباط وأوثقه.

فإنّ خلق الناس من كلمات الله.

وإن بعثهم من كلمات الله.

وإن خلقهم كنفس واحدة من كلمات الله.

وإن بعثهم كنفس واحدة من كلمات الله التي لا تنفد.

كما ارتبطت بخاتمة الآية السابقة.

فإن الخالق عزيز حكيم، ذلك أن الخالق له العزة، فالمخلوقات كلها من صنعه، وأنها طائعة لأمره، فارتبط ذلك باسم العزيز.

والخالق حكيم، حكيم في خلقه وصنعه. وهو خلقهم لحكمة أرادها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، فارتبط باسمه الحكيم، فهو خلقهم بحكمة وخلقهم لحكمة، فهو حكيم في

الصنع وحكيم في الغرض الذي خلقهم من أجله.

والذي يبعث الخلائق للحساب والجزاء عزيز حكيم.

فإنه عزيز لأنه يجازي ويعاقب ويعذب ولا رادّ لأمره.

وهو حكيم بمعنى الحكمة وبمعنى الحكم، فإن البعث ومحاسبة الخلائق كل ذلك لحكمة واضحة بينة، فإنه ليس من الحكمة أن يترك عباده هملاً من دون حساب، تعالى الله عن ذلك، كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ ـ ١١٦].

وهو حكيم بمعنى الحكم؛ لأنه سيحاكمهم ويحكم بينهم كما قال تعالى: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

وقد ارتبطت الآية بما بعدها وهو قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، وهذا الأجل المسمى هو الذي يبعث الله الخلائق فيه، وهم يجرون كجري الشمس والقمر إلى ذلك اليوم.

كما ارتبطت بجو السورة التي شاع فيها ذكر الخلق والبعث.

فقد قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠]، وقال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

هذا في الخلق.

وأما البعث فهو شائع في السورة من أولها إلى آخرها كما سبق أن ذكرنا. فقد قال في أول السورة: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وقال في آخرها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ... إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

وارتبطت بمقاصد السورة وهي عبادة الله وتثبيت عقيدة اليوم الآخر وآداب السلوك وإحسان العمل.

فالذي يخلق يستحق العبادة دون من سواه، وإذا كان يخلق الخلق كنفس واحدة كانت العبادة له ألزم.

والذي يبعث الخلق يستحق العبادة دون من سواه، وإذا كان يبعثهم كنفس واحدة كانت العبادة له ألزم.

والغرض من الخلق إنما هو العبادة وإحسان العمل، وإحسان العمل من العبادة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والبعث إنما هو للجزاء على العمل.

* * *

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

قد تقول: أليس من الأولى أن يقال ههنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؟

فنقول: إن الآية التي تساق قد تحتمل أكثر من خاتمة، فيمكن أن تجعل (إن الله على كل شيء قدير) خاتمة لكثير من الآيات في السورة، فكان من الممكن أن تجعل خاتمة لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . . .﴾، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ . . .﴾ وغيرها. وقد تحتمل خواتيم أخرى، وكذلك الأمر في السور الأخرى. ولكن اختيار الخاتمة ينبغي أن يكون مناسبًا للسياق الذي وردت فيه الآية والغرض الذي ذكرت من أجله. والآية ينبغي ألا تؤخذ بمفردها بل ينبغي أن توضع في سياقها الذي وردت

فيه لتفهم مقاصدها واختيار ألفاظها وتعابيرها .

فينبغي أن ننظر مثلاً هل الآية واردة في سياق بيان القدرة الإلهية وسعتها ، أو هي واردة في بيان الحكمة ، أو في بيان التفضل والنعمة ، أو في بيان الغنى ، أو لبيان الصفات الإلهية الأخرى ، أو في بيان موقف الإنسان من ذلك ، إلى غير ذلك من الأغراض .

ولأضرب مثلاً على ذلك بإنزال الماء من السماء وإخراج الزرع والفواكه والحبوب به .

فهذا يمكن أن يساق في بيان قدرة الله ، ويمكن أن يساق في بيان نعمة الله على الإنسان والحيوان ، ويمكن أن يساق في بيان الاستدلال على البعث والنشور ، ويمكن أن يساق في بيان جحود الإنسان لنعمة ربه ، واختيار الخاتمة ينبغي أن يكون موافقًا للغرض الذي وردت من أجله الآية .

وهذا يجري في حياتنا اليومية كثيرًا فقد تذكر أمرًا واحدًا لكن الغرض من ذكره يختلف ، فقد تذكر مثلاً حادثة غريبة تدل على كسل شخص ، ولكن قد تذكر الحادثة لبيان صفة هذا الشخص أو للتندر منه أو لبيان أن هذا الشخص لا ينبغي أن يكون في المكان الذي عهد به إليه أو أنه سيفرط في المسألة التي أنيطت به أو غير ذلك ، ثم يكون التعقيب بعد ذلك مناسبًا للغرض الذي أوردت من أجله الحادثة .

وهكذا ينبغي أن نتأمل في خواتيم الآي وسبب ورودها على هذا النحو دون ذاك ، فإن ذلك يهدينا إلى مقاصد التعبير وأغراضه في القرآن الكريم ، وستنكشف لنا أمور في غاية الدقة وحسن الاختيار[١] .

وقد ارتبطت خاتمة الآية ههنا بسياق الآية أحسن ارتباط وأوثقه ، فإن

---

(١) انظر بحث (فواصل الآي) في كتابنا (التعبير القرآني) .

الآية هي ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾.

فابتدأت بالخلق والبعث وختمت بالسمع والبصر.

والخالق لا بد أن يكون سميعًا بصيرًا.

والذي يبعث الخلائق من مدافنها لا بد أن يكون سميعًا بصيرًا.

والخالق الذي يخلق عباده ليعبدوه وليبلوهم أيهم أحسن عملاً لا بد أن يكون سميعًا لأقوالهم بصيرًا بأعمالهم.

والذي يبعثهم ليحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم لا بد أن يكون سميعًا لما قالوه في الدنيا ولما يحتجون به في الآخرة، بصيرًا بهم وبأعمالهم وبما أعدّ لهم، وأنه لا يندّ عنه من الخلائق أحد فلا يبقى أحد من دون بعث ولا حساب.

ثم إن أعمال الإنسان منها ما يسمع ومنها ما يبصر ومنها ما يضمر.

فقال ههنا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ فشمل ما يسمع وما يبصر وما يضمر.

ذلك أن (البصير) ههنا يحتمل أن يكون من معنى الرؤية، ويحتمل أن يكون من معنى البصيرة كما قال تعالى: ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: ١٤]، وقوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

فقوله: (سميع) يشمل ما يسمع.

وقوله: (بصير) يشمل ما يبصر وما يضمر. هذا إضافة إلى أنه قال في آية سابقة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فذكر ما يضمر تنصيصًا، فشمل كل ما يسمع ويبصر ويضمر.

لقد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ ولم يقل: (إن الله هو السميع البصير) ذلك أن معنى (هو السميع البصير) المتفرد بالسمع والبصر، غير أنه قد أثبت السمع والبصر لخلقه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ . . .﴾، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ . . .﴾.

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

فأثبت الرؤية لهم.

وقال: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ فأثبت له السمع لكنه يعمل نفسه كأنه لم يسمعها، وقد وضع الله الأذنين للسمع.

وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . .﴾ وهذا إثبات للسمع، فالمجادل يسمع ولا شك.

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وهذا إثبات للسمع أيضًا، فإنهم ردوا على القول.

وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

فأجابوا عن السؤال.

وكل هذا إثبات للسمع.

فأثبت الرؤية والسمع لخلقه، فكان ما قاله أولى.

ثم إنه قدم السمع على البصر وهو شأن أكثر ماورد في القرآن الكريم، وقد ذكرنا تعليلاً لذلك في كتابنا (التعبير القرآني) فلا نعيد القول فيه[١].

* * *

---

(١) انظر التعبير القرآني باب (التقديم والتأخير).



﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

ذكر في السورة أولاً خلق السماوات، وذكر ما يتعلق بالأرض من إلقاء الرواسي وغيرها فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ. . .﴾

ثم ذكر تسخير ما فيهما على العموم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم ذكر في هذه الآية وما بعدها تسخير بعض ما فيهما فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ. . .﴾.

جاء في (التفسير الكبير): «يحتمل أن يقال: إن وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ إشارة إلى ما في السماوات، وقوله بعد هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ. . .﴾ إشارة إلى ما في الأرض»[1].

لقد قال ههنا: (ألم تر) بخطاب المفرد، وقال في آية التسخير الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ بخطاب الجمع، ذلك أن سياق الكلام في الآية الأولى في خطاب الجمع، فقد قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ فقال: (ترونها)، ثم قال: (بكم) على خطاب الجمع، ثم قال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٢٩.

﴿دُونِهِۦٓ﴾ فقال: (أروني) بخطاب الجمع، فناسب فيها خطاب الجمع.

أما هذه الآية، أعني ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ...﴾، فقد جاءت في سياق خطاب المفرد، فقد قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ فقال: (فلا يحزنك) بخطاب المفرد، ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فقال: (سألتهم) بخطاب المفرد، ثم قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فقال: (قل) بخطاب المفرد، فناسب خطاب الإفراد، واستمر في خطاب المفرد بعد ذلك فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾.

وقد تقول: ولكنه خاطب الجمع قبل هذه الآية فقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

فنقول: لا يصح هنا خطاب المفرد، فلا يصح أن يقال: (ما خلقك ولا بعثك إلا كنفس واحدة) فإنه نفس واحدة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه لما ذكر ما في السماوات وما في الأرض على العموم خاطب العموم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولما ذكر بعض ما فيهما خاطب المفرد فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ...﴾ فناسب العموم العموم، وناسب التخصيص الإفراد، والله أعلم.

* * *

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾

بدأ بالليل لأن الليل أقدم وأسبق من النهار، ذلك أنه قبل خلق الشمس لم يك نهار. وقدم الشمس على القمر لأنها أقدم وأسبق من القمر، والله أعلم.

وجاء بالفعل (يولج) مضارعًا لأن ذلك يتجدد في كل لحظة، وجاء

بالفعل (سخر) ماضيًا لأن ذلك لا يتجدد تجدد الإيلاج .

جاء في (التفسير الكبير) : «قال : (يولج) بصيغة المستقبل ، وقال في الشمس والقمر : (سخر) بصيغة الماضي ؛ لأن إيلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم ، وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر» (١) .

وجاء في (روح المعاني) : «وعطف قوله سبحانه : (سخر) على قوله : (يولج) ، والاختلاف بينهما صيغة لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد في كل حين ، وأما التسخير فأمر لا تعدد فيه ولا تجدد ، وإنما التعدد والتجدد في آثاره» (٢) .

وقال : ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ولم يقل : (وسخر لكم) كما في الآية الأولى لأنه ليس المقام ههنا مقام تعداد النعم كما في الآية الأولى ، وإنما في بيان آيات الله ، كما قال تعالى : ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ .

ثم إنه من ناحية أخرى قال : ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فذكر أن لهما أجلاً مسمى ، ولا يناسب ذلك ذكر النعم ، فإن من تمام النعمة الدوام وهنا ذكر الانقطاع ، ولذا حيث قال : (سخر لكم) لم يقل : (إلى أجل مسمى) (٣) .

* * *

﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

قال ههنا : ﴿يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ فعَدَّى الفعل (يجري) بإلى ، وقال في آيات أخرى : ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فعداه باللام (٤) .

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٣٠ .
(٢) روح المعاني ٢١/ ١٠٢ .
(٣) انظر على سبيل المثال سورة إبراهيم ٣٣ ، النحل ١٢ .
(٤) انظر سورة الرعد ٢ ، فاطر ١٣ ، الزمر ٥ .

ومما ذكر في الفرق بينهما أن (إلى) تفيد انتهاء الغاية ، واللام تفيد الاختصاص وتفيد التعليل ، فمعنى (يجري لأجل) أنه يجري لهذه الغاية ، أي لإدراك الأجل المسمى ، كما تقول: يجري لغرض وصول الهدف وبلوغه.

ومعنى (يجري إلى أجل) أنه يجري إلى أن يبلغ الأجل المسمى.

ومجيء (إلى) في هذه الآية أنسب لأنها جاءت في سياق الآيات المنبهة على الحشر والإعادة. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان بقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وما سواه إنما هو يجري لأجل مسمى.

والجواب أن يقال: إن معنى قوله: ﴿يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى ، وقوله: ﴿يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ معناه: لا يزال جاريًا حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له.

وإنما خصّ ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى ؛ لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة ، فقبلها: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ، وبعدها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ ؛ فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت وهو الوقت الذي تكوّر فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق وهو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾

فالآيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السماوات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر، إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها، واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها»[١].

وقال: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يقل: (إلى أجل) ليدل على أن مدة جريها محددة مسبقًا.

وقال بعد ذلك: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ إلماحًا إلى أن هذا الأجل المسمى هو وقت النظر في الأعمال والمحاسبة عليها، فارتبط قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وارتبط أيضًا بقوله: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾، وارتبط أيضًا بما بعده من التحذير من اليوم الآخر.

وقَدَّم الجار والمجرور (بما تعملون) على (خبير) للاهتمام بالعمل. وناسب هذا الاهتمام ما تردد في السورة من ذكر الأعمال والتنبيء بها ومآل أصحابها، والله أعلم.

* * *

---

(١) درة التنزيل ٣٧٤ ـ ٣٧٥، وانظر معاني النحو ٣/ ٦٢.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾

أي ما ذكره من إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك مما ذكر ؛ إنما كان بسبب أن الله هو الحق الخالق الموجد القادر وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ؛ لأنها عاجزة عن أي شيء.

وأن ما أمر به أو نهى عنه إنما يجب طاعته فيه لأنه الحق ، فكل ما ذكره عنه من صفات الكمال والقدرة إنما هو بسبب أنه الحق.

وكل أوامره ونواهيه لازمة بسبب أنه الحق.

فقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ تعليل لكل أفعاله وصفاته وتعليل للزوم طاعة كل أوامره ونواهيه.

ثم إنه لم يقل: (ذلك بأن الله حق) فيجعله من جملة ما هو حق ، وإنما قال: (هو الحق) للدلالة على أنه لا حق سواه ، فإنه لولا الله لم يكن شيء في الوجود أصلاً ، فإن الله هو الحق الأول والآخر ، وهو الحق الذي لولاه لم يكن هناك حق أصلاً ، ولكان كل شيء باطلاً غير موجود.

قد تقول: ولكن هناك أشياء أخرى توصف بأنها حق ، فإن الجنة حق ، وإن النار حق ، وإن النبيين حق ، وإن الملائكة حق كما قال ﷺ.

فنقول: ومن ينكر ذلك؟

ولكن كل ما ذكرته وما لم تذكره مما هو حق إنما هو حق بإيجاد الله له وهو يكتسب هذا الحق من الله ، فلو لم يكن الله موجودًا لم يكن شيء مما ذكرت ولا غيره ، فإن الله هو الحق الأول وهو الذي يحق الحق ويبطل الباطل.

جاء في (التفسير الكبير): «ما معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ وأي تعلق له بما تقدم؟.

الجواب فيه وجهان:

أحدهما: أن المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه الأمور إنما حصل لأجل أن الله هو الحق، أي هو الموجود الواجب لذاته الذي يمتنع عليه التغيير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد.

ثانيهما: أن ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾» [(١)].

وجاء في (الكشاف): «ذلك الذي وصف من عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي تدعونه من دون الله، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت إلهيته وأن من دونه باطل الإلهية» [(٢)].

وقال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بتكرار (أنّ) لتوكيد بطلان ما يدعون من دونه، فإنه كان من الممكن أن يقول: (وما يدعون من دونه الباطل) من دون تكرار لـ (أن) فيكون أقل توكيدًا.

ثم إنه عرّف الباطل وكان من الممكن أن يقول: (وأن ما يدعون من دونه باطل) فيجعل ما يدعون من دونه من جملة ما هو باطل. وما ذكره أولى، ذلك أنه لم يذكر مسألة ثانوية أو جزئية مما توصف بالبطلان، كأن تقول: أنت أخذت مني درهمًا وهذا باطل. أو تقول: أنت ذكرت أن ذلك الشيء البعيد حيوان مع أنه شجرة وهذا باطل. ولكنه ذكر أعظم المسائل

---

(١) التفسير الكبير ٨/ ٢٤٦.
(٢) الكشاف ٥/ ٢٣.

على الإطلاق وهي مسألة العبادة ، فهؤلاء المعنيّون اتخذوا من دون الله آلهة ، وهذا أكبر من الشرك ، فإن الشرك أن تتخذ مع الله إلهًا ، وهؤلاء اتخذوا من دونه آلهة ، وهذا أبطل الباطل. فإن كان الله هو الحق فما يدعون من دونه هو الباطل.

وعَرَّف الباطل للدلالة على أنه أظهر الباطل وأتمه ، فهو الباطل الظاهر التام.

وقال: (ما يدعون) دون (من يدعون) لإظهار شناعة فعلهم ، وذلك أن (ما) لغير العاقل ، فهم يدعون ما لا يعقل أصلاً وهو من أظهر الباطل.

وقد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ من دون ضمير فصل ، وقال في سورة الحج: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج: ٦٢] ، فجاء بضمير الفصل مع الباطل فقال: ﴿ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ فما السبب؟.

فنقول: إن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذلك ، «فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم لرسلهم بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الحج: ٥١] ، إلى أن يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الحج: ٥٨].

وهذا من نتائج الصراع: الهجرة من الديار والأرض والقتل والموت ، فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون.

ولا تجد مثل هذا في سورة (لقمان) ، وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٣ ـ ٢٥].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٢٩ ـ ٣٠].

فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا يختلف. فهم في الصورة الأولى معاجزون معاندون مصارعون متمكنون في الأرض، نتيجته هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم، فاحتاج الأمر إلى زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكينهم من رقاب الناس، فإن للسلطان فتنة ورهبة، فاقتضى السياق توكيد أن ما هم عليه هو الباطل.

وأما الآية الثانية ففي سياق الجدل العقلي والمحاجّة بين الفريقين، وليس فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه.

فلم يقتض السياق ما اقتضاه في الآية الأولى من التوكيد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه لَمَّا تقدم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة فقال: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢ ـ ١٣]، ولم يتقدم مثل ذلك في (لقمان) أكد ذلك في الحج.

جاء في (ملاك التأويل): «إن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل ويناسبه وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرها تعريفًا بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم، وأوضح هذا التكرر وأشده ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعتد فصلاً أو متبدأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، هذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]»[1].

وجاء في (روح المعاني): «وكأنه إنما قيل هنا: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بدون ضمير الفصل، وفي سورة الحج ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ بتوسيط ضمير الفصل لما أن الحط على المشركين وآلهتهم في هذه السورة دون الحط عليهم في تلك السورة»[2].

وجاء في أيضاً أن زيادة (هو) في آية الحج دون آية لقمان لأن ما في الحج إنما «وقع بين عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين، ولهذا أيضًا زيدت اللام في قوله تعالى الآتي: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ دون نظيره في تلك السورة.

ويمكن أن يقال: تقدم في هذه السورة ذكر الشيطان فلهذا ذكرت هذه المؤكدات، بخلاف سورة (لقمان) فإنه لم يتقدم ذكر الشيطان هناك»[3].

---

(١) التعبير القرآني ١٧٢ ـ ١٧٤، وانظر ملاك التأويل ٢/ ٧٢٤.

(٢) روح المعاني ٢١/ ١٠٤.

(٣) [illegible] ١٧/ ١٥١

وقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ، فكرر (أنّ) وجاء بضمير الفصل وعرّف الخبر والصفة لحصر العلو والكبر فيه سبحانه ولبيان أنه لا عليّ ولا كبير غيره على الحقيقة ، فهو العلي القاهر كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] ، وهو الكبير السلطان العظيم الشأن.

وقد ذكر هذين الاسمين الكريمين بعد أن وصف نفسه بالحق ووصف ما يدعونه بالباطل لبيان أن الحق عالٍ على وجه الثبوت والدوام ، وأنه يعلو الباطل ويزهقه ، فالحق عال ظاهر والباطل سافل مهين ، والحق كبير والباطل صغير صغارًا وصِغَرًا. فمهما انتفش وانتفخ فإنه قميء ذليل حقير.

وقد ذكر هذين الاسمين تطمينًا وتثبيتًا لأهل الحق ، وإنذارًا وتحذيرًا لأهل الباطل.

جاء في (التفسير الكبير): «أيّ تعلق لقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ بما تقدم؟.

والجواب: معنى العلي: القاهر المقتدر الذي لا يغلب ، فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغبًا بذلك في عبادته زاجرًا عن عبادة غيره.

فأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه ، وذلك أيضًا يفيد كمال القدرة»[١].

* * *

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ٦١.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾

لما ذكر تسخير بعض ما في السماوات في آية سابقة ، ذكر في هذه الآية تسخير بعض ما في الأرض وهي الفلك.

فذكر هناك جري الشمس والقمر ، وذكر هنا جري الفلك.

ولما قال: ﴿ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ ، وقال: ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾ علمنا أن الله هو مُجريها ومسيّرها فأغنى ذلك عن أن يقول: (ألم تر أن الله يُجري الفلك) أو نحو ذلك.

وقوله: ﴿ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ ﴾ يفيد معنيين:

الأول: أنها تجري بسبب نعمة الله وهو تسخيرها وتسخير البحر ، فمن نعمة الله أنه سخر الفلك لنا كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ، وأنه سخر البحر لتجري فيه الفلك كما قال تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الجاثية: ١٢].

والمعنى الآخر: أنها تجري بنعمة الله ، أي بما تحمله من البضائع مما أنعم الله به على الإنسان.

والمعنيان مرادان ، فهي تجري بنعمة التسخير ، وهي تجري بما تحمله من النعم.

* * *

﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ﴾

وهي آيات عظيمة ، منها آيات في التسخير ، ومنها آيات في أسرار البحار وما أودع فيها من العجائب ، ومنها آيات في ضعف الإنسان وخوفه

وعجزه وإنابته إلى ربه حين يركب البحر ، وكيف يعود إلى ما كان عليه حين ينجيه إلى البر ، ومنها آيات في أهوال البحر وعجيب قدرة الله إذا شاء أن ينجي المرء بعد أن انقطعت به الأسباب. وغير ذلك من الآيات.

* * *

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

صبّار على طاعة الله وعلى ما يصيبه من الشدائد ، شكور على ما أفاض عليه من النعم أو على ما يمنّ عليه من النجاة.

فالصبر إما أن يكون صبرًا على الطاعة أو صبرًا على الشدة ، فالطاعات تحتاج إلى الصبر ، فالصلاة مثلاً تحتاج إلى الصبر كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢] ، والصوم يحتاج إلى الصبر ، بل إنه نصف الصبر كما قال ﷺ ، والجهاد يحتاج إلى الصبر. والطاعات كلها تحتاج إلى الصبر.

والشدائد تحتاج إلى الصبر كما هو معلوم.

والشكر يكون على النعمة ، ولذا كثيرًا ما تقترن النعمة بطلب الشكر في القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤] ، وقال: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦]. وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ [النحل: ١٢١].

وقد يكون الشكر على النجاة من الشدة كما قال تعالى على لسان راكبي البحر: ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال ههنا لكل صبار شكور فذكر الشكر لما ذكر نعمته فقال: ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٣١] ، وذكر الصبر لما قال بعد ذلك: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾ .

جاء في (البحر المحيط): «ولما تقدم ذكر جري الفلك في البحر وكان في ذلك ما لا يخفى على راكبه من الخوف، وتقدم ذكر النعمة، ناسب الختم بالصبر على ما يحذر، وبالشكر على ما أنعم به تعالى»[1].

وقد اقترن وصف (الصبّار) بالشكور دومًا في القرآن، فلم ترد كلمة (صبار) إلا وقال معها: (شكور).

وقد جاء بهذين الوصفين على صيغة المبالغة للدلالة على أن الإنسان يحتاج إلى الصبر على وجه الدوام، ويحتاج إلى الشكر على وجه الدوام.

فالإنسان تلزمه طاعة ربه على الدوام، فيحتاج إلى الصبر على الطاعة.

وهو عرضة لما يكره فيحتاج إلى الصبر على ما يكره.

ويحتاج إلى الشكر على الدوام؛ لأن نعم الله عليه دائمة مستفيضة.

ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه إذا ذكر تهديدًا في البحر أو خوفًا فيه قرن ذكر الصبر بالشكر، فإن لم يذكر التخويف والتحذير ذكر الشكر وحده ولم يذكر الصبر، ولما قال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ ذكر الصبر فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ومثله ما جاء في سورة الشورى وهو قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢ ـ ٣٤].

فإنه لما هددهم بالإغراق وإهلاكهم في البحر بقوله: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ ذكر الصبر فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

---

(١) البحر المحيط ٧/ ١٨٨.



فإن لم يذكر التهديد ذكر الشكر وحده ولم يذكر الصبر كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [فاطر: ١٢].

وقوله: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢].

فإنه لما ذكر النعم عليهم ولم يذكر تهديدًا أو تخويفًا ذكر الشكر ولم يذكر الصبر، والله أعلم.

* * *

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذه آية عظيمة من آيات الله في الإنسان، فقد فطره الله على الإيمان به وتوحيده، ولكن الإنسان قد تغطي فطرته أتربة الحياة وركامها فينكر وجود الله أو يشرك به، فإذا وقع في مهلكة أو أصابه مرض وبيل وانقطعت به أسباب الرجاء وأيقن بالهلاك وخاب أمله في كل من كان يرجو منه العون وعجز الجميع عن تنجيته والأخذ بيده، انزاح عن فطرته ما كان قد غطاها من الأتربة والركام وظهرت الفطرة التي فطره الله عليها على

حقيقتها مستغيثة بالواحد الأحد ، وهي آية من آيات الله عظيمة لو كان الناس يفقهون.

* * *

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ ﴾

الظلل: جمع ظُلّة ، وهي الجبل أو السحاب أو كل ما أظلّك ، والمعنى: إذا جاءهم الموج كالجبال وغطاهم وقد أيقنوا بالهلاك دعوا الله عند ذلك مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البَرِّ كان منهم المقتصد.

والمقتصدون أقسام: فمنهم المقتصد في الإخلاص ، أي لم يكن على إخلاصه الذي كان عليه حين دعا ربه فقد قَلّ إخلاصه ، ومنهم المقتصد في الكفر ، أي لم يبق على غلوائه في الكفر والبغي فقد انزجر بعض الانزجار.

* * *

﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

الجحود: إنكار ما تعلم من الحق ، فإن الإنسان إذا علم شيئًا وأنكره كان جاحدًا. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

وهؤلاء الذين أنجاهم الله من مخالب الموت واستخلصهم من بين أسنانه ثم جحدوا بآياته ليسوا إلا غادرين للعهد الذي أخذوه على أنفسهم بالإخلاص لله ، كافرين بنعمه.

فإنه كان عليهم أن يفوا بما عاهدوا الله عليه ولكنهم ختروا ، أي غدروا ونكثوا. وكان عليهم أن يشكروا نعمة الله ولكنهم كفروا وجحدوا. والختر أشد الغدر والخيانة.

جاء في (الكشاف): «يرتفع الموج ويتراكب فيعود مثل الظلل ، والظلة كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرهما. . .

﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ متوسط في الكفر والظلم ، خفض من غلوائه ، وانزجر بعض الانزجار ، أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر ، يعني أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط ، والمقتصد قليل نادر ، وقيل: مؤمن قد ثبت على ما عاهد عليه الله في البحر. والختر: أشد الغدر» (١).

وجاء في (المحرر الوجيز): «الخَتَّار: القبيح الغدر ، وذلك أن نعم الله تعالى على العباد كأنها عهود ومنن يلزم عنها أداء شكرها والعبادة لمسديها ، فمن كفر بذلك وجحد به فكأنه ختر وخان» (٢).

وقد تقول: لقد قال هنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ ، وقال في العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ فما السبب؟.

والجواب: أن سياق كل آية يوضح السبب.

فقد قال في لقمان: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

وقال في العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فأنت ترى أن الخطر في آية لقمان أعظم والهول أكبر ، ذلك أن الموج غشيهم كالظلل. أما في آية العنكبوت فلم يذكر هولاً ولا خطرًا ، فإنه

---

(١) الكشاف ٥/ ٢٣.
(٢) المحرر الوجيز ١١/ ٥١٨.

قال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ ﴾ وهو خوف يعتري راكب البحر.

فلما كان الهول في آية لقمان أكبر وأعظم وكانوا من الموت بمنزلة من ضغمه الأسد ونجا، أو بمنزلة من استخلص من فم التمساح، انزجروا بعض الشيء فاقتصدوا في الذنوب بعد أن كانوا مسرفين فيها، أو اقتصدوا في الطاعة بعد أن كانوا منها بعد المشرقين.

وليس الأمر كذلك في العنكبوت.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سياق الكلام في العنكبوت على المشركين. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ . . . وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ . . . فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١ ـ ٦٧].

فقد قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ يعني المشركين، ثم يستمر الكلام عليهم إلى أن ذكر الآية ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ ثم قال بعدها: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا ﴾.

فسياق الكلام ـ كما ترى ـ إنما هو على المشركين فقال: إنهم إذا ركبوا البحر أخلصوا دينهم لله، فلما نجاهم إلى البر عادوا إلى شركهم فجأة، ولذا جاء بإذا الفجائية للدلالة على ذلك.

أما السياق في لقمان فيختلف، إذ هو ليس في الكلام على المشركين. قال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ

ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٢٨ ـ ٣٣] إلى آخر السورة.

فاختلف السياقان فناسب كل تعبير مكانه الذي ورد فيه.

جاء في (التفسير الكبير): «قال في العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾، ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال ههنا: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ فنقول:

لما ذكر ههنا أمرًا عظيمًا وهو الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار، أو مقتصد في الإخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الإخلاص، وهناك لم يذكر مع ركوب البحر معاينة مثل ذلك الأمر فذكر إشراكهم حيث لم يبق عنده أثر» (١).

لقد ذكر في هذه الآية والتي قبلها أصناف الناس ممن يركبون البحر، فذكر الصَّبَّار الشكور، وذكر المقتصد، وذكر الخَتَّار الكفور.

ثم نادى الناس جميعًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ...﴾.

---

(١) التفسير الكبير ٩/ ١٣٢.

وهناك ملاحظة نود أن نشير إليها في هذه الآية ، وهي أنه قَدَّم الجار والمجرور (له) على (الدِّين) فقال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا هو الشأن في كثير من الآيات نظائرها ، فإنه يقدم الجار والمجرور على الدين ، إلا في آية واحدة قدم الدين وأخر الجار والمجرور وهي قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦] ، فإنه قال: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ ولم يقل: (وأخلصوا لله دينهم) فما السر في هذا الاختلاف؟

من المعلوم أن التقديم والتأخير إنما يكون بحسب ما يقتضيه السياق ، والسياق في سورة النساء في الكلام على المنافقين ، فقدم ما يتعلق بهم وهو (دينهم) أي الدين مضافًا إلى ضميرهم ، وأما الآيات الأخرى فالكلام على الله سبحانه فقدم ما يتعلق به وهو ضميره المجرور.

وإيضاح ذلك أن الكلام على المنافقين في سورة النساء بدأ من قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨] ، إلى الآية (١٤٦) ، فقال لذلك: ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ ، والضمير في (دينهم) يعود على المنافقين ، فقدم ما تعلق بهم.

أما الآيات الأخرى فالكلام فيها على الله سبحانه ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١ ـ ٣].

ويستمر الكلام على الله إلى أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٥].

فقَدَّم الجار والمجرور (له) وفيه الضمير الذي يعود على الله في ثلاثة مواضع لما ذكرنا.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، فقدم الجار والمجرور وذلك لأن الكلام على الله، وذلك ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠] إلى الآية (٧٧) بل يستمر الكلام على الله إلى نهاية السورة وهي الآية الخامسة والثمانون، فناسب تقديم الضمير الذي يعود عليه، والله أعلم.

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٣٣﴾

لقد أمر الله الناس أن يتقوا ربهم فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾، وقال: (ربكم) بإفراد الرب وإضافته إليهم ليدل على أن لهم ربًّا واحدًا، فليس ثمة أرباب ولا هو رب فئة دون فئة أو شعب دون شعب، وإنما هو رب الناس جميعًا.

واختيار لفظ الرب ههنا له دلالته، ذلك أن الرب هو المربي والمالك والسيد والمنعم والقيّم، وهذا يعني أن بيده النفع والضر، فعلى الناس أن يتقوا من بيده ذاك لئلا يمسك نفعه عنهم ويوقع بهم الضر. والناس عادة يحذرون من بيده نفعهم أو يمكن أن يضرهم، بخلاف من لا يملك شيئًا إزاءهم، فذكّرهم بربوبيته لهم لأن ذلك من موجبات الاتقاء.

واختيار لفظ الرب مناسب أيضًا لذكر الوالد والولد بعده، ذلك أن الرب هو المربي والمعلم والمرشد والقيم، وكذلك الوالد مع ولده فإنه القيم عليه والموجه له والمربي، فهو تناسب لطيف.

* * *

﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾

معنى (لا يجزي): لا يقضي، والمعنى لا ينفعه بشيء ولا يدفع عنه شيئًا(١).

لقد قال ههنا: ﴿ لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ ﴾، والتقدير (لا يجزي فيه)، غير أنه لم يذكر الجار والمجرور، فلم يقل: (لا يجزي فيه). بخلاف آيات أخرى فإنه ذكر الجار والمجرور فيها، فقد قال: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ ﴾ [النور: ٣٧ ـ ٣٨].

والسبب ـ والله أعلم ـ أن الحذف يفيد الإطلاق، ذلك أن النفع والدفع في قوله: ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ . . . ﴾ لا يختص بذلك اليوم فقط، فإنه إذا جزى أحد عن أحد فإنه لا يقتصر أثر ذلك على ذلك اليوم، بل سيمتد إلى الأبد لأنه سيكون في الجنة، ولو قال: (فيه) لربما أفهم أن أثر ذلك مقتصر على ذلك اليوم.

ولذا حيث قال: (لا تجزي) لم يقل: (فيه) وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨]، وقوله ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٣].

بخلاف قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فإن ذلك مختص بيوم الحساب، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾.

---

(١) انظر المحرر الوجيز ١١/٥١٩، روح المعاني ٢١/١٠٣.

ويوم الرجوع إلى الله وتوفية الحساب هو يوم القيامة ، فذكر (فيه) للتخصيص.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٧ ـ ٣٨] ، فإن ذلك مختص بيوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار وهو يوم الجزاء فذكر (فيه) لذلك ، والله أعلم.

وقال ههنا: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فذكر الوالد والولد ، وقال في البقرة: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ فذكر عموم النفس وذلك لأكثر من مناسبة. فقد ذكر في السورة الوالدين والوصية بهما ومصاحبتهما بالمعروف، فبين بقوله: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ . . .﴾ أن الإحسان إليهما ومصاحبتهما بالمعروف إنما هو مختص في الدنيا ولا يمتد إلى الآخرة.

ثم من ناحية أخرى أنه لما ذكر الرب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ ذكر أنه لا يجزي الوالد عن ولده ، لأن الوالد مربٌّ لابنه ، فناسب ذكر الرب ذكر الوالد والولد، ولم يرد مثل ذلك في البقرة، فذكر عموم النفس.

وقدم الوالد على الولد فقال: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لأن الأب أكثر شفقة على الولد وأحرص على الدفع عنه فَقدَّمه لذلك.

جاء في (البحر المحيط): «لما كان الوالد أكثر شفقة على الولد من الولد على أبيه بدأ به أولاً» [١].

وجاء في (التحرير والتنوير): «وابتدئ بالوالد لأنه أشد شفقة على ابنه

(١) البحر المحيط ٧/ ١٨٩.

فلا يجد له مخلصًا من سوء إلا فعله»[١].

وقال في الوالد: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ﴾ بالفعل، وقال في الولد: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ﴾ بالاسم، ذلك أن الله وصى الإنسان بوالديه إحسانًا، وهو مكلف بذلك على جهة الدوام والثبوت، بخلاف الوالد فإنه غير مكلف بولده بعد البلوغ، وإنما يدفع عنه أو ينفعه بدافع الشفقة، ففرق بين الجزاءين، فجعل المكلف بالصيغة الاسمية وجعل غير المكلف بالصيغة الفعلية؛ لأن الاسم يدل على الثبوت، وهو أثبت وأدوم من الفعل.

ثم إنه لما مَرَّ في السورة توصية الإنسان بوالديه ومصاحبتهما بالمعروف ولم يذكر مثل ذلك في معاملة الآباء للأبناء ذكر جزاء الوالدين بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

جاء في (التفسير الكبير): «الابن من شأنه أن يكون جازيًا عن والده لما له عليه من الحقوق، والوالد يجزي لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك، فقال في الوالد: (لا يجزي) وقال في الولد: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾»[٢].

وقال أحمد بن المنيّر في (الانتصاف من الكشاف): «إن الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء وقرن شكرهم بوجوب شكره عز وجل، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسؤوه بحسب نهاية إمكانه، قطع ههنا وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه. ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه. فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع لأن الله حضه عليه في الدنيا كان جديرًا

---

(١) التحرير والتنوير ١٢/ ١٩٣.

(٢) التفسير الكبير ٩/ ١٣٣.

بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم ، ولا كذلك العكس»[١] .

وعبر عن الولد بالمولود في قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ، قيل: لأن الولد يقع على الولد وولد الولد ، بخلاف المولود فإنه من ولد منك ، فإن «الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته ، فضلاً أن يشفع لمن فوقه من أجداده»[٢] .

وقيل: إنه عبر بمولود دون (ولد) «لإشعار (مولود) بالمعنى الاشتقاقي دون (ولد) الذي هو اسم بمنزلة الجوامد لقصد التنبيه على أن تلك الصلة الرقيقة لا تخول صاحبها التعرض لنفع أبيه المشرك في الآخرة وفاء له بما تومئُ إليه المولودية من تجشم المشقة من تربيته، فلعله يتجشم الإلحاح في الجزاء عنه في الآخرة حسمًا لطمعه في الجزاء عنه»[٣] .

وقوله: (شيئًا) يحتمل معنيين: المصدرية ، أي لا يجزي الولد عن والده شيئًا من الجزاء ، ويحتمل المفعولية ، أي لا يجزي عنه شيئًا من الأشياء. والمعنيان مرادان ، فهو لا يجزي عنه شيئًا من الجزاء ولا شيئًا من الأشياء.

* * *

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾

يدخل فيه كل وعد وعد به ، ومنه ما وعد به عباده في الآخرة.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ فتنسوا الآخرة وتشتغلوا بالدنيا. وقد أسند الفعل إلى الحياة الدنيا ، والمعنى: لا تغتروا بالحياة الدنيا إهابة بهم

---

(١) الانتصاف من الكشاف بحاشية الكشاف ٥/ ٢٤ .

(٢) انظر الكشاف ٥/ ٢٤ ـ ٢٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ١٩٤ .

إلى أن يأخذوا حذرهم منها ، هذا إضافة إلى ما في ذلك من المجاز ، فكأن الحياة تنصب الشرك لِغَرِّ الناس.

* * *

﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

الغَرور : صيغة مبالغة ، وقد وصف بها الشيطان لكثرة غرّه الناس. وقد اختار (الغرور) على (الشيطان) ليشمل كل ما يغرّ وأول ذلك الشيطان.

وقد أكد الفعلين بالنون الثقيلة لتوكيد النهي ، ولتوكيد أن الدنيا والشيطان مما يغران الناس غرورًا مؤكدًا ، بل هما أكبر مدعاتين إلى الغرور ، والله أعلم.

وقدم الحياة الدنيا على الشيطان لأنها هي مبتغى الإنسان وهي همه ومطلبه ، وهو يكدح من أَجلها. ولأن الشيطان قد يغرهم بها ويجعلها شرك الغرور.

وقال : (الحياة الدنيا) ولم يقل : (الدنيا) لأن الحياة هي المطلب الأول للإنسان ومراده ، والله أعلم.

* * *

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾

ذكرت هذه الآية مفاتح الغيب.

فبدأت بعلم الساعة وهو أمر اختص الله به فلم يطلع عليه أحدًا كما قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٦٣].

وقال : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا

﴿هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ ـ ٤٤].

لقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فقدم الخبر (عنده) على المبتدأ (علم الساعة)، وهذا التقديم يفيد الاختصاص، أي لا يعلمها إلا هو، وقد أكد ذلك بإنَّ.

ثم قال: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ فعطف على جملة الخبر، والمعنى: وأن الله ينزل الغيث. فجعل الخبر جملة فعلية مسندة للاسم، وهذا يفيد الاختصاص أيضًا.

لقد قال: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ فذكر تنزيل الغيث، ولم يقل: (ويعلم نزول الغيث) أو نحو ذلك؛ لأن تنزيل الغيث هو الذي يعني الخلق، إذ به تبدأ حياتهم وبه تتم مصالحهم. فاختار ما هو أدل على النعمة.

وقال: (ينزّل) بالمضارع؛ لأن ذلك يتكرر ويتجدد.

ثم قال: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ وهذا العلم عام يشمل الجنس وغير ذلك من نحو كونه تامًّا أو ناقصًا، وذكيًّا أو بليدًا، وطويلاً أو قصيرًا، وبعلم استعداده الجسمي والنفسي وكل ما يتعلق بأحواله، فلا يختصّ العلم بالجنس.

وهذا يعم جميع ما في الأرحام على مدى الدهر. وجاء بالفعل المضارع للدلالة على تكرار هذا العلم واستمراره.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ أي أذكر أم أنثى، أتام أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال... وخولف بين

﴿عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ وبين هذا، ليدل في الأول على مزيد الاختصاص اعتناء بأمر الساعة ودلالة على شدة خفائها، وفي هذا على استمرار تجدد التعلقات بحسب تجدد المتعلقات مع الاختصاص، ولم يراع هذا الأسلوب فيما قبله، بأن يقال: ويعلم الغيث مثلاً إشارة بإسناد التنزيل إلى الاسم الجليل صريحًا إلى عظم شأنه لما فيه من كثرة المنافع لأجناس الخلائق وشيوع الاستدلال بما يترتب عليه من إحياء الأرض على صحة البعث المشار إليه بالساعة في الكتاب العظيم»[١].

وجاء في (التحرير والتنوير): «وفي كلمة (عنده) إشارة إلى اختصاصه تعالى بذلك العلم؛ لأن العندية شأنها الاستئثار، وتقديم (عنده) وهو ظرف مسند على المسند إليه يفيد التخصيص...

وجملة ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾ عطف على جملة الخبر، والتقدير: وإن الله ينزل الغيث، فيفيد التخصيص بتنزيل الغيث... وفي اختيار الفعل المضارع إفادة إلى أنه يجدد إنزال الغيث المرة بعد المرة عند احتياج الأرض... وإذ قد جاء هذا نسقًا في عداد الحصر كان الإتيان بالمسند فعلاً خبرًا عن مسند إليه مقدم مفيدًا للاختصاص بالقرينة...

وعطف عليه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ أي ينفرد بعلم جميع أطواره... وجيء بالمضارع لإفادة تكرر العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال»[٢].

* * *

ثم قال: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾.

فذكر الغد لينفي القياس على كسب يومه فلا يقول: سأكسب غدًا مثل

---

(١) روح المعاني ٢١/١٠٩.
(٢) التحرير والتنوير ٢١/١٩٦ ـ ١٩٧.

كسب اليوم ، فإن قسمًا من أصحاب الأجور الثابتة قد يظن أن كسبه غدًا ككسبه اليوم وهو لا يعلم ماذا يخبئُ له الغد.

ثم إن الكسب لا يتعلق بأمور المعاش فقط ، وإنما هو عام في عموم ما يكسب ، فقد يكون الكسب في أمور المعاش وما يتعلق به ، وقد يكون في الأعمال من الحسنات والسيئات فذلك كله كسب. وقد سمى الله الحسنات والسيئات كسبًا ، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، وقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٨١].

والكسب قد يكون للقلب وقد يكون لغيره ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] فأثبت الكسب للقلب ، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] فأثبته لغيره.

فمن يعلم ماذا يكسب غدًا؟!

* * *

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾

وهذا مما لا يعلمه أحد إلا الله ، فإنه حتى المريض على فراشه قد ينتقل إلى الحمام فيموت ، وقد ينتقل من مكان إلى آخر داخل البيت فيموت. فلا يعلم بأي أرض يموت ، فكيف بالصحيح الذي لا يدري أيموت في بيته أم في مكان عمله أم في الطريق أم خارج بلده.

ثم لننظر الآية من حيث التقديم والتأخير ، فإنه بدأ بذكر الساعة وهي رأس المغيبات وقد جعلها بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ وهو يوم القيامة فناسب ذكرها ما سبق.

ثم ذكر بعدها تنزيل الغيث ، وهو أسبق المذكورات بعده وجودًا ، فنزول الغيث يسبق في الوجود ما في الأرحام فإنه به يتحصل المشروب والمطعوم لما في الأرحام.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه كثيرًا ما يستدل القرآن بنزول الغيث على الساعة والنشور ، قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق : ٩ ـ ١١] ، فجعله بعد الكلام على الساعة.

ثم ذكر بعد ذلك ما في الأرحام وهو ما قبل الولادة ، فقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ له ارتباط بذكر الساعة قبله وارتباط بما في الأرحام بعده.

ثم ذكر بعده الكسب وهو فيما بعد الولادة ، فإن الكاسب لا يكسب إلا بعد الولادة.

ثم ذكر الموت آخرًا.

فرتبها بحسب الأسبقية.

ثم لننظر من ناحية أخرى في هذه الآية ، فإن فيها إثباتًا لعلم الله ونفيًا لعلم من عداه ، فقد قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ وهو إثبات لعلم الله وقدرته.

ثم قال : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ وهذا نفي لعلم المخلوقات.

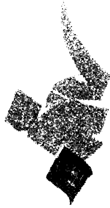
ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ فأثبت له العلم والخبرة ، وهذا يتناسب مع ذكر علمه بمفاتيح الغيب.

واجتماع العلم والخبرة من كمال الاتصاف ، فإن من تمام العلم وكماله أن تكون معه الخبرة.

وقد ذكر الوصفين بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة علمه وخبرته وسعتهما.

* * *

مَرَاجِعُ الكِتَابِ



- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ـ ط٣/ ١٣٧٠ ـ ١٩٥١م ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر .

- أدب الكاتب لابن قتيبة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط٤/ ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣م .

- أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ـ مطابع الشعب ١٩٦٠م .

- أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي ـ المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ .

- البحر المحيط لأبي حيان ـ ط١ سنة ١٣٢٨هـ ، مطبعة السعادة بمصر .

- البرهان في علوم القرآن للزركشي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط١/ ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م ، دار إحياء الكتب العربية .

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ـ الدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م

- تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت ـ تصوير على الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦هـ .

ـ التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ.

ـ التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.

ـ التعبير القرآني للدكتور فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

ـ التفسير القيم لابن القيم ـ جمع محمد أويس الندوي ـ مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ ـ ١٩٧٣م.

ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ـ المطبعة البهية ـ مصر.

ـ تفسير ابن كثير ـ طبع دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ـ الجملة العربية تأليفها وأقسامها للدكتور فاضل صالح السامرائي ـ مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

ـ الخصائص لابن جني ـ تحقيق محمد علي النجار ـ مطبعة دار الكتب المصرية.

ـ درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط١/ ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

ـ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي ـ إدارة الطباعة المنيرية ـ دار إحياء التراث العربي.

ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ـ دار إحياء الكتب العربية.

ـ شرح الشافية لرضي الدين الإستراباذي ـ تحقيق محمد محيي الدين وجماعة ـ مطبعة حجازي بالقاهرة.

- شرح الكافية لرضي الدين الإسترابادي - مطبعة الشركة الصحافية العثمانية سنة ١٣١٠هـ.

- شرح المفصل الزمخشري لموفق الدين ابن يعيش - طبع ونشر إدارة الطباعة المنيرية.

- فتح القدير للشوكاني - ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ.

- فقه اللغة لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي - مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

- في ظلال القرآن لسيد قطب - الطبعة الأولى.

- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي - ط٥/ ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م - شركة فن الطباعة.

- الكتاب لسيبويه - مصور على طبعة بولاق - نشر مكتبة المثنى ببغداد.

- الكشاف عن حقائق التنزيل لجار الله الزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

- لباب النقول في أسباب النزول للواحدي.

- لسان العرب لابن منظور - مصور عن طبعة بولاق.

- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل للدكتور فاضل السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية - ط١ - الدوحة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

- المصباح المنير للفيومي - المكتبة العلمية - بيروت.

- معاني الأبنية في العربية: للدكتور فاضل صالح السامرائي - دار

ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

ـ معاني القرآن للفراء ـ تحقيق الأستاذ محمد علي النجار ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة.

ـ معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي ـ مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل ط١/ ١٩٩١م.

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ـ طهران.

ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير ـ تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ـ مطبعة مصطفى محمد ـ مصر.

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ النكت في تفسير كتاب سيبويه للأعلم الشنتمري ـ ط١/ الكويت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

ـ نيل الأوطار للشوكاني.

ـ همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ـ ط١ سنة ١٣٢٧هـ، مطبعة السعادة بمصر.

* * *



فهرست الكتاب



سُورَةُ لُقْمَانَ

الدّكتور فاضل صالح السّامرائي

على طريق التفسير البياني



الجزء الثالث

سورة هود

دار ابن كثير

عَلَى طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

الجُزْءُ الثَّالِثُ

• الموضوع: تفسير
• العنوان: على طريق التفسير البياني ٤/١١
• تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

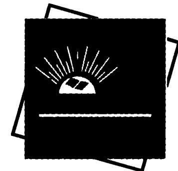
الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6

ISBN 978-614-415-267-6



• الطباعة: مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

/daribnkatheer @daribnkatheer daribnkatheer daribnkatheer

عَلَىٰ طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

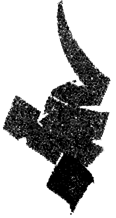
تأليف

الدكتور فاضل صالح السَّامرائي

الجُزْءُ الثَّالِثُ

سُورَةُ هُودٍ

دار ابن كثير



بسم الله الرحمن الرحيم



سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]

١ ـ تبدأ السورة التي قبلها، أعني سورة يونس بقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ فقد وصفت الآية الكتاب بأنه ﴿حَكِيمٍ﴾، وذكر في هذه السورة، أي سورة هود، من أحكمه فقال: إن آياته أحكمت ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

فالذي أحكمها هو الحكيم.

وقال في بداية السورة التي بعدها وهي سورة يوسف: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾.

فإنه لما ذكر في سورة هود أن آياته أُحكمت وفصلت دلّ ذلك على أنه مبين. فإنه لا يكون بعد الإحكام والتفصيل إلا مبيناً. فأي كتاب أُحكم وفصّل كان مبيناً.

فتناسبت بدايات السور المتتابعة تناسبًا بديعًا.

٢ ـ قال في خاتمة السورة التي قبلها وهي سورة يونس: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾. وما يوحى إليه هو الكتاب الذي أحكمت آياته، فناسب قوله: ﴿خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ وصف



الكتاب بأنه أحكمت آياته. فخير الحاكمين هو الذي أحكم آياته.

وناسب قوله: ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ في آية يونس قوله في آية هود: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. فالحكيم قد يكون من معنى القضاء فيكون بمعنى الحاكم.

وقد يكون من الحكمة، فالحكيم على هذا هو خير الحاكمين لأنه حكيم وحاكم. ولا شك أن الحاكم إذا كان ذا حكمة كان خير الحاكمين.

فناسب مفتتح السورة خاتمة السورة التي قبلها.

٣ ـ وناسب قوله تعالى في مفتتح السورة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ قوله في خاتمة السورة: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فإنه ناسب تبليغه لعباد الله في أول السورة بألاّ يعبدوا إلا الله أن يؤمر هو أيضًا بعبادة ربه بقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾ فكلاهما مأمور بالعبادة، المبلِّغ والمبلَّغ.

٤ ـ وناسبت الآية الأولى من السورة، أي قوله: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ قوله في خواتيم السورة: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإنه قَصَّ عليه ذلك في الكتاب الذي أحكمت آياته.

ثم إنه فَصَّل ما جاء فيه، وما جاء فيه هو الحق والموعظة والذكرى. فهذا تفصيل لما جاء فيه.

ثم إن الذي يختار من القصص ما يثبت به الفؤاد إنما هو حكيم خبير.

والذي يأتي بالحق والموعظة والذكرى إنما هو حكيم خبير.

فناسب مفتتح السورة خاتمتها أبدع مناسبة.

ثم ننظر في تأليف التعبير:

فقد ذكر أنه كتاب أحكمت آياته ثم فُصلت، وذكر الذي أحكمه وفصله. فالذي أحكمه هو الحكيم الخبير، والذي فصله هو الحكيم الخبير. وهل هناك من يُحكم أفضل من الحكيم الخبير، وهل هناك من يفصّل أفضل منه؟

ولم تجتمع هاتان الصفتان في الكتاب، أي الإحكام والتفصيل، في غير هذا الموضع، وإنما قد يوصف الكتاب بأنه حكيم كما في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] أو أنه مفصل كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

ثم ذكر أن هذا الإحكام والتفصيل إنما هما من لدن حكيم خبير. فجمع الله لنفسه وصفي الحكمة والخبرة، وكل من الوصفين من أوصاف الكمال.

ثم ما أجلّ هذين الوصفين ههنا! فالحكيم هو ذو الحكمة البالغة وهي إحسان القول والعمل ووضعهما موضعهما الذي ينبغي أن يكونا فيه.

والخبير هو الذي يعلم بواطن الأمور وخبرها. فما أجلّ هذا الكتاب الذي أحكمه وفصله الحكيم الخبير!

وقد يكون لفظ الحكيم من معنى الحكم وهو القضاء، فيكون المعنى أنه أحكم آياته الحاكم الذي بيده الأمر فدل ذلك على علو مكانته. لأن أهمية الكتاب إنما تكون في أمرين:

في الجهة التي أصدرته، فكتاب الموظف الصغير غير كتاب المدير، وهذا الأخير غير كتاب الوالي، وهذا غير كتاب السلطان أو الخليفة. فكلما علت جهة من أصدره علا هو أيضًا على حسب تلك الجهة.

والأمر الآخر الذي يدل على أهمية الكتاب هو محتواه، فإذا كان من

أصدره حكيمًا والحكمة محتواه علت جهته أيضًا.

وهذا الكتاب إنما دل على علوه ورفعته كل مقتضيات العلو والرفعة.

فإنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت، وهو من لدن حاكم وحكيم وخبير. ومحتواه طلب توحيد العبادة لخالق الكون. وقد أرسله هذا الخالق منه إلى من يبلغه عنه. فأية رفعة أعلى من هذه؟

ولما كان هذا شأن الكتاب ومن أنزله ذكر تعظيم هذا الكتاب وعلوه في السورة في أكثر من موضع، وتحدى المعاندين لأن يأتوا بسور من مثله في أكثر من موضع.

فقد قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

وقال: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].

وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

فذكر أن ما ذكره من قصة نوح إنما هي من أنباء الغيب ما كان يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا، أي إن هذا أول علمهم به. وهل أدلّ من ذلك على أن هذا الكتاب إنما هو من علم الله وأنه أنزله إليه؟

وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

وقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ

﴿ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

فهل هناك أجلّ من هذا الكتاب؟!

إن معنى ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ «نظمت نظمًا رصينًا لا يقع فيه نقض ولا خلل» (١).

«وإن ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة» (٢).

ومعنى (فصلت) أنه فُصِّل فيها ما يحتاج إليه العباد(٣).

وجاءت (ثم) لترتيب الإخبار لا لترتيب الوقوع في الزمان.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما معنى (ثم)؟

قلت: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل ثم كريم الفعل» (٤).

* * *

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ٢].

يحتمل أن يكون المعنى على التعليل، أي لئلا تعبدوا إلا الله، ولام التعليل حذفت وهو من الحذف المقيس، ويحتمل أن تكون (أن) مفسرة و(لا) ناهية، والمعنى (لا تعبدوا إلا الله). وقيل: المعنى (أمركم أن لا تعبدوا إلا الله) (٥).

---

(١) الكشاف ٢/ ٨٩، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.
(٢) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٣.
(٣) الكشاف ٢/ ٨٩، وانظر تفسير الرازي ١٨/ ٣١٣.
(٤) الكشاف ٢/ ٩٠، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.
(٥) انظر الكشاف ٢/ ٩٠، البحر المحيط ٥/ ٢٠٠.

وجميع هذه المعاني محتملة وهي مرادة ، فإنه أحكم الآيات وفصلها لئلا يعبدوا إلا الله، وأنه نهاهم أن يعبدوا إلا الله،وأمرهم بألا يعبدوا إلا الله .

وهذا من التوسع في المعنى ، فإنه جمع كل هذه المعاني في تعبير واحد. ولو قال: (لئلا تعبدوا) أو (أمركم بألا تعبدوا إلا الله) لدل على معنى واحد .

فإن كل المعاني المحتملة مرادة وأطلق التعبير ليشملها كلها والله أعلم .

وقال (إنني) بذكر نون الوقاية مع (إنّ) ولم يقل: (إني لكم منه نذير وبشير) بنون (إنّ) وحدها ، وذلك أنه ذكر وصفين للكتاب هما الإحكام والتفصيل ففصل بذكر النونين، وذكر وصفين في المبلغ وهما الإنذار والبشارة ، فقال: (نذير وبشير) فناسب ذلك أيضًا أن يذكر النونين: نون إن[١] ونون الوقاية .

ويدلك على ذلك أنه إذا أفرد الإنذار قال: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بنون (إن) وحدها في أكثر من موضع[٢] . فلما زاد البشارة على الإنذار ذكر نونًا أخرى .

وقدم الإنذار على البشارة ههنا ذلك أن جو السورة إنما هو في إنذارات الرسل لأقوامهم .

في حين قدم البشارة على الإنذار في سورة فصلت فقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٤] ذلك أنه ذكر أنه

---

(١) هما في الحقيقة نونان لا نون واحدة.

(٢) انظر سورة هود: ٢٥، الحجر: ٨٩، الذاريات: ٥٠، ٥١، نوح: ٢ .

تنزيل من الرحمن الرحيم فناسب تقديم البشارة مع اسميه الرحمن الرحيم ولا يناسب تقديم الإنذار.

ولما قَدَّم البشارة في سورة فصلت ذكر بشارة الملائكة للمؤمنين وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

ومن الملاحظ أنه لم يجمع رسول من الرسل على لسانه أنه بشير ونذير إلا سيدنا محمد فقد قال في الأعراف: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال ههنا في سورة هود: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

وقدم الجار والمجرور (لكم) على (منه) لأنهم هم المخاطبون وهم المنذرون وهم المأمورون بالعبادة والكلام عليهم لا على الله.

وقد تقول: ولم يقول أحيانًا (إني لم منه نذير مبين) بذكر (منه) كما في الذاريات ٥٠، ٥١، ويقول في سياق آخر: (إني لكم نذير مبين) من دون ذكر (منه) كما في هود ٢٥، نوح ٢؟

فنقول: إذا تقدم ما يعود عليه الضمير ذكر (منه)، وإن لم يتقدم ما يعود عليه الضمير لم يذكر (منه).

وإيضاح ذلك أنه قال في هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]، فلا يصح أن يقول: (منه) لأنه لا يعود على شيء.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ١ ـ ٢] فلا يصح أن يقول

(منه) لأنه لا يعود على شيء.

بخلاف قوله تعالى في الذاريات: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠] فقد ذكر (منه) لأن الضمير يعود على لفظ الجلالة وهو (الله).

وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥١] فقد عاد الضمير في (منه) على (الله).

وكذلك آية هود هذه وهي قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ فقد قال (منه) والضمير يعود على (الله).

ولو لم يقل (منه) لم يدل على أن الله هو الذي أمره بالإنذار والتبشير.

* * *

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]

قدم الاستغفار على التوبة لأن الاستغفار إنما يكون من الذنوب التي فعلها العبد، وأما التوبة فتالية له، ومن شروطها عدم العودة على ما أسلف من المعصية.

جاء في (البحر المحيط): «أمر بالاستغفار من الذنوب ثم بالتوبة، وهما معنيان متباينان، لأن الاستغفار طلب المغفرة وهي الستر، والمعنى أنه لا يبقى لها تبعة.

والتوبة الانسلاخ من المعاصي والندم على ما سلف منه والعزم على عدم العودة إليها» (١).

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.

وجاء في (تفسير الرازي): «في فائدة هذا الترتيب أن المراد: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه في المستأنف. . .

(الوجه الرابع): الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي.

والتوبة سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله.

ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه. والاستعانة بفضل الله مقدمة على الاستعانة بسعي النفس»[١].

* * *

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

المتاع الحسن هو الأمن النفسي واطمئنان القلب إلى ما قدر الله والرضا به والقناعة بما قسم الله له ورجاؤه في الله وثوابه وإفاضة النعم على المجتمع المؤمن والتكافل فيما بينهم ومعاونة أحدهم الآخر وسلامة النفس وسلامة المجتمع، وهذا كله من المتاع الحسن، بخلاف الكافر فإنه في قلق نفسي والخوف من زوال النعم والجزع عند المصيبة.

وهذا كله من المتاع الحسن وليس كل المتاع حسن.

جاء في (البحر المحيط): «المتاع الحسن: الرضا بالميسور والصبر على المقدور، أو حسن العمل وقطع الأمل، أو النعمة الكافية مع الصحة والعافية. . . أو لزوم القناعة وتوفيق الطاعة. . .

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٥.

وقال [يعني ابن عطية]: ووصف المتاع بالحسن إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه وفي فرحه بالتقرب إليه بمفروضاته والسرور بمواعيده.

والكافر ليس في شيء من هذا» [(١)].

وسمى منافع الدنيا بالمتاع «لأجل التنبيه على حقارتها وقلتها.

ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية» [(٢)].

* * *

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾

«الضمير في (فضله) يحتمل أن يعود على الله تعالى، أي يعطي في الآخرة كل من كان له فضل في علم الخير وزيادة ما تفضل به تعالى وزاده.

ويحتمل أن يعود على (كل) أي جزاء ذلك الفضل الذي عمله في الدنيا لا يبخس منه شيء» [(٣)].

فهذا التعبير يحتمل معنيين:

الأول: إن الضمير في (فضله) يعود على صاحب الفضل، فالله يؤتيه فضله لا يبخس منه شيئًا بل يزيده.

والآخر: أن يعود الضمير على الله، أي إن الله يؤتي فضله من كان ذا فضل.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.
(٢) تفسير الرازي ١٨/ ٣١٦.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٠١.

والمعنيان صحيحان وهما مرادان وهو من التوسع في المعنى.

* * *

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

(تولّوا) أي تتولوا حذفت إحدى التاءين تخفيفًا. ومن الملاحظ في التعبير القرآني أنه حيث ذكر التاءين في هذا الفعل كان الموقف أشد، وإذا كان أخف خفف بحذف إحدى التاءين.

فقد ذكر ههنا أنه إن تولوا خاف عليهم عذاب يوم عظيم، ولم يقل إنه يعذبهم وإنما خاف عليهم العذاب، والخوف عليهم لا يقتضي وقوع المخوف.

في حين قال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]

فقد ذكر أنهم إن تولوا يعذبهم عذابًا أليمًا ولم يقل إنه يخاف عليهم العذاب.

ثم إنه وصف العذاب بأنه أليم، وههنا وصف اليوم ولم يصف العذاب.

وقال على لسان هود لقومه: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] بتاءين. وقال على لسانه أيضًا: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧] بتاء واحدة.

وسياق الآية الأولى أشد، ذلك أنهم قالوا له بعد أن قال لهم ذلك: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٤].

في حين لم يقولوا شيئًا بعد قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]

فقد ذكر أنهم إن تولوا عن طاعة الله والرسول فإن الله لا يحب الكافرين ولم يذكر عذابهم أو عقابهم.

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

والخطاب للمؤمنين، ولم يطلق التولي بل خصه بالتولي عن الرسول. ولما كان المخاطبون مؤمنين فإنه نهاهم عن شيء من التولي من باب التحذير.

وقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤]

فلم يذكر عاقبة التولي إلا أن عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا.

في حين قال: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

* * *

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

اليوم الكبير هو يوم القيامة.

ولم يرد في القرآن (إنني أخاف) بنون الوقاية مع (إن).

* * *

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [هود: ٤]

قَدَّم الخبر الجار والمجرور (إلى الله) على المبتدأ (مرجعكم) للدلالة على القصر والاختصاص، فإن المرجع إليه حصرًا لا إلى غيره[١].

وقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ ولم يقل: (إلى الله مرجعكم جميعًا) كما قال في آيات أخرى[٢]، ذلك أنه حيث ذكر الجميع ذكر جهات متعددة مختلفة ومعتقدات متباينة، بخلاف آية هود هذه فإنه ذكر جهة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]

فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ ذلك أن السياق الذي جرى فيه ذكر هذه الآية في ذكر معتقدات وأحوال اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار، وذلك من الآية الحادية والأربعين إلى الآية السابعة والأربعين.

ثم يستمر الكلام على الملل المختلفة فناسب ذكر الجميع.

ونحو ذلك ما جاء في الآية الخامسة بعد المائة من سورة المائدة فإنها في سياق ذكر أكثر من جهة. فإن السياق في ذكر الكافرين والمؤمنين.

فقد جاء قبل هذه الآية قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣ ـ ١٠٤].

---

(١) انظر تفسير الرازي ١٨/ ٣١٧.

(٢) انظر المائدة: ٤٨، ١٠٥، يونس: ٤.

ثم التفت إلى الذين آمنوا فخاطبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أي إلى الله مرجعكم جميعًا من الكافرين والمؤمنين، فناسب ذكر الجميع.

وكذلك سياق آية يونس فإنه في ذكر أكثر من جهة. فهو في سياق جهتي الكافرين والمؤمنين.

فقد قال قبل هذه الآية: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

فجعلهم قسمين:

القسم الأول: وهم المؤمنون الذين بشرهم ربهم.

والقسم الآخر: هم الكافرون الذين قالوا إن هذا لساحر مبين.

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

فذكر المؤمنين والكافرين.

أما آية هود هذه فإن المخاطبين فيها صنف واحد.

قال تعالى:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ

مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ١ ـ ٤].

فالمخاطبون إما أن يستغفروا ربهم فيمتعهم أو يتولوا فيعذبهم، ولم يجعلهم قسمين: قسمًا مؤمنًا وآخر كافرًا. فهم إما أن يؤمنوا أو يتولوا.

في حين أن كل الذين قال فيهم: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ كانوا أكثر من صنف وأكثر من جهة.

* * *

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥]

قيل: إن بعض المنافقين «كان إذا مَرَّ بالرسول ﷺ ثنى صدره وظهره وطأطأ رأسه وغطى وجهه كيلا يرى الرسول...

وقيل: فعلوا ذلك ليبعد عليهم صوت الرسول ﷺ ولا يدخل أسماعهم القرآن»[١].

ومعنى (ثنى رأسه) طواه.

«وقيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وثنوا صدورهم كالمتستر، وردّوا إليه ظهورهم، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعدًا منهم وكراهية للقائه، وهم يظنون أن ذلك يخفى عليه أو عن الله تعالى، فنزلت الآية»[٢]

وذكر أنه حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون، ليدل على أنه يراهم ويراقبهم ويعلم فعلهم ونواياهم.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٣.

فأفاد التعبير الرؤية والمراقبة والعلم وليس مجرد العلم من دون رؤية ومراقبة.

وأفاد أنه حين يفعلون هذا الفعل يعلم ذلك ويعلم لمَ فعلوه؟

ولئلا يظن أن علمه محصور فيما يفعل من ظواهر الأمور، وأن علمه مقيد في ذلك الحين قال: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ليدل على إطلاق علمه من غير تقييد. فَدَلَّ بذلك على أنه يعلم الإعلان والإسرار على كل حال عند الفعل وقبله وبعده.

فأفاد التعبير:

١ ـ الرؤية والمراقبة.

٢ ـ ذكر أنه حين يستغشون ثيابهم يعلم أي في وقت الفعل لا بعده بعد التأمل والتفكير أو الاستفسار أو مجيء الخبر أو ظهور ما يدل على ذلك فيما بعد.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيه احتمالان:

الأول: أن تكون (ما) مصدرية، أي يعلم إسرارهم وإعلانهم.

والآخر: أن تكون اسمًا موصولاً. والمعنى أنه يعلم الذي يسرونه والذي يعلنونه من الأمور.

والمعنيان مرادان، فإنه يعلم الإسرار والذي يسرّونه، ويعلم الإعلان والذي يعلنونه.

وهذا من التوسع في المعنى، ولو ذكر العائد فقال: (ما يسرونه وما يعلنونه) لدل على شيء واحد وهو الاسم الموصول. فكان ما ذكره أولى لأنه عَمَّ المعنيين.

لقد قال هنا: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وقال في النمل: ﴿وَيَعْلَمُ

﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] فذكر الإخفاء دون الإسرار، ذلك أن الإسرار قد يكون في النفس كما قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧].

وقد تُسِرُّهُ إلى غيرك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]، وقال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [طه: ٦٢].

وغالبًا ما يكون في الفعل والقول. جاء في (المفردات في غريب القرآن): «الإسرار خلاف الإعلان. قال تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ . . . ويستعمل في الأعيان والمعاني . . .

وأسررت إلى فلان حديثًا: أفضيت إليه في خفية. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]. . .

فإن الإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضي إليه بالسر وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره. فإذن قولهم: (أسررت إلى فلان) يقتضي من وجهٍ الإظهار ومن وجهٍ الإخفاء»[١].

وفي (لسان العرب): «أسرّ إليه حديثًا أي أفضى»[٢].

أما الإخفاء فكأنه أخفى من السر. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقد يكون في الأشياء التي تسترها عن الناظر من الحاجات والبضائع، تقول: (أخفيت البضاعة تحت الأرض أو في صندوق) أي سترتها.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (سرر).

(٢) لسان العرب (سرر).

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «خفي الشيء خفية إذا استتر... وأخفيته: أوليته خفاء وذلك إذا سترته. ويقابل به الإبداء والإعلان»[١].

أما قوله تعالى في النمل: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] دون (ما تسرون وما تعلنون) فالسياق يوضح ذلك. قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ذلك أنه ذكر أنه يخرج الخبء. أي ما هو خافٍ أو مُخفى.

والخبء «يقال لكل مدّخر مستور»[٢]. و«خبأ الشيء يخبؤه: ستره... الخبء كل ما غاب»[٣].

فلما ذكر المخبوء ناسب ذكر الإخفاء لأن المخبأ مخفى.

وقال تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: ١].

فقال: ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ بعد قوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم﴾ ولم يقل: (وأنا أعلم بما أسررتم وما أعلنتم) ذلك لأنه أفاد أنه يعلم الدافع الذي أخفوه في أنفسهم من هذا الإسرار. فإنك قد تسرّ شيئًا لشخص وأنت تبتغي غرضًا من ذلك تخفيه في نفسك، فربنا يعلم ذلك الأمر وماذا أخفيت. ولو قال: (وأنا أعلم بما أسررتم) لكان ذلك ينصرف إلى إسرارهم بالمودة دون الغرض الذي يخفيه أصحابه.

وقال سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: ٣٨]

---

(١) المفردات في غريب القرآن (خفي).
(٢) المفردات (خبء).
(٣) لسان العرب (خبأ).

دون (ما نسرّ وما نعلن) ذلك لأنه قال بعدها: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

وقال في موطن آخر: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩] دون (ما يسرون) أو (ما يخفون) وذلك لسبب آخر. فإن (الكِنّ) هو ما تحفظ فيه من الأشياء التي تريد صونها. والكِنّ «ما يحفظ فيه الشيء، يقال: كننت الشيء كَنًّا جعلته في كِنّ وخُصّ. وكننت بما يُستر ببيت أو ثوب وغير ذلك من الأجسام...

وأكننت بما يستر في النفس... وجمع الكِنّ أكنان.

والكنان: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء»[(١)].

وفي (لسان العرب): «الكِنّ والكِنّة والكِنان: وقاء كل شيء وستره... كننت الشيء أي جعلته في كن... والأكنة: الأغطية»[(٢)].

قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١] أي وقاء وسترًا تحتمون بها وتحفظون أنفسكم.

وقال: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] أي في صناديق مقفلة فلا يصل إليها شيء من دعوته.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

وذات الصدور «الأسرار المستكنة فيها أو القلوب التي في الصدور»[(٣)].

---

(١) مفردات الراغب (كنّ).

(٢) لسان العرب (كنن).

(٣) روح المعاني ١١/٢١١.

وقال (عليم) دون (يعلم) للدلالة على ثبوت العلم ودوامه.

جاء في (روح المعاني): «وكان التعبير بالجملة الاسمية للإشارة إلى أنه سبحانه لم يزل عالمًا بذلك. وفيه دليل على أنه تعالى يعلم الأشياء قبل وجودها الخارجي»[(١)].

وقال: (عليم) دون (عالم) أو (علاّم)، لأن كلمة (عالم) خُصت في الاستعمال القرآني بعلم (الغيب) مفردًا، أو (علم الغيب والشهادة)، ولم تستعمل في غير ذلك، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦]، وقوله ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وأما (علاّم) فقد خص استعمالها متعلقة بـ(الغيوب) جمع الغيب نحو ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩ ـ ١١٦] وذلك أنه لما كان هذا الوصف للمبالغة والتكثير جاء بالجمع معه مناسبة للتكثير.

وأما (عليم) فقد استعملها غير مختصة بمعلوم معين، فقد يستعملها مطلقة من كل متعلق نحو ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، أو يجعلها متعلقة بكل شيء فلا تترك شيئًا إلا شملته نحو ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٩]. أو يعلقها بمجموع ولا يعلقها بمفرد نحو ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٥]، أو يعلقها بما ارتبط بالمجموع وذلك نحو ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] فإنه جمع الفاعلين فقال: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فذكر الصدور وليس صدرًا واحدًا[(٢)].

---

(١) روح المعاني ١١/٢١١.
(٢) انظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني).

فاتضح ما قلناه.

* * *

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]

«الدابة اسم لكل حيوان ذي روح ذكرًا كان أو أنثى، عاقلاً أو غيره»[١] ويحتاج إلى رزق[٢].

والمعنى: أن كل دابة في الأرض ضَمِنَ الله لها رزقها وهو يعلم مستقرها، وهو الموضع الذي استقرت فيه قبل مجيئها إلى هذه الدنيا سواء كانت في صُلب أم رحم أم بيضة. وما تستقر فيه حيث تأوي إليه من الأرض. ويعلم مستودعها وهو الموضع الذي تموت فيه وتدفن[٣].

وقد تقول: ولم قال: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فخص الدابة التي في الأرض ولم يذكر ما في السماء مع أنه ذكر دوابّ السماء في آية أخرى. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٢٩]؟

فنقول: إن السياق قبل الآية وبعدها على من في الأرض وعلى سكان الأرض، بل إن السورة عمومًا في الكلام على أهل الأرض والأمم التي عاشت فيها.

فناسب ذكر دواب الأرض.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٢.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٤.
(٣) انظر الكشاف ٢/ ٩١، البحر المحيط ٥/ ٢٠٤.

ثم إنه سبق أن قال في آية قبل هذه الآية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤] فذكر قدرته على كل شيء، فدخل في ذلك دواب السماء وغيرها.

وإضافة إلى ذلك فإنه قال بعد هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [هود: ٧] فذكر أنه هو الذي خلقهما فدخل في ذلك دوابّهما.

وقال في آخر السورة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣] فذكر أن له غيب السماوات والأرض حصرًا لا لغيره، وأنه إليه يرجع الأمر كله حصرًا لا إلى غيره. فلا أمر من الأمور خارج عنه وعن إرادته، فدخل في ذلك دواب الأرض والسماء وإن أمر ذلك راجع إليه. فتضمن ذلك دخول دواب السماء في أمره كدخول دواب الأرض، غير أنه لما كان السياق في سكان الأرض ناسب ذكر ما يسكن في الأرض من الدواب.

ومن الطريف أن نذكر أيضًا أنه ذكر الأرض في السورة أكثر مما ذكر السماء والسماوات.

فقد ذكر الأرض في السورة إحدى عشرة مرة، وذكر السماء والسماوات ست مرات، مما يدل على أن الجو العام إنما هو في الأرض أكثر مما في السماء والله أعلم.

إن هذه الآية متصلة بقوله تعالى في آية سابقة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ذلك لأن الذي يضمن لكل دابة رزقها ويوصله إليها إنما هو على كل شيء قدير.

ومتصلة بقوله تعالى في الآية السابقة لها: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإنه ذكر جانبًا من علمه هناك، وذكر جانبًا آخر هنا. فإن الذي يعلم مكان كل دابة في الأرض ويوصل إليها رزقها ويعلم

مستقرها ومستودعها إنما هو الذي يعلم الإسرار والإعلان وهو العليم بذات الصدور.

ثم ذكر علمه بكل دابة في الأرض ومكانها ومستقرها فاستغرق علمه بكل الأحياء.

ثم ذكر علمه الذي لا يحد، فإنه علم كل ذلك قبل وجود هذه الأشياء وسطر ذلك في كتاب مبين في اللوح المحفوظ.

أما تأليف الآية فإنه جاء فيها بـ (من) الاستغراقية التي تستغرق كل ما يدبّ على الأرض.

ثم قال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فقدم الخبر (على الله) على المبتدأ (رزقها) وذلك للحصر للدلالة على أن رزقها عليه حصرًا لا على غيره. ولو قال: (إلا رزقها على الله) لم يفد أن رزقها عليه حصراً.

فهناك قصران:

الأول: (إلا) في الاستثناء المفرغ.

والآخر: تقديم الخبر.

وقد تقول: لو قال: (كل دابة على الله رزقها) لأفاد العموم أيضًا لأن كلمة (كل) تفيد العموم.

فنقول: إن هذا التعبير الذي ذكرته لا يفيد قصر المبتدأ على جملة الخبر وإنما هو إخبار من غير قصر، وإنما القصر في جملة الخبر (على الله رزقها) وليس في (كل) مع جملة الخبر.

أما التعبير القرآني فإنه أفاد أنه حصر كل دابة على رزق الله وحصر الرزق على الله. وإيضاح ذلك أنك تقول:

(كل رجل كتابًا قرأ)

وتقول: (ما من رجل إلا قرأ كتابًا)

وتقول: (ما من رجل إلا كتابًا قرأ)

فالجملة الأولى خصصت فيها القراءة بالكتاب وأنه لم يقرأ غير الكتاب.

والجملة الثانية خصصت فيها الرجل بقراءة الكتاب، ولم تخص القراءة بالكتاب دون غيره، فقد يكون قرأ أيضًا غير كتاب. فقد ذكرت أن كل رجل قرأ كتابًا ولم يبق رجل لم يقرأ كتابًا. فأخبرت عنهم جميعًا أنهم قرؤوا كتبًا ولم تستثن أحدًا من قراءة الكتاب، غير أنه قد يكون فيهم من قرأ غير كتاب أيضًا، فقد يكون قرأ مجلة أو غير ذلك مما يُقرأ.

فإن قلت: (ما من رجل إلا كتابًا قرأ) كنت خصصت الرجل بالقراءة، وخصصت القراءة بالكتاب.

فالآية تفيد حصر الدابة على رزق الله، وحصر الرزق على الله.

ثم قال: (كلّ) أي كل ذلك عن كل دابة مدون في كتاب قبل خلقها.

وهذا الكتاب يبين كل شيء عنها.

فتضمنت الآية قدرة الله وعلمه على أتم حال.

١ ـ فقد جاء بـ (من) الاستغراقية الدالة على الشمول.

٢ ـ وقال: (دابة) وهو يشمل كل ما يدب من الأحياء وهو أعم شيء في الأحياء.

٣ ـ وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فقصر الرزق على الله دون غيره.

٤ ـ وقال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فقصر الدابة على رزق الله.

٥ ـ وقال: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ولم يقل (الله يرزقها) مثلاً للدلالة على أنه

ضمن لكل دابة رزقها وتكفل بذلك فهو يوصله إليها.

٦ ـ وقال ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، والتقدير: (وما من دابة إلا يعلم الله مستقرها ومستودعها) فلا تندّ عن علمه دابة.

٧ ـ قال: (مستقرها) وهو يشمل كل موضع تستقر فيه أو استقرت فيه وكل أنواع الاستقرار سواء كان ذلك قبل مجيئها على هذه الحياة أو في حال وجودها في هذه الحياة أو بعد ذلك حيث كانت أو حيث تكون، وأين كانت قبل مجيئها سواء كانت في رحم أم بيضة أم صلب، وبعد مجيئها حيث تستقر وتأوي وحيث تكون بعد هلاكها.

ويعلم استقرارها أيضًا، فكلمة (مستقر) تدل على اسم المكان والمصدر واسم الزمان. فهو يعلم الاستقرار وموضع الاستقرار وزمان ذلك ومتى يكون.

٨ ـ وقال: (ومستودعها) بعد الموت وحيث تتفرق أجزاؤها.

فعلم كل أحوالها من السكون والحركة في الحياة وقبل الحياة وبعد الموت.

وقد تقول: إنه ذكر المستقر والمستودع، والمستقر هو موضع الاستقرار، والمستودع حيث تهلك وحيث مدفنها، ولكنه لم يذكر هنا أنه يعلم مكان تحركها.

فنقول: لما قال: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ دَلَّ ذلك على أنه يوصله إليها حيث كانت، متحركة أوساكنة، فشمل علمه كل شيء من أحوالها.

٩ ـ وقال (كلٌّ) وهي أدل لفظة على العموم، أي كل دابة وكل أحوالها وكل شيء عنها وما ضمن لها من رزق إنما هو مدون في كتاب.

١٠ ـ (في كتاب) أي مدون ومسطور قبل الخلق ، وذلك يدل على عظيم علمه وقدرته ، فإنه علم كل شيء قبل وجوده ، وإنَّ كل شيء يكون على ما دوّن. وذلك يدل على عظيم العلم والقدرة.

١١ ـ وقال: (مبين) أي مبين كل شيء عنها بالتفصيل.

* * *

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٧]

بعد أن ذكر قدرته وعلمه بالبشر وعموم الأحياء ذكر قدرته وعلمه بعموم الخلق فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي هو لا غيره.

فهو الذي خلقهن حصرًا فلمَ يعبد سكانهما غيره؟

فارتبط ذلك بقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود: ٢].

وقال: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ فدل على أنه الملك والمالك والحاكم لأن صاحب العرش هو الملك.

ودل على أن ملكه وحكمه قديمان ، فإنه الملك قبل أن يخلق السماوات والأرض فإنه كان عرشه على الماء. فهو رب العرش العظيم ورب ما كان عليه العرش.

وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليختبركم ، ومعنى ذلك أنه خلق السماوات والأرض لحكمة وليس عبثًا ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩] فدل على أنه حكيم.

ثم ذكر عاقبة هذا الابتلاء وأنه لم يتركهم سدى ، بل سيبعثهم بعد

الموت ليجزيهم على ما قدموا فقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فدل على أن لهذا الاختبار جزاء بعد الموت.

١ ـ فارتبط قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ٤].

٢ ـ وارتبط ذلك بقوله: ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فإن الذي خلق السماوات والأرض بهذا النظام المحكم الدقيق إنما هو حكيم خبير.

٣ ـ وارتبط قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ بمعنى الحكم. فصاحب العرش إنما هو الحاكم.

٤ ـ ودل قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بأن حكمه وملكه قديمان وليسا حادثين، فإن ذلك قبل خلق السماوات والأرض.

٥ ـ ودل قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنه إنما فعل ذلك لحكمة، فارتبط ذلك بقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ بمعنى الحكمة والخبرة.

والذي يعلم أحسن الأعمال إنما هو الخبير.

فارتبط قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ باسمه الحكيم من الحكم.

وارتبط قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ باسمه الحكيم من الحكمة، وارتبط باسمه الحكيم من الحكم والقضاء؛ لأن الذي يحكم في الأعمال حسنها وأحسنها إنما هو الحاكم ذو الحكمة.

٦ ـ وارتبط قوله: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٧ ـ وارتبط قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ بقوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] ذلك أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان بمقدوره أن يقول لها: (كن) فتكون، ولكن إنما فعل ذلك لحكمة، فقد خلق السنن الكونية وجعلها تعمل بقدرته وتقديره. وقد يكون إنما فعل ذلك ليعلّم عباده الصبر، فإنه أمر بالصبر بعد بعض الآيات التي ذكرت ذلك، فقد قال في سورة (ق): ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ثم قال بعد ذلك: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

فإذا ذكر أيامًا معدودات لخلق السماوات والأرض وهي ستة أيام وذلك لحكمة أرادها فإنه قد يؤخر العذاب إلى أمة معدودة تقتضيها حكمته.

فدلت هذه الآية على أنه حي عالم قدير حكيم خبير.

واقتضى ذلك ألاّ يعبد غيره. وكيف يعبد غيره وهو الخالق القادر الرازق العالم المحيي المميت الباعث؟

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي إنك تزين هذا الأمر بحديثك وتعدهم بالبعث بعد الموت ليطيعوك فتسحرهم بقولك وتؤثر فيهم تأثير السحر مع أن كلامك باطل بطلان السحر، وقد قال أحدهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

جاء في (الكشاف) في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ «باتّين القول ببطلانه... ومعنى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أن السحر أمر باطل، وأن بطلانه كبطلان السحر، تشبيهًا له به. أو أشاروا بهذا إلى

القرآن ، لأن القرآن هو الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحرًا فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره» [١] .

وجاء في (تفسير الرازي) : «قال القفال : معناه أن هذا القول خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازًا لهم على الانقياد لكم والدخول تحت طاعتكم . . .

الثالث : إن القرآن هو الحاكم بحصول البعث وطعنوا في القرآن بكونه سحرًا لأن الطعن في الأصل يفيد الطعن في الفرع» [٢] .



﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [هود : ٨]

أسند تأخير العذاب إلى نفسه سبحانه فقال : (أخرنا) ، ثم قال : ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ ولم يقل : (ليس منصرفًا عنهم) ليدل على أن العذاب لا ينصرف من نفسه وإنما يصرفه صارف .

كما لم يقل : (ألا يوم يأتيهم لا نصرفه عنهم) فيسند عدم صرف العذاب إلى نفسه وإنما جعله اسم مفعول .

فأسند تأخير العذاب إلى نفسه ، ولم ينسب عدم صرفه إلى نفسه سبحانه إشارة إلى رحمته بخلقه .

والأمّة : هي المدة من الزمان .

ومعنى الآية : أن الذين كفروا إذا تأخر عنهم ما يوعدون من العذاب

---

(١) الكشاف ٢/ ٩١ .

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٢٠ .

استهزؤا وقالوا: ما يحبسه؟ أي: أيّ شيء يمنعه من الوقوع؟ يقولون ذلك استهزاء.

فقال ربنا: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

فقال: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ولم يقل: (ألا يوم نأتي به) فأسند الإتيان إلى العذاب ولم يسنده إتيانه إلى نفسه.

فأنت ترى أنه أسند التأخير إليه سبحانه، وأسند الإتيان إلى العذاب لا إليه سبحانه. ونفى الصرف بصيغة اسم المفعول ولم يقل: (لا نصرفه عنهم). كل ذلك تلطفًا بعباده لعلهم يرجعون إليه.

وقال: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ «على لفظ الماضي مع أنه لم يقع مبالغة في التأكيد والتقرير»[1]. والفعل (حاق) يقال لما يصيب الإنسان من مكروه وسوء.

لقد قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعل استهزاءهم هو الذي حاق بهم وهو الذي أوجب عليهم العذاب. فهذا الذي وقع بهم إنما كان مما كسبت أيديهم وليس ظلمًا واقعًا عليهم، وإنما هو من ظلمهم لأنفسهم.

وقدم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ على قوله: ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، قيل: وهو متعلق بقوله: ﴿مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ وأصل التعبير (ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم).

ومنع قسم من النحاة مثل هذا التقديم، قالوا: لأن خبر (ليس) لا

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢١.

يتقدم عليها لأنها فعل جامد فلا يتقدم معمول الخبر عليها. وخَرَّجوا التعبير على تقدير آخر.

وقد تقول: ولماذا هذا التقديم، ولماذا لم يأت به على الأصل فيقول: (ألا ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم)؟

فنقول: إن التعبير القرآني أولى، ذلك لأنه لو قال: (ألا ليس مصروفًا عنهم يوم يأتيهم) لنفى صرف العذاب يوم يأتيهم، ولكنه قد يصرف في يوم آخر. كما تقول: (لست مسافرًا يوم الجمعة) فإنك قد تسافر في يوم آخر.

وأما التعبير القرآني فقد ذكرت فيه توجيهات غير التقديم:

منها: تقدير فعل يتعلق به الظرف وهو (ألا يلازمهم يوم يأتيهم) أو نحوه.

ومنها: أن يعرب (يوم) مبتدأ مبنيًا على الفتح[١] لأنه أضيف إلى جملة وإن كان فعلها معربًا، وهذا ما جوزه الكوفيون وآخرون ومنعه الجمهور.

فيكون (يوم يأتيهم) مبتدأ ليس متعلقًا بشيء وجملة ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ خبرًا عنه. وعلى ذلك يكون عدم الانصراف مطلقًا غير مقيد بزمن.

ويؤيد هذين التقديرين قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فأطلقه ولم يقيده. فيكون التعبير القرآني أولى، ويكون تقدير الآخرين مرجوحًا، حتى أننا لو قلنا بجواز التقديم في مثل هذا التعبير فإن المعنى يضعف على جعل (يوم) متعلقًا بمصروف كما رأيت. وهو نظير ما يجوز فيه أوجه إعرابية متعددة بعضها أرجح من بعض.

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٥.

وقد تقول: ولماذا لم يقل: (ألا يومُ يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) برفع اليوم على الابتداء ويزول الإشكال ويخرج من الندرة أو الضعف ومن الاختلاف في بناء نحو هذا، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] برفع (يوم)؟

فنقول: لو قال ذلك لكان المعنى ضعيفًا أيضًا، ذلك أنه لو قال: (ألا يومُ يأتيهم ليس مصروفًا عنهم) برفع اليوم كانت جملة (ليس مصروفًا عنهم) خبرًا عن اليوم وسيكون المعنى أن اليوم لا ينصرف، في حين أن المقصود أن العذاب لا ينصرف وليس اليوم، وإنما اليوم مصروف لا محالة.

وهذا الضعف حاصل على تقدير إعرابه مبتدأ مع بنائه على الفتح أيضًا.

والذي نراه راجحًا في هذا هو تقدير عامل للظرف (يوم) وهو (يلازمهم) أو نحوه لسلامته مما ذكرناه، ويؤيده قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعله مطلقًا ولم يقيده بزمن والله أعلم فيكون التعبير القرآني أولى من كل ما يذكر.

ثم إنك ترى أنه لم يذكر نوع العذاب وإنما قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فجعل استهزاءهم وفعلهم هو الذي يحدد العذاب الذي سيلحقهم وهو الذي يحيق بهم، فلا يقول قائل إنه أقل مما يستحقون أو أكثر مما يستحقون. وهو منتهى العدل، والحمد لله رب العالمين.

* * *

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]

ذاق الشيء: خبره وجرّبه. والذوق يكون بالفم وبغير الفم، ويكون في المحمود والمكروه(١). وهو يصلح للقليل والكثير(٢). قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١] وهذا من الذوق القليل.

وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. والعذاب هنا دائم مستمر لا ينقطع، واستعمل له الذوق.

وقال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]، وهو نحو ما مرَّ.

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣٨ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٨، ٣٩]، فذكر أنَّ العذاب مستقر، أي ثابت لا يتحول، ثم قال: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ وهو عذاب متصل وقد عبر عنه بالذوق.

وقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩] فوصفه بأنه عذاب كبير.

وقال: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠] فوصفه بأنه عذاب شديد.

والرحمة نعمة من صحة أو مال أو كل ما تقتضيه راحة البال، ونزعها سلبها. واليؤوس «شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوبة، قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع.

---

(١) انظر لسان العرب (ذوق)، المصباح المنير (ذوق).

(٢) انظر مفردات الراغب (ذوق).

﴿ كَفُورٌ ﴾: عظيم الكفران لما سلف من التقلب في نعمة الله نسّاء له» [(١)].

وهذا تبيين لحال الإنسان وهي أنه إذا سلبت منه نعمة كان يتقلب فيها يئس من عودتها ، وكفر النعمة التي كان ينعم فيها إلا ممن استثناه الله فيما ذكر بعد.

وقد قدم الجار والمجرور (منا) على الرحمة فقال: ﴿ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ، في حين أخره عنها في موضع آخر ، فقد قال في فصلت: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت: ٥٠].

فقدَّم الرحمة وأخَّر الجار والمجرور (منا) ذلك أنه في آية هود ذكر ما يفعله نزع الرحمة لا ما تفعله الرحمة فأخرها ، لأن الكلام ليس عليها بل على نزعها.

وأما في آية فصلت فإن الكلام على ما تفعله الرحمة بعد الضراء. فآية هود في نزع الرحمة فأخرها ، وأما آية فصلت فالكلام على الرحمة فقدمها.

لقد ختم آية هود هذه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ فختمها باليأس والكفران.

وفي آية أخرى ختمها باليأس والقنوط. فقد قال في فصلت: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩]

فختمها بقوله: ﴿ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ والقنوط شدة اليأس من الخير ، ذلك ـ والله أعلم ـ أنه في هود ذكر أمرين: إذاقة الرحمة ونزعها ، وبين أن

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٢.

الإنسان إذا سلبت منه النعمة التي كان يتقلب فيها أدركه اليأس ولم يشكر ما سلف من نعمة الله عليه فهو يؤوس كفور ، مع أن إذاقة الرحمة تقتضي الشكر وأن نزعها يقتضي الصبر والدعاء والرجاء غير أنه يئس وكفر .

وأما في فصلت فلم يذكر نعمة أو خيرًا أصابه قبل أن يمسّه الشر وإنما ذكر مَسَّ الشر فحسب .

وأما قبل ذلك فلم يذكر أنه مسه خير أو أصابته حسنة ، وإنما قال : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ وهذا لا يدل على حال بعينها من نعمة أو سوء .

ولما ذكر مَسَّ الشر له فحسب جاء بصفتين من صفات اليأس ، فقال : (يؤوس قنوط) .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

* * *

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْـدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود : ١٠ ـ ١١]

النعماء : قيل : هي «إنعام يظهر أثره على صاحبه .

والضراء : مضرة يظهر أثرها على صاحبها . . .

وهذا هو الفرق بين النعمة والنعماء ، والمضرة والضراء» (١) .

وقال : ﴿ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ﴾ بتذكير الفعل (ذهب) ، ولم يقل : (ذهبت السيئات عني) ، وهذا جارٍ في جميع القرآن إذا جعل السيئات فاعلاً فإنه يذكّر الفعل . قال تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ [الزمر : ٤٨] ، وقال : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر : ٥١] ، وقال :

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢٢ .

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]، وقال: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣].

وذلك مراعاة للمعنى والله أعلم، إذ المقصود أنه يصيبهم جزاء السيئات وما توجبه السيئات من العذاب ونحو ذلك، فذكّر لأنه أراد معنى المذكر، ويوضح ذلك قوله: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥٠ ـ ٥١].

بتذكير الفعلين (أصابهم) و(سيصيبهم) ذلك أنه ليس المقصود أنه أصابتهم سيئات أعمالهم، وإنما المقصود أنه أصابهم عذاب هذه السيئات أو جزاء هذه السيئات، ولذلك قال: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إشارة إلى العذاب الذي حل بهم. ثم هَدَّد من كان في زمنه من الظالمين قائلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١] أي سيصيبهم جزاء سيئاتهم وما يستحقون من العذاب ولذا قال: ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

فذكّر الفعل إشارة إلى المعنى.

وأراد هنا بقوله: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ ذهاب البؤس وذهاب سيّء العيش وزوال ما ساءه منه فذكّر الفعل مراعاة للمعنى، وليس المقصود ذهاب السيئات من الأعمال التي يعملها الفرد، والله أعلم.

والفرِح الأشر البطر «وهذا الفرح مطلق فلذلك ذم المتصف به ولم يأت في القرآن للمدح إلا مقيدًا بما فيه خير كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]»[1].

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٦.

والفخور: هو الذي يفخر على الناس بما عنده ، وهنا يفخر على الناس «بما أذاقه الله من نعمائه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر» [١] .

ولم تأت كلمة (فخور) في القرآن إلا في ذم من اتصف بها ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨] ، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣].

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على ما أصابهم من الضراء.

﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ في كل أحوالهم سواء في حال الضراء أو النعماء.

ومن العمل الصالح شكرهم لربهم على ما أنعم عليهم فأولئك لهم مغفرة ؛ لأن المؤمن إذا أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له ، والمصائب كفارة للذنوب. فذكر المغفرة لأن ما أصابهم من الضراء مدعاة للمغفرة إذا صبر صاحبها.

﴿ لَهُم أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وذلك لأن هذا الأجر أصابهم في حالتي الضراء والنعماء ، ففي الضراء نالهم أجر الصابرين المحتسبين ، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] ، وفي حال النعماء نالهم أجر الشاكرين إضافة على أجر العمل الصالح الذي ذكره في قوله: ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فكان الأجر كبيرًا.

جاء في (البحر المحيط): «واستثنى تعالى الصابرين يعني على الضراء وعاملي الصالحات ، ومنها الشكر على النعماء ، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم يقتضي زوال العقاب والخلاص منه ، وأجر كبير هو الجنة ، فيقتضي الفوز بالثواب» [٢] .

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٢.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٦.

وجاء في (روح المعاني): «وأيًّا ما كان فالمراد صبروا على ما أصابهم من الضراء سابقًا أو لاحقًا إيمانًا بالله تعالى واستسلامًا لقضائه. . .

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكرًا على نعمه سبحانه السابقة واللاحقة. قال المدقق في الكشف: لما تضمن اليأس عدم الصبر، والكفران عدم الشكر، كان المستثنى من ذلك ضده ممن اتصف بالصبر والشكر. فلما قيل: (إلا الذين). . . إلخ كان بمنزلة إلا الذين صبروا وشكروا» (١).

وذكر أحوال الإنسان في حالي إذاقة الرحمة ونزعها، وحالي إذاقة النعماء ومس الضراء، بياناً لما تقدم من قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، فإن هذا من البلاء في السراء والضراء.

جاء في (روح المعاني): «وقال بعض المحققين: إن وجه التعلق من حيث إن إذاقة النعماء ومساس الضراء فصل من باب الابتلاء واقع موقع التفصيل من الإجمال في قوله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾» (٢).

ومن الملاحظ أنه أسند مظاهر الرحمة والخير إلى نفسه سبحانه دون مقابلها فقد قال: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ فأسند تأخير العذاب إلى نفسه، في حين قال: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ فأسند إتيانه إلى العذاب لا إليه سبحانه، فلم يقل: (ألا يوم نأتي به)، كما سبق أن ذكرنا.

وقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ فأسند إذاقة الرحمة إلى نفسه.

وقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ﴾ فأسند إذاقة النعماء إلى نفسه.

---

(١) روح المعاني ١٢/١٦.
(٢) روح المعاني ١٢/١٦.

في حين قال: ﴿ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ ﴾ فأسند المَسَّ إلى الضراء ولم يقل: (بعدما مسسناه بالضر) ونحوه ، كل ذلك من باب إسناد الخير إلى نفسه سبحانه دون السوء والشر.

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ ﴾.

فنقول: إن هذا ما يقتضيه قوله: ﴿ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ فإن البلاء يكون في السراء والضراء، والخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

ومع ذلك فقد اختار أهون الأمور، فلم يقل: (مسسناه بالشر) أو (مسسناه بالسوء) ونحو ذلك، وإنما قال: ﴿ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ ﴾ أي أعاده إلى حالته قبل إذاقته الرحمة. وهو كما يعطي أحد أحدًا شيئًا على سبيل الاختبار ثم يسترجعه منه ليرى كيف يفعل.

فهو لم يقل إنه أصابه بالضر أو بالسوء أو بالشر، وإنما قال أذاقه شيئًا ثم أعاده ليختبره. وهو أخف من إصابته بالضراء أو بالشر أو نحوه.

جاء في (روح المعاني): «وفي إسناد الإذاقة إليه تعالى دون المس إشعار بأن إذاقة النعمة مقصودة بالذات دون مَسِّ الضُّرِّ بل هو مقصود بالعرض... وفي التعبير عن ملابسة الرحمة والنعماء بالذوق المؤذن على ما قيل بلذتهما وكونهما مما يرغب فيه، وعن ملابسة الضراء بالمس المشعر بكونها في أدنى ما يطلق عليه اسم الملاقاة من مراتبها من اللطف ما لا يخفى ولعله يقوي عظم شأن الرحمة» (١).

ثم لننظر نسق الآيات وترتيبها:

فقد بدأ بعموم المكلفين وطلب منهم أن لا يعبدوا إلا الله.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٥.

ثم خص الكافرين بالذكر وذلك قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ ثم ذكر ما هو أعم وهو كل دابة في الأرض فقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾.

ثم عاد إلى ذكر عموم المكلفين فقال: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾

ثم خص الكافرين فقال: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

ثم ذكر ما هو أعم وهو الإنسان فقال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾.

فكان النسق على النحو الآتي:

عموم المكلفين ـ الكافرين ـ ما هو أعم وهو كل دابة.

عموم المكلفين ـ الكافرين ـ ما هو أعم.

ثم إنه بدأ وانتهى بالكتاب، فقد بدأ بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾.

وانتهى بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ... أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [هود: ١٢ ـ ١٣].

فكان النسق في ترتيب الآيات واحدًا.

* * *

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

ومناسبة الآية لما قبلها ظاهرة، ذلك أنه لما ذكر الذين صبروا في الآية السابقة أشار إلى ما يقتضي الصبر في هذه الآية، ذلك أنه في مثل هذا

الضيق ينبغي الصبر، الصبر على ما يجد في نفسه، والصبر على ما يقولون.

قيل: و(لعل) في نحو هذا تفيد الزجر «والعرب تقول للرجل إذا أرادوا إبعاده عن أمر: لعلك تقدر أن تفعل كذا، مع أنه لا شك فيه. ويقول لولده لو أمره: (لعلك تقصر فيما أمرتك به) ويريد توكيد الأمر، فمعناه: لا تترك» (١).

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ولم يقل: (تارك ما يوحى إليك) لِيُحَذِّره من ترك أي شيء من أمور الدين بسبب أقوال الكافرين واستهزائهم، بل إن عليه أن يبلغه كله أيًّا كان موقف الكافرين منه، ومهما سبب ذلك من ضيق في صدره «وكانوا لا يعتدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره مما جاء به من البينات، فكان يضيق صدر رسول الله ﷺ أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فحرك الله منه وهيجه لأداء الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزائهم واقتراحهم بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي لعلك تترك أن تلقيه إليهم وتبلغه إياهم مخافة ردهم وتهاونهم به وضائق به صدرك بأن تتلوه عليهم، (أن يقولوا) مخافة أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنز، هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة، ولم ينزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه» (٢).

وقال: (ضائق) ولم يقل: (ضيق) «ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرًا. ومثله قولك: زَيد سيد وجواد، تريد السيادة والجود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد» (٣).

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٣٢٤.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٢.

وذلك لأن اسم الفاعل يدل عل الحدوث ، بخلاف الصفة المشهبة فإنها تدل على الثبوت. فـ (حسن) يدل على الثبوت و(حاسن) يدل على الحدوث ، تقول: (هو حاسن غدًا) أي سيحسن ، ونحوه: كريم وكارم.

جاء في (البحر المحيط): «وليس هذا الحكم مختصًّا بهذه الألفاظ ، بل كل ما يبنى من الثلاثي للثبوت والاستقرار على غير وزن (فاعل) رد إليه إذا أريد معنى الحدوث ، فنقول: حاسن من حسن ، وثاقل من ثقل ، وفارح من فرح ، وسامن من سمن»(١).

وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ﴾ بتنوين (تارك) ولم يقلها بالإضافة ، للدلالة على تحذيره من فعل ذلك في المستقبل ، أي لعلك ستترك ؛ لأن إعمال اسم الفاعل شرطه أن يدل على الحال أو الاستقبال. ولو قالها بالإضافة لاحتمل المضيّ أيضًا فيكون الزجر عما فعل ، أي لعلك تركت بعض ما يوحى إليك ، فهو يحذره من أن يكون قد ترك بعض ما يوحى إليه. وهذا لا يصح ، إذ هو ﷺ أحرص الخلق على تبليغ الوحي.

وقَدَّم ﴿تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ على ﴿ضَائِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ مع أنه قد يكون ضِيْقُ الصدر سببًا للترك ، ذلك أنه قدم ما هو الأهم وهو ما يوحى إليه ، فإن ترك بعض ما يوحى إليه هو أهم وأخطر من ضيق الصدر. وقد يضيق صدر المرء من شيء غير أنه لا يترك الأهم. وقد ذكر ربنا عن رسوله في موطن آخر أنه يضيق صدره بما يقولون فأرشده إلى التسبيح والصلاة فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

وقال: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ فقدَّم (به) على الصدر ، ولم يقل:

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٧.

(وضائق صدرك به) ذلك لأن المجرور وهو الهاء في (به) يعود على بعض ما يوحى إليه وهو أهم من الفاعل ، فقدم ما هو أهم. ألا ترى أنه قال في آية أخرى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ فقدم (الصدر) على (ما يقولون) لأن صدره ﷺ أهم مما يقوله المستهزئون؟

وقال: ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ ولم يقل: (أن قالوا) أو (لقولهم) ذلك أن قوله: ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ يفيد الدوام والاستمرار ، أي لأنهم يقولون ذلك. أما (أن قالوا) فإنه يفيد أنهم قالوه في الماضي وانتهى الأمر ، وقد يكونون قالوه مرة واحدة.

وكذلك لو قال: (لقولهم) فإنه يحتمل المضي وأنهم قالوه مرة واحدة. في حين أنهم يقولون ذلك باستمرار مما يدعو إلى ضيق صدره ﷺ بذاك.

﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ ﴾ «أي مال كثير ، وعبَّروا بالإنزال دون الإعطاء لأن مرادهم التعجيز بكون ذلك على خلاف العادة ، لأن الكنوز إنما تكون في الأرض ولا تنزل من السماء. ويحتمل أنهم أرادوا بالإنزال الإعطاء من دون سبب عادي» (١).

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ «أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك ردّوا أو تهاونوا أو اقترحوا.

﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه وكِلْ أمرك إليه» (٢).

* * *

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم

---

(١) روح المعاني ١٢/١٩.

(٢) البحر المحيط ٥/٢٠٦.

مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٣ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤]

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ، ذلك أنهم إنما يقولون: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك أو نحو ذلك لعدم تصديقهم برسالته ﷺ ، وأنهم يرون أن ما يأتي به إنما هو افتراء ، فذكر ذلك ههنا وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله وأن يفتروا هم كما افترى وأن يدعوا كل من يستطيعون ليفعلوا ذلك.

وقد ذكرنا في كتابنا (أسئلة بيانية في القرآن الكريم) هذه الآية وما كان نحوها من آيات التحدي وبينا ما فيها من أمور بيانية فلا نعيد القول فيها.

جاء في (البحر المحيط): «ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنها لا تتعلق أطماعهم بأن يترك بعض ما يوحى إليه إلا لدعواهم أنه ليس من عند الله وأنه هو الذي افتراه» (١).

وجاء في (الكشاف): «أم منقطعة ، والضمير في (افتراه) لما يوحى إليك. تحداهم أولاً بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، كما يقول المخاير في الخط لصاحبه: اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب ، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال: قد اقتصرت منك على سطر واحد. . .

فإن قلت: ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله: ﴿لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ بعد قوله: (قل)؟

قلت: معناه فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن رسول الله ﷺ والمؤمنين كانوا يتحدونهم» (٢).

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٠٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٢.

ومن الملاحظ في رسم الآية أنه أخفى حرف الشرط في هذه الآية ، أدغم نون (إن) في (اللام) ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [هود: ١٤] ، وأظهرها في آية أخرى وذلك في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

وهذا الأمر يتعلق برسم المصحف ، ورسم المصحف لا يقاس عليه إلا أنه قد يمكن تعليله من الناحية البيانية أحيانًا.

فقد قال في (القصص): ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤٨ ـ ٥٠].

ومن الظاهر أن التكذيب في آية هود إنما هو لمحمد خاصة ، فإنه قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ وقال قبلها: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾.

وقال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ يعني القرآن.

وأما في القصص فإن التكذيب لمحمد وموسى ، فقد قال على لسانهم: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ أي محمد وموسى.

وقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ يعني التوراة والقرآن.

فلما كان الكلام في هود على واحد وحّد الرسم.

ولما كان الكلام في القصص على اثنين جعل الرسم اثنين وفصل

بينهما ، ذلك أن الرسولين إنما هما في زمانين منفصلين وأن الكتابين منفصلان والله أعلم .

﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ أي القرآن .

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ﴾أي واعلموا ذلك. والعلم بهذا إنما هو من مقتضيات ما مَرَّ من التحدي. فإنه بعد أن تبين عجز الجميع من دون الله عن الاستجابة لما طلب علم أن ما عداه ليس بإله ولا ندّ لله ، لأنه لو كان إلهًا لم يعجز عن الإتيان بمثله .

وقال: ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ فأمرهم بالعلم (فاعلموا) ليكون إيمانهم عن علم وبصيرة وليس تصديقًا بلا حجة وتسليمًا بلا دليل ، كما قال تعالى في عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣] .

وقَدَّم قوله: ﴿ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: ﴿ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ لأن السياق إنما هو في الكلام على القرآن وليس على التوحيد. ثم إن القرآن يتضمن التوحيد ويأمر به ، فالإيمان به إيمان بالتوحيد قطعًا .

وبعد أن ذكر ما ذكر من مقتضيات الإيمان والعلم به حفزهم إلى الإسلام ، وهو الانقياد لأمر الله والاستجابة له ، ولم يكتف بمجرد الإيمان والعلم فقال: ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ لأنه لو صدق المرء بقلبه وعلم الحق ولم يكن منقادًا لأمر الله مستجيبًا له لم ينفعه ذلك ولم ينجه من النار ، كما قال تعالى في عادٍ وثمود: ﴿ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] فلم ينفعهم استبصارهم .

وكما قال في قوم الرسول: ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] فلم ينفعهم عدم تكذيبهم ، بل سيكونون من الذين أضلهم الله على علم .

وقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي أفلا يدعوكم ذلك إلى الإسلام؟ أولا يدعوكم ذلك إلى الاستجابة بعد ما تبين صدق الرسول وما جاء به؟

وهو أبلغ مما لو قيل (أسلموا) فيأمر بالإسلام، ذلك أنه ينبغي أن يستجيبوا هم من أنفسهم من بعد توفر دواعي الإسلام وإن لم يطلب منهم ذلك أحد.

إن قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إنما هو السبيل للدخول في الإسلام.

فالذي يريد الدخول في الإسلام عليه أن ينطق بالشهادتين:

(لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وهذا الجزء من الآية تضمنهما، فقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ إقرار بنبوة محمد.

وقوله: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إقرار بكلمة التوحيد.

ولما كانت هاتان الشهادتان هما المدخل إلى دين الله وهو الإسلام قال بعد ذلك: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

* * *

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ـ١٦]

هاتان الآيتان مناسبتان للجو الذي وردتا فيه.

فقد ذكر في أول السورة سبيل المتاع الحسن في الدنيا وهو الاستغفار والتوبة فقال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

والمتاع الحسن مما يريده الإنسان في هذه الدار مؤمنهم وكافرهم. فقال فيمن يريد الحياة الدنيا وزينتها أنه يوفي إليهم أعمالهم فيها. ولم يقل إنه يمتعهم متاعًا حسنًا.

في حين قال في الصنف المستغفر التائب إنه يمتعهم متاعًا حسنًا. وقال فيمن يريد الحياة الدنيا: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

وقال في الصنف التائب: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

ولا شك أن الصنف التائب متاعه أفضل ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها.

ثم ذكر بعد ذلك أثر الرحمة والنعماء في الإنسان فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩ ـ ١٠].

وذكر الذين يقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: ١٢] والكنز من وسائل متاع الحياة الدنيا وزينتها.

فناسب ما مَرَّ ذكره من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها.

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر شيئًا من أحوال الكفار المناقضين في القرآن ذكر شيئًا من أحوالهم الدنيوية وما يؤولون إليه في الآخرة. وظاهر من العموم في كل من يريد زينة الحياة الدنيا والجزاء مقرون بمشيئته تعالى، كما بين ذلك في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]» (١).

لقد قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فأدخل (كان) على الفعل المضارع (يريد)، وهذا التعبير يفيد الاستمرار، أي يريدها على وجه

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٠٩.

الدوام. جاء في (روح المعاني): «وإدخال (كان) للدلالة على الاستمرار، أي من يريد ذلك بحيث لا يكاد يريد الآخرة أصلاً» (١).

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾.

«نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق. وقيل: هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال فلان قارئ، فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرَّحم وتصدق: فعلت حتى يقال، فقيل، ولمن قتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء فقد قيل.

وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلاً أو وصلوا رحمًا عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن.

وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله ﷺ فأسهم لهم في الغنائم» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «(نُوفِّ) متضمن معنى (نوصل) ولذا عُدِّي بإلى، وإلا فهو مما يتعدى بنفسه. وقيل: إنه مجاز عن ذلك» (٣).

وقد عدّى (نوفّ) هنا بـ (إلى) وعداه إلى مفعولين في آيات أخرى، فقد قال في آية أخرى من سورة هود: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود: ١١١]. فعداه إلى ضميرهم وإلى الأعمال.

وقال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٧].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٢٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٣.

(٣) روح المعاني ١٢/ ٢٣.

وغير ذلك من الآيات[١].

والذي يظهر من الفرق بين الاستعمالين في القرآن الكريم:

أن تعدية هذا الفعل بـ (إلى) إنما خصها بالأموال، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال في آية هود هذه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ والحياة الدنيا وزينتها إنما تتأتى عن طريق الأموال.

ثم إن تعدية هذا الفعل بـ (إلى) أفادت معنى (نوصل إلى) كما مرَّ، فمعنى (نوفّ إليه) نوصل إليه. والإيصال إلى شخص ما لا يقتضي المباشرة بالإيصال أو المواجهة، فقد توصل شيئًا إلى أحد عن طريق شخص آخر أو وسيلة ما. ويتضح من الاستعمال القرآني أن ما جاء مُعَدّى بنفسه إنما هو في الآخرة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

وقوله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأحقاف: ١٩]

وقوله: ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ [النحل: ١١١].

وغير ذلك.

ومعنى ذلك أن الأمر يدل على المواجهة والتوفية المباشرة، ذلك أنه في يوم القيامة يعرض الجميع على ربهم فيواجههم بأعمالهم، كما قال:

---

(١) انظر على سبيل المثال: النور ٢٥، فاطر ٣٠، النساء ١٧٣ وغيرها.

﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ [الكهف: ٤٧ ـ ٤٨].

وأما ما عدّاه بـ (إلى) فهو لا يخص الآخرة، فقد يكون الإيصال في الدنيا، فإن آية هود إنما هي خاصة بالدنيا كما هو واضح، فقد قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ . .

وأما آية الإنفاق فإنها لا تختص بالآخرة، بل قد يكون أثره في الدنيا، فإن قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقوله: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، قد يكون ذلك في الدنيا والآخرة، أي يوفيه ما أنفق في الدنيا، ويؤتيه أجره في الآخرة. ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩] وقوله ﷺ: (ما نقص مال من صدقة).

وعلى هذا فالفرق بين (وفّاه) و(وفّى إليه) في الاستعمال القرآني:

١ ـ إن (وفّى إليه) خصّه القرآن بالأموال، وأما (وفّاه) فهو عام.

٢ ـ إن (وفّى إليه) قد يكون ذلك في الدنيا، وأما (وفّاه) فاستعمله لما بعد الدنيا.

٣ ـ لما كان (وفّى إليه) تضمن معنى الإيصال فإن ذلك لا يقتضي المواجهة والمباشرة بالتوفية، بل قد تكون عن طريق آخر.

ومن المعلوم أن ربنا إذا أراد أن يوفي في الدنيا من أنفق هيأ له أسباب التوفية.

وأما (وفّاه) فلما كان في الآخرة اقتضى ذلك مواجهة الرب الذي يوفي الأعمال.

* * *

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾

﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أي في الدنيا.

وقوله: ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن قوله: (فيها) أي في الأعمال، فالضمير في (فيها) يعود على الأعمال، والمعنى أننا نوفي إليهم أعمالهم في الدنيا ولا يبخسون في أعمالهم.

والآخر: أن (فيها) يعود على الدنيا، أي وهم في الدنيا لا يبخسون.

وهذا هو الأظهر.

فتكون التوفية في الدنيا، وكذلك عدم البخس.

قد تقول: أما كان يمكن الاكتفاء بضمير واحد فلا يكرر (فيها) فيقول مثلاً: (نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون)؟

فنقول: لو قال ذلك لكان عدم البخس في الدنيا والآخرة، ولكان المعنى أنه يوفي إليهم أعمالهم في الدنيا وأنهم لا يبخسون مطلقًا، فيكون عدم البخس في الدنيا والآخرة. في حين أنه أراد أن كل ذلك في الدنيا، فإنه يوفي إليهم أعمالهم فيها، وأنهم فيها لا يبخسون. وأما الآخرة فإنهم حبطت أعمالهم فيها وأنه ليس لهم فيها إلا النار، كما قال تعالى في الآية بعدها.

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ «أي لا ينقصون، والظاهر أن المجرور للحياة الدنيا.

وقيل: الأظهر أن يكون للأعمال لئلا يكون تكرارًا بلا فائدة. وردّ بأن فائدته إفادته من أول الأمر أن عدم البخس ليس إلا في الدنيا، فلو لم يذكر توهم أنه مطلق» [1].

* * *

(١) روح المعاني ١٢/ ٢٤.

﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

١ ـ لقد ذكر الصنع ثم ذكر العمل فقال: ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ ثم قال: ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ والصنع هو إجادة العمل ، وأما العمل فهو عام يشمل الصنع وغيره ، وقد ذكر بطلانه كله: ما بذلوا فيه جهدهم لإحسانه ، وما عملوه على وجه العموم.

وذكر مع الصنعة الحبوط ، ومع العمل البطلان ؛ ذلك أن الحبوط أخص من البطلان ، فالحبوط خاص بالأعمال ، وأما البطلان فهو عام في الأعمال وغيرها كما سنبين.

والصنع أخص من العمل لأنه ما أجيد منه. فذكر الخاص مع الخاص ، والعام مع العام.

٢ ـ قوله: ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ يحتمل أن يكون الجار والمجرور (فيها) متعلقًا بـ (حبط) فيكون المعنى: (وحبط فيها ما صنعوا) أي في الآخرة ، فيعود الضمير على الآخرة فيكون الحبوط في الآخرة.

كما يحتمل أن يكون الجار والمجرور متعلقًا بـ (صنعوا) فيكون المعنى: (وحبط ما صنعوا في الدنيا) فيعود الضمير على الدنيا.

والمعنيان مرادان ، فإنه حبط في الآخرة ما صنعوا في الدنيا.

وهذا من التوسع في المعنىٰ. ولو قدَّم الجار والمجرور فقال: (وحبط فيها ما صنعوا) لكان احتمالاً واحدًا.

فالتعبير القرآني أولى لأنه يشمل معنيين.

جاء في (البحر المحيط): «والضمير في قوله: ﴿ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ﴾ الظاهر أنه عائد على الآخرة والجار والمجرور متعلق بحبط. والمعنى: وظهور حبوط ما صنعوا في الآخرة.

ويجوز أن يتعلق بقوله: (صنعوا) فيكون عائدًا على الحياة الدنيا كما عاد عليها في (فيها) قبل»[١].

٣ ـ قوله: (ما صنعوا) يحتمل أن تكون فيه (ما) مصدرية فيكون المعنى: وحبط صنعهم.

كما يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولاً فيكون المعنى: وحبط الذي صنعوه من الأعمال.

والمعنيان مرادان، فقد حبط الصنع والعمل، وحبط ما صنعوه، وهذا من التوسع في المعنى أيضًا.

ولو قال: (ما صنعوه) لكان اسمًا موصولاً فقط. فما ذكره أولى لأنه أعم وأشمل.

جاء في (البحر المحيط): «و(ما) في (ما صنعوا) بمعنى (الذي) أو مصدرية»[٢].

ثم لننظر في تأليف هذه العبارة، أعني قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من جهة أخرى.

فإن القسم الأول منها وهو قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ مبني على الخصوص.

والقسم الآخر: وهو قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مبني على العموم.

فقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أعمُّ من قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ من أكثر من جهة:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢١٠.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢١٠، وانظر الكشاف ٢/ ٩٣.

١ ـ فقد قال في العبارة الأولى: (وحبط).

وقال في العبارة الثانية: (وباطل).

والباطل أعم من الحبوط، فإن الحبوط خاص بالأعمال، ولم يرد في القرآن إلا كذلك. قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥].

وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقال: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٣].

وأما الباطل فهو عام في الأعمال وغيرها مما لا يصح فيه الحبوط. قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨]، وقال: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ويكون الباطل لغير العمل، فقد يكون في المعبودات والمعتقدات وغيرها مما هو نقيض الحق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

وقال: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ٢٩].

وقال: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

وقال: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

وقال: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

وغير ذلك وغيره.

فقد يكون الباطل يعني المعبودات الباطلة من دون الله ، وقد يكون من المعتقدات الباطلة غير دين الله ، وغير ذلك.

فالباطل أعم من الحبوط.

٢ ـ وقال: (حبط) بالفعل الماضي.

وقال: (باطل) بالاسم.

والاسم على العموم أثبت وأعم من الفعل.

فكان الباطل أعم من الحبوط من حيث الدلالة ومن حيث الصيغة.

٣ ـ وقال في العبارة الأولى: (ما صنعوا).

وقال في العبارة الثانية: (ما كانوا يعملون).

والصنع هو إجادة العمل وإحسانه ، فالعمل أعم من الصنع لأنه قد يكون بإجادة أو بغيره.

٤ ـ قال في العبارة الأولى: (ما صنعوا) بالفعل الماضي.

وقال في العبارة الثانية: (ما كانوا يعملون).

والعبارة الثانية أعم لأنها تدل على الاستمرار في الماضي.

فقوله: (صنعوا) قد يدل على زمن من أزمنة الماضي ، وقد يدل على الحدوث مرة واحدة في الزمن الماضي.

أما قوله: ﴿ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فإنه يدل على الاستمرار في الماضي فهو أعم.

فقولك: (صنعوا) حالة واحدة وزمن واحد من قولك: (كانوا يصنعون).

٥ ـ قال في العبارة الأولى: ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ فقيد الصنع في الدنيا أو الحبوط كما ذكرنا.

وأطلق في العبارة الثانية فلم يقل (وباطل فيها)، كما لم يقل: (ما كانوا يعملون فيها)، فالعبارة الثانية أعم.

٦ ـ قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أعم من حيث التأليف من قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ ذلك أن قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ فعل وفاعل.

وقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن يكون (باطل) خبرًا مقدمًا، وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مبتدأ مؤخر.

كما يحتمل أن يكون ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فاعلاً لاسم الفاعل (باطل)، والباطل خبر ثان لأولئك[1].

فهو أعم على كل حال.



﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]

إن صحة الحكم في القضاء تستند إلى أحد أمرين:

البينة أو الشهود العدول، فإن ثبت أحدهما صح الحكم على الدعوى بالصحة. فإن تعاضد على ذلك البينة والشهود والعدول فذلك ما لا مطمع وراءه في الصحة.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢١٠.

وقد ذكر ههنا الأمرين الذي يحكم بأحدهما على صحة الدعوى: البينة والشاهد.

فقد ذكر البينة فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

وذكر الشاهد أيضًا فقال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ وهذا الشاهد عدل لأنه (منه) أي من ربه.

ولما كانت الدعوى أنه مرسل من ربه، أي أرسله ربه، لزم أن تكون البينة من ربه فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي إن الله آتاه بينة وبرهانًا على أنه رسوله.

ولما كان الشاهد يشهد على هذه القضية لزم أن يكون الشاهد من ربه فقال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، وترتب على ذلك أن يكون عدلاً، لأن الشاهد من الرب لا يكون إلا عدلاً.

ولم يكتف بذلك بل ذكر شاهدًا آخر لا تدفع شهادته، وهو أن هناك كتابًا سابقًا من ربه، أي من الجهة نفسها، وذلك قبل أن يأتي هذا الشخص إلى الدنيا بقرون يشهد على ما جاء به هذا الرسول.

وهذا الكتاب السابق ذكر ذلك صراحة بما لا يحتمل التأويل في أن هذا الشخص هو المقصود بعينه. فقد ذكر اسم الرسول ومكان نشأته وعلامته البدنية ومن أي شعب هو وإلى أين يهاجر وإلام يؤول أمره. كل ذلك مذكور في التوراة[1] يعرفه من اطّلع على ذلك كما يعرف الأب ابنه، وإن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فقال في ذلك: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي يشهد على

(١) انظر كتابنا (نبوة محمد من الشك إلى اليقين).

ذلك. وقيل: إن الإنجيل[1] شاهد أيضًا فقد ذكره صراحة.

وبهذا يكون قد ذكر جملة أدلة كل منها كافٍ في إثبات صحة الدعوى:

١ ـ البينة.

٢ ـ الشاهد.

٣ ـ الكتب السابقة

وكل ذلك من الجهة التي جاء رسولاً عنها، فهل يبقى في نفس أحدٍ شك أو ريبة في صحة رسالته؟ ولذا قال بعد ذلك: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ بحذف نون (تكن)، أي لا يك في نفسك أي شيء من شك أو ريبة، واحذف ذلك من نفسك كحذف نون (تكن) من أصل الكلمة.

فتعاضد على إزالة المرية من النفس النهي وحذف النون وتقرير أنه الحق، فقد قال بعد ذلك: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ثم احتاط بعد ذلك بما يمنع كل خاطر شك، فقد يرى أن كثيرًا من الناس لم يؤمنوا بذلك فقال له إن هذا من طبيعة الناس، فإن أكثرهم لا يؤمنون وإن جاءتهم كل آية، وإن أتيتهم بكل دليل، كما قال في موطن آخر: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فذكر كل أمر يدفع الريبة ويمنعها فلا يبقى في النفس منها شيء.

فنهاه عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبلغ ما يكون النهي.

١ ـ فقد جاء بـ (الفاء) الدالة على السبب في قوله (فلا تك)، أي إن ما ذكرناه سبب كاف للانتهاء عن الريبة.

---

(١) انظر فتح القدير ٢/ ٤٦٥.

٢ ـ النهي بقوله : (لا تك) .

٣ ـ حذف النون من (تكن) وقد ذكرنا دلالة ذلك على قوة النهي .

٤ ـ قال : (في مرية) فجاء بـ (في) الظرفية ، أي لا تكن فيها كما يكون الشخص في اللجة وكن بعيدًا عنها .

٥ ـ نكّر المرية ليشمل كل شك فيه .

٦ ـ ثم قال : (منه) أي من القرآن ، ولم يقل : (ولا تك في مرية) فتكون عامة مطلقة ، إذ المرء لا ينفك عن شك أو ريبة في أمر من الأمور ، وإنما طلب الانتهاء عن الريبة في هذا الأمر .

٧ ـ ثم أثبت صحة ما هو عليه بقوله : (إنه الحق) فأكده بـ (إنَّ) .

٨ ـ عرّف (الحق) ولم يقل : (إنه حق) ليدل على أنه وحده الحق ولا حق سواه ، فلو اتبعت أي كتاب آخر كان اتباعك باطلاً . فكل كتاب قبله منسوخ وقد دخله التحريف والتبديل ، فلا حق فيما سواه لا في نصه ولا في قبوله عند الله .

٩ ـ ذكر الجهة التي قررت أحقيته وقضت بذلك فقال : ﴿ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فلا أحد أعلم بالحق منه ، ولا شيء أحق بالاتباع من هذا الحق .

١٠ ـ ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ليطمئن قلبه إلى ما هو عليه ولا توحشه كثرة من لا يؤمن من الناس .

١١ ـ ثم حذر من لا يؤمن بأن موعده النار فقال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾ .

فذكر في الآية أن البينة من ربه ، وأن الشاهد من ربه ، وأن الكتب السابقة التي شهدت له من ربه ، وأنه الحق من ربه ، فهل بعد ذلك شيء من الريبة ؟ !

ثم نعود إلى الآية: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فقد قيل: إن البينة هي القرآن، وقيل: هي الأدلة العقلية والمعجزات التي تقطع بصحة نبوته ﷺ.

والشاهد قيل هو القرآن، ومن ذلك نظمه المعجز الذي تحدى به البشر.

وقيل: الإنجيل وقد شهد له بذلك وذكر اسمه صراحة.

وكتاب موسى هو التوراة.

لقد قال: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ولم يذكر المعادل للدلالة عليه بمن تقدم ذكره وهو من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، وبمفهوم المخالفة ممن لم يكن على بينة ولا دليل.

وقال: ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ فجعله مستعليًا عليها متمكنًا منها، وهذا نظير قوله تعالى في أكثر من موضع: (على هدى) فجعله مستعليًا عليه متمكنًا منه.

والبينة نظير الهدى.

وقال: ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ فذكر الرب لأن الرب هو المربي والمرشد والموجه والمعلم وهو الأنسب مع ذكر البينة. ولم ترد (البينة) في القرآن مقرونة إلا مع الرب، ولم ترد مع غيره من أسماء الله الحسنى، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وقوله: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ٧٣، ٨٥]، وقوله: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [محمد: ١٤] وغيرها.

وذكر شاهدين: شاهدًا يتلوه وشاهدًا من قبله.



ويبدو ـ والله أعلم ـ أنَّ الشاهد الذي يتلوه مستمر على يوم القيامة ، ففي كل زمان يظهر شاهد على صدقه ﷺ كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وكما قال ﷺ عن القرآن إنه (لا تنقضي عجائبه) .

ولذا جاء بالفعل مضارعًا فقال : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ فاستغرقت الشهادة له الماضي والحال والاستقبال . فشهادة الماضي شهادة الكتب السابقة ، وشهادة الحال والاستقبال ما يتلوه من الشاهد .

وقال : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ فجاء بفعل الشرط مضارعًا ليشمل كل من يكفر به في الحال والمستقل ، ولم يقل : (ومن كفر) فيحتمل اختصاص ذلك بمن كفر في زمانه .

وقال : (به) ولم يقل : (ومن يكفر) فقط فيجعل ذلك عامًّا ، فجعل الكفر به على الخصوص مدعاة إلى دخول النار وإن لم يكفر بغيره ، فلو آمن بكل شيء وكفر به فهو من أهل النار .

جاء في (تفسير الرازي) : «فالحاصل أنه يقول اجتمع في تقرير صحة هذا الدين أمور ثلاثة :

أولها : دلالة البينات العقلية على صحته .

وثانيها : شهادة القرآن بصحته .

وثالثها : شهادة التوراة بصحته . . .

فقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ المراد بالبينة الدلائل العقلية اليقينية .

وقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لمحمد عليه السلام .

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ إشارة إلى الوحي الذي حصل لموسى عليه السلام.

وعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين في القوة والظهور والجلاء إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه»[١].

وجاء في (الكشاف): «﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ معناه: أفمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة؟ أي لا يعقبونهم في المنزلة ولا يقاربونهم، يريد أن بين الفريقين تفاوتًا بعيدًا وتباينًا بينًا. وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره كان على بينة (من ربه) أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق.

(ويتلوه) ويتبع ذلك البرهان (شاهد منه) يشهد بصحته وهو القرآن (منه) من الله، أو شاهد من القرآن، فقد تقدم ذكره آنفاً.

(ومن قبله) ومن قبل القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة، أي ويتلو ذلك البرهان أيضًا من قبل القرآن كتاب موسى.

(إماماً) كتابًا مؤتمًّا به في الدين قدوة فيه.

(ورحمة) ونعمة عظيمة على المنزل إليهم.

(أولئك) يعني من كان على بينة (يؤمنون به) يؤمنون بالقرآن»[٢].

وجاء في (البحر المحيط): «لما ذكر حال من يريد الحياة الدنيا ذكر حال من يريد وجه الله تعالى بأعماله الصالحة. وحذف المعادل الذي دخلت عليه الهمزة، والتقدير: كمن يريد الحياة الدنيا.

وكثيرًا ما حذف في القرآن كقوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾،

---

(١) التفسير الكبير ١٨/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠.
(٢) الكشاف ٢/ ٩٣.

وقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ وهذا استفهام معناه التقرير . . .

والبينة: القرآن أو الرسول ، والهاء للمبالغة . . .

والشاهد: القرآن و(منه) عائد على ربه ، ويدل على أن الشاهد القرآن ذكر قوله (ومن قبله) أي ومن قبل القرآن كتاب موسى ، فمعناه أنه تظافر على هدايته شيئان:

كونه على أمر واضح من برهان العقل.

وكونه يوافق ذلك البرهان هذين الكتابين الإلهيين: القرآن والتوراة فاجتمع له العقل والنقل» (١).

* * *

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨ ـ ١٩].

هذه الآية مناسبة لما تقدم من قوله سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ فقد ذكر فيها شأن المفترين على الله وحالهم ومآلهم.

١ ـ فقد قال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ على سبيل الاستفهام ، والمعنى: ولا أحد أظلم ممن يفتري على الله.

وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ولم يقل: (ولا أظلم) ليشارك المخاطب في الجواب ، فيقول: (لا أحد أظلم منه).

وهو أبلغ من (لا أظلم) لأن كل مخاطب أو سامع إذا سئل عن ذلك فقيل له:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢١٠.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فسيقول: لا أحد أظلم منه ، ويقرر ذلك بنفسه.

٢ ـ وقال: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فنكّر الكذب ليشمل كل كذب ، ولا يختص بأمر معين. فدخل في ذلك كل افتراء وكل مفتر.

فيشمل ذلك من قال: أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ، ومن زعم أن ما جاء به هو كلام الله أو من شرع الله وحلل وحرم ما لم يأذن به الله ونسب ذلك إلى الله ، وغير ذلك وغيره من الافتراءات.

٣ ـ وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ لتقريرهم بفعلتهم والإشهاد عليهم لفضيحتهم وإلحاق الخزي بهم.

وعرضهم على ربهم إذلال لهم لأنهم عرضوا على من كذبوا عليه ، فيكونون بمواجهته ، ولئلا ينكروا ذلك جاء بالأشهاد فيشهدون عليهم ويقولون: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ ﴾

٤ ـ قال أولاً: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فذكر اسمه العلم (الله).

ثم قال: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ ﴾ فذكر اسم الرب مضافًا إليهم.

فهؤلاء افتروا على الله خالق السماوات والأرض.

وافتروا على (ربهم) هم ، ربهم الذي أحسن إليهم ورباهم وقام على أمرهم.

فالافتراء على الرب من أسوأ الأفعال وأقبحها ، فمن افترى على ربه وسيده ومتولي أمره ومن أحسنَ إليه كان مسيئًا بالغ الإساءة.

فإن كان الرب هو (الله) ازدادت الفعلة سوءًا ، فقد جمعت الإساءة الكذب على الله وعلى ربه فكانت أسوأ فعلة وأخزى فضيحة.

ولو جاء باسم واحد فقال في التعبيرين: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ثم قال: (هؤلاء الذين كذبوا على الله) لم تكن بتلك الإساءة، فإن لكل اسم من أسماء الله الحسنى دلالته فافتروا عليه بذاته وافتروا عليه مع أنه ربهم.

فازدادوا ظلمًا على ظلم وقبحًا على قبح.

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ والأشهاد جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، أو جمع شهيد كأشراف جمع شريف[١].

وجاء بالأشهاد ليشهدوا شهادة علنية أمام الثقلين على أن هؤلاء كذبوا على ربهم ليفضحوهم ويخزوهم.

والإشارة إليهم بـ(هؤلاء) زيادة في إذلالهم وفضحهم.

جاء في (البحر المحيط): «لما سبق قولهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ذكر أنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، وهم المفترون الذين نسبوا على الله الولد واتخذوا معه آلهة وحرموا وحللوا من غير شرع الله.

وعرضهم على الله بمعنى التشهير لخزيهم والإشارة بكذبهم وإلا فالطائع والعاصي يعرضون على الله ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾...

وفي قوله: (هؤلاء) إشارة إلى تحقيرهم وإصغارهم بسوء مرتكبهم.

وفي قوله: (على ربهم) أي على من يحسن إليهم ويملك نواصيهم وكانوا جديرين ألا يكذبوا عليه. وهذا كما تقول إذا رأيت مجرمًا: (هذا الذي فعل كذا وكذا)»[٢].

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ٩٤.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢١٢.

فاستحق هؤلاء اللعنة والطرد من رحمة الله.

إنه لم يقل: (ألا لعنة الله عليهم) وإنما قال: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فشملت اللعنة كل ظالم ودخل فيها هؤلاء لأنه لا أحد أظلم منهم فهم أولى باللعنة.

وختم الآية بقوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فذكر الظالمين مناسبة لقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون من قول الأشهاد كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ويحتمل أن يكون ذلك من قول الله سبحانه[١]. فتكون إحدى اللعنتين من الأشهاد والأخرى من الله فيتحقق منهما معًا قوله تعالى: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾

٦ ـ وصف الظالمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾

فقال: (يصدون) و(يبغونها) بالمضارع.

فإن كان ذلك من قول الأشهاد كان من حكاية الحال الماضية وذلك إحضار لسوء الفعلة ومعاينتها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ﴾ [البقرة: ٩١]، فقتل الأنبياء ماض بدليل قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ وعبر عنه بالمضارع حكاية للحال.

وإن كان من قول الله تعالى احتمل أن يكون من حكاية الحال أيضًا.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢١٢، روح المعاني ١٢/ ٣١.

واحتمل أن يكون ذلك للحال والاستقبال حقيقة ، فتشمل اللعنة هؤلاء في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يفعلون ذلك على سبيل الدوام. وكذلك قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

ومعنى ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ «يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة ، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد» (١).

٧ ـ قال تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ فذكر (هم) الثانية توكيدًا.

جاء في (الكشاف): «و(هم) الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به» (٢).

وقد تقول: لقد قال في الأعراف: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥] فلم يكرر (هم) مع أن السياقين متشابهان فما السبب؟

فنقول: إن السياقين مختلفان ، فقد قال في الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٥].

وقال في هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ. . .﴾.

فزاد في هود ذنبًا آخر وهو الكذب على الله الذي هو من أكبر الظلم فقال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾. فلما زاد في ذكر المعصية زاد

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٤.

في وصفهم بالكفر ، فناسب كل تعبير موضعه .

* * *

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [هود٢٠ ـ ٢١]

أولئك لم يكونوا يعجزون الله لو أراد أن يعاقبهم في الدنيا .

وقال : ﴿ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ ولم يذكر مفعولاً لـ (معجزين) وإنما أطلق ذلك فنفى عنهم صفة الإعجاز أصلاً ، فهم أذل وأضعف من أن يعجزوا أحدًا .

وقال : ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي في مكانهم وموضع استقرارهم . والإنسان أعز ما يكون إذا كان في داره ، فإذا انتفى إعجازهم في مكانهم فانتفاؤه في غير الأرض أظهر .

وقد بين ذلتهم وصغارهم من أكثر من ناحية :

١ ـ فقد نفى أن يعجزوا أحدًا فأطلق النفي ولم يذكر مفعولاً فدل ذلك على أنهم لا يعجزون أحدًا .

٢ ـ وقد بيّن نفي قدرتهم واستطاعتهم في مكانهم ومستقرهم . وهذا أذل ما يكون وأهون ما يكون .

٣ ـ وجعل عدم الإعجاز وصفهم الثابت فقال : ﴿ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ فجاء بالاسم الدال على الثبات ، ولم يقل : (لم يكونوا يعجزون) بل دل على ضعفهم وعدم قدرتهم على جهة الثبوت والدوام .

٤ ـ ثم ذكر أنه ما كان لهم من أولياء من دون الله .

فنفى عنهم القدرة في ذواتهم وأنفسهم ، ونفى عنهم الولي فلا ولي لهم يتولى أمرهم.

وهذا أدل على ضعفهم وصغارهم.

فهؤلاء الذين كانوا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ولا يؤمنون بالآخرة هم أذل ما يكون على الحقيقة.

جاء في (الكشاف): «﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم» (١).

وقد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فجاء بالأولياء مجموعة ، وفي مواضع أخرى يفرد الولي فيقول مثلاً: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧].

أو يقول: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

فما السبب مع أن الإفراد في نحو هذا أدل على الشمول ، فقولك: (ما في الدار من رجال) نفيت فيه جنس الرجال في حال الجمع ولم تنف وجود رجلين أو رجل واحد. أما قولك: (ما في الدار من رجل) فقد نفيت فيه وجود الجنس على سبيل الاستغراق واحدًا أو أكثر.

وقولك: (ما لهم من ولي) نفيت فيه أن يكون لهم ولي على سبيل الاستغراق واحدًا أو أكثر. أما إذا قلت: (ما لهم من أولياء) فإنه ينفي الجنس في حالة الجمع ، ولا ينفي أن يكون لهم ولي واحد أو اثنان؟

والجواب: أن الجمع في هذا الموضع هو الأصوب ولا مندوحة

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٤.

عنه ، ذلك أن هذا الكلام في الآخرة ، والمذكورون هم جماعات مختلفة ومن أمم متعددة وأزمان مختلفة متباعدة ، وقد يكون بين جماعة وأخرى قرون كثيرة فلا يمكن أن يكون لهؤلاء الجماعات ولي واحد ، وإنما يكون لكل جماعة أو أمة ولي أو أولياء يتولونهم ، فلا يصح أن يقال: (ما كان لهم من دون الله من ولي).

هذا علاوة على أنه قد يتخذ أهل البلد الواحد أو المجتمع الواحد أولياء متعددين ، فنفي الأولياء هو الأصوب بل هو المتعين وليس نفي الولي ؛ وخاصة أن هؤلاء الأولياء إنما هم غير الله فلا بد أن يتعددوا.

هذا علاوة على أنه حيث نفى الأولياء في نحو ذلك ، أي في نحو قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الشورى: ٤٦] فإنما ذلك في الآخرة.

وحيث أفرد الولي في نحو ذلك إنما هو الكلام في الدنيا ، ويكون الكلام إما عن فرد واحد أو مجموعة معينة فينفي الولي له أو لها.

جاء في (روح المعاني): «﴿ مِّنْ أَوْلِيَآءَ ﴾: (من) زائدة لاستغراق النفي ، وجمع (أولياء) إما باعتبار أفراد الكفرة ، كأنه قيل: وما كان لأحد منهم من ولي ، أو باعتبار تعدد ما كانوا يدعون من دون الله تعالى فيكون ذلك بيانًا لحال آلهتهم من سقوطها عن رتبة الولاية» (١).

* * *

﴿ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾.

«يشدد ويكثر ، وهذا استئناف إخبار عن حالهم في الآخرة ؛ لأنهم جمعوا إلى الكفر بالبعث الكذب على الله وصدّ عباده عن سبيل الله وبغي

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٣٢.

العوج لها وهي الطريقة المستقيمة»[١].

* * *

﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾

أي يكرهون سماعه فلا يطيقون أن يسمعوه لشدة بغضهم له. كما يكرهون أن ينظروا إليه فلا يطيقون ذلك لشدة بغضهم لرؤيته.

جاء في (الكشاف): «أراد أنهم لفرط تصامّهم عن استماع الحق وكراهتهم له كأنهم لا يستطيعون السمع... كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان: هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه وهذا مما يمجه سمعي»[٢].

وجاء في (البحر المحيط): «﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ إخبار عن حالهم في الدنيا على سبيل المبالغة، يعني السمع للقرآن ولما جاء به الرسول ﷺ.

﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي ينظرون إليه لبغضهم فيه، ألا ترى على حشو الطفيل بن عمرو أذنيه من الكرسف وإباية قريش ما نقل إليهم من كلام الرسول»[٣].

وجاء في (روح المعاني): «﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي إنهم كانوا يستثقلون سماع الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ويستكرهونه إلى أقصى الغايات حتى كأنهم لا يستطيعونه...

﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ أي إنهم كانوا يتعامون عن آيات الله تعالى المبسوطة في الأنفس والآفاق»[٤].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢١٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٤.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢١٢.

(٤) روح المعاني ١٢/ ٣٢.

لقد قدَّم السمع على الإبصار ههنا فقال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ .

وقدم آلة الإبصار على السمع في الكهف فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]: وذلك أنه ذكر في سياق آية هود ما يسمع وهو الكذب فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ، وقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ، وقال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤].

في حين ذكر في الكهف ما يرى وهو عرض جهنم فقال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ ، فقدّم في كل موضع ما يناسبه.

وهناك أمر آخر في هاتين الآيتين ، فقد عرّف السمع في آية هود فقال: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ ، ونكّره في آية الكهف فقال: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ذلك أن آلة السمع في آية هود غير معطلة وإنما كانوا يستثقلون سماع نوع معين من الكلام وهو الكلام في دين الله. أما غيره من الكلام فإنهم يسمعونه ويستحبونه. فعرّف السمع الذي يستثقلونه ويكرهونه.

وأما في الكهف فإن آلة الإبصار معطلة وآلة السمع معطلة ، فقد قال في آلة الإبصار: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ فهي لا تبصر لأنها مغطاة.

وقال في السمع: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ وهذا إثبات لعدم استطاعة السمع ، أي إنهم لا يسمعون لأن آلة السمع معطلة فلا يسمعون أي نوع من الكلام[١] .

---

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) ١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ ، روح المعاني ١٦/ ٤٥ ، ١٢/ ٢٢ ، الكشاف ٢/ ٩٤ .

ومن كانت آلة السمع معطلة عنده لا يسمع شيئًا فنكره لذلك.

* * *

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

لقد ذكر أن هؤلاء خسروا أنفسهم وهذا أكبر الخسران، فإن أكبر الخسران أن يخسر الإنسان نفسه.

﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

أي زال عنهم افتراؤهم ولم ينفعهم شيئًا. وزالت عنهم أصنامهم وآلهتهم التي كانوا يفترون فيها ويقولون فيها ما يقولون وضلت عنهم فلا تهتدي إليهم ولا يهتدون إليها.

جاء في (روح المعاني): «والمراد بها الأصنام التي كانوا يعبدونها ويقولون فيها: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أو نحو ذلك... أي زالت وذهبت عنهم أوثانهم التي كانوا يفترون فيها ما يفترون فلم تغن عنهم من الله شيئاً.

وقيل: إن (ما) مصدرية، أي ضل افتراؤهم، كقوله سبحانه: ﴿ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ أي لم ينفعهم ذلك»[1].

فقد خسروا أنفسهم ولا من ينجدهم وينفعهم.

* * *

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ [هود: ٢٢].

فلا أخسر منهم.

وقال: (الأخسرون) ولم يقل: (هم الخاسرون) أو (من الخاسرين) ليبين أنه لا أخسر منهم.

---

(١) روح المعاني ٧/ ١٢٤، وانظر تفسير الرازي ٤/ ٥٠٤.

وقال ههنا: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾

وقال في سورة النمل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٤ ـ ٥].

فقال في آية هود: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾.

وقال في آية النمل: ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾.

فأكد الخسران في آية هود ما لم يؤكده في آية النمل.

فقد قال: (لا جرم) ومعنى (لا جرم) لا بد ولا محالة، وقيل: معناه حقًّا[1].

وهي عند العرب تنزل منزلة القسم للتأكيد، وقد تجاب بما يجاب به القسم فيقال: لا جرم لآتينك[2].

وقال: (أنهم) فأكد بـ (أن)

وذلك أنه في سياق آية هود زاد على ما ذكره في سياق آية النمل من الآثام.

فقد قال في آية النمل إنهم لا يؤمنون بالآخرة.

وقال في سياق آية هود:

١ ـ إنهم كذبوا على ربهم.

٢ ـ يصدون عن سبيل الله.

---

(١) انظر لسان العرب (جرم).

(٢) انظر شرح الرضي على الكافية ٢/ ٣٨٩، شرح الأشموني ١/ ٢٧٩، لسان العرب (جرم)، معاني القرآن للفراء ٢/ ٨.

٣ ـ يبغونها عوجًا .

٤ ـ هم بالآخرة هم كافرون .

ثم ذكر أنه يضاعف لهم العذاب فأكد خسرانهم .

فكان كل تعبير مناسبًا للمكان الذي ورد فيه .

جاء في (تفسير الرازي) : «اعلم أن الله تعالى وصف هؤلاء المنكرين الجاحدين بصفات كثيرة في معرض الذم :

الصفة الأولى : كونهم مفترين على الله ، وهي قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ .

والصفة الثانية : أنهم يعرضون على الله في موقف الذل والهوان والخزي والنكال ، وهي قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ .

والصفة الثالثة : حصول الخزي والنكال والفضيحة العظيمة ، وهي قوله : ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾

والصفة الرابعة : كونهم ملعونين من الله ، وهي قوله : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

والصفة الخامسة : كونهم صادّين عن سبيل الله مانعين من متابعة الحق ، وهي قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ .

والصفة السادسة : سعيهم في إلقاء الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة ، وهي قوله : ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ .

والصفة السابعة : كونهم كافرين ، وهي قوله : ﴿ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

والصفة الثامنة : كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله ، وهي قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

قال الواحدي: معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد. يقال: أعجزني فلان، أي منعني من مرادي. ومعنى (معجزين في الأرض) أي لا يمكنهم أن يهربوا من عذابنا. . .

والصفة التاسعة: إنهم ليس لهم أولياء يدفعون عذاب الله عنهم.

والمراد منه الرد عليهم في وصفهم الأصنام بأنهم شفعاؤهم عند الله.

والمقصود أن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دل على أنهم لا قدرة لهم على الفرار.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ هو أن أحدًا لا يقدر على تخليصهم من ذلك العذاب. فجمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم. وبين ذلك انقطاع حيلهم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة. . .

والصفة العاشرة: قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، قيل: سبب تضعيف العذاب في حقهم. . . أنهم مع ضلالهم الشديد سعوا في الإضلال ومنع الناس عن الدين الحق. . .

والصفة الحادية عشرة: قوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾. . .

الصفة الثانية عشرة: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، ومعناه: أنهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى فكان هذا الخسران أعظم وجوه الخسران.

الصفة الثالثة عشرة: قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾. . .

الصفة الرابعة عشرة: قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾»[1].

* * *

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [هود: ٢٣]

لما ذكر ما يؤول إليه أهل الكفر الذين يصدون عن سبيل الله ذكر ما يؤول إليه أهل الإيمان الذين أخبتوا إلى ربهم.

ومعنى (أخبتوا إلى ربهم) «اطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع، من الخبت وهي الأرض المطمئنة»[2].

* * *

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]

شبه الفريق الكافر بالأعمى والأصم، ولم يذكر الأبكم لأن هذا الفريق يتكلم، فهم كذبوا على الله ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا وهذا إنما يكون في الكلام.

وشبه الفريق المؤمن بالبصير والسميع.

وبدأ بالفريق الكافر لأنه تقدم ذكرهم وذلك من قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: ١٨ ـ ٢٢].

---

(١) التفسير الكبير ٦/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٩٤، وانظر البحر المحيط ٥/ ١٩٩.

ثم ذكر بعده الفريق المؤمن وهو البصير والسميع وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾.

جاء في (البحر المحيط): «والفريقان هنا الكافر والمؤمن، ولما كان تقدم ذكر الكفار وأعقبه بذكر المؤمنين جاء التمثيل هنا مبتدأ بالكافر فقال: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾»[1].

وقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بحذف إحدى التاءين من الفعل ولم يقل (تتذكرون) كما في آيات أخرى؛ ذلك لأن هذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى قدر طويل من التذكر والتأمل «فإنك إذا سألت أي فرد من عقلاء خلق الله: هل يستوي رجل أعمى أصم ورجل بصير سميع؟ أو هل يستوي الأعمى والبصير والأصم والسميع؟

كان جوابه: كلا لا يستويان.

فحذف من الفعل للدلالة على أن هذا لا يحتاج إلى طول تذكر وتأمل»[2].

فلما كان الأمر لا يحتاج إلىٰ وقت طويل من التأمل والتفكير للإجابة اقتطع من الفعل. والله أعلم.

* * *

---

(١) البحر المحيط ٥/٢١٣.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٢٠.

قصة نوح



﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦]

وردت قصة نوح في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، غير أنها ليست متطابقة في كل جزئياتها ، وإنما يذكر في كل موضع ما يناسب المقام الذي وردت فيه ، وما يراد أن يسلّط عليه الضوء منها. بل قد تكون القصص مكملة إحداها للأخرى ، يذكر قسم منها في موضع ويذكر ما يليه في موضع آخر.

وهي أطول ما ذكرت في هذه السورة ، أعني سورة هود ، فهي قد ذكرت في الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات والقمر وختمت في سورة نوح ، وهناك إشارات موجزة في مواطن أخرى من القرآن الكريم غير أنها ليست مكررة.

ولتوضيح ذلك نقول:

١ ـ لقد وردت القصة في سورة الأعراف موجزة ، وهو أول موضع وردت فيه القصة ، والطريف أنها بدأت بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ من دون أن تسبق بالواو ، وأما في المواطن الأخرى فيقول فيها جميعًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ بالواو فكأنها معطوفة على القصة الأولى مع أن هذه الواو فيها كلها ليست عاطفة على ما قبلها وإنما هي استئنافية.

فقد قال في هود: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ وليس قبلها ما تعطف عليه ، وكذا قال في سورة المؤمنون ، وكذا قال في العنكبوت.

أما في سورة نوح فقد بدأت السورة بقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ فلا يصح ذكر الواو.

بل إنه قد يذكر الواو في غير هذا التعبير أيضًا ، فقد قال في سورة يونس: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ ، وقال في الأنبياء: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ ، وقال في الصافات: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ .

وهو لا يذكر الواو عندما تكون القصص الأخرى الواردة في السورة كلها لا تذكر فيها الواو وذلك في سورتي الشعراء والقمر.

فإن جميع القصص الواردة في الشعراء ابتداء من قصة نوح تبدأ بنحو قوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، فقد قال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقال ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقال: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ وكلها على نمط واحد في السورة ، تستأنف كل قصة على حدة.

وكذلك في سورة القمر ، فقد قال: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ : وقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ ، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ ، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴾ .

وهي على نمط واحد تبدأ بقصة نوح على هذا النمط وكلها من غير واو.

إن قصة نوح في الأعراف تبدأ بدعوة نوح لقومه إلى عبادة الله ، وهي دعوة الرسل جميعًا ، فقد قال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فأجابوه بقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فرد عليهم أنه ليست به ضلالة وإنما هو رسول من رب العالمين.

فكذبوه فنجاه الله ومن معه وأغرق الذين كذبوا.

وهذا هو نص القصة:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾
[الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤].

ولم يذكر أن له أتباعًا معه وذلك أنه كان في ابتداء الدعوة.

٢ ـ وأما القصة في يونس فكانت كأنها استكمال لما ورد منها في الأعراف.

فهو لم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله ولم يذكر ماذا قال له قومه، وإنما كان كلامه على شخصه هو، وأنه إن كان كبر عليهم تذكيره بآيات الله فليفعلوا به ما يشاؤون ولا يمهلوه، وأنه لم يسألهم على دعوته لهم أجرًا، وإنما أجره على الله، فكذبوه فنجاه الله وأغرق الذين كذبوا. ولم يذكر له أتباعًا ولا أنهم عرّضوا بأتباعه، إذ لا تزال الدعوة في مهدها.

وهذا هو نص القصة في يونس:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ

غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ .

فأنت ترى أنه اكتفى بالدعوة إلى عبادة الله في الأعراف ، ولم يكررها في يونس واكتفى برد قومه عليه في الأعراف بأنهم يرون أنه في ضلالة ، ولم يكرر ذلك في يونس .

وكلام نوح في يونس في الرد عليهم ليس تكرارًا لما قاله في الأعراف ، بل ذكر جوانب أخرى استكمالاً لما ذكره في الأعراف ، ثم إنه تحداهم وهو ما لم يفعله في الأعراف ، فكانت القصة استكمالاً لما ورد في الأعراف .

٣ ـ وأما في هود فالقصة طويلة ، فقد ذكر أنه لهم نذير مبين ، وأنه دعاهم إلى عبادة الله ، وذكر رَدَّ الملأ الذين كفروا عليه ، وقد أفاضوا في ردهم عليه .

وظهر أن له أتباعًا وهو ما لم يذكره في الأعراف ولا في يونس ، إذ قد كانت الدعوة في مهدها ، وذكر رأي الملأ في هؤلاء الأتباع وأنهم كانوا يزدرونهم .

وكان هناك كلام طويل وجدال بينهما حتى قالوا له :

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾

وذكر كيفية النجاة التي لم يفصل فيها فيما سبق في الأعراف ويونس ، فذكر صنع الفلك واستهزاءهم به ، وذكر حمل ما يحمل ومن يحمل فيها وجريان الفلك وغرق ابنه إلى أن انتهى الأمر وقضي واستوت السفينة وهبوطهم بسلام .

وهي أطول ما ذكر من القصة وأكثر تفصيلاً من كل المواطن الأخرى.

فهي كانت استكمالاً وتوضيحًا لما ورد في القصتين السابقتين.

٤ ـ وأما في الأنبياء فالقصة ليست في سياق الدعوة والتبليغ، وإنما في سياق نجاة الأنبياء من أقوامهم واستجابة دعاء من دعا منهم.

فقد ذكر نجاة إبراهيم ونجاة لوط ونجاة نوح واستجابة دعائه، واستجابة دعاء أيوب واستجابة دعاء ذي النون وزكريا.

وهذا نص ما ورد فيها:

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

وهو متناسب مع سياق ما ورد في السورة من قصص الأنبياء.

٥ ـ وأما في سورة المؤمنون فقد ذكر القصة بعد ذكر الأنعام وفوائدها والحمل عليها وعلى الفلك، فذكر قصة نوح والنجاة في الفلك مناسبة لذكر الحمل على الأنعام والفلك، فقد جاءت القصة بعد قوله:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١ ـ ٢٢].

وأما الجانب المذكور من قصة نوح فهو لا يطابق ما ورد من القصص فيما سبق، فإنه بلغهم بالدعوة فقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ولم يقل شيئًا آخر.

وإن قومه لم يواجهوه بكلام ولا قالوا له شيئًا، بل إنهم كانوا يذكرون رأيهم فيه في غيبته وفي مجالسهم.

ففي سورة هود ذكر ما كان يواجههم به ويواجهونه، وما كان يجادلهم

به ويجادلونه ، أما في المؤمنون فقد ذكر ما يحصل بعد ذلك ، بعد الافتراق وفي مجالسهم ، وهذا كأنه كان استكمالاً لما حصل في هود .

ثم ذكر أنه دعا ربه لينصره ، وهي أول مرة يدعو فيها نوح بصورة صريحة ، فقد قال : ﴿ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾

وهذه هي القصة :

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾

٦ ـ وأما في سورة الشعراء فقد قال تعالى في قوم نوح ما قاله في الأقوام الأخرى : ﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وهو نحو ما قاله في الأقوام الأخرى وفي رسلهم .

ثم ذكر مواقف الأمم من رسلهم فكانت كلها على نمط واحد .

وإضافة إلى هذا فإن قصة نوح كأنها استكمال لما قبلها وليست مماثلة لها .

فقد دعا نوح قومه فيما سبق إلى عبادة الله ﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ أو ﴿ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ .

وأما في هذه السورة فقد طلب منهم تقوى الله وطاعة رسوله ولم يأمرهم بالعبادة فقد قال لهم: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾. والتقوى إنما تكون بعد الأمر بالعبادة فهي استكمال للأوامر السابقة.

ولم يذكر أنهم كذبوه وإنما اعترضوا على أتباعه قائلين: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾. وهددوه إن لم ينته بالرجم.

فدعا ربه قائلاً إن قومه كذبوه وطلب النجاة له ولمن آمن ، فاستجاب له ربه فأنجاه ومن آمن معه وأغرق الآخرين.

وهذا هو نص ماء في الشعراء.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا
عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

٧ ـ وأما في سورة العنكبوت فإنه لم يذكر دعوته لقومه ولم يذكر موقف قومه ، وإنما ذكر مدة لبثه في قومه وأن قومه أخذهم الطوفان لظلمهم وأنجاه الله ومن معه.

وهذا ما ورد في القصة في هذه السورة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ
الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

٨ ـ وأما في سورة الصافات فإنه ذكر أن نوحًا دعا ربه وأن ربه أجابه وأنه نجاه وأهله من الكرب العظيم وأنه جعل ذريته هم الباقين مما لم يذكر في المواطن الأخرى ، فإنه ذكر فيها ما كان بعد نوح وبعد النجاة ، وماذا ترك عليه في الآخرين ، وذكر أنه أغرق الآخرين ، ولم يذكر من هم الآخرون ولماذا أغرقهم.

وهذا ما ورد فيها:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾

٩ ـ وأما في سورة القمر فإنه قال كما قال في بقية الأقوام: ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، وكذلك قال في الأقوام الأخرى:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ .

فالقصة على نمط ما ذكر في السورة من القصص.

وهي لم تذكر أنه دعا قومه إلى عبادة الله ، وإنما ذكر تكذيب قومه وزجرهم له ، ثم إنه دعا ربه أنه مغلوب ، والمغلوب إنما يطلب النصر ، فطلب النصر قائلاً: ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ فأجابه ربه إلى ذلك.

وقد تقول: وما الفرق بين القصص في سورتي القمر والشعراء وهي كلها تجري على نسق واحد؟

فنقول: إن المشهد يختلف في السورتين.

ففي سورة الشعراء كان يذكر ماذا تقول الرسل لأقوامهم ، وإلى ماذا كانوا يدعونهم ، فكان كل رسول يقول لقومه: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

وأما في سورة القمر فلم يذكر دعوة الرسل لأقوامهم ، وإنما ذكر فيها تكذيب أقوامهم لرسلهم وعاقبة التكذيب ، وكان التعقيب على القصص كلها واحدًا ، وهو قوله بعد كل قصة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

فالقصص في سورة القمر تذكر جانبًا آخر وصورة أخرى من صور القصص القرآني ، وإن قصة نوح على نمط القصص الأخرى في السورة ، فهي لوحة متناسبة .

وإليك ما جاء في سورة القمر :

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ .

١٠ ـ وأما في سورة نوح وهي آخر موطن تذكر فيها قصة نوح وآخر موطن يذكر فيها اسم نوح فإنها تختلف عن كل ما جاء في القصص القرآني من هذه القصة .

فإنها هنا أشبه بتقرير نهائي قدمه نوح إلى ربه في مسار دعوته ، وموقف قومه منه .

فهو هنا لم يخاطب قومه بشيء ولم يخاطبوه بشيء وإنما ذكر ماذا قال لهم وكيف واجهوه ، فقد قال ربنا : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فأمره ربه بإنذار قومه .

فقال نوح مستجيبًا لأمر ربه : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فهو تنفيذ لأمر ربه ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ .

فقد قال له ربه : ﴿ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ ، فقال لهم نوح : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

ثم ذكر إلى ماذا دعاهم ، وذلك قوله : ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

ثم ذكر نوح لربه ماذا كان منه ومنهم .

فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . . . ﴾ ، إلى آخر ما قال .

ثم ذكر نوح لربه ماذا كان موقفهم منه :

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا . . . ﴾ إلى آخر ما ذكر .

ثم ذيّل التقرير بمقترح وهو خاتمة التقرير فيهم ، وهو أن يهلكهم كلهم فلا يترك كافرًا على وجه الأرض فقال : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ وقد علل هذا المقترح بقوله : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾

ثم ختم التقرير بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات فلعله أن يكون قد قصر في شيء من عمله .

وهو تقرير عجيب جمع فيه خلاصة ما حصل في رحلته الطويلة مع قومه وذيله بمقترحه .

فقد قال في الأعراف والمؤمنون : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

وقال في هود : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقال في الشعراء : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

وقال في التقرير النهائي في سورة نوح : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾

فجمع ما جاء في الأعراف والمؤمنون وهود والشعراء .

فإنه قال في الأعراف والمؤمنون : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾

وقال في سورة نوح: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾

وقال في هود: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

وكذلك قال في سورة نوح.

وقال في الشعراء: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

ونحوه قال في سورة نوح.

فجمع فيها كل ما قاله نوح في كل ما ورد من القصص القرآني.

حتى إنه جمع في سورة نوح بين القول الصريح و(أن) المفسرة أو المصدرية فقال: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾

وهو ما تفرق في الأعراف والمؤمنون وهود والشعراء.

فقد قال في الأعراف والمؤمنون: ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾

وقال في الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بذكر القول.

وقال في هود: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾

ولم يجمع بينهما في القصة في موطن آخر.

ثم ذكر موقف قومه، فذكر أنهم عصوه واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، وأنهم مكروا مكرًا كبّارًا.

ثم ذكر عاقبتهم في الدنيا والآخرة وهي أنهم أغرقوا، وهذا في الدنيا، وأنهم أُدخلوا نارًا، وهذا في الآخرة، فهو تقرير جامع مع ذكر العقوبة الجامعة في الدنيا والآخرة.

وقد وافق ربنا على طلبه مبيناً سبب الإجابة وهو قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ فإنه حصل ذلك بسبب الخطيئات لا بسبب آخر.

ثم ختم التقرير بالدعاء بالمغفرة لأوسع مجموعة من المؤمنين وهو ما لم يذكر في غير هذا الموطن من القرآن فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

ولم يذكر دعاء بمثل هذا التفصيل في طلب المغفرة وذلك مناسبة للتقرير الجامع.

ذكر الدعاء في القصة:

من الملاحظ في مسار قصة نوح أنه لم يدع بالنجاة في سورتي الأعراف ويونس؛ لأن الدعوة كانت في مهدها فلا يناسب طلب النجاة.

وكذلك في سورة هود فإنه لم يدع بالنجاة وإنما أخبره ربه في هذه السورة أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأمره بصنع الفلك، وقال له ربه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فعلم من ذلك أنهم ناجون لأنه قال له إنه سيغرق الذين ظلموا.

وأول دعاء صريح له كان في سورة المؤمنون وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فطلب النصر. وهذا أول دعاء صريح.

قد تقول: لقد قال ربه في هذه السورة أيضًا: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ كما قال في سورة هود، فلم دعا لنفسه ولم يكتف بما أخبره ربه فيعلم أنه ناجٍ من غير دعاء؟

فنقول: إن الأمر مختلف في السورتين، فإنه في سورة المؤمنون قال له ذلك بعد الدعاء فكأنه استجابة لدعائه.

وأما في سورة هود فقد قاله ربه ابتداء فلا حاجة إلى طلب النجاة بعد إخباره، فاختلف الأمر.

وكل تعبير مناسب في مكانه، فإن سورة المؤمنين بعد هود في

تسلسل السور ، ومن المناسب أن يكون الطلب والدعاء بعد أن يمضي وقت طويل مع قومه وأن ينال من أذاهم الكثير فيلجأ إلى الدعاء فأخر الدعاء إلى الموقف المتأخر.

ولما اشتد عليه الأمر في سورة الشعراء وهددوه بالرجم ونالوا منه ومن المؤمنين قائلين له: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ و﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ دعا بالنجاة له ولمن معه من المؤمنين.

وقد تقول: ولم دعا لنفسه فقط بالنجاة في سورة المؤمنون ولم يذكر معه من آمن كما فعل في الشعراء؟

فنقول: إن قومه لم يذكروا من معه من المؤمنين في سورة المؤمنون فدعا لنفسه ولم يذكر من معه ، فإنه لم يرد لهم ذكر.

ولما ذكروا من معه في الشعراء دعا لنفسه ولمن آمن معه قائلاً: ﴿ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولم يذكر له دعاء صريح في سورة الصافات ، فإنه لم يذكر له موقف مع قومه ، وإنما ذكر ربنا أن نوحًا ناداه فاستجاب له.

وأما في سورة القمر فقد دعا لنفسه ولم يذكر من آمن ، ذلك لأنه ذكر تكذيب قومه وزجرهم له ولم يرد ذكر لمن معه فقال: ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾. وكان الدعاء بطلب النصر وليس بطلب النجاة ؛ لأنه ذكر أنه مغلوب ، وذكر الانتصار هو الأنسب مع المغلوب.

وأما في سورة نوح والتي هي التقرير النهائي فنرى نوحًا يدعو على قومه بأن يهلكهم الله جميعًا قائلاً: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

وهذا هو الموطن الوحيد الذي دعا فيه على قومه بالهلاك ولم يدع

لنفسه بالنجاة ، في حين كان يدعو بالنجاة في القصص الأخرى.

ذلك أن هذا هو الموقف الأخير ، فدعا ربه أن يكون هؤلاء الكفرة آخر عهدهم في الدنيا أن يستأصلهم جميعًا.

ولم يدع لنفسه بالنجاة ، فإنه إذا أهلك الله الكافرين فقد نجا المؤمنون منهم ومن شرورهم فلا داعي لطلب النجاة ، فإنه رأى أن المقام لا يناسب الدعاء بالنجاة بعد هلاكهم فإن هذا من باب تحصيل الحاصل. وإنما دعا بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات لأن هذا هو المناسب ، فإن الدعاء بالمغفرة في خواتيم الأمور هو الأنسب ، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧] فجعل خاتمة الحياة لهؤلاء المغفرة ، وأنه أمر رسوله في آخر سورة نزلت عليه وهي سورة النصر بالاستغفار فقال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

وكان رسول الله ﷺ يدعو إذا أوى إلى فراشه قائلاً: (إن أمسكت نفسي فاغفر لها) فطلب المغفرة عند طي صفحة الحياة.

وقد يكون بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠].

وقد يكون يوم الحساب وقد دعا سيدنا إبراهيم قائلاً: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقد يطلب المؤمنون المغفرة في عرصات القيامة كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

ومن الملاحظ أنه لم يرد التصريح بذكر المؤمنين في دعاء نوح

بالنجاة، أو في أمر الله له أن يحمل معه من آمن إلا حيث ورد ذكر المؤمنين وازدرائهم في القصة وذلك في مكانين:

الأول: في سورة هود حيث قال الملأ الذين كفروا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ وقد جرى ذكرهم أيضًا في بقية القصة فقال له ربنا: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

والآخر: في سورة الشعراء حيث قالوا له: ﴿۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] فدعا نوح لنفسه ولهم قائلاً: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨].

فذكر وصف الإيمان لمن معه.

وحيث لم يرد لهم ذكر فإنه يذكر النجاة له ولمن معه على العموم من دون تقييد بذكر صفة الإيمان فإنه مفهوم من المقام.

ذكر الناجين:

تختلف المواطن في قصة نوح في ذكر الناجين:

فهو أحيانًا يذكر نجاته ومن معه ولا يذكر أهله مكتفيًا بذكر من معه.

وأحيانًا يذكر أهله ولا يذكر معهم غيرهم.

وأحيانًا يذر أهله ومن معه.

وأحيانًا يذكر نوحًا ولا يذكر أحدًا معه لا من أهله ولا من غيرهم.

وهذا يجري على وفق ضوابط دقيقة.

فحيث يذكر تبليغ قومه يذكر من معه وقد يذكر أهله معهم.

ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾

فقال في النجاة: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾

وفي سورة يونس قال: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ﴾

فقال في النجاة: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾

وفي سورة هود قال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ . . . ﴾ .

فقال في النجاة: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾

وفي سورة المؤمنون قال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾

فقال في النجاة: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾ .

وقال في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

فقال في النجاة: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾

وقال في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾

فقال في النجاة: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾

وحيث لم يذكر تبليغ قومه ذكر أهله فقط وذلك في سورة الأنبياء فإنه قال: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

فذكر أهله ولم يذكر من معه ، فإنه ذكر دعاءه ولم يذكر تبليغ قومه .

وفي سورة الصافات قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

فذكر أهله ولم يذكر من معه ، فقد ذكر دعاءه ولم يذكر قومه .

أما في سورة القمر فقد ذكر نجاته ولم يذكر معه لا أهله ولا الذين معه ، فإنه دعا ربه ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ فنصر المغلوب .

وذكر الأهل ومن معه في مكانين :

الأول : في سورة هود ، وقد ذكر الأهل لما ورد في القصة من ذكر مناداة نوح لابنه ليركب معه ، ومناداة نوح ربه قائلاً : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

فناسب ذكر أهله .

والموضع الآخر : في سورة المؤمنون وذلك مناسبة لجو السورة .

فمما بدأت به السورة قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المؤمنون : ٥ ـ ٦] . والأزواج أهل ، وأهل الرجل زوجه .

ثم ذكر خلق الإنسان وتطوره من سلالة من طين إلى نطفة في قرار مكين إلى أن أنشأه خلقًا آخر ، وهذا إنما يكون في رحم الأزواج ، والأزواج أهل ، وإن ذلك إنما يكون بين الرجل وزوجه .

ثم إنه ذكر في السورة بعضًا من الرسل وذوي قرباهم ، فقد ذكر موسى وأخاه هارون فقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٤٥]

ثم ذكر ابن مريم وأمه فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] .

وذكر البنين ، والبنون من الأهل فقال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦] فناسب ذكر الأهل في النجاة .

خاتمة القصص:

إن خاتمة القصص ونهاياتها ليست متطابقة في جميع المواضع ، بل إن كل موضع مناسب للسياق الذي وردت فيه ، كما إن النهايات قد يكمل بعضها بعضًا.

فقد قال في الأعراف: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال في يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣].

فقد وصف قوم نوح في الأعراف بأنهم كانوا قومًا عمين ، وذلك أنهم قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنهم لما وصفوه بالضلال ناسب أن يصفهم بالعمى من جهتين:

الجهة الأولى: أنهم قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ وضد الرؤية العمى، فإن الذي لا يبصر أعمى، فناسب أن يصفهم بالعمى لأنهم في الحقيقة لا يرون.

وقال: (عمين) ولم يقل: (عُمْي) لأن العمِي هو أعمى القلب والبصيرة ، والأعمى أعمى البصر.

والرؤية في قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ رؤية قلبية فوصفهم بعمى القلب فقال: ﴿عَمِينَ﴾ مناسبة للرؤية القلبية.

والجهة الأخرى: أنهم وصفوه بالضلال ولم يتبين لهم الهدى وعموا عنه ، فناسب وصفهم بالعمى.

وأما في يونس فقد أنذرهم وذكّرهم ولم يردوا عليه بشيء فناسب أن يقول: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

ثم ذكر أنه نجاه ومن معه وجعلهم خلائف ؛ وذلك مناسبة لما تقدم

في السورة من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣ ـ ١٤].

فناسب قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

وأما في هود فالمشهد طويل، والقصة مفصلة وقال في خاتمتها: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والهبوط إنما هو بعد الركوب والجري والاستواء على الجودي مما لم يذكره في الأعراف ويونس.

ثم إن المشاهد متسلسلة.

فقد قال في الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾.

وذكر في يونس أنه جعلهم خلائف وهي بعد النجاة في الفلك.

وقال في هود: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ فطلب منه الهبوط وهي مرحلة بعد النجاة في الفلك.

ثم قال: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهي مرحلة تأتي بعد قوله في يونس: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾.

فقد ذكر في يونس أنه جعل الناجين خلائف.

وذكر في هود من يكون بعدهم من الأقوام.

وأما في المؤمنون فقد قال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، وهذا إنما يكون بعد الهبوط، فطلبُ المنزل إنما يكون بعد الهبوط من السفينة.

فبعد الهبوط بسلام دعاه إلى أن يطلب المنزل المبارك.

وأما في الشعراء فالقصة متناسبة مع القصص في السورة.

فقد بيّن وحدة الرسالة وأن الأنبياء دعوا إلى أمر واحد، وكان موقف أممهم منهم واحدًا وكان التعقيب واحدًا.

فنوح قال لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٦ ـ ١١٠].

وكذلك قال هود: [الشعراء: ١٢٤ ـ ١٢٧].

وكذلك قال صالح: [الشعراء: ١٤٢ ـ ١٤٥].

وكذلك قال لوط: [الشعراء: ١٦١ ـ ١٦٤].

وكذا قال شعيب: [الشعراء: ١٧٧ ـ ١٨٠].

وكان التعقيب واحدًا وهو قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وذلك بعد هلاك قوم نوح ١٢١، ١٢٢ وهلاك عاد ١٣٩، ١٤٠، وهلاك ثمود ١٥٨، ١٥٩، وهلاك قوم لوط ١٧٤، ١٧٥، وأصحاب الأيكة ١٩٠، ١٩١.

فهي متناسبة مع القصص الواردة في السورة في وحدة الرسالة، والخاتمة، والتعقيب.

ثم ذكر أن الفلك مشحون، أي ممتلئ، ولم يذكر ذلك في موضع آخر.

وأما في سورة العنكبوت فقد قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥] وهذا هو الموطن الوحيد الذي

ذكر فيه لفظة السفينة في قصة نوح. وقد بينا في كتابنا (أسئلة بيانية) سبب اختيار السفينة على الفلك في هذا الموطن، وما الفرق في الاستعمال القرآني بين السفينة والفلك فلا نعيد القول فيه.

ثم بين أمر السفينة فقال فيها: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فذكر أنه جعلها آية للعالمين، ومما قيل في معنى ذلك أنه أبقاها بعد ذهاب نوح لتكون آية لمن بعده، فقد قيل إنها بقيت زمانًا طويلاً على الجودي يشاهدها المارة[1].

ولم يذكر ذلك في موطن آخر.

فذكر أمر الفلك في الشعراء عند النجاة ووصفه بأنه مشحون.

وذكره هنا بعد خلوه مما فيه وأنه جعله آية للعالمين.

وأما في سورة الصافات فقد قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٦ ـ ٧٧] فذكر نجاته وأهله ولم يذكر من معه.

وهذا من دقيق مراعاة المقام، فإن المقام لا يناسب ذكر من معه، وذلك أنه قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي جعل ذريته هم الباقين على قيد الحياة، وأما من نجا معه من المؤمنين فقد هلكوا وبادوا، وإن البشر بعدهم إنما هم من ذرية نوح فهو أبو البشر الثاني والأول هو آدم.

فلو قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ لدل ذلك على أنه أهلك من معه من المؤمنين، وأبقى أهل نوح وذريته، وهذا لا يناسب مع ذكر النجاة، إذ سيكون المعنى أنه أنجاهم من الماء ليهلكهم على اليابسة ويبقي ذرية نوح وحده.

---

(١) انظر روح المعاني ٢٠/ ١٤٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٠٧.

فلما ذكر أنه أبقى ذريته وحدهم ناسب ذكر نجاة أهله وعدم ذكر الآخرين.

وأما في سورة القمر فقد ذكر أن نوحًا دعا ربه ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ فذكر نجاته ولم يذكر أحدًا معه، ذلك أنه دعا لنفسه فذكر نجاته فقط.

ثم ذكر السفينة التي حملته فقال هي: ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ولم يذكر ذلك في موطن آخر. وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها صفة السفينة وأنها تجري برعاية الله، ثم ذكر مآلها بعد ذلك فقال: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

فذكر في سورة هود حال نوح وهو يصنع الفلك ومرور قومه عليه ساخرين.

وذكر هنا حال السفينة وشأنها. فكأن ما ذكره في سورة القمر استكمال لما ورد في السور قبلها.

وقد تقول: لقد دعا نوح في سورة القمر لنفسه فقال: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ فذكر نجاته ولم يذكر أحدًا معه.

وقد دعا في سورة المؤمنون لنفسه أيضًا فقال: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ فذكر نجاته ونجاة أهله وذكر من معه، فما الفرق؟

فنقول: لقد دلّ السياق في سورة المؤمنون على أن هناك مؤمنين.

فقد قال: ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ ﴾ فذكر قول الذين كفروا من قومه، ومعنى ذلك أن هناك من قومه من آمن.

وقال: ﴿ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ ومعنى ذلك أنه من لم يكن من الذين ظلموا لا يغرق، فدل ذلك على أن هناك صنفًا غير المذكورين.

ثم أمره ربه إذا استوى هو ومن معه على الفلك أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فذكر أن هناك من استوى معه على الفلك وليس هو وحده.

وطلب أن يكون الدعاء بصيغة الجمع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ووصف القوم الذين نجاه منهم بأنهم ظالمون.

فالأمر مختلف عما في سورة القمر.

فإنه لم يذكر في سورة القمر أن معه من آمن، ولم يجعل قومه على قسمين:

قسم مؤمن وقسم ظالم ولو على سبيل التضمن أو الإشارة.

وإنما ذكر تكذيب قومه على جهة العموم فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

وقال: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾، وهذا قولهم على العموم وليس كما قال في المؤمنون: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾.

فهو وحده بإزاء قومه فناسب ذكره هو.

فكان كل تعبير مناسبًا لسياقه الذي ورد فيه.

وأما سورة نوح فقد ذكرنا ما فيها.

فتبين أن القصة ليست مكررة وأنه ذكر في كل مكان أمرًا لم يذكره في المواطن الأخرى.

* * *

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٢٦]

الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ ابتدائية.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على إضمار القول[1] أي فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون معلقًا بـ (أرسلنا) أي أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٣٢] أي أرسلناه بهذا الأمر.

كما يحتمل أن يكون معلقًا بقوله: (نذير) أي إني لكم نذير بأن لا تعبدوا إلا الله، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢ ـ ٣] والمعنى أني أنذركم بهذا الأمر.

ويحتمل أيضًا أن تكون مفسرة للإرسال، أي لقد أرسلنا نوحًا والرسالة هي ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

كما يحتمل أن تكون مفسرة للإنذار[2] أي قال لهم: إني لكم نذير مبين. وإنذاري لكم هو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ...﴾ والمعنى أنه سبحانه أرسل نوحاً بعبادة الله وعدم عبادة غيره، وأن نوحًا بلغهم وأنذرهم بذلك.

فدلت الآية على ما قاله نوح وما أرسل به وما أنذرهم به.

قد تقول: لقد قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فصرح بالقول وذلك قوله: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وكذا قال في سورة المؤمنون ٢٣.

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ٣٥ ـ ٣٦، البحر المحيط ٥/ ٢١٤.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٩٤، البحر المحيط ٥/ ٢١٤، روح المعاني ١٢/ ٣٦.

وقال ههنا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ . . . أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فجاء بـ (أن) فما الفرق؟

ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بالتصريح بالقول،

وقوله في سورة المؤمنون مثلاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بذكر (أنْ)؟

والجواب: أنه إذا صرح بالقول فقال: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ فذلك ما قاله لقومه وبلغهم به.

وأما إذا ذكر (أنْ) فالمعنى مختلف.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ . . . أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي أرسلنا بهذا الأمر، أي إن هذه هي الرسالة التي أرسلناه بها وليس هذا قوله.

وكذا قوله في سورة المؤمنون: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي أرسلناه بهذا الأمر، أي هذه هي الرسالة التي أرسلناه بها، فـ (أن) مصدرية أو مفسرة.

فقوله في الأعراف: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ هو قول نوح لقومه.

وقوله في المؤمنون: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢] هو الرسالة التي أرسلناه بها إليهم وليس قول نوح.

وكذا قوله في سورة هود كما أوضحنا.

قد تقول: لقد ذكرت أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على إضمار القول، فما

الدليل على ذلك؟ ولمَ لم تعلقه بـ ﴿ أَرْسَلْنَا﴾ كما في قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؟

والجواب: أن الدليل على إضمار القول هو كسر همزة (إنَّ)، ولو كان معلقًا بـ ﴿ أَرْسَلْنَا﴾ لفتحت الهمزة كما هو المعلوم.

وهناك قراءة متواترة بفتح الهمزة أيضًا، فيكون المعنى على التعليق بـ ﴿ أَرْسَلْنَا﴾ ويكون المعنى على ذلك أنه أرسله بالإنذار وما بعده.

وقد أنزلت هاتان القراءتان المتواترتان لتدلا على أن نوحًا أرسل بذلك وأنه بلَّغهم بما أرسل به.

قد تقول: ولم حذف القول في قوله: ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ولم يصرح به فيقول: (فقال إني لكم نذير مبين)؟

والجواب: أنه لو ذكر القول لوجب كسر همزة (إن) كما هو معلوم، ولكان المعنى أن ذلك قوله، ولا يفيد معنى آخر.

فلما حذف القول صح أن تفتح همزة (إن) وأن تكسر فيكون لكل منهما معنى.

فالكسر يدل على القول،

والفتح يدل على التعليق بالإرسال، فجمع بين المعنيين، فدل ذلك على أن هذا ما أرسل به وهو ما بلغه.

وهو الأولى.

* * *

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

لقد وصف اليوم بأنه أليم، واليوم لا يكون أليمًا وإنما يقع فيه الألم. وهو تعبير مجازي يدل على اتساع الألم وشدته في ذلك اليوم ووقوعه فيه

على سبيل الاستغراق بحيث يكون اليوم كله شاملاً للألم.

ولو قال: (إني أخاف عليكم عذابًا أليمًا) لاحتمل أن يكون ذلك في وقت من الأوقات دون سائر اليوم.

فلما قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ دل على أن الألم شامل لليوم كله وليس في وقت منه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه إذا ذكر اليوم مع العذاب كما في الآية كان العذاب عامًّا وليس خاصًّا بفرد. وإذا لم يذكر اليوم فقد يكون العذاب واقعًا على فرد واحد وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٥].

ومن الملاحظ أنه لم يوصف اليوم بأنه عظيم أو كبير أو محيط إلا في سياق العذاب ولم يرد في الجزاء الحسن أو في الجنة. فلم يقل في يوم دخول الجنة يوم عظيم أو كبير.

* * *

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]

ذكر الملأ الذين كفروا أمورًا تدعوهم إلى الشك في دعواه وهي:

١ ـ أنه بشر مثلهم فلماذا يؤثره الله بهذا الفضل دونهم؟

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنهم يرون أن الله لو أراد أن يرسل رسولاً لأرسل ملكًا من الملائكة، كما قالوا في موطن آخر: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

٢ ـ أن الذين اتبعوه هم أراذل المجتمع في نظرهم، وأما هم فملأ

القوم أي أشرافهم ، فكيف يرى هؤلاء الأراذل ما لا يراه أشراف القوم من الحق؟

وحتى لو كان نوح على حق فإن هؤلاء لا ينبغي أن يكونوا معهم فيجالسوهم ويخالطوهم.

٣ ـ وعلاوة على ذلك فإن هؤلاء الذين اتبعوه وهم أراذل القوم اتبعوه بادي الرأي ، أي أول الأمر من دون تفكير ولا روية ، ولو فكروا وترووا لم يفعلوا.

٤ ـ أنا لا نرى لكم علينا من فضل لا في حصافة عقل ولا في مكانة اجتماعية فلماذا اختاركم الله دوننا في الرسالة أو التصديق؟

جاء في (تفسير الرازي): «والمعنى لا نرى لكم علينا من فضل لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل. فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات» [(١)].

٥ ـ وذكروا أنهم يظنونهم كاذبين. والخطاب للجميع لنوح وأتباعه ، فنوح في ظنهم كاذب ، وأتباعه في ظنهم كاذبون. فهم لم يؤمنوا به حقًّا وإنما قد يكون إيمانهم لغرض من الأغراض أو أنهم آمنوا به أول الأمر ولم يرجعوا عن ذلك.

لقد قال ههنا: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ من غير توكيد للظن.

وقال في الأعراف: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] فأكده بإن واللام.

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

وقال في الشعراء: ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٦] فأكده بـ (إنْ) المخففة وذلك بحسب المقام الذي يقتضي كل تعبير.

وإيضاح ذلك أن مقام التكذيب في الأعراف أشد من الموطنين الآخرين، فقد قالوا لنبيهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ ﴾ [الأعراف: ٦٦] ولم يرد نحو هذا في الموطنين الآخرين.

ثم إنه كان بينه وبين قومه مشادّة عنيفة، فقد قالوا له: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠]

فردَّ عليهم قائلاً: ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٧١] فناسب ذلك قوة المواجهة في التكذيب.

وأما في الشعراء فالمواجهة أخف مما هي في الأعراف، فقد قالوا لشعيب في الشعراء: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ ـ ١٨٦].

ثم تحدوه قائلين: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

وهو لم يواجههم بتلك الشدة التي واجههم بها في الأعراف، فإنه لم يزد على قوله: ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١٨٨].

فوازن بين قول هود في الأعراف: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ وقول شعيب في الشعراء: ﴿ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١٨٨]

ووازن بين قولهم في الأعراف: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ وقولهم في الشعراء: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾

يتضح لك الفرق بين المقامين ، ويتضح لك الفرق بين التكذيبين.

فجاء التكذيب في الشعراء بـ (إنْ) المخففة.

وأما في هود فالسياق والمقام مختلفان ، فهما لم يكونا بذلك العنف والقوة. فهم لم يزيدوا على ما ذكروا من دون مواجهة عنيفة.

حتى إن نوحًا في رده عليهم لم يكن عنيفًا وإنما قال لهم: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨].

أي لُبّست عليكم البينة.

فكانت المواجهة أخف وكان التكذيب أخف.

فناسب كل تعبير مكانه.

* * *

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨]

بدأ بالرد العام عليهم قائلاً لهم: يا قوم أخبروني إن كنت على بينة من ربي وهي البرهان والحجة التي تثبت صدقي وصحة ما أقول فإنه أيدني بمعجزات تدل على ذلك.

وآتاني رحمة من عنده وهي النبوة خصني بها.

ثم إن هذه البينة أُبهمت عليكم ولُبّست أنلزمكم الحجة مع إبهامها وأنتم كارهون لها لا تحبونها ولا تحبون أن تظهر؟

كيف نلزمكم الحجة وهناك مانعان من ذلك :

١ ـ الإبهام والالتباس .

٢ ـ الكراهة لها ، إذ لو كنتم تحبونها وتودون معرفتها لتوصلتم إلى ذلك بكل سبيل ، ولكنكم تكرهونها فكيف نلزمكم إياها؟

جاء في (الكشاف): «أرأيتم: أخبروني ، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ على برهان ﴿مِّن رَّبِّي﴾ وشاهد يشهد بصحة دعواي ، ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ بإيتاء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة ، ويجوز أن يريد بالبينة المعجزة وبالرحمة النبوة»[١] .

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ : أبهمت وأخفيت[٢] .

والآن لننظر في تأليف هذه الآية :

١ ـ قال (يا قوم) بنداء قومه وأضافهم إلى نفسه تألفًا لهم ومدعاة على أن يستمعوا له .

٢ ـ قال : (أرأيتم) ، ومعنى (أرأيتم) أخبروني ، «ومعنى هذا الفعل منقول من الرؤية إلى معنى الإخبار ، فقولك مثلاً : (أرأيت إن أصبحت أميرًا ماذا أنت فاعل؟) معناه : أنظرت في هذا الأمر؟ فأنت تستخبره عما سألته عنه»[٣] .

فهو لا يطابق (أخبروني) ، فلا تقول في : (أخبرني حين يسافر محمود) مثلاً : (أرأيت حين يسافر محمود) ولكن هذا الفعل فيه معنى التعجيب . جاء في (شرح الرضي على الكافية) : «ومعنى (أرأيت) أخبرْ ،

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٥ .

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢١٦ .

(٣) معاني النحو ٢/ ٤٣٢ .

وهو منقول من (رأيت) بمعنى (أبصرت) أو (عرفت) كأنه قيل: أأبصرته وشاهدت حاله العجيبة، أو أعرفتها، أخبرني عنها. فلا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة» (١).

وفي الآية معنى التعجيب ظاهر، إذ المعنى: أفكرتم ونظرتم إذا كانت البينة مبهمة عليكم وأنتم لها كارهون فكيف نلزمكموها؟ أيصح ذلك؟ أيكون ذلك مقبولاً عقلاً؟!

فاستعماله هنا أنسب من (أخبروني) الذي قد لا يكون فيه معنى التعجيب.

٣ ـ قال: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فذكر أن البينة من ربه، ولم يقل: (من ربكم) لأن البينة جاءته هو، ولو كانت البينة جاءتهم هم لقال: (من ربكم) ذلك أنه حيث كان الكلام على المتكلم نفسه يقول إن البينة من ربي فيضيف الرب إلى ياء المتكلم، وحيث قال: إن البينة جاءتكم يقول: إن البينة من ربكم، بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨].

ونحو ذلك جاء في [هود ٦٣]، و[هود ٨٨].

بإضافة الرب إلى ضمير المتكلم.

في حين قال: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وقال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧٣].

ونحو ذلك قال في [الأعراف ٨٥ و١٠٥]

---

(١) شرح الرضي على الكافية ٢/ ٢١٢.



بإضافة الرب إلى ضمير المخاطبين.

وكل تعبير مناسب في مكانه ، فكل تأتيه البينة من ربه ؛ لأن الرب هو المربي والمعلم والمرشد والموجه فناسب أن تكون البينة من رب من تأتيه.

ومن الطريف أن نذكر أن جميع الأمم السالفة التي خوطبت بنحو هذا الخطاب قيل لها: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وذلك في قوم صالح [الأعراف: ٧٣] ومدين [الأعراف: ٨٥].

وقال موسى لفرعون: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥] إلا الذين أرسل إليهم سيدنا محمد فإنه قال فيهم: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧] ، بزيادة الهدى والرحمة على البينة.

أما الأقوام البائدة فلم يزد فيها على البينة ولم يذكر هدى ولا رحمة ، ذلك أنهم عذبوا وهلكوا.

أما قوم سيدنا محمد فقد هُدوا ورُحموا.

وقال في الأقوام البائدة: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ بتأنيث الفعل لأنها يراد بها المعجزات الدالة على صدق الرسول.

وأما في سيدنا محمد فقد قال: ﴿جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بتذكير الفعل لأن المراد بها القرآن ، فقد قال تعالى في سياق هذه الآيات: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

فذكّر الفعل لأن المراد به مذكر وهو الكتاب.

٤ ـ قال: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ فقدَّم الرحمة على الجار والمجرور ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ وذلك لأن الكلام على الرحمة ، فقد قال في تمام الآية:

﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴾ فالكلام على الرحمة.

في حين قال في السورة نفسها في موطن آخر: ﴿ وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾ [هود: ٦٣] فقدم الجار والمجرور المتصل بضمير الرب أي (منه) لأن الكلام على الله لا على الرحمة، ألا ترى إلى قوله: ﴿ فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾.

فلما كان الكلام على الرحمة قدمها.

ولما كان الكلام على الله قدم ضميره عليها.

٥ ـ قال: ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾، وهو يقول في مواطن أخرى: ﴿ رَحْمَةٍ مِّنْهُ ﴾

ذلك أنه يستعمل ﴿ رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ بذكر كلمة (عند) لما هو أخص فلا يستعمل ذلك إلا مع المؤمنين.

وأما مع (من) فيستعملها عامة للمؤمن والكافر[1]. قال تعالى: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يس: ٤٣ ـ ٤٤].

وقال: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩].

وقال: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص: ٤٣].

أما مع (عند) فلم يستعملها إلا مع المؤمنين.

٦ ـ قال: ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أبهمت وأخفيت، واستعمل (عُمّيت)

---

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني) ٢/ ١٥٠ وما بعدها.

دونَ (أُبهمت) أو (لُبّست) أو نحو ذلك، ذلك أنهم قالوا في الآية السابقة: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧] بذكر فعل الرؤية، ونقيض الرؤية العمى، فلما كانت رؤيتهم لم تهدهم إلى الحق وإلى رؤية البينة ناسب أن يذكر أنها عميت عليهم، فاستعمال (عميت) أنسب بالمقام.

ولما ذكر الرؤية ثلاث مرات ناسب تضعيف التعمية.

وقرى أيضاً (فعَميت) بالتخفيف والبناء للفاعل، أي التبست عليهم البينة.

والقراءتان معًا تفيدان أن البينة التبست عليهم وأُبهمت فهي ملتبسة ومبهمة، فكان الالتباس مضاعفًا عليهم من كل وجه: من الشيء نفسه ومُعمًّى من غيره فزاد ذلك التباسًا وتعمية.

وإيضاح ذلك أنك تقول: (التبس عليه الأمر ولبسته عليه) فالأمر في نفسه ملتبس لا يهتدي إليه صاحبه، فإن زدت على ذلك أنك لبسته أيضًا فإنه يزيد التباسًا. وكما تقول: (عسر عليه فهم المسألة وعُسّر عليه فهمها أيضًا) فجمع ذلك عسرين: عسرها هي وتعسيرها عليه، وكذلك ههنا (عَميت عليهم) و(عُمّيت عليهم) فجمعت القراءتان هذين المعنيين.

وقال: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ ولم يقل: (فعميتم عنها) تلطفًا في الكلام. فنسب ذلك إلى البينة لا إليهم.

٧ ـ قال: ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ فقدم الجار والمجرور (لها) على اسم الفاعل ولم يقل (وأنتم كارهون لها) وذلك لإفادة القصر والاختصاص، أي تخصون هذا الأمر بالكراهة.

أي أنلزمكم البينة وأنتم تخصونها بالكراهة فلا تكرهون شيئًا ككراهتكم لها.



ولو قال: (وأنتم كارهون لها) لأفاد ذلك أنهم يكرهونها ولكن لا يخصونها بالكراهة. فلما قدم الجار والمجرور دل على قصر الكراهة عليها، وبيّن ذلك شدة كراهتهم لها فكيف يلزمهم إياها؟

٨ ـ قال: ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ بالاسم، ولم يقل: (وأنتم لها تكرهون) للدلالة على ثبات هذه الكراهة ودوامها. ولو قال: (تكرهون) لكان ذلك دالاً على الحدوث.

فذكر كل شيء يحول بينهم وبين البينة.

* * *

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩ ـ ٣٠]

قال نوح إنه ليس طالب مال ولا جاه فهو لا يسألهم مالاً ولا يبغي جاهًا، وإنما هو حامل دعوة فهو لا يطرد ما يسمونهم الأراذل فإنهم ملاقو ربهم.

وفي قوله هذا رد على ما قاله الملأ إنهم اتبعوه بادي الرأي من غير تفكير ولا روية. فقال لهم: أنا لا أعلم ذلك وإنما أحكم بظواهر الأمور والله يعلم دخائل النفوس وما في القلوب، وهم ملاقو ربهم، وهو أعلم بهم.

ثم لماذا يتبعني هؤلاء وليس عندي مال ولا جاه ولا سلطان؟

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾: «فإن قلت: ما معنى ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾؟

قلت: معناه إنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم، أو يلاقونه

فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت ، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم ، أو على خلاف ذلك مما تقرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكر. وما عليّ أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون.

ونحوه ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ الآية. أو هم مصدقون بلقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة.

(تجهلون) تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل ، من قوله: (ألا لا يجهلن أحد علينا) أو تجهلون لقاء ربكم ، أو تجهلون أنهم خير منكم»[١].

وجاء في (تفسير الرازي) في قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ . . . ﴾

«اعلم أن هذا هو الجواب عن الشبهة الثانية وهي قولهم: لا يتبعك إلا الأراذل من الناس. وتقرير هذا الجواب من وجوه:

الوجه الأول: أنه عليه الصلاة والسلام قال: أنا لا أطلب على تبليغ دعوة الرسالة مالاً حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيرًا أو غنيًا ، وإنما أجري على هذه الطاعة الشاقة على رب العالمين. وإذا كان الأمر كذلك فسواء كانوا فقراء أو أغنياء لم يتفاوت الحال في ذلك.

الوجه الثاني: كأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم: إنكم لما نظرتم إلى ظواهر الأمور وجدتموني فقيرًا وظننتم أني إنما اشتغلت بهذه الحرفة لأتوسل بها إلى أخذ أموالكم ، وهذا الظن منكم خطأ فإني لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا إن أجري إلا على رب العالمين فلا تحرموا أنفسكم من

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٦.

سعاة الدين بسبب هذا الظن الفاسد»(١).

والآن ننظر في هذا التعبير من الناحية البيانية:

١ ـ فقد قال ههنا: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ . . .﴾ وفي جميع المواطن الأخرى وردت كلمة (أجر) بدل المال، وذلك كما في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ [هود: ٥١]، وقوله: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، وكما في آيات أخرى نحو ما جاء في الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ وغيرها.

قيل: وذلك أنها وقعت بعدها كلمة (خزائن) «ولفظ المال بالخزائن أليق»(٢) فقد جاء بعدها على لسان نوح: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٣١] فناسب ذكر المال.

٢ ـ نفى السؤال بـ (لا) فقال: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾، وحيث نفى هذا الفعل بـ (لا) جرد مفعوله من (من) الاستغراقية، وذلك نحو قوله: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ [الأنعام: ٩٠] وكما في آيات عدة، منها في هود ٥١، يس ٢١، الشورى ٢٣.

وحيث نفاه بـ (ما) أدخل (من) الاستغراقية على المفعول فيقول مثلاً: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وذلك في آيات عدة، منها في الفرقان ٥٧، الشعراء ١٠٩و ١٢٧ و١٤٥، ص ٨٦ وغيرها، وذلك في جميع القرآن بلا استثناء.

ولعل من أسباب ذلك أن (لا) أكثر إطلاقًا من (ما) وأوسع استعمالاً، بل هي أوسع حرف نفي(٣).

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٣٣٦.
(٢) البرهان للكرماني ٢٣٤ ـ ٢٣٥، وانظر التعبير القرآني ٢١٠.
(٣) انظر معاني النحو ٤/ ٥٨٠ وما بعدها.

وهي إذا دخلت على الفعل المضارع فقد تنفي جميع الأزمنة ،

فهي قد تنفي الحال أو الاستقبال أو الاستمرار وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ ﴾ [النمل : ٢٠] ، وقوله : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ [الصافات : ٩٢] وهي فيهما لنفي الحال .

وقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة : ٤٨] وهي هنا لنفي الاستقبال .

وقوله : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه : ٦٩] ، وقوله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقولك : (الأعمى لا يبصر) وهذا للاستمرار .

وأما (ما) إذا دخلت على الفعل المضارع فإنها لنفي الحال .

وإن النكرة المنفية قد تكون عامة وقد تكون للواحد . فقولك : (ما جاءني رجل) يحتمل أنه لم يأتك أحد من جنس الرجال ، كما يحتمل أنه لم يأتك رجل واحد بل أكثر .

فإن دخلت عليها (من) كانت لاستغراق الجنس نصًّا .

فمع (لا) جاء بما يحتمل الجنس والمفرد مناسبة لإطلاق (لا) .

ومع (ما) جاء بما هو للجنس نصًّا . فناسب التنصيص على الحال التنصيص عل الجنس .

٣ ـ قال : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأكد النفي بالباء الزائدة .

وجاء بـ (طارد) اسم الفاعل للدلالة على الدوام، أي إن هذه هي حاله الدائمة . ولم يقل : (ولا أطرد) أو (ولن أطرد) بالفعل فيدل على الحدوث وعلى زمن معين، وإنما هو لا يطردهم على سبيل الدوام والثبات .

٤ ـ وأضاف اسم الفاعل (طارد) إلى ما بعده وهو الاسم الموصول

ولم ينون اسم الفاعل ، فلم يقل : (وما أنا بطاردٍ) ، وذلك للدلالة على إطلاق الزمن ، أي لم أفعله في الماضي ولا أفعله في الحال ولا في الاستقبال.

ولو نوّن لكان عدم الطرد في الحال أو في الاستقبال ؛ لأنَّ اسم الفاعل إذا عمل في المفعول كان للحال أو الاستقبال.

٥ ـ قال هنا : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ .

وقال في الشعراء في القصة نفسها : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٤] .

فجعل صلة الموصول في آية هود فعلاً (الذين آمنوا) .

ووصفهم بالإيمان على جهة الثبوت في الشعراء (المؤمنين) وذلك لأن الكلام في هود كان في زمن أسبق مما هو في الشعراء ، فقد قال الملأ في هؤلاء : ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ﴾ [هود : ٢٧] .

في حين كان الكلام في الشعراء على ما بعد ذلك ، فقد لبث فيهم نوح زمنًا يدعوهم بعد ذلك حتى هددوه بالرجم إن لم يكفّ ، ولم يفعلوا مثل ذلك في سياق آيات هود ، وإنما قالوا له : ﴿ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [هود : ٣٢] فدل ذلك على أن المشهد في الشعراء إنما كان بعد ما قضى مرحلة طويلة وبرموا به فهددوه بالرجم وإن نوحًا برم بهم فدعا ربه قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٧ ـ ١١٨] ، فوصف جماعته ههنا بالإيمان الثابت لصبرهم وثباتهم والدلالة على أن إيمانهم عن يقين وليس إيمانًا بلا تروٍّ ولا تمحيص ، فكان كل وصف في مكانه أنسب.

٦ ـ قال : ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فقال : (أراكم) كما قالوا

له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ فكأنه رد على ما قالوه فيه وما كانوا يرونه.

فقد قالوا له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ فقال لهم: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

٧ ـ قال ههنا: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وكذلك قال في الأحقاف (٢٣) فقال في الموطنين: (أراكم).

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وقال في النمل: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥] ولم يقل فيهما: أراكم.

ذلك أن الكلام في هود والأحقاف فيما يراه كلا الفريقين من الدعوة إلىٰ التوحيد، فقد قال ذلك في قصة نوح بعدما دعاهم إلى عبادة الله قائلاً: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦] وما واجهه قومه به.

وقال ذلك في قوم عاد بعد أن قال لهم نبيهم: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] وما واجهه قومه به.

فكان الكلام فيما يراه كل فريق في الآخر.

وأما في سياق آية الأعراف فليس كذلك، وإنما قال ذلك موسى لقومه بني إسرائيل بعدما أغرق آل فرعون أمام أعينهم وجاوز بهم البحر، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٣٩] فقد قال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ مؤكدًا ذلك بـ (إنَّ) ولم يقل: (أراكم) ذلك أن هؤلاء مؤمنون بما جاء به موسى، وقد أنجاهم الله وأغرق آل فرعون بمعجزة شاهدوها وعاشوها ومع ذلك طلبوا أن يجعل لهم نبيهم صنمًا يعبدونه كما



يفعل عبدة الأصنام ، أليس هذا من أعجب العجب؟!

لماذا إذن أنجاهم الله وأغرق آل فرعون إذا كان كل منهم يعبد غير الله؟

فقال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولم يقل: (أراكم) ، فهذا ليس ما يراه وإنما هو أمر محقق مؤكد.

وأما ما ورد في سياق آية النمل فهو في قوم لوط وما يأتونه من الفاحشة. قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٥].

وهذه فاحشة معلنة ، ومن يأتيها واقع في المنكر لا محالة ، فليست هي في سياق مناقشة أفكار ، وإنما هو تقرير أمر واقع وليس رأيًا يراه نبيهم فيهم ، فقال لهم مقررًا: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فمن يفعل ذلك كان كذلك ، ليس على رأي دون آخر.

وقال في قوم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ بالتأكيد بإنَّ ، وقال في قوم لوط: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولم يؤكده بإن كما فعل موسى مع قومه ؛ وذلك لأن جهل بني إسرائيل أكبر ، فهم مع إيمانهم لموسى وبدعوته طلبوا صنمًا ليعبدوه ، فهذا من أكبر الجهل ، وهو أكبر من فعل الفاحشة.

فالمؤمن بالله الموحّد إذا عبد صنمًا كان فعله أكبر وأعظم ممن فعل الفاحشة ، فهذه ردة بعد الإيمان وشرك بعد التوحيد.

والشرك أكبر الكبائر ، وقد ذكر ربنا أن الله لا يغفر للمشرك ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨] فناسب تأكيد جهل قوم موسى بإن دون قوم لوط مع نسبتهما كليهما إلى الجهل والله أعلم.

* * *

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠]

ذكر أمرين يمنعان من طرد من آمن معه:

الأمر الأول: أنهم ملاقو ربهم وهو أعلم بحالهم.

والأمر الآخر: أنه ليس ذلك إليّ ولا أستطيعه، فإن فعلت فإن الله سيعاقبني ولا ينجيني أحد منه. ومن ذا الذي ينصرني من الله إن طردتهم؟

وقال: ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ ولم يقل: (إن أطردهم) أي لا أحد ينجيه من الله إن طردهم ولو مرة واحدة. فكيف إذا كرر طردهم؟!

وهذا يدل على أنه إن طردهم ولو مرة يوجب عليه العقاب.

وقال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ولم يقل: (أفلا تتذكرون) أي إن هذا الأمر لوضوحه وظهوره لا يحتاج إلى طول تذكر وإنما هو أمر ظاهر. فإنهم عباده وهم ملاقوه وهو أعلم بحالهم.

ثم إني إن فعلت ذلك عاقبني ربي ولا ينجيني أحد منه، فإنه هو الذي أرسلني وكلفني تبليغ دعوته لعباده. والكل عباده غنيهم وفقيرهم.

* * *

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٣١]

ثم ذكر أنه ليس عنده مغريات تدعو إلى اتباعه بسببها، فهو لا يملك المال الكثير حتى يتبعه طلاب المال. والناس إنما يستهويهم المال أكثر ما يستهويهم كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ [الفجر: ٢٠].

وهو لا يعلم الغيب، ولا يظننّ أحد أني لكوني رسول الله أعلم الغيب فأنا لا أعلم الغيب، ولذا لا أستطيع أن أصنف الناس فأعلم المؤمن من



مدعي الإيمان وإنما علم ذلك إلى الله ، ولا أستطيع أن أجيب عما يحصل في المستقبل ، ولا من يريد أمرًا من أمور الغيب يجد جوابه عندي.

ولا أقول إني ملك وإنما أنا بشر كما تقولون.

فإذا كان الفضل تحسبونه في هذه الأشياء فما لي عليكم من فضل.

ثم إني لا أقول للذين تزدرونهم لن يؤتيهم الله خيرًا ، وهذا توكيد لعدم علم الغيب. ثم أكد ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فالله هو الذي يعلم بما في أنفسهم ، وأما أنا فلا أعلم الغيب.

فهو لا يملك ـ كما هو واضح من كلامه ـ مغريات تدعو الفقير أو الغني إلى اتباعه بسببها ، وإنما هي دعوة إلى عبادة الله ، والله هو الذي يجزي عن ذلك وليس إليه شيء منه.

جاء في (الكشاف): «لا أقول: عندي خزائن الله ، ولا أقول: أنا أعلم الغيب ، ومعناه: لا أقول لكم عندي خزائن الله فأدعي فضلاً عليكم في الغنى حتى تجحدوا فضلي بقولكم ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾.

ولا أدعي علم الغيب حتى تنسبوني إلى الكذب والافتراء أو حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا لي: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ، ولا أحكم على من استرذلتم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيرًا في الدنيا والآخرة لهوانهم عليه كما تقولون مساعدة لكم ونزولاً على هواكم» (١).

ومن الملاحظ في هذا التعبير:

١ ـ إنه قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ فجاء بالفعل المضارع (أقول) ونفاه

(١) الكشاف ٢/ ٩٦.

بـ (لا) ، ولم يقل: (ما أقول) أو (ما قلت) أو (لم أقل) للدلالة على الاستمرار في عدم القول. فهو لا يقوله في حال من الأحوال.

فهو لم ينفه بـ (ما) فلم يقل: (ما أقول) فيكون النفي للحال فقط.

كما هو لم يقل: (ما قلت) أو (لم أقل) فيكون النفي في الماضي، وقد يقوله في وقت آخر. وإنما نفاه بـ (لا) التي تستعمل لجميع الأزمنة.

٢ ـ وقال: ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ بإضافة الخزائن إلى الله ولم يقل: (خزائن لله) فتكون الخزائن نكرة، وقد تكون الخزائن قليلة أو كثيرة، فلو كانت ثلاثًا صح ذلك. ولكنه قال: ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فشملت جميع خزائنه، وذلك أدعى إلى اتباعه لو كانت عنده.

٣ ـ قال هنا: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾

وقال في الأنعام على لسان سيدنا محمد: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام: ٥٠] فكرر (لكم) ذلك أن المقام في هود مقام التلطف بقومه، فقد قال قبلها: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي. . . وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ . . . وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ . . . وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾.

«فتأمل جليل ملاطفته عليه السلام لهم، وما يُفهم من كلامه من عظيم الإشفاق من حالهم، وإرادته ما به نجاتهم من العذاب، ومن أخذه بمرتكباتهم. فهذا كله استلطاف في الدعاء لا يناسب تكرار كلمة تفهم تعنيفًا أو توبيخًا، والتأكيد والتكرار يفهم ذلك ويردان حيث يُقصَد»(١).

أما السياق في الأنعام فهو في مقام التبكيت والتعنيف، فقد قال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٢٨.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦ ـ ٤٧].

وقد يكرر ضمير الخطاب في نحو هذا المقام «فتكرر فيها قوله: (لكم) تأكيدًا يفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتقريع»(١).

٤ ـ قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ فقال: (تزدري) بالفعل المضارع، ولم يقل (ازدرت) للدلالة على الاستمرار، قيل: أو لحكاية الحال(٢).

٥ ـ قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ فحذف العائد، والأصل (تزدريهم)، فحذف العائد إكرامًا لهم لئلا ينال الازدراء ضميرهم صراحة.

ونحو ذلك يكون في كلامنا، فإذا أردنا أن نكرم أحدًا فلا نعدي إليه فعلاً فيه إهانة، فلا نقول مثلاً: (أنا ما شتمت فلانًا) أو (أنا لم أضربه) وإنما نحذف المفعول إكرامًا له.

فكما نذكر المفعول إكرامًا وذلك كقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [الزمر: ١٨] قد يحذف المفعول إكرامًا أو لغير ذلك من الأغراض.

٦ ـ وقال: ﴿لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ فأسند الازدراء إلى الأعين ولم يقل (للذين تزدرونهم) فيسند الازدراء إليهم. وذلك أنه أراد إكرامهم أيضًا، فكأنه قال: (أنتم ترون ظواهرهم ولم تخبروا حقيقتهم)، وهذا الازدراء إنما وقع من ظاهر الرؤية، والمرأى قد لا يدل على الحقيقة،

---

(١) ملاك التأويل ١/ ٣٢٩.

(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ٤٣.

فكم من رجل تزدريه عيناك وهو في الحقيقة رجل أيّ رجل.

ثم إن هذا التعبير مناسب لقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ فعلقوا ذلك بالرؤية، والرؤية إنما تكون بالعين، فناسب أن يقول: ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ فكأنه قال: إنما حكمتم بالظواهر ولم تدركوا الحقائق.

٧ ـ قال: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فجاء بـ (لن) الدالة على الاستقبال، وهذا الاستقبال عام قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة وقد يكون فيهما.

فإن تكن تزدريهم الأعين الآن فلربما يتغير الحال في المستقبل، فقد يصبح الفقير غنيًا، وقد يكون ممن يملأ العين.

وقد يكون ذلك في الآخرة، وقد يكون فيهما، وكل ذلك استقبال، فجاء بحرف الاستقبال.

٨ ـ وقال: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ فجاء بضمير الغيبة ولم يقل: (لن يؤتيكم الله خيرًا) بضمير الخطاب. وكان الأصل أن يقول ـ كما هو ظاهر السياق ـ (ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيكم الله خيرًا). قيل: وقد عدل عن ذلك إلى قوله: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ لأن اللام ليست للتبليغ وإنما هي لبيان العلة أي لأجلهم.

جاء في (روح المعاني): «واللام للأجل لا للتبليغ وإلا لقيل فيما بعد: (يؤتيكم)»(١).

وقد يكون لغرض آخر لطيف وهو أن الإنسان قد يتكلم في الشخص في غيبته ما لا يستطيع أن يواجهه به تلطفًا أو حياء أو خوفًا أو لأي سبب.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٤٣.

فقد تقول: (إن فلانًا لا يصلح لهذا المنصب) ولكن لا تقول ذلك له مواجهة.

وسيدنا نوح قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ أي لا أقول ذلك في غيبتهم مع أنه في مأمن من أن يسمعوا كلامه فيتأثروا إكرامًا لهم. ولا شك أنه لا يقول ذلك في حضرتهم وهم يسمعون كلامه من باب أولى.

فأنت ترى أنه حذف مفعول (تزدري) وهو العائد، وأسند الازدراء إلى الأعين ليدل على أن هذا حكم بالظاهر.

وقال: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ﴾ بضمير الغيبة ليدل على أنه لا يقول فيهم ما يسيء إليهم في غيبتهم فكيف في حضورهم؟

وكل ذلك مما يدل على إكرام هؤلاء الذين تزدريهم الأعين.

ثم إنه جعل باب الاحتمال مفتوحًا في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، فلربما آتاهم الله خيرًا يجعلكم تندمون على ما قلتم في حقهم.

وهذا من ناحية فيه تخفيف من غلواء القوم فيهم، ومدعاة إلى إكرامهم من ناحية أخرى.

٩ ـ قال: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ توكيداً لما قاله: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾.

وقال ههنا: ﴿بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ فجاء بالأنفس بجمع القلة.

وقال في سورة الإسراء: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٢٥] فجاء بالنفوس بجمع الكثرة؛ وذلك لأن آية هود في جماعة نوح من المؤمنين وهم قلة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠].

وأما الخطاب في الإسراء فلعموم الخلق من المكلفين وهم كثير ولا

شك. فجاء بالجمع الذي يناسب المقام في كل تعبير.

١٠ ـ وقال في هود: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ بذكر لفظ الجلالة.

وقال في الإسراء: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ بذكر الرب، ذلك لأن الكلام في هود في مقام العبادة، فقد قال لهم نوح: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فناسب ذكر لفظ الجلالة.

وأما في الإسراء فهو في مقام الإحسان إلى المربي وهما الوالدان، فقد قال تعالى في هذا السياق: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا...﴾ [الإسراء: ٢٣]

والوالدان يربّان أبناءهم، أي يربيانهم.

والرب هو المربي، فناسب ذكر الرب.

١١ ـ ثم ختم بقوله: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بتأكيد ذلك بإن واللام.

والطريف أن يتفق ما قاله أول رسول مذكور في القرآن لقومه وهو سيدنا نوح مع ما أمر به أن يقوله خاتم الرسل لقومه، مما يدل على وحدة الرسالة ووحدة موقف المجتمع البشري منها منذ فجر التاريخ إلى حين نزول الرسالة الخاتمة.

فقد قال سيدنا نوح: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾.

وأُمر سيدنا محمد أن يقول نحو هذا القول، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال نوح: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٩].

وقال ربنا لسيدنا محمد: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ



يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

مما يدل على وحدة الطلب من هذين المجتمعين المتباعدين مع ما بينهما من تطاول القرون.

ووُصف من فعل ذلك بالظلم في الحالين فقال نوح: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال ربنا لسيدنا محمد: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

مما يدل على أن من فعل ذلك بمؤمن إرضاء لكافر كان من الظالمين.

* * *

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]

بعد أن أسقط الشبه التي ذكروها فيه وفي أتباعه ولم يبق عندهم ما يحتجون به أرادوا أن يقطع الجدال معهم، إذ لا فائدة من الكلام والجدال وإن طال وكثر.

فقالوا له: إنك قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا به من العذاب الأليم إن كنت صادقًا في دعواك. وقالوا: ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾ ولم يقولوا: (تجادلُنا)، وقالوا: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ ولم يقولوا: (فكثر الجدال بيننا) وذلك ليدل على أنه هو الذي كان يتعرض لهم ليدعوهم ويكثر جدالهم، ولم يترك الأمور لتجري على ما هي عليه، بل كان يلاحقهم ليدعوهم إلى ربهم، وذلك شأن الدعاة الذين يحملون همّ الدعوة. فلم يكفّ ولم يفتر ولم تثنه كثرة التكذيب أو السخرية عن دعوتهم فلعلهم يلينون أو يرعوون، ولكن الأبواب كانت موصدة دونه،

كما قال تعالى على لسانه في التقرير النهائي: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٧].

وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ بالفعل المضارع (تعدنا)، ولم يقولوا: (فائتنا بما وعدتنا) بالفعل الماضي، للدلالة على أنه كان يكثر تذكيرهم بما يعدهم به.

وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ ولم يقولوا: (فائت بما تعد) أو (فائتِ بما تعدنا) أو (فائتنا بما تعد) للدلالة على عدم المبالاة بما ينذرهم وشدة تكذيبهم، فهم طلبوا أن يأتيهم هم بما وعدهم.

فكان لهم ما أرادوا، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.



﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]

فقال لهم: إن الأمر ليس إليّ، وإن الأمر الذي أعدكم به لا يستطيع بشر أن يفعله أو يأتي به، إنما أمره إلى الله وهو الذي يأتيكم به إن شاء.

وجاء بـ (إنما) للدلالة على أن ذلك بيد الله حصرًا لا يقدر على ذلك غيره.

وقال: ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ ولم يقل: (يأتي به) فيجعله عامًّا؛ ذلك لأنهم قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ فأرادوا ذلك لأنفسهم، فقال لهم: ﴿يَأْتِيكُم بِهِ﴾ فيصيبكم أنتم.

وقال: ﴿إِن شَآءَ﴾ فجعل ذلك مرتبطاً بمشيئته. وهذا تأكيد لعدم علمه وعدم قدرته. فلم يقل: (إنه سيأتيكم) وإنما أعاد ذلك على مشيئة الله،

ونسب الإتيان به إلى الله.

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ «بدفع العذاب أو الهرب منه»[(١)].

وقد أكد عدم إعجازهم بالباء الزائدة.

وجاء باسم الفاعل ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ ولم يقل: (تعجزون) للدلالة على ذلك على جهة الدوام والثبوت. فهم لا يعجزونه أبدًا على كل حال. وقد مَرَّ بيان نحو ذلك في آية سابقة.

وقد أطلق نفي الإعجاز من كل متعلق لا في مكان دون مكان، ولا في زمان دون زمان، ولا غير ذلك من المتعلقات، بل إن ذلك على جهة الإطلاق والدوام.

وفي الآية أكثر من تهديد وتخويف:

١ ـ فقد قال: ﴿ إِنَّمَا﴾ للدلالة على القصر، وأن الذين توعدون به أمر عظيم لا يستطيع أن يفعله غير الله.

٢ ـ وقال: ﴿ يَأۡتِيكُم﴾ فعدَّاه إلى ضميرهم للدلالة على أن ذلك إنما يأتيهم هم حصرًا، ولم يقل: (يأتي) على العموم فيصيبهم أو لا يصيبهم.

٣ ـ قال: ﴿ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ فقدَّم الجار والمجرور المتصل بضمير العذاب على الفاعل وهو الله.

ولم يقل: (إنما يأتيكم الله به) وذلك لأكثر من سبب:

منها: الدلالة على عظم ما سيأتيهم فلذلك قدمه.

ومنها: أن الكلام في سياق الآيات فيما بعد على ما سيأتيهم والتفصيل فيه.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢٩٥.

والسبب الآخر: أن ذلك ما يقتضيه المعنى، ذلك أن المعنى (ما يأتيكم به إلا الله)، فـ (إنما) أداة حصر وهو من باب قصر الفعل على الفاعل.

ولو قال (إنما يأتيكم الله به) لكان المعنى (ما يأتيكم الله إلا به) فيكون من باب قصر فعل الفاعل على شيء واحد، وهو غير مراد ولا يصح، إذ سيكون المعنى: لا يأتيكم الله إلا بهذا الشيء، وهو لا يصح إذ لربما يأتيهم من أمور العذاب والآيات أمور أخرى لا يعلمها إلا الله.

٤ ـ أسند ذلك إلى لفظ الجلالة تصريحًا، وفيه من التهديد والتخويف ما فيه، فلم يسند إلى وصف دون وصف، بل إلى الاسم الجامع لكل الأوصاف.

٥ ـ وعلق ذلك بمشيئته فقال: ﴿إِن شَآءَ﴾ لأن ذلك عائد إليه حصرًا، ولو شاء الخلق كلهم أن يفعلوا ولم يشأ الله ذلك لما استطاعوا.

وهذا دال على عظم ما سيصيبهم من الموعود.

جاء في (روح المعاني): «﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي إن ذلك ليس إليّ ولا مما هو داخل تحت قدرتي، وإنما هو لله عز وجل الذي كفرتم به وعصيتم أمره يأتيكم به عاجلاً أو آجلاً إن تعلقت به مشيئته التابعة للحكمة.

وفيه كما قيل ما لا يخفى من تهويل الموعد، فكأنه قيل: الإتيان به خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله تعالى.

وفي الإتيان بالاسم الجليل الجامع تأكيد لذلك التهويل»[1].

٦ ـ ثم قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ وذلك للدلالة على ضعفهم

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٤٥.

وعجزهم على جهة الإطلاق والثبات والدوام.

فهو دال على عظم ما يوعدون به ، وعلى عجز من يقع عليهم. وفي ذلك تهديد وتحذير عظيمان للذين يفقهون.

* * *

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣٤]

يعني: إذا نصحتكم وأنا أريد لكم النصح لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد غير ذلك ، فإن الإنسان قد ينصح شخصًا وهو ـ أي الشخص الناصح ـ لا يرغب في نصحه ولا يريد ذلك ، ولكن قد ينصحه لسبب من الأسباب ، فإنه في هذه الحال لا يبالغ في النصح ولا يهتم به ، ولكنه إذا أراد النصح وهو حريص على ذلك فلا شك أنه سيبالغ في النصح بكل ما أوتي من مقدرة.

فقال لهم نوح: إنه لا ينفعكم نصحي وإن أردت ذلك ، أي مع إرادتي لنصحكم ورغبتي فيه وشدة اهتمامي به إن كان الله يريد أن يغويكم.

وهذا بيان لعظيم قدرة الله ، فإنه إن نصحهم بهذه الحال وهذا الاهتمام وكان الله يريد أن يغويهم لم ينفع نصحه لهم. فمجرد إرادة الله الإغواء تمنع من النفع.

فهو لم يقل: (لا ينفعكم نصحي وإن بالغت في ذلك إن كان الله أغواكم) فيجعل فعله بمقابل الإغواء ، وإنما قال: (لا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم) فجعل عدم النفع بمقابل إرادة الإغواء ، فمجرد الإرادة تمنع من الانتفاع فكيف إذا فعل؟

جاء في (روح المعاني): «وإنما اقتصر في ذلك على مجرد إرادة

الإغواء دون نفسه حيث لم يقل: (إن كان الله يغويكم) مبالغة في بيان غلبة جنابه جل جلاله، حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم نفعًا عند مجرد إرادة الله تعالى إغواءهم فكيف عند تحققه وخلقه فيهم» (١).

قد تقول: لقد قال في الأعراف: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

فذكر أنه ينصح لهم، ولم يقل كما قال ههنا: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾.

فلم ذاك؟

فنقول: إن السياق في كل منهما مختلف.

فإن السياق في الأعراف كان في بيان أول الدعوة، وقد ذكر مهمته لقومه وهي أنه رسول من رب العالمين يبلغهم رسالات ربه وينصح لهم.

وأما في هود فالسياق مختلف، فإنه قال ما قال بعدما تطاول الزمن وكثر الجدال بينه وبين الملأ من قومه، وبعدما أوصدوا الباب دونه وطلبوا منه أن يأتيهم بما يعدهم به. فقال لهم: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ فقد قال لهم ذلك بعد أن لم ينفعهم نصحه مع حرصه على ذلك وتطاول الزمن فناسب أن يقول لهم ذلك. ولا يناسب أن يقول هذا لهم في أول الدّعوة وعند أول التبليغ.

فكان كل تعبير أنسب في مكانه.

لقد قال في المؤمنين الذين ازدروهم ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.

وقال للملأ الذين كفروا: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٤٧.

فقوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ بمقابل ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

وقوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾ بمقابل ﴿رَبُّكُمْ﴾

والتعبيران إنما هما في الرجوع إلى الله ولقائه.

ومعنى قوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي ليس لكم رب غيره.

وبذا يكون قد دعاهم إلى توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

فتوحيد الألوهية دعاهم إليه بقوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

وتوحيد الربوبية هو قوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يعني ليس لكم رب غيره.

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني أنكم ترجعون إليه حصرًا لا إلى غيره.

غير أن ثمة فرقًا بين اللقاءين، فإن المؤمنين ملاقوه وهم مطيعون له مستجيبون لأمره.

وأنتم ملاقوه وأنتم كافرون به عاصون لأمره.

لقد قال في المؤمنين: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾.

ولم يقل في الكافرين كذلك، وإنما قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ولعل سبب هذا الاختلاف أو من أسبابه أن القرآن يستعمل التعبير ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ ونحوه في المؤمنين ولم يستعمله في الكافرين، واستعمله في عموم الإنسان مرة واحدة.

قال تعالى فيمن أوتي كتابه بيمينه: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢٠ ـ ٢١].

وقال في الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال في جنود طالوت الصابرين: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال ربنا مخاطبًا المؤمنين: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال ربنا مخاطبًا الإنسان على العموم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

ولم يستعمل نحو هذا في الكافرين.

قد تقول: ولكنه قال في اليهود: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ﴾ [الجمعة: ٨].

فنقول: إنه لم يقل إنهم ملاقو الموت ولكن الموت هو الذي ملاقيهم. ونحن قلنا فيمن يلاقونه لا فيما يلاقيهم.

ومن جهة أخرى أنه لم يستعمل ذلك مع الله وإنما مع الموت، ونحن قلنا ذلك في لقاء الرب.

فاختلف التعبيران والسياقان.

وأما ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فهي عامة في المؤمن وغيره، وأكثر ما تستعمل للعموم.

* * *

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥]



قيل: إن هذه الآية من كلام قوم نوح، أي يقولون افترى الوحي على الله.

وقال آخرون: إن هذه الآية معترضة في قصة نوح والقائلون مشركو مكة، أي افترى محمد خبر نوح أو افترى القرآن[١].

ومنطوق الآية يصلح في كل رسول كذبه قومه ورموه بالافتراء على الله.

والرد يصلح على كل من قال هذا القول.

فقوم نوح رموه بالافتراء على الله، والرد يصلح ردًّا عليهم.

وهناك أقوام آخرون رموا رسلهم بالافتراء على الله، والرد يصلح ردًّا عليهم.

ومشركو قريش رموا سيدنا محمدًا بالافتراء على الله. وذكر القرآن ذلك في أكثر من موضع ورد عليهم في كل موضع بما يناسب قولهم.

وهذا الكلام يصلح أن يكون في الكلام على سيدنا محمد، والرد يصلح أن يكون ردًّا عليهم.

فالأمر لا يختلاف أيًّا كان القائل والجواب يصلح للجميع.

واختلف في معنى الآية:

فقد قيل إن معناها: إن افتريته فعليّ إثم ذلك، وأنا بريء مما ترتكبون من الآثام «والكفر والتكذيب»[٢]. فكل منا محاسب عما يعمل كما قال تعالى: ﴿أَنتُمْ بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ٤٨، تفسير الرازي ٦/ ٣٤٣، البحر المحيط ٥/ ٢٢٠.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٢٠.

وقيل إن معناها: إن افتريته فعليّ عقوبة افترائي.

ولكن الحقيقة أني بريء مما تنسبونه إليّ من الافتراء.

وادعاؤكم أني افتريته هو إجرام. فأنت إذا نسبت الافتراء إلى شخص وكان بريئًا من ذلك فأنت مجرم في حقه.

جاء في (الكشاف): «والمعنى: إن صح وثبت أني افتريته فعليّ عقوبة إجرامي: أي افترائي، وكان حقي حينئذ أن تعرضوا عني وتتألبوا علي.

﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾ يعني ولم يثبت ذلك وأنا بريء منه.

ومعنى ﴿مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ. فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم»[1].

والمعنيان صحيحان يصلحان لكل من قال ذلك.

وقال: ﴿إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ ولم يقل: (وأنا بريء من إجرامكم) كما قال: ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ ذلك لأنهم رموه بأمر واحد وهو الافتراء فقال: ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾.

وأما هم فإجرامهم مستمر من الكفر والتكذيب وغيرهما من الآثام فقال: ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ أي مما أنتم مستمرون عليه من الإجرام.

* * *

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]

بعد أن أغلقوا باب الجدل بينهما وتحدوه أن يأتي بما يعدهم إن كان صادقًا أوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فلا يدخل أحد في دينه بعد.

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٧.



قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾ ببناء الفعل للمجهول: (أوحي).

وقال في سورة المؤمنين: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧] بالبناء للمعلوم فلم ذاك؟

والجواب من أكثر من وجه:

من ذلك أن نوحًا دعا ربه في سورة المؤمنون لينصره ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦] فاستجاب له ربه فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ فالذي طلب منه النصر استجاب له فقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ ولم يقل: (فأوحي) بحذف فاعل الاستجابة.

والأمر الآخر: أنه حيث جاء فعل أمر متصل بالإيحاء لم يقل: (أوحي) بالبناء للمجهول، وإنما يذكر الفاعل فيقول: (أوحينا) أو (أوحيت) أو (أوحى ربك) ونحوه.

قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧].

وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [طه: ٧٧].

وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١].

وقال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨].

ولما جاء أمر بعد الإيحاء في آية المؤمنون وهو قوله: ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ ناسب ذلك قوله: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ﴾ من هذا الوجه أيضًا.

﴿لَن يُؤْمِنَ﴾

نفى فعل الإيمان بحرف الاستقبال (لن) للدلالة على أنه لا يؤمن له أحد في المستقبل، فإن الأمر انتهى ولا فائدة من دعوتهم.

﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

أي لا تحزن لما كانوا يفعلونه من استهزاء وتكذيب وإيذاء(١).

وقال ههنا: ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ بذكر الفعل (يفعلون).

وقال في سورة يوسف: ﴿ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فقال: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ فذكر العمل، ذلك أنه يستعمل الفعل (فعل) مع الإهلاك ولم يستعمل الفعل (عمل). قال تعالى: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال: ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

ولم يرد في نحو هذا (عمل).

ثم إن ربنا يستعمل الفعل (فعل) في عقوبات الأقوام وإهلاكهم ولم يستعمل (عمل)

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر: ٦].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [الفيل: ١].

وقال: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

وقال: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٨].

ولم يقل في نحو هذا: (عمل).

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ٤٩.

فلما قضى ربنا إهلاك قوم نوح استعمل الفعل الذي يستعمله في الإهلاك فقال: ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي إن فعلهم يقتضي إهلاكهم كما قال: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ فإن فعل هؤلاء يقتضي إهلاكهم.

وليس الأمر في قصة يوسف كذلك، فاستعمل فعلاً آخر يؤدي إلى المعنى المقصود. والله أعلم.

* * *

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧]

بدأ بما فيه النجاة وهو صنع الفلك وقدمه على مصير الظالمين وهو الإغراق. وهذا هو الكثير في القرآن في قصة نوح وغيرها، يقدم نجاة المؤمنين على إهلاك الكافرين وذلك نحو قوله: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [الأعراف: ٦٤] فقدم نجاة المؤمنين على إغراق الذين كذبوا.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ [يونس: ٧٣].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا . . . وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٦ ـ ٦٧].

وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٩٤] وغيرها.

ومعنى (بأعيننا): برعايتنا وحفظنا، وجاءت بالجمع للدلالة على تكثير الحفظ وديمومته كما قيل.

جاء في (البحر المحيط): (بأعيننا) «بمرأى منا وكلاءة وحفظ. . . وجمعت هنا لتكثير الكلاءة والحفظ وديمومتها» [١].

وجاء في (روح المعاني): «الأعين حقيقة في الجارحة وهي جارية مجرى التمثيل، كأن لله سبحانه أعينًا تكلؤه من تعدي الكفرة ومن الزيغ في الصنعة، والجمع للمبالغة. . . وقيل: المراد من أعيننا ملائكتنا الذين جعلناهم عيونًا على مواضع حفظك ومعونتك» [٢].

(ووحينا) أي تعليمنا لك كيف تصنعها[٣].

ولما قدم ما فيه نجاتهم وهو الفلك قدم ما يدل على عنايته وحفظه لهم، وما يدفع الشر عن الفلك، وحفظها مما يمنعه من العمل في إتمامها وذلك قوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾.

فقدم كل ما يتعلق بالنجاة والحفظ، من صنع الفلك وحفظ الله ورعايته.

ثم قال: (ووحينا) أي تعليمنا لك كيف تصنعها.

وهذا يقتضي مراقبة ما يعمل ثم توجيهه إلى أن يستكمل صنعها، وذلك يقتضي أيضًا تقديم قوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ على قوله: ﴿وَوَحۡيِنَا﴾.

ثم إن تعليمه ووحيه إنما هو لغرض النجاة فقدم ما يتعلق بالحفظ والنجاة.

جاء في (تفسير الرازي): «إن إقدامه على عمل السفينة مشروط بأمرين:

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٢٠.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٤٩.

(٣) انظر تفسير الرازي ٦/ ٣٤٥، روح المعاني ١٢/ ٤٩.

أحدهما: أن لا يمنعه أعداؤه عن ذلك العمل.

والثاني: أن يكون عالمًا بأنه كيف ينبغي تأليف السفينة وتركيبها ودفع الشر عنه.

وقوله: ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ إشارة إلى أنه تعالى يوحي إليه كيف ينبغي عمل السفينة»[١].

والأول متعلق بقوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾.

* * *

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾

أي لا تراجعني فيهم فتطلب إمهالهم وتأخير العذاب عنهم[٢].

وقال: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ فذكر صفتهم، ولم يقل: (ولا تخاطبني فيهم) ذلك أنه ذكر الصفة التي تستدعي إهلاكهم وهي الظلم.

وهذه الصفة توجب عقوبتهم لا أن تستشفع فيهم.

فناسب ذكر صفتهم التي تستدعي عقوبتهم وعدم مراجعة ربه في إمهالهم.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم. وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعني فيهم»[٣].

﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾.

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٢) انظر فتح القدير ٢/ ٤٧٤، روح المعاني ١٢/ ٥٠.

(٣) روح المعاني ١٢/ ٥٠.

قال: ﴿مُّغْرَقُونَ﴾ بالاسم، ولم يقل: (سأغرقهم) للدلالة على الثبوت، فكأنهم أغرقوا وانتهى الأمر.

* * *

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩]

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية حال ماضية[١] لاستحضاره صورته وهو يصنع الفلك، فكأنك تشاهده وهو يعمل.

وقيل: تقديره: وأخذ يصنع الفلك، أو طفق يصنع الفلك، أو أقبل يصنعها[٢] ونحوها من أفعال الشروع.

وعدم التقدير أولى؛ لأن قولنا: (أخذ يعمل) أو (طفق يعمل) ونحوه يحيلنا على بداية العمل، أي بدأ يعمل.

وأما قوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ فإنه يذكر الحال المستمرة للعمل وليست بداية العمل. وهو نظير قولك: (أخذ محمود يقرأ) وقولك: (محمود يقرأ) فالجملة الأولى تشير إلى بداية القراءة، وأما الثانية فهي تدل على أنه في داخل الحدث مستمر على فعله. ولذا تخريجه على حكاية الحال أولى؛ لأنه ينقل المخاطب إلى المشهد ونوح منهمك في العمل.

* * *

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٧، وانظر فتح القدير ٢/ ٤٧٤.
(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ٥٠، فتح القدير ٢/ ٤٧٤.

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

قال: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ ﴾ ولم يقل: (وكلما مَرَّ به ملأ) وذلك يدل على أنه ليس يصنع في طريق المارة، بل هو متنحٍّ عنهم في مكان أخفض من طريق المارة معه الألواح ومعه أدواته. يدل على ذلك قوله: (عليه)، و(على) للاستعلاء.

ولم يقل: (به) التي تفيد الإلصاق كما قال: ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين: ٣٠] أي في الطريق الذي هم فيه أو المكان الذي هم فيه.

وجواب (كلما) يحتمل أن يكون ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُۚ ﴾ فيكون المعنى: كلما مر الملأ عليه سخروا. فالسخرية مستمرة عند كل مرور. وتكون جملة ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ ﴾ استئنافية.

كما يحتمل أن يكون جواب (كلما): ﴿ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا ﴾، وجملة ﴿ سَخِرُواْ مِنْهُۚ ﴾ صفة للملأ. فيكون المعنى: (كلما مَرَّ عليه ملأ ساخر قال إن تسخروا منا). فهو لا يترك ساخرًا إلا رد عليه، وكلما سخر أجابه نوح بقوله: ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا... ﴾.

وعلى الاحتمال الأول يكون المعنى: (كلما مَرَّ عليه ملأ سخروا منه)، ولا يدل ذلك على أنه يجيبهم في كل مرة، بل قد يجيبهم أحيانًا وقد يتركهم أحيانًا، أو هو يجيبهم دائمًا. لكن لا يدل ذلك على أن الإجابة كانت في كل مرة حتمًا.

وأما على الاحتمال الثاني: فإنه يدل على أنه كلما مَرَّ عليه ملأ ساخر رَدَّ عليه ولا يترك سخرية من دون ردّ. ولكن لا يدل على أن كل ملأ يمر عليه يسخر منه، فقد يسخر منه ملأ وقد لا يسخر آخر.

ولو قال: (وكلما مَرَّ عليه ملأ من قومه يسخرون منه قال) لكان الجواب (قال) حتمًا، ولكان المعنى أنه لا يترك ملأ يسخر إلا رَدَّ عليه.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: فما جواب كلما؟

قلت: أنت بين أمرين:

إما أن تجعل (سخروا) جوابًا، و(قال) استئنافًا على تقدير سؤال سائل.

أو تجعل (سخروا) بدلاً من (مرّ) أو صفة لملأ، و(قال) جوابًا» (١).

وجاء في (روح المعاني): «و(كل) منصوب على الظرفية، و(ما) مصدرية وقتية، أي كل وقت مرور، والعامل فيه جوابه وهو (سخروا)، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ استئناف بياني، كأن سائلاً سأل فقال: فما صنع نوح عليه السلام عند بلوغهم منه هذا المبلغ؟

فقيل: قال ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص ومن العذاب ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ لما أنتم فيه من الإعراض عن استدفاعه بالإيمان والطاعة...

هذا وجوز أن يكون عامل (كلما): (قال)، وهو الجواب، وجملة (سخروا) صفة لملأ أو بدل من (مر) بدل اشتمال... ويلزم على هذا التجويز استمرار هذا القول منه عليه السلام وهو ظاهر.

وعلى الإعراب الأول قيل: لا استمرار، وإنما أجابهم به في بعض المرات» (٢).

وقال: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ ولم يقل: (إن سخرتم منا) للدلالة على استمرار السخرية، فهم دائمون عليها. وهو مناسب لقوله: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٨.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٥١.

عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾ بذكر (كلما) التي تفيد الاستمرار.

وقال: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ ولم يقل: (إن تسخروا مني) مع أنه قال: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ إشارة إلى أنهم لم يكتفوا بالسخرية منه، بل يسخرون من المؤمنين أيضًا.

فهم يسخرون منه إذا رأوه يصنع الفلك، ويسخرون من المؤمنين إذا رأوهم، ولذلك كان جواب الشرط بالجمع أيضًا وهو قوله: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ ولم يقل: (فإني أسخر منكم).

جاء في (روح المعاني): «وجمع الضمير في (مِنَّا) إما لأن سخريتهم منه عليه السلام سخرية من المؤمنين أيضًا، أو لأنهم كانوا يسخرون منهم أيضًا إلا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه السلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة في قوله: ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾»(١).

وقال: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ ولم يقل: (سنسخر منكم) أو (سوف نسخر منكم)، وذلك أن الفعل (نسخر) يحتمل الحال والاستقبال، وقوله: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ يحتمل أنهم يسخرون من الكافرين في الحال لعدم معرفتهم بما سيحيق بهم وهم لاهون عابثون ساخرين من الآخرين، وهؤلاء يستحقون أن يسخر منهم في هذه الحال.

وأنهم يسخرون منهم في المستقبل أيضًا عندما يَحِلُّ عليهم العذاب فيأخذهم الطوفان فيغرقهم أجمعين.

ويسخرون منهم في الآخرة وهم في السعير كما قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤].

فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ أفاد السخرية منهم في الحال وفي

---

(١) روح المعاني ١٢/٥١.

الاستقبال عند الغرق وعند حلول العذاب المقيم وهو عذاب الآخرة.

* * *

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ ﴾ يحتمل أن تكون (من) اسمًا موصولاً، أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب الذي يذله ويفضحه.

كما يحتمل أن تكون (من) اسم استفهام مبتدأ، وجملة (يأتيه) خبر، والجملة مفعول (يعلم) والفعل معلق سدت الجملة مسد مفعوليه[(١)].

وقوله: ﴿ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ يعني عذاب الدنيا وهو الغرق.

ومعنى (يخزيه) يفضحه ويذله.

وقوله: ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ يعني عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥].

ومعنى (يحل عليه): يجب عليه ويلزمه لزومًا لا ينفك عنه، ومعنى (مقيم): ثابت لا يتحول[(٢)].

ووصف العذاب أنه يخزيهم مجانسة لأفعالهم التي كانوا يسترذلون بها المؤمنين ويسخرون منهم، فأتى بالعذاب الذي يخزيهم ويذلهم.

وقال أولاً: ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾ ثم قال: ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ فذكر الإتيان أولاً. والإتيان لا يستلزم الدوام، فقد يأتيهم ثم ينصرف عنهم. ولئلا يخطر في الذهن ذلك أتبعه بقوله: ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي يجب عليهم وجوبًا لا ينفك عنهم ولا يرحل أو يتحول، أعاذنا الله منه.

* * *

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٢٢.

(٢) انظر الكشاف ٢/ ٩٨، روح المعاني ١٢/ ٥١.



﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾ [هود: ٤٠]

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا ﴾

قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ ﴾ ولم يقل (أتى) ذلك أن (جاء) يستعمله القرآن لما فيه مشقة وصعوبة، أو لما هو أصعب مما يستعمله له (أتى) [١]، ولما كان في هذا المجيء مشقة وهو العذاب استعمل (جاء).

ولذا حيث ورد (أمرنا) بمعنى العذاب والعقوبات استعمل له (جاء) وذلك نحو قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [هود: ٥٨].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [هود: ٦٦].

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ [هود: ٨٢].

وقوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [هود: ٩٤].

وقد تقول: ولكنه قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ ﴾ [يونس: ٢٤] فقال: ﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا ﴾.

فنقول: إن ذلك ليس في عقوبات الأقوام وإنما هو في الكلام على الحياة الدنيا وزوالها ولا يتعلق ذلك بقوم من الأقوام.

وقد تكلمنا على الفرق بين (جاء وأتى) في كتابنا (لمسات بيانية) [٢] فلا نعيد القول فيه.

﴿ وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾

---

(١) انظر المفردات للراغب الأصبهاني (أتى) و(جاء).

(٢) انظر كتابنا (لمسات بيانية) صفحة ١١٣ وما بعدها.

قيل: هو تنور الخبز وجعل فوران الماء منه علامة على بداية الطوفان.

وقيل: هو مجاز عن شدة الأمر، كما يقال: (حمي الوطيس)، ولا مانع أن يكون الأمران مرادين.

* * *

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ﴾

قال: (قلنا) بإسناد القول إلى نفسه في نجاة المؤمنين.

وقال في هلاك الكافرين: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ببناء فعل القول للمجهول: (قيل).

وأظنك تحس الفرق بين رعايته للمؤمنين وتوجيهه سبحانه لنجاتهم في قوله: (قلنا)، وبين هلاك الكافرين وإبعادهم في قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

وقد بدأ بذكر حمل الحيوانات في قوله: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ لأنها قوام حياة الإنسان وسبب بقائه، وإلا فماذا يأكل وكيف يعيش؟

ثم ذكر حمل الأهل بعد ذلك فقال: (وأهلك) لأن الأقربين أولى بالمعروف كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦].

ألا ترى كيف نادى نوح ابنه ليركب معه ولم يناد غيره من الكافرين فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢].

وكيف نادى نوح ربه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]؟

ثم ذكر بعد الأهل من آمن.

واستثنى من أهله (من سبق عليه القول) أي من حق عليه العذاب لعدم إيمانه.

وهو يستعمل نحو هذا التعبير في العذاب. ونحوه قوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ [الإسراء: ١٦]، و﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [القصص: ٦٣].

وقد ذكرنا ذلك في تفسيرنا لسورة (يس) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ [يس: ٧] (١).

جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾:

«وجيء بـ (على) لكون السابق ضارًّا لهم. كما جيء باللام فيما هو نافع في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾» (٢).

وأما التشابه والاختلاف بين هذه الآية وما جاء في سورة المؤمنون وهو قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فقد ذكرناه في كتابنا (أسئلة بيانية) فلا نعيد القول فيه.

* * *

﴿۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]

وردت قراءتان متواترتان في (مجراها) وهما: بفتح الميم وضمها.

وهي بالفتح مصدر أو اسم مكان أو زمان من (جرى) الثلاثي، أي

---

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني) ٢/ ١٧ وما بعدها.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٥٥.

جريانها هي كما قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

وبالضم مصدر أو اسم مكان أو زمان من (أجرى) الرباعي. نقول: أجرى الله الفلك في البحر، وأجرتها الرياح. والمصدر الميمي (مُجرى) بضم الميم.

وأما (مُرساها) فهي بضم الميم في جميع القراءات المتواترة، وهي أيضًا مصدر واسم مكان واسم زمان من (أرسى) الرباعي، وليس من (رسا) الثلاثي.

يقال: (رست السفينة) إذا رست هي، والمصدر الميمي (مَرسى) بفتح الميم، وتقول: (أرسى الملاح السفينة) أو أرساها الله سبحانه، والمصدر الميمي (مُرسى) بضم الميم.

وقد جمعت هذه العبارة معاني عدة كلها مرادة، منها:

بسم الله جريانها هي وإرساؤها من الله سبحانه، وبسم الله إجراؤها وإرساؤها، فالله هو مُجريها ومرسيها. فيكون المعنى: إجراؤها وجريانها وإرساؤها كل ذلك حاصل وكائن بسم الله ربنا.

وبسم الله مكان جريها وإجرائها ومكان إرسائها، أي في المكان الذي تجري فيه وتُجرى فيه، وفي المكان الذي تُرسى فيه.

وبسم الله في الزمان الذي تجري فيه وتُجرى فيه، وفي الزمان الذي تُرسَى فيه.

وعلى هذا يكون المعنى:

بسم الله جريانها وإجراؤها ومكان جريها ومكان إجرائها، وزمان جريها وزمان إجرائها.

وبسم الله إرساؤها ومكان إرسائها وزمان إرسائها.

ولو غيرت أية صيغة من الصيغ لم يجمع هذه المعاني.

وهذا يدل على أن جريانها ومكان الجريان وزمانه، وإجراءها ومكانه وزمانه مقدرات. وإرساءها ومكان إرسائها وزمانه كل ذلك مقدر.

فهي تجري وتُجرى في المسار الذي قدره ربنا. وترسو في المكان الذي قدره ربنا لها.

هذا علاوة على ما في التأليف من معان.

فقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ يحتمل أن يكون الكلام مبتدأ وخبرًا، فقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ خبر مقدم، وقوله: ﴿مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ مبتدأ مؤخر، فيكون المعنى على ما ذكرنا.

ويحتمل أن يكون المعنى: (اركبوا فيها بسم الله) أي مسمين الله حين جريها وحين إرسائها، أي ذاكرين الله في الجري والإرساء، و(مجراها ومرساها) مصدران أو ظرفان كما ذكرنا.

ويحتمل أن يكون تقدير مجراها ومرساها على الحال، فيكون المعنى: اركبوا فهي جارية ومجراة ومرساة بسم الله.

فجمع هذا التعبير معاني متعددة لا يجمعها غير هذا التعبير:

اركبوا فيها:

بسم الله جريها وإجراؤها وإرساؤها، أي يكون ذلك باسمه سبحانه.

بسم الله في مكان جريها وإجرائها وإرسائها.

بسم الله في زمان جريها وإجرائها وإرسائها.

اركبوا فيها مسمين الله في مكان جريها وإجرائها وإرسائها.

ومسمين الله في زمان جريها وإجرائها وإرسائها.

واركبوا فيها جارية ومجراة ومرساة بسم الله.

جاء في (الكشاف): «يجوز أن يكون كلامًا واحدًا وكلامين.

فالكلام الواحد أن يتصل (بسم الله) بـ (اركبوا) حال من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف، كقولهم: خفوق النجم ومقدم الحاج.

ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء وانتصابهما بما في (بسم الله) من معنى الفعل أو بما فيه من إرادة القول.

والكلامان أن يكون ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة، أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها...

ويحتمل أن تكون غير مقتضبة بأن تكون في موضع الحال... وانتصاب هذه الحال عن ضمير الفلك، كأنه قيل: اركبوا فيه مجراة ومرساة بسم الله» (١).

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

قال ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ بذكر الرب، والرب هو المربي والمعلم والموجه والمرشد والقيم. وهو أنسب اسم ههنا لأنه يوجههم ويرشدهم إلى سبيل نجاتهم. ألا ترى أن رئيس الملاحين في السفينة يسمى (رُبّان) وهو مأخوذ من لفظ (الرب) لأنه يوجه ويرشد إلى المسار الصحيح وإلى سبيل النجاة.

وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فأكد ذلك بـ (إنَّ) واللام، في حين قال

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٨.

على لسان سيدنا يوسف: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] فأكده بـ (إنَّ) وحدها.

وقال على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨] فأكده بـ (إنَّ)، وجاء بضمير الفصل وتعريف الاسمين الجليلين: الغفور الرحيم.

وكل تعبير في مكانه هو المناسب.

فإن سيدنا يوسف لم يرتكب ذنبًا وإنما سجن ظلمًا بضع سنين، فهو معتدى عليه فلا يحتاج إلى توكيد المغفرة كتوكيدها فيمن لم يظلم ولم يقع عليه عدوان وهو طليق حر قد يقع في اللمم أو في الذنب.

هذا علاوة على أنه واحد وقوم نوح جمع، فزاد المغفرة لما زاد في العدد.

وأما ما قاله يعقوب فهو جواب عما اعترف به أبناؤه من الخطيئة من إلقاء يوسف في غيابة الجب وما حصل لأبيهم من جراء ذلك وطلبوا منه أن يستغفر لهم ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

فقال لهم أبوهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

فالله وحده هو الذي يغفر في نحو هذا، فإن في فعلهم ما يتعلق بحقوق الآخرين وذلك ليس إليه. فأكد ذلك بـ (إنَّ) وبضمير الفصل وجاء بتعريف الاسمين: الغفور الرحيم للدلالة على القصر.

فكل تعبير مناسب في مكانه الذي ورد فيه.

* * *

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ

ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢ ـ ٤٣].

بعد الأمر بالركوب انتقل إلى مشهد الفلك وهي تجري في الماء ، فلم يقل: (فركبوا فيها ثم جرت السفينة) لأنه لا يتعلق غرض بذكر ذلك ، فإن قوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ يدل على أنهم ركبوا وقد جرت بهم.

وقوله: ﴿تَجْرِى بِهِمْ﴾ حكاية للحال الماضية ، فكأنك تشاهدها وهي تجري بهم والأمواج تصعد بها وتنزل.

وقوله: ﴿فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ يرسم المشهد الذي هي فيه.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾

أي رفع نوح صوته مناديًا ابنه مما يدل على أن ابنه في مكان بعيد لا يُسمعه إلا النداء.

والملاحظ ههنا أن نوحًا هو الذي نادى ابنه ليركب معه ، وكان المظنون أن ينادي الابن أباه ليحمله فينجو مع الناجين ، وكل الأمر يدل على أن الفلك هي سبيل النجاة الوحيد ولكن الابن رفض هذه الدعوة وآثر على رفقة هؤلاء الذين لا يرغب فيهم أن يلجأ وحيدًا إلى جبل ظانًّا أنه يعصمه من الماء.

وكان نداء نوح هو: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

فقال: (يا بنيّ) بنداء التحبيب وذلك بتصغير الابن وإضافته إلى ياء المتكلم ، وهو نداء كله حنان ، ولم يقل له: (يا فلان) أو نحو ذلك.

وقال: ﴿ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: (ولا تكن من الكافرين) فلم يدعه إلى الدخول في دينه في هذا الموقف وإنما نهاه أن

يكون مع الكافرين فيغرق معهم.

وقد دعاه إلى النجاة أولاً ليعيش في مجتمع مؤمن غير الذي ألفه وغير الخلاّن الذين كان يحيا معهم فيميلون به إلى معتقداتهم وأسلوب حياتهم. والخليل يؤثر في خليله كما قال تعالى: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٨ ـ ٢٩].

فنوح أراد أن يكون ابنه معهم أولاً فيعيش في مجتمع مؤمن مرقاة إلى أن يكون منهم فيما بعد.

* * *

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

رفض الابن دعوة أبيه للركوب في سفينة النجاة وآثر أن ينجو بنفسه وحيداً على أن يكون مع أسرته ومع الجماعة المؤمنة.

ولم يكرر أبوه الدعوة له وإنما قال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ فنفى العاصم من أمر الله على سبيل الاستغراق في مثل هذا اليوم.

وذكر اليوم مع أنه لا عاصم من أمر الله على الإطلاق لا في هذا اليوم ولا في غيره؛ لأن هذا اليوم ليس كسائر الأيام، فإنه لا ينفع فيه اتخاذ الأسباب. فأنت في سائر الأيام تتخذ الأسباب للنجاة وتفر من قدر الله إلى قدر الله، وللوصول إلى سائر الغايات.

فالمرض مثلاً من أمر الله، والدواء من أمر الله وهو خالقه. والدواء يرفع المرض وكلاهما من أمر الله. أما في هذا اليوم فلا ينفع شيء من ذلك ولا يعصم من أمر الله شيء إلا من رحم.

وقال: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: (من الماء) للإشارة إلى

أن هذا الماء ليس كسائر المياه التي تنجو منها بالالتجاء إلى جبل مرتفع أو نحو ذلك ؛ لأن هذا أمر الله الذي أنزله على الذين ظلموا من عباده ولا يعصم شيء منه.

جاء في (روح المعاني): «وزاد (اليوم) للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التي ربما يتخلص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العادية.

وعبر عن (الماء) في محل إضماره بـ (أمر الله) أي عذابه الذي أشير إليه بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ تفخيمًا لشأنه وتهويلاً لأمره وتنبيهًا لابنه على خطئه في تسميته ماء وتوهمه أنه كسائر المياه التي يتخلص منها بالهرب إلى بعض المهارب المعهودة، وتعليلاً للنفي المذكور، فإن أمر الله سبحانه لا يغالب وعذابه لا يرد» (١).

وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ يحتمل معاني:

منها: أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا الراحم وهو الله و(من رحم) يعني به الله.

كما يحتمل أن يكون المعنى أنه لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله فإنه يعصمه. والمعنى: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا المرحوم. وذكروا أموراً غير ذلك.

جاء في (الكشاف): «﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ إلا الراحم وهو الله تعالى. أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله، أي إلا مكان من رحم الله من المؤمنين وكان لهم غفورًا رحيمًا في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . . . يعني السفينة.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٦٠.

وقيل: (لا عاصم) بمعنى لا ذا عصمة إلا ذا من رحمه الله، كقوله: ماء دافق، وعيشة راضية.

وقيل: (إلا من رحم) استثناء منقطع، كأنه قيل: ولكن من رحمه الله فهو المعصوم» (١).

وجاء في (حاشية ابن المنيّر على الكشاف): «قال أحمد: والاحتمالات الممكنة أربعة: لا عاصم إلا راحم، ولا معصوم إلا مرحوم، ولا عاصم إلا مرحوم، ولا معصوم إلا راحم.

فالأولان استثناء من الجنس، والآخران من غير الجنس.

وزاد الزمخشري خامسًا وهو: لا عاصم إلا مرحوم على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف، تقديره: لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم» (٢).

وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ أشار إلى غرقه وغرق الآخرين.

ولو قال: (فغرق) لأفاد غرقه ولم يفد غرق الآخرين.

ثم إن قولنا: (غرق) يدل على أنه غرق بنفسه، أما قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ فيدل على أن جهة ما أغرقته وأغرقت الآخرين، وأن ذلك إنما حصل بفعل فاعل قصد إلى إغراقه وإغراق الآخرين. وفيه إشارة إلى العقوبة التي أوعدوا بها.

* * *

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٩.

(٢) حاشية ابن المنير على الكشاف ٢/ ٩٩.

ذُكر في هذه الآية الشيء الكثير وأُفردت فيها رسائل ، ومما قيل فيها : «أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية»[١] .

وقيل فيها أيضًا : إنه «قد أمر فيها ونهى وأخبر ونادى وسمى وأهلك وأبقى وأسعد وأشقى وقَصَّ من الأنباء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام»[٢] .

ونحن نقول : إن كل تعبير بمقدار أقصر سورة معجز للبشر أجمعين ، بل معجز للثقلين إلى آخر الدهر .

وعلى أية حال فنحن نذكر شيئًا من الأمور البيانية في هذه الآية :

١ ـ بدأ بفعل القول (قيل) ، والقول يقال لمن يسمع ويعقل .

ثم نادى ، والمنادَى ينبغي أن يعلم أنه نودي لسماع شيء ما أو تبليغه بأمر ، وذلك إذا لم يكن النداء مجازًا ، وإنما نودي لأمر ينبغي أن يسمعه أو يفعله .

ثم أمر على سبيل الحقيقة والاستعلاء وليس على سبيل المجاز . والمأمور ينبغي أن يكون عالمًا بما أُمر به وخاصة إذا كان الآمر طلب من المأمور أن يفعل ما أمره به .

وهذا كله يدل على أن الأرض والسماء سمعتا وعقلتا وأذنتا للقائل وامتثلتا لما أُمرتا به .

وليس هذا نظير نداء أو أمر لما لا يعقل وإنما قيل تجوزًا ، كقول الشاعر مخاطبًا الليل :

---

(١) الإتقان ٣/ ٢١٨ .
(٢) الإتقان ٣/ ٢١٧ .



فقلـتُ لـه لمـا تمطَّـى بصلبـه وأردفَ أعجـازًا ونـاء بكلكـل
ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلِ بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثل

وإنما القول والنداء والأمر في الآية كلهن على سبيل الحقيقة. وإن كل واحدة من السماء والأرض فعلت ما يخصها ، فاستجابتا وفعلتا كما يفعل العاقل المقتدر على تنفيذ ما أمر به.

ومع أن النداء للأرض والسماء وهما ما هما من الكبر والعظمة لم يذكر القائل ، وإنما بنى فعل القول للمجهول فقال: (وقيل).

وهذا يدل على عظمة القائل ، فإنه أمرهما من وراء حجاب فأطاعتا ، ويكفي أنهما عرفتا القائل وسطوته وإن لم يفصح عن ذاته فامتثلتا لأمره.

جاء في (الكشاف): «نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب. . .

ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله (ابلعي ماءك وأقلعي) من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه ، كأنها عقلاء مميزون. . ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث» (١).

٢ ـ وقال: (يا أرض) فناداها بحرف النداء (يا) الذي هو للبعيد ، ولم يرد في القرآن الكريم حرف نداء غيره.

إن هذا النداء يدل على عظمة المنادي ، ذلك أنه ناداها باسم الجنس ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾ ، وهو كما تقول لشخص ـ ولله المثل الأعلى ـ يا رجل افعل كذا ، أو لا تفعل كذا.

---

(١) الكشاف ٢/ ٩٩.

وجردها من كل وصف أو إضافة أو غير ذلك مما يفيد التشريف أو التكريم لتستجيب. فلم يقل مثلاً: (يا أرضي) فيضيفها إليه ، أو يا أرض الخير ويا سماء الخير والبركة ، ولا يا أيتها الأرض المباركة ، ولا أي وصف يشعرها بالتكريم والتشريف.

كما إنه لم يقل: (يا أيتها الأرض) فيتوصل إلى ندائها بـ (أيّ) لعلها كانت غافلة فتسمع آخر النداء ، إذ لا يمكن الغفلة عن أي حرف يصدر عن هذا المنادي.

إضافة إلى الإيجاز الذي اتسمت به الآية قال (يا أرض) أوجز من (يا أيتها الأرض).

جاء في (روح المعاني): «اختيرَ (يا) دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به.

ولم يقل: (يا أرضِ) بالكسر ؛ لأن الإضافة إلى نفسه جلَّ شأنه تقتضي تشريفًا للأرض وتكريمًا لها فترك إمدادًا للتهاون.

ولم يقل: (يا أيتها الأرض) مع كثرته في نداء أسماء الأجناس قصدًا إلى الاختصار والاحتراز عن تكلف التنبيه المشعر بالغفلة التي لا تناسب ذلك المقام»[1].

٣ ـ وقال: (ابلعي) ولم يقل (ابتلعي) لأن ابتلع على وزن (افتعل) الذي يدل على التكلف والاجتهاد ، وهو يحتاج إلى وقت أطول ، وإنما قال: (ابلعي) الذي هو أقصر بناءً وزماناً فتبلعه في أقصر وقت.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٦٥.



وهذا إضافة إلى الإيجاز ، فإن (ابلعي) أوجز من (ابتلعي) .

جاء في (روح المعاني) : «واختير لفظ (ابلعي) على (ابتلعي) لكونه أخصر وأوفر تجانسًا بـ (أقلعي)» (١) .

٤ ـ وقال : ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ فذكر مفعول البلع ؛ لأن بلع الماء هو المقصود ، ولم يحذف المفعول به فيقول : (يا أرض ابلعي) فيشمل البلع كل ما عليها من أشجار وحيوان وغيرها .

جاء في (روح المعاني) : «وإنما لم يقل : (ابلعي) بدون المفعول لئلا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسرهن نظرًا إلى مقام عظمة الآمر المهيب وكمال انقياد المأمور» (٢) .

٥ ـ وقال : (ماءك) بالإفراد «دون الجمع لما فيه من صورة الاستكثار المتأبي عنها مقام إظهار الكبرياء وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء» (٣) .

«وعبر عنه بالماء بعدما عبر عنه فيما سلف بأمر الله تعالى ؛ لأن المقام مقام النقص والتقليل لا مقام التفخيم والتهويل» (٤) .

٦ ـ وقال : (ماءك) بإضافة الماء إليها لأنَّ الماء الذي ينزل من السماء إنما هو للأرض ، ينزل إليها وينفذ في داخلها ويخرج منها على هيئة عيون وآبار يستفيد منه الناس . فهو ماؤها سواء ما تفجر منها وما نزل إليها من السماء .

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٦٥ .
(٢) روح المعاني ١٢/ ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) روح المعاني ١٢/ ٦٥ .
(٤) روح المعاني ١٢/ ٦١ .

ثم في الحقيقة أن ما ينزل من السماء من ماء إنما هو ماء الأرض ؛ لأن السحب إنما تتكون من البخار الذي يتصاعد من مياه الأرض بحارها وأنهارها ، فهو على كل حال ماء الأرض.

٧ ـ ثم نادى السماء فقال لها: (أقلعي) أي أمسكي وكفي ، ولم يذكر عما ذا تمسك لأنه معلوم وهو المطر وليس شيئًا آخر ، فلم يذكر متعلقًا.

جاء في (روح المعاني): «ولما علم أن المراد بلع الماء وحده علم أن المقصود بالإقلاع إمساك السماء عن إرسال الماء ، فلم يذكر متعلق (أقلعي) اختصارًا واحترازًا عن الحشو المستغنى عنه» [١].

فذكر متعلق البلع في الأرض أنسب ، وإطلاق الإمساك في السماء أنسب.

٨ ـ قدم أمر الأرض ببلع الماء لأنه أهم وذلك لترسو السفينة وهو مطلوب أهل السفينة ، فإنها إن لم ترس السفينة فلن يخرج من فيها منها. وإن لم تبلع الأرض ماءها فلن ترسو السفينة فقدم الأهم.

ثم إن الماء بدأ منها ، فإن ذلك بدأ من التنور الذي فار الماء منه.

جاء في (روح المعاني): «قَدَّم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل نظرًا إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولاً» [٢].

٩ ـ قال: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أي ذهب ونشف. ومعنى ذلك أن الأرض والسماء امتثلتا لأمر الآمر.

وهذا يدل على عظمة الآمر.

وكانت الاستجابة على الفور ، فلم يقل: فبلعت الأرض ماءها

---

(١) روح المعاني ٦٦/١٢.
(٢) ن. م.

وأمسكت السماء ، فإن كل ذلك يدل عليه قوله : ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ .

وقد بنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل تعظيمًا للآمر والقائل والمنادي وللإيجاز .

جاء في (روح المعاني) أنه لم يقل : «(قيل يا أرض ابلعي) فبلعت (ويا سماء أقلعي) فأقلعت ؛ لأن مقام الكبرياء وكمال الانقياد يغني عن ذكره الذي ربما أوهم إمكان المخالفة» (١) .

١٠ ـ قال بعد قوله : ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ : ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي الأمر الذي أراده ربنا بقوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وهو نجاة من نجا وإهلاك من هلك .

وبنى الفعل للمجهول تعظيمًا لمن قضى الأمر . وهو في كل ذلك آمر واحد وفاعل واحد .

١١ ـ ثم قال : ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ ولم يذكر الفاعل لأنه معلوم وهو السفينة .

ولم يبن الفعل للمجهول ؛ وذلك لأن الجريان كان منسوبًا إلى السفينة وذلك قوله : ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ فناسب أن يكون الاستواء منسوبًا إليها أيضًا .

لقد قال ذلك بعد قوله : ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فإن السفينة لا تستوي حتى يغيض الماء .

وكان استواؤها بعد أن قضي الأمر ، أي بعد أن انتهت المهمة فنجا كل من كان راكبًا فيها وهلك كل من حكم عليه بالهلاك فلم يبق منهم أحد يؤذي مؤمنًا ، وهو أنسب وقت لاستوائها .

إن قوله : ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يدل على النجاة والأمان فناسب الاستواء

---

(١) ن . م .

لينزل ركاب السفينة وهم آمنون.

جاء في (روح المعاني): «واختير (استوت) على (سُوِّيت) أي أقرّت مع كونه أنسب بأخواته المبنية للمفعول اعتبارًا لكون الفعل المقابل للاستقرار أعني الجريان منسوبًا إلى السفينة على صيغة المبني للفاعل في قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ مع أن (استوت) أخص من (سوّيت)» [١].

١٢ ـ قال: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فبنى الفعل للمجهول آخرًا عندما بعدوا وهلكوا كما بناه أولاً عند الأمر بنزول أمره لعذاب الظالمين.

لقد بنى الفعل للمجهول ولم يذكر فاعلاً معيناً وذلك ليشمل كل قائل من الملائكة وكل عبد صالح.

جاء في (البحر المحيط): «والظاهر أن قوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ من قوله الله تعالى كالأفعال السابقة. وقيل: من قول نوح والمؤمنين. ويحتمل أن يكون من قول الملائكة» [٢].

وجاء في (الكشاف): «﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾... إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك...

ومجيء إخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء» [٣].

١٣ ـ وقال: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فوصفهم بالظلم لأنه وصفهم بالظلم أولاً فقال: ﴿وَلَا تُخَـٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾.

جاء في (فتح القدير): «ووصفهم بالظلم للإشعار بأنه علة الهلاك

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٦٦.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٢٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٩٩.

وللإيماء إلى قوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ﴾»[(١)].

١٤ ـ وقال: ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولم يقل: (بعدًا لهم) فذكر الوصف الذي استحق به القوم العقوبة. وهو تحذير لكل ظالم.

١٥ ـ وقال: ﴿بُعۡدٗا﴾ بالمصدر ولم يأت بالفعل للدلالة على الحدث المطلق غير المقيد بزمن أو بفاعل وللدلالة على الثبوت.

جاء في (روح المعاني): «واختير المصدر أعني (بعدًا) على (ليبعد القوم) طلبًا لتأكيد معنى الفعل بالمصدر مع الاختصار في العبارة... مع فائدة أخرى هي الدلالة على استحقاق الهلاك بذكر اللام.

وإطلاق الظلم عن مقيداته في مقام المبالغة يفيد تناول كل نوع فيدخل فيه ظلمهم على أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التكذيب من حيث إن تكذيبهم للرسل ظلم على أنفسهم لأن ضرره يعود إليهم...

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل:

فذلك أنه قدم النداء على الأمر...

ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء لكونها الأصل نظرًا إلى كون ابتداء الطوفان منها حيث فار تنورها أولاً...

ثم جعل قوله سبحانه: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ تابعًا لأمر الأرض والسماء...

ثم إنه تعالى أتبع غيض الماء ما هو المقصود الأصلي من القصة وهو قوله جلت عظمته: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ ثم أتبع ذكر المقصود حديث السفينة لتأخره عنه في الوجود»[(٢)].

---

(١) فتح القدير ٢/ ٤٧٧.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٦٦ ـ ٦٧.

وجاء في (الإتقان): أن «جمله معطوف بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة من الابتداء بالأهم الذي هو انحسار الماء عن الأرض المتوقف عليه غاية مطلوب أهل السفينة من الإطلاق من سجنها ، ثم انقطاع مادة السماء المتوقف عليه تمام ذلك من دفع أذاه بعد الخروج ومنع اختلاف ما كان بالأرض ، ثم الإخبار بذهاب الماء بعد انقطاع المادتين الذي هو متأخر عنه قطعًا ، ثم بقضاء الأمر الذي هو هلاك من قدّر هلاكه ، ونجاة من سبق نجاته ، وأخر عما قبله لأن علم ذلك لأهل السفينة بعد خروجهم منها وخروجهم موقوف على ما تقدم.

ثم أخبر باستواء السفينة واستقرارها المفيد ذهاب الخوف وحصول الأمن من الاضطراب ، ثم ختم بالدعاء على الظالمين لإفادة أن الغرق وإن عَمَّ الأرض فلم يشمل إلا من استحق العذاب لظلمه» [١].

ثم إن الآية في غاية الإيجاز فلم يذكر إلا ما لا بد من ذكره. ومن مظاهر الإيجاز فيها:

١ ـ أنه قال: (وقيل) فبنى الفعل للمجهول وحذف الفاعل وذلك للتعظيم كما أسلفنا.

٢ ـ وقال: (يا أرض) ولم يقل: (يا أيتها الأرض). وقوله: (يا أرض) أوجز كما هو معلوم.

٣ ـ وقال: (ابلعي) ولم يقل: (ابتلعي) ، وابلعي أوجز.

٤ ـ وقال: (ماءك) ولم يقل: (مياهك).

٥ ـ وقال: (يا سماء) ولم يقل: (يا أيتها السماء).

٦ ـ وقال: (أقلعي) ولم يذكر متعلقًا.

---

(١) الإتقان ٣/ ٣٩٥.

٧ ـ وقال: (وغيض الماء) فبنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل.

٨ ـ وقال: (وغيض) الثلاثي، ولم يقل: (غيّض) الرباعي.

جاء في (روح المعاني): «واختير (غيض) على (غيّض) المشدد لكونه أخصر»[1].

٩ ـ وقال: (وقضي الأمر) فبنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل.

١٠ ـ وقال: (وقضي الأمر) فعبر عن كل ما حدث بـ (الأمر) وهو النجاة والغرق وما أراده ربنا.

١١ ـ وقال: (واستوت على الجودي) فلم يذكر الفاعل وإنما ستره.

١٢ ـ وقال: (وقيل بعدًا) فبنى الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل.

١٣ ـ وقال: (بعدًا) فذكر المصدر ولم يذكر الفعل الذي يقتضي زمنًا وفاعلاً.

وغير ذلك.

* * *

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٥ ـ ٤٦]

١ ـ قال في آية سابقة: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢] فاستعمل فعل النداء وحده (نادى) ولم يستعمل معه فعل القول، فلم يقل: (ونادى نوح ابنه فقال يا بنيّ).

وقال ههنا: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فاستعمل فعل

---

(١) روح المعاني ١٢/٦٦.

القول (فقال) إضافة إلى الفعل (نادى) وذلك أن هذا الموقف أهم من الأول ، فإنه بعد غرق ابنه حين أدركته عاطفة الآباء وأدركه الحزن لغرقه .

وقد ذكرنا الفرق بين ذكر ما فيه معنى القول من الأفعال وحده نحو نادى ووصى وسأل ، وما ذكر معه فعل القول نحو (نادى فقال) و(سأل فقال) ونحوها في كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وبينا أن ما ذكر فيه القول مع ما فيه معناه آكد وأهم ، فلا نعيد القول فيه[١] .

لقد قال : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ﴾ والفاء هذه للترتيب الذكري وهي تفيد التفصيل بعد الإجمال ، وذلك أن تذكر المعنى مجملاً أولاً ثم تفصله بعد ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فقد ذكر السؤال مجملاً أولاً ثم فصله بقوله: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ، وقوله : ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] فذكر الإهلاك على العموم وفصله فيما بعد .

ونحوه قوله : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ فإن قوله : ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ تفصيل للنداء[٢] .

فكان الاهتمام في التعبير في الآية من أكثر من جهة :

منها أنه جمع لفظ القول مع ما فيه معنى القول وهو (نادى) (فقال) .

ومنها أنه فصل بعد الإجمال ، والتفصيل بعد الإجمال يفيد المبالغة والاهتمام[٣] .

٢ ـ لقد قال : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ فذكر لفظ الرب ولم يذكر غيره من

---

(١) انظر كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) ٢١١ وما بعدها .

(٢) انظر كتابنا (معاني النحو) ٣/ ٢٢٥ (العطف بالفاء) .

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ٢/ ٧٥٧ ، وانظر حاشية الصبان ٢/ ١٩٥ .



الأسماء الحسنى ، فلم يقل مثلاً : (ونادى الله) أو (نادى الحي القيوم) أو غير ذلك من أسمائه الحسنى ، ذلك أنه لم يستعمل فعل المناداة في القرآن الكريم إلا مع الرب دون بقية أسمائه الحسنى ، سواء كان النداء من العبد لله أو من الله للعبد وذلك نحو قوله : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم : ٣] ، وقوله : ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، وقوله : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ [الأنبياء : ٨٩].

وكذلك إذا كانت المناداة من الله فإنه يسند الفعل إلى لفظ الرب فقط ، وذلك نحو قوله : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠]

وقوله : ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢]

وقوله : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات : ١٥ ـ ١٦].

وهو المناسب فإن الإنسان إذا احتاج شيئًا طلبه من ربه وهو مربيه والقائم على أمره.

ونحو ذلك الدعاء. فإنه لم يرد في القرآن إلا مع لفظ الرب وذلك نحو قوله : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا ﴾ [آل عمران : ١٤٧] ، وقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وقوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٣].

ولم يرد الدعاء بغير لفظ الرب إلا في موطن واحد وهو قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢].

وهو الأنسب ، فلا يناسب أن يقال : (ربنا إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) لأن الرب هو المربي والمعلم

والهادي ، فالمناسب إذا جاء بلفظ الرب أن يقال: (إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه واشرح صدورنا له) فلما كان الدعاء بطلب العذاب لم يصح أن يطلب ذلك من ربهم الذي هو متولي أمرهم والقيم عليهم.

ولم يرد الدعاء بلفظ (اللهم) وحده في غير هذا الموطن.

قد تقول: ولكنه قال: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

فنقول: إنه ذكر الرب مع (اللهم) فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾.

وقد تقول: لقد قال في أصحاب الجنة: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠].

فنقول: ليس في هذا القول دعاء شيء ولا طلب حاجة.

٣ ـ قال: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ بحذف حرف النداء وذلك ليصل إلى مقصوده بأقصر سبيل ولئلا يضيع الوقت وابنه غارق تحت الماء ، إذ لعله يجد سبيلاً على إنقاذه في أقصر وقت.

والقرآن يحذف حرف النداء في نداء كلمة (رب) في الأكثر فيقول مثلاً: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١] ، ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨].

ولم يذكر حرف النداء في نداء الرب على كثرة ما ورد إلا في موطنين وهما قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] ، وقوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] وذلك أن الرسول ضاق صدره بقومه وكفرهم كما أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] فمد صوته بنداء ربه لعله يخفف عما يجد في نفسه من الضيق والبرم.

ومدّ الصوت قد يخفف عما في النفس، والفضفضة في الكلام تخفف، وحبس الكلام قد يقتل صاحبه فقال: (يا رب) فأطال شيئًا في الكلام لعله يروّح عما يجد في نفسه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ذكر حرف النداء هو المناسب للسياق في الموطنين.

ففي آية الفرقان ناسب ذكر (يا) سياق ما ورد من عذاب أهل النار ومدهم الصوت بالندم وذلك قوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨] فناسب مدهم الصوت بالندم في الآخرة مد صوت الرسول بنداء ربه لما فعلوا به في الدنيا من ضيق وأذى. فالرسول قال في الدنيا: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾.

وهم يقولون في الآخرة: ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

بذكر (يا) في الموطنين.

وكذا السياق في آية الزخرف، فإنّ مدّ صوت الرسول بالنداء مناسب لمناداة أهل النار مالكاً ليقضي عليهم ربه كما أخبر عنهم سبحانه قائلاً: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وهذا مناسب لإيذائهم رسولهم في الدنيا، فإنه مد صوته مناديًا ربه قائلاً: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨].

فقال له ربه: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

فالرسول نادى ربه في الدنيا قائلاً: يا رب إن هؤلاء لا يؤمنون، وهم في الآخرة ينادون مالكًا قائلين: يا مالك ليقض علينا ربك.

فما أجمل التناسب في التعبير وأجلّه!

٤ ـ وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ مشيرًا إلى ما وعده ربه من نجاة أهله ولم يصرح بذلك تأدّبًا مع ربه، فإنه لم يقل: (لقد وعدتني بنجاة أهلي وهذا ابني قد غرق، فكيف ذاك؟)

وقال: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ولم يقل: (وما وعدتني به الحق) وإنما أخرج وعده مخرج العموم، فكل ما يعد به ربه هو الحق فدخل فيه ما وعده.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي وإن وعد ذلك أو كل وعد تعده حق لا يتطرق إليه خلف، فيدخل فيه الوعد المعهود دخولاً أوليًا» [(١)].

وقال: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ ولم يقل: (وإن وعدك حق) بل جعل وعده هو الحق حصرًا وهو سيقع حتمًا لا يمكن أن يتخلف أو يتغير.

جاء في (الكشاف): «﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي وإن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي فما بال ولدي؟» [(٢)].

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

يجوز أن يكون ذلك من الحكم وهو القضاء، ويجوز أن يكون من الحكمة. فيجمع التعبير عدة معان: (أقضى القضاة) و(أحكم القضاة) و(أقضى الحكماء) و(أكثرهم حكمة) [(٣)] فجمع التعبير عدة معان كلها مرادة.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٦٨.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٠.
(٣) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ـ تفسير سور التين.

جاء في (الكشاف): «﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي أعلم الحكام وأعدلهم ؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل. . . ويجوز أن يكون من الحكمة على أن يبني من الحكمة حاكم بمعنى النسبة ، كما قيل دارع من الدرع» (١).

* * *

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]

قال له ربه إنه ليس من أهلك ؛ لأن الكفر يقطع النسب ، وبيّن له علة ذلك قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ فأخبر عن ابنه بالمصدر وذلك للمبالغة ، فإنه إذا كان الشخص مكثرًا من الوصف مبالغًا فيه قد يخبر عنه بالمصدر وقد يوصف بالمصدر فيقال مثلاً: هو رجلٌ صوم أو زَوْر ونحوه. ولا يقال ذلك لمن لم يكثر.

والمعنى أن ابنك يا نوح قد تحول إلى كتلة عمل غير صالحة ليس فيها من عنصر الذات شيء.

جاء في (الكشاف): «وجعلت ذاته عملاً غير صالح مبالغة في ذمه كقولها: (فإنما هي إقبال وإدبار)» (٢).

وجاء في (تفسير الرازي): «إن الرجل إذا كثر عمله وإحسانه يقال له: إنه علم وكرم وجود. فكذا ههنا لما كثر إقدام ابن نوح على الأعمال الباطلة حكم عليه بأنه في نفسه عمل باطل» (٣).

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٠.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠١.

(٣) تفسير الرازي ٦/ ٣٥٧ ، وانظر تفسير البيضاوي ٢٩٧.

وقال: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فحذف ياء المتكلم في الرسم وأشار إليها بالكسرة. وذلك أنه كما أشار إلى الطلب في نجاة ابنه ولم يصرح به أشار ربه بالكسرة إلى ياء المتكلم ولم ترسم خطًا.

قد تقول: ولكنه قال في سورة الكهف في موسى والرجل الصالح: ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٧٠] فقال: (فلا تسألني) برسم الياء، فما الفرق؟

فنقول أولاً: إن السؤالين مختلفان في المعنى، فالسؤال الذي خوطب به نوح معناه الطلب، أي لا تطلب ولا تلتمس مني ما ليس لك به علم.

وأما السؤال الذي خوطب به موسى فمعناه الاستفهام والاستفسار، أي لا تستفهم ولا تستفسر عن شيء حتى أبينه لك.

ولا شك أن الاستفهام والسؤال يحتاج إلى إيضاح وشرح أكثر مما يحتاجه طلب الحاجة أو طلب شيء من الأشياء.

فطالب الحاجة إما أن يجاب بالإيجاب أو بالرفض.

وأما المستفهم فلا بد أن يبين له الأمر حتى يعيه.

ثم إن السؤال الذي خوطب به نوح إنما هو إشارة إلى طلب معين وهو نجاة ابنه.

وأما الذي خوطب به موسى فإنه غير معين، ومن الراجح أن تتعدد الأسئلة بحسب الحوادث التي سيواجهها.

فلما كان السؤال في قصة نوح لأمر واحد حذف الياء لقلة الأسئلة.

ولما كان السؤال في قصة موسى غير محدد ويحتمل التعدد ذكر الياء

لأنه سيواجه المسؤول أكثر من مرة. فاختصر في السؤال الواحد بحذف الياء واكتفى بالكسرة.

وأعطى اللفظ كله في احتمال التعدد. وقد قيل إن الياء كسرتان فاكتفى بكسرة واحدة في الطلب الواحد.

وجاء بما هو أطول وأكثر في احتمال التعدد.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]

ذكرنا في كتابنا (على طريق التفسير البياني) في تفسير سورة الفلق متى يستعمل القرآن (إني أعوذ) بتوكيد الاستعاذة، ومتى يقول: (أعوذ) من غير توكيد.

ومما ذكرنا هناك هذه الآية فلا نعيد القول[١].

لقد قال: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ ولم يقل: (إني أعوذ بك من ذلك) لئلا يفهم أن الاستعاذة من ذلك السؤال الذي سأله نوح لربه حصرًا، وإنما قال ما قال ليشمل كل سؤال في المستقبل مما ليس له به علم.

وقال: ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ﴾ ولم يقل لربه بعدما نهاه (سأفعل) ذلك لأنه أراد أن يلتجئ إلى ربه ويحترز به ليقيه ويحفظه من نحو هذا السؤال. وهذا إعلان لضعفه وعدم الاعتداد بقراره من غير إعانة الله له. وهو غاية الالتجاء إلى الله سبحانه.

---

(١) على طريق التفسير البياني ١/٢٦ وما بعدها (تفسير سورة الفلق).

جاء في (روح المعاني): «ولم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة وإظهارًا للرغبة والنشاط فيها وتبركًا بذكر ما لقنه الله تعالى. وهو أبلغ من أن يقول: (أتوب إليك أن أسالك) لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرًا هائلاً محذورًا لا محيص منه إلا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته عليه السلام قاصرة من النجاة من المكاره إلا بذلك»(١).

وقد تقول: هل يدل قوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أنه وقع في معصية؟

والجواب: لا يدل ذلك على ما ذكرت، فإن طلب المغفرة لا يدل على وقوع صاحبها في المعصية حتمًا بل قد يسأل المسلم المغفرة والتوبة وإن لم يكن قد أذنب. فقد سأل الأنبياء لأنفسهم المغفرة، فقد قال سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: ٢٨].

وقال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]

وغير ذلك وغيره.

وأمر الله رسوله أن يستغفر ولم يصدر منه ذنب فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

وقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٧١ ـ ٧٢.

ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣]
وكذلك التوبة فإن المسلم يتوب إلى الله سواء أذنب أم لم يذنب.

وهي من الذنب أولى بل هي مطلوبة. وقد وصف الله المؤمنين بأنهم تائبون فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وحذر ربنا أزواج النبي إن طلقهن رسوله أن يبدله ربه أزواجاً خيراً منهن ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥].

وقد أمر الله المؤمنين جميعًا بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وربنا سبحانه يحب التوابين. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقد أخبر الله أنه تاب على النبي مع أنه لم يأت بذنب، وأخبر أنه تاب على المهاجرين والأنصار فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

فاتضح ما قلناه.

وقد ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني) قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

وقوله على لسان آدم: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقوله على لسان بني إسرائيل بعدما عبدوا العجل: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

والفرق بين هذه التعبيرات فلا نكرر ما قلناه.

* * *

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [هود: ٤٨]

إن قوله سبحانه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا...﴾ بعد قول نوح: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فيه مناسبة لطيفة فإن ربه بشره بالسلامة والأمان والبركات عليه وذلك يدل على مغفرته له ورحمته إياه.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ والباء للحال: أي مصحوبًا بسلامة وأمن وبركات وهي الخيرات النامية في كل الجهات. ويجوز أن يكون السلام بمعنى التسليم، أي اهبط مسلّمًا عليك مكرماً...

وبشر بالسلامة إيذانًا له بمغفرة ربه له ورحمته إياه وبإقامته في الأرض آمنًا من الآفات الدنيوية» (١).

وجاء في (روح المعاني): «ثم ذكر بعد توبته عليه السلام قبولها بقوله عز وجل: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾ إلخ وهو من الحسن بمكان» (٢).

قد تقول: قال هنا: (قِيل) ببناء الفعل للمجهول، وقال فيما قبلها: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ بالبناء للمعلوم فلم ذاك؟

والجواب: أنه في الآية السابقة، أعني قوله: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ إنما هو حكم شرعي، والحكم الشرعي إنما هو لله حصرًا.

ولا يجوز أن يكون ذلك لغيره، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣١.
(٢) روح المعاني ١٢/ ٧٢.

وأما الآية هذه فإنها أمر بالهبوط من السفينة إلى الأرض وهو يصح من كل قائل. وقد قيل: إن القائل ههنا، أي في قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٍ﴾ هم الملائكة[١].

والظاهر أن القائل هو الله بدليل قوله: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾، وقوله: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾[٢]. ففرق بين القولين كما ذكرنا.

هذا إضافة إلى أنه في الآية الأولى ما يدعو إلى البناء للمعلوم غير ما ذكرت منها:

١ ـ أنه نادى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ فكان من المناسب أن يجيبه ربه لا أن يبني للمجهول.

٢ ـ أن ربه قال: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ فذكر نفسه سبحانه.

٣ ـ وقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فذكر نفسه.

فناسب كل ذلك أن يقول: (قال) لا (قيل).

وقال: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ فذكر أن السلام منه، في حين قال مخاطبًا أصحاب الجنة: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وقال: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] ولم يقل: (منا) وذلك لأنه القائل هناك معلوم من السياق وهو الله.

ففي سياق آية الحجر كان الحوار بين الله سبحانه وإبليس فقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] ثم يستمر الكلام فيقول: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣١، روح المعاني ١٢/ ٧٢.
(٢) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣١.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٤٧] فلا يحتاج إلى ذكر جهة السلام.

ونحو ذلك في سورة (ق) فإن المتكلم هو الله والكلام مع أهل النار، ثم يلتفت إلى أهل الجنة. فقد قال ربنا لأصحاب النار: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٨ ـ ٢٩] ثم يستمر الكلام إلى أن القول: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٤ ـ ٣٥] فالقائل معلوم من السياق، بخلاف آية هود التي بني فيها الفعل للمجهول.

ثم إن السلام على أهل الجنة ليس من جهة واحدة، فإن الملائكة تحييهم إضافة إلى تحية رب العزة قائلاً: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] والملائكة يحيونهم قائلين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

حتى إن أصحاب الأعراف يحيونهم كما قال تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

فلما بيّن جهة السلام في آية هود بقوله: (منا) علم القائل وهو الله. ولو لم يقل: (منا) لم يعلم القائل أهو الله أم الملائكة.

وقدم السلام على البركات لأن السلامة والأمان أهم من البركات، وهو مقدم عليها، فإن السلام مقارن للهبوط، والبركات وهي الخيرات متأخرة.

وذكر جهة السلام فقال: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ ولم يقل: (وبركات منا عليك) لأن جهتها معلومة؛ لأن القائل واحد، فالذي قال: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ هو الذي قال: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ فالسلام والبركات منه.

﴿عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾.

أي على أمم تنشأ ممن معك في السفينة هي من آمن من الأمم، ولذا نكَّر الأمم، ولم يقل: (وعلى الأمم ممن معك) فتشمل جميع الأمم المتفرعة.

ثم استأنف الكلام على أمم أخرى فقال: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فذكر أنه سيمتعها في الدنيا ثم يمسهم منه عذاب أليم وهو عذاب الآخرة.

والمعنى: أنه ستنشأ أمم من الذين معك في السفينة، منها أمم مؤمنة وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾، ومنها أمم كافرة وهي التي سيمتعها في الدنيا ثم يمسها العذاب الأليم في الآخرة.

جاء في (البحر المحيط): «والذي ينبغي أن يفهم من الآية أن من معه ينشأ منهم مؤمنون وكافرون.

ونبه على الإيمان بأن المتصفين به من الله عليهم سلام وبركة، وعلى الكفر بأن المتصفين به يمتعون في الدنيا ثم يعذبون في الآخرة» [١].

وجاء في (الكشاف): «والمعنى أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشأون ممن معك.

وممن معك أمم ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار» [٢].

وجاء في (روح المعاني): «﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بعض الأمم المتشعبة منهم وهي الأمم الكافرة المتناسلة منهم إلى يوم القيامة» [٣].

قد تقول: لقد قال في آية سابقة: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ مخاطبًا بالجمع.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣١.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٣) روح المعاني ١٢/ ٧٤.

وقال في هذه الآية: ﴿يَنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ بالإفراد، فلِمَ لَمْ يخاطب بالجمع في هذه الآية فيقول: (اهبطوا) كما قال: (اركبوا)؟

فنقول: إن المتكلم في الآية السابقة هو نوح مخاطبًا من آمن معه فلا بد أن يقول: (اركبوا) ولا يصح الإفراد.

وأما ههنا فالمتكلم هو الله والمخاطب نوح وهو رسوله، ولا يصح أن ينادي الله المؤمنين في السفينة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يصح الخطاب بالجمع حتى لو قال: (يا نوح اهبطوا) فيخاطب نوحًا ويأمر الجميع بالهبوط كما قال: ﴿يَتَأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]، فنادى النبي وخاطب المؤمنين، وذلك أنه قال: ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ فلو خاطب بالجمع لقال: (وبركات عليكم وعلى أمم ممن معكم) وهو لا يصح، إذ المعنى سيكون (وبركات عليكم وعلى أمم من الذين معكم) وهذا يقتضي أن في السفينة أممًا مع المخاطبين من غير المؤمنين، وأن البركات إنما هي على الأمم التي هي من الذين معهم وليست منهم. وهذا لا يصح قطعًا، وهو ظاهر.

وقد تقول: هل خص السلام نوحًا والبركات عليه وعلى الأمم التي ستأتي، ولم يشمل السلام البركات من معه؟

والجواب: كلا، فإن السلام والبركات شملت نوحًا ومن معه ومن سيأتي ممن معه، وذلك أن (من) يحتمل ـ كما قيل ـ أن تكون بيانية فيكون من معه هم المعنيين، وذلك كما تقول: (عنده أربعة من البنين) و(أكرمت مائة من الرجال) أي من جنس الرجال، وذلك إذا كان الرجال مائة وليسوا أكثر.

وكما تقول: (وعد الله الكفار من المنافقين والمشركين نار جهنم)

فبينت جنس الكفار بـ (من).

كما يحتمل أن تكون (من) ابتدائية فتشملهم وتشمل من بعدهم، كما تقول: (أكرمتهم من كبيرهم إلى صغيرهم) فدخل الصغار مع الكبار.

ونحو ذلك قوله ﷺ: (فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة) فدخلت الجمعة الأولى في المطر.

وعلى كلا التقديرين شمل السلام والبركات من معه.

جاء في (الكشاف): «﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ يحتمل أن تكون (من) للبيان فيراد الأمم الذين كانوا معه في السفينة، لأنهم كانوا جماعات... وأن تكون لابتداء الغاية، أي على أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر»[1].

وكون (من) لابتداء الغاية هو الأظهر، أي أن البركات تبدأ ممن معهم إلى من سيأتي بعدهم، وذلك أنه قال: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ وليس مع نوح أمم بل أفراد. قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

جاء في البحر المحيط «والظاهر أن (من) لابتداء الغاية، أي ناشئة من الذين معك، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدهر»[2].

* * *

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]

لقد تحدى القرآن أهل الكفر قبل هذه الآية في السورة نفسها بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٣١.

دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣ ـ ١٤].

ولم يستجيبوا لهذا التحدي فلم يأتوا بما طلب وانقطعوا فألزمهم الحجة.

وفي هذه الآية دليل وبرهان من نوع آخر، فإنه بعد أن سرد أحداث قصة نوح مفصلة أعلن على الناس جميعًا أن هذه المعلومات إنما هي من أنباء الغيب أوحاها الله إليه، وأنه لم يكن يعلمها هو ولا قومه من قبل هذا التنزيل.

ولم ينكر ذلك أحد من قومه، ولم يدّع أحد أنه كان يعلمها أو أنه أخبر محمدًا بها فألزم الناس جميعهم الحجة.

فمن أعلمه بها إذن إن لم يكن ذلك وحيًا من عند الله؟

لا يمكن أن يقال: إنما علمه بشر، أو علم ذلك من أي مصدر غير الوحي، فقد قال: إنها من أنباء الغيب أوحاها الله إليه.

فلو كان قومه أو أحد من قومه يعلمها لرفع صوته وقال: أنا أعلمها، ولو كان علّمه أحد لقال: أنا علمته، ورفع صوته بذلك والقرآن يتلى في مكة والمدينة، والأعداء متربصون وهم كثر.

والآن لننظر في هذه الآية وتأليفها:

١ ـ فقد قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ولم يقل: (تلك من الأنباء نوحيها إليك) فتكون نبأ من الأنباء علمه الناس أو جهلوه، بل ذكر أنها من الغيب الذي لم يكن يعلمه هو ولا قومه.

وهذه حجة ملزمة.

٢ ـ وقال: ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ﴾ أي نحن الذين أخبرناك بها ولم تعلمها من طريق آخر.

وهذه حجة وإلزام آخر.

جاء في (روح المعاني): «﴿نُوحِيهَآ﴾ والتعبير بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية...

والمقصود من ذكر كونها موحاة إلجاء قومه صلى الله تعالى عليه وسلم للتصديق بنبوته عليه الصلاة والسلام وتحذيرهم مما نزل بالمكذبين» (١)

٣ ـ وقال: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ فنفى بـ (ما)، ولم يقل: (لم تكن تعلمها) وذلك أن نفي الماضي بـ (ما) آكد، فإنه نفي لـ (لقد فعل) (٢). وهي تقع في جواب القسم المنفي إذا كان الفعل ماضيًا.

فأفاد ذلك توكيد عدم علمه هو وعدم علم قومه.

٤ ـ وقال: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ﴾ فأكد الفاعل المستتر بـ (أنت) ولم يقل: (ما كنت تعلمها ولا قومك) مع أنه يصح أن يقال ذلك لوجود الفاصل وهو الضمير (ها)، ووجود فاصل آخر وهو (لا) وكل منهما مسوّغ للعطف على الضمير المتصل ظاهرًا أو مستترًا.

وفي القرآن نظير لكل منهما(٣). ولكنه جاء بـ (أنت) توكيدًا لعدم العلم.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٧٥.

(٢) انظر كتاب سيبويه ١/ ٤٦٠، الإتقان ١/ ١٧٦، معاني النحو ٤/ ٥٦٩.

(٣) قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٣] فعطف (من صلح) على الواو في (يدخلونها)، والفاصل الضمير (ها).

وقال: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ فعطف (آباؤنا) على الضمير (نا)، والفاصل (لا). والضمير المستتر من الضمائر المتصلة، وأما المحذوف فقد يكون متصلاً وقد يكون منفصلاً.

٥ ـ وقال: ﴿وَلَا قَوْمُكَ﴾ فجاء بـ (لا) النافية، ولم يقل: (ما كنت تعلمها وقومك)

و(لا) هذه تفيد التوكيد وتفيد القطع بعدم علمه وعلمهم بها لا على سبيل الإفراد ولا على سبيل الاجتماع. فأنت لا تعلمها، وقومك لا يعلمونها.

ولو قال: (ما كنت تعلمها وقومك) لاحتمل أن نفي العلم إنما هو عن المجموع وقد يعلمها أحد الطرفين.

٦ ـ وقال: ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ فجاء بـ (من) ليدل على أن علمهم بها إنما جاء الآن بعد الإيحاء.

ولم يقل: (قبل هذا) فيحتمل القبلية القريبة والبعيدة.

٧ ـ وقال: ﴿فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فأمره بالصبر لينال الخاتمة المحمودة في الدنيا والآخرة، وذلك بعد أن ذكر قصة نوح وصبره على قومه لتكون له عبرة ولئلا يضيق صدره بأذى قومه، ومن المحتمل أن يكون قد حصل له ذلك وقد أشار ربه إلى هذا الأمر فيما تقدم من السورة بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]

جاء في (تفسير الرازي): «﴿فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمعنى: يا محمد اصبر أنت وقومك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على أذى أولئك الكفار.

وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام ولقومه»(١).

٨ ـ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وكان المظنون أن يقال: (فاصبر

---

(١) تفسير الرازي ٦/ ٣٦١

إن العاقبة للصابرين) وذلك أن المتقين يشملون الصابرين وزيادة. فلما ذكر المتقين دخل فيهم الصابرون، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فذكر أن الصبر في البأساء والضراء وحين البأس إنما هو وصف واحد من أوصاف المتقين المذكورة في الآية.

فناسب أن يقول: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فدخل في ذلك الصابرون.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى أنه لم يرد مثل هذا التعبير في القرآن مع غير المتقين، فلم يرد مثلاً (إن العاقبة للصابرين) أو (للمؤمنين) أو غيرهم من غير أصحاب هذا الوصف.

وقد ورد نحو هذا التعبير في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم وهي قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، [القصص: ٨٣]

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهي آية هود هذه.

وورد تعبير قريب من هذا وهو قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

٩ ـ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بالتوكيد بـ (إن)، في حين ورد نحو هذا التعبير من غير توكيد في موضعين من القرآن وهما قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في سورة الأعراف: ١٢٨، والقصص: ٨٣.

أما آية القصص فهي قوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وهي كما ترى في الدار الآخرة ، والعاقبة الحسنة في الدار الآخرة ليست للمتقين فقط بل لعموم المؤمنين وإن لم يكونوا متقين. فقد تكون لعصاة المسلمين ولمن لم يبلغ درجة المتقين أيضًا. فلم يؤكد أن العاقبة للمتقين. والمقام ليس مقام توكيد كما ترى.

وأما آية الأعراف فهي قوله: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨ ـ ١٢٩].

وأنت ترى أن القائل هو موسى لقومه بني إسرائيل.

فإذا كان المقصود بالعاقبة وراثة الأرض المذكورة في الآية ، أعني قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ فالمقام ليس مقام توكيد فإن موسى لم يعدهم بذلك وعدًا قاطعًا ، وإنما قال: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه ليس استخلافًا على الدوام ، وإنما هو استخلاف زائل. بخلاف أمة محمد الذين وعدوا بالاستخلاف في الأرض وعدًا قاطعًا من الله وهو قوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥].

فأكد العاقبة للمسلمين بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ بتوكيدها لنبيهم ، ولم يؤكدها موسى لقومه. وهو المناسب.

وإن كان المقصود بالعاقبة الحسنة في الآخرة فإن المتقين من أمة محمد أكثر بكثير من بني إسرائيل ، فإن اليهودية دين منسوخ نسخته

النصرانية ونسخهما الإسلام ، والإسلام باق إلى يوم القيامة ، وأتباعه باقون حتى نهاية الدنيا ، فلا شك أن العاقبة سواء كانت في وراثة الأرض أو في الآخرة فهي في اتباع الرسول محمد أكثر وأتم وأوسع ولذا فهي آكد .

فناسب التوكيد في خطاب الرسول دون الموطنين الآخرين .

وقد ذكرنا أمة محمد وبني إسرائيل ؛ لأن آية هود إنما هي في خطاب نبي الإسلام محمد والوعد يشمله ويشمل أمته .

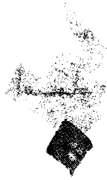
وإن آية الأعراف إنما هي في خطاب بني إسرائيل كما نصت عليه الآية .

ثم هناك أمر آخر حسّن التوكيد في آية هود دون آية الأعراف وهو أن الخطاب في آية هود إنما هو من الله سبحانه لرسوله محمد .

وأن الخطاب في آية الأعراف إنما هو من موسى لبني إسرائيل .

ولا شك أن خطاب الله آكد من خطاب موسى ، فناسب التوكيد في آية هود من جهة أخرى .





قصة هــود

كما ذكرنا في قصة نوح فإن قصة هود وردت في القرآن في مواضع متعددة ولكنها ليست متطابقة ، بل قد يذكر في موضع ما لا يذكره في المواضع الأخرى ، وذلك بحسب السياق وبحسب ما يريد التركيز عليه .

لقد وردت هذه القصة في الأعراف وفي سورة هود والشعراء وفصلت والأحقاف والذاريات والقمر والحاقة والفجر .

وهي قد يكون فيها تفصيل في موضع ، وفي موضع آخر يذكر جانبًا من جوانبها بإيجاز .

وإليك إيضاح ذلك :

١ ـ فقد جاء في سورة الأعراف ـ وهي أول سورة وردت فيها هذه القصة ـ أن هودًا دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

فتصدى له الملأ الذين كفروا من قومه وسفهوه واتهموه بالكذب ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٦] .

فنفى أن تكون به سفاهة وأكد لهم أنه رسول من رب العالمين وأنه لهم ناصح أمين .



فرفضوا ادعاءه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

فاشتد عليهم نبيهم قائلاً: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١].

ويظهر أن قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ إنما هو جواب لتحديهم ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

فهم قالوا له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ وهو أجابهم بقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

ثم جاء الأمر الحاسم بنجاته ومن معه وإهلاك المكذبين تصديقًا لما وعدهم به ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

٢ ـ وفي سورة هود ذكر أيضًا أنه دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠] غير أن ما قاله في هود لا يطابق ما قاله في الأعراف. فإنه قال لهم في الأعراف: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وقال في هود: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

وذلك أنهم قالوا في الأعراف: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] فقال لهم: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ أي إنهم افتروا على الله. فقال لهم في هود: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ فكأن ما ذكره في هود إنما هو تعقيب على ما قالوه في الأعراف واستكمال له.

ثم إنه قال لهم إنه لا يسألهم على دعوته أجرًا.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف.

ووعدهم بالخير الكثير إن هم أطاعوه، فإن ربه سيرسل السماء عليهم مدرارًا ويزيدهم قوة إلى قوتهم.

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف.

فردوا عليه قائلين إنه لم يأتهم ببينة، وإنهم لا يتركون آلهتهم بسبب قوله. غير أنه لم تكن المواجهة بينهما على نحو ما ورد في الأعراف، بل كانت أخف، ذلك أن ما ورد في الأعراف إنما هو قول الملأ الذين كفروا من قومه خاصة.

وأما المواجهة في هود فقد كانت مع عموم القوم، وعموم القوم ليسوا كالملأ الذين كفروا، أي أشراف قومه الكافرين، فهم متفاوتون في الإجابة.

وعلى كل حال فهم أخف من الملأ الذين كفروا، ولذا لم يصفوه بالسفه ولم يصرحوا بكذبه، وإنما قالوا له: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٤].

أي أصابك سوء من بعض الآلهة فتقول ما تقول، ولم يصرحوا بأنه أصابه جنون مع أنهم يعنون ذلك، وإنما خففوا في المواجهة فقالوا: (أصابك سوء).

ولذا كان جوابه لهم مناسبًا لما قالوا فيه. فقد قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ فقد تحداهم وتحدى آلهتهم بأن يكيدوه ولا يمهلوه.

ولم يرد نحو ذلك في الأعراف.

ولما كانت المواجهة في الأعراف أشد وإنهم تحدوه كانت العقوبة أشد، فقد قال فيها: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢].

ولم يقل مثل ذلك في هود، وإنما قال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود: ٥٨] ولم يذكر أنه قطع دابر الذين كذبوه.

فهم في الأعراف تحدوه، وفي هود هو تحداهم.

فأنت ترى أنه ذكر في كل موطن جانبًا لم يذكره في الآخر.

٣ ـ وفي سورة الشعراء بدأ القصة بقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

وهذا ما تبدأ به جملة من القصص في هذه السورة.

فالقصة هنا متناسبة مع القصص في السورة من ناحية، ومن ناحية أخرى كأنها استكمال لما ورد في الأعراف وهود، وذلك بعد تكذيب عاد لرسولهم في الأعراف وهود قال في الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

ولم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله وتوحيده كما فعل في الأعراف وهود، وإنما ذكر ما بعد ذلك فقال: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٢٧].

وهذه العبارات قالتها عموم الرسل لأقوامهم في هذه السورة، فقد قالها نوح لقومه، وقالها هود وقالها صالح وقالها لوط وقالها شعيب.

ثم بكتهم بما يفعلون قائلاً: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ

مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠] وذكرهم بالنعم التي أمدهم بها رب العالمين.

ولم يرد مثل ذلك في قصة هود في المواضع الأخرى من القرآن الكريم.

وهذا متناسب مع سائر القصص في السورة.

فرد عليه القوم قائلين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٨]

فأهلكهم رب العزة وجعلهم آية فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٣٩ ـ ١٤٠].

وهذا التعقيب جرى بعد عموم القصص في الشعراء.

فأنت ترى أنه ذكر جوانب من القصة لم يذكرها فيما سبق من القصص.

٤ ـ وأما في سورة فصلت فقد ذكر استكبارهم واعتدادهم بقوتهم واغترارهم بها حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، ثم ذكر عقوبتهم وأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا أذاقتهم عذاب الخزي في الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى.

وهذا أول موضع يذكر فيه نوع العذاب الذي حل بهم وأنه بالريح.

ولم يذكر دعوة رسولهم لهم ولا موقفًا لهم منه، وإنما لخص قصتهم لأهل مكة ولمن يعتبر. فهي تختلف عن كل ما مر من القصص.

وهذا ما ورد من هذه القصة في فصلت:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

﴿رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥ ـ ١٦].

٥ ـ وأما في سورة الأحقاف فإنه ذكر مساكنهم، وهي أول مرة تذكر فيها المساكن وأنها بالأحقاف فقال: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]. والأحقاف في اليمن.

وقال لهم رسولهم منذرًا ومحذرًا: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

فأجابوه قائلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

فإنه لما خوّفهم بعذاب يوم عظيم، تحدّوه قائلين: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

ثم ذكر كيف أنهم استقبلوا عارض العذاب فظنوه سحابًا ممطرًا وقالوا: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾.

ثم ذكر مآلهم وأنه أرسل عليهم ريحًا دمرتهم فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم (الآية ٢٥).

وهذه أول مرة تذكر فيه مساكنهم المدمرة الخالية، كما أنه أول مرة ذكرت مساكنهم في الجزيرة.

٦ ـ وأما في الذاريات والقمر والحاقة والفجر فلم يذكر دعوة ولا موقفًا من رسولهم، وإنما ذكر عاقبتهم وهلاكهم.

وهو يذكر في كل موضع ما لم يذكره في الموضع الآخر من التفصيل وكيفية الإهلاك.

وكل منها مناسب لما ورد في موضعه.

وبهذا يتضح أن القصة ليست متماثلة في تفصيل أحداثها.

تذكيرهم بالنعم:

إن التذكير بالنعم في القصة ليس متماثلاً. فقد يذكّرهم في موضع على وجه الإجمال، وفي موضع آخر على وجه التفصيل.

وقد لا يذكر ذلك في مواضع أخرى إذ لا يقتضي السياق ذكره.

١ - فقد قال في الأعراف: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فذكّرهم ببصطة أجسامهم وقوتها، وذكّرهم بما أنعم الله عليهم على العموم.

٢ - وأما في سورة هود فإنه دعاهم إلى الاستغفار والتوبة ليمدهم ربهم ببركات السماء ويزيدهم قوة إلى قوتهم.

ومعنى ذلك أن الله قد أعطاهم قوة وأنه سيزيدهم قوة إلى قوتهم، فذكر أن لهم قوة على العموم ولم يخصصها.

لقد ذكر في آية الأعراف بصطة الجسم وقوته، وهنا ذكر القوة على العموم، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

٣ - وقد ذكر في الشعراء شيئًا من مظاهر قوتهم وعدّد آلاء الله عليهم، وكيف تصرفوا في هذه النعم فقال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٤].

ففصل ما أجمله في الأعراف وهود من آلاء الله عليهم في أجسامهم

وأنهم إذا بطشوا جبارين.

وفصل فيما أنعم عليهم من الأنعام والبنين والجنات والعيون.

فكأن ما ورد في الشعراء تفصيل لما أجمله في الموطنين السابقين.

٤ ـ وفي فصلت ذكر استكبارهم في الأرض بغير الحق واعتدادهم بقوتهم واغترارهم بها والاستطالة على خلق الله. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾ [فصلت: ١٥]

٥ ـ ولم يذكر شيئًا عن ذلك في الأحقاف ولا في الذاريات ولا في القمر ولا في الحاقة.

٦ ـ وكذلك في سورة الفجر، فإنه لم يذكّرهم بالنعم وإنما وصفهم أو وصف بلادهم بأنها ذات العماد ثم ذكر صب العذاب عليهم وعلى الأقوام الكافرة الأخرى.

العاقبة والهلاك:

لم يكرر ذكر عاقبة عاد ولا كيفية هلاكهم، وإنما يذكر في كل موضع جانبًا من جوانب العقوبة.

فقد يذكر العقوبة على وجه العموم في موضع ويفصل في موضع آخر، ولكنه لم يذكرها على نمط واحد، بل يذكر في كل موضع ما يناسب السياق وجو السورة.

١ ـ فقد قال في الأعراف: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٢].

فذكر نجاته والذين معه، وذكر أنه قطع دابر الذين كذبوا، غير أنه لم يذكر نوع العقوبة ولا كيف قطع دابرهم.

٢ ـ وفي هود لم يذكر نوع العقوبة أيضًا وإنما ذكر الأمر بصورة أخرى ، فقد قال إنه نجى هودًا والذين آمنوا من عذاب غليظ .

ولم يذكر نوع هذا العذاب ولا أنه قطع دابر الذين كذبوا ، وإنما قال إنهم أُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٥٨ ـ ٦٠] .

٣ ـ وأما في الشعراء فقد قال: ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ ﴾ ولم يذكر كيفية الإهلاك ، كما أنه لم يذكر نجاته ونجاة من معه ، ذلك أنه خوفهم بالعذاب قائلاً: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فقالوا له : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ فأهلكهم .

٤ ـ وأول موطن يرد فيه ذكر نوع العقوبة إنما هو في فصلت ، فقد ذكر أنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا في أيام نحسات ، ولم يذكر عدد الأيام تلك . ولم يذكر ماذا فعلت هذه الريح بهم أو بمساكنهم. قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦] ولم يذكر نجاة هود ومن معه، ذلك أنه حذر قريشًا أن تصيبهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فذكر عذابهم .

٥ ـ وأما في الأحقاف فزاد في وصف الريح وأنها جاءت على هيئة عارض ، أي سحاب ممطر واستبشروا بها فإذا هي ريح مدمرة تدمر كل شيء فلم يبق منهم إلا مساكنهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا



مَسَٰكِنُهُمْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٥].

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه محل سكناهم وأنه بالأحقاف، وأن الريح أهلكتهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم.

وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرت فيها المساكن وأنها بقيت بعدهم خاوية خالية.

ولم يذكر في موضع آخر محل سكناهم ولا مساكنهم.

وذكر المساكن مناسب لذكر موضع سكناهم وهي الأحقاف.

ولم يذكر نجاته، ذلك أنه خوفهم بالعذاب قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فقالوا غير مبالين: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] فذكر هلاكهم على نحو ما ورد.

٦ ـ وأما في الذاريات فقد زاد في وصف الريح وعتوها وأنها عقيم لا تأتي بخير وأنها لا تأتي على شيء إلا دمرته دمارًا تامًّا. قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١ ـ ٤٢].

٧ ـ وأما في القمر فقد ذكر عمل الريح في الناس فخصص الوصف.

ففي الأحقاف ذكر الدمار على العموم وذكر المساكن.

وزاد في وصفها في الذاريات.

وأما في القمر فخصص فعلها في الناس فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٩ ـ ٢١].

وهذا أول موطن يذكر فيه ما فعلته الريح في الناس وأنها تنزعهم كأنهم أعجاز نخل منقعر.

فخصص بعد العموم.

٨ ـ وأما في الحاقة فزاد في وصفها وذكر أنها عاتية وذكر مدتها. وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه مدة الريح وأنها سبع ليال وثمانية أيام حسومًا.

ثم ذكر أنه لم يبق من عاد أحد.

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۞ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۞ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨].

وانتهى المشهد وكانت الخاتمة ههنا، ولم يذكر بعد ذلك شيئاً عن نهاية عاد وعاقبتها، فقد انتهى كل شيء بقوله: ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾.

٩ ـ وختم ذكر عاد في سورة الفجر، فقد ذكر في هذه السورة اسم بلدهم على ما قيل ووصفها. وهو ما لم يرد في موطن آخر، فقد ذكر أنها ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

ومما قيل في إرم «أنها مدينة عظيمة في اليمن، والوصفان لها والمراد ذات البناء الرفيع أو ذات الأساطين التي لم يخلق مثلها سعة وحسن بيوت وبساتين في بلاد الدنيا»[١].

وقيل: إن إرم هي اسم للقبيلة فهي عاد إرم[٢].

وعلى كلا التفسيرين فقد ذكر في هذه السورة ما لم يذكره في أي موضع آخر من القرآن، سواء كانت إرم اسمًا لمدينتهم أم اسمًا لقبيلتهم.

ومن الملاحظ في هذه القصة أنه ذكر في الأعراف النجاة والإهلاك.

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ١٢٣.

(٢) فتح القدير ٥/ ٤٢٣، روح المعاني ٣٠/ ١٢٣.

وفي هود ذكر النجاة ولم يذكر عقوبة غير قوله: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وفي الشعراء وفصلت والأحقاف والذاريات والقمر والحاقة والفجر ذكر العقوبة والإهلاك ولم يذكر النجاة.

وكل ذلك متناسب مع السياق في كل سورة، ومع جو السورة وما ورد فيها.

ومن الملاحظ أيضًا في قصة عاد أنه لم يذكر أن نبيهم دعا على قومه أو دعا بالنجاة في كل ما ورد من القصة.

كما أنه لم يذكر أهله وكيف كانوا كما مَرَّ في قصة نوح.

فاتضح من ذلك أن القصة لم تتكرر وأنه في كل موطن يذكر ما لا يذكره في موطن آخر.

والآن نعود إلى آيات القصة في سورة هود لنتلمس شيئًا من جوانبها الفنية.

* * *

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]

ناداهم بقوله: (يا قوم) استعطافًا لهم ليسمعوا قوله وليلينوا له وأضافهم إلى نفسه.

قيل: «وقرأ ابن محيصن (يا قومُ) بضم الميم... وهي لغة في المنادى المضاف حكاها سيبويه وغيره»[(١)].

والقراءة بكسر الميم ـ وهي قراءة القراء العشرة ـ أولى وأظهر في

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

الإضافة إلى ياء المتكلم ، ذلك أن قوله : (يا قومُ) بضم الميم ليست نصًّا في الإضافة ، بل هي تحتمل النكرة المقصودة ، كما تقول : (يا رجلُ) أو (يا واقفُ) بخلاف كسر الميم فإنها نص في إضافة القوم إلى نفسه . علاوة على كون القراءة بالكسرة قراءة متواترة قرأ بها العشرة .

﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ جاء بـ (من) الاستغراقية لنفي أن يكون ثمة إله غير الله على سبيل الاستغراق .

وقال ههنا : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ ، وقال في الأعراف : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] وذلك أن القصة في الأعراف كانت أول تبليغ لهم ورد في القرآن دعاهم فيه إلى عبادة الله فلا يناسب أن يقول : (إن أنتم إلا مفترون) .

وأما القصة في هود فكانت بعدما ورد في الأعراف من استمساكهم بآلهتهم وردّهم على نبيهم قائلين : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأعراف : ٧٠] واشتداد نبيهم عليهم بقوله : ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ ﴾ [الأعراف : ٧١] أي إنهم افتروا على الله باتخاذهم الأوثان شركاء الله[(١)] .

فناسب أن يقول في هود : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ فكأن هذا التعبير استكمال للمحاورة بينهما والرد عليهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن التعبير في هود مناسب أيضًا لما ورد في السورة من الكلام على آلهتهم التي افتروها على الله ، فقد قالوا لنبيهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود : ٥٣] وقالوا له أيضًا :

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١٠٢ .

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٤].

فكان كل تعبير في مكانه أنسب.

ونفى ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ بـ (إنْ) ولم ينفه بـ (ما) ذلك لأن (إنْ) أقوى من (ما) في النفي وآكد(١). فأكد افتراءهم على الله سبحانه.

* * *

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [هود: ٥١]

نفى عن نفسه ما قد يظنونه أنه يبغي مطمعًا أو مالاً فقال لهم إنه لا يسألهم أجرًا على ما يبذله من النصح لهم، وذلك أدعى إلى قبول النصيحة؛ لأن ذلك يدل على أنه ناصح لهم حقًّا يبغي لهم الخير. فإنه إذا كان القول مشوبًا بمطمع كان أبعد عن القبول وأدعى إلى التهمة.

جاء في (روح المعاني) في هذه الآية: «خاطب به كل رسول قومه إزاحة لما عسى أن يتوهموه وتمحيضًا للنصيحة، فإنها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير»(٢).

* * *

﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ ﴾

قال ههنا: (فطرني) أي أوجدني من العدم. وهذا تعريض بآلهتهم التي يعلمون أنها ليست هي التي أوجدتهم بل أوجدهم الله كما أخبر عن المشركين سبحانه بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

---

(١) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٦.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٨٠.

ومعنى ذلك أن آلهتهم لا تستحق أن تعبد وإنما يستحق العبادة الذي فطرهم وفطر السماوات والأرض.

جاء في (البحر المحيط): «ونبه بقوله: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ على الرد عليهم في عبادتهم الأصنام، واعتقادهم أنها تفعل.

وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات يستحق إفراده بالعبادة»(١).

وجاء في (روح المعاني): «وإيراد الموصول للتفخيم، وجعل الصلة فعل الفَطْر الذي هو الإيجاد والإبداع لكونه أبعد من أن يتوهم نسبته إلى شركائهم»(٢).

قد تقول: لقد قال في قصة نوح في هذه السورة: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩].

فقال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ فذكر اسمه العلم.

وقال ههنا: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ﴾ فذكر الذي فطره. فما السبب؟

فنقول: إنه لم يجر ذكر للآلهة وعبادتها في قصة نوح في هذه السورة فجاء باسمه العلم، بخلاف هذه القصة فإنه جرى ذكر لآلهتهم، فناسب ذكر الذي فطره تعريضًا بآلهتهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده وإبطال عبادة ما يعبدون من دون الله.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وهذا من ألطف التعقيب، فإنه مناسب لقوله: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ فإن الذي لا يبتغي مصلحة لنفسه ناصح صادق، أفلا تعقلون هذا؟ أليس

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

(٢) روح المعاني ١٢/ ٨٠.

الذي لا يبتغي مصلحة لنفسه ناصحًا صادقًا؟

وهو مناسب لقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِيٓ﴾ ، وفحواه أفلا تعقلون أنه لا يستحق العبادة غير فاطر السماوات والأرض وفاطر الإنسان؟

ألا تعقلون أن غير الفاطر لا يستحق أن يعبد «أو تجهلون كل شيء فلا تعقلون شيئًا أصلاً ، فإن الأمر مما لا ينبغي أن يخفى على أحد من العقلاء» (١) .

جاء في (البحر المحيط): «و﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيف على استحالة الألوهية لغير الفاطر.

ويحتمل أن يكون ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ راجعًا إلى أنه إذا لم أطلب عرضًا منكم وإنما أريد نفعكم فيجب انقيادكم لما فيه نجاتكم ، كأنه قيل: أفلا تعقلون نصيحة من لا يطلب عليها أجرًا إلا من الله تعالى ، وهو ثواب الآخرة؟

ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك» (٢) .

* * *

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]

مناسبة هذه الآية لما قبلها مناسبة لطيفة ، فإنه نفى إرادة مصلحة نفسه في الآية السابقة ودعاهم إلى مصلحتهم هم في هذه الآية. فقد قال إنه لا يطلب أجرًا لنفسه ولكن إن هم أجابوه آتاهم الله المال والقوة. فإنهم إذا

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٠.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

استغفروا ربهم وتابوا إليه أرسل السماء عليهم مدرارًا وهم أصحاب زروع وثمار وبساتين(١) وزادهم قوة إلى قوتهم ، وماذا يطلب الإنسان لدنياه أكثر من ذلك : المال والزيادة في القوة؟

وقد ذكرنا في أول السورة تقديم الاستغفار على التوبة وسبب ذلك فلا نعيد القول فيه .

وقدّم هنا إرسال الغيث على زيادة القوة لأن ذلك سبب في زيادتها ، فإن زيادة المال من أسباب زيادة القوة .

* * *

﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٥]

بعد أن محض لهم النصح ودعاهم إلى أن يحكّموا عقولهم فيما هم عليه وأن فيما دعاهم إليه مصلحتهم هم لا مصلحته هو ردوا عليه بقولهم : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٖ ﴾ ومعنى ذلك أنك لم تأتنا بحجة واضحة . ولعلك لو جئت ببينة لآمنّا لك وصدقناك .

وقولهم هذا لا ينفي أن يكون هو صادقًا ، فقد يكون صادقًا غير أنه لم يأت بحجة تبين ذاك .

ثم ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا : ﴿ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ ﴾ مؤكدين موقفهم ، وأنهم لا يتركون آلهتهم لقول قاله .

ثم ذهبوا أبعد من ذلك فقالوا : ﴿ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ أي لسنا مصدقين لك أصلاً .

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣٣ ، الكشاف ٢/ ١٠٢ ، فتح القدير ٢/ ٤٨١ .

فقد نفوا أن يكون صادقًا ، فذهبوا من السيء إلى الأسوأ ، ذلك أنهم قالوا له أولاً: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فلم ينفوا صدقه ، ثم أمعنوا في السوء حتى قالوا له: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فنفوا أن يكون صادقًا.

ثم ذهبوا أبعد من ذلك في السوء فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي أصابك بعض الآلهة بالجنون ، فكأنه لما قال لهم: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أرادوا أن يتهموه بعقله أيضًا وأن يرموه بأبعد مما رماهم به فاتهموه بالجنون ، فلم يدعوا مجالاً للإيمان وآيسوه من ذلك ، فكل حالة أسوأ من التي قبلها.

جاء في (روح المعاني): «لقد سلكوا طريق المخالفة والعناد على سبيل الترقي من السيء إلى الأسوأ حيث أخبروه أولاً عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به حجة في نفسه وإن لم تكن واضحة الدلالة على المراد.

وثانيًا: عن ترك الامتثال لقوله عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ مع إمكان تحقق ذلك بتصديقهم له في كلامه.

ثم نفوا عنه تصديقهم له عليه السلام بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مع كون كلامه عليه السلام مما يقبل التصديق.

ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضًا حيث قالوا ما قالوا» [(١)].

إن هذه الآية كل جزئياتها مؤكدة ، إذ كل تعبير فيها مؤكد بمؤكد أو أكثر.

فقوله: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ تعبير مؤكد ، فإنه قال: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ فنفى الفعل الماضي بـ (ما) ، ولم يقل: (لم تأتنا ببينة) فينفيه بـ (لم).

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٢.

والفعل الماضي المنفي بـ (ما) آكد من الفعل المنفي بـ (لم) ، ذلك أن الفعل الماضي المنفي بـ (ما) يقع جوابًا للقسم ، بخلاف المنفي بـ (لم) فهو آكد[١] . فهذا التعبير منفي نفيًا مؤكدًا.

وقوله : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ تعبير مؤكد ، فإنه قال : ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ ولم يقل : (ولسنا تاركي آلهتنا عن قولك) بالجملة الفعلية . فنفى التعبير بالجملة الاسمية المصدرة بـ (ما) ، والجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية كما هو معلوم .

ثم جاء بالباء الزائدة المؤكدة في الخبر فقال : ﴿بِتَارِكِيٓ﴾ .

و﴿عَن قَوْلِكَ﴾ فيه معنيان :

المعنى الأول : (صادرين عن قولك)

والمعنى الآخر : التعليل أي (لقولك) أي لا نترك آلهتنا لقول قلته على أية حال .

وقوله : ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تعبير مؤكد ، ذلك أنهم نفوا إيمانهم بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) ، وجاء بالباء الزائدة في الخبر وهي تفيد التوكيد .

وقدم الجار والمجرور على العامل (مؤمنين) وهو ـ أي التقديم ـ يفيد الاختصاص في الغالب ، أي : نحن نخصّك بعدم الإيمان .

ولو قال مثلاً : (ولسنا مؤمنين لك) لم يكن التعبير مؤكدًا .

وقوله : ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ تعبير مؤكد ، فإنه جاء بأسلوب القصر ، فقد نفى بـ (إنْ) وأثبت بـ (إلا) ولم يقل : (نقول اعتراك بعض آلهتنا بسوء) .

---

(١) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٠ .

والتعبير بأسلوب القصر تعبير مؤكد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه نفى بـ (إنْ) ولم ينف بـ (ما)، و(إنْ) آكد من (ما) في النفي كما أسلفنا.

فكل جزء من الآية تعبير مؤكد ـ كما ترى ـ.

* * *

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥]

لما قالوا ما قالوا وآيسوه من إيمانهم وقالوا: إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء، أعلن البراءة من آلهتهم وأشهد الله وطلب منهم أن يشهدوا على ذلك فقال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ﴾.

ثم تحداهم وتحدى آلهتهم جميعًا، وليس بعض القوم وليس بعض الآلهة فقط أن يكيدوه ولا يمهلوه. وهو تهاون عظيم بهم وبآلهتهم كلها، فهم وآلهتهم أضعف من أن يفعلوا له شيئًا.

وقوله: ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يحتمل معنيين:

أن تكون (ما) اسمًا موصولاً بمعنى (الذي)، أي أنا بريء من الذي تشركون.

أو أن تكون (ما) مصدرية فيكون المعنى: أنا بريء من إشراككم آلهة من دونه(١).

وقد أراد المعنيين جميعًا: البراءة من إشراكهم ومن الذين يشركونهم.

ثم قال لهم:

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣٢.

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

فقال لهم: إنه اعتمد على الله وركن إليه فهو يكفيه كل شيء، فهو ربه وربهم، يكفي ويحفظ من توكل عليه وركن إليه، فهو ربكم وأنتم لا تفوتونه، وهذه الأصنام لا تمنعكم منه ولا تقدر أن تكيدني بشيء.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ ذليلة له خاضعة لا تفوته ولا تقدر أن تمتنع منه.

والناصية «مقدم الرأس، وتطلق على الشعر النابت عليها» (١).

والأخذ بالناصية دليل على القدرة والقهر، جاء في (البحر المحيط): «ثم وصف قدرة الله تعالى وعظيم ملكه من كون كل دابّة في قبضته وملكه وتحت قهره وسلطانه، فأنتم من جملة أولئك المقهورين.

وقوله: ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ تمثيل، إذ كان القادر المالك يقود المقدور عليه بناصيته، كما يقاد الأسير والفرس بناصيته، حتى صار الأخذ بالناصية عرفًا في القدرة على الحيوان. وكانت العرب تجزّ ناصية الأسير الممنون عليه علامة على أنه قد قدر عليه وقبض على ناصيته.

وقال ابن جريج: وخص الناصية لأن العرب إذا وصفت إنسانًا بالذلة والخضوع قالت: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي إنه مطيع له يصرفه كيف يشاء» (٢).

وقد جاء بـ (من) الاستغراقية ولم يقيد مكانًا أو زمانًا لذاك. فكل دابة من إنسان أو غيره أيًا كان وأينما كان مأخوذ بناصيته من ربه خاضع له

---

(١) روح المعاني١٢/ ٨٣، تفسير الرازي ٦/ ٣٦٥.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٣٤.

مقهور لسلطانه ذليل لسطوته.

وهذا تعظيم لرب العزة وتهديد لهم عظيم.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

ومع هذا الاقتدار العظيم فربي على صراط مستقيم لا يجور ولا يظلم، ينصر من توكل عليه واعتصم به. ويذل ويخزي من بغى واعتدى، فهو بالمرصاد لكل ظالم باغ.

وهو يهدي إلى الصراط المستقيم ويدل عليه.

ومن سار على الصراط المستقيم وصل إليه كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] فعلى الله بيان السبيل المستقيمة. والسبيل القاصدة توصل إليه.

فهذا التعبير يجمع عدة معان منها:

١ ـ أنه لا يظلم ولا يجور.

٢ ـ وأنه يعاقب الظالم الجائر.

٣ ـ وأنه يدل على الصراط المستقيم.

٤ ـ وأن الصراط المستقيم يوصل إليه.

جاء في (الكشاف): «يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه، لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتصم به»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «وهو تمثيل واستعارة لأنه تعالى مطلع على أمور العباد مجازٍ لهم بالثواب والعقاب، كافٍ لمن اعتصم به كمن

---

(١) الكشاف ٢/١٠٣.

وقف على الجادة فحفظها ودفع ضرر السابلة بها، وهو كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾» (١).

وجاء في (تفسير الرازي): «أي وإن كان قادرًا لا يظلمهم ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب. . .

(الثالث) أن يكون المراد: إن ربي يدل على الصراط المستقيم، أي يحث أو يحملكم بالدعاء إليه» (٢).

❋ ❋ ❋

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود: ٥٧]

فإن تتولوا فقد أبلغتكم رسالة ربي وأعذرت وأنتم تتحملون عاقبة توليكم.

وهددهم بإهلاكهم فقال: ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ وقد سبق أن ذكّرهم بأنه استخلفهم بعد قوم نوح بعد إغراقهم فقال لهم: ﴿ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

«أي رقيب محيط بالأشياء علمًا فلا يخفى عليه أعمالكم ولا يغفل عن مؤاخذتكم. . .

ويجوز أن يكون الحفيظ بمعنى الحافظ بمعنى الحاكم المستولي، أي أنه سبحانه حافظ مستولٍ على كل شيء. ومَن شأنه ذلك كيف يضره شيء؟» (٣).

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٣
(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٦٥.
(٣) روح المعاني ١٢/ ٨٥.

لقد قال ههنا: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ بالتوكيد بـ (إنّ).

وقال في سورة سبأ: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١] من دون توكيد، ذلك أن المقام في سورة هود يستدعي التوكيد، وذلك أن عادًا قالوا لنبيهم إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء، فتحداهم وتحدى آلهتهم بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٥ ـ ٥٦].

ثم هددهم بالاستئصال بقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ فناسب ذلك أن يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ بالتوكيد.

وأما في سبأ فالمقام والسياق مختلفان، فقد قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢٠ ـ ٢١]

فليس المقام مقام تحدّ ـ كما ترى ـ وإنما هو إخبار عن أمة ماضية ليس لهم شأن مع رسول ولا نحو ذلك فلا يحتاج إلى توكيد.

وقد قدم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على عامله ﴿حَفِيظٌ﴾ للاختصاص، وذلك ليبين أنه لا يفوت حفظه شيء على الإطلاق. في حين قال في سورة الشورى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] فأخر الجار والمجرور (عليهم) عن الخبر (حفيظ) وذلك لأنه لا داعي للتقديم، فإنه ليس المقام مقام اختصاص، فإن حفظه سبحانه لا يختص بهم، بل ربنا على كل شيء حفيظ وليس حفيظًا عليهم فقط.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [هود: ٥٨]

قال ههنا: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ فذكر الذين آمنوا معه.

وقال في الأعراف في القصة نفسها: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢]

فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ ولم يذكر صفة الإيمان، ذلك أنه قال في الأعراف: ﴿ وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ فذكر أنه أهلك الذين كذّبوا وما كانوا مؤمنين. ومعنى ذلك أنه أنجى الذين آمنوا.

ولم يقل مثل ذلك في هود فناسب ذكر الذين آمنوا.

ومثل ذلك ما جاء في قصة نوح في الأعراف، فإنه قال: ﴿ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ [الأعراف: ٦٤]

فإنه لما ذكر أنه أغرق الذين كذبوا دلّ على نجاة المصدقين بالآيات وهم المؤمنون.

ثم كرر التنجية فقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ وقد قيل إن تكرير التنجية للتوكيد[1].

وقيل: إنه أراد أن يذكر التنجية من الهلاك أولاً، ثم ذكر صفة العذاب الذي نجاهم منه. وذلك كما تقول: إنه نجاهم من الهلاك وكانت التنجية من عذاب غليظ.

وكما تقول: إنه نجاهم من الغرق، وقد نجاهم من نهر شديد الانصباب.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٣٥.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: ما معنى تكرير التنجية؟

قلت: ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم نجاهم، ثم قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ على معنى: وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ. وذلك أن الله عز وجل بعث عليهم السموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم فتقطعهم عضوًا عضوًا.

وقيل: أراد بالثانية: التنجية من عذاب الآخرة. ولا عذاب أغلظ منه وأشد» (١).

ويقوي القول بأن المقصود بالتنجية الثانية إنما هي من عذاب الآخرة أن القرآن وصف عذاب الآخرة بأنه عذاب غليظ في عدة آيات، ولم يرد هذا الوصف لعذاب آخر.

قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] وهو في الكلام على عذاب الآخرة.

وقال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]

ووصف ملائكة النار بأنهم غلاظ شداد فقال: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وذلك كله مما يقوي أن المقصود بالعذاب الغليظ إنما هو عذاب الآخرة.

ومن لطيف التناظر في التعبير أنه كما كرر التنجية كرر اللعنة عليهم في

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٤.

الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [هود: ٦٠].

وهو تناظر جميل، فذكر التنجية للمؤمنين مرتين وذكر اللعنة على الكافرين مرتين.

وهو مما يقوي أيضًا أن التنجية الأولى من الهلاك في الدنيا، وأن التنجية الثانية من عذاب الآخرة، وذلك أنه ذكر لعنتين: لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة. والله أعلم.

وقال ههنا: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾ بتضعيف عين الفعل، وقال في الأعراف في القصة نفسها: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [٧٢].

وقد ذكرنا في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) الفرق بين استعمال هاتين المفردتين في القرآن الكريم. فقد ذكرنا أن الملاحظ أن القرآن الكريم كثيرًا ما يستعمل (نجّى) للتلبث والتمهل، ويستعمل (أنجى) للإسراع في النجاة، فإن (أنجى) أسرع من (نجّى) في التخليص من الشدة والكرب[١]. وقد ذكرنا بناء كل من هذين الفعلين ودلالته الصرفية[٢].

فاستعمل في الأعراف (أنجى) واستعمل في هود (نجّى)، ذلك أن القصة في هود كانت كأنها استكمال لما ورد في الأعراف. ومعنى ذلك أن اللبث في هود أطول مما في الأعراف؛ لأن ذلك كان بعد الأعراف فشمل الزمانين فحسّن ذلك استعمال (نجّى) في هود.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المذكور من القصة في هود يدل على مكث أطول في قومه مما في الأعراف، فكان الجدال بينهما أطول

---

(١) انظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٧٤.

(٢) المصدر السابق ٦٥.

والمحاورة أكثر. فناسب ذلك أيضًا استعمال (نجّى) في هود و(أنجى) في الأعراف.

وقال: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ليدل على أنه ما كانت النجاة في الدنيا ولا في الآخرة إلا برحمة منه سبحانه وليس ذلك بعملهم فقط، فإن العمل لا ينجي وحده لولا رحمة الله.

* * *

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩ ـ ٦٠]

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾

«إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قال: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا» (١).

﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾

الجحود أن يُقِرَّ المرء بقلبه ولا يقرَّ لسانه، أو هو إنكار ما تعلم من الحق. قال تعالى في قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال في سيدنا محمد: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وعاد كذلك جحدوا بآيات ربهم مع علمهم أنها حق وهو ظلم وعناد.

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لقد أطلق معصيتهم، فهم عصوا كل ما أمرتهم به رسلهم.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٤.

وهذه مرتبة أخرى بعد الجحود ، فالجحود أمر قلبي وقولي ، وهذا أمر سلوكي وعملي ، وهي مخالفة الأوامر على العموم.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

وهذا على النقيض من موقفهم من رسلهم ، فهم عصوا الرسل واتّبعوا الجبابرة.

وقال: (اتّبعوا) ولم يقل: (تبعوا) وذلك للمبالغة في اتّباع الجبابرة.

ولم يقل: (واتّبعوا الجبارين) أو الجبابرة ، وإنما أراد استغراق الاتباع لكل جبار ، فلم يقتصر اتباعهم لقسم من الجبابرة.

وخص الجبابرة الذين اتبعوهم بالعناد فقال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ زيادة في المعصية ومخالفة أوامر الله.

ووصف الجبار بأنه عنيد مناسب للجحد الذي يأبى صاحبه أن يقر بلسانه ما يقر به قلبه عنادًا واستكبارًا.

وهذه مرتبة أخرى بعد المعصية. فالمعصية ألاّ تطبق الأوامر ، فقد تتركها أو تفعل غير ذلك ، وأما عاد فلم يكتفوا بذلك بل اتبعوا أمر كل جبار عنيد.

فالاتباع نقيض المعصية ، والجبابرة المعاندون هم أعداء رسل الله.

إن هذه الآية تبين مقدار عنادهم وعتوهم من أكثر من جهة:

١ ـ فقد قال إنهم جحدوا بآيات ربهم مع علمهم أنها حق.

٢ ـ وقال: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ وهو من أسوأ الجحود ، إذ إنهم جحدوا بآيات ربهم الذي تفضل عليهم بالنعم وأحسن إليهم.

٣ ـ قال: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ أي عصوا رسل ربهم المتفضل عليهم ، وهم عصوهم مع علمهم أنهم رسل الله.



٤ ـ وقال: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ ولم يقل: (وعصوا رسوله) ليدل على أنهم عصوا كل ما جاء عن رسل الله ولم يتبعوا أحدًا منهم. وهذا يدل على المبالغة في المعصية، أو «لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]»[1] وعلى هذا يكون الجمع للدلالة على المبالغة في عصيانهم.

٥ ـ وقال: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ ولم يقل: (تبعوا) وذلك للمبالغة في اتباع الجبابرة وإطاعة أوامرهم.

٦ ـ وقال: ﴿كُلِّ جَبَّارٍ﴾ ولم يقتصروا على اتباع جبار واحد، بل ولا مجموعة من الجبابرة، بل اتبعوا كل جبار على سبيل العموم والاستغراق.

٧ ـ وقال: ﴿عَنِيدٖ﴾ ولم يقل: (معاند) فجاء بصيغة المبالغة ليدل على المبالغة في عناده. وذلك يدل على زيادة عتوهم وظلمهم.

* * *

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٦٠]

اللعنة: هي الطرد من رحمة الله. أي إن اللعنة أُرسلت عليهم فهي تطاردهم وتتبعهم حيثما يكونون في هذه الدنيا ويوم القيامة، فهي تلازمهم لا ترجى لهم رحمة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذه مبالغة في الطرد من رحمة الله، فكما أنهم بالغوا في عنادهم ومعصيتهم وبالغوا في اتباع كل جبار عنيد بولغ لهم في هذا العقاب الأبدي الذي لا ينفك عنهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٤.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي إبعادًا عن الرحمة وعن كل خير، أي جعلت اللعنة لازمة لهم. وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة، فكأنها لا تفارقهم وإن ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حسبما داروا، أو لوقوعه في صحبة أتباعهم. . .

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي وأُتبعوا يوم القيامة لعنة أيضًا وهي عذاب النار المخلد.

حذف ذلك لدلالة الأول عليه وللإيذان بأن كلاً من اللعنين نوع برأسه لم يجتمعا في قرن واحد بأن يقال (وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة لعنة). ونظير هذا قوله تعالى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

وعبر بيوم القيامة بدل الآخرة هنا للتهويل الذي يقتضيه المقام»[1].

لقد قال في هذه القصة: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

وقال في السورة نفسها في قصة فرعون: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [٩٩] فلم يذكر (الدنيا) بعد كلمة (هذه) وذلك لأمور منها:

١ ـ أنه ذكر شيئًا من أمور الدنيا في قصة هود فقال: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، ثم ذكر أن الله يستخلف قومًا غيرهم، وذلك في الدنيا.

ولم يذكر شيئًا من أحوال الدنيا وأمورها في قصة فرعون، فلم يذكر الدنيا.

٢ ـ أنه ذكر يوم القيامة وعقوبتهم فيه في قصة فرعون ولم يذكر شيئًا عن عقوبتهم في الدنيا فقال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٧.

ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود: ٩٨] ثم قال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

فكان التأكيد على يوم القيامة وليس على الدنيا.

بخلاف قوم هود فإنه ذكر مجيء أمر الله عليهم في الدنيا وأنه نجى هودًا والذين آمنوا معه فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ [هود: ٥٨] فناسب ذكر الدنيا.

ألا ترى أنه لما ذكر عقوبة فرعون وجنوده في الدنيا في موطن آخر فقال: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] ذكر الدنيا بعد كلمة (هذه) فقال: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢].

فناسب ذكر الدنيا في قصة هود وإضمارها في قصة فرعون في هذه السورة، أعني سورة هود.

٣ ـ هذا إضافة إلى أن قصة هود أطول من قصة فرعون في السورة، فإن قصة هود من الآية الخمسين إلى الآية الستين (من ٥٠ ـ ٦٠).

وإن قصة فرعون من الآية السادسة والتسعين إلى الآية التاسعة والتسعين (من ٩٦ ـ ٩٩].

فناسب ذكر (الدنيا) في قصة هود مناسبة لطول القصة، وعدم ذكرها في قصة فرعون مناسبة للإيجاز

فناسب كل تعبير موضعه من أكثر من جهة.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ ببناء الفعل (أُتبعوا) للمجهول.

وقال في سورة القصص في قصة فرعون: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص: ٤٢] ببناء الفعل للمعلوم وإسناده إلى ضمير الجماعة للتعظيم (أتبعناهم) فما السبب؟

فنقول: إن ذلك لأكثر من سبب منها:

١ ـ أن كل آية مناسبة لبداية السورة التي وردت فيها.

فقد قال في بداية سورة هود: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ بالبناء للمجهول.

وقال في بداية سورة القصص: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ بإسناد الفعل (نتلو) إلى ضمير المتكلم للتعظيم.

فناسب كل تعبير بداية السورة التي ورد فيها.

٢ ـ أن سياق القصة في سورة القصص إنما هو في الإسناد إلى ضمير التعظيم، فقد قال: فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم (٤٠)، وجعلناهم أئمة (٤١)، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة (٤٢)، ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس (٤٣) فأسند الإهلاك إلى ضمير التعظيم.

وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر (٤٤) ولكنا أنشأنا قرونًا (٤٥)، وما كنت ثاويًا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين (٤٥)، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا (٤٦).

فناسب ذلك إسناد الفعل إلى ضمير المتكلمين (أتبعناهم).

وأما السياق في سورة هود فهو في الكلام على الغائب، فقد قال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ ولم يقل: جحدوا بآياتنا، ولا عصوا رسلنا.

وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ ولم يقل: (كفروا بنا) ولا (كفرونا).

فناسب ذلك قوله: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ بالبناء للمجهول.

٣ ـ إن ضمائر التعظيم لله البارزة والمستترة في القصة في سورة القصص واحد وثلاثون ضميرًا (٣١).

وفي قصة هود أربعة ضمائر.

فناسب ذلك إسناد الفعل في القصص إلى ضمير التعظيم من هذه الجهة.

٤ ـ قصة موسى في القصص أطول من قصة هود في سورة هود. فإن قصة موسى أربع وأربعون آية، من الآية الثالثة إلى الآية السادسة والأربعين.

وأما قصة هود فهي إحدى عشرة آية، من الآية الخمسين إلى الآية الستين.

وإن (أتبعناهم) أطول من (أُتبعوا). فإن (أتبعناهم) ثمانية أحرف، وإن (أتبعوا) خمسة أحرف.

فناسب التعبير الذي هو أطول القصة التي هي أطول، والذي هو أقل القصة التي هي أقصر.

فناسب كل تعبير موضعه من كل جهة.

* * *

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾

الفعل (كفر) يتعدى بحرف الجر وبنفسه.

فيقال: (كفر بالله) متعديًا بحرف الجر وهو الباء. والكفر هنا نقيض الإيمان.

ويقال: (كفر ربه) بتعديه إلى المفعول بنفسه وذلك يفيد معنيين:

المعنى الأول: كفران النعمة، وهو نقيض الشكر.

والآخر معناه الجحود وهو نقيض الإيمان.

فهم جحدوا ربهم وجحدوا نعمه. جاء في (روح المعاني) في قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ ﴾: «أي بربهم أو كفروا نعمته ولم يشكروها بالإيمان أو جحدوه»[(١)].

* * *

﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

(قوم هود) عطف بيان لعاد أو بدل منه، ذكر زيادة في التوضيح والتعيين، كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٥] فذكر هرون زيادة في التنصيص مع أنه قد يستغني عن ذكره ويكتفي بذكر الأخوّة كما قال سبحانه: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ [يونس: ٨٧] ولم يذكر هرون.

وقيل إن عادًا «عادان: الأولى القديمة التي هي قوم هود، والقصة فيهم، والأخرى هي إرم»[(٢)].

وقيل أيضًا: إن عاد إرم هي عاد هذه، وهم قوم هود، وهي عاد الأولى[(٣)].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٨٧.

(٢) الكشاف ٢/ ١٠٤.

(٣) انظر فتح القدير ٥/ ٤٢٢.

وإنما ذكر (قوم هود) زيادة في المبالغة والتأكيد.

وكرر حرف التنبيه (ألا) مرتين زيادة في ذمهم والتنبيه على سوء مآلهم.

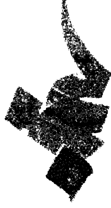
جاء في (البحر المحيط): «ثم كرر التنبيه بقوله: (ألا) في الدعاء عليهم تهويلاً لأمرهم وتفظيعًا له وبعثًا على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم»[1].

ومن الطريف في هذه الآية أنه كرر اللعنة مرتين ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، وذكر الدنيا مرتين: مرة باسم الإشارة (هذه)، ومرة بالاسم الصريح، وكرر عادًا مرتين، وكرر (ألا) مرتين، ودل على عاد مرتين: مرة باسمهم ومرة بذكر أنهم قوم هود.

وهو من لطيف التعبير.

* * *

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٣٦.



قصة صالح

وردت هذه القصة في الأعراف وهود والحجر والشعراء والنمل وفصلت والذاريات والقمر والفجر والشمس.

وهي كما ذكرنا في قصتي نوح وهود ليست مكررة، بل يُذكر في كل موضع جانب لم يذكر في المواضع الأخرى، وقد يركز على أمور أو على أمر بحسب ما يقتضيه السياق وما يراد أن يركز عليه.

١ ـ فقد دعا صالح قومه ثمود في الأعراف إلى توحيد الله وعبادته فقال لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وهذا ما ورد في السورة على لسان أكثر الأنبياء، فقد ورد ذلك على لسان نوح وهود وصالح وشعيب.

وذكر لهم آية تدل على صدقه وأنه رسول من عند الله وهي الناقة، وسماها ناقة الله لأنها لا تعود لأحد وإنما هي لله أوجدها ربنا إيجادًا، فقد أخرجها من صخرة ولم تلدها ناقة. وحذرهم من التعرض لها بسوء وإلا أخذهم عذاب أليم.

وذكّرهم بنعم الله عليهم فإنه بوأهم في الأرض بعد عاد يتخذون من سهولها قصورًا وينحتون الجبال بيوتًا.

ولم يذكر ذلك في موضع آخر، وإنما يذكر جانبًا واحدًا من هذه النعم. فقد ذكر أنهم ينحتون من الجبال بيوتًا في سورتي الحجر

والشعراء ، ولم يذكر اتخاذ القصور من السهول .

وكان الجدال بين الملأ الذين استكبروا من قومه وبين المستضعفين من المؤمنين ، ولم يواجهوا صالحًا بكلام أو جدال ، فقد ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ ـ ٧٦] .

فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ثم تَحدَّوا صالحًا : ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٧] .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٨] .

٢ ـ وأما في سورة هود فإنه دعاهم أيضًا إلى عبادة الله وتوحيده ، ونحو ذلك فعل نوح وهود وشعيب ، ثم قال لهم إنه أنشأهم من الأرض وجعلهم عُمّارًا لها .

فأجابوه قائلين : ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فكان الجدال بينه وبين قومه .

وأما في الأعراف فقد كان الجدال بين المستكبرين من قومه وأتباع صالح .

ثم ذكر لهم الآية التي تدل على صدقه وهي الناقة ، وحذرهم من أن يمسوها بسوء .

فعقروها فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين .

٣ ـ وأما في سورة الحجر فإنها المرة الوحيدة التي ذكر عنهم أنهم أصحاب الحجر فذكر محل سكناهم وهو الحِجْر .

والحِجْر: هو موطن ثمود قوم صالح، وهو أرض بين الحجاز والشام[١].

ولم يذكر أنه دعاهم إلى عبادة الله، وإنما ذكر تكذيبهم المرسلين، فكأنها استكمال لما ورد في الأعراف وهود، فقد دعاهم في الموضعين السابقين إلى توحيد الله وعبادته والتصديق بنبوته وأنه جاءهم بالآية الدالة على صدقه. وقال ههنا عنهم: إنهم كذبوا المرسلين وأعرضوا عن الآيات.

فهي مرحلة بعد التبليغ، ولم يذكر الآيات ولا نوعها أو ما هي؟

كما لم يذكر اسم نبيهم ولا اسم القوم، فلم يذكر اسم ثمود ولا صالح، كما لم يذكر الناقة.

وذكر أنهم كذبوا المرسلين فأخذتهم الصيحة مصبحين.

وهذا ما جاء في شأنهم في سورة الحجر:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠ ـ ٨٤]

لقد ذكر هنا أنه آتاهم آياته بالجمع، ولم يقل: (آية) بالإفراد، وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه الآيات مجموعة في هذه القصة.

وأما في المواضع الأخرى فإنه يذكرها (آية) بالمفرد (انظر الأعراف ٧٣، هود ٦٤، الشعراء ١٥٤) أو يذكر الناقة. وذلك ـ والله أعلم ـ أنه قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فذكر مرسلين ولم يذكر رسولاً واحدًا. والمرسلون لهم آيات لا آية، فناسب أن يقولها بالجمع.

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٤٦٣، الكشاف ٢/ ١٩٤.



قد تقول: ولكنه قال في الشعراء أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لكنه ذكر آية وذكر الناقة.

فنقول: إن السياق مختلف، فإنه في سورة الحجر لم يذكر رسولاً معينًا، وإنما ذكر الرسل على العموم، في حين أن الكلام في الشعراء على صالح، فقد قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، فكان المناسب أن يذكر آية صالح لأن الكلام عليه وحده.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وقال في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦] فقال: (كلها).

وكذا جاء في سورة القمر، فقد قال: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢].

والكلام على فرعون في الموضعين؛ وذلك لأن آيات موسى كثيرة، وقد ذكر ربنا أنها تسع آيات(١). بخلاف آيات صالح فإنها آيات متعلقة بالناقة من حيث إنها خرجت من صخرة، وإنها كانت تسقي القبيلة كلها باللبن، وغير ذلك(٢).

فناسب ذكر (كلها) في آيات موسى.

٤ ـ وأما ما في سورة الشعراء فإنه ورد فيها ما ورد في عموم الرسل، فقد قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

وهو ما قاله عموم الرسل لأقوامهم في هذه السورة كما ذكرنا في

---

(١) انظر الإسراء ١٠١، النمل ١٢.

(٢) انظر تفسير الرازي ٧/ ١٥٧.

قصتي نوح وهود. فإنهم لم يأمروهم بتوحيد الله وعبادته، وإنما أمروهم بتقوى الله وإطاعة رسولهم. وهي مرحلة بعد التبليغ بتوحيد الله وعبادته.

فبعد توحيد الله وعبادته أمروهم بتقوى الله وطاعة رسوله.

وذلك ما قاله صالح لقومه أيضًا.

ثم ذكر لهم من النعم ما لم يذكره في المواضع الأخرى، فقد قال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩] فذكر لهم الأمن والفراهة في السكن ورفاهية العيش في الزروع والثمار والماء.

فقالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من الذين سحروا كثيرًا حتى غلب على عقله.

وطلبوا منه آية تدل على صدقه، فقال لهم: إن آية صدقه هي الناقة، وإن لها يومًا تشرب فيه الماء، ولهم يوم يشربون فيه الماء.

وهذا أول موضع يذكر فيه أنَّ الماء بين القوم والناقة لكل منهما يوم. وقد ذكر في الأعراف وهود الأكل وقال لهم: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣، هود: ٦٤]

وذكر هنا الشرب.

وذكر الشرب أيضًا في سورة القمر وسورة الشمس ولم يذكر الأكل.

والخط التعبيري في القرآن أنه يقدم الأكل على الشرب حيث اجتمعا، سواء كان ذلك في الدنيا أم في الآخرة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠]

وقوله في الجنة: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]

وقد قدم الأكل في هذه القصة على الشرب مع أنهما لم يجتمعا.

وهذا من لطيف التعبير.

ثم حذرهم من أن يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم.

فعقروها فأصبحوا نادمين. ولم يذكر نوع العقوبة التي حلت بهم، وإنما ذكر العذاب على العموم فقال: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ ولم يذكر صيحة أو رجفة أو غيرهما.

٥ ـ وأما في سورة النمل فقد ذكر أنه أرسل إلى ثمود صالحًا وأمرهم بعبادة الله فإذا هم فريقان متخاصمان.

ولم يذكر من هذان الفريقان وما شأنهما؟ ولكن المقام يدل على أنهما فريق مؤمن وفريق كافر.

ولم يطلبوا منه آية، وإنما ذكر تواطؤ تسعة رهط من قومه على قتله وأهله.

ولم يرد هذا في موضع آخر من القرآن الكريم. وهو أنسب موطن لذكر ذلك فإنه كان نهاية الاختصام.

ثم ذكر عاقبة هذا المكر أن الله دمرهم وقومهم أجمعين، ولم يذكر كيف دمرهم ولا نوع العقوبة التي حلت بهم.

٦ ـ وأما في فصلت فالقصة موجزة، فإنه لم يذكر إلا أنه هداهم فاستحبوا العمى على الهدى. ولم يذكر أنه دعاهم إلى شيء.

ثم ذكر أن الصاعقة أخذتهم. وهذا أول موضع يرد فيه ذكر الصاعقة في هذه القصة

وهذا ما ورد منها في هذه السورة:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ

بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧ ـ ١٨]

٧ ـ وفي الذاريات ذكر أنه قيل لثمود: تمتعوا حتى حين، فعتوا عن أمر ربهم. ولم يذكر من القائل ولا إلى أي شيء دعاهم، وذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

وهذا ما ورد منها:

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣ ـ ٤٥]

٨ ـ وأما في سورة القمر فإنه قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣].

وهذا هو افتتاح عموم القصص في هذه السورة، فإنها تفتتح بتكذيب الأقوام لرسلهم ابتداء من قوم نوح فعاد فثمود فقوم لوط وفرعون كما ذكرنا.

ثم ذكر أنهم قالوا عن نبيهم الذي لم يذكر اسمه إنه كذاب أشر، ولم يرد مثل هذا الوصف له في موضع آخر من القرآن، فتوعدهم ربنا بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦].

ثم ذكر أنه أرسل الناقة فتنة لهم. وقال لهم إن الماء قسمة بينهم كل شرب يحضره أصحابه. فنادوا صاحبهم فعقر الناقة. ثم ذكر أنه أرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كالهشيم الذي يتبقى من صنع الحظيرة التي تصنع للدواب.

ولم يرد مثل هذا في موضع آخر من القرآن.

قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٣١]

٩ ـ وأما في سورة الفجر فلم يذكرعن ثمود إلا أنهم جابوا الصخر بالواد، أي قطعوه ونحتوه.

كما أنه أول مرة ذكر الوادي الذي ينحتون فيه، ولم يذكر عقوبة لهم سوى أن جمعهم مع عدة أقوام بقوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]

١٠ ـ وأما في سورة الشمس فذكر أن ثمود كذبت بسبب طغيانها، وذكر أن أشقى القوم انبعث، والظاهر أنه انبعث لعقر الناقة، وأن رسولهم حذرهم فقال لهم: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣] أي اتركوها ولا تتعرضوا لها. ولم يزد على ذلك فكذبوه فعقروها.

وذكر العذاب بصورة لم يذكرها في بقية المواضع فقال: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤] أي أطبق عليهم العذاب مكررًا ذلك عليهم(١).

فأنت ترى أن القصة ليست مكررة، وإنما يذكر في كل موضع ما يناسب السياق الذي وردت فيه. وأنه يذكر في كل موضع منها جانبًا لم يذكر في المواضع الأخرى.

الدعوة:

إن أول ما دعا صالح قومه إلى عبادة الله وتوحيده فقال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ ثم ذكر لهم البينة التي جاءتهم وذكرهم بالنعم التي

---

(١) انظر البحر المحيط ٨/ ٤٨٢.

أنعم الله عليهم بها ، وذلك في الأعراف ٧٣ .

وأما في هود فلم يكتف بذاك وإنما طلب منهم بعد عبادة الله وتوحيده وتذكيرهم بنعمته عليهم بالإيجاد وإعمار الأرض أن يستغفروا ربهم ثم يتوبوا إليه فقال : ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود : ٦١] .

فهي مرحلة لاحقة بعد التبليغ الأول .

وأما في سورة الحجر فقد ذكر تكذيبهم ، ولم يذكر مواجهة بينه وبين قومه ، وإنما هو إخبار عن هؤلاء القوم .

وأما في الشعراء فإنه طلب منهم أمرًا آخر ، فقد قال لهم : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وهو ما طلبه الرسل من أقوامهم .

(انظر الشعراء ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٦٣ ، ١٧٩) ثم ذكرهم بالنعم ، ولم يعد عليهم الأمر بعبادة الله وتوحيده .

وأما في النمل فقد قال : إنه أرسل صالحًا إلى ثمود بعبادة الله فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النمل : ٤٥] .

فاختصم الفريقان في هذا الأمر ، فدعاهم إلى الاستغفار وحضهم على ذلك لعل الله يرحمهم ، فقال لهم : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل : ٤٦] .

وأما في سورة فصلت فإنه لم يذكر دعوة ولا مواجهة ، بل هو إخبار عن غائب .

ونحو ذلك في الذاريات ، فإنه لم يرد فيها إلا تحذيرهم من عاقبة ما هم فيه ، إذ قيل لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات : ٤٣] .

وفي سورة القمر ذكر تكذيبهم بالنذر ولم يذكر دعوة ولا مواجهة.

ولم يذكر في الفجر سوى أنهم جابوا الصخر بالواد.

وأما في سورة الشمس فقد ذكر تكذيبهم بسبب طغيانهم، ولم يذكر دعوة لهم ولا مواجهة، وإنما طلب أن يتركوا ناقة الله وسقياها.

تذكيرهم بالنعم:

وكذلك التذكير بالنعم لم يكن على نمط واحد:

١ ـ ففي سورة الأعراف بعد أن ذكّرهم بأنه جعلهم خلفاء من بعد عاد وفي هذا تحذير لهم أن يسلكوا سبيلهم ذكّرهم بنعم الله بأن بوّأهم في الأرض، أي مكنهم منها وهيأها لهم يتخذون من سهولها قصورًا وينحتون الجبال بيوتًا. ثم طلب منهم أن يذكروا نعم الله عليهم على العموم فقال لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

٢ ـ وأما في هود فقد ذكر أنه أنشأهم من الأرض وجعلهم عمارًا لها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

وهذه النعم المذكورة في هود تختلف عما في الأعراف، فقد توسع في ذكر النعم في الأعراف وأجملها في هود.

٣ ـ وأما في الحجر فقد ذكر أنهم: كانوا ينحتون من الجبال بيوتًا آمنين، فذكر الأمن زيادة على اتخاذ البيوت. وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها الأمن.

ومن الملاحظ أنه قال هنا: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ بذكر (من)، في حين قال في الأعراف: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ فلم يذكر

(من) ، وذلك أنه توسع في ذكر النعم في الأعراف ، وذكر ما لم يذكره في الحجر ، فقال: إنه بوأهم في الأرض ، أي مكن لهم فيها وهيأ لهم فيها مكانًا ، وأنهم يتخذون من سهولها قصورًا وينحتون الجبال بيوتًا ، فقال إنهم يتخذون من سهولها قصورًا ولم يقل: (يتخذون في سهولها قصورًا) أي تجعلون من سهولها قصورًا ، وهذا توسع في الإعمار. بخلاف ما لو قال: (تتخذون في سهولها قصورًا) أي تجعلون في السهول قصورًا ، وهذا يمكن أن يقال في بضعة قصور ، بخلاف قولك: (اتخذت من السهول قصورًا) أي جعلت السهول قصورًا. ألا ترى فرقًا بين قولك: (اتخذت في الأرض دارًا) و(اتخذت من الأرض دارًا) فالتعبير الأول قد يفيد أنك بنيت في الأرض دارًا ولا يفيد أنك جعلتها كلها دارًا ، بخلاف قولك: (اتخذت من الأرض دارًا) أي جعلتها داراً كلها.

ثم قال: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أي كأن الجبال كلها ينحتونها بيوتًا ، وهذا توسع في العمران ، وهو أوسع من قوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ بـ (من) التي قد تفيد التبعيض.

ولذا ذكّرهم بآلاء الله عليهم في الأعراف فقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾.

فإنه توسع في ذكر عمارة الأرض في الأعراف ما لم يتوسع في الحجر ، غير أنه زاد الأمن في الحجر.

٤ ـ وأما في الشعراء فقد ذكر نعمًا أخرى عددها عليهم ، فقد ذكر الأمن وذكر الجنات وعيون الماء والزروع والتوسع والفراهة في السكن فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦ ـ ١٤٩].

فقد ذكر الأمن في المكان ، والسعة في الطعام والشراب ، والفراهة

في السكن ، وهو ما لم يذكر فيما سبق من النعم .

ولم يذكر في السور بعد ذلك نعمًا عددها عليهم سوى أنه قال في الفجر : ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي قطعوه ونحتوه .

فأنت ترى أنه لم يكرر ذكر النعم أو يذكرها في موضع واحد .

البينة على صدقه:

ذكر الآية الدالة على صدقه وهي الناقة التي أخرجها الله من الصخرة «وكانوا هم الذين سألوا صالحًا أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم . . . فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقلة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمننّ بها وليتبعنّه . فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْرَاء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا . . . فأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يومًا وتدعه لهم يومًا . وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم» (١) .

١ ـ فقد ذكرها في الأعراف وسماها بينة وآية فقال : ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف : ٧٣] وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب أليم .

ولم يسمها بينة في غير هذا الموضع .

وقد أخبرهم عن مجيء هذه الآية ابتداء ولم يذكر أنهم طلبوا منه أن يأتي بآية دالة على صدقه .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٨ .

٢ ـ وأما في هود فقد سماها آية ، ولم يذكر أنهم طلبوا منه أن يأتيهم بذاك ، وإنما قال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ . وطلب منهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ولا يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب قريب.

٣ ـ وأما في الحجر فقد ذكر عن أصحاب الحجر أنهم كذبوا المرسلين. وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحجر: ٨١] فذكر آيات ولم يقل آية. ولم يذكر هذه الآيات مع أنه ذكر في بقية السور أنها آية.

وليس في ذلك تعارض فإن الناقة آية وفيها آيات:

منها أنها خرجت من صخرة من غير أن تلدها أنثى ، وأنها كانت تدر باللبن الذي يسقي القوم كلهم في يوم واحد ، وأنها تشرب ماء البئر كله وهو يسقي القوم وإبلهم ومواشيهم.

٤ ـ وأما في سورة الشعراء فقد ذكر أنهم طلبوا منه أن يأتيهم بآية إن كان من الصادقين (١٥٤).

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه أنهم طلبوا منه آية فقال لهم: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وطلب منهم أن لا يمسوها بسوء وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم (١٥٦).

وهذا أول موضع ذكر فيه الشرب ، وكان قد ذكر في مواضع سابقة الأكل.

كما أن هذا هو الموضع الوحيد الذي أضاف فيه العذاب إلى اليوم ووصفه بالعظم فقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

ففي سورة الشعراء ذكر أمورًا لم يذكرها في بقية السور ، أو بدأ

بذكرها قبل ما بعدها من السور.

منها: أنهم طلبوا منه آية. ولم يذكر ذلك في المواضع الأخرى. وأنه ذكر شرب الناقة، في حين أنه ذكر في السور السابقة الأكل.

وأنه أضاف العذاب إلى اليوم ووصفه بالعظم، في حين أنه كان يصف العذاب في المواضع الأخرى فيقول: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣] أو ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

٥ ـ ولم يذكر آية أو ناقة في سورة النمل ولا فصلت ولا الذاريات.

٦ ـ ذكر في سورة القمر إرسال الناقة فتنة لهم، ولم يذكر أن تلك آية، ولا أنهم طلبوا منه آية، وإنما كان ذلك من باب التوعد لهم فقال: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

وذكر الشرب ولم يذكر الأكل فقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

٧ ـ لم يذكر شيئًا من ذلك في سورة الفجر.

٨ ـ في سورة الشمس ذكر أن رسول الله طلب منهم أن يتركوا ناقة الله وسقياها، أي شربها.

ولم يذكر أن تلك آية ولا أنهم طلبوا منه آية.

الموقف:

١ ـ كان أشد المواقف المذكورة من الدعوة إنما هو ما ورد في الأعراف، فقد دار جدال عنيف بين المستكبرين من قومه والذين استضعفوا من المؤمنين، فقد ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا

إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥ ـ ٧٦].

ولم يرد حوار أو جدال بين صالح وقومه سوى أنهم تحدوا صالحًا بعدما عقروا الناقة قائلين له: ﴿يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

٢ ـ وأما في هود فقد كان الحوار بين صالح وقومه، فقد قالوا: ﴿يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢ ـ ٦٤].

فعقروها فأمهلهم ثلاثة أيام يقع بعدها العذاب عليهم، فوقع ما توعدهم به.

وهذا الموقف أخف مما في الأعراف، فقد قالوا في الأعراف: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾.

وههنا قالوا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ فذكروا أنهم في شك.

٣ ـ لم يذكر مواجهة بينه وبين قومه في الحجر، إلا أنه أخبر عنهم ربنا أنهم كذبوا المرسلين ولم يذكر مرسلاً بعينه، وقال إنهم أعرضوا عن الآيات.

٤ ـ في الشعراء ذكر حوارًا بين صالح وقومه، وقد عدد عليهم النعم فقالوا له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أي من الذين سحروا كثيرًا حتى أثر على عقله.

وقالوا له أيضًا : ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٤] .

ولم يرد مثل هذا الحوار في موطن آخر .

٥ ـ في النمل ذكر أنهم تطيروا به بعد نصح نبيهم لهم قائلاً : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : ٤٦] .

فقالوا له : ﴿ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ ﴾ .

فردّ عليهم قائلاً : ﴿ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ .

ولم يزد الكلام بينهما على هذا .

ثم ذكر ما حاكوا له من مؤامرة لقتله وأهله .

وهذا إنما كان بعد مدة من التبليغ والأخذ والرد ذكرت في المواطن السابقة التي وردت فيها القصة .

ولا يناسب أن يكون هذا في أوّل الدعوة .

٦ ـ لم يذكر في سورة فصلت شيئًا بين صالح وقومه ، وإنما ذكر شيئًا عن حالهم فقال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت : ١٧] .

٧ ـ وكذلك في الذاريات فإنه قيل لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الذاريات : ٤٣] .

وذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم .

٨ ـ في القمر ذكر أن ثمود كذبوا بالنذر ، ولم يذكر مواجهة بينهم وبين نبيهم ، وإنما قال بعضهم لبعض : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر : ٢٤] .

واتهموه بأنه كذاب أشر ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ [القمر: ٢٥].

ولم يرد مثل هذه الأقوال في نبيهم في أي موضع آخر. غير أنه لم تذكر هذه الأقوال في مواجهته وإنما ذكرت في غيبته.

وذكر في هذه السورة أنهم نادوا صاحبهم ليعقر الناقة فتعاطى السيف فعقرها، فذكر أن العاقر واحد، غير أنهم لما نادوه ليفعل ذلك كانوا مشتركين في الجريمة فعوقبوا جميعًا.

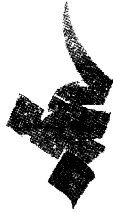
هذا هو الموطن الوحيد الذي ذكر فيه أنهم نادوا صاحبهم ليعقرها، فقد أسند العقر إلى واحد، في حين أنه في المواطن الأخرى أسند العقر إلى الجميع قائلاً: ﴿ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ ﴾ أو ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾.

٩ ـ ولم يرد في سورة الفجر شيء عن موقفهم من رسولهم.

١٠ ـ وأما في سورة الشمس فقد ذكر أنهم كذبوا بطغيانهم، وأنه انبعث أشقاها، وأن نبيهم طلب منهم أن يتركوا الناقة وسقياها، فكذبوه فعقروها.



الخاتمة



١ ـ ذكر في سورة الأعراف أنهم أصابتهم الرجفة وهي الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم جاثمين.

٢ ـ وقال في سورة هود إنهم أصابتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين. وهي صيحة من السماء.

وجَمَعَ الدِّيار في الصيحة وأفردها في الرجفة؛ لأن الصيحة يبلغ مداها أبعد من مدى الرجفة، ولذا حيث ذكر الصيحة جمع فقال: (الديار). وحيث ذكر (الرجفة) أفرد الدار[1].

٣ ـ وذكر في الحجر أنهم أخذتهم الصيحة.

٤ ـ ولم يذكر في الشعراء لا رجفة ولا صيحة وإنما ذكر العذاب وهو مطلق فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨].

٥ ـ وأما في النمل فلم يذكر شيئًا من ذلك وإنما ذكر التدمير على العموم فقال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

٦ ـ وقال في فصلت إنهم أخذتهم صاعقة العذاب الهون (١٧).

٧ ـ وقال في الذاريات إنهم أخذتهم الصاعقة من دون إضافة إلى

---

(١) انظر التعبير القرآني ٥٧، البرهان للكرماني ١٨٤، ٢٣٩.

العذاب أو إلى غيره (٤٥).

٨ ـ وقال في القمر إنه أرسل عليهم صيحة واحدة فذكر أنها واحدة.

٩ ـ وأما في الفجر فقد جمعهم مع عدة أقوام فقال فيهم جميعاً: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣].

١٠ ـ وأما في سورة الشمس فلم يذكر شيئًا من ذلك وإنما قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤] أي أطبق عليهم العذاب مكررًا، وإنه لم ينج منهم أحد فكانوا في العذاب سواء.

فذكر الرَّجفة مرة واحدة وذلك في سورة الأعراف.

وذكر الصَّيحة ثلاث مرات: مرة في سورة هود، ومرة في الحجر، ومرة في القمر.

وذكر الصَّاعقة مرتين: مرة في فصلت، ومرة في الذاريات.

ولا تناقض في ذلك أو اختلاف، فإن الرجفة في الأرض والصيحة من السماء ومعها الصاعقة.

جاء في (روح المعاني): «الصيحة أي صيحة جبريل أو صيحة من السماء فيها كل صاعقة وصوت مفزع... فأخذتهم الرجفة... ولعلها وقعت عقيب الصيحة» [(١)].

وأشدهنّ الرجفة لأنها زلزلة وهي تباشرهم أجمعين وتباشر مساكنهم. وذكرها لأنه ذكر استكبارهم ولأنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وتحدوا نبيهم، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

وتليها الصيحة؛ لأن الصيحة قد لا يسمعها الأصم أو من وضع سدادًا

---

(١) روح المعاني ١٢/٩٢.

في أذنيه ، بخلاف الرجفة التي تعم الجميع .

وذكر الصيحة ههنا لأن موقفهم أخف ، ذلك أنه لم يذكر في هود غير العقر .

ففي الأعراف ذكر العقر والعتو عن أمر ربهم والتحدي ، وليس في هود أو غيرها نحو ذلك .

ولم يذكر في الحجر غير الإعراض عن الآيات .

أما في القمر فلم يذكر غير العقر .

ثم تليها الصاعقة ؛ لأن الصاعقة قد تحل في مكان دون آخر وإن كانت عمتهم أجمعين. وذلك أنه لم يقل في فصلت إلا إنه هداهم فاستحبوا العمى على الهدى. ولم يذكر عقر الناقة .

وفي الذاريات قال: ﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ ﴾ [الذاريات: ٤٤] ولم يذكر عقرًا أو غيره .

فذكر في كل موضع جانبًا من العقوبة يناسبه .

النجاة:

١ ـ لم يذكر في الأعراف نجاة وإنما قال: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾ وهو المناسب لذكر الرجفة التي تعم الجمع .

والسياق يدل على نجاة الذين آمنوا كما هو بيّن .

٢ ـ ذكر في هود أنه نجى صالحًا والذين آمنوا معه .

٣ ـ لم يذكر نجاة في الحجر ولا في الشعراء .

٤ ـ ذكر في النمل وفصلت أنه نجى الذين آمنوا وكانوا يتقون .

ولم يذكر نجاة في غير ذلك من المواضع .

ومن الملاحظ أنه لم يذكر أن رسولهم دعا بطلب النجاة لا له ولا لمن آمن معه. كما أنه لم يدع على قومه.

ولم يرد لأهله ذكر ولا موقفهم من الدعوة، وذلك نظير ما مرَّ في قصة هود.

* * *

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦١ ـ ٦٨]

* * *

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾

أي أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا، فالآية معطوفة على قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾.

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

أي جعلكم تعمرونها وتسكنون فيها ، وقدم الإنشاء من الأرض على إعمارها لأنه أسبق ، فإن الإنشاء قبل عمارتهم للأرض.

﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ هو نظير ما قاله من سبقه لمن سبقهم ، فقد قال ذلك هود لقومه عاد (الآية ٥٢).

وقالها خاتم الرسل لقومه كما سبق ذكر ذلك في الآية الثالثة من السورة.

وسبق أن ذكرنا ثَمّ تقديم الاستغفار على التوبة وسبب ذلك فلا نعيد القول فيه.

﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

أي قريب يسمع استغفاركم ويجيبكم فيتوب عليكم ويجيب دعاءكم.

وقدم (قريب) على (مجيب) لأن الإجابة تستدعي السماع ، والقريب أدعى إلى السمع من البعيد. فقدم القريب لأنه يسمعك فيجيبك. ونحو هذا قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٨٦] فقدم القرب على الإجابة.

* * *

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود: ٦٢]

﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ ﴾

أي «كانت تلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لننتفع بك وتكون مشاورًا في الأمور ومسترشدًا في التدابير ، فلما نطقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك وعلمنا أن لا خير فيك.

وعن ابن عباس: فاضلاً خيرًا نقدمك على جميعنا»[(١)].

وقَدَّم الجار والمجرور (فينا) على (مرجوًّا) لأن الكلام يتعلق بهم فقدم ضميرهم في (فينا)، ألا ترى أنهم قالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾؟ فإن الكلام يتعلق بهم فقدم ما يتعلق بهم.

وهذا نظير التقديم في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ كما مَرَّ بيان ذلك في قوله: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨].

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

«الشك هو أن يبقى الإنسان متوقفًا بين النفي والإثبات. والمريب هو الذي يظن به السوء. فقوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ﴾ يعني به أنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله.

وقوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله. وهذا مبالغة في تزييف كلامه»[(٢)].

* * *

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣]

بعد أن قالوا لنبيهم إنهم في شك مما يدعوهم إليه ناقشهم نبيهم بأمرين: أمر عقلي منطقي، وأمر قائم على الحجة الملزمة.

فأما الأمر العقلي المنطقي فإنه قال لهم: أخبروني لو أن الله كان أرسلني حقًّا ولست مدّعيًا فمن يعصمني من الله وينجيني منه إن عصيته؟

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٦٨.

جاء في (الكشاف): «قدروا أني على بينة من ربي وأني نبي على الحقيقة وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي فمن يمنعني من عذاب الله؟» [(١)].

وذكرنا في موضع سابق من هذه السورة سبب تقديم الجار والمجرور (منه) على (رحمة)، في حين أَخَّره عن الرحمة في قوله: ﴿وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨].

وقد ذكرنا في ذلك الموضع أنه لما كان الكلام على الرحمة قدمها وذلك قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾.

ولما كان الكلام على الله في هذه الآية وذلك قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ قدَّم الضمير العائد على الله في الجار والمجرور وهو (منه) على الرحمة.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

التخسير مصدر (خسّر) بالتضعيف، وهو يفيد المبالغة والتكثير في الخسار، أي لا تزيدونني إلا مبالغة في الخسران.

لقد دل هذا التعبير على الزيادة في الخسران من أكثر من وجه:

منها قوله: ﴿تَزِيدُونَنِي﴾ أي تضيفون خسارة إلى خسراني.

ومنها: أنه جاء بالمصدر الدال على الكثرة وهو (تخسير).

ومنها: أنه جاء بالنفي مع (غير) ليدل على أنه لا يزيدونه شيئًا غير الزيادة في الخسران. ولو قال بدل هذه العبارة: (كنت خاسرًا) مثلاً لم يفد ذلك إلا أنه سيكون خاسرًا.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.

ومن الملاحظ أنه إذا استعمل القرآن الزيادة في الخسارة استعمل لفظ (الخسار) فقال: ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر: ٣٩]، وقال: ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح: ٢١].

إلا في هذه الآية فإنه قال: ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ فجاء باللفظ الدال على المبالغة والكثرة، وذلك أنه إذا كان نبيًا حقًّا وآتاه الله منه رحمة ثم عصاه كانت خسارته أعظم من سائر الكفار الذين لم تأتهم البينة ولم ينزل عليهم وحي، فناسب ذكر التخسير هنا وليس مجرد الخسار، بخلاف سائر المواضع الأخرى، وليس عقاب من علم وعصى كمن جهل. وقد قيل فيما قيل:

وعــالــمٌ بعلمِــهِ لــمْ يعملَــنْ مُعــذَّبٌ مــن قبــل عُبَّــادِ الــوثــنْ

* * *

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود: ٦٤]

وهذا هو الأمر الثاني الذي ذكره لهم وهو الأمر القائم على الحجة الملزمة، وهي الآية الدالة على صدقه وهي الناقة التي أخرجها الله من الصخرة كما طلبوا، وقد كانوا تعهدوا لنبيهم أنه إن فعل ذلك آمنوا له وصدقوه.

وسماها ناقة الله لأنها لا تعود لأحد وإنما هي لله كما ذكرنا.

وقَدَّم (لكم) على (آية) للاختصاص، وذلك أن هذه الآية خاصة بهم دون غيرهم أرسلت إليهم هم كما طلبوا. فالآية لهم هم، فهم الذين طلبوها، وهم الذين شاهدوها وتعاملوا معهم.

وطلب منهم أن يتركوا ناقة الله تأكل في أرض الله لا في أرضهم ولا من زرعهم ، فالناقة ناقة الله والأرض أرضه .

وهذا غاية الإنصاف والعدل ، فلماذا يَمَسُّونها بسوء إلا إذا كانوا معتدين عليها ظالمين لها؟

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾

«نهى عن المَسِّ الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ ﴾ . . . أي لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً كالطرد والعقر وغير ذلك» [١] .

ونكّر السوء ليشمل أي سوء مهما كان ضئيلاً .

﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴾

وصف العذاب ههنا بأنه قريب ، وقال في الأعراف : ﴿ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فوصفه بأنه أليم ، ذلك أنه قال لهم ههنا : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ﴾ وهذا وعد قريب ، فناسب ذكر القرب .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنه في الأعراف كان أول التبليغ لقومه ، فهو أول موضع ترد فيه هذه القصة في القرآن الكريم فلا يناسب ذكر التعجيل بالعقوبة .

في حين كان الكلام في هود بعد ذلك وقد بلّغهم ونصح لهم فناسب ذكر قرب العذاب في هود .

* * *

---

(١) روح المعاني ٨/ ١٦٣ .

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]

أي فذبحوها ، والعقر قطع عضو ، ويستعمل في النحر أيضًا.

وقال: (فعقروها) ولم يقل: (فنحروها) لئلا يظن أنهم استحقوا العذاب بسبب نحرها وأنهم لو لم ينحروها لم يعذبهم ، وإنما استحقوا العذاب بعقرها وإن لم يذبحوها ، ذلك أنه حذرهم فقال لهم: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ فيأخذهم العذاب. فأي مَسٍّ بالسوء مهما كان فهو مدعاة إلى العقوبة.

وقال: (فعقروها) فأسند العقر إليهم كلهم وإن كان العاقر واحدًا كما أخبر ربنا بقوله: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ [القمر: ٢٩] وذلك لأنهم تمالؤا على ذلك بدلالة قوله: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ فأسند العقر إليهم فاستحقوا العذاب أجمعون.

﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾.

أي غير مكذوب فيه ، أو (وعد غير كذب) لأن المكذوب قد يكون مصدرًا بمعنى الكذب.

* * *

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ [هود: ٦٦]

قال ههنا: ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾.

فذكر أنه نجاهم برحمة منه ولم يقل مثل ذلك في موضعين آخرين ، فقد قال في سورة النمل: ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٣] ، وقال في فصلت: ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت: ١٨] ولم يقل: (برحمة منا).

وذلك ـ والله أعلم ـ أنه ذكر صفتين في سورتي النمل وفصلت وهما: الإيمان والتقوى فقد قال فيهما: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

ولم يذكر في سورة هود غير صفة واحدة وهي الإيمان، فاتسعت رحمته لتشمل من كان مؤمنًا وإن لم يكن متقيًا، فناسب ذكر الرحمة في هذا الموضع، وإن كانت النجاة برحمته سبحانه وليست بشيء آخر.

﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾

أي نجيناهم من العذاب ومن الخزي، فقد عطف قوله: ﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ على (نجينا)، والتقدير: «ونجيناهم من خزي يومئذ»[1].

فدل ذلك أنه أصاب الذين ظلموا العذاب والخزي، ونجى الله الذين آمنوا منهما.

وقد ذكرنا الفرق بين (نجينا) و(أنجينا) في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني)[2] فلا نكرر القول فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

«ناسب مجيء الأمر وصفه تعالى بالقوي العزيز، فإنهما من صفات الغلبة والقهر والانتقام»[3].

وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب وهو رسول الله محمد ﷺ تحذيرًا لقريش من مغبة موقفهم من رسول الله، فإن ربك يفعل بهم ما فعل بالأقوام البائدة الذين أهلكهم الله كما قال محذرًا لهم: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٥.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص ٧٦ وما بعدها.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٤٠.

وعرّف الخبر وجاء بضمير الفصل فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ ولم يقل: (إن ربك قوي عزيز) ليدل على أنه لا قوي غيره على الحقيقة، ولا عزيز غيره على الحقيقة، بل هو وحده القوي العزيز.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾

وقال في الشورى: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

فأكد في آية هود قوته وعزته بـ (إنَّ) ولم يؤكد ذلك في الشورى. فلم ذاك؟

والجواب: أنه أكد في آية هود لأن المقام مقام عقوبة وإنجاء صالح ومن آمن معه وذلك يستدعي تأكيد القوة والعزة.

وأما السياق في الشورى فإنه في لطفه بعباده فلا يستدعي ذلك تأكيدهما.

وقَدَّم القوي على العزيز لأنه قوي فعز، فإن العزة إنما تكون من القوة، ولذلك حيث اجتمع هذان الوصفان في القرآن الكريم قَدَّم القوي على العزيز، وذلك نحو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠، ٧٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥، المجادلة: ٢١].



﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧ ـ ٦٨]

ذكرنا في كتابنا (أسئلة بيانية) قوله: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وقوله: ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] بالتذكير والتأنيث فلا نعيد القول فيهما.

وذكرنا في القصة إفراد الديار مع الرجفة وجمعها مع الصيحة.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾.

أي كأنهم لم يكونوا فيها ولم يقيموا فيها مستغنين بها عن غيرها.

جاء في (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني: «غني في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنيًا به عن غيره بغنى، قال: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾»[1].

أما بقية التعبير فقد ورد نحوه في قصة هود.

* * *

(١) المفردات للراغب الأصفهاني (غني).



قصة إبراهيم

من سورة هود

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٦٩ ـ ٧٦]

* * *

من سورة الحجر

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٨]

* * *

من سورة الذاريات

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾
فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾
۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾
[الذاريات: ٢٤ ـ ٣٢]

* * *

من سورة العنكبوت

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ
أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا
لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١ ـ ٣٢]

* * *

ورد هذا الجانب من قصة إبراهيم في ثلاث سور هُنَّ هود والحجر والذاريات، كما وردت لها إشارة يسيرة في سورة العنكبوت في أثناء قصة لوط.

وهي في كل ما ورد منها مدخل إلى قصة لوط.

ولوط آمن لإبراهيم وهاجر إلى ربه كما قال تعالى: ﴿ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وهو ابن أخيه، فلا غرو أن يذكر جانبًا من قصة إبراهيم مدخلاً إلى قصة لوط.

وما يذكر من هذه القصة فيه تبسط في بعض المواضع ، وفي بعضها إيجاز ، وذكر جانب منها وطيّ جانب آخر بحسب السياق الذي ترد فيه .

وقد ذكرنا في كتابنا (لمسات بيانية) هذا الجانب من القصة من سورتي الحجر والذاريات ، وبيان شيء من اللمسات البيانية فيهما فلا نكرر القول في ذلك .

لقد ذكر في هذا الموضع من القصة أمورًا لم تذكر في مواضع أخرى ، وهو نحو ما ذكرنا في القصص السابقة ، فإنه لم يكرر القصة وإنما يذكر في كل موضع جانبًا لم يذكر في موضع آخر .

١ ـ فقد ذكر ههنا وفي العنكبوت أنه جاءته رسل ربه . فقد قال ههنا : ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ ، وفي العنكبوت : ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [العنكبوت : ٣١] .

وأما في سورتي الحجر والذاريات فقد ذكر أنهم ضيفه . فقد قال في الحجر : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر : ٥١] ، وقال في الذاريات : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات : ٢٤] .

٢ ـ ذكر تحيتهم ورد التحية عليهم في هود والذاريات .

وذكر في الحجر تحيتهم ولم يذكر رد التحية عليهم .

وأما في العنكبوت فلم يذكر تحية ولا رد تحية ، وإنما هو دخول مباشر إلى قصة لوط بعد المجيء بالبشرى .

٣ ـ ذكر تقديم الطعام لضيفه في هود والذاريات ، ولم يذكر ذلك في الحجر .

٤ ـ ذكر في الذاريات أنه دعاهم إلى الأكل قائلاً : ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ، ولم يذكر ذلك في هود ، غير أنه لما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام

نكرهم وأحس منهم خيفة.

٥ ـ ذكر في هود أن امرأته كانت قائمة وأنها ضحكت بعد ذكر الرسل أنهم أرسلوا إلى قوم لوط.

ولم يذكر ذلك في أي موضع آخر.

٦ ـ ذكر في هود أنهم بشروها بالولد، في حين أن البشارة كانت لإبراهيم في الحجر والذاريات.

٧ ـ في هود بشروها بولد وبولد الولد، في حين كانت البشرى في الحجر والذاريات بالولد ولم يذكر ولد الولد.

٨ ـ ذكرت البشارة اسمي الولد وولد الولد في هود، ولم يذكر ذلك في الحجر ولا في الذاريات، وإنما ذكر البشرى بغلام عليم. ففي هود ذكر اسم العلم، وفي الحجر والذاريات ذكر صفته.

٩ ـ ذكر في هود عجب امرأة سيدنا إبراهيم ومحاورتها للملائكة وأنها تبسطت في ذكر العجب.

ولم يذكر في الحجر ذلك. وأما في الذاريات فلم تزد على أن صكّت وجهها وقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

١٠ ـ ذكر في الحجر محاورة إبراهيم للملائكة في هذه البشرى وكيف أنهم بشروه بعد أن مسه الكبر.

ولم يرد ذلك في موضع آخر.

ففي هود والذاريات كان الكلام فيما يتعلق بالبشرى بين زوجه والملائكة، وفي الحجر كان الكلام بينه وبين الملائكة.

١١ ـ ذكر تبسط الملائكة في الكلام مع زوج إبراهيم في هود فيما يتعلق بعجبها.

ولم يرد مثل ذلك في الذاريات ، وإنما قالوا لها : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

١٢ ـ سألهم إبراهيم عن الغرض من مجيئهم في الحجر والذاريات قائلاً : ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر : ٥٧ ، الذاريات : ٣١] . فبينوا له سبب ذلك .

في حين ذكروا ذلك ابتداء في هود من غير أن يسألهم ، وكذلك في العنكبوت .

فالقصة كما ترى ليست متطابقة .





جانب من التفسير البياني

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩]

لقد غير الأسلوب الذي اتبعه في قصص الأنبياء الآخرين في هذه السورة كقصة نوح وهود وصالح وغيرهم ، فقد قال في ابتداء تلك القصص : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ .

في حين قال ههنا : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ .

ذلك أن الغرض والهدف مختلف عن تلك القصص ، فإن قصص بقية الرسل إنما هي في إرسالهم إلى أقوامهم وتبليغهم دعوة ربهم وإنذارهم وذكر عاقبتهم ، وليس الأمر كذلك في قصة إبراهيم هذه ، وإنما الغرض إنما هو ذكر المجيء بالبشرى وأن تكون القصة مدخلاً إلى قصة لوط. فهي محطة في الطريق إلى قوم لوط.

جاء في (روح المعاني): «﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ : وإنما أسند إليهم المجيء دون الإرسال لأنهم لم يكونوا مرسلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوط لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ وإنما جاؤوه لداعية البشرى.

قيل: ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر صنيع الأمم السالفة

مع الرسل المرسلة إليهم ، ولحوق العذاب بهم ، ولم يكن جميع قوم إبراهيم عليه السلام من لحق بهم العذاب ، بل إنما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الأسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ ثم رجع إليه حيث قيل: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾»[1].

وجاء في (البحر المحيط): «تقدم أن ترتيب قصص هذه السورة كترتيب قصص الأعراف ، وإنما أدرج شيئًا من أخبار إبراهيم عليه السلام بين قصة صالح ولوط لأن له مدخلاً في قصة لوط ، وكان إبراهيم ابن خالة لوط ، والرسل هنا الملائكة بشرت إبراهيم بثلاث بشرائر: بالولد وبالخلة وبإنجاء لوط ومن آمن معه»[2].

وقوله: (بالبشرى) قيل: هي البشرى بالولد[3] ، وقيل: بأمور أخرى منها ما ذكره صاحب البحر المحيط.

﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ ﴾ ذكرنا هذا التعبير في أكثر من موضع ، وقد قلنا: إن تحية الملائكة كانت بالجملة الفعلية ، أي نسلم سلامًا ، بدليل نصب السلام ، وإن تحية إبراهيم بالجملة الاسمية بدليل رفع السلام ، أي سلامٌ عليكم. والجملة الاسمية أقوى وأثبت من الفعلية ، فهو رد التحية بخير منها.

﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ ﴾ أي فما أبطأ في المجيء أو عن المجيء ، والفاعل ضمير مستتر يعود على إبراهيم ، والمصدر المؤول منصوب بنزع

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٩٣.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٤١.

(٣) انظر الكشاف ٢/ ١٠٥.

الخافض وهو على تقدير (في) أو (عن).

ويحتمل أن يكون المصدر المؤول فاعلاً، أي فما تأخر مجيئه[١].

جاء في (الكشاف): «﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ فما لبث في المجيء به، بل عجل فيه، أو فما لبث مجيئه»[٢].

ولم يذكر حرف الجر، فلم يقل: (فما لبث في أن جاء) أو (عن أن جاء) وذلك ليتسع المعنى ويشمل أكثر من دلالة.

فالتعبير يحتمل عدة معان كلها مرادة والله أعلم. فهو يحتمل أن يكون المعنى: فما لبث مجيئه، أي ما أبطأ مجيئه.

ويحتمل أن يكون ما أبطأ إبراهيم في المجيء، ولا أبطأ عن المجيء.

﴿بِعِجۡلٍ حَنِيذٍ﴾ العجل: ولد البقرة.

والحنيذ: السمين المشوي الذي يقطر دسمه.

والحنيذ هو المشوي بالرضف وهي الحجارة في أخدود[٣].

جاء في (البحر المحيط): «حنذت الشاة أحنذها حنذًا: شويتها، وجعلت فوقها حجارة لتنضجها فهي حنيذ»[٤].

وجاء في (لسان العرب): «الحنيذ من الشواء الحار الذي يقطر ماؤه وقد شوي»[٥].

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ٩٤.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٦.
(٣) انظر الكشاف ٢/ ١٠٦، روح المعاني ١٢/ ٩٤.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٢٣٦.
(٥) لسان العرب (حنذ).

والمعنى أنه جاء بعجل مشوي حار سمين يقطر ودكه.

ففي الحنيذ ثلاث صفات:

١ ـ أنه سمين.

٢ ـ ومشوي.

٣ ـ وحار يسيل دسمه ويقطر ماؤه، وهذا غاية الإكرام، فإنه عجل في تقديم أحسن الطعام لضيفه.

* * *

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]

أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام، أي لا يأكلون نكرهم. وقال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ فعدى الرؤية إلى الأيدي، ولم يقل (فلما رآهم لا يمدون أيديهم) وذلك إشارة إلى أدب الضيافة، فإنه لا يحسن بالمضيف أن يحدد النظر إلى الضيوف، فإن ذلك يمنعهم من مواصلة الأكل بحسب حاجتهم ورغبتهم، وإنما يسارقهم النظر فينظر أيأكلون أم لا. وإبراهيم عليه السلام نظر إلى أيديهم ليرى أنهم يأكلون أم لا.

جاء في (روح المعاني): «﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ كناية عن أنهم لا يمدون إليه أيديهم، ويلزمه أنهم لا يأكلون... ففيه دليل على أن من أدب الضيافة النظر إلى الضيف هل يأكل أو لا، لكن ذكروا أنه ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر، لأن ذلك مما يجعل الضيف مقصرًا في الأكل، أي لما شاهد منهم ذلك نكرهم» (١).

فلما رآهم لا يأكلون نكرهم، أي استوحش منهم وداخلته الريبة في أمرهم.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٩٤ ـ ٩٥.

﴿ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾

أي استشعر الخوف منهم وأحس به ، ذلك أنه «كان عادتهم أن إذا مس من يطرقهم طعامه أمنوه وإلا خافوه» (١) .

و(الخيفة) الخوف ، وهي من أسماء الهيئة ، والمعنى أنه شعر بحالة من الخوف .

جاء في (مفردات الراغب) : «الخيفة الحالة التي عليها الإنسان من الخوف . قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾» (٢) .

وجاء في (روح المعاني) : «(خيفة) أي خوفًا ، وأصلها الحالة التي عليها الإنسان من الخوف . ولعل اختيارها بالذكر للمبالغة حيث تفرس لذلك مع جهالته لهم من قبل وعدم معرفته من أي الناس يكونون ، كما ينبئ عنه في الذاريات من قوله سبحانه حكاية عنه : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أنهم ملائكة» (٣) .

ويبدو أن هذه الحالة من الخوف ظهرت عليه فأمنوه بقولهم (لا تخف) . وأخبروه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط .

جاء في (الكشاف) : «(فأوجس) فأضمر . وإنما قالوا : لا تخف ؛ لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه ، أو عرفوه بتعريف الله» (٤) .

* * *

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٦ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٤٢ .
(٢) المفردات (خوف) .
(٣) روح المعاني١٢/ ٩٥ .
(٤) الكشاف ٢/ ١٠٦ .

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [هود: ٧١]

لما سمعت بتأمين زوجها وأنهم أرسلوا إلى قوم لوط ضحكت سرورًا بهذا الخبر ، فبشروها زيادة في إدخال السرور عليها بالولد وبولد الولد.

وأسند البشارة إليه سبحانه فقال: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا﴾ زيادة في إكرامها.

جاء في (البحر المحيط): «فبشرناها على لسان رسلنا... قال ابن عطية: أضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالى ، إذ كان ذلك بأمره ووحيه» (١).

ولما أسند البشارة إليه سبحانه فقال: (فبشرناها) عظمت البشارة فشملت الولد وولد الولد ، وأنها تعيش حتى ترى ولد ولدها.

جاء في (روح المعاني): «كأنهم بشروها بأن تعيش حتى ترى ولد ولدها ، أو بأن يولد لولدها ولد» (٢).

وجاء في (البحر المحيط): «وبشرت من بين أولاد إسحاق بيعقوب ؛ لأنها رأته ولم تر غيره» (٣).

في حين لما أسند البشارة إلى الملائكة اختصت بذكر الغلام وذلك في الحجر والذاريات. فقال في الحجر: ﴿ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ [الحجر: ٥٣] ، وقال في الذاريات: ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ [الذاريات: ٢٨] وكانت البشرى بعد التأمين من الخوف في

---

(١) البحر المحيط ٥/٢٤٣.
(٢) روح المعاني ١٢/٩٩.
(٣) البحر المحيط ٥/٢٤٣.

جميع المواضع لتتم الفرحة وتنبسط النفس بها ، وإلا فالخائف يطلب الأمن أولاً.

* * *

﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾
[هود: ٧٢]

أدركها العجب الشديد حين بشرت بالولد وولد الولد وهي عجوز عقيم وزوجها شيخ كبير فقالت: ﴿ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ. . . ﴾

و(يا ويلتا) «يستعمل في كل أمر فظيع ، والمراد هنا التعجب. وقد كثرت هذه الكلمة على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يتعجبن منه. . . وقيل: إن الألف بدل من ياء المتكلم. . . وقيل: إنها ألف الندبة ولذا يلحقونها بالهاء فيقولون: يا ويلتاه» (١).

﴿ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ بعلي أي زوجي «وأصل البعل القائم بالأمر فأطلق على الزوج لأنه يقوم بأمر الزوجة» (٢).

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فأكدت عجبها بإن واللام زيادة في عجبها. وقد ذكرنا في كتابنا (التعبير القرآني) هذا التعبير وقوله سبحانه: ﴿ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ٢] ، وقوله: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] وسبب الاختلاف في التعبير فلا نكرر القول فيه(٣).

* * *

---

(١) روح المعاني ١٢/ ٩٩ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٤٤.
(٢) روح المعاني ١٢/ ١٠٠.
(٣) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٤٤ وما بعدها ـ باب (البنية في التعبير القرآني).

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧٣]

قالوا منكرين عليها عجبها بلطف ودعاء: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ ، والمؤمن قد يعجب من أمر الله إذا استعظمه وإن كان يعلم أنه لا حدود لقدرة الله وأنه يفعل ما يشاء.

﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ .

رحمة الله عامة تشمل خيري الدنيا والآخرة ، والبركات من الرحمة وهي أخص منها ، فمن بارك الله عليه فقد رحمه.

والبركات: الخيرات التامة المتكاثرة.

ومجموع ما حيّا به الملائكة هي التحية التامة التي لا أفضل منها وهي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقد بدؤا بقولهم: (سلامًا).

ثم أتبعوا ذلك مخاطبين امرأة سيدنا إبراهيم بقولهم:

﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهذا يحتمل الدعاء ، ويحتمل الإخبار بأن رحمة الله وبركاته عليهم.

فهم لم يقولوا: (إن رحمة الله وبركاته عليكم) لئلا يكون خبرًا محضًا ، وإنما قالوا: ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ليحتمل الدعاء والإخبار ، وهما مرادان معًا. وقد يكون ذلك من التحية.

جاء في (روح المعاني): «﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ ﴾ المستتبعة كل خير. . . و﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ ﴾ أي خيراته التامة المتكاثرة التي من جملتها هبة الأولاد.

وقيل: الرحمة: النبوة... وقيل: رحمته تحيته»[١].

و﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ يحتمل أن يكون نصبًا على المدح، وأن يكون نداء.

وقيل: يحتمل أن يكون نصبًا على الاختصاص[٢]، وفيه نظر.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ والحميد: الذي يستحق الحمد على جهة الثبوت، والمجيد: الرفيع الكثير الخير والإحسان[٣].

* * *

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]

قدم ذهاب الروع على مجيء البشرى لأنه أهم بالنسبة إلى الخائف؛ لأن الخائف لا يستمتع بالبشرى حتى يأمن.

﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

(يجادلنا) أي يجادل رسلنا في أمر قوم لوط وشأنهم[٤]. ولكن لما كان هذا أمر الله وهو الذي أرسلهم به كان كأنه جادل سبحانه في أمره «ففيه مجاز في الإسناد، وكانت مجادلته عليه السلام لهم ما قصه الله سبحانه في سورة العنكبوت ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فقوله عليه السلام: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ مجادلة»[٥].

* * *

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

الحليم: الذي لا يعجل في الانتقام ممن أساء إليه.

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٠ ـ ١٠١.

(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ١٠١، الكشاف ٢/ ١٠٧.

(٣) روح المعاني ١٢/ ١٠١.

(٤) انظر تفسير الرازي ٦/ ٣٧٦، روح المعاني١٢/ ١٠٢.

(٥) روح المعاني ١٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣، لسان العرب (أوه).

والأواه: الكثير الحزن ، وقيل: الرحيم الرقيق المتضرع ، والكثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس.

والمنيب: الراجع إلى الله تعالى(١).

«وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة فيه ، فبيّن أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «والمقصود من وصفه عليه السلام بهذه الصفات المنبئة عن الشفقة ورقة القلب بيان ما حمله على ما صدر عنه من المجادلة ، وحمل الحلم على عدم العجلة والتأني في الشيء مطلقًا.

وجعل المقصود من الوصف بتلك الصفات بيان ما حمله على المجادلة وإيقاعها بعد أن تحقق ذهاب الروع ومجيء البشرى لا يخفى حاله» (٣).

وقدم الحليم لأن المقام مقام غضب وعقوبة وانتقام ، والحلم يقتضي عدم التعجيل بالعقوبة والانتقام.

وهذه صفة تتعلق بالموقف من الآخرين.

ثم جاء بالأواه بعده لمقام التأسف على ما صدر من قوم لوط ، والتأوه من ذنوبهم التي أفضت إلى غضب الله عليهم والانتقام منهم. وقد دعته رحمته بهم وتأوهه عليهم إلى المجادلة في أمرهم.

والأواه صفة تتعلق بالفرد وبالآخرين ، فهو كثير التأوه إذا أذنب ،

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٠٤.
(٢) الكشاف ٢/ ١٠٧.
(٣) روح المعاني ١٢/ ١٠٤.

وكثير التضرع والحزن ، وكثير التأسف على الآخرين إذا أذنبوا ، والرحمة بهم .

وأما المنيب فهو الراجع إلى الله ، وهذا أمر يتعلق بالفرد ذاته . فقدم ما يتعلق بالآخرين لأن المقام يقتضي ذلك وهو الحلم ، ثم ذكر بعده ما يتعلق به وبالآخرين ، ثم ذكر بعده ما يتعلق به هو .

ولم يرد في القرآن الكريم وصف نبي من الأنبياء بهذه الصفات في غير خليل الله إبراهيم عليه السلام .

* * *

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٦] .

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ نداء على تقدير القول ، أي قلنا أو قالت الملائكة[١] .

ولم يقل : قلنا أو نحو ذلك ، وإنما حذف ذلك لنكون كأننا نسمع النداء يصدر إلى إبراهيم وأمره بالكف عن الجدال .

وتقدير (قلنا) مناسب لقوله : (يجادلنا) .

وتقدير (قالت الملائكة) مناسب لقولهم : ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾

وحذف القول ليحتمل الأمرين المناسبين للسياق .

﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ بإدخال (إن) المؤكدة على ضمير الشأن لتفخيم الأمر وتعظيمه . فلم يقل : (إن أمر ربك قد جاء) بل جاء بضمير الشأن الدال على التعظيم والتفخيم .

﴿ قَدْ جَآءَ ﴾ جاء بـ (قد) التي تدل على التحقيق والتوقع والتقريب ، أي

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٤ .



إن مجيء الأمر قد تحقق وقرب وقوع العذاب ، وهو متوقع وقوعه على هؤلاء القوم المجرمين.

﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي غير مردود «بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما»[(١)].

وجاء باسم الفاعل (آتيهم) ، وباسم المفعول (غير مردود) للدلالة على ثبوت الأمر واستقراره ، ولم يقل: (يأتيهم) ولا (لا يردّ) الدالين على الحدوث ، بل جاء بما يدل على الثبوت والاستقرار.

فانظر كيف جاءت الآية بكل ما يدل على التأكيد والتفخيم والتعظيم:

١ ـ فقد قال: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ فحذف فعل القول للإيجاز وكأن النداء صدر من العلي الأعلى بالكف.

٢ ـ وقال: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ فأمره بالكف عن الكلام في هذا الأمر ، ولم يقل: (كفّ عن هذا) وذلك لأن الإعراض أبعد في الكف ، فإن معنى (أعرضَ عنه) صدّ عنه وولّى عنه وليس مجرد ترك الكلام.

فكأنه أراد أن يصد عن الكلام والانصراف عنه ، وهو أبعد من مجرد السكوت عن الكلام.

٣ ـ وجاء بـ (إن) المؤكدة فقال: (إنه).

٤ ـ وأدخلها على ضمير الشأن الدال على التفخيم والتعظيم.

٥ ـ وجاء بـ (قد) التي تدل على التحقيق والتوقع والتقريب.

٦ ـ وأدخلها على الفعل (جاء) ولم يأت بالفعل (أتى) وذلك للدلالة على شدة الأمر وصعوبته ، فإن (جاء) يستعمل في القرآن لما هو أعسر

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٤.

وأصعب من (أتى) الذي هو المجيء بسهولة[١].

٧ ـ وجاء بـ (الأمر) الذي يدل على الشأن ، ويدل على الأمر واحد الأوامر من : أمره بالشيء.

٨ ـ وأضافه إلى (الرب) لتعظيمه ، والرب هو المعلم والمربي والموجّه والمرشد ، فهو الذي يعلم أحاسن الأمور وأحكمها وكيف يعاقب من خالف أوامره وتوجيهه وإرشاده.

٩ ـ وأضافه إلى ضمير الخطاب ، فهو ربك الذي رباك وأحسن إليك وعلمك وأرشدك فلا تجادله فهو أعلم منك.

والإنسان لا يحسن به أن يجادل من علمه ورباه في أمر هو من أمور التعليم والتوجيه وما هو من شؤون الرب.

١٠ ـ وقال : ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ فجاء بـ (إن) المؤكدة وأدخلها على ضميرهم وهم قوم لوط.

١١ ـ وقال : ﴿ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ﴾ فجاء باسم الفاعل الدال على الثبوت.

وهذا التعبير أعني ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ يحتمل دلالتين.

الأولى : أن (آتيهم) خبر مقدم ، و(عذاب) مبتدأ مؤخر ، وقد قدم الخبر للاهتمام والقصر ، أي ليس آتيهم إلا العذاب ، كما تقول : (قائم أنا) أي لست إلا قائمًا ، والجملة خبر (إن).

والدلالة الثانية : أن (آتيهم) خبر (إن) ، و(عذاب) فاعل اسم الفاعل ، وجاء باسم الفاعل للدلالة على الثبوت ، والجملة مؤكدة بـ (إن).

وقد تقول : ولِمَ لَمْ يقل : (وإنه آتيهم عذاب غير مردود) بإدخال (إن)

---

(١) انظر مفردات الراغب (جاء) و(أتى) ، وانظر كتابنا (من أسرار البيان القرآني) باب المفردات.

على ضمير الشأن للدلالة على التفخيم والتعظيم ، نظير قوله : ﴿ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾؟

فنقول : لو قال ذلك لم يكسب المعنيين اللذين ذكرناهما ، وذلك أنه لو قال : (وإنه آتيهم عذاب غير مردود) لم يكن له إلا دلالة واحدة وهي أن (آتيهم) خبر مقدم ، و(عذاب) مبتدأ مؤخر ، ولا يصح أن يكون (آتيهم) خبر (إن) لأن ضمير الشأن لا يدخل إلا على جملة فيفوت أحد المعنيين المرادين ، والله أعلم.

١٢ ـ وقال : ﴿ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ فوصفه ونفى رده بالاسم الدال على الثبوت وهو (غير) ، ولم يقل : (ليس مردودًا) فينفيه بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث ، فنفاه بما هو أقوى وأثبت.

١٣ ـ وقال : ﴿ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ فجاء باسم المفعول الدال على الثبوت ، ولم يقل : (لا يرد) بالفعل.

فكانت كل كلمة نصًّا في المعنى المقصود والذي يناسب المقام.

* * *



نظرة بيانيـة في هـذه القصـة

من الملاحظ أن جانب التبسط والإكرام لإبراهيم والملائكة في سورة هود أكثر مما في المواضع الأخرى.

١ ـ فقد عجل بذكر البشرى له قبل ذكر إيجاس الخوف منهم ، في حين كانت البشرى بعد التصريح بالخوف منهم كما في الحجر ، أو بعد الإحساس بالخوف كما في الذاريات ، فقال ههنا : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ وهذا أدعى إلى الاطمئنان.

٢ ـ التصريح بأنهم رسله سبحانه أدلّ على التكريم من قوله : (ضيف إبراهيم) ، فقد أضاف الرسل إليه فقال : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ .

في حين قال في الحجر : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ، وفي الذاريات ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ .

ورسل الله أكرم من ضيف مكرم .

٣ ـ قال ههنا : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي لم يبطئ في المجيء .

وقال في الذاريات : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ ﴾ أدل على السرعة من قوله : ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ ﴾ .

فالأولى تدل على التعقيب في عدم الإبطاء في المجيء ، أي أسرع فيه .

والثانية تدل على التعقيب في الروغان إلى أهله.

والأولى أسرع.

٤ ـ قال في هود: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي سمين مشوي حار يقطر ودكه.

وقال في الذاريات: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ فزاد في الوصف في هود على سمين بأنه مشوي وأنه حار. ولا يدل في الذاريات على أنه حار.

٥ ـ إنكاره إياهم في هود بعد أن رأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾.

في حين كان إنكاره في الذاريات بعد رد التحية: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

فقد كان بعد رد التحية في هود المجيء بالعجل، وكان بعد رد التحية في الذاريات قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

٦ ـ بعد الإيجاس بالخوف في هود ذكروا له أمرين مطمئنين:

الأول: أنهم أرسلوا إلى قوم لوط وليسوا مرسلين إليه فلا داعي للخوف.

والآخر: التبشير بالولد.

في حين كان بعد التصريح بالوجل في الحجر أو الشعور بالخوف في الذاريات إنما هو التبشير بالغلام، ثم سألهم عن مهمتهم في الموضعين فأجابوه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط.

ولا شك أن الموقف الأول أدعى إلى الطمأنينة.

٧ ـ ذكر في هود أن امرأته ضحكت، وهي قد ضحكت سرورًا. ولم يذكر ذلك في موضع آخر.

٨ ـ إنهم بشروها في هود بالولد وولد الولد.

ولم يبشروه بغير الولد في الحجر والذاريات ، والأول أدعى إلى زيادة السرور .

٩ ـ إن فحوى البشارة في هود أن ترى ولدها وولد ولدها ، أي أنها ستعيش حتى ترى يعقوب ، وقد حصل لها ذلك ، وهو ما يدل على طول العمر والزيادة في السرور .

١٠ ـ تبسط امرأة إبراهيم مع الملائكة في هود أكثر ، وهو أدل على الطمأنينة والراحة .

١١ ـ الدعاء أو الإخبار لأهل البيت بقولهم : ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ أدل على الإكرام والزيادة في إدخال المسرة .

ولم يرد ذلك في موضع آخر .

١٢ ـ ورود البشرى في هود أكثر من ورودها في المواطن الأخرى ، فقد جاءته الرسل بالبشرى ، ثم بشروا امرأته ، ثم ذكر مجيء البشرى مرة أخرى بقوله : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ .

ثم إن البشرى في هود وردت عامة ووردت مخصصة ، فقد قال : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ ، وقال : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ والبشرى هنا عامة غير مخصصة بأمر .

ووردت مخصصة بقوله : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ .

في حين كانت البشرى في الحجر والذاريات مخصصة بالغلام . فما في هود أعم وأشمل .

١٣ ـ أسند البشارة إليه في هود فقال : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ ﴾ ، وأسند البشارة إلى الملائكة في الحجر والذاريات : ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : ٥٣] ، وفي الذاريات ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] .

ولاشك أن إسناد البشارة إلى الله أكرم وأتم.

ولما كانت البشارة مسندة إلى الله في هود ذكر الزيادة في البشرى وهي الولد وولد الولد.

١٤ ـ إن البشرى في هود أتم وأعلى مما في الحجر والذاريات، فإن البشرى في هود جاءت بها الرسل كما قال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾.

وجاءت هي كما قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾. فالبشرى جيء بها مرة، وجاءت هي مرة أخرى.

وأما في الحجر والذاريات فقد ذكر أنهم بشروه، وكذلك قال في هود غير أنه أسند التبشير إليه سبحانه كما ذكرنا.

ولاشك أن ما ورد في هود أتم وأعلى.

١٥ ـ ذكر ذهاب الروع وهو الفزع في هود فقال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾، ولم يقل مثل ذلك في الحجر ولا في الذاريات.

وهو أدل على الطمأنينة.

١٦ ـ ذكر في هود مجادلة إبراهيم للملائكة في قوم لوط مما يدل على زيادة اطمئنانه. ولم يذكر ذلك في الحجر ولا في الذاريات.

١٧ ـ ذكر من صفات المدح والثناء على إبراهيم في هود ما لم يذكره في المواضع الأخرى، وذلك قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾.

فدل ذلك على ما ذكرناه.

* * *



قصة لـوط

وردت هذه القصة في الأعراف وهود والحجر والأنبياء والشعراء والنمل والعنكبوت والصافات والذاريات والقمر.

ونقول ما قلناه في سائر القصص الأخرى إنها ليست متطابقة ، بل قد يذكر في موضع ما لا يذكره في موضع آخر بحسب ما يريد أن يركز عليه وبحسب السياق الذي وردت فيه.

والملاحظ في هذه القصة أنه لم يذكر فيها أن لوطاً دعا قومه إلى عبادة الله وتوحيده في جميع ما ورد منها ، وإنما ذكر أنه أمرهم بتقوى الله وذلك عندما راودوه عن ضيفه ، وذكر ذلك أيضًا في سياق ما ورد نحوه على لسان الرسل الآخرين وذلك في سورة الشعراء ، فكان الرسول يقول لقومه: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

ونحو ذلك قال لوط لقومه.

إن التركيز في قصة لوط إنما هو على ذكر الفاحشة التي ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، وهي إتيان الذكور شهوة من دون النساء. وكانت هي السبب الرئيس لعقوبتهم واستئصالهم. وذلك إشارة ـ والله أعلم ـ أن ربنا قد يهلك عباده بالمعصية إن عمت وعظمت كما قال ربنا في هؤلاء القوم: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

وحذر الظالمين في كل حين أن يفعل بهم ما فعل بقوم لوط فقال في الحجارة التي أمطرها عليهم: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

١ ـ ففي سورة الأعراف ذكر أن لوطاً أنكر على قومه سوء فعلهم في أنهم كانوا يأتون الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين (٨٠).

فكان جواب قومه أن طلبوا إخراجه من القرية فإنهم أناس يتطهرون.

فنجاه الله وأهله إلا امرأته، وذكر أنه أمطر عليهم مطرًا، ولم يذكر ما هذا المطر، وما ماهيته.

وهذا ما ورد منها في سورة الأعراف:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤].

٢ ـ وأما في سورة هود فذكر ورود رسل الله على لوط على هيئة ضيوف وضاق بهم نبي الله لوط، وجاءه قومه يهرعون إليه. وحاول لوط منعهم ودفعهم، وجرى بينه وبينهم كلام ومحاورة، وحاول منعهم بعرض بناته عليهم فأبوا، فأعلموه أنهم رسل ربه أرسلوا لعقوبة قومه، وطلبوا منه أن يسري بأهله. ثم ذكر عقوبتهم وذلك أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل.

وهذا الجانب من القصة لم يرد في الأعراف؛ وذلك لأنه كان أول تبليغ لهم فلا يناسب ذكر مجيء الرسل إليهم، وإنما تأتي الرسل بعد

التبليغ ومضي الزمن وإصرار القوم على ما هم عليه ، ثم بعد ذلك تأتي الرسل لعقوبة القوم .

فكان ذكر ذلك فيما بعد الأعراف هو المناسب .

٣ ـ وذكر في الحجر مجيء رسل ربه إليه فأنكرهم ، فأخبروه بالغرض من مجيئهم وطلبوا منه أن يسري بأهله وأن يتبع أدبارهم .

كما ذكر مجيء أهل القرية مستبشرين فحاول منعهم ، وعرض عليهم بناته . ثم ذكر عقوبتهم وهي الصيحة وأنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

وهذا ما ورد منها في هذه السورة :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ
جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ
إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ
نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن
سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٤ ـ وأما في الأنبياء فقد ذكر لوطاً بصورة موجزة ، وذكر أنه آتاه حكمًا وعلمًا ونجّاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث .

قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٤ ـ ٧٥] .

٥ ـ وأما في الشعراء فقد بدأت القصة بما تبدأ به عموم قصص رسل الله في السورة: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٦٤].

ثم بكّتهم على معصيتهم وسوء فعلهم وهو إتيان الذكور وترك الأزواج، فهددوه إن لم ينته بإخراجه.

فدعا ربه أن ينجيه وأهله، فنجاه وأهله إلا عجوزًا في الغابرين، ولم يذكر أنها امرأته، وقد ذكر ذلك في مواضع أخرى.

ولم يذكر ضيفه. قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٦٠ ـ ١٧٥].

٦ ـ وفي سورة النمل ذكر أنه بكّتهم على سوء فعلهم من إتيان الفاحشة، فكان جواب قومه أن طلبوا إخراجه من القرية، فأنجاه الله وأهله إلا امرأته وأمطر عليهم مطرًا ولم يذكر ما هذا المطر، قال تعالى:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ

وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٤ ـ ٥٨].

٧ ـ وأما في سورة العنكبوت فقد ذكر من سوء أفعالهم ما لم يذكره في المواضع الأخرى.

فقد ذكر إضافة إلى إتيان الرجال من دون النساء أنهم يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر.

وتحدوه بأن يأتيهم بعذاب الله إن كان من الصادقين.

ثم ذكر مجيء ضيف إبراهيم بالبشرى، فذهابهم إلى قوم لوط وبرمه بهم فأمنوه وذكروا له أنهم منجّوه وأهله إلا امرأته وأنهم منزلون على أهل القرية رجزًا من السماء، ولم يذكر نوع هذا الرجز.

قال تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

٨ ـ ولم يذكر في الصافات إلا أن لوطاً من المرسلين، وأن الله نجّاه

وأهله أجمعين إلا عجوزًا ، ولم يذكر أنها امرأته ، ثم ذكر أنه دمر الآخرين ، ولم يذكر كيف كان تدميرهم .

ثم ذكر أنهم ـ أي قريشًا ـ يمرون عليهم في أسفارهم في الليل والنهار .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

٩ ـ وأما في الذاريات فقد ذكر أن إبراهيم سأل ضيفه عن مهمتهم فذكروا أنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين ليرسلوا عليهم حجارة من طين معلّمة بعلامة من عند ربه .

ثم ذكر أنهم أخرجوا المؤمنين فلم يجدوا فيها غير بيت واحد . وهذا لم يذكر في موضع آخر .

ثم ذكر أنه ترك فيها آية بينة للذين يخافون العذاب الأليم ، ولم يذكر ماذا فعل بهم غير ما ذكره الملائكة لإبراهيم .

قال تعالى : ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات : ٣١ ـ ٣٧] .

١٠ ـ وأما في سورة القمر فقد ذكر تكذيب قوم لوط بالنذر ، وهو ابتداء عموم القصص في هذه السورة .

ثم ذكر أنه أرسل عليهم حاصبًا ولم يذكر ذلك في موضع آخر .

وذكر أيضًا أنهم راودوه عن ضيفه وأنه طمس أعينهم ، ولم يذكر في موضع آخر أنه طمس أعينهم .

ثم ذكر أنهم صبّحهم العذاب ولم يذكر نوع ذلك العذاب .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾

موقف قومه منه:

ذكر في الأعراف أنهم طلبوا إخراجه من القرية .

وأما في هود فقد ذكر موقفهم من ضيفه . وذكر أنهم جاؤوا يهرعون إليه ، أي يشتدون في الإسراع إليه ، فحاول دفعهم فلم يقوَ على ذلك .

وفي الحجر ذكر أيضًا موقفهم من ضيفه وذكر أنهم جاؤوا يستبشرون ، وهو وصف لم يذكره في هود . فقد قال في هود إنهم جاؤوا مسرعين ، وذكر في الحجر أنهم جاؤوا مستبشرين وهو وصف آخر غير الإسراع .

وفي الشعراء ذكر أنهم هددوه بإخراجه من القرية إن لم يكف عنهم . وفي النمل طلبوا إخراجه .

وفي العنكبوت تحدوه بأن يأتيهم بعذاب الله إن كان صادقًا .

وأما في القمر فقد ذكر أن قومه كذبوا بالنذر ، وأنه أنذرهم بطشة ربهم فكذبوا بها ، وأنهم راودوه عن ضيفه فطمس الله أعينهم .

ويتضح من هذا أنهم هددوه أو طلبوا إخراجه من القرية في الأعراف والشعراء والنمل .



وذكر أنهم راودوه عن ضيفه في هود والحجر.

وذكر في العنكبوت أنه جاءته رسل ربه وأنه ضاق بهم ذرعًا. ولم يذكر موقف قومه منه. ولم يذكر موقف مواجهة بينه وبين قومه في المواضع الأخرى.

عاقبة القوم:

١ ـ ذكر في الأعراف أنه نجاه وأهله إلا امرأته، وأنه أمطر عليهم مطرًا ولم يذكر ما هذا المطر.

٢ ـ في هود ذكر أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود، وهذه الحجارة معلّمة بعلامة خاصة.

٣ ـ وذكر في الحجر أنهم أخذتهم الصيحة مشرقين، أي بعد شروق الشمس، ولم يذكر الصيحة ولا هذا التوقيت في موضع آخر.

كما ذكر أنه جعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل.

فقد ذكر في هود أنه أمطر عليها يعني القرية.

وقال في الحجر أنه أمطر عليهم يعني القوم.

فدل ذلك أنه أمطر على القوم وعلى القرية. وقد ذكرنا في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) في باب (الذكر والحذف) سبب المغايرة بين التعبيرين.

٤ ـ ذكر في الشعراء أنه دمر غير المؤمنين وأمطر عليهم مطرًا، ولم يذكر ما حقيقة هذا المطر ولا فصّل فيه.

٥ ـ وقال في النمل: إنه أمطر عليهم مطرًا، وهو نحو ما ذكر في الشعراء.

٦ ـ وقال في العنكبوت: إن الرسل وعدوه بإنزال رجز من السماء،

وهو تعبير لم يذكر في المواضع الأخرى .

٧ ـ وفي الصافات ذكر تدمير قومه ، غير أنه لم يذكر كيف كان تدميرهم .

٨ ـ وفي الذاريات ذكر الرسل لإبراهيم أنهم مرسلون إلى قوم لوط لإنزال حجارة من طين عليهم ، مسوّمة أي معلّمة بعلامة خاصة .

فذكر أن الحجارة من طين .

٩ ـ وذكر في سورة القمر أنه أرسل عليهم حاصبًا ، وأنه صبحهم بكرة عذاب مستقر ، أي في أول النهار .

ومن هذا يتضح أنه ذكر المطر على العموم في الأعراف والشعراء والنمل .

وذكر الإمطار بالحجارة في هود والحجر والذاريات .

وذكر إنزال الرجز في العنكبوت .

وذكر إرسال الحاصب في القمر .

ومن الملاحظ أنه ذكر إمطار المطر بعد تبكيت قومه على فعل الفاحشة .

وذكر الإمطار بالحجارة وجعل عاليها سافلها عند مجيء أهل القرية مسرعين عندما علموا بمجيء الضيوف ومحاولة دفعهم ببناته . وهو أشد من الموقف الأول ؛ لأن ذلك كان تبكيتًا على فعل قد لا يكون موجودًا في أثناء دعوته لهم .

وأما الموقف الآخر فهو المجيء لتنفيذ هذا الفعل السيء والإصرار عليه ومحاولة دفعهم ببناته ، فرفضوا . وهذا قلب للفطرة التي خلق الله الناس عليها ، فقلب الله عليهم الأرض كما قلبوا الفطرة . فاشتد عليهم

العذاب لما كان الموقف أشد.

ولما لم يكن في الذاريات مراودة ولا مجيء الضيوف إلى لوط لم يذكر قلب عاليها سافلها.

وذكر إنزال الرجز في العنكبوت لما ذكر من معاصيهم ما هو أكثر مما ذكر فيه إنزال المطر.

والرجز أشد من المطر لأن الرجز هو العذاب. وأما المطر فقد لا يكون عذابًا في أصل التعبير في اللغة.

وأما في القمر فإنه ذكر الحاصب مناسبة لما ذكر من طمس أعينهم؛ لأنه كأنه حصبهم فسقط من ذلك في أعينهم فطمسها، وإن كان المقصود بذكر الحاصب هو ما ذكر من العذاب، غير أن ذكره كان مناسبًا لطمس أعينهم. والله أعلم.

نجاة المؤمنين:

ذكر في الأعراف والنمل والعنكبوت نجاته وأهله إلا امرأته.

وأما في هود فقد طُلب منه الإسراء بأهله إلا امرأته، ولم يصرح بنجاته ومن معه.

وكذلك في الحجر فإنه طُلب منه الإسراء بأهله وأن يتبع أدبارهم ولم يذكروا امرأته، لأنهم ذكروا في القصة نفسها لنبي الله إبراهيم أنهم منجون آل لوط إلا امرأته، فلم يعيدوا ذكرها مرة أخرى.

وفي سورة الأنبياء ذكر أنه نجاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ولم يذكر أهله معه.

وفي الشعراء والصافات ذكر أنه نجاه وأهله إلا عجوزًا في الغابرين، ولم يذكر أنها امرأته، وقد مر بيان هذه العجوز في مواضع أخرى.

وذكر في الذاريات أنه لم يجدوا في القرية غير بيت واحد من المسلمين. ومعنى ذلك أنه لم يؤمن له إلا آل بيته عدا امرأته.

وقد ذكر ذلك أيضًا في سورة القمر بقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤] فقد استثنى آل لوط وهم أهله.

ومن الملاحظ أنه لم يذكر ناجيًا معه غير أهله في جميع المواضع، مما يدل على أنه لم يؤمن له من القرية أحد غير أهل بيته إلا امرأته.

قد تقول لقد قال في أكثر من موضع: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ وذلك في هود والحجر، فذكر القطع من الليل.

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ فذكر الصبح وليس الليل.

وقال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾.

وقال في القمر: ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾.

وقال: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ أي عند الصباح.

فما حقيقة الأمر أهي النجاة في الليل أم في الصبح؟

فنقول: إن النجاة كانت في الليل، فقد طلب منه الإسراء في ذلك الوقت.

وأما نزول العذاب فهو عند الصبح، ذلك أن النجاة لم تكن في وقت نزول العذاب بل قبله.

ومن الملاحظ أنه ذكر دعاءه بالنجاة في الشعراء وذلك قوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾، ودعاءه بالنصر في العنكبوت وذلك قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

وكل مناسب لموضعه، ففي الشعراء بعد أن بكتهم على إتيان الذكران

وترك الأزواج هددوه إن لم ينته بإخراجه من القرية فقال لهم: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فلما ذكر قلاه وبغضه لعملهم دعا ربه أن ينجيه وأهله من عملهم.

وأما في العنكبوت فقد ذكر إضافة لعملهم الفاحشة أنهم يقطعون السبيل، وهو عدوان على عباد الله، فدعا بالنصر عليهم وليس مجرد نجاته منهم. فإن نجاته منهم لا تمنعهم من ذلك، وإنما النصر عليهم هو الذي يمنعهم فدعا بالنصر عليهم. وكل مناسب لموضعه.

* * *

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾
[هود: ٧٧]

﴿ سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي لحقته المساءة بسببهم وضاق ذرعه بهم، أي ضاق صدره بمجيئهم.

والذرع يوضع موضع الطاقة والجهد، «يقال: ضقت بالأمر ذرعًا إذا لم تطقه ولم تقو عليه.

وأصل الذرع بسط اليد، فكأنك تريد مددت يدي إليه فلم تنله... ونصبه على أنه تمييز محول عن الفاعل، أي ضاق بأمرهم وحالهم ذرعه» [١].

والتحويل عن الفاعل إلى التمييز إنما يكون بقصد المبالغة والشمول مثل قولنا (اشتعلت نار البيت) و(اشتعل البيت نارًا) [٢].

* * *

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٥ وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٤٦، تفسير الرازي ٦/ ٣٧٨.
(٢) انظر كتابنا (معاني النحو) ج٢ - باب التمييز.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾

«أي شديد ، وأصله من العصب بمعنى الشد ، كأنه لشدة شره عصب بعضه ببعض ، وقال أبو عبيدة : سمي بذلك لأنه يعصب الناس بالشر» [١] .

والآية أظهرت غاية الضيق بمكانهم ، فإنها ذكرت أنهم أدخلوا المساءة عليه ، وهذه حالة أولى .

ثم ذكر حالة بعدها أشد وهي أنه ضاق بهم ذرعًا ، وهذه أشد من مجرد المساءة ، فإنه قد يسيء مجيء شخص شخصًا ولكن قد لا يضيق به ذرعًا فيكون تحمله فوق طاقته .

ثم إنه لم يكتم ذلك في نفسه بل صرح به وقال : ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ .

ثم انظر كيف وصف ضيقه بأن حول الفاعل إلى تمييز بقصد المبالغة فقال : ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ والأصل : فضاق ذرعه بهم ، وكيف وصف اليوم بأنه (عصيب) ، ولم يقل : (هذا أمر عصيب) أو (هذا شيء عصيب) بل جعل الشدة لليوم كله ، وذلك لاشتمال الشدة على اليوم وليس على أمر فيه .

ثم إن الوصف بالعصيب له دلالته ، فإنه لم يقل : (هذا يوم شديد) وذلك أن الوصف بعصيب أشد ؛ ذلك لأنه كأنه يعصب الإنسان بالشر ، وأنه معصوب بعضه ببعض ، فالشر متصل فيه .

وقد بحثنا في كتابنا (التعبير القرآني) الفرق بين قوله هنا : ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ ، وقوله في العنكبوت : ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ [العنكبوت : ٣٣] بزيادة (أنْ) في آية العنكبوت . فلا نعيد القول فيه [٢] .

* * *

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٠٥ .

(٢) التعبير القرآني - باب الذكر والحذف ١٢٧ - ١٢٩ .

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ [هود: ٧٨]

لقد قال: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ على العموم، ولم يقل: (نفر من قومه) أو جماعة منهم، للدلالة على شيوع هذه الفاحشة فيهم. فالقوم كلهم جاؤوا يهرعون إليه، كما قال في موضع آخر: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ فإن أهل المدينة كلهم جاؤوا إليه وليس مجموعة منهم. وقلنا: (كلهم) لأنهم أهلكوا أجمعون لم يستثن أحدًا منهم.

﴿ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي «يسرعون كأنما يدفعون دفعاً» [١].

﴿ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ أي كانوا مستمرين على عمل السيئات وإن ذلك كان «ديدنهم وعادتهم أصروا على ذلك ومرنوا عليه» [٢].

لقد قال: ﴿ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ ولم يقل: (ومن قبل عملوا السيئات) وذلك للدلالة على أن هذه عادتهم.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ ﴾ ناداهم بـ (يا قوم) تعطفًا لقلوبهم، وعرض عليهم بناته وقال: ﴿ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ ﴾ فجاء بالضمير (هن)، ولم يقل: (هؤلاء بناتي أطهر لكم) ليدل على قصر الطهر فيهن وأنه ليس وراء ذلك طهر.

ودعاهم إلى تقوى الله ومراعاة حق الضيف، كل ذلك ليرشدوا ويرعووا، ثم قال متحسرًا منكِرًا عليهم بما ملؤه الأسى ومستثيراً لذوي

---

(١) الكشاف ٢/١٠٨.

(٢) البحر المحيط ٥/٢٤٦.

اللب إن كان فيهم من هو كذلك ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ «يهتدي إلى الحق ويرعوي عن القبيح» (١).

فقد ترى أنه حاول دفعهم بكل ما يستطيع :

١ ـ بمناداتهم (يا قوم) تعطفًا لقلوبهم .

٢ ـ وعرض ما هو أفضل وأطهر .

٣ ـ ودعوتهم إلى تقوى الله وأن يخشوا عقابه .

٤ ـ وإلى مراعاة حرمة الضيف .

٥ ـ وأن لا يُخجلوا ويُخزوا واحدًا من قومهم فيفضحوه ويسيئوا إلى سمعة القرية .

٦ ـ ودعا ذوي اللب والرشد إن كان فيهم أحد كذلك ينصح هؤلاء الرعاع .

ومن أين يأتي الرشد إذا كانوا كلهم جاؤوا مسرعين إليه!

* * *

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]

فأجابوه أن ليس لهم في بناته أرب ولا غرض ، وإنك تعلم غرضنا وما نريد ، فلا تدعنا إلى ما ليس لنا فيه أرب ولا إرادة .

وجيء بالمؤكدات كلها في هذا التعبير :

١ ـ فقد قالوا : (لقد) فأكدوا ذلك بالقسم ، فإن (لقد) قسم كما هو معلوم .

---

(١) تفسير البيضاوي ٣٠٣ .

٢ ـ وقالوا: (علمت) فجعلوا ذلك من علمه وأنه ليس من باب الظن.

٣ ـ وجاؤوا بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) للدلالة على ثبوت هذا الأمر ووكادته ولم يقولوا: (ليس لنا في بناتك من حق).

٤ ـ وجاؤوا بـ (من) الدالة على الاستغراق والتوكيد ليبينوا على أنه ليس لهم أي غرض في بناته وذلك على سبيل الاستغراق والشمول.

٥ ـ وأكدوا علمه بما يريدون بـ (إن) واللام فقالوا: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

فقد أكدوا علمه أولاً بأنه ليس لهم في بناته من حق.

وأكدوا علمه بما يريدون بعد ذلك.

٦ ـ ثم إن قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يحتمل عدة معان:

منها: أن (ما) اسم موصول فيكون المعنى: إنك تعلم الذي نريده، وحذف العائد.

ومنها: أن تكون (ما) مصدرية فيكون المعنى: وإنك لتعلم إرادتنا.

ويحتمل أيضًا أن تكون (ما) استفهامية فيكون المعنى: وإنك لتعلم ما الذي نريده.

وهذه المعاني كلها محتملة:

فهو يعلم الذي يريدونه، ويعلم إرادتهم. ويعلم أي شيء يريدون.

ولو قال: (لتعلم ما نريده) لانتفى احتمال المصدرية.

ولو قال (لتعلم الذي نريده) لانتفى احتمال الاستفهامية والمصدرية.

ولو قال: (لتعلم ماذا نريد) لتعينت الاستفهامية وانتفى احتمال ما عداها.

وجاء بهذا التعبير ليحتمل كل المعاني ، وهي كلها مرادة ومطلوبة ، فهو يعلم إرادتهم على العموم ، ويعلم الذي يريدونه في مجيئهم هذا ، ويعلم ما الذي يريدونه.

قد تقول: ولكن لا يتبين وجه الاختلاف في المعنى من كل تعبير ، فهو في النتيجة يدل على أمر واحد وهو أنه يعلم غرضهم.

فنقول: نعم إنه يعلم غرضهم ولكن لكل تعبير معنى خاص به.

فقولك: إنك تعلم إرادتنا ، معناه أنك تعلم رغبتنا في أي شيء تكون ، فهو يعلم إرادتهم مطلقًا سواء في هؤلاء أم في غيرهم ، وسواء كان هناك ما يحقق الرغبة أم لا.

وقولك: إنك تعلم الذي أريد ، يدل على أمر معين يطلبه.

فـ (الذي) اسم موصول معرفة ، والمعرفة ما دل على شيء معين.

وأما قولك: إنك تعلم ماذا أريد ، فمعناه أنك تعلم أي شيء أريده على وجه العموم.

فالمصدر يدل على العلم بالحدث ، والاسم الموصول يدل على شيء معين ، والاستفهام يدل على عموم ما يريد ، فهو يدل على علمه بجواب الاستفهام.

ومن الملاحظ أنه قدم ههنا عرض بناته على قومه قبل ذكر الضيف فقال: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ ﴾ فذكر البنات ثم ذكر الضيف بعد ذلك.

وقدم في الحجر ذكر الضيف قبل عرض البنات قائلاً: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [الحجر: ٦٨ ـ ٧١].

ذلك أنه في هود لم يجر حديث مع الضيف ولا حوار قبل مجيء القوم ، وإنما كان الكلام مع أهل المدينة في غيبة الضيف ، فلم يجر مع الضيف حديث بعد ، فحاول الدفع ببناته.

وأما في الحجر فإنه كان له حديث مع الضيف قبل مجيء قومه ، فقد قال لضيفه: ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الحجر: ٦٢ - ٦٤] فكان مع ضيفه حديث ومحاورة ، فلما جاء أهل المدينة أشار إلى ضيفه: ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ [الحجر: ٦٨ ـ ٦٩].

فلما كان الحديث مع الضيف ناسب تقديمهم والإشارة إليهم في الحجر.

ولما لم يكن مع ضيفه كلام في هود بل لا يزال الحديث مع قومه والضيف غائبون لم يشر إليهم لأنهم غير حاضرين ، فقدم عرض بناته أولاً.

فناسب كل موضعه.

* * *

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠]

أي لو أن لي طاقة فأمنعكم «يقال: ما لي به قوة وما لي به طاقة. ونحوه ﴿ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ وما لي به يدان ؛ لأنه في معنى: لا أضطلع به ولا أستقل به.

والمعنى: لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم. فشبه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته. ولذلك قالت الملائكة وقد وجدت عليه: إن ركنك لشديد.

وقال النبي ﷺ «رحم الله أخي لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد» (١).

قال ذلك سيدنا لوط على سبيل التفجع والتمني.

فهو تمنى أن يكون له قوة في نفسه أو يكون له من يأوي إليه فيستعين به على دفعهم.

جاء في (تفسير الرازي): «واعلم أن قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ لا بد من حمل كل واحد من هذين الكلامين على فائدة مستقلة، وفيه وجوه:

الأول: المراد بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ كونه بنفسه قادرًا على الدفع، وكونه متمكنًا إما بنفسه وإما بمعاونة غيره على قهرهم وتأديبهم.

الثاني: والمراد بقوله: ﴿أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ هو أن لا يكون له قدرة على الدفع لكنه يقدر على التحصن بحصن ليأمن من شرهم بواسطته.

الثالث: أنه لما شاهد سفاهة القوم وإقدامهم على سوء الأدب تمنى حصول قوة قوية على الدفع، ثم استدرك على نفسه وقال: بل الأولى أن آوي إلى ركن شديد وهو الاعتصام بعناية الله تعالى» (٢).

ويحتمل أن تكون (لو) شرطية وفيها معنى التمني حذف جوابها ليذهب الذهن كل مذهب فيما سيفعله لردعهم، نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] أي لرأيت شيئًا مهولاً لا يُقدر على وصفه.

جاء في (الكشاف): «جواب (لو) محذوف كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٨.

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٨٠.



قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت»[(١)].

وجاء في (تفسير الرازي): «وحذف الجواب ههنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع»[(٢)].

وجاء بـ (لو) ولم يأت بـ (ليت) فيقول: (ليت لي بكم قوة) ليشمل معنيي التمني والشرط إضافة إلى حذف الجواب للعموم.

* * *

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ [هود: ٨١]

نادوه باسمه ليعلموه أنهم يعرفونه فيستمع إليهم. ثم أمنوه بقولهم: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ وأضاف الرب على ضمير المخاطب ليدل على أنه ربه القيم على أمره والمتولي أمره هو الذي أرسلهم إليه فيكون أدعى إلى تطمينه.

والرسول إنما يرسل ليبلغ رسالة فطمأنوه بقولهم: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾.

وجاء بـ (لن) المؤكدة الدالة على الاستقبال ليدل على أنهم لا يستطيعون أن يؤذوه في المستقبل إضافة إلى الحال فليطمئن.

وقال: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ ولم يقل: (لن يؤذوك) ذلك أنه نفى الوصول فانتفى الأذى من باب أولى.

فإنه لو قال: (لن يؤذوك) لاحتمل الوصول إليه من غير أذى فيناله منهم إزعاج وانقباض نفس.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٨.

(٢) تفسير الرازي ٦/ ٣٨٠.

ولكن نفى ما هو أبعد من ذلك ، فنفى الوصول إليه فانتفى الأذى. ثم أبلغوه رسالة ربه بقولهم: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ والقِطْع من الليل: الطائفة منه ، أو بقطعة منه[١] أي لا تتأخر إلى الصبح.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾

الهاء ضمير الشأن وهي تفيد تعظيم ما سيصيبهم وتهويله.

و(مصيبها) خبر مقدم وليس مبتدأ ، ذلك لأن الإضافة غير محضة. فإن اسم الفاعل ههنا للاستقبال فهو نكرة.

و(ما أصابهم) معرفة فهو مبتدأ مؤخر. وقدم الخبر المتصل بضمير المرأة لأن الكلام عليها والاهتمام بذكر عاقبتها.

وقال: ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾ فجاء بالاسم الموصول (ما) الدال على العموم والإبهام للدلالة على عظم ما سيصيبهم.

وقال: ﴿مُصِيبُهَا﴾ ولم يقل: (يصيبها) للدلالة على ثبات ذلك وتحققه.

وقال: ﴿أَصَابَهُمْ﴾ بالفعل الماضي ولم يقل: (يصيبهم) وذلك للدلالة على تحقق الوقوع.

فانظر كيف أكد بإن وجاء بضمير الشأن ، وعدل عن الفعل إلى الاسم في (مصيبها) ، وقدم الخبر ، وجاء بـ (ما) الدالة على الإبهام ، وعدل عن الفعل المضارع إلىٰ الماضي في (أصابهم) للدلالة على عظم ما سيحل بهم وتحققه.

جاء في (روح المعاني): «وضمير (إِنَّه) للشأن ، و(ما أصابهم) مبتدأ، و(مصيبها) خبره، والجملة خبر إن. . . والمراد من (ما) العذاب، ومن (أصابهم) يصيبهم ، والتعبير به دونه للإيذان بتحقيق الوقوع. وفي

---

(١) انظر البحر المحيط ٥/ ٢٤٨.

الإبهام ، واسمية الجملة ، والتأكيد ، ما لا يخفى» [(١)] .

* * *

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾

أي موعد هلاكهم[(٢)] . وقدم الموعد لأنه هو المقصود والمطلوب لسيدنا لوط .

وقوله : ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ يشعر باستطالة سيدنا لوط للوقت وكأنه يريد أسرع من ذلك .

وهذا بين مقدار مساءته وضيق ذرعه ومقدار برمه بقومه .

«ويروى أن لوطاً عليه السلام قال : أريد أسرع من ذلك ، فقالت له الملائكة : أليس الصبح بقريب» [(٣)] .

وفي المجيء بالاستفهام التقريري وزيادة الباء في خبر (ليس) دون القول (إن الصبح لقريب) أو نحو ذاك ما لا يخفى .

وعلى أية حال هو يدل كما ذكرنا على مقدار برمه وضيق ذرعه .

* * *

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود : ٨٢]

جاء بالفاء للدلالة على القرب ذلك أن موعدهم الصبح وهو قريب من وقت إخبارهم له .

و(الأمر) يحتمل واحد الأوامر أي الأمر بالعذاب ، بمعنى أمرناهم

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١١٢ .

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٤٩ .

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٤٩ .

بذاك. كما يحتمل واحد الأمور بمعنى الشأن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقوله: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التوبة: ٤٨].

جاء في (روح المعاني): «﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا، أو الأمر به.

فالأمر على الأول: واحد الأمور، وعلى الثاني: واحد الأوامر» (١).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل في (السجيل) إنها كلمة معربة من سنككل ومعناها حجر وطين مختلط (٢)، وقيل: ماء وطين (٣).

ولعل لفظ (السِّجّيل) مأخوذ من (السِّجْل) بكسر السين وسكون الجيم بمعنى الصلب الشديد (٤).

و(السَّجيل) بفتح السين: الصلب الشديد، والسِّجّيل: حجارة كالمدر (٥). وقال أبو عبيدة هو: «الشديد من الحجارة الصلب» (٦).

و(منضود)

متتابع أرسل بعضه إثر بعض (٧) كقطار الأمطار (٨).

وذكر هنا وفي الحجر أن الحجارة من سجيل ولم يقل كما قال في الذاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] وذلك لأنه ذكر من

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١١٢.
(٢) مفردات الراغب (السجيل)، وانظر الكشاف ٢/ ١٠٩.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٤٩.
(٤) انظر القاموس المحيط (السجل).
(٥) لسان لعرب (سجل).
(٦) البحر المحيط ٥/ ٢٤٩، وانظر روح المعاني ١٢/ ١١٣.
(٧) انظر الكشاف ٢/ ١٠٩.
(٨) روح المعاني ١٢/ ١١٣.

معاصيهم ومواقفهم في هود والحجر ما لم يذكره في الذاريات ، فجاء بما يدل على شدة هذه الحجارة وصلابتها في السورتين دون الذاريات .

فكان كل تعبير مناسبًا لموضعه .

وذكر في (هود) أنه منضود أي متتابع ، ولم يذكر ذلك في الحجر ، وذلك لأنه قال في هود: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] ولم يقل مثل ذلك في الحجر .

فلما زاد في وصف الحجارة في هود فقال: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ. . .﴾ زاد في الوصف فقال: (منضود) .

ثم إنه لما قال إن مثلها يمكن أن يكون للظالمين على وجه العموم وليس ذلك مختصًّا بقوم لوط جاء بـ (منضود) للدلالة على الكثرة . والمنضود هو الذي نضد بعضه فوق بعض ، أي تتابع ، فناسب ذكر ذلك في هود .

* * *

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

مسوّمة ، أي عليها سيما ، وهي العلامة يعلم من شاهدها أنها ليست من حجارة الأرض[١] .

﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ .

«أي الحجارة الموصوفة بما ذكر .

(من الظالمين) من كل ظالم .

(ببعيد) فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها . وفيه وعيد لأهل الظلم كافة»[٢] .

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٥٠ ، وانظر روح المعاني ١٢/ ١١٣ .

(٢) روح المعاني ١٢/ ١١٤ .

وقال: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ولم يقل: (وليست من الظالمين بعيدًا) أو (ببعيد) فجاء بالجملة الاسمية المنفية بـ (ما) وزاد الباء في الخبر لتوكيد عدم بعدها عنهم.

وقال: (ببعيد) ولم يقل: (ببعيدة) لأنه لا يريد البعد في المكان بل أراد البعد في الوقوع.

وقدم الجار والمجرور (من الظالمين) على متعلقه (بعيد) وذلك لأن الكلام على الظالمين وهم مدار الحديث، والعقوبة إنما كانت لهم.

وقد تقول: أليس من الأولى لو قال: (وليست هي من الظالمين ببعيد) فيؤكد الضمير المستتر في (ليست) فيفيد ذلك زيادة في التوكيد؟

فنقول: لا، وذلك لعدة أوجه:

منها: أن ذلك لا يخرجها عن كونها جملة فعلية، والاسمية أثبت من الفعلية وآكد.

ومنها: أن النفي بـ (ما) أقوى وآكد من النفي بـ (ليس) [1].

والأمر الآخر: أنه لو قال: (وليست هي من الظالمين ببعيد) لاحتمل أنه يفيد اختصاص عدم البعد بهذه العقوبة دون غيرها، أما غيرها من العقوبات فقد يكون بعيدًا منهم.

وهذا المعنى غير مراد ولا يصح.

أما في الآية فإنه ذكر عدم بعد أمثال هذه العقوبة من الظالمين ولم يخصها بالبعد بل قد يعاقبهم بغيرها.

* * *

---

(١) انظر معاني النحو ٤/٥٦٨.

قصة مدين وشعيب



قال تعالى :

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ
يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن
نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ
ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ
إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ
أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟
رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا
تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى

دِيَـٰرِهِمۡ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

* * *

وردت هذه القصة في الأعراف وهود، ووردت لها إشارة قصيرة في العنكبوت مقدارها آيتان. قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَـٰثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦ - ٣٧].

إن ما ورد في هاتين الآيتين إنما هو تلخيص لما مَرَّ من قصة شعيب مع مدين.

فقد ذكر دعوته لهم ملخصة بقوله: ﴿يَـٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

فذكر ما يتعلق بالعقيدة وهو قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾

وذكر سلوكهم في الأرض وهو قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

ثم ذكر موقفهم وعاقبتهم بأوجز تعبير وذلك قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَـٰثِمِينَ﴾.

لقد ذكرنا ما ورد من هذه القصة في سورتي الأعراف وهود والتشابه والاختلاف فيها في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) فلا نعيد القول فيها.

غير أننا سنذكر إشارات بيانية قليلة في هذه السورة مما لم نذكره في ذلك الموضع.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ



بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٤ - ٨٦]

لقد قال أولاً: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ﴾ فنهاهم عن النقص فيهما ، ثم قال بعد ذلك: ﴿أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ فأمرهم بالإيفاء. قيل: ومن المعلوم أن عدم النقص يعني الإيفاء ، فكان الأمر بالإيفاء كالتكرار لما سبق.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: (أوفوا)؟

قلت: نُهوا أولاً عن القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ؛ لأن في التصريح بالقبيح نعيًا على المنهي وتعبيرًا له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحًا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه» (١).

ويمكن أن يقال: إنه بدأ بالنهي عن النقص في المكيال والميزان لأن ذلك أسبق من الإيفاء ، فإنه لا بد أن يكون حجم المكيال وما يتعلق بالميزان سالمًا من النقص حتى يكون الإيفاء بالقسط ، فإن لم يكونا سليمين فلا يكون إيفاء بالقسط ، فنهى عن نقص المكيال والميزان أولاً ثم أمر بالإيفاء بالقسط بعدهما فلا يكون تكرارًا ، وإنما قدم السبب على المسبب.

وقد يكون ذلك لتعظيم هذا الأمر فيكون ذلك كالتوكيد وذلك نحو قوله: (أقول له ارحل لا تقيمن عندنا) فقوله: (لا تقيمن عندنا) بمعنى ارحل.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٩ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٢.

ونحو قولك: (امش لا تقف) و(استيقظ لا تنم) وذلك غير عزيز في اللغة. وهو من الحسن بمكان إذا اقتضاه الحال.

وأما تقييده بالقسط وهو العدل فلإعطاء كل ذي نصيب نصيبه من دون بخس، واختيار (القسط) ههنا أنسب من العدل؛ وذلك لأن من معاني القسط: الحصة والنصيب.

والغرض من الكيل والوزن أن يأخذ الشخص نصيبه، فناسب ذلك ذكر القسط.

هذا إضافة إلى أنه لم يذكر مع الوزن في القرآن غير القسط، وهو أنسب.

﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾.

أي إنكم في سعة من العيش ورخص في الأسعار فلماذا تلجأون إلى نقص المكيال والميزان، فاستديموا هذا الخير بإعطاء كل ذي حق حقه حتى لا يزول عنكم ما أنتم فيه من الخير.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾: «يريد بثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف أو أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه» (١).

وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ ولم يقل: (وإنكم بخير) فجعل خيرهم ظاهرًا للعيان يبدو للرائي وليس أمرًا مستورًا كمن يخفي ما عنده من الخير.

﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾.

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٩، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٦، روح المعاني ١٢/ ١١٤.

وصف اليوم بالإحاطة ولم يقل (إني أخاف عليكم عذابًا محيطًا) فجعل اليوم محيطًا بهم لا ينفك عنهم ساعة ، وذلك أبلغ وأعم. ولو قال: (إني أخاف عليكم عذابًا محيطًا) لجعل العذاب محيطًا بهم وقد يكون ذلك في ساعة من ساعات اليوم أو وقت من أوقاته ، فجعل العذاب شاملاً طوال اليوم.

جاء في (الكشاف): «وأصله من إحاطة العدو.

فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها؟

قلت: بل وصف اليوم بها ؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه» (١).

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

جاء ذلك بعد قوله: ﴿ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾. وهو أعم من إيفاء المكيال والميزان ، فإن البخس قد يكون في غير ما يكال وما يوزن من نحو الاستئجار والتأجير وبيع أو شراء ما لا يكال أو يوزن كالبساتين والدور وعموم الأملاك وعموم ما يشترى أو يباع ، وتقويم البضائع وغيرها من الأمور. قال تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف: ٢٠].

وقال في كتابة الدَّين: ﴿ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال في توفية الأعمال: ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود: ١٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ١٠٩ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٢.

جاء في (روح المعاني): «﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ يحتمل أن يكون تعميمًا بعد تخصيص، فإنه يشتمل الجودة والرداءة، وغير المكيل والموزون أيضًا. فهو تذييل وتتميم لما تقدم»[(١)].

* * *

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

وهو أعم من البخس في الحقوق، فإنه يعم جميع مصالح العباد وعموم العدوان على خلق الله والإفساد في الأرض.

جاء في (الكشاف): «والعثي في الأرض نحو السرقة والغارة وقطع السبيل»[(٢)].

وجاء في (روح المعاني) أن «العثي يعم تنقيص الحقوق وغيره؛ لأنه عبارة عن مطلق الفساد»[(٣)].

وجاء في (تفسير الرازي): «﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ معناه ولا تسعوا في إفساد مصالح الغير، فإن ذلك في الحقيقة سعي منكم في إفساد مصالح أنفسكم.

والثاني: أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ مصالح دنياكم وآخرتكم.

والثالث: ولا تعثوا في الأرض مفسدين مصالح الأديان»[(٤)].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١١٦.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٠.

(٣) روح المعاني ١٢/ ١١٦.

(٤) تفسير الرازي ٦/ ٣٨٦.

فتدرج من الخصوص إلى العموم ، ومن السيء إلى الأسوأ ، ومن الكبيرة إلى ما هو أكبر .

فبدأ بالنقص في المكيال والميزان ، ثم تدرج إلى البخس وهو أعم لأنه يكون في المكيال والميزان وغيرهما ، ثم تدرج إلى ما هو أعم وأعظم وهو العثي في الأرض إفسادًا .

فبدأ بنقص الحقوق وانتهى بالعدوان والإفساد .

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أي ما يبقيه الله لكم من الرزق الحلال خير لكم إن كنتم مؤمنين .

وإضافة البقية إلى الله من حيث إنها رزقه[1] .

* * *

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧]

أنكروا عليه أمرين بمقابل دعوته لهم إلى أمرين .

فقد قال لهم : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾

فقالوا له : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ ؟

وقال لهم : ﴿ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ ﴾ ، ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

فقالوا له : ﴿ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ ﴾

أي أصلاتك تأمرك أن نترك فعل ما نشاء في أموالنا؟!

وذكروا له صفتين فيه : الحليم الرشيد .

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١١٠ ، البحر المحيط ٥/ ٢٥٢ ، تفسير الرازي ٦/ ٣٨٦ .



فدعاهم إلى أمرين ، وردوا عليه بأمرين ، ووصفوه بصفتين.

وقولهم: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾

الظاهر أنه من باب الاستهزاء والتهكم.

أي إنك معروف بالحلم والرشد فكيف تقول ذاك؟!

وتعريف الوصفين للدلالة على أنه معروف بهاتين الخلتين ، أي إنك المعروف بهاتين الخصلتين ، ذكروا ذلك تهكمًا أو حقيقة.

وجاء بضمير الفصل والتوكيد بإن واللام وتعريف الوصفين ليدل على قصر الحلم والرشد عليه دون غيره استهزاء ، فإنه لم يقل بمقالته أحد من قومه غيره.

* * *

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]

قوله: ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ مَرَّ بيان ذلك في قصة نوح.

﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾.

أي رزقًا واسعًا حلالاً ولا أبخس حقًّا.

ولست فقيرًا حتى تقولوا إنه يبتغي المال والسعة في المكيال والميزان.

وقيل: هو ما رزقه من النبوة والحكمة(١).

ولا مانع أن يكون ذلك جميعًا في النبوة واليسر في المال.

* * *

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١١١.

﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾

«يقال: (خالفني فلان إلى كذا) إذا قصده وأنت مولٍّ عنه، (وخالفني عنه) إذا ولى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرجل صادرًا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول: (خالفني إلى الماء) يريد أنه قد ذهب إليه واردًا وأنا ذاهب عنه صادرًا. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ يعني أن أسبقكم إلى شهواتكم التي نهيتكم عنها لأستبدّ بها دونكم»[(١)].

* * *

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ﴾

أي مدة استطاعتي ذلك فلا أقصر في ذلك ما دمت متمكنًا.

ونفى وأثبت بـ (إنْ) و(إلا) للدلالة على قصر إرادته على ذلك، فإنه لم يقل: (وأنا أريد الإصلاح) فلا ينفي ذلك إرادة شيء معه، وإنما قال: ﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ﴾ فقصر إرادته على ذلك وليس ثمة شيء آخر.

ونفى بـ (إنْ) ولم ينف بـ (ما)؛ لأن (إنْ) أقوى من (ما) في النفي وآكد[(٢)].

﴿ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾

قدم الجار والمجرور في الموضعين للدلالة على الحصر، فإنه لا يتوكل إلا عليه حصرًا، ولا ينيب إلا إليه حصرًا. فلا يتوكل على غيره ولا ينيب إلى أحد سواه.

* * *

---

(١) الكشاف ٢/ ١١١، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٤.

(٢) انظر معاني النحو ٤/ ٥٧٦.



﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ [هود: ٨٩]

أي لا يحملكم خلافي وعداوتي على أن يصيبكم مثل ما أصاب الأقوام الآخرين من الدمار والهلاك.

﴿ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ «يعني أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم، فهم أقرب الهالكين منكم. أولا يبعدون منكم في الكفر والمساوئ وما يستحق به الهلاك» (١).

وقال: ﴿ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴾ ولم يقل: (ببعيدين) لأنه أراد «ما إهلاكهم ببعيد أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد» (٢).

* * *

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾ [هود: ٩٠]

مَرَّ بيان نحو هذا في أول السورة.

وقال أولاً: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ بإضافة الرب إلى ضميرهم، وقال فيما بعد: ﴿ إِنَّ رَبِّي ﴾ بإضافته إلى ضميره ليبين أن ربه وربهم واحد، وأن عليهم أن لا يعبدوا إلا ربه وربهم ويتوبون إليه فليس لهم رب غيره.

* * *

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود: ٩١]

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ قدم الجار والمجرور ليبين انتفاء عزته عليهم

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٢.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٢، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٥٥.

بصورة خاصة ، وقد يكون عزيزًا على غيرهم ممن آمن به وعزيزًا عند رهطه .

فدل ذلك على نفي العزة عليهم وإثباتها على غيرهم وهم رهطه ومن آمن به . وأوضح ذلك قولهم : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ومعنى ذلك أنه عزيز عند رهطه .

ولو قال : (وما أنت بعزيز علينا) لنفى عزته عندهم ولم يثبتها عند غيرهم .

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾ ولم يقل : (أعز عليكم مني) لأن الله هو الذي أرسله فعزته من عزة مرسله . فإن الرسول عزته إنما هي من عزة من أرسله ، فكلما كان المرسِل عزيزًا كان رسوله كذلك .

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

قال : (إن ربي) بإضافة الرب إليه لأنه سيده والقيم عليه . ولم يقل : (ربكم) وإنما أضاف الرب إليه ليدل على عزته .

وقدم الجار والمجرور (بما تعملون) على خبر إن (محيط) ؛ وذلك لأن الكلام على عملهم وقد مَرَّ ذكر الكثير من أعمالهم .

فإنه سبق هذه الآية ذكر العمل ، وجاء بعدها ذكر العمل فقال : ﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ .

فناسب تقديم قوله : (بما تعملون) .

* * *

﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود : ٩٣]

معنى قوله : ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي داوموا على ما أنتم عليه من

الكفر فسوف تعلمون عاقبتكم وترون جزاء إصراركم.

وهو تهديد لهم.

ومعنى قوله: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أي أنا مداوم على عملي مستمر على ذلك من الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته.

* * *

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾

قال هنا: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

وقال في قصة نوح في هذه السورة: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ بإدخال الفاء على (سوف).

والذي يظهر أن إدخال الفاء هنا آكد من عدم ذكرها، فقد يفيد إدخال الفاء التوكيد في مواضع[(١)].

والذي يؤيد ذلك ما جاء في الآيتين:

١ ـ فقد قال في قصة نوح: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩].

وقال في قصة شعيب هذه: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾.

فزاد في قصة نوح ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ولم يقل مثل ذلك في قصة شعيب.

---

(١) انظر معاني النحو ٤/٤٨٧ وما بعدها (باب الشرط)، وانظر حاشية الدسوقي ١/١٧٧.

٢ ـ إن ربنا قال لسيدنا نوح : ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ .

ولم يقل مثل ذلك في قصة شعيب .

٣ ـ إن ربنا أخبر نوحًا بتعجيل عقوبة قومه وطلب منه أن يصنع الفلك . ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود : ٣٧] .

ولم يخبر شعيبًا بنهاية قومه .

٤ ـ إن هذا القول قاله سيدنا نوح وهو يصنع الفلك ، وذلك يدل على قرب نهاية القوم وعقوبتهم .

كل ذلك يدل على توكيد نهاية القوم في قصة نوح ودنو ساعة النجاة .

ولست أدري فلعل إدخال الفاء على (سوف) يدل على أن مجيء العذاب لقوم نوح أقرب من مجيئه لقوم شعيب وإن كانا جميعًا في المستقبل ، فإن الفاء قد تفيد التعقيب .

إن (سوف) في كلا الموضعين تفيد الاستقبال ، غير أن دنو العذاب من قوم نوح أقرب . ولعل إدخال الفاء إشارة إلى ذلك ، علاوة على ما ذكرنا من التوكيد والله أعلم .

* * *

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ [هود : ٩٤]

قال ههنا : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ بإدخال الواو على (لما) .

وقال في قصة صالح : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ بالفاء .



وذلك أن مجيء العذاب في قصة صالح أقرب ، ذلك أنه توعدهم أن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام ، فقد قال لهم :

﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]

فكان العذاب لقوم صالح أقرب من قوم شعيب ، فجاء بالفاء الدالة على التعقيب .

وأما بقية الآية وما بعدها وهو قوله : ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ ﴾ [هود: ٩٤ ـ ٩٥] فقد مرَّ بيان ذلك في قصة صالح .

وقوله : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ شبه فيه هلاكهم بهلاك ثمود «وإنما شبه هلاكهم بهلاكهم لأن عذاب كل كان بالصيحة» [1] .

* * *

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٢٩ .



قصة موسى

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٦ ـ ٩٩]

ذكر في سورة هود من قصة موسى وفرعون العاقبة التي تلي العاقبة الأولى وهي غرق فرعون وجنوده. وهو ما ورد في سورة البقرة والأعراف ويونس.

فقد ورد في البقرة والأعراف ويونس غرق فرعون وجنوده في اليم.

وأما في سورة هود فقد ذكر أمرهم في الآخرة.

قال في البقرة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وقال في الأعراف: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال في يونس: ﴿۞ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

لقد ذكر ربنا أنه أرسل موسى بآياته وسلطان مبين.

والآيات هي الآيات الدالة على نبوته من قلب العصا حية ونحوها من المعجزات، ومما قيل في السلطان المبين أنه الحجج التي حاجّ بها فرعون وملأه[1]، وهي سلطان قاهر.

وكل من الآيات والسلطان ملزم لمن أراد الحق والحقيقة.

وقد وصف السلطان بأنه مبين، أي ظاهر الدلالة ليس فيه غموض ولا شك. غير أن الملأ اتبعوا أمر فرعون ولم ينصاعوا للحق مع أن أمر فرعون كله غي وضلال.

وكما اتبعوا أمر فرعون في الدنيا فأغرقهم قادهم في الآخرة إلى النار فأحرقهم.

١ ـ لقد قال: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ ولم يقل: (فتبعوا أمر فرعون) وذلك للمبالغة في اتباعهم لأمر فرعون.

ومن المعلوم أن (اتبع) يفيد المبالغة في الاتباع، بخلاف (تبع)، ذلك أن (افتعل) يفيد المبالغة والاجتهاد والتكثير.

٢ ـ وقال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فنفى بـ (ما)، وأدخلها على الجملة الإسمية، وأكد الخبر بالباء، وكل ذلك يفيد المبالغة والتأكيد في نفي الرشد عن فرعون وأمره.

فهو لم يقل: (وليس أمر فرعون رشيدًا أو برشيد) فتكون الجملة فعلية دالة على الحدوث.

ولم يقل: (وما أمر فرعون رشيدًا) من غير توكيد للخبر.

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٣٥.

وإنما قال: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فنفى الرشد عن أمر فرعون على وجه الثبوت والدوام، وأكد ذلك بالباء الزائدة.

٣ ـ معنى قوله: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ أي يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه[1]. فكما اتبعوا أمره في الدنيا اتبعوه في الآخرة فقادهم إلى النار، «وكما كان قدوة في الضلال متبعًا كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه»[2].

٤ ـ قال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ بالماضي، ولم يقل: (فيوردهم) مع أن الحدث مستقبل، وذلك للدلالة على أن الأمر كائن لا محالة، وهو بمنزلة الماضي الذي حصل.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هَلاَّ قيل: يقدم قومه فيوردهم، ولم جيء بلفظ الماضي؟

قلت: لأن الماضي يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة»[3].

٥ ـ قال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ ولم يقل: (فوردوا النار) أي أن فرعون هو الذي أوردهم إياها.

كما لم يقل: (فأوردناهم النار) بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه، بل إن فرعون هو الذي تقدمهم حتى أوردهم النار.

ولم يقل أيضًا: (أوصلهم إلى النار) إذ ربما دل ذلك على الوصول دون الدخول، وإنما قال: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ أي أدخلهم إياها.

٦ ـ قال: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ والمورود هي النار، و(الورد):

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١١٤.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٢٥٩.

(٣) الكشاف ٢/ ١١٤.

المورد، أي بئس ما وردوه وهو النار.

واختار الورد «لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد» (١) فكانت النار موردهم.

واختار لفظ (الورد) على (المكان) أو نحوه ليدل على أنهم عطاش، وإنما يذهب إلى الورد العطشان.

فأوصلهم فارطهم ومتقدمهم إلى النار ليسكنوا عطشهم ويبعدوا عنهم الظمأ فيا بئس ما وردوا.

٧ ـ قال هنا: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وقال في السورة نفسها في قصة عاد: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [هود: ٦٠] فذكر (الدنيا) بعد (هذه).

وقد ذكرنا سبب ذلك في قصة عاد.

٨ ـ قال هنا: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ ببناء الفعل (أُتبعوا) للمجهول.

وقال في سورة القصص: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص: ٤٢] بالبناء للفاعل، بإسناد الفعل إلى نفسه سبحانه، وذلك لأكثر من سبب منها:

أ ـ أن القصة في سورة القصص أطول مما في هود، فإنها في هود أربع آيات من (٩٦ إلى ٩٩).

وأما في القصص فإنها إحدى وأربعون آية (من ٣ إلى ٤٣).

وأن (أتبعناهم) أطول من (أتبعوا) فناسب طول البناء طول القصة.

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٤.

ب ـ ذكر من تكذيب فرعون وأتباعه ومعاندتهم في القصص ما لم يذكره في هود ، وذكر استكباره واستكبار جنوده في الأرض بغير الحق ، فناسب أن يتولى ربنا إهلاك هؤلاء الظلمة المستكبرين .

ج ـ ذكر في القصص أن فرعون ادّعى أنه هو الإله الوحيد وليس من يذكره موسى فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [القصص : ٣٨] .

فناسب أن يعاقب الإله الحق هذا الإله المدعي ، فأظهر نفسه ليذله ويتبين من منهما الإله الحق؟

د ـ جرى إسناد العقوبات في سورة القصص إلى الله ليبين أنها من الإله الحق فقال : ﴿ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [القصص : ٤٠] ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص : ٤١] .

فناسب أن يقول : ﴿ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ بالإسناد إليه سبحانه .

وليس السياق كذلك في هود .

فناسب كل تعبير موضعه .

٩ ـ قال : ﴿ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾

والرِّفد هو العطاء والعون .

والمرفود : المعطى .

أي بئس العطاء الذي أُعطوه ، وبئس العون الذي أعينوا به .

وقد اختار الرفد على العطاء لأن الرفد له معنيان : العطاء والعون . وملأ فرعون إنما اتبعوه ليعطيهم ويعينهم فكان لهم الإغراق في الدنيا ،



والنار في الآخرة، واللعنة في الدنيا والآخرة.

جاء في (الكشاف): «﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ رفدهم، أي بئس العون المعان، وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة في الآخرة. وقيل: بئس العطاء المعطى»[(١)].

* * *

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠١]

شبه ما بقي من القرى «بالزرع القائم على ساقه، وما عفا وبطل بالحصيد»[(٢)].

و(الحصيد) فعيل بمعنى (مفعول) أي محصود، وهو أبلغ من (مفعول)، فالجريح أبلغ من مجروح وأعم. فصيغة (فعيل) بمعنى (مفعول) لا تقال إلا لمن اتصف بالوصف ووقع عليه الفعل، ولا يقال لمن لم يقع عليه الفعل[(٣)]، فلا يقال لمن لم يقتل: (قتيل) ولا لمن لم يجرح: (جريح)، بخلاف (مفعول) فإنها تقال لمن وقع عليه الفعل ولمن لم يقع عليه الفعل، وإنما هو متوقع وقوعه، فقد تقول لشخص: (أراك مقتولاً في هذه الرحلة) أي ستقتل. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وهو يوم القيامة ولم يقع بعد، فاستعمل (مجموع) و(مشهود) بمعنى أنه سيجمع فيه الناس ويشهدونه.

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٤.

(٢) روح المعاني ١٢/ ١٣٨.

(٣) انظر (معاني الأبنية في العربية) ص ٦٠ وما بعدها.

وقال: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ ولم يقل: (ومنها هالك أو عافٍ) أو نحو ذلك، وإنما قال: (حصيد) أي حصده حاصد، بمعنى أن هناك ذاتًا حصدت هذه القرى كما يحصد الزرع، وهو ربنا سبحانه الذي أهلكها لأنها عصت أمر ربها وكذبت رسله.

وقال: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ والمعنى (منها قائم ومنها حصيد) أي بعضها قائم وبعضها حصيد. وحذف (منها) الثانية لأنها معلومة ظاهرة المعنى.

* * *

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١]

في هذه الآية أمور بيانية دقيقة نذكر منها:

١ ـ أنه قال: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾ ولم يقل: (فلم تغن) ذلك أن النفي بـ (ما) آكد؛ لأنه جواب لـ (لقد) [1].

و(لقد) جواب قسم مقدر، ويدل على ذلك الاستعمال القرآني في نحو هذا الاستعمال، فقد قال أصحاب الأعراف في الآخرة لأهل النار: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] فنفى بـ (ما) وذلك لشدة الأمر وفظاعته.

وقال في هلاك أصحاب الحجر: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٣ ـ ٨٤].

وقال الذي أوتي كتابه بشماله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨] فنفى كل ذلك بـ (ما).

---

(١) انظر (معاني النحو) ٤/ ٥٧٠ وما بعدها.

في حين قال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

فنفى عدم الإغناء بـ (لم) ؛ ذلك لأنه عدم إغناء موقوت بالمعركة ، ثم إن هؤلاء مسلمون وقد انتصروا فيما بعد.

فنفى عدم الإغناء الشديد البالغ بـ (ما)، والذي هو دونه نفاه بـ (لم).

٢ ـ قال: ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ﴾ ولم يقل: (اللاتي) وذلك للدلالة على الكثرة ، فإن الوصف لغير العاقل بالمفرد يدل على الكثرة ، فقولك: (أنهار جارية) يدل على كثرة الأنهار ، وهي أكثر من (أنهار جاريات). ونحوه (أشجار مثمرات) و(أشجار مثمرة).

جاء في (روح المعاني): «قيل... إن (التي) في جمع غير عالم أكثرمن (اللاتي)»[(١)].

فهذه الآلهة على كثرتها لم تغن عنهم شيئًا. ثم إن هذه قيلت في أمم متعددة ولكل منها آلهة ، فاختار (التي) لتدل على الكثرة في نحو هذا.

٣ ـ وقال: (يدعون) بالفعل المضارع وذلك «لحكاية الحال الماضية أو للدلالة على استمرار عبادتهم لها»[(٢)].

٤ ـ وقال: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ فجاء بـ (من) المؤكدة الدالة على الاستغراق، أي لم تغن أي شيء ، على سبيل الاستغراق.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يحتمل أن يكون المعنى نفي أي شيء من الإغناء أو أي شيء من الأشياء[(٣)].

---

(١) روح المعاني ١٢/١٣٨.
(٢) روح المعاني ١٢/١٣٩.
(٣) انظر روح المعاني ١٢/١٣٩.

٥ ـ قال: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي تخسير ، فنفى بـ (ما) ولم ينف بـ (لم) ، فلم يقل: (ولم يزيدوهم) وذلك للتأكيد كما ذكرنا في نقطة سابقة.

ألا ترى أنه قال في آية أخرى على لسان سيدنا نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٦].

فنفى بـ (لم) فقال: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ﴾ دون (ما) ؛ وذلك لأن هذه الزيادة دون ما ذكره في سورة هود.

فقد قال في سورة نوح إن دعاءه زادهم فرارًا.

وما ذكره في سورة هود أن آلهتهم زادتهم هلاكًا وتخسيرًا.

ولا شك أن الزيادة في هود كانت أشد وأفظع فنفى بـ (ما).

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾

والتتبيب هو التخسير ، غير أنه لم يقل: (وما زادوهم غير تخسير) كما قال في قصة سيدنا صالح ، فقد قال على لسان سيدنا صالح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

وقال ههنا: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ ذلك أن التتبيب أشد من التخسير ، فإنه تخسير وزيادة ، ذلك أن معنى التتبيب: الهلاك والقطع والتخسير.

فقد قيل: «إن مادة التباب تدور على التقطع وهو مؤد إلى الهلاك»[1]. وذلك لأن المعصية التي ذكرت ههنا أكبر مما ورد على

---

(١) روح المعاني ٣٠/ ٢٦٠ ، وانظر القاموس المحيط (تبَّ).

لسان نبي الله صالح ، فإنها هنا في الكلام على الأمم التي كانت تعبد الآلهة من دون الله ، وأما في قصة صالح فقد قال: ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ﴾ ، فذكر عموم المعصية، وهي ولا شك دون ما ذكره في الأمم الهالكة من عبادة غير الله ، فإن المعصية قد تكون صغيرة وقد تكون كبيرة.

فما ذكره في الأمم السابقة هي من أكبر المعاصي وأعظمها. ولا شك أن العقوبة على قدر المعصية.

فناسب ذكر التتبيب معها دون ذكر التخسير ، فكان كل تعبير في موضعه أنسب.

* * *

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٢ ـ ١٠٤]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾

جاء بالواو فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ ليدل على أنه يفعل مثل ذلك أيضًا مع القرى إذا اتصفت بالظلم. ولم يقل: (كذلك أخذ ربك) من دون واو لئلا ينصرف الذهن إلى ما مضى من الأحداث دون ما يقع فيما بعد.

وأضاف الأخذ إلى ربه ليدل على أن ربه هو الذي أخذ القرى الهالكة الظالمة ، وهو الذي يفعل مثل ذلك إذا ظلم أهل القرى. وفي ذلك تهديد ووعيد عظيمان للظالمين ، وأنه يستأصلهم مع قراهم التي يسكنونها ، ولا تنفع الظالمين كثرتهم ومؤازرة بعضهم بعضًا ، فإن ربك يأخذهم كلهم ولا يبقي منهم أحدًا.

لقد قال: ﴿ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ ولم يقل: (إنْ أخذ القرى) ليدل على أن

ذلك واقع إذا وجد الظلم ، فحيث وجد الظلم وعم القرى أخذهم ربنا . فإن (إذا) يؤتى بها في الأمور الكثيرة الوقوع أو المقطوع بحصولها ، بخلاف (إنْ) فإنه قد يؤتى بها في المشكوك بوقوعه أو النادر أو المستحيل[١] .

وقال : ﴿ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ ليدل على أن ذلك واقع إذا كانت صفة الظلم ثابتة فيها .

﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

ذكر لأخذه صفتين : الألم والشدة . واجتماع هاتين الصفتين يبين هول أخذه سبحانه وعظمته ، فإن كل صفة من هاتين الصفتين لها عظمها ورهبتها فكيف إذا اجتمعتا؟!

وربنا قد يفرد كل صفة من هاتين بأمر فيقول : (عذاب أليم) ، ويقول : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ، واجتماعهما يدل على عظم أخذه .

* * *

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود : ١٠٣]

قال : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ ﴾ ولم يقل : (مجموع فيه الناس) للدلالة على عظم ذلك اليوم ، فإن الناس يجمعون له ولأجله ، فالجمع إنما يكون لأجل ذلك اليوم ، فهو علة الجمع ، ولو قال : (فيه) لكان المعنى أنهم مجموعون فيه لأمر آخر .

وإنما قال : (له) ليدل على أنه هو الغرض من جمعهم كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ [التغابن : ٩] ، وقال : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران : ٢٥] .

---

(١) معاني النحو ٤/٤٤٨ وما بعدها .



وقال: ﴿مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ فجاء باسم المفعول، والمعنى (سيجمعون له) للدلالة على أنه كائن لا محالة.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لأي فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟

قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه» (١).

* * *

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾

«الأجل يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهاها، فيقولون: انتهى الأجل، وبلغ الأجل آخره» (٢).

وقيل: (لأجل معدود) «أي لانتهاء مدة قليلة، فالعدّ كناية عن القلة، وقد يجعل كناية عن التناهي» (٣).

* * *

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥]

حذف الياء من (يأت) والأصل: (يأتي).

وحذف التاء من (تَكلم) والأصل: (تتكلم)، في حين ذكر الياء في مواطن أخرى، قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٥.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٥.

(٣) روح المعاني ١٢/ ١٣٨.

قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢ ـ ٥٣].

«فحذف الياء من (يأت) واجتزأ بالكسرة في آية هود دون الآيتين الأخريين ولهذا الحذف سببه.

فقد ذكر الله في عدة مواطن من هود تعجل الذين كفروا للعذاب، كما تردد الوعد بقرب نزوله، فقد قال: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ﴾ [هود: ٨].

وقال قوم نوح: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

وقال صالح لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٤ ـ ٦٥].

وقال في قوم لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقال في موطن آخر: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

فأنت ترى أنه تردد ذكر استعجال العذاب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه تردد الوعد بقرب حلوله، فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعارًا بقرب حلوله.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سورة (هود) عقاب الأمم السابقة وهلاكهم، ثم ذكر أن يوم القيامة آت وأنه سيحل فيه عقاب

الكافرين كما حل عقاب الأمم السابقة ، وإنْ هو إلا أجل معدود فيحل ، فحذف الياء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان.

وليس الأمر كذلك في الآيات الأخرى.

هذا ومن ناحية أخرى أنه تردد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في كل من (الأنعام) و(الأعراف) أربعًا وعشرين مرة ، وفي (هود) ثلاث عشرة مرة ، فلما كثر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كثّر البناء ، ولما قل تردده في هود قلل من البناء. . .

ويمكن أن يضاف شيء آخر: وهو أنه لما منع الكلام في آية هود إلا بإذنه حذف من الكلام ، فحذف الياء من (يأتي) وحذف التاء من فعل التكلم فقال: (تكلّمُ) ولم يقل: (تتكلم) إشعارًا بقلة الكلام في ذلك الوقت»[(١)].

وقدم (الشقي) على (السعيد) لأنه سبق الكلام على الأشقياء من الأمم المعذبة. ألا ترى أنه قدم السعداء على الأشقياء في آل عمران في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فقدم الذين ابيضت وجوههم لأنه سبق الكلام على المسلمين ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠] ويستمر الكلام في مخاطبة المؤمنين إلى أن قال: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه.

* * *

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٧]

---

(١) التعبير القرآني ١٠٩ ـ ١١٠.



قدم الجار والمجرور (لهم) على (فيها) فقال: (لهم فيها) ولم يقل: (فيها لهم) لأن الكلام على الذين شقوا لا على النار فقدم ضميرهم على ضمير النار.

وذكر هنا أن لهم فيها زفيرًا وشهيقًا، في حين ذكر في موضع آخر أن لهم فيها زفيرًا وهم فيها لا يسمعون، ولم يذكر الشهيق. قال تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧ ـ ١٠٠].

ذلك أن العذاب في آيات الأنبياء أشد من أكثر من جهة:

١ ـ فقد ذكر الكفرة ومعبوديهم من دون الله فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا إما أن يكون شركًا أو أكبر من الشرك وهو أكبر الذنوب.

في حين ذكر الأشقياء على العموم في آية هود وهم أعم مما ذكره في الأنبياء. فإن من بين الأشقياء من لا يكون عبد الصنم، وقد يكون من أهل الكتاب. فذكر في آيات الأنبياء أشقى الأشقياء وهم الذين يعبدون من دون الله.

٢ ـ إنه ذكرهم وآلهتهم وجمعهم معًا في العذاب، وهو أشد تبكيتًا وإهانة لهم ولآلهتهم التي يعبدونها، فاقتضى ذلك زيادة تعذيبهم.

٣ ـ إنه قال عنهم إنهم حصب جهنم، وهو أسفل النار، فإن الحصب إنما هو في القاع والنار تسعّر عليه وبه.

٤ ـ قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ ولم يذكر الشهيق. فإن الإنسان يحتاج



الشهيق ليزفر ، وإن لم يستطع أن يأخذ الشهيق ضاق صدره. وهو ظاهر فيما نرى في المصابين بأمراض التنفس ممن لا يستطيع أن يأخذ الشهيق ، فإن الدنيا تضيق به على سعتها، وهو مستعد أن يدفع كل ما يملك ليشهق.

فدل ذلك على ضيق صدورهم ، فهم يطلبون الشهيق ولكن لا يمكّنون منه ، وذلك من أشد العذاب. فإنه إذا كان الشخص في جنة ولم يستطع أن يأخذ الشهيق كان في عذاب، فكيف إذا كان مع ذلك في النار؟!

٥ ـ وأضاف إلى ذلك أنهم لا يسمعون فكان عذابًا آخر.

٦ ـ قال في آية هود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فذكر استثناءً وهي مشيئته سبحانه. والله أعلم بهذه المشيئة ، حتى قال بعضهم إنه قد تتسع رحمته فيدرك شيء منها هؤلاء المعذبين.

ولم يقل مثل ذلك في آيات الأنبياء ولم يستثن ، وإنما قال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

فكان كل تعبير في مكانه هو المناسب.

* * *

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي أرض الآخرة وسماؤها. وأما هذه الأرض والسماوات فستبدّل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وذلك يدل على الدوام غير المنقطع.

وقيل في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أقوال منها: أن هذا الاستثناء يعني حالهم في البرزخ وفي يوم الحساب قبل أن يقضي الله بين الخلائق.

وقيل: هو استثناء من أنواع العذاب المذكورة فيصيرون إلى عذاب آخر.

وقيل غير ذلك والله أعلم.

قد تقول: لقد قال في سورة الأنعام: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فأسند المشيئة إلى لفظ الجلالة (الله).

وقال ههنا في آية هود: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ فأسند المشيئة إلى الرب مضافًا إلى ضمير مخاطب. فما السبب؟

فنقول: إن الكلام في الأنعام إنما هو خطاب من الله للكافرين من معشر الجن والإنس، فقد قال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

فهو سبحانه يخاطب الإنس والجن وليس يخاطب الرسول، فلا يصح أن يقول: (إلا ما شاء ربك).

ولما انتهى من خطابهم التفت إلى الرسول فقال له: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

كما اختلفت خاتمة كل من الآيتين، فقد ختمها في آية هود بما يدل على القدرة وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وهو المناسب لما فعله ربنا في الأمم التي أهلكها مما ذكره في السورة، ومناسب لما ذكره من مشيئته سبحانه.

وختمها في آية الأنعام بما يدل على الحكمة فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

عَلِيمٌ﴾ لما تردد من ذكر حكمته في السورة ، فقد ختم عدة آيات بذلك ، فقد قال: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ في آيتين وهما الآية الثامنة عشرة والآية الثالثة والسبعون .

وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ و﴿ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ في ثلاث آيات وهن: الآية الثالثة والثمانون ، والآية الثامنة والعشرون بعد المائة ، والآية التاسعة والثلاثون بعد المائة .

فهذه خمس آيات ختمت بالحكمة .

في حين لم يرد في هود إلا آية واحدة وهي قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ .

هذا إضافة إلى أنه قد ترددت الألفاظ المشتقة من الحكمة والحكم في الأنعام أكثر مما في هود .

فقد قال: ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦] .

وقال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧] .

وقال: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢] .

وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾ [الأنعام: ٨٩] .

وقال: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] .

في حين قال في هود:

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود: ١] .

وقال: ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥] .

فقد ترددت الألفاظ المشتقة من الحكمة والحكم عشر مرات في الأنعام .

وترددت أربع مرات في هود .

فناسب كل تعبير موضعه من أكثر من جهة.

* * *

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

قال في الأشقياء: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ فأسند الشقاء إليهم، ولم يقل: (فأما الذين أُشقوا) ليدل على أن ذلك بما قدمت أيديهم، فهم الذين أشقوا أنفسهم

وقال في السعداء: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ بالبناء للمجهول، ليدل على أن الله هو الذي أسعدهم برحمته وفضله.

جاء في (روح المعاني): «وما ألطف الإشارة في شقوا وسُعدوا على قراءة البناء للفاعل في الأول والبناء للمفعول في الثاني. فمن وجد ذلك فليحمد الله تعالى، ومن لم يجد فلا يلومن إلا نفسه» [١].

﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾

«أي غير مقطوع عنهم ولا مخترم» [٢].

ولم يقيد العطاء بشيء وإنما أطلقه ليشمل كل ما تقتضيه السعادة، وهذا العطاء مستمر غير مقطوع.

قد تقول: لقد قال في سورة الواقعة: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢ ـ ٣٣].

وقال ههنا: ﴿ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي غير مقطوع، ولم يقل: (ولا ممنوع) كما قال في الواقعة.

---

(١) روح المعاني ١٢/١٤٦.

(٢) روح المعاني ١٢/١٤٦.

فنقول: لقد قال ههنا: (عطاء) أي يُعطَون ، فدل ذلك على أنه غير ممنوع وإلا فكيف يُعطَون والعطاء ممنوع؟!

ولم يقل مثل ذلك في الواقعة ، فناسب أن يقول: (ولا ممنوعة).

وقال: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ولم يقل: (غير مقطوع) كما قال في الواقعة: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ وذلك أنه أفاد فائدتين:

الأولى: أن العطاء غير مقطوع.

والأخرى: أنه سالم غير مكسور ولا محطم وليس فيه عيب ، فإن من معنى الجذ: الكسر. فالمجذوذ أعم من المقطوع لأنه يشمل المقطوع وغيره.

وقوله: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أفاد معنيين: أنه غير مقطوع وأنه سالم.

والعطاء أعم من الفاكهة ، فهو يشمل الفاكهة وغيرها.

فناسب العموم العموم.

* * *

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]

نهاه في آية سابقة عن أن يكون في مرية مما أنزل إليه فإنه الحق من ربه فقال له: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ونهاه ههنا عن أن يكون في مرية مما يعبد قومه فإنهم متبعون لآبائهم.

وقوله: ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: أن تكون (ما) اسمًا موصولاً ، أي مما يعبده هؤلاء من الآلهة ، فـ(ما) ههنا تعني آلهتهم.

والآخر: أن تكون (ما) مصدرية، فيكون المعنى: فلا تك في شك من عبادة هؤلاء[١].

فمعبوداتهم وعبادتهم باطلتان. فقد يكون المعبود حقًّا والعبادة باطلة كما هو شأن كثير مما نرى، فإن المعبود هو الله وهو الحق وقد تكون العبادة باطلة كما هو شأن أهل الكتاب والمبتدعين ونحو ذلك.

وأما هؤلاء فمعبوداتهم وعبادتهم كلتاهما باطلتان فجاء بما يجمع هذين المعنيين.

وقال: ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ والأصل أن يقول: (كما عبد آباؤهم) إلا أنه عدل إلى صيغة المضارع للدلالة على أن ذلك كان عادة لهم وهو ما يسمى بالماضي المستمر أو المضارع المعتاد، ويكون بالفعل المضارع مسبوقًا بـ (كان)، فكان الأصل في هذا المعنى أن يقال: (إلا كما كان يعبد آباؤهم)، وقد دل قوله تعالى: (من قبل) على المضي.

جاء في (روح المعاني): «ومعنى (كما يعبد) كما كان عبد، فحذف لدلالة (قبل) عليه. وكأن اختيار هذا للإشارة إلى أن ذلك كان عادة مستمرة لهم»[٢].

ومعنى ذلك أن هؤلاء سيصيبهم مثل ما أصاب الأولين ممن قصصنا عليك من سوء عاقبتهم.

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل: (كما كان يعبد آباؤهم) كما قال في آيات أخرى، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

---

(١) انظر الكشاف ٢/١١٧، روح المعاني ١٢/١٤٧.

(٢) روح المعاني ١٢/١٤٧ ـ ١٤٨.

وقوله: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]؟

فنقول: إن قوله: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ يفيد الاتصال مع آبائهم في العبادة. ولو قال: (ما يعبدون إلا كما كان يعبد آباؤهم من قبل) لاحتمل الاتصال والانقطاع، وليس ذلك نصًّا في اتصال الأبناء بالآباء في العبادة.

فإن قولنا: (أعبد ما كان يعبد أبي) يحتمل الانقطاع والاتصال، فقد يحتمل أن أباه كان يعبد شيئًا ثم انقطع عن عبادة ذلك الشيء وأصبح يعبد شيئًا آخر، وذلك نحو كثير من الصحابة كابن عباس وابن عمر، فقد كان آباؤهم يعبدون الأصنام في الجاهلية ثم أسلموا وعبدوا الله سبحانه، فلو قال ابن عمر مثلاً (أعبد ما كان يعبد أبي) لم يصح ذلك، بخلاف ما لو قال (أعبد ما يعبد أبي).

ويحتمل الاتصال أيضًا.

وأما قولنا: (أعبد ما يعبد أبي) فهو يفيد الاتصال وأنه مستمر على نحو عبادة أبيه.

فقوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ يفيد الاتصال ومماثلة عبادة هؤلاء لعبادة آبائهم. وقوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يفيد الزمن الماضي في عبادة آبائهم وأنه متصلة متماثلة منذ الزمن الماضي.

فلو قال: (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم) ولم يقل (من قبل) لربما أفاد ذلك عبادة آبائهم الأقربين إليهم دون القدامى.

ولو قال: (ما يعبدون إلا كما كان يعبد آباؤهم) لربما أفاد الانقطاع واحتمل الاتصال.

ولكنه قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ فأفاد الاتصال والمضي.

وقد تقول: ولم قال إذن في آيات أخرى: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ونحو ذلك بذكر (كان)؟

فنقول: إنه حيث قال ذلك جاء بما يفيد الاتصال بعبادة آبائهم ، فقد قال مثلاً: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] فإنه واضح من التعبير أنهم يعبدون ما كان يعبد آباؤهم ، وأنكروا على رسولهم دعوته إلى التوحيد.

ونحو ذلك قوله: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ [سبأ: ٤٣].

فاتضح الفرق.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾.

أي حظهم من الخير والشر ، فإنّا موفوهم ما كتب لهم من الخير والشر كاملاً غير منقوص.

وأسند الإيفاء إليه سبحانه بضمير التعظيم ، ولم يقل: (وهم سيُوفَّون نصيبهم غير منقوص) ليدل على أنه سبحانه وحده بيده مقاليد الأمور من الخير والسوء. ولو قال: (سيوفَّون) لم يدل على أن الذي يفعل ذلك هو الله ولم تُعلم الجهة التي ستوفيهم ذلك.

وقال: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ﴾ بالاسم ولم يقل: (وإنا سنوفيهم) بالفعل للدلالة على ثبات هذا الأمر وأنه مقطوع بحصوله ، وقد أكد ذلك بإن واللام إضافة إلى اسمية الحدث.

* * *

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [هود: ١١٠]



ذكر ربنا لرسوله ﷺ أنه لم يكن بدعًا من الرسل ولا أن قومه بدع من الأقوام ، فقد آتى موسى الكتاب كما آتاك ربك فاختلفوا فيه ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر. ولولا أن الله سبحانه جعل لكل شيء أجلاً لقضي بينهم في هذا الاختلاف.

ثم قال: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ولم يقل: (إنهم كانوا في شك مريب) ليدل على أن الاختلاف والشك لا يزالان قائمين في عهده ﷺ ، وإن كلاًّ سيوفيه ربنا أعمالهم كما قال في قومه ﷺ: ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ .

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ .

وقال في آية أخرى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] فقال: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية هود فما السبب؟

فنقول: لقد ذكر في آية هود ملة واحدة وهي ملة موسى.

وأما في آية الشورى فذكر مللاً متعددة ، قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٣ ـ ١٥].

فقد قال: ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وذلك في يوم القيامة.

فقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ ﴾ يعني يوم القيامة.

وقوله: ﴿ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ يعني ذلك أيضًا.

فناسب أن يقول: ﴿ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ ههنا دون آية هود التي ليس فيها ذاك.

* * *

﴿ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [هود: ١١١]

أي إن كلاًّ من قومك وغيرهم سيوفيهم ربك أعمالهم.

وقال: (ليوفينّهم) بالفعل المضارع المؤكد الدال على الاستقبال ليدل على أن ذلك سيكون حتمًا.

وقد أكد الفعل بلام القسم والنون لما أكد شكهم بإن واللام فقال: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ فلما كان شكهم مؤكدًا أكد توفية أعمالهم.

ألا ترى أنه لما خاطب عيسى عليه السلام لم يؤكد العذاب ولا توفية الأجور لأنه ليس في مقام شك، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٥ ـ ٥٧].

فقال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ ﴾ من دون توكيد.

وقال: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ ﴾ من دون توكيد.

فناسب كل تعبير موضعه.

وقد تقول: لقد قال في آية سابقة: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ بالاسم (موفوهم).

وقال ههنا: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ بالفعل، فما السبب؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لموضعه.

فقد قال في الآية الأولى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ فذكر النصيب ولم يذكر أن النصيب لم يكتمل.

وأما في هذه الآية فقد قال: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

فقال: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، و(يعملون) فعل مضارع يحتمل الحال والاستقبال، فهم لم ينتهوا من أعمالهم بعد. والتوفية إنما تكون بعد انتهاء العمل. فلما لم ينته العمل لم يأت بالاسم الدال على الثبوت، وإنما جاء بالفعل المضارع الدال على عدم الانتهاء.

وقدم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ على (خبير) لأن الكلام على الأعمال، فقد قال: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فناسب تقديم العمل.

وقال: (خبير) لأنه ذكر أنهم في شك، والشك أمر قلبي فاحتاج إلى الخبرة، والخبرة: المعرفة ببواطن الأمر[1].

والخبير: هو الذي يعلم بواطن الأمور، و(خبرت الأمر أخبره) إذا عرفته على حقيقته[2].

فناسب ذلك ما ورد في سياقه.

* * *

---

(١) المفردات في غريب القرآن (خبر).

(٢) لسان العرب (خبر).

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢]

الاستقامة هي «لزوم المنهج المستقيم، وهو التوسط بين الإفراط والتفريط. وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق» (١).

﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾.

معطوف على الضمير المستتر في (استقم) وهو الفاعل، وصح العطف للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بقوله: ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾، ولو لم يكن بينهما فاصل لكان ضعيفًا.

ولا يصح عطفه على التاء في (أُمرت) وهو نائب الفاعل لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى.

أما من حيث اللفظ فلعدم الفاصل،

وأما من حيث المعنى فلأنه سيكون المعنى أنه أُمر هو ومن تاب معه، وأنه طلب منه وحده الاستقامة على ما أُمروا به، ولم تُطلب الاستقامة ممن تاب معه، أي استقم كما أُمرتم.

وهذا لا يصح.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾.

وقال في الشورى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [الشورى: ١٥] ولم يقل: (ومن تاب معك).

كما لم يقل في آية هود: (فلذلك فادع).

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٥٢.

فما السبب؟

فنقول: أما قوله في الشورى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ دون آية هود فلأنه ذكر التفرق في أهل الأديان وقد كان نهاهم عنه، فقد قال: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

فقال مخاطبًا رسوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ أي ادع إلى الائتلاف وعدم التفرق.

جاء في (روح المعاني): «(فلذلك) أي إذا كان الأمر كما ذكر فلأجل ذلك التفرق... (فادع) إلى الائتلاف والاتفاق على الملة الحنيفية القديمة» (١).

وقال أيضًا: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ فقال له: لا تأبه بالمشركين وادع لما أمرت به وإن كان كبر عليهم ذلك.

ولم يتقدم مثل ذلك في هود، فلم يقل مثل ما قال في الشورى، وإلا لو قال ذلك لقيل: (لأي شيء أدعو؟)

وأما قوله في آية هود: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فلأن الخطاب موجه إليه ﷺ وإلى من معه ثم يستمر في خطابهم قائلاً ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾، ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وأما في آية الشورى فالخطاب خاص برسول الله وهو موجه له على سبيل الخصوص. فقد قال ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾، ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾،

---

(١) روح المعاني ٢٥/٢٣.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ ، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ .

فلما كان الخطاب خاصًا برسول الله مأمورًا على وجه الخصوص لم يذكر من معه ، ولا يناسب أن يذكروا.

وقد تقول: ولم قال: (ومن تاب) دون (من آمن) مثلاً أو نحو ذلك؟

فنقول: إن الذي يتوب إنما يتوب من معصية ، وفاعل المعصية عليه بعد التوبة أن يستقيم فناسب ذكره في السياق.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ .

أي لا تتجاوزوا الحد الذي أمرتم به ، فطلب منهم الاستقامة على ما أمروا به وألا يتجاوزوا ذلك. فناسب أن يذكر (ولا تطغوا) بعد قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ لأن عليهم أن يعلموا أولاً ما أمروا به فلا يتجاوزوه.

* * *

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]

الركون هو الميل اليسير(١) ، أي لا تميلوا إلى الذين ظلموا أدنى ميل(٢) . وقال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ ولم يقل: (إلى الظالمين) أي لا تميلوا إلى من وقع منهم ظلم وإن لم يكن الظلم وصفًا ثابتًا فيهم.

وهذا نهي عظيم عن مداهنة الظالمين ، فقد نهى عن الميل اليسير إلى من وجد منهم ظلم فكيف بمن اتصف به على جهة الثبوت ، فكيف بتعظيمهم واتخاذهم أصحابًا وخلطاء ، وكيف باتخاذهم أولياء؟!

جاء في (روح المعاني): «(الذين ظلموا) بمن وجد منه ما يسمى

---

(١) الكشاف ٢/ ١١٨.

(٢) روح المعاني ١٢/ ١٥٤.

ظلمًا مطلقًا. قيل: ولإرادة ذلك لم يقل: إلى الظالمين»[(١)].

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾

فلا تظنوا أن الظالمين سيكونون أولياء لكم، فإنهم ليسوا كذلك وما لكم من ولي من دون الله.

وأنتم لا تنصرون ما دمتم تركنون إلى الذين ظلموا.

وقال: ﴿ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ ولم يقل: (من ولي) لأنه ذكر الذين ظلموا وهم جمع فناسب أن يذكر الأولياء.

وجاء بـ (من) الاستغراقية ليدل على أنهم ليس لهم ولي من دون الله على سبيل الاستغراق.

* * *

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤]

إقامة الصلاة: أداؤها على تمامها والمداومة عليها.

والمراد بطرفي النهار على ما قيل: الصبح والعصر، وقيل: الصبح والمغرب[(٢)].

والزلَف: صلاة المغرب والعشاء[(٣)]، وقيل: هي صلاة العشاء، ذلك أن معنى الزلَف: الساعات القريبة من آخر النهار، من أزلفه إذا قربه[(٤)].

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٥٤، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٦٩.
(٢) روح المعاني ١٢/ ١٥٦.
(٣) الكشاف ٢/ ١١٨.
(٤) انظر الكشاف ٢/ ١١٨ وانظر روح المعاني ١٢/ ١٥٦.

وقيل: معنى (زلفًا) قُربًا، والمعنى «وأقم زلفاً من الليل على معنى وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل»[(١)]. وهي صلاة التهجد. وقيل المراد بها صلاة العشاء والتهجد، وقد كان التهجد واجبًا عليه ﷺ[(٢)].

وهذا المعنى يناسب الأمر بصورة الإفراد في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ . . .﴾ لأن التهجد كان واجبًا عليه وليس واجبًا على المسلمين. ولو قال: (وأقيموا) لكان التهجد واجبًا عليهم.

وقيل: إن هذا «من البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وإن كانت عامة في المعنى.

والمناهي جمعت للأمة، وما أعظم شأن الرسول عليه الصلاة والسلام عند ربه جل وعلا»[(٣)].

يعني بالأوامر قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ . . .﴾ ﴿وَٱصْبِرْ﴾.

والمناهي قوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

* * *

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

قال: (يذهبن) ولم يقل: (تُذهِب) ليبين أن الحسنات وإن كانت قليلة يذهبن السيئات. ولو قال: (تُذهب) لدل على أن الحسنات إذا كانت كثيرة تذهب السيئات.

فإن النون في نحو هذا تفيد القلة، والإفراد يفيد الكثرة كما هو معلوم.

---

(١) الكشاف ٢/١١٨، وانظر روح المعاني ١٢/١٥٦.
(٢) انظر روح المعاني ١٢/١٥٦.
(٣) روح المعاني ١٢/ ١٦٠.



وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ يدل أن ذلك يشمل عموم من اتعظ وعمل بهذا وليس مخصوصاً بالرسول ﷺ.

فكل من تقرب إلى الله وعمل بهذا شمله قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾.

* * *

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ «أي على مشاق امتثال ما كلفت به» (١) من الاستقامة على ما أمر به وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات، وعلى ما نهاه عنه.

وأطلق الأمر بالصبر ولم يقيده بشيء ليشمل كل ما يقتضي الصبر.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وفيه إيماء إلى أن الصبر من الإحسان(٢).

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ولم يقل: (إن الله لا يضيع أجركم) أو أجر من فعل ذلك ونحوه للإطلاق وليشمل كل من فعل ذلك وكل محسن.

فدخل في ذلك كل من فعل هذا الفعل وكل من أحسن، سواء فعل هذا الفعل أم غيره من وجوه الإحسان.

جاء في (روح المعاني): «وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع إفادة فائدة عامة لكل من يتصف بذلك. وهو تعليل للأمر بالصبر» (٣).

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٦٠.
(٢) انظر روح المعاني ١٢/ ١٦٠.
(٣) روح المعاني ١٢/ ١٦٠.

قد تقول: لقد قال في آية سابقة من السورة: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وقال ههنا: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

فاختلف ختام كل من الآيتين، فقال في الآية الأولى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال في هذه الآية: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

فما السبب؟

فنقول: إن سبب الاختلاف بين الخاتمتين أن الآية الأولى ليس فيها أمر بعمل ولا طلب بتكليف، فذكر أن العاقبة للمتقين، أي للذين يتقون الله. ولو اتقى قوم نوح ربهم ما حل بهم ما حل.

ثم إنه أيضًا لم يذكر الأجر كما ذكر في الآية الثانية، لأن الأجر إنما يكون على العمل وهو لم يذكر عملاً في الآية.

هذا ومن ناحية أخرى أنه حيث ذكر عاقبة أهل الفلاح ذكر المتقين والتقوى وذلك نحو قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ ولم يذكر غيرهم من أهل الفلاح.

وأما في هذه الآية فإنه أمرهم بأوامر ونهاهم عن نواه فناسب ذكر الإحسان، فإن من الإحسان ما يكون في العمل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقد تقول: ولِمَ لَمْ يقل هنا: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ كما قال في آية الكهف؟

فنقول: إن كل تعبير في مكانه أنسب، فقد قال في الكهف: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فقد ذكر الذين عملوا الصالحات ، فناسب ذكر أجر من أحسن عملاً .

وأما في سياق آية هود فقد ذكر أعمالاً وذكر أمورًا أخرى ليست أعمالاً ، فقد ذكر إقامة الصلاة والأمر بالصبر ، والصبر ليس عملاً .

وذكر من تاب فقال : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ والتوبة ليست عملاً ، وغير ذلك مما ذكر مما يناسب ذكر الإحسان .

وقال في الكهف : ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ فقال : (أحسن) بالفعل الماضي .

وقال في آية هود : ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فذكر المحسنين بالاسم ، والاسم يدل على الثبوت كما هو معلوم .

ذلك أنه قال في الكهف : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقال : ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالماضي ، فناسب أن يقول : ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ﴾ بالماضي .

وأما في هود فقد ذكر أمورًا تدل على الدوام ، فقد قال : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ والاستقامة إنما تكون على الدوام .

وقال : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وإقامة الصلاة إنما تكون على الدوام والاستمرار .

وقال : (واصبر) وهو أمر بالصبر على وجه الدوام وعلى الإطلاق ، فناسب أن يذكر ما يدل على الثبات والدوام وهم المحسنون . والله أعلم .

* * *

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧]

* * *

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾

أي فهلا كان من الأمم التي قبلكم أولو فضل وخير ينهون عن الفساد في الأرض.

و(هلا) تفيد التحضيض والتنديم والتأسف والتحسر، أي هلا فعلوا ذلك فلم يصبهم ما أصابهم.

والمعنى: ليتحسرْ عليهم العباد وليتفجعوا عليهم لما أصابهم، وهو نظير قوله تعالى: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

جاء في (تفسير الثعالبي): «﴿لَوْلَآ﴾ هي التي للتحضيض، لكن يقترن بها هنا معنى التفجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد. وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾.

والقرون من قبلنا قوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره»[1].

و(أولو بقية) «أُولو فضل وخير، وسمي الفضل والجود بقية؛ لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلاً في الجودة والفضل»[2].

وفي قوله: ﴿بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحضيض لهذه الأمة وتنبيه لها لتفعل ذلك، وتحذير لمن لم يفعل أن يصيبهم مثل ما أصاب الأولين.

---

(١) تفسير الثعالبي ٣/ ٣٠٧، وانظر روح المعاني ١٢/ ١٦٠.

(٢) الكشاف ٢/ ١١٩، وانظر البحر المحيط ٥/ ٢٧١.

وقوله: ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ مناسب لما جاء بعده وهو قوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ، فإن المصلح يصلح ما فسد.

* * *

﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ ﴾

أي اتبعوا الشهوات وما أنعموا فيه.

وقال ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ ولم يقل: (تبع) للدلالة على المبالغة في ذلك.

وقال: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ ولم يقل: (واتبع الناس) أو (أولئك) ليدل على أنهم فعلوا ذلك إضافة إلى ظلمهم.

وكل من الوصفين مدعاة إلى العقوبة.

﴿ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ أي إضافة إلى ما مضى من الظلم واتباع الشهوات كانوا مجرمين «أي مرتكبي جرائم غير ذلك» [(١)].

فذكر فيهم عدة مساوئ كل منها مدعاة إلى العقوبة.

١ - فقد قال: ﴿ وَٱتَّبَعَ ﴾ أي بالغوا في الاتباع.

٢ - وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ فاتصفوا بالظلم.

٣ - وقال: ﴿ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ ﴾ أي من التنعم واتباع الشهوات.

ولم يرد الإتراف في القرآن إلا وصفًا سيئًا مدعاة إلى العقوبة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى

---

(١) روح المعاني ١٢/ ١٦٢.

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وقال فيما قال في أصحاب الشمال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

٤ ـ وقال: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي مرتكبي جرائم غير ذلك.

٥ ـ ووصفهم بالإجرام على جهة الثبوت فقال: ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ فجاء بالاسم ليدل على ثبات هذا الوصف فيهم.

* * *

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]

جعل ربنا الإصلاح عاصمًا من الهلاك، أي ما صح وما استقام أن يهلك ربنا القرى التي أهلكها أو غيرها من القرى (بظلم) أي ظالمًا لها وأهلها مصلحون (١).

فإذا كان أهل القرى يتعاطون الإنصاف فيما بينهم فإن ربنا لا يهلكهم.

فإذا تظالموا أهلكهم كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

قد تقول: لقد قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

فقال في آية الأنعام هذه: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾.

وقال في هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾.

وقال في الأنعام: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾.

وقال في هود: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٦٣.



فلم ذاك؟

فنقول: إن آية الأنعام إنما هي في الآخرة والكلام على ما كان في الدنيا ، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠ ـ ١٣١]

فالكلام على ما مضى فقال: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي إن ذلك الأمر قد وقع لأنه لم يكن ربك قد أهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، من دون إقامة حجة عليهم وإرسال الرسل إليهم. فذكر أنه بلغهم وأرسل الرسل إليهم وأقام الحجة عليهم ، وهم أقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم فاستحقوا العقوبة.

وأما آية هود فالكلام فيها على الدنيا.

وما ورد فيها عام يشمل الماضي والحال والاستقبال. فإن ربنا لا يهلك القرى إذا كان أهلها مصلحين.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

وهذا في الأمم السابقة.

وقال: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٨] فالحكم عام كما ترى. وهو كذلك في آية هود يشمل جميع الأزمنة.

وأما خاتمة كل من الآيتين فهي مناسبة لسياق كل منهما.

فقد ختم آية الأنعام بقوله: ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ «لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ. قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠ ـ ١٣١]

فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ وتبيان أنَّ الله لم يهلك أقوامًا غافلين لم يُنذروا ولم يكلَّفوا، فإن من لم ينذر فهو غافل. قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦] وما كان الله ليهلك مثل هذه الأقوام، ولذا ختمها بقوله: ﴿ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾

وأما آية هود فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض، ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٦ ـ ١١٧].

فناسب ختام كل آية السياق الذي هي فيه»[١].

* * *

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ

---

(١) التعبير القرآني ٢٧٦ ـ ٢٧٧، وانظر درة التنزيل ١٣١ ـ ١٣٢.



وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]

أي لو شاء ربك لجعل الناس ملة واحدة: ملة هدى أو ضلال ، ولكنه لم يشأ ذلك فكانوا مختلفين: بعضهم على هدى وبعضهم على ضلالة.

وجاء باللام في جواب (لو) فقال: (لجعل) للتوكيد ؛ لأن ذلك مما يستحيل جمعهم عليه ، لكن الله لو شاء لفعل.

وقال: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ولم يقل: (وجعلناهم مختلفين) فأسند الاختلاف إليهم لا إليه سبحانه ، أي هم اختاروا ذلك فاختلفوا كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: ١٩].

والمعنى: أنه لو شاء ربنا لجعل الناس ملة واحدة ولكنه لم يشأ ، فهم لا يزالون مختلفين إلا من رحمه الله فهداه إلى صراطه المستقيم.

وقوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ ﴾ قيل فيه: إنه خلقهم للاختلاف.

وقيل: خلقهم لرحمته(١).

وقيل: خلقهم للاختلاف والرحمة.

جاء في (روح المعاني) أنه قيل: إن «الإشارة للرحمة والاختلاف ، أي لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم خلقهم.

وجاءت الإشارة لاثنين كما في قوله تعالى: ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾»(٢).

والظاهر فيما يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن قوله: ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ ﴾ يعني أنه خلقهم ليرحمهم، ذلك أنه سبحانه ذكر أنه خلق الجن والإنس ليعبدوه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ١١٤.
(٢) روح المعاني ١٢/ ١٦٤.

أي خلقهم ليعبدوه فيرحمهم ، فإن في عبادته رحمتهم .

* * *

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾

«أي نفذ قضاؤه وحق أمره» (١) .

وقوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ مناسب لما تردد في السورة من ذكر الأمم المعذبة وقلة المؤمنين الناجين ، وهو وصف لعموم الناس كما قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧] .

وقال : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ [هود: ١١٦] .

فناسب ذلك ذكر ملء جهنم .

وتقديم الجنة على الناس لأنهم سبب في كثير من معاصي الناس بما يوسوسون لهم ابتداء من إبليس مع آدم إضافة إلى معاصيهم هم .

قد تقول : لقد قال الله في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [النحل: ٩٣] .

وقال ههنا : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ .

فأسند المشيئة في آية النحل إلى الله فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، وأسندها في آية هود إلى الرب مضافاً إلى ضمير المخاطب فقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ .

وقال في النحل : ﴿ لَجَعَلَكُمْ ﴾

وقال في هود : ﴿ لَجَعَلَ النَّاسَ ﴾

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ١١٤ .

فما سبب ذلك؟

فنقول: إن الخطاب في سياق آية هود موجه إلى الرسول ﷺ. قال تعالى:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ [١٠٩]، ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [١١٢]، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [١١٤]، ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١١٥]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ [١١٧]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ [١١٨]، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [١١٩]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [١١٩]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [١٢٠]، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ [١٢٠]، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ [١٢١]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [١٢٣]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [١٢٣].

فناسب أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب، وأن يقول: ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ﴾.

وأما الخطاب في سياق النحل فللمخاطبين عمومًا. قال تعالى:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [٩١]، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [٩١]، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [٩١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [٩٢]، ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ [٩٢]، ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٩٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [٩٣] ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٩٣]، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٩٤]... إلخ.

فناسب أن يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ وليس ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ لأن الخطاب ليس موجهًا إلى الرسول، وأن يقول: (لجعلكم) لأن الخطاب موجه إليهم.

هذا إضافة إلى أن كلمة (ربك) ترددت في هود أكثر مما ترددت في سورة النحل.

فقد وردت في سورة هود (١٧) سبع عشرة مرة.

ووردت في النحل (١١) إحدى عشرة مرة.

وأن كلمة (الله) ترددت في النحل أكثر مما وردت في سورة هود.

فقد وردت في هود (٣٨) ثمانيًا وثلاثين مرة.

ووردت في النحل (٨٤) أربعًا وثمانين مرة.

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى.

* * *

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]

أي نقص عليك كل نبأ من أنباء الرسل ما فيه تثبيت لفؤادك وطمأنينة لقلبك، فإنك ستعلم بذلك أنك لست الوحيد في عدم استجابة قومك لك، بل ذلك شأن الأمم مع رسلهم فإنهم لاقوا الكثير منهم.

وقوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ بدل من (كلاً) ويحتمل أوجهًا إعرابية أخرى[١].

والإشارة بـ (هذه) يحتمل أن تكون إلى القصص وما جاء فيها من

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٩/١١٦، روح المعاني ١٢/١٦٧.

الأنباء ، ويحتمل أن تكون إلى السورة أو الإشارة إليها مع نظائرها[١] .

وعرّف (الحق) لأنه الحق المعلوم الذي لا حقّ سواه .

ونكّر الموعظة والذكرى لأنهما قد يكونان في غير ما ذكر مما يتعظ به الناس ويكون لهم به ذكرى .

فالموعظة والذكرى قد تتعدد ، أما الحق فواحد .

جاء في (روح المعاني) أنه قيل : «الظاهر أن يقال إنما عرّف الأول لأن المراد منه ما يختص بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأما الموعظة والتذكير فأمر عام لم ينظر فيه لخصوصية» [٢] .

* * *

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود : ١٢١ ـ ١٢٢]

أي اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها فإنا عاملون على ما نحن عليه . فكل منا ومنكم يعمل على حالته .

وانتظروا ما سيحصل لنا ونحن ننتظر ما يحيق بكم ، وسترون ونرى عاقبة كل منا ومنكم .

وقدم العمل على الانتظار لأن العمل يسبق العاقبة .

وقال هنا : ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ ، وقال في فصلت : ﴿ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ بالفصل بين (إن) و(نا) ، ذلك أنه فصل في ذكر إعراضهم وزاد فيه فقال : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت : ٥] .

---

(١) انظر روح المعاني ١٢/ ١٦٧ .

(٢) روح المعاني ١٢/ ١٦٧ .

فلما ذكر زيادة إعراضهم وفصل فيه بقوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ ، ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ ، ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ زاد في التعبير والتوكيد ، فناسب كل تعبير موضعه والله أعلم.

قد تقول: لقد قال في أكثر من موضع: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞ﴾ [الأنعام: ١٣٥] ، الزمر: ٣٩]

وقال على لسان سيدنا شعيب: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ [هود: ٩٣]

فقال: ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ بالإفراد.

وقال ههنا: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ بالجمع.

فلم ذاك؟

فنقول: كل ما ورد فيه: (إني عامل) فالسياق في مقام المتكلم المفرد وليس في مقام الجمع ، وأما المخاطبون فهم جمع.

فلم يذكر في سياق آية الأنعام من آمن معه ، فقد قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٣ - ١٣٥]

وكذلك ما جاء في سورة الزمر فقد قال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ [الزمر: ٣٨ - ٤٠].

وكذلك ما ورد على لسان سيدنا شعيب فالخطاب إنما هو خطاب شعيب لقومه ولم يذكر من معه فقد قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ [هود: ٩٣].

أما آية هود التي ذكر فيها (إنا عاملون) فالسياق في ذكر المؤمنين مع الرسول ﷺ. فقد قال: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣]

وقال: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] فناسب أن يقول: (إنّا عاملون) بالجمع.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]

بعدما طلب منهم الانتظار قال: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وذلك لأن عاقبة الانتظار من الغيب.

وقدم الجار والمجرور (لله) للدلالة على الحصر، فإنه لا يعلم الغيب إلا هو.

ثم قال: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ فهو عالم الغيب وهو الحاكم والقادر فلا يقطع أمرًا أحد دونه.

فعملنا وعملكم مرجعه إليه، وهو وحده الذي يقطع بالأمر ويقضي فيه.

وقدم الجار والمجرور (إليه) ليدل على أن ذلك إليه حصرًا لا إلى غيره.

وقال: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ على سبيل الاستغراق لا يقطع أحد غيره في شيء من ذلك مهما كان حقيرًا أو عظيمًا.

فجمع في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ العلم المطلق والقدرة المطلقة والحكم المطلق كل ذلك له حصرًا.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فالذي له الغيب والقادر على كل شيء والذي يرجع إليه الأمر كله هو من يستحق العبادة وحده فاعبده وتوكل عليه.

وقدم العبادة على التوكل؛ لأن التوكل لا ينفع من دونها فهي المطلب الأول. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم قال:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي إنا ربنا ليس غافلاً عما نعمل، فهو يراقبنا ويعلم ما نعمل غير غافلٍ عنه ولا ينتظر أن يرفع إليه الأمر ليعلم ماذا حصل.

فقد يظن ظان أن ربك يقطع بالأمر بعد أن يرفع إليه ويعلم به فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ليدفع هذا الظن، فهو يعلم ما نعمل الآن وفي المستقبل.

لقد قال أولاً: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فجاء باسمه العلم، ثم قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ بإضافة الرب إلى ضمير المخاطب ليدل على أن ربه هو الله الذي له غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله. فهو الذي أرشدك وهداك وأمرك بعبادته والتوكل عليه.

وفي ذلك إلماح إلى نصره في الدنيا والآخرة والله أعلم.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾

والجملة الأولى: دلت على أن علمه محيط بجميع الكائنات كليها وجزئيها، حاضرها وغائبها، لأنه إذا أحاط علمه بما غاب فهو بما حضر محيط، إذ علمه تعالى لا يتفاوت.

والجملة الثانية: دلت على القدرة النافذة والمشيئة.

والجملة الثالثة: دلت على الأمر بإفراد مَن هذه صفاته بالعبادة الجسدية والقلبية، والعبادة أولى الرتب التي يتحلى بها العبد.

والجملة الرابعة: دلت على الأمر بالتوكل، وهي آخرة الرتب لأنه بنور العبادة أبصر.

إن جميع الكائنات معذوقة بالله تعالى، وأنه هو المتصرف وحده في جميعها لا يشركه في شيء منها أحد من خلقه فوكل نفسه إليه تعالى. . .

والجملة الخامسة: تضمنت التنبيه على المجازاة فلا يضيع طاعة مطيع ولا يهمل حال متمرد»[1].

* * *

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٢٧٥.

مراجع الكتاب



- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط٣/ ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر

- أسئلة بيانية في القران الكريم - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا ، الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.

- أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي - المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ

- البحر المحيط لأبي حيان ط١ سنة ١٣٢٨هـ - مطبعة السعادة بمصر

- البرهان في متشابه القرآن لمحمد بن حمزة الكرماني

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا ، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

- التعبير القرآني - فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا ، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه

- تفسير الثعالبي - عبد الرحمن بن محمد الثعالبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- تفسير فتح القدير للشوكاني ط١/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة ١٣٤٩

- تفسير القرطبي.

- التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر

- الجملة العربية تأليفها وأقسامها - فاضل صالح السامرائي - دار الفكر - عمان - الأردن

- حاشية ابن المنير على الكشاف - بهامش الكشاف للزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م

- حاشية الدسوقي على مغني اللبيب - مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بمصر

- حاشية الصبان على شرح الأشموني - دار إحياء الكتب العربية

- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط١/ ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية

- شرح رضي الدين الاستراباذي على الكافية - مطبعة (الشركة الصحافية العثمانية) سنة ١٣١٠هـ

- على طريق التفسير البياني - فاضل صالح السامرائي - نشر جامعة الشارقة - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.

- القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزابادي ط٥ - شركة فن الطباعة - مصر

ـ الكشاف للزمخشري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م

ـ لسان العرب لابن منظور ـ مصور على طبعة بولاق

ـ لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ـ فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

ـ المصباح المنير للفيومي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت.

ـ معاني الأبنية في العربية ـ فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير ـ الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

ـ معاني القرآن للفراء ـ مطبعة دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٥م

ـ معاني النحو ـ فاضل صالح السامرائي ـ مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل ـ العراق

ـ المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ـ طهران

ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ـ تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ من أسرار البيان القرآن ـ فاضل صالح السامرائي ـ دار الفكر ـ عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م

ـ نبوة محمد من الشك إلىاليقين ـ فاضل صالح السامرائي ـ دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

* * *

فهرست سورة هــود



٨ ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا
يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ٣٣

٩ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ ٣٦

١٠ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ ٣٩

١١ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ٣٩

١٢ ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ
أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ
نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ٤٤

١٣ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ
وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ ٤٨

١٤ ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ
إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ٤٨

١٥ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ
فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ ٥١

١٦ ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا
صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ٥١

* * *

الدكتور فاضل صالح السَّامرائي

على طريق التفسير البياني



الجزء الرابع

سورة الأنبياء

دار ابن كثير

عَلَى طَرِيقِ

التَّفْسِيرِ البَيَانِيِّ

الجُزْءُ الرَّابِعُ

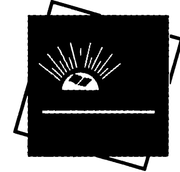
• الموضوع: تفسير
• العنوان: على طريق التفسير البياني ١١\٤
• تأليف: الدكتور فاضل صالح السامرائي

الطَّبْعَةُ الأُولَى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

ISBN 978-614-415-267-6



• الطباعة : مطابع يوسف بيضون - بيروت / التجليد: شركة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت
• الورق: كريم / الطباعة: لونان / التجليد: كرتونيه
• القياس: 17×24 / عدد الصفحات: 1656 / الوزن: 3200 غ



دمشق - سورية - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
تلفاكس: 2225877 11 963+
2228450 11 963+

بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - شارع أبو شقرا
تلفاكس: 817857 1 961+
705701 1 961+
جوال: 204459 3 961+

website: www.ibn-katheer.com / e-mail: info@ibn-katheer.com

 /daribnkatheer  @daribnkatheer  daribnkatheer  daribnkatheer

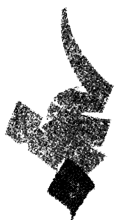
عَلَى طَرِيقِ
التَّفْسِيرِ الْبَيَانِيِّ

تأليف

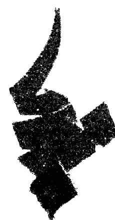
الدكتور فاضل صالح السامرائي

الجُزْءُ الرَّابِعُ
سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

دار ابن كثير



بسم الله الرحمن الرحيم





سورة الأنبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذه السورة مرتبطة بخواتيم السورة التي قبلها وهي سورة (طه) من أكثر من وجه منها:

١ ـ أنه قال في خواتيم سورة طه:

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾

وقال في أول سورة الأنبياء:

﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾

ومما قيل في الأجل المسمى المذكور في آية طه أنه يوم القيامة[١] وهو موعد الحساب.

٢ ـ قال سبحانه في خواتيم سورة طه:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾

أي أتتك أياتنا فأعرضت عنها.

---

(١) انظر روح المعاني ١٦ / ٢٨٠.

وقال سبحانه في أول سورة الأنبياء: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾

فكلتا الآيتين في المعرضين عن آيات ربهم.

٣ ـ قال في أواخر سورة طه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ۝١٣٠﴾

وقال في أول سورة الأنبياء: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾

وقال فيها أيضًا: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ۝٥﴾

فأمره في طه أن يصبر على ما قالوه في الأنبياء.

٤ ـ وقال في أواخر طه:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٣٣﴾

وقال في أول الأنبياء:

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

فكلتا الآيتين في طلب آية.

جاء في (البحر المحيط): «مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [طه: ١٣٥] قال مشركو قريش: محمد يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال، وليس يصح، وإن صح ففيه بعد فأنزل الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾» (١).

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ وانظر كتابنا (التناسب بين السورة في المفتتح والخواتيم) ١١٠ ـ ١١١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ ﴾

* * *

يحتمل أن يكون أصل التعبير (اقترب حساب الناس) ثم (اقترب الحساب للناس) بذكر اللام التي تفيد الاختصاص والاستحقاق.

ثم قدم الجار والمجرور للاهتمام والتهويل وهو المهم فقال: (اقترب للناس الحساب)، ثم أضيف (الحساب) إليهم ليكون مختصًّا بهم، وفيه تهديد أكبر فقال: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾.

ثم إن ﴿ ٱقۡتَرَبَ ﴾ يفيد المبالغة في القرب، فإن (افتعل) أدل على المبالغة من (فَعَل)، والأصل (قرب).

وقيل: إن اللام متعلقة بـ (اقترب)، واللام بمعنى (إلى) أو معنى (من)، والمعنى (اقترب من الناس حسابهم) أو (اقترب إلى الناس حسابهم). وقد ذكر هذين الاحتمالين صاحب (الكشاف) فقال: «هذه اللام لا تخلو من أن تكون صلة لـ (اقترب)، أو تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم، كقولك: (أزف للحي رحيلهم)، الأصل: أزف رحيل الحي، ثم أزف للحي الرحيل، ثم أزف للحي رحيلهم... ومنه قولهم: (لا أبالك) لأن اللام مؤكدة لمعنى الإضافة... والمراد اقتراب الساعة، وإذا اقتربت الساعة فقد اقترب ما يكون فيها من الحساب والثواب والعقاب

وغير ذلك. ونحوه: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]»[١].

ومنع قسم من النحاة أن يكون (للناس) متعلقًا بالحساب؛ لأن (الحساب) مصدر ولا يتقدم معموله عليه. جاء في (البحر المحيط): «و(للناس) متعلق باقترب... وأما جعله اللام تأكيدًا لإضافة الحساب إليهم مع تقدم اللام ودخولها على الاسم الظاهر فلا نعلم أحدًا يقول ذلك، وأيضًا فيحتاج إلى ما يتعلق به، ولا يمكن تعليقها بـ(حسابهم) لأنه مصدر موصول ولا يتقدم معموله عليه»[٢].

وذهب بعضهم إلى إجازة ذلك، جاء في (شرح الرضي على الكافية): «وأنا لا أرى منعًا من تقدم معموله عليه إذا كان ظرفاً أو شبهه نحو قولك: (اللهم ارزقني من عدوك البراءة وإليك الفرار)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ [النور: ٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ [الصافات: ١٠٢]... ومثله في كلامهم كثير، وتقدير الفعل في مثله تكلف»[٣].

ونحوه قوله: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٨]، وقولهم: (اللهم اجعل لنا من أمرنا فرجًا ومخرجًا)، وجعل الظرف متعلقًا بمحذوف حالاً من المصدر تكلف[٤].

إن تقديم الجار والمجرور (للناس) احتمل معنيين:

الأول: أنه بمعنى اقترب من الناس أو إليهم فيكون متعلقًا بالفعل (اقترب). وعليه الأكثرون.

والمعنى الآخر: أن يكون متعلقًا بالحساب، أي اقترب الحساب

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٣) شرح الرضي على الكافية ٣ / ٤٠٦.

(٤) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ٢ / ٢٢.

للناس ، أي حساب الناس. كما أجازه جماعة من النحاة.

فأفاد التقديم المعنيين واحتملهما ، بخلاف ما لو أخر الجار والمجرور فقال: (اقترب الحساب للناس).

ثم إن تقديم (للناس) سوّغ ذكر الضمير في الحساب فقال: (حسابهم) ، ولو أخر الجار والمجرور فقال: (اقترب حساب الناس) أو: الحساب للناس لم يكن للضمير موضع.

فذكر في التعبير: الناس مع ضميرهم ، وهذا يفيد ضربًا من التأكيد.

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب تهويل وتفخيم ، فكأن الحساب يحث السير والسعي للوصول إليهم ، فهو استعارة تمثيلية ، فكأن الحساب شخص مغير معجل الإغارة للوصول إلى الناس.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وفي إسناد الاقتراب المنبئ عن التوجه نحوهم إلى الحساب مع إمكان العكس بأن يعتبر التوجه والإعراض من جهتهم نحوه من تفخيم شأنه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شيء مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة» (١).

وجاء في (التحرير والتنوير): «الاقتراب مبالغة في القرب. . .

وفي إسناد الاقتراب إلى الحساب استعارة تمثيلية ، شبه حال إظلال الحساب لهم بحالة شخص يسعى ليقرب من ديار ناس.

ففيه تشبيه هيئة الحساب المعقولة بهيئة محسوسة وهي هيئة المغير والمعجّل في الإغارة على القوم يلح في السير تكلفًا للقرب من ديارهم وهم غافلون عن تطلب الحساب إياهم كما يكون قوم غارّين معرضين

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٢.

عن اقتراب العدو منهم»[١].

﴿لِلنَّاسِ﴾

قيل: إن المقصود بالناس مشركو مكة، وقيل: المشركون مطلقًا، وقيل: هو عام في منكري البعث[٢]، وقيل: إن المراد بالناس العموم[٣].

والذي يبدو أن المقصود بالناس كل من اتصف بالغفلة والإعراض. وإطلاق لفظ الناس على هؤلاء من باب المجاز المرسل والعلاقة الكلية، فقد ذكر الكل وأراد قسمًا منهم.

جاء في (الكشاف): «وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالناس المشركون. وهذا من إطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين»[٤].

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾

وصفهم بالغفلة والإعراض، وقيل: إن هذين الوصفين ظاهرهما التنافي، فإن الغافل غير المعرض، فإن المعرض عن الشيء إنما يكون إذا كان ذاكرًا له.

وقيل: إنهما وصفان باعتبار حالين مختلفين، فإنهم غافلون فإذا ذكرتهم أعرضوا. جاء في (الكشاف): «وصفهم بالغفلة مع الإعراض، على معنى أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم... وإذا قرعت لهم العصا ونبهوا عن سنة الغفلة وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٨ ـ ٩.
(٢) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٠، البحر المحيط ٦ / ٢٩٥.
(٣) فتح القدير ٣ / ٣٨٤.
(٤) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا» (١).

وجاء في (البحر المحيط): «وأخبر عنهم بخبرين ظاهرهما التنافي لأن الغفلة عن الشيء والإعراض عنه متنافيان، لكن يجمع بينهما باختلاف حالين. أخبر عنهم أولاً أنهم لا يتفكرون في عاقبة أمرهم بل هم غافلون عما يؤول إليه أمرهم.

ثم أخبر عنهم ثانيًا أنهم إذا نبهوا من سنة الغفلة وذكروا بما يؤول إليه أمر المحسن والمسيء أعرضوا عنه ولم يبالوا بذلك» (٢).

وقال: (في غفلة) بذكر (في) الظرفية، ولم يقل: (غافلون)، للدلالة على أنهم ساقطون في الغفلة وأن الغفلة محيطة بهم من كل الجهات وهم مغمورون فيها. جاء في (التحرير والتنوير): «ودلت (في) على الظرفية المجازية التي هي شدة تمكن الوصف منهم، أي وهم غافلون أشد الغفلة حتى كأنهم منغمسون فيها أو مظروفون في محيطها» (٣).

ولم يرد نحو هذا التعبير في القرآن الكريم إلا في اليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩].

وقال: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٦.
(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠.

وآية الأنبياء هذه.

وذلك أشد الغفلة.

وجاء بالإعراض بالصيغة الاسمية فقال: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ للدلالة على الثبات والدوام.

والوصف بالإعراض الثابت الدائم مناسب لهذه الغفلة العظيمة الغامرة.

وفي الآية مبالغات عديدة منها:

أنه قال: ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾ ولم يقل: (قرب) وهو مبالغة في القرب.

وقال: (للناس) فأطلق الكل على الجزء وهم المشركون أو المتصفون بهذين الوصفين وهو مبالغة.

وقدم الجار والمجرور للاهتمام والتهويل، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه أفاد التوسع في المعنى، فقد يحتمل أن يكون ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقًا بـ﴿ٱقۡتَرَبَ﴾، ويحتمل أن يكون متعلقًا بالحساب، فأفاد معنيين وهو توسع في المعنى.

وأضاف الحساب إلى الناس فقال: ﴿حِسَابُهُمۡ﴾ تهويلاً وإنذارًا شديدًا، ولم يقل: (اقترب للناس الحساب).

وقال: ﴿فِي غَفۡلَةٖ﴾ ولم يقل: (غافلون) للدلالة على تمكن الغفلة منهم وأنهم ساقطون فيها كالساقط في اللجة.

وقال: ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾ بالاسم للدلالة على الثبات والدوام.

وجمع بين الغفلة والإعراض. فهم في غفلة فإذا ذُكّروا أعرضوا.

* * *

﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ذكر من مظاهر إعراضهم أنه ما يأتيهم شيء من القرآن يذكّرهم إلا استمعوه وهم في لعب ولهو غير ملتفتين إلى شيء من ذلك.

وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ فنفاه بـ(ما) للدلالة على شأنهم في الحال. ولم يقل (لا يأتيهم) فينفيه بـ (لا) التي تدل على نفي المضارع في المستقبل غالبًا، وإنما ذكر حالتهم آنذاك، وذلك أن (ما) النافية إذا دخلت على المضارع أفاد الحال.

وقال: ﴿يَأْتِيهِم﴾ للدلالة على تجدد الإتيان واستمراره، ولم يقل: (ما أتاهم) التي قد تفيد حالة من حالات الماضي.

وقال: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ بـ(من) الاستغراقية التي تفيد التوكيد والاستغراق، فهم يعرضون ويلهون عن كل ذكر يأتيهم من ربهم وليس عن ذكر دون ذكر.

قال: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ وهذا أسوأ شيء، فإن الذكر إنما هو من ربهم الذي هو خالقهم ومربيهم ورازقهم ومتولي أمرهم. وهذا أسوأ إعراض. فإنه لو كان اللهو والإعراض عن الذكر من جهة أخرى لكان أقل سوءًا ونكرًا، فكيف وقد أتاهم الذكر من ربهم؟!

ثم قال: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أي جديد ينزل إليهم بعد ذكر سابق. فهم يعرضون عن كل ذكر ينزل على ما فيه من فنون الموعظة والتذكير.

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ ولم يقل: (سمعوه) مجرد السماع من دون معرفة بما فيه، وإنما استمعوا الموعظة وأدركوا مغزاها ومع ذلك استمعوها وهم يلعبون لاهين عابثين غير عابئين بها ولا ملتفتين إليها بل استمعوها لاهين ساخرين.

جاء في (الكشاف): «قرر إعراضهم عن تنبيه المنبه وإيقاظ الموقظ

بأن الله يجدد لهم الذكر وقتًا فوقتًا ، ويحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون ، فما يزيدهم استماع الآي والسور وما فيها من فنون المواعظ والبصائر التي هي أحق الحق وأجدّ الجد إلا لعبًا وتلهيًا واستسخارًا.

والذكر: هو الطائفة النازلة من القرآن»[١].

وقال ههنا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

فقال: (من ربهم).

وقال في الشعراء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾

فقال: (من الرحمن)

وذلك أنه ذكر في سياق آية الأنبياء صفات أشد سوءًا مما ذكره في الشعراء مما يبعدهم عن الرحمة.

فقد ذكر في الشعراء أنهم معرضون عن الذكر ، وقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾ فذكر أنه ستأتيهم الأنباء ولم يقل سيأتيهم العذاب.

في حين قال في سورة الأنبياء إنهم في غفلة وإنهم معرضون ، وإنهم يستمعون الذكر وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم ، وإنهم قالوا عن رسولهم ليس إلا بشرًا ، وإن ماجاء به سحر ، وإنه أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ، وإنهم أرادوا آية كما أرسل الأولون.

فكانوا أبعد عن الرحمة.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

وقال أيضًا: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾.

وقال: ﴿ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٩﴾.

وقال: ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝١١﴾

وقال: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾

وقال: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾

كل هذا لا يناسب الرحمة لأنه في مقام الإهلاك.

وأما في الشعراء فقد قال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾

فإن الله أرحم بك من ذلك.

وقال: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦﴾ فذكر أنهم تأتيهم الأنباء ولم يذكر العقوبة.

ثم ذكر من مظاهر رحمته في الأرض فقال: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧﴾

ثم كرر قوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ثماني مرات في السورة.

ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧﴾ فذكر العزيز الرحيم تسع مرات. فناسب ذلك ذكر اسمه (الرحمن).

فناسب ذكر (الرب) في آية الأنبياء، وذكر الرحمن في آية الشعراء.

جاء في (ملاك التأويل) في سبب الاختلاف بين هاتين الآيتين: «أن اسمه سبحانه (الرحمن) يغلب وروده حيث يراد الإشارة إلى العفو والإحسان والرفق بالعباد والتلطف والتأنيس...

وأما اسمه الرب فيعم وروده في طرفي الترغيب والترهيب... ولما

تقدم قبل آية الأنبياء من الأخبار ما طيّه وعيد وترهيب مع تلطفه سبحانه بهم بتذكيرهم لم يكن ليناسب ذلك ورود اسمه الرحمن.

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ أشد تخويفًا للمخاطبين. . .

وأما آية الشعراء فمبنية على تأنيس النبي ﷺ وإعلامه أن توقف قومه عن الإيمان إنما هو بقدرته تعالى ولو شاء لأراهم آية تبهرهم كنتق الجبل فوق بني إسرائيل. وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] ثم رجع الكلام إلى تعنيف المكذبين. فلما كان بناء الآية على التأنيس والتلطف بنبينا ﷺ وإعلامه بأن تأخير العذاب عنهم إنما هو إبقاء منه تعالى ليستجيب من قدر له الإيمان منهم. فأشار إلى هذا وناسب اسمه الرحمن فقال تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ فقد وضح ورود كل من الاسمين في موضعه على ما يجب ويناسب» (١).

وجاء في (كشف المعاني) لابن جماعة أنه «لما تقدم هنا ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ وذكر إعراضهم وغفلتهم وهو وعيد وتخويف فناسب ذكر الرب المالك ليوم القيامة المتولي ذلك الحساب.

وفي الشعراء تقدم ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾ لكن لم يفعل ذلك لعموم رحمته للمؤمنين والكافرين لم يشأ ذلك، ويقوي ذلك تكرير قوله تعالى في السورة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾» (٢).

* * *

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٩٢ ـ ٦٩٤.

(٢) كشف المعاني ٢٥٤.

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾

«اللاهية من (لها عنه) إذا ذهل وغفل» (١).

أسند اللهو وهو الذهول والغفلة إلى القلوب ؛ لأن القلوب هي آلة الفقه والعلم ، وهي آلة التدبر والهدى ، وربنا يسند ذلك إليها أو ينفيه عنها. قال تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦].

وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤].

فإذا غفلت غفل صاحبها ، وإذا عقلت عقل صاحبها ، فوصف قلوبهم بالغفلة الثابتة فقال : (لاهية) بالاسم.

والوصف بالاسم هنا مناسب لوصفهم بالغفلة التي تغمرهم والإعراض الثابت في قوله : ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾.

﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

قوله : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ فيه مبالغة في الإسرار والإخفاء ، ذلك أن النجوى إنما تكون في السر ، فإذا قلت : (تناجى فلان وفلان) فمعنى ذلك أنهما أخفيا حديثهما ، فإذا قلت : (أسرّا النجوى) أفاد ذلك المبالغة في الإخفاء.

فالإسرار يفيد الإخفاء عن غير الذي تسر إليه الحديث.

والتناجي يفيد الإخفاء أيضًا. فإذا قلت : (أسرّ النجوى) فقد بالغت في الإخفاء.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية فما معنى قوله: ﴿وَأَسَرُّوا﴾؟

قلت: معناه: وبالغوا في إخفائها. . . أو جعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم ولا يعلم أنهم متناجون»[1].

إن قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتمل أوجهًا إعرابية متعددة، منها أن ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من الواو في ﴿أَسَرُّوا﴾، فقد أسند الإسرار إليهم على وجه العموم ثم بين الذين أسروا فقال: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وهذا نظير ذكر الناس على العموم في قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ثم بين المقصود بهؤلاء الناس فيما بعد.

وهو تناظر لطيف.

ويحتمل أن التعبير مبني على التقديم والتأخير، فقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ جملة خبر مقدم، و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مبتدأ مؤخر، فيكون من باب تقديم الخبر لغرض الاهتمام.

ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منصوبًا على الذم أو على إضمار (أعني). وكل هذه الأوجه على اختلاف التقديرات تفيد الاهتمام والعناية كل بحسب ما يدل عليه.

وقيل: إنما هو على لغة (أكلوني البراغيث) أي على لغة من يجعل هذه الضمائر حروفًا تدل على الفاعل فيقولون: أقبلا الرجلان، وأقبلوا الرجال، وأقبلن النسوة.

والأولى تخريجها على لغة سائر العرب وما في ذلك من دلائل معنوية.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

جاء في (الكشاف): «أبدل ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من واو ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ إشعارًا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به، أو جاء على لغة من قال: (أكلوني البراغيث)، أو هومنصوب المحل على الذم، أو هو مبتدأ خبره ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ قدم عليه.

والمعنى: وهؤلاء أسرّوا النجوى، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم»[(١)].

﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

أنكروا أن يرسل الله بشرًا مثلهم، فإنه لا بد ـ فيما يرون ـ أن يكون الرسول من الله ملكًا وهذه شبهة كثير من المجتمعات البشرية، فقد ذكر ربنا عن مجموعة من المجتمعات البشرية أنهم قالوا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقال في قوم نوح إنهم قالوا في رسولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقال في قوم بعد قوم نوح في رسولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤].

وكذلك من بعدهم.

وأخبر ربنا أن هذه الشبهة منعت الناس من الإيمان فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وكذلك هي شبهة كفار قريش، ولذا أمر ربنا رسوله في أكثر من

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٠ ـ ٣٢١، وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

موضع أن يقول لهم إنه بشر مثلهم فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦].

جاء في (الكشاف): «اعتقدوا أن رسول الله ﷺ لا يكون إلا ملكًا، وأن كل من ادعى الرسالة من البشر وجاء بالمعجزة هو ساحر ومعجزته سحر، فلذلك قالوا على سبيل الإنكار: أفتحضرون السحر وأنتم تشاهدون وتعاينون أنه سحر»(١).

«والسحر عنوا ما ظهر على يديه من المعجزات»(٢).

وجملة ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ تحتمل أن تكون بدلاً من النجوى، أي أسروا هذا القول.

وتحتمل أن تكون مفعولاً به لقول محذوف، أي وأسروا النجوى قائلين: ﴿ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾.

جاء في (الكشاف): «هذا الكلام كله في محل النصب بدلاً من النجوى، أي وأسروا هذا الحديث. ويجوز أن يتعلق بـ (قالوا) مضمرًا»(٣).

وذكرت أوجه أخرى(٤).

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾.

وقال في سورة (طه): ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا ﴾ [طه: ٦٢ - ٦٣].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.
(٣) الكشاف ٢ / ٣٢١، تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٤.
(٤) انظر روح المعاني ١٧ / ٨.

فذكر القول إضافة إلى الإسرار فقال: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ. . .﴾ ولم يذكر ذلك في آية الأنبياء فما الفرق؟

فنقول: إن ذكر القول مع ذكر النجوى آكد وأهم ؛ لأنه ذكر القول مع ما فيه معنى القول. فإن النجوى معناها القول ، ثم ذكر القول إضافة إلى ذلك ، فكأنه قد كرر اللفظ فكان آكد.

وذلك أن الموقف في (طه) أشد ، فإن السياق فيها إنما هو في موسى وفرعون وما حصل بينهما من المناظرة والمشادّة بعدما رأوا الآيات وكذبوها وزعموا أنها سحر ، وأن موسى وأخاه ساحران.

وتحدوه بأنهم سيأتونه بسحر مثله. ثم إن فرعون جمع كيده ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾.

فالموقف في (طه) موقف تحدّ ومواعدة وامتحان ومغالبة ، فكان الموقف أشد مما في الأنبياء الذي ليس فيه شيء من ذلك.

فناسب ذكر القول إضافة إلى ما في معناه في آية (طه) دون آية الأنبياء.

* * *

﴿قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلاّ قيل: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ لقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾؟

قلت: القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة، فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول: يعلم السر.

كما أن قوله: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ آكد من أن يقول: (يعلم سرهم) ، ثم

بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية؟» [١] .

قد تقول: لقد قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفرقان: ٦].

فقال في آية الأنبياء: ﴿ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بإفراد السماء.

وقال في آية الفرقان: ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بالجمع فلم ذاك؟

والجواب: إن القول أعم من السر، فهو يشمل السر وزيادة كما ذكر صاحب الكشاف، فإن القول يكون سرًّا وجهرًا، قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة: ٨].

وإن السماء أعم من السماوات [٢] .

فناسب العموم العموم والخصوص الخصوص.

وقد تقول: ولم قال في آية الأنبياء ﴿ يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ ﴾.

وقال في آية الفرقان: ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ ﴾؟

والجواب أنه ذكر النجوى وما قالوه فيها في آية الأنبياء، والنجوى قول، فناسب ذلك أن يقول: ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ ﴾.

وليس في آية الفرقان مثل ذلك، وإنما هي في سياق آخر فذكر السر. فقد قال قبل آية الفرقان: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾، فقالوا إنه أساطير الأولين اكتتبها، أي كتبت له وأمليت عليه، وهذا مما فعل في السر، فناسب ذكر السر.

جاء في (الكشاف) أن أسلوب آية الأنبياء خلاف أسلوب آية الفرقان

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٧، روح المعاني ١٢ / ٣٢٦.
(٢) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ٥٢ ـ ٥٣.

«من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى ، فكأنه أراد أن يقول : إن ربي يعلم ما أسروه ، فوضع القول موضع ذلك للمبالغة .

وثَمّ قصد وصف ذاته بأن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، فهو كقوله : ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾» (١) .

لقد ختم هذه الآية ـ أعني آية الأنبياء ـ بقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بذكر صفتي السمع والعلم ، ذلك أنه ذكر ما يسمع وما يعلم . فإن التناجي قول ، والقول مما يسمع ، وذكر الإسرار وهو مما يعلم ، فناسب ختم الآية بهذين الوصفين الجليلين .

وعرفهما للحصر ، فهو الكامل في هذين الوصفين دون غيره ، فليس ثمة ذات أخرى تتصف بهما على نحو ما يتصف به سبحانه .

* * *

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ۝٥﴾

«أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ، ثم إلى أنه كلام مفترى من عنده ، ثم إلى أنه قول شاعر ، وهكذا الباطل لجلج ، والمبطل متحير رجاع غير ثابت على قول واحد» (٢)

«وهذه الأقوال الظاهرة أنها صدرت من قائلين متفقين انتقلوا من قول إلى قول ، أو مختلفين قال كل منهم مقالة» (٣) .

وقوله : ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ «جواب شرط محذوف ،

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢١ .
(٢) الكشاف ٢ / ٣٢١ .
(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧ .

أي إن لم يكن كما قلنا فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» [١].

وهذه الأقوال جمعت القول في طبيعة الرسول وفيما جاء به وفي صفاته.

ففي طبيعة الرسول ذكر أنهم قالوا إنه بشر مثلهم.

وفيما جاء به قالوا إنه سحر وإنه أضغاث أحلام.

وفي صفاته قالوا إنه افتراه وإنه شاعر.

* * *

﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

لما طلبوا أن يأتيهم بآية كما أرسل الأولون قال سبحانه: إن القرى التي أوتيت الآيات لم يؤمنوا، فأهلكها ربنا، أفهؤلاء يؤمنون؟ أي إنهم لا يؤمنون.

وفحوى ذلك أنه إن لم يؤمنوا فسيهلكهم كما أهلك الأولين. فأمسك عنهم الآيات ليستبقيهم فيؤمن منهم من يؤمن ويمكّن لهم في الأرض ويستخلفهم إلى قيام الساعة.

جاء في (الكشاف): «فيه أنهم أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها، فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله. فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أنكث وأنكث» [٢].

وجاء في (البحر المحيط): «ولكن حكم الله تعالى بإبقائهم ليؤمن من آمن ويخرج منهم مؤمنين» [٣].

---

(١) فتح القدير ٣ / ٣٨٥.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٢١.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.

وجاء في (التحرير والتنوير): «وإنما أمسك الله الآيات والخوارق عن مشركي مكة لأنه أراد استبقاءهم ليكون منهم مؤمنون وتكون ذرياتهم حملة هذا الدين في العالم.

ولو أرسلت عليهم الآيات البينة لكانت سنة الله أن يعقبها عذاب الاستئصال للذين لا يؤمنون بها»[(١)].

والمراد بإهلاك القرية إهلاك أهلها.

جاء في (روح المعاني): «﴿أَهْلَكْنَاهَآ﴾ صفة قرية. والمراد أهلكناها بإهلاك أهلها لعدم إيمانهم بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات»[(٢)].

لقد قال سبحانه: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم﴾ ولم يقل: (من قبلهم) ذلك أن (من) تفيد ابتداء الغاية[(٣)] أي من قبلهم القريبين فمن قبلهم.

وأما ﴿قَبْلَهُم﴾ فتفيد القبلية غير المقيدة فقد تكون قريبة أو بعيدة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴿٣٤﴾﴾.

فجاء بـ (من) لأن ذلك يشمل جميع من قبله ابتداء من الأقرب فمن قبلهم، فكلهم ماتوا ولم يخلد أحد منهم.

فقال: (قبلهم) ولم يقل: (من قبلهم) لأنه لم يحصل ذلك في الزمن القريب منهم، ذلك أن أقرب رسول منهم هو عيسى بن مريم، وبين الرسالتين أكثر من ستمائة عام، وهو زمن بعيد، ولا نعلم كم من الزمن ممن هو قبل عيسى حصل ذاك فلم يذكر (من).

وقال: ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ بإدخال (من) الاستغراقية على القرية، فأفاد ذلك

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٧.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٢.

(٣) انظر كتابنا (معاني النحو) ٢ / ١٩٣ وما بعدها.

استغراق جميع القرى التي لم تؤمن.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ فجعل الإهلاك للقرية. في حين قال في موطن آخر: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فجعل الإهلاك لأهلها، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ فما السبب؟

فنقول: لما قال: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ فأسند الظلم إلى أهلها قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥] لما نسب الظلم إليها فقال: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ قال: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾؟.

ومن اللطائف في نحو هذا التعبير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ ولم يقل: (أهلكناها)، ذلك أنه لما قال: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ ويعني بالقرية التي أخرجته مكة قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ولم يقل: (أهلكناها) تعظيمًا لها لئلا يظن أنه سينالها الإهلاك كما فعل بالقرى العاتية. فجعل الإهلاك لأهلها، وليس ببعيد على الله أن يهلك العتاة من أهل هذه القرية كما فعل بغيرهم ويأتي بمن هو خير منهم.

ألا ترى أنه نسب الظلم إلى القرى في أكثر من موضع فقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٨].

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] إلا مكة فإنه لم ينسب الظلم إليها، وإنما نسبه إلى أهلها تعظيمًا لها أن ينسب إليها الظلم وتكريمًا فقال: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥].

وهو من لطيف مراعاة المقام.

* * *

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ ﴾

رد على قولهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ بهذه الآية، فذكر أن الرسل قبل سيدنا محمد كلهم بشر يوحى إليهم وليسوا ملائكة. وإن كنتم لا تعلمون ذلك فاسألوا أهل الذكر، أي أهل الكتاب حتى يعلموكم.

جاء في (الكشاف): «أمرهم أن يستعلموا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم أن رسل الله الموحى إليهم كانوا بشرًا ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا»[1].

وجاء في (البحر المحيط): «ولما تقدم من قولهم: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ وأن الرسول لا يكون إلا من عند الله من جنس البشر قال تعالى رادًّا عليهم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ أي بشرًا، ولم يكونوا ملائكة كما اعتقدوا. ثم أحالهم على أهل الذكر فإنهم وإن كانوا مشابهين للكفار ساعين في إخماد نور الله لا يقدرون على إنكار إرسال البشر.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من حيث إن قريشًا لم يكن لها كتاب سابق ولا أثارة من علم»[2].

قد تقول: لقد قال في أكثر من موضع: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ بذكر (من)، وفي آية الأنبياء هذه لم يذكر (من).

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٢٩٨ وانظر روح المعاني ١٧ / ١٢.

فقد قال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ بذكر (من).

وقال في النحل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ بذكر (من) أيضًا. فما الفرق؟

فنقول: إن السياق في كل موضع يوضح السبب:

فقد ذكر كثير من النحاة أن (من) في نحو هذا التعبير تدل على ابتداء الغاية، وذهب قسم آخر إلى أنها تفيد التوكيد[١].

ومقتضى ابتداء الغاية على ما ذكر بعضهم في نحو هذا التعبير أنه يفيد استغراق الزمن المتقدم ابتداء من ابتداء الغاية إلى ما قبله، وأن (من) تفيد توكيد ما دخلت عليه[٢].

ثم إن السياق في آيتي يوسف والنحل يختلف عنه في آية الأنبياء، فما كان في يوسف والنحل إنما هو في سياق العقائد.

فقد قال في سياق آية يوسف: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾.

فذكر كثرة الآيات التي يمرون عليها في السماوات والأرض وهم معرضون عنها. وهذه أعم وأكثر بكثير من كون (الرسل بشرًا)، فهذه

---

(١) انظر لسان العرب (من)، المغني ١ / ٣٢٥-٣٢٦، التصريح ١ / ٣٤٢.
(٢) انظر ملاك التأويل ١ / ٦٧٨، درة التنزيل ٢٤١.

مسألة واحدة وتلك آيات كثيرة. ثم ذكر معتقداتهم في الإيمان بالله مع شركهم به.

ثم قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ ﴾.

فقد حذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل القرى الذين يمرون عليهم من العقوبة ويستمر في الكلام في نحو هذا.

كل هذا ليس متعلقًا بكون الرسل بشرًا أو ملائكة.

فالأمر آكد وأعم وأشمل، فجاء بـ (من) التي قد تفيد التوكيد والعموم.

وكذلك السياق في سورة النحل فإنه في العقائد والبينات والزبر وتحذير المعاندين بالعقوبات. فقد قال في سياق آية النحل: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ ﴾.

فذكر استغراق بعث الرسل للأمم كلها ودعوتهم إلى عبادة الله واجتناب الطاغوت، وليس الكلام على كون الرسل بشرًا أو ملائكة، إلى أن قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤ ﴾.

وطلب منهم استعلام أهل الكتاب عن البينات والزبر، وإنه أنزل الذكر إليه ليبين للناس ما نزل إليهم. وليس له علاقة بكون الرسل بشرًا أو ملائكة. فهو أعم وأشمل من ذلك. وحذر الذين يمكرون السيئات أن

يخسف الله بهم الأرض أو يعذبهم.

وهو نظير ما مر في سورة يوسف. فجاء بـ (من) الدالة على العموم والتوكيد والشمول.

وأما آية الأنبياء فهي في أمر واحد وهو ما يتعلق بإثبات بشرية الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾.

فما في يوسف والنحل أعم وأشمل.

ونظير آية الأنبياء هذه ما جاء في سورة الفرقان وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ۝٢٠﴾.

فلم يذكر (من) في الموضعين لتشابههما.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ليست كل الأمم ينكرون بشرية الرسل، فإن أهل الكتاب لا ينكرون ذلك، ولذلك أحالهم على أهل الذكر للاستفسار، بخلاف الإيمان بما جاءت به الرسل، فإن عموم التكذيب إنما هو في ذلك.

فما في آيتي يوسف والنحل أعم من هذه الناحية أيضًا.

فإن المكذبين بما جاءت به الرسل أكثر من المكذبين بكون الرسل بشرًا.

فما جاء بـ (من) أكثر.

فناسب ذكر (من) من هذه الناحية أيضًا.

ثم إن آية الأنبياء مناسبة لما قبلها وهو قوله: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ ﴿٦﴾ ﴾.

فكلتا الآيتين من دون (من).

فناسب ذلك من هذه الناحية أيضًا.

ثم لننظر في الآيات من ناحية أخرى:

فقد قال في آية يوسف: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ ﴾.

فذكر (أهل القرى) ذلك أنه قال في الآية: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ ﴾ وهم يمرون على القرى في سيرهم في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ ﴾ [الفرقان: ٤٠] فناسب ذكر القرى.

وقال في آية النحل: ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ ﴾.

ذلك أنه قال بعد ذلك: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

فالتناسب ظاهر.

جاء في (درة التنزيل): «قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال في سورة النحل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ ﴾.

وقال في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

للسائل أن يسأل فيقول: هل بين قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ فرق؟ ولأي معنى خص موضع بحذف (من) وموضع بإثباتها؟

الجواب: أن يقال: إن (من) لابتداء الغاية. و(قبلك) اسم للزمان الذي تقدم زمانك. فإذا قال: (وما أرسلنا من قبلك) فكأنه قال: وما أرسلنا من ابتداء الزمان الذي تقدم زمانك، فيخص الزمان الذي يقع عليه قبل تحديه. ويستوعب بذكر طرفيه ابتداءه وانتهاءه.

وإذا قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ﴾ فمعناه: ما فعلنا في الزمان الذي تقدم زمانك...

فأما قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ فإنما لم يؤكد بـ (من) لأن المعتمد بالخبر إنما هو الحال التي للمرسلين، وهي أنهم يأكلون الطعام وليسوا من الملائكة الذين طلب الكفار أن يبعثوا إليهم وأخبر الله تعالى به عنهم في قوله: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾» (١).

وجاء في (ملاك التأويل) في هذه الآيات التي ذكرها صاحب الدرة: «أن آية يوسف قد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦﴾، وقوله: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ وقوة السياق في هذه الآي يدل على القسم ويعطيه، فناسب ذلك زيادة (من) المقتضية الاستغراق.

وكذلك قوله في سورة النحل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ [النحل: ٤١] يؤكد ذلك

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ٢٤٠ ـ ٢٤٢.

المعنى. فناسبه زيادة (من) لاستغراق ما تقدم من الزمان.

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ ﴾ فتقدم قبلها إنكار الكفار كون الرسل من البشر في قوله: ﴿ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ ﴾ واقتراحهم الآيات في قولهم: ﴿ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥ ﴾، فلما انطوى هذا الكلام على قضيتين من اقتراحهم الآيات وإنكارهم كون الرسل من البشر، وقد تبين لهم حال المقترحين في قوله تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ ﴾ فلما تقدم هذا أتبع ببيان الطرف الآخر وهو التعريف بأن من تقدم من الرسل إنما كانوا رجالاً من البشر مختصين بتخصيصه سبحانه ولم يكونوا ملائكة، فقيل لنبينا محمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ ﴾. فقيل هنا (قبلك) كما قيل في نظيرتها ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم ﴾ فلم تدخل هنا (من) كما لم تدخل في النظير الآخر لإحراز التناسب والتحام الجملة المنطوية على طرفي مقصدهم من الاقتراح وإنكار كون الرسل من البشر»[١].

* * *

﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ﴾

أي لم نجعلهم أجسادًا لا تأكل الطعام، وإنما جعلناهم بشرًا يأكلون ويشربون ويموتون كسائر البشر.

وهو رد على قولهم مستنكرين: ﴿ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ ﴾ وقولهم في موضع آخر: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ [الفرقان: ٧].

جاء في (الكشاف): ﴿ لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ صفة لجسدًا، والمعنى: وما جعلنا الأنبياء عليهم السلام قبله ذوي جسد غير طاعمين.

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٥٤٠ ـ ٥٤١.

ووحد الجسد لإرادة الجنس ، كأنه قال : ذوي ضرب من الأجساد .

وهذا رد لقولهم : ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان : ٧٠]» (١) .

ونفى الجملتين بـ (ما) دون (لم) ذلك أن (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلام أو ما نزل هذه المنزلة ، تقول : (لقد قال فلان كذا وكذا) فيقال لك : (ما قال ذلك) . قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فكان جوابه : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦ﴾ [المائدة : ١١٧] (٢) .

جاء في (الفروق اللغوية) : «(ما) جواب عن الدعوى ، تقول : قلت كذا ، ويكون الجواب : ما قلت» (٣) .

ومن ناحية أخرى أن (ما) آكد من (لم) ، فإنها تقع جوابًا لقسم ، بخلاف (لم) ، قال تعالى : ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ٢٣] ، وقال : ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ [التوبة : ٧٤] .

* * *

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾

هذه إشارة إلى أنه سبحانه سيصدق رسوله ما وعده من النصر والظفر وإهلاك أعدائه كما فعل مع الرسل قبله .

جاء في (البحر المحيط) : «ذكر تعالى سيرته مع أنبيائه فكذلك يصدق

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ ، وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، روح المعاني ١٧ / ١٣ .

(٢) انظر معاني النحو ٤ / ١٦٧ .

(٣) الفروق اللغوية ٣٣٤ .

نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه ما وعدهم به من النصر وظهور الكلمة ، فهذه عدة للمؤمنين ووعيد للكافرين» [١] .

وجاء بأداة التراخي (ثم) إشارة «إلى أنهم طال بلاؤهم بهم وصبرهم عليهم ، ثم أحل بهم سطوته وأراهم عظمته . ولذا قال مسببًا عن ذلك : (فأنجيناهم) أي الرسول بعظمتنا» [٢] .

«والإتيان بصيغة المستقبل في قوله تعالى : ﴿ وَمَن نَّشَآءُ ﴾ احتباك ، والتقدير : فأنجيناهم ومن شئنا وننجي رسولنا ومن نشاء منكم . وهو تأميل لهم أن يؤمنوا لأن من المكذبين يوم نزول هذه الآية من آمنوا فيما بعد إلى يوم فتح مكة .

وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيمان . ولذلك لم يقل : (ونهلك المسرفين) بل عاد إلى صيغة المضي الذي هو حكاية لما حل بالأمم السالفة . . .

والمسرفون : المفرطون في التكذيب بالإصرار والاستمرار عليه حتى حل بهم العذاب» [٣] .

* * *

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الذكر : الشرف والصيت والثناء ، والذكر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ووضع الملل ، والذكر : الموعظة ، والتذكير : الوعظ [٤] .

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٢٩٩ .

(٢) نظم الدرر ١٢ / ٣٩٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٢١ .

(٤) انظر لسان العرب (ذكر) ، تاج العروس (ذكر) .

والمعنى: لقد أنزلنا إليكم كتابًا فيه شرفكم وصيتكم وفيه موعظتكم وهداكم. فجمع فيه الهدى والموعظة والصيت والشرف والثناء عليهم.

أفلا تعقلون عظمة هذا الكتاب ونفعه لكم؟ وهل هناك عاقل يرفض ما فيه من خير كثير؟! وماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟! وجاء بـ (لقد) الدالة على القسم ليؤكد هذا الأمر.

جاء في (الكشاف): «(ذكركم) شرفكم وصيتكم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أو موعظتكم، أو فيه مكارم الأخلاق التي كنتم تطلبون بها الثناء أو حسن الذكر، كحسن الجوار والوفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الأمانة والسخاء وما أشبه ذلك»[(١)].

* * *

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

* * *

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾

القصم: أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء ويفرقها بالكلية.

والتعبير بالقصم يدل على غضب شديد.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢ وانظر البحر المحيط ٦ / ٢٩٩، تفسير أبي السعود ٣ / ٦٨٩، روح المعاني ١٧ / ١٤ ـ ١٥.

و(كم) خبرية وهي تدل على التكثير.

ونسب الظلم إلى القرية والمقصود أهلها لإرادة الشمول والعموم.

جاء في (الكشاف): «﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ واردة عن غضب شديد ومنادية على سخط عظيم لأن القصم أفظع الكسر، وهوالكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم.

وأراد بالقرية أهلها، ولذلك وصفها بالظلم.

وقال: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ لأن المعنى: أهلكنا قوما وأنشأنا قومًا آخرين»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «وفي لفظ القصم الذي هو عبارة عن الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها بالكلية، كما يشعر به الإتيان بالقاف الشديدة من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط ما لا يخفى»[(٢)].

قد تقول: لقد قال في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

فذكر القرية في الأنبياء، وذكر القرن في الأنعام.

وذكر القصم في الأنبياء، وذكر الإهلاك في الأنعام.

وقال في الأنبياء: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٥.

وقال في الأنعام: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾

فما دلالة ذلك في كل من الموطنين؟

فنقول:

١ ـ القرن أهل زمن واحد، والجيل الواحد، وقيل: هو مائة سنة، وقيل: ثمانون، وقيل غير ذلك[1].

أما القرية فمعروفة.

والقرن إنما تكون فيه قرى كثيرة. فالقرن الواحد يشمل كثيرًا من القرى، فقد تكون عشرات القرى في زمن واحد.

فالقرى أكثر عددًا من القرن.

ثم إنه وصف القرن بأوصاف تخصصهم قد لا تكون في القرية، فقد قال فيه: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾. وقد تكون القرية غير ممكنة في الأرض كما وصف.

وذكر أنه أرسل السماء عليهم مدرارًا وجعل الأنهار تجري من تحتهم، وليست كل القرى كذلك.

٢ ـ قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾.

وقال في آية الأنعام: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾

فقال بعد إهلاك القرى إنه أنشأ قومًا آخرين.

وأما القرن فيليه قرن آخر فناسب ذكر القرن بعد إهلاك القرن قبله.

٣ ـ قال في آية الأنبياء: ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا﴾.

---

(١) انظر لسان العرب (قرن)، تاج العروس (قرن)، المصباح المنير (قرن).

وقال آية الأنعام: ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

ذلك أنه بعد إهلاك القرى قد يتأخر الزمن لمجيء قوم بعدهم، فقد تبقى القرى خالية خاوية من دون أن يأتي بعد هلاكها قوم.

أما القرن فيليه القرن الآخر بلا فاصل، فجاء بـ (من) التي تفيد الابتداء.

٤ ـ قوله: (قصمنا) في آية الأنبياء مناسب لقوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ذلك أن الظلم يستدعي شدة العقوبة.

وقوله: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ مناسب لقوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ فإن الذنوب قد تكون كبيرة وقد تكون دون ذلك.

فناسب ذكر القصم وهو أفظع الكسر والمنبئ عن السخط الشديد ذكر الظلم.

وناسب ذكر الإهلاك الذي قد لا يبلغ مبلغ القصم قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾.

ثم إن القصم إهلاك خاص فناسب ذكر الظلم، وهو أخص من عموم الذنب.

وإن الإهلاك عام فناسب ذكر الذنوب وهي عامة.

فناسب كل تعبير موضعه.

وقد تقول: لكنه سبحانه قد يذكر الظلم ولا يذكر القصم وإنما يذكر الإهلاك كما قال تعالى في سورة الحج: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾.

فنقول: القصم كما ذكرنا ينبئ عن شدة العقوبة وشدة السخط، ولو نظرنا في سياق كل من الآيتين في الحج والأنبياء لاتضح الفرق.

فإنه قال في آية الحج: ﴿ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

وقال في سياق آية الأنبياء: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

فذكر أنهم أترفوا وأنهم نادوا بالويل وأقروا بالظلم ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ وأنه سبحانه جعلهم حصيدًا خامدين.

فالفرق ظاهر.

فناسب كل تعبير موضعه.

* * *

﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

الركض: ضرب الدابة بالرجل، يقال: (ركض الدابة) أي ضربها برجله لتسرع.

ومعنى الآية أنهم لما أحسوا العذاب ركضوا دوابهم هاربين من القرية. ويحتمل أنهم جروا على أرجلهم مشبهين من يركض الدابة لسرعة عَدْوهم.

و(إذا) فجائية، أي هربوا عند إحساسهم بالعذاب من دون تأخر أو انتظار. جاء في (الكشاف): «والركض: ضرب الدابة بالرجل، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص: ٤٢]. فيجوز أن يركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن شبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم»(١).

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

وجاء في (البحر المحيط): «والظاهر أنهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين. قيل: ويجوز أن شبهوا في سرعة عدْوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فهم يركضون الأرض بأرجلهم كما قال: ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ ﴾»[1].

* * *

﴿ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

من المحتمل أنه قيل لهم ذلك والقول محذوف، أو أن ذلك قول بلسان الحال، أي حريّ بهم أن يقال لهم ذلك. جاء في (تفسير أبي السعود): «أي قيل لهم بلسان الحال أو بلسان المقال»[2].

والهروب من مساكنهم وما هم فيه من ترف ورفاه وسعة عيش فجأة من دون تأخر يدل على شدة ما نزل بهم.

﴿ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ عما نزل بكم وما جرىٰ لأموالكم ومساكنكم وماذا تأمرون وبم تشيرون علينا وماذا نفعل. وهذا تهكم بهم.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: من القائل؟

قلت: يحتمل أن يكون بعض الملائكة أو مَن ثَمّ من المؤمنين أو يجعلوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل.

﴿ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ ﴾ من العيش الرافه والحال الناعمة، والإتراف: إبطار النعمة وهي الترفة.

﴿ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ تهكم بهم وتوبيخ، أي ارجعوا إلى نعيمكم

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٠.

ومساكنكم لعلكم تسألون غدًا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة» [١].

وجاء في (روح المعاني): «﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير في المهمات والنوازل، أو تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو يسألكم حشمكم وعبيدكم فيقولوا لكم: بم تأمرون وماذا ترسمون وكيف نأتي ونذر كما كنتم من قبل» [٢].

* * *

﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

أي نادوا بالويل وهو الهلاك. وذكروا علة الهلاك وهي الظلم. وأطلقوا الظلم ولم يخصصوه بشيء للدلالة على عموم الظلم وأن ظلمهم كان عامًّا لا ينحصر بشيء.

وجاء بالاسم للدلالة على اتصافهم بالظلم على جهة الثبات والدوام وليس على جهة الحدوث، فاستحقوا ما نزل بهم من العذاب.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي ظلوا يرددون هذا القول ويدعون بالويل حتى جعلهم ربنا كالزرع المحصود، خامدين كالنار الهامدة.

وقال: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ﴾ ولم يقل: (حتى صاروا) أو (حتى أصبحوا) أي إن ذلك من فعل ربنا بهم عقوبة لهم.

جاء في (الكشاف): «(تلك) إشارة إلى (يا ويلنا) لأنها دعوى.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ١٦.

كأنه قيل: فما زالت تلك الدعوى دعواهم.

والدعوى بمعنى الدعوة، قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠] ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فإن قلت: لم سميت (دعوى)؟

قلت: لأن المولول كأنه يدعو الويل فيقول: تعال يا ويل فهذا وقتك... (حصيدًا) الحصيد: الزرع المحصود، أي جعلناهم مثل الحصيد، شبههم به في استئصالهم واصطلامهم»[1].

و«(خامدين) أي موتى دون أرواح مشبهين بالنار إذا طفئت»[2].

وقوله: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ «أي فما زالوا يرددون تلك الكلمة»[3].



﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

لما أثبت للناس اللهو واللعب في أول السورة وذمهم بذلك في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ نفى عن نفسه ذلك في هاتين الآيتين، بل نفى عنه ذلك منذ أول الخلق إلى الأبد، فإنه لم يفعل شيئًا ولا يفعل شيئًا إلا عن حكمة، وقد أظهرت شيئًا من ذلك آيات السورة من أولها إلى آخرها.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٠١.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٠.

فقد قال ههنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ وهذا أول الخلق.

وقال في خواتيم السورة: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، وقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴿١٠٤﴾﴾.

وكما قال ذلك في مواضع عدة من القرآن الكريم من نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

وقال بعد الآية: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

جاء في (نظم الدرر): «ولما ذمهم باللعب وبين أنه يفعل في إهلاك الظلم وإنجاء العدل فعل الجادّ بإحقاق الحق بالانتقام لأهله وإزهاق الباطل باجتثاثه من أصله... عطف عليه قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا﴾ أي بعظمتنا التي تقتضي الجد ولا بد...

ولما نفى عنه اللعب أتبعه دليله فقال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ...﴾»(١).

وجاء في (الكشاف): «أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من أصناف الخلائق... للهو واللعب، وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية، لتكون مطارح افتكار واعتبار واستدلال ونظر لعبادنا مع ما يتعلق لهم بها من المنافع التي لا تعد...

ثم بين أن السبب في ترك اتخاذ اللهو واللعب وانتفائه عن أفعالي هو

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٣٩٧ـ٣٩٨.

أن الحكمة صارفة عنه وإلا فأنا قادر على اتخاذه إن كنت فاعلاً»[١].

وقال: (خلقنا) بإسناد الخلق إلى ضمير العظمة، ولم يرد (خلقت) في نحو هذا التعبير في القرآن العظيم.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾

وقال في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وفي التعبيرين تشابه واختلاف.

من ذلك إفراد السماء في آية الأنبياء وجمعها في الدخان، وذكر اللهو في سياق الأنبياء في قوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ ولم يذكر ذلك في الدخان. وغير ذلك من الاختلاف. ولكلٍّ من ذلك سببه المناسب.

١ ـ فقد نفى عن نفسه سبحانه اللعب واللهو في آيتي الأنبياء، فقد قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ فنفى عنه اللعب.

ثم قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ فنفى عنه اللهو، وذلك أنه أثبت في أول السورة للناس اللعب واللهو فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

وأما في الدخان فقد أثبت لهم اللعب فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾.

فنفى عنه سبحانه اللعب.

٢ ـ أثبت في الدخان لهم الشك فقال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ ونقيض الشك العلم فنفى عنهم العلم فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ذلك أن الشاكّ ليس عنده علم يفضي إلى اليقين فنفى عنهم ذاك.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٢.

٣ ـ أفرد السماء في سورة الأنبياء فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وذلك مناسب لما ورد في أول السورة ، فقد قال سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

وجمعها في سورة الدخان فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ وهو مناسب لما ورد في أول السورة ، فقد قال: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الدخان: ٧].

فناسبت كل آية مفتتح سورتها.

٤ ـ إن الكلام في سورة الأنبياء مبني على العموم ، فقد قال: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾.

فذكر الناس على العموم.

وقال: ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ والسماء أعم من السماوات.

ذكر الأمم على العموم فقال: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآۖ ﴿٦﴾ ﴾.

فجاء بـ (من) الاستغراقية.

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْۖ ﴿٧﴾ ﴾ فذكر الرسل قبله.

وقال: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿١١﴾ ﴾ فجاء بـ (كم) الخبرية الدالة على التكثير.

أما في الدخان فقد ذكر ذلك على سبيل الخصوص.

فقد ذكر قوم فرعون فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴿١٧﴾ ﴾.

ثم ذكر كفار قريش فقال: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وذكر قوم تبع والذين من قبلهم فقال: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

فذكر القرى على العموم في الأنبياء.

وذكر قومًا مخصوصين في الدخان.

فناسب العموم العموم وهو (السماء).

وناسب الخصوص الخصوص وهو (السماوات).

فإن السماء قد تأتي أعم من السماوات كما ذكرنا في أكثر من مناسبة.

٥ ـ ذكر الأنبياء في سورة الأنبياء على العموم.

ثم ذكر من أسمائهم ما هو أعم وأكثر مما هو في سورة الدخان. فقد قال في سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

وقال: ﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ﴿٢٤﴾ ﴾ .

وهذا يعم جميع الأنبياء بلا استثناء.

وذكر من الأنبياء موسى وهرون فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً ﴿٤٨﴾ ﴾

وذكر إبراهيم فقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ ﴿٥١﴾ ﴾ .

ولوطًا فقال: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ﴿٧١﴾ ﴾ .

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٤﴾ ﴾

وإسحاق ويعقوب (٧٢)، ونوحًا (٧٦)، وداود وسليمان (٧٨)، وأيوب (٨٣)، وإسماعيل وإدريس وذا الكفل (٨٥)، وذا النون (٨٧)، وزكريا (٨٩)، ويحيى (٩٠).

في حين لم يذكر في الدخان اسم رسول وإنما ذكر قوم فرعون بشيء من التفصيل ، وأشار إلى قوم تبع والذين من قبلهم .

فلما كان الكلام في الأنبياء على العموم ذكر السماء التي تفيد العموم .

فناسب العموم العموم من كل وجه .

* * *

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

لما نفى سبحانه عن نفسه اللهو واللعب أضرب عن اتخاذهما فأخبر أنه يقذف بالحق على الباطل .

وأصل القذف : الرمي الشديد بجسم صلب كالحجارة والحصا ونحو ذلك . جاء في (روح المعاني) : «وأصل القذف الرمي البعيد كما قال الراغب وهو مستلزم لصلابة الرمي» [١] .

فكأن الحق جرم صلب شديد والباطل جسم رخو وقد قذف به على الباطل فحطمه .

وجاء بـ (إذا) الفجائية للدلالة على سرعة زهوقه واضمحلاله .

وقال : ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ ﴾ بالاسم ولم يقل : (فإذا هو يزهق) للدلالة على الثبات وللدلالة على سرعة زهوقه ، فكأن الأمر حاصل وثابت ، ولم يدع له فرصة لبقائه ومكثه .

وقد ذكر ربنا في السورة أمثلة لما قذف به من الحق على الباطل ، فقد ذكر في أكثر من موطن أنه أهلك الظالمين والمسرفين ومن استحق العقوبة فقذف الحق على الباطل فدمغه .

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٢٠ وانظر مفردات الراغب (قذف) .

قال تعالى: ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾
فذكر أنه أهلك القرى بسبب عدم إيمانها.
وقال: ﴿ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾.
وقال: ﴿ وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ ﴿١١﴾ ﴾
وقال: ﴿ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وذكر قذف الحق على الباطل بالحجة والبرهان فقال: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وقال: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

فناسب ذلك قوله: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾.

جاء في (الكشاف): «(بل) إضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته... بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق.

واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه»[1].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وقد استعير لإيراد الحق على الباطل القذف الذي هو الرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة، ولمحقه للباطل الدمغ الذي هو كسر الشيء الرخو الأجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدي إلى زهوق الروح تصويرًا له بذلك...

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٣، البحر المحيط ٦ / ٢٨٠.

وفي (إذا) الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى فكأنه زاهق من الأصل»[(١)].

﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾

هو تهديد ووعيد بالهلاك لأهل الكفر بسبب ما يصفونه به سبحانه من أمور لا تجوز ولا تليق بشأنه.

و(من) في (مما) تعليلية.

و(ما) في (ما تصفون) تحتمل الموصولة، أي بالذي يصفونه به سبحانه، وتحتمل المصدرية، أي بوصفهم له سبحانه بما لا يليق.

جاء في (روح المعاني): «﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾: و(ما) إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة، أي ومستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له تعالى بما لا يليق بشأنه الجليل تعالى شأنه، أو بالذي تصفونه، أو بشيء تصفونه به من الولد ونحوه»[(٢)].

* * *

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

ذكر قبل هذه الآية أنه خلق السماء والأرض وما بينهما فذلك يعني أنها ملكه، وذلك قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾

وذكر في هذه الآية أن له من فيهما وذلك قوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٢.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٢٠ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٢.

فالسماوات والأرض وما بينهما ومن فيهما ملكه .

وذكر في أوائل السورة أنه يعلم القول فيهما ما أسروه وما جهروا به فقال : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ .

وذكر أن من عنده من الملائكة يعبدونه لا يكلّون ولا يملّون ، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا ينقطعون عن التسبيح .

جاء في (الكشاف) : «أي تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر» [١] .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

وقال في سورة فصلت : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

وقال في سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ .

فقال في الأنبياء : ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ .

وقال في فصلت : ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ ﴾ .

وقال في الأعراف : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ .

فقال في الأنبياء : ﴿ وَمَنْ عِندَهُۥ ﴾ بذكر (من) .

وقال في فصلت والأعراف (الذين عند ربك) بذكر (الذين) .

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٣٤ .

وفي تعبير آخر:

قال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

وقال في الأعراف: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾.

فأطلق التسبيح في الأنبياء، وقيده بحرف الجر في فصلت، وقيده بالمفعول به في الأعراف.

فما سر هذا الاختلاف؟

والجواب أن كل تعبير مناسب لسياقه وما أريد له من معان.

وذلك أن آية الأنبياء أعم من الموضعين الآخرين من جهات عدة منها:

١ ـ أنه قال في آية الأنبياء: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾

وقال في فصلت: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾

وقال في الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾

و(من) أعم من (الذين) لأنه اسم موصول مشترك، و(الذين) مختص. فـ (من) يطلق على الواحد والمثنى والجمع، المذكر والمؤنث، بخلاف (الذين) فإنه خاص بجماعة الذكور.

هذا إضافة إلى أنه مناسب لما تقدم في الآية من قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فناسب عموم من في السماوات والأرض عموم من عنده، وناسب ذكر (من) في الموضعين.

أما في فصلت فقد خاطب الناس أو جماعة منهم بقوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ

﴿لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

ولا شك أن قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أعم من هؤلاء. فجاء بالاسم الموصول المختص مناسبة للخصوص.

وكذلك ما ورد في الأعراف، فإن قبل الآية قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ولا شك أن ما ورد في الأنبياء أعم بكثير من المخاطبين في الأعراف.

فجاء بالاسم الموصول المختص في الأعراف مناسبة للخصوص.

وهذا من لطيف المناسبات.

٢ ـ وقال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾

وقال في الأعراف: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾

و(يسبحون) أعم من (يسبحون له) و(يسبحونه)؛ لأنه غير مقيد، فهو يشملهما ويشمل غيرهما من أنواع التسبيح من نحو: (سبح اسمه) و(سبح باسمه) و(سبح بحمده) وغير ذلك من أنواع التسبيح.

٣ ـ قال في الأنبياء: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يكلّون ولا يتعبون، فدل ذلك على دوام العبادة وعدم انقطاعها.

ولم يقل مثل ذلك في الموضعين الآخرين.

ولا شك أن ما في آية الأنبياء أعم وأدوم.

٤ ـ قال في الأنبياء: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي على الدوام لا ينقطعون.

وقال في فصلت: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي في هذين الوقتين. فما في الأنبياء أدوم.

ولم يذكر في الأعراف وقتًا للتسبيح ولا للسجود وإنما ذكر الحدث فقال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾.

وهذا لا يدل على الدوام والاستمرار. فإنك إذا قلت: (أحمد يصلي) أو يقرأ القرآن فإن ذلك لا يدل على الاستمرار فيهما وأنه لا يقطع ذلك في وقت من الأوقات.

أما في الأنبياء فتنصيص على الدوام وعدم الانقطاع. فهو أعم.

٥ ـ قال في الأنبياء: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ فلا تحصل فترة منهم.

أي لا يسكّنون.

ولم يقل مثل ذلك في الموضعين الآخرين، فدل على دوام التسبيح.

وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه.

فإن التخصيص في فصلت مناسب لما تقدمه وهو قوله: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾.

فهو طلب أمر مخصص وهو السجود لله.

وكذلك التخصيص في الأعراف فإنه مناسب لما تقدمه وهو قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾.

فهو طلب أمر مخصص وهو الاستماع للقرآن عند قراءته، وطلب الذكر من الرسول على الخصوص. ولا شك أن هذا أخص بكثير من عبادة

الملائكة المطلقة المستمرة وتسبيحهم الذي لا يفتر ولا ينقطع.

وأما آية الأنبياء فلم يتقدمها شيء من ذلك، وإنما تقدمها قوله سبحانه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

والحق عام والباطل عام.

فناسب العموم في آية الأنبياء ما تقدمها.

وناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

* * *

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

أنكر عليهم في هذه الآية اتخاذ آلهة من الأرض، ثم أنكر عليهم اتخاذ آلهة من دون الله على العموم في آية بعدها فقال: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴿٢٤﴾ ﴾.

فأنكر اتخاذ الآلهة على العموم من الأرض أو من غيرها.

فهو إنكار على متخذي الآلهة من دون الله سواء اتخذوها من الأرض أم من غيرها.

وذكر الآلهة في الأرض لأن كفار قريش وهم الذين أنزل عليهم القرآن كانوا يعبدون الأصنام وهي حجارة.

وقد تقول: ولماذا لم يقل: (أم اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض) فيقول: (من دون الله) كما قال في آيات أخرى من نحو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١].

وقوله: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الفرقان: ٣] وكما قال في آية بعدها: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴿٢٤﴾ ﴾؟

فنقول: لما قال: ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ دل ذلك على أنها من دون الله.

ثم إن قوله: ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مناسب لما ورد في السورة من إهلاك القرى الظالمة على الأرض وأهلها من نحو قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۝٦﴾ وقوله: ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾، وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ۝١١﴾ فماذا فعلت الآلهة وإله السماء يدمر قرى الأرض وساكنيها من الظالمين الذين يعبدون هذه الآلهة؟!

ومناسب لما ورد في السورة من اتخاذ قوم إبراهيم آلهة من الأرض فحطمها إبراهيم وجعلها جذاذًا، فماذا فعلت هذه الآلهة المضحكة؟!

ومناسب لما ورد في السورة من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾.

فماذا تفعل هذه الآلهة في الأرض وإله السماء ينقص ما هم عليه حتى أتى عليهم كلهم وما هم عليه؟!

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في الآية شيئًا واحدًا لهذه الآلهة وهو قوله: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾، فلما كان الأمر جزئيًا ذكر جزءًا من الآلهة وهو الآلهة من الأرض.

في حين قال في آية بعدها: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۝٢٤﴾.

فلم يقل: (من الأرض) بل ذكر اتخاذ الآلهة على العموم، وذلك أن ما ذكره في الآية الثانية أمر عام غير مقيد بشيء.

فناسب العموم العموم، وناسب الخصوص الخصوص.

وقوله: ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي يبعثون الموتى من قبورهم.

وذكرُ الإنشار مناسب لقوله في أول السورة: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ

حِسَابُهُمْ﴾ ، ومناسب لقوله سبحانه في السورة: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ، وقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ، ولما ذكره في آخر السورة من الرجوع إلى الله والحساب والجزاء.

وهو تهكم بهم فإنهم لا يؤمنون بالحشر مع أنهم يؤمنون بالله كما ذكر الله عنهم في أكثر من موضع من نحو قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٣٢] ، وآيات أخرى.

جاء في الكشاف: «هذه أم المنقطعة الكائنة بمعنى: بل والهمزة، قد آذنت بالإضراب عما قبلها والإنكار لما بعدها. . .

فإن قلت: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدّعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدعوى، وذلك أنهم كانوا ـ مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السماوات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ، وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النشأة الأولى ـ منكرين البعث، ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟ . . .

قلت: الأمر كما ذكرت، ولكنهم بادعائهم لها الإلهية يلزمهم أن يدّعوا لها الإنشار؛ لأنه لا يستحق هذ الاسم إلا القادر على كل مقدور، والإنشار من جملة المقدورات.

وفيه باب من التهكم بهم والتوبيخ والتجهيل. . . ومعنى نسبتها إلى الأرض: الإيذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض»(١).

* * *

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٤ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٣.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدتا. و(إلا) هنا وصفية بمعنى غير.

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فذكر (رب العرش).

وقال في موطن آخر: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وفي موضع آخر يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، الصافات: ١٥٩].

وفي موضع آخر يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وقال في موضع آخر: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢].

فما السر في ذلك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموضع الذي ورد فيه.

أما قوله في آية الأنبياء: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ فإنه ذكر رب العرش لما تقدم من ذكر الذين عنده أنهم يسبحون الليل والنهار وهم الملائكة فناسب ذكر العرش.

وأما قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فإنه يقول ذلك إذا ذكر أمرًا واحدًا كأن يذكر قول المشركين باتخاذ الولد، فإذا ذكر معه الشرك أضاف إلى ذلك قوله (تعالى)، فيضيف تنزيهًا آخر إلى ما ذكر.

فالشيء الواحد يذكر له تنزيهًا، فإذا زاد عليه ذكر تنزيهًا آخر.

هذا إضافة إلى ذكر صفات أخرى تناسب المقام.

وإيضاح ذلك:

أنه سبحانه قال في سورة الصافات: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ... أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ... وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لما ذكر شيئًا واحدًا وهو اتخاذ الولد.

وقال في الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ لما ذكر أمرين:

الشرك وذلك قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾.

واتخاذ الولد وذلك قوله: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ ... أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾.

وقال في المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وقال بعدها: ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذلك أنه ذكر أمرين:

اتخاذ الولد وهو قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾.

ونفي الشرك وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾.

وأما قوله في الصافات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فهو مناسب للسياق الذي وردت فيه الآية وذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

فالسياق ـ كما هو ظاهر ـ في نصر المؤمنين وإنزال العذاب بالكافرين وذلك من مقتضيات العزة.

فإن العزيز هو الذي ينصر ويغلب فناسب ذلك أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

وقال: (سبحان ربك) بإضافة الرب إليه؛ لأنه المتفضل عليه وهاديه وهو الذي أرسله برسالته وقد وعده بالنصر وذلك قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ . . .﴾

فناسب أن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴿١٨٠﴾﴾

وأما قوله في الزخرف: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فهو مناسب لما ورد في سياقه.

فقد قال في الزخرف: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

فذكر اتخاذ الولد وهو قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فذكر أنه الإله فيهما.

ثم قال: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. . .﴾ فذكر أن له ملكهما.

وقدم الجار والمجرور (له) للحصر، فإنه له وحده ملك السماوات والأرض حصرًا لا يشاركه في ذلك أحد.

وقال في الآية: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فذكر أنه ربهما. فجمع السياق الدلالة على الربوبية والألوهية والملك فناسب أن يذكر أنه رب العرش فإن العرش للملك.

إضافة إلى ما ذكر بعد ذلك من صفات الكمال.

* * *

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

لما ذكر سبحانه أنه خلق السماء والأرض وما بينهما، وذكر أن له من في السماوات والأرض، وأن له القوة والعزة فأهلك القرى الظالمة وبطش بها، وأنه يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فلا تكون أفعاله إلا حقًّا ولا تصدر إلا عن حكمة، وأنه الإله في السماوات والأرض لا شريك له عُلم أنه لا يسأل عما يفعل وإنما هو الذي يسأل غيره، فكل من عداه عبد له مملوك وكلهم مسؤولون أمامه. فلا يُسأل لأنه الإله وأنه الخالق وأنه الملك وأنه المالك وأنه القوي العزيز وأن أفعاله كلها لا تصدر إلا عن حكمة، وإن كل واحدة من هذه الصفات لا يُسأل من اتصف بها عما يفعل فكيف إذا اجتمعت؟!

ثم إن هذه الآية مناسبة لما افتتحت به السورة وهو قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ

﴿لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ فالناس مسؤولون أمامه وقد اقترب حسابهم.

ومناسبة للآية قبلها وهي قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

فهو الإله في السماوات والأرض لا شريك له، والإله لا يسأل عما يفعل.

وهو (رب العرش)، ورب العرش لا يسأل؛ لأن رب العرش هو الملك، والملك لا يُسأل عما يفعل وإنما هو الذي يسأل غيره. وقوله: (سبحان الله) يعني أنه المنزه في أفعاله وصفاته، والمنزه لا يسأل عما يفعل لأنه الكامل في ذلك.

جاء في (البحر المحيط): «ثم وصف نفسه بكمال القدرة ونهاية الحكم فقال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء، وفعله على أقصى درجات الحكمة فلا اعتراض عليه ولا تعقب عليه. ولما كانت عادة الملوك أنهم لا يسألون عما يصدر من أفعالهم مع إمكان الخطأ فيها كان ملك الملوك أحق بألا يسأل» (١).

* * *

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤)﴾

أنكر عليهم قبل هذه الآية اتخاذ آلهة من الأرض، وأنكر في هذه الآية اتخاذ الآلهة من دون الله على العموم. وقد أقام البرهان على فساد القول

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٥.

باتخاذ الآلهة فقال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

وطلب منهم أن يأتوا ببرهان على صحة قولهم باتخاذ الآلهة فقال لهم: ﴿ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ﴾ سواء كان من جهة العقل أم النقل.

أما هو سبحانه فقد ذكر الحجة العقلية وهي قوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ، ثم تحداهم بالبرهان النقلي وهو الكتب المنزلة على الرسل سواء ما أنزل عليه أو ما أنزل على من قبله فقال لهم: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ وهو ما أنزل إليه ، و﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ وهو ما أنزل إلى من قبله من الأنبياء فإنها كلها تدعو إلى توحيد الله والنهي عن الشرك.

ثم أضرب فبين أن أكثرهم لا يعلمون الحق ولذلك هم معرضون عنه.

ثم ذكر في الآية التي تلي هذه الآية ماذا في ذكر من قبله وماذا أوحى إلى رسله فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ .

جاء في (الكشاف): «كرر ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ استفظاعًا لشأنهم واستعظامًا لكفرهم ، أي وصفتم الله تعالى بأن له شريكاً فهاتوا برهانكم على ذلك: إما من جهة العقل ، وإما من جهة الوحي ، فإنكم لا تجدون كتابًا من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه، والإشراك به منهي عنه متوعد عليه. أي (هذا) الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه كما ورد عليّ فقد ورد على جميع الأنبياء.

فهو ذكر ، أي عظة للذين معي ، يعني أمته ، وذكر للذين من قبلي ، يريد أمم الأنبياء عليهم السلام» (١) .

* * *

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٥ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٥ .

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾

هذه الآية وقعت في سياق ما قبلها من آي التوحيد وإبطال الشرك من مثل قوله سبحانه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾.

وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ﴾

ثم قال: ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ﴾ فذكر في هذه الآية، أعني ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ...﴾ ماذا أوحى إليه في ذكر من قبله.

فذكر أن كل رسول أرسله ربنا سبحانه أوحى إليه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

فبين أنه أوحى إليه بالتوحيد والأمر بعبادته سبحانه.

وقال: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ فجاء بـ(من) الدالة على الاستغراق، فدل ذلك على أن كل رسول أوحي إليه هذا الأمر بلا استثناء، فلم يستثن رسولاً من ذلك.

وقال: ﴿إِلَّا نُوحِيٓ﴾ بالمضارع، ولم يقل: (أوحينا) لحكاية الحال وذلك يدل على الاهتمام بما أوحى إليه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وأيّاً ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورة الوحي» (١).

بل إن التعبير في الآية كله دل على الاهتمام والتوكيد.

فالحصر في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ يفيد

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٦.

التوكيد ، وهو آكد من نحو قولنا : (وأوحينا إلى الرسل قبلك أنه لا إله إلا أنا) .

والنفي بـ (ما) في (ما أرسلنا) يفيد التوكيد ؛ لأن (ما) تكون جوابًا للقسم ، وهي آكد من (لم) .

وقال : (من قبلك) فجاء بـ (من) ، وهو آكد مما لو قال : (وما أرسلنا قبلك) ، فـ (من) تفيد الابتداء فاستغرقت كل من كان قبله .

وقد مر شيء من ذلك فيما ذكرنا .

وقال : (من رسول) فأدخل (من) الاستغراقية المؤكدة على المجرور فاستغرق ذلك جميع الرسل مع التوكيد كما ذكرنا قبل قليل .

وقال : (نوحي) بالمضارع لحكاية الحال وذلك يدل على الاهتمام كما ذكرنا .

وقال : (أرسلنا) و(نوحي) بالإسناد إلى ضمير التعظيم .

ووردت قراءتان متواترتان في (نوحي) هما (نوحي) و(يوحَى) بالبناء للمجهول[1] فجمعت معنيين وصيغتين .

وقال : (أنه) بإدخال (أن) على ضمير الشأن الدال على التعظيم والاهتمام ، ولم يقل : (أن لا إله إلا أنا) بحذف ضمير الشأن . ومن المعلوم أن الذكر آكد من الحذف .

إنه لم يقل كما قال في غير هذا الموطن (أن لا إله إلا هو) وذلك نحو قوله تعالى في سورة هود : ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

---

(١) انظر البحر المحيط ٢ / ٣٠٦ وروح المعاني ١٧ / ٣٢.

فقال: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولم يقل: (وأنه) كما قال في آية الأنبياء.

وكما قال في سورة الأنبياء في موضع آخر: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾.

وذلك أن آية هود في سياق الدلالة على أن القرآن ليس مفترى وإنما هو من عند الله. في حين أن السياق في آية الأنبياء إنما هو في سياق التوحيد ونفي الشرك.

فلما كان السياق في التوحيد أكد وعظم بذكر ضمير الشأن.

كما أن آية الأنبياء الأخرى ليست في سياق التوحيد، وإنما هي في سياق التسبيح والدعاء والإقرار بما فعل من خلاف الأَولى فقال: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ ولم يقل (أنه).

وكل تعبير مناسب في سياقه الذي ورد فيه.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ كله مؤكد.

وقوله: (فاعبدون) أمر بعبادة الله وهي الغاية التي خلق لها الثقلان كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾:

إن قوله: (فاعبدون) أمر للجمع مع أن الموحى إليه واحد، فلم يقل: (إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدني) ذلك أن الأمر له ولمن أرسل إليهم على الأظهر. جاء في (البحر المحيط) في قوله: (فاعبدون): «ويحتمل أن يكون الأمر له ولأمته» (١).

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٦ وانظر روح المعاني ١٧ / ٣٢.

قد تقول: لقد قال في سورة النحل: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

فأمر في هذه الآية بالتقوى فقال: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾.

وأمر في آية الأنبياء بالعبادة فقال: ﴿ فَٱعْبُدُونِ ﴾.

فما سر الاختلاف في ذلك؟

فنقول: إنه قال في آية النحل (أن أنذروا)، والإنذار يقتضي اتقاء ما أُنذروا به. فالنذير يخوفهم من أمر عليهم أن يتقوه، فناسب ذلك قوله: (فاتقون).

وأما آية الأنبياء فإنها في توحيد الله وعبادته، وهي في سياق إفراده بالعبادة والتوحيد وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾، وقوله: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾، وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾.

وقال في موضع آخر من السورة: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾، وتكرر ذكر العبادة في السورة.

وناسبت آية النحل ـ إضافة إلى ما ورد فيها من ذكر الإنذار ـ ختام ما ورد في السورة وهو قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

كما تكرر ذكر الاتقاء في أكثر من موضع في السورة وذلك نحو قوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾، وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ وغيرها.

فناسب كل تعبير ما ورد فيه من أكثر من جهة.

وقد تقول: لقد قال في سورة الإسراء: ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

فقال: (قبلك) ولم يقل: (من قبلك) كما قال في آية الأنبياء فما سبب ذلك؟

والجواب أنه قال قبل آية الإسراء: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾، ثم قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

والعقوبة التي ذكرها في قوله: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إنما حصلت قبل الرسول بزمن طويل، فإنها لم تحصل لقوم عيسى، وإنما حصلت لفرعون ومن معه حين اتبع موسى بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم، وحصلت للأقوام القديمة كعاد وثمود وغيرهم من الأقوام في الأزمان السحيقة.

إن هذا الأمر لم يحصل ابتداء من زمن الرسالة قبل بعثة الرسول، وإنما حصل قبل ذلك بما لا يعلمه إلا الله، فلم يقل: (من قبلك) بـ (من) التي تفيد ابتداء الغاية، وإنما قال: (قبلك) وهو ما يدل على عموم الزمن قبله فقد يكون ذلك قريبًا أو بعيدًا.

فناسب كل تعبير سياقه الذي ورد فيه والله أعلم.

* * *

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

نزه سبحانه نفسه عن اتخاذ الولد، ذلك أن من الكفار من قال: (ولد الله) كما ذكر ذلك عنهم في سورة الصافات فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ

لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ومنهم من قال: إن الملائكة بنات الله، فرد عليهم سبحانه بقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١ ـ ٢٢].

وقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال في آية الأنبياء هذه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وقد قيل: إن هذه الآية «نزلت في خزاعة حيث قالوا: الملائكة بنات الله. نزه ذاته عن ذلك، ثم أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة»[١]. وقيل: إن بعض العرب من غير خزاعة قالوا ذلك أيضًا[٢].

فذكر أن الملائكة هم عباد لله.

ثم وصف هؤلاء العباد بأنهم مكرمون مصطفون؛ لأن من العباد من ليس بمكرم كما ذكر سبحانه عن قسم من عباده الضالين فقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

ثم ذكر أن هؤلاء العباد المكرمين لا ينطقون بشيء قبله سبحانه، فهم لا يتقدمونه بقول. وإنه سبحانه إذا أمر بشيء فإنهم يعملون بأمره. وقدم الجار والمجرور فقال: ﴿بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ للدلالة على أنهم لا يعملون بأمر غيره وإنما يعملون بأمره خاصة.

جاء في (نظم الدرر): «(وهم بأمره) أي خاصة إذا أمرهم (يعملون) لا بغيره لأنهم في غاية المراقبة له، فجمعوا في الطاعة بين القول والفعل وذلك غاية الطاعة»[٣].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٦ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٠٧.
(٢) انظر روح المعاني ١٧ / ٣٢.
(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

وجاء في (تفسير أبي السعود) في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ ، «بيان لتبعيتهم له تعالى في الأعمال إثر بيان تبعيتهم له في الأقوال. فإن نفي سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه. كأنه قيل هم بأمره يقولون وبأمره يعملون لا بغير أمره أصلاً. فالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور معتبر بالنسبة إلى غير أمره لا إلى أمر غيره»[١].

ولئلا يظن أنهم قد يتركون شيئًا من أمره ذكر أنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، أي ما تقدم من أفعالهم وأقوالهم وما تأخر، وما عملوا وما لم يعملوا بعد[٢].

ثم ذكر أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله، فهم لا يسبقونه بقول ولا يشفعون إلا لمن علموا أن الله يرتضي ذلك.

ثم ذكر أنهم في خوف منه ومراقبة له سبحانه لا يأمنون مكره.

وقال: (مشفقون) ولم يقل: (يشفقون) ليدل على أن ذلك وصفهم الدائم الثابت.

ومع هذا الثناء عليهم فذلك لا يمنع من أن يعذبهم إذا تجاوزوا الحد فقال: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾. وهذا لا يخصهم وحدهم بل يشمل كل ظالم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقد مر قبل هذه الآية ذكر لعقوبات الظالمين من نحو قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿١١﴾﴾.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٦٩٧.
(٢) انظر البحر المحيط ٦/ ٣٠٧.

وقوله: ﴿ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

جاء في (الكشاف): «(لا يسبقونه)... والمعنى أنهم يتبعون قوله ولا يقولون شيئًا حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله... أي لا يتقدمون قوله بقولهم... وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضًا كذلك مبني على أمره، لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به...

ومن تحفظهم أنهم لا يجسرون أن يشفعوا إلا لمن ارتضاه الله وأهله للشفاعة في ازدياد الثواب العظيم. ثم إنهم مع هذا كله من خشية الله (مشفقون) أي متوقعون من أمارة ضعيفة، كائنون على حذر ورقبة لا يأمنون مكر الله...

وبعد أن وصف كرامتهم عليه وقرب منزلتهم عنده وأثنى عليهم... فاجأ بالوعيد الشديد، وأنذر بعذاب جهنم من أشرك منهم إن كان ذلك على سبيل الفرض والتمثيل» (١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(مشفقون) مرتعدون. وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء. والإشفاق الخوف مع الاعتناء.

فعند تعديته بـ(من) يكون معنى الخوف فيه أظهر، وعند تعديته بـ (على) ينعكس الأمر» (٢).

وجاء في (روح المعاني): «﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾) وفرق بين الخشية والإشفاق بأن الأول خوف مشوب بتعظيم ومهابة ولذلك خص به

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٦٩٧.

العلماء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ » (١) .

وفي (التحرير والتنوير) : «الإشفاق توقع المكروه والحذر منه» (٢) .

لقد جاء نحو هذا التعبير في عدة مواضع من القرآن الكريم ، غير أنه لم يكن التعقيب واحدًا ، بل ذكر في كل موضع نوعًا من التعقيب والتبيين يختلف عما ذكر في المواضع الأخرى .

وأول موضع ورد فيه نحو هذا التعبير ما جاء في سورة البقرة وهو قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ .

فرد عليهم بأن له ما في السماوات والأرض وأنهم كلهم خاضعون له ، وأنه أبدع السماوات والأرض وأوجدهما وأنه على كل شيء قدير ، فإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ، فلا يحتاج إلى الولد ، فهو الغني المستغني المقتدر فلماذا يتخذ ولدًا؟

فرد عليهم بغناه وقدرته ، غير أنه لم يذكر فظاعة هذه الكلمة ولا ماذا ستكون عاقبة الذين يقولون بهذا القول .

ثم ورد نحو هذا التعبير في سورة يونس فقال: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ . . . قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٣.
(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٢.

يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

فذكر قبل الآية أن له من في السماوات ومن في الأرض فلماذا يتخذ الولد؟

ثم ذكر أنه الغني ، ولم يقل: (إنه غني) بل ذكر أنه الغني ولا غني غيره ، فإن له ما في السماوات وما في الأرض ، فكرر (ما).

ففي آية البقرة لما لم يذكر أنه الغني لم يكرر (ما) ، وإنما قال: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

ولما قال في آية يونس: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ كرر (ما) فقال: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للتوكيد والتوسع في ذكر الغنى.

ثم رد على القائلين بهذا القول بأنهم ليس عندهم سلطان بهذا وأنهم يقولون على الله ما لا يعلمون.

وألمح إلى أن هذا من الافتراء على الله ، وأنه سيعاقب الكافرين ، وهذه إشارة إلى أن القول بهذا إنما هو كفر.

ولم يرد مثل ذلك في البقرة. وهي مرحلة بعد الذكر الأول.

ثم ذكر القائلين بهذا في سورة الكهف وأنه ينذرهم فليحذروا فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾﴾.

فإنه بعد أن ذكر القائلين في موضعين ناسب أن ينذرهم بعد ذلك فقال: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾﴾.

فتدرج في القول فلم يذكر في يونس أنه سيعذب القائلين بهذا بصورة مباشرة ، وإنما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾

فذكر عموم الافتراء على الله ، وليس ذلك خاصًّا بهذا القول.

وأما في آية الكهف فإنه أنذر الذين يقولون هذا القول بصورة مباشرة ، وأنه نفى العلم عنهم وعن آبائهم ، ثم عظم هذه المقالة وأنها كبيرة فقال: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾.

وصرح بأن هؤلاء لم يقولوا إلاّ الكذب.

ولم يذكر غناه فاكتفى بما مر من ذلك ، وإنما ذكر أمرًا آخر وهو الإنذار المباشر وعظم هذه المقالة وكذبها.

ثم قال في سورة مريم: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا
إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا
لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾.

فإنه قبل هذا الموطن ذكر كذب هذا القول وأن هذه الكلمة كبيرة ، أما ههنا فقد فصل في هذا القول وذكر أنه عظيم ثقيل تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا.

ولم يذكر نحو هذا فيما سبق ، وإنما ألمح إلى أنه كذب ، ثم صرح بأنه كذب ، وذكر قبل هذه السورة أن هذه الكلمة كبرت تخرج من أفواههم.

أما ههنا فأنت تلاحظ أنه عظّم هذه المقالة في السماوات والأرض والجبال وفظّعها ، وأن كل من في السماوات والأرض إنْ هم إلا عبيد له.

ومن الملاحظ في هذه الآية أنه ذكر اسمه (الرحمن) ولم يذكر لفظ الجلالة (الله) كما في الآيات السابقة. ولعل ذلك لأنه لم يذكر تهديدًا لمن قال هذا القول.

ثم إن سورة مريم تردد فيها اسم الرحمن كثيرًا ، وهي أكثر سورة تردد فيها هذا الاسم الجليل. فناسب ذلك من جهة أخرى.

ثم ذكر في سورة الأنبياء نحو ذلك فقال: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

فذكر صفة هؤلاء الذين قالوا فيهم إنهم اتخذهم الرحمن ولدًا فذكر أنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون كما ذكرنا.

ولم يعد ما ذكره في المواطن السابقة ، بل ذكر شيئًا آخر وهو صفة الملائكة هؤلاء. وهو أمر لم يذكره في المواطن الأخرى.

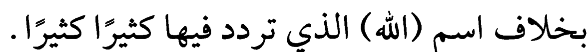
وقد ذكر ههنا اسمه (الرحمن) كما في آية مريم ، ولعل سبب ذلك أنه لم يذكر تهديدًا لمن قال هذا القول ، وهو المناسب لاسمه الرحمن.

ومن الملاحظ في هذه الآيات أنه إذا ذكر اسمه (الله) فهو إما يذكر غناه أو يذكر إنذارًا لمن قال هذا القول أو يذكرهما معًا.

ففي سياق آية البقرة قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ ﴿١١٥﴾ ﴾.

وقال: ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ وأنه بديع السماوات والأرض.

ثم إنه لم يرد في سورة البقرة اسمه (الرحمن) إلا في موضع واحد وهو قوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾.


بخلاف اسم (الله) الذي تردد فيها كثيرًا.

وفي آية يونس ذكر غناه وأشار إلى التهديد والإنذار فقال: ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

ثم ذكر عاقبة هؤلاء الكفرة فقال: ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

وأنذر في آية الكهف من قال بهذا القول فقال: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ .

ولم يذكر تهديدًا أو غنى مع اسمه (الرحمن) في آيتي مريم والأنبياء. فلم يكرر ما ورد من هذا الأمر وإنما ذكر في كل موطن أمرًا يتناسب مع المقام والسياق والتدرج في شأن المقالة والقائلين.

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

أي ألم يتفكروا أوَلم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مرتوقتين أي لاصقة إحداهما بالأخرى ففصلنا الأرض عن السماوات؟

وقال: (رتقًا) دون (مرتوقتين) لأن (رتقًا) مصدر ، والمصدر يخبر به عن المفرد وغيره كما يقال: رجل عدل ورجال عدل. ورجل صوم وامرأة صوم ورجال صوم.

وأخبر به عنهما للمبالغة.

والرؤية قلبية ، أي: ألم يعلموا[1]؟ .

قد تقول: لعلهم لم يكونوا يعلمون ذلك.

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، روح المعاني ١٧ / ٣٤.

فنقول: إن ذلك يقال لمن يعلم أو لإعلام من لم يكن يعلم. كما تقول لصاحبك: (ألم تعلم أن فلانًا حصل على جائزة؟) وهو لا يعلم ذاك وإنما أردت إخباره، وهذا جارٍ كثير في اللغة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهو إنما يخبره بذلك.

ونحو هذا كثير في القرآن الكريم.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

أي «صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه» (١)، فالماء هو سبب الحياة.

فبدأ بذكر الحالة الأولى لوجود الكون وهي أن السماوات والأرض كانتا ملتحمتين لاصقة إحداهما بالأخرى ففصلهما.

ثم ذكر أصل الحياة وما يسبق الحياة، ثم جعل الأشياء حية بسبب الماء.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٧.

فذكر حالتين متناظرتين:

ما يسبق هذا الكون المشاهد.

وما يسبق وجود الأحياء.

وهو تناظر جميل.

ولما ذكر في أول الآية الذين كفروا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ختمها بدعوتهم إلى الإيمان فقال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وجاء بالفاء الدالة على السبب في قوله: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ألا يكون ذلك سببًا لايمانهم؟!

* * *

﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾

الرواسي من الجبال: الثوابت الرواسخ[1].

ومن لطائف التعبير القرآني أنه لا يعبر بالرواسي في أحداث القيامة، بل يعبر عنها بالجبال وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠]، وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

وذلك لأنها لم تعد رواسي. وإنما خص التعبير بـ (الرواسي) في الحياة الدنيا، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ [النحل: ١٥].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠].

---

(١) انظر لسان العرب (رسا).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

أما التعبير بالجبال فهو عام، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١].

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾.

أي لئلا تميد وتضطرب[١].

ومن لطائف التعبير في القرآن أن نفي الميد يجعله مع لفظ (الرواسي) دون غيرها فلم يجعله مع لفظ الجبال، ذلك أن معنى الرواسي ـ كما ذكرنا ـ هو الثوابت الرواسخ، فهي تثبت الأرض لئلا تميد.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾.

الفج: الطريق الواسع بين جبلين، وقيل: هوالطريق الواسع في الجبل[٢]، وقيل: هو الطريق الواضح الواسع[٣].

والسبيل: الطريق الذي فيه سهولة[٤].

وجمع بين الفجاج والسبل لإفادة معنى السعة والسهولة واليسر وذلك من تمام النعمة.

جاء في (روح المعاني): «(فجاجًا) جمع فج، قال الراغب: هو شقة يكتنفها جبلان. وقال الزجاج: كل مخترق بين جبلين فهو فج. وقال بعضهم: هو مطلق الواسع سواء كان طريقًا بين جبلين أم لا . . .

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٢٧.

(٢) انظر لسان العرب (فجج).

(٣) المصباح المنير (الفج)، وانظر الكشاف ٢ / ٣٢٧.

(٤) انظر مفردات الراغب (سبل).

وقوله سبحانه: (سبلاً) بدل منه. فيدل ضمنًا على أنه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التأكيد؛ لأن البدل كالتكرار وعلى نية تكرار العامل، والمبدل منه ليس في حكم السقوط مطلقًا. . . .

[وقيل]: إن (سبلاً) عطف بيان وهو سائغ في النكرات حيث قال: هو تفسير للفجاج وبيان أن تلك الفجاج نافذة، فقد يكون الفج غير نافذ»[(١)].

قد تقول: لقد قدم الفجاج على السبل ههنا، وقدم السبل على الفجاج في سورة نوح فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾.

فنقول: لما ذكر الرواسي في آية الأنبياء ناسب تقديم الفجاج على السبل؛ لأن الفج هو الطريق في الجبل كما ذكرنا.

ولما قال (بساطاً) في سورة نوح قدم السبل وهي الطرق الميسرة السهلة[(٢)].

﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾

أي يهتدون في سيرهم أو يهتدون إلى الإيمان بالله، فإن هذه من الآيات التي تهدي إلى الإيمان.

وكلا الأمرين مطلوب، فإن الجبال من وسائل الهداية في السير، قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥ ـ ١٦].

وهي من الآيات الدالة على توحيده وقدرته سبحانه. قال تعالى:

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٣٨.
(٢) انظر التعبير القرآني ٦٣.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ١٩].

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

جاء في (التحرير والتنوير): «وجملة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مستأنفة إنشاء رجاء اهتداء المشركين إلى وحدانية الله، فإن هذه الدلائل مشاهدة لهم واضحة الدلالة.

ويجوز أن يراد بالاهتداء الاهتداء في السير، أي جعلنا سبلاً واضحة غير محجوبة بالضيق إرادة اهتدائهم في سيرهم فتكون هذه منة أخرى»(١).

* * *

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ذكر في آية سابقة أن السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقهما.

ثم بدأ بما يتعلق بالأرض وأهلها، فذكر أنه جعل من الماء كل شيء حي.

ثم ذكر أنه جعل في الأرض رواسي لئلا تميد بأهلها وجعل فيها فجاجًا سبلاً لعلهم يهتدون.

ثم انتقل في هذه الآية إلى ذكر السماء فقال:

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ٥٧.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ أي محفوظًا من الوقوع على الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

ومحفوظًا من الشياطين كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨].

وجعل فيها ما يحفظها كما ذكر سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦ ـ ٧].

فهي سقف محفوظ بأمر الله سبحانه من كل ما يمنع من الحفظ.

وهم عن آياتها وما أودع الله فيها من دلائل من شمس وقمر ونجوم وأحوال معرضون لا يتدبرون فيها.

جاء في (الكشاف): «(محفوظاً) حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل، أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة.

(عن آياتها) أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومسايرها وطلوعها وغروبها» (١).

وجاء في (التفسير الكبير) للفخر الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٧ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٠.

الحكمة البالغة والقدرة الباهرة»[١].

* * *

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

لما قال في الآية السابقة: ﴿ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ذكر شيئًا من آياتها في هذه الآية، فذكر الليل والنهار وآيتيهما وهما الشمس والقمر. فالشمس آية النهار، والقمر آية الليل.

وقدم الليل على النهار لسبقه، وقدم الشمس على القمر لسبقها.

فالليل أسبق في الوجود من النهار، والشمس أسبق في الوجود من القمر.

لقد قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ أي هو لا غيره، فإن هذا التعبير يفيد القصر.

وقال: ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ فجاء بضمير الجمع للإشارة إلى كل ما يسبح في فلكه في السماء فنوّن (كل)، والتنوين في (كل) يفيد العموم، ولو أضاف أو بيّن بمن فقال: (وكل منهما) لتخصص الكلام بهما.

جاء في (التحرير والتنوير): «وضمير (يسبحون) عائد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر»[٢].

وقال: (يسبحون) بضمير العقلاء، ولم يقل: (يسبحن) أو (تسبح) لأن السباحة من أفعال الآدميين. وهذه الآية نظير قوله سبحانه في سورة يس: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

---

(١) التفسير الكبير ٢٢ / ١٤٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٦٠.

وقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

جاء في (نظم الدرر): «ولما ذكر السماء ذكر ما ينشأ عنها فقال: (وهو) أي لا غيره ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ثم أتبعهما آيتيهما فقال: (والشمس) التي هي آية النهار وبها وجوده. (والقمر) الذي هو آية الليل»[1].

وجاء في (الكشاف): «(كل) التنوين فيه عوض من المضاف إليه، أي كلهم ﴿فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾. والضمير للشمس والقمر، والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة، جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها... وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة»[2].

وجاء في (البحر المحيط): «وجاء (يسبحون) بواو الجمع العاقل. فأما الجمع فقيل ثم معطوف محذوف وهو (والنجوم) ولذلك عاد الضمير مجموعًا، ولو لم يكن ثم معطوف محذوف لكان (يسبحان) مثنى...

وأما كونه ضمير من يعقل ولم يكن التركيب (يسبحن) فقال الفراء: لما كانت السباحة من أفعال الآدميين جاء ما أسند إليهما مجموعًا جمع من يعقل كقوله: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾»[3].

* * *

﴿وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وذلك من حكمته سبحانه الذي جعل من الماء كل شيء حي، وجعل

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤١٦.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٢٧.
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣١٠. وانظر روح المعاني ١٧ / ٣٩.

في الأرض رواسي أن تميد بهم ، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر .

والليل يمضي ولا يعود إلى يوم القيامة ويأتي بعده ليل آخر .

والنهار يمضي ولا يعود إلى يوم القيامة ويأتي بعده نهار آخر .

والبشر يموت ولا يعود إلى يوم القيامة فيبعثه الله ويحاسبه .

فلم يجعل لبشر من قبله الخلد .

ونفى الفعل بـ (ما) ولم ينفه بـ (لم) لأن (ما) آكد من (لم) .

وإذا تربصوا بك ريب المنون فمتّ أفهم خالدون في الدنيا؟

وقال : ﴿ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ ولم يقل : (فهم خالدون) وذلك للحصر ، أي : أفهم الخالدون دون غيرهم من البشر الذين قضى الله أن لم يجعل لأحد منهم الخلد .

لقد قال ههنا : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ فقال : (الخلد) ولم يقل : (الخلود) ، فإن القرآن الكريم يستعمل (الخلد) كثيرًا ، واستعمل (الخلود) في موطن واحد وذلك قوله سبحانه : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق : ٣٣ ـ ٣٤] .

واستعمل (الخلد) فيما عدا ذلك وذلك نحو قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ [يونس : ٥٢] .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت : ٢٨] .

وقوله : ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الفرقان : ١٥] .

فاستعمل (الخلد) لمن هم أقل عددًا ممن ذكر في آية (ق) .

فقد قال في (ق) : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ ويوم الخلود ليس خاصًّا بمؤمن أو كافر ، بل كلهم يشملهم ذلك اليوم فهو يوم الخلود للجميع سواء كان من

أهل الجنة أم من أهل النار.

قد تقول: ولكن الكلام على المتقين فقد قال سبحانه في سياق الآية: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ... ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾.

فنقول: لم يقل: (تلك دار الخلود) أو (جنة الخلود) في إشارة إلى الجنة، وإنما قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾، وهو وإن بشرهم بالخلود في خطابه لهم غير أن التعبير بيوم الخلود لا يخصهم وحدهم. فيوم الخلود ليس خاصًّا بصنف دون صنف وإنما هو عام لكل المكلفين.

هذا إضافة إلى أنه ورد في السياق ذكر أهل النار وأهل الجنة. وأما (الخلد) فلم يستعملها إلا مخصصة بصنف دون آخرين. فقد قال: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾، وقال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ وهذا خاص بالكافرين.

وقال: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ وهذا خاص بالمؤمنين.

فاستعمل (الخلود) التي هي أكثر حروفًا من (الخلد) لمن هم أكثر عددًا. فـ (خلود) أربعة أحرف، و(خلد) ثلاثة أحرف.

فناسب بين القلة والكثرة في بناء المفردة والمكلفين.

وكذلك الأمر في آية الأنبياء هذه وهي قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، فالبشر هنا يعني واحدًا من الناس، وحتى إذا قصد بها مجموعة من الناس فهم قلة بالنسبة إلى مجموع البشر. وهذا من لطائف التعبير.

لقد قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فأسند الجعل لنفسه سبحانه فهو الذي قضى بذلك وقدره.

ثم بين ذلك بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

فلا تنجو نفس من الموت بل لا بد أن تذوقه.

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾

«أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم...

و(فتنة) مصدر مؤكد لـ (نبلوكم) من غير لفظه» [١].

ويحتمل أيضًا أن تكون (فتنة) مفعولاً لأجله، أي (لنفتنكم)، كما يحتمل أن تكون حالاً أي: فاتنين لكم، بمعنى: مختبرين لكم، كما يحتمل أن تكون مفعولاً مطلقًا مؤكدًا من غير لفظ الفعل كما ذكر صاحب الكشاف.

وجاء بالمصدر ليحتمل المعاني الثلاثة: المصدر المؤكد والمفعول له والحال وهو من التوسع في المعنى.

و«قدم الشر لأن الابتلاء به أكثر... وعن ابن عباس: الخير والشر هنا عام في الغنى والفقر، والصحة والمرض، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال...

والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما صح أن يكون فتنة وابتلاء...

وانتصب (فتنة) على أنه مفعول له، أو مصدر في موضع الحال، أو مصدر من معنى نبلوكم...

﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ فنجازيكم على ما صدر منكم في حالة الابتلاء من الصبر والشكر وفي غير الابتلاء» [٢].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٨.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١١ وانظر روح المعاني ١٧ / ٤٧.

«وأكد فعل البلاء بمصدر من معناه مقرون بالهاء تعظيمًا له فقال: (فتنة) أي كما يفتن الذهب إذا أريدت تصفيته بمخالطة النار له» (١).

﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي لا إلى غيرنا فنحاسبكم ونجزيكم على ما قدمتم.

وهذا التعقيب مناسب لمفتتح السورة وهو قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

ولما ذكره في آخر السورة من عاقبة الكافرين والمؤمنين.

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

وقال في سورة العنكبوت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

فلم يقل في آية العنكبوت: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) كما قال في آية الأنبياء.

وقال في آية الأنبياء: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالواو.

وقال في آية العنكبوت: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بثم.

فلم ذاك؟

أما إنه لم يقل في آية العنكبوت: (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) فقد قيل: إنه «لما تقدم أول سورة العنكبوت ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [الآيتان: ٢ - ٣] أغنى ذلك عن (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) في آية العنكبوت فحذف منها» (٢).

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤١٨.

(٢) حاشية البرهان للكرماني ذات الرقم ١١ ص ٢٤٠.

وهو توجيه مقبول.

وأما قوله في آية الأنبياء: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

وقوله في آية العنكبوت: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

فلأن آية الأنبياء ـ والله أعلم ـ هي في الرجوع إلى الله عند الموت أو في القيامة.

وأما آية العنكبوت فهي فيما بعد ذلك وهو دخول الجنة أو النار.

يدلك على ذلك سياق آيات العنكبوت، فهو في ذكر من يدخل النار ومن يدخل الجنة. قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨)﴾.

فجاء بـ (ثم) التي تفيد التراخي.

وليس السياق كذلك في آية الأنبياء.

وقد ذكرنا آنفًا أن هذه الآية مناسبة لما ورد في أول السورة من ذكر للحساب وهو قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾. والحساب قبل القضاء بدخول الجنة أو النار.

جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ وفي العنكبوت: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ لأن (ثم) للتراخي، والرجوع هو الرجوع إلى الجنة أو النار، وذلك في القيامة.

وخصت هذه السورة بالواو لما حيل بين الكلامين بقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم



بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ . وإنما ذكرا لما لم يتقدم ذكرهما. فقام مقام التراخي وناب الواو منابه» (١) .

* * *

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

(إذا) ظرف زمان تجردت للظرفية وليس فيها معنى الشرط، بدليل عدم اقتران جوابها بالفاء، نظير قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ [الجاثية: ٢٥].

و(هزوًا) مصدر بمعنى اسم المفعول، أي مهزوءًا بك، وذلك للمبالغة.

لقد نفى الفعل (يتخذونك) بإنْ دون (ما) ذلك أن النفي بـ (إنْ) أقوى من النفي بـ (ما).

ولم يقل: (وإذا رآك الذين كفروا اتخذوك مهزوءًا بك) وإنما قال: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ فجاء بـ (إنْ) و(إلا) للقصر، أي لم يعاملوه بمعاملة أخرى غير الاستهزاء، فقصروا معاملتهم له على الاستهزاء(٢)، وذلك للمبالغة في ذلك.

وقال: (هزوًا) بالمصدر للمبالغة كما ذكرنا.

فكانت المبالغة بالقصر، والنفي بـ (إنْ)، وبالمصدر دون الوصف.

وجاء بالفعل المضارع (يتخذونك) للدلالة على تكرر الاستهزاء.

---

(١) البرهان ٢٤٠.
(٢) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١.

وحذف القول، أي: قائلين أو يقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

وقولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ استهزاء به، أي يعيبها ويذكرها بسوء، وتعظيم لآلهتهم التي لا ينبغي لأحد أن يعيبها بل ينبغي أن يعظمها ـ فيما يرون ـ.

والغريب أنهم بذكر الرحمن الذي خلقهم وأفاض عليهم بالنعم كافرون وأنهم يعظمون آلهة اتخذوها لا تضر ولا تنفع ولا تعقل ولا تنطق ولا تسمع ولا تبصر.

وقوله: ﴿بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يحتمل أن يكون المقصود به ذكر الله بما يجب أن يذكر، كما يحتمل أن يكون المقصود بذكر الرحمن القرآن، وقد سماه الله ذكرًا في أول السورة فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾.

وقال في الشعراء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥﴾

وكلاهما مقصود، فهم كافرون بالرحمن وبالقرآن الذي هو ذكر من الرحمن.

جاء في (الكشاف): «الذكر يكون بخير وبخلافه، فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد، كقولك للرجل: (سمعت فلانًا يذكرك)، فإن كان الذاكر صديقًا فهو ثناء، وإن كان عدوًّا فذم، ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ۝٦٠﴾، وقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ . . . وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوحدانية فهم به كافرون لا يصدّقون به أصلاً، فهم أحق بأن يتخذوا هزوًا منك . . .

وقيل: (بذكر الرحمن): بما أنزل عليك من القرآن»[١].

والضمير الثاني في قوله: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ توكيد للأول.

جاء في (تفسير أبي السعود): «والضمير الثاني تأكيد لفظي للأول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكِّد والمؤكَّد بالمعمول»[٢].

وجاء في (نظم الدرر): «وكرر الضمير تعظيمًا بما أتوا به من القباحة فقال: (هم)»[٣].

قد تقول: لقد قال ههنا: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

وقال في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

فختم الآية بقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾، فما توجيه ذلك؟

فنقول: إن السياق في الأنبياء في ذكر الرحمن سبحانه وما أفاض من الخلق والنعم، فقد قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ...﴾.

واستمر في ذكر ما فعله سبحانه من نحو قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٨.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١.

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٢٠.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ . . . . . . وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ . . . وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ . . . وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ . . . وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ .

وبعد الآية قال: ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ فالسياق فيما أفاض ربنا من الخلق والنعم ، فناسب ختم الآية بذكر الرحمن .

في حين كان السياق في الفرقان في الكلام على الرسول ، فقد قال سبحانه بعد آية الفرقان: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ ﴿٤٢﴾﴾ . وتقدم الكلام على الرسول فقد قال سبحانه: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ . . . وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ . . . ﴾ .

ثم قال: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ . . . ﴾ فناسب ختم الآية بذكر الرسول .

جاء في (ملاك التأويل) في بيان المناسبة لخاتمة كل من الآيتين «أنه لما تقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ ، وقوله: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ وقوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ ءَالِهَةٗۖ ﴿٢٤﴾﴾ ، فتكرر ذكر مرتكبهم في اتخاذهم معبودات لا تغني عنهم ، ناسبه قولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ .

أما آية الفرقان فقد تقدمها قوله: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ فأنكروا كون الرسول من البشر ، فجرى مع

ذلك وناسبه قولهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ تعجبًا واستبعادًا أن يكون الرسل من البشر. وقد رد ذلك عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فوضح التناسب فيها، والله أعلم»[1].

* * *

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

لما كان الإنسان مطبوعًا على العجلة معتادًا لها قال سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ كأنه مخلوق منها على سبيل المبالغة. والإنسان من صفاته العجلة كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

جاء في (تفسير أبي السعود): «جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه... إيذانًا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه»[2].

وبنى الفعل (خلق) للمجهول لأن هذه الصفة غير محمودة فلم يرد أن يسندها إليه سبحانه، والخالق معلوم. وهذا كثير جارٍ في القرآن الكريم[3].

ونحو ذلك قوله سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١].

في حين قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] لما كان ذلك

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٩٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠١ وانظر نظم الدرر ١٢ / ٤٢٠، البحر المحيط ٦ / ٣١٢.

(٣) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ـ تفسير سورة التين.

من مظاهر نعمته عليه.

قال سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ثم ذكر أنه أسجد له ملائكته أجمعين فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾.

وهذا تكريم لآدم فقال: (خلقت).

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

وآياته هي آيات الوعيد التي ستحل بهم في الدنيا، وعذاب الآخرة الذي وعدهم به.

وقيل: هي أدلة التوحيد التي تدل على صدق الرسول.

جاء في (البحر المحيط): «أي آيات الوعيد، فلا تستعجلون في رؤيتكم العذاب الذي تستعجلون به...

والآيات هنا قيل: الهلاك المعجل في الدنيا والعذاب في الآخرة، أي يأتيكم في وقته.

وقيل: أدلة التوحيد وصدق الرسول» (١).

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ فإنها ليست في مصلحتكم، وإذا وقعت تمنيتم أنها لم تقع، سواء ما كان في الدنيا أم ما يكون في الآخرة.

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٢ ـ ٣١٣ وانظر روح المعاني ١٧ / ٤٩.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقولون ذلك استهزاء بما وعدهم رسولهم[١].

وقال: (يقولون) ولم يقل: (قالوا) للدلالة على تكرر القول منهم.

وقال: (هذا الوعد) بحرف الإشارة للقريب، ولم يقل: (ذلك) للدلالة على أنهم يقولون ذلك حين يعدهم ولا يدعون ذلك فيقولونه بعد حين.

وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يدل على أن المسلمين كانوا يعدونهم بما أنزل الله كما يعدهم رسولهم فقالوا: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ بالجمع، ولم يقولوا: (إن كنت من الصادقين) فيجعلون الخطاب للرسول وحده.

في حين قال في الرسل الآخرين: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فجعلوا الخطاب للرسول فهو الذي كان يعدهم، وذلك في عاد قوم هود (انظر الأعراف ٧٠، الأحقاف ٢٢)، وقوم نوح (انظر هود ٣٢)، وقوم صالح إذ قالوا لرسولهم: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧].

في حين ورد قوله سبحانه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ في ستة مواضع كلها في خطاب أصحاب الرسول وذلك في يونس ٤٨، والأنبياء ٣٨، والنمل ٧١، وسبأ ٢٩، ويس ٤٨، والملك ٢٥.

مما يدل على أن المسلمين كانوا يبلّغون ما أرسل به رسولهم.

---

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣١٣، روح المعاني ١٧ / ٤٩.

وهذه إشارة إلى أن المسلمين ما كانوا يقعدون عن الدعوة إلى الله سبحانه وتبليغ ما أنزل إليهم.

* * *

﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

جواب (لو) محذوف للتهويل والتعظيم ولتذهب النفس كل مذهب(١) ، ولأن الكلمات لا تفي ببيان كيف تكون حالهم هناك.

و(حين) مفعول (يعلم) أي لو يعلمون ذلك الوقت ، ولا يصح أن يكون ظرفاً ، فإنه لا يصح أن يكون المعنى (لو يعلمون في ذلك الوقت) فإنهم في ذلك الوقت يكونون قد علموه وذاقوه.

وقال: (لو يعلم) ولم يقل: (لو علم) لأن عدم العلم مستمر.

جاء في (روح المعاني): «وإيثار صيغة المضارع في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم العلم» (٢).

وذكر الاسم الموصول وهو (الذين كفروا) ولم يذكر ضميرهم كما كان في الآية السابقة وهو قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ليبين علة استحقاق العذاب وهو الكفر وليدل على أن الذين استعجلوا هم الكفار.

جاء في (روح المعاني): «ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٧ / ٧٠ ، البحر المحيط ٦ / ٣١٣.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٤٩.

في حيز الصلة على علة استعجالهم» (١).

وقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي لا من آلهتهم التي كانوا يعظمونها ولا من غيرهم بل يتركون للعذاب.

وقدم الوجوه على النار في قوله: ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ وذلك لأنها أهم، فإنهم هم المعذبون والكلام عليهم والوجوه وجوههم، فإنه ليس المهم كف النار ولكن المهم أن يكون الكف عن وجوههم هم.

قدم الوجوه على الظهور؛ لأن الوجه أكرم والعذاب عليها أشد، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الزمر: ٢٤].

جاء في (الكشاف): «جواب (لو) محذوف، و(حين) مفعول به لـ (يعلم)، أي لو يعلمون الوقت الذي يستعلمون عنه بقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام فلا يقدرون على دفعها ومنعها من أنفسهم، ولا يجدون ناصرًا ينصرهم لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم به هو الذي هوّنه عندهم.

ويجوز أن يكون (يعلم) متروكًا بلا تعدية، بمعنى: لو كان معهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين. و(حين) منصوب بمضمر، أي حين لا يكفون عن وجوههم النار يعلمون أنهم كانوا على الباطل» (٢).

قد تقول: لقد قال في هذه الآية إنهم لا يكفون النار عن وجوههم ولا عن ظهورهم، فذكر الوجوه والظهور.

وقال في العنكبوت: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٤٩.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

فذكر أنهم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فما اللمسة البيانية في ذكر ما ذكر في كل موضع؟

فنقول: إنه قال في الأنبياء: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ .

فقال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾

والرؤية إنما تكون إذا استقبلوا المرئي بوجوههم فإن الرؤية إنما تكون بالعين ، والعين إنما هي في الوجه .

وقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ إنما تكون عند استقبالهم له بأوجههم أو عند إدباره عنهم .

والإدبار إنما هو تولية الظهر فقال: ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ ، وذلك يشمل الإقبال والإدبار .

في حين قال في العنكبوت: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ .

فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ، والإحاطة عامة تشمل الأمام والخلف والجوانب .

ثم ذكر أن العذاب يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، أي يغطيهم ، والغشاء: الغطاء ، فلم يترك جهة من الجهات إلا شملها العذاب .

فالعذاب في العنكبوت دخل فيه ما ذكر في الأنبياء وزيادة. فإنه لما

قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دخل في ذلك الخلف والأمام والجوانب ـ كما ذكرنا ـ ، ثم ذكر أنه يغطي الفوق والأسفل فكانت الإحاطة بالعذاب شاملة ، وهي أشمل وأعم مما ذكر في الأنبياء.

وهذا مناسب لاستعجالهم بالعذاب ووصفهم بالكفر على جهة الثبوت ، فقد ذكر استعجالهم بالعذاب مرتين فقال: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ ثم قال: ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ .

ولم يذكر في الأنبياء الاستعجال بالعذاب ، وإنما قال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ولم يذكر أنه وعدٌ بالعذاب ، وإنما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ .

ثم ذكر وصفهم بالكفر على جهة الثبوت فقال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فذكر وصفهم بالكفر على جهة الثبوت فجاء بالصيغة الاسمية في قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ . في حين ذكر اتصافهم به في الأنبياء بالصيغة الفعلية فقال: ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ، والفعل يدل على الحدوث كما هو معلوم ، فكان العذاب في العنكبوت أعم من عدة جهات.

فقد ذكر الوجوه والظهور في الأنبياء.

في حين ذكر الإحاطة في العنكبوت ، والإحاطة أعم من الوجوه والظهور ، فإن الوجه جزء من الأمام ، والظهر جزء من الخلف ، في حين أن الإحاطة تشمل الأمام كله ، والخلف كله ، وتشمل الجانبين.

وذكر الفوق فقال: (من فوقهم) ولم يقل: (فوقهم) ليدل على أن العذاب يغشاهم أي يغطيهم من فوقهم من دون فاصل ، وكذلك قوله: (من تحت أرجلهم).

ثم قال: ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والذوق يكون بالملامسة. فكان العذاب في العنكبوت أعم وأشد.

وكل مناسب لموضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

أي بل تأتيهم النار أو الساعة فجأة فتحيّرهم وتغلبهم فلا يستطيعون ردها. لقد قال: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يردونها) لئلا يفهم أنهم قد يكون باستطاعتهم ذلك ولكنهم لا يفعلون، وإنما قال: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فنفى الاستطاعة.

﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون فيستريحوا.

وجاء بالحال مصدرًا فقال: (بغتة) أي مباغتة لهم للمبالغة.

وجاء بالفاء فقال: (فتبهتهم) للدلالة على السبب والتعقيب من دون مهلة، ولم يقل: (وتبهتهم).

ثم قال: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ فجاء بالفاء الدالة على السبب والتعقيب.

وقال: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يردونها) لما ذكرت.

وقال: ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ولم يقل: (فلا يستطيعون أن يردوها) أي في المستقبل؛ لأن (أنْ) تصرف المضارع إلى الاستقبال، وإنما جاء بالاسم للدلالة على أنهم لا يستطيعون ردها على كل حال وفي جميع الأزمنة.

ثم قال: ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فلا يمهلون، وهو مناسب للمجيء بالفاء

الدالة على التعقيب من دون مهلة .

جاء في (الكشاف): «يقال للمغلوب في المحاجّة: مبهوت ، ومنه ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]» (١) .

وجاء في (البحر المحيط): «﴿ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً ﴾ أي تفجؤهم . . .

والظاهر أن الضمير في (تأتيهم) عائد على النار ، وقيل: على الساعة التي تصيرهم إلى العذاب ، وقيل: على العقوبة» (٢) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(فتبهتهم) أي تغلبهم أو تحيّرهم . . .

﴿ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾ أي يمهلون ليستريحوا طرفة عين. وفيه تذكير لإمهالهم في الدنيا» (٣) .

* * *

﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

قيل في الفرق بين الاستهزاء والسخرية: «إن الإنسان يستهزأ به من غير أن يسبق منه فعل يستهزأ به من أجله .

والسخر يدل على فعل يسبق من المسخور منه» (٤) .

والملاحظ في التعبير القرآني أن الاستهزاء يستعمله فيما هو أعم من السخرية . فإن السخرية لم يستعملها القرآن إلا مع الأشخاص .

قال تعالى: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ ﴾ [هود: ٣٨] .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٤ .

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٣ .

(٤) الفروق اللغوية ٢٦٨ .

وقال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

وقال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢١٢].

أما الاستهزاء فهو عام يكون من الأشخاص وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨].

وقال: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

وقال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠].

وقال: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: ٤١].

لقد ذكر في آية الأنبياء هذه الاستهزاء والسخرية فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ثم قال: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم﴾.

والذي يبدو أن معنى الآية أن الكفار استهزؤوا بهم وبما جاؤوا به وسخروا منهم ومن عملهم، فجمع بين الاستهزاء والسخرية فحاق بالذين سخروا من الرسل ما كانوا يستهزئون به ومما كانوا يذكّرونهم به من الآيات والعذاب وما جاءت به رسلهم.

وهو عدة للرسول وإنذار للمستهزئين أن يصيبهم مثل ما أصاب

الأولين. جاء في (تفسير أبي السعود): «تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزائهم به عليه السلام في ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بأنه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام»[(١)].

وجاء في (روح المعاني): «وقيل: إن المراد من الذي كانوا يستهزئون هو العذاب الذي كان الرسل يخوفونهم إياه»[(٢)].

وقدم الجار والمجرور (بالذين سخروا) على فاعل (حاق) وهو ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ لأن المعنى يقتضي ذاك، فلا يصح أن يقال: (لقد استهزئ برسل من قبلك فحاق ما كانوا به يستهزئون بالذين سخروا منهم) أو هو ضعيف، لأن الضمير في (كانوا) عند ذاك لا يعود على مذكور متقدم؛ لأنه لم يتقدم ذكر للمستهزئين، فإن الفعل مبني للمجهول، بخلاف قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فإن الضمير في (كانوا) يعود على المتقدم وهو (الذين سخروا منهم).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى: (ما كانوا به) للمسارعة إلى بيان لحوق الشر بهم»[(٣)].

وبنى الفعل (استهزئ) للمجهول لأنه لا يتعلق غرض بذكر الفاعل، فإن العقوبة تتعلق بالاستهزاء أيًّا كان فاعله. إذ لو ذكر الفاعل لربما أفهم أن العقوبة إنما حصلت لأن الفاعل هم هؤلاء المذكورون، ولو كان غيرهم لم تكن العقوبة كذلك أو أنهم لم يعاقبوا.

جاء في (نظم الدرر): «ولما كان المخوف نفس الاستهزاء لا كونه من

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٣.
(٢) روح المعاني ٧ / ١٠٢.
(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٣ ـ ٧٠٤.

معين بنى للمفعول قوله: ﴿ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ أي كثيرين»[1].

* * *

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

بعد أن ذكر استهزاءهم واستبعادهم لما وعدهم به رسوله أمر سبحانه رسوله أن يسألهم مقرعًا لهم: من الذي يحميهم ويحفظهم من بأس الله وعذابه الذي يستحقونه على وجه الدوام في الليل والنهار، فهم مستحقون لذلك لولا رحمته بهم. وقد ألمح باسمه (الرحمن) أنه حفظهم من ذلك برحمته وهو سينزله بهم إذا اقتضت حكمته ذلك.

وقدم الليل على النهار لأن الداهية به أعظم وأشد وقعًا فإنهم عند ذاك غافلون ولأنهم غير متوقعين ولا منتظرين لشيء من ذلك بل تفجؤهم.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٨] فقدم البيات وهو الليل على النهار.

ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠].

وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وفي ذلك تخويف أعظم وأشد.

جاء في (البحر المحيط): «ثم أمره تعالى أن يسألهم من الذي

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤٢٣.

يحفظكم في أوقاتكم من بأس الله، أي لا أحد يحفظكم منه. وهو استفهام تقريع وتوبيخ»[(١)].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي من بأسه الذي تستحقون نزوله ليلاً أو نهارًا.

وتقديم الليل لما أن الدواهي أكثر فيه وقوعًا وأشد وقعًا.

وفي التعرض لعنوان الرحمانية إيذان بأن كالئهم ليس إلا رحمته العامة»[(٢)].

وجاء في (نظم الدرر): «ولما كان لا منعم بكلاية ولا غيرها سواه سبحانه ذكرهم بذلك بصفة الرحمة فقال: (من الرحمن) الذي لا نعمة بحراسة ولا غيرها إلا منه حتى أمنتم مكره ولو بقطع إحسانه»[(٣)].

﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

فهم معرضون عن ذكر ربهم الذي أنعم عليهم وأحسن إليهم. وأضاف الضمير إليهم ليذكرهم بربوبيته لهم وإحسانه وتفضله عليهم.

وقال: (معرضون) بالاسم للدلالة على دوام الإعراض عن ذكره سبحانه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصية من الضلالة والغي ما لا يخفى»[(٤)].

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٤.
(٣) نظم الدرر ١٢ / ٤٢٤.
(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٥.

﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

* * *

هذا التعبير يحتمل معنيين كلاهما مراد:

الأول: بل ألهم آلهة تمنعم من أن ينالهم مكروه يقع عليهم من جهتنا؟

والآخر: ألهم آلهة غيرنا تمنعهم وتحفظهم؟

ثم استأنف فذكر أن هذه الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها، وأنهم لا يصحبون منا بنصر ولا تأييد فكيف ينصرونهم، فهم أعجز من ذلك؛ فليس لهم القدرة في أنفسهم ونحن لا نعينهم فهم ليست لهم قيمة ولا مكانة.

جاء في (الكشاف): «ثم أضرب عن ذلك بما في (أم) من معنى (بل) وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم ﴾ من العذاب تتجاوز منعنا وحفظنا.

ثم استأنف فبين أن ما ليس بقادر على نصر نفسه ومنعهاولا بمصحوب من الله بالنصر والتأييد كيف يمنع غيره وينصره؟» [١].

وجاء في (البحر المحيط): «قيل: والمعنى ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز من أن ينالهم مكروه من جهتنا. . . .

[وقيل] أم لهم مانع من سوانا» [٢].

وجاء في (روح المعاني): «وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ أي لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٤.

ويدفعوا عنها ما ينزل بها ولا هم منا يصحبون بنصر أو بمن يدفع عنهم ذلك من جهتنا. فهم في غاية العجز وغير معتنى بهم فكيف يتوهم فيهم ما يتوهم؟»(١).

وقال: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ فقدم (هم) أي ليسوا هم الذين يصحبون منا وإنما غيرهم هم الذين نعينهم ونكون معهم وننصرهم وهم المؤمنون بي وبرسولي كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقدم (منا) على (يصحبون) أي لا يصحبون منا وإنما يصحبون من غيرنا وهم الذين يعبدونهم، فهم الذين ينصرونهم ويدفعون عنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

وكما قال في قوم إبراهيم: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فهؤلاء عاجزون لا أحد يمنعهم من الله.

فهم عاجزون وآلهتهم أعجز فما أضلهم وأخسرهم!!

* * *

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أي نحن حفظناهم ومتعناهم هم وآباءهم وليست آلهتهم ولا أحد غيرنا

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٥٢.

فلا يغتروا بذلك ويظنوا أنهم سيبقون على حالتهم من التمتيع والطمأنينة. أفلا يرون أنا نأتي على دار الكفر وننقصها شيئًا فشيئًا ونمكن منهم المسلمين فيفتحون ديارهم؟

جاء في (الكشاف): «ثم قال: بل ما هم فيه من الحفظ والكلاءة إنما هو منا، لا من مانع يمنعهم من إهلاكنا. وما كلأناهم وآباءهم الماضين إلا تمتيعًا لهم بالحياة الدنيا وإمهالاً كما متعنا غيرهم من الكفار وأمهلناهم حتى طال عليهم الأمد وامتدت بهم أيام الروح والطمأنينة فحسبوا أن لا يزالوا على ذلك لا يغلبون ولا ينزع عنهم ثوب أمنهم واستمتاعهم وذلك طمع فارغ...

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا﴾ ننقص أرض الكفر ودار الحرب ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها وردها دار إسلام... وإن عساكرهم وسراياهم كانت تغزو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ناقصة من أطرافها»[1].

وقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ و﴿أَنَّا نَأْتِي﴾ و﴿نَنقُصُهَا﴾ بإسناد ذلك إلى ضميره سبحانه ليدل على أن ذلك كله بإرادته وحوله وقوته وليس بما جرت عليه الأحوال، وإنما هو بتسليطنا جيوش المسلمين عليهم. وكان الأصل أن يقال: (يأتي جيوش المسلمين فيغلبونهم) ولكنه أسند الإتيان إليه سبحانه لأن ذلك بنصره وتأييده.

جاء في (روح المعاني): «وكان الأصل: يأتي جيوش المسلمين، لكنه أسند الإتيان إليه عز وجل تعظيمًا لهم [أي تعظيمًا لجيوش المسلمين] وإشارة إلى أنه بقدرته تعالى ورضاه. وفيه تعظيم للجهاد والمجاهدين»[2].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٣.

قد تقول: لقد قال في الرعد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا﴾ [الرعد: ٤١].

فقال: (أولم) بإدخال (لم) على الفعل.

ومن المعلوم أن (لم) تقلب زمن المضارع إلى المضي.

في حين قال في آية الأنبياء: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ بإدخال (لا) على الفعل المضارع.

و(لا) الداخلة على المضارع تصرفه إلى الاستقبال غالبًا وقد تكون للحال.

فكان السؤال عن الرؤية في الرعد في الماضي.

وأما في الأنبياء فالسؤال عن الرؤية في الحال والاستقبال، فلم ذاك؟

والجواب أنه قال بعد آية الرعد: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ﴿٤٢﴾﴾.

وهذا إخبار عن ماض، فذكر ما فعله ربنا بهم، فناسب إدخال (لم) التي تفيد المضي.

في حين قال في الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ وهذا إنذار وتخويف مما يقع لهم في المستقبل.

وقال: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وهذا تحذير لهم مما يقع في المستقبل، فناسب إدخال (لا) وذلك تذكير لهم بما يحصل لهم في الحال والاستقبال. والله أعلم.

* * *

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

شبه المخاطبين بالإنذار المدعوين إلى الإسلام بالصم. فهو بدل أن يقول: (وهؤلاء لا يسمعون الإنذار ولا يلتفتون إليه) قال: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ فهم أشبه بالصم فلا ينفع معهم إنذار.

وذكر نفي السمع لأن الإنذار مما يسمع. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: الصم لا يسمعون دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر، فكيف قيل: ﴿ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾؟

قلت: اللام في (الصم) إشارة إلى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس.

والأصل: ولا يسمعون إذا ما ينذرون. فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامّهم وسدّهم أسماعهم إذا أنذروا. أي هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام من آيات الإنذار» (١).

وجاء في (البحر المحيط): «ولما كان الوحي من المسموعات كان ذكر الصمم مناسبًا.

والصم هم المنذرون، فـ (أل) فيه للعهد» (٢).

وقال: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ ولم يقل: (ولا يسمع الصم الكلام) لأن الدعاء يكون عادة برفع الصوت. فإن هؤلاء حتى لو رفع الصوت لا يسمعونه للدلالة على شدة تصامّهم.

جاء في (تفسير أبي السعود): «كما أن إيثار الدعاء الذي هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فإن الإنذار عادة يكون بأصوات عالية

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣١٥.

مكررة مقارنة لهيئات دالة عليه» [١] .

وقال: (إذا ما ينذرون) بالفعل المضارع ، ولم يقل: (إذا ما أنذروا) أي ولو تكرر دعاؤهم وإنذارهم.

جاء بـ (ما) الزائدة المؤكدة للدلالة على أنهم لا يسمعون ولو بولغ في إنذارهم ورفع الصوت بذلك وتكرر.

ففي التعبير أكثر من دلالة على شدة تصامهم ، منها:

أنه وصفهم بالصمم.

وأنه ذكر الدعاء وهو رفع الصوت.

وجاء بـ (إذا) الدالة على تحقق الإنذار ولم يأت بـ (إن).

وجاء بـ (ما) الزائدة المؤكدة.

وجاء بالفعل المضارع الدال على تكرر الإنذار.

قد تقول: لقد قال في النمل: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ .

ونحوه قال في الروم ٥٢ .

فختم الآيتين بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ ، في حين ختم آية الأنبياء بقوله: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ .

فلم الاختلاف بين الخاتمتين؟

فنقول: أما خاتمة آية الأنبياء فظاهرة المناسبة لأول الآية وهو قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ فكلاهما في الإنذار.

وأما آيتا النمل والروم فقد قال في أولهما: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ،

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٠٦.

والموت إدبار عن الحياة ، فناسب ذكر الإدبار في قوله : ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ .

فكلاهما مدبر ، أحدهما مدبر عن الحياة ، والآخر مدبر عن السماع فهم بمنزلة الأموات .

* * *

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أي ولئن أصابهم أدنى شيء مما أنذروا به في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ لنادوا بالويل وأقروا بالظلم .

وفي التعبير عدة مبالغات ، منها :

التعبير بالمس في قوله : ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ﴾ ، والمس دون النفوذ ، أي ولئن أصابهم أدنى شيء .

والتعبير بالنفح وما فيه من لفظ القلة والنزارة ، فإن أصل النفح هبوب رائحة الشيء أو العطاء اليسير .

وبناء المرة في قوله : (نفحة) أي نفحة واحدة يسيرة من رائحة العذاب لنادوا بالويل وقالوا : (يا ويلنا) .

وإقرارهم بالظلم واتصافهم به على جهة الثبوت .

وأكد ذلك بالقسم في قوله : (ولئن) ، والجواب في : (ليقولن) وتوكيده بالنون الثقيلة ، والتوكيد بـ (إن) في قوله : (إنا كنا) ، والإقرار بالظلم على جهة الثبوت بالصيغة الاسمية .

وأضاف العذاب إلى الرب مضافًا إلى كاف المخاطب لأنه هو الذي أنذرهم بالوحي من ربه .

جاء في (الكشاف) «﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ ﴾ من هذا الذي ينذرون به أدنى شيء لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصاموا وأعرضوا.

وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات، لأن النفح في معنى القلة والنزارة... نفحه بعطية: رضخه، ولبناء المرة»(١).

وجاء في (روح المعاني): «ذكر المس وهو دون النفوذ ويكفي في تحققه إيصال ما.

وما في النفح من معنى النزارة فإن أصله هبوب رائحة الشيء... نفحه بعطية: رضخه وأعطاه يسيراً.

وبناء المرة وهي لأقل ما ينطلق عليه الاسم.

وجعل السكاكي التنكير رابعتها لما يفيده من التحقير»(٢).

* * *

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لما ذكر إقرار المنذرين بالظلم على وجه الثبوت في الآية السابقة بقولهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ ذكر ربنا أنه عنده لا تظلم نفس شيئًا مهما قل، وأن أعمال العباد إنما توزن بميزان هو العدل بعينه فقال:

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فوصف الموازين بالمصدر وهو القسط، أي هي العدل بعينه. ومن المعلوم أن الوصف بالمصدر يفيد المبالغة في الاتصاف بالشيء.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٢٩ ـ ٣٣٠، وانظر البحر المحيط ٦ / ٣١٦.
(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٤.

وجيء بالموازين على صيغة الجمع إما لكثرة من توزن أعمالهم أو لتعدد الموزونات وتنوعها[١].

وقوله: (ليوم القيامة) قيل: أي في يوم القيامة، أو عند يوم القيامة، ويحتمل أن يكون للتعليل، أي لأجل يوم القيامة[٢].

وكل ذلك محتمل.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾

نكّر النفس لتشمل جميع النفوس.

و(شيئًا) يحتمل أن يكون معناه شيئًا من الأشياء فيكون مفعولاً به، كما يحتمل أن يكون: شيئًا من الظلم فيكون مفعولاً مطلقًا لدلالته على المصدر.

وكلا المعنيين مراد.

فهي لا تظلم شيئًا من الأشياء ولا شيئًا من الظلم. وهو من التوسع في المعنى. ولو قال: (شيئًا من الظلم) لتخصص المعنى بشيء واحد، ولكنه أطلق.

جاء في (الكشاف): «وصفت الموازين بالقسط، وهو العدل، مبالغة، كأنها في أنفسها قسط، أو على حذف المضاف، أي ذوات القسط.

واللام في: (ليوم القيامة) مثلها في قولك: (جئته لخمس خلون من الشهر)...

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي، المجلد ٨ / ١٤٩، نظم الدرر ١٢ / ٤٢٨.

(٢) انظر مغني اللبيب (اللام) ١ / ٢١٦، الكشاف ٢ / ٣٣٠، البحر المحيط ٦ / ٣١٦.

وقيل: لأهل يوم القيامة، أي لأجلهم»[١].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(فلا تظلم نفس) من النفوس (شيئًا) حقًّا من حقوقها أو شيئًا من الظلم... والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين»[٢].

﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾

أي وإن كان الشيء أو العمل مقدار حبة من خردل أتينا به.

«ومثقال الشيء ميزانه في مثله. ومثقال ذرة أي وزن ذرة»[٣]، ومثقال حبة أي وزن حبة.

وأنث ضمير المثقال في قوله: (أتينا بها) لأنه أضيف إلى مؤنث وهو الحبة كقولهم: (ذهبت بعض أصابعه)[٤]، وقوله: (كما شرقت صدر القناة من الدم)، وقوله: (تواضعت سور المدينة) في قول الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت … سور المدينة والجبال الخشع

والعدول من التذكير إلى التأنيث في قوله: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ على كثرته في اللغة في نحو هذا فيه معنى لطيف.

ذلك أنه قال: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ والشيء ـ كما ذكرنا ـ يحتمل أن يكون معناه العمل أو الظلم أو شيئًا من الأشياء. وهذا الشيء قد يكون حبة من خردل أو مقدار الحبة فأعاد الضمير بالتأنيث ليشمل المعنيين: المصدر وحبة الخردل ومقدار ذلك.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣١٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٧.

(٣) لسان العرب (ثقل)، المصباح المنير (ثقل)، تاج العروس (ثقل).

(٤) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٠.

وهذا من لطيف الدلالة.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

«فيه توعد وهو إشارة إلى ضبط أعمالهم من الحساب، وهو العد والإحصاء...

والظاهر أن (حاسبين) تمييز... ويجوز أن يكون حالاً»[١].

* * *

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

* * *

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

لما ذكر الإنذار بالوحي قبل هذه الآية في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ والوحي هو القرآن ناسب ذكر ما آتى موسى وهارون وهو ما ذكره في الآية.

وقد بدأ بقصة موسى وهارون وذكر ما آتاهما من الفرقان والذكر مناسبة لما ذكره بعد الآية مما أنزله ربنا على رسوله من الذكر، ولم يذكر أنه أنزل على المذكورين من الأنبياء في السورة كتابًا أو ذكرًا، فناسب البدء بذكر موسى مناسبة للسياق الذي ورد فيه ذكرهما.

وجاء في (التحرير والتنوير) أنه: «ابتدئ بذكر موسى وأخيه مع قومهما لأن أخبار ذلك مسطورة في كتاب موجود عند أهله يعرفهم العرب»[٢].

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٧.

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ٨٨.

إن التعبير في الآية يحتمل أكثر من دلالة:

فالفرقان يحتمل أن يكون التوراة، ويحتمل أن يكون الآيات الدالة على صدقه من المعجزات.

والضياء يحتمل أن يكون المقصود به التوراة أيضًا، فإنها ضياء. وهي ذكر للمتقين وموعظة. وقيل: هي شرف لهم لأن من معاني الذكر الشرف.

وهو قد يفرق بين الكتاب والفرقان بالعطف وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وقد يجعل النور حالاً للكتاب، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وذكر ههنا أنها ضياء، ولم يذكر ذلك في موضع آخر، وإنما يذكر أنها نور كما في آية الأنعام السابقة، أو فيها نور كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤].

ذلك «أن النور أعم من الضياء، والضياء حالة من حالات النور، وهو أخص منه...

وقد ذكر في آية الأنبياء أنه: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾، وهم أخص ممن ذكر في الآيتين الأخريين. فقد قال في آية المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي لليهود، والمتقون أخص من اليهود وهم جزء منهم.

وقال في آية الأنعام: ﴿ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فجعله للناس. وهم أعم من المتقين المذكورين في آية الأنبياء. والمتقون جزء منهم.

فجعل النور الذي هم أعم من الضياء للذين هم أعم ، وهم اليهود والناس. وجعل الضياء الذي هو أخص للذين هم أخص ، وهم المتقون الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون.

فناسب العموم العموم ، والخصوص الخصوص.

من ناحية أخرى أن الضياء إنما هو الساطع من النور أو هو التام منه[١]. وإن المتقين إنما هم جماعة ساطعة من بين عموم المؤمنين أو الناس وحالهم أتم وأكمل.

فناسب بين سطوع المتقين وسطوع النور وهو الضياء.

فالمتقون من بين عموم المؤمنين كالضياء من النور» [٢].

جاء في (الكشاف): «أي آتيناهما الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرًا للمتقين.

والمعنى: أنه في نفسه ضياء وذكر. أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرًا. . . والذكر: الموعظة ، أو ذكر ما يحتاجون إليه في دينهم ومصالحهم ، أو الشرف» [٣].

وجاء في (البحر المحيط): «وقالت فرقة: الفرقان ما رزقه الله من نصره وظهور حجته وغير ذلك مما فرق بين أمره وأمر فرعون.

والضياء: التوراة ، والذكر: التذكرة والموعظة. . .

والعطف بالواو يؤذن بالتغاير» [٤].

---

(١) انظر تفسير الرازي ٦ / ٢٠٩.

(٢) أسئلة بيانية في القرآن الكريم ١ / ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٣) الكشاف ٢ / ٣٣٠.

(٤) البحر المحيط ٦ / ٣١٧.

وجاء في (روح المعاني): «والمراد بالفرقان التوراة، وكذا بالضياء والذكر. والعطف كما قوله:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

ونقل الطيبي أنه أدخل الواو على (ضياء) وإن كان صفة في المعنى دون اللفظ كما يدخل على الصفة التي هي صفة لفظاً. . .

وقال سيبويه: إذا قلت: (مررت بزيد وصاحبك) جاز، وإذا قلت: (مررت بزيد فصاحبك) بالفاء لم يجز» [١].

* * *

﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ٤٩﴾

ذكر من صفات المتقين خشية ربهم بالغيب والإشفاق من الساعة.

والخشية «خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]» [٢].

والإشفاق شدة الخوف [٣].

لقد ذكر أنهم يخشون ربهم بالغيب، وقيل: إن قوله: (بالغيب) يعني أنهم يخافونه ولم يروه، وقيل: إنهم يخافونه من حيث لا يراهم أحد [٤] وذلك عند مغيب الإنسان عن عيون البشر، أي في الخلوة [٥].

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٥٧.
(٢) مفردات الراغب (خشي).
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣١٧.
(٤) البحر المحيط ٦ / ٣١٧.
(٥) البحر المحيط ٧ / ٣٢٥.

وقد ذكر هنا أنهم يخشون ربهم بالغيب ، فقيد الخشية بالغيب .

وأطلق الخشية في أكثر من موطن وذلك نحو قوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الرعد: ٢١] .

وقد فصلنا القول في التقييد والإطلاق في هذا التعبير في قوله تعالى في سورة يس : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴿١١﴾ ﴾ (١) فلا نعيد القول فيه .

وقال : ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ بذكر الرب المضاف إلى ضميرهم ؛ لأن الرب هو المربي والهادي والمعلم ، وأن الفرقان والضياء إنما هما للهداية فناسب ذكر الرب .

وقال : ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴾ بالفعل المضارع الدال على التجدد ، فإن الفعل المضارع قد يدل على الاستمرار والتجدد نحو قوله سبحانه : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] وقوله ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧] (٢) .

ذلك أن خشية الله تتجدد في كل لحظة فجاء بها بالفعل المضارع الدال على الاستمرار .

وذكر اتصافهم بالإشفاق من الساعة بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات ، ذلك أنها ساعة الحساب على الأعمال ، وهم يخافون على

---

(١) انظر كتابنا (على طريق التفسير البياني ـ ج ٢) تفسير سورة يس .

(٢) انظر (معاني النحو ـ ج ٣) ـ زمن الفعل المضارع .

الدوام مما عملوه: ما مضى منه ، وما هم فيه من العمل ، وما سيعملونه في المستقبل ، فجاء بها بالصيغة الاسمية الدالة على الدوام والثبات ؛ ذلك لأنها متعلقة بحياة الإنسان كلها الماضية والحالية والمستقبلية .

جاء في (البحر المحيط): «وتكون الصلة الأولى مشعرة بالتجدد دائمًا كأنها حالتهم فيما يتعلق بالدنيا .

والصلة الثانية من مبتدأ ومخبر عنه بالاسم المشعر بثبوت الوصف كأنها حالتهم فيما يتعلق بالآخرة» (١) .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه» (٢) .

وقدم الساعة على العامل في قوله: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ لأنه ذكر المتقين وهم الذين يحذرون ويتحفظون في أعمالهم لئلا يصيبهم منها سوء في الآخرة. وإنما ذلك يحصل في الساعة فقدمها .

ثم إن الكلام على الساعة تردد في السورة في أكثر من موضع :

فقد ابتدأت السورة باقتراب الحساب للناس وذلك قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ .

وختمت بذلك وذلك قوله: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ. . .﴾ [الأنبياء: ٩٧ ـ ١٠٤] .

وتقدم الآية الكلام على الساعة وذلك قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ ﴿٤٧﴾﴾ .

فناسب ذلك تقديمها .

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣١٧ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨ .

جاء في (تفسير أبي السعود) أن «تقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات، وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون»[١].

* * *

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

إن هذه الآية مناسبة لما ذكر قبلها من إيتاء موسى وهارون الفرقان ضياء وذكرًا للمتقين.

وأشار بقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ إلى القرآن، أي هذا كتاب كثير البركة غزير النفع والخير.

والإشارة إلى الذكر هنا مناسبة لما ذكره من الذكر في الآية السابقة.

جاء في (تفسير أبي السعود): «(ذكر)... وصف بالوصف الأخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقة لما مر في صدر السورة الكريمة»[٢].

ووصف الذكر بأنه مبارك وقدم الوصف بذلك على الإنزال.

قد تقول: لقد قال في سورة الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٩٢﴾﴾.

فقال في الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾.

وقال ههنا: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ﴾.

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٠٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٠٨.

وقدم الإنزال على وصفه بأنه مبارك في الأنعام فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾.

وقدم الوصف بالبركة على الإنزال في آية الأنبياء.

فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب للموطن الذي ورد فيه.

فقد قال قبل آية الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ (٩١)﴾.

فقد ذكر قول القائلين: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ فأنكروا الإنزال أصلاً.

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾.

فقدم الإنزال على كونه مباركًا لأنه هو مدار الإنكار والاهتمام فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾. ولما كان الله قد أنزله فهو مبارك ولا شك.

ولما ذكر الكتاب في الآية فقال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ناسب أن يقول في الآية بعدها: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾.

فناسب ذكر الكتاب في آية الأنعام سياقه، وناسب ذكر (الذكر) في الأنبياء سياقه. وناسب تقديم الإنزال على كونه مباركًا في آية الأنعام.

ولما لم يذكر الإنكار للإنزال في آية الأنبياء قدم عليه ذكر الوصف بالبركة.

ثم قال: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين[١].

وقدم الجار والمجرور (له) على الخبر (منكرون) لأن الكلام عليه.

---

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣١٧.

جاء في (البحر المحيط): «لما ذكر وقرر أن إنكار من أنكر أن يكون الله أنزل على البشر شيئًا وحاجّهم بما لا يقدرون على إنكاره أخبر أن هذا الكتاب الذي أنزل على الرسول مبارك كثير النفع والفائدة.

ولما كان الإنكار إنما وقع على الإنزال فقالوا: (ما أنزل الله) وقيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كان تقديم وصفه بالإنزال آكد من وصفه بكونه مباركًا، ولأن ما أنزل الله تعالى فهو مبارك قطعًا، فصارت الصفة بكونه مباركًا كأنها صفة مؤكدة إذ تضمنها ما قبلها.

فأما قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فلم يرد في معرض إنكار أن ينزل الله شيئًا بل جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ذكر أن الذي آتاه الرسول هو ذكر مبارك.

ولما كان الإنزال يتجدد عبر بالوصف الذي هو فعل، ولما كان وصفه بالبركة وصفًا لا يفارق عبر بالاسم الدال على الثبوت»[١].

* * *

---

(١) البحر المحيط ٤ / ١٧٩.



قصة سيدنا إبراهيم

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ
كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾
وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ
لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟
سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟
إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ
يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ
وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا
فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ورد هذا الجانب من قصة إبراهيم ـ أي محاجّة إبراهيم لأبيه وقومه ودعوته لهم ـ في سورة الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء والعنكبوت والصافات والزخرف، غير أنها لم تتكرر، بل ورد في كل موضع

ما يناسب السياق وما يراد أن يسلّط عليه من الضوء.

ففي سورة الأنعام وهو أول موضع ورد فيه هذا الجانب كان الكلام مع أبيه متعجبًا مع الإنكار من أن يتخذ أصنامًا آلهة. قال تعالى: ﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

وهو أول موضع ذكر اسم أبيه (آزر) ولم يكرره في موضع آخر، فاكتفى بذكره في الموضع الأول.

كان الخطاب لأبيه وحده: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ ولم يقل: (أتتخذون) فكان الحديث مع الأب.

ثم قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي هذا ما يراه هو، ولم يذكر أنه جاءه بذلك وحي أو علم. فهو لم يقل له: (إنك وقومك في ضلال مبين) بل قال إن هذا ما يراه.

ثم ذكرت القصة كيف اهتدى إلى ربه بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، إذ رأى كوكبًا فقال: هذا ربي، حتى إذا أفل قال: لا أحب الآفلين.

ثم رأى القمر، فقال: هذا ربي، حتى إذا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين.

ثم رأى الشمس فقال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت تبرأ من شرك قومه وخاطب قومه معلنًا براءته من شركهم وإيمانه بمن فطر السماوات والأرض.

وحاجّه قومه في ذلك فذكر لهم إيمانه بالله وأنه لا يخاف معبوداتهم التي يشركونها بالله (الآيات ٧٤ ـ ٨١).

وأما في سورة مريم فالقصة تبين أمرًا آخر، إذ سأل أباه أنه لم يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئًا؟

ثم ذكر أنه قد جاءه من العلم ما لم يأته.

وهذه مرحلة غير الحالة الأولى .

فما ذكره في الأنعام أنه يراه وقومه في ضلال مبين ، أي هذا ما يراه .

أما في مريم فإنه ذكر لأبيه أنه قد جاءه من العلم ما لم يأته ، وأنه طلب منه أن يتبعه ليهديه الصراط السوي .

وهذا ما لم يذكره في الأنعام .

فكأن هذه مرحلة تتلو المرحلة الأولى قبلها .

ثم إن موقف أبيه منه قد تغير الآن ، فإن أباه هدده بالرجم إن لم ينته ، وأنه طلب منه أن يهجره . وقد أكد ذلك بالقسم : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ .

وكان موقف إبراهيم في غاية حسن الأدب وتمني الهداية لأبيه قائلاً له : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴿٤٧﴾﴾ .

كما إن موقفه مع قومه قد اختلف .

ففي الأنعام ذكر المحاجّة مع قومه وانتهى الأمر عند ذاك .

أما في هذه السورة سورة مريم فقد ذكر أنه سيعتزلهم وما يدعون من دون الله . وقد اعتزلهم فعلاً ، فقد قال لقومه : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ .

ثم نفذ هذا الأمر فاعتزلهم . وقد أخبر ربنا بذلك فقال : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ .

فما ورد في سورة مريم كأنه استكمال لما ورد في الأنعام . وهو الحالة الطبيعية في مواقف الحياة .

وهذا ما ورد من القصة في سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ .

وأما ما ورد في سورة الأنبياء فالأمر مختلف .

فإن الموقف قد اختلف ، فالمحاجّة قد اختلفت في الشدة ، وإن العاقبة قد اختلفت .

فالخطاب كان للأب في سورتي الأنعام ومريم . وأما في هذه السورة فكان الخطاب عامًّا لأبيه وقومه : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ﴾ .

ولم يذكروا أمرًا في الإجابة عن هذا السؤال سوى أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين .

فقال لهم : ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فأخبرهم أنهم كانوا هم وآباؤهم في ضلال مبين . ولم يقل كما قال في الأنعام : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي هذا ما يراه .

وإنما هو الآن قرر ذلك بعد ما جاءه العلم من ربه .

ثم إنه لم يذكر آباءهم في الأنعام بل ذكر أباه وقومه . أما الآن في سورة الأنبياء فإنهم بعد ما ذكروا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين قال لهم : ﴿ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فقد ذكرهم وذكر آباءهم وقرر ذلك مؤكدًا بلام القسم (لقد) .

ثم كان عاقبة ذلك أن حطم الأصنام فجعلها جذاذًا إلا كبيرًا لهم. وقرروا إحراقه فلم يفلحوا.

وأما في سورة الشعراء فذكر شيئًا آخر من قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه وقومه، وهو المناقشة والحوار في أمر الأصنام وماذا تستطيع أن تفعله لهم.

وذكر هو ربه وما يفعله له.

فقد قال لأبيه وقومه سائلاً لهم: ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾.

فأجابوه قائلين: نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين.

فسألهم قائلاً: هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون؟

فلم يقولوا له: نعم هم كذلك، وإنما قالوا: ﴿ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾.

فأعلن عداوته لهذه الآلهة ولم يعلن عداوته لهم فقال: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

ثم ذكر ما يفعله له ربه رب العالمين: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وانتهى الأمر عند هذا الحد ولم يتعد المحاجّة والمحاورة.

ثم انتهت القصة بالدعاء لنفسه ولأبيه قائلاً: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ ﴾.

فأنت ترى أنه نفذ ما وعد أباه في سورة مريم أنه سيستغفر له ربه حين قال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ ﴿٤٧﴾﴾ فقد دعا ربه هنا في الشعراء بالمغفرة لأبيه قائلاً: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ تنفيذًا لما وعد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وأما ما ورد في العنكبوت فكأنه استكمال للحديث والمحاورة لما في الشعراء.

إذ بعد أن ذكر لهم ما يفعله ربه له من الخير في الشعراء دعاهم في العنكبوت إلى أن يعبدوا الله ويتقوه ليصيبهم من النعم ما هو خير لهم.

فإنه في الشعراء لم يدعهم إلى عبادة الله وإنما لم يتعد الأمر الحوار والحجاج، فلما تبين لهم ضعف حجتهم وأن آلهتهم لا تنفعهم شيئًا دعاهم إلى عبادة الله.

فذكر ما يفعله ربه له من النعم في الشعراء.

وذكر في العنكبوت أنهم إن هم عبدوه واتقوه أفاض عليهم بالخير والنعم.

قال تعالى:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ . . . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ

بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

فما كانت نتيجة الحوار إلا أن قالوا: (اقتلوه أو حرقوه) فأنجاه الله من النار.

فكأن هذا نتيجة الحوار والحديث لما ورد في الشعراء والعنكبوت.

وأما ما ورد في سورة الصافات فإنه مختلف عن كل ما ورد، فإنه لما ضاق ذرعًا بمحاجّتهم وأنهم لا يعبأون بحجة ولا يستمعون لقول، وليس عندهم حجة سوى أنهم رأوا آباءهم كذلك مع إقرارهم بأنها لا تسمع أو تنفع أو تضر، وأنه لم ينفع معهم ترغيب أو ترهيب أخذ يقرّعهم ويشتد عليهم في الكلام: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

فلم يقل: (ما تعبدون) كما قال في الشعراء، وإنما قال لهم: (ماذا تعبدون) فزاد في لفظة الاستفهام لقصد تقريعهم. ذلك أن المقام في الشعراء مقام استفهام ومحاجّة، وفي الصافات مقام تقريع، يدل على ذلك قوله بعد هذه الآية: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

ثم انتهى الأمر بتحطيم الأصنام وإلقائه في النار[(١)].

ومع أنه ذكر في سورتي الأنبياء والصافات تحطيم الأصنام فإن القصة لم تتكرر فيهما، فإنه ذكر في كل موضع ما لم يذكره في الآخر.

فإنه هدد في الأنبياء أنه ليكيدن أصنامهم (٥٧).

وفي الصافات ذكر الحجة التي اعتلّ بها لئلا يخرج معهم في عيدهم فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[(٢)] ولم يذكر ذلك في الأنبياء.

وذكر في الصافات ما لم يذكره في الأنبياء من أنه راغ إلى آلهتهم

---

(١) انظر كتابنا (التعبير القرآني) ١٢٤ وما بعدها، درة التنزيل ٣٣٦.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ١٣، فتح القدير ٤ / ٣٨٩.

فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾.

وذكر في الصافات أنهم قالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ ولم يذكر ذلك في الأنبياء.

ثم تسير القصة في الصافات مسارًا آخر غير مسارها في الأنبياء.

فإنه ذكر في الأنبياء أنه نجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها، وذكر شيئًا من قصة لوط.

وأما في الصافات فقد ذكرت القصة الأمر بذبح ولده وما بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ . . . ﴾

وأما في الزخرف وهو آخر موضع وردت فيه هذه القصة فإنه لخص دعوته وخاتمة الأمر بإيجاز.

فقد أعلن لأبيه وقومه براءته مما يعبدون أشد البراءة قائلاً لهم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، واستثنى من ذلك مَن فَطَره فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾.

وأنه جعل هذه الكلمة باقية في عقبه، أي في ذريته «فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ويدعو إلى توحيده عز وجل»(١).

(١) روح المعاني ٢٥ / ٧٧.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعله يرجع من يشرك بالله إلى التوحيد.

قال تعالى في الزخرف: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ويمكن تلخيص قسم من أحداث القصة في السور التي ذكرناها بما يأتي:

الدعوة:

كان الحديث موجهًا إلى أبيه في الأنعام ومريم.

وفي الأنبياء والشعراء والصافات والزخرف موجهًا إلى أبيه وقومه.

وفي العنكبوت كان الكلام موجهًا لقومه؛ لأن الكلام كان لما هو خير لهم على العموم، ولأنه ذكر عاقبة الأمم المكذبة. فكان الكلام موجهًا لقومه على العموم.

موقف إبراهيم:

كان موقف إبراهيم في الأنعام لا يعدو المحاجّة.

وفي مريم كان اعتزاله لهم ولما يعبدون من دون الله.

وفي الأنبياء والصافات تحطيم الأصنام مع الاختلاف في التفاصيل.

وفي الشعراء التوسع في الاحتجاج.

وفي العنكبوت ذكر المنافع والترغيب في عبادة الله والترهيب من معصيته.

وفي الزخرف إعلان البراءة مما يعبدون إلا الذي فطره، وجعل كلمة التوحيد باقية في عقبه.

موقف قومه منه:

في سورة الأنعام ذكر محاجّة قومه له ولم يذكر كيف كان الاحتجاج وما كانت حجتهم ، والإلماح إلى أنهم خوّفوه آلهتهم فقال لهم إنه لا يخاف ما يشركون به.

وفي مريم ذكر تهديد أبيه له بالرجم.

وفي الأنبياء ذكر سؤال قومه له عمن حطم آلهتهم ، ومحاكمته أمام الناس والقضاء بتحريقه.

وفي الشعراء لم يتعدّ الموقف المحاجّة وانقطاعهم أمامه في الحجة.

وفي العنكبوت ذكر عاقبة المحاجّة وهي أنهم طلبوا قتله أو تحريقه.

وفي الصافات قرروا أن يبنوا له بنيانًا ويلقوه في الجحيم. ولم يذكر البنيان في الأنبياء وإنما ذكر الحكم بتحريقه.

فهناك ذكر الحكم ، وهنا ذكر كيفية تنفيذ الحكم.

عاقبة إبراهيم:

لم يذكر عاقبة إبراهيم في الأنعام سوى أنه ذكر أنه وهب له ذرية صالحة.

وفي مريم ذكر أنه لما اعتزل قومه وما يعبدون من دون الله وهب له إسحاق ويعقوب وجعل كلاً منهما نبيًّا.

وفي الأنبياء ذكر أن النار جعلها بردًا وسلامًا ، ونجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها ووهب له إسحاق ويعقوب.

ولم يذكر في الشعراء سوى الدعاء لنفسه في الدنيا والآخرة.

وفي العنكبوت ذكر أن الله أنجاه من النار ، وذكر أنه مهاجر إلى ربه ، وأن الله وهب له إسحاق ويعقوب وآتاه أجره في الدنيا ، وفي الآخرة هو من الصالحين.

وفي الصافات ذكر أنهم أرادوا به كيدًا فجعلهم الأسفلين. وأنه بشره بغلام حليم، ثم بشره بإسحاق.

كيفية النجاة:

قال في الأنبياء: إنه قال للنار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، ونجاه ولوطاً إلى الأرض التي بارك فيها.

وذكر في العنكبوت أنه أنجاه الله من النار ولم يقل كيف كان ذلك.

وفي الصافات قال: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ولم يقل كيف كان ذلك.

ونعود الآن لدراسة القصة دراسة بيانية.

* * *

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾

«الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح» [١].

وإضافته إليه يعني كل ما يصح ويليق من الرشد أن يكون له. فاستوفى الرشد اللائق به. جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار، وهو الاهتداء الكامل المستند إلى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي» [٢].

قد تقول: ولم لم يقل (آتينا إبراهيم الرشد) أو (رشدًا)؟

فنقول: إن كلمة (الرشد) أعم من (رشده)، ولذا لم يستعمل القرآن

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٠.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٨ ـ ٧٠٩.

(الرشد) معرفة بأل للأشخاص ، وإنما استعملها لدينه أو سبيله أو نحو ذلك ؛ لأن الرشد أعم من (رشده) كما ذكرنا .

قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وقال : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٦] .

وقال : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ ﴾ [الجن : ١ ـ ٢] .

وأما (رشد) المنكرة فهي تعني أي نوع من الرشد وإن كان قليلاً ، وذلك نحو قوله سبحانه : ﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ ﴾ [النساء : ٦] .

وهذا شأن عموم العقلاء من خلق الله من المكلفين .

فليس في ذلك مزية خاصة به .

بخلاف قوله : ﴿ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ ﴾ أي رشده الذي يليق به ، فاستوفى جميع الرشد الذي يمكن أن يكون له .

﴿ مِن قَبْلُ ﴾

أي من قبل موسى وهارون المذكورين في الآية السابقة .

﴿ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ «كقوله : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ ﴾ وهذا من أعظم المدح وأبلغه» (١) .

وتقديم الجار والمجرور (به) على (عالمين) لأن الكلام على سيدنا إبراهيم .

* * *

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قيل: إن (إذ) إما أن يتعلق بـ (آتينا) أي آتينا إبراهيم حين قال لأبيه وقومه رشده.

وقيل: هو متعلق بـ (رشده) أي آتيناه رشده حين قال لأبيه وقومه.

ويحتمل أن يكون متعلقًا بـ (عالمين) أي كنا به عالمين حين قال لأبيه وقومه.

وقيل: أو هو متعلق بمحذوف، أي اذكر من أوقات رشده حين قال لأبيه وقومه[١].

والذي يبدو لي أن الوجه الأخير هو أولى، ذلك أن أي تقدير آخر يعني أنما يكون الرشد في ذلك الوقت.

فقولنا: (آتيناه الرشد حين قال لأبيه) يعني أنه آتاه الرشد في ذلك الوقت خصوصًا.

وتعليقه بـ (رشده) يعني أن رشده إنما هو حين قال لأبيه وقومه.

وتعليقه بـ (عالمين) أي أن علمنا إنما كان حين قال لأبيه وقومه.

فكل تعليق بمذكور إنما يتخصص الرشد بذلك الأمر. في حين أن إيتاء الرشد كان عامًّا، وهذا القول من مظاهر رشده.

وتقديره بـ (اذكر) لا يعني تخصيصًا بوقت دون وقت، وإنما أراد أن يذكر من حالات رشده ما ذكره لأبيه وقومه.

وبدأ بذكر الأب لأنه الأولى والأهم عنده في إنقاذه مما هو فيه.

جاء في (البحر المحيط): «وبدأ أولاً بذكر أبيه لأنه الأهم عنده في

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٠، البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.

النصيحة وإنقاذه من الضلال ، ثم عطف عليه (قومه) كقوله: «﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾» (١).

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾

وسؤاله لهم إنما هو من تجاهل العارف إذ هو عالم بذلك ، فهو يعلم لماذا هم عاكفون لها.

جاء في (الكشاف): «قوله: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها» (٢).

وجاء في (التحرير والتنوير): «وهذا من تجاهل العارف استعمله تمهيدًا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم» (٣).

والتماثيل هي الصور التي تماثل غيرها من المخلوقات و«التمثال اسم للشيء المصنوع مشبَّهًا بخلق من خلق الله» (٤).

ومعنى (عاكفون لها): ملازمون لها «والعكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له ، وقيل: اللزوم والاستمرار على الشيء لغرض من الأغراض» (٥).

«والظاهر أن اللام في (لها) لام التعليل أي لتعظيمها ، وصلة (عاكفون) محذوفة ، أي على عبادتها.

وقيل: ضمن (عاكفون) معنى عابدين فعداه باللام» (٦).

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٠.
(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ٩٤.
(٤) لسان العرب (مثل).
(٥) روح المعاني ١٧ / ٥٩.
(٦) البحر المحيط ٦ / ٣٢٠.

وجاء باسم الفاعل (عاكفون) للدلالة على الدوام، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨] بالفعل، ذلك أنهم مروا بهم في طريقهم بعد مجاوزتهم البحر فوجدوهم كذلك ولم يكونوا معهم على الدوام ليروا ملازمتهم لها.

* * *

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

فأجابوه بأنهم مقلدون لآبائهم.

ولما سألهم عن العكوف بصيغة اسم الفاعل (عاكفون) أجابوه بالعبادة باسم الفاعل (عابدين).

ولما كان السؤال عن التماثيل قدم الجار المتصل بضميرها (لها عاكفون) ولم يقل: (عاكفون لها). هذا علاوة على أن عبادتهم مقصورة عليها.

فتقديم (لها) على (عابدين) مناسب من ناحيتين:

الأولى: أن السؤال كان على التماثيل فقدم ضميرها.

ثم ان العبادة مختصة بها فقدم ضميرها أيضًا.

* * *

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

فقال لهم مؤكدًا: إنهم وآباءهم ساقطون في الضلال الظاهر البين منغمسون فيه.

وقال: (في ضلال) بـ (في) الظرفية ولم يقل: (ضالين) للدلالة على انغماسهم في الضلال فلا يتبينون الحق وأن الضلال «قد أحاط



بكم إحاطة الظرف بالمظروف»[١].

جاء في (روح المعاني): «وفي اختيار (في ضلال) على (ضالين) ما لا يخفى من المبالغة في ضلالهم.

وفي الآية دليل على أن الباطل لا يصير حقًّا بكثرة المتمسكين به»[٢].

وقال: (مبين) للدلالة على أن هذا الضلال ظاهر غير خفي.

جاء في (تفسير أبي السعود): «(مبين) أي ظاهر بيّن بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك»[٣].

* * *

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ ﴾

حسبوا أن ما قاله لهم إنما هو من باب المزاح، فقالوا له: أأنت جادّ أم مازح؟

«وفي إيراد الشق الأخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم»[٤].

* * *

﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦ ﴾

ذكر أمرين لمن يستحق العبادة ولا يستحقها غيره.

الأمر الأول: أنه رب السماوات والأرض.

---

(١) نظم الدرر ١٢ / ٤٣٦.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٥٩.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٠٩.

(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٢١.

الأمر الآخر: أنه هو الذي فطرهن وأوجدهن من العدم.

وذلك هو الله ولا رب غيره ولا يستحق أن يعبد سواه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «وصفه تعالى بإيجادهن إثر وصفه تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقًا للحق وتنبيهًا على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية. أي أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التي من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه» (١).

وجاء في (البحر المحيط): «ثم أضرب عن قولهم وأخبر عن الجدّ وأن المالك لهم والمستحق العبادة هو ربهم ورب هذا العالم العلوي والعالم السفلي المندرج فيه أنتم ومعبوداتكم» (٢).

وهذان الأمران من الاستدلال احتج بهما القرآن على من يعبد غير الله من الكفار، فإنهم يقرون بذلك ولا ينكرونه ومع ذلك يعبدون غيره. فقد أمر سبحانه رسوله أن يسأل الكفار المعاندين قائلاً له: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٦ ـ ٨٧].

وقال: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٥].

فهو الرب وهو المالك للأرض ومن فيها.

بل هو مالك كل شيء كما يقرّون ويعترفون. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩].

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٠.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٥.

ثم ذكر أنك لو سألتهم من خلق السماوات والأرض لقالوا: هو الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

فهم يقرون بأنه رب السماوات والأرض وأنه هو الذي خلقهن، ومع ذلك فهم يعبدون غيره.

﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

وشهادته على ذلك إنما هي بإقامة الحجة عليهم.

جاء في (الكشاف): «وشهادته على ذلك إدلاؤه بالحجة عليه، وتصحيحه بها، كما تصحح الدعوى بالشهادة، كأنه قال: وأنا أبين ذلك وأبرهن عليه كما تبين الدعاوى بالبينات، لأني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم، ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم»(١).

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي في قوله: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ أن في ذلك وجهين:

«**الأول**: أن المقصود منه المبالغة في التأكيد والتحقيق، كقول الرجل إذا بالغ في مدح أحد أو ذمه: أشهد أنه كريم.

والثاني: أنه عليه السلام عنى بقوله: ﴿ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ ادعاء أنه قادر على إثبات ما ذكره بالحجة، وأني لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على إثباته بالحجة، كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم»(٢).

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣١.

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٥٣.

إن إبراهيم عليه السلام بيّن أمرين في الاحتجاج :

أمرًا قوليًّا ، وهو الاحتجاج بربوبية السماء والأرض ومن فطرهن .

وأمرًا فعليًّا وهو تحطيمه للأصنام التي يعبدونها ليدل على أنها غير قادرة على الدفع ، فهي لا تستطيع أن تدفع الضرر عن نفسها ، وبالأولى أنها لا تستطيع أن تدفع عن الغير . وعلى أية حال فهي لا تضر ولا تنفع .

فهي لا تستحق أن تعبد .

جاء في (التفسير الكبير) للرازي : «اعلم أن القوم لما أوهموا أنه يمازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام بما يعلمون أنه مجد في إظهار الحق الذي هو التوحيد بالقول أولاً وبالفعل ثانيًا .

أما الطريقة القولية فهي قوله : ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذي خلقهما لمنافع العباد هو الذي يحسن أن يعبد . . .

وأما الطريقة الفعلية فهي قوله : ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ فإن القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل إلى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتها»[١] .

* * *

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

جاء بالتاء في القسم بالله ليدل على عظيم ما سيأتي به ، فإن التاء تدل على التعظيم والتفخيم ، فإنه أقسم على أمر عظيم سيفعله وذلك لتعظيم

---

(١) التفسير الكبير ٨ / ١٥٣ .



قومه لهذه الأصنام والعكوف عليها غير مبال بالعاقبة. جاء في (الكشاف): «التاء بدل من الواو المبدلة منها، وإن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب، كأنه تعجب من تسهل الكيد على يده وتأتيه؛ لأن ذلك كان أمراً مقنوطاً منه لصعوبته وتعذره» (١).

﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾

الكيد: «هو الاحتيال في وصول الضرر إلى المكيد» (٢).

فقال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ مع علمه أن الأصنام لا تحتاج إلى الكيد، فإنها لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تدفع ولا تنفع، وذلك ليبين لقومه أنها لا تعي ولا تدرك ما يراد من إيقاع الضرر بها، ولو كانت تعلم أو تقدر لمنعت هذا الكيد، فلعل ذلك يصرفهم عن عبادتها.

أو إن المعنى أراد أن يحتال على قومه ليوقع بأصنامهم، وكان ذلك في اختيار يوم عيدهم وفيما ادعاه من سقمه إذ قال: (إني سقيم).

جاء في (التفسير الكبير) للرازي: «إن قيل: لماذا قال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الأصنام.

وجوابه: قال ذلك توسعًا لما كان عندهم أن الضرر يجوز عليها.

وقيل: المراد لأكيدنكم في أصنامكم؛ لأنه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم» (٣).

وقال: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ فسماها أصنامًا وقد قال في آية سابقة: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ فسماها (تماثيل)، ذلك أنه سماها

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣١.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٥٣.

تماثيل لتجاهل العارف ـ كما ذكرنا ـ كأنه لا يعرف ما حقيقتها ولماذا هم عاكفون عليها. والتمثال ليس بالضرورة للعبادة.

أما بعد أن ذكروا أنهم عابدون لها فقد سماها أصنامًا ؛ لأن الصنم «هو ما اتخذ إلهًا من دون الله» (١).

فلما ذكروا عبادتهم لها سماها أصنامًا. ولذا لم يرد في القرآن لفظ الأصنام إلا في مقام العبادة أو اتخاذها آلهة.

قال تعالى: ﴿ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فرد عليهم موسى بقوله: ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

وقال على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقال: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ [الأنعام: ٧٤].

وقال: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ [الشعراء: ٧١].

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾

أي قطعا من الجذّ وهو القطع (٢)، وقيل: حطامًا (٣).

وقال: ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ بضمير العقلاء، ولم يقل: (فجعلها) لأنها كانت تعبد (٤)، فنزلها منزلة العقلاء.

﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ لم يكسره لعلهم يرجعون إليه فيسألونه، وهو من الكيد الذي دبره سيدنا إبراهيم.

---

(١) لسان العرب (صنم).

(٢) التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٥٤.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.

(٤) البحر المحيط ٦ / ٣٢٢.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾

قيل: إن الضمير في (إليه) يعود على إبراهيم، أي يرجعون إلى إبراهيم فيسألونه لما تسامعوه من إنكاره لدينهم وسبه لآلهتهم.

وقيل: إن الضمير يعود على الصنم الكبير فيسألونه عن ذلك[١].

وهو الأصوب في رأيي، لأنه حتى لو حطم الكبير فسيرجعون إلى إبراهيم لما تسامعوه عنه من ذكره لآلهتهم.

وعلى هذا لا موجب لبقاء الكبير، فإنهم على أية حال سيرجعون إلى إبراهيم، وإنما استبقى الكبير ليتم إقامة الحجة عليهم بسؤاله وعلمهم بعجزه عن الإجابة.

وقدم الجار والمجرور (إليه) على الفعل (يرجعون) للحصر[٢].

* * *

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾

استفهموا على سبيل البحث والإنكار والتوبيخ فقالوا: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ وذلك بعد أن رجعوا من عيدهم وشاهدوا ما شاهدوا من التكسير والتحطيم[٣].

وقالوا: (بآلهتنا) «ولم يشيروا إليها بـ (هؤلاء) وهي بين أيديهم مبالغة في التشنيع»[٤].

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٣١.
(٢) روح المعاني ١٧ / ٦٢.
(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٢٣، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١.
(٤) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١.

وقيل: يحتمل أن تكون (من) اسمًا موصولاً، وجملة ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبرًا عنه «والمعنى: الذي فعل هذا الكسر والحطم بآلهتنا إنه معدود من جملة الظلمة»[١].

والاستفهام أظهر، يدل على ذلك قوله بعد الآية: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾.

فإن كون هذا جوابًا عن سؤالهم أظهر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن الاستفهام أدل على الإنكار والتوبيخ من الإخبار.

وقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأكدوا كلامهم بإن واللام ولم يقولوا: (إنه من الظالمين) للدلالة على كبير ظلمه وشناعة فعله.

* * *

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾

قالوا: (يذكرهم) بضمير العقلاء، ولم يقولوا: (يذكرها) وذلك لأنهم يظنون أنها ذوات عاقلة.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾

﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي في مكان مرتفع على مرأى من الناس يشهده الجميع[٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾: أي لعلهم يشهدون عليه بما يسمعون منه وبما

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١١.

(٢) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٢، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٢.

فعله. أو يشهدون العقوبة التي سننزلها به[١] «فيكون ذلك زاجرًا لهم عن الإقدام على مثل فعله»[٢].

وقيل: إن «المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه»[٣].

وهو الظاهر ، وحذف مفعول (يشهدون) ليجمع أكثر من وجه ، والله أعلم.

* * *

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

أي فأتوا به فسألوه ، فحذف ما هو معلوم وليس في ذكره فائدة وإنما ذكر ما هو أهم.

قالوا: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾ ولم يقولوا: (أفعلت هذا) لأن السؤال عمن فعل الفعل ، وليس السؤال عن الفعل أوقع أم لم يقع ، كيف وقد أشير إلى الفعل بقوله: ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا ﴾.

تقول: (أأنت ضربت زيدًا؟) إذا كان الضرب حاصلاً فتسأل عمن أوقعه فتقول: أأنت فعلت؟

وتقول: (أضربت زيدًا؟) إذا كان السؤال عن الفعل أحصل أم لم يحصل.

جاء في (البحر المحيط): «﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ ﴾: إذا تقدم الاسم في نحو

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٣٢.

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٥٥.

(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٥٥.

هذا التركيب على الفعل كان الفعل صادرًا واستفهم عن فاعله وهو المشكوك فيه.

وإذا تقدم الفعل كان الفعل مشكوكًا فيه فاستفهم عنه أَوَقع أو لم يقع»[١].

وقالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ ولم يقولوا: (بالأصنام) أو (بأصنامنا) فسموها آلهة تعظيمًا لها، بل هي آلهتهم.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

القصد من هذا الإضراب أن يلزمهم الحجة لعلهم يعودون إلى عقولهم أو تعود إليهم فيعلمون أن آلهتهم لا تدفع ولا تنطق ولا تنصر نفسها.

جاء في (الكشاف): «هذا من معاريض الكلام... والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم»[٢].

«وإنما لم يقل عليه السلام: إن كانوا يسمعون أو يعقلون مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضًا لما أن نتيجة السؤال هو الجواب وأن عدم نطقهم أظهر وتبكيتهم بذلك أدخل»[٣].

* * *

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي رجعوا إلى عقولهم فأدركوا أنه ينبغي أن تسأل الآلهة عن ذلك لا

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٤.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣.

إبراهيم فإن إلقاء التهمة عليه ظلم.

جاء في (البحر المحيط): «﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي إلى عقولهم حين ظهر لهم ما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أن الأصنام التي أهلوها للعبادة ينبغي أن تسأل وتستفسر قبل.

ويحتمل أن يكون (فرجعوا) أي رجع بعضهم إلى بعض فقالوا: (إنكم أنتم الظالمون) في سؤالكم إبراهيم حين سألتموه ولم تسألوها... أو حين عبدتم ما لا ينطق» [(١)].

وقيل: «أي راجعوا عقولهم وتذكروا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الإضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره أو جلب منفعة له فكيف يستحق أن يكون معبودًا» [(٢)].

ثم إنهم لما نسبوا الظلم إلى من فعل بآلهتهم فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عادوا فنسبوا الظلم إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وكما أكدوا قولهم بإن واللام فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أكدوه أيضًا عندما نسبوه إلى أنفسهم بإن والضمير المنفصل.

ثم إنهم لم يقولوا: (إنكم أنتم ظلمون) بل قالوا: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فعرفوا الظالمين بأل، أي إنكم أنتم الظالمون وليس غيركم، فعرفوه للدلالة على الحصر.

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: «الجملة مفيدة للحصر، أي أنتم ظالمون لا إبراهيم لأنكم ألصقتم به

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٥.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣.

التهمة بأنه ظلم أصنامنا مع أن الظاهر أن نسألها عمن فعل بها ذلك ، ويظهر أن الفاعل هو كبيرهم» [(١)].

* * *

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أي بعد أن استقاموا ورجعوا إلى عقولهم انقلبوا فعادوا إلى باطلهم. شبه ذلك بمن انقلب على رأسه فقالوا: لقد علمت أن هؤلاء لا ينطقون فكيف تطلب منا أن نسألهم؟

جاء في (الكشاف): «(نكسته): قلبته فجعلت أسفله أعلاه ، وانتكس: انقلب. أي استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاؤا بالفكرة الصالحة ، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة» [(٢)].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة. شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة أسفل الشيء أعلاه. . .

والله لقد علمت أن ليس شأنهم النطق فكيف تأمرنا بسؤالهم؟» [(٣)].

لقد جاء بالفاء في قوله: ﴿ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ ﴾ للدلالة على سرعة ما حصل لهم ، فهو كالمفاجأة لهم.

ثم جاء بعد ذلك بـ (ثم) فقال: ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾ أي بعد مهلة ، فهم كالذي يفوق من صدمة فعاد إلى حالته الأولى.

* * *

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٣.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٣.



﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

بكّتهم بعد انقطاع حجتهم فقال لهم: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾

إنه لم يقل: (أفتعبدون هذه الأصنام بعدما تبيّن لكم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تدفع عن نفسها) بل قال: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.

فلم يخصص الإنكار بأصنامهم دون غيرها، بل ذكر حكمًا عامًّا في كل ما اتصف بهذا الوصف مما اتخذ إلهًا من دون الله.

وقوله: ﴿ لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا ﴾ يعني لا ينفعكم شيئًا من الأشياء ولا شيئًا من النفع، فكان النفي مطلقًا عن كل شيء.

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(أف) كلمة يراد بها التضجر، فتضجر منهم ومما يعبدون من دون الله.

﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أليس لكم عقل فتفكرون، كأن الذي يفعل ذلك ليس له عقل.

* * *

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قالوا: (حرّقوه) ولم يقولوا: (أحرقوه) من (أحرق) ولا (احرقوه) من (حرق). وإنما قالوه بالتضعيف للمبالغة في الحرق، يقال: «أحرقه بالنار وحرّقه شدد للكثرة» (١).

---

(١) لسان العرب (حرق).

وراموا تحريقه لأنه أشد العقوبات(١).

قد تقول: ولكنهم قالوا في العنكبوت: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

فذكروا التخيير بين أحد الأمرين: القتل أو التحريق. أما في آية الأنبياء هذه فإنهم قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ فذكروا أشد العقوبتين وهو التحريق ولم يذكروا القتل فما السبب؟

والجواب ظاهر، فإن السياق في الأنبياء أشد، ذلك أنه حطم أصنامهم وجعلهم جذاذًا، وأما في العنكبوت فلم يذكر ذلك وإنما ذكر ما هو أخف، فقد قال في العنكبوت: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لقد قال لهم في الأنبياء ما هو أشد من ذلك، فقد رماهم ورمى آباءهم بالضلال المبين فقال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٤.

وقال: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

فرماهم بعدم العقل.

وتوعدهم بأن يكيد أصنامهم: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

فالفرق ظاهر بين المقامين.

أو إن ما في العنكبوت إنما كان في بداية المداولة والتشاور فيما يفعلون به فذكروا القتل أو التحريق ثم استقر الرأي على تحريقه. ووضع كلاًّ في سياقه المناسب.

لقد قالوا: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ فطلبوا نصر آلهتهم، وهذه إشارة إلى أن الآلهة لا تستطيع أن تنصر نفسها بل هم ينصرونها، وهو مناسب لما مر قبل هذه الآيات وهو قوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

والكلام هنا على ما يعبده المشركون في زمن الرسول من الآلهة. فقد ذكر أنهم لا يستطيعون نصر أنفسهم. وهو حقيقة عامة في جميع ما اتخذ إلهًا من دون الله وما يتخذ، سواء كان في زمن إبراهيم أم قبله أم بعده.

وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ يعني «إن كنتم ناصرين أنفسكم نصرًا مؤزرًا» [١].

* * *

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٣.

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لم يقل: يا نار كوني باردة وذات سلام، وإنما قال: ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾ مبالغة في أن تكون هي البرد والسلام بعينهما.

وجمع بين البرد والسلام لتكون غاية في الراحة، ولئلا يناله شيء من الأذى. إذ لو قال: (كوني بردًا) ولم يقل: (كوني سلامًا) لربما آذاه البرد، خاصة وإنه أمر بالمبالغة في كونها باردة، فقد أمر بالمصدر.

جاء في (البحر المحيط): «لو لم يقل: (وسلامًا) لهلك إبراهيم من البرد... والمعنى ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأن ذاتها برد وسلام»[١].

وقال: ﴿ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ لتكون بردًا وسلامًا عليه خاصة، وهي جحيم على غيره.

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾

لما قال: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم ﴾ فأقسم ليكيدن أصنامهم أرادوا هم أيضًا أن يكيدوه ويمكروا به. فهو أراد أن يكيد أصنامهم وهم أرادوا أن يكيدوه. فكلٌّ أراد أن يكيد ولكن شتان ما بين الكيدين.

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا ﴾ بإدخال الواو على الفعل (أرادوا).

وقال في الصافات: ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا ﴿٩٨﴾ ﴾ بإدخال الفاء على الفعل.

فما سبب الاختلاف؟

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٨.

والجواب ظاهر ، ذلك أن القول في سورة الأنبياء إنما ذكر بعد إلقائه في النار وجعلها بردًا وسلامًا ، فلا يناسب ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب ، فإن الكيد قد حصل وتم .

وأما في الصافات فإنه قال ذلك بعد قولهم: ﴿ فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ فذكر إرادة الكيد بعد الأمر بإلقائه في الجحيم وقبل التنفيذ ، فناسب ذكر الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب .

لقد قال في الأنبياء: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ فذكر الخسران .

وقال الصافات: ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ فذكر أنه جعلهم الأسفلين .

ذلك أنهم قالوا في الأنبياء: ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ فطلبوا أن ينصروا آلهتهم فكان عاقبة ذلك أنهم خسروا الحرب التي أرادوا بها أن ينصروا آلهتهم .

ونتيجة الحرب النصر أو الخسارة فكانوا هم الأخسرين .

وقال: (الأخسرين) ولم يقل: (الخاسرين) للدلالة على أفظع الخسران وأشده ، فهم خسروا الدنيا والآخرة .

جاء في (البحر المحيط): «﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ أي المبالغين في الخسران وهو إبطال ما راموه جادلوا إبراهيم فجدلهم وبكتهم وأظهر لهم وقر عقولهم ، وتقووا عليه بالأخذ والإلقاء فخلصه الله» [١] .

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ أي أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في إطفاء نور الحق برهانًا قاطعًا على أنه

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٢٨ .

عليه السلام على الحق وهم على الباطل»[١]!

وأما قوله في الصافات: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ فإن ذلك مناسب لذكر البنيان، والبنيان بناء عال مرتفع فإنهم أرادوا أن يلقوا إبراهيم منه ليهوي في النار فكانوا هم الأسفلين.

فناسب ذكر الأسفلين ذكر البنيان المرتفع.

جاء في (درة التنزيل) في قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾

وقوله في الصافات: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾:

«الجواب أن يقال ما في سورة الأنبياء فإن الله تعالى أخبر فيها عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ ثم أخبر عن الكفار لما ألقوه في النار وأرادوا به كيدًا ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ والكيد سعي في مضرة ليورد على غفلة. فذكر مكايدة بينهم وبين إبراهيم عليه السلام فكادهم ولم يكيدوه، فخسرت تجارتهم وعادت عليهم مكايدتهم لأنه كسر أصنامهم ولم يبلغوا من إحراقه مرادهم. فذكر الأخسرين لأنهم خسروا فيما عاملهم به وعاملوه من المكايدة التي أضيفت إليهما.

وأما التي في سورة الصافات فإن الله تعالى أخبر عن الكفار فيها بما اقتضى من الأسفلين وهو إنه قال: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ فبنوا له بناء عاليًا ورفعوه فوقه ليرموا به من هناك إلى النار التي أججوها، فلما علوا ذلك البناء وحطوه منه إلى أسفل عادوا هم الأسفلين، لأنهم أهلكوا في الدنيا وسفل أمرهم في الأخرى.

والله تعالى نجى نبيه وأعلاه عليهم فانقلب عالي أمرهم في صعود

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٥.

البناء وسافل أمر إبراهيم عليه السلام لما حط إلى النار أن صار ذاك سافلاً وأمر النبي عليه السلام عاليًا، فلذلك اختصت هذه الآية بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾» (١).

وجاء في (كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لبدر الدين بن جماعة: «أنهم أرادوا كيده بإحراقه فنجاه الله تعالى وأهلكهم وكسر أصنامهم فخسروا الدنيا والآخرة.

وفي الصافات قالوا: ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ﴾ أي من فوق البناء في الجحيم، فناسب ذكر الأسفلين لقصدهم العلو لإلقائه في النار والله أعلم» (٢).

وجاء في (ملاك التأويل): «قيل روعي في آية الصافات مقابلة قولهم: ﴿ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا﴾ لأنه يفهم منه إرادتهم علو أمرهم بفعلهم ذلك فقوبلوا بالضد فجعلوا الأسفلين» (٣).

وقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ و﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ ولم يقل: (فكانوا هم الأخسرين) أو (فكانوا هم الأسفلين) لأن ذلك إنما كان بقدرة الله سبحانه وجعله ونصره.

وقد تقول: لكنه قال في آية أخرى: ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الصافات: ١١٦] فقال: (فكانوا).

فنقول: إن السياق يوضح ذلك، فقد قال سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

---

(١) درة التنزيل ٣٠٠.
(٢) كشف المعاني ٢٥٦.
(٣) ملاك التأويل ٢ / ٧٠١.

فذكر أنه نصرهم فكانوا هم الغالبين، أي بنصره سبحانه كانوا هم الغالبين. هذا علاوة على أنه ذكر أيضًا أنه نجاهما وقومهما من الكرب العظيم.

فهو الذي نجاهم وهوالذي نصرهم فغلبوا بنصره سبحانه.

* * *

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

«نجيا من العراق إلى الشام. وبركاته الواصلة إلى العالمين أن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية. . .

وقيل: بارك الله فيه بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب» [١].

و«هذه نجاة ثانية بعد نجاته من ضر النار» [٢].

وهذا هو الموطن الوحيد الذي ذكرت فيه نجاته ولوطاً إلى هذه الأرض الموصوفة بهذه الصفة.

* * *

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

* * *

النافلة: الزيادة، أي وهب له يعقوب زيادة من غير أن يسأله إياه، فقد وهب ربنا لإبراهيم ولده إسحاق استجابة لدعائه، وأما يعقوب وهو ولد الولد فقد بشره من غير أن يسأله.

جاء في (الكشاف): «النافلة: ولد الولد. وقيل: سأل إسحاق

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٨.



فأعطيه ، وأعطى يعقوب نافلة ، أي زيادة وفضلاً من غير سؤال»[(١)] .

وجاء في (البحر المحيط) : «إذ كان إسحاق ثمرة دعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وكان يعقوب زيادة من غير دعاء»[(٢)] .

وفيما قاله صاحب البحر نظر ، فإن ثمرة هذا الدعاء المذكور هو إسماعيل وليس إسحاق عليهما السلام كما جاء في سورة الصافات .

قال تعالى : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ . . .﴾ .

وهذا هو إسماعيل .

ثم قال بعد ذلك : ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ .

إلا أن يقال : إن دعاء سيدنا إبراهيم ليس مختصًّا بمعين وإنما طلب ذرية صالحة واحدًا أو أكثر ، فيكون كل من إسماعيل وإسحاق من ثمرة هذا الدعاء المبارك .

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾

أي المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب[(٣)] .

* * *

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

كرر الفعل (جعل) مع مفعوله الأول فقال : ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ ولم

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٣ .
(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٢٩ .
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٢٩ .

يعطف (أئمة) على (كلاًّ) فيقول: (وأئمة يهدون بأمرنا) لئلا يحتمل معنى آخر وهو: (وجعلنا أئمة يهدون بأمرنا) أي أئمة آخرين غير هؤلاء فيعني بالأئمة غيرهم فيكون المعنى: إن هؤلاء كانوا صالحين، وجعلنا أئمة يهدون بأمر الله أي آخرين. فقال: (وجعلناهم) يعني المذكورين في الآية السابقة وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب.

وقد يحتمل العطف على (صالحين) أي جعلناهم صالحين وأئمة فيكون التعبير احتماليًا. فأراد النص على أن المقصودين هم المذكورون فكرر الفعل مع مفعوله الأول.

جاء في (التحرير والتنوير): «وإعادة فعل (جعل) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ دون أن يقال: (وأئمة يهدون) بعطف (أئمة) على (صالحين) اهتمامًا بهذا الجعل الشريف، وهو جعلهم هادين للناس بعد أن جعلهم صالحين في أنفسهم...

ولأن في إعادة الفعل إعادة ذكر المفعول الأول فكانت إعادته وسيلة إلى إعادة ذكر المفعول الأول. وفي تلك الإعادة من الاعتناء ما في الإظهار في مقام الإضمار»(١).

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يحتمل معنيين:

الأول: أن يكونوا مأمورين بالهداية، أي أمرهم ربهم بأن يهدوا الناس.

جاء في (الكشاف): «﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله فالهداية محتومة عليه مأمور هو بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ويتثاقل عنها»(٢).

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٠٩.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٣.

والمعنى الآخر: أي يهدون بشرع الله فيكون أمره ـ وهو ما شرعه سبحانه للناس ـ وسيلة للهداية نحو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

أي يهدي بالقرآن.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

فيكون وسيلة للهداية.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾

«أي خصصناهم بشرف النبوة» (١).

﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ «من عطف الخاص على العام دلالة على فضله» (٢).

فإن فعل الخيرات عام يشمل الفروض والمندوبات.

فدخل في ذلك ما ذكر من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة. وخصهما بالذكر لأهميتهما وكبير منزلتهما عند الله، فإنهما من أركان الإسلام كما هو معلوم.

﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾

قدم الجار والمجرور (لنا) على (عابدين) للاختصاص، أي كانوا

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٠٥.
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦.

عابدين لنا خاصة دون غيرنا[١] .

* * *

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

انتصب (لوطًا) على الاشتغال ، أي آتينا لوطًا حكمًا وعلمًا .

وقيل : يحتمل أن يكون منصوبًا بـ (اذكر) مقدّرًا[٢] .

والحكم معناه العلم والفقه ، وقد يأتي بمعنى القضاء ، ومنه الحكم بين المتخاصمين[٣] .

جاء في (الكشاف): «(حكمًا) حكمة وهو ما يجب فعله ، أو فصلاً بين الخصوم ، وقيل : هو النبوة»[٤] .

وهو هنا ليس بمعنى القضاء والفصل ، وإنما معناه الفقه والحكمة .

وقد استعمل القرآن في الحكم الإيتاء أو الهبة وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٩] ، وقوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ [يوسف : ٢٢] ، وقوله : ﴿ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا ﴾ [الشعراء : ٢١] .

ولم يأت الحكم مسندًا إلى الله إلا بلفظ الإيتاء أي نحو (آتيناه حكمًا وعلمًا) ، فالحكم مما يؤتيه الله سبحانه ، ولم يرد نحو (وهبنا له حكمًا) ولا (وهب الله له حكمًا). وقد ذكرنا الفرق بين الإيتاء والهبة في شرحنا

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦ .

(٢) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٢٩ ، تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٦ .

(٣) انظر (من أسرار البيان القرآني) ٩ .

(٤) الكشاف ٢ / ٣٣٣ .

لسورة (يس) في تعرضنا لقصة أيوب مما استدعاه السياق فلا نعيد القول فيه(١).

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾

استعمل ههنا لفظ (نجيناه) ولم يستعمل (أنجيناه).

ومن الملاحظ في استعمال هاتين اللفظتين في هذه القصة أنه يقول أحيانًا: ﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٨٣ ، النمل: ٥٧].

ويقول أحيانًا: ﴿ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ [الشعراء: ١٧٠] ﴿ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ [الصافات: ١٣٤].

وقد بينا في كتابنا: (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) أن (نَجَّى) يستعمل في القرآن الكريم للتلبث والتمهل في التنجية ، وأن (أنجى) يستعمل للإسراع فيها ، فإن (أنجى) أسرع من (نَجَّى) في التخلص من الشدة والكرب(٢).

ومن الملاحظ في استعمال هذين الفعلين في هذه القصة أن ما يستدعي الإسراع في التنجية يستعمل معه الفعل (أنجينا).

وما كان دون ذلك يستعمل (نجينا).

وإيضاح ذلك أنه استعمل (أنجيناه) في هذه القصة في موضعين وهما قوله تعالى في الأعراف: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

---

(١) على طريق التفسير البياني ٢ / ١٥٣.

(٢) انظر بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٧٤ وما بعدها.

وقوله في (النمل): ﴿ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

واستعمل (نجيناه) علاوة على ما ورد في سورة الأنبياء في موضعين هما قوله تعالى في الشعراء: ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

وقوله في الصافات: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

ومن الواضح أن ما في الأعراف والنمل أدعى إلى الإسراع في النجاة وعدم التلبث مما في الشعراء والصافات.

ذلك أنه قال في الأعراف على لسان قومه: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وقال في النمل: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

فأمروا بإخراجهم من القرية.

وليس في الشعراء نحو ذلك، وإنما هددوه بالإخراج إن لم ينته ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾.

فمرحلة ما في الأعراف والنمل بعد ما في الشعراء.

ففي الشعراء هددوه بالإخراج إن لم ينته.

وأما في الأعراف والنمل فقد أمروا بإخراجه، ومعنى ذلك أنه لم ينته.

فاستدعى الإسراع في النجاة في الأعراف والنمل.

وأما في الصافات فليس فيه نحو ذلك، وليس فيه تهديد له من قومه.

فناسب الإسراع في النجاة في الأعراف والنمل.

وليس في آية الأنبياء شيء من ذلك فلم يستدع الإسراع.

وهناك ملاحظة أخرى في هذه القصة:

وهي أنه ذكر في هذا الموضع من سورة الأنبياء نجاته وحده ولم يذكر نجاة أحد معه، وذلك أن الكلام عليه وتفضل الله عليه وليس على رسالته وموقفه مع قومه.

وفي مواضع أخرى يذكر نجاته وأهله إلا امرأته وذلك كما في الأعراف والنمل والشعراء والصافات وذلك في مقام الرسالة والدعوة.

وقد تقول: ولكنه قال في الصافات: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٣٤﴾ وليس ذلك في مقام الدعوة، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٣٤﴾ ولم يذكر دعوته لقومه.

فنقول: إنه قال إن لوطًا لمن المرسلين، والرسالة تقتضي التبليغ والدعوة. فناسب ذكر نجاته وأهله وتدمير الآخرين. وليس في سياق آية الأنبياء نحو ذلك.

وقد يذكر نجاة آله ولم يذكر نجاته معهم وذلك ما ورد في سورة القمر، فقد قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ٣٥﴾.

ونجاته مفهومة من السياق، فإنه هو الذي أنذرهم البطشة، ثم ذكر أن العذاب إنما أصاب قوم لوط فدل على نجاته هو. ثم إن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ يدل على نجاة من شكر دون من لم يشكر.

وهذا هو السياق فيما ورد عن الرسل في سورة القمر ، فإنه لم يذكر نجاة الرسل ولا من آمن معهم .

فقد ذكر عادًا وإهلاكهم ولم يذكر نجاة المؤمنين ولا رسوله . ونحو ذلك ورد في ثمود ، وكذلك ما ورد في آل فرعون .

فهي كلها تجري على نسق واحد .

قد تقول : ولكن الأمر ليس كذلك في قصة نوح فقد ذكر نجاته ، فقد قال فيه : ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

فلم ذاك؟

فنقول إن السياق اقتضى ذلك من أكثر من جهة .

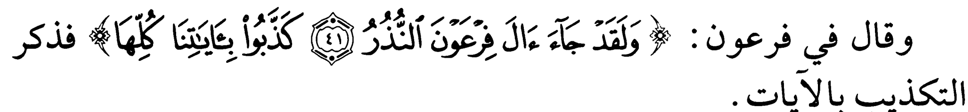
١ ـ فقد قال في قصة نوح : ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

فذكر أنهم كذبوا عبده ، أي كذبوا نوحًا ، ولم يذكر مثل ذلك في القصص الأخرى .

وإنما قال في قصة عاد : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾ ولم يذكر تكذيبهم لرسوله .

وقال في قصة ثمود : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ولم يذكر التكذيب لرسولهم .

وقل في قوم لوط : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ ﴾ وهو نحو ما ورد في ثمود .



وقال في فرعون : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا ﴾ فذكر التكذيب بالآيات .

٢ ـ ثم ذكر في قصة نوح أنهم زجروا نوحًا فقد قال: ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾.

وقوله: (ازدجر) يعني المبالغة في الزجر.

فناسب ذكر نجاته.

٣ ـ ثم ذكر أنه دعا ربه فقال إنه مغلوب وطلب من ربه أن ينصره فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾

فناسب ذلك إجابة دعائه وأن ينصره فقال: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾

ولم يرد نحو ذلك في القصص الأخرى.

فناسب كل تعبير موضعه.

وهذا من لطيف مراعاة المقام.

قد تقول: ولكنه ذكر نجاة آل لوط وحدهم في القمر ولم يذكر نجاة أهل الآخرين المذكورين في السورة.

فنقول: لقد ذكر قصة نوح في السورة ونجاته.

وأما عاد وثمود فلم يرد لأهلهما ذكر في جميع ما ورد في القرآن الكريم فلم يذكرهما في سورة القمر.

وقد ذكر آل فرعون في القمر كما ذكر آل لوط، غير أنه ذكر نجاة آل لوط وعقوبة آل فرعون.

ومن الملاحظ في قصة لوط أنه أحيانًا يذكر أنه نجاه وأهله إلا امرأته كما في سورتي الأعراف ٨٣ والنمل ٥٧ فيذكر امرأته.

وأحيانًا يقول: (إلا عجوزًا) فيذكر العجوز ولم يذكر أنها امرأته (انظر الشعراء ١٧١، الصافات ١٣٥).

فإنه حيث يقول: (أنجيناه) يستثني امرأته، وحيث يقول (نجيناه) يستثني العجوز.

وقد ذكرنا أنه حيث استدعى الإسراع في النجاة يقول: (أنجينا) وما كان دون ذلك يقول: (نجينا).

ومن المعلوم أن المرأة إنما تكون في بيت زوجها فأصبح الخطر أشد؛ لأن الخطر إنما جاء من الخارج ومن الداخل، فهي عين لقومها عليه، فكأنها من المخابرات تخبر قومها عما في بيت زوجها، وهذه إشارة إلى أنه إذا لم يأمن الرجل أهل بيته كان الخطر عليه أعظم.

فاستدعى ذلك الإسراع في النجاة إضافة إلى ما ذكرنا.

وأما قوله: (إلا عجوزًا) فهو لم يذكر أنها امرأته، ثم ذكر أنها عجوز، ولا شك أن العجوز أقل حركة من الشابة.

فلم يدل بقوله: (عجوز) أنها امرأته، إضافة إلى أنها عجوز. كما أن المقام لايستدعي الإسراع في النجاة فكان الخطر أقل.

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى.

وهذا من عجيب مراعاة المقام.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴾

السَّوء بفتح السين هو المصدر، والسُّوء بالضم الاسم[١].

فالسوء بالضم حالة من حالات السَّوء بالفتح، فقد يكون مرضًا أو غير ذلك مما يصيب الإنسان من مكروه في ماله أو بدنه.

قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [النمل: ١٢].

---

(١) لسان العرب (سوء).

أي من غير برص[١].

وقال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۝٣٠﴾

فالسَّوء أعم من السُّوء.

وقد أضاف القوم إلى السَّوء للمبالغة في ذمهم.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾

أضاف الرحمة إليه سبحانه للدلالة على عظيم ما أدخله فيه من الرحمة.

فإنه يذكر أحيانًا أنه يُدخل في رحمته.

وقد يذكر أنه يُدخل في رحمة منه.

ولا شك أن قوله: (في رحمته) أعلى من (في رحمة منه) وأدل على سعة الرحمة. فإن قوله: (في رحمة منه) نكرة وهي جزء من رحمته سبحانه.

وكل ذلك بحسب السياق.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠].

فقال: ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾

وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

---

(١) لسان العرب (سوء).

فقال: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾

ذلك أن ما ذكره في آية الجاثية أعلى. فقد ذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

فذكر الإيمان على العموم، وهو أعم من الإيمان بالله.

وذكر عمل الصالحات ولم يذكر ذلك في آية النساء.

فناسب أن يقول: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾.

ثم من ناحية أخرى أنه قال في آية الجاثية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على العموم فناسب أن يقول: (في رحمته)، فإن قوله: (في رحمته) أعم من قوله: (في رحمة منه) فناسب العموم العموم.

ثم قال: (وعملوا الصالحات) فذكر الصالحات بالجمع فناسب ذلك أيضًا أن يقول: (في رحمته).

وقال في التوبة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾

فذكر الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق قربة لله وصلوات الرسول أي دعاءه.

ولا شك أن هذه أعلى مما ذكره في آية النساء، فناسب أن يقول: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾.

هذا إضافة إلى أنه ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

وقد تقول: ولم قال في آية النساء: ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾

وقال في آية التوبة: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ بالسين في الآيتين.

وقال في آية الجاثية: ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ من دون سين؟

فنقول: إن آيتي النساء والتوبة إنما هما فيمن هو في الدنيا فناسب ذكر السين التي هي للاستقبال.

وأما آية الجاثية فإنما هي فيمن هو في الآخرة. قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٢٧ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٩ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ۝٣٠﴾.

فلا يناسب ذكر السين، فإنما الأمر حاضر في ذلك الوقت.

﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

جعل الصلاح سببًا للدخول في رحمته سبحانه.

هذا إضافة إلى أن ذلك مناسب لما تقدم من قوله: ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾

يعني إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب.

فقد ذكر أنه جعله من المذكورين بالصلاح.

فذكره بالصلاح مرتين.

* * *

﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٧٧﴾

انتصب (نوحًا) على إضمار (اذكر)[1]، وقيل: هو معطوف على

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٣٠.

(لوطًا) «فيكون ذلك مشتركًا في العامل الذي هو آتينا» أي آتينا نوحًا حكمًا وعلمًا[١].

و(من قبل) أي من قبل هؤلاء المذكورين[٢].

و(نصرناه) من القوم ، أي نجيناه منهم.

وقوله: (فاستجبنا) بالفاء يدل على تعقيب الاستجابة بعد النداء.

ومن الملاحظ في هذه الآية أنه ذكر الفعل (نادى) ولم يذكر مفعوله ، فلم يذكر من نادى ولا بماذا دعا.

ولكن علم من قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أنه نادى ربه.

وعلمنا من الاستجابة فحوى الدعاء وهونجاته وأهله ونصره وإهلاك قومه الكافرين.

فقد قال في موضع آخر: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨] فدعا بالنجاة.

وقال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ١٠].

فدعا بالنصر.

وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

فدعا على قومه بالهلاك.

وأمره ربه أن يحمل معه في الفلك فيما يحمل أهله إلا من سبق عليه القول منهم: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا

---

(١) انظر البحر المحيط ٦ / ٣٣٠.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٣.



وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]

فدل ذلك على نجاة أهله.

فكانت الاستجابة لكل ذلك.

فقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ وهو إجابة الدعاء بالنجاة.

وقال: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ فكانت الاستجابة بالنصر.

وقل: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فكانت الاستجابة بإهلاك الكفرة.

جاء في (تفسير الرازي): «لا شبهة في أن المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب، ويؤيده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الإجمال وهو قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾، وتارة على التفصيل وهو قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ويدل عليه أيضًا أن الله تعالى أجابه بقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهذا الجواب يدل على أن الإنجاء المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال. فدل هذا على أن نداءه ودعاءه كاف بأن ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الأذى بالتكذيب والرد عليه، وبأن ينصره عليهم وأن يهلكهم فلذلك قال بعده: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾»(١).

لقد قال في هذه الآية: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ ولم يذكر أنه نادى ربه كما أسلفنا.

وقال في الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾

---

(١) تفسير الرازي ـ المجلد ٨ / ١٦٢.

فقال: (نادانا) بذكر المفعول به وهو ضمير العظمة.

ومن المناسب أن نذكر أنه لما قال: (نادانا) فأظهر ذاته سبحانه زاد في تفضله عليه بالإجابة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

فقال: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ فأثنى على ذاته سبحانه.

ثم تفضل على نوح بما لم يذكره في سورة الأنبياء، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾

وقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وقال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ضمير العظمة ورد في آيات الصافات أكثر مما ورد في هذه القصة في سورة الأنبياء.

فإنه ورد في الأنبياء خمس مرات، وذلك في قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ﴾ ﴿وَنَصَرْنَـٰهُ﴾ ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ﴾.

وورد في آيات الصافات ثماني مرات. وذلك في قوله: ﴿نَادَىٰنَا﴾ ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ ﴿نَجْزِى﴾ ﴿عِبَادِنَا﴾ ﴿أَغْرَقْنَا﴾.

فناسب ذلك افتتاح الآيات في الصافات بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا﴾.

* * *

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

«أي واذكرهما. و(إذ) بدل منهما.

والنفش: الانتشار بالليل. وجمع الضمير لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما. . .

والضمير في (ففهمناها) للحكومة أو للفتوى. . .

حكم داود بالغنم لصاحب الحرث، فقال سليمان. . . : غير هذا أرفق بالفريقين. فعزم عليه ليحكمنّ.

فقال: أرى أن تدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأصوافها، والحرث إلى أرباب الشاء يقومون عليه حتى يعود كهيئته يوم أفسد، ثم يترادّان.

فقال: القضاء ما قضيت، وأمضى الحكم بذلك. . .

وفي قوله: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ﴾ دليل على أن الأصوب كان مع سليمان عليه السلام»[(١)].

وقوله: ﴿ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ بصيغة المضارع «حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها، أي اذكر خبرهما وقت حكمهما»[(٢)].

و﴿ شَٰهِدِينَ ﴾ أي حاضرين علمًا[(٣)].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٧.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٧.

وقال ههنا: ﴿شَٰهِدِينَ﴾ بجمع المذكر السالم، وقال في آية أخرى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فقال: ﴿شُهُودًا﴾ بجمع التكسير؛ ذلك لأن ما في آية يونس يدل على الكثرة، وآية الأنبياء للقلة.

فإنه في آية الأنبياء ذكر داود وسليمان والمتخاصمين.

وأما آية يونس فإنها تعم جميع الناس إلى قيام الساعة. قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾

قال ههنا إنه آتاهما حكمًا وعلمًا فذكر الحكم والعلم،وذكر في موضع آخر أنه آتاهما علمًا ولم يذكر الحكم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

فذكر العلم ولم يذكر الحكم.

ذلك أنه في الأنبياء ذكر الحكم وهو القضاء بين المتخاصمين، والقضاء يحتاج إلى العلم فذكر الحكم والعلم.

وأما في النمل فليس السياق في القضاء وإنما فيما آتاهما الله من العلم.

فقد ذكر أن الله علم سليمان منطق الطير: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، وفهم قول النملة، وتكلم مع الهدهد وذكر الذي عنده علم من الكتاب.

فناسب ذكر العلم ولم يذكر معه الحكم.

وقد تقول: لقد قال في آية أخرى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾ [سبأ: ١٠] فذكر الفضل وحده ولم يذكر الحكم ولا العلم ، فلم ذاك؟

فنقول إن كل تعبير مناسب لسياقه ، وقد ذكرنا ما ورد في الأنبياء والنمل.

وأما في آية سبأ فليس السياق في الحكم ولا في العلم ، وإنما فيما تفضل الله على سيدنا داود في غير ذلك ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ ، وهذا مما سخره الله له كما أخبر عن ذلك سبحانه فقال: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٨ ـ ١٩].

وكما قال في الآية الآتية من سورة الأنبياء ، وليس ذلك من الحكم ولا من العلم الذي أوتيه وإنما هو فضل آتاه الله إياه كما قال سبحانه.

* * *

﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

قدم الجبال على الطير لأن تسبيحها أعجب.

جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قدمت الجبال على الطير؟

قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل عل القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق» (١).

وقال: (يسبحن) ولم يقل: (مسبحات) «مع أن الأصل في الحال الإفراد للدلالة على تجدد التسبيح حالاً بعد حال» (٢).

ومن الملاحظ أنه قال هنا: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٤.

(٢) روح المعاني ٢٣ / ١٧٤.

فقدم الظرف (مع) على الجبال.

وقال في سورة (ص): ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾

فقدم الجبال على الظرف.

وقد قيل إن ذلك لذكر داود وسليمان في الأنبياء فقدم مسارعة للتعيين وليس كذلك في آية (ص) [١].

ولعل من أسباب ذلك أن ما ذكره عن الجبال في (ص) أكثر مما ذكره في الأنبياء. فقد قال في الأنبياء: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾.

وأما في (ص) فقد قال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾

فناسب ذلك تقديمها في (ص).

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾

«أي قادرين على أن نفعل هذا وإن كان عجبًا عندكم» [٢] وإن «من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وإن كان بديعًا عندكم» [٣].

* * *

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

المراد باللبوس الدرع [٤] وهي تلبس في الحرب لتقيهم بأسها.

فربنا سبحانه علمه صنعتها.

---

(١) روح المعاني ٢٣ / ١٧٤.
(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٤.
(٣) روح المعاني ١٧ / ٧٦.
(٤) الكشاف ٢ / ٣٣٤.

﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾

استفهام يراد به الطلب ، أي فاشكروا الله على ذلك .

وخاطب عموم الناس بذلك لأن فائدتها لعموم الناس إلى قيام الساعة ، فإن البأس لا ينقطع .

ألا ترى أنه لما لم يذكر في موضع آخر أنها للناس لم يطلب منهم شكره سبحانه؟

قال تعالى : ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

وأما قوله : ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ فقد قيل فيه : إن الخطاب لداود وأهله[(١)] كما في قوله : ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ : ١٣] [(٢)] .

والمراد بالسابغات : الدروع .

ويحتمل أن يكون الأمر بالعمل الصالح لعموم الناس وإن كان السياق في آل داود أظهر والله أعلم .

وحتى لو كان الأمر بالعمل الصالح لعموم الناس فإن كل تعبير يناسب سياقه الذي ورد فيه .

فإنه في آية الأنبياء لما جعل صنعة اللبوس للناس لتحصنهم من بأسهم ناسب ذلك الأمر بشكره سبحانه ، فهو من الشكر على النعمة .

وأما آية سبأ فأنها في طلب العمل الصالح ، وهو مطلوب من كل فرد

---

(١) الكشاف ٢ / ٥٥٦ ، روح المعاني ٢٢ / ١١٦ .

(٢) فتح القدير ٤ / ٣٠٦ .

بلا استثناء سواء كان في سياق النعم أم لم يكن.

فناسب كل تعبير سياقه.

ومن لطيف المناسبة أنه لما ذكر اللبوس لهم طلب الشكر.

ولما ذكر السابغات، والسابغ هو الكامل الوافي المتسع[١]، أمر بالعمل الصالح؛ ذلك أنه ليس كل لبوس سابغًا، وأن الشكر إنما هو من العمل الصالح كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ١٣﴾، فإن (شكرًا) يصح إعرابه مفعولاً به لـ (اعملوا) أي اعملوا الشكر. وفيه أوجه أخرى غير المفعول به[٢].

فالسابغ هو الوافي المتسع كما ذكرنا، فناسب ذلك العمل الذي هو أعم من الشكر.

فناسب كل تعبير موضعه من جهة أخرى.

* * *

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾

ورد هذا الجانب من قصة سليمان في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم: في الأنبياء وسبأ و(ص). غير أنها لم تكن متطابقة بل قد يذكر في موضع ما لا يذكره في الموضع الآخر.

فقد قال في سبأ:

﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ

---

(١) انظر لسان العرب (سبغ).

(٢) انظر روح المعاني ٢٢ / ١٢٠.

مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

وقال في (ص):

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾

* * *

ومن النظر في هذه النصوص يتضح أنها غير متطابقة ، فقد يفصّل في جانب ويجمل في جانب ، ويذكر أمرًا في موضع ولا يذكره في موضع آخر ، وغير ذلك من الأمور. وهو شأن القصص القرآني فإنه لا يعيد القصة نفسها من دون تغيير في تعبير أو زيادة أو إجمال ونحو ذلك.

وقد بينا في تفسيرنا لسورة هود طرفًا من ذلك.

ومن بين هذه الأمور:

١ ـ أنه ذكر الريح عاصفة في الأنبياء ، وذكرها رخاء في ص ، وذكرها مطلقة في سبأ.

٢ ـ ذكر غاية جريان الريح في الأنبياء وهي الأرض التي بارك فيها ، وذكر في سبأ مدة غدوها ومدة رواحها ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ﴾.

وأطلق ذلك في (ص) فلم يذكر شيئًا من ذلك ، وإنما قال: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث أراد وقصد.

٣ ـ لم يذكر زيغ الشياطين في الأنبياء وإنما قال: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾.

وقال في سبأ إنه من يزغ عن أمره يذقه من عذاب السعير، ومعنى ذلك أنهم مطلقون غير مقيدين.

وذكر في (ص) أن منهم مقرنين في الأصفاد، وكأن ذلك لمن زاغ منهم أو حاول أن يزيغ.

٤ ـ ذكر في الأنبياء أن من الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك، ولم يذكر ما العمل.

وفي سبأ ذكر جملة مما يعملونه فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

ولم يذكر في (ص) لهم عملاً، وإنما ذكر وصفهم فقال: ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾.

٥ ـ ذكر الشياطين في الأنبياء وص، وذكر الجن في سبأ.

٦ ـ ذكر في سبأ موت سليمان وعدم علم الجن بموته حتى خر بعدما أكلت دابة الأرض وهي الأرضة عصاه.

إلى غير ذلك من الأمور.

ونعود إلى بيان شيء من الأمور البيانية في آيتي الأنبياء.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾

أي وسخرنا لسليمان الريح بالعطف على الجبال في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾، وكما في قوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ [ص: ٣٦].

وعدّى التسخير مع الريح باللام فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ وعدّاه مع

الجبال بـ (مع) فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴿٧٩﴾﴾ وذلك للفرق بين التسخيرين. فإن تسخير الريح غير تسخير الجبال. فإن الريح تجري بأمره كما يريد من العصف والرخاء وإلى حيث يريد، بخلاف تسخير الجبال فإنها مسخرة في التسبيح مع داود عليه السلام وليس كتسخير الرياح لسيدنا سليمان.

جاء في (تفسير أبي السعود) في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾: «أي وسخرنا له الريح. وإيراد اللام ههنا دون الأول للدلالة على ما بين التسخيرين من التفاوت. فإن تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلي له والامتثال بأمره ونهيه والمقهورية به تحت ملكوته.

وأما تسخير الجبال والطير لداود عليه السلام فلم يكن بهذه المثابة بل بطريق التبعية له عليه السلام والاقتداء به في عبادة الله عز وعلا» (١).

وقال هنا إنه سخر له الريح عاصفة، وذكر في (ص) أنه سخرها له رخاء، فذكر مرة أنها عاصفة، وذكر مرة أخرى أنها رخاء، وذلك بحسب ما يريد. جاء في (البحر المحيط): «ووصفت هذه الريح بالعصف وبالرخاء، والعصف الشدة في السير، والرخاء اللين.

فقيل: كان ذلك بالنسبة إلى الوقت الذي يريد فيه سليمان أحد الوصفين...

والأرض أرض الشام... وقيل: أرض فلسطين» (٢).

ومن الملاحظ أنه قال هنا: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧١٩ ـ ٧٢٠ وانظر روح المعاني ١٧ / ٧٧.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٢.

وقال في الآية الحادية والسبعين من هذه السورة: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾

فذكر أنها للعالمين. ولم يقل ذلك في هذه الآية ، ذلك أن الآية السابقة إنما هي في ذكر الرسالات فقد ذكر إبراهيم ولوطاً وذكر إسحاق ويعقوب ثم قال: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ .

فذكر أنه جعلهم أئمة يهدون بأمر الله وأنه أوحى إليه فعل الخيرات .

والهداية إنما هي للعالمين فناسب أن يقول: ﴿ بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وذلك لأن إرسال الرسالات والهداية إنما هي لهم .

وليس في الآية الأخرى مثل ذلك ، وإنما هي الريح تجري بأمر سليمان كما يريد .

فناسب كل تعبير موضعه .

ومن لطيف التناسب أنه ذكر في الأنبياء أن الريح عاصفة ، وذكر في (ص) أنها رخاء .

وكل وصف وضع في مكانه من حيث السياق .

فقد ذكر في الأنبياء أنها عاصفة مناسبة لما قبلها وهو قوله: ﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ ، والبأس هي الحرب ، والحرب عاصفة .

وقوله: ﴿ وَنَصَرْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ﴾ يعني نوحًا عليه السلام ، وقد كان بين نوح وقومه عصف وشدة مدة طويلة .

وذكر المخاصمة بين أصحاب الحرث والغنم وهي خصومة وشدة .

فناسب ذكر العصف .

وأما في (ص) فذكر أنه عرض على سليمان بالعشي الصافنات الجياد ، فقد قال : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾

والصافن من الخيل : الذي يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها ، فهو يقف على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر(١) .

فالخيل هنا واقفة .

وقال : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ [ص: ٣٣] وأيًّا ما كان معنى المسح فإنها تعني أنها في حالة سكون ووقوف .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ والجسد لا يتحرك .

فناسب ذكر الرخاء .

وهو تناسب لطيف في اختيار اللفظة مع السياق الذي وردت فيه .

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾

أي «أحاط علمنا بكل شيء فنجري الأشياء كلها على ما يقتضيه علمنا وحكمتنا» (٢) .

* * *

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

جمع الفعل (يغوصون) حملاً على معنى (من) في هذه الآية .

---

(١) انظر لسان العرب (صفن) ، روح المعاني ٢٣ / ١٩٠ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

وقال في (سبأ): ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿١٢﴾﴾ بإفراد الفعل (يعمل).

ذلك ـ والله أعلم ـ أنه ذكر في الأنبياء أنهم يغوصون ويعملون عملاً دون ذلك، فذكر الغوص والعمل.

وذكر في سبأ العمل ولم يذكر الغوص، وقد ذكر أنواعًا من العمل.

والغوص والعمل أكثر من العمل وحده، فناسب الجمع في آية الأنبياء، والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنهم صنفان: غواص وعامل كما قال سبحانه: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾

جاء في (فتح القدير): «﴿كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أي كل بنّاء منهم وغواص منهم يبنون له ما يشاء من المباني، ويغوصون في البحر فيستخرجون له الدرر منه» (١).

وإذا كان الأمر كذلك فقد ناسب الجمع في الأنبياء من جهة أخرى ذلك لأنهم أكثر فمنهم غواصون ومنهم عاملون.

وأما في سبأ فقد ذكر الذين يعملون ولم يذكر الذين يغوصون.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سبأ أن من الجن من يعمل بين يديه، فذكر مكان العمل، وأطلقه في الأنبياء فقد يكون منهم من يعمل بين يديه، ومنهم من يعمل في أمكنة أخرى يحددها لهم. فهم أكثر.

فناسب جمع الفعل في الأنبياء وإفراده في سبأ من ناحية أخرى.

وقد تقول: ولم ذكر الشياطين في الأنبياء، وذكر الجن في سبأ؟

---

(١) فتح القدير ٤ / ٤٥.



فنقول: لقد قال في سياق القصة في سبأ: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

فذكر الجن وعدم علمهم بالغيب ، والجن أعم من الشياطين وأكثر .

فإن الجن يعم الكافر والمؤمن منهم ، وأما الشياطين فهم كفرة الجن ، فناسب نفي علم الغيب عمن هم أكثر وأعم .

وقال في سبأ أيضًا: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

فذكر الجن على العموم من دون تخصيص الشياطين بالعبادة .

فناسب ذكر الجن في سبأ. وليس في الأنبياء نحو ذلك .

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴾

أي حافظين من أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يغيروا أو يوجد منهم فساد في الجملة فيما هم مسخرون فيه(١) .

وقيل: (حافظين) حتى لا يهربوا(٢) أو ما نعينهم من الناس(٣) .

وكل ذلك مراد .

* * *

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٤.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٣.

(٣) التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٥ .

﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

لقد ذكر أيوب بعد ذكر سليمان في هذه السورة وفي سورة (ص) فذكر الغني الشاكر وهو سيدنا سليمان، وأتبعه بذكر المبتلى الصابر وهو سيدنا أيوب. فجمع بين الحالتين في الابتلاء:

الابتلاء بما يقتضي الشكر، والابتلاء بما يقتضي الصبر.

فإن من الابتلاء ما يقتضي الشكر كما قال تعالى على لسان سيدنا سليمان: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ ﴾ [النمل: ٤٠].

ومنه ما يقتضي الصبر كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾

أي واذكر أيوب إذ نادى ربه.

وقد صرح بالفعل (اذكر) في هذه القصة في سورة (ص) فقال: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾

والملاحظ أنه لم يذكر الفعل (اذكر) فيما ورد من قصص الأنبياء في سورة الأنبياء، بل يذكرهم على تقدير الفعل وذلك قوله: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ ﴾، وقوله: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ ﴾، وقوله: ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ ﴾، وقوله: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا ﴾، وقوله: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾.

وهو يذكر الفعل فيما ورد في القصص في سورة (ص) ابتداء من قوله

تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴿١٧﴾﴾، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴿٤١﴾﴾ وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴿٤٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ ﴿٤٨﴾﴾.

ومن لطيف التناسب أن سورة (ص) تبدأ بقوله: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ فكان من ذلك أن ذكرهم بالفعل (اذكر).

وختم هذه الآيات بقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾.

ومن لطيف ذلك أيضًا أن يذكر الذكر والتذكر وما إلى ذلك في التعقيب على كل قصة من هذه القصص أو في أثنائها. فقد قال بعد قصة سيدنا داود: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

وقال على لسان سيدنا سليمان: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ﴿٣٢﴾﴾.

وقال في أيوب عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

وقال بعد أن ذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾﴾.

وختم السورة بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وهذا من لطيف التناسب.

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾

الضُّرّ بالضم: كل ما كان من سوء حال وفقر و شدة في بدن.

والضَّرّ بالفتح ضد النفع[١].

و(رحمة) مفعول لأجله، والرحمة هي لأيوب ولكل عابد، والذكرى لغيره (رحمة) من العابدين ليتعظ ويتذكر فيصبر إذا أصابه ضر فتدركه رحمة ربه فيثاب ثوابًا مضاعفًا.

جاء في (الكشاف): «ألطف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب... ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ لرحمتنا العابدين وأنا نذكرهم بالإحسان لا ننساهم، أو رحمة منا لأيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر حتى يثابوا كما أثيب في الدنيا والآخرة»[٢].

وقال ههنا: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ ويقول في مواضع أخرى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

والملاحظ في القرآن أنه يستعمل ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ للمؤمنين خاصة.

وأما ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ فيستعملها عامة للمؤمن وغيره. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴿٥٠﴾﴾.

جاء في (البرهان في متشابه القرآن) للكرماني: «وقال: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ لأن (عندنا) حيث جاء دل على أن الله سبحانه تولى ذلك من غير واسطة»[٣].

وقد بينا ما ورد من التشابه والاختلاف في هذه القصة في سورتي الأنبياء و(ص) في شرحنا لقوله تعالى في سورة يس: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس: ٤٣ ـ ٤٤].

---

(١) انظر لسان العرب (ضرر).

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٠ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٣٤.

(٣) البرهان ٢٤٣.



فلا نعيد القول فيه[١].

ومن الملاحظ أنه قال تعالى هنا: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا﴾ فقال: (فكشفنا) بالفاء.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقد يأتي بعد الاستجابة بالواو وذلك نحو قوله تعالى في يونس عليه السلام: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقوله في زكريا عليه السلام: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ ﴿٩٠﴾﴾.

ومن المعلوم أن الفاء تفيد التعقيب والترتيب، وأما الواو فلمطلق الجمع، فلم الاختلاف؟

فنقول: إن كل تعبير ناسب موضعه الذي ورد فيه.

فإنه ذكر في نوح أن كربه عظيم فقال: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾، والكرب العظيم يستدعي الإسراع في النجاة.

وقد تقول: لكنه وصف كربه بأنه عظيم في موضع آخر ولم يأت بالفاء بل جاء بالواو وذلك قوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

فما الفرق؟

فنقول: لقد ذكر في الأنبياء أمرين كل منهما يستدعي النجاة وهما الكرب العظيم وإساءة قومه إليه، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ

---

(١) انظر (على طريق التفسير البياني ـ ج ٢) سورة يس ٢ / ١٧٩ وما بعدها.

فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ .

فذكر أمرين .

وأما في الصافات فذكر أمرًا واحدًا ولم يذكر قومه فناسب الإسراع في النجاة في الأنبياء .

وقال في أيوب إنه دعا ربه بذكر أعلى صفات الرحمة فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

وسعة الرحمة تستدعي الإسراع في النجاة .

وأما يونس فقد فعل ما هو خلاف الأَولى ، فقد ذهب مغاضبًا قومه من دون أن يأذن له سبحانه بذاك .

وأقر بظلمه لنفسه قائلاً : ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وليس من ظلم نفسه كمن لم يظلم نفسه. ولذا ذكره في موضع آخر أنه سبحانه نبذه بالعراء وهو سقيم وأنبت عليه شجرة من يقطين ﴿۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات : ١٤٥ ـ ١٤٦] .

وقال سبحانه لنبيه : ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ [القلم : ٤٨ ـ ٤٩] .

فلم يأت بالفاء الدالة على التعقيب .

وأما ما فيه زكريا عليه السلام فإنه ليس ككرب نوح ولا كضرّ أيوب ، والأمر فيه سعة .

ولا شك أنه وهب له يحيى بعد حمل أمه له .

فلم يستدع ذلك التعقيب بالفاء ، والله أعلم .

* * *

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ذكر هؤلاء بعد أيوب لاشتراكهم في الصفة التي ذكر بها أيوب وهي الصبر وذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ ﴾ [ص: ٤٤].

يدل على ذلك أنه ختم الآية بقوله: ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

جاء في (روح المعاني): «أي كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) على مشاق التكاليف وشدائد النوب، ويعلم هذا من ذكر هؤلاء بعد أيوب عليهم السلام» (١).

وجاء في (التحرير والتنوير): «عطف على أيوب، أي وآتينا إسماعيل وإدريس وذا الكفل حكمًا وعلمًا. وجمع هؤلاء الثلاثة في سلك واحد لاشتراكهم في خصيصة الصبر كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. جرى ذلك لمناسبة ذكر المثل الأشهر في الصبر وهو أيوب» (٢).

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

جعل الصلاح سببًا للدخول في رحمته سبحانه.

وقد بينا نحو هذا التعبير في قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ وذلك في سيدنا لوط عليه السلام.

* * *

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٨٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٧ / ١٢٨.

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾

وردت قصة يونس في أكثر من موضع وهي لم تتكرر شأن القصص القرآني.

فقد وردت في سورة يونس والأنبياء والصافات والقلم.

أما في يونس فقد وردت الإشارة إلى قومه وإيمانهم في آية واحدة، فذكر ربنا سبحانه أنه استثناهم من سائر القرى والأقوام فقد آمنوا فلم يعذبهم وذلك قوله سبحانه:

﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨ ﴾

ووردت في سورة الأنبياء فلم يذكر دعوته ولا موقفًا له مع قومه سوى أنه خرج مغاضبًا فوقع في غم فدعا ربه فنجاه منه. ولم يذكر ما هذا الغم سوى أنه قال إنه نادى ربه في الظلمات، ولم يذكر ما هذه الظلمات.

وهذا ما ورد منها:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾

ووردت في الصافات وهي أكثرهن تفصيلاً وذكر فيها ما لم يذكره في المواطن الأخرى من أبقه إلى الفلك، أي هرب من غير خوف، وأنه ساهم أي اقترع فلم يفلح في القرعة، وأنه ألقي في البحر فالتقمه الحوت ثم نجاه الله من بطن الحوت فنبذه بالعراء وهو مريض، وأنبت عليه شجرة



من يقطين وأرسله إلى قومه وذكر عددهم ، وأن قومه آمنوا فمتعهم ربهم إلى حين .

وهذا ما ورد في الصافات :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وأما في سورة القلم فإنه لم يذكر من هذه القصة إلا مخاطبة الله لرسوله أن يصبر وألا يكون كصاحب الحوت إذ دعا ربه وهو مكظوم فتداركته نعمة من ربه فاجتباه ربه فجعله من الصالحين .

وهذا ما ورد منها في هذه السورة .

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

فأنت ترى أنها ليست متطابقة ، بل ذكر في كل موضع ما أراد سبحانه أن يركز عليه وما يتناسب مع السياق الذي ورد فيه ذكره .

والآن نرجع إلى ما ورد منها في سورة الأنبياء للنظر فيها من الناحية البيانية .

* * *

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

ورد اسمه عليه السلام وهو يونس في أكثر من موضع .

وورد هنا باسم ذي النون ، وورد في موضع آخر باسم صاحب الحوت.

والنون هو الحوت ، وذو النون أي صاحب الحوت.

وفَرّق النحاة بين (ذو) و(صاحب) أن (ذا) لا تضاف إلى مضمر ولا إلى وصف وإنما تضاف إلى اسم ظاهر غير صفة ، وما خالف ذلك فهو نادر[١].

وأما (صاحب) فتضاف إلىظاهر ومضمر ، ووصف وغير وصف فتقول: (هو صاحبنا) ، وهو صاحب القائمين بالحق ، وهو صاحب الراكع الساجد محمود.

والملاحظ في استعمال القرآن لهاتين اللفظتين أنه يستعمل (ذا) للعاقل وغيره ، ولم يستعمل كلمة (صاحب) إلا للعاقل.

قال سبحانه: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢].

وقال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤].

وقال: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وهي هنا لغير العاقل.

وقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦].

وقال: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وهي هنا للعاقل.

ومن الأعلام المصدرة بذي في القرآن (ذو القرنين) و(ذو الكفل).

---

(١) انظر شرح الأشموني ١ / ٧٣ ، شرح التصريح ١ / ٦٣.

أما (صاحب) فلم ترد إلا للعاقل: مفردة أو مثناة أو مجموعة، (كصاحب الحوت)، وقوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقوله: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ونحو أصحاب الجنة وأصحاب النار وأصحاب الحجر وأصحاب مدين وأصحاب موسى وغير ذلك.

هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه لم يرد من هاتين الكلمتين وصف له سبحانه إلا كلمة (ذي) نحو: (والله عزيز ذو انتقام) و(ذو العرش المجيد) و(ذو رحمة واسعة) و(ذو فضل على الناس) و(ذو الجلال والإكرام) و(ذو عقاب أليم).

والذي يبدو من استعمال هاتين اللفظتين أن (ذا) كأنها تستعمل أحيانًا لما هو أخص وألصق فلا يصح أو لا يحسن استعمال (صاحب) محلها وذلك نحو قوله: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ فلا يحسن أو لا يصح أن يقال: (في يوم صاحب مسبغة).

وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾

وقوله: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾

وقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾

فإنه لا يصح استعمال (صاحب) مكانها.

ولا يصح في نحو قولك: (الدواء ذو مرارة) أن يقال: (الدواء صاحب مرارة).

إن لفظة (صاحب) قد تفيد المصاحبة ، وأما (ذو) فإنها قد تكون لما هو من صفات الشيء أو خصوصياته. فقولك مثلاً: (هو صاحب أبي بكر) لا يصح أن يقال بدله: (هو ذو أبي بكر) ، ولا يصح في قولك: (هو صاحب زيد) أن يقال: (هو ذو زيد).

وكذلك في أسماء الأعلام نحو (ذي القرنين) فلا يصح أن يقال فيه: (صاحب القرنين).

ونحوه: ذو يزن ، وذو رعين ، وذو نواس ، وذو الكلاع ، وهي ألقاب لبعض من ملوك اليمن التبابعة[١].

وأما بالنسبة لاستعمال هذين الاسمين لسيدنا يونس عليه السلام فالذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنه استعمل ذا النون فيما هو أمدح له. ذلك أنه استعمل (صاحب الحوت) في مقام النهي عن أن يكون رسول الله ﷺ مثله في قلة صبره ، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

وأما اسم (ذي النون) فاستعمله في مقام تسبيحه واعترافه بظلمه لنفسه واستجابة ربه لدعائه ، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إذا وقعوا في غم فسبحوا ربهم أنجاهم ربهم سبحانه كما نجى ذا النون ، فإن التسبيح ينجي من الغم ومدعاة لإجابة دعائهم. ولقد طلب سبحانه من نبيه عليه السلام عندما ضاق صدره بما يقول قومه أن يسبح بحمد ربه فقال له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

وقال له أيضًا: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ

---

(١) انظر (لسان العرب) (ذو) ٢٠ / ٣٤٥.

وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال في ذي النون: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٤].

جاء في (الإتقان) للسيوطي: «قال السهيلي: الوصف بـ (ذو) أبلغ من الوصف بصاحب، والإضافة بها أشرف. فإن (ذو) يضاف للتابع و(صاحب) يضاف إلى المتبوع، تقول: أبو هريرة صاحب النبي، ولا تقول: النبي صاحب أبي هريرة.

وأما (ذو) فإنك تقول: ذو المال وذو العرش، فتجد الاسم الأول متبوعًا غير تابع. وبني على هذا أنه تعالى قال في سورة الأنبياء: (وذا النون) فأضافه إلى النون وهو الحوت.

وقال في سورة (نون): ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾، قال: والمعنى واحد ولكن بين اللفظين تفاوت كثير في حسن الإشارة إلى الحالين. فإنه حين ذكره في معرض الثناء عليه أتى بـ (ذي) لأن الإضافة بها أشرف، وبالنون لأن لفظه أشرف من لفظ الحوت لوجوده في أوائل السور، وليس في لفظ الحوت ما يشرفه بذلك، فأتى به وبصاحب حين ذكره في معرض النهي عن اتباعه» (١).

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾.

أي ذهب غاضبًا على قومه لعدم استجابتهم له من دون أن يأذن الله له بذلك فتركهم ليدعو إلى دين الله في مكان آخر، وظن أن ذلك يسوغ له وأن الله لن يضيق عليه وأن في الأمر سعة.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣ وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤ / ٢٧٩.

ومعنى (لن نقدر عليه) لن نضيق عليه كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقوله: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٦].

جاء في (الكشاف): «(النون): الحوت، فأضيف إليه.

برم بقوله لطول ما ذكرهم فلم يذكروا وأقاموا على كفرهم فراغمهم وظن أن ذلك يسوغ حيث لم يفعله إلا غضبًا لله وأنفة لدينه وبغضًا للكفر وأهله.

وكان عليه أن يصابر وينتظر الإذن من الله في المهاجرة عنهم فابتلي ببطن الحوت...

(فقدر عليه) فسرت بالتضييق عليه» [(١)].

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

الفاء فصيحة أفصحت عن المحذوف وهو ما كان من المساهمة وهي الاقتراع وإلقائه في البحر والتقام الحوت له.

أي ركب الفلك فساهم فدحض في المساهمة ولم يفلح، فألقي في البحر فالتقمه الحوت فنادى ربه.

جاء في (روح المعاني): «(فنادىٰ) الفاء فصيحة أي فكان ما كان من المساهمة والتقام الحوت فنادىٰ.

(في الظلمات) أي في الظلمة الشديدة المتكاثفة في بطن الحوت جعلت الظلمة لشدتها كأنها ظلمات... أو الجمع على ظاهره والمراد ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل» [(٢)].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٥.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٤، وانظر فتح القدير ٣ / ٤١٠، ابن كثير ٣ / ١٩٢.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إقرار بظلمه لنفسه.

وقال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فوصف نفسه بالظلم الثابت فجاء بالصيغة الاسمية، ذلك أنه استعظم ما فعله من غير إذن ربه له.

جاء في (التحرير والتنوير) في قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ «مبالغة في اعترافه بظلم نفسه»[(١)].

ولعل في هذا الترتيب إشارة إلى ما يحسن بالداعي أن يفعله وهو البدء بالثناء على الله ثم يدعو بحاجته والله أعلم.

والمقصود بالنداء هنا الدعاء، بدليل قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

ذكرنا في موضع سابق من السورة مجيء التنجية بالواو ومجيئها بالفاء، ومنها ما ورد في هذه الآية فلا نعيد القول فيه.

ومن الملاحظ أن قال: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فقال أولاً: (نجيناه) ثم قال: (وكذلك نُنْجي).

و(نُنْجي) مضارع (أنجى ـ أنجينا).

فاستعمل (نجى) أولاً، واستعمل (أنجى) بعد ذلك. وقد ذكرنا في أكثر من موضع أن (نجى) يفيد التلبث والتمهل في التنجية، وأن (أنجى) يفيد الإسراع فيها. فإن (أنجى) أسرع من (نجى) في التخليص من الشدة والكرب[(٢)].

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٣٢.

(٢) انظر كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) ص ٧٤ وما بعدها.

فاستعمل (نجى) الذي يفيد المكث والتلبث مع رسوله ، واستعمل (أنجى) الذي يفيد الإسراع في النجاة مع المؤمنين ، ذلك لأن الرسل أعظم صبرًا من عامة المؤمنين. ولذلك قال: (ننْجي) مع المؤمنين ، أي يخلصهم ربنا مما هم فيه بسرعة لأنهم ليس لهم صبر كصبر الرسل. وهذا من لطف الله بهم ورحمته لهم.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

جاء في (نظم الدرر): «ذكر التنجية أولاً يدل على مثلها ثانيًا ، وذكر الإنجاء ثانيًا يدل على مثله أولاً.

وسر ذلك الإشارة إلى شدة العناية بالمؤمنين ؛ لأنهم ليس لهم كصبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما أشار إليه بحديث: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) (يبتلى المرء على قدر دينه) فيسلّهم سبحانه من البلاء كما تسلّ الشعرة من العجين ، فيكون ذلك مع السرعة في لطافة وهناء» [١].

* * *

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

وردت قصة زكريا في ثلاثة مواضع من القرآن: في آل عمران ، وفي سورة مريم ، وفي هذا الموضع من سورة الأنبياء.

وهي أيضًا ليست متطابقة شأن ما ذكرنا عن القصص القرآني.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢/ ٤٦٧.

فقد ذكر ربنا في آل عمران أن زكريا دعا ربه أن يهب له ذرية طيبة ولم يخص الذرية بكونها ذكرًا أم أنثى ، وذلك لما رأىٰ ما أكرم الله به مريم في أنها كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا من عند الله ، فدعا ربه أن يهب له ذرية طيبة.

وأما في سورة مريم فقد ذكر زكريا حاله من شيخوخته ووهن عظمه وعقر زوجه داعياً ربه أن يهب له وليًّا يرثه ، وطلب من ربه أن يجعله رضيًّا.

وقد ذكرنا ما ورد من هذه القصة في سورتي آل عمران وسورة مريم وبينّا جانبًا من الناحية البيانية فيهما في كتابنا (بلاغة الكلمة في التعبير القرآني) في باب تعاور المفردات ، فلا نعيد القول فيه.

وأما ما ورد في سورة الأنبياء فهو طلب موجز وذلك قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَارِثِينَ﴾.

فاستجاب له ربه بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾

ولم يذكر صفة يحيى كما ذكر في آل عمران بقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

أو في سورة مريم من وصفه له بقوله: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٣ ـ ١٤].

ولم يذكر تعجب زكريا من ذلك ولا طلبه أن يجعل له آية كما في الموضعين الآخرين.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أنه قال في سورة مريم: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي. . .﴾

فجمع بين النداء والقول: (نادى) و(قال) ، في حين قال في الأنبياء:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾

فاكتفى بفعل النداء ، ولم يقل: (إذ نادى ربه قال رب) وذلك أنه تبسط في النداء والدعاء في مريم ، وأوجز في النداء والدعاء في الأنبياء.

فناسب التفصيل التفصيل ، وناسب الإيجاز الإيجاز.

ثم إن الجمع بين النداء والقول يفيد التوكيد إضافة إلى التبسط ، فإنه جمع ما فيه معنى القول والقول ، فناسب التفصيل والإلحاح في الطلب أن يجمع بينهما في مريم.

وقد بينا ذلك بصورة مفصلة في كتابنا (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وعرضنا لهاتين الآيتين فيما عرضنا من الأمثلة[١].

ونعود الآن إلى القصة للنظر في شيء من الناحية البيانية.

* * *

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾

إن مناسبة قصة زكريا لما ذكر قبلها في هذه السورة أنه «لما كان حاصل أمر يونس عليه السلام أنه خرج من بطن لم يعهد الخروج من مثله عطف عليه قصة زكريا عليه السلام في هبته له ولدًا من بطن لم يعهد الحمل من مثله في العقم واليأس ناظرًا إلى إبراهيم عليه السلام أول من ذكر تصريفه في آحاد العناصر فيما اتفق له من مثل ذلك في ابنه إسحاق عليه السلام. . .

تلاه بإبداع ابن خالته عيسى عليه السلام الذي هو علم للساعة على حال أغرب من حاله فأخرجه من أنثى بلا ذكر»[٢].

---

(١) الجملة العربية تأليفها وأقسامها ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢ / ٤٦٨ ـ ٤٧٠.

ومن الملاحظ فيما ورد من القصص الواردة في هذه السورة أن المناداة من الأنبياء لربهم سبحانه لم تذكر على صورة واحدة.

فقد قال في (نوح) عليه السلام: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٧٦]

ولم يقل إنه نادى ربه ولكن علم من قوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أنه نادى ربه.

وقال في أيوب: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ ﴿٨٣﴾﴾ فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، وعرض حاله، ولم يطلب شيئًا صريحًا، ولكن علم من عرض الحال أنه دعا بكشف الضر.

وقال في ذي النون: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وهذا واضح أنه نادى ربه، إلا أنه ذكر ذلك بصورة التوحيد والتنزيه. فقوله: (لا إله إلا أنت) هو توحيده سبحانه ونفي الشرك. وقوله: (سبحانك) تنزيه له عن كل نقص.

وذكر أنه كان ظالمًا لنفسه.

ولم يصرح بطلب شيء معين ولكن علم من قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أنه كان في غم.

وأما دعوة زكريا فهي تختلف عن كل ما ورد.

فقد قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾.

فذكر أنه نادى ربه.

وذكر مناداته له بقوله: (رب)، ولم يذكر عن أحد ممن ورد في السورة ذلك.

وذكر طلبه الصريح وهو قوله: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾

ولم يذكر مثل ذلك عن أحد من الأنبياء ممن ورد في السورة.

فالمناداة متدرجة.

إذ نادى

إذ نادى ربه

فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت (بالخطاب لله سبحانه)

إذ نادى ربه رب

وأما الدعاء فلم يكن بالفحوى ولا بعرض الحال فيما ذكر عن نوح.

وكان بعرض الحال في أيوب.

وكان بذكر ظلم النفس فيما ذكر عن يونس.

وكان بالطلب الصريح في قصة زكريا.

ومن اللطيف في ذكر الخطاب لله سبحانه أن يكون كل خطاب مناسبًا لحال الداعي.

فلما قال أيوب: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ذكر صفة الرحمة بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ليرحمه ويكشف عنه الضر.

ولما ذكر يونس ظلمه لنفسه وتقصيره بحق ربه قال لربه: (سبحانك) فنزهه عن كل نقص. فالعبد مقصر ظالم لنفسه، والله سبحانه منزه عن كل نقص.

ولما قال زكريا: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ فطلب ذرية ترثه قال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

فناسب كل تذييل حال الداعي.

وقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ يعني لا تتركني وحيدًا بلا وارث يرثني.

وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي أنت خير من يرث خلقه، فإنك «إن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي فإنك خير وارث» (١).

وجاء في (روح المعاني): أن المراد «وأنت خير حي يبقى بعد ميت. وفيه مدح له تعالى بالبقاء وإشارة إلى فناء من سواه من الأحياء» (٢).

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يعني أنه «أصلحها للولادة بأن أزال عنها المانع» (٣).

والظاهر أنه أصلحها لكل ما يحسن بالزوجة أن تكون.

«وقدم هبة يحيىٰ مع توقفها على إصلاح الزوج للولادة لأنها المطلوب الأعظم، والواو لا تقتضي ترتيبًا» (٤).

والتقديم إنما يكون بحسب الأهمية تبعًا لما يقتضيه السياق.

وليس بالضرورة تقديم المتقدم حسًّا أو وجودًا.

فقد يقدم المتأخر لمقتضى بياني وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

فقدم السجود على الركوع مع أن الركوع أسبق.

وقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٥].

والأم والأب أسبق من الأخ.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦.
(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٧.
(٣) التفسير الكبير ٨ / ١٨٢.
(٤) روح المعاني ١٧ / ٨٧.

وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ومن ذكر من بعد عيسى أسبق منه.

وداود أسبق من سليمان ابنه لكنه ذكر بعده.

وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤ ـ ٦].

وعاد أسبق من ثمود.

وقد بينا ذلك من التقديم والتأخير في أكثر من موضع في كتاب (التعبير القرآني)، وفي كتاب (الجملة العربية تأليفها وأقسامها) وغير ذلك من المواضع.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

الظاهر أن الضمير في (إنهم) يعود على الأنبياء المذكورين، أي أن استجابتنا لهم إنما كان بسبب مسارعتهم في الخيرات ودعائهم لنا.

جاء في (الكشاف): «(إنهم) الضمير للمذكورين من الأنبياء عليهم السلام، يريد أنهم ما استحقوا الإجابة إلى طلباتهم إلا لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «والضمير في (إنهم) عائد على الأنبياء السابق ذكرهم، أي أن استجابتنا لهم في طلباتهم كان لمبادرتهم الخير ولدعائهم لنا... وقيل الضمير يعود على زكريا وزوجه وابنهما يحيى»[٢].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٦.

وقال: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ولم يقل: (يسارعون إلى الخيرات) لأنهم فيها وهم يجدّون في عملها. ولو قال: (يسارعون إلى الخيرات) لكان المعنى أنهم يتجهون إليها وليسوا فيها.

ونحو ذلك قوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] فقال: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ لأنهم كفار يجدّون في الكفر، ولم يقل: (يسارعون إلى الكفر) أي يسرعون إليه.

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تعليل لما فصل من فنون إحسانه تعالى المتعلقة بالأنبياء المذكورين. أي كانوا يبادرون في وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير، وهو السر في إيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين إليها كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾»[١].

وجاء في (روح المعاني) في هذا التعبير: «والمعنى أنهم كانوا يجدّون ويرغبون في أنواع الأعمال الحسنة. وكثيرًا ما يتعدىٰ (أسرع) بـ (في) لما فيه من معنى الجد والرغبة، فليست (في) بمعنى (إلى)، أو للتعليل»[٢].

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

أي رغبًا في رضاء الله وطاعته، وخوفًا من معصيته وعقابه، كما قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦].

ورغبًا ورهبًا يحتمل أن يكونا مصدرين في موضع الحال، أي راغبين وراهبين، كما يحتمل أن يكونا مفعولاً لأجله[٣]، «وهو كقوله تعالى:

---

(١) تفسر أبي السعود ٣ / ٧٢٤.

(٢) روح المعاني ١٧ / ٨٧.

(٣) انظر البحر المحيط ٦/ ٣٣٥.

﴿ يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩]»[١].

وقدم المسارعة في الخيرات لأنها مدعاة إلى إجابة الدعاء، فالمسارع في الخيرات أدعى أن يجاب دعاؤه.

﴿ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

أي متضرعين خائفين متذللين له.

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ أي مخبتين متضرعين أو دائمي الوجل.

والمعنى أنهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة»[٢].

وقيل: متواضعين[٣].

* * *

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

إن مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، ذلك أنه ذكر قبل الآية ولادة يحيى من أبوين لا يولد لهما في العادة، فأبوه زكريا عليه السلام شيخ كبير واهن العظم، وأمه عاقر.

وذكر في هذه الآية ما هو أعجب وأغرب وهو ولادة عيسى من أم بلا أب.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٦.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٢٤.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٣٦.

لقد ورد نحو هذا المعنى في سورة التحريم وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

ومن الملاحظ أن هناك تشابهًا واختلافًا بين التعبيرين.

من ذلك:

أنه ذكر اسم مريم في آية التحريم، ولم يذكره في آية الأنبياء.

وقال في آية الأنبياء: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ بتأنيث الضمير في (فيها).

وقال في آية التحريم: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ بتذكير الضمير في (فيه).

وذكر ابنها في آية الأنبياء، ولم يذكره في آية التحريم.

وقد ذكرنا جانبًا من الملاحظ البيانية في ذلك في كتابنا (من أسرار البيان القرآني) في موضع (التشابه والاختلاف) [١] فلا نعيد القول فيه.

قد تقول: لقد قال في آية الأنبياء هذه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فقدم ضمير الأم على الابن.

وقال في سورة (المؤمنون): ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

فقدم الابن على أمه، فلم ذاك؟

فنقول: إن كل تعبير هو المناسب في سياقه.

فإن الكلام في آية الأنبياء على مريم فقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا

---

(١) من أسرار البيان القرآني ١٥٩ ـ ١٦١.

فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ فناسب تقديمها .

وأما آية (المؤمنون) فقد وردت في سياق إرسال الرسل إلى أممهم ، فقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

ثم ذكر إرسال موسى وأخيه هرون (٤٥) .

ثم ذكر قبل الآية إيتاء موسى الكتاب فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

فناسب تقديم ابنها الذي هو رسول من رسل الله .

ثم خاطب بعد الآية الرسل فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴿٥١﴾﴾ .

فناسب هذا أيضًا تقديم ابن مريم الذي هو رسول فدخل في المخاطبين .

هذا إضافة إلى أنه لم يذكر أمه التي أحصنت فرجها فنفخ فيها من روحه فلم يقدم ضمير أمه .

قد تقول : إن آية الأنبياء وردت أيضًا في سياق الرسل فما الفرق؟

فنقول : ليس الأمر كذلك ، فإن سياق آيات الأنبياء في إجابة من دعا من الرسل والأنبياء وما تفضل به عليهم وليس في سياق إرسال الرسل إلى أقوامهم ، بخلاف السياق في آيات سورة (المؤمنون) ، فإنه في الكلام على الرسل وتبليغ دعوة الله إلى أقوامهم وموقف أقوامهم منهم .

وهذا واضح من النظر في كل من السياقين .

فإن قصة نوح في الأنبياء وردت في آيتين، ووردت في سورة (المؤمنون) في سبع آيات ، من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين .



ثم ذكر رسولاً بعد ذلك وتبليغه دعوة ربه وموقف قومه منه في إحدى عشرة آية ، من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الثانية والأربعين.

ثم ذكر رسلاً آخرين على العموم ، وذكر بعد ذلك موسى وهارون وإرسالهما إلى فرعون وملئه.

ثم ذكر بعد ذلك ابن مريم. فناسب تقديمه مناسبة للسياق الذي وردت فيه الآية.

ومن المناسب هنا أن نذكر مناسبة ما ختم به آية (المؤمنون) وهو قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ لما جاء بعدها وهو قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ فقوله: ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ مناسب لما بعدها وهو قوله: ﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

فقوله: (ذات قرار) يعني ذات ثمار وزروع وماء جارٍ.

والمعين: الماء الظاهر الجاري(١).

ومناسبتها ظاهرة لقوله بعدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾.

* * *

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أي إن هذه ملتكم ملة واحدة وهي ملة الإسلام ، وهي الملة التي كان عليها الأنبياء والمرسلون وهي متفقة في أصولها ولا تختلف إلا في الفروع كما قال تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ

---

(١) انظر الكشاف ٢ / ٣٦٣ ، روح المعاني ١٨ / ٣٨ ـ ٣٩.

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال لنبيه خاتم الرسل: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام ١٦١].

وقال: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

جاء في (الكشاف): «الأمة: الملة، و(هذه) إشارة إلى ملة الإسلام. أي إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة... والخطاب للناس جميعًا» (١).

وجاء في (البحر المحيط): «ويحتمل أن تكون (هذه) إشارة إلى الطريقة التي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد الله تعالى هي طريقتكم وملتكم طريقة واحدة لا اختلاف فيها في أصول العقائد، بل ما جاء به الأنبياء من ذلك هو ما جاء به محمد ﷺ» (٢).

* * *

﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

أي إن ذوي الملل السابقة تقطعوا أمرهم بينهم وتفرقوا وخالفوا أمر ربهم وعبدوا آلهة متعددة فأصبحوا فرقًا شتى. ثم توعدهم بأنهم سيرجعون إلى ربهم وهو محاسبهم.

جاء في (الكشاف): «والأصل (وتقطعتم) إلا أن الكلام صرف إلى

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦.

(٢) البحر المحيط ٦/ ٣٣٧.

الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم. . .

والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعًا كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه. . . تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقًا وأحزابًا شتى، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو محاسبهم ومجازيهم» (١).

قد تقول: لقد قال في موضع آخر:

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٢ ـ ٥٣].

وواضح أن هناك تشابهًا واختلافًا بين النصين.

فقد قال في آية الأنبياء: ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

وقال في آية (المؤمنون): ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾

وقال في سورة (المؤمنون): زُبُرًا.

ولم يقل ذلك في آية الأنبياء.

وقال: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾ بالواو في آية الأنبياء.

وقال: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ ﴾ بالفاء في آية المؤمنون.

ثم إن خاتمة كل من الآيتين مختلفة عن الأخرى.

وقد بينا ذلك في كتابنا: (التعبير القرآني) في باب (الحشد الفني). فلا موجب لتكراره.

* * *

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤ ﴾

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

أي من يعمل بعض الصالحات أو يعمل بعضًا من الصالحات.

و(من يعمل بعض الصالحات) أي يعمل عملاً أو أكثر من الأعمال الصالحة.

و(من يعمل بعضًا من الصالحات) أي يعمل جزءًا من العمل الصالح وإن لم يستوفه كله أو أن يشترك مع جماعة في عمل صالح كأن يشترك مع جماعة لإنقاذ شخص من الغرق أو إطفاء حريق في دار ونحو ذلك.

فـ (من) تفيد التبعيض.

والكفران هو جحود النعمة وسترها وعدم شكرها.

فمعنى (لا كفران لسعيه) أي لا نجحد عمله ولا نحرمه ثوابه.

وقال: ﴿ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ ﴾ ولم يقل: (لا نكفر سعيه) لأن ذلك أبلغ، فإنه نفى الجنس بـ (لا) فلا يحرمه شيئًا من الثواب.

وقال: ﴿ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ ﴾ ولم يقل: (فلا كفران لما عمل) ليدل على أن السعي في الصالحات له أجر وإن لم يفعلها.

فإنه إذا سعى ليعمل صالحًا وهو مؤمن كان له في سعيه ثواب حتى وإن لم يتمكن من فعله. فإن السعي في طلب الحسنات له أجره، كما أن السعي في السيئات عليه وزره كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ ﴾ [النساء: ٨١].

وقال: ﴿ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ ﴾ [التوبة: ١٢١].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي مثبتون ذلك في صحيفة عمله لا نترك شيئًا من ذلك.

وقال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ ولم يقل: (إنا سنكتب عمله) لأن ذلك آكد وأقوى، فقد جاء بالاسم الدال على الثبوت.

لقد قال سبحانه فيمن يسعى في عمل بعض الصالحات: لا كفران لسعيه، وأما من سعى فيما هو أعلى من ذلك فقد ذكر أن له الشكر. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

فمن أراد الآخرة وسعى حقها من السعي كما ينبغي فقد قال فيه: ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

والمشكور: المجزي على عمله مع الإنعام عليه «والشكر من الله المجازاة والثناء الجميل» (١).

والفرق ظاهر بين قوله: (لا كفران لسعيه) وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

فإن قوله: (لا كفران لسعيه) يعني لا نجحد جزاء عمله وإنما نوفيه حقه.

وأما قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ فيعني الجزاء والثناء الجميل.

وتوضيح ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ أن الطالب الداخل في الامتحان يعطى على مقدار إجابته لا يحرم من ذلك شيئًا. فإذا أجاب عن سؤال

---

(١) لسان العرب (شكر).

واحد أعطي حقه عن ذلك ، وإن أجاب عن أكثر من ذلك أعطي حقه ولا يشكر على ذلك.

إذ الشكر إنما يكون على ما هو أعلى من ذلك من الإصابة والإحسان والزيادة في العلم ونحو ذلك.

جاء في (الكشاف): «(الكفران) مثل في حرمان الثواب ، كما أن الشكر مثل في إعطائه إذا قيل لله: شكور.

وقد نفى الجنس ليكون أبلغ من أن يقول: فلا نكفر سعيه.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ أي نحن كاتبو ذلك السعي ومثبتوه في صحيفة عمله» [(١)].

وجاء في (تفسير أبي السعود): «﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تفصيل للجزاء ، أي فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضًا من الصالحات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله ورسله ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ أي لا حرمان لثواب عمله ذلك.

عبر عن ذلك بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه . . . وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه تعالى ونفي الجنس للمبالغة في التنزيه.

وعبر عن العمل بالسعي لإظهار الاعتداد به.

(وإنا له) أي لسعيه (كاتبون) أي مثبتون في صحائف أعمالهم لا نغادر من ذلك شيئًا» [(٢)].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٧.

(٢) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٢٥.

لقد ذكر سبحانه في الآية أن من يعمل بعض الصالحات أو بعضًا منها فلا يكفر سعيه.

وأما من عمل الصالحات فله أعلى الجزاء.

ولا شك أن من عمل بعض الصالحات ليس كمن عمل الصالحات.

قال تعالى فيمن يعمل بعض الصالحات: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾.

وقال أيضًا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

وهو نظير ما ذكر في آية الأنبياء.

وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

في حين قال فيمن عمل الصالحات: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

والفرق ظاهر بين الجزاءين.

ومن الملاحظ فيما ورد من القصص القرآني في هذه السورة أنه قال في سيدنا إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٧٢﴾﴾، والنافلة: الزيادة ـ كما ذكرنا ـ ويقصد بالنافلة يعقوب وهو ولد إسحاق، فقد وهبه له من غير أن يسأله إياه.

ولم يرد قوله: (نافلة) في غير هذا الموضع من قصة سيدنا إبراهيم.

ومن المناسب أن نذكر أنه سبحانه ذكر في القصص في هذه السورة ما لم يذكره في مواضع أخرى كما ذكر النافلة في قصة إبراهيم.

فقد قال في موسى وهارون: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر من قصة موسى وهارون، أعني قوله: الفرقان وضياء وذكرًا للمتقين.

وقال في لوط: ﴿ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر.

وقال في نوح عليه السلام: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر.

وقال في داود وسليمان: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿٧٩﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا فيهما في موضع آخر.

وقال في أيوب عليه السلام: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴿٨٤﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر.

وقال في يونس عليه السلام: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا فيه في موضع آخر.

وقال في زكريا عليه السلام: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴿٩٠﴾ ﴾

ولم يرد نحو هذا في موضع آخر.

إلى غير ذلك، وهي من المناسبات اللطيفة في جو السورة.

* * *



﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

أي إن عدم الرجوع إلى الحياة الآخرة ممتنع ، ومقتضى ذلك أن الرجوع واجب.

إن هذه الآية مناسبة لقوله سبحانه قبل الآية: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

ومناسبة لقوله: ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ﴾ لأن ذلك إنما يكون في الآخرة.

ولقوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ لأن الغرض من كتابة السعي إنما هو للجزاء ، وذلك إنما يكون في الآخرة بعد رجوعهم إلى الحياة.

ومناسبة لما بعدها وهو ما ذكره من علامات الساعة وأحداث القيامة ورجوع الناس للحساب.

لقد قال: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ﴾ والضمير في (أهلكناها) يعود على القرية. ثم قال بعدها: ﴿ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ فذكر ضمير أهلها ، ولم يقل: (أنها لا ترجع) وذلك لأن أهلها هم الراجعون والمجزيون على أعمالهم.

إن القرية تطلق على المساكن والأبنية وهو الأصل ، وقد تطلق على أهلها الذين يسكنونها تجوزًا.

وقد استعملها القرآن للمعنيين.

قال تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ [الفرقان: ٤٠].

وهي هنا للمساكن والأبنية.

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١].

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

والمقصود بالقرية أهلها فهم الذين ظلموا ثم عاقبهم ربهم.

وقد يذكرالقرى ثم يعيد الضمير على أهلها وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

فذكر القرى وأعاد الضمير على أهلها فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ ولم يقل: (أهلكناها لما ظلمت).

وقد يذكر القرى ثم يذكر أهلها وذلك نحو قوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقد يذكر أهل القرية كما قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

وقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧].

قد تقول: قد يقول ربنا عن القرية أحيانًا: (أهلكناها) بضمير التأنيث، ويقول أحيانًا عنها: (أهلكناهم) بضمير جمع التذكير مع أن الموطن يبدو متشابهًا.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

فقال: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].



فقال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

فما الفرق؟

فنقول: إن التأنيث قد يفيد التكثير أو يفيد المبالغة. فإذا عبر بالمفرد المؤنث أفاد كثرة القرى المهلكة، أو أفاد المبالغة والشمول، أي إن التدمير الذي أصابها عام، أصابها وأصاب ساكنيها.

أو لملحظ آخر في السياق.

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

فأفاد كثرة القرى أن التدمير سيصيبها كلها على العموم والشمول، وربما أفاد إهلاكها وإهلاك من فيها.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]. ومعنى (خاوية): ساقطة سقوفها.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

فكل ذلك يفيد التكثير.

والآن نعود إلى الآيتين اللتين ذكرناهما وهما:

آية الأعراف وهي قوله: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾

وآية محمد وهي قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

فقال في آية الأعراف: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾.

وقال في آية محمد: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

ذلك أن القرى في آية الأعراف أكثر، فقد خصص القرى في آية محمد بالقوة فقال: ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾، وأطلقها في آية الأعراف فأفاد الكثرة فجاء بضمير المؤنث فيها، والتأنيث قد يفيد الكثرة كما ذكرنا، فناسب كل تعبير موضعه.

هذا إضافة إلى أنه سبق آية محمد ذكر من دمر الله عليهم وهم أهل القرى وساكنوها فقال: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾

فناسب ذكر إهلاك أهلها فقال: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾.

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وقال في سورة الحج: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

فقال في آية الكهف: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾

وقال في آية الحج: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾

ذلك أنه قال في آية الحج: ﴿فَكَأَيِّن﴾، و(كأين) تفيد التكثير.

ولم يقل مثل ذلك في آية الكهف.

وأنه قال في آية الكهف: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ بإسناد الظلم إلى جماعة الذكور فناسب ذلك قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ فإنهم لما ظلموا أهلكهم، في حين أسند الظلم في آية الحج إلى القرية فقال: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ فناسب ذلك قوله: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾.

ومن ناحية أخرى أنه قال قبل آية الكهف: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ

يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

فوصف ربنا نفسه بأنه الغفور ذو الرحمة وأنه لا يؤاخذ الناس بما كسبوا وإلا لعجل لهم العذاب. فناسب ذلك عدم الكثرة في الإهلاك.

في حين أنه سبق آية الحج ذكر من أخذهم ربنا من الأقوام المهلكة ثم قال: ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: ٤٤].

فناسب التكثير فجاء بضمير المؤنث الدال على الكثرة.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ ﴾

على حذف مضاف، أي سد يأجوج ومأجوج[١] «فحذف المضاف وأدخلت علامة التأنيث في (فتحت) لما حذف المضاف لأن يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين. وقيل: حتى إذا فتحت جهة يأجوج»[٢].

ونحو هذا التعبير وارد في القرآن وذلك قوله سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] و﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١] بتأنيث الفعل على التقدير.

وجاء بـ (إذا) ولم يأت بـ (إن) لأن ذلك واقع لا محالة، فإن (إذا) يؤتى بها لما يقطع بوقوعه أو لما يكثر وقوعه.

وأما (إن) فيؤتى بها في الغالب في المعاني المحتملة الوقوع

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٧، البحر المحيط ٦ / ٣٣٩.

(٢) التفسير الكبير ـ المجلد الثامن ١٨٥.

والمشكوك في حصولها والموهومة والنادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى[١]. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٢].

وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

و(الحدب): ما ارتفع وغلظ من الأرض[٢].

(ينسلون): يسرعون.

وقال: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ بجماعة الذكور لأن المراد بذلك أفرادهم.

* * *

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

﴿ٱقْتَرَبَ﴾ أبلغ في القرب من (قرب)[٣] فإن افتعل أبلغ من (فعل) كصبر واصطبر، وكسب واكتسب.

﴿فَإِذَا﴾

الفاء واقعة في جواب الشرط، و(إذا) للمفاجأة.

---

(١) انظر معاني النحو ٤ / ٥٩ وما بعدها.
(٢) لسان العرب (حدب).
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٣٩.

والفاء وإذا كل منهما يقع جوابًا للشرط .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] .

وقال : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم : ٣٦] .

و(إذا) في الآيتين جواب للشرط .

فإذا اقترنت الفاء بإذا الفجائية كان ذلك آكد . جاء في (الكشاف) : «و(إذا) هي إذا المفاجأة ، وهي تقع في المجازاة سادّة مسدّ الفاء . . . فإذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد» (١) .

و(هي) : ضمير القصة أو ضمير الشأن ، ويسمى ضمير القصة إذا كان ما بعدها مؤنثًا . جاء في (البحر المحيط) : «وضمير (هي) للقصة كأنه قيل : فإذا القصة والحادثة أبصار الذين كفروا شاخصة» (٢) .

وضمير القصة إنما يؤتى به في مواطن التفخيم والتعظيم . فإنه لم يقل : (فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة) بل جاء بضمير الشأن لتفخيم الأمر وتعظيمه ، فإن الموقف غير مألوف وهو أمر عظيم وأحداثه عظيمة .

و﴿ شَاخِصَةٌ ﴾ أي لا تطرف أجفانها «والشخوص إحداد النظر دون أن يطرف» (٣) .

وقال : ﴿ شَاخِصَةٌ ﴾ بالاسم لأن ذلك يدل على ثبات الحال ودوامها .

وقدم الخبر ﴿ شَاخِصَةٌ ﴾ على المبتدأ (أبصار) ولم يقل : (فإذا هي أبصار الذين كفروا شاخصة) للاهتمام وتعظيم الأمر .

وقوله : ﴿ يَا وَيْلَنَا ﴾ مقول لقول محذوف ، أي : يقولون يا ويلنا .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٧ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٣٩ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٠ .

وحذف فعل القول ليكون ذلك مشهدًا حاضرًا مشاهدًا محسوسًا وليس نقلاً عنه ، فكأننا نشاهدهم ونسمع قولهم .

﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

أي كنا ساقطين في الغفلة تحيط بنا من كل جانب ، فإن (في) تفيد الظرفية . جاء في : (التحرير والتنوير) : «ودلت (في) على تمكن الغفلة منهم حتى كأنها محيطة بهم إحاطة الظرف بالمظروف» [١] .

وقال : ﴿ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ فجاء بـ (من) ولم يقل : (في غفلة عن هذا) للدلالة على أن الغفلة ابتدائية لازمة لهم لا عارضة ، أي هم في غفلة دائمة .

أما (عن) فللمجاوزة ، قال تعالى : ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٢] فقال : ﴿ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ ﴾ فجاء بـ (عن) التي تفيد المجاوزة للدلالة على أن الغفلة عارضة ، فهم قد استعدوا للقتال ومعهم أسلحتهم فود الذين كفروا لو يغفلون عنها ، بخلاف قوله : ﴿ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ فإن الغفلة هنا لازمة ، وأنهم لم يستعدوا للآخرة[٢] .

وجاء بـ (قد) الدالة على التحقيق والتأكيد .

قد تقول : لقد قال هنا : ﴿ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾

وقل في (ق) : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ [ق : ٢٢] .

فقال في آية الأنبياء : (قد) .

وقال في آية (ق) : (لقد) بإدخال اللام على (قد) .

---

(١) التحرير والتنوير ١٧ / ١٥١ .

(٢) انظر معاني النحو ـ باب حروف الجر (من) ٣ / ٦٩ .

فلم ذاك؟

والجواب: إن هذه اللام الداخلة على (قد) هي اللام الواقعة في جواب القسم زيادة في التوكيد، ذلك أن الموقف في سياق آية الأنبياء إنما هو في اقتراب الوعد الحق وليس في حصوله، فهو في علامات الساعة.

وأما ما في (ق) فهو بعد مجيء الساعة وهو من أحداث القيامة. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ [ق: ٢٠ ـ ٢٢].

فهو في أحداث القيامة فناسب التأكيد.

﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾

«إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة، أي لم نكن في غفلة منه حيث نُبهنا عليه بالآيات والنذر، بل كنا ظالمين بترك الآيات والنذر مكذبين بها، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب» (١).

لقد قال هنا: ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ من دون توكيد.

في حين قال في آية أخرى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بالتوكيد.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦].

فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بالتوكيد، ذلك أن هذه الآية في مسّهم شيء من العذاب، في حين لم يذكر وقوع شيء من العذاب عليهم في الآية الأخرى، فناسب التوكيد في موضعه دون الآية الأخرى.

---

(١) روح المعاني ١٧ / ٩٣.

ونحو ذلك قوله تعالى في آية أخرى من سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾ فأكد ذلك بإن وذلك بعد وقوع العذاب.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ﴾ فأكد بإن وذلك عند وقوع العذاب. قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

ونحوه قوله في سورة القلم: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وذلك بعد أن أهلك الله جنتهم وأبادها فأصبحت كالصريم بعد أن حرموا منها المساكين.

فالتأكيد إنما يكون بحسب ما يقتضيه المقام.

وهذا من دقيق مراعاة المقام على تباعد المواطن.

إن هذه الآية فيها حشد من الفن كثير، من ذلك:

١ ـ أنه قال: ﴿ٱقْتَرَبَ﴾ وهو آكد وأبلغ من قرب.

٢ ـ وقال: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ ولم يقل: (واقترب الأمر الحق) لأن هذا مما وعدتهم بهم الرسل وذكرته لهم. ولو قال: (الأمر الحق) لم يدل على أن هذا مما وعدوا به.

٣ ـ ووصف الوعيد بأنه الحق للدلالة على أنه وحده الحق، وأن كل وعد يخالفه باطل.

٤ ـ وقال: (فإذا) فجاء بفاء الجواب و(إذا) الفجائية للدلالة على تأكيد الأمر.

٥ ـ وقال: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ ولم يقل: (فهي شاخصة) للدلالة على سرعة حدوث الأمر.

٦ ـ وجاء بضمير القصة فقال: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ للدلالة على تعظيم الأمر وتفخيمه.

٧ ـ وقدم الخبر على المبتدأ فقال: ﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للاهتمام.

٨ ـ وقال: ﴿شَاخِصَةٌ﴾ بالاسم للدلالة على ثبوت ذلك، ولم يقل: (تشخص).

٩ ـ وقال: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ فحذف فعل القول، ولم يقل: (يقولون) للدلالة على أن هذا الأمر مشاهد مرئي.

١٠ ـ وقال: ﴿قَدْ كُنَّا﴾ بذكر ﴿قَدْ﴾ للتحقيق والتوكيد.

١١ ـ وقال: ﴿قَدْ كُنَّا﴾ ولم يقل: (لقد كنا) كما قال في (ق) ذلك أن آية الأنبياء في اقتراب الوعد الحق، وآية (ق) في أحداث القيامة وحصول الوعد الحق.

١٢ ـ وقال: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ ولم يقل: (غافلين) للدلالة على السقوط في الغفلة وإحاطتها بهم.

١٣ ـ وقال: ﴿مِنْ هَذَا﴾ للدلالة على أن الغفلة ابتدائية لازمة.

١٤ ـ وقال: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فذكر صفة الظلم بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

١٥ ـ وقال: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ولم يقل: (إنا كنا ظالمين) لأنه

لم يذكر وقوع العذاب عليهم.

في حين قال في مواطن أخرى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فأكد الظلم لوقوع العذاب عليهم فصرحوا بالظلم المؤكد.

إلى غير ذلك من الأمور البيانية.

* * *

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾

الخطاب صالح لمن تقدم من الذين كفروا الذين قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

فقال لهم ربهمّ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ويصلح أن يكون خطابًا لقوم الرسول الذين يعبدون ما يعبدون من دون الله.

وهذه عاقبة كل من كان كذلك.

والحصب: ما يحصب به، أي ما يرمى به، من (حَصَبَه) إذا رماه بالحصباء وهو الحصا والحجارة. قال تعالى في قوم لوط: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

وقال: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧] والحاصب: هو الريح العاصف فيها حصا وحجارة.

وحصب جهنم: ما يرمى به في نار جهنم، جاء في (تفسير أبي السعود): «الحصب ما يرمى به ويهيج به النار، من حصبه إذا رماه بالحصباء»[1].

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٨ وانظر البحر المحيط ٦ / ٣٤٠.

جاء في (لسان العرب): «وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به، ولا يكون الحصب حصبًا حتى يسجر به. [وقيل]: الحصب: الحطب الذي يلقى في تنور أو في وقود، فأما ما دام غير مستعمل للسجور فلا يسمى حصبًا»[(١)]. فهم وما يعبدون من دون الله يحصب بهم في نار جهنم.

﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾

أي داخلون. وأصل التعبير (أنتم واردونها) والضمير (ها) مفعول به لاسم الفاعل.

قدم المفعول به على اسم الفاعل للاختصاص فصار (أنتم إياها واردون)، وجيء باللام لتقدم المفعول على عامله اسم الفاعل نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥].

أي حافظون فروجهم.

وهذه اللام تسمى اللام المقوية، أي مقوية للعامل الذي تأخر وهو هنا اسم الفاعل.

وقد رجحنا في كتابنا: (معاني النحو) أنها مقوية لمعنى الاختصاص وتوكيده[(٢)]. أي أنتم تردونها لا تردون غيرها.

وجاء باسم الفاعل للدلالة على ثبات ذلك فكأن الأمر قد حصل.

لقد أكد الجزء الأول من الآية بـ (إن) فقال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

ولم يؤكد الجزء الثاني منها وهو قوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

---

(١) لسان العرب (حصب).

(٢) انظر معاني النحو - باب حروف الجر (اللام) ٣ / ٦٣.

وذلك أن الجزء الأول أدعى إلى التوكيد ، فإنه ذكر أنهم وما يعبدون من دون الله يرمى بهم في جهنم .

وأما الجزء الثاني من الآية فإنه ذكر فيه أنهم لها واردون، أي داخلون.

و(ورد) معناها (دخل) ومعناها أيضًا : وصل إلى المورد من غير دخول كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ فإنه وصل إلى الماء ولم يدخله .

فالجزء الأول أصعب وأشد وأشق ، وذلك أنه جعلهم حصب جهنم ، أي حطبًا يرمى به في النار ، فأكد الجزء الأول لأنه أشد وأشق ، فهما ليسا بمنزلة واحدة ، فأكد ما هو أدعى إلى التوكيد .

* * *

﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

الإشارة بـ (هؤلاء) إلى ما يعبد من دون الله ، وقد ذكرها ربنا عما قريب فكانت الإشارة بما يدل على القرب .

كما هو إشارة إلى ما يعبده قومه ﷺ من كفار قريش .

وهذا غاية في الاحتجاج على ضعف معبوديهم وهوانهم ، وعلى أنهم أنأى شيء عن أن يكونوا آلهة .

﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أي كل من العابدين والمعبودين باقون فيها أبدًا .

وقدم (فيها) للقصر ، أي باقون فيها حصرًا وليس في مكان آخر .

فهم (لها واردون) لا يردون غيرها .

وهم (فيها خالدون) وليس في مكان آخر .

* * *



﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

الزفير: إخراج النَّفَس من الرئتين، وقد يكون ذلك أحيانًا من الغم أو أن له علاقة به. جاء في (لسان العرب): «الزفر والزفير أن يملأ الرجل صدره غمًّا ثم هو يزفر به»(١).

وفي (تفسير أبي السعود): «(زفير) أي أنين وتنفس شديد»(٢).

وفي (البحر المحيط): «﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وهو صوت نفس المغموم يخرج من القلب»(٣).

لقد ذكر في هذه الآية الزفير ولم يذكر الشهيق، وفي آية أخرى ذكر الزفير والشهيق، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

وقد بينا ذلك في تفسيرنا لسورة هود حين عرضنا لتفسير الآية التي ذكرناها فلا نعيد القول فيه(٤).

* * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

(الحسنى) مؤنث الأحسن وهي الصيغة العليا في التفضيل، وهي «إما السعادة وإما البشرى بالثواب وإما التوفيق للطاعة»(٥).

---

(١) لسان العرب (زفر).
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٨.
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٠.
(٤) على طريق التفسير البياني ٣ / ٣٢٠.
(٥) الكشاف ٢ / ٣٣٨ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٩.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴾

قال: (مبعدون) ولم يقل: (بعيدون عنها) إذ لا يبعد عنها إلا من أبعده الله عنها، ولا ينجو منها إلا من نجاه الله كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢].

فقال: (ننجي) ولم يقل: (ينجو).

وكما قال: ﴿ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٨].

فقال: (يجنّبها) ولم يقل: (يتجنبها).

وقدم (لهم) على الفاعل وهو (الحسنى) لأن الكلام عليهم وللزيادة في إكرامهم وتبشيرهم بما ذكر.

﴿ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ ﴾:

«أي لا يسمعون صوتها سمعًا ضعيفًا كما هو المعهود عند كون المصوت بعيدًا... (والجملة) مسوقة للمبالغة في إنقاذهم منها» (١).

مما يدل على أنهم في غاية الإبعاد عنها بتوفيق الله وطاعته أعاذنا الله منها.

﴿ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾

وهذا فوز آخر، والفوز الأول إبعادهم عن النار وذلك فوز مبين كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٥ ـ ١٦].

---

(١) تفسير أبي السعود ٣/ ٧٢٩.

وقال: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩].

جاء في (تفسير أبي السعود): «﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بيان لفوزهم بالمطالب إثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب، أي دائمون في غاية التنعم. وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به» (١).

إن هناك نوعين من اشتهاء الأنفس:

اشتهاءً ثابتًا وهو الخلود في النعيم.

واشتهاءً متجددًا وهو ما يطلبونه ويتمنونه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]، وقوله: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١]، وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] أي ما تطلبون، فلهم ما تشتهي أنفسهم من الأشياء الثابتة والمتجددة.

فعبر عن الاشتهاء الثابت بالفعل الماضي لأن هذا مما استقر في النفوس.

وعبر عن الاشتهاء المتجدد بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد.

* * *

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

إن الفزع الأكبر قيل هو «النفخة الأخيرة لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٢٩.



ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل : ٨٧]» [١] .

وقيل هو يوم القيامة بجملته .

جاء في (البحر المحيط) : «الفزع الأكبر عام في كل هول يكون يوم القيامة ، فكان يوم القيامة بجملته هو الفزع الأكبر» [٢] .

وقيل هو «بيان لنجاتهم من الأفزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار ؛ لأنهم إذا لم يحزنهم أكبر الأفزاع لا يحزنهم ما عداه بالضرورة» [٣] .

﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالسلام عليهم وتبشيرهم بالجنة وتهنئتهم .

﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ الإشارة بالقريب لأن اليوم حاضر .

«وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلة فيه» [٤] .

ومن النظر في الآيات التي ذكرها في الكافرين والمؤمنين تتبين مقابلات عديدة منها :

١ ـ أنه قال في الكافرين إنهم حصب جهنم هم لهم واردون .

وقال في المؤمنين إنهم عنها مبعدون .

فأولئك حصب جهنم هم لها واردون .

وهؤلاء عنها مبعدون .

وكلٌ منهما قدم فيه الظرف فقال في الكافرين : ﴿لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ .

وقال في المؤمنين : ﴿عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٨.

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٢.

(٣) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٠ .

(٤) التحرير والتنوير ١٧ / ١٥٧ .



وهو تناظر جميل.

٢ ـ وقال في الكافرين: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾

وقال في المؤمنين: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾

وفرق عظيم بين عدم السماعين.

ثم إن المؤمنين لا يسمعون حسيسها وإنما يسمعون البشرى حين تتلقاهم الملائكة وتقول لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

٣ ـ وذكر أن للكافرين غمًّا وزفيرًا ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾.

وأن المؤمنين فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

فأولئك في الغم يتحسرون ويزفرون ،

وهؤلاء فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

٤ ـ ثم إن أولئك في جهنم خالدون كما قال سبحانه: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

وهؤلاء فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

٥ ـ إن الكافرين يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ ، فهم في حزن مما هم فيه يدعون بالهلاك.

وهؤلاء لا يحزنهم الفزع الأكبر.

وكلتا الحالتين في الموقف.

٦ ـ إن الكافرين كانوا في غفلة وكانوا ظالمين.

وهؤلاء سبقت لهم منه الحسنى سبحانه بطاعتهم له كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣ ـ ٦٤].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨].

وغير ذلك.

* * *

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يحتمل أن يكون (يوم) متعلقًا بـ (يحزنهم) فيكون التقدير: لا يحزنهم يوم نطوي السماء الفزع.

أو متعلقًا بالفزع، فيكون التقدير: لا يحزنهم الفزع يوم نطوي السماء، على معنى: الفزع يوم نطوي السماء لا يحزنهم، أو بـ (تتلقاهم) أي تتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء.

وكل ذلك حاصل في ذلك اليوم.

جاء في (الكشاف): «العامل في (يوم نطوي) لا يحزنهم، أو الفزع، أو تتلقاهم»(١).

﴿ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾

يحتمل أن يكون معنى (السجل): الصحيفة، وأن يكون الكاتب، فالسجل يطلق على الكتاب والكاتب(٢).

فعلى معنى الصحيفة يكون المعنى: نطوي السماء كما تطوى الصحيفة التي يكتب بها.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٨.

(٢) انظر لسان العرب (سجل)، القاموس المحيط (سجل)، وانظر نظم الدرر ١٢/ ٤٨٧.

وعلى معنى الكاتب يكون المعنى : كما يطوي الكاتب الصحيفة .

والصحيفة إنما يطويها الكاتب .

لعله ذكر السجلّ ليشمل المعنيين : الكتاب والكاتب ، والله أعلم .

جاء في (تفسير أبي السعود) : «﴿ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ اللام في قوله تعالى : (للكتب) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفة له . . . أي كطي السجل كائنًا للكتب أو الكائن للكتب ، فإن الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها» [1] .

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾

أي نعيده كما بدأنا أول خلقه .

جاء في (البحر المحيط) : «و(أول خلق) مفعول (بدأنا) والمعنى : نعيد أول خلق إعادة مثل بدأتنا له ، أي كما أبرزناه من العدم إلى الوجود نعيده من العدم إلى الوجود» [2] .

ويحتمل أن يكون المعنى : نعيده كما بدأناه أول خلقه .

فعلى التقدير الأول يكون (أول) مفعولاً به كما مر .

وعلى التقدير الثاني يكون (أول) ظرفًا ، و(ما) اسمًا موصولاً ، والعائد محذوف. جاء في (الكشاف) : «ووجه آخر وهو أن ينتصب الكاف بفعل مضمر يفسره (نعيده) ، و(ما) موصولة ، أي نعيد مثل الذي بدأناه نعيده ، و(أول خلق) ظرف لبدأنا ، أي أول ما خلق ، أو حال من ضمير الموصول الساقط من اللفظ ، الثابت في المعنى» [3] .

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٠ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٣ .

(٣) الكشاف ٢ / ٣٣٩ .

﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾

أي حقًّا علينا(١)

قد تقول: لقد قال هنا: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾.

وقد يقول أحيانًا ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ فيذكر كلمة (حق) إضافة إلى قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ﴾، فما السبب؟

فنقول: إنه يذكر الحق عندما يتعلق الأمر بالناس وحقوقهم وأمورهم، وإذا كان المقام يقتضي التوكيد. قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

لقد ذكر في الآية حقوق البائعين أنفسهم وأموالهم، كما أن فيها من التوكيد ما لا يخفى كقوله: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾

فناسب ذكر الحق.

وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٨ ـ ٣٩].

فقال: (حقًّا) لأن ذلك إنما يتعلق بأمور الناس أجمعين فيعطي كل ذي حق حقه.

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٩٢.

ثم ذكر أن هذا ما أقسموا عليه بالله جهد أيمانهم فأكدوا ذلك بالقسم وبقوله: ﴿ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾.

فرد عليهم بما هو مؤكد فقال: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾.

ثم ذكر أنه ليبين الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وهذا إنما يكون في الآخرة في يوم الفصل في الحقوق، فناسب ذكر الحق.

﴿ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

لقد جاء بالفعل الماضي (كنا)، وباسم الفاعل (فاعلين) ولم يقل: (سنفعل ذاك).

وذلك لتنزيل المستقبل منزلة الماضي، كقوله سبحانه: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾، وقوله: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾.

وجاء باسم الفاعل للثبوت لأنه كأن الأمر قد حصل.

فأكد بإن، وجاء بالفعل الماضي واسم الفاعل كل ذلك لتأكيد حصوله.

جاء في (روح المعاني): «الأفعال المستقبلة التي علم الله تعالى وقوعها كالماضية في التحقق، ولذا عبر عن المستقبل بالماضي في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز.

أو قادرين على أن نفعل ذلك» [١].

قد تقول: لقد قال في هذه الآية: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ ﴾ فذكر السماء بالإفراد.

---

(١) روح المعاني ١٧ / ١٠٣.

وذكر في موضع آخر طي السماوات بالجمع فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فما الفرق؟

فنقول: إن آية الزمر في الرد على المشركين الذين لم يقدروا الله حق قدره، فرد عليهم ربنا بأن الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة، وأكد ذلك بالحال المؤكدة فقال: (جميعًا).

وذكر السماوات وقال إنها مطويات بيميه بيانًا لقدرته التي لم يقدروها حق قدرها ولم يقدروه حق قدره.

ثم نزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

وليس الأمر كذلك في الأنبياء.

فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه.

* * *

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

* * *

الظاهر أن المقصود بالزبور كتاب داود عليه السلام، وأن المقصود بالذكر هنا التوراة.

وقد سماها القرآن ذكرًا كما سمى غيرها مما أنزله ربنا على رسله، فقد قال نوح لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

ونحو ذلك قال هود لقومه (الأعراف: ٦٩).

وقال في التوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

والقرآن ذكر وذو الذكر وهو الذكر. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وقال: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

كما أن الزبور معناه الكتاب وجمعه زُبُر. قال تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

وقال: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] أي مدوّن مكتوب في الصحف.

إلا أن الذي يظهر أن المقصود بالزبور والذكر في الآية ما ذكرناه من زبور داود والتوراة، وإن كان قسم من المفسرين يرى أن المقصود بالزبور والذكر عموم ما أنزل الله من الكتب.

وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالذكر هواللوح المحفوظ والله أعلم.

جاء في (الكشاف): «زبور داود عليه السلام، والذكر: التوراة، وقيل: اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء من الكتب.

والذكر: أم الكتاب، يعني اللوح»[١].

وجاء في (البحر المحيط): «الزبور: الظاهر أنه زبور داود. وقاله الشعبي. ومعنى هذه الآية موجود في زبور داود وقرأناه فيه»[٢].

وقرأنا في التوراة نحو ذلك المعنى من أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون. فمما ورد فيها في أشعيا في الإصحاح الستين: «كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك... وتنفتح أبوابك دائمًا نهارًا وليلاً لا تغلق. وشعبك كلهم أبرار إلى الأبد يرثون الأرض».

وهذا النص واضح أنه في مكة وفي الكعبة تحديدًا.

وقيدار ونبايوت من أولاد إسماعيل.

وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في كتابنا (نبوة محمد من الشك إلى اليقين).

* * *

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾

أي إن في هذا الذي ذكرناه كفاية لقوم اتصفوا بالعبادة على جهة الثبوت، فإن هذا كاف لهم.

وقيل: إن المقصود هو ما ورد في القرآن على العموم وليس ما في هذه السورة فقط.

والبلاغ قد يأتي بمعنى الكفاية، وقد يأتي بمعنى التبليغ[٣]، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقوله: ﴿وَمَا

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٩ وانظر التفسير الكبير للرازي ٨ / ١٩٢.
(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤.
(٣) انظر (لسان العرب): بلغ.

عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [يس: ١٧].

وربما احتمل البلاغ في الآية المعنيين: الكفاية والتبليغ.

وقد أكد ذلك بـ(إن) وجاء بـ(في) الظرفية للدلالة على أن العابدين يكفيهم في الاعتبار ما لا يكفي غيرهم.

جاء في (البحر المحيط): «(إن في هذا) أي المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة لبلاغًا كفاية يبلغ بها إلى الخير، وقيل: الإشارة إلى القرآن جملة» (١).

وجاء في (تفسير أبي السعود): «(لقوم عابدين): أي لقوم همهم العبادة دون العادة» (٢).

* * *

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

أي هو رحمة للعالمين جميعًا. أي إن الغرض من رسالته ﷺ هو الرحمة بالناس أجمعين، فآمن من آمن وأعرض من أعرض.

ولما كانت رحمته سبحانه وسعت كل شيء ذكر العالمين على العموم.

جاء في (البحر المحيط): «وكونه عليه السلام رحمة لكونه جاء بما يسعدهم.

و(للعالمين) قيل: خاص بمن آمن به، وقيل: عام... أي هو رحمة في نفسه وهدى بيّن، أخذ به من أخذ وأعرض عنه من أعرض» (٣)

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣١.
(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤.

وجاء في (تفسير أبي السعود): «أي ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل إلا لرحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة... فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين» [1].

* * *

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يحتمل أن تكون (ما) في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ كافة، و(إنما) تفيد الحصر.

كما يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولاً، أي إن الذي يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد.

وعلى الاحتمال الأول يكون المعنى أنه لا يوحى إليّ إلا التوحيد. واعترض على هذا القول بأن الوحي لم يقتصر على التوحيد وإنما هو في أمور كثيرة من مطالب الشريعة.

وأجيب بأن التوحيد هوالمقصود الأول من الرسالة.

وعلى الاحتمال الثاني يكون المعنى ظاهرًا وهو أن الذي يوحى إليه أنه لا إله إلا إله واحد وليست آلهة متعددة.

ولا يعني هذا الوجه أن الوحي مقصور على هذا، وإنما هذا ما أوحي إليه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١].

فهذا ما أوحي إليه وليس الوحي مقصورًا على هذا.

جاء في (الكشاف): «(إنما) لقصر الحكم على شيء، أو لقصر

---

(١) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣١ ـ ٧٣٢.

الشيء على حكم ، كقولك : (إنما زيد قائم) و(إنما يقوم زيد) وقد اجتمع المثالان في هذه الآية ؛ لأن ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مع فاعله بمنزلة : إنما يقوم زيد ، و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ بمنزلة : إنما زيد قائم .

وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية . . .

ويجوز أن يكون المعنى : أن الذي يوحى إلي ، فتكون (ما) موصولة» [1] .

وجاء في (تفسير أبي السعود) : «أي ما يوحى إليّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد لأنه المقصود الأصلي من البعثة . وأما ما عداه فمن الأحكام المتفرعة عليه ، فإنما الأولى لقصر الحكم على الشيء كقولك : (إنما يقوم زيد) أي ما يقوم إلا زيد ، والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك : (إنما زيد قائم) أي ليس له إلا صفة القيام» [2] .

وردّ أبو حيان على هذا الاحتمال بقوله : «ولو كانت (إنما) دالة على الحصر لزم أن يقال : إنه لم يوح إليه شيء إلا التوحيد ، وذلك لا يصح الحصر فيه ، إذ قد أوحى له أشياء غير التوحيد . . .

ويجوز في (ما) من (إنما) أن تكون موصولة» [3] .

وقد يقال : إن المقصود إنه في مسألة التوحيد ما أوحي إليّ إلا أنما إلهكم إله واحد .

فتخصيص الوحي بما يتعلق بالتوحيد نظير قوله تعالى : ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٦ .

(٢) تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٢ .

(٣) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤ .

﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٧٠] أي فيما يتعلق بهذا الأمر وليس فيما أوحي إليه كله.

وعلى كل ففي التقدير الأول مندوحة وفي كلٍّ سعة.

قد تقول: لقد قال في سورة الكهف: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية الأنبياء.

ثم إن تمام كل من الآيتين مختلف.

فقد قال في آية الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

وقال في آية الأنبياء: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

فما سبب الاختلاف؟

فنقول:

أما عدم ذكر أنه بشر مثلهم في آية الأنبياء فلأنه تقدم هذا المعنى في أول السورة وقد ذكر المشركون ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾

وقرر ربنا هذا المعنى بعد هذه الآية فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾

فاكتفى بما مر ذكره.

بخلاف سورة الكهف فإنه لم يذكر فيها هذا المعنى فذكره في الآية، فناسب كل تعبير موضعه.

جاء في (ملاك التأويل) في بيان هذا الأمر: «أنه لما تقدم في أول سورة الأنبياء إثبات كون الرسل عليهم السلام من البشر فيما حكاه تعالى من قول الكفار بعضهم لبعض: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ، ثم قال تعالى: رادًّا لقولهم مثبتًا كون الرسل من البشر: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ .

ثم تتابع في السورة ذكر الرسل من البشر في عدة مواضع إفصاحًا وإشارة ، آخرها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ، والخطاب لنبينا عليه السلام ، قال تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ، فلم يحتج هنا أن يذكر كونه ـ عليه السلام ـ من البشر إذ قد توالى ذكر ذلك جملة وتفصيلاً .

أما سورة الكهف فلم يتقدم فيها مثل هذا ، فكان مظنة الإعلام بكونه ﷺ من البشر إرغامًا لأعدائه ، ولما في ذلك من تلطفه تعالى بالخلق ورحمته إياهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

فكون الرسل من البشر من أعظم إنعامه سبحانه على الخلق .

وخصت آية الكهف بذكر بشريته عليه السلام لما بيناه .

وورد كل ذلك على ما يناسب ، ولم يكن عكس الوارد ليناسب .

والله أعلم بما أراد» (١) .

وأما قوله تعالى في آية الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا

---

(١) ملاك التأويل ٢ / ٦٥٦ .

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ، فقد ذكر فيه أمرين: العمل الصالح ، وعدم الشرك .

أما قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فهو مناسب لما تقدم الآية من ذكر العمل الصالح ، فقد قال قبل الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾

وقال قبلها في خواتيم السورة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾

فناسب ذكر العمل .

ثم إن هذا مناسب لما تقدم في أول السورة وهو قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ .

فناسب ذلك السياق الذي وردت فيه الآية كما ناسب أول السورة . وليس في آية الأنبياء نحو ذلك .

وأما قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ فهو مناسب لقوله في أواخر السورة: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ ، وهو تحذير لمن أشرك بعبادة ربه واتخذ عباده من دونه أولياء .

ومناسب لما ورد في أول السورة وهو قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ .

ومناسب لما ورد في أول السورة في قصة أصحاب الكهف وإيمانهم بالله وحده وكفرهم بما أشرك قومهم . فقد قال تعالى فيهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ .

فناسب ذلك ما ورد في سياق الآية وما ورد في أول السورة .

وليس في آية الأنبياء مثل هذا .

وأما قوله سبحانه في آية الأنبياء : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهو مناسب لقوله في الآية قبلها : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ .

وقد أرسله ربه بالإسلام كما هو معلوم .

ومناسب لقوله سبحانه في أول السورة : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

وهذا الكتاب هو القرآن وهو كتاب المسلمين كما هو معلوم .

فناسب قوله : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ سياقه وما ورد في أول السورة ، فناسب كل تعبير موضعه الذي ورد فيه .

وقوله : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ «استفهام يتضمن الأمر بإخلاص التوحيد والانقياد إلى الله تعالى» (١) .

وجاء في (الكشاف) : «وفي قوله : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أن الوحي الوارد على هذا السنن موجب أن تخلصوا التوحيد لله وأن تخلعوا الأنداد» (٢) .

* * *

---

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٣٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٩ .

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم. ويتضمن الفعل معنى التحذير والإنذار.

وقوله: (على سواء) يعني أعلمتكم جميعًا لم أستثن أحدًا منكم، بل أعلمتكم كلكم.

فقد حذرهم وأنذرهم كلهم مغبة توليهم.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني أنه لا يعلم متى سيقع ما حذرهم منه أهو قريب أم بعيد، ولكنه واقع لا محالة. فقد نفى عن نفسه العلم بموعد وقوعه.

وقوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ يدل على أنه وعدهم ما يسوؤهم من غلبة المسلمين عليهم وما يلحقهم من عذاب في الدنيا والآخرة.

وجاء بالفعل المضارع (توعدون) ولم يقل: (ما وعدتم) للدلالة على تكرار الوعيد والإنذار والاستمرار في ذلك.

جاء في (الكشاف): «(آذن) منقول من (أذن) إذا علم، ولكنه كثر استعماله في الجري مجرى الإنذار، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. . .

والمعنى: أني بعد توليكم وإعراضكم عن قبول ما عرض عليكم من وجوب توحيد الله. . . كرجل بينه وبين أعدائه هدنة فأحسّ منهم بغدرة فنبذ إليهم العهد وشهر النبذ وأشاعه وآذنهم جميعًا بذلك.

(على سواء) أي مستوين في الإعلام به، لم يطوه عن أحد منهم وكاشف كلهم. . .

(ما توعدون) من غلبة المسلمين عليكم كائن لا محالة، ولا بد من

أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار وإن كنت لا أدري متى يكون ذلك ؛ لأن الله لم يعلمني علمه ولم يطلعني عليه» [١] .

وجاء في (البحر المحيط): «(آذنتكم): أعلمتكم ، وتتضمن معنى التحذير والنذارة ، (على سواء) لم أخص أحدًا دون أحد» [٢] .

و«(ما توعدون) من غلبة المسلمين عليكم وظهور الدين أو الحشر مع كونه آتيًا لا محالة» [٣] .

لقد نفى علمه بـ (إنْ) ولم ينفه بـ (ما) ، فلم يقل: (وما أدري) ذلك أن (إنْ) آكد في النفي من (ما) فإن ذلك مختص علمه بالله .

قد تقول: ولكنه نفى الدراية عن نفسه بـ (ما) في موضع آخر فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ [الأحقاف: ٩] .

فنقول: إن ذلك بحسب الدراية ، فإن كانت الدراية أبعد في عدم العلم نفاها بـ (إنْ) .

وآية الأنبياء أبعد في عدم الدراية من آية الأحقاف «فقد أطلع الله رسوله فيما بعد على ما سيفعله به وبهم في الدنيا والآخرة ، فقد وعده بالفتح والنصر والمغفرة وكسر شوكة الكفر في الدنيا ، وأطلعه على ما سيفعله به وبهم في الآخرة ، ولذلك قيل: الآية منسوخة[٤] .

في حين لم يطلع الله سبحانه رسوله ولا أحدًا من خلقه على موعد يوم القيامة ، فإن هذا مما اختص الله به نفسه ، ولم يظهره لأحد غيره. فأكد

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٩ .
(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٤٤ .
(٣) روح المعاني ١٧ / ١٠٧ .
(٤) انظر الكشاف ٣ / ١١٨ .

عدم العلم بالساعة بـ (إنْ) والآخر بـ (ما)»[١].

فاتضح الفرق.

* * *

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

لقد خصص ذكر الجهر بالقول فقال: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ لأن الجهر قد يكون في غير القول. فقد يكون الجهر بما يدرك بالبصر، قال تعالى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ [الأنعام: ٤٧].

جاء في (المفردات في غريب القرآن): «(جهر) يقال لظهور الشيء بإفراد حاسة البصر أو حاسة السمع.

أما البصر فنحو (رأيته جهارًا)، قال الله تعالى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ . . .

وأما السمع فمنه قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾، وقال عز وجل: . . . ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ﴾»[٢].

وقد خصص الجهر بالقول في الآية لأن السياق في القول، فقد قال قبل الآية: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾

فالسياق كما هو ظاهر في التبليغ.

---

(١) معاني النحو ٤ / ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) مفردات الراغب (جهر).

لقد قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾

فأسند الكتمان إليهم ولم يسند الجهر إليهم، فلم يقل: (يعلم ما تجهرون من القول ويعلم ما تكتمون) وذلك لأن الجهر ليس خاصًّا بهم، فقد جهر الرسول بالقول وبلغهم وآذنهم على سواء فجهر بذلك.

وهم يجهرون بكفرهم فأطلقه.

وأما الكتمان فقد أسنده إليهم لأن الكلام عليهم، فهم الذين يكتمون في صدورهم ما يكتمون وما يضمرون من الحقد ونحوه.

جاء في (الكشاف): «والله عالم لا يخفى عليه ما تجاهرون به من كلام الطعانين في الإسلام، وما تكتمونه في صدوركم من الإحن والأحقاد للمسلمين، وهو يجازيكم عليه»(١).

قد تقول: ولكن قد يطلق الجهر والخفاء أحيانًا، وقد يضيفهما إلى المخاطبين.

فقد قال تعالى في سورة الأعلى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ فأطلق الجهر والخفاء.

وقال في موضع آخر: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣].

فأضاف السر والجهر إليهم فما الفرق؟

فنقول: إن كل تعبير مناسب لسياقه الذي ورد فيه.

أما آية الأعلى فإن الكلام فيها عام غير مقيد بالإنسان. قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٥].

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٩.

فليس الكلام على الإنسان أصلاً وإنما الكلام على الله سبحانه وصفاته.

ثم إنه أطلق الأفعال أيضًا. فقد قال: (خلق) ولم يخصص الخلق بشيء معين. وقال: (فسوى)، وقال: (والذي قدر) و(فهدى). وكلها أفعال مطلقة غير مقيدة.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ وليس ذلك في الكلام على الإنسان، وإنما هو كله في صفات الله سبحانه وقدرته، فأطلق الجهر والخفاء على العموم ولم يسنده أو يضفه إلى معين.

وأما آية الأنعام وهي قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فقد أضاف السر والجهر فيها إلى ضمير المخاطبين لأن الكلام على الإنسان.

فقد قال سبحانه قبل الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾

فالكلام كما هو واضح على الإنسان. وقد خاطبهم بذلك فناسبت الإضافة إليهم.

فكان كل تعبير مناسبًا لسياقه الذي ورد فيه.

وهذا ظاهر.

* * *

﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١١١﴾

أي «وما أدري لعل تأخير هذا الموعد امتحان لكم لينظر كيف تعملون، أو تمتيع لكم إلى حين ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الموعد

في وقت هو فيه حكمة»[(١)].

* * *

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

أي دعا الرسول بذلك فقال: ربّ احكم بالحق.

و(رب) منادى مضاف إلى ياء المتكلم، أي يا رب احكم على هؤلاء بالحق وعجل لهم العقوبة وشدد عليهم العذاب بما يستحقون ولا ترحمهم.

جاء في (الكشاف): «ومعنى (بالحق) لا تحابهم وشدد عليهم كما هو حقهم»[(٢)].

وجاء في (روح المعاني): «والحق: العدل، أي رب اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لتعجيل العذاب والتشديد عليهم، فهو دعاء بالتعجيل والتشديد وإلا فكل قضائه تعالى عدل وحق»[(٣)].

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ فيه وجوه: أحدها: أي رب اقض بيني وبين قومي بالحق، أي بالعذاب، كأنه قال: اقض بيني وبين من كذبني بالعذاب.

وقال قتادة: أمره الله تعالى أن يقتدي بالأنبياء في هذه الدعوة وكانوا يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٣٩.

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٩.

(٣) روح المعاني ١٧ / ١٠٨ وانظر تفسير أبي السعود ٣ / ٧٣٢.

وثانيها: افصل بيني وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرني عليهم»[١].

﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾

أضاف الرب إلى ضمير المؤمنين وجاء باسمه الرحمن، أي نستعين بربنا الرحمن ليرحمنا ويعيننا على ما تصفون.

وقرأ الأكثرون (قل) بالأمر[٢].

وأنزلت القراءتان مرة بالأمر ومرة بالفعل الماضي ليدل سبحانه على أنه أمر رسوله بالدعاء فدعا. والله أعلم.

﴿ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

يعني ما تذكرونه من الشرك والأباطيل ونحو ذلك مما يصفون الله به مما لا يليق به سبحانه.

وما يصفون به رسوله من صفات الاستخفاف والاستهزاء كوصفه بالجنون والكذب والسحر.

ويصفون به المؤمنين من صفات الاستهجان والاستهزاء بهم ووصفهم لهم بالضلال كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقالوا لهم: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧].

وقالوا: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك: ٩].

وكانوا يقولون إذا رأوا المؤمنين: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

---

(١) التفسير الكبير ٨ / ١٩٥.

(٢) انظر النشر في القراءات العشر ٢ / ٣٦٥.

ونحو ذلك من صفات الاستكبار والاستخفاف بهم.

وكانوا يطمعون أن يكون لهم النصر والغلبة وأن العاقبة لهم فخيب الله أملهم.

جاء في (الكشاف): «كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة، فكذب الله ظنونهم، وخيب آمالهم، ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين، وخذلهم»(١).

وجاء في (التفسير الكبير) للرازي: «أما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أي من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتي من الأباطيل والتكذيب. كأنه سبحانه قال: قل داعيًا لي: ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ وقل متوعدًا للكفار: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾...

أي قل لأصحابك المؤمنين: وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الأباطيل. أي من العون على دفع أباطيلهم.

وثانيها: كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله ﷺ والمؤمنين وخذلهم»(٢).

وقرئ: (على ما يصفون) وذلك ـ والله أعلم ـ ليذكر حالتين، حالة مواجهتهم فيقول لهم: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

وحال غيبتهم فيقول للمؤمنين: (وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون).

فجمع في القراءتين حالتي المواجهة والغيبة.

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٤٠.

(٢) التفسير الكبير ٨ / ١٩٦.

وقال: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بالفعل المضارع ولم يقل: (على ما وصفتم) بالفعل الماضي ؛ وذلك لأنهم يكررون الأوصاف ويذكرونها باستمرار.

إن هذه الآية فيها جانبان:

جانب يتعلق بالأشخاص.

وجانب يتعلق بالمعتقدات.

أما الجانب الأول فهو قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ فهو دعاء على الكافرين بأن يحكم عليهم بالعدل لا بالرحمة.

وأما الجانب الآخر فهو قوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فهو استعانة على معتقداتهم وما يصفونه على العموم.

وفي ختام السورة يحسن أن نشير إلى ارتباط خاتمة السورة بأولها كما أشرنا إلى ارتباط مفتتح السورة بخاتمة السورة التي قبلها، أعني سورة (طه) في مفتتح السورة فنقول:

إنه من النظر في أول السورة وخاتمتها يتضح أن بينهما مناسبة ظاهرة وارتباطاً بيناً.

فقد ابتدأت السورة باقتراب الحساب للناس وهو قوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

وختمت باقتراب الوعد الحق وأحداث الساعة وما بعدها إلى ورود النار أو دخول الجنة، ابتداء من قوله سبحانه: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وما بعد ذلك من الآيات.

وذكر الغفلة في أول السورة وذلك قوله: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

وقال في أواخرها: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

كأن ذلك تسلسل مشهد متصل[١] .

وهو شأن السور على العموم في التناسب بين المفتتح والخواتيم[٢] .

جاء في (نظم الدرر) : «فقد انطبق آخر السورة على أولها بذكر الساعة ردًّا على قوله : ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ وذكر غفلتهم وإعراضهم .

وذكر القرآن الذي هو البلاغ ، وذكر الرسالة بالرحمة لمن نسبوه إلى السحر وغيره ، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأولين وغير ذلك» [٣] .

* * *

---

(١) انظر كتابنا (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم) ٣٣ ـ ٣٤ .

(٢) انظر القسم الأول من كتابنا (التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم) .

(٣) نظم الدرر ١٢ / ٥١٥ .

مراجع الكتاب



- الإتقان في علوم القرآن **للسيوطي - ط٣/ ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م.**

- أسئلة بيانية في القرآن الكريم - **الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.**

- البحر المحيط **لأبي حيان، مطابع النصر الحديثة - المملكة العربية السعودية - الرياض.**

- البرهان في علوم القرآن **لبدر الدين الزركشي - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم - ط ١ / ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م - دار إحياء الكتب العربية.**

- البرهان في متشابه القرآن - **لمحمود بن حمزة الكرماني - دار الوفاء. ج. م. ع، ط ٢، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.**

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني - **الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥.**

- تاج العروس شرح القاموس **لمحمد مرتضىٰ الزبيدي - منشورات مكتبة الحياة - بيروت - تصوير على الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦ هـ.**

- التحرير والتنوير **لمحمد الطاهر بن عاشور - دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس.**

- التعبير القرآني - الدكتور فاضل صالح السامرائي - دار ابن كثير - سوريا - الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

- تفسير أبي السعود لأبي السعود بن محمد العمادي - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.

- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.

- التفسير الكبير للرازي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان ط ٤ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

- التناسب بين السور في المفتتح والخواتيم - د. فاضل صالح السامرائي - دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع - ط ١/ ١٤٣٢ هـ.

- الجملة العربية تأليفها وأقسامها - د. فاضل صالح السامرائي - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - عمان - الأردن - ط ١ / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل - مطبعة دار إحياء الكتب العربية.

- درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ١ / ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الآلوسي - إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي.

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار إحياء الكتب العربية.

- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبد الله الأزهري - دار إحياء الكتب العربية.

- شرح الرضي على الكافية - **تحقيق يوسف حسن عمر.**

- على طريق التفسير البياني - **د. فاضل صالح السامرائي - نشرته جامعة الشارقة - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.**

- فتح القدير **للشوكاني - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩ هـ.**

- الفروق اللغوية **لأبي هلال العسكري - تحقيق أبي عمرو عماد زكي البارودي - المكتبة التوفيقية - مصر.**

- القاموس المحيط **لمجد الدين الفيروزابادي - ط ٥ شركة فن الطباعة - مصر.**

- الكشاف عن حقائق التنزيل **لجار الله الزمخشري - مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م.**

- كشف المعاني في المتشابه من المثاني **لبدر الدين بن جماعة - تحقيق د. عبد الجواد خلف - دار الوفاء ط ١ ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م - مصر - المنصورة.**

- لسان العرب **لابن منظور - مصور على طبعة بولاق.**

- المصباح المنير **للفيومي - المكتبة العلمية - بيروت.**

- معاني النحو - **د. فاضل صالح السامرائي - مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر - الموصل ط ١ / ١٩٩١ م.**

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب **لابن هشام الأنصاري - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.**

- المفردات في غريب القرآن **للراغب الأصفهاني - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ط ١ / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.**

ـ ملاك التأويل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي ـ تحقيق الدكتور محمود كامل أحمد ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

ـ من أسرار البيان القرآني ـ د. فاضل صالح السامرائي ـ دار الفكر ـ عمان ـ الأردن ـ ط ٢ / ٢٠١٠م ـ ١٤٣١م.

ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ـ دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري ـ مطبعة مصطفى محمد بمصر.

* * *



فهرست سورة الأنبياء

* * *